المنظمة العربية للترجمة

كاترين كيربرات - أوريكيوني

المُضمَر

ترجمة

ريتا خاطر

بدعم من مؤسّسة محمد بن راشد آل مكتوم

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

المُضمَر

لجنة اللسانيات والمعاجم:

بسّام بركة (منسقاً)
حسن حمزة
سعد مصلوح
الطيّب البكّوش
علي أزرياح
سامي عطرجي

المنظمة العربية للترجمة

كاترين كيربرات - أوريكيوني

المُضمَر

ترجمة

ريتا خاطر

مراجعة

د. جوزيف شريم

بدعم من مؤسّسة محمد بن راشد آل مكتوم

الفهرسة أثناء النشر - إعداد المنظمة العربية للترجمة
كيربرات - أوريكيوني، كاترين
المُضمَر/ كاترين كيربرات - أوريكيوني؛ ترجمة ريتا خاطر؛ مراجعة جوزيف شريم.
699 ص. - (لسانيات ومعاجم)
بيبليوغرافيا: ص 663 - 686.
يشتمل على فهرس.
ISBN 978-9953-0-1293-3
1. التأويل. 2. الفقه المقارن. أ. العنوان. ب. خاطر، ريتا (مترجم). ج. شريم، جوزيف (مراجع). د. السلسلة.
401.41

Kerbrat-Orecchione, Catherine
L'Implicite

المنظمة العربية للترجمة
بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 5996 - 113
الحمراء - بيروت 2090 1103 - لبنان
هاتف: 753031 - 753024 (9611) / فاكس: 753032 (9611)
e-mail: info@aot.org.lb - http://www.aot.org.lb

توزيع: **مركز دراسات الوحدة العربية**
بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 6001 - 113
الحمراء - بيروت 2407 2034 - لبنان
تلفون: 750084 - 750085 - 750086 (9611)
برقياً: «مرعربي» - بيروت / فاكس: 750088 (9611)
e-mail: info@caus.org.lb - Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى: بيروت، كانون الأول (ديسمبر) 2008

المحتويات

مقدمة المترجمة

عندما أقدمتُ على ترجمة هذا الكتاب، كنتُ أعي حجم المغامرة التي أخوضها لأنّني كنتُ أتوقّع كمَّ الصعوبات التي ستعترِضُني بالرغم من أن الموضوع ليس غريباً عني، فما هو السَّبب الذي دفعني لاختيار هذا الموضوع على صعوبته؟ هما سببان بالأحرى، أوّلهما رغبتي المُستمرَّة في أن أرى العلوم تنطقُ باللّغة العربيّة، «لأنَّ الهوَّة بيننا وبين الدول المُتقدِّمة هي معرفيّة والتخلّف الذي نُعانيه قبل أن يكون اقتصادياً هو تخلُّف ثقافيّ ومعرفيّ، وقد أصبح اللُّهاث وراء المعرفة سمة العصر حتّى بين أكثر البلدان تقدُّماً»(*)؛ وثانيهما أنَّ إشكاليّة المحتويات المُضمَرة المزروعة في حنايا الكلمات والعبارات هي من الإشكاليّات الشائِكة التي تطالع المُترجم في طور عمليّة الترجمة. هذه الإشكاليّة هي عقبةٌ يتعثَّر بها المترجم، وعليه أن يتعلَّم كيف يتعرَّف إلى وجود المحتويات المُضمَرة في النصّ، لكي يتوصَّل إلى قهرها والتغلُّب عليها بدلاً من تجنُّبها، فإنَّ التنبُّه إلى المحتويات المُضمَرة يُساهم في تحسين أداء المُترجم ويخوِّله أن يقرأ بين السطور لفهم الرسالة التي يوجِّهها الكاتب، فينقلها بشكلٍ أفضل.

والحال أنَّنا نوارب عادةً في الكلام، فلا يقصد المتكلِّم دائماً ما يقوله حرفيّاً، ويذهبُ البعض حتّى إلى حدّ القول إنَّ المتكلِّم لا يقصد أبداً ما يقوله

[إن الهوامش المشار إليها بأرقام تسلسلية هي من وضع المؤلف. أما المشار إليها بعلامة (*) فهي من وضع المترجم].

(*) **الترجمة في الوطن العربي: نحو إنشاء مؤسسة عربية للترجمة: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2000).

حرفيّاً، فمثلاً، إذا أدلى شخصٌ ما بالقول التالي: «الحرّ شديد هنا»، فهذا لا يعني أنّه يقصد أن يقول حرفيّاً إنّ «الحرّ شديد هنا»، بل يمكن أن يرمي من ورائه إلى قول ما يلي: «افتح النافذة» أو «أطفئ جهاز التدفئة» أو «هل أستطيع أن أخلع سترتي؟» أو «الطقس منعشٌ في الخارج» أو «ليس لديّ ما هو أهمّ لأقوله» أو عدّة تأويلات أخرى يمكن أن نستنتجها من قول المتكلّم هذا.

وهكذا، تشتمل عمليّة استيعاب بعض الأقوال على فهم أقوالٍ أخرى نعمَدُ إلى إنشائها على ضوء الأقوال الأولى، فتتّخذ الأقوال أشكالاً رقائقيّة ذات بُنيةٍ دلاليّةٍ مؤلَّفة من مجموعة محتوياتٍ جُمَيليّةٍ تُشتَقُّ واحدتها من الأخرى بتسلسلٍ وتعدِيَةٍ.

وعليه، تكون المحتويات المُضمَرة موجودةً في كلّ مكانٍ، وليس ثمّة ما يدعو بالضرورة إلى القلق من ذلك، إذ لا بدّ من الإقرار بحقّ المُتكلِّم في إنجاز فعل القول المُضمَر لأنّه يُخفِّف من حدّة «الأفعال المُهدِّدة للوجود»، لا بل أيضاً لأنّه يترك هامشاً من الحريّة للمتكلِّم والمُتلقّي كلَيهما، وكذلك لأنّه يفرِضُ أخيراً نوعاً من التشويق التأويليّ.

ولكن لا مناص، بُغية فكّ ترميز المحتويات المُضمَرة (سواء كانت مُضمَّناتٍ أو افتراضاتٍ أو تلميحاتٍ أو إلماحاتٍ أو محسناتٍ بيانيّةٍ بمُختلف أنواعها) من معرفة عدد لا يُستهان به من قوانين الخطاب والقواعد أو المبادئ التحادثيّة التي ترعى عمليّة ترميز مثل هذه المحتويات.

والحال أنّ الترجمة مليئةٌ بالإشراك «إشراك البُنى اللُّغويّة وإشراك الثقافات وإشراك المُفردات وإشراك الحضارات، وهذه الإشراكات كلُّها توقِعُ المُترجِم في العجب أو اليأس»(*)، فيُخيَّل إليه تارةً أنّه قادرٌ على ترجمة كلّ شيء، ويعتقد طوراً أنّه عاجزٌ عن ترجمة أيّ شيءٍ، ولاسيما أنّ «النصّ الذي نودُّ ترجمته يُبدي بعض المقاومة قبل الانتقال من لغةٍ إلى أخرى»(**). وهكذا نرى أنّ رسالة

(*) Dominique Aury, dans: Georges Mounin, *Les Problèmes théoriques de la traduction* ([s. l: s. n., s. d.]), préface, p. 11.

(**) جوزيف ميشال شريم، **منهجية الترجمة التطبيقية** (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1982)، ص 45.

المُترجِم هي رسالةٌ شاقَّةٌ وعسيرةٌ، ولاسيّما إن نظرنا إليها في ضوء القصور المُصطلحيّ السائِد في المُجتمع العربيّ. ولقد واجهتني في أثناء عملي على ترجمة هذا الكتاب من اللُّغة الفرنسيّة إلى اللُّغة العربيّة جملةٌ من العقبات إنْ على صعيد المعجم وإنْ على صعيد التركيب، وأبرزها:

1 ـ فوضى المصطلحات التقنية:

صحيحٌ أنَّ المُترجِم يستعين بشتّى أنواع المعاجِم والمراجع اللُّغويّة في طور عمليّة الترجمة؛ إلا أنَّه لا يستطيع أن يركن اعتباطيّاً إلى الحلول ـ في حال وُجِدَت ـ التي تزوِّده بها هذه القواميس والمعاجِم، فما بالك إن كان يترتَّب عليه أن يُترجِم مُصطلحاتٍ تقنيّة لم تتعرَّف إليها اللّغة العربيّة إلا منذ مدَّةٍ وجيزةٍ، فخِلافاً لما قد يخاله قرّاء اليوم غير المخوَّلين أن يكونوا مطَّلعين على تاريخ الألسنيّة واللّغة، إنَّ هذه الإشكاليّة ليست بجديدةٍ. وليس برج بابل المُصطلحيّ هذا ميزة ينفرد بها عصرنا الرّاهن، بل إنَّ ضعف اللّغة قد ظهرَ أيضاً في القرن التاسع لأنَّ المُصطلح هو في أساس اللّغة، واللّغة هي الفِكر، والفِكر هو طريقة تعبير عن النشاط الاجتماعيّ، فحيثُ توجد مراكز الإنتاج المعرفيّ توجد اللّغة، أي المُصطلحات. وهكذا نجد أنَّ المسألة المُصطلحيّة هي مسألةٌ تطرح نفسها في كلّ عصرٍ. هذا وإنَّ تاريخ الترجمة العلميّة، ولاسيّما الألسنيّة منها، من اللّغات الأجنبيّة إلى اللّغة العربيّة يعود إلى حقبةٍ حديثة العهد. وكانت هذه الترجمات بأغلبيّتها نتيجة جهودٍ فرديّةٍ. ومن النافل التذكير بأنَّ هذه «الترجمات لا تواكِب نشأة العلوم بل تتناولُ آخِر الأبحاث والكُتب الصّادرة في هذه المجالات العلميّة»[*]؛ ولهذا، فهي تزخَر بالمُصطلحات التقنيّة التي يقفُ أمامها المُترجِم حائِراً، ناهيك بأنَّ المُترجمين يرتكبون أخطاءً في التسمية بسبب عدم اطِّلاعهم أو عدم درايتهم بالمسائل الألسنيّة، فإنَّهم ينقلون أحياناً كلمةً أجنبيّةً إلى اللّغة العربيّة تحت تأثير النصّ الأجنبيّ غافلين عن أنَّ اللّغة العربيّة تملك أصلاً مُفردةً للتعبير عن هذه الحقيقة نفسها التي تُمثِّلها هذه الكلمة.

إن كلّ هذه الأسباب وغيرها ساهمت في بروز فوضى المصطلحات التي

(*) جورج مونان، **المسائل النظرية في الترجمة** = *Les Problèmes théoriques de la traduction*، ترجمة لطيف زيتوني (بيروت: دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، 1994).

باتت تُعَرف أيضاً باسم «التشتيت المُصطلحيّ». وقد لمستُ ذلك لمس اليد حين عمَدتُ إلى نقل بعض المصطلحات التقنيّة إلى العربيّة، فكنتُ أجِد في مقابل المصطلح الأجنبيّ ترجماتٍ عربيّةٍ مختلفةٍ بل وأحياناً مُتضارِبة وتتداخل مع ترجمات كلماتٍ أخرى. و«لقد أخذتُ كلّ هذه الترجمات على تضاربها في الاعتبار، فاخترتُ منها حيناً وآثرتُ وضع مصطلح جديد حيناً آخر، لا لأزيد من فوضى المصطلحات بل لأنّني رأيتُ أنّ بعض هذه الترجمات لم يكن يؤدّي المعنى المنشود»(*).

ومع أنَّ إمكانيّة توحيد المُصطلحات مُستبعدةٌ، علماً بأنَّها كانت لتكون الحلّ الأمثل، إلا أنَّ من الواجب الحدّ من هذه الفوضى عبر التزام كلّ مترجم بمُصطلحاته الخاصّة في أثناء مسيرته الترجميّة، على أن يُصار لاحقاً إلى دراستها وتحليلها في إطار جماعيّ ومؤسَّساتيّ. وهذه بعض الأمثلة عن فوضى المصطلحات التقنيّة التي واجهتها في أثناء ترجمتي هذا الكتاب:

على سبيل المثال، وجدتُ مقابل كلمة Trope في معجم **المنهل** ما يلي: استعارة، مجاز؛ في حين يُترجمها معجم (*Al-Mounged*)، بما يلي: مجاز. ووجدتُ في مقابل كلمة Métaphore في معجم **المنهل** ما يلي: استعارة، مجاز؛ في حين يُترجمها معجم (*Al-Mounged*) بما يلي: استعارة.

1) فضّلتُ أن أترجم كلمة Trope «محسن بيانيّ» لأنّني وجدتُ أن كلمتَي «استعارة» و«مجاز» لا تؤدّيان المعنى المنشود في اللغة العربية.

2) وترجمتُ كلمة Métaphore «استعارة»، لأنّني وجدتُ أنَّ «المجاز» هو مفهوم يشتمل على الاستعارة، إذ تشكّل الاستعارة صورةً من صور المجاز.

2 ـ ابتكار كلماتٍ مُستحدثة:

أصبحَ استنباط الكلمات المُبتكرة «موضةً» ينتهجها الجميع تقريباً من أدباء وكتّاب وسياسيّين وصحافيّين، حتّى إنّهم يلجأون أحياناً إلى استعمال كلماتٍ طنّانةٍ رنّانةٍ بحيث تفوق أحياناً أهميّة التسمية بأشواطٍ بعيدةٍ أهميّة المُسمّى، فالكلّ يُنصّب نفسه في موقع إطلاق التسميات المُبتكَرة بحسب أهوائه وميوله. وترتدُّ هذه

(*) المصدر نفسه.

الإشكاليّة على المُترجِم الذي تُلقى على عاتقه مسؤوليّة التصدّي لهذه الإشكاليّة ويُحمَّل عبء ترجمة هذه الكلمات الغريبة العجيبة أحياناً إلى اللّغة العربيّة، إذ حين تسترعي انتباه القارئ بعض الشوائب في الترجمة أو حتّى عندما يطالعه بعض الغموض في التعابير، يحكمُ على المُترجِم بعدم الكفاءة من دون العودة إلى النصّ الأصليّ. وهكذا، يجد المُترجِم نفسه أمام كلماتٍ تُعدُّ هجينةً بالنسبة إلى اللّغة/ المصدر، فما بالك إنْ اقتضت ترجمتها إلى اللّغة/ الهدف. وهذه بعض الأمثلة التي صادفتها:

Inter-répliques وترجمتها بـِ «البَيْردوديّ»/ Intra-réplique وترجمتها بـِ «الضِمْرديّ»/ Connotèmes وترجمتها بـِ «سيمات تضمينيّة»/ Vraux وترجمتها بـِ «خصأ»/ Farai وترجمتها بـِ «خصيح»/ Extra-scénique وترجمتها بـِ «الخارجيّ المشهديّ»/ Intra-scénique وترجمتها بـِ «الضِمَشهديّ»/ وغيرها كثير.

3 ـ المصطلحات البلاغية الخاصّة باللّغة الفرنسية:

قد لا نجد في البلاغة العربيّة التسمية الموازية للمصطلح الفرنسيّ بشكلٍ تامٍّ وشاملٍ، ذلك أنَّ مفهوم هذه المصطلحات في البلاغة العربيّة يبقى مقصّراً عن إعطاء الدلالة أو قد يزيد في بعض الأحيان عن الدلالة في اللّغة الفرنسيّة، فلو أخذنا مثلاً مصطلح Métonymie لأدركنا من خلاله المشكلة الحاصلة في اعتماد التسمية العربيّة.

إن الترجمة الحرفيّة لمصطلح Métonymie هو «كناية»، ولكنَّ الكناية كوجهٍ بلاغيٍّ لا تدلّ أبداً على ما يدلّ عليه مصطلح Métonymie كوجهٍ بلاغيٍّ في اللّغة الفرنسيّة. لذلك اعتمدتُ مصطلح «مجاز مرسل» لنقله إلى اللّغة العربيّة. ولكنَّ هذه الترجمة، على الرُّغم من أنَّها أفضل من مصطلح «كناية»، تبقى قاصرة، هي أيضاً، عن تأدية المعنى الحقيقيّ المطلوب، فمصطلح Métonymie في اللّغة الفرنسيّة لا يُعطي كلّ علاقات «المجاز المرسل» البلاغيّة، فهو يعطي قسماً يتميَّزُ بخصائص مشتركة، بينما القسم الثاني يعطيه وجهاً بلاغياً آخر في اللّغة الفرنسيّة هو Synecdoque الذي نقلتُه إلى اللّغة العربيّة تحت اسم «كناية». والخلاصة أنَّ المساحة الدلاليّة لمصطلحٍ بلاغيٍّ في لغةٍ ما لا تتطابقُ والمساحة الدلاليّة لمصطلحٍ بلاغيٍّ مقابلٍ في لغةٍ أخرى.

4 ـ استنباط بعض المصطلحات التقنيّة:

إنَّ السؤال الذي يطرح نفسه هو التالي: هل يحقُّ للمُترجِم استنباط مصطلحاتٍ ومُفرداتٍ إذا كان يصف بلغته عالماً مُختلفاً عمّاً اعتادت هذه اللّغة وصفه؟ طبعاً، فترجمة المُصطلحات بلفظها الأجنبيّ إلى اللّغة العربيّة يُكبِّد المُترجِم مجهوداً أقلّ ولكنَّه يُزوِّد القارئ أحياناً بمُصطلحاتٍ هجينةٍ لا يفقه شيئاً من معناها، إلا أنَّ عمليّة استنباط المُصطلحات لا تتمّ عشوائيّاً بلا قواعد وضوابط، بل إنَّ البحث في المعاجم أمرٌ لا بدّ منه بغية التنقيب عن جذور الكلمات والحقول الدلاليّة للخروج بمُصطلحاتٍ تتناغمُ وأصول اللّغة العربيّة. وقد صادفتُ في أثناء الترجمة عدداً من المصطلحات الفرنسيّة التي تفتقرُ إلى ما يعادلها في اللّغة العربيّة؛ فاستنبطتُ ما يقابلها في اللّغة العربيّة. وإليكم الأمثلة التالية:

1) إنَّ كلمة Implicitation لا مقابل لها في اللّغة العربيّة، لذلك حاولتُ استنباط ما يقابلها استناداً إلى اشتقاقها من كلمة Implicite التي تعني مُضمر، فحصلتُ على كلمة «إضماريّة».

2) أمّا كلمة Illocutoire، فقد وجدتُ مقابلاً لها من وحي معناها في اللّغة الفرنسيّة، فأصبحت في اللّغة العربيّة «كلاميّ منطوق».

5 ـ المفاهيم الثقافيّة الخاصّة:

صحيحٌ أنَّ من واجب المُترجم أن يُتقنَ اللّغتَين المُترجَم منها ـ لكي يفهم النصّ في العُمق ـ والمُترجَم إليها ـ لكي يصوغ النصّ المُترجَم بإبداع ـ، ولكنَّ ذلك وحده ليس كافياً إذ على المُترجم أن يتحلّى أيضاً بثقافةٍ عاليةٍ تُمكّنه من فهم النصّ من زاوية مدلوله الثقافيّ، أي أن يكون مُطّلعاً على المعلومات المحيطة بالنصّ. ولقد صادفتُ، في أثناء الترجمة، عدداً من العبارات التي تنطوي على جانبٍ ثقافيٍّ خاصّ، فمثلاً، نعجز عن فهم معنى عبارة «Faire catleya» التي لا نقع عليها في أيّ معجم أيّاً يكن ـ ولا حتّى في المعاجم الفرنسيّة الفرنسيّة ـ إلا إذا كنّا مطّلعين على مؤلّفات بروست (Proust)، لأنَّ هذه العبارة هي من تأليفه ويَرِدُ ذكرها في كتابه الذي يحمل عنوان **البحث عن الزمن الضائع** (*A la recherche du temps perdu*).

6 ـ الترادف:

تُثير مسألة الترادف إشكاليّةً على صعيد الترجمة ولاسيّما أنَّ «بمقدورنا الشكّ

في وجود مفردات مترادفة ترادفاً كاملاً»(*). ويدافع بعض مناصري مبدأ الترادف عن رأيهم بالقول بوجوب احترام الترادف تجنُّباً لتكرار بعض الألفاظ، لأنَّ التكرار يحمل على السأم؛ إلا أنَّهم بتصرُّفهم هذا «لا ينسبون إلى الترادف دور الإشارة إلى الاختلاف بل دور تجنُّب الملل: وهذا ما لا نقبل به البتَّة»(**). وقد عمدتُ في ترجمتي إلى احترام ترادف بعض المفردات التي نقلتها إلى اللّغة العربيّة بمفرداتٍ مترادفةٍ أيضاً؛ وذلك حرصاً على إظهار الاختلاف الذي أرادت المؤلِّفة أن تشيرَ إليه بين بعض الكلمات المترادفة، وضنّاً منِّي بالأمانة للنصّ الأصليّ. وهذا مثل على ذلك: تدلُّ المُصطلحات التالية moqueur, sarcastique, narquois, ironique, et railleur جميعها على التهكُّم، إنَّما بدرجاتٍ متفاوتةٍ، لذلك احترمتُ مبدأ الترادف بينها، ونقلتها إلى العربيّة بكلمات مترادفة أيضاً، كالآتي: استهزائيّ وتهكُّميّ واستخفافيّ وساخر وهازئ.

7 ـ تعدُّديّة معاني الكلمات:

إنَّ أوَّل مَن تحدَّث عن تعدُّديّة معاني الكلمات في علم الدلالة كان ميشال بريبال (Michel Bréal) الذي اعتبر «أنَّ تعدُّديّة المعاني هذه هي الخاصيَّة التي تتمتَّع بها بعض الوحدات المعجميّة التي نجد في مقابلها عدَّة معانٍ وليس معنى واحداً»(***). وتُعزى تعدُّديّة معاني الكلمات إلى التطوُّر الذي تشهده اللُّغة عبر الزمن، بحيث يتبدَّل معنى الكلمة مع مرور الوقت، فتتراكمُ المعاني التي تتَّخذها الكلمة على مرّ السنين، مُستوعبةً بالإضافة إلى معناها الأصليّ مجموعة من المعاني الجديدة التي تكتسبها تدريجياً، ممّا يؤدّي إلى تشعُّب دلالات الكلمة الواحدة. ويقع على عاتق المُترجم أن يلجأ إلى القواميس والمراجع أو حتّى إلى مخزونه الثقافيّ بغية انتقاء المعنى الأصحّ للكلمة التي يكون في معرض ترجمتها، آخذاً في الاعتبار السياق الذي ترد فيه هذه الكلمة. وقد صادفتُ في أثناء ترجمتي كلمات تنطوي على معانٍ متعدِّدة، فمثلاً، ترِد كلمة Instance في أكثر من موضعٍ في هذا الكتاب، وإذا نظرنا في المعجم الثنائيّ،

(*) شريم، **منهجية الترجمة التطبيقية**، ص 57.

(**) المصدر نفسه، ص 59.

(***) Marie-Noëlle Gary-Prieur, *Les Termes clés de la linguistique*, Mémo: Lettres; 123 (Paris: Editions du Seuil, 1999), p. 44.

المنهل، عن معناها نجد في مقابلها عدّة دلالاتٍ كالآتي:

1- إلحاح، لجاجة/ 2- دعوى، مرافعة / 3- السُلطة/ 4- خصومة/ 5- حجّة فرعيّة (في الفلسفة)/ 6- نزعة؛ ولكنّني ارتأيتُ أن أنقلها إلى العربيّة تارةً بالسُّلطة وطوراً بالنزعة وذلك بحسب مقتضيات السياق.

8 ـ كثرة المصطلحات وتتابعها:

لقد طالعتني في أثناء ترجمة هذا الكتاب إشكاليّة كثرة المصطلحات التقنيّة وتتابعها في النصّ الأصلي، ممّا جعل ترجمة بعض العبارات حرفيّةً وثقيلةً على السمع أحياناً في اللّغة العربية. كما في المثل الآتي حيثُ تتكرّر في هذه الجملة عبارتَي «كلاميّ منطوق» و«محسّن بيانيّ» مرّتين على التوالي. كما تتعاقب في هذه الجملة كلمات «افتراضات» و«مضمّنات» و«افتراضيّ» وكلّها ثقيلةٌ على السّمع. ولكنّنا مع ذلك لا نستطيع أن نبدّل فيها شيئاً، لأنَّ من مضارّ التبديل هنا أن يزيد الجملة تعقيداً على تعقيدٍ أو أن يُحرِّف معناها ويخون الرسالة التي يودُّ المؤلِّف إيصالها. هبْ مثلاً هذه العبارة: Certaines valeurs illocutoires dans le trope illocutoire, certains présupposés ou sous-entendus dans le «trope implicitatif»، التي تُصبح لدى الترجمة كالآتي: بعض القيَم الكلاميّة المنطوقة في المحسّن البيانيّ الكلاميّ المنطوق، وبعض الافتراضات والمُضمَّنات في «المحسّن البيانيّ الإضماريّ».

9 ـ ترجمة أبيات الشعر أو الكلام المنظوم:

الشعر أو الكلام المنظوم هو كلامٌ مُقفًّى أو مسجَّع، يعتمد على الصور الخياليّة والبلاغيّة وعلى الإيقاع ليوحي بإحساسات مؤثّرة. ومن النافل التذكير بأنَّ الكلمات التي تنتهي بالقافية عينها والتي تؤمّن الطابع الشعريّ المُقفّى في اللّغة الفرنسيّة لا تبقى كما هي عند الترجمة، فترجمة الأبيات الشعريّة تطرح إشكاليّةً كبيرةً، إذ غالباً ما يكون الشعر المُترجم مبتذلاً ويغيب عنه الطابع الشاعريّ، فيفقدُ بالتالي نفحته الشعريّة، ويغدو أقرب إلى النثر منه إلى الشعر، فالمشكلة التي يواجهها المُترجِم في طور ترجمة الشعر تكمن في نقل المعنى مع السّعي قدر المستطاع إلى احترام الصور الشعريّة في القصيدة الأصليّة من جهةٍ، وفي سبك أبيات الشِّعر بأسلوب شعريٍّ مقفًّى من جهةٍ ثانيةٍ، وهنا تكمن الصعوبة لأنَّ البُنى اللُّغويّة المختلفة لا تعبّر عن عالمٍ واحدٍ، ولأنَّ الحضارات المختلفة تصوّر

رؤى متنوّعةً. وقد حاولتُ جاهدةً في أثناء ترجمتي لأبيات الشعر أن أحافظ على المعنى بطبيعة الحال وعلى الصور الخياليّة والشعريّة عينها، كما في هذين المثلَين:

المثل الأوّل: دعكِ من كَدَري، فهو في غير موضعه، ولكنَّه يعذِّبني
إنْ أنا طردته عاد، وإنْ خنقته تملَّكني
فما بالي كلَّما دنا الموعد الذي عن قراني يفصِلُني
اشتدَّ شعور الانزعاج الذي، رغماً عنّي، يُخالجُني(*)

Laisse-moi mon chagrin, tout injuste qu'il est.
Je le chasse, il revient; je l'étouffe, il renaît.
Et plus nous approchons de ce grand hyménée,
Plus en dépit de moi je m'en trouve gênée.

المثل الثاني: ولكن خوفاً من أن أبدو فظّاً
أرجوك سيِّدي أن تعلمني مُسبقاً
كيف تريدني أن أجد لهذه المشكلة حلاً
هل أستطيع سيِّدي أن أتكلَّم ضميريّاً
أم أنَّ كبار القوم يجدون الضمير شيئاً بالياً؟
أيجدر بي قول الحقيقة، أم بعد التفكير مليّاً
هل أكتفي بالمسايرة وأصرف النظر عنها كليّاً؟(**)

(Mais, de peur d'incongruité,
Dites-moi, de grâce, à l'avance,
De quel air il vous plaît que ceci soit traité.
Parlerai-je, Monsieur, selon ma conscience,
Ou comme auprès des grands on le voit usité¢
Faut-il dire la vérité,
Ou bien user de complaisances

10 ـ الاقتباسات:

إنَّ الاقتباسات التي أوردَتها المؤلِّفة في كلّ صفحة، بل أكاد أقول في كلّ

(*) من مسرحية **تيت وبيرينيس** (*Tite et Bérénice*).

(**) مثلٌ مأخوذٌ من المشهد الثاني من الفصل الأوّل من مسرحيّة **أنفيتريون** (*Amphitryon*).

فقرةٍ ولستُ لأبالغ في قولي هذا، لا تُعدُّ ولا تُحصى. «ولا بدّ لِفَهم الاقتباس فهماً دقيقاً من إعادته إلى سياقه بالعودة إلى المصدر الذي اقتُطِعَ منه، ومعرفة المناسبة التي وردَ فيها. وقد بدا لي هذا متعذِّراً بسبب كِثرة المصادر، وتعَدُّدِ لغاتها (الفرنسيّة والإنجليزيّة واللاتينيّة والإيطاليّة والإسبانيّة...، إلخ)»(*)، وتنوُّع مصادرها، فبعضها مأخوذٌ من مسرحيات، والبعض الآخر مستوحى من أفلامٍ سينمائيةٍ، وقسمٌ منها مصدره البرامج التلفزيونيّة والإعلانات، والقسم الآخرً مأخوذٌ من الكتب الأدبيّة والشعريّة، وغيرها العديد من المصادر. لم أدَّخِر وسعاً للبحث والتنقيب عن هذه المصادر على تنوُّعها بغية ترجمة هذه الاقتباسات بأمانةٍ، ولكن عندما كان يعصى عليّ الوصول إلى أحد هذه المراجع، كنتُ أرتكز لترجمة الاقتباس المأخوذ عنه على سياق الجملة موضوع الاقتباس وعلى الإشكاليّة التي ورَدَ فيها الاقتباس كمثلٍ عليها.

كانت تلك لمحة عن الإشكاليّات التي واجهتها في أثناء ترجمتي هذا الكتاب.

وختاماً أودُّ التنويه بأنَّ هذا الكتاب صعبُ الفهم في لغته الفرنسيّة الأمّ ويتطلّب أن يكون القارئ مُحصَّناً بثقافةٍ ألسنيّةٍ، وحتّى عامّة، واسعة ومُعمَّقة. كما تستلزم قراءته أن يعتمرَ القارئ قبَّعة التركيز وأن يرتدي عباءة الانتباه. وإنْ كنتُ أعي أنَّه لا مناص لأيّ نصّ مهما يكن أن يفقدَ بعض المعنى في أثناء الترجمة، ولاسيّما إنْ كان تقنيّاً ويضمُّ مفاهيمَ ألسنيّةً مُقتبسةً عن أهمّ وأكبر الألسنيّين اللُّغويّين وفقهاء اللّغة من مختلف الجنسيّات، إلا أنَّ ما أرجوه أن تكون تلك النسبة من الخسارة نسبةً معقولةً نظراً إلى صعوبة هذا المؤلَّف وغناه بالأمثلة والاقتباسات والمُصطلحات. عسى أن أكون قد وُفِّقتُ في هذه المهمّة.

ريتا خاطر

(*) مونان، **المسائل النظرية في الترجمة**، ص 24-25.

المقدمة

«تمضي الحياة برمشة عينٍ، وهي أقصر من أن نهدرها متَّشحين بأثواب الكآبة» («La vie est trop courte pour s'habiller triste»). طبعاً.

وبسبب ذلك فإنْ خلع المرء عليه أثواباً من تصاميم وأزياء نيومن[1] (Newman). هذا هو المعنى الذي ينطوي عليه القول الآنف الذكر في إطار السياق[2] الذي وردَ فيه بداهةً.

تتعلَّق المسألة هنا بتحليل عبارة «بسبب ذلك» («de là»)، أي المسار الذي يترتَّب على متلقِّي القول اتِّباعه انطلاقاً من محتوى القول البيِّن وصولاً إلى محتواه المُضمَر الاحتماليّ (أو محتوياته المُضمَرة الاحتماليّة).

سنتقصَّى في ما سيَلي موضوع المُضمَر ونشأته وما ينتجُ عنه، أي كيف يُبصر النور، وأيّ منحى ينتهجه؛ فضلاً عن دراسة تكوُّنه ومفاعيله التداوليّة التواصليّة. بيد أنَّ تكوُّنه يتَّصف بشيءٍ من المفارقة، إذ يتطلَّب استخراج محتوى مُضمرٍ ما أن يتكبَّدَ الشخص الذي يفكّ الترميز فائضاً من العمل التأويليّ (الذي يُساوي فائض العمل الإنتاجيّ الذي يتطلَّبه ترميز مثل هذا المحتوى)؛ ومع أنَّ الأسرار تكتنف مفاعيله، إلا أنَّها تبقى أكيدةً، نظراً إلى كونها تنفرد في القدرة على تفسير واقع أنَّنا لا نقصد دائماً، مع أنَّ ذلك كان ليكون أسهل على الجميع ما نقوله بشكلٍ مباشرٍ.

---

(1) ولكن ألا يحمل أحد الإعلانات التي تُعنى بترويج الثياب شعاراً معاكِساً تماماً هو التالي: «كُن متهوِّراً، لا ترتدِ سراويل «الجينز»؟ (Be reckless, be jeanless)».

(2) وبطبيعة الحال يؤدّي السياق الأيقوني في هذا المثل، دوراً حاسماً في ما يتعلّق ببروز الاستنتاج.

والحال أنّنا نواربُ عادةً في الكلام. ويذهبُ البعض حتى إلى حدّ القول إنّ المتكلّم لا يقصد أبداً ما يقوله حرفيّاً. والمثل على ذلك: إذا أدلى شخصٌ ما بالقول التالي: «الحرّ شديدٌ هنا» («Il fait chaud ici»)، فهذا لا يعني أنّ المتكلّم يقصد أن يقول حرفيّاً إنّ الجوّ حارٌّ، بل يمكن أن يرمي من ورائه إلى قول ما يلي: «افتح النافذة» («Ouvre la fenêtre») أو «أطفئ جهاز التدفئة» («Ferme le radiateur») أو «هل أستطيع أن أخلع سترتي؟» («Est-ce que je peux tomber la veste?») أو «الطقسُ منعشٌ في الخارج» («Il fait frais ailleurs») أو «ليس لديّ ما هو أهمّ لأقوله» («Je n'ai rien de plus intéressant à dire»)، إلى ما هنالك. وباختصار، تُشكِّلُ الموارِبة «القاعدة» المُعتمَدة.

ونتعاطى بكلّ تحفُّظٍ مع ما يتردَّد إلى مسامعنا أحياناً من أصداء آراءٍ تُعزِّزَ رأينا، في ما يتعلَّقُ بما يلي: بادئ ذي بدءٍ، في حال عنينا بعبارة «قاعدة» أحد «قوانين الخطاب» المُستمدة من أحد قوانين الاستعمالات اللّغويّة المتعلّقة بالأدبيّات، فإنَّ الصياغة البيِّنة التي سنستعرضها لاحقاً، هي التي تؤدّي قدر استطاعتها دور «القاعدة» هذه، إذ تماماً كما تكون الكذبة «موسومةً» بالنسبة إلى القول الصادق، كذلك (ومراعاةً لكلّ نسبةٍ، ألا يعني التحدُّث بشكلٍ مُضمَرٍ ارتكابَ ضربٍ من ضروب الكذب بالامتناع؟) «توسَم» الصياغة البيِّنة وتُزال السِمة عنها نسبةً إلى الصياغة البيِّنة التي تُعدُّ «سويةً» أكثر. ثمّ، إنَّ وجود المحتويات البيِّنة يسبق منطقيّاً وجود المحتويات المُضمَرة نظراً إلى أنَّ وجود هذه الأخيرة يفترضُ من طرفٍ واحدٍ، وجود المحتويات البيِّنة بغية أن تُضاف إليها وأن تحوِّلها عند الاقتضاء، كما سنرى لاحقاً، لخدمة مصالحها وحدها.

وبناءً على ما تقدَّم، نجد أنَّ القضيّة التي نحن بصدد معالجتها هنا، وتلك التي صادفناها سابقاً في ما يتعلَّق بالثنائيّة التالية: تعيين/ تضمين[3]، هما وجهان لعملةٍ واحدةٍ، إذ ليست التبعيّة المنطقيّة لنوعٍ من أنواع المحتوى إلى محتوى آخر منوطةً بالضرورة بأهميّة هذا المحتوى الدُّنيا في طرق العمل الكلاميّة. ولا عجب أن تكون المحتويات المُضمَرة (أي الأمور التي يتمّ التلميح إليها والأفكار المُبيَّتة المُضمَّنة بين السطور) ذات أهميّةٍ في الأقوال، وأن تضطلعَ بدورٍ جوهريٍّ في

---

(3) انظر: Catherine Kerbrat-Orecchioni, *La Connotation* ([Lyon]: Presses universitaires de Lyon, [1977]).

طريقة عمل الآلة التفاعليّة، فهذا أمرٌ مؤكَّدٌ لا يختلف عليه اثنان. وعليه، تستحقُّ المحتويات المُضمَرة، مهما بلغت غرابة وضعها الطوبوغرافيّ، عناء الخوض في غمار تحليلها.

أمّا نحن، فقد اعتمدنا في تحليلنا الطريقة التالية: لقد انتقينا عشوائيّاً بعض الأقوال التي بدت لنا حدْسيّاً مُشبعةً بالمُضمَر، ثمّ دقَّقنا فيها تدقيقاً مُفصَّلاً بهدف أن نحدِّدَ من خلالها وبأكبر دقَّةٍ ممكنةٍ الأمور التالية، إلى جانب طبيعة المحتويات المُضمَرة التي ينقلها القول (سنستعين بالضرورة بتعابير تقريبيّة لتفسيره)[4]، ألا وهي:

- الركيزة اللُّغويّة للمحتويات المذكورة.

- وضعها (سواء كانت افتراضاً أو مُضمَّناً. . .، إلخ).

- وأخيراً، تكوُّنها، أي الآليّات التي تُرسي أُسس استخراجها.

وعموماً، إنَّ هذه الأقوال مقتضبةٌ، ومُقتبسةٌ بغالبيّتها عن اللّغة المحكية اليوميّة. وقد يبدو لنا من الوهلة الأولى أنَّ هذه الأقوال تافهةٌ، مع أنَّها مُعقَّدةٌ لدرجة أنَّنا إذا أردنا أن نوضِّح بأكبر قدرٍ ممكنٍ من الاقتصاد اللُّغويّ المنهج الوصفيّ الذي انتهجناه لمعالجتها، فلا بدّ لنا من العودة إلى البساطة المُراعية للأصول التي يتَّصف بها هذا «المثل المُبتذل[5]»، ألا وهو:

لقد أقلع بيار عن التدخين («Pierre a cessé de fumer»).

وبهدف تبسيط الأمور إلى أبعد حدٍّ تلبيةً لضرورات مسعانا التوضيحيّ، فلنقل إنَّ مثلاً من هذا القبيل ينقل لنا المعلومات التالية:

أوّلاً: المحتوى صفر (ح صفر): / لا يُدخِّن بيار حاليّاً /Pierre, /)

---

(4) وبغية إلقاء بعض الضوء على المحتويات المُضمَرة، سنكتفي في الواقع باستعمال اللغة ـ الغرض باعتبارها اللّغة الانعكاسيّة، علماً بأنّها مسألة شائكة، ولكن «لا مناص منها».

(5) انظر: Oswald Ducrot, «Note sur la présupposition et le sens littéral,» dans: Paul Henry, *Le Mauvais outil: Langue, sujet et discours*, horizons du langage: Série recherches, avec une postface de Oswald Ducrot (Paris: Klincksieck, 1977), p. 173.

والذي ساهم دوكرو شخصيّاً إلى حدٍّ بعيدٍ في جعله مُستهلكاً. لن يكون هذا المثل، كما سنرى لاحقاً، المثل الوحيد الذي سنقتبسه عن أوسوالد دوكرو (Oswald Ducrot) الذي تُشكّل أعماله مصدر إلهامنا الأوّل.

(/actuellement ne fume pas)، ونجد فيه ما يلي:

على صعيد ركيزته الدالَّة: نقع على مجمل اللّوازم المعجميّة أو النحويّة أو النطقيّة أو الطباعيّة التي تتكوَّن منها المتتالية.

وعلى صعيد وضعه: إنَّه محتوى بيِّنٌ (مُقرَّرٌ)

أمّا على صعيد تكوُّنه: فيرتكز فكّ ترميزه حصريّاً على الكفاءة التي يتمتَّع بها المتلقِّي.

ثانياً: المحتوى الأوَّل (ح 1):/ كان بيار يُدخِّن سابقاً/ (/Pierre auparavant, fumait/)، ونجد فيه ما يلي:

على صعيد ركيزته الدالَّة: ينطوي العنصر المعجميّ «أقلع عن» («cesser de») بادئ الأمر على المعنى المُفترض: ومفاده:/ كان الأمر بخلاف ذلك سابقاً/ (/il en était autrement auparavant/)، وهو الذي ستتداخل تركيبته مع تركيبة المحتوى صفر بغية توليد المحتوى الأوَّل(6)

وعلى صعيد وضعه: إنَّه مُضمَّنٌ (أو يرتكز على مُضمَّنٍ).

أمّا على صعيد تكوُّنه: فهنا أيضاً تُعنى في استخراج هذا الاستنتاج الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة وحدها التي يتمتَّع بها المتلقِّي (وبالتالي يكون هذا الاستنتاج مُضمَراً).

وبالإضافة إلى ذلك، قد يُضافُ عند الاقتضاء محتوى ثانٍ من جملة محتوياتٍ عديدة، إلى المحتويَين صفر والأوَّل، على غرار:

ثالثاً: المحتوى الثاني (ح 2):/ فهو ليس مثلك الذي ما زلتَ تُدخِّن، مع أنَّ الإقلاع عن التدخين، كما ترى، أمرٌ ممكنٌ، فاتَّخذ من الأمر أمثولةً ودرساً./ (/C'est pas comme toi qui continues à fumer, tu vois bien qu'on peut y arriver, prends-en de la graine.../)

(هذه الجُمَيلة هي جُمَيلةٌ مُركَّبةٌ ولكنَّنا سنعاملها، بقصد تبسيط الأمور،

(6) وعليه، نرى أنّ الوحدة الدالّة عينها تستطيع أن تُساهم، سواء كان بالوظيفة الدلالية نفسها (على غرار «بيار» (Pierre) «دخّن» (fumer)) أم بأدوارٍ مختلفةٍ (على غرار «أقلع عن» (cesser de))، في إنشاء مستويَي محتوى متباينَين.

معاملة الجملة الوحيدة المُفردة»، ونجد فيه ما يلي:

على صعيد ترسيخه الدالّ: يُضاف المحتوى الأوَّل إلى المحتوى صفر، أي بكلام آخر، يكون هذان المحتويان متَّحِدَين بشكلٍ جدّ منظَّم (تماماً كما الدالّ ذو الطبيِّعة المتعلِّقة بنبرة الصوت الذي يُطالعنا، بوجه الاحتمال، على الصعيد الشفهيّ).

على صعيد وضعه: إنَّه افتراضٌ، ولا يُفعَّل إلا في بعض الظروف التعبيريّة الأدائيّة الخاصّة.

أمّا على صعيد تكوُّنه: فيفترضُ استخراج هذا الاستنتاج أن يتمتَّع المُحاوِر، ناهيك بالكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة (الضروريّة لفكّ ترميز المحتوى صفر والمحتوى الأوّل)، بالكفاءة «الموسوعيّة» (أي إنَّ استخراج هذا الاستدلال يتطلَّبُ توفُّر بعض المعلومات السياقيّة بشأن المتكلِّم - على غرار موقفه من التدخين وعلاقته بالمحاوِر. . .، إلخ. - وكذلك بشأن المتكلِّم - على غرار معرفة ما إذا كان يُدخِّن، أو مازال يُدخِّن، أو إذا كان يطمحُ إلى الإقلاع عن التدخين)، فضلاً عن الكفاءة «البلاغيّة التداوليّة التواصليّة» (طالما أنَّ هذا القول قد ينتهك، في حال تمَّ تأويله تأويلاً حرفيّاً، «قاعدة الإخباريّة» - على غرار الحالة التي يدرك فيها المُحاوِر تمام الإدراك أنَّ بيار قد أقلع عن التدخين؛ أو أنَّه قد يُخالف «قاعدة المُلاءمة» - إذا كان لا أمل مثلاً لهذه المعلومة المتعلِّقة ببيار أن تثير اهتمام المُحاوِر).

(ملاحظة: سيَرِدُ رمزا «م» (L) و «أ» (A) بمنهجيّةٍ في سياق هذا النصّ للدلالة على التوالي على المتكلِّم (Locuteur) والمُحاوِر (Allocutaire) المعنيِّين في الحلقة التعبيريّة الأدائيّة).

وسنُبيِّن النتائج التي بلغها هذا البحث في قسمين، ألا وهما:

1) وضع المحتويات المُضمَرة: في الواقع، لا تختلف المحتويات المُضمَرة عن المحتويات البيِّنة باختلاف طبيعتها (إذ من الممكن أن نُعبِّر عن الأشياء نفسها بصيغة المُضمَر كما بصيغة البيِّن[7] بل باختلاف وضعها - أي، بطريقة تقديمها

---

(7) وهكذا، ينشأ بين القولَين التاليَين:

(i) «يُخال لبيار بأنّ جاك سيأتي» (Pierre s'imagine que Jacques viendra).

(ii) «يُخطئ بيار في الاعتقاد أنّ جاك سيأتي» (Pierre a tort de penser que Jacques viendra). =

وحلولها في القول، فما إن نتحقّق من وجود محتوى مُضمرٍ ما في أحد الأقوال، علينا تحديد الصيغة التي يتمحور حولها وجوده. وبناءً عليه، سنحاول في مرحلةٍ أولى، العمل على انقشاع الرؤية في هذا المستنقع المصطلحيّ المؤلّف من افتراضاتٍ ومُضمَّناتٍ واستنتاجاتٍ وإلماحاتٍ وعلاقاتٍ تضمينيّةٍ (سواء كانت علاقاتٍ تضمينيّة أم استلزامات خطابيّة)، وقِيَم كلاميّةٍ منطوقةٍ مشتقّةٍ وتأويلاتٍ مجازيّةٍ، إلى آخره. كما أنّنا سنقترحُ بالمناسبة نظريّةً نموذجيّةً موسّعةً بشأن المحسن البيانيّ تهدفُ إلى ضمّ بعض مظاهر طريقة عمل المحتويات المُضمَرة و «أفعال الكلام غير المباشر» إلى كنف نظريّة المحسن البيانيّ الأقدم منها بأشواطٍ بعيدةٍ.

2) تكوُّن المحتويات المُضمَرة: فما الذي يدفعها إلى البروز، وما هي الأساليب التي يعتمدها المتلقّي لاستخراجها من القول؟

يتمحور جوابنا عن هذا السؤال حول الفكرة التالية التي غدت، بين هلالين، جدّ مبتذلةٍ، ومفادها أنّنا نعجز عن فكّ ترميز المحتويات المُضمَرة ما لم نلجأ، بالإضافة إلى المعلومات المتعلّقة بالنظام اللُّغويّ المعنيّ في إنشاء القول (أي «الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة»)، إلى بعض المعلومات المتعلّقة بما يلي:

- السياق الخارج عن الكلام (أي «الكفاءة الموسوعيّة»)،
- طريقة عمل «القواعد التحادثيّة» أو «قوانين الخطاب» (أي الكفاءة البلاغيّة التداوليّة التواصليّة)،
- وأخيراً، بعض الآليّات التي تُميِّزُ «المنطق الطبيعيّ» (أي الكفاءة المنطقيّة).

زد على أنّ هذه الكفاءات غير اللُّغويّة تتدخَّلُ أصلاً، ولو بشكلٍ أكثر تحفُّظاً، في عملية فكّ ترميز المحتويات البيّنة، إذ لا تختلف الإجراءات التي تُمكّننا من استخراج المحتويات المُضمَرة اختلافاً جوهريّاً عن تلك التي تسمح لنا بتحديد المحتوى البيّن. بيد أنّ فكّ ترميز المحتويات المُضمَرة يمتاز بفائدته المزدوجة المتمَثِّلة في كونه يتطلّبُ من جهةٍ بذل المزيد من الجهد الشاقّ، وفي كونه ينطوي على مخاطرةٍ أكبر من جهةٍ أخرى (وهو يُتيح المجال بالتالي إلى

= نوعاً من ترادفٍ فريد من نوعه، إذ إنّ المعلومة القائلة/ لن يحضُر جاك/ (/Jacques ne viendra pas/) هي مُقرَّرة في القول الثاني، ولكنّها مُضمَنة في القول الأوّل.

اللُّغويّ الألسنيّ أن يُدرك بشكلٍ أدقّ الآليّات التي ترعى «الحساب التأويلي»)، فضلاً عن أنَّه يجعل اللّجوء إلى بعض الاعتبارات ذات الطبيعة غير اللُّغويّة تحديداً أمراً أكثر إلزاماً.

إليكم هذه الخلاصة التي تتناول بشكلٍ بيّن ما تقترحه الاعتبارات الآنفة الذكر بشكلٍ مُضمَر، ومفادها: تتجلّى المُسلَّمتان المنهجيّتان الجوهريّتان اللّتان نعترف بهما، كالآتي:

- إنَّنا نتبنَّى وجهة نظر فكّ الترميز بشكلٍ متعمَّدٍ (إذ إنَّ كنه الممارسة الألسنيّة يكمن من وجهة نظرنا في محاولة فهم كيفيّة استيعاب الأقوال)؛
- إنَّنا نتخلَّى نهائيّاً عن وجهة النظر الوصفيّة الإيضاحيّة ذات النمط «الماثليّ».

وتدَّعي هذه الدراسة في فعلها هذا أنَّها تساهم في تنمية «التداوليّة الألسنيّة» - التي يصفها بعض التقليدويين[8] «صندوق القُمامة» («poubelle»)، والتي كان من الأنسب اعتبارها «نزلاً إسبانيّاً» («auberge espagnole») للألسنية مُهيَّأً لاستيعاب كلّ الأبحاث غير المتجانسة تقريباً.

صندوقُ قمامةٍ أم نزلٌ إسبانيٌّ؟ فعلى الرُّغم من أنَّ البعض يراها سيِّئة السمعة إلى هذا الحدّ، إلا أنَّنا نعتقد أنَّ التفكير الألسنيّ يمكن أن يغتذي في الفترة الراهنة من التداوليّة التواصليّة التي تعود عليه بمنفعةٍ كبرى[9].

---

(8) أمّا بار هيليل في: Y. Bar-Hillel, «Out of the Pragmatic Waste-Basket,» *Linguistic Inquiry*, no. 2 (1971),
فيلجأ بغية الدلالة على الغرض عينه إلى استعمال استعارةٍ مماثلةٍ، ألا وهي: «سلّة المهملات» (wastebasket) في حين يُعلن ليفنسون في كتابه: (Stephen C. Levinson, *Pragmatics*, Cambridge Textbooks in Linguistics (Cambridge [Cambridgeshire]; New York: Cambridge University Press, 1983)),
أنّه لا يجدر بنا أن نعتبر التداولية التواصلية بمثابة «الخليط المؤلّف من مظاهرَ ألسنيةٍ لغويةٍ متباينةٍ بشكلٍ واضحٍ، حيث لا يمتّ الواحد منها بصلةٍ للآخر» (ص 9)، كما يكتب جاك عن هذه التداولية التواصلية نفسها، ما يلي: «ألم نحمّلها منذ وقتٍ طويلٍ كلّ إشكاليات الاستعمال الألسنيّ اللّغوي المُتبقيّة التي نعجز عن معالجتها في علم دراسة تركيب الجملة وعلم الدلالة؟»، انظر: Francis Jacques, *Dialogiques: Recherches logiques sur le dialogue*, philosophie d'aujourd'hui (Paris: Presses universitaires de France, 1979), p. 222.

(9) ونُذكّر بأنّ الأمر يتعلّق هنا بإعادة نشر نصٍّ يعود تاريخ إصداره إلى العام 1986، وأنّ التداولية التواصلية قد تطوّرت منذ ذلك الوقت تطوّراً لا يُستهان به. ويستفيد التأمّل في موضوع المُضمَر اليوم وبشكلٍ خاصٍّ من الإضاءة التي تلقيها «نظرية المُلاءمة» التي أرسى أسسها سبيربر (Sperber) وويلسون. ومع ذلك، يبدو أنّه لم يتمّ «التخلّي» إلى حدٍّ بعيدٍ عن المقاربات المطروحة في هذا الصدد بشأن الظواهر ذات الصلة بالإضمارية...

القسم الأول

وضع

المحتويات المُضمَرة

الفصل الأول
الركائز الألسنيّة اللُّغويّة للمحتويات المُضمَرة

يسود في الاتّحاد السوفياتيّ على ما يبدو مرضٌ خارجٌ عن المألوف، ألا وهو: «الفُصام الخادِر»(*) الذي تكمن فرادته في أنَّه يُبصر النور بشكلٍ أكيدٍ في غياب أيّ عارضٍ تمكن مراقبته(1). وإنَّ هذا التصوّر لمُريح ومُربح قطعاً ـ بيد أنّه غير مُتَّسقٍ من وجهة نظر السيميائيّة التي تقول بأنَّه لا وجود للمدلول في غياب الدالّ. أمّا نحن فنرى أنَّ أيّ وحدةٍ من وحدات المحتوى التي يُمكن فكّ ترميزها تملك بالضرورة ركيزةً لغويّةً أيّاً تكن. ولا تشذُّ المحتويات المُضمَرة عن هذه القاعدة (رغماً عن بعض الأشخاص الذين إمّا يعلنون أنَّ فعل القول وكذلك السياق الخارجيّ الكلاميّ قادران أحياناً أن يستنبطا من العدم دلالاتٍ كلاميّةً، مُجترحَين بذلك الأعاجيب، أو أنّهم يوحون بهذا الأمر)، إذ قد تكون هذه المحتويات بأفضل الأحوال، وهي كذلك عموماً، حصيلة حسابٍ تركيبيٍّ ما من شأنه أن يُطبّق بعض المعطيات الخارجيّة القوليّة على بعض المعلومات الضِمقوليّة.

وبناءً على ما تقدَّم، ينبغي أن نُميِّز بين نمطين لترسيخ المحتويات الكلاميّة، ألا وهما: أوّلاً، نتحدَّث عن «الترسيخ المباشر» لإحدى وحدات المحتوى عندما تملك هذه الأخيرة ركيزةً دالَّةً محدَّدةً تطفو على سطح القول ـ سواء كانت هذه الركيزة بسيطةً أو معقَّدةً، معجميّةً و/ أو نحويّةً و/ أو نطقيّةً أو طباعيّةً.

(*) ويعني ذلك أنّ الشخص الذي يُعانيه يكون في حالةٍ من الخدر أو الخمول الفكريّ ويُصاب نشاطه الذهنيّ بالشلل.

(1) على أيّ حالٍ، هذا ما ثابر السيّد أندريه سنيجنفسكي (André Snejnevski)، وهو مدير معهد طبّ الأمراض العقليّة في أكاديميّة العلوم الطبيّة السوفياتيّة، على برهنته أثناء انعقاد مؤتمر الرابطة العالميّة لطبّ الأمراض العقلية، انظر المقالة التالية: A. Bousoglou, *Le Monde*, 2 septembre 1977, p. 7.

لا يطبع نمط الترسيخ هذا كلّ المحتويات البيّنة فحسب، بل أيضاً بعض أنماط المحتويات المُضمَرة، من مثل الافتراضات والكلام المنطوق المُشتقّ «الموسوم»، فضلاً عن بعض المُضمَّنات ذات الركيزة النبريّة أو المعجميّة أو النحويّة.

في المقابل، تنتمي المُضمَّنات بغالبيّتها إلى نمط «الترسيخ غير المباشر»، حيثُ يُضاف المحتوى المُضمَر، بحسب آليّة «انفكاكيّةٍ» مماثلةٍ لتلك التي تُميِّزُ بعض محتويات التضمين[2]، إلى مستوى أو مجمل مستويات المحتوى المُفرطة التنظيم في القول أو إلى جزءٍ منها (فعلى سبيل المثال، إذا نظرنا في المثل التالي: «أقلع بيار عن التدخين» («Pierre a cessé de fumer») نجد أنَّ المحتوى الثاني (ح$_2$) يحوِّل كلّاً من المحتوى صفر والمحتوى الأوّل اللّذَين يتقدّمانه لصالحه). وبالتالي، تشتمل عملية استيعاب بعض الأقوال على فهم أقوالٍ أخرى نعمد إلى إنشائها على ضوء الأقوال الأولى - أو إذا أردنا أن نتوخّى الدقّة أكثر، على ضوء مستويات محتوى مختلفةٍ عن المحتوى الحرفيّ، والتي نوضّحها بشكلٍ ألسنيّ لغويّ انعكاسيّ من خلال منحها ركائز دالّةً، أي من خلال تحويلها إلى أقوالٍ كلاميّةٍ[3].

وبكلام آخر، يمكننا أن نقول ما يلي: تتَّخذ الأقوال أشكالاً رقائقيّةً ذات بُنيةٍ دلاليّةٍ مؤلّفةً من مجموعة محتوياتٍ جُمَيليّةٍ[4] تشتقُّ واحدتها من الأخرى بتسلسلٍ وتعدِيَةٍ، في حين يرمي الوصف إلى إعادة بناء السلسلة التأويليّة التي تُفضي، انطلاقاً من المحتويات الأكثر وضوحاً، إلى الطبقات الدلاليّة الأكثر تواريّاً واحتمالاً[5].

---

(2) وتُطرح الإشكالية حول معرفة ما إذا كان المدلول (Sé) الجدّ منظّم يؤدّي في حالات «الانفكاك» وظيفة دالّ المحتوى التضمينيّ أو المُضمَر، أم أنّ مجموعة الدال/ المدلول (Sa/ Sé) هي التي تضطلع بهذه المهمّة.

(3) ولكن، بغية الدلالة على أنّ المسألة تتعلّق بتفسيراتٍ بأسلوبٍ شخصيّ ألسنيّةٍ لغويةٍ انعكاسيّةٍ لوحدات المحتوى الصّرف، نعمَد إلى ذكرها بين عارضتَين مائلتَين (في حين تَردُ الأقوال نفسها بين مزدوجَين).

(4) يجب فهم العبارتَين التاليتَين «بنية دلالية» و«محتوى جُميلّ» بالمعنى الواسع المدلول، أي إنّها تتضمّن مظاهر القول التداولية التواصلية، فضلاً عن قِيمه الكلامية المنطوقة.

(5) تنحو الاقتراحات الوصفية الإيضاحيّة التي يُدلي بها فيلمور Charles Fillmore, «Les Règles d'inférence dans une théorie sémantique,» *Cahiers de lexicologie*, no. 19 (1971-II), ومارتن Robert Martin, *Inférence, antonymie et paraphrase: Eléments pour une théorie sémantique*, =bibliothèque française et romane. Série A, Manuels et études linguistiques; 39 ([Paris]: C.

- لا تُعَدُّ من وجهة نظرنا الوقائع النبريّة، وعلى نطاقٍ أوسع النطقيّة (على غرار الوقفة والمدّ)، التي تضطلع حتماً على الصعيد الشفهيّ بدورٍ حاسم لجهة تفعيل المحتويات المُضمَرة، بمثابة عناصرَ دالَّةٍ خارجيّةٍ ألسنيّةٍ لغويّة، بلْ نعتبرها ذات طابع ألسنيٍّ لغويّ عن جدارةٍ، لأنّها تنتمي إلى القول وليس إلى السياق التعبيريّ الأدائيّ (كما هي حال مختلف علامات التشكيل وعلامات الوقف على الصعيد الخطّي). كما نُخالف بيريندوني (Berrendonner) الرأي حول هذه النقطة، إذ إنّه يقول بخلوّ فعل القول من «الإيمائيّات النبريّة»(6)، الأمر الذي يسمح له بأن يخلُصَ(7) إلى الاستنتاج القائِل بأنّ ليس ثمّة ما يُشير بشكلٍ بيّنٍ ومُحدَّدٍ، على الصعيد الشفهيّ (وعلينا، بلا ريب، أن نستثني علامة الاستفهام شأنها شأن المادّة الدالَّة على الصعيد الخطّي) إلى وجود فعل كلام من نوع «التساؤل». ونُعارضه كذلك لأنّه يُعطي «علامة صفرٍ على هذه المسألة»(8) إلى كلّ النحويّين الذين سبقوه إلى الإكباب على هذا الموضوع، والحال أنّنا نجد هذه العلامة جائرةً وغير منصفةٍ.

وبناءً على ما تقدَّم، ما إن نمتنع عن إصدار حكم بالنَّفي ذي طابع اعتباطيّ إلى هذا الحدّ، تُطرح عندئذٍ مسألة معرفة الحدودً الدقيقة التي تفصل بين المُعطيات اللُّغويّة وغير اللُّغويّة، ففي الواقع، ترتبط الوقائع النطقيّة بالوقائع الإيمائيّة الحركيّة، وغالباً ما تتعلَّق بها بصفتها «وقائع هامشيّة كلاميّة». ويتجلّى جوابنا على هذه المسألة على الشَّكل التالي: نعتبر العناصر الدالَّة في مجملها ذات طابع لغويّ ما دامت متعلّقةً بالقناة السمعيّة، ومُدمجةً بالشبكة الصوتيّة، كما يفترضُ تَحقُّقها أن تتحقّق مسبقاً العناصر الدالَّة الصواتيّة - في حين لا تحتاج

= Michel Charolles, «Il fallait un président à la France,» *Pratiques*, no. 30 (juin 1981), وكـارول Klincksieck, 1976),

المنحى عينه الذي تنحوه اقتراحاتنا.

(6) هذا مثلٌ جيّدٌ على الخدمات البرهانيّة التي يُمكن أن تؤدّيها الاستعارة... وهي استعارة يُخالفها بيريندوني أيضاً حين يُعلن)، ما يلي: «إنّ ما نُطلق عليه اسم «نبرة صوت» هو خاصيّة (حركيّة) يتّصف بها فعل القـول، وليس ميزةً من ميزات القـول»، Alain Berrendonner, *Eléments de pragmatique linguistique*, propositions (Paris: Editions de Minuit, [1981]), p. 141.

(7) المصدر نفسه، ص 158.

(8) Alain Berrendonner, «Zéro pour la question. Syntaxe et sémantique des interrogations directes,» *Cahiers de linguistique française*, no. 2 (1981).

العناصر الإيمائيّة الحركيّة إلى أيّ ركيزةٍ تصويتيّةٍ لكي تتحقّق. ولكن لا بدَّ من الاعتراف بأنَّ بعض الوقائع الهامشيّة الكلاميّة تتجاوز هذه الحدود التي نحاول ترسيمها بين ما هو لغويّ وما هو غير لغويّ، ونذكر منها مثلاً: الضحك أو النحيب (الذي على الرُّغم من كونه لا يتَّصف بطبيعةٍ «كلاميّةٍ»[9] إلاّ أنَّه يشتمل بالضرورة على مكوِّنٍ «صوتيٍّ») أو حتّى الابتسامة التي تُسمَع بقدر ما تُرى[10].

ولكن ثمّة إشكاليّةٌ تُسبِّب إزعاجاً من نوع آخر، وتتلخَّص كالآتي: على الرُّغم من كلّ الدراسات التي اتَّخذت من هذه المسألة[11] موضوعاً لها، إلاّ أنّنا لم نفقه الشيء الكثير بعد عن نبرات الصوت، وتقطيعها إلى وحداتٍ مُمَيِّزةٍ، فضلاً عن قِيَمها الدلاليّة التداوليّة التواصليّة. وهكذا، تَطرحُ الأسئلة التالية نفسها: هل ينفرد كلٌّ من الإلماح أو التلميح أو التهكُّم بنبرة صوتٍ خاصّةٍ به (وذلك انطلاقاً ممّا يقوله غريس[12] (Grice)، ومفاده: «ما يُثير حيرتي أيضاً هو معرفة ما

---

(9) مع أنّ ألين (D. E. Allen) وغي (R. F. Guy) يريان في «الضحك فعلاً كلامياً [. . .]»، انظر: Donald E. Allen and Rebecca F. Guy, *Conversation Analysis: The Sociology of Talk*, 2nd ed. (The Hague; Paris: Mouton, 1978), p. 162.

(10) وهكذا أُخذ على إحدى الصديقات التي كانت تسعى لأن تتوظّف في إحدى محطات الإذاعة المحليّة، واقع أنّ «صوتها لم يكن يبتسم» (sa voix ne souriait pas). وانظر أيضاً إلى تعليق أحد الصحافيّين الذي كان يُجري مقابلةً مع ماريا كاساريس (Maria Casarès)، ألا وهو: «[. . .] تعلو الابتسامة نظرتك وصوتك لتدلّنا بشكلٍ واضحٍ على أنّ هذا الرأي هو أقرب ما يكون إلى المديح منه إلى النقد» ([...] un sourire dans le regard et dans la voix pour bien faire comprendre que cette appréciation est beaucoup plus un compliment qu'une critique), J. P. Roos, *Hebdo-Lyon*, no. 827 (mai 1981), p. 7, وكذلك هذا التعليق الذي أدلت به راوية كتاب **المجهول**، Michèle Manceaux, *Anonymus: Roman* (Paris: Editions du Seuil, 1982), p. 13, ومفاده: «كانت تبتسم للقدر الذي وضعها على دروب بودابيست ولا بدّ أنّ ستيلاّ ساند قد سمعت هذه الابتسامة في صوتها» (elle souriait du hasard qui lui proposait Budapest, et Stella Sand dut entendre ce sourire dans sa voix) (في الواقع، إنّ المسألة تتعلّق في هذا الشأن بمكالمةٍ هاتفيّةٍ).

(11) راجع على سبيل الذكر لا الحصر أعمال ليون (P. Léon) وفوناغي (Y. Fónagy) وساغ (Sag) وليبيرمان (Liberman) (عام 1975) وغيرهم العديد، فمثلاً: في المُجمل المرجعيّ بعنوان (Albert di Cristo, *Soixante et dix ans de recherches en prosodie: Bibliographie alphabétique, thématique et chronologique*, études phonétiques; 1 (Aix-en-Provence: Editions de l'Université de Provence; Paris: diffusion Ophrys, 1975)), يذكر ألبير دي كريستو حوالي الـ 4400 عنوان!

(12) Herbert Paul Grice, «Further Notes on Logic and Conversation,» in: Peter Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics*, Edited by John P. Kimball; Edited by Peter Cole (New York; San Francisco; London: Academic Press, Harcourt Brace Jovanovich, 1978), p. 124.

إذا كانت نبرة الصوت التهكُّميّة تُعدّ نبرة نوعيّة»)؟ وهل ثمّة نبرةُ صوتٍ خاصّةٍ بالمعنى «التابع المُضمر»؟ وأخرى خاصّةٍ «فعل الكلام غير المباشر»؟ وفي غياب أيّ جوابٍ واضحٍ عن هذه الأسئلة، الأمر الذي يرتهن به بشكلٍ خطِرٍ كلّ بحثٍ مُستقبليٍّ سيتمحور حول موضوع المُضمَر، يستحيل علينا في بعض الحالات أن نبتَّ مسألة ما إذا كان ذلك المحتوى أو ذاك بيّناً أم مُضمَراً، وفي الحالة الثانية يتعذَّر علينا كذلك أن نقرِّرَ ما إذا كان الأمر يتعلّق بالترسيخ المباشر أو غير المباشر. وفي شتى الأحوال، ثمّة أمرٌ مؤكّدٌ، ألا وهو: يمكن أن يتبدَّل وضع إحدى وحدات المحتوى عينها المُرتبطة بالقول نفسه، تبعاً لتحقُّق هذا القول خطيّاً أو شفهيّاً - وإنَّ الأمثلة التي أوردناها تتَّصف بشكلٍ أساسيٍّ بطابعها الخطّي، مع الإشارة إلى أنَّ التعابير المكتوبة أقلّ غنى بالمعاني المُضمَرة من التعابير الشَّفهيّة، ومع ذلك، تمكِّننا هذه الأخيرة من تسجيل عددٍ لا بأس به من الملاحظات الملائمة، والتي تُعدُّ أقلّ مجازفةً نسبيّاً.

- وعليه، تملك المحتويات الراسخة بشكلٍ مباشرٍ ركيزةً دالَّةً محدّدةً أو أكثر تكون مُدرجةً في المتتالية التي ترتبط هذه الركائز بها. في حين تُضاف المحتويات الراسخة بشكلٍ غير مباشرٍ إلى محتوى جدّ منظَّم (أو أكثر) من دون أن يكون لها دالٌّ خاصٌّ بها - ما خلا في الحالة التي نعتبر فيها أنَّ هذا الدالّ موجودٌ بالقوّة، ولكنّه ممحوٌّ ظاهريّاً، أي إنَّه محذوفٌ.

وتتلخَّص الإشكاليّة المطروحة هنا على الشَّكل الآتي: عندما نقع على محتوى لا ركيزة له ظاهريّاً، فما هي الحالات المشروعة لاعتبار الدالّ الذي يوضِّحه محذوفاً أو مُحفَّزاً بدلاً من اعتباره غائباً ببساطةٍ؟ إلاّ أنّنا نعجز عن إعطاء المبادئ العامَّة لجوابٍ مُرضٍ على مثل هذا السؤال الشائك[13]. ولنقل، مع الحرص على عدم الانزلاق إلى نظريّة الوضعيّة المُبالِغة التي يقول بها هؤلاء الذين يُطلق عليهم برونو (F. Brunot) اسم «الأشخاص الذين يعانون رهاب

---

(13) راجع بشأن هذا الموضوع المُتعلّق بالحذف وبالدالّ الفارغ (signifiant ø)، من جملة مؤلّفين آخرين Berrendonner, *Eléments de pragmatique linguistique*, et Robert Godel, «La Question des signes zéro,» *Cahiers Ferdinand de Saussure*, no. 11 (1953),

والمُجلّد الأوّل من الكُتيّب الثاني (عام 1979) من المجلّة التي تحمل عنوان *Histoire, épistémologie, linguistique*، فضلاً عن Michel Le Guern, «L'Ellipse dans la rhétorique française de 1675 à 1765,» *Histoire, épistémologie, langage*, vol. 5, no. 1 (1983).

الحذف» (ellipsophobes) (إذ قد تتناسب بالفعل، في بعض حالات النقص النحويّ الجليّ في التركيب ـ كما في المثل الآتي: «ميتران رئيساً!» («Mitterrand – Président!») –، أو في حالات غياب تكرار العبارة التي يُمكن التكهُّن بها بسهولةٍ ـ على غرار المثل التالي: «أعلمُ!» («Je sais!») –، المعالجة بالحذف مع واقع نفسيّ ـ لغويّ لا شكّ فيه)، أنَّ موقف بعض «المصابين بهوس الحذف» (ellipsomanes) (من القدامى والكلاسيكيّين والتوليديّين) قد ساهم مساهمةً كبرى في جعل اللُّغويّين الألسنيّين أكثر حذراً إزاء التبسيطات التي تطرحها أيّ طريقةِ معالجةٍ تُفضي «مُواءَمةً» إلى تعميماتٍ تكون في غير موضعها. وبشتّى الأحوال، تفتقر مثل هذه المعالجة إلى المُسوِّغ في حالةٍ كتلك التي يطرحها المثل الذي ذكرناه آنفاً، ألا وهو: «أقلع بيار عن التدخين» («Pierre a cessé de fumer»). وينطبقُ ذلك أيضاً على غالبيّة الأمثلة التي سنعالجها لاحقاً.

ـ لكلّ وحدةٍ من وحدات المحتوى، سواء أكان بيّناً أم مُضمَراً، ترسيخٌ نصيٌّ مباشر أو غير مباشرٍ، وهي تملك بالتالي في مرحلةٍ أخيرةٍ بعض الركائز الدالّة التي تُرسي من بابِ الأوْلويّة أسس بروزها الذي قد تحفّزه كذلك بعض الدلائل الخارجة عن إطار المتتالية التي تشتمل على المعنى المقصود(14). وقد تكون هذه الدلائل، على غرار دلائل المحتوى التهكُّميّ احتمالياً الذي تنطوي عليه متتاليةٌ من مثل: «يا له من طقسٍ جميلٍ!» («Quel joli temps!»)، ذات طبيعةٍ:

- سياقيّةٍ حاليّةٍ نصيّةٍ (وجود المحيط الكلاميّ، مثلاً: «يا له من طقسٍ جميلٍ! لحسن حظّي أنّني فكّرتُ بجلبِ مظلّتي...» («Quel joli temps! Heureusement que j'ai pensé à prendre mon parapluie...»))
- خارجة عن النصّ (نطقيّةً كانت أم إيمائيّةً حركيّةً، وتتجلّى بنبرة الصوت الخاصّة والبرطمة المُزعجة وتأرجُح الرأس بحركةٍ خفيفةٍ...)
- سياقيّةٍ (وجود المرجع المُختصّ بالتغيُّرات الجويّة الذي يسمح بتحديد التفاوت القائم بين المحتوى الذي نُدلي به حرفيّاً والمحتوى الذي نضمره والذي يُفترض أن يُطبَّق عليه، أي بالتالي تحديد المحسن البياني التهكُّميّ).

---

(14) يسمح هذا التعارض المصطلحيّ بين «العناصر الدالّة» (الداخلية) و«الدلائل» (الخارجيّة) برفع إبهام المصطلح «واسم» (marqueur) الذي يكتنفه الغموض.

يُمكن أن يتراوح السياق الحاليّ الملائم للنصّ (والذي يكون ذا طابعٍ كلاميٍّ حصريّاً) من الضيِّق إلى الواسع تقريباً، ومن البعيد إلى القريب. ولكنْ ما هو المدى الأقصى الذي يمكنه بلوغه؟ وإن كان الجواب عن هذا السؤال أمراً ممكناً بالنسبة إلى النصوص المكتوبة، فإنَّ المسألة ليست بهذه البساطة بالنسبة إلى المتتاليات الشَّفهيّة التي يصعب علينا التسليم بأنَّ سياقها الحالي النصيّ مؤلَّفٌ من مجمل الأقوال التي سبقتها والتي تلقَّاها الشخص الذي يفكّ الترميز ـ ناهيك عن التأثيرات المحتملة «للمفعول الارتجاعيّ» الناجمة عن السياق الحاليّ اللاحق للنصّ، بحيثُ تتحوَّل بعد مسافةٍ معيَّنةٍ ـ ولكن لا نُدرك ما هو مداها؟ ـ المعلومات السياقيّة الحاليّة النصيّة، بعد أن يُمحى تدريجيّاً الدالّ الخاصّ بها، إلى معلوماتٍ سياقيّةٍ، أي إنَّها تصبُّ مجدداً في الكفاءة الموسوعيّة. ويتَّصف السياق الحاليّ للنصّ بأنَّه مطَّاطٌ بشكلٍ لامتناهٍ، وينتهي به المطاف بأن يمتزج مع السياق. وعليه، يُضاف هذا الواقع إلى ذلك الذي تمَّت الإشارة إليه آنفاً (أي وجود منطقةٍ خِلاليّةٍ مُختصّةٍ بكلّ ما هو «خارج الكلام»)، بقصد تمويه معالم الحدود الفاصلة بين ما هو كلاميّ وما هو خارج الكلام من جهةٍ، وبين ما هو نُطقيّ وما هو تعبيريّ أدائيّ من جهةٍ أخرى. ولكن لا مبرِّر على كلّ حال لاستثناء الوقائع الأدائيّة والنطقيّة والسياق الحاليّ الضيِّق للنصّ على الأقلّ من المعطيات القوليّة .

ـ وعليه، تقع مسؤولية بروز المحتوى القوليّ على:

- المتتالية النصّية التي يرتكز عليها بصورةٍ دائمةٍ، ولكن أيضاً على تلك التي يرتكز عليها عند الاقتضاء.
- السياق الحاليّ للنصّ.
- السياق الهامشيّ للنصّ.
- السياق.

تُعنى الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة التي يتمتَّع بها الأشخاص الذين يفكُّون الترميز (وأيضاً الأشخاص الذين يرمِّزون، ويقتضي التذكير بأنَّه نموذجٌ تأويليٌّ سنحاول إرساء أسسه في كتابنا هذا) بالعناصر الدالَّة النصيّة وبالدلائل السياقيّة الحاليّة النصيّة. في حين تتكفَّل كفاءتهم الحسّية الحركيّة وتلك المكانيّة بالدلائل الخارجيّة النصّية غير النطقيّة. أمّا الدلائل السياقيّة، فهي من اختصاص كفاءتهم الموسوعيّة.

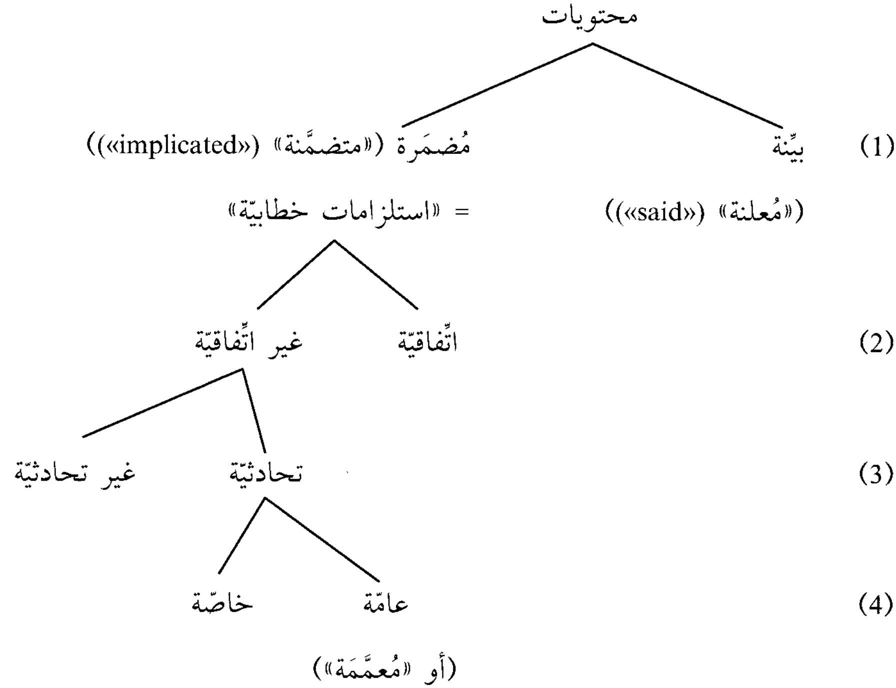
ما إنْ يُصار إلى تحديد العناصر الدالَّة والدلائل المسؤولة عن بروز المحتوى المُضمَر، حتّى يبقى أن نُحدِّد وضعه.

الفصل الثاني
المحتويات المُضمَرة ومختلف أنماطها

قبل أن نتطرّق في الحديث إلى مجموعة الأدوات التصوُّرية الخاصّة بنا، أي إلى النظام المؤلَّف من الفئات التي نُصنِّف على ضوئها مختلف أنواع المحتويات المُضمَرة التي نرصدها في الأقوال، تجدر الإشارة أوّلاً إلى أنَّ عدداً لا يُستهان به من التصنيفات الأخرى التي تتناول الوقائع نفسها قد أبصرَ النور حتّى يومنا هذا، وأكثرها تداولاً على الإطلاق، هو التصنيف الذي اقترحه بول غريس (Paul Grice) والذي يظهر على الشَّكل المبيَّن أدناه[1]:

(1) نلمسُ بعض التردُّد في المصطلحية التي يعتمدها غريس، فهو على سبيل المثال، يعتبر في Herbert Paul Grice, «Further Notes on Logic and Conversation,» in: Peter Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics*, Edited by John P. Kimball; Edited by Peter Cole (New York; San Francisco; London: Academic Press, Harcourt Brace Jovanovich, 1978), p. 113.

أنّ الاستلزامات الخطابيّة كافّة هي «مُتضمَّنة» (implicated)، في حين يُحلّ محلّ هذا المصطلح الشامل (ص 115)، مصطلح «مُستلزمة» (implied) والذي يُهيمن على الاسمين المُندرجَين، ألا وهما: الأوّل، «مُتضمّنة» (implicated) (المخصّص هذه المرّة للدلالة على العلاقات التضمينيّة التحادثيّة)؛ والثاني، «مُستتبعة» (entailed). أمّا بالنسبة إلى الصفة «منقولة» (conveyed) فهو يُطبّقها تارةً على مجموعة المحتويات التي يتمّ الإدلاء بها، وطوراً على المحتويات المُضمَرة وحدها . . .

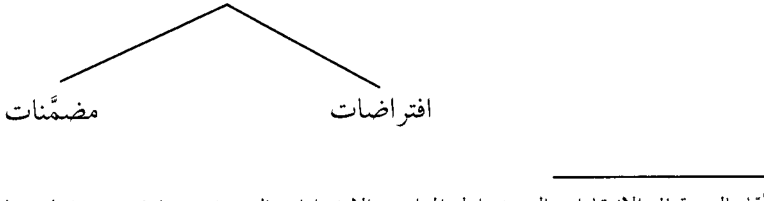


وإنَّ هذا التصنيف دقيقٌ، بيد أنَّ علَّته تكمن تحديداً في هذه الدقَّة المبالغ فيها، إذ يبدو على سبيل المثال أنّ المحورَين المُدرجَين في أسفل الترسيمة لا يؤثّران على مجرى هذه العمليّة. ولنا في هذا الشأن المآخذ نفسها التي تتناولها الانتقادات التي صدرت على لسان سادوك (Sadock) الذي يُعلّق على المحور (3) قائلاً[2]: «تقع الاستلزامات الخطابيّة غير الاتّفاقيّة في فئتَين، كالآتي: أوّلاً، فئة الاستلزامات الخطابيّة التحادثيّة الأساسيّة التي تستخدم «مبدأ التعاون» (Cooperation Principle) وقواعده؛ وثانياً، فئة الاستلزامات الخطابيّة غير الاتّفاقيّة وغير التحادثيّة المصوَّرة تصويراً رديئاً والتي ترتكز عمليّة إحصائها في السياق على المعنى الاتّفاقيّ وعلى معرفة السياق الذي تمّ فيه التعبير عن هذا المعنى، فضلاً عن معرفة خلفيَّته. ولكن يعتمد وجودها بشكلٍ جوهريٍّ على القواعد غير التحادثيّة ذات الطابع «الجماليّ أو الاجتماعيّ أو الأخلاقيّ». ويضرب غريس على ذلك المثل التالي: «كُن مهذَّباً» («Be polite»). ثمَّ يُردف قائلاً إنّه يجد

(2) Jerrold M. Sadock, «On Testing for Conversational Implicature,»
في: المصدر نفسه، ص 282–283.

صعوبةً في فهم سبب التباين القائم بين مثل هذه القواعد وتلك التي تنضوي تحت راية مبدأ التعاون». والحقيقة أنَّ جُلَّ ما يستند إليه غريس بغية التمييز بين الاستلزامات الخطابيّة «التحادثيّة» و«غير التحادثيّة»، إنَّما هو الاختزال الجذريّ وغير المبرَّر طبعاً الذي يطبِّقه على حقل «القواعد التحادثيّة». أمّا بالنسبة إلى التناقض القائم على مستوى المحور (4)، فقد بات برأينا أمراً مفروغاً منه. ومردّ ذلك إلى أنَّه من المُفترض أن تكون الاستلزامات الخطابيّة «المُعَمَّمة» منوطةً فقط ببُنية القول الدلاليّة والشكليّة، كما تتوقَّف على وضع القواعد التحادثيّة موضع التنفيذ؛ بينما تُدخِلُ الاستلزامات الخطابيّة «الخاصّة» بالإضافة إلى ذلك بعض خصائص السياق التعبيريّ الأدائيّ إلى دائرة البحث. وفي الواقع، قد تتدخَّل المعطيات السياقيّة على مختلف المستويات التي بيَّن غريس الفوارق القائمة بينها. وعبثاً حاولنا وضع هذه الفوارق والمعايير التي يقترحها حيِّز التنفيذ أو تطبيقها على الأمثلة التي أوردناها (فهو يقترح مثلاً بشأن الاستلزامات الخطابيّة التحادثيّة المعايير التالية: يُمكن إحصاؤها / يُمكن شطبها / لا يُمكن فصلها / غير اتِّفاقيّة / لا تُنقل عبر ما يُقال بل عبر قوله / غير مُحدَّدةٍ)[3]. وهي معاييرٌ يقول هو نفسه[4] عنها ما يلي: «لستُ أكيداً البتَّة ما إذا كانت هذه الخصائص الآنفة الذكر مؤهَّلةً أن تُفضي إلى أيّ اختبارٍ حاسمٍ كهذا...».

وعليه، فمن جملة المحاور الأربعة التي اقترحها غريس، لا يبقى مطروحاً على بساط البحث سوى المحورَين الأوَّلين اللَّذين سنعيد صياغتهما على الشَّكل التالي:



(3) أمّا بالنسبة إلى الانتقادات التي تتناول المعايير والاختبارات التي يقترحها غريس، انظر: المصدر نفسه، ص 284 وما يليها.

(4) المصدر نفسه، ص 115.

إنَّ مفردات المُصطلح مُعبِّرةٌ بشكلٍ كافٍ. وفي الواقع، إنَّ ما سنستوحيه من أعمال دوكرو، بقصد تحديد هذين المحورَين المُمَيِّزَين فضلاً عن فئات المحتويات المضمَرة الثلاث، يفوق بأشواطٍ بعيدةٍ ما سنستلهمه من أعمال غريس. كما أنَّنا سنتحدَّث بإسهابٍ عن هذه التحديدات قبل التطرُّق إلى إشكاليّة الكلام المنطوق المُشتقّ، فضلاً عن أنَّنا سنتوقَّف في خضمّ ذلك عند إشكاليّة المحسنات البيانيّة «التداوليّة التواصليّة».

1.2. المحتويات البيِّنة في مقابل المحتويات المُضمَرة

إنَّ السؤال الذي يطرح نفسه قبل كلّ شيءٍ هو الآتي: أين يبدأ مجال المُضمَر؟

لقد تحدَّث غريس منذ عام 1957[5] عن التناقض القائم بين الكلام البيِّن والكلام المُضمَر، قائلاً: يُقصد من التكلُّم بشكلٍ بيِّنٍ «أن نتحدَّث عن أمرٍ ما» («to tell something»)، في حين يُراد من التحدُّث بشكلٍ مُضمَرٍ «أن نوحي لأحد الأشخاص بالتفكير في أمرٍ ما» («to get someone to think something»). ولكن كيف السبيل إلى حمل شخصٍ ما على التفكير في أمرٍ لم يتمّ التفوُّه به ولم يُذكر إطلاقاً في القول؟ أسوةً بالمحتويات البيِّنة، تكون برأينا المحتويات المُضمَرة مذكورةً في القول بطريقةٍ معيَّنةٍ - ينبغي تحديداً التعريف بها.

أمّا دوكرو[6]، فيطرح بدوره هذه الإشكاليّة على الشَّكل الآتي: في جملة «أقلع بيار عن التدخين» («Pierre a cessé de fumer»)، يُمكننا أن نعتبر أنَّ المحتوى صفر، وهو / لا يدخِّن بيار حاليّاً/ (/Pierre actuellement ne fume pas/)، مذكورٌ فيها بشكلٍ بيِّنٍ (= أي إنَّه «مُقرّرٌ»)، ما دام يُمثِّل «موضوع فعل القول المُعلَن». ونعتبر بالعكس أنَّ كلاًّ من المحتوى الأوَّل، وهو / كان بيار يُدخِّن في السابق/ (/Pierre fumait auparavant/)، والمحتوى الثاني، وهو / اتَّخِذ من ذلك أمثولةً ودرساً/ (/Prends-en de la graine/) مذكوران فيها بشكلٍ مُضمَرٍ، لأنَّ

---

(5) Herbert Paul Grice, «Meaning,» *The Philosophical Review*, vol. 66, no. 3 (Jul. 1957), p. 380.

(6) Oswald Ducrot, «Note sur la présupposition et le sens littéral,» dans: Paul Henry, *Le Mauvais outil: Langue, sujet et discours*, horizons du langage: Série recherches, avec une postface de Oswald Ducrot (Paris: Klincksieck, 1977), pp. 173 et sqq.

«المتكلِّم قادرٌ باستمرارٍ أن يدَّعي بأنَّه لم يَقصد قولهما».

ويقتضي علی الفور أن نشدِّد (وسنتطرَّق قريباً إلى موضوع التباين الجوهريّ القائم بين الافتراضات والمضمَّنات) على أنَّ صيغة «عدم قصْدِ القول» («non vouloir dire») تختلفُ من حالة المحتوى الأوَّل إلى حالة المحتوى الثاني. ويتبدَّل كذلك معنى عبارة «قصَدَ قول» («vouloir dire») التي يُبيِّن دوكرو في هذا الصدد تعدُّديتها الدلاليّة[7] قائلاً: أن «نقصد قول$_1$» («$vouloir\ dire_1$») جُمَيلةٍ معيَّنةٍ «ج»، يعني ذلك على صعيد القول، أن نقصد ما تنطوي عليه الجُمَيلة المُعيَّنة «ج» من معنى؛ ولكن أن «نقصد قول$_2$» («$vouloir\ dire_2$») الجُمَيلة المُعيَّنة «ج»، فيعني ذلك أن ننوي عَمْداً (ويتَّخذ الفعل المساعِد «قصَدَ» («vouloir») حينها معناه الأقوى) نقل المعلومة التي تعبِّر عنها الجُمَيلة المُعيَّنة «ج» إلى الشَّخص الآخر. والحال أنَّه يتمّ نقل الافتراضات، في حال لم تُشكِّل مبدئيّاً موضوع الخطاب الكلاميّ الأساسيّ، عبر القول الذي تكون مُدرجةً فيه بشكلٍ جوهريٍّ لا نزاع فيه (خِلافاً للمُضمَّنات). وبتعبيرٍ آخر، تُعتبرُ الافتراضات أموراً «نقصد قولها$_1$» من دون أن «نقصد قولها$_2$»[8].

وإنْ وضعنا هذا التباين جانباً[9]، نجد أنَّ المحتويات المُضمَرة (الافتراضات والمضمَّنات على حدٍّ سواء) تتشاطر الخاصّية نفسها، ألا وهي: إنَّها لا تُشكِّلُ من حيث المبدأ (وسنتفحَّص لاحقاً معنى عبارة «من حيث المبدأ» هذه) موضوع الكلام الحقيقيّ، في حين تتلاءم المحتويات البيِّنة، من حيثُ المبدأ أيضاً، وموضوع الخطاب الكلاميّ الأساسيّ الواجب نقله، كما أنَّها تكون مزوَّدةً هذه

---

(7) فضلاً عن ذلك، تؤثِّر تعدّدية المعاني هذه أيضاً على الكلمة المعادِلة الإنجليزية «يعني» (to mean)، مّما يُولّد (كما هو الحال في خطاب سيرل) إبهاماتٍ مُزعجةً.

(8) وعليه، ينبغي أن ننسب المعنى الثاني إلى هذه العبارة عندما يقول دوكرو عن مُرسِل الافتراض، ما يلي: «على الرّغم من قدرته على إنكار أنّه قصَدَ قول المعنى الذي فُهِمَ، إلاّ أنه عاجزٌ عن إنكار أنّه تفوّه به»، أي إنّه لا يستطيع أن يُنكر أنّه «قصَدَ قوله$_1$».

(9) يمكننا تلخيص هذا التباين على الشكل التالي:

	محتويات مُقرَّرة	افتراضات	مضمَنات
"نقصد قولها$_1$"	+	+	؟*
"نقصد قولها$_2$"	+	–	–

* في الواقع، سنرى لاحقاً أنّ المُضمَنات قد يتمّ إدراجها في متتاليةٍ معيّنةٍ بدرجاتٍ مُختلفةٍ من الوضوح.

المرّة «بأكبر قدرٍ من الملاءمة التواصليّة»، على رأي بوسنر[10] (R. Posner).

سيُشكِّلُ هذا التحديد نقطة الانطلاق التي سيرتكز عليها هذا التمحيص في موضوع المُضمَر. علماً بأنّه يؤخَذ عليه أنّه يركنُ كثيراً إلى حدس الأشخاص المتكلّمين (سواء أكانوا لغويّين ألسنيّين أم لم يكونوا). والحال أنَّ الحدس الألسنيّ يُعدُّ في صدارة الأمور التي لا تستقطبُ إجماعاً في الرأي، إذ يقول غريس، على سبيل المثال، بشأن الجملة التالية: «هو إنجليزيّ، فهو شجاعٌ إذاً» («il est anglais, il est donc courageux»)، أنّه بقوله هذا «يُعلِنُ أنَّ هذا الشَّخص هو إنجليزيّ، وأنّه شجاعٌ، ولكنّه لا يرمي من ورائه أن **يقول** حقّاً (بالمعنى القويّ لهذا الفعل) بأنَّ شجاعة هذا الشَّخص تتحدَّر من إنجليزيّته، على الرُّغم من أنّه يُضمرُ هذا المعنى»[11]. وهكذا، يرى غريس بأنّه قد تمّ التعبير عن العلاقة السببيّة بشكلٍ مُضمَرٍ، على الرُّغم من وجود الرابط «إذاً» («donc») الذي يتّصف مع ذلك بطابعه «البيِّن». إلاّ أنّنا سنبتُّ التضارب في الرأي الذي نلمسه هنا بين حدس غريس وحدسنا، بتعابيرَ حاسمةٍ، قائلين: إنَّ غريس على خطأ، ويخلط بين المُضمَر والبيِّن.

---

(10) Roland Posner, «L'Analyse pragmatique des énoncés dialogués,» *Documents de travail et prépublications. Centro Internazionale di Semiotica e di Linguistica. Universita di Urbino*, no. 113 (1982), p. 2.

(11) لقد أوردنا هذا المثل مُترجماً إلى اللغة الفرنسيّة (Herbert Paul Grice, «Logique et conversation,» *Communications*, no. 30 (1979)). (ولا ينبغي التشكيك بصحّة هذه الترجمة، وإليكم هذا المثل نفسه كما ورد في النصّ الإنجليزي الأصليّ، ألا وهو: He is an Englishman; he is therefore, «brave» مثلما جاء في: Herbert Paul Grice, «Logic and Conversation,» in: Peter Cole and Jerry L. Morgan, eds., *Syntax and Semantics. 3, Speech Acts*, Edited by John P. Kimball; Edited by Peter Cole and Jerry L. Morgan (New York; San Francisco; London: Academic Press, Harcourt Brace Jovanovich, 1975), p. 60.

وبمماثلةٍ، يرى موشلير (الذي يبدو في الصفحة 77 وكأنّه يُصدّق ما ورَدَ في تحليل غريس)، عن خطأ برأينا، أنّ في الأقوال التالية:

«سآتي، ولكن هذا الأمر يزعجني» (Je viendrai, mais ça m'embête)

«مع أنّ الأمر يزعجني، إلاّ أنّني سآتي» (Ca m'embête, mais je viendrai quand même)،

تتّخذ المعلومة التي بموجبها «يأتي القائل» (l'énonciateur viendra) وضع «الاستدلال» (Jacques Moeschler, *Dire et contredire: Pragmatique de la négation et acte de réfutation dans la conversation*, sciences pour la communication; vol. 2 (Bern; Frankfurt: Peter Lang, 1982), pp. 206-207).

ولكن ما هو أخطر بعد وأكثر تواتراً، إنَّما هي الحالات التي يعمد فيها البعض إلى معالجة ما نعتبره مُضمَراً من وجهة نظرنا معالجةَ البيِّن. وتبرزُ هذه الإشكاليّة بصورةٍ دائمةٍ في ما يتعلَّق بالافتراضات التي تمتاز بوضعٍ هو في الواقع بمنتهى الخصوصيّة ـ ونحن نتفهَّم، مع إبداء بعض التحفُّظ والمعارضة، مسألة عدم تقبُّل بعض الأشخاص واقع أن تكون المحتويات المُدوَّنة بوضوحٍ في المتتالية مُدرجةً فيها في الوقت عينه على طريقة صيغة المضمَر، مع العلم بأنَّها تكون مُستمدَّةً من باب الأولويّة من هذه الفئة الأخيرة، وذلك إذا ما سلَّمنا جدلاً على أيّ حالٍ بالتحديد المُقترح أعلاه (ولكنَّني لم أعثر في عداد التحديدات المطروحة، سواء تلك التي تُقسِّم بشكلٍ مماثلٍ أو مغايرٍ مجموعة وحدات المحتوى، على أيّ تحديدٍ مُرضٍ أكثر من ذلك الذي يطرحه دوكرو) بشأن التعارض القائم بين البيِّن/ المُضمَر، والذي يتَّصف فضلاً عن ذلك بطابعه التدرُّجيّ، علماً بأنَّنا نعنِّف دائماً الحقيقة الألسنيّة بعض الشيء، عندما نُحمِّل المحور المتدرِّج مسؤوليّة التفرُّع الثنائيّ هذا. وإنْ كان صحيحاً أنَّ الافتراضات هي أقرب إلى قطب «البيِّن» على هذا المحور من المُضمَّنات، وأنَّها تتشاطر مع المحتويات المُقرَّرة ميزة أنَّها لا تُقيم وزناً كبيراً لمُميِّزات القول السياقيّة؛ إلاّ أنَّه لا بدّ من التشديد على الاختلاف في الوضع بينها وبين المحتويات المُقرَّرة (ويتيح هذا الاختلاف، كما سنرى لاحقاً، إمكانيّة الحصول على استفاداتٍ استراتيجيّةٍ خاصّةٍ جداً).

وإليكم المزيد من الملاحظات التي تحثُّنا على تصنيف الافتراضات في خانة المحتويات المُضمَرة:

ـ هَبْ مثلاً التسلسل الكلاميّ التالي[12]:

المتكلِّم: لقد سقطت خطيبتي ضحيّة جريمة قتلٍ.

المخاطب: تهانينا وتعازينا.

(L_1. - Ma fiancée a été assassinée.

L_2. - Félicitations. Et condoléances).

إنَّ كلمة «تعازينا» («condoléances») التي تُعلِّق إنشائيّاً على المحتوى المُقرَّر

---

(12) المستوحى من إيونيسكو (Ionesco).

الذي يُدلي به المُتكلّم، هي مُرتقبةٌ تماماً، في حين تبدو كلمة «تهانينا» («félicitations»)، وذلك إذا ما اعتبرناها (لأنَّ ثمّة تأويلاتٍ أخرى لهذه الجملة) بمثابة التعليق على الافتراض القائِل /لقد عقدتُ خطبتي/ (/je me suis fiancé/)، مخالفةً تماماً للمألوف وغير لائقةٍ[13].

- إليكم أيضاً المتتاليتَين التاليتَين:

(i) - لقد أقلع بيار عن التدخين.

- لم تخبرني أبداً أنّه كان يُدخِّن.

((i) - Pierre a cessé de fumer.
- Tu ne m'as jamais dit qu'il fumait)

(ii) - لقد ألمحتَ إلى أنّني لا أبذل أيّ مجهودٍ للإقلاع عن التدخين. لا بل حتّى إنّني أعتقد أنّك قلتَ ذلك فعلاً.

((ii) - Tu as insinué que je ne foutais rien. Je crois même que tu l'as dit

تُشكِّل هاتان المتتاليتان نموذجَين مصغَّرَين لأنواع من الخطاب لا قواسم مُشتركة بينها، باستثناء أنّها تُثبِتُ وجوب النظر إلى الافتراضات والمضمَّنات باعتبارها أقوالاً مُبطَّنةً (أي أقوالاً مُضمَرةً)، ففي المتتالية الأولى (i)، يأخذ المخاطب على المتكلِّم أنّه لم يُبلِّغه مطلقاً بأمرٍ قد أخبره به للتوّ، إنّما على شكل افتراضٍ. أمّا في المتتالية الثانية (ii)، فيفضحُ استعمال كلمة «حتّى» («même») وجودَ الإلماح (وهو حالةٌ خاصّةٌ من حالات المضمَّن) باعتباره نوعاً من أنواع القول المُخفَّف. وتُعتبر الافتراضات والمُضمَّنات بمثابة المعلومات «المدسوسة

(13) ولا يعني ذلك أنّنا لا نستطيع أبداً أن نسلسل الكلام «بشكلٍ سويّ» عقب الافتراضات (وبشكلٍ عامٍّ أكثر عقب المحتويات المُضمَرة)، إذ يشهد التبادل الحواري (المُقتبس عن مسرحية **القاتل المأجور** (*Tueur gages*) لإيونيسكو) الذي يوجزه المثل الذي أوردناه، بعكس هذا الأمر:

بيرانجي: سقطت خطيبتي ضحيّة جريمة قتلٍ، هل تفهم؟

إدوارد: أتقول خطيبتك؟ أنتَ مخطوبٌ إذاً؟ لم تحدّثني أبداً عن مشاريع الزواج التي تخطّط لها. تهانينا. وتعازينا أيضاً.

(BÉRANGER. - «Ma fiancée a été assassinée, entendez-vous?
ÉDOUARD. - Votre fiancée? Vous êtes donc fiancé? Vous ne m'aviez jamais parlé de vos projets de mariage. Mes félicitations. Mes condoléances aussi).

ولكن تخضع إمكانيات تسلسل الكلام عقب محتوياتٍ مُضمرةٍ إلى قواعدَ إجباريّةٍ صارمةٍ (فضلاً عن أنّ شرحها يقتضي الكثير من الدقّة).

خفيةً» - أي إنَّها تكون مزوّدةً بملاءمةٍ تواصليّةٍ أقلّ شأناً من تلك التي تتمتّع بها المعلومات البيّنة، كما أنّها تحتلُّ مركزاً أدنى مرتبةً داخل البُنية الرقائقيّة التي يتألّف منها محتوى الأقوال الإجماليّ.

ومن هذه الزاوية، قد «نغفلُ» على نحوٍ أكثر براءةً لا خلفيَّة له عن فكّ شيفرة الافتراضات والمُضمَّنات أو حتّى احتماليّاً عدم التنازع بشأنها، كما يبيّنه نولك[14] (H. Nølke) في ما يتعلّق بالمثل التالي:

أكنت قد عُدتَ أدراجك لتكون بالقرب من زوجتك يوم السابع من أيلول/ سبتمبر بعد مضيّ يومين على رحيلك؟

(Vous étiez déjà revenu auprès de votre femme le 7 septembre deux jours après votre départ?)

يطرح هذا المثل، فضلاً عن المحتوى المُقرَّر، ومفاده /أكنتَ بالقرب من زوجتك يوم السابع من أيلول/ سبتمبر؟/ (/Étiez-vous auprès de votre femme le 7 septembre?/)، الافتراضات التراتبيّة التالية كمقرَّراتٍ، ألا وهي:

الافتراض الأوّل: /لديك زوجة/ (pp1: /Vous avez une femme/)

الافتراض الثاني: /كنتَ بالقرب منها اليوم الخامس من أيلول/ سبتمبر/ (pp2: / Vous étiez auprès d'elle le 5 septembre/)

الافتراض الثالث: /رحلتَ يوم الخامس من أيلول/ سبتمبر/ (pp3: /Vous êtes parti le 5 septembre/)، ... إلخ.

ولكن، وإنْ كان الكذب في معرض الردّ على المحتوى المُقرَّر يُعدُّ خطأً فادحاً، «إلاّ أنّه لا يُعتبر كذلك في حال «أغفلَ» الشّاهد أن يَلفِت الانتباه - مثلاً - إلى أنَّه قد رحل يوم الرابع من أيلول/ سبتمبر، ويُعزى ذلك إلى سببَين، وهما: إمّا أنَّه قد فاته إدراك الافتراض الثالث، وإمّا أنّه اعتبره - عن حُسن نيَّةٍ - غير ذي أهميّةٍ».

يختلفُ وضع الافتراضات الألسنيّ اللُّغويّ (وبالتالي القانونيّ أحياناً) عن وضع المحتويات المُقرَّرة. كما أنَّها لا تصلح لأنماط التسلسل الكلاميّ عينها

---

(14) Henning Nølke, «La Présupposition: Essai d'un traitement formel,» *Semantikos*, vol. 4 (14) (1980), p. 55.

(ولاسيما تلك القابلة للدحض). وتجدر الإشارة إلى أنَّه كلَّما وُرِّيت الافتراضات أكثر، كان من غير الضروريّ أن «نُبيِّنها» دائماً. وهي تتَّصفُ كذلك بأنّها أقلّ قابليّةً للإدراك وأقلّ أهميّةً (ظاهريّاً) وأكثر تبطيناً، ممّا يجعلها محتوياتٍ مُضمَرةً عن جدارةٍ. ويشكِّل هذا التبطين في آنٍ مصدر قوَّتها، كما أنَّه يزوِّدها بقدرة التلاعب التي تُذكِّرنا بالقدرة المُخيفة، كما نعلم، التي تتمتَّع بها الإشارات «التي لا يُشعَر بها».

2.2. مفهوم الاستدلال

سنطلق اسم «استدلال» على أيّ جُمَيلةٍ مُضمَرةٍ يمكننا استخلاصها من القول واستنتاجها من محتواه الحرفيّ عبر التوفيق بين معلوماتٍ ذات وضعٍ متغيِّرٍ (من داخل القول ومن خارجه)[15].

وهكذا، فللاستدلال المُحدَّد على الشّكل المُبيَّن أعلاه مفهومٌ واسعٌ في دلالته يتجلَّى على الشَّكل الآتي:

يتجاوز الاستدلال بهذا المعنى النطاق الضيّق للمنطق الصُّوريّ حيثُ تخضع الآليّات الاستدلاليّة (سواء أفرزت استدلالاتٍ «تحليليّةً» أو «تداوليّةً تواصليّةً» أو «منطقيّةً» أو «تجريبيّةً») إلى ترميزٍ أشدّ صرامةً من ذلك الذي يُنظِّم استخراج الاستدلالات «الطبيعيّة». وعليه، فإنَّنا نتحدَّث مجازيّاً عن الاستدلال حين نُسلِّم بأنَّ المعنى «المنطقيّ» لهذا المُصطلح يُشكِّل مُنفرداً معناه «الحقيقيّ» - إلاّ أنَّه مجازٌ مُبرَّرٌ، انطلاقاً من واقع أنَّه تماماً كما نقع، بحسب بلانشي (R. Blanché)، على «علاقةٍ لا تُفصم عُراها» تربط أواصرها بين التدليل المنطقيّ والاستدلال المنطقيّ[16]، كذلك فإنَّ استدلالاتنا هي حصيلة «حسابٍ» معقَّدٍ تقريباً.

يتَّصفُ الاستدلال من وجهة نظرنا، كونه يفضحُ المحتويات المُضمَرة بكافَّة أنواعها، بما يلي:

---

(15) وبالتالي، وبحسب الاستعمال المصطلحيّ الذي نعتمده، تُشير كلمة «استدلال» (inférence) بالتالي إلى إحدى وحدات المحتوى، وليس إلى مجموعة الإجراءات التي تُفضي إليه. ونلاحظ، حتّى في مضمار المنطق، وجود هذا الانزلاق المجازي المرسل الذي يُصيب بمماثلةٍ مصطلحات من مثل «فعل القول» و«الافتراضيّة» (ونستطيع هنا أيضاً أن نضع الافتراضيّة في مقابل المحتوى الافتراضيّ)...، إلخ.

(16) بشأن العلاقات التي تربط بين التدليل المنطقيّ والاستدلال، راجع الفصل الأوّل من كتاب: Robert Blanché, *Le Raisonnement*, bibliothèque de philosophie contemporaine (Paris: Presses universitaires de France, 1973).

• إنَّه يُغطّي في آنٍ ما يُطلق عليه كارول[17] (Charolles) اسم «عمليّة الافتراض» و«الاستدلال»، أي بكلام آخر، إنّنا نستعمل الدالّ الذي يُخصِّصه كارول للدلالة على ما نُسمّيه نحن «مضمّناتٍ»، باعتباره مصطلحاً شاملاً. وتجدر الإشارة إلى أنَّ هذا التباين هو مصطلحيٌّ صرف؛

• إنَّه يتلاءم و«الاستلزامات الخطابيّة» التي يتحدَّث عنها غريس، وهو يتناسب كذلك مع «العلاقات التضمينيّة» التي يُشير إليها ريكاناتي (Récanati)؛

• فضلاً عن أنّه يتطابق تماماً، لجهة الدالّ والمدلول، مع «الاستدلالات» التي يتحدَّث عنها روبير مارتن[18] (Robert Martin).

هذا وتتلاقى وجهات نظرنا مع وجهات نظر مارتن في ما يتعلَّق بالتمييز الذي يقيمه ضمن مجموعة الاستدلالات بين طائفتَين فرعيَّتين يُطلق عليهما[19] اسم «استدلالات ضروريّة» (تكون مستقلَّةً عن مقام الخطاب) في مقابل «استدلالات مُمكنة» (يكون تحقُّقها العارض رهن السياق التعبيريّ الأدائيّ) - ويتطابق هذا التمييز تطابقاً تامّاً مع التمييز الذي نقيمه بين الاستدلالات المُفترضة والاستدلالات المُضمَّنة. ولكنَّ مارتن[20] يُردفُ قائلاً: «سنضع الاستدلال المقاميّ جانباً، وسننكبُّ حصريّاً، في كلّ ما سيَرِد في هذا السياق، على دراسة استدلال اللّغة [...]». وهو يؤكّد بشأن «الافتراضات التداوليّة التواصليّة»[21] ما يلي: «تكون بعض الافتراضات مستقلَّةً عن المحتوى الذي تنقله الجُمل، ومنوطةً حصريّاً بفعل القول نفسه. وبالتالي، لا يكترث الألسنيّون اللُّغويّون كثيراً لأمرها، كما أنّنا بدورنا لن نُطيل الحديث بشأنها». ونظراً إلى أنَّ مارتن يُعدُّ نفسه من

---

(17) Michel Charolles, «Introduction au problème de la cohérence des textes,» *Langue française*, no. 38 (mai 1978).

(18) أمّا بالنسبة إلى تحديد «فعل الاستدلال» الذي يقترحه أنسكومبر ودوكرو، فضلاً عن التمييز الذي يُدخلانه بين الاستدلال «المنطقيّ» و«البرهانيّ»، راجع كتاب: Jean-Claude Anscombre et Oswald Ducrot, *L'Argumentation dans la langue*, philosophie et langage (Bruxelles; Liège: P. Mardaga, 1983), pp. 9 et sqq. et 91 et sqq.

(19) Robert Martin, *Inférence, antonymie et paraphrase: Eléments pour une théorie sémantique*, bibliothèque française et romane. Série A, Manuels et études linguistiques; 39 ([Paris]: C. Klincksieck, 1976), p. 37.

(20) المصدر نفسه، ص 37.

(21) المصدر نفسه، ص 47.

مناصري التقليد الماثليّ، فهو بالتالي لا يولي في هذا الصدد اهتماماً إلاّ للمعطيات «اللُّغويّة»[22]، وينظر إلى الظواهر ذات الطابع «التداوليّ التواصليّ» باعتبارها رديفةً. والحال أنَّ خياراتنا الوصفيّة الإيضاحيّة مُغايرة تماماً، ممّا يدفعنا بالعكس إلى تبئير تفكيرنا على المضمَّنات التي «تُثير اهتمامنا» أكثر من الافتراضات، باعتبار أنَّها تُقيم الدليل بفظاظةٍ على مدى تعقيد الآليّات التأويليّة، وإلى التأمُّل في أُطُر وجهة النظر الماثليّة وضرورة تجاوزها.

3.2. الافتراضات في مقابل المُضمَّنات[23]

1.3.2. الافتراضات

1. إشكاليّات التحديد

نُصنِّفُ في خانة الافتراضات كلّ المعلومات التي، وإنْ لم تكن مُقرَّرةً جهراً (أي تلك التي لا تُشكِّل مبدئيّاً موضوع الخطاب الكلاميّ الحقيقيّ الواجب نقله)، إلاّ أنَّها تنتج تلقائيّاً من صياغة القول التي تكون مدوَّنةً فيه بشكلٍ جوهريٍّ، بغضّ النظر عن خصوصيّة النطاق التعبيريّ الأدائيّ.

---

(22) وتجدر الإشارة إلى أنّ مارتن قد عَمَدَ، عام 1982 في مقالةٍ بعنوان «De la sémantique à la pragmatique: Théorie et illustrations» إلى إعادة النظر في هذا الموقف، وهو يُنصِّب نفسه بفصاحةٍ المُبشِّر بألسنيةٍ تضمّ «تداولية تواصلية» حقيقيّة «للقول» أي، للجملة التي تُفعَل في السياق وتُقَوْلَب فيه.

(23) يتطابق هذا التمييز، كما أشرنا سابقاً، مع التمييز الذي يُرسي أسسه كلّ من:

كارول (Charolles, «Introduction au problème de la cohérence des textes») بين «عمليّة الافتراض» في مقابل «الاستدلال»

مارتن (Martin, *Inférence, antonymie et paraphrase: Eléments pour une théorie sémantique*) بين «الاستدلال الضروريّ» في مقابل «المُحتمل».

ويُمكن مقارنته من جهةٍ ثانيةٍ مع الثنائيّات التصوّرية التالية:

الثنائية التي يقترحها غريس بين «الاستلزامات الخطابية الاتّفاقيّة» في مقابل «غير الاتّفاقيّة» (ولاسيّما التحادثيّة منها)، وثنائيّة ريكاناتي (François Récanati: *La Transparence et l'énonciation: Pour introduire à la pragmatique*, l'ordre philosophique (Paris: Editions du Seuil, 1979), et «Insinuation et sous-entendu,» *Communications*, no. 30 (mai 1979)).

بين «العلاقات التضمينيّة المنطقيّة» في مقابل «التحادثيّة»، وأخيراً ثنائيّة سبيربر وويلسون (Deirdre Wilson et Dan Sperber, «Remarques sur l'interprétation des énoncés selon Paul Grice.» *Communications*, no. 30 (1979)).

بين «العلاقات التضمينيّة» و«الإضماريّة».

بيد أنّها تدين بالقسم الأكبر منها إلى دوكرو طبعاً.

ـ هذه المعلومات المُفترضَة يمكن أن تكون ذات مستويات مختلفة (بالمعنى الذي يستعمل فيه جاكوبسون هذا المصطلح). بيد أنَّ ما يُثير اهتمامنا بشكلٍ أساسيٍّ إنَّما هو مستوى القول. وبالتالي، نقول على سبيل المثال إنَّ في جملة «أقلع بيار عن التدخين» («Pierre a cessé de fumer»)، ينقلُ الفعل «أقلع» (cesser) افتراضاً (معجمياً)، يتَّخذ منه الاستدلال المُفترَض (ويمكننا أن نسمِّيه بشكلٍ مُختصرٍ: الافتراض) وهو / كان بيار يُدخِّن سابقاً/ (/Auparavant Pierre fumait/)، قاعدةً يرسي عليها أسسه.

ـ تكون الافتراضات من حيث المبدأ «منعدمة السياق» (context-free) (بخلاف المُضمَّنات التي تندرجُ في إطار «سياقٍ حسيٍّ» (context-sensitive)). إلاّ أنَّ هذا المبدأ يُمنى على ما يبدو بالفشل في بعض الحالات. كما يظهرُ في حالة الافتراضات المُرتبطة بتحديد «بؤرة» قولٍ مُعيَّنٍ، وإليكم المثل التالي:

لقد زرت مدينة موسكو برفقة بيار («J'ai visité Moscou avec Pierre»).

في الواقع، يستلزِمُ هذا المثل واحداً من افتراضَين: الأوَّل، وهو / لقد زرتُ مدينة موسكو/ (/j'ai visité Moscou/) (وعليه، يكون المحتوى المُقرَّر كالآتي / لقد قمتُ بهذه الزيارة برفقة بيار/ (/c'était avec Pierre/))، أمّا الثاني، فهو / لقد فعلتُ أمراً ما برفقة بيار/ (/j'ai fait quelque chose avec Pierre/) (ويكون المحتوى المُقرَّر كالآتي / القيام بزيارة مدينة موسكو/ (/visiter Moscou/)). كما تُجيب هذه الجملة فرضيّاً على السؤالَين المتباينَين التاليَين:

السؤال الأوَّل: برفقة مَن قمتَ بزيارة موسكو؟ («Avec qui as-tu visité Moscou?»)

السؤال الثاني: ماذا فعلت برفقة بيار؟ («Qu'est-ce que tu as fait avec Pierre?»)

وانطلاقاً من هذا المثل، إنَّ دوكرو[24] مدعوٌّ إلى إعادة النظر في تصوُّره السابق بشأن الافتراض (باعتباره وحدةً مُدرجةً في اللّغة ومن شأنها أن تُكوِّن

(24) Ducrot, «Note sur la présupposition et le sens littéral,» dans: Henry, *Le Mauvais outil: Langue, sujet et discours.*

المحتوى الحرفيّ)، وإلى الاعتراف بأنّ «فعل القول قادرٌ على استنباط الافتراضات». ومع ذلك، لا مانع من أن نعتبر أيضاً أنّ كلتا البُنيتَين الافتراضيَّتَين الآنفتَي الذكر مُدرجتان في اللّغة. ويُعوَّل ببساطةٍ ضمن الخطاب على السياق أو السياق الحاليّ للنصّ (ولاسيّما نمط التنغيم الأدائيّ والنبريّ) لإزالة الإبهام الذي يكتنفُ هذه الجملة داخل اللّغة[25]، وذلك بمقتضى آليّةٍ تطبع كذلك المحتويات المُقرَّرة. وبالتالي، تكون غالبيّة العناصر الدالَّة المُعجميّة والنحويّة متعدِّدة المعاني في اللّغة، في حين أنّها تتَّصف بكونها قابلةً لأن تكون أحاديّة المَفهَم فقط ضمن السياق أو السياق الحالي للنصّ، وعلى هذا ينتفي وجود المحتويات الحرفيّة... أمّا نحن فنؤثر تبنّي الموقف التالي: تكون الافتراضات مُدرجةً في اللّغة، ولا يتدخَّل السياق أو السياق الحاليّ للنصّ إلاّ لإزالة تعدُّدية المعاني المُحتملة الوقوع (وفي الحقيقة، لا تطرح غالبيّة الافتراضات أيَّ إشكاليّةٍ من هذا القبيل، وتتبادر إلى ذهننا حالة الفعل «أقلعَ» (cesser) على سبيل المثال). وفي المقابل، تَنتجُ المضمَّنات جرّاء فعلٍ مُشتركٍ بين العوامل الداخليّة والخارجيّة، في حين يضطلع السياق أو السياق الحالي للنصّ بدورٍ إيجابيٍّ هذه المرّة في عمليّة إيلاد المحتوى المُضمَر.

- غزيرةٌ هي الكتب التي تناولت بالدراسة الافتراضات، ولا مجال البتَّة لتلخيص كلّ ما وردَ فيها في هذا المعرض. إلاّ أنّنا سنكتفي في ما يلي بالإشارة إلى بعض النقاط التي نوقشت فيها على نطاقٍ واسعٍ.

(1) عمليّة الافتراض والعلاقة التضمينيّة

يقوم التمييز بينهما بحسب مارتن[26] على المبدأ القائل: تستلزم الجُمَيلة

---

(25) تجدر الإشارة إلى أنّ الجملة تكون متعدّدة المعاني بقدر ما تملك مكوّناتٍ قابلةً لأن توضع في «بؤرة» تسليط الضوء، انظر: Ryszard Zuber, *Structure présuppositionnelle du langage*, documents de linguistique quantitative; no. 17, [publié par l'association Jean Favard pour le développement de la linguistique quantitative], Saint-Sulpice-de-Favières (Essonne), Association Jean Favard pour le développement de la linguistique quantitative ([Paris]: Diffusion Dunod, 1972), p. 90.

(26) Martin, *Inférence, antonymie et paraphrase: Eléments pour une théorie sémantique*, pp. 38-39,

انظر أيضاً: Dieter Wunderlich, «Les Présupposés en linguistique,» *Linguistique et sémiologie*, no. 5 (1978); Frédéric Nef, «Les Verbes aspectuels du français: Remarques sémantiques et esquisse d'un traitement formel,» *Semantikos*, vol. 4, no. 1 (1980), et Edward L. Keenan, «Sur l'évaluation des théories sémantiques des langues naturelles,» *Cahiers de lexicologie*, no. 29 (1976),

(الذي يصوغ التعارض نفسه ولكن واضعاً «عمليّة الافتراض» في مقابل «التبعية المنطقية»)...، إلخ.

الأولى «ج» الجُمَيلة الثانية «د» إذا ما انفكّت الجُميلة الثانية «د» (التي تكون صحيحةً بالضرورة إذا كانت الجُمَيلة الأولى «ج» صحيحةً) صحيحةً بالضرورة حتّى ولو نُفيت الجُمَيلة الأولى «ج». والمثل على ذلك الجملة التالية:

حالَ بيار دون ذهاب ماري («Pierre a empêché Marie de partir»)،

التي تستلزم ما يلي:

/كانت ماري تعتزم الذهاب/ (/Marie cherchait à partir/).

وفي المقابل، في حال كانت الجُمَيلة الثانية «د» مستتبعةً ضمناً بكلّ بساطةٍ من الجُمَيلة الأولى «ج»، فقد تكون الجُمَيلة «د» هذه (التي تبقى صحيحةً بالضرورة إذا كانت الجُمَيلة الأولى «ج» صحيحةً) صحيحةً أو خاطئةً إذا كانت الجُمَيلة الأولى «ج» خاطئةً، هبْ مثلاً:

باع بيار سيّارته التي كانت قوّة محرّكها حصانَين بخاريَّين («Pierre a vendu sa 2 CV»)،

التي تستتبع ضمناً ما يلي:

/باع بيار سيّارةً ما/ (/Pierre a vendu une voiture/).

وإليكم مثلاً آخر مُقتبساً هذه المرّة عن نولك[27]، ألا وهو:

/استخدمت شقيقتي السيّارة/ («Ma soeur s'est servie de la voiture/)

الذي يستلزم ما يلي:

/لديّ شقيقةٌ/ (/j'ai une soeur/)، (وهو افتراضٌ وجوديّ)

كما أنّه يستتبع ضمناً ما يلي:

/لقد استخدمت شقيقتي شيئاً ما/ (/ma soeur s'est servie de quelque chose/).

ولكن إذا ما خلُصنا ممّا تقدّم إلى أنّ النفي قد يؤثّر تبعاً للحالات في المحتوى المُستتبع ضمناً، أم يكون معدوم التأثير فيه (على غرار: «لم تستخدم شقيقتي السيّارة، لأنّها لازمت المنزل» («Ma soeur ne s'est pas servie de la

(27) Nølke, «La Présupposition: Essai d'un traitement formel,» p. 48.

في مقابل «لم تستخدم شقيقتي السيَّارة، بل voiture: elle n'est pas sortie») ركبت درَّاجتها» («Ma soeur ne s'est pas servie de la voiture: elle a pris sa bicyclette»)، فلسنا واثقين تمام الثقة أنَّ الافتراض يَسلَمُ دائماً من تأثيرات صيغة النَّفي، بحيثُ أنَّنا قد نتصوَّر تسلسلاً كلامياً يتَّخذ الشَّكل الآتي: «لم تستخدم شقيقتي السيَّارة، ويُعزى ذلك إلى السَّبب الوجيه ومفاده أنَّ ليس لديّ شقيقةٌ» («Ma soeur ne s'est pas servie de la voiture, pour la bonne raison que je n'ai pas de soeur»).

وهكذا، ها نحن ذا من جديدٍ أمام الإشكاليّة الشهيرة التي تُثير مسألة تحديد وضع القول الذي تكون بعض افتراضاته خاطئةً[28] بوضوحٍ.

تقضي الفرضيّة التي تلاقي عموماً قبولاً أكثر من غيرها، على أثر فريجهة (Frege) وستراوسن (Strawson)، بأنَّنا نعجز عن تقدير قولٍ من هذا القبيل على نحوٍ ملائم. ومن هنا نشأ التحديد الذي غالباً ما يتمّ اقتراحه بشأن الافتراض، ومفاده: إنَّه وحدةٌ من وحدات المحتوى التي ينبغي أن تكون صحيحةً بالضرورة كي يكتسب القول الذي ينطوي عليها إحدى قِيَم الحقيقة.

يتباين في الحقيقة الأثر الذي تُخلِّفه الجملة ذات الافتراضات الخاطئة عن ذلك الذي تُخلِّفه الجملة ذات المحتويات المُقرَّرة الخاطئة؛ إذ يمكننا في الحالة الثانية أن ندحض الجملة بكلّ بساطةٍ. في حين تتنوَّع ردَّات الفعل إزاء الحالة الأولى، وتختلفُ باختلاف طبيعة الافتراض وطبيعة المتكلِّمين المتفاعلين، إذ يُمكنهم إمّا أن «يدعوا الأمر يمرّ من دون الاعتراض عليه»، وإمّا أن يبقوا مسمَّرين لا ينبسون ببنت شفةٍ[29]، وإمّا أن يعترضوا عليه بشدَّةٍ (ويمتاز الاعتراض على الافتراض، كما يُبيِّنه دوكرو ببراعةٍ، بمؤدَّى جدليٍّ يفوق ذلك الذي تتَّصف به المحتويات المُقرَّرة، ومردّ ذلك إلى كونه لا يُشكِّك بمحتوى القول فحسب، بل

---

(28) بشأن هذه الإشكالية، انظر، من جملة أشخاص آخرين: Moeschler, *Dire et contredire: Pragmatique de la négation et acte de réfutation dans la conversation*, pp. 98 et sqq.

(29) تتلخَّص الجملة الوحيدة التي وجَّهها رولان بارت (Roland Barthes) إليّ شخصيّاً على الشكل التالي (وقد دار هذا الحديث عقب انتهاء إحدى الحلقات الدراسية التي كان يُلقيها في إحدى الحانات الصغيرة حيثُ احتسيتُ كأساً من عصير الكشمشة): «قلْ لي، هل كان لذيذاً عصير الرمان؟»، فلزمتُ الصمت لعدّة أسبابٍ، أبرزها: لا يُمكن أن أحكم على شراب الرمان هذا إنْ كان طعمه لذيذاً أم سيّئاً، لأنّني لم أحتسِ شراب الرّمان. أمّا أليس في بلاد العجائب (Alice au pays des merveilles) والتي مرّت بتجاربٍ مماثلةٍ (تصدمُ نوعاً ما)، فكانت تؤثِر عادةَ الاحتجاج الناقم على الصمت المذهول.

حتّى بالسلوك التعبيريّ الأدائيّ للشّريك الخطابيّ. ويردفُ دوكرو قائلاً: أن نُخطئ (errare) بشأن المحتويات المُقرَّرة هو أمرٌ من طبيعة البشر (Humanum est). وفي المقابل، يُعَدُّ ترميز الافتراضات التي تكون خاطئةً بوضوح انتهاكاً لنوع من أنواع مبادئ الأدبيّات التي ترعى الاستعمالات الكلاميّة السليمّة)، كأن يعترض المتكلّمون المتفاعلون عليه بواسطة حروفٍ من مثل «لكن. . .» («mais...»)، أو عباراتٍ من مثل «بادئ ذي بدء. . .» («d'abord...»)، ممّا يفضحُ بالتحديد واقع أنَّ حقيقة الافتراضات تُشكِّل نوعاً من التهيئة لمتابعة التبادل، كما يظهر في المثلَين التاليَين:

ينقص وِسادٌ - إنَّها وسادةٌ أوّلاً! («Il manque un pelochon! - Cest un oreiller d'abord!)

لماذا يشخر الرجال ولا تشخر النساء؟ - أوّلاً، ثمّة نساءٌ تشخرنَ («Pourquoi les hommes ronflent et pas les femmes? - D'abord, y a des femmes qui ronflent...).

- وعليه، تتنوَّعُ التأثيرات الخاصّة التي ترتكز على الوضع الخاصّ الذي تتَّصف به مثل هذه الإنتاجات الخطابية، والتي تبدو في الحقيقة «غير ملائمةٍ» أكثر منها خاطئةً.

مع ذلك، قد ننعتُ أحياناً بالخاطئة بعض الأقوال التي نعتبر أنَّ افتراضاتها خاطئةٌ، فننزلقُ نوعاً ما من التقدير، كأن نقول مثلاً: «ما تزعمُه غير مُلائم إذ إنَّ افتراضاته تفتقر إلى الصحّة» («votre assertion est inappropriée puisque ses présupposés sont faux»)، وصولاً إلى التقويم، كقولنا مثلاً: «ما تتقدّم به عارٍ من الصحة جملةً وتفصيلاً، بل مغلوطٌ» («vous dites des choses fausses, erronées»). ويُقيم موشلير[30] في معرض تحليل إحدى المناقشات المُتلفزة الذي جمعت بين جيسكار (Giscard) وميتران (Mitterand) الدليل على أنّ نمطَي الدحض الآنفي الذكر يعانيان خللاً لجهة تحديد معالمهما.

---

(30) Jacques Moeschler, «Approche d'un acte de discours: La Réfutation dans le débat télévisé Giscard-Mitterrand (1974),» *Travaux du centre de recherches sémiologiques de l'université de Neuchâtel*, no. 35 (juillet 1979).

وإليكم المزيد من الأمثلة المُستمدَّة من سياقاتٍ مختلفةٍ:

(i) بتخلّيك عن تأدية دور قائد الجوقة للانصراف إلى عزف موسيقى الغرف(*)، ألا تخاف الانحدار إلى دركٍ أدنى شأناً من منصب الشَّرف الذي كنتَ تحتلُّه في السابق؟

- لا أعتبر أنَّ دور قائد الجوقة مدعاة للشرف، لذا لا خطر عليّ من الانحدار [وعليه من الشُّعور بالخوف](31).

((i) - Vous n'avez pas peur, en abandonnant votre rôle de chef d'orchestre pour faire de la musique de chambre, de tomber un peu de votre piédestral?

- Je ne conçois pas le rôle de chef d'orchestre comme un piédestral, alors je ne risque pas de tomber [donc d'avoir peur])

(ii) لمَ لا يُحبُّ الفرنسيّون الأمريكيِّين؟

- ولكنَّ هذا الأمر عارٍ عن الصحَّة.

((ii) - Pourquoi est-ce que les Français n'aiment pas les Américains?

- Mais c'est pas vrai!)

(iii) - ليس صحيحاً أنّني أمضيتُ ثلاثة أسابيع إلى جانب جثَّة أمّي بالتبنّي، لأنَّ السيِّدة روزا ليست أمّي بالتبنّي(32)

((iii) - Ce n'est pas vrai que je suis resté trois semaines à côté du cadavre de ma mère adoptive parce que Madame Rosa n'était pas ma mère adoptive

وبالتالي، فمن الخطأ أن نعتبر، كما يقول بوسنر(33) (Posner)، أنَّ المحتويات المُقرَّرة قادرةٌ منفردةً أن تُشكِّل موضوع «التعليق المباشر»، كأن نقول مثلاً، «هذا خطأٌ» («C'est faux!»)، إذ نستطيع، في بعض الحالات على الأقلّ، حتّى أن «نقوِّم» القول ذا الافتراضات «غير المُتماسِكة».

ولكن هل يخوِّلنا ذلك أن نقول، على أثر ما يؤكِّده نولك الذي يُميِّز «الصواب» (المنسوب إلى الافتراضات) عن «الزَيْف» (المنسوب إلى المحتويات

(*) إنّها قطعة موسيقيّة يتمّ تأليف كلّ قسم منها لعازفٍ واحدٍ فقط، وقد أُطلِقَ عليها هذا الاسم لأنّها كانت مُخصَّصة للعزف في محيط النبلاء أو الهواة الميسورين.

(31) مقابلة أجراها دانيال بارومبوام في برنامج France Music.

(32) Emile Ajar, *La Vie devant soi: Roman* ([Paris]: Mercure de France, 1975), pp. 268-269.

(33) Posner, «L'Analyse pragmatique des énoncés dialogués».

المُقرَّرة)، أنَّنا نستطيع أن نُسلِّم بوجود أربع فئاتٍ من الأقوال، هي التالية:

صحيحة وصائبة	صحيحة ومغلوطة
خاطئة وصائبة	خاطئة ومغلوطة؟

لقد أوردنا آنفاً عدداً من الأمثلة عن بعض الأقوال التي تُعتبر «خاطئةً ومغلوطةً». أمّا بالنسبة إلى الأقوال «الصحيحة والمغلوطة»، فيُبرهن نولك وجودها قائلاً: «ردَّ عددٌ من الطلاَّب بالإيجاب على السؤال التالي: «أودُّ أن أعرف مَن منكم قد أقلع عن التدخين؟» («J'aimerais savoir: Qui a cessé de fumer?») الذي طُرح خلال اختبارٍ أُجريَ في صفٍّ يضمّ تلامذةٍ تُناهز أعمارهم الأثني عشر ربيعاً، علماً بأنَّ هؤلاء الطلاّب لم يكونوا من المُدخّنين عندئذٍ، وحتّى إنَّه لم يسبق لهم أن دخَّنوا في حياتهم. ويعلّق نولك على ذلك[34] قائلاً: «أستطيع أن أؤوِّل هذه النتيجة على الشَّكل الآتي: لقد فهم هؤلاء الطلاّب السؤال الذي طرحه عليهم أستاذهم باعتباره يتعلَّق فقط بالمحتوى المُقرَّر للقول المُستعمل. ويعني ذلك، بحسب مصطلحيتنا، أنَّهم ارتأوا أنَّه من المُلائم أن يُميِّزوا بين ما هو صحيحٌ وما هو خاطئٌ بغضّ النظر عن قيمة الصواب. وقد اتَّضح من المناقشة التي دارت في الصفّ بأنَّ النتيجة التي أثمرها الاختبار المذكور تقوم على مبدأ عدم إدراك الطلاّب المعنيِّين لعملية الافتراض». ممّا يدفعنا إلى القول إنّه لا يحقّ للطالب أن يعتبر القول التالي: «لقد أقلعتُ عن التدخين» صحيحاً إلاّ في الحالات التي يكون فيها الافتراض (الخاطئ) غير مُدركٍ أو «منسيٍّ» أو ممحوٍّ من وعيه (إذ، كما سبق وأشرنا، لا أهميّة للافتراضات مقارنةً بالمحتويات المُقرَّرة). وبالتالي، لا يسعنا حقيقةً أن نتحدَّث في مثل هذه الحالات (مع أنَّني لا أعتقد أنَّنا قد نُصادف حالاتٍ أكثر إقناعاً) عن قولٍ يتَّصف بأنّه «صحيحٌ» و«مغلوطٌ»، إذ سرعان ما نُدرك أنّ قولاً ما هو «مغلوطٌ» بشكلٍ واضحٍ، حتّى نميل تلقائيّاً إلى اعتباره خاطئاً[35].

وبالعودة إلى التمييز بين «الافتراض» (بالمعنى الضيّق للكلمة) / و«العلاقة

---

(34) Nølke, «La Présupposition: Essai d'un traitement formel,» p. 55.

(35) يؤخذ على برهنة نولك أيضاً واقع أنّها تُصوّر صواب الأقوال وحقيقتها باعتبارهما خصائص «قائمة بذاتها»، في حين أنّه لا يُصار إلى تحديدهما إلاّ بالنسبة إلى معارف المتكلّم، وبشكلٍ أدقّ الشخص الذي يفكّ الترميز، وآرائه.

التضمينيّة»، لا يسعنا بغية إرساء أسسه أن نركن اعتباطيّاً إلى اختبار النفيّ لأنّه قد ينال أحياناً الافتراضات نفسها (فعلى سبيل المثال: «لم يُقلع بيار عن التدخين، لأنّه لم يسبق له أن دخَّن مطلقاً» («Pierre n'a pas cessé de fumer, puisqu'il n'a jamais fumé»)). وبناءً على ما تقدَّم نستنتج ما يلي: إنَّ التحدُّث عن النفي «اللُّغويّ الانعكاسيّ» هو أمرٌ صائبٌ بلا ريب، ولكنه لا يأتي بحلولٍ ناجعةٍ لهذه المسألة. وعلى أيّ حالٍ، سنعتبرُ هذا التمييز ثانويّاً[36]، وإنَّ مصطلح «افتراض» («présupposé») يشتملُ من وجهة نظرنا على كلّ «علاقات القول التضمينيّة»، طالما تكون بالحدّ الأدنى مُدرجةً فيه بشكلٍ مستقرٍّ وثابتٍ (أي أن تكون علاقاتٍ تضمينيّةً «ضروريّةً»).

(2) عملية الافتراض والإعلام

ثمّة خاصيةٌ أخرى يُشار إليها في أغلب الأحيان بشأن الافتراضات (علماً بأنَّ هذه الخاصيَّة هي منوطةٌ بالخاصيَّة السابقة القائلة: في نطاق أنَّ الافتراضات هي غير إخباريّةٍ من حيث المبدأ، فهي تتمايز عن المحتويات المُقرَّرة لجهة اختلاف وضع زَيفها)، ألا وهي: تتعارض الافتراضات مع المحتويات المُقرَّرة تعارُض «ما يُفترض أن يكون معلوماً» مع «ما يُفترض أن يكون مجهولاً» (بحسب ستراوسن[37]). وبكلامٍ آخر، من المُفترض أن تتطابق المحتويات المصوغة على شكل افتراضاتٍ مع حقائق معروفةٍ سلفاً ومقبولةٍ من قبل المُرسَل إليه ـ كأن تكون مُستمدَّةً مثلاً من معرفته الموسوعيّة الخاصّة، أو أن تتلاءم و«بديهياتٍ» من المفروض أن يتشاطرها عموم الأشخاص المنتمين إلى الجماعة المُتكلِّمة. وعليه، تكون هذه المحتويات «مُسلَّماً بها» (taken for granted) ولا يسعها أن تُشكِّلَ «موضوع نزاع» (matter of dispute) (بحسب هانتلي[38] (Huntley))، بخلاف المحتويات والمحتويات المُقرَّرة والمُضمَّنات، التي تُشكّل معلوماتٍ «جديدةً»،

---

(36) نتّفق مع دوكرو الذي يقول في كتابه ما يلي: «لقد حاولنا جاهدين في مقالةٍ كُتبت عام 1966 [...] أن نُحدّد الافتراض بمواجهته مع العلاقات التضمينيّة. ويحثّنا الفصلَين الثاني والثالث من هذا الكتاب نفسه على التخلّي عن هذه المحاولة»، في: Oswald Ducrot, *Dire et ne pas dire: Principes de sémantique linguistique*, collection savoir (Paris: Hermann, 1972), p. 101.

(37) P. F. Strawson, *Logico-Linguistic Papers* (London: Methuen, 1971).

(38) Martin Huntley, «Presupposition and Implicature,» *Semantikos*, vol. 1, no. 2 (1976), p. 71.

فتكون بالتالي «قابلةً للنقاش» على نطاقٍ واسعٍ.

وعليه، أيّ فائدةٍ تُرتجى من الافتراضات في الديناميكيّة الخطابيّة إذا ما كانت تنتهكُ جهاراً قانون الإخباريّة؟ ويتلخَّص الجواب على هذا السّؤال على الشَّكل الآتي: أوّلاً، إنَّها تُشكِّل بالنسبة إلى الخطاب نوعاً من أنواع قواعد البناء التي تُبنى عليها المحتويات المُقرَّرة؛ وثانياً، إنَّها تؤمِّن، بفضل «الغطاء الافتراضيّ»، تماسك الخطاب وإطنابه الداخليَّين، في حين تتكفَّل المحتويات المُقرَّرة «بتدرُّجه»؛ وثالثاً، إنَّها تُكوِّنُ، على مستوى تفاعليٍّ أوسع، نوعاً من «اللُّحمة الاجتماعيّة» (Ciment social)، أي منطقةً من «التوافق» بين المتكلِّمين المتفاعلين.

من الممكن كذلك أن نصوغ خاصيَّة الافتراضات هذه على شكل «إرشادٍ للترميز»، ومفاده: «امنحوا كلّ المحتويات الجديدة، أو تلك التي تكون عرضةً للنزاع، شكل المحتويات المُقرَّرة ـ على أن تعمدوا إلى الإشارة إليها ثانيةً في سياق الخطاب باعتبارها افتراضاتٍ، فإذا «مرَّت» هذه المحتويات من دون أن يُصار إلى الاعتراض عليها، يكون لكم الحقّ في اعتبار أنَّها تزيد مخزون الحقائق التي يُسلِّم بها شريككم الخطابيّ، ولو بشكلٍ مؤقَّتٍ. وفي الواقع، ليس هذا الأمر نادر الوقوع، إذ غالباً ما يُصار مثلاً إلى تكرار معلومةٍ مُقرَّرةٍ بادئ الأمر (مثلاً: «لقد ابتعتُ سيَّارةً...» («j'ai acheté une voiture...»)) على شكل افتراضٍ (فنقول: «سيَّارتي...» («ma voiture...»)).

وإنْ كان صحيحاً أنَّنا نُصادفُ هذا الوضع في كثيرٍ من الأحيان، إلاّ أنَّنا لا نقع عليه بصورةٍ دائمةٍ، فالأمر بعكس ذلك. ويكفينا أن نراقب طريقة عمل «الخطاب العاديّ» الفعليّة لنلاحظ أنَّ المُتكلِّم يفترضُ منذ البداية عدداً لا يُستهان به من المعلومات، من دون أن يتحرَّى معرفة ما إذا كانت هذه المعلومات تُعدُّ أصلاً في عداد «الخلفيَّة الثقافيّة» («background») التي يتمتَّع بها المُرسل إليه الذي يتوجَّه إليه بالحديث؛ ويتمّ ذلك حتّى في بعض الحالات حيثُ يكون جليّاً أنَّها ليست كذلك. وفي أمثلةٍ من مثل: «لقد تركتُ سيَّارتي في المرأب» («J'ai laissé ma voiture au garage») و«لقد تركتُ سيَّارتي لشقيقي» («J'ai laissé ma voiture à mon frère»)، إلى آخره، نجد أنَّه حتّى وإنْ لم يقم دليلٌ على أنَّ الشَّخص الآخر يعلم أصلاً أنَّني أملك مرأباً وأنَّ لديّ شقيقاً، فإنَّ مثل هذه الصيَغ «تمرّ» من دون أن يُصار إلى الاعتراض عليها، ولن يجد أحدٌ أسباباً لنقد واقع أنَّ

محتوى جديداً قد تمَّ افتراضه في سياق الحديث من دون اتّخاذ أيّ تحفُّظاتٍ خَطابيّة. ولكن في المقابل، قد تستوجب في بعض الظّروف جملةٌ من مثل «لقد تركتُ سيَّارتي لزوجي» («J'ai laissé ma voiture à mon mari») جواباً من نوع «عجباً، عجباً! لم تقل لي إنّها تزوَّجت! مع أنّها كانت تستطيع (أو كان يجدر بها) أن تُخبرني بذلك!» («Tiens, tiens! Elle ne m'avait pas dit qu'elle était mariée! Elle aurait tout de même pu (dû) me le dire!») (أي إنَّه كان الأجدر بها أن «تطرح ذلك كمحتوى مُقرَّر» قبل أن تفترضه). والحال أنّه تتساوى تقريباً احتمالات أن يكون لامرأةٍ بالغة سنّ الرشد زوجٌ أو شقيقٌ. ونستنتج بالتالي أنَّه يجب ألاّ ننسب هذا التباين في الوضع الذي يمكن رصده بين الافتراضَين التاليَين: /لديّ شقيق/ (/j'ai un frère/) و/لديّ زوج/ (/j'ai un mari/) إلى كميّة المعلومات التي ينطوي عليها، بل إلى عاملٍ نوعيٍّ من مثل أهميّة المعلومة بالنسبة إلى المُرسَل إليه الذي يتوجّه إليه الخطابُ الكلاميّ.

تتوقَّفُ في الحقيقة طريقة صياغة المحتوى «الجديد» على عاملَين مُغايرَين. وفي الواقع، إذا قابلنا بين الأقوال التالية:

المثل الأوَّل (i): لقد تركتُ سيَّارتي لشقيقي («J'ai laissé ma voiture à mon frère»).

المثل الثاني (ii): لقد تركتُ طائرتي لشقيقي («J'ai laissé mon avion à mon frère»).

المثل الثالث (iii): لقد تركتُ سيَّارتي لزوجي («J'ai laissé ma voiture à mon mari»).

نُلاحظ ما يلي:

سيفوق عموماً القول الثاني (ii) القول الأول (i) غرابةً، انطلاقاً من درجة احتمال وقوع المعلومتَين المُفترضتَين التاليتَين /لديّ سيَّارة/ (/j'ai une voiture/) و/لديّ طائرة/ (/j'ai un avion/) غير المُتكافئة، وسيُعتبر أحياناً القول الثالث (iii) «خارجاً عن المألوف» أكثر بقليلٍ من القول الأوَّل (i)، انطلاقاً هذه المرّة من واقع أنَّ المعلومة المُفترضة /لديّ زوج/ (/j'ai un mari/) تكتسب في بعض الظروف «أهميةً» تفوق أهميّة المعلومة التالية المُفترضة أيضاً، وهي /لديّ شقيقٌ/ (/j'ai un frère/).

وأيّاً تكن الإشكاليّة التي تطرحها محاولة تشكيل مفهومَي «احتمال الوقوع» و«الأهميّة» اللّذَين تتَّصف بهما المعلومة ضمن السياق، يجب بالتأكيد إخضاع قاعدة استعمال الافتراضات الآنفة الذكر السليم إلى بعض التعديل، ومطابقتها مع بندٍ كالتالي: كلَّما كان أحد المحتويات الجديدة إخباريّاً أكثر (أي أقلّ ترجيحاً وتوقُّعاً)، بل أيضاً كلَّما كان «مُثيراً للاهتمام» أكثر بالنسبة إلى المُرسَل إليه، اقتضت صياغته بالأَوْلى صياغة المحتوى المُقرَّر (وكان من غير المُحبَّذ صياغته على شكل افتراضٍ).

وعلى أيّ حالٍ، ليس من الدقَّة بمكانٍ أن نعتبر أنَّ الافتراضات تكون دائماً ذات طابع غير إخباريٍّ[39]. إذ كما يؤكِّد روبير مارتن: «حذارِ أن تمزجوا [...] بين الافتراض والمعلومة، وذلك لأنَّه من الممكن أن يتَّخذ أيّ عنصرٍ في الجملة الطابع الإخباريّ»[40]. ويُضيفُ مارتن قائلاً: «ولكن يتعذَّر على بعض الافتراضات أن تكتسب صفة الإخباريّة في حال كانت بعض المعطيات الأخرى مُجرَّدةً من هذه الصفة»[41]. وتتلخَّص فكرة مارتن، الصائبة جداً، كما يلي: ترتبط بالقول نفسه عدّة مستوياتٍ تراتبيّةٍ من الافتراضات، تكون، على الرّغم من تعذُّر تحديد طابعها الإخباريّ أو غير الإخباريّ بحدّ ذاته، تابعةً إحداها للأخرى (أي إنَّها ترتبط بعلاقةٍ تضمينيّةٍ أحاديّة الجانب) من حيث إخباريتها النسبيّة[42].

وهكذا، فعلى الجملة «ج» التالية:

---

(39) إلاّ أنّ المسألة في الوقت الراهن لا تتعلّق سوى بالاستعمال «السويّ»، إذ سنتناول موضوع «المحسنات البيانية الافتراضية» في مرحلةٍ لاحقةٍ.

(40) ويشنّ دوكرو (Ducrot, «Note sur la présupposition et le sens littéral,» dans: Henry, *Le Mauvais outil: Langue, sujet et discours*).

بدوره حرباً شعواء على مفهوم عدم إخباريّة الافتراض هذا، ولكن بهدف إحلال مفهوم «عدم ملاءمته البرهانية» محلّه.

(41) Martin, *Inférence, antonymie et paraphrase: Eléments pour une théorie sémantique*, p. 49.

(42) بشأن تراتبية الافتراضات (من الافتراض الأوّل إلى الثاني، إلى آخره)، راجع أيضاً لاكوف: George Lakoff, *Linguistique et logique naturelle = Linguistics and Natural Logic*, sémiosis; 2, traduit de l'anglais par Judith Milner et Joelle Sampy; présenté par Judith Milner (Paris: Klincksieck, 1976),

وبشأن إشكالية تغْذية العلاقات بين عملية الافتراض والعلاقات التضمينيّة، انظر المصدر نفسه، ص 39-46، و: Keenan, «Sur l'évaluation des théories sémantiques des langues naturelles,» p. 80, et Zuber, *Structure présuppositionnelle du langage*, p. 44.

لقد ابتاع ابني سيَّارةً من طراز جاغوار لنفسه («Mon fils s'est acheté une Jaguar»)،

التي تستلزم ما يلي:

الجُمَيلة الأولى «ج$_1$»: /لقد ابتاع ابني لنفسه سيَّارة سباقٍ/ (/Mon fils s'est acheté une voiture de course/) (وفي حال كانت الجملة «ج» صحيحةً، تكون الجُمَيلة الأولى «ج$_1$» صحيحةً أيضاً بالضرورة)،

وتستلزمُ الجُمَيلة الأولى «ج$_1$» هذه ما يلي:

الجُمَيلة الثانية «ج$_2$»: /لقد ابتاع ابني سيَّارةً لنفسه/ (/Mon fils s'est acheté une voiture/)،

التي تستلزمُ بدورها:

الجُمَيلة الثالثة «ج$_3$»: /لقد ابتاع ابني شيئاً ما لنفسه/ (/Mon fils s'est acheté quelque chose/)،

التي تستلزمُ كذلك:

الجُمَيلة الرابعة «ج$_4$»: /إنَّ ابني قادرٌ (بلغَ عمراً يستطيع فيه...) أن يبتاع لنفسه سيَّارةً من طراز جاغوار/ (/Mon fils est en état de (en âge de...) s'acheter une Jaguar)،

التي تستلزم أخيراً:

الجُمَيلة الخامسة «ج$_5$»: /لديّ ابنٌ/ (/J'ai un fils/)،

يعلِّق مارتن قائِلاً: «من غير المستبعد على الإطلاق، أن تكون الجُمَل الخمس (من ج$_1$ حتّى ج$_5$) بمجملها ذات طابع إخباريٍّ، في ظرفٍ راهن معيَّنٍ من ظروف الخطاب؛ أو حتّى أن يأخذ الشَّخصُ الذي أخاطبه علماً، بمناسبة الإدلاء بالجُملة «ج»، بأنَّ لديّ ابناً [...]. ولكن من غير المُستبعد كذلك، أن يتَّصف التباين بين الجُمَيلة «ج» والجُمَيلة الأولى «ج$_1$» وحده بالطابع الإخباريّ، ومفاده أنَّ سيَّارة السباق التي تمّ شراؤها هي من طراز جاغوار. ولكن سواء كانت المعلومة تمدُّنا بالحدّ الأدنى من المعطيات كما هو شأن الحالة الأخيرة، أم كانت تمدُّنا بالحدّ الأقصى من المعطيات كما هو الوضع في الحالة التي تسبقها، أو

حتّى إنْ كانت تقع في نقطةٍ وسطيّةٍ بين هذَين النقيضَين، فهذا لا يؤثّر على واقع أنّه في حال كان المخاطب يجهل أنّ ابني قد ابتاع سيّارة سباقٍ لنفسه، فهو لن يعلم حتماً بأنّه ابتاع لنفسه سيّارةً من طراز جاغوار، وبأنّه في حال كان يجهل بأنّه ابتاع لنفسه سيّارةً، فمن غير الممكن له أن يعلم بأنّه ابتاع لنفسه سيّارة سباق. وهكذا، تبرز المستويات المحتملة للمعلومات (على الشّكل الآتي: المعلومة المعيَّنة «م» التي نحذف منها جزءاً معيَّناً «م ـ 1»، وهلمّ جرّا ($i_n, i_{n-1},..., i_2, i_1$)) والتي يُمكن تحديدها أوّليّاً بمعزلٍ عن أيّ ظرفٍ خاصّ»[43].

(3) وضع الافتراضات التعبيريّ الأدائيّ

وعليه، فإنْ كان من غير الدقّة بمكانٍ أن نعتبر أنّ المُرسَل إليه مخوّلاً أن يكون على معرفةٍ مُسبقةٍ بالمعلومات المُفترضة، ولكن يتمّ مع ذلك تقديمها وفق صيغة «هذا أمرٌ بديهيٌّ» («cela va de soi»). ويضمّن تعبيرا «المؤكّد سلفاً» (pré-asserté) و«المصوغ سلفاً» (préconstruit) اللّذَين يؤثِرُهما البعض على تعبير «افتراض»[44] («présupposé»)، هذه الفكرة عينها القائلة بأنّ المسألة هنا هي مسألة وحدات محتوى تبدو، بدلاً من أن يُنشئها الخطاب الذي ينقلها أسوةً بالمحتويات المُقرَّرة، وكأنّها مُقتبسةٌ عن خطابٍ موجودٍ مسبقاً ومعروفٍ تقريباً. أمّا بوريل[45] (M.-J Borel)، فيقول بشأنها ما يلي: «نكتفي بإعادة إنتاج «ما سبق قوله» (déjà-dit) كما لو أنّه كان قد قيل في الواقع «في موضع آخر»، فلو صرَّحتُ مثلاً بأنّ «(أ) قد ارتكب بحقّ (ب) اعتداءً بشعاً» («x a commis contre y une ignoble agression»)، ينتج احتماليّاً عن هذا التأكيد جدلٌ متناقضٌ (فيُقال لي على سبيل المثال: «لستُ موافقاً: فقد هبَّ لإغاثة (ب) من شدّته» («pas d'accord: il a volé au secours de y en détresse»)، بيد أنّ هذا التأكيد يتّصفُ

---

(43) Martin, Ibid., p. 20.

(44) على سبيل المثال: بيشو (M. Pécheux) وهنري (P. Henry) وبوريل (M.- J Borel) وغازال (S. Gazal) وسيريو (الذي يُظهر أهمّيّة عملية الافتراض – المُرتبطة خاصّةً بالاسمانيّة الاستراتيجيّة، من مثل: «الديمقراطية في رحم الحزب...» (la démocratie à l'intérieur du parti...) و«تحسين رفاه السوفياتيّين...» (l'amélioration du bien-être des Soviétiques...) و«سيادة الاشتراكية...» (la suprématie du socialisme ...، إلخ. – في الخطاب السياسيّ السوفياتيّ).

(45) Marie-Jeanne Borel, *Schématisation discursive et énonciation: Arguments théoriques et approche descriptive*, travaux du centre de recherches sémiologiques; no. 23 (Neuchâtel: Université de Neuchâtel, 1975), p. 76.

على الأقلّ بالصراحة والصدق. أمّا إذا تحدَّثتُ عن «الاعتداء البشع الذي ارتكبه (أ) بحقّ (ب)» («l'ignoble agression de x contre y»)، أي إنَّني إذا ما استعملتُ عبارةً محدَّدةً تفترضُ بنفسها ملاءمتها الخاصّة، أي إنَّها تفرضُ بالتالي وجود العنصر التعيينيّ المناسب، فأنا أتصرَّفُ كما لو كان هذا الوجود لا جدل فيه، وكما لو كانت عبارتي صحيحة من تلقاء ذاتها، فتكون هكذا المحتويات المُقرَّرة مقترحةً ببساطةٍ على المُرسَل إليه، في حين تكون الافتراضات مفروضةً عليه بشكلٍ فظّ.

وبتعبيرٍ آخر، نستنتج ما يلي: لا تتشاطر الافتراضات والمحتويات المُقرَّرة الوضع التعبيريّ الأدائيّ نفسه. وفي الواقع، يستتر خلف المتكلِّم المنفرد (مصفر) الذي ينطقُ بجملةِ «لقد أقلعَ بيار عن التدخين» («Pierre a cessé de fumer») قائِلَين متباينَين (أي يتحمَّلُ مرجعَان مسؤوليّة المحتويات القوليّة)، ألا وهما: القائِل المسؤول عن المحتوى المُقرَّر، وهو المتكلِّم المنفرد نفسه، في حين يكون قائِل الافتراض صوتاً جماعيّاً يضمُّ المتكلِّم المنفرد صوته الخاصّ إليه؛ ويكون هذا المرجع مُغْفَلاً وجَمْعِيّاً وحتّى شموليّاً، أي إنَّه يكون إمّا «رأياً شائعاً» وإمّا «شائعةً» وإمّا «شبحاً». . .

تلك هي الفكرة التي يُفصِّلها دوكرو ويعدِّلها في آخر أعماله من دون أن يُثير بشكلٍ جوهريٍّ الشكّ من جديدٍ حول مفهوم الافتراض عينه الذي انكبَّ على دراسته وإرساء أسسه في مؤلَّفاته السابقة. وتُعدّ هذه الفكرة صائبةً شرط أن يُضاف إليها البند التالي - الذي لا يُستهان به - ومفاده أنَّ قائِل الافتراض هو في آنٍ المرجع الجماعيّ والشخص الفرديّ.

وإليكم هذا التصريح الذي أدلى به جاك دوكلو (Jacques Duclos)، والمأخوذ من مذكَّراته: «كنتُ أعتقد أنَّ دالاديه وفرو اللَّذَين أصدرا أمراً برمي المتظاهرين بالرصاص، يُعانيان ولابدّ اضطراباً [. . .]» ((«J'imaginais que Daladier et Frot, qui avaient donné l'ordre de tirer sur les manifestants, devaient être désemparés [...].»). وإنَّه لأمرٌ جليٌّ أنَّ محتوى صلة الموصول المعطوفة بيانيّاً، مع أنَّه مُفترَضٌ، إلاّ أنَّه منسوبٌ إلى شخص دوكلو، وذلك بالمعنى القانونيّ المحض، والدليل على ذلك أنَّه اضطرَّ إلى «أن يكفلها» عندما رُفعت بحقِّه دعوى قدح وذمّ جرّاء صلة الموصول هذه المُزعجة (وعبثاً حاول، في معرض الدفاع عن نفسه، أن يؤكِّد أنَّه بقوله هذا قد «استسلمَ إلى عقليّته في

الحقبة المنصرمة»، أي إنّه استشهدَ نوعاً ما بدوكلو الحقبة الماضية، من دون أن يتحدَّث باسم دوكلو الحاليّ، بيد أنَّ الاحتماليّة الألسنيّة اللُّغويّة لم تكن تصبّ في مصلحته). وإليكم مثلاً إضافيّاً مأخوذاً من جدلٍ دار بين الشّخص الفلاني «ش» والشّخص العلاّني «س»، والذي يقوم موشلير بتحليله[46]، ألا وهو:

الشّخص «س»: (. . .) تأبى فهم أنّ هذه النتيجة تبقى، مهما كان شأنها ضئيلاً، نتيجةً طبيعيَّةً إزاء سياسةٍ تفتقر إلى التبصُّر - وآبى إلاّ أن. . .

الشّخص «ش»: أنتَ مَن يزعم بأنّها سياسةٌ تفتقر إلى التبصُّر[47].

(«P. - (...) vous ne voulez pas vous rendre compte que le résultat aussi déplorable qu'il soit n'est rien d'autre qu'un résultat normal face à une politique aveugle - et je veux absolument je veux...

C. - C'est vous qui dites que c'est une politique aveugle).

يُقيم هذان المثلان الدليل على أنَّه يتعيَّن علينا، خِلافاً للأشخاص الذين يخالون أنَّ الافتراضات تُصاغ «بشكلٍ نعجز بموجبه أن ننسبَ مسؤوليّة التعبير عنها إلى المتكلِّم»[48]، أن نضمَّ صوتنا إلى صوت وندرليش[49] (Wunderlich) الذي يعتبر أنَّه بمجرَّد الإدلاء بقولٍ معيَّنٍ (ق)، «يلتزم المتكلِّم [. . .] بالتسليم بصحّة افتراضات هذا القول (ق)، وبتوضيحها إذا لزِم الأمر في ما بعد في سياق الجُمل التأكيديّة». وعليه، نتسرَّع أحياناً بتشبيه الافتراضات بأسلوب الاقتباس، بحيثُ يستطيع المتكلِّم أن ينفصلَ تمام الانفصال عمّا يستشهد به، في حين أنّه يكون مُلزماً بتحمُّل مسؤولية ما يفترضه. وتبدو الافتراضات وكأنَّها مُقتبسةٌ، إلاّ أنَّها تقتضي أن يأخذها المتكلِّم على عاتقه؛ فهو يتظاهر في مرحلةٍ أولى بأنَّه يعتصمُ بالمرجع الجماعيّ، في حين يُصبح مُرغماً في مرحلةٍ معيَّنةٍ، بأن يكفل مدى حقيقتها، فمثلاً: نحن نُطالبُ كلّ من دوكلو والشخص العلاّني «ش» - وليس «الشبح» مطلقاً - بتحليل افتراضاتهما. و«تدَّعي» الافتراضات البداهة، أمّا

---

(46) Jacques Moeschler, «Approche d'un acte de discours: La Réfutation dans le débat télévisé Giscard-Mitterrand (1974),» *Travaux du centre de recherches sémiologiques de l'université de Neuchâtel*, no. 35 (juillet 1979), p. 60.

(47) زد على أنّنا يجب أن نُقرّ بأنّ وضع الافتراض الموجود في المعلومات المُرتبطة بالنعت (كما في المثل الثاني) وحتّى تلك المُرتبطة بصلة الموصل المعطوفة بيانيّاً (كما في المثل الأوّل) لا يلقى قبولاً بالإجماع.

(48) Henry, *Le Mauvais outil: Langue, sujet et discours*, p. 58.

(49) Wunderlich, «Les Présupposés en linguistique,» p. 43.

المتكلّم الذي يُدلي بها فيدّعي البراءة. علماً بأنّه يكون عُرضةً بصورةٍ دائمة لأن يُصار إلى استرعائه للنظام، فيُقال له مثلاً: «هذا الأمر لا يُصدَّق: تحمَّل رجاءً مسؤوليّة افتراضاتك!» («Ca ne prend pas: assumez s'il vous plaît vos présupposés!»).

(4) الافتراضات وتسلسل الكلام

يتَّضح من الاعتبارات السابقة أنّه لا يسعنا، حين نسعى إلى تحديد وضع الافتراضات، الاكتفاء بالتأكيدات المُجتزأة، كأنْ نقول مثلاً: أوّلاً، تكون الافتراضات بمنأى عن النَّفي، وعليها أن تكون صحيحةً ليُصبح القول الذي ينطوي عليها قابلاً للتقدير؛ وثانياً، إنَّها مُجرَّدةٌ من أيّ قيمةٍ تأكيديّةٍ إخباريّةٍ؛ وثالثاً، نظراً إلى أنّنا نُسلِّم بها باعتبارها صحيحةً من تلقاء ذاتها قبل أن يُصار إلى أيّ تفعيلٍ خطابيٍّ، فإنَّ مصدرها التعبيريّ الأدائيّ هو الشَّخص الجماعيّ المُغفَل... بل يترتَّب علينا عدم التلكُّؤ في إظهار الفوارق الدقيقة بين هذه التأكيدات، فضلاً عن توخّي الحذر في معالجتها.

من غير الفطنة كذلك أن ندَّعي أنَّ المحتويات المُفترضة عاجزةٌ عن تأدية دور القاعدة التي يرتكز عليها تسلسل الكلام الخطابيّ، إذ ثمّة العديد من الأمثلة المُعاكِسة التي تحول دون مثل هذا التعميم.

فمثلاً، من الممكن على ما يبدو أن يُسلسِل المتكلِّم كلامه عقب افتراضاته الخاصّة، وذلك:

- إمّا بهدف تصويبها: وإذا كان ما يقوله ووندرليش[50] صحيحاً، ومفاده أنّنا لا نستطيع إبطال الافتراض الانتقاليّ، كأن نقول مثلاً:

ليتني لم أضرب نينا، ولكنّني لم أضربها («Je regrette d'avoir frappé Nina, mais je ne l'ai pas frappée»)،

فإنَّ لانحوية المثل الآتي:

ليتني لم أضرب نينا، ولكن هل تعرَّضتُ لها بالضرب؟ («Je regrette d'avoir frappé Nina, mais l'ai-je donc frappée?»)،

---

(50) المصدر نفسه، ص 44.

تبدو لنا أقلّ بداهةً أصلاً؛ وعليه، فمن الممكن تماماً أن نقول مثلاً:

أعتذر عن ضرب نينا - إنْ كان أنا مَن ضربها («Je regrette d'avoir frappé Nina - si tant est que je l'ai frappée?»).

وإليكم أيضاً هذَين المثلَين:

المثل الأوّل: لقد أقلع بيار عن التدخين - مع أنّني لستُ واثقاً إنْ كان يُدخِّن في السابق («Pierre a cessé de fumer - d'ailleurs je ne suis même pas sûr qu'il l'ait jamais fait»)

المثل الثاني: إنَّ الاعتداء الذي ارتكبه فلانٌ بحقّ علاّنٍ - في حال كان الاعتداء حاصلاً. . («L'agression de x contre y - si agression il y a...»)،

فعلى ما يبدو يتمتَّع المتكلّم أحياناً بحقّ «تبديل رأيه» واللّجوء إلى بعض الأساليب (من مثل عبارة «إذا كان الأمر كذلك» («si tant est que...»)) لإثارة الشكّ في مرحلةٍ ثانيةٍ حول صدق المحتوى الذي افترضه للتوّ[51]؛

● وإمّا بهدف شرحها وتبريرها وتأييدها من خلال توسُّع ألسنيٍّ لغويٍّ انعكاسيٍّ يُستهلُّ عادةً بعبارات كالتالية: «إذ إنَّ. . .» («car») و«ذلك لأنَّ. . .» («parce que») و«بما أنَّ. . .» («puisque»)، على غرار:

الافتراض الوجوديّ، مثلاً: «زوجي، بما أنَّ لديّ زوج. . .» («Mon mari, puisque mari il y a...»)؛

وكذلك، الافتراض المُشتقّ من الاسم (يأتي التعليق الألسنيّ اللُّغويّ الانعكاسيّ إذاً ليُبرِّر مسوّغات اختيار الدالّ وليُعزِّز ملاءمته والمرجع): والمثل على ذلك:

المثل الأوّل: لقد أقلع - إذ إنَّه كان يُدخِّن في السابق - بيار - بما أنَّ اسمه بيار - عن التدخين («Pierre - puisqu'il s'appelle Pierre - a cessé - car il fumait auparavant - de fumer»).

المثل الثاني: لقد حظيتُ بفرصةِ قيادة سمفونية بيتهوفن الثامنة، ذلك لأنّني

(51) بشأن الإمكانيات المختلفة «لإنكار» الافتراض أو «تعليقه» أو «كبحه»، راجع: Stephen C. Levinson, *Pragmatics*, Cambridge Textbooks in Linguistics (Cambridge [Cambridgeshire]; New York: Cambridge University Press, 1983), pp. 185 et sqq.

أعتبرها فرصةً («J'ai eu la chance, parce que je considère que c'est une chance, de diriger la 8e symphonie de Beethoven»).

ومن الشائع أكثر أن يُدلي المُخاطب بمداخلةٍ تتناول الافتراضات التي يحتويها قولٌ سابقٌ أدلى به المتكلّم، وذلك:

● إمّا بهدف إبانتها على طريقة صيغة التشكيك والتساؤل (طلب تأكيدٍ)، كما في المثل التالي:

المتكلّم: لقد وقعت خطيبتي ضحية جريمة قتلٍ.

المخاطب: أتقول خطيبتك؟ أنتَ مخطوبٌ إذاً؟

(«L_1. - Ma fiancée a été assassinée.
L_2. - Votre fiancée? Vous êtes donc fiancé?).

● وإمّا بهدف الاعتراض عليها ودحضها، إذ غالباً ما تتّخذ الافتراضات (التي يتحتّم عليها أكثر من المحتويات المُقرّرة أن تكون صحيحةً) مظاهرَ جدليّةً(52)، على غرار:

المثل الأوّل: لقد أقلع بيار عن التدخين. ـ ولكنّه لم يسبق له أن دخّن قطّ!
(«Pierre a cessé de fumer. - Mais il n'a jamais fumé!»)

المثل الثاني: رجاءً، لا تحتسِ المزيد من الكحول. ـ ولكنّني لم أحتسِ الكحول. («Je t'en prie arrête de boire! - Moi? J'ai rien bu...»).

المثل الثالث: أنا لستُ موافقاً على طرحكم... ـ ولكنّه ليس طرحي! («Je ne suis pas d'accord avec votre thèse... - Mais ce n'est pas ma thèse!»).

وعليه، لا مانع من أن نُسلسِلَ الكلام عقب الافتراضات، ولكن علينا التقيُّد بقواعد إجباريّة تفوق تلك التي ترعى المحتويات المُقرَّرة صرامةً. ولكن تشذُّ صيغتَان أساسيَّتان من صيَغ تسلسل الكلام عن هذه القاعدة، ألا وهما:

---

(52) نُصادف ذلك أحياناً وليس بصورةٍ دائمةٍ، فعلى سبيل المثال:
«متى استيقظت من النوم؟» - «لم أستيقظ إذ إنّني لم أخلد إلى النوم ليلاً» (Tu t'es levée à quelle heure?» - Je ne suis pas levée: je ne me suis pas couchée de la nuit).
وبشأن التباين بين النفي «الوصفيّ الإيضاحي» و«الجدلي»، انظر: Moeschler, «Approche d'un acte de discours: La Réfutation dans le débat télévisé Giscard-Mitterrand (1974)».

● بالنسبة إلى المتكلِّم، صيغة تسلسل الكلام ذي النمط البرهانيّ (أي غير الألسنيّ اللّغويّ الانعكاسيّ) التي تتناول افتراضاته الخاصّة، كما هو مُبيَّن في المثلَين التاليَين:

المثل الأوَّل: *لقد أقلع بيار عن التدخين، بما أنَّه كان في العام المُنصرم يُدخِّن أكثر من علبة سجائر في اليوم («Pierre a cessé de fumer, puisque l'an dernier il fumait plus d'un paquet par jour»)، في مقابل

المثل الثاني: لقد أقلع بيار عن التدخين، بحيثُ مضى شهرٌ ولم أرَ أيَّ سيجارةٍ في فمهِ («Pierre a cessé de fumer, puisqu'il y a plus d'un mois que je ne lui ai pas vu de cigarette au bec»).

● وبالنسبة إلى المُخاطب، صيغة تسلسل الكلام ذي النمط غير الألسنيّ اللّغويّ الانعكاسيّ الذي لا يمكن دحضُه، وهكذا مثلاً: يصعب علينا أن نجيب «شكراً» («Merci») في معرض الردّ على مديحٍ مُفترضٍ (كما في المثل الآتي: «صباح الخير يا جميلتي! - شكراً» («Bonjour ma belle! - Merci!»))، منه في معرض الردّ على مديحٍ مُقرَّرٍ (على غرار: «كم أنتِ جميلةٌ - شكراً» («Comme vous êtes belle! - Merci!»). وكذلك، يُعَدُّ تسلسل الكلام الوارد في المثل التالي:

- لقد وقعت خطيبتي ضحية جريمة قتلٍ.

- تهانينا. وتعازينا.

(- Ma fiancée a été assassinée.
- Félicitations. Et condoléances).

أكثر غرابةً وبأشواطٍ بعيدةٍ من ذلك الذي يؤكِّده المقطع الوارد في مسرحية إيونيسكو والذي استلهمنا منه هذا المثل[53].

وعلى أيّ حالٍ، لا يندرجُ مثل هذَين المثلَين في عداد ما يُطلِقُ عليه دوكرو اسم «الخطاب المثاليّ»، بل إنَّهما يوسَمان باعتبارهما منحرفَين و«غير سويَّين»

(53) انظر الهامش رقم (13) في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

تقريباً. وسنمحّصهما لاحقاً في إطار الصورة الخاصّة التي نُطلق عليها اسم «المحسن البيانيّ الافتراضيّ» الذي تكمن إحدى دلائله تحديداً في أنَّ المحتوى المُفترَض فيه يصلح عندئذٍ، وفي ظروفٍ مُغايرة عن تلك التي تمّ تعدادها، كقاعدةٍ يرتكز عليها تسلسل الكلام الخطابيّ.

وعليه، يمكننا أن نُسلِّم مع دوكرو الذي يُبرهنُ في «كلمة الختام» في كتاب **الأداة السيئة** (*Mauvais outil*) بقلم بول هنري (Paul Henry)، بأنَّ خصائص الافتراضات «الكلاسيكيّة» (على غرار الخصائص الكلاسيكيّة التالية: تكون الافتراضات بمنأى عن النّفي والاستفهام، ويكون المُرسَل إليه مخوَّلاً معرفتها. . .) «تُشكِّل مظاهرَ سطحيّةً نسبيّاً [. . .] من مظاهر هذه الظاهرة المُصمَّمة بعنايةٍ»، وهو يستبدلُ هذه الخصائص بمعيارٍ أكثر نفوذاً يرتكز على تجاوب الافتراضات الخاصّ مع تسلسل الكلام، وبرأيه، يُشكِّلُ هذا المعيار سمةً أساسيّةً من سمات الافتراض»[54]، علماً بأنّه يتحدَّرُ مباشرةً من التحديد الذي اقترحناه بشأن الافتراض.

بغية الانتهاء من قضيّة هذه اللائحة المُقتضبة التي تتناول خصائص الافتراضات، فضلاً عن الجدل الذي تُفرزه، يقتضي ختاماً أن نشير إلى أنَّ هذه الخصائص تُشكِّل من وجهة نظرنا شروط استعمال وعناصر محتوى[55] في آنٍ (أسوةً بالسيمات المُقرَّرة كافّةً)، فالمسألة تتعلَّق هنا بتخييرٍ خاطئٍ، ليس البتّة بين خصائصَ متنافرةٍ يتَّصف بها هذا الغرض نفسه، بل بين وجهتَي نظر متباينتَين على الرُّغم من أنّهما تُلائِمان هذا الغرض عينه تمام المُلاءمة، فإذا أخذنا المثل التالي: «لقد أقلع بيار عن التدخين» («Pierre a cessé de fumer»)، نجد حقيقةً أنَّ الواقع القائِل بأنَّ بيار كان يُدخِّن في السابق هو من وجهة نظر الترميز شرطٌ خارجيٌّ من شروط استعمال التأكيد السليم؛ في حين أنَّه يُشكِّل من وجهة نظر فكّ الترميز التي نوليها اهتماماً في هذا الصدد، معلومةً داخليّة ضِمقوليّة.

---

(54) Henry, *Le Mauvais outil: Langue, sujet et discours*, p. 183.

(55) راجع بشأن هذا الجدل: Oswald Ducrot, «Les Présupposés, conditions d'emploi ou éléments de contenu?,» dans: *Recherches sur les systèmes signifiants: Symposium de Varsovie 1968*, Approaches to Semiotics; 18, présent par J. [Josette] Rey-Debove; assistée de K. Fenton (The Hague; Paris: Mouton, 1973).

يُسلِّم فيلمور (Fillmore) بوجهتَيّ النظر هاتَين من دون مفاضلةٍ ظاهريّاً، حين يقول بشأن عبارة «افتح الباب من فضلك» («Please open the door») على التوالي[56] ما يلي:

- إنَّ «الافتراض المتعلِّق بوضع الباب المُغلق هو خاصيّةٌ من خصائص الفعل افتح» («open») (على الأقلّ عندما يظهر هذا الفعل في صيغة الأمر)،

- «بمستطاعنا كذلك أن نحدِّد الافتراض الذي تنطوي عليه جملةٌ ما باعتباره يتألَّف من الشروط التي يجب استيفاؤها قبل أن يُصار إلى استعمال الجملة لتأدية أيٍّ من الوظائف التي أشرنا إليها سابقاً».

ولكن يتَّصف الافتراض الذي يصوِّره فيلمور في هذا الصدد بكونه ذا طبيعةٍ خاصَّةٍ بعض الشيء، إذ يتعلَّق الأمر بما يُطلق عليه البعض (على غرار كينان (Keenan) وستالنكر (Stalnaker) ووندرليش، من جملة أشخاص آخرين) اسم «الافتراض التداوليّ التواصليّ» الذي نحدِّده على الشَّكل الآتي: «نُطلق اسم افتراضات تداوليّة تواصليّة على كلّ المعلومات التي ينقلها القول والتي تتعلَّق بـ «شروط النجاح» (وبنوعٍ خاصٍّ بشروطه «التمهيديّة») التي يجب استيفاؤها بُغية تمكين فعل الكلام الذي يدَّعي القول إنجازه من النجاح على صعيد تأثيره غير المباشر[57].

وفي الواقع، فبغية أن يؤدِّي التماسُّ من مثل «افتح الباب» («Ouvre la porte») وظيفته بنجاح، يترتَّب على سبيل المثال، أوّلاً، أن يكون الوضع الراهن المنظَّم للأمور غير مُحقَّقٍ في اللَّحظة التي يتمّ فيها الإدلاء بفعل القول (أي والحالة هذه ألّا يكون الباب مفتوحاً أصلاً)؛ وثانياً، أن يكون المُرسَل إليه الذي يتوجَّه إليه هذا الأمر في وضعٍ يُمكِّنه من فكّ ترميزه (أي أن يكون موجوداً مثلاً، وأن يكون كائناً بشريّاً غير أصّم وملمّاً باللّغة الفرنسيّة...، إلخ.)، ناهيك عن كونه يتمتَّع بالقدرة على الامتثال للأوامر؛ وثالثاً، أن يكون من غير البديهيّ أن

---

(56) Charles Fillmore, «Types of Lexical Information,» in: Danny D. Steinberg and Leon A. Jakobovits, eds., *Semantics: An Interdisciplinary Reader in Philosophy, Linguistics and Psychology* (Cambridge [Eng.]: University Press, 1971), p. 380.

(57) وتتطابق هذه «الافتراضات التداوليّة التواصليّة» مع «افتراضات فعل القول» الذي يتحدَّث عنها مارتن (وهي تحديداً التي يعتبرها «الأقلّ إثارةً لاهتمام الألسنيّين اللغويّين» (المصدر نفسه، ص 47)).

يُنفِّذ المُرسَل إليه هذا الفعل في حال لم يُوجَّه إليه الأمر لتنفيذه، وإلاّ اعتُبر الفعل غير إخباريٍّ؛ ورابعاً وأخيراً، أن يكون مرسِل هذا الأمر متبوِّئاً منصباً مؤسَّساتيّاً يخوِّله إصداره (إذ ليس الجميع مخوَّلاً إصدار الأوامر).

إذا نظرنا إلى هذا الموضوع من زاوية وجهة نظر الترميز، تبدو لنا هذه المعطيات المُختلفة وكأنَّها «شروط نجاح» فعل الالتماس الكلاميّ المنطوق. في حين أنَّها تُشكِّل من وجهة نظر فكّ الترميز كميّةً من المعلومات (تتناول مقام فعل القول فضلاً عن فاعليه)، يتولَّى القول مهمَّة نقلها ـ إذا ما استُعمِل القول «بشكلٍ سويٍّ» على أيّ حالٍ. وبكلامٍ آخر، تخضع الافتراضات التداوليّة التواصليّة إلى قاعدةِ الحقيقة عينها التي ترعى الافتراضات الدلاليّة، وتكون قادرةً، أسوةً بهذه الأخيرة، على انتهاك هذه القاعدة.

وإليكم مثلاً إضافيّاً من شأنه أن يُبرز الفرق الشاسع بين هذَين النمطَين من الافتراضات، ألا وهو: بغية أن تؤدِّي عبارة «أقلِعْ عن التدخين!» («Cesse de fumer!») دور القول الصالح، أي القول المناسب تداوليّاً تواصليّاً والمقبول دلاليّاً، لا بدَّ لها من استيفاء شرطَين، ألا وهما:

● يجب أن يكون المُرسَل إليه الذي يتوجَّه إليه الخطاب الكلاميّ لا يزال يُدخِّن حتّى لحظة وقوع فعل القول (أي إنَّه لم يسبق له أن أقلع عن التدخين). إذ باعتبار أنَّ الافتراض مُرتبطٌ ببُنية القول الإيعازيّة، وكونه يُرجعنا إلى أحد شروط فعل الالتماس التمهيديّة، فهو يُعدُّ افتراضاً تداوليّاً تواصليّاً (ويتَّخذ تسلسل الكلام الدحضيّ الذي يعقبه في حال عدم تحقُّق هذا الشرط الشَّكل الآتي: «ولكن سبقَ أن أقلعتُ عن التدخين!» («Mais j'ai déjà cessé!»)).

● أمّا إنْ لم يسبقْ للمُرسَل إليه أن دخَّن قبلاً، فيقع عندئذٍ العيب الذي يشوب القول على مستوى المحتوى الجُمَيليّ (أي استعمال فعل «أقلع» («cesser») في غير مكانه المناسب)، ويطال الأشكال التداوليّة التواصليّة كافَّةً التي يتَّخذها مثل هذا المحتوى (على غرار: «لقد أقلعتَ عن التدخين» («Tu as cessé de fumer») و«هل أقلعتَ عن التدخين؟» («As-tu cessé de fumer?») و«أبإمكانك أن تقلع عن التدخين؟» («Puisses-tu cesser de fumer!»)، إلى آخره). وبالتالي، تكون المسألة هنا مسألة افتراضٍ دلاليٍّ (ويتَّخذ تسلسل الكلام الدحضيّ الاحتماليّ الذي يعقبه الشَّكل الآتي: «ولكن لم يسبق لي أن دخَّنتُ مطلقاً!» («Mais je n'ai jamais fumé!»)).

توازي مكانة الافتراضات التداوليّة التواصليّة بالنسبة إلى القِيَم الكلاميّة المنطوقة مكانة الافتراضات الدلاليّة بالنسبة إلى المحتويات الجُمَليّة. وهي تتشاطر كلّ الخصائص التي تتحلّى بها الافتراضات الدلاليّة ـ إلاّ أنّها تتفرّد بميزة أنّها تكون قابلةً للدحض، ويُمكن التعليق عليها بشكلٍ ألسنيٍّ لغويٍّ انعكاسيٍّ[58]، فضلاً عن كونها تصلحُ، كما سنرى لاحقاً، للاستعمال «البيانيّ».

2. مُختلف أنماط الافتراضات

قد تكون الافتراضات التي عمدنا توّاً إلى تقسيمها إلى طبقتَين فرعيَّتَين ذات طبيعةٍ متغيِّرةٍ، وإذ لا ندَّعي البتَّة أنَّنا نستطيع وضع لائحةٍ بها ولو حتّى ناقصةٍ، إلاّ أنّنا ندَّعي القدرة على تصنيفها بموجب محوَرَين، ألا وهما:

(1) نمط الركيزة الدالَّة المسؤولة عن وجود الافتراض[59] الذي يكون:

ـ إمّا ذا طبيعةٍ معجميّةٍ. وهكذا، تنطوي الوحدات المعجميّة التالية على الافتراضات، ألا وهي:

● الأفعال «المظهريّة» أو «التحويليّة» (على غرار الأفعال التالية: «أقلع عن» («cesser de»)، و«استمرَّ في» («continuer à»)، و«انكبَّ على»؛ وإليكم المثل التالي: «استيقظ بيار من النوم» («Pierre s'est réveillé») وتعني ضمناً / أنَّه كان نائماً في السابق/ («Pierre s'est réveillé» /Pierre dormait auparavant/)؛

● الأفعال «الانتقاليّة» (على غرار الأفعال التالية: «عَلِمَ» («savoir») و«نَدِمَ» («regretter»)...) و«الانتقاليّة المضادة» (على غرار الأفعال التالية: «ادَّعى» («prétendre») و«خالَ» («s'imaginer»)...) التي تفترض حقيقة / أو زيف محتوى الجملة المُتَمِّمَة للفائدة التي تُستهَلُّ بهذه الأفعال، وبشكلٍ عامٍ أكثر، مجمل الأفعال «الذاتيّة» التي تنطوي على افتراضٍ شخصيٍّ أو قِيَميّ.

---

(58) وإليكم هذَين المثلَين:

المثل الأوّل: «هل أنتَ مريضٌ؟ ذلك أنّني أجد أنّ علامات المرض ترتسم على وجهك» (Es-tu malade? Parce que je te trouve bien mauvaise mine): ونجد في ذلك تبريراً لملاءمة السؤال؛

المثل الثاني: «أين كنتَ؟ لأنّ عليك أن تُبرّر لي سلوكك» (Où étais-tu? Car tu me dois des explications): ونجد في ذلك تبريراً لشرعية السؤال.

(59) وبحسب ليفنسون (Levinson, *Pragmatics*, p. 181)، لا بدّ أنّ كارتونين (Karttunen) قد جمع حتّى الآن زهاء الواحد والثلاثين صنفاً من «عمليات الافتراض ـ تايغر» (présuppositions-tiggers).

● بعض المورفيمات من مثل «لكن» («mais») و«كذلك» («aussi») و«حتّى» («même») و«مـجـدّداً» («de nouveau») و«أصـلاً» («déjà») و«بـعـدُ» («encore») (وإليكم هذه الأمثلة: «هل يُصدِّق أحدٌ منكم بعدُ بوجود بابا نويل؟» «Y en a-t-il parmi vous qui croient encore au Père Noël?»)، و«ما زالت جميلةً» («Elle est encore belle»)، و«ألـم تـرزقـوا بـأولادٍ بـعـد؟» («Vous n'avez pas encore d'enfants?»)، و«في الوقت نفسه كانت أزمة الرأسماليّة تتعمّق، وبما أنّها كانت لا تزال تُهَيمن بعدُ على العالم على نطاقٍ جدّ واسع...» («Dans le même temps, la crise du capitalisme s'approfondit, et comme il domine encore très largement le monde...»)؛

● بشكلٍ عام أكثر، تضربُ جذور عددٍ لا يُستهان به من الافتراضات (والمسألة تتعلّق هنا على وجه الدقّة بحالة العلاقات التضمينيّة) في بُنية المعجم، ونذكر منها: علاقات التضاد (كالعبارة التالية مثلاً: «هذا الكرسيّ أحمر اللّون» وتعني ضمناً / ليس أخضر اللّون.../ («Cette chaise est rouge» /non verte.../)، وعلاقات الأسماء المُندرجة/ والأسماء النوعيّة(60) (مثلاً: «هذا كرسيٌّ» وتعني ضمناً / هذا مقعدٌ/ («C'est une chaise» /c'est un siège/)، فضلاً عن علاقات الحصر الانتقائيّ (وإليكم المثَلين اللّذَين يُدلي بهما زوبير: «رغا فلانٌ» ويعني ذلك ضمناً / فلانٌ ـ هو مبدئيّاً في حال تمّ استعمال الفعل بمعناه الحرفيّ ـ جَمَلٌ/ («x blatère» /x est un chameau/)؛ وكذلك تعني جملة «فلانٌ حصانٌ أشقر» («x est alezan») أنّ / فلاناً حصانٌ/ (/x est un cheval/)...؛ إلخ).

ـ أو ذا ركيزةٍ نحويّةٍ ترتبط مثلاً:

● بالعبارات المعرّفة(61) وبالاسمانية(62)؛

● بالتوسّعات النعتيّة أو تلك المتعلّقة بصلات الموصول؛

---

(60) بشأن هذا النمط من العلاقات التضمينيّة، راجع: Martin, *Inférence, antonymie et paraphrase: Eléments pour une théorie sémantique*, pp. 43 et sqq.

(61) Ducrot, *Dire et ne pas dire: Principes de sémantique linguistique*.

(62) انظر: Patrick Sériot, *Analyse du discours politique soviétique*, préf. de Paul Garde, cultures et sociétés de l'Est, ISSN 0765-0213; 2 (Paris: Institut d'études slaves, 1985).

● بالأنظمة المُتبعَة (على غرار الجُمل التي تنطوي على أسماء التفضيل والفرضيّات والجمل السببيَّة[63]...)؛

● بالبُنى «المُمَفصلة» (على غرار المثل التالي: «فلانٌ هو مَن غادر» ويعني ضمناً / أحدٌ ما قد غادر/ («C'est x qui est parti» /quelqu'un est parti/))؛

● بالأسئلة حول الأجزاء المكوّنة للجملة (على غرار المثلَين التاليَين: المثل الأوَّل: «مَن غادر؟» ويعني ذلك ضمناً / أحدٌ ما قد غادر/ / («Qui est parti?» /quelqu'un est parti/)؛ والمثل الثاني: «لماذا لم تعد تحبّني؟» («Pourquoi est-ce que tu ne m'aimes plus?»)، ويعني ذلك ضمناً إمّا / أنَّك أنتَ لم تعد تحبّني/ (/tu ne m'aimes plus/)، وإمّا / أنَّك كنتَ تحبّني في السابق/ (/tu m'aimais avant/).

- وقد ترتكز الافتراضات على نمط تنغيم نطقيٍّ خاصٍّ، على غرار تلك التي تؤازر «عملية التبئير» على القول.

(2) يُمكننا كذلك التأمُّل في طبيعة المحتوى المُفترض (أي نمط المعلومة التي يُقدِّمها) بغية تشكيل مثلاً:

● طبقة الافتراضات الوجوديّة الفرعيّة (وهكذا تفترض العبارات المُعرَّفة وجود الغرض الذي تُشير إليه سواء كان ذلك في العالم الحقيقيّ أو الخياليّ الذي يقدِّمه الخطاب أو يبنيه)؛

● طبقة الافتراضات «المُستعملة للتسمية» الفرعيّة (أي إنَّ استعمال أيّ مُصطلح يستلزِم ملاءمته المرجعيّة، أي إنّه يستلزِم أن يتمتَّع العنصر التعيينيّ بالخصائص التي تتناسب وسيمات العبارة المناسبة)؛

● أو طبقة أنماط وحدات المحتوى الخاصّة الفرعيّة هذه التي سلَّط دوكرو الضوء على وجودها والتي تُحدِّد «توجُّه القول البرهانيّ»[64]؛

● أو حتّى أيضاً بغية إرساء أسس التعارض الذي تأمَّلنا فيه سابقاً والقائم بين

---

(63) بشأن الافتراضات المُرتبطة بالتعبير الشفهي عن العلاقة السببية، راجع المقالة التي كتبتها مجموعة العمل 1 - ح عام 1975 تحت عنوان «إذ إنّ، وذلك لأنّ، وبما أنّ» Groupe ë-1, «Car, parce que, puisque,» *Revue Romane*, vol. 10, no. 2 (1975).

(64) وفي الواقع، ينسب أنسكومبر ودوكرو (Anscombre et Ducrot, *L'Argumentation dans la langue*, pp. 47-49) إلى هذه الوحدات وضع الافتراضات. ومع ذلك يبدو وكأنّها تُعالَجُ بمرونةٍ. وإليكم بالإضافة إلى المثل الذي أشار إليه دوكرو نفسه، المثل الآتي:

«قليلةٌ هي السيارات التي تتجاوز سرعتها الـ 120 كم/ ساعة (أي تقريباً 20 في المئة)» («Peu=

الافتراضات «الدلاليّة» و«التداوليّة التواصليّة».

أيّاً تكن طبيعة الركيزة المُفترِضَة والمحتوى المُفتَرَض، تمتاز هذه الوحدات بأنّها تسمح، على ضوء المحتويات المقرَّرة، بإنشاء استدلالاتٍ خاصّةٍ(65) طالما أنّها تشغلُ منطقةً قريبةً من قطبِ البيِّن، وطالما أنّها تتفعَّل بالضرورة(66) بشكلٍ متزامنٍ مع القول نفسه.

2.3.2. المضمَّنات

1. تحديد طبقة المضمَّنات

تضمُّ طبقة المُضمَّنات كلّ المعلومات القابلة للنقل عبر قولٍ معيَّن والتي يبقى تفعيلها خاضعاً لبعض خاصيّات السياق التعبيريّ الأدائيّ (وهكذا، قد تُضمِّن جملةٌ من مثل «إنّها الساعة الثامنة» («Il est huit heures»)، بحسب ظروف فعل

---

d'automobiles dépassent le 120 km/h Presque 20%»),

وقد سجّلنا حالاتٍ كثيرةٍ من التناقضات التي تستبع محتوياتٍ برهانيةً، وهذه بعض الأمثلة:

المثل الأوّل: «لقد تأكّد انخفاض الدولار بحيثُ سجّل صباح اليوم أكثر بقليلٍ من 8،20 فرنك فرنسي في بورصة باريس» (مثلٌ مأخوذٌ عن قناة France Inter في 28 كانون الثاني/ ينايرَ عام 1984) («La baisse du dollar se confirme puisqu'il a coté ce matin un peu plus de 8,20 F à la bourse de Paris»).

المثل الثاني: «لديّ ما يكفي من الوقود، انظر فالإبرة تحت خطّ الوسط» (= أي إنّها فقط مُحاذية تماماً لخطّ الوسط (L'essence j'en ai assez, regarde, l'aiguille est au-dessous (du milieu... = seulement, juste au-dessous)).

المثل الثالث: «كلا، ليست هذه سوى حطبات صغيرة الحجم... وهي قصيرةٌ، انظر، فهي تتساوى من حيث الطول مع تلك الحطبات» (= أي إنّها ليست أكثر طولاً منها) (Non, ça c'est des petites bûches... elles sont courtes, regarde, elles sont aussi longues que celles-là (= pas plus)).

المثل الرابع: «تتّصف الدراجات برأيي بجانبٍ قديم يعود إلى الماضي....

- مع أنّ الدراجات ليست قديمة العهد، فهي تُضاهي السيارات قِدَماً».

(- Les vélos pour moi ça a un coté archaïque, réro...

- Pourtant les vélos c'est pas vieux, c'est aussi vieux que les voitures).

والحالة هذه، تُعطي مثل هذه الأقوال شعوراً بالتناقض، ولكنّه تناقضٌ «هشٌّ» بما فيه الكفاية، ممّا يدفعنا بالأحرى (انظر التوسيع الذي سنورده لاحقاً بشأن التناقضات «القويّة» في مقابل «الضعيفة») إلى اعتبارها مضمّناتٍ. ولكن صحيحٌ أنّ هذا المعيار من «الحدس المتعلّق بدرجة قوّة التناقض» ليس موثوقاً به ولا حاسماً...

(65) أن نتحدّث عن الافتراضات الوجودية أو تلك المتعلّقة بالتسمية أو التداولية التواصلية، يعني ذلك أن نقول إنّ أيّ قولٍ ينقل بالضرورة عدداً معيّناً من الاستدلالات المُفترَضة.

(66) ينطوي هذا المبدأ حصريّاً على حالة التعددية الدلالية الافتراضيّة (أي إشكالية بُنية القول البؤرية).

قولها، معنى «أسرِع» («Dépêche-toi») أو «لا تستعجل» («Prends ton temps») على حدٍّ سواء[67]. تُعدُّ بمثابة القِيَم المتبدِّلة والمتقلِّبة والتي يُمكن إبطالها، هذا ويتطلَّب فكّ شيفرتها «حساباً تأويليّاً» مُريباً بدرجات متفاوتة دائماً، كما أنَّها لا تُفعَّل حقاً إلاّ في ظروفٍ معيَّنةٍ لا يسهل دائماً تحديد معالمها. ولكنَّها برأينا قيمٌ مُدرجةٌ حقيقةً في القول (إذ لا نعتبرها «أفعال كلام فرديّ» صرف)، حتّى لو تطلَّب فكّ ترميزها أن تتدخَّل، بالإضافة إلى الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة التي يتمتَّع بها الشَّخص الذي يفكّ الترميز، كفاءاتيه الموسوعية و/ أو البلاغيّة التداوليّة التواصليّة.

وخِلافاً للافتراضات، تتميَّز المضمَّنات (التي لا تتشاطر كذلك ميزتَي عدم الإخباريّة وعدم التأثُّر بالنَّفي[68] اللَّتين غالباً ما تتَّصف بهما الافتراضات) بعدم الثبات. وعليه، يمكننا كشف النقاب عن المُضمَّنات بفضل اختبار «القدرة على الحذف» (test de cancellability) (أي، الإلغاء وإبطال التأثير) الذي يلجأ إليه غريس بهدف تحديد العلاقات التضمينيّة التحادثيّة، وذلك:

- إمّا عبر إيجاد بعض المقامات حيث لا تتفعَّل المعلومة التي تطرح إشكاليّةً، فمثلاً، إنَّه لأمرٌ مألوفٌ أن يُصار في بنيةٍ من مثل: «في حال تَحقُّق الجُمَيلة الأولى «ج»، تتحقَّقُ إذاً الجُمَيلة الثانية «د» (Si p, alors q)، والتي تعلن بشكلٍ بيِّنٍ أنَّ الجُمَيلة الأولى تُشكِّل شرطاً كافياً لتحقُّق الجُمَيلة الثانية، إلى إضافة الاستدلال الآتي: تُشكِّل الجُمَيلة الأولى كذلك شرطاً ضروريّاً لتحقُّق الجُمَيلة الثانية (كما في المثل التالي: «في حال كان الطقسُ جميلاً، سأذهبُ للتنزُّه» («S'il fait beau, j'irai me promener») ويعني ذلك ضمناً / في حال لم يكن الطقسُ جميلاً، سألزم المنزل/ (/s'il ne fait pas beau, je resterai chez moi/)). ولكن لا يتبادر إلى ذهن أحدٍ لدى قراءة هذا الإعلان عن عرضٍ تقدِّمُه بعض الحانات

---

(67) نُلاحظ على ضوء هذا المثل (أو أيضاً انطلاقاً من المثل التالي: «ألستَ فلاناً؟» (Vous n'êtes pas Machin?) الذي قد يُضمِّن أنّ الشخص ذو مقام مرموقٍ أم أنّه ذو مقام وضيع) أنّ القول نفسه قد ينقل فرضيّاً استدلالاتٍ تتّصف بالتضاد. وقد تُشكّل حتّى الحالات الوحيدة المُرصوَدة حيثُ تكون المتتاليات قابلةً أن تعني الشيء ونقيضه – إذ على الرّغم من تأكيدات البعض (ولاسيّما فرويد، وقبله الألسنيّ اللّغويّ الألماني كارل أبيل (Karl Abel))، فإنّ «الأضداد» (addads) المعجمية، كما يُبرهنها بينفينيست، ليست البتة سراباتٍ ألسنيّةٍ لغوية.

(68) من وجهة النظر هذه، تبدو بالأحرى المُضمّنات مُشابهةً للعلاقات التضمينيّة (ولكنّها علاقات تضمينيّة «غير ضروريّة»).

الصغيرة، ألا وهو: «على مَن يرغبُ في إجراء مكالمةٍ هاتفيّةٍ، أن يحتسي المشروب أوّلاً» («Si vous voulez téléphonez, consommez d'abord»)، أن يؤوِّله على الشَّكل التالي: /على مَن لا يرغب في إجراء مكالمةٍ هاتفيّةٍ ألاّ يحتسي المشروب/ (/Si vous ne voulez pas téléphoner, ne consommez pas/)، وذلك لأنَّ المعرفة (الموسوعيّة) التي نملكها بشأن المقام (أي وجوب احتساء المشروب في جميع الأحوال داخل الحانة الصغيرة) تأتي لتكبح بروز هذا المُضمَّن؛

● وإمّا من خلال رصد أو حتّى إنشاء تسلسل كلام من شأنه أن يُبطل تأثير المُضمَّن الاحتماليّ، وأن يُقيم بالتالي الدليل، في حال كانت الجملة التي نحصل عليها نحويّةً، على وضعه كمضمَّنٍ، وهذه بعض الأمثلة:

المثل الأوَّل: إنَّها الساعة الثامنة ولكن لا داعي للاستعجال هكذا («Il est huit heures mais ce n'est pas la peine de te presser comme ça»).

المثل الثاني: كم أنتِ جميلةٌ اليوم ـ كالعادة أصلاً («Comme vous êtes jolie aujourd'hui - comme toujours du reste»).

المثل الثالث: كان هذا البلد غايةً في الجمال ـ وهو لا يزال كذلك...، إلخ(«C'était un bien beau pays - ça l'est resté d'ailleurs, etc.») ..

ونظراً إلى أنَّ المقام المناسب أو تسلسل الكلام المُثبَت لا يكونان دائماً غبَّ الطلب، نجد بالتالي أنفسنا مرغمين على إنشاء تسلسلات كلام اصطناعيّة، قد تتَّصف من حيث نحويّتها بالمُريبة. وما يزيد الطين بلَّة هو عجزنا أحياناً عن التوصُّل من خلال التمحُّص في التعارض القائم بين الافتراض/ والمضمَّن إلى استنتاجاتٍ ذات قيمةٍ؛ ويُعزى سبب ذلك إلى كون الافتراضات قابلةً، أسوةً بالمُضمَّنات ولو بشكلٍ أقلّ تواتراً، «للتصويب»، أي بكلامٍ آخر يُمكن لتسلسل الكلام أن يُزيلَ أثرها. ولا تكون مبدئيّاً طبيعةُ «القدرة على الحذف» هي هي في الحالتَين، بحيث تُلغي «القدرة على حذف» الافتراض محتوى ما قد تمَّ تفعيله سابقاً، وينتاب المتكلِّم في ما بعد شعورٌ بالنَّدم حياله؛ في حين تُبطِلُ «القدرة على حذف» المُضمَّن تأثير قيمةٍ فرضيَّةٍ قادرةٍ على الإفادة من القول، علماً بأنَّ المتكلِّم يتوخّى التنويه بأنَّه لم يشأ زجَّها في المُضمَّن. وبكلام آخر، لا يُعلَّق عمل الافتراضات إلاّ بفعل بعض السياقات الحاليّة للنصّ الخاصَّة جداً (ذات النمط التصويبيّ أو بشكلٍ عام أكثر «التحويليّ»)، وفي ظلّ انعدام وجودها تُفعَّل هذه الافتراضات تلقائيّاً. وبالعكس تحتاج المُضمَّنات بغية أن تتفعَّل حقيقةً وحقّاً إلى مصادقاتٍ سياقيّة حاليّة نصّية وسياقيّة، وفي ظلّ عدم توفُّرها يقتصر وجود هذه

المُضمَّنات على شكل افتراضيّاتٍ كامنةٍ. ونستنتج بالتالي أنَّ الافتراضات والمضمَّنات ليست، كما يزعم ليفنسون (Levinson)، قابلةً للإبطال (defeasible) بالطريقة عينها وبالدرجة نفسها.

ولكن ليس بالأمر اليسير دائماً أن نُبرهن، في الوقائع، وجود هذا التباين، فما هو مثلاً، الاستنتاج الذي نخلص إليه من تسلسل كلامٍ كالآتي:

لقد حاول بيار قتل هنري، حتّى إنَّه قد بلغ مراده («Pierre a essayé de tuer Henri, il y est même parvenu»)

فهل نستنتج أنَّ فعل «حاول» («essayer») ينقل افتراضاً معجميّاً باطل المفعول في هذا المثل، شأنه شأن فعل «أقلع» («cesser») الذي تنقله عبارةٌ من مثل «أقلع بيار عن التدخين، حتّى إنّه لم يسبق له أن دخّن مُطلقاً في السابق» («Pierre a cessé de fumer, il n'a même jamais fumé») والتي تفوقه غرابةً بشكلٍ واضحٍ طبعاً)، أم أنَّه ينقل مجرّد مضمَّنٍ ينتجُ عن تطبيق قانون الشموليّة؟ ينادي ليفنسون[69] بالطريقة الثانية لمعالجة هذا المثل، لأنَّ فعل «حاول» («essayer») بمعناه الحرفيّ نوعاً ما، قد يدلّ على / الشروع في عملٍ ما بغضّ النظر عن بلوغه النتيجة المتوخّاة أو عدم بلوغها/ (/entreprendre une action, avec ou sans aboutissement/)، وإنَّ قانون الشموليّة وحده قادرٌ أن يحوّله أحياناً إلى «علاقةٍ تضمينية تحادثيّة» ذات نمطٍ «لا موجَّهٍ» (أي، إنَّه يحوّله، بحسب المصطلحيّة التي نعتمدها، إلى مضمَّنٍ). والأمر نفسه ينطبق على الكلمات التالية «بعض» (some) و«غالباً» (often) و«ربَّما» (possibly) التي يُمكننا أن نقول في معرض التعليق عليها بأنَّها تُضمِّن المعاني التالية: / ليس كلّ شيء/ (/pas tous/) و/ ليس على الدوام/ (/pas toujours/) و/ ليس بالضرورة/ (/pas nécessairement/) - في حين تسوِّل لنا أنفسنا أن نعتبر أنَّ مثل هذه المحتويات هي بالأَوْلى افتراضاتٌ ترتبط من حيث الأصل بالعناصر الدالَّة المناسبة.

تنبثقُ صعوباتٌ أخرى أيضاً من هذا التمييز القائم بين الافتراضات والمضمَّنات، وهي ترتكز من جملة أمورٍ أخرى على الطابع المُبهم الذي تتَّصف به كلّ من البُنى السيميّة والوحدات المعجميّة الصغرى. وفي الواقع، يتمّ مبدئيّاً فكّ ترميز الافتراضات بفضل الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة وحدها، في حين يتطلَّب

---

(69) Levinson, *Pragmatics*, p. 134.

فكّ ترميز المُضمَّنات بالإضافة إلى تلك الكفاءة تدخُل الكفاءة الموسوعيّة التي يتمتَّع بها المتكلِّمون. بيد أنّنا نعرف حقَّ المعرفة أنَّ هاتَين الكفاءتَين هما غير محدَّدتَي المعالم بشكلٍ واضحٍ، فمثلاً، إنَّ عبارة:

قبَّعةُ عمِّي من الساتان («Le chapeau de mon oncle est en satin»)

تستلزِم بالتأكيد أنَّ / عمِّي يملك قبَّعةً/ (/mon oncle a un chapeau/) ولكنَّها تستلزِم كذلك بلا ريب، بما أنَّ المسألة تتعلَّق بمعلومةٍ قريبةٍ جدّاً من الواقع، أنَّ / لدى عمِّي رأساً/ (/mon oncle a une tête/)، فهل يعني ذلك أنّنا مرغمون على تدوين مثل هذه المعلومة في المعجم، وكيف السبيل إلى فعل ذلك؟ فهل يتمّ ذلك من خلال الإشارة مثلاً إلى أنَّ السِمة [بشريّ] ([humain]) المُرتبطة بجذر الكلمة «عمّ» («oncle») تنطوي على المعنى التالي [الشَّخص الذي يملك رأساً] ([qui possède une tête]) (إنَّها الإشكاليّة التي تنتج عمّا يُطلق عليه منظِّرو المؤلَّف i اسم «البناء ذي النمط Ï في مقابل البناء ذي النمط Ó)؟ ويمكننا أيضاً التملُّص من هذه المعضلة بالقول إنَّ أيّاً يكن وضع مثل هذه المعلومة الألسنيّ اللُّغويّ الانعكاسيّ أو الموسوعيّ، يتحتَّم في جميع الأحوال معاملتها معاملة الافتراض بما أنَّها تتشبَّث بالقول بثباتٍ. ولكن يختلف الوضع بالنسبة إلى التضمينات التي تنتمي إلى عالم القِيَم المتقلِّبة التي تدور في فلك الوحدات المعجميّة الصغرى، والتي يُمكننا بحقٍّ أن نماثلها بالمُضمَّنات. بيد أنَّ الحدود الفاصلة بين التضمينات (أو «العلاقات التضمينية التصوُّريّة») والسيمات الحقيقيّة التي تُحدِّد المحتويات المعجميّة (والتي يُحافظ بعضها على وضعه كافتراضٍ، في حين يكتسب بعضها الآخر، أثناء التفعيل الخطابيّ، وضع إمّا المحتويات المُقرَّرة أو المحتويات المُفترَضة) لسيت مرسومةً بشكلٍ واضح المعالم (clear-cut)، ففي المثل التالي المستوحى من القصَّة «الطريفة» المُقتبسة عن **تقويم فيرمو الفلكي** (L'Almanach Vermot) عام 1980، ألا وهو:

- البارحة، فاجأتُ زوجتي، وأيّ مفاجأة! لقد أهديتها علبة كرميلة بمناسبة عيد ميلادها.

- ولماذا فاجأها ذلك إلى هذا الحدّ؟

- لأنَّها كانت تتوقَّع أن أهديها معطفاً من الفرو،

(- Hier, j'ai fait à ma femme une grosse surprise. Je lui ai offert une boîte de caramels pour son anniversaire.

- Et pourquoi cela lui a-t-il fait une telle surprise?

- Parce qu'elle attendait un manteau de fourrure),

نستطيع ومن دون تردُّدٍ، أن نعتبر السِمة القِيَميّة لكلمة «مفاجأة» («surprise») التي يرتكز عليها، من جملة أمورٍ أخرى، تأثيرُ هذا الحوار الهزليّ (أي علامة الاستفهام «؟») بمثابة المضمَّن، إذ قد تتَّصف المفاجأة على الصعيد التعيينيّ بكونها سارَّةً أم غير سارَّةٍ على حدٍّ سواء، حتى لو أنَّ هذا المصطلح ينطوي عموماً على الصعيد التضمينيّ على معنى «المفاجأة السارَّة».

ولكن، يصعب في المقابل بتّ المسألة في حالةٍ كالتالية[70]: «لسنا فلوسيِّين، فلا نعامل السيِّدات معاملةً خاصَّةً» («Chez nous on n'est pas sexistes, on ne fait aucune faveur spéciale aux dames»)، فهل يترتَّب علينا وسم محتوى كلمة «فلوسيّ» («sexiste») السيميّ بسِمة [مَن يعتبر أنَّ الجنس الذكريّ متفوّقٌ على الجنس الأنثويّ، وبالتالي فهو يستحقُّ امتيازاتٍ خاصَّةً] ([qui considère le sexe masculin comme supérieur au sexe féminin, et méritant donc des privilèges spéciaux]) (علماً بأنَّنا نجد هذه السيمة معكوسةً في هذا المثل)، أم يتعيَّن علينا بشكلٍ عامٍّ أكثر أن نُضفي عليها سِمة [مَن يُفاضل بين الجنسيَن] ([qui établit entre les sexes certaines discriminations])، مع الإشارة إلى أنَّ التمييز [أي هيمنة الجنس الذكريّ] ([supériorité du sexe mâle]) ليس سوى تضمينٍ يُقرنُ عموماً بهذا المفهوم؟ ولكن اعتباراً من أيّ تواترٍ للتفعيل، يُمكننا التسليم بوجود قيمةٍ دلاليّةٍ أيّاً تكن في النواة السيميّة؟

ها نحن ذا مُجدَّداً بصدد إشكاليّة طابع الظواهر الألسنيّة اللُّغويّة التدرُّجي

(70) أو كذلك في المثل الآتي:

- أؤكّد لك أنّ كلبي يعرف أن يلعب الشطرنج.

- وهل يربح أحياناً؟

- لا تكن متطلّباً.

(- Je t'assure, mon chien sait jouer aux échecs.

- Et il lui arrive de gagner?

- N'en demande pas trop!).

فهل تستلزم عبارة «يعرف أن يلعب...» (savoir jouer à...) أم أنها تُضمِّن معنى «أن يكون قابلاً للربح» (être susceptible de gagner?).

الذي نمرُّ عليه هنا مرور الكرام، فالافتراضات تكون من حيث المبدأ مُدرجةً 100 في المئة في القول. ولكن كيف علينا التعامل مع القِيَم الواردة فيه والمُعزَّزة بقرائنَ متينةٍ؟ أعلينا اعتبارها افتراضاتٍ ناقصةً أم مضمَّناتٍ ثابتةً بوجهٍ خاصٍّ؟ هذا الأمر وقفٌ على الظروف. ولا يسعنا إلاّ الإذعان للاختيار الذي يتصدَّر بالضرورة عمليّة تفرُّع المحورَين المتدرِّجَين الثنائيّ[71] - زد على أنَّ الخطاب الألسنيّ الانعكاسيّ اللُّغويّ يحذو في ذلك حذو اللّغة التي تفرِض هي أيضاً على المجموعة الاتّصاليّة الجوهريّة «بنيةً» مؤلَّفةً من عناصرَ قابلةٍ للعزل بالتحليل.

2. مختلف طبقات المضمَّنات الفرعيّة

يجدر بنا أن نُميِّز في قلب هذه المجموعة التي تفوق مجموعة الافتراضات سعةً وإبهاماً وعدم مجانسةٍ، مختلف طبقات المُضمَّنات الفرعيّة على قاعدة محاوِر تفاضليّةٍ، من مِثل:

(1) نمط ترسيخ المُضمَّن: لمعرفة إنْ كان مباشراً أم غير مباشرٍ، وأن نُحدِّد في الحالة الأولى إن كان نبريّاً أو معجميّاً أو نحويّاً (فعلى سبيل المَثال غالباً ما يُعدّ الاسم النكرة «بعض»[72] («certain») ومورفيم النفي وشكل الجملة الزمنيّ أو صيغتها هذه أو تلك والبُنى التفخيميّة ذات النمط «أنا مَن» («moi je»)، بمثابة المصادر التي تنبثق منها الاستدلالات المتنوِّعة)؛

(2) تكوُّن المضمَّن الذي يستوجب استخراجه أن يلجأ المتلقِّي، فضلاً عن كفاءته الألسنيّة اللُّغويّة، إلى كفاءتَيه المنطقيّة والبلاغيّة التداوليّة التواصليّة؛

---

(71) فعلى سبيل المثال، يتجلّى الانتقال شيئاً فشيئاً من المضمّن إلى الافتراض في طرق العمل المُضمَرة التي تُميّز البُنى المُقارِنة التي تُمهّد للمصطلحات التقويمية، وقد تمّ استعراض طرق العمل هذه وتحليلها في كتاب: (Catherine Kerbrat-Orecchioni, *L'Enonciation de la subjectivité dans le langage*, linguistique (Paris: A. Colin, 1980), pp. 96 et sqq.).

وفـــــــــي: Georges Kleiber, «Adjectifs antonymiques: Comparaison implicite et comparaison explicite,» *Travaux de linguistique et de littérature*, vol. 14, no. 1 (1976).

(72) وإليكم هذا المثل: «تُشبه المدرسة المذهبية بعض الأحزاب التي نعرفها حقّ المعرفة، ويكمن الجامع المُشترك بينها في كونها مدرسة مصفاة، يُحصى فيها عدد الطلاّب الداخلين ولا يُصار أبداً إلى عدّ الطلاّب اللائذين بالفرار منها» (مثلٌ مُقتبس عن: André Henry, «L'Ecole confessionnelle est comme certain parti que nous connaissons bien: C'est une école-passoire. On compte les élèves qui y rentrent, jamais ceux qui s'enfuient,» *Lui*, no. 2044 (mai 1981), p. 5).

(3) طبيعة محتوى المُضمَّن، ونقول بشأنها ما يلي:

تماماً كما استطعنا وضع الافتراضات الدلاليّة في مقابل الافتراضات التداوليّة التواصليّة، كذلك يسعنا على ما يبدو أن نوجِدَ طبقةً فرعيّةً من المضمَّنات التداوليّة التواصليّة، تتألَّف من المعلومات التي يُزوِّدنا بها القول عن شروط النجاح غير الضروريّة ولكن المُرجَّحة أو الممكنة لتحقيق فعل الكلام الذي يدَّعي إنجازه، ففي بعض الظروف مثلاً، إنَّ جملةً من مثل:

أتعلم، إنَّ شجونَ الحبّ شجونٌ نتعافى منها («Tu sais, les chagrins d'amour on s'en remet»)،

قد تُضمِّن ما يلي:

/ أنا قد تعافيتُ من شجون الحبّ (ويستتبع ذلك ضمناً لقد قاسيتُها)/ (/Moi je m'en suis remis (j'en ai connu)/)،

ويُعزى ذلك إلى الأسباب التالية:

ينصُّ أحد الشروط التمهيديّة لفعل الإخبار والتأكيد أن يتحدَّث المتكلِّم «عن خبرة» أي أن يستمدَّ معرفته من مصدرٍ أيّاً يكن. وقد تُشكِّلُ تجربته الشخصيّة أحد هذه المصادر، ونتفهَّم إمكانيّة أن يُضمِّن الإخبار والتأكيد العامّ بالمُصادفة، ولاسيما لدى مُصادقة بعض المعلومات السياقيّة على مثل هذا التأويل، المعنى التالي: ما أُخبِرُك به أمرٌ حدثَ معي شخصيّاً.

وإليكم الآن بعض الملاحظات بشأن نمَطين خاصَّين جدّاً من المضمَّنات، تُشير إليهما اللّغة العامَّة بمُصطلحَي «إلماح» («insinuation») و«تلميح» («allusion»).

- سنتطرّق أوّلاً إلى الإلماح الذي نُحدِّده عموماً باعتباره مُضمَّناً ميّالاً إلى الأذى، حيثُ إنَّه يتعيَّن بل ويكفي، بغية أن نكون بصدد الإلماح، أن نسلِّم بأنَّ محتوى معيَّن قد:

1. قيلَ

2. بصيغة المُضمَر

3. بشكلٍ يعمد فيه إلى الانتقاص من المُحاوِر أو أيّ شخصٍ ثالثٍ (إذ من النادر أن يقومَ المرء بالإلماح عن نفسه...).

واستناداً إلى أنَّ النَّفي قد يتَّخذ من أيّ سيمةٍ من السيمات الآنفة الذكر موضوعاً له، نستنتج بتلازم أنَّ ثمّة ثلاث طرقٍ لإبداء الاعتراض على استعمال وحدةٍ معجميَّةٍ صغرى ما، وتتجلَّى هذه الطرق على الشَّكل المُبيَّن في المثل الآتي:

المتكلِّم: لا يحقُّ لك أن تُلمِّح . . .

المُخاطب: 1. ولكنَّني لم أقل ذلك مطلقاً!

2. أنا لم ألمِّح إلى ذلك، بل قلته صراحةً. . . .

3. في الواقع، لقد اقترحتُ هذا الأمر، ولكنَّني لم أقله بقصد الأذى. . .

(L_1. - Vous n'avez pas le droit d'insinuer que...

L_2. - 1. Mais je n'ai jamais dit ça!

2. Je ne l'insinue pas, je le dis clairement...

3. Je l'ai effectivement suggéré, mais ce n'était pas dans un mauvais dessein...).

هذا وتطرح شروط تطبيق مفهوم الإلماح المذكورة أعلاه، كلٌّ منها على طريقته طبعاً، بعض الإشكاليّات، وأبرزها:

1. يُثير الإلماح، حاذياً بذلك حذو المُضمَّنات كافَّةً، السؤال التالي الذي سنحاول في مرحلةٍ لاحقةٍ إيجاد بعض عناصر الإجابة عليه، ألا وهو: متى نستطيع بصوابٍ التسليم بأنَّ مُضمَّناً ما هو مُدرجٌ في متتاليةٍ قوليّةٍ معيَّنةٍ؟

2. يصعبُ علينا كذلك أن نتصوَّر تسلسل كلامٍ كالآتي:

المتكلِّم: لستَ سوى مغفَّلٍ.

المخاطب: إلامَ تُلمِح؟

(L_1. - Tu n'es qu'un gros con.

L_2. - Qu'est-ce que tu veux insinuer?).

ومردّ ذلك إلى السَّبب الوجيه القائِل بأنَّ الشتائم ذات الطابع البيِّن بشكلٍ واضحٍ لا تصلحُ أن تكون «إلماحيَّةً». ولكن يطرح السؤال التالي نفسه: أبمستطاع المحتوَيات المُضمَرة قاطبةً أن تؤدِّي دور الإلماحات حالما يُنَفَّذُ الشرط الثالث؟

إليكم هذا التركيب التعبيريّ العزيز جداً على قلب ميلنر (J.-Cl. Milner)،

ألا وهو: «هذا المُغفَّل بيار. . .» («cet imbécile de Pierre...») حيث يكون الاستدلال التالي /بيار مغفَّلٌ/ (/Pierre est un imbécile/) استدلالاً مُفترضاً. وعليه، يبدو أنَّنا نعجز حتّى في مثلٍ من هذا القبيل عن التحدُّث عن الإلماح باعتبار أنَّ «نيّة الأذى» فيه هي بيِّنةٌ للغاية وبمنتهى الوضوح. وفي المقابل، نجد في قولٍ كالتالي: «هل ارتكبتَ مجدَّداً قصيدةً شعريّةً؟» («tu as encore commis un poème?») ويتجلّى الجواب في معرض الردّ على هذا السؤال على الشَّكل الآتي: «إلامَ تُلمِح؟ ألِى أنَّ أشعاري كلّها رديئةٌ؟» («Qu'est-ce que tu veux insinuer? Que mes œuvres poétiques sont mauvaises?»)، أنَّ فعل «ارتكبَ» («commettre») ينطوي على افتراضٍ قِيَميٍّ سلبيٍّ يتناول المفعول به العائِد للفعل - علماً بأنَّ النَّفي لا يطال هذه المعلومة المتعلِّقة بتواترات هذا الفعل كلّها، إذ يُحدِّد معجم *Le Petit Robert* (الصادر عام 1971) فعل «ارتكبَ» («commettre») على الشَّكل التالي: «إتمام (فعل مُستحقّ اللَّوم) أو القيام به» («accomplir, faire (une action blâmable)»).

ممّا يميل إلى إثبات ما يلي: أوّلاً، لا تقع المحتويات المُفترَضة كلّها في الموضع نفسه على محور الإضماريّة، إذ يكون بعضها مُبطَّناً ومموَّهاً أكثر من البعض الآخر؛ وثانياً، لا يُبصر الإلماح النور إلاّ ابتداءً من درجة إضماريّةٍ معيَّنةٍ، هذا ويُغطّي مجاله منطقة المضمَّنات برمَّتها، فضلاً عن جزءٍ من منطقة الافتراضات.

وإليكم ملاحظة إضافيّة تنحو في المنحى نفسه، ألا وهي: حتّى لو تمّ استعمال عبارة كالتالية «آه! إنَّ ما قمتَ به هنا هو بمنتهى الذكاء!» («Ah c'est intelligent ce que tu as fait là!») على أنّها بوضوح قلبٌ للمعنى، إلاّ أنّه يتعذَّرُ اعتبارها «إلماحاً» على الرُّغم من أنَّ المحتوى /غبيّ/ (/stupide/) يكون في آنٍ ميّالاً إلى الأذى ومشتقّاً، أي مضمَراً. بل إنَّ المسألة تتعلَّق هنا بمحسنٍ بيانيٍّ يحوِّل، كما سنرى لاحقاً، المحتوى المُضمَر إلى محتوى بيِّن، ممّا يسمح له بالقيام بنوعٍ من «الصعود إلى السطح». ونستنتج بالتالي أنَّ ثمّة تقارباً بين الإلماح والتهكّم، ولكنَّه قائمٌ بين الإلماح و«التضمين التهكُّميّ» وليس البتَّة بين الإلماح و«المحسن البيانيّ التهكُّميّ»[73].

(73) راجع ما سنورده لاحقاً بشأن هذا التمييز.

3. أمّا بالنسبة إلى سِمة «نيّة الأذى» («malveillance»)، فلا بدَّ من الاعتراف بأنّها أدنى شأناً من حيثُ قدرتها التكوينيّة من سمتَي مَفهَم الفعل «ألمحَ» («insinuer») الأُخريَين. ويتطابق تقريباً ما يُسمّيه كانتيليان (Quintilien) «الإشارة الإلماحيّة» (insinuatio) مع ما نُطلق عليه نحن اسم «المُضمَّن»[74]. هذا ويعتبرُ باريه[75] (H. Parret)، أنَّ «من غير الدقّة بمكانٍ القول بأنَّ ما يُلمَّح به يكون ذميماً دائماً». وفي الواقع، تُعزّز بعض تواترات هذا المصطلح المُثبتة وجهة النظر هذه[76]. وفي ما يتعلّق بالمعاجم، فإنّنا نعثر في صفحاتها على عباراتٍ من مثل:

«عنَى (أمراً ما) من دون أن يقوله صراحةً (ولاسيما بقصد الأذى)» («Donner à entendre (qq ch.) sans dire expressément surtout avec un mauvais dessein)») أو أيضاً:

«[. . .] غالباً بنيّة الأذى» («[...] souvent dans une intention malveillante»)، وعليه تكتسب السِمة الثالثة هذه وضع «السِمة المنوطة غالباً بالمَفهَم من دون أن ترتبط به بالضرورة»، وبكلام آخر، «أن نُلمِحَ» («insinuer») قد يُضمِّن وجود نيّة الأذى من دون أن يطرحها كمُقرَّرٍ أو أن يستلزمها.

---

(74) ونقرأ في الكتاب الذي يحمل عنوان **المؤسسة الخطابية** ما يلي: «عليّ في الواقع أن أصمّم لبلوغ نوع شائع الاستعمال من الصور، ويُخال إليّ أنّ البعض يترقّب بوجهٍ خاصّ أن أتحدّث عن هذا الأمر، لذا سأقولُ إنّ قوام هذا النوع من الصور أن نوحي، مستعينين ببعض الإلماحات، بغير ما نقوله صراحةً، ليس بالضرورة عكس ما نقوله، على غرار التهكّم، بل معنى مستتراً على المُستمع أن يكشف النقاب عنه إن جاز التعبير»، في: (Quintilian, *Institution oratoire*, collection des universités de France, texte établi et traduit par Jean Cousin (Paris: Société d'édition les belles lettres, 1975-1980), livre IX, 2, p. 189).

(75) Herman Parret, «Eléments d'une analyse philosophique de la manipulation et du mensonge,» *Documents de travail et prépublications. Centro Internazionale di Semiotica e di Linguistica. Universita di Urbino*, no. 70 (1978), p. 17.

(76) وإليكم على سبيل المثال وجهة النظر هذه التي وردت في معرض التعليق على تصريح أدلى به فاليري جيسكار ديستان بشأن «فضيحة الماس»، حيث يقول: «وأخيراً، رداً على السؤال الذي قد طرحته عليّ بشأن القيمة المادّية التي يُفترض أنّني حصلتُ عليها [. . .]، فأنا أعترض اعتراضاً قاطعاً على هذا السؤال . . .» («Enfin, à la question que vous m'avez posée sur la valeur de ce que j'aurais reçu [...], j'oppose un démenti catégorique...»)، ويتساءل أندريه ريبو (André Ribaud) قائلاً: «أوليس من شأن عبارة «من المُفترض أنّني حصلتُ عليها» («aurait reçu») أن تُلمِحَ بأنّه لم يحصل على هذا المبلغ؟ (انظر: *Le Canard enchaîné* (5 déc. 1979). والحال أن المسألة هنا لا تتعلّق بمحتوى انتقاصيّ بالنسبة إلى جيسكار ديستان، بل على العكس إنّه محتوى يردّ الاعتبار. بيد أنّ استعمالاً مُشابهاً لفعل «ألمَحَ» («insinuer») يبدو لنا غريباً بعض الشيء في مثل هذا الموضع.

(ينبغي في هذا الصدد أن نوضِّح بإيجازٍ الأمور التالية: من المناسب أن نعمَدَ في إطار محتوى وحدةٍ معجميَّةٍ صغرى ما إلى فهرسة:

- السِمات الثابتة، أي «السيمات» التي تُشكِّل بمجملها المَفهَم الذي تكون فيه هذه السِمات في وضعٍ تراتبيٍّ جزئيّاً على الأقلّ؛
- السِمات غير الثابتة أي «السيمات التضمينيّة».

وتكون سِمات التضمين شبيهةً بالمضمَّنات.

أمّا بالنسبة إلى السيمات، فهي تتطابق مع المحتويات المُقرَّرة أو مع الافتراضات، فإمّا أن يكون وضعها مُحدَّداً في اللّغة (على غرار فعل «أقلع» («cesser»)) أو أن يتعذَّر تحديده خارج إطار عمليّة التفعيل الخطابيّ.

وبالتالي، تتحوّل عموماً السِمات المُحدَّدة إلى محتوياتٍ مُقرَّرة، ففي المثلَين:

المثل الأوّل: ليس عازباً [بل إنَّه رجلٌ متزوِّجٌ] («Ce n'est pas un célibataire [mais un homme marié]»)

المثل الثاني: ليست هذه مركبةً قديمةً [بل إنَّها سيّارةٌ لائقة جداً] («Ce n'est pas un tacot [mais une voiture très présentable]»)،

عموماً يطالُ النفي سِمتَي [غير متزوّج] ([non marié]) و[ذات نوعيَّةٍ رديئةٍ] ([de mauvaise qualité])، وتكون السِمات الأخرى مُفترضةً بالتالي.

بيد أنَّ الأمور قد تجري عكس ما نشتهي، فمن جهةٍ أخرى قد نُلاحظ أحياناً (ولاسيما حين يرتبط المحوَران السيميّان بعلاقة تصنيفٍ متقاطعةٍ) وجود إمكانيّاتٍ عديدة تسمحُ لنا بأن نُسلسل الوحدات السيميّة في الخطاب وفق تراتبياتٍ جمَّة. وهكذا نجد في متتالياتٍ من مثل:

لم أُلمِح إلى هذا الأمر[77] («je ne l'ai pas insinué»)

أو أيضاً:

لقد تعرَّضَتْ للاغتصاب تقريباً («elle a été presque violée»)،

---

(77) انظر أعلاه.

أنَّ الظرف الذي يُعبِّر عن رأيٍ ذاتيٍّ قد يتمحور إمّا حول سِمة [التعرُّض لأبشع الانتهاكات الجنسيّة] ([subir les derniers outrages sexuels]) أو حول سِمة [مكرهةً] ([contre son gré])).

إلاّ أنّنا سنُخصِّص مصطلح «إلماح» ـ لأنّه يتلاءم واستعمالنا العفويّ، ولأنّه يسمح لنا كذلك بتفريقه عن «المُضمَّن» ـ للحالات التي يحثُّنا فيها محتوى المُضمَّن إلى افتراض وجود «عزمٍ وتصميمٍ على الأذى» لدى قائِله.

ـ أمّا بالنسبة إلى «التلميح»، فيُستعمل هذا المصطلح على ما يبدو في ظروفٍ تكون، على تنوُّعها، مُحدَّدةً نسبيّاً، وأبرزها الحالات التالية:

● حين نجد مُضمَّناً ذا محتوى فاحشٍ أو ماجنٍ، أي عندما تتعلّق المسألة بتلميحٍ جنسيٍّ ـ علماً بأنَّ مثل هذه المحتويات تكون مُهيَّأةً بشكلٍ خاصٍّ لأن تُصاغَ على طريقة المُضمَر، ومن اليسير علينا فهم السَّبب الكامن وراء ذلك.

يقول بازوليني (Pasolini) على سبيل المثال ما يلي: «وأخيراً، في مجال التلميح إلى «التصرُّفات الشاذَّة»، نكون بصدد التلميح الشخصيّ [. . .]»[78] («Enfin, avec l'allusion aux «attitudes excentriques», nous en sommes à l'allusion personnelle [...]»). وعليه، ينتمي المضمَّن مثار البحث هنا إلى التلميح وإلماح في آنٍ.

● نتحدَّثُ كذلك عن التلميح في ما يتعلَّق بأقوالٍ تشير بشكلٍ مضمرٍ إلى حدثٍ أو عدَّة أحداثٍ ينفرد في معرفتها مُحرِّكو التبادل الكلاميّ وحدهم، أو أنَّهم يعرفونها بوجه الخصوص، ممّا يولِّد بينهم نوعاً من التواطؤ (سواء أكان سلميّاً أم عدائيّاً)[79]؛

وإليكم هذا المثل الذي يتناول تلميحاً محدَّداً تماماً إلى حدثٍ معيَّنٍ تعييناً جيِّداً يُعنى به شخصٌ محدَّد يتمثَّل والحالة هذه بشخص المُرسَل إليه (ويتَّصف

(78) Pier Paolo Pasolini, *Écrits corsaires = Scritti corsari*, traduit de l'italien par Philippe Guilhon (Paris: Flammarion, 1976), p. 126.

(79) زد على أنّ طيف هذه القيمة يلوح كذلك بين السطور في «التلميح الشخصيّ» الذي أشرنا إليه سابقاً.

التلميح هنا مجدّداً بأنّه تلميحٌ وإلماحٌ في آنٍ، وسنطرح في مرحلةٍ لاحقةٍ التساؤلات حول السّبب الذي يحدو بكمٍّ كبيرٍ من المُضمّنات بأن يتّصف بنيّة الأذى)، ألا وهو: «لقد ذكرتم أنّ المرشّحين الخاسرين يمتازون بأفضليةٍ لأنّهم عادةً ما يحسّنون النتيجة التي حقّقوها في السابق. بيد أنّ هذا الأمر لا يصحّ دائماً، وأنت أدرى من غيرك بهذا الأمر سيّد ديفير...، إنّه تلميحٌ محدّد جدّاً!»[80] («Vous avez dit que les candidats sortants avaient un avantage et normalement amélioraient leur précédent score. Mais ce n'est pas toujours le cas, vous êtes bien placé pour le savoir M. Defferre... C'est une allusion très précise!»)

● ناهيك عن نمطٍ من التلميح يختلفُ اختلافاً ملموساً عن غيره من الأنماط، ألا وهو: تلميح البلاغة الكلاسيكيّة، أي الإحالة التناصيّة[81]. وتربط صلةٌ ليست بوثيقةٍ هذا التلميح بإشكاليّة المُضمَر - ولكنّها صلةٌ على الرُّغم من كلّ شيءٍ، لأنّ النصّ الذي ينوّه به التلميح التناصيّ ويأتي على ذكره، يكون، شأنه في ذلك شأن المُضمَّن، حاضراً وغائباً في آنٍ بالنسبة إلى مَن يتلقّاه.

(4) وأخيراً، من الممكن إرساء تصنيفيّة المضمَّنات هذه ارتكازاً على أسس درجة وضوحها وقوّة تفعيلها، ففي الواقع، قد تكون المُضمَّنات المُرتبطة بالمتتالية قابلةً للنقاش أم لا نقاش فيها، ثابتةً أم غير ثابتةٍ، خجولةً أم مُحقّقةً وذلك بدرجاتٍ متفاوتةٍ، كما يظهر لدى مقارنة هذَين المثلَين:

المثل الأوّل (i): سيُدينُ الجميع هؤلاء الذين سيتحمّلون مسؤوليّة تقسيم اليسار باسم مصالح حزبهم الانتخابيّة. أمّا نحن الاشتراكيّون، فما وضعنا يوماً قيداً أو شرطاً للاتّحاد.

((i) Ceux qui prendraient la responsabilité de diviser la gauche au nom de l'intérêt électoral de leur Parti se condamneraient aux yeux de tous. Nous, socialistes, nous n'avons jamais mis de condition à l'union).

---

(80) مثل مأخوذٌ من مناقشةٍ متلفزةٍ دارت بين شينو وديفير، عقب الانتخابات الرئاسيّة التي جرت في 24 نيسان/ أبريل عام 1981.

(81) ومع أنّ تلميحاً («ميثولوجيّاً» أو «تاريخيّاً» أو «أخلاقيّاً» أو «كلاميّاً») كالذي يتصوّره فونتانيي (راجع: Pierre Fontanier, *Les Figures du discours* ([Paris]: Flammarion, [1968]), pp. 125-126, لا ينحصر في حدود إطار إشكاليّة التناص بمعناها الحرفيّ.

المثل الثاني (ii): لا يُعدّ الحزب بنظر الاشتراكيِّين إلاّ أداةً للكفاح، فهو ليس بحدّ ذاته المبتغى المنشود.

((ii) Le parti n'est pour les socialistes que l'instrument des luttes. Il n'est pas une fin en soi).

وإنَّه لمن المسوَّغ أن نرى في هذَين التصريحَين الاشتراكيَّين (الصادرَين في آذار/ مارس وحزيران/ يونيو عام 1978) تلميحاً إلى تصرُّف الحزب الشيوعيّ. بيد أنَّ هذا التلميح هو بلا ريب «جليٌّ» ومُعزَّزٌ في القول الأوَّل ـ حيث يرتكز التلميح على عددٍ معيَّنٍ من الواسمات اللُّغويّة، على غرار الأسلوب المشروط والشرطيّ، والدليل الطباعيّ المتمثّل بالحرف الكبير في بداية الكلمة والذي يُضفي على الاسم «حزب» («Parti») «قيمةً راسخة البُنيَة» ومحدَّدةً جدّاً، ويسمح اتِّحاد هذَين الواسمَين بإيلاد الاستدلال التالي: /يتحمَّل الحزب الشيوعيّ مسؤوليّة تقسيم اليسار باسم مصالحه الإنتخابيّة الضيِّقة/ (/le parti communiste prend la responsabilité de diviser la gauche au nom de son propre intérêt électoral/)؛ فضلاً عن البُنية التفخيميَّة التي تُطالعنا في الجملة الثانية والتي تُضمِّن ما يلي: /لسنا كسوانا من الأحزاب/ (/C'est pas comme d'autres/)، ممّا يولِّد على ضوء ما تقدَّم الاستدلال الآتي: /لقد وضع الشيوعيّون قيوداً وشروطاً للاتِّحاد/ (/les communistes ont mis certaines conditons à l'union/) ـ أكثر منه في القول الثاني، حيثُ وحده التوسُّع المؤلَّف من شبه جملة الجار والمجرور التالية: «بنظر الاشتراكيّين» («pour les socialistes») يميل بموجب قاعدتَي الإخباريّة والشموليّة إلى نقل مضمَّن من النمط التالي: /لا يصحّ هذا الأمر على مناضلين ينتمون إلى أحزابٍ أخرى/ (/il n'en est pas de même pour d'autres militants/). زد على أنَّ هذا المُضمَّن قد يكون «عُرضةً للتعطيل» (كأن نقول مثلاً: «بنظر الاشتراكيّين ـ كما سائر الأحزاب السياسيّة» («pour les socialistes - comme pour tous les partis politiques»)، وما من شيءٍ يُخصِّص محتواه العامّ جدّاً، ما خلا طبعاً المعلومات التي نستمدُّها من الخارج، أي المعلومات التي نستقيها من «الكفاءة الموسوعيّة»، أي والحالة هذه من معرفتنا بالسياق السياسيّ. علماً بأنَّ هذه المعرفة السياقيّة تتدخَّلُ على حدٍّ سواء في معالجة الحالة الأولى، إنَّما بشكلٍ إطنابيٍّ وبالتالي ثانويٍّ، إذ كلَّما كانت الدلائل اللُّغويّة الألسنيّة التي تؤشِّر إلى وجود المُضمَّنات أكثر دقَّةً وقابليّةً للعزل بالتحليل، كلَّما بات ضروريّاً اللّجوء تعويضيّاً، في سبيل فكّ شيفرتها، إلى معلوماتٍ ذات طبيعةٍ خارجيّةٍ ألسنيّةٍ لغويّةٍ.

نستنتج بالتالي أنَّ درجة وضوح المُضمَّن هي رهن عوامل تكون في آنٍ خارجيّةً (على غرار درجة علانيّة الأفعال الخارجيّة اللُّغويّة الألسنيّة ذات الصلة) وداخليّةً (ونذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر: عدد ركائز المُضمَّنات الألسنيّة اللُّغويّة، علماً بأنَّ هذا العدد قد يكون صفراً؛ فضلاً عن وضع هذه الواسمات التي تكون مُرمَّزةً بشدَّة إن جاز التعبير، ويُحثُّنا بعضها بإلحاح على تبنِّي هذا التأويل أو ذاك، في حين يكتفي بعضها الآخر، الذي يكون أكثَر خجلاً، بتأدية دور الدلائل المُبهمة المعالم والكيفيّة والصدفويّة التي تتَّصف بها إحدى القِيَم التي تشتمل عليها البُنية عرَضاً ليس إلاّ - ويتَّصف محور التعارض هذا بطابعه التدرُّجيّ، ونستطيع موضعة الأمثلة التي أوردناها آنفاً عليه بحسب تسلسل «الإلحاح» الدلاليّ التنازليّ على الشَّكل التالي: الدليل الطباعيّ / الأسلوب المشروط والشرطيّ / البُنية التفخيميّة / التوسُّع التقليصيّ). وعلى أيّ حالٍ، من الممكن على ما يبدو أن نوجِدَ سلَّمَ إضماريّةٍ على قاعدة مثل هذه الأسس، وأن نقيسَ بتلازمٍ درجة سوء النيَّة التي يُمكن ملاحظتها في طور استعمال المحتويات المُضمَرة، وذلك بموجب المبدأ التالي: كلَّما كان محتوى ما بيِّناً أكثر، كان من سوء النيَّة التظاهر بإنكار وجوده في القول، وفي المقابل كلَّما كان مُضمَراً، كان من سوء النيَّة أن ننسبَه بشكلٍ قاطعٍ إلى المسؤول عن قول المتتالية.

وإليكم المزيد من الأمثلة المُقارِنة:

• بمقتضى فعل قاعدتَي الإخباريّة والشموليّة المُشترَك، نجد أنَّ المثل التالي:

الطقسُ جميلٌ حاليّاً («Il fait beau en ce moment»)

قد يُضمِّن احتماليّاً أنَّ هذه الحالة لن تدوم طويلاً. إلاّ أنَّ هذا المُضمَّن الشديد التحفُّظ في الصياغة السابقة، يغدو أكثر تصلُّباً في القول الآتي:

الطقسُ جميلٌ الآن («Il fait beau pour le moment»).

• وإليكم هذا المثل المأخوذ عن كارول[82]: هبْ أن يُصار أثناء انعقاد مجلس الصفوف، إلى التداول بشأن حظوظ قبول الطالب دوران (Durand) في

---

(82) Michel Charolles, «Les Formes directes et indirectes de l'argumentation,» *Pratiques*, no. 28 (1980), p. 38.

الصفّ الرابع متوسِّط، فيقول أحدهم ما يلي:

(i) لقد تمَّ قبول الطالب دوبون في الصفّ الرابع متوسِّط.

(i) Dupont a été admis en 4e.

ممّا قد يقترح، «في بعض الظروف، وفي حال تمَّ لفظ هذه العبارة بنبرةٍ موسومةٍ»، وبمقتضى قانون الملاءمة هذه المرَّة، المعنى التالي:

(i') فما الذي يحول إذاً دون قبول الطالب دوران أيضاً؟

(i') Alors pourquoi n'admettrions-nous pas aussi Durand?

ولكن يغدو هذا الاقتراح ملحّاً إلحاحاً ملموساً أكثر في حال تمَّت صياغته على الشَّكل المُبيَّن أدناه:

(ii) لقد تمَّ بالفعل قبول الطالب دوبون في الصفّ الرابع متوسِّط.

(ii) Dupont a bien été admis en 4e.

ويستنتج كارول ما يلي: «يكمن الفارق الوحيد القائم بين هذَين القولَين في واقع أنّ الشَّخص الذي يُدلي بالقول الثاني[83] عاجزٌ عن التظاهر بأنَّه لم يرمِ إلى قول اقتراح يُشبه الاقتراح الأوَّليّ (i')، في حين أنَّ مُرسِل القول الأوَّل قادرٌ على الدوام أن يؤكِّد (بسوء نيَّةٍ) أنَّه شاء ببساطةٍ أن يُشير إلى أنَّ المجلس قد قبِلَ، بعد كلّ حساب، الطالب دوبون في الصفّ الرابع متوسِّط». أمّا نحن، فسنقول بالأحرى أنَّه، نظراً إلى كون المضمَّن أقوى بشكلٍ واضحٍ في المثل الثاني (ii) منه في المثل الأوَّل (i)، تزداد بالتالي سوء نيَّة المُرسِل نسبيّاً في حال أنكرَ أنَّه «قصَدَ قول» الاقتراح الأوَّليّ (i') في كلتا الحالتَين[84].

● وإليكم المثل التالي: «قصدَ الكونت بوبي بعض المتاجر للتسوُّق، فأضاع مظلَّته. وعاد أدراجه ليبحث عنها، فدخل إلى أوَّل متجرٍ من المتاجر التي زارها ليسأل عما إذا عثر أحدٌ على مظلَّته الضائعة، فقيل له: «كلاّ سيِّدي الكونت، لا أثر لمظلَّتكم عندنا». ثمَّ ولجَ إلى المتجر الثاني حيثُ أُجيب بالنفي: «كلاّ سيِّدي الكونت، لا أثر لمظلَّتكم عندنا». وأخيراً، دخل إلى المتجر الثالث حيث بادره

(83) لا يتناسب ترقيم الأقوال كما هو مُبيّن مع ترقيمها في النصّ الأصليّ.

(84) لا يصبح سوء النيّة ناجزاً إلاّ بشرط اعتبار الاستدلال الأوّلي (i') بمثابة المحتوى المُفترض في القول الثاني ـ مّما يُناقض على ما يبدو اختبار تسلسل الكلام.

البائع قائلاً: «نعم سيّدي الكونت، تفضّلوا هذه هي مظلّتكم»، فشكره الكونت وأثنى عليه قائلاً: «متجركم، أنتم، متجرٌ أمينٌ!»[85] («Le comte Bobby va faire ses achats dans quelques magasins et il égare son parapluie. Il revient sur ses pas et pénètre dans le premier des magasins pour demander si on n'a pas trouvé son parapluie. «Non, monsieur le comte, pas de parapluie». Il retourne au second magasin: «Non, monsieur le comte, pas de parapluie». Puis au troisième magasin: «Oui, monsieur le comte. Voilà votre parapluie». Le comte Bobby remercie et félicite: "Vous êtes, vous, un magasin honnête!»».)

ولكن هبْ مثلاً أنَّ إطراء الكونت بوبي قد اتَّخذ الشَّكل التالي:

(i) متجركم متجرٌ أمينٌ،

((i) Vous êtes un magasin honnête),

بدلاً من أن يكون على الشَّكل الآتي:

(ii) متجركم، أنتم، متجرٌ أمينٌ؛

((ii) Vous êtes, vous, un magasin honnête);

أو أنَّه اتَّخذ مثلاً الشَّكل التالي:

(iii) متجركم، أنتم على الأقلّ، متجرٌ أمينٌ،

((iii) Vous êtes, vous au moins, un magazin honnête)

فنستنتج إذاً ما يلي: لا تحملنا الصيغة الأولى (i) على الضحك، ومردّ ذلك إلى أنَّ الاستدلال التالي: /أنتم لا تُشبهون سواكم من المتاجر التي تفتقر إلى الاستقامة/ (/ce n'est pas comme les autres magasins, qui sont tous des malhonnêtes/)، وهو استدلالٌ عبثيٌّ، إذ يستحيل على المظلّة أن تتواجد في كلّ الأمكنة، والذي ترتكزُ عليه «طرافة» هذه «القصّة» برمّتها، يتّصف بكونه استدلالاً دقيقاً ومُريباً بشكلٍ مُبالغٍ فيه، مع أنّه لا يُصار إلى استبعاده حقيقةً وحقّاً (لأنّنا إذا

---

(85) ندين بهذه القصّة الطريفة إلى جان نوهاين (Jean Nohain)، وقد أعادت إنتاجها أولبريكت تيتيكا (Lucie Olbrechts-Tyteca, *Le Comique du discours*, sociologie générale et philosophie sociale (Bruxelles: Editions de l'Université de Bruxelles, 1974), p. 214).

ما نسبنا ميزةً معيَّنةً إلى شخصٍ ما، فمن شأن ذلك أن يُضمِّن أحياناً، كما سنرى لاحقاً، أنَّنا ننزع هذه الميزة عن سواه من الأشخاص)، ولهذا فهو بالتالي عاجزٌ عن إثارة الضحك الذي يتغذَّى من اليقين التأويليّ. بينما يُطلق التعليق الثاني (ii) الذي يستند فيه المُضمَّن بثباتٍ إلى البُنية التفخيميَّة، العنان للضحك. أمّا بالنسبة إلى التعليق الثالث (iii)، فسيلقى من باب أوْلى النتيجة نفسها، بحيث إنَّ الاستدلال المسؤول عن التأثير الهزليّ مُدرجٌ فيه أيضاً وبشكلٍ مؤكَّدٍ أكثر ممّا هو عليه في التعليق الثاني (ii).

وهكذا، لا مناص من التسليم بأنَّ عملية تفعيل القِيَم الدلاليّة هي مسألة درجاتٍ، إذ إنَّ بعضها يفرضُ نفسه بجلاءٍ وثباتٍ وتشبُّثٍ، في حين يكتفي البعض الآخر بتوجيه القول بشكلٍ خجولٍ إنْ جاز التعبير نحو هذا التأويل أو ذاك القريب من الواقع بدرجاتٍ متفاوتةٍ.

لا أمل لنا في التوصُّل إلى وصف مبدأ التدرُّجيّة الذي تحدَّثنا عنه بشأن التمييز بين المحتويات البيِّنة والمُضمَرة وبين المحتويات المُفترَضة والمُضمَّنة، والذي بحثنا في موضوعه بعد ذلك في قلب مجموعة الافتراضات[86] المعنيَّة بإشكاليّة الإلماح، والذي شكَّل أخيراً التأمُّل فيه حاجةً ملحَّةً أكثر داخل مجموعة المُضمَّنات، وصفاً مُرضِياً من دون محاولة تحديد قوَّة تفعيله ذات الطابع المُتغيِّر للغاية[87].

وكذلك، يتعذَّر علينا على ما يبدو معالجة عددٍ من الظواهر الألسنيّة اللُّغويّة معالجةً ملاءمةً ما لم نُسلِّم جدلاً بمبدأ التدرُّجيَّة هذا، ونذكر منها مثلاً التناقضات والتحصيلات الحاصلة.

وهكذا، فلنُقابِل بين هذَين المثلَين:

المثل الأوَّل (i): لقد أقلع بيار، الذي لم يسبق له أن دخَّن مطلقاً في حياته، عن التدخين.

---

(86) تزوّدنا «مجموعة العمل 1-λ» بمثلٍ آخر يتناول ضرورة التمييز بين مختلف درجات قوّة الافتراضات، عندما تُقيم الدليل على واقع أنّ الرابط الاستدلاليّ الذي يعبِّرُ عنه (بصيغة الافتراض) المورفيمَين «بما أنّ» («puisque») و«إذ إنّ» («car») يكون جَبريّاً أكثر في الحالة الأولى منه في الحالة الثانية.

(87) يبدو أنّ دوكرو قد سلّم بمثل هذا المبدأ عندما ذَكّر بأنّ «بعض» المُضمّنات «تتّصف بقدرٍ لا بأس به من القوّة والثبات»، في: Oswald Ducrot, «Les Indéfinis et l'énonciation,» *Langages*, no. 17 (mars 1970), p. 101.

((i) Pierre, qui n'a jamais fumé de sa vie, a cessé de fumer)

المثل الثاني (ii): كانت أذكى فتاةٍ التقيتُ بها غبيَّةً على الرُّغم من ذلك[88].

((ii) La fille la plus intelligente que j'ai jamais rencontrée était quand même bête).

يُعدّ التناقض المُلازِم لهذَين القولَين أشدّ وطأةً بوضوحٍ في المثل الأوَّل (i) منه في المثل الثاني (ii)، إذ إنَّه قائمٌ في الحالة الأولى بين محتوى مُقرَّر وافتراض، في حين أنَّه قائمٌ في الحالة الثانية، بين محتوى مُقرَّر ومجرَّد مضمَّنٍ[89].

بالإضافة إلى ذلك، ينطوي في الواقع القول الثاني على أحد «روابط الاستدراك» (ونذكر منها: «على الرُّغم من ذلك» («quand même») و«غير أنَّ» («cependant») و«بيد أنَّ» («néanmoins»)...، إلخ) التي تضطلع، بحسب كارول[90]، بمهمَّة «استرجاع قولٍ قد يُعدّ في غيابها ذا طابعٍ تناقضيٍّ». بيد أنَّ كارول يُضيف قائلاً: «ومع ذلك، فهي لا تسمح لنا بإتمامٍ أيّ استرجاع مهما يكن، ولا يكون مداها لامتناهياً». وهكذا، تستدرك عبارة «غيَر أنَّ» («cependant») التناقض الاستدلاليّ الوارد في المثل رقم (44)، في حين يتعذَّر عليها استدراك التناقض الافتراضيّ الموجود في المثل رقم (45)، كما هو مُبيَّن أدناه:

(44) يكره جاك السفر. غير أنَّ السعادة تغمره لفكرة أنَّه مسافرٌ إلى الولايات المتَّحدة الأمريكيّة، إذ إنَّ...

((44) Jacques déteste voyager. Cependant il est très heureux de partir pour les U.S.A., car...)

(45) يخالُ جاك أنَّ والده سيُبلِّغ الشرطة عنه. غير أنَّ ذلك الأمر صحيحٌ، إذ إنَّ...

(45) Jacques se figure que son père veut le dénoncer à la police. Cependant c'est vrai car...)

---

(88) مثلٌ مأخوذ عن زوبير في: Zuber, *Structure présuppositionnelle du langage*, p. 62.

(89) مثلما حاولنا برهنته في كتابنا: Kerbrat-Orecchioni, *L'Enonciation de la subjectivité dans le langage*, pp. 96-98.

(90) Charolles, «Introduction au problème de la cohérence des textes,» p. 26.

ونجد، بحسب المصطلحيّة التي نعتمدها، أنَّ التناقض قائمٌ في المثل رقم (45) بين افتراضٍ انتقاليٍّ مضادٍ مرتبطٍ بفعل «خالَ» («se figurer») ومحتوى الجملة الثانية المُقرَّر. أمّا في المثل رقم (44)، فالتناقض حاصلٌ بين مضمَّن الجملة الأولى (الذي تُحدِثه آلية الانزلاق من العام إلى الخاصّ، على الشَّكل التالي: «يكره جاك السفر» أي، / قد نتوقَّع أنَّه بائسٌ لاضطراره إلى القيام بهذه السفرة الخاصَّة/ («Jacques déteste voyager» /on pourrait s'attendre à ce qu'il soit malheureux d'avoir à entreprendre ce voyage particulier/))، وبين محتوى الجملة الثانية المُقرَّر.

وعليه، تكون بعض الافتراضات «قابلةً للاستدراك» في حين يتعذَّر استدراك بعضها الآخر، ويُعزى سبب ذلك إلى اختلاف درجات شدَّتها تبعاً لإثارتها الشكّ حول المحتوى المقرَّر أو الافتراض (اللَّذين يكونان مُتشابهَين من وجهة النظر هذه) في مقابل المضمَّن.

– تستخدِمُ التناقضات الشديدة اللَّهجة:

1. إمّا محتويَين مقرَّرَين، على غرار:

يُـدركـنـي يـأسٌ كـلـيّ وجـزئـيّ[91] («Je suis complètement et à moitié désespéré»)،

يُعدُّ هذا القول قولاً غير سويٍّ قطعاً بخلاف القول التالي:

أدركني يأسٌ جزئيّ وحتّى كليّ («Je suis à moitié, et même complètement désespéré»).

وعليه، تُقيم هذه المقارنة الدليل على وجوب تمييز التناقض الناجم عن تداخل محتويَين متجاورَين يعمد المتكلِّم إلى أخذهما على عاتقه بالسواء، عن التصويب الذي من شأنه أن يُبطل بعد حين المحتوى الذي تمَّ تأكيده في وقتٍ سابقٍ؛

2. أم تستخدم محتوى مُقرَّراً وافتراضاً، على غرار الأمثلة التالية:

● المثل الأوَّل: خالتي أرملةٌ. ويهوى زوجها تجميع ماكينات الخياطة[92]

(«Ma tante est veuve. Son mari collectionne les machines à coudre»)

---

(91) نقلاً عن إيونيسكو (Ionesco).

(92) هذا المثل مأخوذٌ عن: المصدر نفسه، ص 24.

ونجد فيه أنَّ التناقض قائمٌ بين السيمة التالية [لم يعد لديها زوج] ([qui n'a plus de mari]) التي تطرحها كمُقرَّرٍ كلمة «أرملة» («veuve») والافتراض الوجوديّ المُرتبط بالعبارة المُعرَّفة، ألا وهي: «زوجها» («son mari») (باعتبار أنَّ هذه العبارة تُؤدّي دور الفاعل لفعلٍ بصيغة الحاضر).

● المثل الثاني: أنا لا أعرف أنَّ الأرض كرويّة الشَّكل («Je ne sais pas que la terre est ronde»)

/ليست الأرض كرويّة الشَّكل/ (/la terre n'est pas ronde/): وهو المحتوى المُقرَّر.

/الأرض كرويّة الشَّكل/ (/la terre est ronde/): وهو الافتراض.

● المثل الثالث: يعلم بيار أنَّ الأرض كرويّة الشَّكل، بيد أنَّ ذلك عارٍ من الصحَّة («Pierre sait que la terre est ronde, mais ce n'est pas vrai»)،

وفي هذا المثل تُشكِّل عبارة /الأرض كرويّة الشَّكل/ (/la terre est ronde/) الافتراض في حين تُعَدُّ عبارة /ليست الأرض كرويّة الشَّكل/ (/la terre n'est pas ronde/) بمثابة المحتوى المُقرَّر(*).

(وفي الواقع، يطرح فعل «علِمَ» («savoir») كمُقرَّرٍ أنَّ فاعل الجملة يؤمِن بصحَّة محتوى العبارة المُتَمِّمة للفائدة إذا كان الفعل في صيغة التأكيد والإثبات، ويُعكَس المحتوى المُقرَّر في حال كان الفعل منفيّاً)؛

يفترضُ هذا المثل كذلك أنَّ المتكلِّم يؤمِن بهذه الحقيقة - التي تُعتبر افتراضاً «انتقاليّاً» - سواء أكان الفعل «علِمَ» («savoir») منفيّاً أم لا).

● المثل الرابع: لا أؤمِن بوجود الجحيم، ولكنَّه يبعث في قلبي شعوراً بالخوف («Je ne crois pas à l'Enfer, mais j'en ai peur»)، حيث:

يستلزم «الشعور بالخوف من أمرٍ ما» («avoir peur de x») أنَّنا /نؤمِن بوجود هذا الأمر/ (/croire à l'existence de x/).

(*) ينبغي في المثل الثاني أن تُعتبر عبارة /الأرض كروية الشّكل/ بمثابة المحتوى المُقرَّر، في حين يجب اعتبار عبارة /ليست الأرض كروية الشَّكل/ بمثابة الافتراض. وأعتقد أنّ هذا الخطأ وردَ سهواً في الكتاب الفرنسيّ.

• المثل الخامس: يدُكم أداةٌ تتَّصف بالكمال. وقد تجرَّأ قفّاز بالتيكس أن يُكمّلها[93].

(Votre main est un outil parfait. Le gant Baltex a osé le perfectionner (slogan publicitaire)).

تستلزم عبارة «كمَّل غرضاً ما» («perfectionner x») أنَّ «هذا الغرض لم يبلغ بعد مرحلة الكمال» («x n'est pas parfait»).

• المثل السادس: في أيّامنا هذه بات تعلُّم اللّغة الفرنسيّة يقتضي أن يكون المرء ملمّاً بهذه اللّغة[94].

(«Maintenant, pour apprendre le français, il faudra le savoir»).

• المثل السابع: هو سريع الاستيعاب، ولكن علينا أن نستفيض في الشرح له.

(«Il comprend vite, mais il faut lui expliquer longtemps»).

وغيرها العديد من الأمثلة.

3. أم أنّها أخيراً، تستخدم افتراضَين، كما يظهر في الأمثلة التالية:

• المثل الأوّل: لقد قتل رودولف أرملته («Rodolphe a tué sa veuve»)، ونستنتج منه ما يلي:

باعتبار أنَّ السِمة [لم يعد لديها زوجٌ] ([qui n'a plus de mari]) هي مُفترضةٌ هذه المرَّة لأنَّها ترتبط بالعبارة المُعرَّفة، ينشأ بالتالي التناقض بين الافتراض القائِل /إنَّ زوج هذه الأرملة - أي رودولف الذي يدلّنا عليه الضمير الدالّ على الملكيّة - قد توفِّي في وقتٍ معيَّن (T) وهو وقت تفعيل هذه الجملة/ (/le mari de cette veuve - à savoir Rodolphe, à cause du possessif - est mort en T, temps d'actualisation du procès/)، وبين الافتراض القائِل /إنَّ رودولف حيّاً يُرزق في هذا الوقت المعيَّن (T) / (/Rodolphe est vivant en T/) (الذي تمَّ افتراضه بمقتضى قاعدة «الحصر الانتقائيّ» التي تُميِّز فعل «قتل» («tuer») - وغيره من الأفعال - حيثُ يتعيَّن أن يكون فاعل هذه الجملة حيّاً يُرزق في الوقت المعيَّن (T)).

(93) مثلٌ مستوحى من شعارٍ إعلانيّ.

(94) نقلاً عن كولوش (Coluche).

● وإليكم أيضاً المثل الثاني:

ابنتي، أعرفها، كما لو كنتُ أنجبتها.

/لديّ ابنة/ /لم أنجبها بعد/

/لقد أنجبتها/

(Ma fille, je la connais, comme si je l'avais faite.
/j'ai une fille/ /je ne l'ai pas faite/
/je l'ai faite/).

● وهذا مثلٌ ثالثٌ إضافيٌّ، ألا وهو:

ذهبت سيِّدةٌ لزيارة الطبيب، فشكت له قائلةً:

- يخال زوجي نفسه حصاناً، يا طبيب، فهو يضرب الأرض بحوافره، ويأكل الشعير، فضلاً عن أنَّه يصهلُ.

- لا بدَّ أنَّ هذا الأمر صعب الاحتمال بالنسبة إليك!

- ليس دائماً! أقرَّت السيِّدة، فنهار الأحد الماضي مثلاً ربح جولتَين في السباق الذي جرى على حلبة أوتوي[95]

(Une dame va trouver son médecin:

- Mon mari se prend pour un cheval, docteur. Il piaffe, il mange du foin, il hennit.

- Cela doit être très pénible pour vous!

- Pas toujours! avoue la dame. Dimanche, par exemple, il a gangné deux courses à Auteuil).

ونجد في هذا المثل تناقضاً قائماً بين الافتراضَين التاليَين /ليس حصاناً/ (/ce n'est pas un cheval/) و/هو حصانٌ/ (/c'est un cheval/) اللَّذَين ينقلهما على التوالي التعبيرَين الكلاميين التاليَين: «يخال نفسه» («se prendre pour») و«ربح جولتَين في السباق الذي جرى على حلبة أوتوي» («gagner deux courses à Auteuil»).

- نكون في المقابل بصدد تناقضٍ ضعيفٍ ما إن يتَّخذ أحد العنصرَين

---

(95) André Petitjean, «Les Histoires drôles: «Je n'aime pas les raconter parce que»,» *Pratiques*, no. 30 (juin 1981), p. 19.

المعنيَّين بهذا التناقض وضع المُضمَّن، أي بكلام آخر، ما إنْ يصطدم المحتوى المقرَّر بالافتراض، أو الافتراض بالمُضمَّن أو حتّى مُضمَّنان أحدهما بالآخر اصطداماً شديداً. ولكن نظراً إلى تفاوت درجات قوّة المُضمَّنات، تتأثّر بذلك تالياً التناقضات المُطابقة لها والتي ينبغي بالتالي تدريجها بحسب سلَّم تدرُّجيٍّ يرتبطُ ارتباطاً مباشراً بسلَّم المُضمَّنات. ويبدو على سبيل المثال أنَّ التناأقض القائم في المثل الأوَّل، ألا وهو:

المثل الأوَّل (i): في هذا الأمر ما يصدم العالِم بالمنطق الذي كنته،

((i) «Il y a là quelque chose qui choque en moi le logicien que je fus»),

هو مُعزَّزٌ أكثر بقليل منه في المثل الثاني المُبيَّن أدناه:

المثل الثاني (ii): في هذا الأمر ما يصدم العالِم بالمنطق الذي قد كنته(96)،

((ii) «Il y a là quelque chose qui choque en moi le logicien que j'ai été»),

في نطاق أنَّ المُضمَّن التالي /لم أعد عالماً بالمنطق/ (/je ne suis plus logicien/) (ويعني ذلك ضمناً /لم يعد من الممكن التسبُّب لي بصدمةٍ/ (/je ne saurais être choqué/))، الذي يمكن له أن يتَّخذ أيّاً من أشكال صيغة الفعل الماضي الزمنيّة، يتفعَّلُ بشكلٍ أوضح في صيغة الفعل الماضي المجرَّد (التي تُشير إلى الانقطاع بينها وبين صيغة الفعل الحاضر) منه في صيغة قد + الفعل الماضي (التي تقترح أنَّ الفعل الماضي قد تكون له انعكاساتٌ على الحقبة الحاضرة، إذ في حال قد كان المرءُ عالماً بالمنطق، فمن شأن ذلك أن يُخلِّف أثراً يتعذَّر محوه كليّاً).

وإليكم بعض الأمثلة عن تناقضاتٍ تُثير الشكّ حول:

1. محتوى مقرَّر ومضمَّن: على غرار:

● المثل الأوَّل: لقد أقلع بيار عن التدخين البارحة، إلاّ أنّه استأنفَ التدخين اليوم («Pierre a cessé de fumer hier, mais il a recommencé aujourd'hui»):

ومن هنا، في حال اعتبرنا أنَّ الوقت المعيَّن (T) يرمز إلى الوقت الذي يُعطي الضوء الأخضر لانطلاق عمل الفعل «أقلع» («cesser»)، وأنَّ الوقت صفر

(96) وهو تصريحٌ أُدليَ به خلال أحد المؤتمرات.

(T_0) يرمز إلى وقت حدوث فعل القول، يبدو إذاً أنَّ هذه المتتالية تطرح المحتوى المُقرَّر التالي: / يُدخِّن بيار في الوقت صفر/ (/Pierre fume en T_0/) (وهو يُعدُّ محتوى مُقرَّراً بفضل الفعل «استأنَفَ» («recommencer»)). بيد أنَّها تُضمِّن كذلك إنْ جاز التعبير المعنى الآتي (الأمر الذي يُحدِث تأثير التناقض): / لا يُدخِّن بيار في الوقت صفر/ (/Pierre ne fume pas en T_0/)، حيثُ تستلزم عبارة «أقلع فلان عن فعل الشيء الفلانيّ» («x a cessé de faire y») أنَّ فلاناً كان يقوم بفعل الشيء الفلانيّ في وقتٍ سابقٍ للوقت المعيَّن (T)، وهي تستلزمُ أيضاً أنَّه ابتداءً من الوقت المعيَّن (T)، توقَّف فلان عن فعل الأمر الفلانيَ لفترةٍ معيَّنةٍ، بيد أنَّها تُضمِّن فضلاً عن ذلك أنَّ هذا «الامتناع عن الفعل» (non-faire) قد دام مدَّةً مُحدَّدةً طويلةً[97] نسبيّاً (نظراً إلى طبيعة الشيء الفلانيّ الذي امتنعنا عن القيام به).

● المثل الثاني وهو مثلٌ مأخوذٌ عن قارورة زيت التسمير:

هذا الزيت مقاوم للماء («Résiste à l'eau»)

يُعاد دهن الجسم به بعد كلّ اغتسالٍ («Renouveler l'application après chaque bain»).

● نلاحظ أيضاً بعضَ الأمثلة من النمط التالي:

أنا لستُ عنصريّاً ولكن. . («Je ne suis pas raciste mais...»).

أنا لستُ مدمناً على الكحول، ولكن... (آبى إلاّ أن أحتسيَ كأساً من

---

(97) ويجدر بالإضافة إلى ذلك أن نذكر:

● أنّ هذه المدّة قد تستمرّ حتّى الوقت صفر (T_0) في حال كان الفعل خلواً من أيّ توسّعٍ زمنيٍّ، مثلاً: «أقلع بيار عن التدخين» («Pierre a cessé de fumer») في مقابل «أقلع بيار عن التدخين لمدّةٍ تناهز الشهرَين، ومن ثمّ عاوده مرض التدخين مجدّداً» («Pierre a cessé de fumer pendant deux mois, et puis il a rechuté»)؛

● أنّ هذا المُضمّن مترابطٌ وطبيعة جذرَيّ الكلمتَين التاليتَين «أقلع» («cesser») و«توقّف عن» («arrêter de») المظهرية (الاستمرارية)، وعلى سبيل المثال فإنّ جملةً من مثل: «لقد استيقظتُ من النوم عند الساعة السادسة وخلدتُ مجدداً إلى النوم عند الساعة السادسة والربع» («je me suis levée à six heures, et recouchée à six heures et quart»)، تترك الأثر التناقضي نفسه؛

● وأنّه مسؤولٌ عن التأثير الطريف الذي تُحدثه الصياغات (المؤكّدة تمام التأكيد) ذات النمط التالي: «من السهل الإقلاع عن التدخين، فأنا أقوم بهذا الأمر كلّ يوم» («c'est facile de s'arrêter de fumer: moi je le fais tous les jours»).

الكحول بعد انقضاء الساعة السابعة مساءً) ...Je ne suis pas alcoolique mais») (après 7 heures du soir il faut absolument que je boive de l'alcool)»).

2. افتراض ومضمَّن[98].

3. مُضمَّنان: كما يظهر ذلك في المثل التالي: «كان توسكانيني يقول مازحاً إنّنا لو شئنا التفوُّق على مسرحيّة أوبرا ترويز(*)، يكفينا أن نجمع أفضل أربعة مطربين في العالم»[99] («Toscanini disait plaisamment que pour monter le Trouvère il suffisait d'avoir les quatre meilleurs chanteurs du monde»). وينطوي هذا المثل على تناقض (طريفٍ) قائم بين المُضمَّنَين التاليَين / هذا أمرٌ يسيرٌ/ (/c'est facile/) و/ هذا أمرٌ عسيرٌ، بل حتّى محالٌ/ (/c'est difficile, voire impossible/) اللّذَين ينقلهما تعبيرا «يكفي أن» («il suffit de») و«نجمع أفضل أربعة مطربين في العالم» («avoir les quatre meilleurs chanteurs du monde»).

وعليه، تترك هذه التناقضات تأثيراً تختلف درجة حدّته باختلاف وضع الوحدات الدلاليّة التي تُعنى بها هذه التناقضات. وفي حالة التردُّد في حسم هذا الوضع، كما يكون عليه الحال عندما نجهل ما إذا كنّا بصدد افتراضٍ أو مضمَّنٍ، يمكننا عندئذٍ أن نركن إلى «الشُّعور بالتناقض» الذي يساورنا. ولا بدَّ من التنويه بأنَّ هذا الشُّعور هو بدوره غير واضح المعالم، إلاّ أنّه يساعدنا في تأكيد القرائن المُثبتة أو الطعن فيها استناداً إلى اعتباراتٍ أخرى. وإذا ما تساءلنا مع سورين ستاتي (Sorin Stati) مثلاً، عن الطريقة الأنسب التي ينبغي اللّجوء إليها لوصف محتوى الصفة «حادّ» («bon») السيميّ في سياقٍ من مثل «هذا سكّينٌ حادٌّ» («c'est un bon couteau»)، وعمّا إذا كان لزاماً أن نضمَّ إليه السِمَة التالية [الغرض الذي يتمتَّع بالميزات المطلوبة كافَّةً لتمكين الغرض الموصوف بها من تأدية الوظيفة المولجة إليه] ([qui a toutes les propriétés requises pour permettre à l'objet ainsi caractérisé de remplir la fonction qui lui est dévolue]) (وتسمح لنا هذه السِمة عبر اتّحادها مع سيمة [كي يقطع] ([pour

(98) راجع المثل الذي أوردناه آنفاً بشأن العالم بالمنطق المجروح الأحاسيس.

(*) «أوبرا تروفير» (Le Trouvère: Opéra) هي مسرحية من تأليف فيردي (Verdi) عام 1853.

(99) نقلاً عن صحيفة: *Libération* (31 juillet 1981), p. 31.

(«bon «سكّينٌ حادٌّ» التعبيريّ بوسم التركيب («couteau») «السكين» couper])
couteau») بالسِمة [يقطع جيِّداً] ([qui coupe bien])، نستطيع كذلك أن نركن إلى حدسنا بوجود تناقضٍ شديد اللّهجة في جملةٍ من مثل «هذا سكّينٌ حادٌّ، إلاّ أنّه لا يقطع جيِّداً» («c'est un bon couteau, sauf qu'il coupe mal»)، بغية منح مثل هذه السِمة وضع السيمة الكاملةِ العضويّة[100]، وليس وضع التضمين.

(وبناءً على ما تقدَّم، يتبدَّل «الشعور بالتناقض» تبدُّلاً ملموساً من شخص إلى آخر، وفقاً لما يعتبره هذا الأخير تحديداً، وبمقتضى الكفاءة المعجميّة الخاصَّة به، بمثابة المكوِّن لمحتوى المتتالية السيميّ - أي العناصر المُقرَّرة أم المُفترضة -، وتبعاً كذلك لما ينفي وجوده في المقابل في «العلاقات التضمينيّة التصوُّريّة» البسيطة التي تُضمِّنها احتماليّاً هذه المتتالية نفسها. وهكذا، إليكم المثل الآتي:

(i) تناقشَ بعض الأصدقاء بشأن الطبق الذي سيتناولونه على العشاء، فاقترح أحدهم ما يلي: «ما رأيكم بتناول الفطائر المحلاّة؟»

المتكلِّم: "أنا أحبِّذ هذه الفكرة، وسأتولّى بنفسي إعدادها، إذ إنّني ضليعٌ في تحضير الفطائر المحلاّة».

(وبعد انقضاء بعض الوقت)

المخاطب: «إذاً، أتُعِدُّ الفطائر المحلاّة هذه؟»

المتكلِّم: «آه! ولكنّني أجهل كيفيَّة خَبْزِ عجينتها!».

((i) Discussion entre amis sur le menu du soir. Quelqu'un suggère: «Et si on faisait des crêpes?»

L_1. - «Bonne idée, je m'en charge: les crêpes je sais les faire».

(Un peu plus tard)

L_2. - «Ah mais je ne sais pas faire la pâte!»).

لا يجد المتكلِّم، من وجهة نظره، تناقضاً شديداً بين «أن يكون المرء ضليعاً في تحضير الفطائر المحلاّة» («savoir faire les crêpes») - الأمر الذي لا يستتبع ضمناً برأيه إلاّ الدراية بكيفيَّة تقليبها في المقلاة - وبين «جهل كيفيَّة خَبْز عجينتها» («ne pas savoir faire la pâte»).

(100) إليكم مثلاً مشابهاً: «لقد نجحت العملية نجاحاً باهراً، إلاّ أنّ المريض قد أسلم الروح» («L'opération a parfaitement réussi, mais le malade est mort»).

أمّا بالنسبة إلى المخاطب الذي لم يمنع نفسه من جهةٍ أخرى من التعبير بصوتٍ عالٍ عمّا يجول في خاطره بشأن هذه المسألة، فإنَّ المتكلّم قد ارتكب للتوّ غلطةً تُبطلُ مضمون ما ورد على لسانه سابقاً.

(ii) إلاّ أنَّ المخاطب يثأر لنفسه في اليوم التالي، كما هو مُبيَّنٌ أدناه:

المتكلّم: ماذا عن مسّاحات الزجاج في سيّارتك، هل تعمل بشكلٍ جيّدٍ؟

المخاطب: نعم، لا بأس بها... ولكن ما أسوئها في مسح الزجاج!»).

((ii) L_1. - Et tes essuis-glaces, ils marchent bien?

L_2. - Oui ça va... Mais alors, qu'est-ce qu'ils essuient mal!).

نستطيع بتماثلٍ أن نُطبّق هذه الملاحظات عينها على التحصيلات الحاصلة وحالات الإطناب الّتي تتَّصف بكونها قابلةً للتدريج أيضاً، فتبعاً لنسق التفكير عينه، يقترح سادوك[101] بغية تمييز «العلاقات التضمينيّة الاتّفاقيّة» عن «العلاقات التضمينيّة التحادثيّة» (أي بالإجمال بين ما نُسمّيه الافتراضات وما نُطلق عليه اسم المُضمَّنات)، اللّجوء إلى «اختبار القابلية للحذف» وإلى «اختبار القابلية للتعزيز» (test de reinforceability) معاً. ونستنتج هكذا أنَّ «العلاقات التضمينيّة ذات النمط الأوَّل صعبة «التعزيز» (فمثلاً: «من الغريب أن تلتهم الكلاب الجبنة، ولكنَّه أمرٌ يحصل» («It's odd that dogs eat cheese, and they do»)، ويُحدِث تبيين الافتراض الانتقاليّ الموجود في الجملة الأولى تأثير الإطناب السَّخيف)، بينما تكون العلاقات التضمينيّة ذات النمط الثاني «قابلةٌ للتعزيز» بشكلٍ أكثر طبيعيّةً بأشواطٍ بعيدةٍ (والمثل على ذلك هو الآتي: «أكلت ماغي قسماً من قالب جبن الشدر وليس القالب كاملاً» («Maggie ate some, but not all, of the cheddar»)).

ومع ذلك، لا بدَّ من التمييز بين تحصيل الحاصل والإطناب على الشّكل الآتي:

تكون التحصيلات الحاصلة التي تستفيد من المحتويات المُقرَّرة والافتراضات، «موسومةً» بصورةٍ دائمةٍ باعتبارها منحرفةً بما أنّها تُقدِّم بغشٍّ متتاليةً فارغةً إخباريّاً باعتبارها إسهاماً بالمعلومات ـ فإمّا أن تكون هذه المتتالية تفسيراً كاذباً ينتهي إلى نقطة الانطلاق، على غرار المثل التالي: «يجعلنا المخدِّر نغرق في سباتٍ عميقٍ لأنَّ له قوّةً منوِّمةً» («L'opium fait dormir parce qu'il a une vertu dormitive») أو أنَّ المُسنَد لا يُضيف شيئاً إلى ما يقوله المُسنَد إليه، على

---

(101) Jerrold M. Sadock, «On Testing for Conversational Implicature,» in: Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics*, p. 294.

غرار الأمثلة التالية: «المرأة هي المرأة» («Une femme est une femme»)، و«الفلس هو الفلس» («Un sou est un sou») و«الماضي هو الماضي» («Le passé c'est le passé»)، و«الزَّوج هو الزَّوج»[102] («Un mari c'est un mari»)، و«سيَّارة الفولزفاغن هي سيَّارة فولزفاغن» («Une Volswagen est une Volkswagen»)، و«المجرم هو المجرم» («Un meurtrier c'est un meurtrier»)، و«إنْ حصل الأمر يكون حاصلاً» («C'est fait c'est fait»)، و«إنْ قيل ذلك فإنَّه قد قيل» («C'est dit c'est dit»)، و«سأقول ما سأقوله» («Je dis ce que je dis»)، و«ما كُتِب قد كُتب» («Quod scripsi, scripsi»)، و«عندما ينتهي الأمر يكون قد انتهى» («Quand c'est fini, c'est fini»)، و«إن تخطَّى المرء الحدود، يفلت زمام الأمور» («Passé les bornes, il n'y a plus de limites»)، و«وحدها مياه إيفيان المعدنيّة تتمتَّع بخصائص مياه إيفيان» («Seule l'eau d'Évian a les vertus de l'eau d'Évian»)، و«كلَّما تحسَّن الأمر، بات أفضل» («Plus c'est bon, meilleur c'est»)، و«ليس الاستثناء قاعدةً» («Une fois n'est pas coutume»)، و«غداً يومٌ آخرٌ» («Demain est un autre jour») إلى آخره.

هذا وتتناسب معظم الأمثلة التي أوردناها سابقاً، وذلك بطرقٍ مُختلفةٍ (نذكر منها مثلاً تأويل أحد العنصرَين تأويلاً بيانيّاً، وإنشاء استدلالٍ إخباريٍّ. . .، إلخ)، مع التحصيلات الحاصلة المُمعجمة بدرجات متفاوتةٍ والقابلة للاختزال. ولكن إليكم بعض الأمثلة عن التحصيلات الحاصلة غير القابلة للاختزال والتي يكون تأثيرها الانتهاكيّ (لقاعدة الإخباريّة) جليّاً، ألا وهي:

المثل الأوَّل: ما كان لون الحصان الأبيض الذي كان يملكه هنري الرابع؟
(«De quelle couleur était le cheval blanc d'Henri IV?»)

(وفيه علاقة تحصيل حاصل قائمة بين افتراض السؤال[103] القويّ للغاية والمحتوى المُقرَّر للجواب المُرتقب).

---

(102) إليكم المثل التالي: ليزيت (Lisette): «الزوج هو الزوج، لا يجدر بك الانتهاء بهذه الكلمة، فإنّها ترأب الصّدع بيني وبين كلّ الباقي» (LISETTE. - «Un mari, c'est un mari; vous ne deviez pas finir par ce mot-là, il me raccomode avec tout le reste»).

مثلٌ مأخوذ من المشهد الأوّل من الفصل الثاني من مسرحية ماريفو بعنوان **لعبة العشق والقدر** (*Le Jeu de l'amour et du hasard*).

(103) كما في المثل التالي: «هذا المُغفّل بيار» («cet imbécile de Pierre»)، وفي الواقع تُفعَّل في هذا المثل درجة قوّة المحتوى المُضمَر القصوى.

المثل الثاني: باستطاعتنا أن نبدّل كلّ الأمور تقريباً
ما خلا تلك التي لا يسعنا تبديلها[104].

(On peut presque tout changer,
Excepté ce qu'on n'peut pas).

المثل الثالث: على أيّ حالٍ، أنتم متأخّرون أقلّ من... هؤلاء المتأخّرين أكثر منكم بعد[105].

(En tout cas, vous êtes moins en retard que... ceux qui le sont davantage).

المثل الرابع: في الواقع، يستحيل تحقيق ما هو محال!

(En effet, rien n'est possible, de ce qui est impossible!).

في المقابل، لا تبدو إعادة صياغة المحتوى المُضمَر صياغةً بيّنةً حشويّةً مطلقاً، لأنّها تسمح للقول من خلال تعديل وضع المحتوى المطروح ومن دون أن تُقدّم فائضاً حقيقيّاً من المعلومات، باكتساب المزيد من الوضوح. ولا تُعدّ مثل هذه الإعادات الصياغيّة البيّنة حالاتٍ خطابيّةً شاذّةً ما خلا في حالة الاستدلال القصوى حيث تجعل قواعد علم الحساب المحتوى المُضمَر بديهيّاً للغاية، كما في المثل التالي:

المندوب: كم كنتَ تبلغ من العمر آنذاك؟

الزبون: لقد زوّدتك للتوّ بتاريخ مولدي!

المندوب: ليس تاريخ الميلاد والعمر وجهَين لعملةٍ واحدةٍ. إذ لا ندوّن هاتين المعلومتَين في الخانة نفسها في استمارة الزبائن[106].

(LE PRÉPOSÉ. - Quel âge avez-vous?
LE CLIENT. - Mais je vous ai donné ma date de naissance tout à l'heure!
LE PRÉPOSÉ. - La date de naissance et l'âge, ce n'est pas la même chose. Les deux indications ne figurent pas au même endroit sur la fiche du client).

أو حتّى، كما في هذا الإيضاح (المصحوب أيضاً بتحفُّظٍ خطابيّ) الموجّه إلى المتقدّمين لامتحان شهادة الأستاذيّة في قواعد اللّغة الفرنسيّة، ألا وهو:

---

(104) نقلاً عن بوبي لابوينت، من مسرحية **أفاني وفرانبواز** (Boby Lapointe, *Avanie et Framboise*).

(105) مأخوذ من: Jean Tardieu, *Théâtre de chambre*, nouv. éd. rev. et augm. ([Paris]: Gallimard, [1966-]), pp. 132, et 196.

(106) المصدر نفسه، ص 70.

سيخضع الأشخاص الذين سيسحبون الأرقام المزدوجة لاختبار اللّغة اليونانيّة الارتجاليّ. وأصرُّ، وأنا على يقينٍ بأنّني أكرِّر نفسي، أنَّ الأشخاص الذين سيسحبون الأرقام المُفردة سيخضعون لاختبار اللّغة اللاتينيّة الارتجاليّ.

(«Ceux qui tireront les numéros pairs passeront l'improvisé de grec. J'insiste en sachant que je me répète: ceux qui tireront les numéros impairs passeront l'improvisé de latin»).

وفي المقابل، لا يبدو التفسير بأسلوبٍ شخصيّ ذو الطابع التبيينيّ والذي يتناول استدلالاً ضروريّاً بمثابة التفسير غير المجدي في التعليق التالي المُقتبس عن ماريفو (Marivaux):

ليليو: لا تُثير سخطي [...]؛ ستُدلي بما تعرفه وإلاّ قتلتُك.

تريفولين: أستقتلني إن لم أتكلَّم؟ هذا مؤسفٌ يا سيِّدي ...(107)

(LÉLIO. - Ne m'irrite point [...]; tu parleras, ou je te tue.

TRIVELIN. - Vous me tuerez, si je ne parle? Hélas, Monsieur...).

ومن المُجدي من بابٍ أوْلى أن نضع النِّقاط على الحروف في حالة المضمَّنات التي يتَّصف فكّ ترميزها بالصدفويّ تقريباً على الدوام، كما في المثل الآتي:

السيِّدة سميث: لقد أجادت ماري طهي البطاطس هذه المرَّة. أمّا في المرَّة السابقة، فلم تدعها تنضج كما ينبغي [...]

لقد أكلتُ أكثر منك هذا المساء. كيف حصل ذلك؟ فعادةً أنتَ مَن يأكلُ أكثر منّي(108).

(M^me SMITH. - Mary a bien cuit les pommes de terre cette fois-ci. La derniere fois elle ne les avait pas bien fait cuire [...]

J'ai mieux mangé que toi, ce soir. Comment ça se fait? D'habitude, c'est toi qui manges le plus).

---

(107) مثلٌ مُقتبسٌ من المشهد الثاني من الفصل الثالث من مسرحية **التابعة المزيّفة** (*La Fausse suivante*).

(108) نقلاً عن إيونيسكو، من المشهد الأوّل من مسرحية **المغنية الصلعاء** (Eugène Ionesco, *La Cantatrice chauve*).

إذا ما قابلنا هذين المثلَين، نلاحظ أنّ المُضمَّن (الذي يُبصر النور في الحالتين جرّاء تطبيق قانون الشمولية) يكون أقوى حين تُعزّزه عبارة «هذه المرّة» («cette fois-ci») منه عندما يكون مرتبطاً بعبارة «هذا المساء» («ce soir»).

أبمستطاعنا حقّاً أن نتحدّث عن الإطناب (أي، هل إنّنا فعلاً «نُكرِّر أنفسنا») في مثل هذه الحالات التي يُصاغ فيها المحتوى عينه مرّتَين ولكن وفق صيغتَين مختلفتَين؟ والجواب هو نعم ولا - إذ يزداد تأثير الإطناب على أيّ حالٍ كلّما كان المحتوى المُضمَر أكثر شفافيّةً ووضوحاً.

فتماماً كما أنَّ ما يُفهَم من دون الحاجة إلى الإدلاء به، يُفهم على نحوٍ أفضل إنْ نحن أدلينا به، كذلك فإنَّ ما يُفهَم من خلال الإدلاء به بشكلٍ مُضمَرٍ، يُفهَم على نحوٍ أفضل إنْ نحن أدلينا به بشكلٍ بيّنٍ - على الأقلّ بالنسبة إلى خطابٍ يرمي إلى التقيُّد (وهذا لا يصحّ على الدوام، بل الوضع عكس ذلك) بالقاعدة الغريسيّة الرابعة، ألا وهي: «كُن واضحاً» («Soyez clair»).

4.2. وضع الكلام المنطوق المُشتقّ

. . . - لأنَّ الكلمة هي من وجهة نظرها إمّا تملّقٌ

أو تهجُّمٌ، وليست مُطلقاً مرآةً للحقيقة - . . .[109]

(... - car pour elle la parole est toujours caresse
ou agression, jamais miroir de vérité -...).

«إنَّ الكلامَ البعيد كلّ البعد عن كونه مجرَّد وسيلةٍ تُمثِّلُ الحقيقة أو الفِكر فحسب، هو في مفهوم أوستين جهازٌ أو نظامٌ يُمكّننا من إنجاز أفعالٍ لا وجود لها إلاّ في هذا النظام ومن خلاله - فعلى سبيل المثال، ينعدم وجود الفعل «سجّل هدفاً» («marquer un but») خارج إطار نظام كرة القدم. وتخضع هذه الأفعال التي ننجزها بواسطة الكلام، أسوةً بتلك التي ننجزها في الألعاب، لمجموعةٍ من القواعد»[110]. وقد مضت سنوات طويلة قبل أن تعزم الألسنيّة على اتّخاذ هذا المفهوم على محمل الجدّ، وعلى استخراج النتائج النظريّة منه ودمجها بشكلٍ نهائيٍّ في مجموع الفرضيّات التي ترسي أسسها. ومن وجهة نظرنا، بات هذا التصوُّر من الآن فصاعداً أحد مكتسبات الألسنيّة يتفاعل فيها باتّجاهٍ واحدٍ أي بشكلٍ لا رجوع عنه.

---

(109) Michel Tournier, *Le Roi des Aulnes*, collection folio; 656 ([Paris]: Gallimard, 1975), p. 33.

(110) François Récanati, «Le Développement de la pragmatique,» *Langue française*, no. 42 (1979), p. 10.

تؤدّي الأقوال الكلاميّة وظيفة الأفعال، شأنها في ذلك شأن التصرُّفات غير الكلاميّة؛ كما يُعَدُّ القول والفعل وجهَين لعملةٍ واحدةٍ. وهكذا نستنتج أنّنا لم نسبر بعد أغوار المناطق التي تُشرِّعها الفرضيّة الأوستينيّة أمام البحث الألسنيّ اللُّغويّ. هذا وتتيح هذه الفرضيّة الواعِدة والمُثمرةُ والصَّائبةُ إلى حدٍّ بعيدٍ (بنظرنا طبعاً)، المجال أمام الألسنيّة لتوسيع حقل الملاءمة الخاصّ بها توسيعاً ملموساً، وتسمح لها أيضاً بالخروج من عُزلتها الماثليّة المُتعجرفة وإنشاء روابطَ عضويّةٍ بينها وبين علم النَّفس وعلم الاجتماع و«علم خصائص التواصل[111]» ونظريّة التفاعلات (الكلاميّة منها وغير الكلاميّة)، فضلاً عن الأفعال (الكلاميّة وغير الكلاميّة على حدٍّ سواء).

ستفتقرُ لا مناص نظريّة أفعال الكلام إلى التماسك والرسوخ في حال لم تتوصَّل إلى الاندماج في نظرية الأفعال العامَّة[112] ـ الأمر الذي لم نشهد حدوثه بعد. ونأسف أشدَّ الأسف لذلك، لأنّنا نعتبر أنَّ التطوُّرات التداوليّة التواصليّة الراهنة متوقِّفةٌ على حصول مثل هذا الاندماج. إلا أنَّ ذلك لا يُشكِّل على الإطلاق سبباً يدفعنا إلى أن نحذو حذو بيريندوني[113] الذي يتَّخذ من هذا الأمر مطيَّةً لدحض وجود «أفعال الكلام» (speech acts) بحدِّ ذاتها، متذرِّعاً بالحجَّة الساذجة القائِلة «بانعدام وجود الفعل في ظلّ غياب الممارسة الحركيّة»، أي بكلام آخر، في ظلّ انعدام وجود أمرٍ مهما يكن «ننجزه بواسطة اليدَين أو الرجلَين أو الأسنان أو العينَين، وليس مطلقاً بواسطة المدلولات الكلاميّة»[114]. وهكذا مثلاً،

(111) ويجدر التذكير بأنّ هيمس (Hymes) أوجَد منذ العام 1964 نموذج «التخاطب» (Speaking) الخاصّ به على قاعدة «فعل الكلام الفردي».

(112) وهي نظريةٌ منذ الآن قيد الإنشاء: انظر إلى أعمال ليو أبوستيل (Léo Apostel) بشأن «التداولية التواصلية التطبيقيّة العلمية» وأعمال «فيلسوفَيّ الفعل»، ألا وهما: ويت (A. R. White) في كتابه: Alain R. White, *The Philosophy of Action*, Oxford Readings in Philosophy [Reprinted with correction] ([n. p.]: Oxford: University Press, 1970),

وفون رايت (G. H. Von Wright) في كتابه: G. H. von Wright, *Norm and Action: A Logical Enquiry*, [International Library of Philosophy and Scientific Method] (London: Routledge and Keagan Paul; New York, Humanities, [1963]).

(113) Alain Berrendonner: *Eléments de pragmatique linguistique*, propositions (Paris: Editions de Minuit, [1981]), et «Zéro pour la question. Syntaxe et sémantique des interrogations directes,» *Cahiers de linguistique française*, no. 2 (1981).

(114) Berrendonner, *Eléments de pragmatique linguistique*, pp. 80-81.

إذا ما رفعتُ قبّعتي لألقيَ التحيّة على أحدٍ ما، أُنجز فعلاً أصيلاً[115]، أمّا في حال قلتُ «مرحباً!» («salut!») فلا أنجز سوى فعلِ «بديلٍ».

وعلى الرُّغم من أنّني لا أصنّف نفسي تماماً في عداد الأشخاص المُدرجة أسماؤهم على اللائحة السوداء المُخصَّصة بحسب بيريندوني[116]، لهؤلاء - من فلاسفةٍ ورجال قانون واختصاصيِّين في «التأويلات الشاذّة»[117] - الذين ينفردون خِلافاً «للمنطق» في القدرة على التسليم بأنّ الإدلاء بفعل القول التالي: «أعدكم» («je vous promets»)، يُعتبَرُ فِعلاً بكلّ ما للكلمة من معنى، وهو فعل قطع الوعد، إلاّ أنّني أقرُّ بأنّ التحديد «الواضح» بين مزدوجَين الذي يقترحه بيريندوني عن مفهوم الفعل لا يُمكِّنُني من إدراك الفرق بين نمطَي إلقاء التحيّة الآنفَي الذكر إدراكاً واضحاً. وعليه، يطرح السؤال التالي نفسه: أوَليس ثمّة تصرُّفٌ جسديٌّ معيَّنٍ يرتبط به اصطلاحيّاً، في كلتا الحالتَين، مدلولٌ معيَّنٌ يسمح بدوره للدالّ بتأدية وظيفة الفعل المحدَّد ذي القيمة المحدَّدة (أي بالنظر إلى ذلك، قيمة / إلقاء التحيّة/ (/salut/))؟

فمن وجهة نظر بيريندوني، ليست «أفعال الكلام» المزعومة سوى «بدائلَ

(115) إلاّ إذا توجّب استبعاد هذه الإشارة بالذات عن فئة الأفعال، لأنّ المسألة تتعلّق هنا «علامة» وليس «عارضٍ»، وتُعدُّ العناصر الدالّة الدلاليّة وحدها، بالنسبة إلى بيريندوني (Berrendonner, «Zéro pour la question. Syntaxe et sémantique des interrogations directes,» p. 42)، أفعالاً. وإنّ التمييز الذي يرتكز عليه هذا الموقف المونينيّ الجديد (néo-mouniniste) هو قابلٌ جدّاً للنزاع. ولكن يطرح السؤال التالي نفسه بوجهٍ خاصّ، ألا وهو: هل يعني ذلك أنّنا مضطّرون إلى عدم الاعتراف بوضع كلّ التصرّفات الحركيّة التي يصفها كوزنيه (J. Cosnier) «شبه الألسنية اللّغوية» باعتبارها أفعالاً، علماً بأنّها تعمل في الواقع على منوال الأقوال الكلامية؟ وإليكم أيضاً هذا اللّغز المُعضِل (ما لم نعتبر أنّ هدفه «إنقاذ» نظريةٍ مُفارِقةٍ للغاية): خلافاً لتحقّق الوحدات الصوتمية، يُشكّل تحقّق الوحدات النغمية بالنسبة إلى بيروندوني «إشارةً» أي فعلاً كامل العضوية - ولكن بأيّ صفةٍ؟

(116) Berrendonner, *Eléments de pragmatique linguistique*, p. 84.

(117) يقتضي التوضيح بأنّ بيريندوني لا يدحض وجود الأفعال «المنطوقة» التي يصعب إنكار وجودها، بل يدحض وجود الأفعال «الكلامية المنطوقة» وحسب؛ وبأنّ برهنته (المصدر نفسه، ص 83) ترتكز على فكرة إمكانية وجود تباينٍ جذريٍّ بين واقع التأكيد (عن غير وجه حقّ) بأنّ العلاقة القائمة بين فعل القول الكلامي وفعل قطع الوعد هي علاقة «تطابقٍ»، وواقع التأكيد في المقابل بشكلٍ مقبولٍ هذه المرّة، أنّ هذه العلاقة ليست سوى علاقة «تكافؤٍ». وعليه، تُرسّخ هذه البرهنة، تلبيةً لمتطلّبات إقامة الدليل، تعارضاً ضعيفاً تتّخذه دانجو فلو (N. Danjou-Flaux) (عام 1983) تحديداً كمثلٍ يُثبتُ ما تقوله في إطار دراستها التي تتناول طريقة عمل الرابط الاستدراكيّ «في المقابل» («au contraire»)، انطلاقاً من واقع أنّه «قد يُساعد في تحويل التباين البريء ظاهريّاً إلى تعارضٍ وجوهريٍّ» (Nelly Danjou-Flaux, «Au contraire, connecteur adversative,» *Cahiers de linguistique française*, no. 5 (1983), p. 284).

عرَضيّةٍ» للأفعال الأصيلة، أي بكلام آخر، إنْ نوَيْنا على القيام بفعلٍ، فإنّنا لا نلجأ إلى الأساليب الكلاميّة إلاّ حين يتّضح أنَّ تحقيق الفعل المعنيّ تحقيقاً غير كلاميٍّ هو أمر «شاقٌّ» وعلى جانب من الصعوبة يفوق الوصف. ولن نُفنِّدَ هنا برهنته التي يُمكن وصفها أحياناً بالبهلوانيّة (مثلاً: حين تتعلّق المسألة من وجهة نظره ببرهنة أنَّ القيمة الاستفهاميّة تكون مُشتقَّةً في الجُمل الاستفهاميّة أو أنَّ القيمة الكلاميّة المنطوقة الموجودة في المثل التالي: «أُقسم لكم أنَّ بيار قد أتى» («Je vous jure que Pierre est venu») تتّخذ وضع المُضمَّن ـ ذات «النمط الخاصّ جدّاً»[118] بالطبع). وترتكز برهنته بشكلٍ جوهريٍّ أيضاً على مبدأي الاقتصاد اللُّغويّ والتعميم الوصفيَّيَن الإيضاحيَّين، فإزاء التكرار المؤثِّر مثلاً لعباراتٍ من مثل «سعر نظريّ» («coût théorique») و«مردود» («rendement») و«باهظ الثمن» («onéreux») و«التسديد» («payant») نتأمّل أحياناً تأمُّلاً منافياً للعقل بأنَّ هذه الإيضاحات الوصفيّة تُنادي بالإنفاق وحتّى بالتبذير، باعتباره مبدأً نظريّاً تحويليّاً. . .

سنُشير مع ذلك إلى هذا التفصيل النّافل الذي لا يسترعي اهتمامنا إلاّ لأسبابٍ ذات طابع ألسنيٍّ لغويٍّ، ألا وهو: يقول بيريندوني بشأن الجملة التالية: «آه، ينتابني الضحك لأنّني أرى نفسي بغاية الجمال وأنا أتأمّل صورتي في هذه المرآة» («Ah, je ris de me voir si belle en ce miroir»)، أنَّ مارغريت (Marguerite) «تؤثِر القول بأنّها تضحك، بدلاً من أن تستغرق في الضحك ببساطةٍ وعفويّة، لبلوغ النتيجة نفسها»[119]، فالمسألة هنا تتعلّق بنوع من أنواع العبارات الإنشائيّة ـ في حين كان من الأوْلى بها أن تتعلّق بتعليقٍ على ضحكةٍ مُصوَّتةٍ[120] تمّت إطالتها بمهارةٍ وأُعيدت الكرّة تلو الكرّة، هذا فضلاً عن أنَّ جلاءها المحاكاتيّ يختلف باختلاف تأديات أغنية «لحن الحُليّ» («air des bijoux») (ولحسن الحظّ أنَّ ثمّة تأديات أخرى غير تلك التي أدّتها المغنيّة الأوبراليّة الإيطاليّة كاستافيور (Castafiore) المسكينة). وعلى أيّ حالٍ، تحفل المراجع والموسوعات بما يكفي من الأمثلة التي تتناول «الضحكات الأوبراليّة»[121] التي لا تقبل النقاش (علماً بأنّها نوعٌ من أنواع المتتاليات المعروفة

---

(118) Berrendonner, *Eléments de pragmatique linguistique*, p. 126.

(119) المصدر نفسه، ص 90.

(120) المتمثّلة بشكلٍ غير بليغ البتّة من خلال عبارة «آه» («Ah!») التي ينطق بها تان تان (Tintin).

(121) وهكذا، يجدر التنويه مثلاً بالضحكات التي نجدها في **دون جيوفاني** (*Don Giovani*) و**فولستاف** (*Falstaff*) و**ذهب نهر الرين** (*L'Or du Rhin*) و**نجمة شابرييه** (*L'Etoile de Chabrier*).

باسم «لاشغوسانغ» (lachgesang) والمُدرجة في القول الكلاميّ المُغنّى)، ممّا يمنعنا من مشاطرة بيريندوني الرأي حول مسألة «تعذُّر الضحك والغناء في آنٍ».

في حال صرَّح شخصٌ ما بأنَّه يضحك، من دون أن يضحك فعلاً، فقد يُعرِّض نفسه للسخريّة، فإنْ قال مثلاً: « أنا أضحك» («je ris») أو «أنا أصرخ»[(122)] («je crie») أو «أنا أمشي» («je marche») أو حتّى «أنا قادمٌ»[(123)] («j'arrive»)، فلا يعني ذلك أنَّه يُنجز بالضبط فعل الضحك أو الصراخ أو المشي أو الوصول، فبخلاف القولَين التاليَين «أنا أمنعك من . . .» («je t'interdis...») أو «أنا أعدك . . .» («je te promets...»)، تتَّصف مثل هذه الأقوال بالعجز عن تحقيق الفعل الذي تُشير إليه، فلا مفرَّ لنا من أن نأخُذَ بالحُسبان التمييز الأوستنيّ القائم بين العبارات الإنشائيّة وغير الإنشائيّة والذي تتحدَّر منه التداوليّة التواصليّة الألسنيّة اللُّغويّة برمَّتها.

والعكس بالعكس، فإنَّ الوسيلة الأمثل برأينا لإنجاز فعلَي المنع وقطع الوعد بوجه الخصوص تتجلَّى بقول «أنا أسامحك»[(*)] («je te pardonne») أو «أنا أعدك» («je te promets»). أمّا بالنسبة إلى فعل التساؤل، فيُقرُّ بيريندوني[(124)] بما يلي:

---

(122) وإليكم المثل التالي المأخوذ من كتاب: Marguerite Duras, *Agatha* (Editions de Minuit, 1981), p. 41، ألا وهو:

هو: ـ «إن كنتِ ما زلتِ تكنّين له مشاعر الحبّ [. . .] قولي لي ذلك (وبعد مُضيّ بعض الوقت).

هي: ـ أنا أحبّه.

(تلا ذلك صمتٌ. وبقي هو مسمّراً مُغمَض العينَين. أمّا هي فأشاحت بنظرها عنه).

هو: ـ سأصرخ. أنا أصرخ.

هي: ـ فلتصرخ».

(LUI. - «Si vous l'aimez [...], dites-le-moi (temps).

ELLE. - Je l'aime.

(Silence. Lui se tient les yeux fermés. Elle, détournée de lui).

LUI. - Je vais crier. Je crie.

ELLE. - Criez»).

(123) غالباً ما تؤدّي عبارة «أنا آتٍ» («j'arrive») دور المناورة التسويفيّة، ولا يعود سبب ذلك إلى أيّ طريقة عملٍ إنشائيّةٍ تتَّصف بها هذه العبارة، بل إلى قيمة المُستقبل القريب الذي تنطوي عليها صيغة الحاضر.

(*) وردت عبارة «أنا أسامحك» (Je te pardonne) في الكتاب الفرنسيّ مكان عبارة «أنا أمنعك» (Je t'interdis)، على الرُّغم من أنّه يتَّضح من السياق حيثُ تتحدَّث المؤلِّفة في مُستهلّ هذه الفقرة عن فعل المنع وليس عن فعل المسامحة، أنّه كان الأجدر بهذه قلب هاتَين العبارتَين، فعمدتُ إلى تصحيح الخطأ، لذلك اقتضى التوضيح.

(124) Berrendonner, «Zéro pour la question. Syntaxe et sémantique des interrogations directes,» pp. 50-51.

«وإنْ كان بوسعنا أن نتصوَّر إنْ جاز التعبير وجود وسائل حركيّةٍ غير كلاميّةٍ من شأنها أن تثني وتمنع أو أن تُصدر الأوامر (أي في الواقع، أن تُلزِم أو أن تحجُب)» ـ وشتّان بين هذَين الأمرَين ـ «إلاّ أنَّ السعي إلى طرح الأسئلة بالإشارات هو أمرٌ ميئوسٌ منه تقريباً، بل إنَّه ممارسةٌ شاقَّةٌ، وحتّى إنَّني أسمح لنفسي بوصفه بالمنافي للطبيعة». ويُطالعنا في المثل الآتي إقرارٌ إضافيّ، مع أنَّه مُضمرٌ هذه المرَّة، من شأنه أن يقيمَ الدليل على «قابليّة الإبطال» التي تتَّصف بها القيمة الكلاميّة المنطوقة المُشتملة في العبارات الإنشائيّة، ونستشفُّ فيه كذلك تلميحاً تهكُّميّاً ذاتيّاً يرِدُ على لسان بيريندوني نفسه، ويتناول فيه هشاشة الفرضيّة التي يحمل راية الدفاع عنها شخصيّاً، ألا وهو:

(أ): إلامَ ترمي من الإيماء على هذا النحو؟

(ب): أنا أثنيك عن التدخين. على الأقلّ أحاول ثنيَك عنه، فعندما نعجز عن الكلام لا يكون الأمر يسيراً على الإطلاق[125].

X. - Qu'est-ce que vous avez, à gesticuler comme ça?

Y. - Je vous interdis de fumer. Du moins, j'essaie. Quand on ne peut pas parler, ça n'est guère facile.

والمؤكّد أنّنا حين نعجز عن الكلام، يصعب علينا إنجاز بعض الأفعال. وعليه، ما الذي يدفعنا إلى إنكار قدرة «القول» على «الفعل»؟ وما الذي يحدونا إلى العودة إلى هذا التوزيع المُبتذل للأدوار الذي يتلخَّص على الشَّكل الآتي: إيلاء الدور التمثيليّ[126] فقط إلى ما هو كلاميّ، وإسناد الدور الفاعِل وحسب إلى ما هو غير كلاميٍّ، في حين أنَّه من البديهيّ أنَّ بعض الإشارات (بالمعنى الأكثر تقليديّةً لهذا المصطلح) قادرةٌ على تأدية الدور التمثيليّ، وأنَّ بعض الأقوال قادرةٌ على الإضطلاع بالدور الفاعِل؟ وعوضاً عن وضع الفعل الأصيل في مقابل الفعل البديل، يبدو لنا أكثر إثارةً للاهتمام أن نسعى إلى محاولة إيجاد جردةٍ بالأفعال التي يستحيل إنجازها إلاّ كلاميّاً (على غرار طرح التساؤلات وقطع الوعود...، إلخ.)، وبتلك التي نعجز عن إنجازها إلاّ على نحوٍ غير كلاميٍّ (على غرار المشي

(125) المصدر نفسه، ص 44.

(126) يقول بيريندوني في المصدر نفسه، ص 42، ما يلي: «يتألّف القول من مجموعة علاماتٍ تكمن وظيفتها في تبيين (= أي تمثيل) فعلاً أو وضعاً راهناً للأمور».

والتقبيل[127] والطهي...)، وأخيراً بتلك (على غرار إلقاء التحيّة وإبداء الشُّكر...) التي تتحلّى بالقدرة على أن تتحقّق وفق النمطَين الكلاميّ وغير الكلاميّ على حدٍّ سواء.

ولكي يتحقّق الفعل، يجب لا بل يكفي، ونحن على أتمّ الوفاق مع بيريندوني حول هذه النقطة[128]، أن يتيحَ تصرُّفٌ جسديٌّ أيّاً يكن «بتبديل وضع الأمور الراهن» و«إدخال تعديلٍ إلى نظام العالم»، أي بكلامٍ آخر، أن يُفضي إلى «نتيجةٍ» ما.

وليست «نتيجة» فعل الكلام سوى تأثيره غير المباشر الذي يتوقّف إلى حدٍّ بعيدٍ على السياق المؤسّساتيّ حيث يُفعَّل القول، ولكن أيضاً على ميزاته الداخليّة، أي بكلامٍ آخر، على القيمة الكلاميّة المنطوقة المُدرجة فيه[129] - باعتبار أنَّ فعل الكلامِ «يُحقّق نجاحاً» ما إنْ تنجح فعليّاً القيمة الكلاميّة المنطوقة التي ينادي بها على صعيد تأثيره غير المُباشر، كما يظهر ذلك في المثل التالي: «أنا أمثِّلُ تمثيلاً يدفع المشاهدين إلى ذرف دموعٍ غزيرةٍ، فأنا أعمل في مجال المسرح الانفعاليّ، وأحصل على نتائجَ مذهلةٍ» (»Je fais du théâtre qui fait pleurer, du théâtre émotionnel, et j'ai beaucoup de résultats«)، وهو تصريحٌ جاء على لسان تادوز كانتور (Tadeusz Kantor) أثناء مناقشةٍ دارت على قناة T.N.P (في التاسع من تشرين الأوّل/ أكتوبر عام 1982). ويعني ذلك بوضوح ما يلي: «أعمالي «ناجحةٌ»[130] جدّاً (وتجدر الإشارة بشكلٍ عابرٍ إلى أنَّ هذا

(127) أمّا في الحالة التي تُقال فيها عبارة «أنا أقبّلك» (»je t'embrasse«) عبر الهاتف، وبشكلٍ أوضح أيضاً في الحوار الذي يُشارك فيه **بيارو المجنون** (*Pierrot le Fou*) الذي أشرنا إليه في الصفحة 230 من: Kerbrat-Orecchioni, *L'Enonciation de la subjectivité dans le langage*,
فيكون مشروعاً في الواقع أن نتحدّث عن فعلٍ «بديل».

(128) Berrendonner, *Eléments de pragmatique linguistique*, p. 81.

(129) لقد نتج عن الثنائيّة التصوّرية «كلامي منطوق»/ و«منطوق» عدداً ليس بقليلٍ من التفسيرات والتأويلات المتنوّعة. ونفهمها بهذا الصدد على أنها تُساعدنا في وضع «الادّعاء» التداولي التواصلي المُلازم للقول في مقابل تأثيراته الحقيقيّة التي يتمّ إحرازها في ظرفٍ تعبيريٍّ أدائيٍّ خاصّ. وبغية الاطّلاع على تأويلاتٍ أخرى لهذه المفاهيم الأوستينيّة، راجع على سبيل الذكر لا الحصر: Jean-Claude Anscombre, «Voulez-vous dériver avec moi?,» *Communications*, no. 32 (1980), p. 66.

(130) وتكون بالعكس مسرحية **المغنية الصلعاء** (*La Cantatrice chauve*) التي تلقّفها الجمهور بالكثير =

التصريح قد أدخل كانتور إلى عالم تقليد المأساة الكلاسيكيّة العظيم الشأن، في حال كان صحيحاً، ما يزعمه روبين[131] (J.-J. Roubine) ومفاده أنَّ هذا المسرح لا يتَّصف بمقاصده الهادِفة كما كانت تمنَّت إظهار ذلك شروح نقّاد القرن التاسع عشر المُترمِّتة، بل «بوضعه المُسيل للدموع». ويتلخَّص أحد أبرز الهموم التي كانت تشغل بال مؤلِّفي المآسي كالآتي: «كيف السبيل إلى التسبُّب بذرف أعذب الدّموع بأكبر قدرٍ من الحظوظ وأقلّ قدر من الوسائل؟»[132] («Comment produire, avec le maximum de chances et la plus grande économie de moyens, les larmes les plus agréables?»)؛ وأنَّه ينبغي بادئ ذي بدءٍ أن يُصار إلى تحديد بعض «الأنواع الأدبيّة» بمقتضى تعابيرَ كلاميّةٍ منطوقةٍ وأخرى ذات تأثير غير مُباشرٍ، ونذكر منها مثلاً: الفنّ «الهزليّ» أو «الميلودراميّ» أو «الإباحيّ» أو «فيلم الرّعب»[133].

وعليه، ترتكز نظريّة أفعال الكلام على مفهوم التحوُّل. ويؤكِّد أنسكومبر (Anscombre) ما يلي: «يُنجز المتكلِّم فعلاً كلاميّاً منطوقاً (ف) ضمن فعل قولٍ (ق)، في حال عَرَضَ فعل القول هذا باعتباره مكرَّساً لإحداث بعض التحوُّلات القانونيّة، وأن يتسبَّب بها بالفعل»[134]، أي حين يدَّعي القول على الصعيد الكلاميّ المنطوق القدرة على الفعل، وأن ينجحَ على صعيد تأثيره غير المباشر في بلوغ ما يدَّعيه. وعليه، فإنَّ استعمال صيغة الاستفهام أو صيغة الأمر مثلاً، «يُحوِّل بفعل الواقع حالة المُرسَل إليه من خلال تخييره بين بدائلَ قانونيّةٍ لم تكن موجودةً في وقتٍ سابقٍ»، فيستطيع بالتالي إمّا الإجابة على السؤال / أو التزام الصمت، ويكون قادراً أيضاً على الامتثال للأوامر / أو عصيانها[135]. وتحوّل

= من الضحك، في حين أن إيونيسكو كان يزعم من خلالها إخراج «مأساة الكلام»، مسرحيةً «غير موفّقة» من هذه الزاوية (فقط).

(131) Jean-Jacques Roubine, «La Stratégie des larmes au XVIIe siècle,» *Littérature*, no. 9 (février 1973).

(132) المصدر نفسه، ص 57.

(133) راجع تعريف كلمة «جميل» («beau») التي يُحدّدها أندريه بروتون (André Breton) كالآتي: «الجميل هو ما يجعل المنطقة الواقعة بالقرب من صدغيه ترتعش...» («ce qui lui donne des tremblements près de la tempe...»).

(134) Anscombre, «Voulez-vous dériver avec moi?,» p. 68.

(135) Oswald Ducrot, «La Description sémantique en linguistique,» *Journal de psychologie normale et pathologique*, nos. 1-2 (1973), pp. 125-126.

صياغة قطع وعدٍ ما، بفعل الواقع أيضاً، حالة المُرسِل، فيجد نفسه بالتالي «مُلتزِماً» بالوعد الذي قطعه ومُلزَماً تقريباً بالوفاء به.

وبالتالي، يصفُ كلّ من دوكرو وأنسكومبر هذا التحوُّل بالـ «قانوني». ونقع فعلاً على حالاتٍ تُطبَّقُ فيها هذه العبارة بمعناها الحرفيّ، حيثُ تستحقُّ بعض التصرُّفات الكلاميّة المنطوقة إنزال العقوبة القانونيّة بحقّها، على غرار: القدح والذمّ أو الدفاع عن أفعالٍ إجراميّةٍ تمَّ ارتكابها حقّاً (وهكذا مثلاً، صدر في السابع من كانون الأوَّل/ دسمبر عام 1977، حكمٌ بالاستئناف بحقّ مقالٍ نُشر في صحيفة *Libération* تحت عنوان «فلنصفّق لعملية السرقة التي ارتكبها أدليبير» («Bravo pour le coup d'Aldibert»)، وقد صدر هذا الحكم عن الغرفة الحادية عشرة التابعة لمحكمة باريس، ومفاده: «لا يكتفي هذا المقال بامتداح مهارة الجناة، بل يذهب إلى حدّ الإعراب عن تمنّيه بعدم إنزال العقوبة بهم، منوِّهاً أنّه على ضوء الظروف التي جمع بها التاجر المسلوب ثروته، فإنَّ هذه السرقة جديرةٌ بالتقدير، وحتّى إنَّها تستحقُّ وفقاً لعنوان المقال التصفيق تأييداً لها [...]. وإنْ كان صحيحاً أنَّنا نصادف أحياناً في كتب الأدب أو في أفلام السينما، أشخاصاً ممَّن يحترفون السرقة ويتمُّ تصويرهم بملامح الأبطال الموحين بالودّ، إلاّ أنَّ هذه الشخصيّات هي شخصيّاتٌ من نسج الخيال المحض أو شخصيات تاريخيّةٌ، لذلك لا يُصار إلى تصنيف مثل هذه الممارسات بالجنائيّة. ولا يمكننا أن نقيسَ ذلك على الكتّاب الذين يتناولون عملاً إجرامياً تمّ ارتكابه حقيقةً، على غرار ذلك الذي يسعى هذا التقرير الصحفيّ المُجَرَّم إلى تبرأته» («Cet article ne se borne pas à louer l'habilité des malfaiteurs. Il va jusqu'à souhaiter leur impunité, en précisant que, du fait de la situation de fortune du commerçant ainsi dépouillé, ce vol mérite d'être approuvé, et même selon le titre, d'être applaudi [...]. Et s'il est vrai qu'en littérature ou au cinéma, des professionnels du vol, personnages purement imaginaires ou dont la biographie appartient à l'histoire, sont parfois représentés sous les traits d'un héros sympathique, sans que cette pratique puisse être considérée comme délictueuse, il ne saurait en être ainsi à l'égard des auteurs d'une entreprise criminelle réelle comme celle que tente de justifier le commentaire de presse incriminé»). ولكن غالباً ما نتحدَّثُ مجازيّاً عن قدرة أفعال الكلام على تحويل وضع المتكلِّمين المتفاعلين

«القانونيّ». إذ لا يتعدّى كونها وقائع مؤسّساتيّة في الحدّ الأقصى، بحيث إنّها تفشل في حال لم تستوف تمهيديّاً بعض «شروط النجاح» التي يتّصف قسمٌ منها في الواقع بطبيعته المؤسّساتية (أي إنّها تتعلّقُ بوضع المتكلّمين المتفاعلين و«مراكزهم» النسبيّة في نظام المجتمع)، في حين أنّها تدّعي في مرحلةٍ لاحقةٍ، بحسب دوكرو[136] «بأنّ لها نفوذها» (أي إنّها تسنُّ القوانين وتُعنى بمواصلة التفاعل).

وعلى أيّ حالٍ، إنّ الأمثلة التي أوردناها سابقاً مُستوحاةٌ من مقاماتٍ كانت فيها «النتيجة» التي يستهدفها «فعل الكلام» واضحةً ومرئيّةً بوجهٍ خاصٍّ، وحيثُ تجلّت إمّا على صورة تعديلٍ فيزيولوجيٍّ حسيٍّ طرأ على وضع المتلقّي (ونذكر منها مثلاً: الضحكات والدموع وصيحات الذعر والإثارة الجنسيّة و«الرعشة قرب الصُّدغ»، كما رأينا في حالة «الأنواع الأدبيّة» المختلفة التي أثرناها سابقاً)، أم أنّها اتّخذت في حالتَيّ التساؤل والأمر شكلَ التصرُّف الجوابيّ سواء أكان كلاميّاً أم غير كلاميٍّ. وقد تكون التحوُّلات التي تطمح أفعال الكلام إلى التسبُّب بها، وهي عادةً ما تتسبَّبُ بها فعلاً، ذات طبيعةٍ أكثر تكتُّماً، ففي الواقع، قد تتعلّق المسألة مثلاً:

أ) «تغييراتٍ تطرأ على وضع الموجِبات والالتزامات بغية مواصلة التفاعل، فضلاً عن التغييراتِ التي تطرأ على الصلات الاجتماعيّة [. . .]

ب) التغييرات التي تطرأ على ميادين الإدراك والانفعال والحافز لدى المتكلّمين المتفاعلين (أي التغيير الذي يطول حالة المعارف)»[137].

وعليه، ما دام فعل القول الخاصّ بأيّ قولٍ مهما يكن يُدخِلُ تعديلاً ما على المقام التخاطبيّ و/ أو على ميول المتكلّمين المتفاعلين العاطفيّة و/ أو على الكفاءة الموسوعيّة التي يتحلّى بها المتلقّي، يكون هذا القول مشحوناً على الصعيد الكلاميّ المنطوق، فليكن. بيد أنّ الإشكاليّة التي تطرح نفسها تتمحور عندئذٍ حول معرفة ماهيّة العناصر الموجودة في القول والتي تمكّنُه من العمل على

(136) Oswald Ducrot, «Analyses pragmatiques,» *Communications*, no. 32 (1980), p. 32.

(137) Dieter Welke, «Séquentialité et succès des actes de langage,» *DRLAV*, nos. 22-23 (1980), p. 177.

نحوٍ تداوليٍّ تواصليٍّ، أي بتعبيرٍ آخرَ، العناصر التي يتعيَّن علينا أن نصبَّها في مصلحة القِيَم الكلاميّة المنطوقة ـ وبتلازمٍ، تلك التي تبقى في المحتوى الجُمَيليّ، فعلى سبيل المثال:

1. نَدين لدوكرو بأنَّه برهن تعذُّر وصف وقائع من مثل عمليّة افتراض قولٍ ما أو افتراض «توجُّهه البرهاني» وصفاً ملائماً خارج إطار إشكاليّة أفعال الكلام هذه. إذ يُنشئ كلّ قولٍ من النمط البرهانيّ نظاماً يتألَّف من قواعدَ إجباريّةٍ وموازين قوى خاصَّةٍ تربط بين «المُبرهِن» و«المُبرهَن له». والحال أنَّ الأفعال ذات الصِّلة على الصعيد البرهانيّ تتجاوز كونها مجرَّد «واسمات التوجُّه البرهانيّ» ـ ويبقى السؤال مطروحاً لمعرفة ما هو المدى الذي يطوله مجالها؟ فمن وجهة نظر غريس مثلاً، تختلط البرهنة مع بناء «التمثيلات الخطابيّة المُبسَّطة» التي تُجنِّد في نهاية المطاف مجمل اللَّوازم الدالَّة المكَوِّنة للقول... أمّا بالنسبة إلى إشكاليّة عمليّة الافتراض، فتستلزم معاملتها معاملة فعل الكلام أمرَين، ألا وهما: أوَّلاً، أن نفصلَ، في طور عمليّة وصف معنى القول الشّامل، محتوى الافتراض (الواجب صبّه في مصلحة المحتوى الجُمَيليّ) عن القيمة الكلاميّة المنطوقة المُرتبطة بالواقع ذي الصِّلة على الصعيد التداوليّ التواصليّ؛ وثانياً، أنَّ هذا المحتوى موجودٌ في القول على شكل افتراضٍ.

2. يتحدَّث دوكرو كذلك عن «الفعل التبريريّ». ونحن متَّفقون في الرأي معه بشأن ذلك. ولكن يبدو مشروعاً إذاً أن نُسلِّم أوَّلاً بأنَّ «التفسير» (لأنَّ قوامه إنشاء علاقةٍ سببيَّةٍ «في الواقع») يندرجُ في عداد أفعال الكلام، بحيث إنَّنا نلاحظ انزلاقاتٍ لا تُحصى تطول التفسير فيغدو تبريراً؛ وثانياً، بأنَّه ««لا يتمّ الاعتراف» مطلقاً بفعلٍ ما، حتّى لو لم يكن مطروحاً للمناقشة، اعترافاً كلّيّاً ما دام لم يُنسَبْ إلى علَّةٍ معيَّنةٍ»[138] ـ فضلاً عن الاعتراف شيئاً فشيئاً بكلّ العلاقات المنطقيّة المُنشأة في قلب النصّ.

3. وأخيراً، هبْ جملةً من مثل:

أنتِ فتاةٌ جميلةٌ («Tu es belle»).

يتمُّ في مرحلةٍ أولى تحليل محتواها على المنوال التالي:

---

(138) Groupe ë-1, «Car, parce que, puisque,» p. 278.

المحتوى الجُمَيليّ: / أنتِ (بصيغة الحاضر) جميلةٌ/ (/toi être (présent) belle/)

القيمة الكلاميّة المنطوقة: تأكيد وإخبار.

ولكن قد تسوّل لنا نفسنا أن نرى فيه فضلاً عن ذلك أفعالاً من مثل:

● المخاطبة بصيغة المُفرد (ويؤكّد مانغونو[139] ما يلي: «تُعدّ المخاطبة بصيغة الجمع والمخاطبة بصيغة المفرد كلتاهما أفعالاً قبل كلّ شيءٍ») التي يخضع استعمالها إلى «شروط النجاح»، وهي تدلّنا على وجود «صلةٍ» خاصّةٍ (كالألفة أو الحميميّة...، إلخ) تربط بين المتكلّمين المتفاعلين[140] وتُثبتها وتُنشئ أواصرها. الأمر الذي يدعونا إلى إعادة المحتوى الجُمَيلي إلى الشّكل الآتي:

/ «أ» هي (بصيغة الحاضر) جميلةٌ/ (علماً بأنَّ «أ» = المُحاوِر) (/A être (présent) belle/ (A = allocutaire))

وذلك بغية أن نصبَّ القِيَم المُرتبطة بانتقاء الدالّ «أنتِ» («tu») في مقابل «حضرتك» («vous») في القِيَم الكلاميّة المنطوقة؛

● تقويم المُحاوِر ذي المنحى التقريظيّ والذي يضفي على القول مظاهر «كلام المجاملة» - ففي حال وُجِد فعل الكلام تُضاف قيمته الكلاميّة المنطوقة هنا إلى السيمة القِيَميّة التي تنقلها الصِّفة «جميلة»[141] («belle»).

---

(139) Dominique Maingueneau, *Approche de l'énonciation en linguistique francaise: Embrayeurs, temps, discours rapporté*, langue, linguistique, communication (Paris: Hachette, 1981), p. 19.

(140) يُطلق غوفمان تسمية «علامات الرابط» («signes du lien») على الأساليب التي تنتمي إلى هذا النمط.

تُشدّد المقارنة التالية (المأخوذة عن ماريفو من المشهد السابع من الفصل الأوّل من مسرحية *Le Jeu de l'amour et du hasard*) على الطابع التداولي التواصليّ الذي تتّسم به المخاطبة بصيغة المفرد:

دورانت: «[...] كيف إذاً! أنت تدفعني إلى القيام بذلك؛ أنا أجفل إن جاز التعبير من هذا الأمر؛ إنّ تلقائيّتي تمنعني من رفع الكلفة بيننا، إذ لطالما رغبتُ في رفع قبّعتي عن رأسي، ولكن حين أخاطبك بصيغة المُفرد، أشعر بأنّني أنطق بشتيمةٍ».

(DORANTE. - [...] Comment donc! Tu me soumets; je suis presque timide; ma familiarité n'oserait s'apprivoiser avec toi; j'ai toujours envie d'ôter mon chapeau de dessus ma tête, et quand je te tutoie, il me semble que je jure).

(141) وبغية الاطّلاع على مقارباتٍ محتملةٍ متنوّعةٍ (نذكر منها المُقاربات «غير الإيضاحية الوصفيّة» والوصفية الإيضاحيّة والبرهانية) تتناول أقوالاً قِيَميّة من النمط التالي: «هذا الفندق جيّدٌ» («C'est hôtel est bon»)، راجع: Anscombre et Ducrot, *L'Argumentation dans la langue*, pp. 169 et sqq.

من شأن هذه الأمثلة المعدودة التي أوردناها أن تُثبتَ أنّنا لم نفهم جيّداً حتّى الآن كيفيّة وضع حدٍّ لتكاثر القِيَم الكلاميّة المنطوقة، فتماماً كما نستطيع وصف عمليّة تعيين الوحدة المعجميّة باعتبارها ما يتبقّى بعد عملية تجريدها من التضمينات كافّةً، كذلك يستحيل علينا تحديد محتوى القول الجُمَيليّ إلاّ بعد إجراء عملية طرح.

ولكن ما الذي ينبغي طرحه على وجه الدقّة؟ لا تزوِّدنا التداوليّة التواصليّة الألسنيّة حتّى السّاعة الراهنة بأيّ جوابٍ عن هذا السؤال، كما أنَّها لا تمدُّنا بأيّ لائحةٍ بأفعال الكلام، حتّى وإنْ كانت بصورةٍ مؤقّتةٍ غير موسّعةٍ. وقد ولّى الزمن الغابر حيث كان بوسعنا أن نعلن بثقة بايسن (Buyssens) المعهودة ما يلي: «لابدّ أن تؤدّي جملةٌ ما أيّاً تكن وظيفةً من الوظائف الأربع التي لا خامس لها، ألا وهي: إعلام المُستمع وطرح الأسئلة عليه وإصدار الأوامر له واتّخاذه شاهداً على أمنية»[142]. أمّا في أيّامنا هذه، فكلٌّ يعتمد لائحته الخاصّة التي مهما طالت أو قصرت، فهي تكون مُذيّلةً بحذرٍ بعبارة «إلى آخره» («etc.»)، وإليكم على سبيل المثال اللائحة التالية التي يقترحها ريكاناتي، ألا وهي: «إصدار الأوامر» («ordonner») و«طرح التساؤلات» («interroger») و«إسداء النصائح» («conseiller») و«الإعراب عن أمنية» («exprimer un souhait») و«اقتراح أمرٍ ما» («suggérer») و«التحذير» («avertir») و«تأدية الشُّكر» («remercier») و«الانتقاد» («crtitiquer») و«الاتّهام» («accuser») و«التأكيد» («affirmer») و«التهنئة» («féliciter») و«التوسُّل» («supplier») و«التوعُّد» («menacer») و«قطع الوعد» («promettre») و«الشتم» («insulter») و«تقديم الاعتذار» («s'excuser») و«طرح فرضيّةٍ ما» («avancer une hypothèse») و«التحدّي» («défier») و«القَسَم» («jurer») و«إعطاء الإذن» («autoriser») و«التّصريح» («déclarer»)، إلى آخره»[143].

وفي الواقع، قد نقع في التجربة المُغوية، فنعتبر أنَّ عدد أفعال الكلام يوازي عدد الأفعال المُنصرِفَة التي تقدِّمها اللّغة الفرنسيّة إلى اللّغة الانعكاسيّة والتي تكون قابلةً لأن تُصنِّف أفعال الكلام هذه، فعبثاً حذَّر سيرل قائلاً: «حذارِ من مزج تحليل الأفعال المُنصرِفَة الكلاميّة المنطوقة مع تحليل الأفعال الكلاميّة

(142) Eric Buyssens, «Le Langage et la logique. Le Langage et la pensée,» dans: *Le Langage*, encyclopédie de la Pléiade; vol. 25, volume publié sous la direction d'André Martinet (Paris: Gallimard, [1968]), p. 77.

(143) Récanati, «Le Développement de la pragmatique,» p. 10.

المنطوقة [...]، فالتعابير الكلاميّة المنطوقة هي جزءٌ لا يتجزّأ من اللّغة بمفهومها العامّ في مقابل اللّغات الخاصّة. علماً بأنَّ الأفعال المُنصرِفَة الكلاميّة المنطوقة تنتمي دائماً إلى إحدى اللّغات الخاصّة، على غرار: اللّغة الفرنسيّة أو اللّغة الإنجليزيّة أو اللّغة الألمانيّة...، إلخ. وممّا لا ريب فيه أنَّ الفوارق القائمة بين الأفعال المُنصرِفَة الكلاميّة المنطوقة هي خير مُرشدٍ، إلاّ أنّها لا تهدينا إطلاقاً إلى الفوارق القائمة بين الأفعال الكلاميّة المنطوقة بشكلٍ معصوم من الخطأ»[144]. وعبثاً حاول سيرل الالتزام بهذا المبدأ (فهو يعتبر على سبيل المثال[145]، أنَّ فعلَي «أصرّ» («insister») و«اقترحَ» («suggérer») من جهةٍ وأفعال «نبّه» («aviser») و«أوحى» («insinuer») و«باحَ» («confier») من جهةٍ أخرى تتشاطر «الغاية الكلاميّة المنطوقة» نفسها). ويبقى أخيراً أن نشيرَ إلى أنّه في ظلّ غياب المعايير التي من شأنها أن تحرّرنا من هذا المبدأ الآنف الذكر، لا مفرَّ لنا من الارتداد إلى التصنيفات «الجاهزة» (ready made) التي تقدّمها لنا اللّغة هذا «المُرشد الصالح». وإنَّ لغرونيك (B.-N. Grunig) كامل الحقّ في الإشارة، في سياق الحديث عن عدد «أشراك التداوليّة التواصليّة الألسنيّة وأوهامها»[146]، إلى واقع أنَّ أعمال منظِّري أفعال الكلام «ترتكز على نطاقٍ واسع على الأفعال المُنصرِفَة أو على الاسميّات المُشتقَّة من هذه الأفعال التي تُقدّمها لهم اللّغة التي ينطقون بها». ولا يُعدّ هذا الأمر بحدِّ ذاته سيّئاً، وهو صالحٌ بالنسبة إلى السواد الأعظم من المفاهيم التي تُعالجها الألسنيّة، فمثلاً: عندما أحدِّد مفهوماً ما وأنسب إليه الدالّ «إلماح» («insinuation»)، يتمّ ذلك على قاعدة المعنى الذي تكتسبه في اللّغة (الفرنسيّة) كلمة «إلماح»[147] - والتي أقلّص بالمقابل هامش الإبهام والتعدُّدية الدلاليّة التي

---

(144) John R. Searle, *Sens et expression: Etudes de théorie des actes de langage* = *Expression and Meaning*, le sens commun, traduction et préface de Joëlle Proust (Paris: Editions de Minuit, 1982), pp. 33 et 40.

(145) المصدر نفسه، ص 69.

(146) Blanche-Noëlle Grunig, «Pièges et illusions de la pragmatique linguistique,» *Modèles linguistiques*, tome 1, fascicule 2 (1979), pp. 14-15.

(147) وكذلك، حين يُعلن باريه أنّ «من غير الدقّة القول بأنّ ما يتمّ الإيحاء به يكون دائماً جديراً بالعقاب»، لا نرى أنّ هذا التأكيد يرمي إلى شيءٍ غير ما يلي: «من غير الدقّة إن نقول إنّ الفعل الفرنسيّ «أوحى» («insinuer») يعني دائماً...»، انظر: (Parret, «Eléments d'une analyse philosophique de la manipulation et du mensonge,» p. 17).

تتَّصف بهما بواسطة مرسوم هو فضلاً عن ذلك ذو طابع اعتباطيٍّ تقريباً (وفي حال رغبنا في تحديد فعل «الاعتذار» (acte d'excuse) بشكلٍ مماثلٍ، فحذارِ من التعدُّدية الدلاليّة التي يتَّصف بها الفعل «اعتذَرَ» («excuser») الذي ينطبق على حدٍّ سواء على المثلَين الأوَّل والثاني، كما هو مُبيَّنٌ أدناه:

المثل الأوَّل (i): أعتذرُ عن هذا التأخير. . (Je m'excuse de ce retard...) (i).

– وثمَّة مثلٌ بديلٌ (i') وهو على الرُّغم من ندرة استعماله إلاّ أنَّه «صائبٌ» أكثر، ألا وهو: «أرجو أن تعذُرني بسبب هذا التأخير. . .» («Je vous prie de m'excuser de ce retard...»)

أمّا المثل الثاني (ii)، فهو: . . .ولكن تعطَّلت سيَّارتي وأبت الإقلاع ((ii)...mais ma voiture n'a pas voulu démarrer).

نجد في المثل الأوَّل (i) كما في المثل الثاني (ii)، أنَّ المتكلِّم «يعتذرُ» («s'excuse»). ومع ذلك، فالمسألة تتعلَّق هنا بفعلَين يختلف واحدهما عن الآخر، ونقترح، تلافياً لأيّ لُبس، تصنيفهما على الشَّكل الآتي:

المثل الأوَّل (i)، وينطوي على التماس الصَّفح، في مقابل

المثل الثاني (ii) الذي ينطوي على تبرير الخطأ الحاصل

– أمّا بالنسبة إلى المثل البديل (i')، فمن شأنه أن يُثبتَ أنَّ فعل «اعتذَرَ» («excuser») قادرٌ أن يُشير، فضلاً عن التماس الصَّفح الذي يُعبِّر عنه هذا الفعل حين يكون من أفعال المُطاوعة، إلى منح هذا الصَّفح[148].

وبالتالي، إنَّ المصطلحات التحويليّة متشابهة حتّى ليلتبسَ الأمر، ولا نفهم كيف يكون الوضع بخلاف ذلك، بمقتضى اللّغة-الغرض. ولكن لا يُعدّ الخطأ جسيماً إلاّ في الحالة التي نُخطئ فيها فنمزج بين المفهوم الذي تنقله «اللّغة العاديّة» وقرينه الذي يُنشئه الميدان النظريّ. وهكذا، حين «نسهو» عن التعدُّدية الدلاليّة التي

---

(148) تُفرّق اللّغة الإنجليزيّة بين هاتَين القيمتَين/ من خلال وضع فعل «اعتذَرَ» («to apologize») في مقابل فعل «عذَرَ» («to excuse»). وبغية الاطّلاع على مبرّرات شجب تركيبة القول الأوّل (i) من قِبَل الصفائيّين، راجع: Ducrot, «Analyses pragmatiques,» pp. 53-54.

(وتحضرنا في هذا الصدد العبارة التي اعتاد قولها أستاذٌ زميلٌ لنا في الثانوية لدى دخول إحدى الفتيات المتأخّرات إلى الصفّ وهي تغمغم عبارة «أنا أعذر نفسي» («Je m'excuse»)، ألا وهي: طبعاً، أمّا أنا، فلا أعذرك» («Oui, mais moi, je ne vous excuse pas») مُصيباً بذلك هدفَين بضربةٍ واحدةٍ، وهما: إعطاء الفتاة درساً صغيراً في حسن التصرّف، وآخَر في قواعد اللّغة الفرنسية).

تكتسبها في اللّغة عبارة «أقطع وعداً» («je promets»)، فإنّنا نُنشئ بالتالي مفهوم قطع الوعد بالخطّ العريض (Promettre) والذي يعني «القيام بالعمل الذي يكون بوسعنا القيام به»، في إطار المحادثة العاديّة، من خلال قول عبارة «أقطعُ وعداً» («Je promets»)». وهكذا، ينشأ مفهوم العنصر الإنشائيّ بحسب دوكرو[149] على قاعدة مثل هذا اللُّبس، وتُعزى هشاشته إلى الثقة «المتطرّفة» التي نضعها في «الميزة الألسنيّة الانعكاسيّة التي يتحلّى بها الألسنيّ اللُّغويّ».

وكوننا لا نملك أيّ لائحةٍ شاملةٍ ولو إلى حدٍّ ما بأفعال الكلام - سواء تمّ التطرُّق إليها من زاوية محتواها (أي باعتبارها قِيَماً كلاميّةً منطوقةً)، أم من زاوية الركائز الدالَّة لهذه القِيَم (أي باعتبارها واسماتٍ كلاميّةً منطوقةً) -، فلا يسعنا حكماً أن نتأمَّل بأن تُبصرَ النور بشأنها صِنافةٌ مُرضِية، وأن تُشكِّل تالياً موضوع إجماع، فلقد أحصينا، على سبيل الذكر لا الحصر، في ما يتعلَّق بالولايات المتَّحدة الأمريكيّة وحدها، ما يُناهز العشرين اقتراحاً ينحو في هذا النحو (ونذكر منها على سبيل المثال، تصنيف سيرل[150] المبنيّ على نقد تصنيف أوستن، فضلاً عن تصنيف فرازير[151] (Fraser)، الذي يوزِّع الأفعال التي أحصاها شخصيّاً والتي يبلغ عددها 176 فعلاً على ثماني فئاتٍ . . .[152].

وبالتالي إنَّ البلبلة التامَّة هي سيِّدة الموقف على صعيد كلٍّ من اللاّئحة والترتيب المحوريَّيَن الاستبداليَّيَن، فعندما نسعى في إطار قولٍ معيَّنٍ إلى تحديد مختلف أفعال الكلام التي يُفترض أنَّه يشتمل عليها هذا القول، نكون مرغمين أن

---

(149) Oswald Ducrot, «Langage, métalangage et performatifs,» *Cahiers de linguistique française*, no. 3 (1981), pp. 17 et 20-21.

(150) John R. Searle, «A Taxonomy of Illocutionary Acts,» in: *Language, Mind, and Knowledge*, Minnesota Studies in the Philosophy of Science; v. 7, Edited by Keith Gunderson for the Minnesota Center for Philosophy of Science (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1975).

(151) Bruce Fraser, «Hedged Performatives,» in: Cole and Morgan, eds., *Syntax and Semantics. 3, Speech Acts.*

(152) راجع أيضاً: Eddy Roulet, «Essai de classement syntaxique et sémantique des verbes potentiellement performatifs en français,» *Cahiers de linguistique*, no. 8 (1978),
الذي يقترح ترتيباً (نحويّاً ودلاليّاً) يتألّف من مجموعة أفعالٍ مُنصرفةٍ إنائيّةٍ بالقوّة ويبلغ عددها الـ 170 «فعلاً مأخوذةً من اللّغة الفرنسيّة - ويتناول في الوقت عينه الأفعال المخوّلة الإشارة إليها و/ أو إنجازها».

نركن بشكلٍ أساسيٍّ إلى حدسنا الشخصيّ - كما يركن أنسكومبر على سبيل المثال إلى حدسه الخاصّ عندما يرى أنّ القول التالي «أنا أوافقك الرأي بشدّةٍ أنّه لم يكن حريّاً بهذا الأبله بيار أن يحشر أنفه اللّعين في هذه المسألة القذرة» («Je suis bougrement d'accord avec toi que cet abruti de Pierre n'avait pas à fourrer son foutu nez dans cette saloperie») ينطوي «على الأقلّ على خمسة أفعالٍ كلاميّةٍ منطوقةٍ - ويرقى عددها إلى الستّة في حال ألحقنا بها عمليّة الافتراض - وهي موزّعةٌ على مستوياتٍ مختلفةٍ على الشّكل الآتي: فعل الإعراب عن الموافقة في الرأي، وشتيمتَين فضلاً عن إهانتَين»[153]. وعلى أيّ حالٍ، يُثبتُ هذا المثل أنّ عمليّة تقطيع القول إلى أفعال كلامٍ لا تتطابق مع عمليّة تقطيعه إلى جملٍ، وأنّ «القول نفسه قد يؤدّي إلى إنتاجٍ عدّة أفعالٍ كلاميّةٍ منطوقةٍ لفعل القول الواحد». وبالتالي تزدوج الإشكاليّة المحوريّة الاستبداليّة الآنفة الذكر مع إشكاليّةٍ ذات طبيعةٍ تركيبيّةٍ تعبيريّةٍ من الطراز التالي: «كيف السبيل إلى تحديد كلّ فعلٍ على حِدة من خلال معرفة الحدّ الذي ينتهي عنده ليبدأ الفعل الآخر؟»[154]، فمتى نكون، في إطار متتاليةٍ معيَّنةٍ، بصدد فعلٍ وحيدٍ أوحد أو فعلَين متتاليَين أو فعلَين مندمجَين أو حتّى فعلَين متجاورَين بفضل مسار المواربة؟

لقد آن الأوان لنخوض في مسألة «أفعال الكلام غير المباشر» («indirect speech acts»)، إذ إنّه لمن البديهيّ أن تُحاكي من هذا المنظور إشكاليّة أفعال الكلام إشكاليّة المحتويات المُضمَرة. ولكن نودُّ قبل أن نتطرّق إلى هذه النقطة، أن نُشير إلى عددٍ معيَّنٍ من العقبات التي تتعثّر بها التداوليّة التواصليّة الكلاميّة المنطوقة في صلب مسلّماتها النظريّة. وبرأينا، من الجائِر أن نتذرّع باستهتارٍ بهذه العقبات للقولِ ببطلانِ نظريّة أفعال الكلام - وأن نؤثِرَ عليها بالطبع المذهب الرّوحي الاستكفائيّ الذي يُنادي به شومسكي (Chomsky) الذي يُصرِّح عام 1975 أنّ الكلام ليس سوى «انعكاس للفِكر» وأنّني حين أتكلّم «لا أملك نيّة حمل المستمع إلى معرفة أيّ شيءٍ أو التسليم به، وأنّ ما أدلي به ينطوي على معنى ضيّقٍ، وأنا أؤمِن بما يرد على لساني[155]» - وأنّه لمن الوهم أن نأبى مواجهة

(153) Anscombre, «Voulez-vous dériver avec moi?,» p. 67.

(154) Grunig, «Pièges et illusions de la pragmatique linguistique,» p. 31.

(155) هذه ترجمةٌ فرنسيةٌ صدرت عام 1977 وتناولت ما ورد في كتاب شومسكي عام 1975: Noam Chomsky, *Réflexions sur le langage = Reflections on Language*, textes à l'appui, traduit de l'anglais par Judith Milner, Béatrice Vautherin et Pierre Fiala (Paris: F. Maspero, 1977), p. 81.

الخطر فندفن رأسنا في التُّراب كالنعامة، زاعمين بأنَّ الأمور تسير على نحوٍ لا يُمكن أن يكون أفضل حالاً ممّا هو عليه في العوالم التداوليّة التواصليّة.

1.4.2. تذكير

- سنُسلِّم، على أثر السواد الأعظم من البراغماتيِّين، بأنَّ محتوى القول الشَّامل أيّاً يكن يتألَّف في البُنية العُمقيَّة من مُكوِّنَين، ألا وهما:

المحتوى الجُمَيليّ + القيمة الكلاميّة المنطوقة[156]،

حيثُ يُعتبر المحتوى الجُمَيليّ بنيةً مجرَّدةً نستطيع تمثيلها باعتبارها موضوع الكلام/ أو مُسنَداً إليه، أو أفضل من ذلك، باعتبارها دالَّةً ذات براهين متنوِّعةٍ، في حين يتمّ تحديد المُقوِّم الكلاميّ المنطوق (أو «المُتضمَّن في القول») باعتباره ما يُمكِّن القول من تأدية دور فعل الكلام المعيَّن هذا أو ذاك (أمّا من وجهة نظرنا، فينبغي دائماً أن نفصل قيمة القول الكلاميّة المنطوقة عن قوّته الكلاميّة المنطوقة، إذ قد يكون الفعل نفسه - ذو القيمة نفسها بالتالي - كالالتماس مثلاً، مزوَّداً بقوّةٍ جدّ متغيِّرةٍ).

وبكلام آخر، لا تُزعجنا إطلاقاً، بخلاف بيريندوني[157]، فكرة أنَّ المحتويات القوليّة تتَّصف بطبيعتها غير المتجانسة، بل على العكس تماماً (وتتجلَّى عدم المجانسة هذه في وجود المحتويات الجُمَيليّة جنباً إلى جنب مع القِيَم الكلاميّة المنطوقة داخل القول نفسه، وكذلك في الوجود المُشترَك للمحتويات التعيينيّة والتضمينيّة، الحرفيّة والمشتقَّة، البيِّنة والمُضمَرة...، إلخ). ولا نُبدي، إزاء مفهوم القيمة الكلاميّة المنطوقة الذي يجده بيريندوني «مشكوكاً بأمره» وحتّى «مكّاراً»، أيّ «ريبةٍ» أو «تحفُّظٍ»[158] خاصَّين، مع أنَّنا لا نوافق تماماً

---

(156) أمّا سيرل، فيستخدم بدوره صيغةً مماثلةً لما يلي:

$$\varphi = F p$$

(في ما يتعلّق بالاستعمال الذي يلجأ إليه لمفاهيم العبارات التالية: «لكن» («but») و«النهاية» («end») و«النقطة» («point») و«قوّة» متضمّنة في القول («force» illocutionnaire))، راجع: Searle: «A Taxonomy of Illocutionary Acts,» in: *Language, Mind, and Knowledge*, and «Indirect Speech Acts,» in: Cole and Morgan, eds., *Syntax and Semantics. 3, Speech Acts.*

(157) Berrendonner, *Eléments de pragmatique linguistique*, p. 51.

(158) يستعمل بيريندوني هذه المصطلحات مراراً وتكراراً في: المصدر نفسه، ص 14، 20، 24، 141.

على النزعة المعاكِسَة التي يقول بها كلّ من سيرل وغريس، وقوامها أن نتناسى بسرعةٍ وجود المحتويات الجُمَيليّة بغية أن نماثل القول بفعل الكلام، وأن نُقارن بتلازمٍ إشكاليّة المُضمَر بمسألة «أفعال الكلام غير المباشرة».

- وأسوةً بالعناصر المؤلِّفة للمحتوى الجُمَيليّ، تكون القِيَم الكلاميّة المنطوقة قابلةً للترسيخ المباشر أو غير المباشر: فإمّا أن تملك بنفسها واسماً خاصّاً (أو عدّة واسماتٍ خاصَّة) ماثل(ة) في المتتالية القوليّة، أو أن تُضاف، بمقتضى بعض العمليّات التي لا يتدخَّل فيها أيّ دالٍّ ألسنيٍّ لغويٍّ خاصٍّ، إلى محتوى كلاميّ منطوق فائق التنظيم.

- وفي الواقع، غالباً ما نقع على قولٍ واحدٍ يكون مشحوناً مرَّتَين وحتّى مرّاتٍ لا تُعدّ ولا تُحصى على الصعيد الكلاميّ المنطوق، حيثُ تُضاف قيمةٌ كلاميّةٌ مشتقَّةٌ أو أكثر إلى قيمته التداوليّة التواصليّة الحرفيّة.

منذ أن أشار أوستن عرَضاً إلى هذه الظاهرة، تمَّ مذ ذاك استعمالها على نطاقٍ واسعٍ بحيثُ باتت دراستها - أي نظريّة «أفعال الكلام غير المباشرة» أو «الاشتقاق الكلاميّ المنطوق» - تُعتبر في أيّامنا هذه من أبرز تفرُّعات التداوليّة التواصليّة الكلاميّة المنطوقة. وما ساعد بوجهٍ خاصٍّ على إبراز هذه الظاهرة إنَّما هو مثال الالتماسات التي تُصاغ بأغلبيّتها صياغةً غير مباشرةٍ، بحسب سيرل الذي يؤكِّدُ ما يلي: «في مضمار الأفعال الكلاميّة المنطوقة غير المباشرة، يكتسب التأمُّل في دراسة حقل إصدار التوجيهات الأهميّة الكبرى، ذلك لأنَّ الضرورات التدليليّة التحادثيّة المألوفة تُصعِّب القبول بعمليّة التفوُّه بالجُمل المحض أمريّةٍ (كالجملة التالية مثلاً: «أخرجْ من هذه الغرفة» («Sortez de cette pièce»)) أو الجُمل الإنشائيّة البيِّنة (كالجملة التالية على سبيل المثال: «آمرك بالخروج من هذه الغرفة» («Je vous ordonne de sortir de cette pièce»)). وبالتالي يتحتَّم علينا ابتكار وسائل غير مباشرةٍ للتعبير عن مآربنا الكلاميّة المنطوقة (كأن نقول مثلاً: «أيزعجكَ أن تخرج من هذه الغرفة؟»[159] («Est-ce que cela ne vous gênerait pas de sortir de cette pièce?»). ففي فرنسا على أيّ حالٍ، نلاحظ أيضاً وجود هذه الظاهرة خلال المآدِب التي يتشارك فيها الضيوف الأكل والشُّرب والمرح،

(159) وهذا المثل هو الترجمة الفرنسيّة التي صدرت عام 1982 (Searle, *Sens et expression: Etudes de théorie des actes de langage = Expression and Meaning*) لما ورد في: Searle, «Indirect Speech Acts,» in: Cole and Morgan, eds., *Syntax and Semantics. 3, Speech Acts*, p. 77.

حيثُ تؤوِّل ربَّة المنزل قولاً تقويميّاً من مثل «الطعامُ شهيٌّ!» («C'est bon!») باعتباره يعني «أرغب في تناول المزيد من هذا الطبق» («J'en reprendrais bien!»)، في حين يؤوِّل النَّديم الذي يُجالسنا على مائدة الطعام في أحد المطاعم السؤال التالي: «ألذيذٌ هذا الطبق؟» («C'est bon?») باعتباره يعني «أودُّ أن أتذوَّقه!» («Fais-moi goûter ton plat!»). ويتمُّ ذلك على نحوٍ شبه تلقائيٍّ، لدرجة أنَّ المرء يشعر، في حال أنَّ النيَّة التداوليّة التواصليّة التي يُضمرها كانت بعكس ذلك، أنَّه ملزَمٌ لدى صياغة القول باستباق التأويل المُشتقّ الذي يقع في غير موضعه وتحاشيه بواسطة تحفُّظٍ خطابيٍّ ملائمٍ. ونُصادف هذه الظاهرة أيضاً في حالات الصور التالية:

1. القيمة الواضحة للعيان = أي التقرْيريّة/ أو القيمة المُستترة = أي الإيعازيّة، أو الأمريّة، وهذه بعض الأمثلة:

ممنوع التحرُّك = أي /ليبقَ كلٌّ في مكانه/ (on ne bouge plus = /que personne ne bouge/)

يُمنع التدخين هنا = أي / لا تُدخِّن/ (on ne fume pas ici = /ne fumez pas/)

إيّاكَ أن تقتل = أي / لا تقتل/ (tu ne tueras point = /ne tue pas/)

لقد كُسِرت لمبة المطبخ = أي / أصلحها/ (la lampe de la cuisine est cassée = /répare-la/)

الحرّ شديدٌ هنا = أي / افتح النافذة/ (il fait chaud ici = /ouvre la fenêtre/)

أنا أتضوَّر جوعاً = أي / هيَّا إلى المائدة!/ (j'ai faim = /A table/))

(وقد تتبادر إلى ذهننا أيضاً حالة الخطاب الإعلانيّ أو حتّى خطاب المؤرِّخين ورجال الاقتصاد الذين غالباً ما يعمدون إلى إخفاء وجود أمرٍ وفعل أمر خلف ستار الظاهر التقريريّ[160].

---

(160) راجـــــــع: Nicole Everaert-Desmedt, *La Communication publicitaire: Etude sémio-pragmatique*, questions de communication, ISSN 0771-5013; 12 (Louvain-la-Neuve: Cabay, 1984), بشأن مادّة الخطاب الإعلانيّ، و بشأن خطاب المؤرّخين، «Débat: Le Discours historique et le réel: M. de Certeau et Régine Robin,» *Dialectiques*, no. 14 (1976), وفي ما يتعلّق بخطاب رجال الاقتصاد، انظر: Pierre Bourdieu, *Ce que parler veut dire: L'Economie des échanges linguistiques* (Paris: A. Fayard, 1982), p. 149.

2. القيمة الواضحة للعيان = أي التقريريّة أو القياسيّة الاحتماليّة/ أو القيمة المُستترة = أي المُعبِّرة عن التمنّي:

وهكذا مثلاً، فبغية اكتساب مظهرٍ أكثر إقناعاً، يقتبس طوعاً خطاب اليوتوبيا السياسيّة أساليب الصيغة التأكيديّة الإخباريّة، كما يظهر في المثل الآتي:

كان يُمكن أن تكون تلك الهفوة الأولى التي سأرتكبها، فلقد استوعبتُ بشكلٍ عفويٍّ أحد القوانين التي ترعى نظام الحزب. إذ لم أكن قد اطّلعتُ بعد على أيٍّ من مؤلَّفات بروست، وكنتُ أجهلُ أنَّني لجأتُ، أثناء المُداخلة التي أدليتُ بها خلال انعقاد أحد المؤتمرات، إلى استعمال النسق الأسلوبيّ الذي ينتهجه السيِّد نوربوا في تلاوة أخبار السياسة، ويتجلّى ذلك في أنَّني استعضتُ عن صيغة التمنّي بالصيغة التأكيديّة الإخباريّة؛ وتمَّ إبلاغي بأنَّني فعلتُ عين الصواب. لقد انخرطتُ بذلك في نظامٍ يغدو فيه ضروريّاً، حين تنحرِف الحقيقة عن مسارها الطبيعيّ، أن يُشكِّل ما كانَ حريّاً به أن يتحقَّقَ الحقيقة التي يتوق إليها وضع الأمور الراهن»[161]

(«Tel aura été mon premier dévoiement. J'avais assimilé spontanément l'un des codes qui régissaient le Patri. Je n'avais pas encore lu Proust, et j'ignorais que dans mon intervention à la conférence j'avais adopté le procédé stylistique des chroniques de M. de Norpois: j'avais employé l'indicatif à la place de l'optatif, et je venais d'apprendre que c'était bien ainsi qu'il fallait faire. J'étais entré dans un système où, quand la réalité diffère de ce qu'elle devrait être, il est nécessaire que ce qui devrait être devienne la réalité de ce qui est»),

وكذلك، يلجأ الخطاب الحُلميّ في أغلب الأحيان إلى التعابير التقريريّة للتعبير عن المحتويات المُستترة التي تتّصف بطبيعتها التي تُعرِبُ عن التمنّي، بحسب فرويد (Freud) القائِل:

«يُخضع تكَوُّن الحُلم [...] القوى الإدراكيّة التي ترده بصيغة التمنّي إلى معالجةٍ فريدةٍ من نوعها. إذ إنَّه ينقل بادئ ذي بدءٍ ما يكون بصيغة التمنّي إلى صيغة الحاضر، مُقيماً بذلك صيغة «هذا هو واقع الأمور» («cela est») مقام صيغة «ليت الأمر يكون كذا»[162] («puisse-t-il être»)».

---

(161) Jean Récanati, *Un Gentil stalinien* (Paris: Mazarine, 1980), p. 80.

(162) Sigmund Freud, *Le Mot d'esprit et ses rapports avec l'inconscient* = *Der Witz und seine Beziehung zun Unbewussten*, collection idées, traduit de l'allemand par Marie Bonaparte et le Dr M. [Marcel] Nathan ([Paris]: Gallimard, [1971]), pp. 248-249.

3. القيمة الواضحة للعيان = أي التقريريّة/ أو القيمة المُستترة = أي الاستفهاميّة، في حال كان صحيحاً ما يزعمه تودوروف[(163)] وهيديشيمير[(164)] (C. Heddesheimer) القائِلان إنَّ غالبيّة التأكيدات تُشكِّل في الواقع أسئلةً ملتويةً تستوجب بالمقابل تعبيراً عن الموافقة عليها أو الاختلاف معها؛

4. القيمة الواضحة للعيان = أي المُعبِّرة عن التمنّي/ أو القيمة المُستترة = أي الإيعازيّة، ولا نُفشي سرّاً حين نقول إنَّ بعض الرغبات هي أوامرٌ؛

5. القيمة الواضحة للعيان = أي الاستفهاميّة/ أو القيمة المُستترة = أي الإيعازيّة، كما في المثلَين التاليَين:

المثل الأوَّل: ألديك سيجارةٌ؟ = ويعني ذلك ما يلي: في حال كان بحوزتك سجائر، اعطني واحدةً. («Tu as une cigarette? = si oui, donne-m'en une»).

المثل الثاني: أتعرف كم الساعة؟ = ويعني ذلك: قُل لي، إن كنتَ تستطيع، كم الساعة الآن («vous avez l'heure? = dites-moi, si vous êtes en mesure de le faire, quelle heure il est»).

(فعبر التساؤل عن إمكانية إنجاز فعلٍ ما، تُصدِرُ هاتان الجُملتان بشكلٍ مُضمَرٍ الأمر بتنفيذه)؛

6. القيمة الواضحة للعيان = أي الاستفهاميّة/ أو القيمة المُستترة = أي التأكيديّة الإخباريّة، على غرار: قضيَّة الاستفهام الخَطابيّ، وبشكلٍ أدقّ، كلّ المُضمَّنات التأكيديّة الإخباريّة التي غالباً ما تتوارى خلف ستار صياغةٍ تطرح ظاهريّاً سؤالاً[(165)] ما؛

7. القيمة الواضحة للعيان = أي التقريريّة/ أو القيمة المُستترة = أي الجمعيّة على الصعيد الكلاميّ المنطوق، ونذكر مثلاً قيمة التمنّي الأمرية الاستفهاميّة التي

---

(163) Tzvetan Todorov, «Les Registres de la parole,» *Journal de psychologie normale et pathologique*, vol. 64 (1967), pp. 277-278.

(164) Christian Heddesheimer, «Notes sur l'expression verbale de l'assentiment et de la confirmation en anglais,» *Mélanges pédagogiques du CRAPEL, Univ. de Nancy II* (1974).

(165) راجع بهذا الشأن: Andrée Borillo, «La Négation et l'orientation de la demande de confirmation,» *Langue française*, no. 44 (décembre 1979).

ناهيك بحالة الأسئلة التي تُستهلّ بعبارتَيّ «لماذا» («pourquoi») و«لِمَ لا» («pourquoi ne pas») اللتَين تُعبّران على التوالي عن العتاب والاقتراح، فعديدةٌ ومتنوّعةٌ هي وقائع الموارية التي ترتبط بالصياغات الاستفهاميّة.

تتّصف بها عبارة «أحبُّكِ» («je t'aime») التي يُحلِّلها آلان فينكيلكرو (Alain Finkelkraut) على الشَّكل التالي: «أوّلاً تُعتبر عبارة «أحبُّكِ» من حيث حقيقتها النحويّة عبارةً تأكيديةً إخباريةً، لأنّها تُعرِبُ عن النشوة، وتؤكِّدُ بلوغ العشق أشدّه وتدلّ على السعادة القصوى. وهي أيضاً صيغةُ تمنٍّ، إذ إنَّني أنطق بعبارة «أحبُّكِ» كي أستعيد «الأنا» التي فقدتها منذ بداية حالة الحبّ التي أعيشها، وكي أعيد في عمق أعماقي توحيد سريرتي وجوهري [. . .]. كما نجد فيها حدَّة صيغة الأمر، إذ إنَّها تنطوي على ما معناه: «أحبِّيني» («aime-moi!») و«آمركِ بأن تُحبِّيني!» و«عليكِ تسديد ما عليكِ من دينٍ لي» («il faut que tu payes ta dette!») و«ما أكنُّه لكِ من حبٍّ، سواء شئتِ ذلك أم أبيتِ، يجعلكِ مَدينةً لي، بما أنَّ هذا الحبّ هو خطأٌ أو جرحٌ تسبَّبتِ لي به، ولا يُمكنكِ التكفير عنه إلاّ إذا بادلتني مشاعر العشق [. . .]» («mon amour, que tu le veuilles ou non fait de moi ton débiteur: c'est un tort, une lésion que tu as produite et que tu ne pourras expier qu'en acceptant la réciprocité [...]»). وأخيراً، يمكننا أن نفهم عبارة «أحبُّكِ» باعتبارها تطرح استفهاماً على الشَّكل التالي: «أتبادلينني مشاعر الحبّ؟» («m'aimes-tu?») وهو سؤالٌ يُثيرُ خوفي لأنَّ دخولي إلى الجنّة متوقِّفٌ على الجواب الذي سأسمعه في معرض ردِّكِ عليه»[166].

(وإليكم هذه الملاحظة: حين ينطوي القول على عدّة قِيَمٍ مُشتقَّةٍ، قد تكون هذه الأخيرة:

- إمّا مُستقلَّةً الواحدة عن الأخرى، كما رأينا في المثل الآنف الذكر؛
- أو اللاحقة مُشتقَّة من السابقة، كما في المثل التالي:

هلّا أخفضتَ صوتك؟

/ بمستطاعك أن تَخفِضَ صوتك/ [وهو تساؤل خَطابيّ]

/ إخفضْ صوتك/ [وهو التماس غير مباشر]).

(Ne pourrais-tu pas parler moins fort?
/tu pourrais parler moins fort/ [interrogation oratoire]
/parle moins fort/ [requête indirecte]).

نستنتجُ ممّا تقدَّم ما يلي: كثيراً ما نصادف داخل القول نفسه وبشكلٍ متزامنٍ

(166) Alain Finkelkraut, «Sur la formule «je t'aime»,» *Critique*, no. 348 (mai 1976), pp. 523-524.

وجود قيمتَين (أو أكثر) كلاميتَين منطوقتَين تراتبيَّتَين. ونصِفُ إحداها «بالحرفيّة» و«الأوّليّة» و«المباشرة» و«البيِّنة»، في حين ننعتُ القيمة الأخرى (أو القِيَم الأخرى) «بالثانويّة» و«المُشتقَّة» و«غير المباشرة» و«المُضمَرة» - مع الإشارة إلى أنّنا سنُسلِّم مؤقّتاً بهذه الصفات والنعوت المُختلفة باعتبارها مرادفاتٍ.

ومثلما يؤكّد كلّ من براون وليفنسون[167] (القائلَين: «ليست أفعال الكلام غير المباشر سوى حالةٍ خاصَّةٍ من الاستعمالات غير المباشرة للكلام»)، لا تُشكِّل القِيَم الكلاميّة المنطوقة المُشتقَّة إلاّ حالةً خاصَّةً من حالات المحتويات المُضمَرة[168] - غير أنّها تُعقِّد بشكلٍ خاصٍّ عمليّة وصف معنى الأقوال الشَّامل بحيث يتعيَّن تقسيم كلّ مستوى من المستويات التي ترتبط بها بدوره إلى عنصرَين، ألا وهما: العنصر الجُمَليّ والعنصر الكلاميّ المنطوق، كما في المثل التالي:

أقلع بيار عن التدخين («Pierre a cessé de fumer»)، ونجد فيه:

المحتوى صفر (حصفر)، وهو: /لا يُدخِّن بيار، حاليّاً/ (/Pierre, actuellement ne fume pas/) (وهو محتوى بيِّنٌ)، ويتألّف من:

المحتوى الجُمَليّ صفر، وهو: /بيار لا دخَّن في الوقت صفر/ (/Pierre ne pas fumer en T_0/)

القيمة الكلاميّة المنطوقة صفر: إثبات حالة.

أمّا المحتوى الأوّل ($ح_1$)، فهو: /كان بيار يُدخِّن، في السابق/ (/Pierre, auparavant, fumait/) (وهو استدلالٌ درجة أولى وذو طابعٍ افتراضيٍّ)، وينقسم إلى:

المحتوى الجُمَلي الأوّل، وهو: /بيار كان دخَّن في وقتٍ سابقٍ للوقت صفر/ (/Pierre fumer en un moment antérieur à T_0/)

القيمة الكلاميّة المنطوقة الأولى: إثبات حالة.

في حين يكون المحتوى الثاني ($ح_2$): /ليس مثلك أنتَ الذي لاتزال تُدخِّن، اتَّعظ من الأمر واتَّخذ منه الأمثولة والعِبرة.../ (/c'est pas comme toi .../)

---

(167) Penelope Brown et Stephen Levinson, «Universals in Language Usage: Politeness Phenomena,» in: Esther N. Goody, ed., *Questions and Politeness: Strategies in Social Interaction*, Cambridge Papers in Social Anthropology; 8 (Cambridge, MA; New York: Cambridge University Press, 1978), p. 273.

(168) وذلك حين تنتمي فعلاً إلى حقل المُضمَر (ولا يستمرّ الوضع على حاله، كما سنرى لاحقاً، في حالة «المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق المُعجَم»).

(وهو استدلالٌ درجة ثانية ـ زد (/qui fumes toujours, prends-en de la graine... على أنَّه من المُلائم فصله إلى طبقاتٍ جُمَيليّة كلاميّةٍ منطوقةٍ متنوّعةٍ، كما أنَّه يتَّصف بطابعه المُضمَّن)، وهو يتألَّف من:

المحتوى الجُمَيليّ الثاني، وهو: / استمرار التدخين في الوقت صفر...، إلخ/ (/A fumer toujours en T_0, etc./)

القيمة الكلاميّة المنطوقة الثانية: وهي عتابٌ وتحذيرٌ وتوصيةٌ...

(وسنشير بشكلٍ عابرٍ إلى أنَّ بروز المحتوى الجُمَيليّ وبروز القيمة الكلاميّة المنطوقة المُشتقَّين، ليسا بالضرورة ظاهرتَين متلازمتَين. وهكذا، قد نُصادف ثلاث حالاتٍ من الصور، ألا وهي:

● تعديل المحتوى الجُمَيليّ من دون تعديل القيمة الكلاميّة المنطوقة: وهذا هو مثلاً ما يحدث لدى الانتقال من المحتوى صفر ($ح_{صفر}$) إلى المحتوى الأوَّل ($ح_1$)؛

● تعديل القيمة الكلاميّة المنطوقة من دون تعديل المحتوى الجُمَيليّ، كما في المثل التالي: «أتمرِّر لي المُربَّى؟» («Tu me passes la confiture?»)، حين ينطوي هذا القول في الواقع على المعنى الآتي: «مرِّر لي المُربَّى» («Passe-moi la confiture»)؛

● تعديلهما كليهما بشكلٍ متزامن، الأمر الذي يحدث على سبيل المثال، لدى الانتقال من المحتوى الأوَّل ($ح_1$) إلى المحتوى الثاني ($ح_2$)، أو من المحتوى الحرفيّ الذي ينطوي عليه القول التالي «الحرّ شديدٌ هنا» («Il fait chaud ici») إلى الاستدلال التالي: / افتح النافذة/ (/Ouvre la fenêtre/)).

وبما أنَّ القِيَم الكلاميّة المنطوقة المُشتقَّة ليست سوى حالةٍ خاصَّةٍ من حالات المحتويات المُضمَرة، فأمرٌ لا يدعو للدهشة أن تطالعنا مجدَّداً بشأنها الإشكاليَّتان الأساسيَّتان اللَّتان صادفناهما منذ مستهلِّ هذه الدراسة حول موضوع المُضمَر، ألا وهما:

ـ إشكاليّة تحديد المكان الأنسب حيثُ يتعيَّن رسم الحدود الفاصلة بين البيِّن والمُضمَر، أي والحالة هذه، بين القِيَم الكلاميّة المنطوقة «الأوَّلية» و«المُشتقَّة»؛

ـ إشكاليّة الوضع أو الأوضاع المُختلفة التي ينبغي منحها للقِيَم الكلاميّة المنطوقة المُشتقَّة.

2.4.2. القِيَم الكلاميّة المنطوقة الأوَّليّة في مقابل المُشتقَّة

ما إن نُسلِّم بوجود القِيَم الكلاميّة المنطوقة المُشتقَّة، حتّى تتكشَّف أمام ناظرينا على الصعيد النظريّ ثلاثة مواقفٍ إزاء هذه الإشكاليّة، اثنان منها فقط مُثبتان فعلاً. وتتجلّى هذه المواقف على الشّكل الآتي:

ـ تتَّخذ القِيَم الكلاميّة المنطوقة قاطبةً وضع القِيَم الأوَّليّة: وحسب درايتنا بالأمور، ما من أحدٍ قد تلهّى في الدفاع عن مثل هذا الموقف النظريّ القائل بأنَّ القِيَم التداوليّة التواصليّة برمَّتها، مهما كانت نزويّةً أو اعتباطيّة، هي مُدرجةٌ في اللّغة وقابلةٌ أن تتفعَّل في أيّ قولٍ مهما يكن.

ـ يتعيَّن اعتبار القِيَم الكلاميّة المنطوقة كافَّةً التي يُمكن ملاحظتها بمثابة القِيَم المُشتقَّة: هذا هو الموقف الذي يتَّخذه بيريندوني الذي وإنْ لم يتوصَّل بالقدر الذي يدَّعيه(169) إلى «حلِّ نفسه» كلّيّاً من مفهوم أفعال الكلام، إلاّ أنَّه يحدُّ من توسُّع هذا المفهوم من خلال وصف كلّ أفعال الكلام باعتبارها أفعالاً مُنجزةً بشكلٍ غير مباشرٍ.

ـ تتألَّف مجموعة القِيَم الكلاميّة المنطوقة من مجموعتَين فرعيَّتَين، ألا وهما: القِيَم الكلاميّة الأوَّليّة في مقابل المُشتقَّة ـ وتكمن الإشكاليّة التي يواجهها أنصار هذا الموقف (أي السواد الأعظم من البراغماتيّين) في معرفة الأسس التي ينبغي أن يرتكز عليها مثل هذا التقسيم.

وتترشَّح بامتيازٍ فئتان من الأفعال لتأدية دور ركائز القِيَم الكلاميّة المنطوقة، ألا وهما:

1. العبارات الإنشائيّة (التي يُطلَقُ عليها أوستن اسم «الجُمل الإنشائيّة البيِّنة») ذات النمط التالي: «أعدكَ» («je te promets») و«آمركَ» («je t'ordonne»)، إلى آخره؛

2. «أشكال الجملة» التي تُطلَقُ عليها أيضاً التسميات التالية: «الصِيَغ» (بحسب بيريندوني) «والأنماط الصيغيّة» (كما يدعوها ريكاناتي) و«الجُمَل الإنشائيّة الأوَّليّة» (بحسب أوستن) و«واسمات المزاج» (mood markers) (كما يحلو لزوبير تسميتها).

وتبعاً لقبول منظِّري الكلام المنطوق على اختلافهم بأحد نوعَي الأفعال هذَين باعتباره أحد واسمات القِيَم الكلاميّة المنطوقة الأوَّليّة أم دحضه، يتمُّ توزيعهم على أربع فئاتٍ محدَّدةٍ على الشّكل المُبيَّن أدناه:

---

(169) Berrendonner, «Zéro pour la question. Syntaxe et sémantique des interrogations directes,» p. 41.

ركيزة القيمة الكلاميّة المنطوقة الأوَّليّة

عبارة إنشائيّة	شكل جملة	
−	−	(1)
+	+	(2)
+	−	(3)
−	+	(4)

الفئة الأولى (1): وينتمي إليها بيريندوني[170].

الفئة الثانية (2): وينضوي فيها:

- سيرل[171].
- دافيدسون[172] (Davidson).

أمّا في الفئة الثالثة (3): فنجد فيها:

- أوستن (الذي يعتقد أنَّ الجُمل الإنشائيّة «البيِّنة» تنفرد في القدرة على إنجاز الفعل المناسب بشكلٍ بيِّن).
- روليه[173] (Roulet).

(170) Berrendonner: *Eléments de pragmatique linguistique*, et «Zéro pour la question. Syntaxe et sémantique des interrogations directes».

(171) راجع الاقتباس السابق الذي يتناول الالتماسات المباشرة وغير المباشرة.

(172) Alice Davidson, «Markers of Derived Illocutionary Force and Paradoxes of Speech Act Modifiers,» *Cahiers de linguistique française*, no. 3 (1981).

(173) Eddy Roulet: «Modalité et illocution: Pouvoir et devoir dans les actes de permission et de requête,» *Communications*, no. 32 (1980); «Stratégies d'interaction, modes d'implicitation et marqueurs illocutoires,» *Cahiers de linguistique française*, no. 1 (1980), et «Echanges, interventions et actes de langage dans la structure de la conversation,» *Etudes de linguistique appliquée*, no. 44 (1981).

• غريس (الذي ينظر إلى العبارات الإنشائيّة باعتبارها صياغاتٍ بيِّنةً، في حين يجد في قيمة الأمر المُضمَّنة في عبارة «أقفل الباب» («Fermez la porte») «استلزاماً خطابيّاً تحادثيّاً»).

وأخيراً، الفئة الرابعة (4): وينتمي إليها:

• أنسكومبر[174] (الذي يؤكّد ما يلي: «وتستتبعُ فرضيَّتنا كذلك أنَّ كلَّ عبارةٍ إنشائيّةٍ تُعدّ من حيثُ استعمالها الإنشائيّ واسماً من واسمات الاشتقاق الكلاميّ المنطوق». كما يُردف قائلاً[175] ما مفاده: «نستبعد وجود الأفعال الأوّليّة خارج إطار الأفعال الكلاميّة المنطوقة ذات النمط التأكيديّ الإخباريّ والإيعازيّ والاستفهاميّ والمُعبِّر عن التمنّي والتعجُّبيّ (إلاّ أنَّ الإشكاليّة تبقى مطروحةً)»).

• أمّا بالنسبة إلى الموقف الذي يتَّخذه ريكاناتي، فهو بيِّنٌ للغاية في ما يتعلّق بالعناصر الإنشائيّة البيِّنة، حيثُ يعتبر أنّها تُنجز أفعالاً إنَّما بشكلٍ غير مباشرٍ. أمّا بشأن القيمة التي تدعمها «صيغة الجملة» (سواء كانت صيغة الأمر أو الاستفهام أو ما شاكل)، فَهي تُعَدُّ من وجهة نظره «مستتبعةً» و«حرفيّةً» في آنٍ[176]، أي بكلامٍ آخر، يُمكن تشبيهها[177] بالافتراض. ويُعلن ريكاناتي فضلاً عن ذلك أنَّ لكلّ «صيغة» «قوّة كامنة مُتضمَّنة في القول» أو «قوّة مُتضمَّنة نموذجيّة» ملائمة له. وعليه، «سنُسلِّم إذاً بأنَّ القواعد الدلاليّة في اللّغة الفرنسيّة تزوِّدُ الجُمَل الأمريّة بنمطٍ من القوّة من شأنه أن يجعل من القوّة الخاصّة التي تتحلّى بها الأفعال من مثل الالتماس وإصدار الأوامر والتوسُّل إلى آخره، قوّةً شموليّةً. وسنضفي على هذه «القوّة الشّاملة» صفة «التقادميّة»، وسنطلقُ أيضاً تسمية «أفعال التقادم» على أفعال الكلام الفرديّ التي تُصبح قوَّتُها قوّةً شموليّةً

(174) Jean-Claude Anscombre, «Marqueurs et hypermarqueurs de dérivations illocutoires: Notion et problèmes,» *Cahiers de linguistique française*, no. 3 (1981), p. 97.

(175) المصدر نفسه، ص 121، الهامش رقم 8.

(176) François Récanati, *Les Enoncés performatifs: Contribution à la pragmatique*, propositions (Paris: Editions de Minuit, 1981), pp. 46-47.

(177) لا يختلف هذا التصوّر بشيءٍ عن تصوّر زوبير للأمور (بيد أنّه يختلف مع ريكاناتي في الرأي حول القِيَم الكلامية المنطوقة المُرتبطة بالعبارات الإنشائيّة والتي يعتبرها خلافاً لهذا الأخير قِيَماً ذات طابعٍ بيِّنٍ)، في: (Ryszard Zuber, «Mood Markers and Explicit Performatives,» *Cahiers de linguistique française*, no. 3 (1981)).

بفضل هذه القوّة الشّاملة»[178]. وبناءً عليه، ترتبط هذه القيمة «التقادميّة» بالجُمل الأمريّة «بشكلٍ أوّليّ». ونستنتج بالتالي أنَّ ريكاناتي ينتمي إلى الفئة الرابعة (4).

لن نأتي في هذا الصدد على ذكر تفاصيل البراهين والبراهين المعاكِسة التي استندنا إليها لتعليل هذه المواقف النظريّة المتنوّعة. ولنقل من دون لفٍّ ودورانٍ، إنّنا شخصيّاً من أنصار الفئة الثانية (2)، وبكلامٍ آخر، إنّنا نُضفي على القِيَم الكلاميّة المنطوقة التي ترتبط بالعبارات الإنشائيّة وبأشكال الجملة على حدٍّ سواء صفة «البيِّنة» (ولا تنطوي هذه الصفة على المعنى نفسه تماماً التي تشتمل عليه صفتَي «أوّليّة» و«مباشرة»، إذ ليس بالأمر اليسير أن نُفرِّقَ، داخل فسيفساء الاقتراحات الوصفيّة الإيضاحيّة هذه، التفاوت المُصطلحيّ المحض عن الانشقاقات النظريّة الجدّية).

وفي الواقع، لم تنجح برهنة ريكاناتي ولا برهنة بيريندوني على دقّتهما، في إقناعنا إقناعاً كليّاً بأنّ عبارة «أعدك» («je te promets») لا تُنجز بشكلٍ مباشرٍ فعل قطع الوعد (بل إنّها تنجز فعل تأكيدٍ وإخبارٍ يتمُّ بواسطته إنجاز فعلَ قطع الوعد هذا بشكلٍ غير مباشرٍ). على أيّ حالٍ، إنْ وُجدت مثل هذه القيمة الكلاميّة المنطوقة فهي تكون بيِّنةً لا محال، بغضّ النظر عما إذا كانت مباشرةً أو غير مباشرةٍ. وباعتبار أنَّ القِيَم الكلاميّة المنطوقة التي ترتبط بالعبارات الإنشائيّة والتي تُفعَّل لدى كلّ تواترٍ للمتتالية الدالَّة والتي يستحيل كذلك «محوها» (لأنَّ المثل المُعاكِس الذي يضربه أنسكومبر[179] ليس مُقنعاً البتَّة، إذ نجد في القول التالي: «أنا لا أسمح بالتدخين، ولكن يُمكنك أن تُدخِّن سيجارةً واحدةً على عجلٍ» («J'interdis de fumer, mais vous pouvez en griller une en vitesse») أنَّ فعل «لا أسمح» («interdire») كونه بصيغة الحاضر الدالَّة على حقيقةٍ عامَّةٍ، فضلاً عن كونه خلواً من أيّ مفعولٍ به من شأنه أن يمثِّل المُحاوِر، فإنّه عاجز بالتالي عن العمل على الصعيد الإنشائيّ)، فهي تكون مُرسَّخةً في هذه العبارات الإنشائيّة لدرجةٍ يصعب معها، بخلاف القِيَم الكلاميّة المنطوقة التي تدعمها أشكال الجملة، أن تكون صالحةً للاشتقاق[180]. وعليه، نستطيع اعتبار أنّها تُمثِّل درجة

(178) Récanati, Ibid., p. 162,

(179) Anscombre, «Voulez-vous dériver avec moi?,» p. 90.

(180) ثمّة استثناءاتٍ تشذّ عن هذا المبدأ، وقد أشار إليها زوبير في: Zuber, «Mood Markers and = Explicit Performatives,» p. 43.

التبيين القصوى التي من الممكن أن تبلغها القيمة الكلاميّة المنطوقة.

وهكذا، تسمح الأفعال المُنصرفة الإنشائيّة بصياغة عددٍ كبيرٍ نسبيّاً من القِيَم الكلاميّة المنطوقة الخاصّة صياغةً بيّنةً ـ ولكن ليس مُطلقاً مجمل هذه القِيَم. وبالتالي لا تستوفي لائحة العبارات الإنشائيّة لائحةَ القِيَم الكلاميّة المنطوقة من ألفها إلى يائها، فلقد أُنجِزَ القليل وبقيَ الكثير.

ويبقى أخيراً أن نتطرّق إلى حالة «أشكال الجملة» التي تنقلُ بشكلٍ بيّنٍ برأينا، على الرُّغم من غياب أيّ «عنصرٍ إنشائيٍّ بيّنٍ»، بعض القِيَم الكلاميّة المنطوقة ـ وتحديداً تلك «التي جرت العادة على ربطها» بأشكال الجملة هذه، مثلما يقول ليفنسون الذي يوجزُ بهذه التعابير «فرضيّة القوّة الحرفيّة» (Literal Force Hypothesis) التي يعتنقها في نهاية المطاف، في ظلّ غياب أيّ «نظريّةٍ بديلةٍ» مُرضِيَةٍ بنظره[181]، فيقول ما يلي:

«(i) تتّصف العناصر الإنشائيّة البيّنة بالقوّة التي يُسمّيها الفعل الإنشائيّ المُنصرف داخل الجملة القالب

(ii) وإلاّ تتّصف أنماط الجُمل الثلاث الأساسيّة في اللّغة الإنجليزيّة، ألا وهي: الجملة الأمريّة والاستفهاميّة والخبريّة، بالقوى التالية التي جرت العادة أن تُقرَن بها، وهي: إصدار الأوامر (أو الالتماسات) والاستفهام والتصريح على التوالي (باستثناء طبعاً العناصر الإنشائيّة التي تتّخذ أصلاً شكل الصيغة الخبريّة)».

(ونُشير بشكلٍ عابرٍ إلى أنّ ليفنسون يتوخّى استعمال مصطلحاتٍ تحويليّة مختلفة للإشارة إلى الدالّ والمدلول المُؤلِّفَين لهذه الوحدات الكلاميّة المنطوقة؛ كما يُنوّه بواقع أنّ العناصر الإنشائيّة البيّنة، كونها تُشكّل ركائز للقِيَم الكلاميّة المنطوقة البيّنة، فهي نوعاً ما أعلى شأناً من حيث التراتبيّة مقارنةً بأشكال الجملة، لأنّها تُبطل قيمتها ـ أي والحالة هذه، قيمتها التأكيديّة الإخباريّة).

ويرى ليفنسون أنّ «أنماط الجُمل» هذه هي تقريباً عامّة، في حين يُعلن بينفينيست بطريقةٍ مماثلةٍ أنّها تتطابق و«التصرُّفات الثلاثة الجوهريّة التي ينتهجها

= وهكذا مثلاً، تُعبّر عبارة «أشكرك جزيل الشكر» («Je vous remercie») حرفيّاً عن فعل الشكر، ولكنّها بالإضافة إلى ذلك، تُعبّر في بعض الظروف عن فعل التسريح أو وضع حدٍّ للتفاعل (كما تُضاف هذه القِيَم إلى القيمة الحرفيّة، ولكن من دون أن تتوصّل مطلقاً إلى أن تحلّ محلّها كليّاً).

(181) Levinson, *Pragmatics*, pp. 183-184.

الإنسان»، ممّا يُضفي على القِيَم التي ترتبط بأنماط الجُمل هذه طابعاً عامّاً جدّاً. «ولا يختلف اثنان على وجود الجُميلات التأكيديّة الإخباريّة والجُمَيلات الاستفهاميّة والجُمَيلات الأمريّة، وتميِّز سماتٌ خاصَّة تتعلَّق بالنحو وبقواعد اللّغة واحدتها عن الأخرى، في حين يكمن الجامع المُشترَك بينها في ارتكازها بطريقةٍ مماثلةٍ على الإسناد. والحال أنَّ هذه الصِيغ الثلاثة ليست سوى انعكاس للتصرُّفات الثلاثة الجوهريّة التي ينتهجُها الإنسان الذي يتَّخذ من الخطاب وسيلةً للكلام والتأثير في المُخاطب، فإمّا أن يرمي إلى نقل عنصر معرفةٍ إليه، أو الحصول منه على معلوماتٍ أو إصدار أمرٍ له. هذه هي وظائف الخطاب المُشتركة بين البشر التي تُعبِّر عنها الصِيَغ الثلاث التي تتَّخذها الوحدة الجملة، بحيثُ تتطابق كلّ صيغةٍ من هذه الصِيَغ مع أحد مواقف المُتكلِّم».

وبالطبع، تتخصَّص هذه القِيَم العامَّة في إطار السياق، فمثلاً، إنَّ جملةً من مثل:

ستذهب إلى مدينة تومبوكتو («Vous irez à Tombouctou»)

تتَّخذُ تبعاً للحالات مظاهر العقوبة أو الوعد أو التكهُّن أو التوصية أو المديح أو التوبيخ...، فما هي الطريقة المُثلى لمعالجة مثل هذه الظاهرة؟ يتجلّى المخرج الأوَّل لهذه الإشكاليّة في اعتبار أنَّ كلّ القِيَم تتشارك الوجود في اللّغة، وأنَّها ترتبط بالتساوي بالدالّ «الصيغة التأكيديّة الإخباريّة للدلالة على المُستقبل» المُتعدِّد الدلالات بشكلٍ لا يُعدّ ولا يُحصى على الصعيد الكلاميّ المنطوق - ويتكفَّل السياق بانتقاء القيمة الأنسب من جملة مجموعة القِيَم الفرضيَّة الواسعة النطاق هذه. بيد أنَّ فوكونييه[182] (Fauconnier) الذي اقتبسنا عنه المثل الآنف الذكر، يرى في هذا المخرج «حلاًّ ضعيفاً يُرثى له». وفي الواقع، من المستحسن أن نعتبر أنّ لكلِّ شكلٍ من أشكال الجملة قيمةً فريدةً وعامَّةً ترتبط به في إطار اللّغة ومن شأنها أن تجعل مجمل مجموعة القِيَم الخاصَّة أكثر شموليّةً (فبحسب ريكاناتي مثلاً الذي استشهدنا به في وقتٍ سابقٍ، تجعل القيمة «التقادميّة» الخاصَّة بالصيغ الأمريّة من الأمر والالتماس والتوسُّل قِيماً شموليّةً). وإنَّ المثل الآنف الذكر، ألا وهو:

---

(182) Gilles Fauconnier, «Le Pouvoir des mots,» *Actes de la recherche en sciences sociales*, no. 25 (jan. 1979).

ستذهب إلى مدينة تومبوكتو («Vous irez à Tombouctou»)

يُعبِّر بشكلٍ بيِّنٍ عن تأكيدٍ وإخبارٍ في حين أنَّه يُعبِّرُ بشكلٍ مُضمَرٍ عن قِيَم قطع الوعد أو التكهُّن أو المديح أو التوعُّد الاحتماليّة.

خلاصات

● سنعتبر في هذا الصدد كلّاً من العبارات الإنشائيّة وأشكال الجملة بمثابة واسمات القِيَم الكلاميّة المنطوقة البيِّنة.

● وحتّى إنَّه يترتَّب علينا على الأرجح أن نعمد إلى توسيع لائحة هذه الواسمات، كأن نُسلِّم على سبيل المثال بأنَّ عبارة «يا للخسارة . . .» («dommage que...») تُعبِّرُ بشكلٍ بيِّنٍ عن قيمة التحسُّر في جملةٍ من مثل:

لقد أعجبني البلوفر الذي ابتعته لي. ولكن يا للخسارة، إنَّ قياسه عند أسفل البطن لا يُناسبني («Il est bien le pull que tu m'as acheté. Dommage qu'ils ne fassent pas la taille au-dessous»)،

إنَّ قيمة التحسُّر مُدرجةٌ بمنتهى الوضوح[183] في هذه الجملة التي تشتمل فضلاً عن ذلك على قيمة الانتقاد، إنَّما بشكلٍ مُضمَرٍ هذه المرَّة.

---

(183) يعتبر أنسكومبر (Anscombre, «Voulez-vous dériver avec moi?,» p. 87) كذلك أنّ الجملة التالية:

«من سوء الحظّ أنّ بيار قد أتى» («Il est malheureux que Pierre soit venu»)

تُعبّر أوّليّاً عن فعل التذمُّر الذي تُعبّر عنه الجملة التالية:

«واحسرتاه! لقد أتى بيار» («Hélas, Pierre est venu»)

تعبيراً غير مباشرٍ.

ونستنتج بالتالي، كم يصعب علينا حتّى الآن أن نرسم الحدود الفاصلة بين الصياغتَين المباشرة وغير المباشرة، كون المسألة تتعلّق بظواهرَ تدرُّجيّةٍ، كما هو مُبيَّنٌ في الأمثلة التالية:

«حضّر الشاي»	: وهو التماسٌ مباشرٌ
«حضّر الشاي من فضلك»	وهما التماسان مباشران
«هل لك أن تُحضّر الشاي؟»	مصوحبان بـ «مُلطِّفٍ»
«هلّا حضرت الشاي؟»	: وهو التماسٌ غير مباشرٍ.

(«Fais le thé»	: requête directe
«Fais le thé s'il te plaît»	requêtes directes, mais
«Fais le thé veux-tu?»	accompagnées d'un «softener»
«Veux-tu faire le thé?»	: requête indirecte).

وكذلك يُصار أحياناً إلى تحديد بعض الشتائم أو التوعُّدات باعتبارها كذا بما لا يحمل إلى الشكّ سبيلاً، في حين يتعذّر على العبارتَين التاليتَين «أنا أشتمك» («je t'insulte») و«أنا أتوعَّدك» («je te menace») اللّتَين يُمكن عند الاقتضاء استعمالهما على الصعيد الوصفيّ الإيضاحيّ بهدف التعليق على أفعالٍ مُنجزةٍ بواسطة وسائل أخرى، كلاميّةً كانت أو غير كلاميّة، أن تعملا على الصعيد الإنشائيّ.

- ممّا يُثبتُ أنّه حتّى في الحالة التي تكون فيها اللّغة مزوَّدةً بمصطلحٍ للدلالة على فعلٍ معيَّنٍ، فهي لا تسمح بصورةٍ دائمةٍ بتحقيق الفعل المطروح بشكلٍ بيِّنٍ.

ونستنتج بالتالي أنَّه يتعذَّر صياغة عددٍ لا يُستهان به من القِيَم الكلاميّة المنطوقة صياغةً بيِّنةً، لأنَّها غير مزوَّدةٍ بأيِّ شكلٍ خاصٍّ من أشكال الجُملة ولا حتّى بعبارةٍ إنشائيّةٍ مناسبةٍ، ممّا يدفعها مُرغمةً إلى اللّجوء إلى الصياغة المُضمَرة.

- يصعب إخضاع العبارات الإنشائيّة إلى الاشتقاق.

وفي المقابل، تكون أشكال الجملة قابلةً لإعطاء الضوء الأخضر لأنماطٍ جمَّة من الآليات الاشتقاقيّة ـ وهذا ما سنتحدَّث عنه على الفور.

3.4.2. وضع القِيَم المُشتقَّة: حالاتٌ مختلفةٌ من الاشتقاقات الكلاميّة المنطوقة

بالإضافة إلى مجموعة القِيَم التي ينسبها فوكونييه بالقوَّة إلى عبارة:

«ستذهب إلى مدينة تومبوكتو» («Vous irez à Tombouctou»)

ومن جملتها قيمة الوعد أو المديح أو التكهُّن، تنطوي هذه الجملة كذلك على قيمة الأمر التي لا يجوز وضعها على المستوى عينه الذي تشغله القِيَم الأخرى، كونها تملك دالاًّ صيغيّاً خاصّاً (ألا وهو: صيغة الأمر). وبكلامٍ آخر، ثمّة وسيلةٌ للتعبير عن الأمر بشكلٍ بيِّنٍ، في حين أنّه ما من وسيلةٍ (إذا ما وضعنا العبارات الإنشائيّة جانباً) للتعبير عن الوعد أو المديح أو التكهُّن.

وبالتالي، سنُميِّز بين:

1. القِيَم الكلاميّة المنطوقة المُشتقَّة التي لا تملك شكل جملةٍ من نوعٍ

خاصّ، بل يقتصر دورها على تحديد القيمة الكلاميّة المنطوقة العامّة التي تُميّز بنية صيغة القول وأن تُدقّق فيها

وتحتلُّ التأكيدات والإخبارات الصدارة بلا مُنازع من حيثُ غناها بالقِيَم المُشتقَّة من النمط الآنف الذكر (وسنُعدّد، من دون اتّباع ترتيبٍ مُعيَّنٍ، الأفعال التالية: صرَّحَ («déclarer») ووَعَدَ («promettre») وتوعَّدَ («menacer») ومدحَ («louer») ولامَ («blâmer») وشتمَ («injurier») وجاملَ («complimenter») وعاتبَ («reprocher») ودحضَ («réfuter») وانتقدَ («critiquer») وبرَّرَ («justifier») وتنبَّأَ («prédire») واقترحَ («suggérer») وتمنّى («souhaiter») ونصحَ («conseiller») واتَّهمَ («accuser») وعَذَرَ («excuser») وقبلَ («admettre») وترافعَ («plaider») وكشفَ («révéler») وحذَّرَ («avertir») وذكَّرَ («rappeler») ودَعَمَ («soutenir») واستنتجَ («déduire») واستخلصَ («conclure») وصاغَ فرضيّةً («faire une hypothèse») وأقرَّ («avouer») وأنكرَ («dénier») وضَمَنَ («garantir») ورضخَ («concéder») وأكّدَ («confirmer»). . .، إلخ). مع أنَّ مثل هذه القِيَم قادرةٌ أيضاً أن تستثمرَ البُنى الاستفهاميّة أو الأمريّة أو التعجُّبيّة[184].

وتتميَّز القِيَم الكلاميّة المنطوقة المُشتقَّة ذات النمط الآنف الذكر بتناغمها مع قِيَم القول الكلاميّة المنطوقة الأوَّليّة، بحيثُ إنَّها تُحدِّدها وتُغنيها من دون أن تُلغيها. وبرأينا، لاتزال المسألة هنا مسألة مُضمَّناتٍ كلاميّةٍ منطوقةٍ واضحةٍ تقريباً على الرُّغم من كلّ شيء.

وعلى ما يبدو، إنَّ صيغة الاشتقاق هذه هي الوحيدة التي تسمح بها بنية الأمر. أمّا البُنيتان التأكيديّة الإخباريّة والاستفهاميّة فتشتهران فضلاً عن ذلك باعتماد طرق الاشتقاق ذات النمط الثاني المُبيَّن أدناه.

2. القِيَم الكلاميّة المنطوقة المُشتقَّة التي يُفترض طبيعيّاً أن تتناسب مع أحد أشكال الجملة المُختلف عن شكل القول الذي تُفعَّل فيه

وإليكم هذين المثلَين:

المثل الأوّل (i): «أتفتح النافذة لو سمحت؟» («Voudrais-tu ouvrir la fenêtre?»)

(184) وكذلك، قد تُعبِّر «أشكال الجملة» الأربعة هذه بشكلٍ غير مباشرٍ عن العتاب مثلاً. وبالعكس، قد تكون بعض القِيَم الكلاميّة المنطوقة الأخرى تخصصيّةً في ما يتعلّق بنمط البِنية التي تكون هذه القيم قابلةً لاستثمارها بغية أن تتحقّق.

القيمة الكلاميّة المنطوقة الأوَّليّة: هي سؤالٌ.

القيمة الكلاميّة المنطوقة المُشتقَّة: هي التماسٌ.

المثل الثاني (ii): «الحرّ شديدٌ هنا» («Il fait chaud ici»)

القيمة الكلاميّة المنطوقة الأوَّليّة: هي تأكيدٌ.

القيمة الكلاميّة المنطوقة المُشتقَّة: هي التماسٌ.

وكوننا نُسلِّم بأنَّ المثلَين الأوّل والثاني مُتشابهان من حيث القدرة على العمل كالتماسَين (يرميان إلى فتح النافذة)، في حين أنَّهما يُعبِّران بشكلٍ أوَّليٍّ عن فعلَي كلام مُتمايزَين من حيث طبيعتهما بما أنَّ «شكلهما» الظاهريّ لا يمتّ لصيغة الأمر بصلةٍ، فإنَّ ما سيجذب اهتمامنا في الوقت الحاضر إنَّما هو ما يُفرِّق طريقة عمل هاتَين البُنيتَين واحدتهما عن الأخرى.

ويوصف عموماً هذا الاختلاف عبر وضع الكلام المنطوق المُشتقّ «الاتِّفاقيّ» في مقابل «غير الاتِّفاقيّ». وبرأينا ليس هنا بيتُ قصيدِ ما يُمَيِّزُ طريقة عملهما المُقارَنَة. وبكلام آخر، إنَّ هذا المحور يخضعُ لمبدأ تعارضيٍّ أعلى من شأنه أن يضع في دائرة الشكّ تراتبيّة المُستويَين الكلاميَّين المنطوقَين التي تنعكس في تسلسلات الكلام التي تفضي إليها المتتالية التي نتأمّل فيها.

أ) الاشتقاق التلميحيّ.

في حال كان صحيحاً أنَّ جملةً على غرار المثل الثاني الذي أوردناه آنفاً، وهو:

المثل الثاني (ii): «الحرّ شديدٌ هنا» («Il fait chaud ici»)

قادرةٌ في بعض الحالات أن تقترح أنَّ المتكلِّم يودُّ لو يُغلق المُحاوِر النافذة، أي إنَّها تعمل بالتالي بمثابة الالتماس المُموَّه، فمن المستبعد إن جاز التعبير، أن يتبادر إلى ذهن المتكلِّم أن يُتبَع هذا القول بالتوسُّع التالي «من فضلك» («s'il te plaît») الذي يُميِّز صياغة الالتماسات، أو أن يُجيبَ المُحاوِر بلا تمهيدٍ على هذا الالتماس المُموَّه قائِلاً: «كلاّ، لا أستطيع أن أفتح النافذة» («non, je ne peux pas»).

والواقع أنَّه في صيغةٍ شبيهةٍ بصيغة المثل الثاني (ii)، تبقى القيمة المُشتقَّة

ثانويّةً وهامشيّةً مقارنةً بالقيمة الحرفيّة، أي إنَّها تكون تضمينيّةً، كما يعتبرها بحقٍّ بارت (Barthes) الذي يضرب المثل الآتي: «في حال طرح عليّ أحدهم وبلهجةٍ مُعيَّنةٍ السؤال التالي: «ما جدوى الألسنيّة؟»، وهو يقصد إفهامي أنَّها لا تُجدي نفعاً، فعليّ تصنُّع السذاجة والإجابة بما يلي: «إنَّها تصلح لهذا الأمر ولذاك»، ويجب ألاّ أردّ طبقاً لحقيقة الحوار، قائِلاً: «مَن أعطاك الحقّ بالتهجُّم عليّ»، فأنا أتلقَّى التضمين، ولكنَّني أردّ عليه بالتعيين»[185] («Si d'un certain ton, on me demande: «A quoi sert la linguistique?», me signifiant par là qu'elle ne sert à rien, je dois feindre de répondre naïvement: «Elle sert à ceci, à cela», et non conformément à la vérité du dialogue: «D'où vient que vous m'agressez?» Ce que je reçois, c'est la connotation; ce que je dois rendre, c'est la dénotation»).

عادةً ما نتحدَّث في حالاتٍ مُشابهةٍ عن «الاشتقاق التلميحيّ»[186]. وبغية دمج هذه الحالات دمجاً لا لُبس فيه في بحثنا العامّ هذا حول موضوع المُضمَر، سنعتبر أنَّ القيمة المُشتقَّة تكتسب لدى تفعيلها وضع المُضمَّن الكلاميّ المنطوق الذي يُضاف إلى القيمة الأوَّليّة من دون أن يقوى مع ذلك على أن يحلَّ محلّها أو أن يؤدِّي عوضاً عنها دور القاعدة التي يرتكز عليها تسلسل الكلام.

وفي المقابل، لنا كامل الحقّ في تذييل جملةٍ شبيهةٍ بالمثل الأوَّل المُبيَّن أدناه:

(i) أتفتح النافذة لو سمحت؟ («Voudrais-tu ouvrir la fenêtre?»)

بعبارة «من فضلك» («s'il te plaît»). وسيُجمع العالم بأسره على اعتبار الردّ بالإيجاب، أي أن نُجيبَ «نعم» («oui»)، على هذا السؤال الظاهريّ، بمثابة الردّ الاستفزازيّ، في حال لم يصحبه تصرُّفٌ ملائمٌ (أي في حال لم يُنفَّذ الأمر).

ممّا يُثبت أنَّ عبارةً شبيهةً بالعبارة التي ينطوي عليها المثل الأوَّل (i)، مع أنَّها أصلاً ذات نمطٍ استفهاميٍّ، إلاّ أنَّها تُعامَلُ في الواقع معاملة الأمر تماماً.

---

(185) Roland Barthes, «Ecrivains, intellectuels, professeurs,» *Tel Quel*, no. 47 (automne 1971), p. 10.

(186) انظر على سبيل المثال: Anne-Marie Dillier, «Le Conditionnel, marqueur de dérivation illocutoire,» *Semantikos*, vol. 2, no. 1 (1977).

ونستنتج أنَّه من الأنسب «طبيعيّاً» أن نُسلسل الكلام عقب القيمة المُشتقَّة التي تقوم صراحةً مقام القيمة الأوَّليّة، وتسلبها دورها التعيينيّ - تماماً كما يُطيح المعنى المشتقّ في الاستعارة وقلب المعنى بالمعنى الحقيقيّ ليُفعَّل مكانه من باب الأولويّة. وعليه يحقّ لنا أن نتحدَّث عن «محسنٍ بيانيٍّ كلاميٍّ منطوقٍ» في المثل الأوَّل.

وإنَّ ما يدفعنا إلى وضع المثل الأوَّل (i) في مقابل المثل الثاني (ii)، إنَّما هي تراتبيّة مستويَي الكلام المنطوق النسبيّة، كما هو مُبيَّنٌ أدناه:

المثل الثاني (ii): الحرّ شديدٌ هنا («Il fait chaud ici»)

القيمة التأكيديّة: وهي أوَّليّة ورئيسيّة.

القيمة الإيعازيّة: وهي مُشتقَّة وثانويّة (أي تضمينيّة).

المثل الأوَّل (i): أتفتح النافذة لو سمحت؟ («Voudrais-tu ouvrir la fenêtre?»)

القيمة الاستفهاميّة: وهي أوَّليّةٌ ولكن ثانويّة.

القيمة الإيعازيّة: وهي مُشتقَّةٌ ولكن رئيسيّة (أي تعيينيّة).

وأسوةً بالمحسنات البيانيّة قاطبةً، يقلب «المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق» تراتبية مستويات المحتوى رأساً على عقب، ويمتاز بأنَّ المحتوى المُشتقّ يعمد فيه إلى إبعاد المحتوى الأوَّليّ. ممّا يُثبت من خلال الاستدلال بالضدّ التأثير الهزليّ الذي يتَّصف به هذا الاسكتش أي المشهد المسرحيّ حيث يتظاهر «المُتنبِّئ بالمستقبل» المدعوّ بيار داك (Pierre Dac) بتأويل السؤال الذي يطرحه عليه معاونه المُسمَّى فرانسيس بلانش (Francis Blanche) تأويلاً غير بيانيٍّ، على الرُّغم من استحالة تأويله «طبيعيّاً» إلاّ باعتباره التماساً، ألا وهو:

فرانسيس بلانش: أبمستطاعك أن تتنبَّأ بالرقم المتسلسل المُسجَّل تحته السيِّد فلان في الضمان الاجتماعيّ؟

بيار داك: نعم، أستطيع أن أتنبَّأ به!

فرانسيس بلانش (متحمِّساً): أتستطيع أن تعرفه حقّاً؟

بيار داك (جازماً): أجل أستطيع!

فرانسيس بلانش (ظافراً): إنَّه قادرٌ على فعل ذلك!

F.B. - Vous pouvez dire quel est le numéro de sécurité sociale de Monsieur?

P.D. - Je peux le dire!

F.B. (surexcité) - Vous pouvez le dire?

P.D. (péremptoire) - Je peux le dire!

F.B. (triomphant) - Il peut le dire!

ب) المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق.

وإنْ كنّا نلاحظ وجود هذه الآليّة في المثل الأوّل (i)، فمردّ ذلك بكلّ بساطةٍ إن جاز التعبير إلى أنَّ القيمة الإيعازيّة تكون «موسومةً» «اتِّفاقيّاً» فيه بواسطة الكلمة الذاتيّة «سمح» («vouloir») (و«استطاع» («pouvoir») الواردة في المثل السابق)، فيشملُ بالتالي التمييز بين (ب) في مقابل (أ) على التعارض القائِم كما هو شائعٌ بين الكلام المنطوق «الاتِّفاقيّ» و«غير الاتِّفاقيّ».

إلاّ أنَّ هذا الأمر خاطئٌ. وإليكم على سبيل المثال التبادل الكلاميّ التالي (وهو مستمدّ من الواقع الحيّ):

المتكلِّم (وهو يخرج من المطبخ حاملاً صينيّةً عليها أكوابٌ يتصاعد منها البخار): لقد أعددتُ القهوة للتوّ.

المخاطب: بسرورٍ.

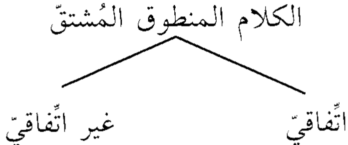
L_1 (sortant de la cuisine, un plateau à la main, chargé de tasses fumantes). - Je viens de faire du café.

L_2 - Volontiers!

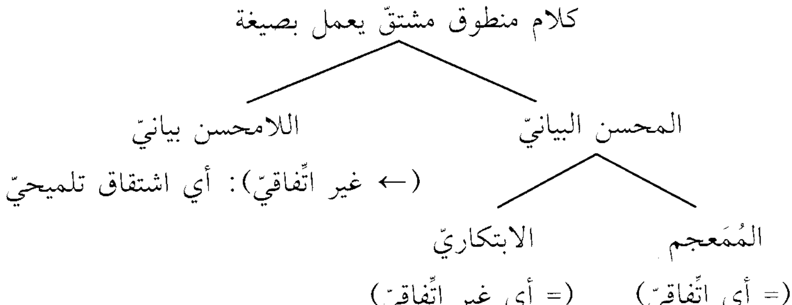
فعلى الصعيد الألسنيّ اللُّغويّ، ما من شيءٍ «يسِمُ» القول التقريريّ الذي يُدلي به المتكلِّم باعتباره عَرَضاً. والحال أنَّ المخاطب يؤوِّله على هذا الشَّكل، ويشهد تسلسل الكلام الذي يعقبه بذلك. وعليه، يجدر بنا أن نُسلِّم بوجود «المحسنات البيانيّة الكلاميّة المنطوقة الابتكاريّة» إلى جانب المحسنات البيانيّة الكلاميّة المنطوقة الاتِّفاقيّة (أو «المُمَعجمة»). وقد نذهب إلى حدّ القول بأنَّ كلّ الأقوال المُستمدَّة «طبيعيّاً» من الاشتقاق التلميحيّ تكون مؤهَّلةً استثنائيّاً وتحت وطأة الضغط الذي تمارسه عليها بعض العناصر ذات الطابع السياقيّ أو السياقيّ الحاليّ النصّي، للعمل على الصعيد البيانيّ.

وبالتالي، يُرغمنا وجود مثل هذه الظاهرة، عوضاً عن التأمُّل في فئتَين فقط

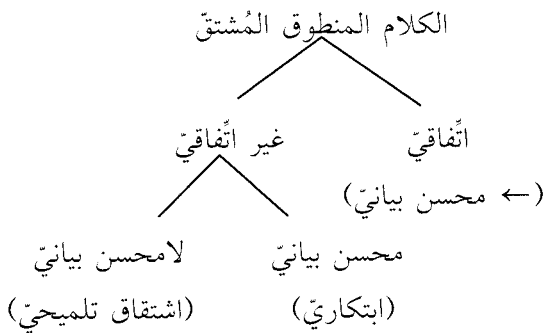
لا غير من الاشتقاقات الكلاميّة المنطوقة ويُميِّزهما محورٌ تعارضيٌّ واحدٌ فقط، على الشَّكل الآتي:



على أن نُميِّزَ ثلاث فئاتٍ من هذه الاشتقاقات على قاعدة محورَين مُمَيِّزَين ثنائِيَّين[187]، على الشَّكل المُبيَّن أدناه:



أو أيضاً عند الاقتضاء، نستطيع إنْ شئنا أن نورد هذَين المحورَين اللَّذَين تربطهما علاقة تصنيفٍ متقاطعةٍ بموجب تراتبيّةٍ مُغايرةٍ، كما هو مُبيَّن أدناه:



(1) المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق المُمَعجم.

(187) نجد ثلاث فئاتٍ منها، وليس أربع، في نطاق أنّ:
طريقة العمل غير البيانيّة   الكلام المنطوق غير الاتّفاقيّ.
والكلام المنطوق الاتّفاقيّ   طريقة العمل البيانيّة.
(وبكلامٍ آخر، إنّ توليف السمتَين [اتّفاقيّ] و [لا محسن بيانيّ] هو غير مُثبتٍ).

منذ اللَّحظة التي تعمد فيها القيمة المُشتقَّة إلى فرض الوظيفة التداوليّة التواصليّة المُهَيمنة التي يتعيَّن على القول تأديتها، نكون بصدد محسنٍ بيانيٍّ تداوليٍّ تواصليٍّ. ولكن متى نستطيع أن نعتبر هذا المحسن البيانيّ مُمَعجَماً وتوافقيّاً ومُدرجاً في اللّغة؟

1. قد يتبادر إلى ذهننا، حاذين حذو غريس، أنَّ الكلام المنطوق المُشتقّ الاتِّفاقيّ وغير الاتِّفاقي هما في حالة تضادٍ، بحيث إنَّ الثاني وحده يستوجب تدخُّل قواعدَ تحادثيّةٍ لاستخراجه. وهكذا، فمن خلال تفنيد مختلف العمليّات المُكوِّنة للتدليل المنطقيّ والتي تخوِّلنا الانتقال من عبارة «الحرّ شديدٌ هنا» («Il fait chaud ici») للوصول إلى / افتح النافذة/ (/Ouvre la fenêtre/)، يُبرهِن أنسكومبر[188] أنَّ الانتقال من القيمة الحرفيّة إلى القيمة المُشتقَّة يتحقّق بفضل تطبيق عددٍ معيَّنٍ من «قوانين الخطاب». ولكن يوردُ أنسكومبر شخصيّاً في هذا المقال عينه برهنةً مماثلةً تتناول مَثَلاً توافقيّاً هذه المرَّة، ألا وهو: «أتستطيع أن تفتح النافذة؟»[189] («Pouvez-vous ouvrir la fenêtre?»)، ويؤدِّي الفعل «استطاع» («pouvoir») في هذا القول دور واسم الاشتقاق الكلاميّ المنطوق الذي يستوجب تطبيق أحد قوانين الخطاب على شاكلة القانون الآتي: «أن نتساءل عن قدرة شخصٍ ما على إنجاز فعل ما «ف»، يعني أن نطلب منه القيام بهذا الفعل «ف»». ومن هنا نستنتج أنَّ لكلّ واسم من واسمات الاشتقاق قانون خطابٍ مناسباً[190] له. وتعمد هذه القوانين المُختلفة إلى زيادة عدد القواعد المُكوِّنة للقانون «البلاغيّ التداوليّ التواصليّ»، إلى جانب طبعاً المبادئ التحادثيّة التي تتَّصف بطابعها العامّ أكثر.

وننوِّه في هذا الصدد بالفرضيّة التي يقول بها كلّ من سيرل[191] وغوردون-

---

(188) Anscombre, «Voulez-vous dériver avec moi?,» p. 87.

(189) راجع كذلك تحليل أنسكومبر (Anscombre, «Marqueurs et hypermarqueurs de dérivations illocutoires: Notion et problèmes وسيرل (Searle, «Indirect Speech Acts,» in: Cole and Morgan, eds., *Syntax and Semantics. 3, Speech Acts*) الذي يتمحور حول عبارة «أبوسعك أن تمرّر لي الملح؟» («Pouvez-vous me passer le sel?») والذي يُبرهن بمماثلةٍ ضرورة اللجوء إلى بعض «مبادئ التحادث العامّة» من أجل أخذ مختلف مراحل العملية التأويليّة لمثل هذا القول بالحسبان.

(190) راجع من الصفحة 99 إلى الصفحة 107 القواعد الخمس التي يقترحها أنسكومبر في: Anscombre, «Voulez-vous dériver avec moi?».

(191) Searle, «Indirect Speech Acts,» in: Cole and Morgan, eds., *Syntax and Semantics. 3, Speech Acts.*

لاكوف[192] (Gordon-Lakoff)، ومفادها: يرتكز عموماً إنجاز فعلٍ غير مباشرٍ على تأكيد أحد «شروط النجاح» الأربعة التي تُميِّز الفعل الواجب إنجازه أو طرح التساؤلات بشأنه، فبغية إنجاز التماسٍ غير مباشرٍ، نستطيع على سبيل الذكر لا الحصر أن نقوم بما يلي:

- تأكيد شرط المحتوى الجُمَيليّ أو طرح التساؤلات بشأنه، مثلاً:

ستَرمي القُمامة («Tu descendras la poubelle»).

أستصمت في نهاية المطاف أم لا؟[193] («Vas-tu te taire à la fin?»)؛

- تأكيد قدرة المُحاوِر أو رغبته في إنجاز الفعل (ويُعدُّ هذا الأمر شرطاً «تمهيديّاً» أو «تحضيريّاً») أو طرح الأسئلة حولهما، كما نرى في الأمثلة التالية:

أبوسعك أن تمرِّر لي الملح؟ («Peux-tu me passer le sel?»)

أتستطيع أن تشُقَّ النافذة قليلاً؟ («Pourriez-vous entrouvrir légèrement la fenêtre?»)

تستطيع أن تنهض الآن («Tu peux te lever maintenant»)

بمقدورك أن تبصق العلكة عندما تخاطبني («Tu pourrais cracher ton chewing-gum quand tu me parles»)

مرِّر لي الملح لو سمحت؟ («Veux-tu me passer le sel?»)

أوَلن تقفل الباب؟ («Ne voudrais-tu pas fermer la porte?»)

أيُزعجك لو لم تُدخِّن؟ («Est-ce que ça te gênerait de ne pas fumer?»)

- تأكيد شرط النزاهة (ولكن من دون طرح التساؤلات بشأنه، نظراً إلى أنَّ المتكلِّم لا يستطيع أن يُثير الشكَّ حول نزاهته الكلاميّة المنطوقة الخاصَّة)، وإليكم هذه الأمثلة:

---

(192) David Gordon and Georges Lakoff, «Conversational Postulates,» in: Cole and Morgan, eds., Ibid.

(193) والواقع أنّ المحتوى الجمَيلي نفسه يكون ثابتاً في هذا الصدد أو مطروحاً للمناقشة.

ملاحظة: إنّ الأمثلة التي أوردناها هي مُقتبسةٌ عن التفسير بأسلوبٍ شخصي الذي يقترحه ديليه (Dillier, «Le Conditionnel, marqueur de dérivation illocutoire») بشأن نصّ سيرل.

أودُّ لو تُقفل هذا الباب («Je veux que tu fermes cette porte»)

أرغب في الحصول على قبلةٍ منك («J'aimerais que tu m'embrasses»)

أرحِّب بفكرة أن تُخفِّف من هذه الضوضاء («Je voudrais que vous fassiez moins de bruit»)

أكون لك من الشَّاكرين إنْ لم تركن سيَّارتك أمام مدخل منزلي («Je vous serais très reconnaissant de ne pas garer votre voiture devant ma porte»)

أرجو أنَّك ذاهبٌ لتغسل يديك قبل الجلوس إلى المائدة («J'espère que tu vas aller te laver les mains avant de venir à table»).

إنَّها لفكرة مُغرية. إلاّ أنّنا لا نستطيع بالتأكيد تعميمها على كلِّ حالاتِ الالتماسات غير المباشرة، إذ لا تكون كلّ شروط النجاح قابلةً على حدٍّ سواء أن تُستغَلَّ على هذا الشَّكل، والعكس بالعكس (فمثلاً، كيف ينبغي معالجة الالتماسات غير المباشرة المُستمدَّة من «الواجب» («devoir»)، على غرار: «لا يجب أن تتكلَّم وفمك ملآن» («Tu ne dois pas parler la bouche pleine») و«أعليك حقّاً أن تتمخَّط بفوطتك؟» («Dois-tu vraiment te moucher dans ta serviette?»)، أو من الاقتراح، كما في الأمثلة التالية: «لِمَ لا تخرس؟» («Pourquoi est-ce que tu ne fermerais pas ta grande gueule?») و«أجدها فكرةً سديدةً لو تعدُّ المائدة» («Ce serait une bonne idée si tu mettais la table») و«متى ستذهب لزيارة الحلاَّق؟» («Quand est-ce que tu vas chez le coiffeur?»)، أو من العتاب، كما العبارة التالية: «ولكنَّك لم تقل لي ما الذي دفعك إلى مغادرة مدريد» («Mais tu ne me dis pas ce qui t'a fait quitter Madrid?»)، أو الإطراء، وهذا مثلٌ عليه:

باولا: عزيزي مارسيللو، أنتَ غايةٌ في اللُّطف، إجلب لي شيئاً أستلقي عليه.
كلوديا: عزيزي فرانكو، يبدو ذلك الشيء وكأنّه مظلَّةٌ كبيرةٌ. إنَّه كذلك حقّاً يا حبيبي، وأنا جادَّة في كلامي.
فرانكو: أتأمرانا مع أنَّكما حبيبتانا؟[194]).

(194) Georges et Odette Ulysse, *Vacanze a Roma: Première année d'italien*, classiques Hachette (Paris: Hachette, 1973), leçon no. 15.

PAOLA. - Caro Marcello, se fossi gentile, mi porteresti uno sdraio.

CLAUDIA. - Caro Franco, se mi aprissi l'ombrellone, saresti un amore. Non ci riesco.

FRANCO. - Comandate pure ragazze?

نستنتج بالتالي أنَّ براون وليفنسون قد أصابا في اعتبار أنَّ «أفعال الكلام غير المباشر لا تقتصر على الأفعال المُرتكزة على شروط النجاح التي أوجدها سيرل»(195).

2. وإليكم معياراً آخر أثاره غريس، ألا وهو: يكون الكلام المنطوق المُشتقّ الاتّفاقيّ، بخلاف غير الاتّفاقيّ، مستقلاً عن السياق الأدائيّ التعبيريّ.

ومع ذلك يتدخَّل السياق في طريقة عمل جملةٍ من مثل: «أتستطيع أن تمرِّر لي الملح؟» («Peux-tu me passer le sel?») التي نستطيع، لا بل ينبغي علينا، في بعض الظروف أن نؤوِّلها حرفيّاً، أي بكلام آخر أن نعتبرها بنيةً متعدَّدة الدلالات بحيثُ يتولَّى السياق مهمَّة انتقاء أيّ قيمةٍ ستتفعَّل في الخطاب من بين قيمتَيها الكلاميَّتَين المنطوقتَين الاستفهاميّة والإيعازيّة (أي الحرفيّة والمُشتقَّة).

إلاّ أنَّ دوره يقف عند هذا الحدّ، فتماماً كما يقتصر دور السياق في الاستعارة المُمَعجَمة على «توحيد سيمة» الوحدة المعجميّة المتعدِّدة الدلالات، في حين أنَّه يأخذ على عاتقه المعطيات الألسنيّة اللُّغويّة بغية البناء عليها بهدف توليد دلالاتٍ مُبتكرةً في حالة الاستعارة الابتكاريّة، كذلك فهو لا يصلح في حالة المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق المُمَعجَم إلاّ لانتقاء القيمة «الأنسب» من بين القيمتَين المتنافستَين والمُدرجتَين بالتساوي في اللّغة.

3. هنا يكمن وجه الاختلاف الوحيد والحقيقيّ بين نمطَي المحسن البيانيّ، ويتجلَّى على الشَّكل الآتي: في المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق الابتكاريّ، تُبصر القيمة المُشتقَّة النور أثناء تشكُّل الخطاب، في حين أنَّها تكون مُبلوَرةً أصلاً في اللّغة في حالة المحسن البيانيّ المُمعجم، وذلك كما يلي:

- فإمّا أن يطول هذا التقنين المُسبق، وبلا تمييزٍ، متتاليةً مُحدَّدةً على

(195) Brown et Levinson, «Universals in Language Usage: Politeness Phenomena.» in: Goody, ed., *Questions and Politeness: Strategies in Social Interaction*, p. 141.

الصعيد النحويّ والمعجميّ، كما في المثل التالي:

ليس والدك زجّاجاً ويعني ذلك: /انسحب من هنا، فأنت تحجب عنّي الـــرؤيـــة/[196] (Ton père n'est pas vitrier /Tire-toi de là, tu m'empêches de voir/)،

أو أيضاً كما في هذه التساؤلات الخَطابيّة الجامدة التي يأتي أنسكومبر[197] على ذكرها، ألا وهي:

أنّى لي أن أعرف أنا؟ (Est-ce que je sais, moi?)

كيف عليّ أن أتصرَّف حسب تصوُّرك للأمور؟ (Comment voulez-vous que je fasse?)

أسبق لك أن قابلت أبلهاً على شاكلته؟ (Avez-vous déjà vu un pareil abruti?)

ما حيلتي؟ (Qu'est-ce que j'en ai à fiche?)،

أو كما في هذين التساؤلَين اللّذَين يُشير إليهما مورغن[198]، ألا وهما:

هل جُننتَ؟ (Are you crazy?)

هل فقدت صوابك؟ (Have you lost your mind?)، إلى آخره.

● وإمّا أن تكون المسألة مسألة بنيةٍ مجرَّدةٍ يُمكن إطالتها بواسطة اللّوازم المُعجميّة المتغيِّرة - وبالتالي تُعتبر العناصر المسؤولة عن بروز القيمة المُشتقّة بمثابة «واسمات الاشتقاق الكلاميّ المنطوق». وهكذا، نجد في جملة «أتستطيع أن تمرِّر لي الملح؟» («Peux-tu me passer le sel?»)، وكذلك في الجُمل التي تكون ذات بنيةٍ شبيهةٍ، أنَّ قلب الضمير الفاعل وعلامة الاستفهام يُشكّلان على

---

(196) باديءَ ذي بدءٍ، تنطوي آليّة الاشتقاق على نقلٍ استعاريٍّ، مثلاً: «ليس والدك زجّاجاً»، وتعني: /لست لوح زجاج/ (أي، /لست شفّافاً أو شفّافةً/) («Ton père n'est pas vitrier»/tu n'es pas une vitre/ /tu n'es pas transparent(e))، وهو نقلٌ يتّصف بالغرابة بما أنّه يتظاهر بأنّه يُشبّه فعل الإنجاب بفعل إنتاج غرضٍ مُصنّعٍ ما على الشكل الآتي: لا يولّد الزجّاج سوى ألواح زجاج.

(197) Anscombre, «Voulez-vous dériver avec moi?,» p. 75.

(198) J. L. Morgan, «Two Types of Convention in Indirect Speech Acts,» in: Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics*, pp. 277-278.

الصعيد الخطّي (وتقابلهما نبرة الصوت الصّاعدة على الصعيد الشفهيّ) واسماً القيمة الكلاميّة المنطوقة الأوّليّة، بينما يقتضي اعتبار الفعل المُساعِد «استطاع» («pouvoir») وعَرَضيّاً التوسُّع «من فضلك» («s'il te plaît») بمثابة واسمَي القيمة المُشتقّة.

ويُشكّل رصد هذه الواسمات إحدى أبرز المهام التي يُصادفها البراغماتيّون «الاشتقاقيّون»، وعلى رأسهم أنسكومبر الذي يزعم أنّه قد حدَّد حتّى الآن بضع مئاتٍ منها[199]، علماً بأنّها مهمّة بالغة الدقّة وتتّصف بهامشٍ من الغموض، فمثلاً، يكفي أن نقارن، في العدد 32 من مجلّة *Communications*، معالجات روليه وأنسكومبر المُختلفة اختلافاً ملموساً مع أنّها تتناول وقائع متشابهةً (على غرار طريقة عمل الكلمات الذاتيّة من مثل «وَجَبَ» («devoir») و«استطاع» («pouvoir»)) بغية قياس مدى الشكوك التي يُعزى سببها من جملة أمورٍ عديدةٍ إلى الوقائع التالية:

● عدم مجانسة واسمات الاشتقاق هذه التي قد تكون ذات طبيعةٍ نحويّةٍ[200] أو معجميّةٍ أو نطقيّةٍ ـ وممّا لا ريب فيه أنَّ نبرات الصوت تؤدّي دوراً على جانبٍ كبيرٍ من الأهميّة في عمليّة تحديد المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق، من دون أن يحقّ لنا الجزم بأنَّ نبرة الصوت تكون «صائبةً» على الدوام، أي بكلام آخر، لا يحقُّ لنا الجزم بأنّها تتطابق دائماً والقيمة المُشتقّة، ولا القول بالتالي بأنَّ المحسن البيانيَ يُعَيِّنها دائماً، فغالباً ما تجري الأمور عكس ذلك، بحيث يرافق اللّحن الصّاعِد عمليّة إنتاج البنى الاستفهاميّة ظاهريّاً والتي تدَّعي في الواقع أنّها تعمل بمثابة الالتماسات والتأكيدات والإخبارات.

● إشكاليّة حصر العنصر المسؤول عن الاشتقاق بدقّةٍ فائقةٍ، الأمر الذي يتطلّب سلسلةً من التبديلات البالغة الدقّة على شاكلة تلك التي تطالعنا في حالة الجملة التالية:

أتفتح النافذة لو سمحت؟ («Voudrais-tu ouvrir la fenêtre?»)

---

(199) Anscombre, Ibid., p. 87.

(200) انظر على سبيل المثال إلى التحليل الذي يقترحه ديليه (Dillier, «Le Conditionnel, marqueur de dérivation illocutoire») الذي يتناول «صيغة الشرط كواسمٍ للاشتقاق الكلاميّ المنطوق».

(تسِمُ العلامة النجميّة المتتاليات التي يتعذَّر عليها أن تؤدِّي دور الالتماسات المتعادِلة غير المباشرة)، على الشَّكل المُبيَّن أدناه:

ألديك مانع أن تفتح النافذة؟ («Tu voudrais ouvrir la fenêtre?»)

هل لك أن تفتح النافذة؟ («Veux-tu ouvrir la fenêtre?»)

* افتح النافذة من فضلك («* Tu voudrais ouvrir la fenêtre»)

* افتح النافذة رجاءً («* Tu veux ouvrir la fenêtre»)

* أبوسعك أن تفتح النافذة؟[201] («* Serais-tu capable d'ouvrir la fenêtre?»)

* أعليك فتح النافذة؟ («* Devrais-tu ouvrir la fenêtre?»)

أوَليس عليك أن تفتح النافذة؟ («Ne devrais-tu pas ouvrir la fenêtre?»)

هلّا فتحت النافذة؟ («Pourrais-tu ouvrir la fenêtre?»)

أتستطيع أن تفتح النافذة؟ («Tu pourrais ouvrir la fenêtre?»)

هل تستطيع أن تفتح النافذة؟ («Peux-tu ouvrir la fenêtre?»)

أتتكرَّم وتفتح النافذة («Tu pourrais ouvrir la fenêtre»)

افتح النافذة إنْ شئت («Tu peux ouvrir la fenêtre»)، إلى آخره...،

وتنزعُ هذه الاستبدالات إلى إثبات أنَّ آليّة الاشتقاق تنطوي على النبرة الاستفهاميّة التي يُعزِّزها عند الاقتضاء قلب الضمير الفاعل (أي إنَّنا نستعيد في هذا الصدد واسم القيمة الكلاميّة المنطوقة الأوَّليّة بواسطة القيمة المُشتقَّة)، فضلاً عن طبيعة الفعل الذي يُعبِّر عن رأي ذاتيّ، وقد يكون، ناهيك عن فعل «رغبَ» («vouloir»)، فعل «استطاع» («pouvoir») أو حتّى فعل «وَجب» («devoir») ضمن نطاقٍ معيَّنٍ (على الرُّغم من اختلاف القواعد من حالةٍ إلى أخرى). ولا تشترك على ما يبدو عبارة «بوسعه أن» («être capable de») التي تقرب بمعناها الحرفيّ من فعل «استطاع» («pouvoir») وضع واسم الاشتقاق الكلاميّ المنطوق...

(201) واحتماليّاً، تعمل هذه الجملة عرَضاً بمثابة الالتماس غير المباشر ـ ولكنّها تغدو حينئذٍ محسناً بيانيّاً ابتكاريّاً.

أمّا صيغة الشرط، فمن شأنها ببساطةٍ أن تُلطِّف صياغة الالتماس التي تُتيح الصيغة الإخباريّة كذلك المجال للتعبير عنه وفق الشروط عينها.

● ويظهر من المثل الذي أوردناه سابقاً أنَّ باستطاعة الدالّ نفسه أن يُكدِّس عدَّة قِيَم، وأن يسِم بشكلٍ خاصٍّ القيمتَين الكلاميَّتَين المنطوقتَين الأوّليّة والمُشتقَّة في آنٍ. وبالعكس، غالباً ما نقع على قيمةٍ كلاميّةٍ منطوقةٍ واحدةٍ تكون مدعومةً من عدَّة عناصر تمتاز بطريقة عملها الأشبه بالشَّبكة.

● وإليكم إشكاليّةً وصفيّةً إيضاحيّةً أخرى، ألا وهي: ما هو بالضبط، في عبارة «أتفتح النافذة لو سمحت؟» («Voudrais-tu ouvrir la fenêtre?»)، وضع «واسم الاشتقاق» المؤلَّف من الفعل المُساعِد «سمحَ» («vouloir») المصوغ على شكل استفهام؟ ونقول بكلام آخر، ما يلي: كونه من المهمّ، وهذا أمرٌ يسيرٌ نسبيّاً، أن نفصّل في المحسنٍ البيانيّ الاستعاريّ أو التهكُّميّ، موضع القول حيث يتفعَّل المحسن البيانيّ (على غرار: «ما أجمل هذا الطقس!» («Quel *joli* temps!»)) عن الدلائل السياقيّة الحاليّة النصيّة أو السياقيّة أو الهامشيّة النصيّة التي تُبيِّنه باعتباره كذا، فهل ينبغي بالتالي أن نعتبر الفعل «استطاع» («pouvoir»)، في إطار المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق المطروح، بمثابة إحدى ركائز القيمة المُشتقَّة الدالَّة، أو باعتباره مجرَّد دليلٍ سياقيٍّ حاليٍّ نصيٍّ على آليّة الاشتقاق، مثلما يقترحه أنسكومبر[202] (قائلاً: «لا تشير هذه الواسمات، بخلاف دمغات العناصر الأوّليّة، على الفعل بل على الآليّة التي تفضي إليه. وعليه، ليست الواسمات دمغات أفعالٍ»)؟ وبموازاة ذلك، في حال كان علينا أن نحلِّل محتوى قولٍ من مثل القول الذي أوردناه سابقاً، حين يكتسب قيمته الأوّليّة، على المنوال الآتي:

المحتوى الجُمَيليّ، وهو: /أنتَ سَمَحَ فتح النافذة/ (/toi vouloir ouvrir la fenêtre/)

القيمة الكلاميّة المنطوقة: وهي سؤالٌ (وواسماه هما: قلب الفاعل + علامة الاستفهام «؟»)،

فهل يترتَّبُ علينا، عندما يعمل هذا القول بمثابة الالتماس، أن ندمج

---

(202) Anscombre, Ibid., p. 87.

محتوى الفعل «سمح» («vouloir») بالمحتوى الجُمَيليّ أم علينا استبعاده عنه؟ وفي حال اعتمدنا المعالجة الأولى، تُضاف القيمتان الكلاميّتان المنطوقتان الأوّليّة والمُشتقَّة إلى المحتوى الجُمَيليّ نفسه في حالة الاشتقاق الاتّفاقيّ، في حين ترتبط عموماً القِيَم المُشتقَّة غير الاتّفاقيّة بالمحتويات الجُمَيليّة التي تختلف بوضوح عن المحتوى الجُمَيليّ الذي يتناسب والقيمة الكلاميّة المنطوقة الأوّليّة (وهذا مثلٌ على ذلك: «الحرّ شديدٌ هنا!»، ويعني ذلك ضمناً / افتح النافذة/ / !Il fait chaud ici) .Ouvre la fenêtre/)

4. أمّا بالنسبة إلى معيار تسلسل الكلام، فهو يتيح المجال في كشف النقاب عن وجود المحسن البيانيّ سواء أكان اتّفاقيّاً أم لا. بيد أنّه لا يصلح لوضع نمطَي المحسن البيانيّ اللّذَين نسعى إلى التمييز بينهما في هذا الصدد، إلاّ عبر إعادة توضيح وجهة نظرنا على الشّكل الآتي: يتحتَّم علينا «طبيعيّاً»، في حالة المحسن البيانيّ المُمَعجَم، أن نسلسل الكلام عقب القيمة المُشتقَّة؛ بينما يترتَّب علينا «طبيعيّاً» في حالة المحسن البيانيّ الابتكاريّ، أن نسلسل الكلام عقب القيمة الأوّليّة، مع أنّنا أحياناً نُسلسل الكلام فيه استثنائيّاً عقب القيمة المُشتقَّة.

وفي الواقع قد تتماهى من هذا المنظار الأوامر المُشتقَّة الاتّفاقيّة(203) مع الأوامر الأوّليّة، وهذه بعض الأمثلة:

أقفل الباب، كي أتمكَّن من العمل («Fermez la porte, pour que je puisse travailler»)

أتقفل الباب لو سمحت، كي أتمكَّن من العمل؟ («Pouvez-vous fermer la porte, pour que je puisse travailler?»)

إرمِ القُمامة، بما أنّه دورك («Descends la poubelle, puisque c'est ton tour. »).

أبوسعك أن ترمي القُمامة، بما أنّه دورك؟ («Peux-tu descendre la poubelle, puisque c'est ton tour?»)

هل لك أن ترمي القُمامة، بما أنّه دورك؟ («Veux-tu descendre la poubelle, puisque c'est ton tour?»)

---

(203) Roulet, «Stratégies d'interaction, modes d'implicitation et marqueurs illocutoires,» p. 85, et Anscombre, Ibid., p. 92.

أودُّ لـو تـرمي الـقُـمامـة، بـمـا أنَّـه دورك («J'aimerais que tu descendes la poubelle, puisque c'est ton tour»)،

ولكِّنها تتعارض مع الأوامر المُشتقَّة غير الاتِّفاقيّة، على غرار الأمثلة التالية:

* ثمّة مجرى هواءٍ، يمنعني من العمل («* Il y a un courant d'air, pour que je puisse travailler»)

* فـليـرمِ أحدٌ الـقُـمامـة، بـمـا أنَّـه دورك («* Qu'on descende la poubelle, puisque c'est ton tour»)

* صـنـدوق الـقُـمـامـة مـمـتـلـئ، بـمـا أنّـه دورك («* La poubelle est pleine, puisque c'est ton tour»)

* أنا مَن يرمي دائماً القُمامة، تفضَّل بما أنَّه دورك («* C'est toujours moi qui descends la poubelle, puisque c'est ton tour»).

ونستنتج ممّا تقدَّم أنّه «يتعذَّر» على متكلِّم واحدٍ «أن يُسلسل الكلام عقب اشتقاقاته الخاصَّة ما لم تكن هذه الاشتقاقات ًموسومةً» أيّ اتِّفاقيّةً، وهذه هي الخطوة الوحيدة التي مرّ عليها أنسكومبر مرور الكرام من دون أن يتمعَّن فيها. وإنْ كان صحيحاً أنَّ التسليم بتسلسلات الكلام التي أشرنا إليها في الأمثلة الآنفة الذكر بعلامة النجميّة يطرح صعوبةً فعليّة(204)، إلاّ أنّه في الواقع، وخِلافاً لما يرد في شرح أنسكومبر العامّ جدّاً، قد يُسلسل المتكلِّم شخصيّاً عقب «كلامه التلميحيّ» الخاصّ. وعليه، يُشير تسلسل الكلام «غير السويّ» إلى وجود «محسنٍ بيانيٍّ ابتكاريٍّ»، كما هو الحال في هذه الأمثلة المُختلفة التي تحتوي على توجيهاتٍ غير مباشرةٍ (إيجابيّةً كانت أم سلبيّةً) مأخوذة من دار السينما هذه أو من الحانة الصغيرة تلك أو من المطعم ذاك، ألا وهي:

إنَّ الـبـقـشـيـش هـو أجـر الـعـامـلـة. وشـكـراً («Le pourboire est le salaire de l'ouvreuse. Merci»).

مدخل المطابخ. وشكراً («Entrée des cuisines. Merci»).

(204) تُفهم بانتظام العبارة المألوفة «أستترجّلون؟» («Vous descendez?») حينَ يتمّ الإدلاء بها في القطار على أنّها تعني «أنا سأترجّلُ» («Je descends»). ومع ذلك يُصار دائماً إلى التعقيب على القيمة الحرفيّة.

مدخل مُخصَّص لطاقم العمل. وشكراً («Accès reservé au personnel. Merci»)

مكانٌ خاصٌّ رجاءً («Privé s.v.p.»).

(2) المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق الابتكاريّ.

وهو يتعارض مع المحسن البيانيّ المُمعجم، ولكنّه يقترب من الاشتقاق التلميحيّ، باعتبار أنَّ القيمة المُشتقَّة لا تكون مُدرجةً في اللّغة بواسطة واسمٍ خاصٍّ (أو أكثر) يكون مرمَّزاً فيها حسب الأصول.

كما يتعارض مع الاشتقاق التلميحيّ، في حين أنّه يقترب من المحسن البيانيّ المُمَعجم، نظراً إلى أنَّه يُصار فيه إلى تفعيل القيمة المُشتقَّة من باب الأولويّة، وإنَّ تسلسل الكلام هو خير شاهدٍ على ذلك.

لا تشرَعُ القيمة المُشتقَّة غير الاتِّفاقيّة، والتي تكون تلميحيّةً عموماً نظراً إلى الوضع الذي تتَّخذه في اللّغة، بالعمل على الصعيد البيانيّ إلاّ في طور تفعيلها الخطابيّ فقط لا غير.

وإنَّ هذا الواقع ثابتٌ فعلاً:

1. فإمّا أن يُشير المتكلِّم بنفسه إلى أنَّ المتتالية التي سينطق بها أو قد نطق بها للتوّ هي محسنٌ بيانيٌّ، على غرار الأمثلة التالية:

مكانٌ خاصٌّ رجاءً («Privé s.v.p.»)

مدخل المطابخ. وشكراً («Entrée des cuisines. Merci»).

من فضلك أنا أتضوَّر جوعاً. وشكراً. (كُتبت هذه العبارة بالطبشور في أحد أروقة قطار الأنفاق) («J'ai faim s.v.p. Merci. (inscription à la craie dans un couloir de métro))

من فضلك، لقد دقَّت الساعة الثامنة[205] («S'il te plait, il est huit heures!»)

---

(205) لقد نبّه كلّ من غوردون ولاكوف (Gordon and Lakoff, «Conversational Postulates,» in: Cole and Morgan, eds., *Syntax and Semantics. 3, Speech Acts*, p. 98) أنّه لا يُمكن لعبارة «رجاءً» («Please») أن تصحب الالتماس المباشر غير الاتّفاقيّ ما لم تُدرج في مستهلّ الجملة، على غرار الأمثلة التالية:

(i) هلاّ أقفلت النافذة، رجاءً؟ («Would you shut the window please?»)

(ii) رجاءً، هلاّ أقفلت النافذة؟ («Please, would you shut the window?»)

(iii) * البرد قارسٌ هنا رجاء («* It's cold in here please.»)

(iv) رجاءً، البرد قارسٌ هنا («Please, it's cold in here.»)

وقِس على ذلك العبارة الفرنسيّة التالية «من فضلك/ من فضلكم» («S'il te/vous plaît»)، ممّا يخوّلنا استعمال=

اعذرني، ولكنّها الساعة الثامنة! («Excuse-moi, mais il est huit heures!»)،

أو أيضاً هذان التساؤلان الخَطابيّان اللّذان يُثبت تسلسلهما الكلاميّ البرهانيّ أنّه يتعيّن اعتبارهما تأكيديَين إخباريّين، ألا وهما:

المثل الأوّل: أبوسعنا أن نُبرّر التراجع الذي تشهده اليوم الثقافة الحقيقيّة باسم التحوُّلات الغربيّة؟ في الواقع، تنشأ جرّاء وَهْم التقدُّم هذا نزعةٌ مُحافظةٌ تُنذر بالخطر[206] («Peut-on aujourd'hui justifier la régression de la véritable culture au nom des transformations occidentales? En effet, cette illusion de progrès sert en fait l'établissement d'un conservatisme alarmant).

المثل الثاني: ما نفع المئة سنة، بل ما نفع الألف سنةٍ، بما أنَّ لحظةً واحدةً كفيلةٌ بمحوها؟[207] («Qu'est-ce que cent ans, qu'est-ce que mille ans, puiqu'un seul moment les efface?).

2. أو أن يُثبتَ تسلسل الكلام الذي يُنتجه المخاطب، وهو أمرٌ شائعٌ أكثر، أنّه عمدَ إلى تأويل القول السابق الذي أدلى به المتكلّم باعتباره محسناً بيانيّاً - كأن يؤوِّل على سبيل المثال أقوالاً تقريريّة ظاهريّاً باعتبارها اقتراحاتٍ، وهذه بعض الأمثلة:

المثل الأوّل: المتكلّم: عجباً، يُعاد تمثيل «**في مهبّ الريح**».

المخاطب: البرد قارس إنْ أردت رأيي[208].

(«L_1. - Tiens, on rejoue «Autant en emporte le vent».

L_2. - Il fait bien froid, si tu veux mon avis»).

المثل الثاني: المتكلِّم: إنَّ هذا الفيلم السينمائيّ شائِق على ما يبدو.

المخاطب: سبق لي أن شاهدته في السينما[209].

= هذا المعيار لكي نُميّز، في حالة الالتماس غير المباشر، المحسن البيانيّ المُعجَم (كما هو الحال في المثلَين الأوّل (i) والثاني (ii)) عن المحسن البياني الابتكاريّ (كما هو الحال في المثلَين الثالث (iii) والرابع (iv)).

(206) إيجاز نصّ من مسابقة تلميذ.

(207) نقلاً عن: Jacques Bénigne Bossuet, *Sermon sur la mort, et autres sermons*, Garnier-Flammarion. Texte intégral, 231, chronologie, préf., et bibliographie par Jacques Truchet ([Paris]: Garnier-Flammarion, [1970]), p. 135.

وثمّة تأويل آخر يمكننا اعتماده في هذَين المثلَين، ومفاده أن نعتبر أنّ الجُميلة المُضمَرة التالية: «قد يتبادر إلى ذهننا هذا السؤال...» («on peut se poser la question...») هي بمثابة ركيزة التلاقي الخاصّة بالجملة التابِعة.

(208) نقلاً عن: Anscombre, «Voulez-vous dériver avec moi?,» p. 92.

(209) Oswald Ducrot, «Les Lois de discours,» *Langue française*, no. 42 (mai 1979), p. 22.

(«L_1. - Il parait que ce film est intéressant.
L_2. - J'y suis déjà allé»).

المثل الثالث: المتكلِّم: أرغب في السباحة.

المخاطب: أسناني تؤلمني[210]،

(«L_1. - J'ai envie de nager.
L_2. - J'ai mal aux dents»),

أو أن يؤوِّل أقوالاً استفهاميّة ظاهريّاً («على الصعيد الشفهيّ») باعتبارها تأكيداً وإخباراً، كما هو مُبيَّنٌ في المثل الآتي:

المتكلِّم (أثناء تقديم عرضٍ حول موضوع قواعد اللّغة التوليديّة): يتعيَّن أن يكون العنصر الممحو بواسطة التّحويل قابلاً للاستعادة.

المخاطب: أيمكنك أن تضرب مثلاً على ذلك؟

المتكلِّم: حسناً، أجل، على سبيل المثال...

(«L_1 (au cours d'un exposé sur la grammaire générative) - L'élément effacé par transformation doit être récupérable.
L_2. - Vous pourriez donner un exemple?
L_1. - Ben si, par exemple...»)

(وعليه، يؤوِّل المتكلِّم سؤال المخاطب باعتباره دحضاً. وبالتالي، فإنْ ماثلنا هذا الواقع الثابت مع المثل الآنف الذكر الذي جاء به بارت، ألا وهو: «ما جدوى الألسنيّة؟» («A quoi sert la linguistique?»)، نلاحظ أنَّه في حال كان حريّاً بتسلسل الكلام الأكثر طبيعيّةً الذي يعقب مثل هذه المتتالية أن يرتكز فعليّاً على محتواها الحرفيّ - أي بكلام آخر في حال كانت المسألة تتعلَّق عموماً باشتقاقٍ تلميحيّ -، فلا يجب أن نَستبعد كليّاً إمكانيّة أن نجعل منه محسناً بيانيّاً كلاميّاً منطوقاً، وأن نردَّ عليه باعتباره تأكيداً وإخباراً جدليّاً).

وإليكم المزيد من الأمثلة:

المثل الأوَّل: المتكلِّم (في خضمّ نقاشٍ دار على قناة France-Musique): حسناً، ولكن كم من الأشخاص يتمتَّعون بصوتٍ جميلٍ في بداية مسيرتهم الفنيّة؟

المخاطب: آه، بلى، بلى، بلى، بلى!

---

(210) مُقتبس عن: Michel Charolles, «La Natation: Propos et usages de pensée que l'on rencontre couramment sur ce sujet,» 1980 texte ronéoté, p. 46.

(«L_1 (lors d'un débat sur France-Musique). - D'accord, mais combien de gens ont une belle voix au départ?

L_2. - Ah si si si si!)

المثل الثاني: المتكلِّم: أيُعقل أن يخال المرء نفسه هنا على بعد ساعتَين من نيويورك.

المخاطب: هذا صحيحٌ تماماً.

(«L_1. - Est-ce qu'on peut se croire ici à deux heures de New York?

L_2. - C'est bien vrai!)

المثل الثالث: المتكلِّم: إلى أين تخالُني ذاهباً؟

المخاطب: ولكن أجل، فأنا أعرف حق المعرفة!

(«L_1. - Où veux-tu que j'aille?

L_2. - Hé oui, je sais bien!)

المثل الرابع: لوفير: هل ثمّة مكانٌ أشدّ كآبةً من حانة؟

الفتى: بالضبط[211]

(LEVERT. - «Est-ce qu'il existe un endroit plus cafardeux qu'un bar?

LE GARCON. - Justement!»).

المثل الخامس: جيرونت: ولكن بحقّ السماء، ما الذي دفعه إلى هذا المركب؟

سكابين: أنت على صوابٍ، ولكن أسرع.

جيرونت: ألم يكن ثمّة أمكنةُ أخرى للتنزُّه؟

سكابين: هذا صحيحٌ. ولكن بسرعةٍ[212].

(GÉRONTE. - «Que diable allait-il faire à cette galère?

SCAPIN. - Vous avez raison, mais hâtez vous.

GÉRONTE. - N'y avait-il point d'autres promenade?

SCAPIN. - Cela est vrai. Mais faites promptement»).

وإليكم المزيد من الأمثلة التي تتناول طرق عملٍ مماثلةٍ، ألا وهي:

---

(211) نقلاً عن: Robert Pinget, *Lettre morte* (Paris: Editions de Minuit, 1959).

(212) مثلٌ مأخوذٌ من المشهد السابع من الفصل الثاني من مسرحية **مكر سكابين** (Molière, *Les Fourberies de Scapin*).

المثل الأوّل: المتكلّم (الذي يمدُّ إليه المخاطب علبة سجائره شبه الفارغة): لم يعد لديّ الكثير منها (ويعني ذلك: /أخجل أن . . ./).

المخاطب: ولكن بلى!

(L_1 (à qui L_2 vient de tender son paquet de cigarettes, presque vide). - Y en a plus beaucoup! (/je n'ose pas.../).

L_2. - Mais si!).

المثل الثاني: المتكلّم (وقد عيل صبره بما أنَّه كان قد ارتشف قهوته حتّى آخر نقطةٍ، بينما المخاطب كان لا يزال يُحرِّكُ ملعقته في الكوب بهدوءٍ): أساخنةٌ هذه القهوة؟

(ويعني ذلك: /ألهذا السَّبب لم تشرب بعد قهوتك؟/

/لِمَ لا تشرب قهوتك؟/

/فلتشرب قهوتك لأنّنا على عجلةٍ من أمرنا!/)

المخاطب: لدينا متّسعٌ من الوقت.

(L_1 (impatiemment: il a déjà avalé son café, cependant que L_2 tourne paisiblement sa cuillère dans la tasse). - Il est chaud ce café?

(/est-ce la raison pour laquelle tu ne bois pas ton café?/

/pourquoi ne bois-tu pas ton café?/

/bois donc ton café, on est pressés!/

L_2. - On a le temps!)

المثل الثالث: المتكلّم: كم الساعة الآن؟

المخاطب: حسناً، ها أنذا قادمٌ.

(L_1. - Quelle heure est-il?

L_2. - O.K. j'arrive!).

ملاحظات

- قد يتّخذ تسلسل الكلام الذي يفضح وجود المحسن البيانيّ شكل التعليق الألسنيّ الانعكاسيّ البيِّن بمنتهى الوضوح والذي يكون:

1. إمّا صادراً عن المتكلِّم نفسه، كما في المثل التالي:

المتكلِّم: هنري حانقٌ عليك.

المخاطب: هذا لسان حالي أيضاً.

المتكلِّم: ليس هذا بجوابٍ!

(«L_1. - Henri se fait du mauvais sang pour toi.

L_2. - Moi aussi.

L_1. - C'est pas une réponse ça!»)

ونستنتج بالتالي أنَّ المتكلِّم يُقرُّ بوجوب أخذ تعليقه السابق باعتباره سؤالاً أو بالأحرى استفساراً[213]،

2. أو صادراً على لسان المخاطب، وهذا مثلٌ على ذلك:

المتكلِّم: أنا مَن رمى القُمامة في المرَّة السابقة.

المخاطب: لست مخوَّلاً إصدار الأوامر لي.

(«L_1. - C'est moi qui ai descendu la poubelle la dernière fois.

L_2. - C'est pas à toi de me donner des ordres»).

ـ وبالعكس، قد يكتنف الغموض تسلسل الكلام، فيُمسي مُستحيلاً معرفة ما إذا كان قد تمّ تأويل القول بيانيّاً أم لا، وإليكم هذا المثل:

المتكلِّم: أكنتَ على علمٍ بأنَّ بيار قد لَصق مجدَّداً؟

المخاطب: (1) بلا مزاح! [= وهذا ردٌّ على التأكيد والإخبار: أي أنَّه تأويلٌ بيانيٌّ]

(2) لا! [وهذا جوابٌ يكتنفه الغموض ـ شرط ألاّ تكون نبرة الصوت هي هي في كلتا الحالتَين].

(«L_1. - Tu savais que Pierre s'était encore fait coller?

L_2. - (1) Sans blague! [= réponse à l'assertion: interprétation tropique donc]

(2) Non! [= réponse ambiguë - à moins que l'intonation ne soit pas la même dans les deux cas]»).

وتجدر الإشارة إلى وجوب تمييز الجواب المتساوي الحدَّين عن الجواب المزدوج الذي يُدلي به المخاطب مثلاً في معرض الردّ على السؤال الاقتراحيّ الذي يطرحه المتكلِّم في المثل الآتي:

---

(213) وهو مثلٌ مأخوذ عن كلود سوتيه (Claude Sautet) من كتابه **سيزار وروزالي** (*César et Rosalie*).

المتكلِّم: هل لديك وسيلة نقلٍ؟

المخاطب: نعم، شكراً!

(«L_1. - Vous êtes motorisée?

L_2. - Oui merci!»).

- قد يتَّصفُ التأويل البيانيّ في إطار السياق بالعفويّ بدرجات متفاوتةٍ. إلاّ إنَّ هذا التأويل، حتّى عندما يَفرِضُ نفسه بمنتهى الوضوح، لا يكون قطّ مُلزِماً بقدر ذلك الذي يُمَيِّز المحسن البيانيّ المُمَعجَم.

ممّا يسمح:

1. للمتكلِّم بإنكار القيمة البيانيّة التي تتحلّى بها المتتالية التي نطق بها للتوّ، كما في المثل الآتي:

المتكلِّم: إذا ما اتَّحدت المنظَّمات النقابيّة كافَّةً، ألا تسير الأمور إلى الأفضل؟

المخاطب: أنت مَن يزعم ذلك.

المتكلِّم: ولكنّني أطرح هذا السؤال وحسب[214].

(«L_1. - Si toutes les organisations syndicales se concertaient, est-ce que ça n'irait pas mieux?

L_2. - C'est vous qui le dites!

L_1. - Mais je pose la question!»).

2. وللمخاطب بأن (يتظاهر بأنَّه) قد فاته إدراك المحسن البيانيّ الذي يُنشئه قول المتكلِّم، وأنَّه فهمه بمعناه الحرفيّ، كما في المثل الآتي:

المتكلِّم: صندوق القُمامة مُمتلئ.

المخاطب: صدقت!

(«L_1. - La poubelle est pleine.

L_2. - C'est vrai»).

كلّما كان المحسن البيانيّ أكثر جلاءً، كان من الغباء أو من سوء النيَّة أخذه

---

(214) هذا مُقتطفٌ من مقابلة أجراها جيلبير دينويان (Gilbert Denoyan) - المتكلِّم - مع أندريه بيرغورون (André Bergeron) على قناة France-Inter، نهار 19 أيّار/ مايو عام 1981.

بمعناه الحرفيّ ـ وصولاً إلى حدّ توليد أثرٍ هزليٍّ. وإليكم ختاماً هذَين المثلَين اللّذَين يتناولان مقامَين ثابتَين حيث يؤكّد الضحك على عدم التوصُّل إلى تحديد التساؤل البلاغيّ، مع الإشارة إلى أنَّ هذا الإخفاق في التحديد هو مُصطنعٌ في المثل الأوَّل وصادقٌ في المثل الثاني، ألا وهما:

المثل الأوّل: المتكلِّم (وهو مُرشدٌ سياحيٌّ أثناء جولةٍ في أحد القصور المحصَّنة): أيُعقل أن نتصوَّر أنَّ هيكليّة البناء هذه لا تنوء تحت ثقلٍ يفوق الأربعة أطنانٍ من الرصاص.

المخاطب (وهو سائحٌ يتمتَّع بروح النكتة): كلا!

(«L_1 (guide faisant visiter un château fortifié). - Peut-on s'imaginer que cette charpente supporte plus de quatre tonnes de plomb?

L_2 (visiteur spirituel). - Non!»).

المثل الثاني: المُمتحن: آنستي! اعذريني للمقاطعة، ولكن هل من الضروري حقّاً، بغية وصف الشفويات اللّهويات في اللّغة اللاتينيّة، أن تتطرَّقي إلى النظام اليونانيّ بحذافيره؟

الطالبة المُتقدِّمة للامتحان: نعم!

(«L'EXAMINATEUR. - Mademoiselle, excusez-moi de cette interruption, mais est-il vraiment nécessaire, pour décrire les labio-vélaires en latin, d'évoquer in extenso le système grec?

LA CANDIDATE. - Oui!»).

خلاصات

«ما دمنا نجهل ما إذا كان القول ينطوي على نصيحةٍ أو على توعُّدٍ، وما دمنا لا نعلم على أيّ محملٍ يقتضي أخذه، فمن البديهيّ أن نعجز عن استيعاب معناه الكليّ وأن يفوتنا فهم جزءٍ من دلالته»[(215)]. وعليه، يتحتَّم على أيّ نموذجٍ تأويليٍّ تالٍ أن يكون مُزوَّداً بوسائل لوصف القيمة (أو القِيَم) الكلاميّة المنطوقة التي تُميِّزُ القول، وذلك أسوةً بمحتواه الجُمَليّ.

ولقد اعترفنا بقدرة هذه القِيَم الكلاميّة المنطوقة على اتّخاذ الأوضاع المختلفة التالية:

---

(215) Récanati, *La Transparence et l'énonciation: Pour introduire à la pragmatique*, p. 156.

- قِيَم كلاميّة منطوقة أوّليّة = وهي قِيَمٌ «حقيقيّةٌ» تملكها بُنيةٌ معيَّنةٌ في اللّغة، وتكون «موسومةً» (بواسطة عبارةٍ إنشائيّةٍ أو «شكل جملةٍ»)، أي إنّها بكلامٍ آخر تكون مزوَّدةً بترسيخٍ مباشرٍ؛

- قِيَم كلاميّة منطوقة اتّفاقيّة = وهي قِيَمٌ «غير حقيقيّةٍ» مع أنّها تكون مُدرجةً في اللّغة (أي إنّها «اشتقاقاتٌ لغويّةٌ»)، ويتمّ ترسيخها ترسيخاً مباشراً. فضلاً عن أنّها تُنشئ لدى تفعيلها محسناً بيانيّاً كلاميّاً منطوقاً مُمعجماً يخضع تأويله أسوةً بتأويل المحسنات البيانيّة كافَّةً إلى القواعد العامَّة الرامية إلى توحيد سيمة المتتاليات المتعدِّدة الدلالات (أو المتعدِّدة السيمات)؛

- قِيَم كلاميّة منطوقة غير اتّفاقيّة (أي إنّها «اشتقاقاتٌ خطابيّةٌ») = وهي قِيَمٌ مُضمَّنةٌ يُصار إلى ترسيخها ترسيخاً مباشراً (وهي غير موسومةٍ)،

- وتبقى هذه القِيَم تضمينيّةً في الاشتقاق التلميحيّ،

- في حين أنّها تغدو تعيينيّةً في حالة المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق الابتكاريّ (وقد تُشكِّل عندئذٍ قاعدةً يرتكز عليها تسلسل الكلام)، ويُمكننا تبيين وضع القِيَم الكلاميّة المنطوقة المُشتقَّة المُقارَن على الشكّل المُبيَّن في الجدول التالي:

	المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق المُعجَم	المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق الابتكاريّ	الاشتقاق التلميحيّ
موسومة	+	–	–
تعيينيّة	+	+	–

ونستنتج بالتالي أنّ القِيَم الكلاميّة المنطوقة المُشتقَّة تتّحد مع إشكاليّة التضمين وكذلك مع إشكاليّة المحسن البيانيّ. وقد نوّه عدّة منظِّرين بهذا الأمر، إلاّ أنّهم كانوا يُشدِّدون عموماً وبشكلٍ حصريٍّ على واحدٍ دون الآخر من هذَين المظهرَين. وهكذا نجد في المقالة التي كتبها بايسون تحت عنوان: «في التضمين أو التواصل المُضمَر» («De la connotation ou communication implicite»)، أنّ المسألة تتعلّق في الواقع بإشكاليّة الكلام المنطوق المُشتقّ (انطلاقاً مثلاً من واقع أنّ عبارتَي «سيهطل المطر» («Il va pleuvoir»)

و«أحدهم يقرع الجرس يا أمّي» («Maman on sonne») تنطويان أحياناً على التضمينَين التاليَين: «خذ مظلّتك» («Prends ton parapluie») و«افتحي الباب» («Va ouvrir la porte»). والحال أنَّ هذه المماثلة بين القِيَم الكلاميّة المنطوقة المُشتقَّة والتضمينات لا تصلح إلاّ في حالة الاشتقاق التلميحيّ، في حين أنّها تفقد ملاءمتها في حالة المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق. أمّا سيرل[216]، فيُقارن بالعكس أفعال الكلام غير المباشر بالتهكّم والاستعارة، قائِلاً: «قد يقصد المُتكلّم على سبيل المثال معنى مغايراً عن معنى الجملة التي يتفوّه بها، كما هي الحال مع الاستعارة، أو قد يودُّ أن يقول عكس ما تنطوي عليه الجملة من معنى، على غرار التهكّم، أو حتّى إنَّه قد يودُّ أن يفيد بمعنى الجملة مضافاً إليه معنى آخر، كما في العلاقات التضمينيّة التحادثيّة وأفعال الكلام غير المباشر». إلاّ أنّه يرسم في معرضٍ آخر حدود مثل هذا التماثل مُستخدماً التعابير التالية: «ثمّة تباينٌ جذريٌّ قائمٌ بين أفعال الكلام غير المباشر من جهةٍ وبين التهكّم والاستعارة من جهةٍ أخرى، ففي فعل الكلام غير المباشر، ينشد المتكلّم قول ما يُدلي به، ولكنَّه بالإضافة إلى ذلك، يرغب في قول أمرٍ آخر بعد»[217]. وبالتالي فمن وجهة نظر سيرل، تُضاف ببساطةٍ القِيَم الكلاميّة المنطوقة المُشتقَّة إلى القيمة الأوّليّة، من دون أن تتوصّل مطلقاً إلى أن تقوم مقامها. وفي الواقع، تُشكّل هذه الميزة إحدى المزايا التي تطبع الاشتقاق التلميحيّ، ولكنّها لا تتكيّف على ما يبدو وحالة «المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق»، بحيثُ نجد أنفسنا مرغمين على أن نسلسل الكلام عقب القيمة المُشتقَّة وحدها في حالة المحسن البيانيّ المُمعجَم، كما أنّنا نسلسلُ في الواقع الكلام عقب هذه القيمة نفسها في حالة المحسن البيانيّ الابتكاريّ. وممّا لا شكّ فيه أنَّ القيمة الأوّليّة لا تُمحى كليّاً، إذ لا مفرّ من المرور عبرها لبلوغ القيمة المُشتقَّة التي تظهر، حتّى بعد البلوغ إليها، بمظهر الأثر التضمينيّ (على غرار تلطيف فعل الالتماس). ولا تختلف هذه الآليّة بشيءٍ عن تلك التي تطبع كذلك كلّ المحسنات البيانيّة الأخرى التي تتميّز قاطبةً بواقع أنَّ محتواها المُشتقّ لا يبقى تعيينيّاً بل يغدو عندئذٍ «موضوع الخطاب

(216) John R. Searle, «Le Sens littéral,» *Langue française*, no. 42 (mai 1979), p. 35.

(217) Searle, *Sens et expression: Etudes de théorie des actes de langage = Expression and Meaning*, p. 162.

الكلاميّ الأساسيّ الواجب نقله»، من دون أن يُطيح بالمحتوى الأوّليّ كليّاً (إذ إنَّ المحسن البيانيّ لا يتساوى مطلقاً وترجمته بتعابير غير بيانيّة).

وإنَّ معالجة قولٍ من مثل «أتستطيع أن تُمرِّر لي الملح؟» («Peux-tu me passer le sel?») معالجة المحسن البيانيّ، تُعدُّ برأينا إحدى الحلول الناجعة التي تسنح بإبراز طريقة عمله الغريبة والمُفارِقة نوعاً ما. وقد سلَّط بعض البراغماتيّون ومن جملتهم مورغن[218] وبراون وليفنسون[219] الضوء على هذه الميزة، كلٌّ على طريقته طبعاً وبحسب مصطلحيّته الخاصّة، فبالنسبة إلى مورغن، إنَّ الإشكاليّة التي تطرحها عبارة «أتستطيع أن تُمرِّر لي الملح؟» («Can you pass the salt?») هي كالآتي: إنَّ قيمة الالتماس هي غير مباشرةٍ وحرفيّةٍ في آنٍ في هذا القول، كما و«يُمكن حسابها» (بفضل بعض القواعد التحادثيّة)، مع أنَّنا لا نتوصَّل فعليّاً إلى حسابها حساباً دقيقاً (إذ إنَّنا نستخرجها بشكلٍ مباشرٍ وفوريٍّ من القول). وعليه، تتعلَّق المسألة هنا بنوعٍ خاصٍّ من الاستلزامات الخطابيّة التي سرعان ما «يقطع» الاستعمال «الطريق عليها».

في حين يخلص كلّ من براون وليفنسون، إثر وضعهما نمطين من الاستراتيجيّات التواصليّة إحداها في مواجهة الأخرى، ألا وهما: الاستراتيجيّة «المُسجَّلة رسميّاً» (on-record) (وهي صريحةٌ وشفّافةٌ) والاستراتيجيّة «غير المُسجَّلة» (off-record) (التي يتّصف بها السرّ والتلميح)، وسعيهما جاهدَين انطلاقاً من هذا المنظور، إلى تحديد وضع قولٍ يُشبه القول التالي: «أتستطيع أن تُمرِّر لي الملح؟» («Peux-tu me passer le sel?»)، إلى الاستنتاج الآتي: «ما يُبرِّر الإدلاء بمثل هذه العبارات [...] إنّما هي رغبة المتكلِّم في التعبير بشكلٍ غير مباشرٍ، علماً بأنَّه يتمّ في الواقع تسجيل ما يتفوَّه به»[220]. وبالتالي، فالمسألة هنا هي مسألة بنى هجينةً، لا بل «مُنفِّرةً»، تُشكّل حلاً وسطاً بين «النزوعَين المتعارضَين» الموجودَين جنباً إلى جنب لدى المتكلِّم، ألا وهما: نزوعٌ إلى الوضوح، ونزوعٌ إلى التعمية... ويتحدَّث براون وليفنسون بهذا الخصوص عن

---

(218) Morgan, «Two Types of Convention in Indirect Speech Acts,» in: Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics*.

(219) Brown et Levinson, «Universals in Language Usage: Politeness Phenomena,» in: Goody, ed., *Questions and Politeness: Strategies in Social Interaction*.

(220) المصدر نفسه، ص 138.

«صراع الرغبات» (clash of wants). وتجدر الإشارة إلى أنّنا سنعالج عمّا قريبٍ وبطريقةٍ مماثلةٍ المحسن البيانيّ بمجمله بفضل مفهوم «الشخص الذي يُعاني انفصاماً».

وثمّة فكرةٌ أخرى يتطرّق إليها هذان المقالان، وسنختم بها مؤقّتاً حديثنا، لأنَّ تمحيص القِيَم الكلاميّة المنطوقة عزيزٌ على قلبنا، ومفادها: إنَّ المحورَين اللّذَين يُرسيان أسس إنشاء الفئات الثلاث للقِيَم الكلاميّة المنطوقة المُشتقَّة التي أوجدناها، هما تدرُّجيَّان أيضاً.

ـ محسن بيانيّ أم لا محسن بيانيّ؟

ينشأ المحسن البيانيّ انطلاقاً من صعود المعنى المُشتقّ إلى السّطح، ويغلِب القيمة الأوَّليّة، ويفرض نفسه في السياق باعتباره قيمة القول الكلاميّة المنطوقة «الحقيقيّة»، كما هو مُبيَّنٌ أدناه:

القيمة الكلاميّة المنطوقة الأوَّليّة	القيمة الكلاميّة المنطوقة المُشتقَّة
القيمة الكلاميّة المنطوقة المُشتقَّة	القيمة الكلاميّة المنطوقة الأوَّليّة
الاشتقاق التلميحيّ المنطوق	المحسن البيانيّ الكلاميّ

(ويرمز المحور العمودي إلى كثافة القول الدلاليّة البلاغيّة، والذي يتألَّف محتواه، كما رأينا سابقاً، من طبقاتٍ مُختلفةٍ مُتراكِبة وتراتبيّةٍ).

ويجب في الواقع ألاّ يغيب عن ذهننا أنَّ هاتَين الحالتَين متحرِّكتان على هذا السلَّم الذي يُحدِّد تراتبية القِيَم الكلاميّة المنطوقة النسبيّة، فبين حدَّي النقيض، أي بين الحالة التي تبقى فيها القيمة المُشتقَّة هامشيّةً بوضوحٍ والحالة التي تصبح فيها هذه القيمة المُشتقَّة على العكس مُهيمنةً بوضوحٍ، تكونُ كلّ الحالات المتوسِّطة معقولةً وثابتةً في الواقع. وينشأ المحسن البيانيّ بشكلٍ واضحٍ تقريباً، وتكون درجة تَجَمُّده متغيِّرةً تبعاً لمجموعةٍ من الثابتات أبرزها:

● طبيعة واسمات المحسن البيانيّ التي يمكنها، في حال وُجدت، أن تحفِّز آلية الاشتقاق تحفيزاً شديداً تقريباً، فضلاً عن

● طبيعة المعطيات السياقيّة. وإليكم هذا المثل الوحيد: كي يؤدِّي سؤالٌ ما وظيفة الالتماس، ينبغي أن يكون الفعل المُحدَّد قابلاً للتنفيذ، أي أن تُتاح أمام المُحاوِر إمكانية إنجازه في مقام فعل القول. والحال أنَّ « المسألة مسألة

درجاتٍ»، مثلما يؤكّد براون وليفنسون[221]، قائِلاً: «تكون منوطةً بما إذا كانت الترقُّبات بشأن طبيعة النشاط الذي يُشكِّل القول جزءاً لا يتجزّأ منه، تسنح أم لا بقراءة التماسِ فيه، كما يتجلّى ذلك في المثلَين (5) و(6) على الشكل المُبيّن أدناه:

(5) أتستطيع أن تعزف على آلة البيانو؟ («Can you play the piano?») (في ظلّ وجود/ أو غياب آلة البيانو)

(6) أتستطيع أن تُنجز حساباتٍ معقدّةً؟ («Can you do advanced calculus?») (سواء أكان المتكلِّم يكتب / أم لا يكتب فرضاً منزليّاً)».

وكذلك، في حال أدلى شخصٌ ما في أحد المتاجِر التي تبيع أمشاطاً بهذَين التأكيدَين «أحتاج مشطاً» («I need a comb») و«أنا أبحث عن مشطٍ» («I'm looking for a comb»)، فلا ضرورة لأن يُذيِّلهما بعبارة «من فضلك» («please») لكي يتمّ تأويلهما باعتبارهما التماسَين. ولكن قد نتخيَّل حالاتٍ لا يُرفع فيها الإبهام بهذا القدر من الوضوح. ومن هنا نستنتج أنَّ على الواسمات الألسنيّة اللُّغويّة أن تكتسب طابعاً جبريّاً أكثر كلّما كان المقام التعبيريّ الأدائيّ أقلّ إلزاماً، ففي حالة المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق الابتكاريّ، يتحمَّل السياق منفرداً عبء إنشاء المحسن البيانيّ. وفي ظلّ غياب أيّ تسلسل كلامٍ واضحٍ، يبقى هذا الأخير مُلتبساً بل حتّى غير قابل للبتّ.

أمّا في حالة المحسن البيانيّ المُمعجَم، فكلَّما كانت عمليّة جعل المحسن البيانيّ اتِّفاقيّاً أكثر حدَّةً، فرضَ هذا الأخير نفسه بقوّةٍ أكبر. ومن هذا المنظور، يكون السؤال الذي أثرناه في هذه الفقرة مُرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالسؤال الذي سنطرحه في الفقرة التالية.

- محسن بيانيّ مُمعجم أم لا؟

فلنفترض مثال الأسئلة البلاغيّة (التي يعتبرها براون وليفنسون بحذرٍ مُستمدَّةً، بدرجات متفاوتةٍ وتبعاً للحالات، من الاستراتيجيّة «غير المُسجَّلة» أو «المسجَّلة رسميّاً»)، وحيثُ نعتبر أنّ المسألة في هذا الصدد هي مسألة محسنٍ بيانيٍّ كلاميٍّ منطوقٍ. ولكن من أين يبدأ هذا المحسن البيانيّ - باعتبار أنّنا نقع بين

(221) المصدر نفسه، ص 138–139.

السؤال الحقيقيّ (على غرار: «هل الأمر كذا أم لا؟» Est-ce que P ou non») («P?»، والسؤال الحقيقيّ الخاطئ (والذي يعمل في جميع المواضع بمثابة التأكيد والإخبار)) على مختلف أنواع الأسئلة «الموجَّهة» التي تُحفِّز بإلحاحٍ تتراوح حدَّته بين القوّة والضعف على إعطاء هذا الجواب أو ذاك؟

وإليكم هذا السؤال المُترابط (وغير البلاغيّ)، ومفاده: عندما تكون لدينا أسبابٌ وجيهةٌ للاعتقاد بأنّنا بصدد سؤالٍ بلاغيٍّ، أعلينا أن نعتبر هذا الأسلوب مُمعجماً أم لا؟ ويأتي بوريللو[222] (A. Borillo) بعددٍ من «الدلائل» التي من شأنها أن ترجِّحَ كفَّة القراءة البيانيّة (ونذكر منها: بعض أنماط التراكيب الكلاميّة والظروف والأحوال الذاتيّة أو التوكيديّة...، إلخ.)، ناهيك عن أسلوب الشرط الذي يُحلِّله ديليه، والتعابير التعجبيّة التي تفضح في اللّغة الإنجليزيّة الأسئلة التي تبدأ بكلمة «لِمَ» («Why») باعتبارها تأكيداتٍ إخباريّة انتقاديّة، كما في المثل الآتي:

لِمَ { باللّه عليك / بحقّ السماء والأرض / بحقّ اللّه / بحقّ السماوات } تدهن منزلك باللّون الأرجوانيّ؟[223]

Why { for God's sake / in the world / in Christ's name / the hell } are you painting the house purple?

ولكن هل تتعلّق المسألة حقّاً في هذا الصدد بواسمات اشتقاق مُرمَّزة ترميزاً ثابتاً إلى حدٍّ يُمكِّنُها من الاندماج في نظام اللّغة؟

وهنا أيضاً تُطالعنا مختلف درجات عمليّة جعل «أفعال الكلام غير المباشر» ممعجمةً. وهكذا، نجد أنَّ بعض هذه الأفعال جامدٌ واصطلاحيٌّ كليّاً، وذلك على نحوٍ اعتباطيٍّ نسبيّاً (لأنّ سيرل[224] يُلاحظ، أنّه في حال كانت جملة «أتستطيع أن

---

(222) Andrée Borillo, «Quelques aspects de la question rhétorique en français,» *DRLAV*, no. 25 (1981).

(223) إنّ هذه الأمثلة هي مُقتبسةٌ عن: Brown et Levinson, Ibid., p. 139.

ويؤدّي المورفيمَين «إلى الجحيم» («diable») و«بالتالي» («donc») في اللغة الفرنسيّة دوراً مماثلاً.

(224) Searle, «A Taxonomy of Illocutionary Acts,» in: *Language, Mind, and Knowledge*, p. 76.

تعطيني هذا الكتاب» («Can you hand me that book?») تعمل طبيعيّاً بمثابة الالتماس، فليس الأمر سيّانٌ بالنسبة إلى ترجمة هذا القول الحرفيّة إلى اللّغة التشيكيّة، ولا حتّى بالنسبة إلى شرحه بأسلوبٍ شخصيٍّ في اللّغة الإنجليزيّة، كالآتي: «هل أنتَ قادرٌ أن. . .؟» («Are you able to...?»)، بينما يخضع بعضها الآخر خضوعاً تامّاً لتقلّبات السياق، في حين يقع السواد الأعظم منها في مكانٍ ما على محور العمليّة الاتّفاقيّة هذا الذي يصفه ستراوسن[225] وسيرل[226] ورايت[227] (Wright) ومورغن[228] باعتباره «مجموعةً اتّصاليّةً».

وطبعاً ليست هذه الإشكاليّة حكراً على القِيَم الكلاميّة المنطوقة، بل تُعنى بها الاستعارات أيضاً، فبين الاستعارات الجامدة كليّاً، أو «المُقَوْلَبة» كما يصفها لوريامون (Lautréamont)، وصولاً إلى المجاز والاستعارات «الحيّة»، تقعُ منطقةُ الكليشهات الوسطيّة. وما من شيءٍ أكثر غموضاً من الحدود التي تفصل في إطار كلّ وحدةٍ معجميّةٍ قِيَم هذه الوحدة المُدرجة في اللّغة عن تلك التي تنشأ في سياق الخطاب. وإنّ المعاجم والقواميس موجودةٌ على الرُّغم من أنَّ بعضها تشوبه النواقص. ولكنّنا لا نقع البتّة على معاجم بالقِيَم الكلاميّة المنطوقة، بل يترتّب بالأحرى إنشاء لائحةٍ بها وسنّ قواعد ألسنيّةٍ لغويّةٍ لها من الألف إلى الياء. وقد عكف الألسنيّون اللّغويّون على ذلك، ولكنّنا لا نفهم بوضوح كيفيّة تجزئة المنطقتَين الخاصّتَين بكلّ من اللّغة والكلام الفرديّ. وجلّ ما نستطيع قوله، ضامّين صوتنا إلى صوت سادوك[229]، هو أنَّ عملية استبعاد القيمة الإيعازيّة في إطار اللّغة، من بنيةٍ من مثل «هلاّ فتحت النافذة؟» («Pourrais-tu ouvrir la fenêtre?») تُضاهي من حيثُ عبثيّتها عمليّة دمجنا إلى جملةٍ من مثل «البرد قارسٌ هنا» («Il fait froid ici») قِيَماً متنوّعةً من مثل: / أقفل النافذة/ (/ferme la

(225) P. F. Strawson, «Intention and Convention in Speech Acts,» in: P. F. Strawson, *Logico-Linguistic Papers* (London: Methuen, 1971).

(226) Searle, Ibid.

(227) Richard A. Wright, «Meaning and Conversational Implicature,» in: Cole and Morgan, eds., *Syntax and Semantics. 3, Speech Acts.*

(228) Morgan, «Two Types of Convention in Indirect Speech Acts,» in: Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics.*

(229) Sadock, «On Testing for Conversational Implicature,» in: Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics.*

fenêtre/) و/ افتح النافذة/ (/ouvre la fenêtre/) و/ عليك دفع فاتورة الغاز/ (/tu devrais payer ta note de gaz/) و/ اجلب لي كنزةً/ (/apporte-moi un pull/) و/ الجوّ سوداويٌّ عندك/ (/c'est sinister chez toi/) و/ لقد سبَّبتَ لي العناء/ (/tu m'as fait de la peine/)، إلى آخره.

وانطلاقاً من واقع غياب أيّ لائحةٍ مُحدَّدةٍ مُسبقاً بالقِيَم الكلاميّة المنطوقة وبركائزها الدالَّة، تُثار هاتان الإشكاليّتان اللَّتان تطرَّقنا إليهما للتوّ بحدّةٍ شديدة اللّهجة في حالة المحسن البياني الكلاميّ المنطوق. بيد أنَّهما ليستا حكراً عليه، كما سنرى في الفصل التالي حيث سنتطرَّق في الحديث إلى موضوع المحسن البيانيّ بشكلٍ عام - كما سنتحدَّث بشكل خاصٍّ عن بعض الظواهر التي تبدو لنا مماثلتها به مشروعةً، على الرُّغم من أنَّ التقليد البلاغيّ لا يلحظها باعتبارها كذلك (بل إنّه لا يلحظها إطلاقاً).

الفصل الثالث

المحسن البيانيّ:
نحو نظريّة نموذجيّة موسَّعة

ثمّة تقاربٌ جليٌّ بين مفهومَيّ «المحسن البيانيّ» و«المُضمَر»؛ وقد أشار إليه، على الرُّغم من العصور التي تفصل بينهما، كانتيليان أوَّلاً بقوله إنَّ («[طريقة الإلماح] قوامُها [. . .] أن نوحي بغير ما نقوله صراحةً، ليس بالضرورة عكس ما نقوله، على غرار التهكُّم، بل معنى آخر مستتر، على المُستمع أن يكشفَ النقاب عنه إذا جاز التعبير»)، وكذلك سيرل ثانياً بقوله («[. . .] قد يقصد المُتكلِّم معنى مغايراً عن معنى الجملة التي يتفوَّه بها، كما هي الحال مع الاستعارة، أو قد يودّ أن يقول عكس ما تنطوي عليه الجملة من معنى، على غرار التهكُّم، أو قد يودّ أن يفيد بمعنى الجملة مضافاً إليه معنى آخر، كما في العلاقات التضمينية التحادثيّة وأفعال الكلام غير المباشر»). وعلى سبيل الذكر لا الحصر، يظهر هذا التقارب من خلال شتَّى استعمالات مصطلح «التصوير» («figuration») المُطبَّق تطبيقاً متعدِّد الدلالات، تارةً على «التأويلات المجازيّة» (كالمحسنات البيانيّة البلاغيّة الكلاسيكيّة)، وطوراً على إشكاليّة «الكلام المنطوق المشتقّ» وعلى مجمل المُلطِّفات، وهي أساليب تساعد بطرقٍ مختلفةٍ وأبرزها الإضماريّة، على صقل صياغة أفعال الكلام. بيد أنّنا نُدرك أنَّ التعدُّدية الدلاليّة موحيةٌ كزلَّة اللِّسان. وإنَّ العبارة الملتوية والإدلاء غير المباشر والخطاب المائل والصياغة المواربة. . .، إلخ تشكِّلُ كلّها مصطلحات تطبع طريقة عمل المحسنات البيانيّة والإضماريّة.

ليس المطلوب التحقُّق من هذين المفهومَين، علماً بأنَّ عدداً لا يُستهان به من المحتويات المُضمَرة لا يخضع لآليّة «الصعود نحو السطح» هذه التي تحدِّد

مفهوم المحسنات البيانيّة، ولا يتعدَّى كونها مجرَّد تضمينات. وتخضعُ في المقابل فَبْركة المحسنات البيانيّة لقواعدَ دقيقةٍ ترسِّخُ طبيعة العلاقة القائمة بين مستويَي المحتوى، من وجهة نظر البلاغة الكلاسيكيّة على الأقلّ. لكن آنَ الأوان لنتخطَّى وجهة النظر هذه، فموضوع طرحنا يتمحور تحديداً حول فكرة أنَّ المحتويات المُضمَرة على اختلاف أنواعها قادرةٌ في بعض الظروف على أن تُرسي أسس وجود المحسن البيانيّ. ومن هنا نفهم بوضوحٍ أكثر كيفيّة ترابط إشكاليّة المحسنات البيانيّة مع إشكاليّة المُضمَر، إذ لا يشكِّل المحسن البيانيّ من وجهة نظرنا إلا حالة استثنائيّة من طريقة عمل المُضمَر، وما يميِّزه أنَّ المحتوى المُضمَر يصبح تعيينيّاً فيه ـ الأمر الممكن حصوله مجدداً أيّاً تكن طبيعة المحتوى المُضمَر المعنيّ ووضعه.

«المحسنات البيانيّة نحو نظريّةٍ نموذجيّةٍ موسَّعةٍ»: تضمينيّاً، المسألة هنا هي مسألة تلميح، هو فوق ذلك مجّاني، إلى النموذج التحويليّ التوليديّ الغريب العجيب. أمّا تعيينيّاً، فتنطوي العبارة على المعنى التالي: ينطلق مفهومنا للمحسن البيانيّ من التحاليل التي اقترحتها البلاغة الكلاسيكيّة بشأن الاستعارة والمجاز المرسل والكناية والإغراق والغلو والتهكُّم...، إلخ.؛ ـ وهي تحاليل نتبنّاها كاملةً. ومن هنا جاءت تسمية النظريّةِ النموذجيّة، وكذلكِ الموسَّعة (علماً بأنَّ هذه النظريّة كلَّما أصبحت «موسَّعةً»، فقدت شيئاً فشيئاً صفة «النموذجيّة») بقدر ما تنطوي في المقابل على عددٍ معيَّنٍ من الظواهر التي أغفلتها البلاغة الكلاسيكيّة والتي تمّ تسليط الضوء مؤخَّراً على وجودها ضمن إطار إشكاليّةٍ أخرى، ألا وهي الألسنيّة التداوليّة التواصليّة.

نرغب هنا في الدفاع عن الفكرة القائِلة بأنَّه من الجيِّد معالجة بعضٍ من طرق عمل اللّغة التي تركِّز عليها التداوليّة المعاصرة وإعطاء الأمثلة عليها في إطار نظريّة المحسنات البيانيّة القديم.

والمفيد أنَّ ذلك يسمح بإبراز فرادة طرق عمل بعض المحتويات المُضمَرة (بعض القيَم الكلاميّة المنطوقة في المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق وبعض الافتراضات والمُضمَّنات في المحسن البيانيّ الإضماريّ...، إلخ.)، من دون أن نُثقلَ مع ذلك مخزون أدوات الوصف الضروريّة، أي من خلال تطبيق مبدأ «مبضع أوكام» (Rasoir d'Occam) الذي يعيد «سيرل» صياغته على الشّكل التالي: «يجب تجنُّب إدخال مفاهيمَ جديدةٍ [...] إذا ما كان في وسعنا أن نجدَ حلاًّ من

خلال المصطلحات النظريّة التي هي في تصرُّفنا أصلاً[1] (Evitia non esse multiplicanda praeter necessitatem).

بادئ ذي بدءٍ، وعلى ضوء طرق عمل المحسنات البيانيّة «الكلاسيكيّة»، سنقترح تحديداً موحَّداً للمحسن البيانيّ. وسيتيح هذا التحديد رصد «المحسنات البيانيّة الكلاسيكيّة» بأكملها وتوسيع لائحتها في آنٍ.

1.3. تحديد المحسن البيانيّ

1.1.3. تحديدٌ مُقترح

يقوم هذا التحديد على مثل مزدوج نقلاً عن قصيدة **بوز النائم** (Booz endormi): إنّ المسألة هي مسألة إقامة مقارنة بين العمل الدلاليّ لكلمتَي «رزمة السنابل» (gerbe) و«منجل» (faucille)، الواردتَين في الفقرتَين التاليتَين من قصيدة هوغو (Hugo)، ألا وهما:

1. وخط الشيب لحيته بخيوطٍ فضيّة كساقيةٍ في شهر نيسان
حصيده لم يبخل عليه ولم يُبدِ له كرهاً
وإذا رأى لاقطة حبِّ تمرّ، كان يقول لها:
«دعي الحبوب تتساقط عمداً»

2. كان الهِلال حادّاً ومُشعّاً بين أزهار الظلام
يلمع وجهة المغرب وراعوث أخذت تتساءل
وهي جامدة تسترق النظر من تحت القناع
تُرى أيّ إلهٍ، أيّ حصّادِ صيفٍ سرمديّ في عمر الزمان
قد خلَّف وراءه، لحظة إيابه، عن طريق النسيان
منجلاً ذهبيّاً في مرجٍ من نجومٍ شديدة اللّمعان.

(1) John R. Searle, *Sens et expression: Etudes de théorie des actes de langage = Expression and Meaning*, le sens commun, traduction et préface de Joëlle Proust (Paris: Editions de Minuit, 1982), p. 12.

1. Sa barbe était d'argent comme un ruisseau d'avril,
Sa gerbe n'était point avare ni haineuse;
Quand il voyait passer quelque pauvre glaneuse:
«Laissez tomber exprès des épis», disait-il.
2. Le croissant fin et clair parmi ces fleurs de l'ombre
Brillait à l'occident, et Ruth se demandait,
Immobile, ouvrant l'œil à moitié sous ses voiles,
Quel dieu, quel moissonneur de l'éternel été
Avait, en s'en allant, négligemment jeté
Cette faucille d'or dans le champ des étoiles.

فضلاً عن المجاز العقليّ الذي ينطوي عليه بيت الشعر الثاني، راق للبعض أن يروا في كلمة «رزمة السنابل» (Gerbe) تضميناً جنسيّاً[2]، ويُعتبر هذا التضمين نوعاً من المفارقة، إذا لم نأخذ في الاعتبار إلاّ السياق الحاليّ الضيّق للنصّ حيث تُطرح بالأحرى مسألة العجز الجنسيّ - لا بأس في ذلك. ولكنّنا نستطيع الردّ على رينيه بوميه (René Pommier) الذي حاول، في مقالةٍ نقديّةٍ مقذعةٍ بعنوان «القضيب الغريب العجيب» («Phallus farfelus») انطلاقاً من هذا المثل ومن أمثلةٍ أخرى، فضح الهوس الجنسيّ الذكوريّ الذي اشتهر به السيميائيّون المعاصرون، بالقول: إنَّ التضمين هو أيضاً تهكميٌّ، ويفقد كثيراً من حدَّته إذا أخذنا في الاعتبار مجمل القصيدة حيث يحمل التشاكل الدلاليّ الجنسيّ الكثير من المعاني التضمينية وحتى التعيينيّة.

ولكن مهما يكن من أمرٍ، فلو سلَّمنا جدلاً هنا (وهو أمرٌ غير بديهيٍّ من جهةٍ ولا غير قابل للتبرير تماماً من جهةٍ أخرى) بوجود مثل هذه القيَم الدلاليّة، لا يخوِّلنا ذلك بأيّ شكلٍ من الأشكال أن نتحدَّث عن استعارةٍ بشأن كلمة «رزمة السنابل» (gerbe): هذا هو معناها الحقيقيّ والحرفيّ الذي يتحقّق بالفعل والذي

---

(2) راجع: Pierre Caminade, *Image et métaphore: Un Problème de poétique contemporaine*, collection études supérieures; 36 ([Paris]: Bordas, [1970]), et Christian Metz, *Le Signifiant imaginaire: Psychanalyse et cinéma*, 10-18; 1134 (Paris: Union générale d'éditions, 1977), pp. 270-273.

في الواقع، من ضمن مجموعة وحدات التضمين الرحبة تقوم وحدتان منها فقط بدور «التضمينات الممتازة»، ألا وهما: التضمين الجنسيّ والتضمين «النصّي» (أو «الكتابيّ»). وفضلاً عن ذلك، تجدر الإشارة إلى أنّنا قد نتلهّى برؤية تضمينٍ نصيٍّ في كلمة «رزمة السنابل» (grebe)، وذلك إذا ما خطرَ لنا أنّ أحد الدواوين التي ألّفها فيكتور هوغو يحمل تحديداً عنوان **العامات الأخيرة** (*Dernières gerbes*).

يؤمِّن وحده التشاكل الدلاليّ النصيّ؛ في حين لا يُشكِّل المحتوى الجنسيّ في أحسن الأحوال إلا قيمةً مضافةً وثانويّةً وهامشيّةً بالنسبة إلى المعنى الحقيقيّ. وعليه، فمن الأجدر أن نتكلَّم عن تضمينٍ استعاريٍّ في هذا المثل. ويختلف الأمر تماماً بالنسبة إلى «المنجل (الذهبيّ)» ((Faucille (d'or)) الذي يمكن وصف طرق عمله الدلاليّة على الشّكل التالي:

دالّ

———— = / faucille (منجل)/ : حرفيٌّ ولكن تضمينيّ.

مَفهَم أوّل

مفهَم ثانٍ = / croissant de lune (الهلال)/ : مشتقٌّ ولكن تعيينيّ.

يُفعَّل المَفهم أوّلاً لأنَّه يرتبط بالدالّ بموجب قاعدةٍ مُعجميةٍ مُستبطنةٍ بالكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة؛ بيد أنَّ بعض العوامل (ذات طابع سياقيٍّ حاليٍّ نصيٍّ، ومنها التكرار الابتدائيّ لاسم الإشارة «هذا» («cette»)) تكبَحُ عمله التعيينيّ وتدفعنا إلى البحث عن معنى ثانٍ. وممّا لا ريب فيه أنَّ المَفهم الأوّل لا يُمحى[3] نهائيّاً عند بلوغ المفهَم الثاني، بل يبقى على صورة «أثرٍ تضمينيٍّ»، أي إنَّ «صورة» المنجل «تنضمّ» إلى صورة «الهلال» لإغناء تمثيله. ولكن في الحقيقة، إنَّ المفهَم الثاني هو الذي يؤمِّن تماسك القول الداخليّ وملاءمته الخارجيّة (إذ إنَّ ما يُبرز المفهَم الثاني تحديداً هي الرغبة في ترميم ملاءمةٍ وتماسكٍ اختلَّ توازنهما بسبب المعنى الحرفيّ)، ففي الحقيقة، يشير «المنجل» الدالّ إلى «الهلال» الغرض أي إنَّنا نجد استعارةً بكلّ ما للكلمة من معنى، أي محسّناً بيانيّاً (استعاريّاً)[4].

---

(3) والبرهان على ذلك كلّ التأثيرات التي يُخلّفها «الاتباع» و«اللااتباع».

(4) تجدر الإشارة إلى أنّ كميناد (P. Caminade) يرى فوق ذلك في كلمة «منجل» (faucille) تضميناً جنسيّاً، ويؤكّد ما يلي: «بيد أنّنا إذا اعتبرنا أنّ هذه القصيدة تصف جماعاً شذوذيّاً، أو «زيارة» الله المزدوجة، وأنّ اسم المرأة هو «روث» (Ruth) علماً بأنّ فيكتور هوغو يقفّي هذا الاسم تجانساً مع كلمة مؤابية (maobite)، وأنّه يُطلق على البروق (وهو نبات أصفر اللون) اسم عصا يعقوب (Jacob) أو صوجانه، وأخيراً أنّ روث تفتح عينَيها نصفيّاً تحت أغطيتها، وأنّ الذهب والسائل المنوي هما في اللغة العبرية مرادفان، عندها قد يتبادر إلى ذهننا أنّ «المنجل» («faucille») هو أمرٌ آخرٌ، وليس صورةً انفعاليةً للقمر، ويخطر ببالنا كذلك بأنّ مرج النجوم لا يدلّ على السماء الأصلية (Caminade, Ibid., p. 110) ـ أصلية وقد نجمَ عن هذا التصريح أن أطلق بومييه العنان لانتقاداته المُقذعة، متحدّثاً بهذا الصدد عن «بلاهات الدكتور كميناد» («Couillonnades du docteur Caminade») (René Pommier, «Phallus farfelus,» *Raison présente*, no. 31 (1974), p. 82).

ويمكن إجراء التحليل عينه على حالات قلب المعنى والمجاز المرسل والإغراق، إلى آخره. إذ لا يُمكن تحديد المحسن البيانيّ كما هو إلاّ حين نقلب، تحت تأثير بعض العوامل السياقيّة الحاليّة النصيّة، التراتبيّة المألوفة للمستويات الدلاليّة، أي أن يتدرَّج المعنى الحرفيّ إلى محتوى تضمينيّ، وأن يتحوَّل المعنى المُشتقّ إلى محتوى تعيينيّ. ولا يعني ذلك بالضرورة، أنَّ المعنيَين يمكن إخضاعهما لتراتبيّةٍ من هذا النوع، بل إنَّنا لا نتكلَّم عن استعارةٍ أو تهكُّم بشأن لفظة «المنجل» (faucille) أو عبارة «(يا له من طقسٍ) جميلٍ!» ((Quel) joli (temps)!)، إلا إذا فسَّرنا الكلام وكأنَّه يُشير في الواقع إلى «الهلال» أو ينتقد «حالة الطقس».

إنَّ التعارض بين المحسن البيانيّ واللاّمحسن البيانيّ والاستعارة والتضمين الاستعاريّ، هو المعنيّ بالتراتبيّة القائمة بين هذين المحتوَيين. وإذا كنَّا جميعاً، كما قال «رينيه بوميه»، مهووسين جنسيّاً، فليس لأنَّنا نرى محتوياتٍ جنسيّةً في حنايا الكلمات الأكثر براءةً فحسب، بل لأنَّنا نضفي عليها طابعاً مُهيمناً ونقيم التضمين مقام التعيين. ولا ريب في أنَّ «بوميه» يعبِّر عن ذلك بشكلٍ مختلفٍ، لأنَّه يُكنُّ للفظة «تضمين» (Connotation) بُغضاً يوازي بغضه لكلمة «العضو الذكوريّ» (ويقول[5] ما يلي: «ما همّ أن نعبِّر عن الأفكار الأكثر ابتذالاً وعن الترّهات الأكثر سخفاً، فإذا أردنا أن نكون طليعيِّين، وإذا رغبنا في أن نُعدّ من النخبة المُفكِّرة، يكفي أن نستعمل المفردات الرائجة. زد على أن لا ضرورة البتّة في أن نفقه الشيء الكثير منها: فبعض هذه المفردات هي جدّ مستحسنةٍ لدرجة أنّه في مقدورنا أن نردِّدها مراراً وتكراراً حتى نُرهق السَّامعين. وثمّة مفردةٌ تأثيرها سحريّ لدرجة أنَّه في وسعنا أن نستبدل بها كلّ المفردات الأخرى وأن نُقحمها في كلّ الجُمل دون أن نُضجِرَ الجهابيذ العارفين، ألا وهي: «التضمين» («connotation»)»). وتتعلَّق المسألة بهذا الأمر، عندما يستأنف بوميه حملته ضد الهَوَس الجنسيّ الذكوريّ، فيوجِّه انتقاداته إلى المسكين ميشال بيكار (Michel Picard) (خصوصاً وأنَّ الرهان يكمن هنا في طبيعة الدالّ غير الكلاميّة بل الشيئيّة) فيقول: «من المرجَّح، أنَّ ميشال بيكار إذا رأى مظلَّةً، يتوجَّه بالكلام إلى أصدقائه شارحاً أنَّها صورةٌ للقضيب الذكوريّ، ثمّ يُردف قائلاً بعد لحظة تفكيرٍ:

(5) المصدر نفسه، ص 73.

قد أذهب إلى حدّ القول إنَّ صورة القضيب الذكوري هذه تُستعمل للحماية من المطر، لربَّما لاحظتم ذلك»[6].

إنَّ إبدالَ المحتوى المشتقّ إلى محتوى تعيينيّ هو الميزة التي نحتفظ بها كميزةٍ من ميزات المحسن البيانيّ ـ ولا نُقيم وزناً للميزة الأخرى المُعتمدة في البلاغة الكلاسيكيّة، ألا وهي: «مجازٌ لفظيٌّ»[7]. ولأنّنا لا نعتبر بُعدَ الدالّ وطبيعته ملائمَين، نُخضع مفهوم المحسن البيانيّ، كما جرت العادة، لتوسُّعٍ ملموسٍ لقيمة اللَّفظة، يُمكِّننا من إلحاق بعض الوقائع، التي سترحِّبُ البلاغة الكلاسيكيّة من دون شكّ في اعتبارها «مجازاً عقليّاً»، بهذا المفهوم.

ملاحظات

- إليكم بادئ ذي بدء إيضاحاً مصطلحيّاً: بُغية التفريق بين وضعِ مختلف وحدات المحتوى القابلة أن تُنقلَ بواسطة متتاليةٍ، نُسلِّم بالتفريقات التالية:

(1) محتوياتٌ حرفيّةٌ في مقابل محتويات غير حرفيّةٍ:

● حرفيّةٌ = أي مُدوَّنةٌ في المتتالية بموجب قاعدة لغويّة ألسنيّةٍ ثابتةٍ؛ ويتطلَّب فكّ ترميزها معرفة الرمز الألسنيّ اللُّغويّ فقط، فهو إذاً مباشرٌ وأوَّليٌّ.

ملاحظة: من المُلاحظ أنَّ الدلالات المُعجميّة تمتلك عموماً عدَّة «مَفاهِم»، غالباً ما تكون متسلسلةً في قلب هذا الرمز الألسنيّ اللُّغويّ عينه. ونضعُ حينئذٍ المعنى «الحقيقيّ» في مقابل المعاني «غير الحقيقيّة» ـ أو «المُشتقَّة». ولأنَّ هذا المصطلح مُبهمٌ، سنطلق تسمية «اشتقاقات لغويّة» على هذه القِيَم التي، وإنْ لم تكن «حقيقيّةً»، إلاّ أنَّها تكون حرفيّةً؛ وذلك بالتضاد مع المحتويات

● غير الحرفيّة، أو «اشتقاقات خطابيّة» = وتُضاف إلى المحتويات الحرفيّة في إطار السياق الحاليّ للنص تبعاً لآلياتٍ متنوّعةٍ؛ وهي غير ثابتةٍ ومستحدثةٍ تقريباً؛ ويتم فكّ ترميزها بطريقةٍ غير مباشرةٍ، أي في مرتبةٍ ثانيةٍ وخاضعة للصدفة تقريباً.

---

(6) المصدر نفسه، ص 83.

(7) وكذلك يتحدَّث فونتانيي عن حالة «المحسنات البيانية المُركبّة من عدّة كلماتٍ أو تلك المُستعملة خلافاً للأصول».

(2) محتويات بيِّنة في مقابل محتويات مضمرة:

- بيّنة = أي إنَّها تشكِّل مبدئيّاً الموضوع الحقيقيّ للقول؛
- مضمرة = أي إنَّها لا تشكِّل مبدئيّاً الموضوع الحقيقيّ للقول، بل تُفعَّلُ بالتدليس بفضل المحتويات البيِّنة.

في السواد الأكبر من الحالات، يمكننا طرح ما يلي:

محتوياتٌ حرفيّةٌ = أي بيِّنةٌ، في مقابل محتوياتٌ اشتقاقيّةٌ (خطابيّةٌ) = أي مُضمرة، بيد أنَّ الافتراضات التي هي في آنٍ حرفيّة ومُضمرة، تأتي لتُعكِّر نظام المعادلة هذا (أمّا المضمَّنات، فهي مشتقَّةٌ ومضمرةٌ)

(3) محتوياتٌ تعيينيّةٌ في مقابل محتويات تضمينيّة:

- تعيينيّةٌ = أي إنَّها تشكِّل في إطار السياق الحاليّ للنص موضوعَ الرسالة الكلاميّة الحقيقي، وتؤمِّن لها التشاكل الدلاليّ؛
- تضمينيّةٌ = أي قيَمٌ إضافيّةٌ ودائريّةٌ وهامشيّةٌ (في إطار السياق الحاليّ للنص دائماً)

وبشكلٍ عامٍ، يمكننا أن نطرح ما يلي:

محتوياتٌ تعيينيّةٌ = أي بيِّنةٌ، في مقابل محتويات تضمينيّة = مضمرة،

بيد أنَّ هذه المعادلات تختلُّ هذه المرّة بسبب المحسن البيانيّ الابتكاريّ الذي يُرغِمُنا على فصل المحورَين (2) و(3). وترجع المحسنات البيانيّة المُمَعجمة إلى المشكلة العامَّة لتعدُّدية الدلالات، ولا تنطبق عليها إشكاليّة المُضمَر، فحينَ أستنبطُ استعارةً مُمَعجمَةً، أُفعِّلُ «مفهَماً»، هو من دون شكٍّ غير «حقيقيٍّ»، ولكنَّه يبقى حرفيّاً وبيِّناً.

بعد الإشارة إلى هذا الإيضاح، فلنَعُدْ إلى الظواهر التي سلَّطنا الضوء عليها سابقاً، ألا وهي:

- «التضمينات الاستعاريّة» أو «التهكُّميّة»، بالإضافة إلى كلّ التضمينات الدلاليّة والقيَم الكلاميّة المنطوقة المشتقَّة بواسطة «التلميح»، وتشكِّل جميعها قيَماً غير حرفيّةٍ (أي اشتقاقات خطابيّة) ومضمرةً وتضمينيّةً في آنٍ. وتأتي هذه القيَم لتُضاف إلى المعاني الحرفيّة (سواءٌ أكانت حقيقيّةً أم لا) والبيِّنة والتعيينيّة.

والمثل على ذلك: «عامَته...» (Sa gerbe...)

وفيه معنى مستمدّ من التشاكل الدلاليّ الزراعيّ: وهو معنى حرفيّ (وحتى حقيقيّ) وبيِّن وتعيينيّ؛

وفيه أيضاً معنى مستمدّ من التشاكل الدلاليّ الجنسيّ: وهو غير حرفيّ ومضمر وتضمينيّ.

• في المحسن البيانيّ الابتكاريّ، تصبح هذه المحتويات المشتقَّة نفسها بطريقةٍ استثنائيّةٍ وتحت تأثير السياق أو السياق الحاليّ للنصّ، تعيينيّةً. ونتيجة ذلك، تقوم هذه المحتويات نوعاً ما بـ «الصعود نحو السطح» ممّا يدفعنا إلى اعتبار أنَّها تتحوَّل عندئذٍ إلى محتوياتٍ بيِّنةٍ. ومع ذلك تحتفظ بالطبع، وذلك إذا سلَّمنا بالتحديد المُقترح أصلاً، بوضعها كعناصرَ مضمرةٍ، كونها لا تشكِّلُ مبدئيّاً موضوع القول الحقيقيّ حتى ولو أصبحت تشكِّله في السياق أو السياق الحاليّ للنصّ. إذ يُعتبر المحسن البيانيّ الابتكاريّ خروجاً عن المألوف. وتكمن تحديداً وظيفة التمييز بين المحورَين (2) و(3) في تسليط الضوء على هذا التفاوت الذي يُحدثه المحسن البيانيّ بين الشرعيّة الرمزيّة وحادثة الخطاب.

والمثل على ذلك: «هذا المنجل الذهبيّ...» (Cette faucille d'or...)

وفيه معنى مستمدّ من التشاكل الدلاليّ الزراعيّ: وهو حرفيٌّ (وحتى حقيقيّ) وبيِّنٌ ولكن تضمينيّ.

وفيه أيضاً معنى مستمدّ من التشاكل الدلاليّ الكوكبيّ: وهو غير حرفيٍّ (أي اشتقاقيّ خطابيّ) ومضمر ولكن تعيينيّ.

• يتميَّز المحسن البيانيّ المُمَعجم في المقابل بالترسيمة التالية التي تظهر من خلال المثل الآتي:

بيار غبيٌّ (Pierre est une andouille)

وفيه معنى مستمدّ من التشاكل الدلاليّ الغذائيّ(*): وهو حرفيٌّ وحقيقيٌّ وبيِّنٌ ولكنه تضمينيٌّ.

(*) لأنَّ كلمة Andouille تعني حرفيّاً في اللّغة الفرنسيّة ما يلي: السجق أو المصران المحشو باللّحم.

وفيه أيضاً معنى مستمدّ من التشاكل الدلاليّ البشريّ (= أي / مغفّل/ /imbecile/): وهو معنى حرفيّ ولكنّه اشتقاقيّ لغوي (عن طريق الاستعارة) وبيّن وتعيينيّ.

وكذلك في المثل التالي: أتمرِّر لي الملح من فضلك؟ (Pourrais-tu me passer le sel?)

وفيه قيمةٌ كلاميّةٌ منطوقةٌ استفهاميّة: وهي حقيقيّةٌ وبيّنةٌ وتضمينيّةٌ.

وفيه أيضاً قيمةٌ كلاميّةٌ منطوقةٌ إيعازيّة: وهي اشتقاقيّةٌ لغويّةٌ وبيّنةٌ وتعيينيّةٌ.

ومن هنا تحديد المحسن البيانيّ على الشّكل التالي: يحوّل المحسن البيانيّ المحتوى المُشتقّ إلى محتوى تعيينيّ، يكون إمّا اشتقاقيّاً لغويّاً (وبالتالي حرفيّاً وبيّناً) في حالة المحسن البيانيّ المُمَعجم، أو اشتقاقيّاً خطابيّاً (وبالتالي غير حرفيٍّ ومضمراً) في حالة المحسن البيانيّ الابتكاريّ.

- قضية تسلسل الكلام[8]

على ضوء ما سبق ذكره، يمكننا الآن أن نحدِّد أنَّ تسلسل السياق الحاليّ للنصّ لا يُنجَزُ بالضرورة عقب محتوى المتتالية السابقة البيِّن بل عقب محتواها التعيينيّ. وضمن هذا الإطار، تسمح لنا مراقبة هذه التسلسلات الكلاميّة بتحديد هوية المحسن البيانيّ (على غرار قلب المعنى، والمثل على ذلك حين نُتبعُ القول التالي: «يا له من طقسٍ جميلٍ!» (Quel joli temps!) بعبارة «لحسن حظي أنَّني اشتريتُ مظلّةً للتوّ!» (Heureusement que je viens d'acheter un parapluie!)).

وإليكم بعض الاستثناءات على هذا المبدأ: أوّلاً طريقة «الإتباع» في المحسن البيانيّ والتي تقضي بإلحاق استعارة باستعارةٍ أخرى، أو حادث تهكّم بمتتاليةٍ تهكُّميّةٍ أيضاً. لا يمكننا أن نأخذ بهذه الطريقة طويلاً، ولاسيما إنَّ قانون التسلسل الكلاميّ يعني أنَّ على البراهين، ما إن يُصار إلى العودة إلى العبارة المباشرة، أن تنحوَ حكماً منحى المعنى التعيينيّ (أي المُشتقّ، وهو المعنى المشتقّ السلبيّ في المثل الآنف ذكره).

---

(8) ويجب التذكير بوجوب تخصيص وضعٍ خاصٍّ لتسلسلات الكلام من النمط الألسنيّ اللّغوي الانعكاسيّ.

أمّا بالنسبة إلى الحالات الانتهاكيّة الأخرى لهذا القانون، فإنَّها تُنتِجُ مفاعيلَ متنوّعةٍ (على غرار الدعابة وسوء النيّة[9] . . .، إلخ.) ذات طابع عنيفٍ تقريباً، وتُبرهَن صحّته عكسيّاً. قد تتعلّق المسألة كذلك بانتهاكاتٍ خاطئةٍ، فيأتي تسلسل الكلام تحديداً ليُثبتَ أنّنا لسنا بصدد محسنٍ بيانيٍّ، على الرُّغم من المظاهر الأوّليّة، بل بصدد خطأ في التسمية مثلاً وفي تأويل المرجع (كما في حالة الفتاة الصغيرة التي تُعلّق بهذه العبارات على صورة والدها وهو يرتدي بزّة غطاس بحري قائلةً: «ولكن لماذا يعزف أبي على آلة البوق تحت سطح البحر! لا يستطيع أحد سماع عزفه بسبب هدير مياه البحر» («Mais pourquoi papa joue de la trompette dans la mer! On ne peut pas l'entendre avec le bruit de l'eau!»)، وكذلك في متتاليةٍ ترتبط بالأدب الخارق (والمثل على ذلك ما يقوله كونو (Queneau): «كان هناك مراسيم ينبغي توقيعها ولكنّها كانت طريّةً ولزجةً ولا تستطيع الريشة كتابة الأحرف البلدية الأولى عليها» («Il y avait des décrets à signer mais ils étaient tout mous, tout gluants et la plume n'arrivait pas à tracer dessus le paraphe mairial»)، أي بصدد وصفٍ حرفيٍّ لمرجعٍ بعيدٍ عن الواقع تقريباً.

2.1.3. المحسنات البيانيّة «الكلاسيكيّة»

وعليه، تحوّل المحسنات البيانيّة بعض أنواع المضمَّنات إلى محتوياتٍ تعيينيّةٍ. ولا ينطبق ذلك إلا على بعض أنواع من هذه المضمَّنات فقط، من وجهة نظر البلاغة الكلاسيكيّة التي أحصتها بدقّةٍ وصنّفتها تبعاً لطبيعة العلاقة القائمة بين المستويَين الدلاليَّين المعنيَّين بطريقة العمل البيانيّة.

ولأنَّ العديد من الكتب قد عالجت مختلف المحسنات البيانيّة هذه التي سنصفها بال «كلاسيكيّة»[10]، فلن نطيل الحديث عنها.

---

(9) ونضرب بشأنها عدداً معيناً من الأمثلة في مقالتنا التي تحمل عنوان «البرهنة وسوء النية»: (Catherine Kerbrat-Orecchioni, «Argumentation et mauvaise foi,» *Linguistique et sémiologie*, no. 10 (1981), pp. 60-61).

(ومن بينها، إليكم هذا التصريح الذي أدلى به مندلسون (Mendelson) بشأن برليوز (Berlioz)، ومفاده: «إنّ تجويق برليوز مُرمَّقٌ لدرجةٍ أنّه يترتّب علينا أن نحضر الحفلة الموسيقيّة باللّباس الأزرق المُخصّص للعمل» (Son instrumentation est si malpropre qu'on doit aller au concert en bleu de travail).

(10) ولقد تحدّثنا نحن أنفسنا مراراً وتكراراً عن وضع هذه المحسنات البيانيّة، وبشكلٍ خاصٍّ أكثر عن وضع الاستعارة والتهكّم. انظر: Catherine Kerbrat-Orecchioni: «Problèmes de l'ironie,» *Linguistique* =

وسنكتفي بالإشارة إلى الأبرز بينها، ألا وهي:

(1) الاستعارة، وترتكز على علاقة تماثلٍ قائمةٍ بين الغرضَين اللّذَين يتطابقان مع المفهَمين المعنيَّين (أي الهلال والمنجل). وبالموازاة، يتقاطع هذان المفهَمان، كونهما يتشاطران بعض الميتاسيمات التي تتطابق مع الخصائص المشتركة بين هذين الغرضَين والتي تُتيح التبديل الاستعاريّ.

(2) المجاز المرسل، ويرتكز على علاقةِ تجاورٍ قائمةٍ بين الغرضَين المتطابقَين مع المَفهمين المرتبطَين بالدالّ المستعمل بيانيّاً.

(3) الكناية، وترتكز على علاقة اشتمال غرضٍ في غرضٍ آخر، في حالة استعمال الكلّ للدلالة على الجزء والعكس بالعكس؛ أو اشتمال طبقةٍ تعيينيَّةٍ في طبقةٍ أخرى (ممّا يؤدّي إلى اشتمالٍ عكسيٍّ لمفهَمٍ في مَفهمٍ آخر) وفي كنايات النوع والصّنف (التي نؤثر من جهتنا تسميتها «تخصُّص واختصاص» و«توسُّع»).

(4) في حال الإغراق والغلو، يشغل كلّ من المفهَمين موقعاً مغايراً عن الآخر على المحور التوكيديّ عينه:

● الإغراق: أي إنَّ المعنى المشتقّ هو أقوى من المعنى الحرفيّ (كما في المثل التالي: «لا أكرهك البتّة» («Je ne te hais point») والمقصود منها «أحبُّكَ» (Je t'aime)).

الإغراق هو «تأكيدٌ مُخفَّفٌ» («hypostatement»)؛

● الغلوّ: أي إنَّ المعنى المشتقّ هو أضعف من المعنى الحرفيّ (كما في المثل الآتي: «أعشقُكَ» («Je t'adore») للدلالة على الحبّ).

الغلوّ هو «تأكيدٌ مُفرِطٌ» («hyperstatement»).

وعليه، ينبغي معالجة هذه المحسنات البيانيّة على أساس التوجُّه البرهانيّ، كما بيّن ذلك دوكرو بشأن الإغراق، وكما اقترح فونتانيي (Fontanier) بشأن

---

et sémiologie, no. 2 (1976); *La Connotation* ([Lyon]: Presses universitaires de Lyon, [1977]); = «L'Image dans l'image,» dans: *Rhétoriques, sémiotiques,* [no. spécial de la «revue d'esthétique», 1-2, 1979], 10-18; 1324 (Paris: Union générale d'éditions, 1979); «L'Ironie comme trope,» *Poétique*, no. 41 (1980), et «Des usages comiques de l'analogie. Comparaison et métaphore: Fonctionnement sémantique et pragmatique,» *Folia linguistica*, vol. 15, nos. 1-2 (1981).

الغلو، عندما كتبَ[11]: «يُسرف الغلو في زيادة أو إنقاص الأشياء، ويقدِّمها أعلى أو أدنى ممّا هي عليه حقيقةً [...]» - وهو لا يخلطُ بين الغلو والإغراق؛ والصحيح أنَّ هاتَين الظاهرتَين تتعلّقان بالقوّة البرهانيّة وليس بالمحتوى الإخباريّ.

يصحُّ ذلك من حيث المبدأ على الأقلّ. وعمليّاً، لنتمثَّل بالعبارات التالية: «أنا على عجلةٍ من أمري» (J'en ai pour une seconde)، و«إنَّه على رمية حجرٍ» (C'est à deux pas)، و«لا حسّ لمخلوقٍ» (Il n'y a absolument personne)، و«لم يغمض لي جفن طوال اللَّيل» (Je n'ai pas fermé l'oeil de la nuit))...، إلخ، المُستعملة كما هو شائعٌ للقول إنَّنا لا نملك متَّسعاً من الوقت، وأنَّ المكان ليس ببعيدٍ، وأنَّه لا يوجد أحد، وأنَّنا لم ننم جيِّداً، فإذا نظرنا إلى هذه العبارات من وجهة نظر المحتوى الإخباريّ، نجد أنَّها تأكيداتٌ مُخَفَّفةٌ (أي إنّها تقول حرفيّاً أقلّ ممّا تريد أن تُفهِمَ)؛ أمّا إذا نظرنا إليها من وجهة نظر القوّة البرهانيّة، نجد أنّها أقوال ذات توجُّه سلبيّ، فهي تأكيداتٌ مُفرطةٌ تبالغُ وتُضيف معانيَ سلبيّةً.

والحال أنّني لاحظتُ أنَّ السواد الأكبر من الأشخاص الذين طرحنا عليهم هذا الموضوع أجابوا عفويّاً أنَّ المسألة هنا هي مسألة إغراق... إلاّ أنّنا إذا «أعدَدناهم» مُسبقاً موضِّحين لهم هذه المشكلة النظريّة، لكان ذلك عدَّل حتماً حدسهم «الساذج».

من اليسير التفريق بين الغلو والإغراق حين يكون المحتوى الإخباريّ والقوّة البرهانيّة للمتتالية - أو إذا جاز التعبير حين يكون التفاوت القائم على هذين الصعيدَين بين المحتويَين الحرفيّ والمشتقّ - من الطبيعة عينها («رأيتُ ذلك للمرّة الألف» («J'ai vu ça mille fois»): ما من مشكلةٍ، إنّه غلوٌّ). ولكن في حال النزاع، لا يمكننا أبداً أن نأخذ بالقوّة البرهانيّة وحدها، وذلك إذا ما أكّدنا على الحدس العفويّ للمتكلِّمين[12].

---

(11) Pierre Fontanier, *Les Figures du discours* ([Paris]: Flammarion, [1968]), p. 123.

(12) لقد رأينا أنّ عبارة «لا يوجد أحدٌ مُطلقاً» («Y a absolument personne») تُعتبر، حين ترمي إلى قول ما معناه أنّ لا يوجد حشدٌ غفيرٌ، تأكيداً مُخفّفاً على الصعيد الإخباريّ، وتأكيداً مُفرطاً على الصعيد البرهانيّ. ولكن قد نقع كذلك على وضع معاكسٍ من النزاع بين وجهتَي النظر الوصفيتّين الإيضاحيتَين هاتَين، كما في عبارة «لا يوجد جمهورٌ من الناس» («Y a pas foule»)، مثلاً، التي تعني الشيء نفسه، حيثُ إنّها تعدّ تأكيداً مُفرطاً على الصعيد الإخباريّ وتأكيداً مُخفّفاً على الصعيد البرهانيّ. والحال أنّ، بعض الأشخاص الذين طلبنا منهم تصنيفها، تردّدوا في اعتبارها إغراقاً (وهي كذلك من وَجهة نظرنا) أكثر مّما تردّدوا في اعتبارها غلوّاً.

(5) التهكّم، ويفترض وجود علاقة تعارضٍ أو على الأقلّ تضادٍ بين مستويَي المحتوى.

ولن نأتي مجدَّداً على ذكر كلّ تفاصيل المشاكل التي تطرحها هذه الصورة البيانيّة، ولكنّنا سنُذكّر بما يلي:

1. إنَّ ما نُعلّق عليه أهميّةً هنا هو المحسن البيانيّ التهكّميّ فقط، أي قلب المعنى، والذي ينطوي على تفاوتٍ قويّ نوعاً ما بين المعنى الحرفيّ والمعنى المُشتقّ. وإنَّ الدقَّة تفرِضُ نفسها لأنَّ مصطلح «التهكُّم» («ironie») يصِفُ أحياناً وحتّى مراراً في الخطاب العاديّ، أقوالاً نفهمُها حرفيّاً، بيد أنَّها تتَّصف بكلّ بساطةٍ بمدلولها الكلاميّ المنطوق ذي الطابع الاستهزائيّ (وعليه نُطلق صفة «تهكُّميّ» على الكلام الاستخفافيّ والساخر والهازئ): وفي إطار هذا المفهوم، لا يمتّ التهكُّم بصلةٍ إلى المحسن البيانيّ.

2. يتضمَّنُ التهكُّم دائماً، بالإضافة إلى كونه محسناً بيانيّاً، مقوّماً تداوليّاً تواصليّاً خاصّاً، وبكلام آخر: أن نسخر يعني دائماً أن نتحامل على «ضحية» بهدف تحطيمها. وهذا ما يؤكّده غريس بالتحديد: «لا أستطيع أن أتهكَّم إلا إذا كان ما أدلي به يَعكِسُ إمّا حكماً ذا طابع عدائيّ أو ازدرائيّ وإمّا شعوراً بالسخط أو الاحتقار أو ما شابه»[13]. ومن هنا، يبرزُ هذا الشرط المُلزِم الذي غالباً ما يُشار إليه في القلب الدلاليّ[14] أو الجذريّ أو المُجتزأ الذي يُميّز المحسن البيانيّ التهكُّميّ. ويُعالج هذا الأخير بأسلوبٍ تقوميٍّ ظاهريّاً حقيقة ينبغي التقليل من قيمتها في الواقع، عن طريق إحلال عبارةٍ إيجابيةٍ في حرفيّتها محلّ عبارةٍ سلبيّةٍ سويّةٍ (والبديهيّ أن ينعكس المسار التأويلي، فيبتعد من المحتوى الحرفيّ الإيجابيّ باتّجاه المحتوى المشتقّ السلبيّ).

3. مع ذلك، يُعطي غريس مثلاً عكسيّاً هو التالي: «يا لك من وغدٍ!»

---

(13) Herbert Paul Grice, «Further Notes on Logic and Conversation,» in: Peter Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics*, Edited by John P. Kimball; Edited by Peter Cole (New York; San Francisco; London: Academic Press, Harcourt Brace Jovanovich, 1978), p. 124.

(14) راجع على سبيل الذكر لا الحصر: Anne Cutler, «On Saying What You Mean without Meaning What You Say,» *Papers from the Regional Meeting, Chicago Linguistic Society*, vol. 10 (1974).

والجدير بالذكر أنّ هذا الحصر لا يصلح في حالة التهكّم الاقتباسيّ، راجع: Kerbrat-Orecchioni, «L'Ironie comme trope,» p. 124.

الذي يُستعمَل في ظروف («What a scoundrel you are!» ou «Quel scélérat!») لا يُمكن معها فهمه بمعناه الحرفيّ بل بغير ما يعنيه صراحةً. ولكن سرعان ما يُردِفُ غريس قائلاً: «ما أقوله هو على سبيل المزاح لا التهكُّم».

ويمكننا على ما يبدو أن نستنتج من هذا المحسن المعاكِس لقلب المعنى التهكُّميّ، ما يلي:

● إنَّه نادرٌ بادئ ذي بدءٍ، أو على الأقلّ أندر بكثير من نقيضه. ونتبيَّن ذلك بشكلٍ أوضح إذا اعتبرنا أنَّ المحتويات التي تغلب عليها نيَّة الإيذاء هي التي تُصاغ صياغةً غير مباشرةٍ (وكما قال براون (Brown) وليفنسون، إنَّنا نميل إلى التعبير عن التهديدات خصوصاً بطريقة غير مُسجَّلةٍ رسميّاً (off record)). وسنستعرض لاحقاً هذا التقارب القائم بين نيَّة الإيذاء وصياغة المُضمَر؛ كما سنُبيِّن الأسباب التي تحدو بالمتكلِّم الذي يقصد معنى (أ)، أن يقول في بعض الحالات أنَّ (أ) # (ب). وفي الواقع، ثمّة مفارقاتٌ مُقلِقَةٌ في المحسن البيانيّ (لا بل في المحسنات البيانيّة كافَّةً). وهي تتجلَّى تماماً في التهكُّم حيث يتعارض صراحةً المعنى الفعليّ مع المعنى الظاهريّ. ولكنَّ البرهنة التي تدَّعي حلَّ هذه المفارقة هي ركيكةٌ، ومفادها ما يلي: إذا ثبُتَ أنَّ المتكلِّم يريد في حالة التهكُّم أن يقصد عكس المعنى الذي يُدلي به، فإنَّنا بالتالي لا نفهم أنَّه لا يفيد صراحةً بهذا المعنى، وبالتالي من الخطأ الاعتقاد بأنَّ التهكُّم يعمل على الشَّكل المُبيَّن أعلاه؛ وعليه نستنتج أنَّه لا يُعدّ محسناً بيانيّاً... وجلّ ما في الأمر، أنَّ المتكلِّمين يشعرون أحياناً بالحاجة إلى هذه المواربة البيانيّة. لماذا؟ إنَّها مسألة سنعود إليها لاحقاً.

وبالعودة إلى قلب المعنى التقويميّ، نجد أنَّه نادرٌ ولكنَّه موجودٌ. هو موجودٌ في اللّغة الإسبانيّة أكثر منه في اللّغة الفرنسيّة على ما يبدو (والمثل على ذلك، لقب الإعجاب «الصامت» (El mudo) الذي يُطلَقُ على مغنّي التانغو الأرجنتينيّ المشهور كارلوس غارديل (Carlos Gardel)؛ وكذلك عبارة التعجُّب هذه «ما أبشعه!» (Qué féo!) التي أُطلقت إثر دخول ثور بكلّ أبَّهةٍ إلى حلبة مصارعة الثيران)؛ ويبرز كذلك في اللّغة الاصطلاحيّة التي يستخدمها السود الأمريكيّون، حيث يكتسب عادةً المصطلح «سيِّئ» (bad) قيمة المُصطلح «مُبتكر»[15] (génial).

---

(15) تقول كاترين تيكسييه في مقالتها Catherine Texier, «Petit Sésame des argots ethniques,» = *Autrement*, no. 39 (avril 1982), p. 24,

أمّا في اللّغة الفرنسيّة، فغالباً ما نجد قلب المعنى التقويميّ هذا في الغزل، إن جاز التعبير، بحسب غيرو[16] (Guiraud)، الذي يؤكِّد أنّ المصطلحات الـ 12000 تقريباً التي يستعملها الفرنسيّون ذكوراً وإناثاً للإشارة إلى الشريك الحبيب هي بأغلبيتها انتقاصيّة في الأصل (من مثل مصطلح «أيّها الذئب» (mon loup)، و«أيّها اللّص» (mon bandit)، و«أيّها النذل» (canaille) و«أيّتها المومس الصغيرة» (ma petite pute)، وغيرها)[17]. وإنَّ المثل التالي مستوحى كذلك من هذا النوع من الخطاب، وهو مأخوذٌ عن جان تارديو[18] (Jean Tardieu)، ألا وهو:

نانين (وهي تُعاتب عتاباً مفعماً بالحنان): «ألفونس! أنا أكرهك!»

NANINE (avec un reproche plein de tendresse).- «Alphonse! Je vous déteste!»

• لكنَّ غريس على صواب، إذ لا يمكننا في مثل تلك الحالات أن نتكلَّم عن التهكُّم - بل عن أسلوب «المُزاح» (playful)، أو على الأصحّ، وبحسب مصطلحيّة البلاغة الكلاسيكيّة، عن أسلوب «المُعاتبة» (astéisme) أو «التحبُّب» (hypocorisme) - في حين يعتبرُ فونتانيي[19] أنّ «المُعاتبة» «هي عبثٌ ناعمٌ وحاذقٌ، نبجِّلُ ونمدَحُ من خلالها، ولكنَّها تتَّخذ مظهر اللَّوم والعتاب». أمّا التحبُّب، فهو، من حيث اشتقاقه في اللّغة الفرنسيّة، نوعٌ من المُداعبة الكلاميّة.

• ويُعطينا بيريندوني[20] مثلاً يُشبهُ مَثل تارديو، من حيث إنَّه يتناول كذلك قولاً يتصادمُ فيه الدالّ الكلاميّ والدالّ الهامشيّ الكلاميّ (وتُشير مسرحيّات تارديو

= ما يلي: إنّ كلمة «سيِّئ» (bad) تُستعمل في معناها المعاكِس للدلالة على معنى «جيِّد» (bon) و«ممتاز» (excellent) (وغالباً ما نصف بها القطعة الموسيقيّة...، إلخ). ويستعملها بوجهٍ خاصّ السود وموسيقيّو الجاز.

(16) Pierre Guiraud, *Dictionnaire historique, stylistique, rhétorique, étymologique, de la littérature érotique*, langages et sociétés. Le langage de la sexualité; t. 1, précédé d'une introduction sur les structures étymologiques du vocabulaire érotique (Paris: Payot, 1978).

(17) الأمر نفسه ينطبق على «كلمات الغزل» التي تزخر بها أغاني مجموعة الكاجون الإثنية (Cajuns) (على غرا ر «يا دميتي» (ma catin) و«يا زنجيّي» (mon nèg))، وعليه: هل يُشكّل التحبُّب مفهوماً شموليّاً لخطاب الغزل؟

(18) Jean Tardieu, «La Société Apollon,» dans: *Théâtre de chambre*, nouv. éd. rev. et augm. ([Paris]: Gallimard, [1966-]), p. 143.

(19) Fontanier, *Les Figures du discours*, p. 150.

(20) Alain Berrendonner, *Eléments de pragmatique linguistique*, propositions (Paris: Editions de Minuit, [1981]), p. 227.

بالطبع إلى حدثٍ ذي طبيعةٍ نبريّةٍ وإيمائيّةٍ)، وهو التالي: «فلنفترض مثلاً [...] أنَّ صديقاً يُلقي عليّ التحيّة، وعلى محيّاه ترتسم ابتسامةً عذبةً، قائلاً: «مرحباً أيُّها الرجل المسنّ، والأخرق عديم النفع!» («Salut, vieux debris, cuistre vain!»)، فما هو «المعنى الحقيقيّ» لفعل القول هذا، وعلى أيّ محملٍ ينبغي أن يؤخَذ؟»

في الواقع، الأمر رهن السياق التعبيريّ الأدائيّ، كالمعلومات التي يملكها المخاطب عن المتكلّم مثلاً (هذا فضلاً عن طبيعة الابتسامة، لأنَّ شتان ما بين ابتسامةٍ وأخرى...).

إليكم الاحتمال الأوّل: يركنُ المخاطب إلى العامل الهامشيّ الكلاميّ، فيؤوِّل الابتسامة حرفيّاً، والعدَّة الكلاميّة الماديّة بيانيّاً. وحتى لو سلّمنا بأنَّ بعض عناصر الحكم الانتقاديّ هي صادقةٌ، فإنَّ النتيجة إيجابيةٌ إجمالاً. وعليه، إنَّه تصريحٌ ودودٌ (أن نضع المعاني بتراتبيةٍ يعني أن نحدِّد القيمة المُهيمنة التي لا تُلغي من هذا المنطلق المعاني التي تنافسُها)، ونستنتج أنَّنا بصدد «مُعاتبةٍ».

وعلى عكس ذلك، يمكن للمخاطب أن يفهم حرفيّاً محتوى القول الكلاميّ، فيعتبره إذاً شتيمةً. أمّا بالنسبة إلى الابتسامة، فهي بيانيّةٌ بخبثٍ (إلا في الحالة التي تُظهر فيها الابتسامة رضا المتكلّم تجاه صيغةٍ استحسنها وتلفَّظ بها).

إليكم تأويلاً محتملاً ثانياً (كما تصوَّره «بيريندوني»)، ومفاده أنَّ المتكلّم يُعبِّر عن انتقاده وحنانه في آنٍ، فلا الكلماتُ كاذبةٌ ولا الابتسامةُ خادعةٌ، ولذلك، وبحسب ريمبو (Rimbaud)، ينبغي النظر إلى «حرفيّتهما وإلى كلّ معانيهما». نستنتج إذاً أنَّ المحسن البيانيّ منعدم الوجود في هذا المثل. ولا يمكننا حتى أن نتحدَّث عن «مفارقةٍ» بل إنَّ المسألة هي مسألة إنتاج مستمدٌّ من «نيّةٍ تواصليّةٍ معقَّدةٍ» ناتجةٍ ببساطةٍ من كون المشاعر ذات طبيعةٍ معقَّدةٍ ومن كوننا قادرين أن نزدري وأن نحبَّ بكلّ جوارحنا في الوقت عينه.

أمّا الاحتمال الأخير، فينصّ على أنَّنا نستطيع أن نُسند إلى المتكلّم نيَّةً واضحةً ولكنَّنا نعجز عن تحديدها لأنَّنا لا نملك المعلومات الضروريّة. ولذلك يبدو لنا القول الآنف الذكر مُلتبساً (ونحار في اعتباره شتيمةً أو مظهراً من مظاهر الحنان)، ونتردَّد في تحديد طبيعة المحسن البيانيّ.

يمكننا أن نعتبر أنَّ التأويلات الثلاثة المذكورة أعلاه قد بلغت مرادها لأنَّ

المخاطب توصّل، عن حقٍّ أو عن خطأ، إلى إسناد معنى يعتبره «الأنسب» إلى قول المتكلّم (وقد لا يتنبّه إلى وجود سوء تفاهم إلاّ لاحقاً، على غرار التفاوت بين المحتوى الذي استخلصه من القول والمحتوى الذي يدّعي المتكلّم أنّه يرمي إليه من خلاله). أمّا في التأويل الأخير، فيمكننا على العكس أن نعتبر أنّ المخاطب قد أخفق جزئيّاً بفكّ «الترميز» (وإليكم تذكيراً بما أكّده ريكاناتي[21]: مادمنا لا نعلم إذا كان القول، مثلاً، يشكّلُ نصيحةً أو تهديداً، وما دمنا لا نعلم على أيّ محمل يجب أخذه، فمن البديهيّ أن لا نقرّ بمعناه الإجماليّ كي لا يفوتنا قسمٌ من قيمته)؛ لقد أخفق لأنّه لا يعرف «على أيّ محملٍ» يجب عليه أن يأخُذَ قول المتكلّم، الأمر الذي يسبّب له القلق (ولاسيّما أنّ المسألة تتعلّق بقولٍ ينطوي كذلك على «جانبٍ إيجابيّ» وبالقوّة عينها) والإرباك (لأنّنا لا نستطيع أن نرُدَّ بشكلٍ مناسبٍ على قولٍ سابقٍ إلاّ بعد أن نفهمه. ويمكننا عند الاقتضاء أن نؤدّي لعبةَ الأقوالِ المُلتبسة ولكن لفترةٍ وجيزةٍ ليس أكثر).

سنة 1980، استنتجنا من تمحيصنا لموضوع «التهكُّم البيانيّ» ما يلي: إنَّ التهكُّم، مقارنةً بكلّ المحسنات البيانيّة الأخرى، يغرق أكثر من غيره في الإبهام. ولا تتعدّى الاستعارة، على الرُّغم من التحديد الواضح لها، كونها إخباريّةً لأنّها تُضفي على تمثيل الغرض التعيينيّ «صورةً مُشارِكةً» مُستحدثةً تقريباً. وما إن يتمّ تحديد المعنى المُشتقّ بشكلٍ مؤكّدٍ، حتى ينزعُ هذا الأخير، في حالة التهكُّم، الملاءمة عن المعنى الحرفيّ. وعليه، تكمن الفائدة الرئيسة من هذا المحسن البيانيّ في الضبابيّة الدلاليّة والشك التأويليّ اللّذين يُنشئهما. ولذلك يكون الرهان على التهكُّم الذي يُربك المُرسَل إليه، خطيراً وجديّاً تقريباً، ويُعتبر على الدوام «تهكُّميّاً طاغياً» (tyronique) بعض الشيء، وهي إحدى كلمات آلان فينكيلكرو الواسعة المدلول. وهذا صحيحٌ أيضاً بالنسبة إلى نقيضه أي «المُعاتبة» ولاسيما تلك الكلمات التي تكثر في الغزل. صحيحٌ أنَّ طريقة عمل هذه الكلمات ليست بهذه البساطة، ولا يسعنا أن نكتفي بالقول إنّها تعبِّر عن عكس ما تريد إفهامه. وصحيحٌ أنَّ المعنى الحرفيّ يبقى حاضراً حتى في حالة النفي، ومن المُفارقة أنّه يتسبَّبِ بـ «المداعبة الكلاميّة» الناتجة من المتتالية المُشينة ظاهريّاً. كما في المثل

(21) François Récanati, *La Transparence et l'énonciation: Pour introduire à la pragmatique*, l'ordre philosophique (Paris: Editions du Seuil, 1979), p. 156.

الآتي: «أنا أتصرَّف كما لو كنتِ مومساً أو امرأةً فظّةً لذلك أحبُّك وأصارحك بحبّي لك. ومع ذلك أنا أدرك أنّه من الطبيعيّ أن أتصرَّف كما لو كان الأمر صحيحاً، وأنَّك تعلمين أنّني أعلم ذلك وأعلم أنَّك تعلمين ذلك، وأنَّ كلينا يعتبرُ هذه الكلمة «كلمةً عذبةً على سبيل الغزل»، ولا نحملها على محمل الشتيمة الفعليّة» («C'est parce que je fais-comme-si tu étais pute, ou une brute, que je t'aime et que je te dis que je t'aime. N'empêche que c'est aussi parce que je sais que c'est de l'ordre du faire-comme-si, et que tu sais que je le sais et que je sais que tu le sais, que toi et moi le prenons comme un «mot doux» - et non comme une injure véritable»).

إلا أنَّ المشكلة لا تكمن أبداً في معرفة التواتر النسبيّ لحالات الشكّ أو المماطلة التأويليّة وللحالات حيث يتمّ التوصُّل فعليّاً ومن دون تردُّدٍ إلى تحديد المعنى «الحقيقيّ»، ففي الحدّ الأدنى، تكون حالات الشكّ طاغيةً عدديّاً، ولا يشكِّل ذلك سبباً كافياً لنجعل من الالتباس معياراً خطابيّاً. والسَّبب الكامن وراء ذلك هو أنَّ المتكلِّمين وإنْ كانوا لا ينجحون دائماً في بلوغ المعنى الحقيقيّ إلا أنَّهم في بحثٍ مستمرٍّ عنه. ويُطلق بيريندوني على هذا البحث صفة «أخلاقيّ» ويتحدَّث بشأنه عن «المذهب الروحيّ»(22). ويقع على كاهل اللُّغويّ الألسنيّ أن يكشف النقاب عن أخلاقيّة المذهب الروحيّ هذا. والحال أنّنا إذا ما سلّمنا بوجود عنصرٍ أخلاقيٍّ في هذه القضيّة فهو «المتكلِّم» وحسب. ولكنّنا في الواقع، لا نفهم بوضوح ما دخل العنصر الأخلاقيّ في هذه القضية. إذ جلّ ما في الأمر هي ردة فعلٍ سيميائيّةٍ ابتدائيّةٍ تدفع كلّ واحد منا، حين يُلقى على مسمعه قولٌ ما، إلى أن يسعى جاهداً لفهمه، أي لربطه بمعنى ما. ولا يتمّ التفاعل طبيعيّاً إلاّ إذا اعتقد المُخاطب، عن حقٍّ أو عن خطأ، أنّه «يُدرك المعنى المقصود» من قول المتكلِّم. ولا يترتب بالطبع على الألسنيّ اللُّغويّ أن يرشدنا إلى «المعنى الحقيقيّ في حدّ ذاته» لأنَّ لا وجود له برأينا، بل من واجبه أن يحاول تفسير الطريقة التي يلجأ إليها المتكلِّمون كي يستخرجوا من القول المعنى الذي يعتقدونه الأصحّ، وذلك

(22) Alain Berrendonner, «Zéro pour la question. Syntaxe et sémantique des interrogations directes,» *Cahiers de linguistique française*, no. 2 (1981), p. 226.

استناداً إلى الألفاظ الدالَّة النصيّة وإلى بعض المؤشِّرات الخارجيّة النصيّة، واستناداً إلى كفاءتهم الخاصَّة؛ ويتوجَّب عليه كذلك أن يفسِّر كيف يُعقل أنَّهم لا ينجحون في استخراجه إلا جزئيّاً، وكيف أنَّهم يستخرجون معنى مغايراً عن المعنى الذي يرمي إليه المُرسِل. فضلاً عن ذلك، يتوجَّب على الألسنيّ اللُّغويّ أن يرصد مُفسِّراً حالات سوء الفهم التي غالباً ما تُعَشِّشُ في قلب التفاعلات الكلاميّة. وإن كان تأثير حالات سوء الفهم هذه يعيق استثنائيّاً الآلية التحادثيّة، فهذا يعني أنَّ المتكلِّمين المتفاعلين يعتبرونه عرضيّاً ليس إلاّ، ويجدون أنفسهم مُجبرين، بغية الاستمرار، على أن يُغَذّوا الوهم لكي يفهموا نوعاً ما كلام الشخص الآخر، وهم يعرفون مثلاً، إذا كان عليهم أن يُؤوِّلوه حرفيّاً أو بيانيّاً.

والأكيد على أيّ حالٍ، أنَّنا لا نستطيع أن نتحدَّث عن محسنٍ بيانيٍّ إلاّ حين نلاحظ أن محتويَين مختلفَين برزا في الوقت عينه، وهما يتنازعان الدالّ عينه، ولكن شرط أن نتوصَّل إلى ترتيبهما. وإذا قلنا إنَّ الأمر يتعلَّق باستعارةٍ هنا وبقلبِ معنى هناك (سواء كان تهكُّميّاً أو تحبُّبيّاً)، فالأمر سيّان كما لو كنّا نقول إنَّ المعنى الحرفيّ لا يُعدُّ هنا إلا فخّاً، وإنَّ المعنى الحقيقيّ هو المعنى المشتقّ الذي يتوارى وراء المعنى الأوَّل (والذي يقف مواجهاً له في علاقاتٍ معيَّنةٍ). وإذا عجزنا، في حالة متتاليّةٍ معيَّنةٍ من إقامة هذه التراتبيّة، فلا يسعنا اعتبارها محسناً بيانيّاً. أمّا إذا رفضنا، على مستوى نظريٍّ أشمل، أن نسلِّم بوجود هذه التراتبيّة، فعلينا أن نمتنع إلى الأبد عن التكلُّم عن الاستعارة والمجاز المرسل وقلب المعنى والإغراق وحتى الإبدال. وعلى سبيل المثال، يُعتبر الكلام عن «صيغة الحاضر السرديّ» في الواقع اعترافاً بأنَّ القيمة الخاصَّة لهذه الصيغة (التي نُسمِّيها تحديداً صيغة «الحاضر»، لأنَّ الدالّ يستمدّ اسمه من القيمة الدلاليّة المُهيمنة) تعني أنَّنا نحصر الجملة في الوقت صفر (T_0) الذي يتزامن جزئيّاً على الأقلّ مع فعل القول. ولكن تُستعمل الصيغة الكلاميّة في إطار السياق للإشارة إلى وقوع فعل القول في الماضي (في وقتٍ معيَّن T يسبقُ الوقت صفر T_0). وحتى لو احتفظت الصيغة الكلاميّة بقيمتها الأوَّليّة، فهي تُشير كذلك وفي الوقت عينه إلى إعادة تفعيل الجملة وهميّاً. ويعني ذلك أن نُسلِّم بأنَّ تراتبيّة القيَم الخطابيّة تنقلبُ رأساً على عقب بالنسبة إلى تراتبيّتها اللُّغويّة.

(6) الإبدالات، ويصنّفها فونتانيي تحت عنوان «صور خطابيّة تختلف عن المحسنات البيانيّة»، ونعزو ذلك من دون ريبٍ إلى الخاصيّة النحويّة التي يمتاز بها الدالّ الذي ترتكز عليه. ولكنّنا نعتبرها محسناتٍ بيانيّةً سواء كانت إبدالاتٍ زمنيّةً أو إبدالاتٍ بين أشخاص المتكلّم والمخاطب والغائب، وهي مُمَعجمةٌ بدرجاتٍ متفاوتةٍ (والمثل على ذلك، استعمال الضمير أنتم (vous) «للاحترام»، والضمير نحن (nous) «للجلالة» أو «للتواضع»[23]، والضمير أنا (je) أو نحن (nous) للدلالة على المُحاوِر، أو الضمير أنتَ (tu) مكان الضمير المجهول (on) أو الضمير هو (il) مكان الضمير أنت (tu) أو الضمير أنا (je)، إلى آخره[24]. ويمكننا أن نربُط هذه الصور بالإبدال المظهريّ[25] الذي يُنشئه «التكرار الزائف» بحسب جينيت[26] (Genette) الذي كتب عنه مستوحياً بعض الاستعمالات الخاصّة بصيغة «كان + الفعل المضارع» (Imparfait) عند بروست (Proust).

إنَّ الإبدالات تتعلَّق بـ «التداوليّة التواصليّة التعبيريّة الأدائيّة» كونها تستثمر عناصر الإشارة[27]. وكذلك يُمكن جمع أغلبيّتها تحت عنوان «المحسنات البيانيّة التداوليّة التواصليّة»، ولم تبرز الظواهر التي سنراها الآن إلا حديثاً على الساحة الألسنيّة اللُّغويّة، وبالتالي لم تلحظها البلاغة الكلاسيكيّة، ويُمكن فهرستها على محور المحسنات البيانيّة الاستبداليّ.

(23) التي نقوم نحن باستعمالها في هذا الصدد - مع أنّني لست راضيةً عن ذلك تماماً، إذ إنّ تضمينات هذا الضمير الطنّانة الرنّانة والمتحجّرة، وإشكاليات التطابق التي يطرحها، كلّ ذلك يُضايقنا ويعطينا شعوراً بسيطاً بالانزعاج. ولكننا لم نتوصّل بعد إلى عقد العزيمة على استعمال الضمير «أنا» (je) بشكلٍ منهجيّ، علماً بأنّه لا يزال في هذا النوع من الخطابات «موسوماً» إلى حدّ يُحدِث فيه أحياناً بعض التأثيرات غير المرغوب بها، وإنّ ترداده المُستثمر لا «يمرّ» دائماً بشكلٍ جيّد.

(24) راجع بهذا الشأن كتابنا: Catherine Kerbrat-Orecchioni, *L'Enonciation de la subjectivité dans le langage*, linguistique (Paris: A. Colin, 1980), pp. 62-66.

(25) المصدر نفسه، ص 65 و175.

(26) Gérard Genette, «Essai d'analyse narrative: Proust et le récit itératif,» dans: Pierre R. Léon, [et al.], *Problèmes de l'analyse textuelle = Problems of Textual Analysis* (Montréal; Paris; Bruxelles: Didier, 1971).

(27) في ما يتعلّق على أيّ حالٍ بالإبدالات الزمنية أو بالإبدالات بين أشخاص المتكلّم والمخاطب والغائب. أمّا بالنسبة إلى الإبدال المظهريّ، فالأمر يتعلّق هنا بفئةٍ إن لم تكن ذات طبيعةٍ «إشاريةٍ» فهي ذات طبيعةٍ «ذاتيةٍ».

2.3. بعض المحسنات البيانيّة «غير الكلاسيكيّة»

1.2.3. المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق

بغية استكمال ما سبق ذكره بشأن المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق إليكم بعض البراهين التي تبرِّر سبب معاملتنا بعض حالات الاشتقاق الكلاميّ المنطوق معاملة المحسنات البيانيّة. وسنضع هذه البراهين على شكل لائحةٍ بالخصائص المشتركة بين حالات الاشتقاق الكلاميّ المنطوق وبين المحسنات البيانيّة «الكلاسيكيّة».

1. تماماً كما اضطررتُ إلى وضع الاستعارة البيانيّة (التي تتميَّز بإحلال المحتوى المُشتقّ محلّ المحتوى الأوَّليّ[28] في مقابل «التضمين الاستعاريّ»، أجد من المناسب أن أضع المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق (الذي هو عبارةٌ عن إحلال القيمة الكلاميّة المنطوقة المُشتقَّة محلّ القيمة الكلاميّة المنطوقة الأوَّليّة) في مقابل «الاشتقاق التلميحيّ» (أو «التضمين الكلاميّ المنطوق»)؛ وفضلاً عن ذلك، إنَّ محور التعارض هذا هو تدرُّجيٌّ.

2. وتماماً كما درجت العادة أن نميِّز الاستعارات المُمَعجمة عن الاستعارات الابتكاريّة، نجد كذلك إلى جانب المحسنات البيانيّة الكلاميّة المنطوقة المُمَعجمة محسناتٍ بيانيّةً كلاميّةً منطوقةً ابتكاريّةً. ولا تتشكَّل هذه الأخيرة إلاّ بفضل بعض الشروط المُلزِمة الاستثنائيّة ذات الطابع السياقيّ أو السياقيّ الحالي للنصّ.

وإليكم بعض الملاحظات بشأن هذا التعارض:

- لا تخضع كلّ المحسنات البيانيّة بالتساوي للشرطين الآنفَي الذكر. وتتَّخذ بعض هذه المحسنات شكل المحسنات البيانيّة المُمَعجمة حصريّاً. وعليه، نستطيع أن نُبيّن أنَّ من بين المحسنات البيانيّة «الكلاسيكيّة»، لا نُطلق صفة «حيّة» سوى على الاستعارة والمجاز المرسل والكناية للدلالة على الجزء. وفي المقابل، قلَّما يُعتبر بعضها الآخر محسنات بيانيّة ابتكاريّة (أو على الأكثر «كليشيهات»). وينطبق ذلك أيضاً على التهكُّم[29] والإغراق والغلوّ، فضلاً عن «المحسنات البيانيّة

---

(28) استُعملت الصفة «أوّليّ» بهذا الصدد بمعزلٍ عن أيّ اعتبارٍ تعاقبيٍّ تطوريٍّ، باعتبارها وحدة معجميّة صغرى مثاليّة من شأنها أن تُبطل تأثير التعارض بين «الحقيقيّ» في مقابل «الحرفيّ» (وبشكلٍ موازٍ تُبطل الصفة «اشتقاقيّ» تأثير التعارض بين «اشتقاقيّ لغويّ» في مقابل «اشتقاقيّ خطابيّ»).

(29) انظر بشأن هذه الإشكالية: Kerbrat-Orecchioni, «L'Ironie comme trope,» p. 109.

الإضماريّة» التي سنستعرضها لاحقاً.

- إنَّ المَعجَمَة هي مسألة تفاوتٍ في الدرجات؛ وعليه، تُمثِّل «المجازات» الشَّكل النهائيّ للرمزية المحتملة، وتشغلُ «الكليشيهات» مكاناً متوسِّطاً بين المحسنات البيانيّة المُمَعجَمة الصريحة والمحسنات الابتكاريّة الجليّة.

- ويمكننا بالإضافة إلى ذلك أن نلاحظ أنّه كلَّما كان المحسن البيانيّ مُمَعجماً أكثر، ازداد شفافيّةً، وأوشك طابعه كمحسنٍ بيانيٍّ أن يغيب عن ذهن الشخص الذي يفكّ ترميزه. ويتجلَّى ذلك، على سبيل المثال، في الترجمات المُقترحة له: فهي إمّا تُغفل، من جهةٍ، ترجمة المحسن البيانيّ على الرُغم من توفُّر ما يعادله في اللّغة المُترجم إليها (والمثل الأوَّل على ذلك، العبارة الفرنسيّة التالية: «يرقص الشباب طيلة اللّيل في حين يغرق الأطفال والمسنّون في سباتٍ عـمـيـقٍ» («Les jeunes gens dansent toute la nuit tandis que les enfants et les vieillards sommeillent»)، وهذه ترجمة مأخوذةٌ من «لوحة» صور متحرِّكة ظهر في فيلم لغريفيث (Griffith) يحمل عنوان «ولادةُ أمَّةٍ» (Naissance d'une nation). ويتضمَّن هذا المثل ثلاث حالاتٍ من كناية التجريد وهي «الصبا» («youth») و«الطفولة» («childhood») و«الشيخوخة» («old age»))؛ والمثل الثاني هو الجواب العفويّ الذي أعطاه مدرِّس اللّغة الإنجليزيّة في معرض الردّ على السؤال الذي وجَّهتُهُ إليه عن كيفيّة ترجمة العبارة الفرنسيّة التالية إلى اللّغة الإنجليزيّة: أبمستطاعك أن تتكلَّم! («Tu peux parler!»)، وكان جوابه: ألديك متَّسعٌ من الوقت لتتكلَّم! (you have no room to talk!)؛ أمّا المثل الثالث، فهو تعليقُ برنارد بيفو (Bernard Pivot) على ما قاله ليفي - ستراوس (Lévi-Strauss) الذي باح لنا (في البرنامج التلفزيوني «**المناجاة**» («Apostrophes»)) في 4 أيار/مايو 1984) بأنّه «ليس متفائلاً» (pas optimiste) في ما يتعلّق بمستقبل البشريّة، وقد سأله بيفو: «لنتكلَّم قليلاً عن «تشاؤمك»... بما أنَّك تلفَّظتَ بهذه الكلمة» («Revenons un peu sur votre pessimisme... puisque vous avez pronounce le mot»). وإنَّ هذا الإسهاب هو خير دليلٍ على الطابع المُمَعجَم أو على الأقلّ المُقوْلَب الذي يُسنده مُفسِّره إلى العبارات المعنيّة المتعلِّقة بالكناية وقلب المعنى والإغراق). وإمّا على العكس، تُضيف هذه الترجمات من جهةٍ ثانية، محسناً بيانيّاً حيث لا وجود له في النصّ الأصليّ (والمثل على ذلك، الحاشية السينمائيّة لفيلم «تانكريد» (Tancrède) للمؤلف روسيني (Rossini) والذي أُعيد بَثّهُ على الشاشة

الصّغيرة والذي أدخل المجاز المرسل في العبارة التالية «[لا تنسَ أنّك] دمّي» («[N'oublie pas que tu es] mon sang»)، في حين أنَّ النصّ الإيطاليّ الأصليّ يقول ببساطة «دمّي» («mia figlia»).

والحال أنَّ زوبير يُبدي الملاحظة عينها بشأن بعض المحسنات البيانيّة الكلاميّة المنطوقة، فيقول ما يلي: «أعتقد أنّنا نستطيع أن نؤكّد أنَّ تواتر الأفعال المشتقَّة غالباً ما يؤدّي بمستخدم اللّغة إلى ألاّ يُدرك الطابع غير المباشر والمشتقّ للأفعال اللُّغويّة التي يُنجزها. وغالباً ما تُترجَم، في المعاجم أو كتب اللّغات الأجنبيّة، عبارةٌ تحمل بطريقةٍ غير مباشرةٍ دلالةً غير حرفيّةٍ[30]، بعبارةٍ تنقل حرفيّاً الدلالة عينها[31].

- وحتى لو كانت المحسنات البيانيّة المُمَعجمة مبطَّنةً أكثر من المحسنات البيانيّة الابتكاريّة، وحتّى لو كان المعنى المشتقّ فيها ذا طابع حرفيٍّ[32] نوعاً ما، فإنّها تُعدّ في صفوف المحسنات البيانيّة، ويتَّخذ فيها المعنىً الأوّليّ شكلاً تعيينيّاً (ويشكِّل ذلك أحد المقاييس التي يمكننا الإفادة منها لفصل المعنى الحقيقيّ لعنصرٍ مُعجميٍّ ما عن معانيه المجازيّة على اختلافها. والمثل على ذلك أنّني حين أتحدَّث عن «نهرٍ من الماس» («Rivière de diamants») يلوح بين السطور طيف المعنى الحقيقيّ، في حين أنَّ كلمة «نهر» («Rivière») المُستعملة بمعناها الحقيقيّ، لا تستدعي عادةً البحث عن قيَمِها الاستعاريّة). وإنَّ الاستعارات التي نصفها ِ «الميتة» هي في الواقع تلك التي خُلِّدت، كما يقول سيرل[33]، والتي تمدُّنا حتى بالحياة، وذلك بحسب لاكوف وجونسون (Johnson) القائِلَين: «إنَّها «حيّةٌ» في المفهوم الجوهريّ لأنَّها استعاراتٌ نحيا من خلالها[34]. وكونها مُثبتةً توافقيّاً في المعجم الإنجليزيّ، فذلك لا يُقلِّل أبداً من كونها حيّة»[35]. وينطبق

(30) وسنطلق عليها، بحسب المصطلحية التي نعتمدها، تسمية «غير حقيقيّةٍ».

(31) Ryszard Zuber, «Statut sémantique des actes indirects,» *Communications*, no. 32 (1980), p. 241.

(32) بحسب آليّةٍ عمَدَ سيرل إلى وصفها: (Searle, *Sens et expression: Etudes de théorie des actes de langage = Expression and Meaning*, p. 165).

(33) المصدر نفسه، ص 129.

(34) على أيّ حالٍ، هذه هي الفكرة الرئيسيّة التي سُمّيَ هذا الكتاب الذي يحمل عنوان **الاستعارات التي نحيا من خلالها** (*Metaphors We Live by*) تيمّناً بها.

(35) George Lakoff and Mark Johnson, *Metaphors We Live by* (Chicago, IL; London: University of Chicago Press, 1980), p. 55.

ذلك على المحسنات البيانيّة المُمَعجمة قاطبةً.

- تنشأ المحسنات البيانيّة المُمَعجمة عموماً على هذا الشَّكل في قلب «النظام المزدوج» المُكمِّل لكلّ اللّغات. ومنها ما يُميِّز لغةً محكيّةً معيَّنةً عن أخرى أو «رمزاً خاصّاً» معيَّناً عن رمزٍ آخر. والمثل على ذلك عبارة «أتريد ممارسة الحبّ؟» («faire catleya») الخاصّة سوان (Swann) وأوديت (Odette) أو المجاز المرسل التالي المأخوذ من لغة كريستيان ميتز (Christian Metz) المحكيّة الوحيدة، حيث يقول: «في الوقت الذي أكتب فيه هذه الجُمل، ومنذ عدّة أيام أي تقريباً منذ أن بدأَتْ هذه المقالة تشغل تفكيري، بدأ «كومبريسور» في شارع مجاورٍ يصمُّ أذنَي من دون توقُّفٍ. واعتَدتُ، عندما «أحدِّث» نفسي، أن أشير إلى هذا النصّ الذي لم أضع له عنواناً، بعبارة «مقالة الكومبريسور»[36] (l' «article marteau-piqueur»).

والحال أنّنا نلاحظ وجود الظاهرة عينها في حالة المحسنات البيانيّة الكلاميّة المنطوقة. وعليه، يذكر مورغن[37] (Morgan) على سبيل المثال القول التالي: «هل أبدو رجلاً ثريّاً؟» («Est-ce que j'ai l'air d'un homme riche»)، ويعني ذلك عادةً في بعض حالات الرمز الخاصّ ما يلي: «أرفضُ أن أقرضك مالاً» («Je refuse de te prêter cet argent»)، وبالتالي يتّخذ هذا القول شكل المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق المُمَعجم في هذه الحالات، في حين أنّه قد يُعتبر في حالاتٍ أخرى شكلاً من أشكال المحسن البيانيّ الابتكاريّ.

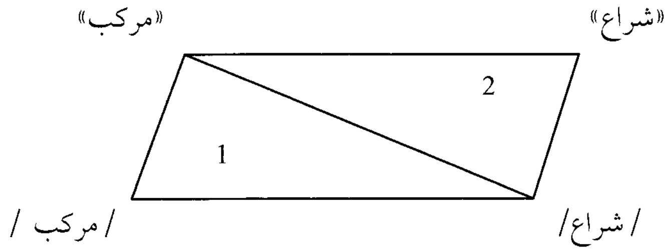
3. كلّ محسن بيانيّ هو انحرافٌ لغويٌّ ويتميَّز بآليّة الاستبدال. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو استبدال ماذا بماذا، وانحراف ماذا بالنسبة إلى ماذا؟

ولا نستطيع أن نجيب عن هذا السؤال إلا إذا أدركنا بدقّة الفرْق، وذلك بحسب تودوروف، بين المنظورَين الوصفيَّين الإيضاحيَّين التاليَين:

«فلنأخذ على سبيل المثال الصورة المكوَّنة من كلمة شراع (voile) للدلالة على المركب (vaisseau):

(36) Metz, *Le Signifiant imaginaire: Psychanalyse et cinéma*, p. 192.

(37) J. L. Morgan, «Two Types of Convention in Indirect Speech Acts,» in: Peter Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics*, Edited by John P. Kimball; Edited by Peter Cole (New York; San Francisco; London: Academic Press, Harcourt Brace Jovanovich, 1978), p. 275.



ثمّة احتمالان للتبديل في هذا المثل. إمّا أن نحتفظَ بكلمة شراع ثابتةً، وأن نقيسَ المسافة بين معنيَيها أي معنى شراع ومعنى مركب (انظر إلى المثلث الأوَّل)، أو أن نحتفِظَ بمعنى (الشيء) مركب ثابتاً، وأن نقارن كلمتَي شراع ومركب الصالحتَين للإشارة إليه»[38].

وبكلامٍ آخر، نرى ما يلي:

من وجهة نظر دراسة معاني الكلمات (sémasiologie) (المُستعملة لفكّ الترميز)، يُمكن تحديد المحسن البيانيّ كما يلي: «إحلال معنى محلّ معنى آخر». إنّه انحرافٌ دلاليٌّ يمتاز بإحلال معنى محلّ معنى آخر يكون «سويّاً» أكثر (أي إحلال المعنى الاشتقاقيّ اللّغويّ محلّ المعنى الحقيقيّ في المحسن البيانيّ المُمَعجم، وإحلال المعنى الاشتقاقيّ الخطابيّ محلّ المعنى الحرفيّ في المحسن البيانيّ الابتكاريّ).

أمّا من وجهة نظر دراسة كيفية تسمية المفاهيم أو الأشياء (onomasiologie) (المُستعملة للترميز)، فيُمكن تحديد المحسن البيانيّ كالآتي: «إحلال كلمة محلّ كلمة أخرى». إنّه انحرافٌ في التسمية يمتاز بإحلال دالٍّ محلّ دالٍّ آخر يكون مُرتقباً أكثر[39].

يُمكن إدراج المحسنات البيانيّة كافّةً في إطار وجهتَي النظر المذكورتَين

---

(38) (انظر إلى المثلث الثاني) Tzvetan Todorov, *Littérature et signification*, langue et langage (Paris: Larousse, 1967), p. 98.

(39) وعليه، يُعتبر المجاز (على غرار العبارتَين التاليتَين: «أجنحة الطاحون» («les ailes du moulin») و«أرجل الكرسيّ» («les pieds de la chaise»)) نوعاً من أنواع «المحسن البياني النصفيّ»، لأنّه يستعمل مصطلحاً يكون من وجهة نظر دراسة كيفيّة تسمية المفاهيم أو الأشياء سويّاً، في حين يكون من وجهة نظر دراسة معاني الكلمات منحرفاً (عملية تفعيل معنى غير حقيقيٍّ). وهذا بلا ريب ما حدا بفونتانيي الذي يؤيّد في الأصل وجهة نظر دراسة كيفيّة تسمية المفاهيم أو الأشياء، إلى استبعاده من مجموعة «الصور».

أعلاه، حتى لو درجت العادة، وما زلنا نجهل السبب، «أن نقارن دائماً، في حالات الاستعارة، مختلف معاني الكلمة (أي دراسة التعدُّديّة الدلاليّة). أمّا في حالات المجاز المرسل والكنايات، فنضع المصطلح الأوّل في مقابل المصطلح الثاني لنرى ما علاقة الواحد بالآخر ونحاول بعدها تصنيفهما (أي دراسة الترادف)[40]» (وذلك بحسب «تودوروف» أيضاً[41]. ولكن وجهة نظرنا، علماً بأنّ مرادنا هو محاولة إنشاء نموذج تأويليّ، هي، باستمرارٍ وعزم، دراسة معاني الكلمات. ولهذا السبب سنطلق مثلاً على الظاهرة التي تسمِّيها البَلاغة الكلاسيكيّة «كناية النَّوع» تسمية «تخصُّص واختصاص» (والمثل على ذلك عبارة «الدَّاب على الأربع الذي يرغي ويزبد»(*) (Quadrupède écume)) وتسمية «توسُّع» على ما تعتبره البلاغة الكلاسيكيّة، من وجهة نظر دراسة كيفيّة تسمية المفاهيم أو الأشياء التي تتبنَّاها، كناية الصّنف.

ولهذا السبب، سنقوم في حالة المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق بشكلٍ عامٍّ، وفي المثل التالي بشكلٍ خاصٍّ:

المتكلم: هيَّا بنا نذهب إلى السينما هذا المساء.

المخاطب: عليّ أن أدرس للامتحان.

L_1. - Let's go to the movies tonight.
L_2. - I have to study for an exam.

بوصف القيمَتين الكلاميَّتَين المنطوقتين المرطبتَين بردّ المخاطب كالآتي:

القيمة الأولى: هي القيمة الكلاميّة المنطوقة الخبريّة = أي الأوَّليّة.

القيمة الثانية: هي القيمة الكلاميّة المنطوقة «لرفض الاقتراح»: وهي اشتقاقيّة (لكنَّها تعيينيّةٌ في حال وجود محسنٍ بيانيٍّ).

---

(40) وقد كرّس بوتييه (Bernard Pottier, *Linguistique générale: Théorie et description*, initiation à la linguistique: Série B. Problèmes et méthodes; 3 (Paris: Klincksieck, 1974)), هذا التقليد تقليداً أبديّاً بتصنيفه عملية التحويل إلى استعارة في عداد العلاقات التي يتقاسم فيها دالاًّ واحداً أكثر من مدلولٍ واحد (1 Sa / plusieurs Sé) (ص 89)، بينما يُصنّف عملية التحويل إلى مجاز مرسل في صفوف العلاقات التي يتقاسم فيها مدلولاً واحداً أكثر من دالٍّ واحدٍ (1 Sé / plusieurs Sa) (ص 91).

(41) Todorov, Ibid., pp. 98-99.

(*) استُعملت هذه الكناية في حكاية **الأسد والحطّاب** (*Le Lion et le Boucheron*) في إحدى الحكايات على لسان الحيوانات التي ألّفها جان دو لا فونتين (Jean de La Fontaine) للدلالة على الأسد.

والحال أنَّ سيرل الذي اقتبسنا عنه هذا المثل[42] يؤكِّد عكس ذلك تماماً، فهو يعتبر أنَّ القيمة الأولى (i) تُشير إلى فعلٍ كلاميٍّ متضمَّن في القول «ثانويّ»، في حين تُشير القيمة الثانية (ii) إلى فعلٍ «ابتدائيّ»...، ويسير آخرون على خُطاه.

أمّا بالنسبة إلى المثل التالي «أتمرِّر لي الملح من فضلك؟» («Pouvez-vous me passer le sel?»)، فيكتب سيرل كذلك ما يلي:

«يطرح المتكلِّم بوضوح سؤالاً تُبيِّنُه صيغة الاستفهام في الجملة؛ فهو إذاً يستعلم عن قدرة المُستمع في تمرير الملح له. ولكنَّه لا يُنجز هذا الفعل المُصنَّف بالثانويّ لهذا السبب، إلا بغية التعبير عن الهدف «الابتدائيّ» الذي يرمي إليه من قوله، أي بغية إظهار نيَّته التوجيهيّة، ألا وهي: دفع المُستمع إلى تمرير الملح له»[43]. ويتيح هذا التصريح المجال لتعيين مصدر حدوث مثل هذا التباعد المصطلحيّ على الشَّكل التالي: أوّلاً، يُؤيِّد سيرل، من دون أن يقول ذلك جهاراً، وجهة نظر دراسة كيفيّة تسمية المفاهيم أو الأشياء؛ وثانياً، إنَّ المقصود أوّلاً في الواقع، وذلك من وجهة نظر تسلسل أحداث الترميز، هو من دون ريب القيمة الثانية (في حين أنَّ الشخص الذي يفكّ الترميز لا يستخرجُه إلا في مرتبةٍ ثانيةٍ)، ولا نعبِّر في الصياغة المباشرة المعنيَّة إلا عن هذه القيمة؛ وثالثاً وأخيراً، المسألة هنا هي مسألة القيمة المُهَيمنة و«الجوهريّة» للقول (ولا تشكل «النية المُشار إليها في الجملة والتي نسمِّيها «نيّة ثانويّة» سوى وسيلة تعبير عن نيَّةٍ جوهريّةٍ أكثر نسمِّيها «نيّة أوّليّة»»). ولكنَّ ذلك لا يصحُّ إلا في حالة المحسن البيانيّ. والحال أنَّ «سيرل» يعامل كلّ حالات الاشتقاق الكلاميّ المنطوق المعاملة عينها. ويطلق دائماً على القيمة الكلاميّة المنطوقة المشتقَّة صفة «أوّليّة»، وعلى القيمة الكلاميّة المنطوقة الحرفيّة (أو الحقيقيّة) صفة «ثانويّة». وعليه، فهو يخلط بين هذين المبدأين المُفرِّقَين التاليَين: طابع القيمة الكلاميّة المنطوقة المطروحة الحرفيّ في مقابل طابعها غير الحرفيّ = أي طابع هذه القيمة الثانويّ (ونعتبر هذا

(42) John R. Searle, «Indirect Speech Acts,» in: Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics*, pp. 60 et sqq.

(43) Searle, *Sens et expression: Etudes de théorie des actes de langage = Expression and Meaning*, p. 10.

الطابع تضمينيّاً) في مقابل طابعها الأوَّليّ (التعيينيّ). ونجد أنَّه من الضروري فصل هذين المبدأين لكي نعرض بدقَّةٍ ميزة المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق بالنسبة إلى الاشتقاق التلميحيّ حيث لا يمكننا أن نعتبر القيمة الحرفيّة، حتّى ولو كان ذلك من وجهة نظر سيرل، ذات طابعٍ «ثانويٍّ».

4. وعلى أيّ حالٍ، نعتمد إحدى وجهتَي النظر هاتين على المحسن البيانيّ؛ فمثلاً، سواء اعتبرنا المحسن البيانيّ فعل تسميةٍ مُنحرفٍ أم إسناد قيمة تداوليّة تواصليّة دلاليّة مُنحرفة إلى متتاليةٍ ما، فالأمر سيّان لأنَّ مَن يقول محسناً بيانيّاً، يقول انحرافاً بالنسبة إلى استعمالٍ يُقال إنَّه أكثر صواباً وملاءمةً بالنسبة إلى معيارٍ ما أو لنكون أكثر دقَّةً، بالنسبة إلى معيارَين.

إذ إنَّ تحديد المحسن البيانيّ، يعني أن نُدرك وجود تفاوتٍ وحتّى نزاعٍ بين المعنى البدائيّ (أكان حقيقيّاً أم حرفيّاً) والمعنى المُلائم مرجعيّاً. وعليه، يمكنّنا أن نتحدَّث عن حكمٍ معياريٍّ ما إن نبلغ هذين المستويَين.

ـ إنَّ تحديد المعنى البدائيّ يطرح مسألة الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة التي يتمتَّع بها الشخص الذي يفكّ الترميز؛ ويفترض أن يكون هذا الأخير قادراً:

● في حالة محسنٍ بيانيٍّ مُمَعجَم ما، على أن يعزل معنى حقيقيّ ما عن مجمل المَفاهم التي تشكِّل مدلول الوَحدة المعنيّة. وهي عمليةٌ سهلةٌ في حالةٍ مُشابهةٍ للمَثَل التالي: «هذا «السجق» بيار» («Cette andouille de Pierre») حيث تكون الاستعارة جليّةً. ولكن من غير الممكن دائماً، حتى ولو لجأنا إلى مقاييس ذات طابعٍ تواتريٍّ أو توزيعيٍّ أو نفسانيٍّ ألسنيٍّ لغويٍّ، أن نضع بهذه السهولة المَفاهم بشكلٍ تراتبيٍّ. أمّا بالنسبة إلى المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق، فإنَّ هذه التراتبيّة تندرج في المصطلحيّة القواعديّة الأقدم والمقبولة بشكلٍ أفضل. تماماً كما نتكلَّم عادةً عن «صيغة الحاضر»، ونسلِّم انطلاقاً من هنا أنَّ هذا الدالّ يشير بالضّبط إلى فكرة الحاضر، كذلك من المألوف أن نتحدَّث عن «جملة استفهاميّة» أو «جملة أمريّة» أو «جملة خبريّة» للدلالة على بعض البُنى النحويّة التي نعتبر أنَّ غايتها السويّة تكمنُ في نقل قيمةٍ كلاميّةٍ منطوقةٍ على شكل سؤالٍ أو أمرٍ أو إثباتِ حالةٍ؛

● وفي حالة محسن بيانيّ ابتكاريّ ما، على الشخص الذي يفكّ الترميز أن

يتعرَّف على المعنى الحرفيّ (حقيقياً كان أم لا) المُرتبط بالمتتالية التي تطرح إشكاليّة.

ولا نفهم بوضوح كيف يُمكن دحض الفكرة القائلة بأنَّ بعض المعاني فقط ترتبط بدالٍّ معيَّنٍ في اللّغة (حتى ولو ارتبطت به عرضاً بعض المعاني الأخرى في حالة الخطاب). طبيعيّاً، إنَّ كلمة «منجل» («faucille») لا تعني / هلال/ (/lune/)، وعبارة «لا أكرهك البتّة» («Je ne te hais point») لا تقول تماماً ما تعنيه عبارة «أحبُّكَ» («Je t'aime»)، فأن نتمتَّع بكفاءةٍ ألسنيّةٍ لغويّة، يعني أن ندركَ أنَّ المتتاليّات ذات الطابع الدالّ ليست متعدِّدة المعاني بشكلٍ لامتناهٍ؛ وبكلامٍ آخر، لا يساوي بعضها البعض الآخر.

إلاّ أنَّ هذه الكفاءة غير واضحةِ المعالم، وهي في المقابل تتغيَّر من شخصٍ إلى آخر، ولاسيما إنَّ «المعنى الحرفيّ» لا يتألَّف من النواة السيميّة للعنصر الألسنيّ اللُّغويّ الذي يُشكِّلُ موضوع توافقٍ قويٍّ نسبيّاً وحسب، بل أيضاً من علاقاته التضمينيّة التصوُّرية التي تختلف بشأنها الكفاءات بشكلٍ ملموسٍ، والتي تحدِّد مع ذلك الملاءمة المرجعيّة للعنصر الألسنيّ اللُّغويّ المطروح، فلنفترض بالتالي أنَّ المطر ينهمر، وأنَّ المتكلِّم يقول بتهكّم: «يا له من طقسٍ جميلٍ!» («Quel joli temps!»)، فسيتَّفق الجميع على القول إنَّ صفة «جميل» («joli») تعطي حرفيّاً تقويماً إيجابيّاً. في المقابل، وفي سياق الأحوال الجويّة بشكلٍ عامٍّ، تدلُّ هذه الصفة على أنَّ الشمس ساطعةٌ، ولا يصحّ ذلك إلا بشكلٍ عامٍّ فقط، فلو افترضنا مثلاً أنَّ المخاطب يستسيغ المطر ويعتبرُه جميلاً، فمن المحتمل أن يردَّ قائِلاً: «صدقتَ» («C'est bien vrai»). أمّا إذا افترض المخاطب لعدَّة أسبابٍ أنَّ المتكلِّم يحبُّ المطر، فبمستطاعه إذاً أن يُجيبه قائلاً: «أتعتقد ذلك حقّاً؟» («Tu trouves?»). ولكنّه في الحالتَين يُخفِقُ في التنبُّه إلى وجود التهكُّم. ويُخطئ في المقابل إذا اعتقد بوجود قلبٍ للمعنى في عبارات التعجُّب التي أدلت بها إحدى الشخصيّات في فيلم آلان تانر (Alain Tanner) بعنوان «السنوات الضوئيّة» (Les années lumière)، وهي تتأمَّل السماء وقد لاحت في الأفق بواكير إعصارٍ مخيفٍ، فقالت: «ما أروع الطقس! يا له من يوم خلاّبٍ!» («Quel temps superbe! Quelle journée magnifique!»). ويُنبئنا السياق الحاليّ للنصّ بأنَّ «يوشكا» (Yoshka) جديّ لأقصى حدود، فهو يحبُّ فعلاً الطقس عندما يكون «رديئاً» («mauvais»).

ـ ممّا يدلُّ في المقابل على تدخُّل الكفاءة الموسوعيّة التي يتمتَّع بها الشخص الذي يفكّ الترميز، بغية تحديد المعنى التعيينيّ هذه المرّة، بالإضافة إلى تلك التي يَفترِضُ هذا الأخير أنَّ المُرسِل يتمتَّع بها؛ هذا فضلاً عن ضرورة وجود معيارٍ تحليليٍّ وتقويميٍّ للمرجع الخطابيّ، حقيقيّاً كان أم تخيُّليّاً[44]، إلى جانب معيارٍ ذي طبيعةٍ دلاليّةٍ.

في الواقع أتمكّن (حتى لو أنَّ بعض المؤشّرات ذات الطابع الحاليّ أو الخارجيّ النصيّ قادرةٌ على أن تُعزّز هذه المعطيات)، انطلاقاً ممّا أخمّنه عن المرجع الخطابيّ بشكلٍ أساسيٍّ، وممّا أعتقده عن رأي المتكلّم بشأنه، من تحديد «ما يقصده فعلاً من قوله»، فلو افترضنا أنّني أعتبر عبارة «يا له من طقسٍ جميلٍ!» («Quel joli temps!») تهكُّميّةً، يُعزى سبب ذلك إلى أنّني أملك أسباباً وجيهةً تحملني على الاعتقاد بأنَّ الطقس كونه على حالته الراهنة، يصعب على المتكلّم أن يكون صادقاً في وصفه بالـ «جميل» («joli»)؛ وكذلك لو اعتبرتُ أنَّ العبارة التالية التي أدلت بها «شيمين» (Chimène)، ألا وهي: «لا أكرهك البتّة» («Je ne te hais point») هي إغراقٌ، يُعزى سبب ذلك إلى أنّني أملك أسباباً وجيهةً، وذلك استناداً إلى ما يمكنني إعادة بنائه بفضل السياق الحاليّ للنصّ عن وضعها العاطفيّ، تحملني على الاعتقاد بأنّها لو استعملت العبارة الأقوى، وهي: «أحبُّكَ» («Je t'aime») لكان ذلك أكثر صواباً وملاءمةً (ونلمس هنا كيف يترابط وصف دراسة معاني الكلمات مع وصف دراسة كيفيّة تسمية المفاهيم أو الأشياء. وعليه، إنَّ المعنى المُشتقّ هو المعنى الحرفيّ للصياغة المباشرة الملائمة، ويعني تحديده إعادة بناء الدالّ السويّ). وعلى العكس، لو اعتبر رولان بارت (Roland Barthes) مثلاً أنَّ الكتابة الثوريّة لا تتّسم بالغلوّ، فذلك لأنّه يكيلها بمكيال السياق التاريخيّ، ويقول: «كانت الكتابة الثوريّة عبارة عن القصائد الملحميّة التي كانت وحدها قادرةً على أن تُكمل مسيرة المقصلة اليوميّة، فما يبدو اليوم تضخيماً، لم

---

(44) في حال استطاع كونو أن يعنونَ أحد **تمارينه الأسلوبية** (*Exercices de Style*) تحت عنوان «إغراقات» (Litotes)، وإذا ما استطاع القارئ أن يُسلّم بفكرة أنّ هذا الأخير يتمحور حول صيغة المحسن البياني، فمردّ ذلك إلى كونهما يقوّمانه نسبةً إلى «التمرين» الافتتاحيّ المُسلّم به باعتباره نصّاً مرجعيّاً ينطوي على الحقيقة المرجعية.

وهو مثلٌ مناسبٌ انطلاقاً من واقع أنّ النصوص التخيّليّة تعمل من وجهة النظر هذه، أسوةً بالعديد من النصوص، وبالطريقة نفسها التي تعمل بموجبها النصوص غير التخيّليّة.

يكن آنذاك سوى الحقيقة من دون زيادةٍ أو نقصانٍ. هذه الكتابة التي تحتوي على كلّ رموز التضخُّم، لم تكن إلا الكتابة الدقيقة»[45] («L'écriture révolutionnaire fut ce geste emphatique qui pouvait seul continuer l'échafaud quotidien. Ce qui paraît aujourd'hui de l'enflure n'était alors que la taille de la réalité. Cette écriture qui a tous les signes de l'inflation fut une écriture exacte»). ويعود سبب ذلك إلى أنَّ الحقيقة «تبالغ» أحياناً وليس الخطاب... وأخيراً، واستناداً إلى الحساب والحسبان المتعلِّقَين بالحوافز التداوليّة التواصليّة للمتكلِّم حين يُدلي بقولٍ ما في إطار السياق، أتمكَّن احتماليّاً من تأويل قوله باعتباره ينطوي على محسنٍ بيانيٍّ كلاميٍّ منطوقٍ.

ولكنَّ المسألة هنا هي دائماً مسألة حسابٍ وحسبان. وإنَّ مخاطر عدم التوافق بشأن مختلف هذه المعايير لكبيرةٌ. وتتموضع هذه الخلافات على صعيد أحد المستويَين التاليَين، أو على كليهما، ألا وهما: مستوى دلالة الوحدات الفعليّة، ومستوى تحليل المرجع الخطابيّ. ويكمن دور كلّ عملية ألسنيّة لغويّة في وضعهما متوازنَين.

- يمكن حدوث تباعدٍ في تقويم المعنى الحقيقيّ للقول، فلو افترضنا على سبيل المثال، أنّني أعتبر أنَّ فعل «فرقَعَ» («crépiter») يعني «إسماع تتابع أصواتٍ لا رنين لها»، لا أعترف بوجود محسنٍ بيانيٍّ في المثل التالي: «فرقَعَ التصفيق» («les applaudissements crépitent»)، في حين أجد في هذا المثل استعارةً (مُمَعجمة) إذا اعتبرتُ أنَّ هذا الفعل يُستعمل حرفيّاً وبشكلٍ أدقّ للدلالة على صوت النار. وكذلك أجد استعارةً في عبارة «حشدٍ من الأفراد» («une horde d'individus»)، وذلك إذا توهَّمتُ (عن طريق تشبيه كلمة «حشد» («horde») عن غير وجه حقٍّ بالكلمة المجانسة لها «قطيع» («harde»)) بأنَّ هذا المصطلح يُستعمل مبدئيّاً للدلالة على قطيع من الحيوانات، فضلاً عن أنَّ معجم *Le Petit Robert*[46] يحدِّد هذا المصطلح كالآتي: «فرقةٌ أو مجموعةٌ من الأشخاص غير المنضبطين» («troupe ou groupe

(45) Roland Barthes, *Le Degré zéro de l'écriture*, collection «pierres vives» (Paris: Editions du Seuil, [1953]), p. 35.

(46) *Le Petit Robert 2: Dictionnaire universel des noms propres alphabétique et analogique...*, sous la direction de Paul Robert, rédaction générale, Alain Rey, 5ème éd. revue, corrigée et mise à jour (Paris: S. N. L. - Le Robert, 1981).

d'hommes indisciplinés »). وكذلك، يمكن حدوث تباعدٍ في تقويم المعنى الحرفيّ، فمثلاً، عندما أقرأ عند راسين (Racine) العبارة التالية «شرارةٌ سوداء» («Flamme noire»)، أميل إلى تأويلها باعتبارها استعارةً ابتكاريّةً، إلا إذا تآلفتُ بمثابرةٍ مع النصوص المعاصرة له أو إذا اطّلعتُ على معاجم تلك الحقبة، فسيدفعني ذلك إلى اعتبارها مُعادلاً مُمَعجماً لعبارة «حبٌّ أثيمٌ»[47] («amour coupable»). وإليكم مثلاً آخر يتعلّق بعيدان الثقاب الرطبة والجامحة والتي يُقال لي إنّها «تُشعِلُ شرارةً طويلةً» («font long feu»). بادئ ذي بدءٍ، أرى في هذا المثل قلباً للمعنى. وثمّ، بعد أن أصحّحَ مفهومي الأوّليّ لمعنى هذه العبارة الحرفيّ، أتذكّر أنَّ عبارة «تُشعل شرارة طويلة» («faire long feu») تُستعمَل أوّلاً للإشارة إلى «رصاصةٍ تشتعل شرارتها ببطءٍ شديدٍ» («Une cartouche dont l'amorce brûle trop lentement»)، وأقول لنفسي إنَّ هذا هو المعنى الذي أراد المتكلّم من دون ريبٍ أن يسنده إلى قوله. وعلى الفور، ينتفي وجود المحسن البيانيّ. وليس تحديد المعنى الحرفيّ أمراً مسلّماً به في حالة هذه الأقوال السّلبية التي تصلح طوعاً كقاعدةٍ لطرق العمل الإغراقيّة، فإذا ثبُتَ، بحسب ما يقترحه دوكرو[48]، أنَّ الدلالة الحرفيّة لعبارة «ليس فلانٌ جميلاً» («x n'est pas beau») هي أقرب من عبارة «فلانٌ بشعٌ» («x est laid») أكثر ممّا تقترب عبارة «ليس بشعاً» («il n'est pas laid») من عبارة «فلانٌ جميلٌ» («x est beau»)، أي إنَّ:

عكس ب أ، ولكن عكس ب = أ،

− +   + −

(47) غالباً ما يدفعنا جهلُنا إلى معاملة بعض الاستعارات المُمعجَمة «العاميّة» معاملة الاستعارات الابتكارية. وهكذا، يُسرُّ بورج (J.-L. Borges) لنا بخيبة أمله إثر اكتشافه أنّ الصِيَغ المعروفة بالكينينغار (Kenningar) في الشعر الإسكندنافيّ، وهي صِيَغٌ مُعَمَّية يزخر بها الشعر الإيرلنديّ (على غرار العبارات التالية: «طعام الغربان» («nourriture de corbeaux») و«عاصفة السيوف» («tempête d'épées») و«بيسون حقل النورس» («bison du pré de la mouette»)...، إلخ) ليست إلاّ «مرادفاتٍ مُقرّرة سلفاً» للكلمات التالية: «جثة» و«حرب» وسفينة»، ويُردف قائلاً: «باعتبار أنّ هذه الأبيات تكون متضافرةً في أبيات الشعر التي تدعمها، فهي تُشكّل بادئ الأمر مفاجآتٌ سارّةٌ، ولكن سرعان ما نشعر أنّ لا طائل تحتها وأنّها متكلّفةٌ ولا فائدة تُرتجى منها» (Jorge Luis Borges, *Histoire de l'infamie. Histoire de l'éternité* (Monaco: Editions du Rocher, 1951), p. 197).

هذه هي «حقيقة صِيَغ الكينيغار المُخيِّبة للآمال»، كما يقول بورج الذي يُقرّ مع ذلك بأنّ هذه الاستعارات مهما كانت مُعجَمةً فهي ليست مُجرّدةً كليّاً من أيّ قيمةٍ تعبيريّةٍ.

(48) Oswald Ducrot, *Dire et ne pas dire: Principes de sémantique linguistique*, collection savoir (Paris: Hermann, 1972), pp. 138-139.

ويكون بالتالي تأثير الإغراق المحتمل أكثر وضوحاً حين يكون المصطلح المنفيّ نفسه سلبيّاً (أي «موسوماً»)، فمثلاً، لو استعملنا عبارة «ليس بيار ثقيل الظلّ» («Pierre n'est pas antipathique») للدلالة على أنَّ «بيار جذابٌ» («Pierre est sympathique»)، تكون العبارة الأولى أكثر إغراقاً من عبارة «ليس بيار جذاباً» («Pierre n'est pas sympathique») التي تعني في الواقع أنّه ثقيل الظلّ. لا يولد المحسن البيانيّ إلاّ في حال وجود مسافةٍ تفصل بين المعنى المُشتقّ والمعنى الحرفيّ؛ وكلّما ازدادت هذه المسافة، كان المحسن البيانيّ أقوى[49].

- فلنتصوَّر أنّه على الرُّغم من العقبات التي يطرحها أحياناً التحديد الدقيق لمعنى المتتالية الحرفيّ، يتشاطر المتكلّم والمخاطب المفهوم عينه. وقد يحدث على الرُّغم من ذلك أن يعتبر أحدهما أنَّ قولاً ما هو إغراق أو غلوّ في حين يعتبره الآخر قولاً «سويّاً»، أو العكس بالعكس.

- أمّا إذا تباعد تقويمهما للمرجع الخطابيّ هذه المرّة (والمثل على ذلك، ما يقوله لويس لامبير[50] (Louis Lambert)، ومفاده: «إنَّ فعل صَدَم (Traumatiser) هو فعلٌ مُبالغٌ فيه بغباوةٍ في السواد الأكبر من استعمالاته. ألا «نصدم» شابّاً ارتكبَ جنحةً حين نحكم عليه؟ أَوَلا «نصدمُ» كذلك تلميذاً عندما نعطيه علامةً سيِّئةً على فرضه السيِّئ؟»). هذا النوع من التباعد التأويليّ هو من دون شكّ مألوف أكثر من التباعد الآنف الذكر، لأنّنا نميل إلى الاعتقاد بأنَّ الكفاءات الموسوعيّة للمتكلّمين هي أكثر تنوّعاً من كفاءاتهم الألسنيّة اللُّغويّة.

ومهما يكن من أمر، لا يُعاد بناء المعنى التعيينيّ إلا تخمينيّاً - ويُشكِّل ذلك تحديداً أحد المُبرّرات الأساسيّة للمحسن البيانيّ، ألا وهو: إدخال حيِّزٍ متغيِّرٍ من الإبهام الدلاليّ في الخطاب. وسنتناول لاحقاً مختلف المؤشّرات التي تدعم عمليّة البحث عن المعنى التعيينيّ ومختلف مراحل إعادة بنائه وبعض الشكوك التأويليّة وبعض حالات الإبهام وسوء التفاهم التي تُنشئها طرق العمل البيانيّة. ولكن بغية

---

(49) وبوجهٍ خاصّ، يكون الإغراق أكثر ضعفاً من قلب المعنى إذ في حال أغفلنا وجود قلب المعنى، نكون قد ارتكبنا تفسيراً معكوساً، في حين أنّنا إنْ لم ندرك وجود الإغراق، يكون قد فاتنا التنبّه إلى «فارقٍ» بسيطٍ.

(50) Louis Lambert, *Formulaire des officiers de police judiciaire, formation, style, droit* (Paris: Editions Police-revue, 1970), p. 58.

إنهاء الحديث مؤقّتاً بشأن المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق، سنذكر ميزةً أخيرة تقرِّبه من المحسنات البيانيّة «الدلاليّة»، وهي:

5. تماماً كما تتعلّق شروط الحقيقة (للملاءمة المرجعيّة) في استعارةٍ ما، قبل كلّ شيء بالمعنى المُشتقّ، كذلك إنَّ «شروط نجاح» المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق هي تلك الشروط التي تُميِّز قيمته الكلاميّة المنطوقة المُشتقَّة وليس الأوَّليّة مطلقاً (يخضع الطلب غير المباشر إلى الشروط التي تميِّز البحث، وكذلك يخضع التساؤل الخطابيّ إلى شروط التأكيد والإخبار). وبكلامٍ آخر، يُشكِّلُ المحتوى المُشتقّ، في المحسن البيانيّ مهما كان نوعه، المعنى «الحقيقيّ» للمتتالية، أي المعنى التي تهدف إلى نقله.

والحاصل أنَّ خاصيّة المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق الوحيدة تتعلّق بطبيعة وحدتَي المحتوى المعنيَّتَين في طريقة العمل البيانيّة، أي بالقيَم الكلاميّة المنطوقة. وعليه، يمكن اعتبار المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق «محسناً بيانيّاً تداوليّاً تواصليّاً» (وهو مستمدٌّ من «التداوليّة التواصليّة الكلاميّة المنطوقة»)، في حين تُعتَبر المحسنات البيانيّة «الكلاسيكيّة» التي تعمل على بعض عناصر المحتوى الجُمَيليّ «محسنات بيانيّة دلاليّة» (حتى ولو كانت تُحدِث ثانويّاً بعض التأثيرات التداوليّة التواصليّة الخاصَّة).

تحصرُ البلاغة الكلاسيكيّة لائحة المحسنات البيانيّة الدلاليّة ببعض الحالات المحدَّدة بوضوح (بقدر ما يرتبط المعنى المُشتقّ بوحدة مُعجميّة، ويُقيم علاقةً معيَّنةً مع المعنى الأوَّليّ). والحال أنَّ عدّة عناصر أخرى للمحتوى الجُمَيليّ قد تشهد طريقة عملٍ بيانيّةٍ مُماثلةٍ. وأكثر من ذلك، يبدو أنَّ كلّ أنواع المحتويات المُفترضة والمُضمَّنة قادرة في بعض الظروف (لأنَّ المسألة هنا هي مسألة المحسنات البيانيّة الابتكاريّة) على أن تخضع لآليّة «الصعود نحو السطح» التي تميِّز المحسن البيانيّ. وسنطلق تسمية «محسن بيانيّ إضماريّ»، وذلك لأنَّنا لم نجد تسميةً أفضل، كلّ مرّةٍ يُشكِّل فيها المحتوى المُفتَرَض أو المُضمَّن في إطار السياق، موضوع الرسالة الكلاميّة الحقيقيّ الواجب نقله[51].

---

(51) لقد رأينا أنّه يُمكن للقيمة الكلامية أن تُضاف إلى المحتوى الجُمَيليّ سواء كان مُطابقاً للمحتوى الجُمَيليّ المنسوب إلى القيمة الكلامية المنطوقة الحرفية (على غرار المثل التالي: «هلاّ فتحت النافذة؟» «Tu pourrais ouvrir la fenêtre?») أم مختلفاً عنه (على غرار ما يلي: «الحرّ شديدٌ هنا!» («Il fait chaud ici!»))=

2.2.3. المحسن البيانيّ الإضماريّ

1 ـ المحسن البيانيّ «الافتراضيّ»

كما أشرنا في مُستهلّ بحثنا، إنَّ المحتويات «المُقرَّرة» هي مبدئيّاً الوحيدة القادرة على أن تُشكِّل موضوع التبادل التواصليّ في حين أنَّ الافتراضات وُجدت كي تؤمِّن «إطاراً» للخطاب، أي «إسقالةً» تُبنى عليها المحتويات المُقرَّرة. يصحّ ذلك من حيث المبدأ. . ولكن أحياناً يحصل عكسُ ذلك تماماً في إطار السياق، أي يبدو أنَّ المحتوى المُفتَرَض هو الذي يُشكِّل في الواقع موضوع الكلام الحقيقيّ. وعليه، نجد أنَّ التراتبيّة المألوفة لمستويات المحتوى مقلوبةٌ رأساً على عقب، فنرى أنَّ المحتوى المُضمَر الذي يكون ثانويّاً عادةً قد أصبح جوهريّاً، وأنَّ المحتوى البيِّن الذي يكون جوهريّاً عادةً قد أصبح مهمَّشاً؛ فينشأ المحسن البيانيّ.

أتحدَّث عن وجود محسنٍ بيانيٍّ افتراضيٍّ ما إنْ يُستعمَل صراحةً قولٌ ما (وبعض «مؤشِّرات» المحسن البيانيّ هي خير دليلٍ على ذلك) كي يُبلِّغَ بادئ ذي بدءٍ بما يفترضه، وإليكم الأقوال التالية كأمثلةٍ على ذلك:

المثل الأوَّل: أقلع بيار عن التدخين (Pierre a cessé de fumer)

المثل الثاني: لماذا لم تعد تحبّني؟ (Pourquoi est-ce que tu ne m'aimes plus?)

المثل الثالث: تركتُ سيّارتي في المرأب[52] (J'ai laissé ma voiture au garage).

= وفي الحالة الثانية، يزدوج بالتالي المحسن البياني الكلامي المنطوق مع محسنٍ بيانيٍّ إضماريٍّ، وينشأ هذَين المحسنَين البيانيَين بتكافل.

(52) إنّ مثل السيارة مُقتبسٌ عن دوكرو (Oswald Ducrot, *La Preuve et le dire: Langage et logique*, avec la collaboration de M. C. Barbault et J. Depresle, repères. Série bleue. Linguistique; 4 ([Paris]: Mame, [1974]), pp. 219-222), حيث يقول ما يلي: «يكون غرضي الدلاليّ من جملة «سيّارتي في المرآب» («Ma voiture est au garage») أن أُعلِم المخاطب الذي أتوجّه إليه بالحديث (أو في حمله على الاعتقاد) بأنّني أملك سيّارةً». ولكنّ دوكرو يتحدّث في هذا الصدد عن «الاستعمال التضمينيّ» ويؤكّد وجوب فهم هذا القول باعتباره تضميناً». أمّا من وجهة نظرنا، فنؤثر أن نقول إنَّ المحتوى الافتراضيّ، أي التضمينيّ عادةً، يُصبح هنا تعيينيّاً مع احتفاظه بوضعه كمحتوى مُضمَر.

وبشأن موضوع «بلاغة عملية الافتراض» انظر أيضاً: Oswald Ducrot, «Note sur la présupposition et le sens littéral,» dans: Paul Henry, *Le Mauvais outil: Langue, sujet et discours*, horizons du langage: Série recherches, avec une postface de Oswald Ducrot (Paris: Klincksieck, 1977), p. 193.

المثل الرابع: تركتُ زوجي في باريس (J'ai laissé mon mari à Paris)

في الواقع، عندما تعني هذه الأقوال، في إطار السياق (ولدينا أسبابٌ وجيهةٌ تحملنا على أن نعتقد ذلك)، ما يلي:

كان بيار يدخّن سابقاً (Pierre fumait auparavant)

لم تعد تحبّني (Tu ne m'aimes plus)

أملك سيّارةً، ولدي زوجٌ (J'ai une voiture, J'ai un mari)

نستطيع وصف طريقة العمل الدلاليّة في المثل الأوّل، كالآتي:

المحتوى الأوّل (م$_1$): / لا يُدخّن بيار حاليّاً/ (/Pierre ne fume pas actuellement/): وهو محتوى بيّن ولكن تضمينيّ.

المحتوى الثاني (م$_2$): / كان بيار يُدخّن سابقاً/ (/Pierre auparavant fumait/): وهو محتوى مُضمر ولكن تعيينيّ.

يدلّنا أحياناً تسلسل الكلام الحاليّ النصيّ أو المونولوجيّ أو الحواريّ على ضرورة اعتبار المتتالية محسناً بيانيّاً افتراضيّاً أو على أنّ المخاطب يعتبرها كذلك. ولكن كون المخاطب قد «صنّف» للتوّ (كمُبيّنٍ أو مُفسّرٍ أو موضوعَ نزاعٍ) افتراضاً ما أدلى به المتكلّم، لا يُثبتُ ذلك بالضرورة طريقة عمل هذا الافتراضِ البيانيّة، والمثل على ذلك هو:

(البروفسور: [...] سأنادي زوجتي.

الزائر (وقد انتابته فجأةً نوبةٌ هيستيريّةٌ من الضحك): ألديك زوجةٌ أنت! ها! عجباً! (وراح يضحك بفظاظة) ها! ها! زوجة! ها! لا أصدّق!... هذا مضحكٌ للغاية!...)[53].

(LE PROFESSEUR. - [...] Je vais appeler ma femme...

LE VISITEUR (soudain hilare). - Vous avez une femme, vous! Ah! par exemple!

(il rit avec cruauté) Ah! ah! Une femme! ah! non!... c'est impayable!...)

ينشأ المحسن البيانيّ ما إنْ يعمد الشخص الذي يفكّ «الترميز» ليس إلى

---

(53) Jean Tardieu, «La Politesse inutile,» dans: Tardieu, *Théâtre de chambre*, p. 27.

تركيز نشاطه التأويليّ على المحتوى المُفترَض فحسب بل أيضاً حين يفترِضُ أنّ هذا المحتوى هو تحديداً المحتوى الذي يودُّ المُرسِل أن ينقله من باب الأولويّة. ونرى بوضوحٍ أنَّ ذلك لا ينطبقُ على المثل الآنف الذكر.

تُبنى مثلُ هذه الفرضيّة عموماً في غياب كلّ تأكيدٍ نصيٍّ حاليٍّ واضحٍ، على قاعدة برهنةٍ كالآتي: كنتُ أجهل حتّى ذلك الحين المعلومة التي تمّ افتراضُها للتوّ ولدي أسبابٌ وجيهةٌ تحملني على الاعتقاد بأنَّ المتكلِّم على يقينٍ أنَّني أجهلها؛ بيد أنَّ المسألة هنا هي، استناداً إلى ما أعرفه عن المتكلِّم، معلومة يعتبرها جوهريّة. والحال أنّه يتعيَّن مبدئيّاً إقامة المعلومات الجديدة والمُثيرة للاهتمام في آنٍ في القول على شكل محتوياتٍ «مُقرَّرةٍ»، فإنْ انتهك المتكلِّم لتوّه قاعدةً أساسيّةً من قواعد حسن استعمال المُضمَّنات، فمردّ ذلك بلا ريب إلى أنّ المعلومة موضوع البحث التي يُريد أن يوصلها إليّ بطريقةٍ مُنحازةٍ (لعدَّة أسبابٍ متعلّقةٍ بطبيعة هذه المعلومة التي من الأفضل معالجتُها بحذرٍ)، وعليه تقضي الحيلة بدسِّها مواربةً، وإضافتها إلى المحتويات المُقرَّرة، أي بالتظاهر أنّه يتكلَّمُ عن أمرٍ آخر، وبالتالي، أن يحتفِظَ لنفسه في الوقت عينه بدور الفاضل، كأن يقول: «هل يُعقَلُ أنَّك لا تعلم؟ ولكنَّني كنتُ أعتقد أنَّك على علمٍ بذلك! حقّاً لم أكن أريد أن أكون أنا مَن يُخبِرُك بذلك...» («Comment, tu ne le savais pas! Mais j'étais persuadé que tu étais déjà au courant! Non vraiment, ce n'est pas de cela que je voulais t'informer...»).

وبالتالي، إنَّ سؤالاً كالآتي: «منذ متى تعلمان أنَّ ابنكما يتعاطى المخدِّرات؟» («Depuis combien de temps savez-vous que votre fils se drogue?»)، يمكن أن يكون «طريقةً قاسيةً لإبلاغ الوالدَين بالمصيبة التي تحلّ بهما»، كما يقول أنسكومبر[54].

وعليه، من غير المُفاجئ أن نجد هذه الطريقة الاستراتيجيّة مراراً وتكراراً في الخطاب السياسيّ أو الجدليّ أو الإعلانيّ.

● وإليكم بعض الأمثلة عن شعاراتٍ إعلانيّةٍ تنطوي على محسنٍ بيانيٍّ افتراضيٍّ:

---

(54) Jean-Claude Anscombre, «Il était une fois une princesse aussi belle que bonne,» *Semantikos*, vol. 1, no. 2 (1976), pp. 20-21.

المثل الأوَّل: [المياه المعدنيّة «إيفيان»]، نشربها من دون أن ندرك أنَّها مياه المراعي الخضراء...

[L'eau d'Evian], nous la buvons sans avoir peut-être compris qu'elle est l'eau des verts pâturages...

المثل الثاني: لا تتركوا اللُّباب في قعر الزجاجة.

Ne laissez pas la pulpe au fond de la bouteille.

المثل الثالث: العطلة في جزر «الباهاماس» لن توفِّر عليكم أموالكم فحسب بل ستبقى كذلك محفورةً في ذاكرتكم.

Des vacances aux Bahamas ne sont pas seulement économiques, mais elles sont aussi inoubliables.

المثل الثالث: ستكون لنا الغلبة لأنَّنا الأقوى.

Nous vaincrons parce que nous sommes les plus forts.

المثل الرابع: منتوجاتنا هي الأقلّ كلفةً لأنَّها الأكثر مبيعاً[55]،

Nos produits sont les moins chers parce qu'ils sont les plus vendus,

يمكننا الاعتقاد بأنَّ هذه الأقوال ترمي قبل كلّ شيءٍ إلى إبلاغنا أنَّ «إيفيان» هي مياه المراعي الخضراء؛ وأنَّ زجاجات عصير «أورانجينا» تحتوي على لبابِ البرتقال؛ وأنَّ العرضَ المقدَّم على العطلة الآنفة الذكر هو ادِّخاريٌّ؛ وأنَّ الماركة المذكورة ستكون لها الغلبة؛ وأخيراً، أنَّ المنتوجات المذكورة هي الأقلّ كلفةً (تطرح مبدئياً البُنية التالية: «الجُمَيلة الأولى «ج» هي نتيجةٌ سببيّةٌ للجُمَيلة الثانية «د»» («p parce que q») كمُقرِّرٍ حقيقةَ العلاقة السببيّة بينهما، ولكنَّه يفترضُ أنَّ الجُمَيلة الثانية «د» حقيقيّةٌ، كما تبيِّنه مجموعة العمل «ë-1» التي تفسِّر المثلَين الأخيرَين[56] كما يلي: بدلاً من أن أؤكِّدَ بفظاظةٍ حدثاً ما ـ الأمر الذي يُشير إلى أنّه قابلٌ للتنازع ـ أقترحُ له شرحاً يُظهِرُ أنَّ الحدث عينه هو خارج دائرة الشكّ).

---

(55) إنّ المثلَين الأوّل والثاني مأخوذَين عن ليندكينز (René Lindekens, «Sémiotique du discours publicitaire,» *Documents de travail et prépublications. Centro Internazionale di Semiotica e di Linguistica. Universita di Urbino*, no. 45 (1975)),
في حين أنّ الثالث مقتبسٌ عن دوكرو (Oswald Ducrot, «Structuralisme, énonciation et sémantique,» *Poétique*, no. 33 (1978), p. 125),
أمّا المثلان الأخيران، أي الرابع والخامس، فهما مقتبسَان عن: Groupe ë-1, «Car, parce que, puisque,» *Revue Romane*, vol. 10, no. 2 (1975).

(56) Groupe ë-1, Ibid., p. 260.

● وإليكم مثلاً مستوحى من مقالةٍ عنيفةٍ كتبها ميشال دروا (Michel Droit) وقد صدرت في *Le Figaro-magazine* في 1 حزيران/ يونيو عام 1979[57]، وكانت تستهدف سيرج غاينسبورغ (Serge Gainsbourg) لأدائه النشيد الوطنيّ الفرنسيّ لا مارسيييز (Marseillaise) على إيقاع الموسيقى الجامايكيّة.

ويُقسم هذا النصّ إلى قسمَين. نقرأ في القسم الأوّل (حيث تتمحور الفكرة الرئيسة حول صيغة البيِّن[58] ما مفاده: إنَّ غاينسبورغ نذلٌ يُدنِّسُ «أقدس مقدسأتنا» أي نشيدنا الوطنيّ. أمّا في القسم الثاني، فنقرأ ما هو أسوأ بعد. ماذا؟ نقرأ أنَّ «غاينسبورغ» قد يُشجِّع، من خلال تصرُّفه على هذا النحو، الفكرة - الخاطئة طبعاً - القائلة بأنَّ اليهود هم أعداء فرنسا. وعليه، إنَّه مُحرِّضٌ على مناهضة الساميّة (وبذلك يطعن في الظهر إخوانه في الدين)؛ والحال أنَّ مناهضة الساميّة أمرٌ شنيع جداً، وليس الظرف مؤاتياً للتحريض عليها.

---

(57) Michel Droit, *Le Figaro-magazine* (1 juin 1979), p. 77.

(58) في حال وُجِدَت. . . على غرار المثل التالي: «[. . .] كمٌّ من الهذيان المُستمدّ ظاهريّاً من الاستيهامات الإباحية الناجمة عن خرفٍ سابقٍ لأوانه، وكأنّ الكاتب كان يودّ أنّ يُقدّم لنفسه ما يُسمّى «بالمنشطات المُعوِّضة» («[...] un certain nombre d'élucubrations puisant apparemment à des phantasmes érotiques d'une sénilité précoce, comme si l'auteur voulait s'offrir ce qu'on pourrait appeler des «remontants compensatoires»»).

وإليكم أيضاً المثل التالي: «منذ بضعة أيّام، شاهدنا سيرج غاينسبورغ على الشاشات الصغيرة! آه! ولكي يُتحفنا بالنشيد الوطني الفرنسي الذي ابتدعه علَى طريقته، فلقد تزيَن بلباسه المسرحيّ وعمِلَ على تحسين طريقته في التعبير وحركاته وتصرّفاته، فها هو بعينَيه الأغمصَين ولحيته التي لم يحلقها منذ ثلاثة أيّام وشفته السّفلى التي يسيل عليها اللعاب وقميصه الرياضيّ المترهّل ببراعة، وهو يحشر يديه في عمقِ أعماق جيبتيّ بنطاله. وباختصارٍ، كان يبدو منهاراً بلطفٍ ووقحاً بدقّة أكثر، وبمنتهى القذارة بشكلٍ قاطعٍ أكثر من أيّ وقتٍ مضى. واعذروني على صراحتي وعلى نقص رأفتي الفطرية ربّما، ولكنّني ما إن ألمح سيرج غاينسبورغ أشعر بأنّني أصبح عالمًا بيئيّاً. وأقصدُ بذلك أنّني سرعان ما أجد نفسي في حالة مناهضةٍ لنوعٍ من أنواع التلوّث الذي يكتنفني والذي إخاله يتصاعد من شخصيّته ومن تحفته الفنيّة، تماماً كما ينبعثُ التلوّث من بعض أنابيب الانفلات تحت نفقٍ طريقيّ ما» («L'autre jour, sur les écrans de télévision, nous l'avons vu, Serge Gainsbourg! Ah, pour nous bavoter «sa» Marseillaise, il avait peaufiné sa tenue de scène et soigné l'expression, le geste, l'attitude. Oeil chassieux, barbe de trois jours, lippe dégoulinante, blouson savamment avachi, mains au fond des poches. Bref, plus attentivement délabré, plus minutieusement débraillé, plus définitivement «crado» que jamais. Que l'on veuille bien m'excuser de dire aussi nettement les choses et de manquer peut-être à la plus élémentaire charité, mais quand je vois apparaître Serge Gainsbourg, je me sens devenir écologiste. Comprenez par là que je me trouve aussitôt en état de défense contre une sorte de pollution ambiante qui me semble émaner spontanément de sa personne et de son œuvre, comme de certains tuyaux d'échappements sous un tunnel routier»).

أمّا بالنسبة إلى المحتويات البيّنة، فيتظاهر دروا بأنّه إنسانٌ طيّبٌ ويمنحُ نفسه شهادة تقوى في معاداة فكرة مناهضة الساميّة. بيد أنّ النصّ يكشف لنا بشكلٍ مُضمرٍ أمراً مغايراً تماماً، ومفاده «أنّه لا يُمكن لإنسانٍ سليم النيّة أن يُفكّرَ في ربط هذا التحريف الفاضح حتى ولو كان واهياً لنشيدنا الوطنيّ بيهوديّة غاينسبورغ. ولكن ليس تحديداً الأشخاص السليمو النيّة هم الذين يحملون لواء مناهضة الساميّة. وبكلامٍ آخر، (وبحسب تراتبيّة الإضماريّة المتزايدة)[59]، نرى استناداً إلى ما يلي:

(1) غاينسبورغ يهوديٌّ (Gainsbourg est juif).

(2) فليس من باب الصدفة أنّه دنّسَ نشيدنا الوطنيّ (Ce n'est donc pas un hasard s'il a profané notre hymne national)،

أنّه بإمكاننا أن نفكّر في ربط هذا التحريف الفاضح... بيهوديّة غاينسبورغ - أمّا التأكيد والإخبار الثاني فهو مُضمَّنٌ في الصياغة المنفيّة، في حين أنّ المعلومة الأولى مدسوسةٌ على شكلِ افتراضٍ (كونها ترتبط بعبارةٍ مُحدَّدةٍ)، وهو افتراضٌ نعتبر شخصيّاً أنّه ينطوي على محسنٍ بيانيٍّ، وذلك للأسباب التالية: أوّلاً، في النصّ ما يُريب وأهدافه البرهانيّة غامضة («ولكن إلامَ يرمي؟»)، إلى أن تظهر هذه الجملة وتحلّ اللُّغز («إذاً، هذا هو المقصود...»)؛ ثانياً، يجهل القارئ (ويصدف أن أكون أنا والقرّاء الآخرون الذين هم على شاكلتي على ما أظنّ المقصودين بالقارئ) جهلاً مُطبقاً حتى السّاعة ما «يكتمُه» غاينسبورغ شخصيّاً والذي يترتّب على دروا أن «يكشف النقاب عنه» وأن يُجبره على الإقرار[60] به؛ ويدخل كذلك ما أعرفه عن المتكلّم، وعن أيديولوجيته (لديّ أسبابٌ وجيهةٌ

---

(59) وعلى مستوى ثالثٍ من المحتويات المتوارية أكثر بعد والتي يرتكز استخراجها على الكفاءة الثقافية وحدها التي يتمتّع بها المُحاوِر (على غرار معرفة بعض «الأمور المألوفة» (topoï) ذات الطابع العنصري)، يقترح النصّ إقامة ارتباط متبادل بين الخصائص المنسوبة إلى غاينسبورغ في القسم الأوّل (والتي تُفهرَس تبعاً للتشاكلات الدلالية التي تتناول القذارة والسحنة المُنقبضة والتّجاريّة والمُعزّزة الآن بمسألة «الخيانة» و«يهوديته».

(60) إلاّ أنّه قد بلغَ مراده حول هذه النقطة، إذ إنّه في تتمة هذا المقال، وبعد أن أمطره الصحافيّون بوابلٍ من الأسئلة حول هذا الموضوع، فقد صرّح بشكلٍ رسميّ «مبرّراً نفسه» (على طريقته) بما يلي: «صحيحٌ أنّني يهوديّ، وقد علّقتُ خلال الحرب إشارة العمدة النجمية الشّكل، إلاّ أنّني كنتُ مُلحداً ولاأزال...» («Oui, c'est vrai, je suis juif, j'ai porté l'étoile du sheriff pendant la guerre, mais j'ai toujours été athée...»).

لأشتبهَ بأنَّ «دروا» مناهضٌ للساميّة)، وعن ممارساته الخطابيّة (لأنّني أعرف عن خبرةٍ، وهذا النصّ الذي يُشكِّل عمل رائع في الغدر البرهانيّ يؤكِّد لي ذلك، أنَّه مولعٌ بالصياغات غير المباشرة وأنّه محترف سوء النيَّة)[61].

كمٌّ لا يُستهان به من «الأسباب الوجيهة» يحملنا على الاعتقاد بأنَّ المعلومة المُفترضة هي تحديداً تلك التي يرغب ميشال دروا بادئ ذي بدءٍ في نقلها إلينا، متظاهراً بأنَّه يعتقد منذ الآن أنَّ الجميع يعرفها؛ ولكن هذه الأسباب الوجيهة ليست صالحةً إلاّ لتوجيهنا على الأكثر إلى هذا التأويل البيانيّ الذي يمكننا القول إنَّه مُسيءٌ بشكلٍ مبالغ فيه، وذلك من دون أن تضمنَ لنا هذه الأسباب صحَّته. وإنَّ القضيّة التي يطرحها المحسن البيانيّ الافتراضيّ هي على كلّ حالٍ القضية نفسها بالضبط التي تميِّز كلّ المحسنات البيانيّة، ألا وهي: نتساءل ما إنْ يُصار إلى تحديد المحتويَين البيِّن والمُضمَر، وفق أيّ قاعدةٍ ينبغي ترتيبهما، فضلاً عن اختيار أيّهما يجب اعتباره المحتوى «الجوهريّ»؟ في السواد الأعظم من حالات المحسنات البيانيّة الكلاسيكيّة، إنَّ المحتوى المُشتقّ هو الوحيد المقبول في السياق أو السياق الحالي للنص، وما إن يُصار إلى اكتشافه حتى يُهمِّش المحتوى الحرفيّ. أمّا في المحسن البيانيّ الافتراضيّ، فيكون المحتويَان البيِّن والمُضمَر متناغمَين عادةً. أي إنَّ المحسن البيانيّ الافتراضيّ يُشوِّش على محتوى مُقرَّرٍ قريب من الواقع ومُرضٍ في إطار السياق أو السياق الحالي للنصّ ويحوِّله لصالحه. وإنَّ بعض الاعتبارات الذاتيّة نوعاً ما والمتعلِّقة ِ«الملاءمة التواصليّة» النسبيّة لهذَين المحتويَين تسمح وحدها بالفصل بينهما ـ أو بعدم الفصل، والمثل على ذلك هو نقد فيلم «كاغيموشا» (Kagemusha) للمُخرِج كوروساوا (Kurosawa)، ومفاده: «إنَّ أهمية الميزانيّة المُستثمرة ـ التي تناهز الـ 30 مليون فرنك ـ وحسن توزيعها، فضلاً عن عدد المُشاركين والأحصنة ـ الهائل ـ الموظَّفة في هذا العمل، تُغفِلُ الأمر الأساسيّ، وهو: إنَّ «كاغيموشا» هو فيلمٌ استثنائيٌّ في عالم السينما»[62]

(61) وإنّ ميشال دروا هذا نفسه الذي أخذَ عليه غلاكسمان (Glucksman) (وذلك في برنامج «المناجاة» (Apostrophes) في الثاني من أيار/ مايو 1978) قوله هذه الصيغة ذات الطابع السلبيّ والعنصريّ، ومفادها: «هذا الألماني الصغير المُمتلئ الخدَّين والمُتكرِّش» (bedonnant) التي نعتَ بها كوهن ـ بينديت (Cohn-Bendit)، وقد ردّ هذا اللّوم بروعةٍ قائلاً: «مهلاً! هل صفة «مُمتلئ الخدَّين» لها طابع سلبيّ؟» (Comment! C'est «péjoratif, «joufflu»?»).

(62) مثلٌ مأخوذٌ من مجلّة: *Actua Ciné*, no. 7 (août-sept. 1980), p. 9.

(«L'importance du budget engagé - plus de trente millions de francs - l'excellence de la distribution et le nombre - considérable - des figurants... et des chevaux engagés ne rendent pas compte de l'essentiel: «Kagemusha» est un moment de cinéma exceptionnel»). لقد بذل الناقد جهداً حثيثاً لكي يؤكِّد لنا أنَّ المحتوى المُقرَّر هو «الجوهريّ»، وحتى أنَّ دقَّة التفاصيل المُفترَضَة تدفعنا إلى الاعتقاد بأنَّ ما يهمّهُ هو أن يُشير إلينا أنَّ هذا الفيلم قد حصدَ جمهوراً كبيراً وقد صُرِفت عليه ميزانيّةٌ ضخمةٌ، أكثر ممّا يهمُّهُ أن يبلغنا أنّه عملٌ فنيٌّ رائعٌ. يبدو ميزان الملاءمة التواصليّة في هذا القول وكأنَّه يحافظ على توازنه بين المحتويات المُقرَّرة والمحتويات المُضمَّنة، ممّا يسمح له بأن يلعبَ على الحبلَين وأن يجذُبَ كذلك مختلف الفئات التي تشكِّل الجمهور السينمائيّ المُحتمَل.

تُثير الأمثلة الآنفة الذكر عن المحسنات البيانيّة الافتراضيّة الشكَّ حول افتراضاتٍ «دلاليّةٍ». ولكن يُمكن أن تُشكِّل الافتراضات «التداوليّة التواصليّة»، بشكلٍ مماثلٍ، موضوع الاستعمال البيانيّ. والدليل على ذلك أنّنا ما إن نملك أسباباً وجيهةً لنفترض أنَّ قولاً ما استُعمل بشكلٍ أساسيٍّ للدلالة على أنَّ شروط النجاح التي تميِّز فعل الكلام موضوع البحث قد تحقَّقت بالفعل، أي للإبلاغ بما يفترضه بشكلٍ تداوليٍّ تواصليٍّ، يمكننا أن نعتبِرَ أنّنا بصدد محسنٍ بيانيٍّ افتراضيٍّ. والمثل على ذلك، عندما يبتغي متكلِّمٌ ما، في حالة تواصلٍ رسميّةٍ نسبيّاً (جدل سياسيّ مثلاً، أم سؤالٌ مطروحٌ على مُحاضِرٍ) أن يُشير إلى أنَّه يعرف شخصيّاً الشخص الذي يخاطبه، يتدبَّر أمره ليُقحم خلسةً الضمير «أنتَ» («tu») أو ضميرٍ آخر(63) في مداخلةٍ هي فضلاً عن ذلك لا طائل تحتها، أو عندما يمارس تقنية

(63) وكونها «بدون مؤشرات على الصلّة» (بحسب غوفمان)، فإنّ مصطلحات التخاطب التي حلّلتها دلفين بيري (Delphine Perret) غالباً ما تُستعمل بيانيّاً بهدف فضح طبيعة الصلة الاجتماعية التي تربط المتكلّمين المتفاعلين. والأمر نفسه ينطبق على بعض الشتائم والدعابات المألوفة والتي غالباً ما تكمن وظيفتها الأساسيّة، بحسب لابوف (William Labov, *Le Parler ordinaire: La Langue dans les ghettos noirs des États-Unis* = *Language in the Inner City*, 2 vols., traduit de l'américain par Alain Kihm, le sens commun (Paris: Editions de Minuit, 1978), (Penelope Brown et Stephen Levinson, «Universals in Language Usage: Politeness Phenomena,» in: Esther N. Goody, ed., *Questions and Politeness: Strategies in Social Interaction*, Cambridge Papers in Social Anthropology; 8 (Cambridge, MA; New York: Cambridge University Press, 1978), p. 234),

في إظهار العلاقة الحميميّة التي تربط المُرسِل بالمُرسَل إليه وتوطيدها، وثمّة ألقابٌ تُطالعنا في الاستعمال=

«إنزال الاسم» («name-dropping») (التي تكمن في دسّ بعض أسماء العلم المَهيبة عَرَضاً وذلك لكي تشهد على ثقافة المتكلِّم، وعلى الأماكن التي يتردَّد إليها، أي باختصارٍ على «معارفه»)؛ وعندما يُصدِرُ أمراً «مع النيّة الرئيسة للتأكيد، وذلك على طريقة المُضمَر، أنَّه في موقع يخوّله إصدار الأوامر [...]. ويكفي أن نتذكَّر مسرحيّة **روي بلاس** (*Ruy Blas*) وتحديداً المشهد حيث يقوم دون سالوست (Don Salluste)، بهدف تذكير "روي بلاس أنَّه أصبح دوقاً ووزيراً في حين أنّه لا يزال خادماً وضيعاً، بإصدار سلسلةٍ متتاليةٍ من الأوامر إليه، وبطريقةٍ مصوّرةٍ كما لو كانت هذه الأوامر مجانيّةً، لإغلاق النافذة والتقاط المحرمة» (ويقول دوكرو[64] ما يلي: هذا خيرُ مثالٍ على «مجانيّة» الأوامر هذه التي تتجلّى في خرق قانونَي الملاءمة والنزاهة التي تفضح وجود المحسن البيانيّ)؛ أو أيضاً حين «نطرح أسئلة لكي لا يغيبَ عن بال أحدٍ ـ من دون أن نعترف بذلك صراحةً ـ أنّنا مخوّلون طرحها[65]»؛ وأخيراً بشأن التأكيد والإخبار، حيث تفرضُ إحدى شروط استعماله ألاّ «نتكلَّمَ شرعيّاً إلى الآخر إلاّ بما هو مخوَّل أن يثيرَ اهتمامه»، والمثل على ذلك ما تقوله إيزابيل (Isabelle): «حدِّثني عن كليندور، وإلاّ لا تَنبس ببنت شفةٍ»[66] («Parle-moi de Clindor, ou n'ouvre point la bouche»)، والمحسن البيانيّ الملائم هو التالي: «تحدَّث عن موضوع معيَّنٍ إلى مخاطبٍ معيَّنٍ، ممّا يوصلنا في بعض الحالات إلى حدّ القول، وذلك على طريقة المُضمَر، إنَّ المخاطب يهتمُّ بهذا الموضوع المعيَّن، وعلى العكس، فبالنسبة إلى المستمع،

= المُحدِّد، ويلجأ إليها بعض المتكلّمين الميّالين بشكلٍ منهجيّ إلى تسمية الأشخاص الذين يتحدّثون عنهم بأسمائهم الأولى، في حال كانوا يشغلون مركزاً اجتماعياً مرموقاً، هادفين بذلك إلى الإشارة بأنّهم يعرفون هؤلاء الأشخاص معرفةً شخصيّةً.

(64) Ducrot, *Dire et ne pas dire: Principes de sémantique linguistique*, pp. 9-10.

(65) على غرار رجال الشرطة الزائيريّين، ويصف بيرنييس تصرّفهم (في كتابه: Jean-François Bernies, *Pigeon volant: L'Afrique vue d'un vélo*, collection vécu (Paris: R. Laffont, 1977), p. 252) على الشكل التالي: «لقد شرعوا من جديدٍ باستجوابي. وكانت أسئلتهم تتقاطع، وما كانوا يصغون إلى أجوبتي، بل يعيدون مراراً وتكراراً طرح الأسئلة نفسها عليّ. وقاموا بذلك من أجل كسب الوقت والتلهّي بممارسة نفوذهم» («Ils se sont remis à m'interroger. Leurs questions s'entre-croisaient. Ils n'écoutaient pas les réponses, reponsant toujours les mêmes questions. Juste pour gagner du temps et jouer avec leur pouvoir»).

(66) وهو مثلٌ مُقتبسٌ من بيت الشعر رقم 1050 من المشهد الثاني من الفصل الرابع من مسرحية **الوهم الهزليّ** (*L'Illusion comique*).

يُمكن تأويل إرخاء العنان للمتكلّم للتحدُّث عن الموضوع المعيَّن على أنّه اعترافٌ باهتمام المخاطب بهذا الموضوع. وتلجأ المسرحية الكلاسيكيّة مراراً وتكراراً إلى استعمال هذه الصورة البيانيّة؛ والمثل على ذلك ما يلي: الخادمة التي تريد أن تُفهم سيِّدتها أنّها على علمٍ بحبِّها للشّاب الأوّل، فتتكلّم بإسهابٍ وبإصرارٍ عن موضوع هذا الحبّ. وتندمُ السيِّدة، كما لو كانت تندمُ عن إقرارٍ، لأنّها تركتها تتحدَّث عن الموضوع»[67].

ويتكلّم دوكرو بهذا الشأن عن «صورةٍ» بيانيّةٍ؛ أمّا برأينا، فالمسألة هي مسألة محسنٍ بيانيٍّ.

يكون المحسن البيانيّ «الافتراضيّ التداوليّ التواصليّ» مُحكَمُ الإثبات بشكلٍ خاصٍّ، وذلك بحسب غوفمين (Goffman) الذي يعتبر أنَّ الأقوال الكلاميّة في الوقت التي تبدو فيه وكأنّها تهدف إلى طلب معلومةٍ أو الإفادة بها، تصلحُ في الواقع للمطالبة بشكلٍ أساسيٍّ بوضع اجتماعيٍّ وِ «الاستطلاع» النسبيّ للمتكلّمين المتفاعلين. وإليكم المثل الآتي المأخوذ عن كونديرا[68] (M. Kundera) من كتابه **طيش الكائن البشريّ الذي لا مبرِّر له**، ألا وهو: صرخت ماري كلود (Marie-Claude) بوجه سابرينا (Sabrina) (وهي منافستها) قائلةً: ما هذا الشيء؟ إنّه بشعٌ! («Qu'est-ce que c'est que ce truc-là? C'est affreux!»). ويعلّق الراوي عليه قائلاً (وبالطبع، نحن أبرزنا العبارة باستخدام الخطّ المائل):

«بالنسبة إلى فرانز (Franz)، إنَّ المسألة بديهيّةٌ من الوهلة الأولى، إذ يعتبر أنَّ ماري كلود كانت قد صرَّحت بأنَّ حُليَة سابرينا شنيعةٌ لأنّها تسمح لنفسها بقول ذلك لها.

وبدقّةٍ أكثر، كانت ماري كلود قد صرَّحت بأنَّ حُليَة سابرينا شنيعةٌ لكي تُبرهِنَ أنّها تستطيع أن تقولِ سابرينا أنَّ حُليَتها شنيعةٌ [...] (وبكلام آخر، يمكننا أن نقول ما يلي: من خلال الانتقال من التأويل السببيّ إلى التأويل النهائيّ يُدرك فرانز الطابع البيانيّ لملاحظة زوجته). يعي فرانز تماماً أنَّ على ماري كلود

---

(67) Ducrot, Ibid., p. 9.

(68) Milan Kundera, *L'Insoutenable légèreté de l'être: Roman = Nesnesitelná lehkost byti*, du monde entier, traduit du tchèque par François Kérel ([Paris]: Gallimard, 1984), pp. 138-139.

أن تغتنِمَ الفرصة لتبرهنِ سابرينا (وللآخرين) مَن هي فعلياً الأقوى من الأخرى.

2- المحسن البيانيّ الذي يُثير الشكّ حول مُضمَّنٍ

إليكم الشعار الإعلانيّ التالي: «من دون زبدةٍ، تصبح الحياة رتيبةً بلا نكهةٍ» («Sans beurre, la vie n'a pas de sel») الذي يُضمِّنُ لأسبابٍ خاصَّة «بالمنطق الطبيعيّ»، أنَّ «الزبدة تُضفي نكهةً على الحياة» («Avec du beurre, la vie a du sel»). ولدينا أسبابٌ وجيهةٌ لنفترض هنا أنَّ ما يُشكِّل موضوع الرسالة الكلاميّة الحقيقيّ هو الاستدلال المُضمَّن في هذا الشعار. وتتلخَّص هذه الأسباب الوجيهة كالآتي: أوَّلاً، ما نعرفه عن قوانين «نوع الرسالة الكلاميّة الإعلانيّ» الذي تكون وظيفتها تبريريّةً أكثر منها جدليّةً (وذلك بهدف الترويج للمنتوج)؛ وثانياً، المؤشر الحالي الأيقونيّ في النصّ الذي يُضاف إلى المعلومة غير الألسنيّة اللُّغويّة المذكورة أعلاه، أي الصورة التي ترافق القول الكلاميّ (وهي صورةُ قطعةِ خبزٍ مطليةٍ بالزبدة وشهيَّةٍ للغاية) والتي تُصوِّر تحديداً المنتوج الذي ينبغي الترويج له وعدم تغييبه.

وعليه، نكون، في مجال المُضمَّنات، بصدد نظير المحسن البيانيّ الذي أسميناه، في مجال الافتراضات، «محسناً بيانيّاً افتراضيّاً».

يُشير التسلسل الكلاميّ الحواريّ أحياناً إلى وجود محسنٍ بيانيٍّ إضماريٍّ، كأنْ يُشيرَ ردّ المخاطب إلى أنَّه اعتبرَ القول السابق الذي أدلى به المتكلِّم محسناً بيانيّاً، ونرى ذلك في المثل التالي:

المخاطب: هو طبيبٌ.

المتكلِّم: كان طبيباً.

المخاطب: آه، عذراً! لم أكن أعرف [أنَّه توفي](69).

L_1. - Il est médecin.
L_2. - Il était.
L_1. - Oh pardon. Je ne savais pas [qu'il était mort].

أو أن يتعذَّر اعتبار الردّ الثاني الذي أدلى به المخاطب مُطابقاً للقول السابق، كما في حالة تعاقب السؤال وجوابه، شرط أن يتمّ تأويلهما تأويلاً بيانيّاً، كما في المثل التالي:

---

(69) Julien Duvivier, *Carnet de bal.*

المتكلِّم: هل يُحسِنُ بول معاملة جان؟

المخاطب: لم يُنقل جان بعد إلى المستشفى.

وهذا يعني أنَّ / بول إنسان فظّ/[70].

L₁: Paul est-il gentil avec Jean?

L₂: Jean n'est pas encore à l'hôpital,

i.e. / Paul n'est qu'une brute/.

غالباً ما نجد المحسن البيانيّ الإضماريّ بنوعَيْه الآنفي الذكر في أنواع الخطاب نفسها، وأبرزها: بلاغة الغزل والشعارات الإعلانيّة والخطابات السياسيّة.

وإليكم المزيد من الأمثلة التي تُبَيِّن طريقة عمل المُضمَّن البيانيّة[71]:

• «مع ذلك أنا أحبُّك» («Je t'aime quand même»)، وغالباً ما يُشكِّل الاستدلال الذي نخلصُ إليه من خلال هذا التصريح، ومفاده / ثمّة أسبابٌ تحول دون حبّي لك/ «غَرَض الخطاب»، بحسب موشلير[72].

• وتُشبه طريقة عمل الشعارَين الإعلانيَّين التاليَين طريقة عمل المثل الآنف الذكر أي إنَّهما يخفيان وراء مظاهرهما السلبيّة هدفهما التبريريّ والتحفيزيّ (ويبدو أنَّ هذه الطريقة البلاغيّة هي حاليّاً الأكثر رواجاً لدى المحرِّرين ـ المصوِّرين):

الشعار الأوّل: «إذا كنتِ من نوع النساء اللَّواتي يقلن «لا أجرؤ»، فلستِ إذاً امرأةً جديرة بالعطر من ماركة كوارتز» («Si vous êtes une «je n'ose pas», vous n'êtes pas une femme Quartz») (أمّا إذا كنتِ من نوع النساء اللَّواتي يقلن «أجرؤ» ـ أن أتوضَّع عاريةً لإحدى المجلات ـ يكون هذا «العِطر» الذي أطلق عليه اسم «لقد تجرَّأتُ» (J'ai osé) تماشياً مع المناسبة، قد خُلِقَ لك وخُلقتِ له).

---

(70) هذا المثل مأخوذ عن: Dominique Maingueneau, *Approche de l'énonciation en linguistique française: Embrayeurs, temps, discours rapporté*, langue, linguistique, communication (Paris: Hachette, 1981), p. 11.

(71) راجع أيضاً التحليل الذي اقترحته مجموعة العمل ح ـ 1 (Groupe ë-1, «Car, parce que, puisque,» pp. 270-271) حول جملة «افتح زجاجة شمبانيا لأنّني انتُخِبتُ للتوّ في الأكاديمية» («Ouvre une bouteille de champagne, car je viens d'être élu à l'Académie»).

(72) Jacques Moeschler, «Discours polémique, réfutation et résolution des séquences conversationnelles,» *Etudes de linguistique appliquée*, no. 44 (1981), p. 97.

أمّا الشعار الثاني، فهو: «إذا كنتَ لا تميّز هذا الكونياك عن كونياكٍ آخر، فالأفضل لك أن تبتاع الكونياك الآخر» («Si vous ne faites pas la différence avec un autre cognac, mieux vaut acheter un autre cognac») (ولكن إذا كنتَ من الذوّاقة، فاشترِ كونياك من ماركة «ريمي مارتن» (Rémy Martin)!).

3.2.3. المحسن البيانيّ «التخيُّلي»

لسنا هنا بصدد الإحاطة الكاملة بإشكاليّة وضع الخطاب التخيُّليّ[73]. بل هدفنا أن نُبَيّن بإيجازٍ أنَّ ثمّة نقاطَ تشابهٍ بين طريقة عمل هذا النمط من الخطابات الإجماليّة وطريقة عمل المحسن البيانيّ.

وكي لا نطيل الحديث، نستطيع أن نُميّز للوهلة الأولى بين النصوص غير التخيُّليّة التي تصفُ عالم التجربة الذي سنشير إليه برمز «ع» (U) والمسلَّم به باعتباره موجوداً قبل الخطاب، وأن تحلّله وتعلّقَ عليه وتمثّلَ جزءاً منه، في مقابل النصوص التخيُّلية (ذات المرجع الخياليّ) التي تَبني عالماً خدّاعاً نوعاً ما يكون مستقلاً وعشوائيّاً مقارنةً «ع»، و«تستحضرُهُ».

وفي ما يتعلّق بهذا النّوع الأخير من النصوص، سأثيرُ ببساطةٍ مسألة السُّبل التي تعتمدها بهدف التوضيح، وهذا مثلٌ على ذلك:

كان الرجلُ ليجلسَ في ظلّ الرواق قبالة الباب المفتوح على الخارج [...]:

L'homme aurait été assis dans l'ombre du couloir face à la porte ouverte sur le dehors [...]:

هكذا استهلّت مارغريت دوراس (Marguerite Duras) كتابها بعنوان **الرجل الجالس في الرواق**[74]، بجملةٍ بصيغة الشرط تُعلن حرفيّاً وصراحةً صيغة الخيال. وتستمرّ الرواية على المنوال التالي:

وهو يُراقب امرأةً نائمةً على بُعد بضعة أمتارٍ منه على الطريق المفروش بالحجارة [...]:

---

(73) راجع المقالة التي كتبناها: Catherine Kerbrat-Orecchioni, «Le Texte littéraire: Non-référence, auto-référence, ou référence fictionnelle?,» *Texte*, no. 1 (1982).

(74) Marguerite Duras, *L'Homme assis dans le couloir* (Paris: Editions de Minuit, 1980).

Il regarde une femme qui est couchée à quelques mètres de lui sur le chemin de pierre [...]:

ونستنتج أنَّه بالانتقال من الصيغة الشرطيّة إلى الصيغة الإخباريّة، يخضعُ وضع المرجع الخطابيّ إلى تبدُّلٍ ظاهرٍ، وأنَّ محسناً بيانيّاً ينشأُ (ويكون مستمدّاً من الاستعارة ومن المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق في آنٍ، وذلك إذا ما سلَّمنا جدلاً أنَّ الشروط المختلفة المنسوبة إلى المراجع الخطابيّة تشكِّل عدداً متوازياً من أفعال الكلام)؛ وممّا لا ريب فيه أنَّ هذا المحسن البيانيّ يكون توافقيّاً، وحتّى مجازيّاً تقريباً، ومع ذلك لا تُنزَعُ عنه صفة المحسن البيانيّ، ما دام أنَّ:

- قيمة الصيغة الإخباريّة الطبيعيّة، أي قيمتها الحقيقيّة، تكمن في تأكيد الصواب. إذ عادةً ما ينقلُ القول في الصيغة الإخباريّة افتراضَ وجود القول التعيينيّ المؤاتيّ[75].

- والحالة هذه، إنَّ الصيغة التي تُفعَّل هي تلك التي تبيِّن الخيال.

وعليه، تُنشئُ هذه الجملة (وكذلك الجُمل التالية) تفاوتاً بين الظاهر الخطابيّ (حيث يكون المرجع موجوداً عن حقٍّ) والكينونة الخطابيّة (حيث يكون المرجع موجوداً «عن كذبٍ»). وينتهك الخطاب التخيُّليّ، شأنه شأن كلّ المحسنات البيانيّة، قانون النزاهة (إذ إنَّه خطابٌ خادعٌ)، ليس لأنَّه خطابٌ تخيُّليٌّ بحدّ ذاته فحسب (وهو لا يخضع في الأصل لحكم الحقيقة/ أو الخطأ) بل لأنَّه يتنكَّر في هيئة خطاب حقيقةٍ. وبالنظر إلى غالبيّة الروايات المكتوبة من ألفها إلى يائها بالصيغة الإخباريّة، نكاد لا نغالي إذا اعتبرنا أنَّ الأدب (من بين أمورٍ أخرى...) هو محسنٌ بيانيٌّ مُرشَّحٌ هائلٌ.

---

(75) يُمكن احتماليّاً معالجة الإشكالية بطريقةٍ أخرى، تقوم على مبدأ اعتبار الدالّ «الصيغة الإخباريّة» متعدّد الدلالات، باعتبار أنّ قيمَتيه الدلاليّتين (الإرجاع إلى مرجع ذات نمطٍ غير تخيُّليّ في مقابل التخيُّليّ) موجودتان على المستوى نفسه. بيد أنّني أعتقد شخصيّاً أنّ هاتين القيمتَين متراتبتَين في إطار اللغة، حيثُ تكون الأولى «حقيقيّةً» في حين تكون الثانية «مُشتقّةً». وعليه، حين يكتسبُ الدالّ القيمة الثانية، ينشأ محسنٌ بيانيٌّ مُعجَمٌ بشكلٍ واضح. ومن وجهة نظر دراسة معاني الكلمات، لا تُفعَّل القيمة الحقيقيّة. أمّا من وجهة نظر دراسة كيفيّة تسمية المفاهيم والأشياء، فالطريقة المألوفة أكثر من غيرها بأشواطٍ بعيدة لتعيين الخيال هي الصيغة الإخبارية. ولكن يجوز أيضاً استعمال صيغة الشرط (وهي مُستعملة مثلاً في صيغة ألعاب الأطفال، كما في المثل التالي: «إذا أدّيتُ أنا دور الذئب، تؤدّي أنتِ دور ليلى «Je serais le loup, et toi le Petit Chaperon Rouge»)، وتكون هذه الصيغة، ولو في حالاتٍ نادرةٍ، «سويّةً» أكثر من الصيغة الإخباريّة. ومع ذلك، يسمح تواترها بالتحدُّث، بشأن هذا المحسن البياني، عن «شبه مجازٍ».

وتتَّخذ إجمالاً الروايات التاريخيّة والخياليّة، فضلاً عن الروايات الوصفيّة التي تتناول وصف الأماكن، أكانت حقيقيّةً أم خياليّةً (والمثل على ذلك وصف المدينتَين الفرنسيَّتَين روين ويونفيل (Rouen et Yonville) كما يرِدُ في أحد مؤلَّفات الكاتب الفرنسيّ فلوبير (Flaubert) وكذلك وصف قارة أفريقيا للأدلاّء السياحيِّين فضلاً عن وصف المكان الخياليّ المعروف بالبونوكيلي (Ponukélé) كما يردان على لسان المؤلِّف الفرنسيّ جان فيري (Jean Ferry)، الأشكال عينها. إلاّ أنَّ طرق عملها تكون مختلفةً وغير متناسقةٍ، إذ يكمن دور الخيال في التظاهر وإضفاء هيئات الجدّ، والعكس ليس صحيحاً.

وبالموازاة، لا تتشارك، من هذا المنظور، دلائل «مفعول الحقيقة» ودلائل «التخيُّليّة» الوضع نفسه، إذ:

1. تكمن مهمّة «العناصر الدالَّة على المحاكاة» في إنشاء التشاكل الدلاليّ الحرفيّ (الذي لا يُدحَض إلاّ في وقتٍ لاحقٍ)، ونجد في طليعتها الصيغة الإخباريّة التي نغفلُ عادةً عن ذكرها، علماً بأنَّ هذا النسيان فاضحٌ، كوننا مدرَّبين على النظر إلى غالبيّة الروايات الساحقة التي تقع بين أيدينا باعتبارها تخيُّليةً، مُتعامين عن رؤية المحسن البيانيّ، فنتخطّى من دون أن نُدرك، ما يعبِّر عنه النصّ حرفيّاً (إن كانت المسألة مسألة وقائعَ حقيقيّةٍ)، لنقيم بعض الوقائع الثانويّة، على الرُّغم من كونها فعليّاً ملائمةً، مقام أساليب «مفعول الحقيقة»، على غرار: الإفراط بإعطاء التفاصيل الوصفيّة الإيضاحيّة أو على العكس الإكثار من استعمال الموجزات (والمثل على ذلك ما ورد في كتاب **راهبة بارم الشارترية**(76)، ومفاده: «يجد القارئ هذه المحادثة طويلةً مع أنّنا أعفيناه من أكثر من نصفها؛ وقد استمرَّت بعد ذلك لساعتين إضافيتين» («Le lecteur trouve cette conversation longue: pourtant nous lui faisons grâce de plus de la moitié; elle se prolongea encore deux heures»)، والتشكُّك المتصنَّع تجاه أحد المراجع الوهميّة، والمثل على ذلك ما يقوله موزيل (Musil) في كتابه **الرجل الدون**(77)، ومفاده: كان الرجل الدون الذي تحكي عنه الرواية، يُدعى أولريتش، وكان

(76) Stendhal, *La Chartreuse de Parme*, le livre de poche classique; 851, introduction et commentaires de Victor Del Litto (Paris: Le Livre de Poche, 1972), p. 311.

(77) Robert Musil, *L'Homme sans qualités*, 10/18 ([Paris]: Librairie générale française, [s. d.]), I, p. 29.

«أولريتش (وما أزعجَ أن نضطرَّ باستمرارٍ إلى مناداة شخصٍ لم نتعرَّف إليه بعد باسمه الأوَّل! ولكن مراعاةً لوالده، يجب أن يبقى اسم العائلة طيّ الكتمان)، وبالتالي سنناديهِ «أولريتش» فقط [. . .]) «L'Homme sans qualités dont il est question dans ce récit s'appelait Ulrich, et Ulrich (qu'il est désagréable de devoir continuellement nommer par son prénom quelqu'un que l'on ne connaît pas encore! Mais, par égard pour son père, le nom de famille doit (être tenu secret), Ulrich, donc [...]»، وبالإضافة طبعاً إلى كلّ التمهيدات التي تسعى بمؤازرة كميّةٍ كبيرةٍ من المستندات المؤلَّفة من شتّى أنواع الوثائق والشهادات المزوَّرة العينيّة، إلى توثيق الرواية. ويتمحور دور هذه التقنيّات والتكتيكات كافَّةً في الكشف عن هذا الإنكار الشائع للغاية والفاضح بدوره أيضاً لوجود المحسن البيانيّ التخيُّليّ.

وأخيراً، ما الذي يحول دون وقوعنا في شرك المحسن البيانيّ؟ ولماذا نسعى، تحت طائلة تكبُّد فائضٍ من العمل التأويليّ، إلى كشف النقاب عن معنى مشتقٍّ مستترٍ وراء المعنى الظّاهر؟ تطرحُ هذه المسألة نفسها بشأن المحسنات البيانيّة على اختلافها، والجواب العام هو واحدٌ لا يتغيَّر بالنسبة إلى كلّ المحسنات البيانيّة، ألا وهو: إذا لم نقبل بالمعنى الحرفيّ باعتباره حقيقيّاً، فذلك ببساطةٍ لأنَّ قبوله يكون متعذِّراً؛ ولأنَّ بعض الدلائل تعيقُ طريقة عمله التعيينيّة، وتعطي الضوء الأخضر لانطلاق البحث عن معنى ثانٍ.

2. وعليه، علامَ ترتكز مؤشرات التخيُّليّة؟

ـ المؤشرات الداخليّة:

تماماً كما تُستعمل صيغة الحاضر القصصيّ مسبوقةً مبدئيّاً بعبارةٍ ذات صيغةٍ زمنيّةٍ «صحيحةٍ»، كذلك تُصاغ، كما رأينا في المثل الأوَّل من هذا القسم، الجملة الأولى التي تُستهلّ بها روايةٌ خياليّةٌ بالصيغة الشرطيّة(78). وبالتالي، نكون بصدد نوع من أنواع المحسن البيانيّ الظاهر للعيان in praesentia، وذلك لأنَّ الدالّ الذي يجب أخذه حرفيّاً والدالّ الذي يجب قراءته بيانيّاً هما في حالة تجاورٍ (ويندرج أيضاً في عداد المحسنات البيانيّة الظاهرة للعيان، المثل التالي المستمدّ

(78) تظهرُ هذه الصيغة بشكلٍ خاطفٍ في بعض المواضع الأخرى من هذا النصّ الذي كتبته دوراس.

من الفيلم الخرافيّ للمخرج جون كاربنتر (John Carpenter) والذي يحمل عنوان «اهرب من نيويورك» (Escape from New York)، حيثُ صيغت عناصر الإشارة التحديديّة في المشهد الأوّل على الشّكل التالي:

نيويورك 1997

الآن).

NEW YORK 1997
NOW

من الممكن كذلك أن تتبادر إلى أذهاننا طبعاً الصيغتان الاستهلاليّتان اللّتان تبدأ بهما الحكايات الفرنسيّة، على غرار: «كان في قديم الزمان» (Il était une fois) أو حكايات الجزيرة الماجوركيّة وهي إحدى جزر الباليار الإسبانيّة، كالآتي: «هذا كان، وهذا لم يكن»[79] (Cela était et cela n'était pas)، واللّتان تؤدّيان دور المتحوِّلات في الدلالة التي تُبيِّن وجود التخيُّليّة ـ الأولى بفضل توافقيّةٍ مُفارِقةٍ إلى حدٍّ بعيدٍ، لأنَّها تشكِّل بحدّ ذاتها نوعاً من أنواع قلب المعنى.

وتأتي أحياناً بعض التعليقات الألسنيّة اللُّغويّة الانعكاسيّة لتفضح الطبيعة التخيُّليّة، وبالتالي الاعتباطيّة، للتراكيب القصصيّة المقترحة. وإليكم المثل التالي: «كما ترى، يا حضرة القارئ، إنَّني في طور إعداد روايةٍ، والأمر يتوقَّف عليّ وحدي في أن أجعلك تنتظر سنةً أو اثنتَين أو حتى ثلاث سنواتٍ؛ وتتحدَّث الرواية عن مغامرات جاك العاطفيّة، وتعمدُ تارةً إلى إبعاده عن سيِّده، وطوراً إلى تعريضهما للأقدار التي تستهويني، فما الذي يمنعني من تزويج السيِّد وجعله زوجاً مخدوعاً؟ أو إرسال جاك عبر البحار إلى الجزر؟ وإلحاق سيِّده به؟ ثمّ إعادتهما إلى فرنسا على متن المركب عينه؟ ما أسهل كتابة الحكايات!»[80]

---

(79) وقد أشار زومثور (P. Zumthor) كذلك إلى الصِيَغ التالية:

المثل الأوّل: «ألم يحدثُ ذلك ذات يومٍ؟» («N'était-il pas une fois?») (نقلاً عن مالي (Mali) وهوت فولتا (Haute-Volta)).

المثل الثاني: «ما أرويه لستُ أنا مَن يقوله» («Ce que je dis, ce n'est pas moi qui le dis») (قصص شعب الإينوي (Inuit)). وتطالعنا أحياناً جُملٌ مماثلةٌ في خواتم القصص. على غرار الجملة التالية: «كانت هذه كذبتنا لهذا المساء» («tel est notre mensonge du soir») التي جرت العادة أن يستعملها القصّاصون الأفريقيّون في نهاية رواياتهم.

(80) Denis Diderot, *Jacques le fataliste* ([s. l.]: Hachette; Le Livre de poche, 1972), pp. 4-5.
(نحن مَن أدخَل الخطّ المائل إلى هذا الاقتباس عن موزيل (Musil)، كما إلى الاقتباسات التي تليه).

(«Vous voyez, lecteur, que je suis en beau chemin, et qu'il ne tiendrait qu'à moi de vous faire attendre un an, deux ans, trois ans, le récit des amours de Jacques en le séparant de son maître et en leur faisant courir à chacun tous les hasards qu'il me plairait. Qu'est-ce qui m'empêcherait de marier le maître et de le faire cocu? D'embarquer Jacques pour les îles? D'y conduire son maître? De les ramener tous les deux en France sur le même vaisseau? Qu'il est facile de faire des contes!») - إنَّه لأمرٌ يسيرٌ ومعقَّدٌ عندما نكون فعلاً أسياد أنفسنا ولنا ملء الحرية في بناء عالمٍ قصصيٍّ على هوانا...

تكون مثل هذه الدلائل واضحةً حتماً ولا نقاش فيها، بيد أنّنا لا نقع عليها في النصوص الخياليّة إلاّ بشكلٍ عارضٍ للغاية. وقد أشرنا إلى وقائعَ أخرى شائعةً أكثر بلا ريبٍ، غير أنَّ وضع دلائلها التخيُّليّة يُثير في المقابل الرِّيبة، ألا وهي:

• التراكيب البديلة

وإليكم المثل التالي:

(الحاشية: حاليّاً، تُشير عقارب الساعة إلى الثانية والنصف أو ربّما الثالثة والربع فجراً[81]).

طوني دوفير: قاد رجلان، لا بل ثلاثةُ رجالٍ، كلاّ هما رجلان، وكان الثالث ينتظرهما في السيّارة، الدكتور بروني الذي لم يقاومهما. بلى قاومهما. لقد صرَفَ بأسنانه وقال بصوتٍ نحيفٍ يُشبه صوت المخصيّ: «ماذا، ماذا تفعلون؟ بأيّ حقٍّ، ولكن بالله عليكم، بالله عليكم»[82].

(Manchette: En ce moment il est 2h 30, ou peut-être 3 h 15 du matin.

Tony Duvert: Deux hommes, non trois, non deux, le troisième attend dans la voiture, emmènent le docteur Brunet, qui n'a pas résisté. Si, il a résisté. Il a grincé, avec sa petite voix de châtré: «Quoi, quoi, de quel droit, mais enfin, mais enfin»).

• الكلمات الذاتيّة المُعبِّرة عن الشكّ والتخمين:

---

(81) Jean-Patrick Manchette, *Le Petit bleu de la côte ouest*, série noire; 1714 (Paris: Gallimard, [1976]), p. 181.

(82) Tony Duvert, *Un Anneau d'argent à l'oreille* (Paris: Editions de Minuit, 1982), p. 83.

(المثل الأوّل: بيار جان جوف: من المحتمل أنّها لا تفكّر بشيءٍ البتّة. وربّما تغطّ في النّوم («Pierre Jean Jouve: Il est probable qu'elle ne pense à rien. Peut-être est-elle endormie.»).

المثل الثاني: لا فونتين: ألقى الغرابُ على مسمعه كلاماً كالآتي تقريباً («La Fontaine: Le corbeau lui tint à peu près ce langage »)،

وإنْ كان الغرض منها أحياناً التشديد على واقع أنَّ كتابة قصّةٍ خياليةٍ تقتضي انتقاء عناصر خطابيّةً محتملةً «على السواء»[83] داخل المحور الاستبداليّ غير المُغلَق، فإنّها بخلاف ذلك غالباً ما تعطي، من خلال حذوها حذو مقتضيات الخطاب المُطابِق للواقع الدقيقة، انطباعاً قويّاً بالحقيقة.

ـ وعليه، لا أمل لنا بكشف النقاب عن جوهر دلائل التخيُّليّة من زاوية الخصائص الداخليّة للقول، إذ تضطلع المعلومات الخارجيّة النصيّة في مجال تحديد المحسن البيانيّ التخيُّليّ وبشكلٍ لا يقبل الجدل بالدور الحاسم. وتُقسم هذه المعلومات إلى نمطَين:

1. النمط الأوّل: ويشتمل على المعلومات «الموسوعيّة» المتعلّقة بِ «ع».

---

(83) تلك هي بلا ريب الفكرة التي تقترحها هذه الحال المؤلّفة من شبه جُملة الجار والمجرور التي تطالعنا في هذه الجملة التي يُدلي بها أراغون (Aragon) (والمأخوذة من الكتاب التالي: Louis Aragon, *Traité de Style* (Paris: Gallimard, 1928), pp. 40-41),

في معرض وصف حالات الرعب التي اختصمها شاعرٌ مراهقٌ متدرّجٌ، وهو يحاول المُجازفة على دروب الشعر الغنائيّ، ألا وهي: «لمّا كان الشابّ اليافع يتقدّم في فنّ الكتابة، كما تتقدّم الفأرة الصغيرة لأوّل مرّة من دون والدتها في علّية تحفل بالباذنجان واللّفاح، وهو لا ينفكّ يتساءل [...] ما إذا كان **معجم القوافي** (*Dictionnaire des rimes*) الذي يرجف بلا انقطاع على حجره تحت تأثير قلقه قد يؤتيه بفائدةٍ ما، كان الشكّ الذي يسلك طرق الشرود المفضوحة التي لم تكن تنقص البتة في هذا البيت الكبير الذي يسوده الصمت أو في تلك الغرفة التي كانت تضجّ بلا مبالاةٍ، يتلاعبُ به يميناً ويساراً» («Quand le jeune homme qui s'avance dans l'art d'écrire, comme dans un grenier plein à craquer d'aubergines et de mandragores pour la première fois sans sa mère une petite souris, se demande [...] si le dictionnaire des rimes qui sursaute perpétuellement sous le coup de son inquiétude peut lui être d'un usage quelconque, le doute, empruntant les indiscrètes voies de la distraction qui ne manque guère dans la grande maison silencieuse ou la petite chambre bruyant indifféremment, se met à ricaner çà et là»).

يمكن في الوقت عينه تأويل الحال التي تؤدّي بالنسبة إلى الصفة «ضاجّ» («bruyant») وظيفة المعادل القديم المتروك لعبارة «بلا اكتراثٍ» («indifféremment»)، باعتبارها تُعدّل كذلك بشكلٍ ألسنيّ لغويّ انعكاسيّ التركيبة البديلة.

والمثل على ذلك النصّ التالي الذي كتبهُ أندريه فونتين (André Fontaine) والذي نُشِرَ في جريدة *Le Monde* في العدد الصادر نهار 30 حزيران/ يونيو عام 1982، والذي يستهلّه المؤلِّف على الشَّكل التالي[84]:

طبقاً لتوقُّعات البورصة والسواد الأعظم من السفارات، انتُخِبَ فاليري جيسكار ديستان (Valéry Giscard d'Estaing) يوم العاشر من أيّار/ مايو عام 1981 بفارقٍ قليلٍ لولايةٍ ثانيةٍ كرئيسٍ للجمهورية. وقد بعث له على الفور كلّ من ليونيد بريجنيف ورونالد ريغن، من جملة أشخاصٍ آخرين، برقيات تهنئة تفضحُ، من خلال بعض ابتذالات العُرف والعادة، شعوراً قويّاً بالراحة. في حين بدت برقيات التهنئة التي أرسلها جاك شيراك أقلّ حماساً. وقد ردّ جورج مارشيه سبب فشل اليسار إلى سياسة التقسيم والتعريض للشُّبهات المُموَّلة عبر رأسماليّة الحزب الاشتراكيّ وفرانسوا ميتران الذي تلقَّف الحدث بهدوئه المعهود [. . .]،

Conformément à l'attente de la bourse et de la plupart des ambassades, Valéry Giscard d'Estaing a été réélu de justesse, le 10 mai 1981, président de la République. Léonid Brejnev et Roland Reagan, parmi beaucoup d'autres, lui ont immédiatement envoyé des félicitations où se devinait, au travers des banalités d'usage, un vif soulagement. Celles de Jacques Chirac ont paru nettement moins enthousiastes. Georges Marchais a rejeté toute la responsabilité de l'échec de la gauche sur la politique de division et de compromission avec le capitalisme du P. S. et de François Mitterand, lequel a accueilli l'événement avec sa sérénité coutumière [...],

ويُواصلُ المقال على هذا المنوال بثلاثة أعمدةٍ. أمّا في العمود الرابع فتطالعنا الجملة التالية:

يعني هذا السيناريو ما يعنيه، ولكن يعجز أيّ رجلٍ حسن النيّة ينتمي اليوم إلى فريق المعارضة أن ينكرَ عن حقٍّ أنّه لو قُدِّرَ للأغلبيّة السابقة أن تفوز خلال العام المنصرم بالانتخابات، لكانت تواجه وضعاً اقتصاديّاً واجتماعيّاً في منتهى الصعوبة [. . .]،

---

(84) في الأوّل من تشرين الأوّل/ أكتوبر عام 1974، كتبَ شابيوي (B. Chapuis) أيضاً رسالةً موجزة في جريدة *Le Monde* يستثمر فيها بغرابةٍ، إنّما بوضعٍ معاكسٍ، أسلوباً مماثلاً، فيقول: «[. . .] وفي المقابل يبدو أنّ رأي اليسار يؤشّر إلى شعورٍ بالرضا عن أوّل أربعة أشهرٍ من ولاية فرانسوا ميتران التي دامت سبع سنوات» («[...] La pensée de la gauche, en revanche, semblerait indiquer que l'électorat est satisfait des quatre premiers mois du septenat de M. François Mitterand»).

Ce scénario vaut ce qu'il vaut, mais il n'est pas un homme de bonne foi, dans l'opposition aujourd'hui, qui puisse sérieusement contester que, si la majorité d'hier avait gagné les élections de l'an dernier, elle ferait face à une situation economique et sociale extrêmement difficile [...],

تؤدِّي هذه الجملة دور الدليل السياقيّ الحالي النصيّ المُرجَأ والذي يُشير إلى وجود المحسن البيانيّ التخيُّليّ السابق. ولكن يحقّ لنا أن نعتقد، انطلاقاً ممّا يمكننا افتراضه آنذاك عن وضع الكفاءة الموسوعيّة التي يتحلّى بها قارئ جريدة *Le Monde* الذي يتمتَّع بذكاءٍ عاديّ، أنَّ هذا الأخير لم يكن ينتظر هذه الإشارة كي يفضح المكيدة. بل تمّ ذلك من خلال اللّجوء إلى المعلومات الخارجيّة النصيّة وحسب، باعتبار أنَّ النصّ نفسه خلوٌ من أيّ أثرٍ يدلّ على طابعه «غير الجديّ» (ما خلا ربّما الأمر التالي: ففي حال كان النصّ يدَّعي أنَّه يصف الواقع الذي سبق الانتخابات، أي الوقائع التي يعرفها الجمهور في مُجملها حقّ المعرفة، فهو ينتهك في أكثر من موضع قانون الإخباريّة، ويدفع القارئ أحياناً إلى طرح التساؤل التالي: ولكن لماذا بحقّ الله يذكِّرنا بكلّ هذه الأشياء التي حفظناها عن ظهر قلبٍ؟ وبات جليّاً أنَّ القول التخيُّليّ القصير معرَّضٌ أقلّ من غيره أن يُعتبر غير إخباريٍّ...).

ويمكننا بطريقةٍ مماثلةٍ، من خلال مقارنة ما يشير إليه النصّ بما نعرفه عن المرجع الحقيقيّ، أن نُطلق صفة التخيُّليّ على هذا الفيلم بعنوان «منتزه العقاب» (Punishment Park) للمخرج بيتر واتكنز (Peter Watkins) والذي يعتمد تقنيات الريبورتاج الأكثر واقعيّةً بغية إثارة مسألة إنشاء عالم «محتملِ الوقوع» (وهو إقدام السُّلطات الأمريكيّة على استبعاد معارضيها اليساريِّينَ بشكلٍ ساديٍّ). وما يسمح لنا بذلك هو واقع أنَّ مَن يُشاهد هذا الفيلم يناجي نفسه قائلاً: أنا على يقينٍ أنَّ هذا الأمر لم يحصل، ومحالٌ أن يكون قد حصل كما هو مبيَّنٌ. وفي حال غابت عنّا هذه المعرفة (الأمر الذي يحدث بانتظامٍ على ما يبدو في ما يتعلّق بهذا الفيلم)، فسنقع لا محال في فخّ المحسن البيانيّ.

2. النمط الثاني: ويشتمل على معلوماتٍ متعلّقةٍ بوضع النصّ المطروح، فهو إمّا أن يحتوي على إشارةٍ تدلّ على النوع (أن يكون على سبيل الذكر لا الحصر «قصّةً خياليّةً» أم «روايةً»)، وتُنشئ هذه الإشارة «ميثاق قراءةٍ» بين المُرسِل والمُرسَل إليه (وهذا الميثاق هو نوعاً ما نقيضُ «ميثاق السيرة الذاتيّة» الذي ينكبُّ فيليب لوجون (Philippe Lejeune) على تحليله)، أو أن يحتوي،

إذا نظرنا إليه من باب أوسع باعتباره مستمداً من مجموعة النصوص الأدبيّة التي لا تُحصى، على قرائنَ متينةٍ تُثبتُ أنَّ نمطه تخيُّليٌّ[85]. وبالتالي، يتعذَّرُ تصوُّر إشكاليّة التخيُّليّة، كما يقول شميدت (S. Schmidt)، إلاّ في إطار التداوليّة التواصليّة لطريقة عمل التواصل الأدبيّ، ووفقاً لنظام المقاييس الذي يرعاها والمحدَّد اجتماعيّاً وتاريخيّاً، وكذلك بمقتضى إحدى التعليمات المتعلّقة بالقراءة التي رسَّختها تربيتنا في أذهاننا، ومفادها: «عندما يطالعكم نصٌّ ينتمي إلى فئة الأعمال الأدبيّة المصنَّفة اجتماعيّاً، عليكم أن تنظروا إلى العالم الذي يُنشئه باعتباره قائماً بذاته، ولا تحاولوا تقويمه قياساً إلى ملاءمته وعالم التجربة، بل بالأحرى قياساً إلى العالم المُغلَق المُكَوَّن من مجموعة الإنتاجات الأدبيّة أو إحدى مجموعاتها الدونيّة الخاصّة».

وعليه، عندما يتَّخذ الخطاب التخيُّليّ أشكال الخطاب غير التخيُّليّ، يمكن اعتباره محسناً بيانيّاً مُرشَّحاً (وكدليلٍ إضافيّ أيضاً على وضعه كمحسنٍ بيانيٍّ، نذكر أنَّ «الشروط الأساسيّة للنجاح» المفروضة عادةً على الأقوال التأكيديّة الإخباريّة تكون وقف التنفيذ، كما يؤكِّد سيرل[86]، والذي خلُصَ من ذلك إلى هذا الاستنتاج القائل بأنَّ التأكيدات والإخبارات الموجودة في الخطاب الخياليّ هي «زائفةٌ»). بيد أنَّه محسنٌ بيانيٌّ فريدٌ جداً من نوعه ويتمتَّع بالخاصيَّة التالية: في حين ينحصر وجود التفاوت، في كلّ المحسنات البيانيّة الواردة سابقاً، بين الكينونة الخطابيّة والظاهر الخطابيّ على مستوى محتوى المتتالية موضوع البحث، سواء كان دلاليّاً أم تداوليّاً تواصليّاً، فإنَّه يتمحور حصريّاً، في حالة المحسن البيانيّ التخيُّليّ، حول المكوِّن الثالث من المثلث السيميائيّ، ألا وهو وضع المرجع النصيّ. ويجب تأويل النصوص الخياليّة حرفيّاً، كما أنَّها لا تُلزِم القارئ البحث بالضرورة عن المعنى المشتقّ الأكثر «ملاءمةً» الكامن وراء المحتوى الحرفيّ. وتتلخَّص الحالة الوحيدة التي تخرج فيها هذه النصوص عن المألوف في واقع أنَّها تطرح ظاهريّاً المحتويات المؤكَّدة باعتبارها حقيقيّةً، أي باعتبارها تملك، في عالم التجربة، ارتباطاً مرجعيّاً، في حين أنَّها لا تخضع في الواقع لأيّ حكم حقيقةٍ، ولا تُبصر ارتباطاتها المرجعيّة النور إلاّ في عالمٍ خياليٍّ

(85) لا يعني ذلك أنه يجب أن نُماثل الأدب بالخيال والأدبية بالتخيُّلية.

(86) Searle, *Sens et expression: Etudes de théorie des actes de langage = Expression and Meaning*, pp. 105-106.

«محتمل الوقوع»[87]، قريبٍ من الواقع تقريباً أو على العكس اعتباطيٍّ.

وبطبيعة الحال يُمكننا إلحاق المحسن البيانيّ التخيُّليّ بقافلة المحسنات البيانيّة الأخرى، فعلى سبيل المثال، من الممكن ضمّه إلى الاستعارة وذلك وفق طريقتَي توفيق كلتيهما مثبَتتَين، وهما:

- وجود الاستعارات في نصّ خياليّ ما.

يمكن تلخيص طريقة عمل الاستعارة الدلاليّة، في النصّ غير التخيُّليّ، على الشَّكل المُبيَّن أدناه:

معنى حرفيّ = أي غير حقيقيٍّ

معنى مشتقّ = أي حقيقيّ بالنسبة إلى «ع»

وحين تغدو الاستعارة راسخةً في النصّ الخياليّ، تصبح طريقة العمل هذه كالآتي:

معنى حرفيّ = أي غير حقيقيٍّ

استعارة

معنى مشتقّ = أي حقيقيّ

ليس في «ع»، بل في

عالمٍ ممكن الوقوع قصّة خياليّة

يُنشئه النصّ

- تأويل بعض النصوص التي تظهر بمظهر التخيُّليّة تأويلاً استعاريّاً شاملاً أو

(87) في هذا الصدد علينا فهم هذه العبارة بمعنىً مختلفٍ اختلافاً بسيطاً عن المعنى الذي ينسبه إليها هينتيكّا (Hintikka) وغيره من مناصري «منطق العوالم المحتملة الوقوع». انظر بهذا الشأن، من جملة آخرين: Michel Meyer, *Logique, langage et argumentation*, Hachette université. Langue, linguistique, communication (Paris: Hachette, 1982), pp. 81 et sqq.

مجازيّاً، مع أنَّها تقترح إمكانيّة «تبديل موضعها» في حال طُرِحت انسجاماً مع حقيقةٍ محدَّدةٍ (فعلى سبيل الذكر لا الحصر، ها هي الحقيقة السوفياتيّة المعاصرة تستثمرُ في كلّ رواياتها طريقةً من الطرق التي يُطلق عليها أ. بيريلوفيتش[88] (A. Berelovitch) اسم «لسان إيزوب» (Langue d'Ésope)، ألا وهي: تركيبة الخيال السهلة النقل[89]، وذلك بغية تمرير حقائق عن «ع» تتَّصف بالدقَّة وباستحالة صياغتها بشكلٍ مباشرٍ)، على الشَّكل المُبيَّن أدناه:

معنى حرفيّ = أي حقيقيّ

قصّة خياليّة

حقيقيّ فقط في

عالمٍ تخيُّليٍّ

استعارة

حقيقيّ بالنسبة

إلى «ع»

وتجدر الإشارة أخيراً إلى أنَّ القصّة الخياليّة تُحاكي ظواهر أخرى يمكن أن تكون «مُشابهةً» لها من وجهة النظر هذه، ونذكر منها مثلاً: المزحة، أي القول الكيفيّ الذي يتمّ التفوُّه به بقصد المزاح قليلاً، وتتغيَّر تأثيراته التداوليّة التواصليّة بتغيُّر الموضوع الذي يتناوله، سواء كان تأكيداً وإخباراً أم سؤالاً أم جواباً. وإليكم لمحةً عن كلّ حالةٍ من هذه الحالات الثلاث:

1. التأكيد والإخبار:

● والمثل الأوّل على ذلك هو ما قيل عقب عرض مسرحية **الرجل الذي يضحك** (*L'Homme qui rit*) لكاتب المسرحيّ برنارد غييوم (Bernard Guillaume) والتي ارتكز كلّ إخراجها، مع الحرص الكبير على الادِّخار في الوسائل، حول

---

(88) Alexis Berelovitch, «Autrement dit,» dans: *Essais sur le discours soviétique: Sémiologie linguistique, analyse discursive* (Grenoble: Université de Grenoble III, 1981).

(89) وعلى كلّ حالٍ، لا نقع مطلقاً على نصّ يكون تخيُّلياً من ألفه إلى يائه، إذ إنّه يمزج دائماً مكوّناتٍ «حقيقيّةً» إلى التراكيب الخياليّة، كما أنّ كلَّ نصّ يمتاز بمعدّلٍ معيّنٍ من التخيُّليّة.

إعطاء شكلٍ لفعل «هوغوليّ» (Hugolien)، مع التظاهر بقراءة النصّ واكتشاف الصيغة النهائيّة لهذا الفعل في سياق العرض المسرحيّ، ومفاده:

إلاّ أنّه كان في وسعه أن يحفظ نصّه!

Il aurait quand même pu apprendre son texte!

● والمثل الثاني على ذلك هو الحديث الذي دار بين شخصين أثناء انعقاد قمّة مركز التجارة العالميّ في نيويورك (World Trade Center)، ومفاده:

المتكلِّم: أتعلم أنّنا نستطيع في أيّام الصحو أن نرى برج «إيفل»؟

المخاطب (وهو في حالةٍ من الذهول): حقّاً! (ومن ثمّ يقول في محاولةٍ غير موفَّقةٍ للتعويض عن سخريّة مثل هذه «السذاجة» غير المضبوطة، وردّ الكيل كيلَين): «ولكن يستحيل فعل ذلك بسبب كرويّة الأرض» - ثمّ أقسَمَ ولكن بعد انقضاء بعض الوقت بأنَّ ذلك لم يعد ينطلي على أحدٍ.

L_1 - Tu sais, par temps clair, on peut voir la tour Eiffel!

L_2 - (éberluée). - Oh! (puis tentant sans grand succès de compenser le ridicule d'une telle «naïveté» incontrôlée en retournant la galéjade: «Mais c'est pas possible, à cause de la rotondité de la terre» - et jurant, mais un peu plus tard, qu'on ne l'y prendrait plus).

2. السؤال: وإليكم المثل التالي:

عندما نتناول بدوائر الكلام أو الرسوم المُربكة موضوع كأس العالم لكرة القدم الذي يجري في الأرجنتين، فما الذي نقدّمه؟ أنقدّم معلوماتٍ عامّةً أم نعرض وقائعَ صحفيّةً أم نسوّقَ جبنةَ ماعزٍ؟

Quand nous traitons en bulles et en dessins de la torture à propos de la coupe du monde de foot en Argentine, qu'est-ce que nous faisons? De l'information, du journalisme, ou du fromage de chèvre?

(نقلاً عن غي فيدال[90]، رئيس تحرير مجلّة *Le Pilote* الذي يُبدي اعتراضاً في مجلّة *La Quinzaine littéraire*، على واقع أنَّ هذه المجلّة قد شُطبت من جدول المطبوعات، وقد عُلِّلَ السَّبب القابل للنزاع إلى كونها لا تخصِّص إلاّ 50 في المئة فقط من مجموع صفحاتها للمقالات المكتوبة).

3. الجواب: والمثل على ذلك ما يلي:

---

(90) Guy Vidal, *La Quinzaine littéraire*, no. 308 (sep. 1979), p. 15.

المتكلِّم: مَن التقطَ لك هذه الصُّور؟

المخاطب: كلا، لست أنا مَن يظهر في هذه الصور، بل إنَّه تمساحٌ ما![91]

L_1 - C'était toi les photos?

L_2 - Non, c'était un crocodile!

ليست المزحة أمراً نادراً في التبادل الكلاميّ اليوميّ، بيد أنَّها تنحصر عادةً في حدود الردّ المعزول أو التبادل الحواريّ الموجز. وهي تتعارض بهذا الخصوص مع الخطاب الخياليّ الذي يرد على شكل نصٍّ متواصلٍ ذي طابع سرديٍّ عادةً يهدفُ إلى بناء «عالم» متماسكٍ. أمّا أشكال المزحة فهي بترابطٍ أقلّ عدداً، وتتَّصف بطابعها الكيفيِّ واللَّعَبيّ والمجّانيّ في أكثر الأحيان، وتكون كذلك هازئةً طوعاً (وفي حال كانت تأكيديّةً إخباريّةً، فهي تنصبُ فخّاً للمخاطب، أمّا إذا كانت في معرض الجواب، فهي تفضحُ بالخُلْف عبثيّة التصرُّف التعبيريّ الأدائيّ السابق)؛ هذا وتكمن وظيفتها الأساسيّة في إظهار «قطع الصلّة» المؤقَّت عن الخطاب الجديّ. في حين تدَّعي كلّ البنى التخيُّليّة تقريباً بوجوب أخذها على محمل الجدّ (إذ لا تشكِّل التسلية إحدى أهدافها الأساسيّة)، حتّى وإن لم تكن جديّةً بالمعنى الذي يقصده «سيرل» بقوله: «[. . .] تكون أفعال قول القصّة الخياليّة «غير جديّةٍ». وتلافياً للوقوع في نمطٍ جليٍّ من التفسير المعكوس، نُشدِّد على أنَّ هذه الشروط لا تعني بأيّ شكلٍ من الأشكال أنَّ كتابة روايةٍ خياليّةٍ أو تأليف قصيدةٍ ما لا يدخل في نطاق النشاطات الجديّة، بل يُقصَد بالأحرى، أنّه لو قال أحد مؤلِّفي الروايات مثلاً إنَّ المطر يهطل في الخارج، فهو لا يلتزِم جديّاً [أو يكون مُلتزِماً] بفكرة أنَّها تُمطر في الخارج في طور عمليّة الكتابة. وبهذا الاتّجاه، تكون القصّة الخياليّة غير جديّةٍ»[92].

وإذا وضعنا هذه الاختلافات جانباً، تنتهك المزحة، شأنها شأن القول التخيُّليّ، «قاعدة النَّوع» المنسوبة إلى غريس. ويمكننا اعتبارها محسناً بيانيّاً حيث إنَّها على الرُّغم من هيئاتها التي توحي بأنَّها خطاب حقيقةٍ (المزحة فعَّالة خصوصاً وأنَّها تتصنَّع بأنَّها جديّةٌ وأنَّها تتمحور حول صيغةٍ «متجاهلة الأذى»)، إلاّ أنَّ

(91) هذا المثل مأخوذ من مسرحية «المغنية الأسطورة» (Diva) لكاتب المسرحيّ جان جاك باينيكس.

(92) Searle, *Sens et expression: Etudes de théorie des actes de langage = Expression and Meaning*, p. 103.

قوامها في الحقيقة الإدلاء بكلام «مهما يكن» بشأن «ع» أو على الأقلّ كلاماً يتعذّر جديّاً أخذه على محمل الجدّ. ولكن لا تدّعي المزحة، تماماً كما القول التخيُّليّ، وإنّما بخلاف المحسنات البيانيّة الأخرى (إذ إنَّ المزحة تتعارض مثلاً مع قلب المعنى باعتبارها تقول ببساطةٍ وبشكلٍ مضمرٍ إنَّ الجُمَيلة الأولى «ج» غير صحيحةٍ، في حين يذهب قلب المعنى إلى حدّ القول، وبشكلٍ مضمرٍ دائماً، أنَّ عكس هذه الجُمَيلة «ج» هو الصحيح)، بأنَّها تُخفي وراء معناها الحرفيّ معنى مشتقّاً محدَّداً، يجب فكّ ترميزه. وإنَّ التفاوت الوحيد الذي تُنشئهُ بين مظهر الخطاب وحقيقته قائمٌ على مستوى مرجعها، وذلك على الشَّكل التالي:

وضع المرجع الخطابيّ الظاهريّ (ولكن الوهميّ): وهو موجودٌ في «ع».

وضع هذا المرجع المشتقّ (ولكن الفعليّ): وهو غير موجودٍ في «ع».

(أو بكلامٍ آخر:

وضع القول الظاهريّ: وهو حقيقيٌّ بالنسبة إلى «ع».

وضع هذا القول الحقيقيّ: وهو غير حقيقيٍّ بالنسبة إلى «ع».

ولكن يقع التفاوت البيانيّ في موضعٍ مغايرٍ في آخرِ حالةٍ من حالات الصور التي سنستعرضها في مايلي، ألا وهي:

4.2.3. المحسن البيانيّ «التواصليّ»

سنتحدَّث في هذا الصدد عن ظاهرةٍ تختلفُ اختلافاً ملموساً عن سابقاتها، لأنَّها تُدخِل في دائرة البحث مسألة التراتبيّة، ليس مطلقاً تراتبيّة المحتويات القوليّة (سواء كانت ذات طبيعةٍ دلاليّةٍ أم تداوليّةٍ تواصليّةٍ)، بل تراتبيّة الفاعلين الذين يؤدّون فعل القول.

(ملاحظة: يمكن أن يُشكِّل كلّ من المُرسِل أم المتلقّي موضوع «المحسنات البيانيّة التواصليّة». ولكنّنا لن نعالج في هذا القسم إلاّ النمط الثاني لأنَّ فيه تكمن المعضلة كلّها، ولأنَّه يُعنى كذلك بشكلٍ غير مباشرٍ بطريقة عمل المُضمَر والاقتباس والخطاب «المتعدِّد الأصوات» التي يطرحها النمط الأوَّل).

ـ فئات المتلقّين المختلفة.

سنعتمد التسميات[93] التالية:

● سنطلق اسم مُحاور (م) أو «مرسَل إليه مباشر» على الشخص الذي يوجّه إليه المتكلّم حديثه صراحةً باعتباره شريكه في التفاعل، وهذا ما تؤكّده بعض «دلائل التحاور» التي تكون ذات طبيعةٍ كلاميّةٍ أو هامشيّةٍ كلاميّةٍ؛

● يتّخذ المتلقّي صفة «المُرسَل إليه غير المباشر» عندما يؤدّي، من دون أن يتكامل فعليّاً في علاقة التحاور، وظيفة الشاهد على التبادل الكلاميّ، شرط أن يعي المتكلّم وجوده وأن يعترف به؛

● وأخيراً، نتحدّث عن «متلقٍ إضافيٍّ» في حال غاب وجوده عن ذهن المُرسِل في الحلقة التواصليّة.

ـ سنطلق اسم «المحسن البيانيّ التواصليّ» (الذي يتمحور حول المتلقّي) في كلّ مرّةٍ تُقلبُ فيها تحت ضغط سياق النصّ تراتبيّة مستويات المُرسَل إليه رأساً على عقب، أي بكلام آخر، في كلّ مرّةٍ يظهر فيها المُرسَل إليه، بمقتضى بعض «واسمات التحاور» بمظهر المُرسَل إليه المباشر، مع العلم بأنّه لا يكون في الحقيقة إلاّ مرسَلاً إليه ثانوياً، إذ إنَّ المحاور الحقيقيّ يكون في الواقع الشخص الذي يتّخذ ظاهريّاً صفة المُرسَل إليه غير المباشر. وإليكم المثل التالي: «حديثي موجَّهٌ إليكِ يا شقيقتي» («C'est à vous que je parle, ma soeur»)، كرَّرَ كريسال (Chrysale) كلامه بإصرارٍ يدعو حقيقةً إلى الريبة[94]. وفي الواقع، وممّا لا يحمل إلى الشكّ سبيلاً أنّه يجب علينا عدم اعتبار القول التالي: «أنا لا أوجّه كلامي إليكِ يا زوجتي» («Ce n'est pas à vous que je parle, ma femme») المستتر وراء القول السابق بمثابة إنكارٍ، لأنَّ هذا الخطاب موجَّهٌ إلى فيلامينت (Philaminte) التي لم يفتها بالمناسبة أن تفهمه، بما أنّه يعنيها بشكلٍ مباشرٍ أكثر ممّا يعني بيليز (Bélise) المسكينة (وبالتالي، يترتّب علينا تحديد المحسن البيانيّ على ضوء «قاعدة الملاءمة»).

وعليه، يمكننا تلخيص ترسيمة المحسن البيانيّ التواصليّ على الشَّكل التالي:

---

(93) انـظـر: Kerbrat-Orecchioni, *L'Enonciation de la subjectivité dans le langage*, pp. 23 et sqq.

(94) في المشهد السابع من الفصل الثاني من مسرحية **النساء المتحذلقات** (*Les Femmes savantes*).

نجد ظاهريّاً أنَّ: المُرسَل إليه المباشر = أ (بيليز)

والمُرسَل إليه غير المباشر = ب (فيلامنت)

أمّا في الواقع فإنَّ: المُرسَل إليه الرئيسيّ = ب

والمرسَل إليه الثانويّ = أ.

(أمّا في الحالة الخاصَّة التي يتساوى فيها المُرسَل إليه الثانويّ (أ) والمتكلِّم، فيتَّخذ المحسن البيانيّ شكل «تناج مُزيَّف». وهكذا مثلاً، تتظاهر دورين (Dorine) في المشهد الثاني من الفصل الثّاني من مسرحية **المُنافق** (*Le Tartuffe*)، بعد أن يمنعها أورغون (Orgon) من أن تنبس ببنت شفةٍ، بأنَّها «تخاطب نفسها»، في حين أنَّه واضحٌ وضوح الشمس أنَّ حديثها الحانق مصوغٌ عن سابق تصوُّرٍ وتصميم ليصل إلى مسامع المُرسَل إليه غير المباشر ظاهريّاً والأساسيّ فعليّاً، وها هو المثَل:

أورغون: هكذا إذاً، تضربين بكلامي عرض الحائط.

دورين: ممَّ أنت تتذمَّر؟ أنا لا أوجِّه حديثي إليك.

أورغون: وماذا تفعلين إذاً؟

دورين: إنَّني أحدِّث نفسي).

ORGON. - Donc, de ce que je dis on ne fera nul cas?
DORINE. - De quoi vous plaignez-vous? Je ne vous parle pas.
ORGON. - Qu'est-ce que tu fais donc?
DORINE. - Je me parle à moi-même.

يقلِبُ المحسن البيانيّ تراتبيّة المُرسَل إليهم رأساً على عقب، من دون أن تؤدِّي هذه العمليّة إلى أيّ تعديلٍ في معنى المتتالية، كما هو بيِّن في المثلَين الآنفي الذكر. ولكن في المقابل قد يتلاحم المحسن البيانيّ التواصليّ مع التعلُّق المعنويّ، كما هو الحال في المشهد الخامس الشهير من مسرحية «المنافِق» عينها، حيثُ تجري بعض المتتاليات الخطابيّة في الوقت نفسه على وقع تشاكلَين دلاليَين مختلفَين، وفقاً للترسيمة التالية: إنَّ المتكلِّم (أي إلمير (Elmire)) يوجِّه ظاهريّاً إلى المُرسَل إليه المباشر (أ) (أي تارتوف) خطاباً يتَّخذ بالنسبة إلى (أ) معنى أوَّل ($م_1$)؛ ولكنَّه يوجِّه حديثه في الواقع إلى المُرسَل إليه غير المباشر (ب)

(أي أورغون المُختبئ تحت الطاولة) والمخوَّل أن يستخرج من القول محتوى ثانياً ينطوي على معنى ثانٍ ($م_2$) يكون مُختلفاً عن المعنى الأوَّل ($م_1$ $م_2$) (ويكون وضع أورغون التعبيريّ الأدائيّ بالنسبة إلى إلمير وضع المُرسَل إليه الذي يبدو ظاهريّاً غير مباشرٍ والذي يكون أساسيّاً بالفعل، في حين يعتبره تارتوف «متلقيّاً إضافيّاً»).

وهكذا يختلف مثلاً وضع سعلة إلمير السيميائيّ باختلاف المُرسَل إليهما:

● ففي الحالة الأولى، إنَّ السعلة موجَّهةٌ إلى تارتوف الذي يؤوِّلها باعتبارها دليلاً على الزُّكام، كما هو جليٌّ في المثل التالي:

تارتوف: أنت تسعلين بقوَّةٍ يا سيّدتي.

إلمير: نعم، أنا أذوق الأمرَّين.

تارتوف: هل ترغبين في بعضٍ من عصير السُّوس.

إلمير: ممّا لا شكّ فيه أنَّ زكامي من النوع العضال، وأعتقد أنَّ كلّ عصير العالم لن يجديني نفعاً.

تارتوف: إنَّ ذلك لمؤسفٍ حقّاً.

إلمير: أجل، وأكثر ممّا تتصوَّر،

TARTUFFE. - Vous toussez fort, madame.

ELMIRE. - Oui, je suis au supplice.

TARTUFFE. - Vous plait-il un morceau de ce jus de réglisse?

ELMIRE. - C'est un rhume obstiné, sans doute, et je vois bien que tous les jus du monde ici ne feront rien.

TARTUFFE. - Cela, certes, est fâcheux.

ELMIRE. - Oui, plus qu'on ne peut dire,

● أمّا في الحالة الثانية، فالسعلة موجَّهةٌ إلى أورغون ومن شأنها أن تؤدِّي دور العلامة (ومفادها أنَّ الأوان قد آن لوضع حدٍّ لهذه الدعابة، وتُعلمنا المَمسرحيةِ «أنّها تسعلُ لتحذِّر زوجها). والحال أنَّ هذا هو وضع هذه السعلة الحقيقيّ، وهي موجَّهةٌ إلى المُرسَل إليه الحقيقيّ ألا وهو أورغون. وعليه، نستنتج وجود محسنٍ بيانيٍّ تواصليٍّ في هذا المثل.

وتختلف كذلك طبيعة الاستدلالات السببيّة التي تُضاف إلى المتتاليات التي أشرنا إليها في المقاطع الطويلة المختلفة التي تشكِّل دور إلمير في المسرحية، باختلاف نظرتنا إليها داخل الحلقة التواصليّة، سواء كانت تلك التي تربط إلمير بتارتوف أم تلك التي تربط إلمير بأورغون. وأخيراً، ففي هذه الفقرة التي تُظهر بمهارةٍ شديدةٍ مرونة الضمير المجهول (On) المرجعيّة، (والتي تتلاعب ثانياً بإبهام الضمير «أنتم» (Vous) وبعبارة «الناس» (Les gens))، ألا وهي:

تقول إلمير (بعد أن تسعل مرّةً أخرى):

أرى في نهاية المطاف أنّني مُرغمةٌ على الإذعان، ولا مجال

عليّ أن أوافق على منحك كلّ ما تطلبُه من دون سؤال

وأن أقبل بما دون ذلك، لأمرٍ مستحيلٍ ومُحال

فإن طمِحَ المرء إلى السعادة، فعليه المضيّ دون التمهُّل لأيّامٍ طوال

ومن المؤسف حقّاً أن تتطوَّر الأمور إلى هذا الحدّ

ولكنّني مُرغمةٌ على القيام بذلك الأمر ومنه لا أجد بدّ

وبما أنَّ أمري قد حُسِم، وحجمي قد رُسِم

ولأنَّ البعض يبحثُ عن شهودٍ يُقنعون العديد من الأشخاص

عليّ الرضوخ لهذه الرغبة وإرضاء هؤلاء الناس [...]،

ELMIRE (après avoir encore toussé)
Enfin, je vois qu'il faut se résoudre à céder,
Qu'il faut que je consente à tout vous accorder,
Et qu'à moins de cela je ne dois point prétendre
Qu'on puisse être content et qu'on veuille se rendre.
Sans doute, il est fâcheux d'en venir jusque-là,
Et c'est bien malgré moi que je franchis cela;
Mais, puisque l'on s'obstine à m'y vouloir réduire,
Puiq'on veut des témoins qui soient plus convaincants,
Il faut bien s'y résoudre et contenter les gens [...],

نرى كيف أنَّ الضمير المجهول يُشير، بحسب علاقة التحاور التي يرِدُ فيها، إمّا إلى تارتوف أو إلى أورغون - وتُطلق مثل هذه السهولة في إدارة كلّ من المحسن البيانيّ والتعلُّق المعنويّ في إطار هذه المداهنة الكلاميّة المزدوجة،

العنان لتخيُّل شخصيّةٍ يُجمع الكلّ على الثناء على استقامتها. . . (وتُثبتُ كذلك على وجه الخصوص، مدى طيشنا في حال اعتبرنا أنَّ مثل هذا الخطاب هو انعكاسٌ صادقٌ لكلام عفويٍّ، وذلك بغية استخراج «حقائقَ» ذات طابع نفسيٍّ منه، في حين أنَّ الأمرَ يتعلّق بتركيبةٍ خاضعةٍ لمقتضيات الفعاليّة المسرحيّة أكثر منها لمقتضيات «الاحتماليّة»).

إنَّ الأمثلة التي أوردناها سابقاً عن المحسنات البيانيّة مُقتبسةٌ عن الخطاب المسرحيّ، وتتناول شخصيّاتٍ مختلفةً، أي بتعبيرٍ آخر، فاعلين مختلفين مستمدِّين من الواقع التعبيريّ الأدائيّ عينه. ومن هذا المنطلق، فمن الممكن أن تطالعنا هذه الأمثلة في التبادل اليوميّ على حدٍّ سواء، وهذا ما يحصل فعلاً. وإليكم مثلاً على ذلك: يقف طابورٌ غفيرٌ في أوج احتداده أمام شبّاك تذاكر إحدى الصالات، وإذ بأحدهم يصرخ متظاهراً بأنَّه لا يُخاطب أحداً محدَّداً، فيقول: «ثمّة أوغادٌ بيننا!» («Y a des salauds ici!»)، على أمل أن يعرف «الوغد» (المحتال) الذي يقصده بقوله نفسه وأن يوبِّخَ ذاته وأن يفهمَ أنَّ الخطاب لا يعنيه فحسب (لأنَّه لو كان هذا هو الحال لكانت المسألة ببساطةٍ مسألة محسنٍ بيانيٍّ إضماريٍّ) بل هو بالإضافة إلى ذلك موجَّهٌ إليه من باب الأولويّة، وبالتالي ينحصر في الواقع دور سائر الحضور بكونهم شهوداً على هذه المناجاة المنتقمة، ونستنتج بالتالي وجود محسنٍ بيانيٍّ تواصليٍّ.

بيد أنَّ ما يميِّز بشكلٍ خاصٍّ التواصل المسرحيّ وجهازه التعبيريّ الأدائيّ، إنَّما هو هذا الازدواج اللامنتهي في مستويات فعل القول، ومن ضمنها يجدر التمييز بين:

- المستوى الخارجيّ المشهديّ (أي علاقة المؤلّف الجمهور)
- المستوى الضِمْمَشهديّ (أي علاقة الشخصيّات الشخصيات

وهي أيضاً علاقة الممثِّلين الممثّلين)

ولكن إلى مَن يتوجَّه الخطاب المسرحيّ؟

نلاحظ ظاهريّاً أنَّ الشخصيّات تتوجَّه إلى الشخصيّات التي يجسِّدها الممثِّلون، أمّا الجمهور فيتَّخذ بالنسبة إليهم وضع «المتلقِّي الإضافيّ»، إذ يُعتبر دخيلاً «يستمع عَرَضاً» إلى خطابٍ غير موجَّهٍ إليه مبدئيّاً.

(ولا يكون هذا الوضع الخاصّ جدّاً خلواً من دلائل تُشير إلى طريقة عمل الخطاب المسرحيّ الداخليّة. وإليكم المثل التالي الفريد من نوعه، ألا وهو: مسألة «السرّ المُباغَت»، فكَم من «الشهود غير المتحفِّظين» على المسرح الكلاسيكيّ، وكَم من الدخلاء المتوارين عن الأنظار والقابعين تحت الطاولات وهم متنكِّرون كالتماثيل وكامنون في «الحُجرة الصغيرة» (petit cabinet) أو غيرها من الأماكن التي يُطلق عليها «غوفمين» اسم «مناطق الرصد» (zones d'aguet)! وكَم من الإستحواذات المُحترِسة كذلك، وكَم من الحرص الهادف إلى التأكُّد من أنَّ أحداً لا يتجسَّسُ علينا، وأنَّ لا وجود لمخلوقٍ في هذه «الأماكن الصّغيرة المُخصَّصة لمُباغتة» الأسرار الثمينة... لمَ هذا القدر من الاحتياطات التي تبقى بصورةٍ شبه دائمةٍ غير ذات جدوى؟ وكيف السبيل إلى تفسير تواتر حدوث مثل هذا الأمر؟ يمكننا شرح ذلك بعدَّة طرقٍ. ولنفترض ببساطةٍ التفسير التالي: يجب التسليم دائماً بوجود شاهدٍ غير متحفِّظٍ في المسرح يتمثَّل بشخصيّة الجمهور الجماعيّة، ويُعدّ هذا الشاهد المُرسَل إليه الذي يتوجّه إليه المؤلِّف والممثِّل، في حين لا يكون هذا الجمهور، كما رأينا سابقاً، سوى دخيلٍ بالنسبة إلى الشخصيّة؛ وعليه، نتواجد كلُّنا في «الحُجرة الصّغيرة» السوداء لنُباغت الأسرار. ومن هذا المنظور لا تُعتبر احتياطات الشخصيّات سوى غير ذات جدوى، وبالتالي، يتمّ تأويل الموضوع المذكور باعتباره نوعاً من أنواع التكرار المرآوي، على خشبة المسرح، لما يُميِّز دائماً علاقة المسرح/ الصّالة).

وبالعودة إلى القضيّة التي يطرحها المحسن البيانيّ، تُعدُّ بالتالي الشخصيّات في المسرح ظاهريّاً بمثابة المُحاور. ولكن في الواقع، يتوجَّه الخطاب فعليّاً إلى الجمهور لأنَّ الهدف يكمن في إغوائه. وإذا ما محَّصنا الموضوع من زاوية ما يدور في العلاقة القائمة بين الفاعلين الذين بدل أن يكونوا غير متشاكلين دلاليّاً يصبحون غير متجانسين على الصعيد التعبيريّ الأدائيّ (أي إذا ما تجاوزنا «الحاجز» الذي يفصل الحيِّز المشهديّ عن الحيِّز الخارجيّ المشهديّ)، يبدو بالتالي الخطاب المسرحيّ وكأنَّه يعمل بمجمله على طريقة المحسن البيانيّ التواصليّ.

وإذا ما نظرنا إلى الخطاب المسرحيّ من منظور الحلقة التعبيريّة الأدائيّة المزدوجة[95]، نستنتج أنَّ عليه بشتّى الأحوال أن يلبِّي مقتضيات طبقتي المتلقِّين

(95) ونجد في الرواية متتاليات تحاوريّة كذلك، ونلاحظ عند المؤلّف براسيّاك تلميحاً ألسنيّاً لغويّاً_

الذين يُشاهدونه، وذلك بشكلٍ متزامنٍ وأحياناً «تنافسيٍّ»، فوحدها الشخصيّات تخضع لقاعدتَي الملاءمة والإخباريّة. ولكن يتحتّم علينا في الوقت نفسه أن نُثير اهتمام المشاهد أو القارئ وأن نُبقيهما مطّلِعَين. لأنّهما يعانيان لدى افتتاح المسرحية عجزاً جديّاً يُعزى سببه إلى كون كفاءتهما الموسوعيّة، في ما يتعلّق بعالم الخيال الذي تترعرع فيه الشخصيّات، لاتزال بِكراً. وعليه، يجد الكاتب المسرحيّ نفسه، حين يبتكر مشاهد العرض، أمام هذه الإشكاليّة التقنيّة[96]، فكيف السبيل إلى سدّ هذا «التأخُّر المعرفيّ» لدى المشاهد وجعله مطّلعاً على الوقائع الأساسيّة وكأنَّ شيئاً لم يكن، أي مع المحافظة على الوهم القاضي بأن تُعتبر الشخصيّة الواقفة على خشبة المسرح بمثابة المُرسَل إليه الوحيد الذي يتوجّه إليه الخطاب الذي يدور، ومن دون أن يُصار على هذا المستوى إلى انتهاك قواعد الاحتماليّة التحادثيّة؟ ولقد عكَفَ الأشخاص المُعتادون على العمل في مجال المسرح على حلّ هذه الإشكاليّة، وذلك بفضل عددٍ من الحِيَل يرتكز أبرزها بحسب آن لوكلير[97] (Anne Leclaire) على:

(1) إخراج شخصيّةٍ جاهلةٍ: والمثل على ذلك ما يلي:

يُلمّح كورناي في **امتحان بوليوكت** (*L'Examen de Polyeucte*) إلى أحد مظاهر تقاليد المسرح الكلاسيكيّ هذه. ويُشير إلى أنّه غالباً ما تُرفع الستارة وتبدأ المسرحية بحدثٍ أو انفعالٍ يعود تاريخ حصوله إلى ما قبل سنتين أو ثلاث سنوات، وبالتالي «يجب إعلام المشاهد بهذه الأحداث وإيصالها له من خلال قيام أحد الممثّلين بإبلاغها لممثّلٍ آخر. ولكن علينا أن نحرص كلّ الحرص على أن يكون الشخص الذي نُعلمه بهذه الأمور يجهلها جهلاً مطبقاً حتى الوقت الراهن،

= انعكاسيّاً ماكراً إلى وضع الرواية الرسائلية التعبيري الأدائيّ، عندما يجعل باتريس (Patrice) ينطق بما يلي: «إذا ما قرأ أحد آخر رسائلنا هذه، سيأخذ انطباعاً بوجود أمرٍ غريب غير واضح المعالم» («Nos lettres, si un autre les lisait, donneraient l'impression d'un bien étrange brouillard») (عبارة مأخوذة من الفصل الثاني من كتاب: (Robert Brasillach, *Les Sept couleurs* ([Paris]: Le Livre de poche, 1965), chap. II «Lettres», p. 86)).

(96) وقد أشار عددٌ من المُختصّين بالخطاب المسرحيّ إلى هذه الإشكالية، ومن جملتهم بورتن: Deirdre Burton, *Dialogue and Discourse: A Sociolinguistic Approach to Modern Drama Dialogue and Naturally Occurring Conversation* (London; Boston, MA: Routledge & Kegan Paul, 1980), p. 30.

(97) Anne Leclaire, ««La Cantatrice chauve»: Scène d'exposition et presupposition,» *Pratiques*, no. 24 (août 1979), p. 7.

شأنه في ذلك شأن المشاهد. وكذلك، تطرح الشخصيّات التي يجعلها روبير برازيياك (Robert Brasillach) تتخاطب في الفصل الخامس من مسرحية **الألوان السبعة** (*Les Sept couleurs*)، منذ البداية السؤال التالي حول تقاليد افتتاح المسرح التقليديّ هذه، وتُجيبُ عليها على الشَّكل الآتي[98]:

فرانسوا: عندما تُرفع الستارة، ويكتشفُ المشاهد هذه الغرفة ذات الجدران الثلاثة حيثُ تقطن شخصيّات المسرح، فما هي الجملة الافتتاحيّة التي تُلقى على المسامع؟

كاترين: ثمّة أساليبٌ مختلفةٌ، وأكثرها تداولاً يقضي بإقامة حديثٍ بين الخدَم. ومدهشٌ هو كمّ المعلومات التي يزوِّدنا بها الخدَم على المسرح. وصدِّق أو لا تُصدِّق، يعتمد كذلك فنّ الكتّاب المسرحيِّين الشعريّ الحقيقيّ على تقرير الشرطة الخاصّة.

فرانسوا: لقد أغفلتِ ذكر السيِّدة التي كانت صديقة البطلة منذ أيّام الطفولة. وها هي تصل، وقد انقطعت الأخبار عنها، فتدخل إلى الصالون، وتستجرّ بسهولةٍ الوصيفة لإفادتها بكلّ المعلومات الأساسيّة.

FRANCOIS. - Quand le rideau se lève, et qu'on découvre cette pièce à trois murs où vivent les personnages de théâtre, quelle est la première phrase que l'on entend?

CATHERINE. - Il y a plusieurs procédés. Le plus courant est de faire dialoguer les domestiques. C'est fou ce que l'on apprend au théâtre par les domestiques. A croire que le véritable art poétique des dramaturges, c'est le rapport de police privée.

FRANCOIS. - Il y a aussi la dame qui a été une amie d'enfance de l'héroïne. Elle arrive, *elle ne sait rien*, elle se fait introduire dans le salon, et il ne lui est pas difficile de tirer de la femme de chambre les renseignements essentiels.

وسواء كانت صديقة الطفولة في المسرح البورجوازيّ، أم الخادمة أو أمينة الأسرار في المسرح الكلاسيكيّ (ويكمن دور هذه الأخيرة الأساسيّ في الحثّ على الثّقة وجعلها قريبةً من الواقع، وهنا يتبادر إلى ذهننا المثل التالي، من جملة

---

(98) Brasillach, *Les Sept couleurs*, p. 163.

آلاف الأمثلة المُشابهة، والمأخوذ من المشهد الأوّل من مسرحية **بريتانيكوس** (*Britannicus*) حيث يدور الحديث بين ألبين (Albine) المرأة الجاهلة، وأغريبين (Agrippine) المُخبِرَة)، فهذه كلّها أدوارٌ تهدفُ إلى تزويد المُشاهِد بشكلٍ غير مباشرٍ بالمعلومات.

(2) وفي حال كانت كلّ الشخصيات الموجودة على خشبة المسرح مطّلعةً بالقدر نفسه على الواقع الإشكاليّ، يقوم الدهاء بالتالي على مبدأ الإفادة من وضع الافتراضات الخاصّ جداً.

ففي بداية مسرحية **تيت وبيرينيس** (*Tite et Bérénice*) (التي تتخّذها آن لوكلير كمثلٍ على هذه الطريقة)، تُبوح دوميتي (Domitie) بمكنونات صدرها إلى أمينة أسرارها، قائلةً:

دعكِ من كَدَري، فهو في غير موضعه، ولكنّه يعذّبني

إنْ أنا طردته عاد، وإن خنقتَه تملّكني

فما بالي كلّما دنا الموعد الذي عن قراني[99] يفصِلُني

اشتدَّ شعور الانزعاج الذي، رغماً عنّي، يُخالجُني

Laisse-moi mon chagrin, tout injuste qu'il est.
Je le chasse, il revient; je l'étouffe, il renaît.
Et plus nous approchons de ce grand hyménée,
Plus en dépit de moi je m'en trouve gênée.

حينئذٍ يناجي المشاهد نفسه قائلاً: «عجباً، عجباً! أشتمُّ أنَّ حفل قرانٍ سيُعقد قريباً!».

في الواقع، تُشكّل الافتراضات وسيلةً ملائمةً لحلّ الإشكاليّة التي نحن بصدد معالجتها، إذ إنّها تسمح بإيصال المعلومات على طريقة صيغة المُضمَر إلى المُشاهد الذي يكون في الوقت عينه مُرسلاً إليه (غير مباشرٍ) والذي يعتبر أنَّ المتتالية تؤدّي وظيفة المحسن البيانيّ الافتراضيّ المُتبادِل العلاقة مع المحسن البيانيّ التواصليّ الذي طُرِحَ أعلاه، من دون أن يُصار إلى انتهاك قانون الإخباريّة انتهاكٌ فاضحٌ، من منظور الشخصيّة التي تكون في الوقت نفسه مُرسلاً إليه

(99) نحن مَن شدّد على هذه النقطة.

(مباشر) هذه المرّة. ولكان الانتهاك حاصلاً لو صيغَ المحتوى عينه باعتباره محتوىً مُقرّراً.

وفي حال تعذَّرَ تحقُّق أحد هذين الشرطَين، أي في حال كانت الشخصيّة التي تكون في الوقت نفسه مُرسلاً إليه على علم مُسبق بالمعلومات ذات العلاقة الوثيقة بالموضوع والتي يتمّ قولها على الرُّغم من كلّ شيءٍ على طريقة صيغة المحتوى المُقرَّر، تُنتَهك عندئذٍ قواعد النوع، تماماً كما في المشهد الافتتاحيّ من مسرحية **المغنية الصلعاء** حيث تقول السيِّدة سميث (Mme Smith) ما يلي:

السيِّدة سميث: عجباً، إنَّها الساعة التاسعة. لقد أكلنا الشورباء والسمك والبطاطس بالسمن والشحم، فضلاً عن السلطة الإنجليزيّة. وقد شرِبَ الأولاد المياه الإنجليزيّة. ولقد التهمنا الكثير من الأطعمة هذا المساء. هذا لأنَّنا نسكن في ضواحي مدينة لندن ولأنَّنا من آل «سميث» [...]،

Mme SMITH. - Tiens, il est neuf heures. Nous avons mangé de la soupe, du poisson, des pommes de terre au lard, de la salade anglaise. Les enfants ont bu de l'eau anglaise. Nous avons bien mangé, ce soir. C'est parce que nous habitons dans les environs de Londres et que notre nom est Smith [...],

وتُعلِّق «آن لوكلير» على هذا المثل قائلةً[100]: ضرَبَ إيونيسكو بهذا الشَّكل الخدعة المسرحية والتقليد المُتَّبَع في الحوار المشهديّ عرضَ الحائط. إذ إنّنا لا نتصرَّف «كما لو» كان المُشاهدون لا ينظرون أو غير موجودين، فالشخصيّات تقدِّم نفسها مباشرةً وتذكر هويّتها من دون اللّجوء إلى مواربةِ عمليّة الافتراض.

(وقد نذهبُ أيضاً إلى حدّ القول بأنَّ «إيونيسكو» يقوم هنا بابتكار تقليدٍ معاكِسٍ للتقليد السابق، ولكنَّه «موسومٌ» أكثر. والجدير بالذكر أنَّ المسرح الكلاسيكيّ لا يُسلِّم به إلاّ في الحالات الاستثنائيّة وفي إطار بعض «الأنواع الأدبيّة» فقط، ألا وهو: تقليد «مخاطبة الجمهور» الذي يُحوِّل المشاهد من كونه المُرسَل إليه الأساسيّ الذي يتوجَّه إليه التواصل المسرحيّ بفضل المحسن البيانيّ فقط، ليُصبح عن حقِّ المُرسَل إليه بشكلٍ صريحٍ وحرفيٍّ. ونتعرَّف عادةً إلى

(100) Leclaire, Ibid., p. 7.

وجود هذه الطريقة من خلال تصرُّف الممثِّل الهامشيّ الكلاميّ، ولكنَّنا نُدركه أيضاً على ضوء طريقة عمل قاعدة الإخباريّة[101].

وعليه، إنَّ ما يُميِّز الظاهرة التي طرحناها هو قلب تراتبيّة المُرسَل إليهم السويّة رأساً على عقب. وما هو مؤكَّدٌ أنَّها تكون ذات طبيعةٍ تداوليّةٍ تواصليّةٍ، شرط ألاّ تكون مستمدَّةً بوضوحٍ من فئة «المحسنات البيانيّة»، لأنَّنا إن عمَدنا إلى نقل مكان تفعيل الواقع البيانيّ بهذا الشَّكل، نُخضِع مفهوم «المحسن البيانيّ» إلى توسُّعٍ قد يجده البعض تعسفيّاً.

وعلى أيّ حالٍ، إنَّ هذه الظاهرة تطرح الإشكاليّة نفسها التي تطرحها كلّ المحسنات البيانيّة، ألا وهي: إشكاليّة التعرُّف على التفاوت الحاصل بين الظاهر الألسنيّ اللُّغويّ والواقع الألسنيّ اللُّغويّ، أي إشكاليّة تحديد كلّ من:

● المُحاوِر الصريح والحرفيّ، ويتمّ تحديده على قاعدة بعض العناصر الدالَّة، ونذكر منها الضمائر المتَّصلة والمنفصلة والعبارات التي تدلّ على المخاطبة واتّجاه النظر (ولكن يتمُّ ذلك على الصعيد الشفهيّ فقط[102]، علماً بأنَّ هذه العناصر لا تكون موجودةً أو واضحةً بصورةٍ دائمةٍ؛

● المُحاوِر المُضمَر ولكن الحقيقيّ، وتؤثِّر على وجهة هذا التحديد بعض الدلائل (ولاسيّما دلائل ذات طبيعةٍ هامشيّةٍ كلاميّةٍ، على غرار النظر من طرف العين بشكلٍ خفيٍّ. . .، إلخ). بيد أنَّ هذا التحديد يرتكز بشكلٍ أساسيٍّ على الحساب والحسبان المتعلِّقين بالملاءمة الخاصّة بالقول الذي يتمّ الإدلاء به.

وبالتالي، غالباً ما يكون تحديد المُحاوِر الحرفيّ واضحاً، في حين يكون تحديد المُحاوِر الفعليّ غامضاً، ونعجز أن نعيِّن بشكلٍ قاطعٍ إلى آذان مَن يرغب

---

(101) يتبدّل التأثير الذي يُخلّفه انتهاك قانون الإخبارية بتبدّل اتّجاه نظر السيدة سميث (Mme Smith) في المقطع الطويل الذي تؤدّيه، والتي كانت تؤرجح نظرها بين زوجها والجمهور الجالس في الصّالة. كما أنّه يختلف اختلافاً ملموساً ويصبح أكثر غرابةً في الحالة الأولى منه في الحالة الثانية.

وعندما يتكرّر هذا الأسلوب، بشكلٍ أوضح بعد، في مستهلّ المشهد الثاني، حيثُ «تذكر ماري (Mary) هويّتها» (على الشكل التالي: تقول ماري (وهي تدخل إلى المسرح): أنا الخادمة [. . .] («MARY (entrant): - Je suis la bonne [...]»))، ويصعب علينا تصوّر إمكانية أن يتمّ الإدلاء بهذا المقطع الطويل إنْ لم يكن ذلك أمام الجمهور.

(102) تضطلع الإشارات المُسرحية (على غرار: «إلى مثل هذا» («à un tel»)) في النصّ المسرحيّ المكتوب بدور التعويض عن غياب الدالّ الهامشيّ الكلاميّ.

المتكلّم أن يرقى كلامه بشكلٍ أساسيٍّ (وإليكم المثل التالي: عندما يعترض أحد الرّكاب في الباص موجّهاً كلامه إلى المسافرين الذين يُشاركونه الرحلة، ولكن بصوتٍ مرتفع بغية أن تصل الرسالة الكلاميّة إلى «الشخص الهدَف»، فيقول: «يقود هذا السّائق بعنفٍ!» («Ce chauffeur-là, il conduit avec une violence!»)، وفي هذه الحالة نكون بصدد محسنٍ بيانيٍّ جزئيٍّ، يتعدّى فيه المُرسَل إليه غير المباشر كونه مجرّد «شاهدٍ» على التبادل الكلاميّ (إذ إنّه «يصعدُ إلى السطح»)، ولكن من دون أن يتغلّب بشكلٍ حاسم على المُرسَل إليه المباشر؛ أو حتّى يستحيل أن نفرز، من مُجمل المُرسَل إليهم «الفرَضيّين» لخطابٍ معيّنٍ، مَن منهم يُلائِم أن نعتبرهم مُرسَل إليهم صريحين ومَن يُناسبُ اعتبارهم مُرسَلاً إليهم مُضمَرين (وهذا هو حال بعض المقالات التي تصدر عن الصحافة السوفياتيّة مثلاً، ويُبيّن ميشال هيلير[103] (Michel Heller) أنّها تنطوي على خطابٍ ثلاثيّ التوجُّه لأنّها مُخصَّصةٌ للجمهور السوفياتيّ والبولنديّ والشرقيّ).

وكذلك، فمن الأجدر أن نعدُلَ عن إطلاق تسمية «محسنٍ بيانيٍّ» وأن نتحدّث بالأحرى عن «تعدُّدية المعاني النصيّة» أو «المعنى الجمعيّ»، عندما نعجز بشكلٍ واضح عن وضع مستويات المحتوى بشكلٍ تراتبيٍّ، وكذلك إنّه لمن المُحبَّذ أن ننظر إلى الحالات الآنفة الذكر باعتبارها مستمدّةً من «تعدُّدية التكافؤ التواصليّة».

3.3. قراءة المحسن البيانيّ

بقولنا إنّنا لا نقدر أن نكره

أوَلسنا نقول إنّنا نُسامِح؟[104]

Dire qu'on ne saurait haïr,
N'est-ce pas dire qu'on pardonne?

في الواقع، قد تتساوى في بعض الأحيان هاتان الصيغتان تعيينيّاً ـ في حالة الإغراق مثلاً، التي يُصار إلى تحديدها على ضوء بعض الدلائل (مع التنبُّه إلى

(103) في كتاب: Michel Heller, *Sous le regard de Moscou: Pologne (1980-1982)*, traduit du russe par Olga Svintsova et Louis Lauraet (Paris: Calmann-Lévy, 1982), p. 9.

(104) من المشهد الثاني من الفصل الخامس من مسرحية **أنفيتريون** (*Amphitryon*).

عدم مزجها مع الدالّ الذي ترتكز عليه الدلالات التي تدخل في النزاع في إطار المحسن البيانيّ[105].

1.3.3. دلائل المحسن البيانيّ

يتحدَّث دو مارسيه (Du Marsais) عن التهكُّم قائلاً: «ما يساعدنا في كشف النقاب عن التهكُّم أكثر من الكلمات المُستعمَلة في معرض التهكُّم، إنَّما هي نبرة الصوت، وأكثر منها بعد معرفة جدارة فلانٍ أو عجزه، فضلاً عن طريقة تفكير الشخص الذي يتكلَّم»[106]. ويُردف قائلاً بشأن الاستعارة، ما يلي: «لا تكتسب الكلمات معناها الاستعاريّ إلاّ من خلال اتِّحاد التعابير بطريقةٍ مُبتكرةٍ»[107]. وليست هذه الأفكار سوى أفكارٍ مُبعثرةٍ، إلاّ أنَّها تقترح التصنيفيّة التالية لدلائل المحسن البيانيّ[108]:

(1) دلائلُ هامشيّةٌ نصيّةٌ، أي نطقيّةٌ أو إيمائيّةٌ حركيّةٌ.

قد يترافق الضحك أحياناً (وذلك لأنَّنا قد نؤثر عليه اللّجوء إلى التكتيك الذي «يتجاهل الأذى») مع إنتاج بعض المتتاليات التهكُّميّة (وإليكم المثل التالي المُقتبس عن كتاب **راهبة بارم الشارترية**[109] حيثُ نقرأ ما يلي: «[. . .] إنَّها دعوى سخيفةٌ أقامها رازي بحقّ فابريس بتهمة أنَّه لاذ بالفرار، أو كما يقول الأمير وهو غارقٌ شخصيّاً في الضحك، لأنَّه تهرَّب من رأفةِ أميرٍ شهمٍ!» («[...] un procès ridicule que Rasi instruisait contre Fabrice, accusé du crime de s’être sauvé, ou, comme disait le fiscal en riant lui-même, de s’être dérobé à la clémence d’un prince magnanime»)، أو مع إنتاج بعض «الدعابات» (وهذا شأن طرفة المارشال

---

(105) وليس التمييز بين «الدالّ» و«الدليل» من السهولة دائماً بمكانٍ. وهكذا، نحتار بأمرنا بشأن الاستفهام الخطابيّ الذي تتضمّنه الجملة التي يُدلي بها أنفيتريون (Amphitryon) والتي استشهدنا بها توّاً بهدف التوضيح، فهل يجب أن ندمج النفي في وصف هذا السياق أم في البنية الاستفهامية أم نعزله باعتباره دليلاً سياقيّاً حاليّاً نصيّاً؟ كما تطرح هذه الإشكالية نفسها بتعابيرَ مماثلةٍ بشأن السواد الأعظم من «واسمات الاشتقاق الكلاميّ المنطوق».

(106) César Chesneau Du Marsais, *[Traité des tropes] Les Tropes, etc.*, (avec un commentaire raisonné par M. Fontanier. Réimpression de l’édition de Paris, 1818) (Genève: Slatkine, 1967), p. 199.

(107) المصدر نفسه، ص 161.

(108) كما يُبيّنه تودوروف في: Tzvetan Todorov, *Théories du symbole*, collection poétique (Paris: Editions du Seuil, 1977), p. 110.

(109) Stendhal, *La Chartreuse de Parme*, p. 418.

بيتان (Maréchal Pétain) السوداويّة التي يرويها داركييه دو بيلبوا[110] (Darquier de Pellepoix)، قائلاً: «كان المارشال بيتان، في كلّ مرّةٍ أذهب فيها لزيارته، يهتفُ قائلاً ما إن يلمحَني من بعيدٍ: «عجباً، ها قد أتى مُعذِّبي!» ولكنَّه كان يقول ذلك على سبيل المزاح. والدليل على ذلك أنَّه كان يضحك» («Chaque fois que j'allais le voir, du plus loin qu'il m'apercevait, il s'écriait: «Tiens, voilà mon tortionnaire!» Mais c'était pour rire. D'ailleurs, il riait»). ومن غير المُستبعد أن تعمد إحدى النبرات المحدَّدة إلى وسم بعض استعمالات الجُمَل باعتبارها جُملاً إغراقيّةً، على غرار المثلَين التاليَين: «الأمر حسنٌ بعض الشيء» («C'est un peu bien») أو «أوَلَم نتأخّر!» («On n'est pas en retard!»)؛ أو أن تشيرَ نظرةٌ من طرفٍ خفيٍّ إلى وجود محسنٍ بيانيٍّ تواصليٍّ، أو أخيراً أن تضطلع الأفعال الهامشيّة الكلاميّة بدورٍ لا يُستهان به وحتّى حاسمٍ في تحديد عددٍ كبيرٍ من المحسنات البيانيّة الكلاميّة المنطوقة[111]. ولكن أيُّ نبرةٍ وإيمائيّةٍ خاصّتَين تُميِّزان منفردتَين الاستعارة أو المجاز المُرسَل أو المحسن البيانيّ الافتراضيّ، هذا ما نعجز عن تصوُّره. ولكن مَن يدري، ففي حال كان صحيحاً أنَّنا، كما يقول بيار مارندا (Pierre Maranda)، غالباً ما نرمش كردّة فعلِ آليّةٍ لاوعيةٍ على استكشاف بعض حالات الشذوذ الألسني اللُّغويّ، فما الذي يحول إذاً دون وجود تصرُّفٍ مماثلٍ من شأنه أن يُميِّز عمليّة إنتاج المحسن البيانيّ وتلقّيه؟

نادرةٌ هي الأمور الثابتة في ما يختصّ بهذه الأفعال الهامشيّة الكلاميّة، ففي حين يؤكِّد سيرل «أنَّ بعض التغيُّرات الخاصّة في نبرات الصوت تصحبُ في الواقع أفعال القول التهكُّميّة في اللّغة الإنجليزيّة»[112]، يبدو غريس مُتشكِّكاً أكثر

---

(110) أجرت معه مجلة *L'Express* مقابلةً: *L'Express*, no. 1425 (4 nov. 1978), p. 179.
ويُعلّق داكييه لاحقاً، أي في الصفحة 195 من العدد نفسه، على تصريحٍ أدلى به هو شخصيّاً، أثناء انعقاد اجتماعٍ في صالة واغرام (Wagram)، ومفاده: «إنّ السعي إلى حلّ المسألة اليهودية لأمرٍ ملحٍّ وطارئ، فـليُرَحَّـلـوا أو فـليُبـادوا» («Il faut de toute urgence résoudre la question juive. Que les juifs soient expulsés, ou qu'ils soient massacrés»)، قائلاً: «ما قلته كان على سبيل التشبيه. وأنا، كما تعلمون، لم أتمـنّـى يـومـاً الموت لأحـدٍ» («C'était une image. Moi, vous savez, je n'ai jamais voulu la mort de personne»). ولكنّنا لم نفهم مطلقاً أين تكمن دلائل المحسن البياني في ما تقدّم.

(111) وهكذا، لا يتمّ تأويل قول كلاميّ من مثل «الحرّ شديد» («Il fait chaud») باعتباره التماساً غير مباشرٍ ما لم ترافقه إيمائيةٌ أو نبرة صوتٍ تعبّر عن الانزعاج، واحتماليّاً أيضاً إلقاء نظرةٍ صوب النافذة.

(112) Searle, *Sens et expression: Etudes de théorie des actes de langage = Expression and Meaning*, p. 162.

بكثيرٍ حول هذه النقطة[113]. وبالتالي، يستحيل علينا في الوقت الراهن أن نحسُبَ بدقَّةٍ مدى أهميّة هذا النوع من الدلائل التي ينحصر عملها على كلّ حالٍ على الصعيد الشفهيّ (في حين تؤدّي في بعض الظروف الخاصّة بعض الوقائع الطّباعيّة، على غرار الخطوط المرسومة وعلامة التعجُّب وعلامات الوقف وغيرها، دوراً مُشابِهاً على الصعيد الخطّي).

(2) الدلائل السياقيّة الحاليّة النصيّة المُدرجَة في سياق المتتالية الإشكاليّة الكلاميّ المباشر - وقد، يكون السياق الحاليّ النصيّ الملائم من وجهة النظر هذه ذا طبيعةٍ مُتغيِّرةٍ، وقد يتَّخذ أبعاداً قابلةً للتغيُّر أيضاً، فيكون إلى حدٍّ ما ضيِّقاً أم واسعاً، صريحاً أم مبطَّناً، وقد يتَّخذ كذلك وفقاً للحالات شكلاً من الأشكال التالية:

1. تعليقٌ ألسنيٌّ لغويٌّ انعكاسيٌّ: على غرار التعابير التالية: «لنتكلَّم مجازيّاً» («pour parler par métaphore»)، و«ليست هذه إلاّ صورةً» («ce n'est qu'une image») و«هذه طريقةٌ في التعبير» «(c'est une façon de parler)» / أو «هذا إغراقٌ» («c'est une litote») و«هذه توريةٌ»[114] («c'est un euphémisme»)، و«على الأقلّ» («au bas mot») و«بالحدّ الأدنى» («pour le moins») (أو حتى هذه التعابير الثابتة من مثل: «أنا أنمّق في الكلام» («je feutre») و«أنا ألطّف كلامي» («je bémolise»)) / أو «أنا أمزح» («je plaisante») و«هذه مزحةٌ» («c'est une blague») و«هذا على سبيل المزاح» «(c'est pour rire)». . .، إلخ؛

2. بعض الكلمات الذاتية: والمثل عليها:

أوّلاً، العبارات المُستعملة في حالة الإغراق، مثلاً: «لستُ معتاداً بشكلٍ

(113) Grice, «Further Notes on Logic and Conversation,» in: Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics*, p. 124.

(114) إليكم هذين المثلَين:
المثل الأوّل: «طرَقَ القضاة بمطرقتهم باتّين العديد من الملفّات التي استذكروها انطلاقاً من حقائق غير أكيدةٍ. ومجرّد الإدلاء بهذا القول يُعدّ ضرباً من ضروب الإغراق [. . .]. ويهدف ذلك إلى صرف انتباهنا عن التصرّف الأكثر من غريبٍ [الذي صدر عن الشرطة] أثناء مظاهرة يوم 23 آذار/ مارس، وهو تصرّفٌ أثار استغراب (إغراقٌ أيضاً) الجميع تقريباً» («Les juges ont cogné à partir de réalités incertaines pour plusieurs des dossiers examinés. C'est une litote de le dire [...]. Pour faire perdre de vue le comportement plus qu'étrange [de la police], lors de la manifestation du 23 mars, comportement qui avait étonné (encore une litote) à peu près tout le monde»). =

خاصّ أن. . . . / أو لستُ معتاداً إلى هذا الحدّ. . .» («Je n'ai pas spécialement / tellement l'habitude...»)، و«ليس هذا نجاحاً حقّاً / أو ابتهاجاً / أو هدية. . .» («Ce n'est pas vraiment une réussite / la joie / un cadeau...»)

ثانياً، في حالة التهكُّم حيثُ نستخدم العبارات التالية: «طبعاً» («bien sûr»)، و«حقّاً» («vraiment»)، و«بالتأكيد» («évidemment»)، و«في الواقع» («en effet»)، و«حتماً» («certes»)، و«حقيقةً» («en vérité»)، و«قطعاً» («assurément»)، و«بلا ريب» («sans doute»)، و«(كما) بطبيعة الحال» («(comme de) bien entendu»)، و«كما يعلم الجميع» («comme chacun sait»)، وغيرها من الحالات والظروف التوكيديّة التي تدلّ طوعاً، كما أشرنا إليه في موضعٍ آخر[115]، على التهكُّم؛

3. الشذوذ التركيبيّ: والمثل عليه:

أوّلاً، في حالة الاستعارة: حيثُ نجده في حالةٍ خاصّةٍ من حالات الاستعارات «النموذجيّة» (كتلك التي تنتمي إلى النمط التالي: «سجقٌ يدبّ على الأربع» («saucisson à pattes») للدلالة على «الزئنيّ المُعوَّج»[*]، أو «نعشٌ يسيرُ على عجلاتٍ صغيرةٍ» («cercueil à roulettes») للدلالة على سيارةٍ تُعرِّض قيادتها حياتنا للخطر بوجهٍ خاصٍّ).

وثانياً، في حالة الكناية: وإليكم الشعار التالي كمثلٍ على ذلك: «كلوا الحليب» («Mangez du lait») (= ونعني بذلك: «الجبنة» «fromage» du)؛

4. التناقض الداخليّ ضمن القول نفسه: وهذه أمثلةٌ عليه:

أوّلاً، في حالة التهكُّم، سنضرب المثل التالي: «شُفِيَ جان أخيراً من مرضه العُضال» («Jean est enfin guéri de sa maladie incurable»).

= (نقلاً عن: Philippe Boucher, *Le Monde* (12 mai 1979), p. 13.

والمثل الثاني: «إنّ مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة لا يُحترم دائماً - إذ يُعتبر تورية - في الجزائر» («Ce principe de l'égalité de l'homme et de la femme n'est pas toujours respecté - c'est un euphémisme - en Algérie»),

نقلاً عن: Hector de Galard, *Le Nouvel observateur*, no. 713 (10 juill. 1978), p. 24.

(115) Kerbrat-Orecchioni: «Problèmes de l'ironie,» p. 34.

(*) هو كلبُ صيد قصير القوائم معوَّجها.

وثانياً، في حالة الغلوّ، وإليكم هذَين المثلَين: «لا يملكُ أيّ موردٍ، وهو يُسيء استعمال هذه الموارد» («Il n'a aucun moyen, et il les utilise mal»)، و«لم يغمض لي جفنٌ طوال اللّيل، وحين استيقظتُ من النوم...» (Je n'ai pas dormi de la nuit, et quand je me suis réveillé...).

(وبالضدّ، قد تتعايش الصياغة البيانيّة مع الصياغة «الصائبة» في المتتالية. وإنّ حالة الاستعارات الظاهرة للعيان (in praesentia) أمرٌ جدٌّ معروفٍ. وقد سبق لنا أن تحدَّثنا عن حالة كلٍّ من الإبدالات الزمنيّة والمحسن البيانيّ التخيُّليّ التي يتمّ رصدها أحياناً بفضل عبارةٍ حرفيّةٍ تسبقها مباشرةً. ونجدُ كذلك، في المثلَين المذكورَين تالياً، أنواعاً من الإغراق والتورية تكون ظاهرةً للعيان:

المثل الأوّل: أن نقول إنَّ الكنيسة غنيةٌ هو قولٌ أقلُّ ما يمكننا أن نصفه به هو أنّه إغراقٌ. ونعني به أنَّ الكنيسة هي إحدى أهمّ القوى الماليّة في العالم الغربيّ[116].

Dire que l'église est riche est, pour le moins, une litote: c'est l'une des principales puissances financières du monde occidental.

والمثل الثاني: أخذت الفتيات تُغنّي، ونقصدُ بهذه التورية، تصرخُ.

Les jeunes filles se mettent à chanter, c'est un euphémisme, à crier.

نُلاحظُ في هذَين المثلَين، أنَّ المحسن البيانيّ يبرزُ بشكلٍ مزدوجٍ من خلال التعليق الألسنيّ اللُّغويّ الانعكاسيّ، ومن خلال إحلال الصيغة «الصّائبة» محلّ الصياغة المُخفِّفة السابقة).

5. التأويل البيانيّ ـ على غرار عبارة: «أنا لا أكرهك البتّة» («Je ne te hais point») التي تقولها «شيمين» ـ والذي قد يرتكز أخيراً على المعلومات السياقيّة الحاليّة النصيّة الموجودة في خلفيَّة النصّ تقريباً والمُبعثرة فيه إن جاز التعبير، وتتمحور بالتالي وظيفة السياق الحاليّ للنصّ في تمكيننا من إعادة بناء السياق. ولسوء الحظّ وجد مؤلّفو كتاب **البلاغة العامّة** (*La Rhétorique générale*) في هذا «المنطق القاعديّ» صورةً تُقحم بالضرورة في البحث مرجع الرسالة الكلاميّة، إلاّ أنّ شارل (M. Charles) وكوميتي (J. B. Comiti) العاثر أبديا اعتراضهما[117] قائِلَين: «في الواقع، كيف السبيل إلى القول بأنّ «تحليل المرجع يُشير ببساطةٍ إلى

---

(116) هذا المثل مأخوذٌ من: *Libération* (29 août 1978), p. 9.

(117) J. Dubois, «Rhétorique générale,» *Langue française*, vol. 7, no. 7 (1970), (Michel Charles et Jean-Baptiste Comiti), p. 118.

أنَّ شيمين تتردَّد في قول الحقيقة»؟ فالمسألة تتعلّق بتحليل السياق (إذ إنَّ شيمين لا تملك سوى «حقيقةٍ» خطابيّةٍ)»، فليكُن. المُهِمّ أنّها تملكُ حقيقةً خطابيّةً من منطلق أنَّها موجودةٌ في عالم الخيال ولها وضعٌ اجتماعيٌّ معيَّنٌ وأمزجةٌ يُمكن تحديدها. وفي الواقع، يسمح لنا «تحليل السياق» (أي ما نُطلق عليه اسم السياق الحاليّ للنصّ بحسب المصطلحيّة التي نعتمدها) في إعادة بناء المرجع اللامحاكاتيّ الذي يتمّ قياساً إليه تقدير المحسن البيانيّ، أي قياساً إلى ما يمكننا إعادة بنائه من «أحاسيسَ حقيقيّةٍ» تختلج شيمين هذه الوهميّة. وعليه، يمكننا في إطار هذا المثل أن نُشبِّهَ المعلومات السياقيّة الحاليّة النصّية بالمعلومات السياقيّة.

(ملاحظة: إنْ أدَّى كلٌّ من السياق الحاليّ للنصّ أو السياق أدوراً مُشابهةً وظيفيّاً، فيتجلّى ذلك إمّا في طريقة عمل عناصر الإشارة، إذ من المُمكن تأويل متتاليةٍ من مثل «برنامج اليوم» («Programme d'aujourd'hui») المُدوَّنة أعلى الزاوية المُخصَّصة في إحدى الصُحف اليوميّة لأخبار «الشاشة الصغيرة»، استناداً إلى معرفةٍ سياقيّةٍ أو بمقتضى التاريخ المذكور على كلّ صفحةٍ من صفحات العدد؛ أم، وبشكلٍ عامٍ أكثر، في واقع أنَّ وجود السياق يسمح لنا في إطار «خطاب المقام» باقتصادٍ عددٍ معيَّنٍ من المعلومات السياقيّة الحاليّة النصيّة، في حين يسمح بالعكس السياق الحاليّ للنصّ بإعادة بناء السياق الغائب، في إطار «الخطاب المنزاح» (displaced speech) ـ تخيُّليّاً كان أم لا.

ومع ذلك، لا تتشاطر المعلومات ذات الصلة الوثيقة بالموضوع الوضع عينه في كلتا الحالتَين، ولا يُفَكُّ ترميزها بفضل الكفاءة عينها، وبالتالي علينا تدوين كلٍّ منها بطريقةٍ مختلفةٍ في النموذج الوصفيّ الإيضاحيّ).

وختاماً لمسألة الدلائل السياقيّة الحاليّة النصيّة، إليكم بعض الملاحظات:

1. الملاحظة الأولى:

المثل الأوّل: طبقاً لتوقُّعات البورصة والسواد الأعظم من السفارات، انتُخِبَ فاليري جيسكار ديستان يوم العاشر من أيّار/ مايو عام 1981 بفارقٍ قليلٍ لولايةٍ ثانيةٍ كرئيسٍ للجمهورية [...]. يعني هذا السيناريو ما يعنيه، ولكن [...][118].

Conformément à l'attente de la bourse et de la plupart des ambassades,

(118) «أندريه فونتين»، وقد استشهدنا بهذا المثل في معرض الحديث عن المحسن البيانيّ التخيُّليّ.

Valéry Giscard d'Estaing, a été réélu de justesse, le 10 mai 1981, président de la République [...]. Ce scénario vaut ce qu'il vaut, mais [...].

المثل الثاني: وبعدُ! ها أنتِ ذا يا صغيرة في حالةٍ من الغضب والخزي والعار، فهذا السيِّد المدعو «دو فالمون» هو رجلٌ شرير، أليس كذلك؟ بالتأكيد! وهو يتجرَّأ على معاملتك معاملة المرأة المفضَّلة لديه! كما أنَّه يعلِّمك كلّ ما كنتِ تتحرَّقين شوقاً لمعرفته! وفي الحقيقة إنَّ تصرُّفاته هذه لا تُغتفر[119].

Hé bien! Petite, nous voilà donc bien fâchée, bien honteuse, et ce M. de Valmont est un méchant homme, n'est-ce pas? Comment! Il ose vous traiter comme la femme qu'il aimerait le mieux! Il vous apprend ce que vous mouriez d'envie de savoir! En vérité, ces procédés-là sont impardonnables.

ويتواصل التهكُّم على هذا المنوال طيلة صفحةٍ كاملةٍ، ومن ثمّ نقع على الجملة التالية:

أيُعقلُ حقّاً، بعد مضيّ خمسة عشر عاماً، أن نكون على هذا القدر من براءة الطفولة؟

Sérieusement peut-on, à quinze ans passés, être enfant comme vous l'êtes?

وفي ظلّ انعدام وجود دلائل المحسن البيانيّ الإيجابيّة (أو وِفرَتِها)، يبرزُ بالتالي هذا الأخير في مرحلةٍ لاحقةٍ وبصورةٍ غير مباشرةٍ عبر توفُّر بعض التعابير التي يجب على العكس النظر إليها باعتبارها «دلائل سياقيّةٍ حاليةٍ نصيّةٍ هدفها العودة إلى الوضع السويّ» (أي إلى الجدّ وإلى الصياغة الحرفيّة).

2. الملاحظة الثانية: إليكم هذه الأمثلة:

لا يوجد أحدٌ مطلقاً («Il n'y a absolument personne»).

إنّه حقّاً لأمرٌ ماكرٌ («C'est vraiment malin»).

كلامُ شرفٍ، تبدين حقّاً مثيرةً كما أنتِ («Ma parole, tu es vraiment sexy comme ça»).

في الحقيقة، إنَّ هذه التصرُّفات لا تُغتفر («En vérité, ces procédés-là sont impardonnables»).

---

(119) هذا المثل مقتبس عن الرسالة التي وجَّهتها المركيزة دو ميرتويّ (La Marquise de Merteuil) إلى سيسيل دو فولانج (Cécile de Volanges)، من كتاب: Choderlos de Laclos, *Les Liaisons dangereuses*, le livre de poche classique, 354, édition de Jean Mistler (Paris: Le Livre de poche, 1972), p. 329.

هو دبٌّ حقيقيٌّ («C'est un véritable ours»).

إنَّه فعلاً دوَّارة هواءٍ («C'est une vraie girouette»).

سام كالفيل تماماً («Sam is an absolute elephant»).

أنا أموت من الجوع، بكلّ ما للكلمة من معنى («Je meurs littéralement de faim»).

في برلين، سالت السبَّاحات الألمانيّات، بكلّ ما للكلمة من معنى، مع جرف المياه («A Berlin, les nageuses allemandes ont littéralement coulé»).

ستُفجِّر هذه التقنيات السريّة، السهلة التطبيق، بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ، شريكتك وستدفعها لتسلُّق الجدران، حتّى لو كانت من النوع الذي لا يميل كثيراً إلى فعل «هذا الشيء»[120] («Ces techniques secrètes, simples à appliquer, feront littéralement exploser votre partenaire et grimper au mur même la moins portée sur la «chose"»).

لقد لفظَ أنفاسه، بكلّ ما للكلمة من معنى، وهو يؤدِّي هذه المهمّة («Il s'est proprement crevé à la tâche»).

هي تمتصُّ الهواء من أمامي [= أي أنَّها «تُتعبُني وتُرهقُني]، وهذا ليس كلاماً استعاريّاً («Elle me pompe l'air [= me fatigue et m'exaspère], sans métaphore»).

«لا أحد يولي احتراماً هنا، فالكلّ يتكلَّم بأعلى صوته
متناسياً أنَّه بالضبط في حضرة الملك «بيتو» وفي بلاطه»[121]

---

(120) إعلانٌ عن تقنياتٍ سريّةٍ للتدليكات الجنسية اليابانية.

والجدير بالذكر أنّ العبارة الألسنية اللّغوية الانعكاسية «بمعناها الحرفيّ» يجب أن تؤخذ بالعكس في المثل التالي بمعناها الحقيقيّ لأنّها تشير إلى وجوب فهم المصطلح السابق بالمعنى الحرفيّ (أو شبه الحرفيّ ...): «لقد تمّ التعدّي على بعض اللّوحات - بالمعنى الحرفيّ، ولذلك وُضعت لوحة «المصدر» للرسّام إينغر والتي أشاد بها العديد من الشّبقين بالفنّ، تحت عازل زجاجيّ» («Des tableaux sont violés - au sens propre. C'est pourquoi «la Source» d'Ingres, qui a reçu l'hommage de plusieurs érotonames, a dû être mis sous verre») (هذا ما أدلى به ميشال لاكوت، وهو أمين متحف اللوفر (Louvre) في: Michel Lacotte, *Le Nouvel observateur*, no. 721 (4 sep. 1978), p. 54.

(121) هذا ما تقوله السيِّدة «بيرنيل» في المشهد الأوَّل من الفصل الأوَّل من مسرحية: *Tartuffe*.

(«On n’y respecte rien, chacun y parle haut,
Et c’est tout justement la cour du roi Pétaud»).

يُطالعُنا المُحسن البيانيّ في هذه الأمثلة المتنوِّعة التي تتمحور حول حالات الغلوّ وقلب المعنى والاستعارة، وقد أُلصِقَت به إحدى الكلمات الذاتيّة التي يُمكن بالحدّ الأدنى وصف طريقة عملها بالمُفارِقة، لأنَّها تعمد من خلال الادِّعاء بأنَّها تُخفي هذا «الاستعمال الخاطئ» إلى إنشاء المحسن البيانيّ الذي يفضح في الواقع وجودها (أي من خلال التشديد تفخيمياً وزوراً وبهتاناً على صحّة هذه الصيغة مع العلم بأنَّها غير ملائمةٍ)، إذ غالباً ما يتمحور المحسن البيانيّ حول صيغة الإنكار.

(3) الدلائل السياقيّة: ونقصدُ بها عدداً معيَّناً من المعلومات «المُسبقة» غير المُدرجة في القول، والتي تعني:

1. فاعلو فعل القول: وهكذا قد يدخلُ في عملية فكّ ترميز المحسن البيانيّ، ما يفترضهُ المُرسَل إليه المباشر (أ) عن:

● معارف المتكلِّم: ولاسيما تلك التي يكون حريّاً به امتلاكها عن المُرسَل إليه المباشر (أ) نفسه: فهكذا يتمّ استكشاف عددٍ لا يُستهان به من المحسنات البيانيّة الافتراضيّة وذلك على قاعدة برهنةٍ من النمط التالي: كنتُ أجهلُ أنَّ «ماري» (Marie) تتعاطى المخدَّرات في السابق، ولديّ أسبابٌ وجيهة تدفعني إلى الاعتقاد بأنَّ المتكلِّم كان يُدركُ جهلي للموضوع، والدليل على ذلك ما يُدلي به إليّ: «أقلعَت «ماري» عن تعاطي المخدَّرات» («Marie a cessé de se droguer»). وبالتالي. . .

● خصائصه النفسيّة العامّة: في حال كنتُ أعلمُ أنَّ المتكلِّم شخصاً مُغترّاً بنفسه، أكون ميّالاً إلى تأويل المثَلَين التاليَين باعتبارهما محسنَين بيانِيَّين إضماريِّين، ألا وهما:

المثلُ الأوَّل: تركتُ سيَّارتي في المرآب (ويعني ذلك ضمناً / لديّ سيَّارة، ولديّ مرآب /) («J’ai laissé ma voiture au garage») (/j’ai une voiture, et un garage/)

المثلُ الثاني: إنَّ نيويورك مدينةٌ أسطوريةٌ (ويعني ذلك ضمناً / أعرفُ هذه المدينة، وسبق لي أن زرتها/) («New York est une ville fabuleuse») (/je la connais, j’y suis allé/)،

وقد نذهبُ إلى حدّ القول بأنَّ كلّ التأكيدات والإخبارات التي يُدلي بها المتكلّم تعني في الواقع، استناداً إلى صيغة المُضمَر، ما يلي: «أملكُ كذا» («je possède x»)، و«كنتُ أعرف كيت» («je connais y»)، و«لقد أنجزتُ العمل الفلاني» («j'ai fait z»)...، إلخ. (أي إنَّها تضطلع بمهمَّةٍ تداوليّةٍ تواصليّةٍ هدفُها «امتداح» المتكلِّم)؛

• دوافعه الخاصّة لحظة وقوع فعل الكلام الفرديّ، ويذهبُ «دوكرو» إلى حدّ اقتراح التحديد التالي للمُضمَّن[122]: «أُطلقُ تسمية «مُضمَّن» على عناصر المعنى كافَّة (إلى أيّ فئةٍ انتمت) التي أُعلِّلُ ظهورها مُفترِضاً أنَّ مؤوِّل القول يلجأُ إلى برهنةٍ من النمط التالي: «إذا ما أدلى المتكلِّم بقولٍ ينطوي على معنى معيَّنٍ، فهذا لأنَّه كان يقصدُ به معنى مغايراً»؛

• وعن كفاءته الأيديولوجيّة، كما هو الحال في نصّ «ميشال دروا» مثلاً حيثُ تحقَّقنا سابقاً (في قضيّة «يهوديّة غاينسبورغ») من وجود محسنٍ بيانيٍّ افتراضيٍّ؛

• وأخيراً عن قدراته الفكريّة التي يقتضي اللّجوء إليها بغية إبراز القيمة التهكُّميّة التي يتَّصف بها على سبيل المثال نصٌّ بقلم مونتيسكيو (Montesquieu) يتناول فيه موضوع العبوديّة[123]. ويقدِّم هذا النصّ نفسه بصفته يجمع عدداً من الجُمَيلات التي، في حال أُخِذَت كلٌّ منها على حِدة، يُمكن الإدلاء بها عند الاقتضاء على الدرجة الأولى، وهذا ما كان يحدث بالفعل مراراً وتكراراً آنذاك. ولكن، إنَّ ما يُثير الريبة بشأنها هو واقعُ أنَّ مونتيسكيو يُصوِّر عمليّة لصق الجُمَيلات هذه على أنَّها برهنةٌ (فيقول ما يلي: «لو قُدِّرَ لي أن أدافع عن حقّنا المُكتسَب في جعل السود عبيداً، فإليكم ما كنتُ لأقوله [...]» («Si j'avais à soutenir le droit que nous avons eu de rendre les nègres esclaves, voici ce que je dirais [...]»). والحال أنّنا نعرفُ حقّ المعرفة، بحسب ما نعلمهُ عن مقتضيات المؤلِّف الفكريّة، أنَّه يتعذَّر عليه أن يقنع بالقليل، أو أن يمزجَ بين البرهنة المنطقيّة ومجرَّد تجاورِ بضع كلماتٍ جامعةٍ. وإنَّ ما يفضح طابع هذا

(122) Ducrot, «Note sur la présupposition et le sens littéral,» dans: Henry, *Le Mauvais outil: Langue, sujet et discours*, p. 197.

(123) راجع المجلّد الخامس عشر، الفصل الخامس من كتاب *L'Esprit des lois*.

النصّ التهكّميّ ويجعله يبدو وكأنّه مجموعة سخافاتٍ تدور حول موضوع العبوديّة، إنّما هو بالدرجة الثانية ما نعرفه عن أيديولوجيّة المؤلّف (وتُعَدُّ محاولة إثارة النقاش على هذا الصعيد مجازفةً في الخوض بتكهّناتٍ خطِيرةٍ)، وبالدرجة الأولى ما يكون من حقّنا أن نترقّبه من ادّعاءاته الفكريّة ومقتضياته البرهانيّة.

2. المعلومات المتعلّقة بالعالم المرجعيّ العامّ أو الخاصّ وبالمقام التواصليّ، فضلاً عن هذه «الظروف» التي يؤكّد دو مارسيه بأنّها تُعلِمُنا احتماليّاً بأنَّ «المعنى الحرفيّ ليس ذلك الذي أزمعنا على إثارته في فكرنا»، وذلك من خلال كشف النقاب لنا عن «المعنى المجازيّ الذي أُوحِيَ به إلينا»(124).

في الواقع، غالباً ما يُصار إلى تحديد المحسن البيانيّ على قاعدة ما نعرفه عن المرجع الخطابيّ فقط لا غير، واستناداً إلى معيار الاحتماليّة التعيينيّة للعبارة المُستعملة وحده. والأمر سيّان إن كانت المسألة تتعلّق بدعابةٍ أو بمحسنٍ بيانيٍّ أكان تخيُّليّاً أم كلاميّاً منطوقاً (والمثل على ذلك أنّني في حال كنتُ أعلمُ أنَّ المتكلّم يعلمُ أنَّ «بيار» (Pierre) لم يذهبْ، وأنّه متيقّنٌ من أنّني على علم بما يعلمُه، فعليَّ أن أؤوّل سؤالاً كالآتي باعتباره سؤالاً «بلاغيّاً»: «هل ذهَبَ «بيّار؟» («Pierre est-il parti?»))؛ أم تتعلّق بعبارةٍ تهكّميّةٍ (من مثل: «يا له من طقسٍ جميلٍ!» («Quel joli temps!»))، أو استعاريّةٍ (والمثل على ذلك عنوان إحدى الزوايا الذي وردَ في الخلاصة رقم 87 الصادرة في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1982 في مسابقة «اقرأ» (*Lire*)، ألا وهو: «مطبخ جوائز «غونكور» (La cuisine des Goncourt)، حيثُ أكتشفُ تلقائيّاً وجود الاستعارة وذلك لأنّني أعلمُ جيّداً أنَّ جوائز «غونكور» تختلفُ كلّ الاختلاف عمّا تُقدّمه مطابخ الإخوان ترواغرو (Les Frères Troisgros)، أو حتّى بعبارةٍ تتّصفُ بالغلوّ(125) (ومفاده: «أشرقَ الغلوّ صباح هذا السبت الواقع فيه 24 آذار/ مارس وأطلّت «الصفحة الأولى» في بعض الصحف الباريسيّة، وقد كُتبَ عليها بالخطّ العريض: «باريس لقمةٌ سائغةٌ للغوغائيّين المُستقلّين». وقد يُخدع قارئ المقاطعات بهذا القول، ولكنّه لا ينطلي على قارئ العاصمة» («L'hyperbole fleurit ce samedi 24 mars à la «une» de certains journaux parisiens: «Paris livré aux casseurs autonomes». Le lecteur

(124) Du Marsais, *[Traité des tropes] Les Tropes, etc.*, p. 252.

(125) والمثلُ على ذلك ما قيل في جريدة: *Le Monde* (25 mars 1979), p. 21.

de province pourra le croire, pas celui de la capitale») ـ إذ يتمتَّعُ هذا الأخير بامتياز الإطِّلاع مباشرةً على المرجع الخطابيّ، أي إنَّه بالتالي يتمتَّعُ بامتياز القدرة على قياس مدى إقدام الوصف الصحافيّ على تشويه الواقع)، أو كذلك تلك التي تتَّصف بالإغراق (والمثل على ذلك ما يلي: «لم تكن تركيبة الاشتراكيّة خلواً من التعثُّرات والهفوات وأحياناً من المآسي» la construction du socialisme n'a pas») été exempte de faux pas, d'erreurs, parfois de drames»). ونخلص ممّا تقدَّم أنَّه من خلال استدعاء المرجع ومقابلته مع ما ينطوي عليه القول حرفيّاً من معنى، وتالياً من خلال إدراك عدم ملاءمته السياقيّة، أتمكَّن احتماليّاً من إثبات وجود المحسن البيانيّ.

ونستنتجُ بشأن المحسن البيانيّ استنتاجاً جدليّاً، ومفاده: لا مبرِّر، ولا بأيّ وجهٍ، لمماثلة المحسن البيانيّ بواقع الشذوذ التركيبيّ.

أوّلاً، لأنَّه غالباً ما يُفَعَّلُ المحسن البيانيّ في خطاب «المقام» (غير «المنزاح») في غياب كلِّ دليلٍ سياقيٍّ حاليٍّ نصيٍّ؛ وبالعكس تقاوم بعض حالات الشذوذ التركيبيّ هذا التحليل الذي يتوصَّل إليه التأويل البيانيّ. وإليكم على سبيل المثال هذا التشبيه «غير المُلائم»:

«بيار» (Pierre) خفيفٌ كالفيل («Pierre est léger comme un éléphant»)، حيثُ:

نُبدِّد في هذا المثل، ومن دون تكبُّد أيّ مشقَّةٍ، الشذوذ الظاهر، من خلال إخضاع الصفة إلى قلبٍ دلاليٍّ، أي من خلال البحث وراء محتوى الجملة الأصليّة الحرفيّ عن محتوى ثانٍ نحصل عليه بواسطة التحوُّل التعارضيّ. ونستنتج بالتالي أنَّ هذا التشبيهَ تهكُّميٌّ، وأنَّ محسناً بيانيّاً قد أُدمِجَ به.

وفي المقابل، نجد في المثل التالي: «الكرة الأرضيّة زرقاء اللَّون كاللَّيمونة» («La terre est bleue comme une orange»)، أو أيضاً في هذه الجملة «بروست»، ألا وهي: «كانت نداوة غرفتي النوم بالنسبة إلى شمس وسط المدينة، ما كانه الظلّ بالنسبة إلى الشُّعاع، أي إنَّها كانت تُضاهيها إشراقاً» Cette obscure») fraîcheur de ma chambre était au plein soleil de la rue ce que l'ombre est au rayon c'est-à-dire aussi lumineuse que lui»)، أنَّ عدم المُلاءمة لا يُمكن لها أن تصبَّ لصالح قلب المعنى: «فالخطأ غير واردٍ مطلقاً لأنَّ الكلمات لا تكذب»، وليس المعنى الحقيقيّ سوى المعنى الحرفيّ. وعليه، إنَّ المحسن البيانيّ منعدم

الوجود، ونُضفي بكلّ بساطةٍ على هذا التشبيه صفة المُفارِق (إذ إنّه يُناقضُ «رأياً مُعترفاً به». أمّا بالنسبة إلى مسألة إيجاد حلٍّ لهذه المفارقة، فهذه مسألةٌ أخرى لا تمتّ للسهولة بصلةٍ إذ إنّ البساطة المذكورة في عبارة «بكلّ بساطةٍ» هذه لا تتعدّى كونها بساطةً ألسنيّةً. . .).

وأكثر من ذلك، نقول: حتّى عندما يكون بروز المحسن البيانيّ منوطاً بأحد أفعال التنافر السياقيّة الحاليّة النصيّة، باستثناء بعض الحالات غير المعقّدة حيث يُمكن معالجة الشذوذ التركيبيّ وفق شروط قاعدة انتقاءٍ ذات طابع ألسنيٍّ لغويٍّ بحصر المعنى (على غرار «كلوا الحليب!» («Mangez du lait!»)، و«المُفوَّض ينبحُ» («Le commissaire aboie»))، فإنّنا نجد الحلّ الناجع، مرّةً أخرى بعد، من خلال استدعاء المرجع. وعلى سبيل المثال، ما هي القاعدة «الشكليّة» التي يترتّب علينا اقتراحها بهدف لفت الانتباه إلى الاختلاف في الوضع القائم بين القولَين التاليَين:

القول الأوّل: ضعوا زيتاً من نوع «سوبر» في محرِّك سيّارتكم («Mettez du super dans votre moteur»)

والقول الثاني: ضعوا نمراً في محرِّك سيّارتكم؟ («Mettez un tigre dans votre moteur»؟)

ما ذكرناه في معرض الحديث عن الإغراق الوارد في المثل التالي: «لا أكرهك البتّة» («Je ne te hais point»)، سنكرّره بشأن المتتالية التهكُّميّة التالية التي ذُيِّلت بها سيرة حياة ثنائيٍّ كلاهما اختصاصيّان في مجال «التصميم»، ألا وهي: «تعرّف «دنيس شولمن» ِ «نويل» على مقاعد الدّراسة بينما كانا يدرسان الرياضيات العليا. وكان من المُفترَض أن ينتقلا لمتابعة تحصيلهما العلميّ والانغماس في دراسة المعلوماتيّة. وبينما خاض هو مجال الأبحاث في «الكولاج دي فرانس»، لينضمّ لاحقاً إلى مجموعة M3، شرعَت هي في العمل في شركة «أي. بي. أم» للحواسيب. وإنّ مآل هذا المسار يصبّ منطقيّاً في العمل في مضمار صناعة الأثـــاث»[126] («Noëlle et Denis Schulmann se sont connus en faisant Math-

(126) Jeanne Villeneuve, «Deux matheux parient sur les chaises,» *Libération* (15 janvier 1983), p. 4.

علماً بأنّ علامة التعجّب «!» هي بمثابة الدليل الطباعيّ على وجود التهكّم (وفي حال غيابها قد نتحدّث نوعاً ما عن تعبيرٍ خطيّ يكون «متجاهل الأذى»).

Sup. Tous les deux devaient dériver ensuite sur l'informatique. Lui commença de la recherche au Collège de France, pour ensuite entrer dans le groupe M3, alors qu'elle entamait une carrière chez IBM. Un itinéraire tout à fait logique pour arriver dans l'industrie du meuble!»). وتتلخَّص في هذا المثل الوظيفة الأساسيّة التي تؤدِّيها المعلومات السياقيّة الحاليّة النصيّة في إتاحة المجال لإعادة بناء السياق، أمّا عدم المُلائمات الدلاليّة فمن شأنها أن تُشكِّلَ الإشارة التي تدلّ على اللاتكيُّف المرجعيّ. ولكن، يتمّ في المطاف الأخير، وبصورةٍ دائمةٍ، تقويم المحسن البيانيّ بالنسبة إلى كلٍّ من السياق والمرجع.

أمّا بالنسبة إلى الاستعارة، فهي غالباً ما تُعتبر «غرضاً صرفاً من أغراض اللُّغة». وبخلاف ذلك، نجد من وجهة نظرنا أنَّ تحديدها وتحديد مميِّزاتها الخاصَّة - أي درجة «حافزها» وطابعها الظاهر للعيان أو غير الظاهر للعيان، على غرار التركيب التعبيريّ التالي الذي سنقتبسه عن «جويل تامين» (Joëlle Tamine)، ألا وهو: «حبَّتَيّ توت العلَّيق على نهدَيكِ» («les framboises de tes seins»)، حيثُ يُعبِّرُ حرف الجرّ إمّا عن علاقةٍ مرجعيّةٍ رديفةٍ (وبالتالي تكون الاستعارة ظاهرةً للعيان)، أم عن علاقة انتماءٍ (وبالتالي تكون الاستعارة غير ظاهرةٍ للعيان)، ونستنتج أنَّ ما يسمح لنا بِبَتّ المسألة لصالح التأويل الثاني، إنَّما هو التأمُّل في طبيعة «الشيء» - يُدخل دائماً في دائرة البحث، علاوةً على المعلومات الألسنيّة اللُّغويّة بحصر المعنى والتي يُمكننا استخراجها من النصّ أو من السياق الحاليّ للنصّ، بعض الاعتبارات ذات الطابع المرجعيّ.

والحاصل، فحتّى لو تبيَّن وجود علاقة انسجام مقابلةٍ نظيريّةٍ تربطُ أواصرها بين المحسن البيانيّ وبين الشذوذ التركيبيّ، وهذا الأمر جدّ مُستبعدٍ، فلا يُعدُّ ذلك سبباً كافياً لمماثلة إحدى هاتَين الظاهرتَين بالأخرى. إذ إنَّ الشذوذ التركيبيّ مسألةٌ، والمحسن البيانيّ مسألةٌ أخرى مختلفةٌ تماماً، علماً بأنَّ الانحراف المُتعلِّق بدراسة كيفيّة تسمية الأشياء والمفاهيم أو المُتعلِّق بدراسة معاني الكلمات، هو ظاهرةٌ محوريّة تركيبيّة - ويُمكن عادةً تقفِّي أثرها على ضوء تأطيرها التركيبيّ التعبيريّ، من دون أن يكون مشروعاً لنا أن نُماثل بين «البؤرة» («focus») و«الإطار الذِّهنيّ» («frame»)، أي بين الفعل بحدّ ذاته ودلائله.

(4) وعوضاً عن استعمال كلمة «دلائل»، الأجدر بنا أن نتحدَّث، عندما

تتعلّق المسألة بأفعالٍ تحصل على الصعيد الخارجيّ النصيّ، عن «توجيهاتٍ» أو عن «معلوماتٍ» سياقيّةٍ. والجدير بالذكر أخيراً، أنَّ ثمّة نمطاً أخيراً من المعلومات التي يستثمرها الشخص الذي يفكّ الترميز عندما يُصادفُ محسناً بيانيّاً، فطالما أنَّ كلّ محسنٍ بيانيٍّ ينتهكُ أحد «قوانين الخطاب»، تكون هذه المعلومات معلوماتٍ من النمط «البلاغيّ التداوليّ التواصليّ». وبالتالي، يتمّ لدى فكّ ترميز المحسن البيانيّ إلى تجنيد الكفاءات (الهامشيّة) الألسنيّة اللُّغويّة والموسوعيّة والبلاغيّة التداوليّة التواصليّة التي يتمتّع بها المتلقّي في الوقت نفسه ـ بصرف النظر عمّا سنطلق عليه في مرحلةٍ لاحقةٍ اسم الكفاءة «المنطقيّة».

سنتقصّى مسألة تأويل المحسن البيانيّ هذه عندما سنتطرّق إلى الإشكاليّة العامّة التي يطرحها فكّ ترميز المحتويات المُضمَرة، إذ لا يُشكّل المحسن البيانيّ سوى حالةٍ خاصّةٍ من طريقة عملها (حيثُ يصيبُ التصلُّب المحتوى المُضمَر، «فيصعدُ إلى السطح»)، ولا تختلفُ شروط استخراجه اختلافاً جوهريّاً عن شروط استخراج أيّ استدلالٍ.

ولكن بغية الانتهاء إلى إيجاد حلٍّ لمشكلة دلائل المحسن البيانيّ هذه، والتي رأينا للتوّ مدى تنافرها من حيث طبيعتها، سنشيرُ أيضاً إلى أنَّها:

1. تعملُ عموماً بشكلٍ مُركَّبٍ. ولقد بيّنّا طريقة العمل هذه في موضعٍ آخر في معرض الحديث عن التهكُّم. وقد يُطالعنا ذلك في المحسنات البيانيّة كافَّةً، إذ يظهرُ مثلاً في هذا الإبدال الذي يُنشئه على سبيل الذكر لا الحصر الضمير «نحن» (nous) للدلالة على الجلالة / أو على التواضع، والذي يُصار إلى تحديده على ضوء:

- بعض حالات التطابق (ويُشكّل ذلك دليلاً سياقيّاً حاليّاً نصيّاً واضحاً)

- طبيعة بعض الوحدات «المُسنَد إليها» والتي تحضُّنا على الظنّ بأنَّها لا تُطبَّق بعدلٍ إلاّ على شخصٍ واحدٍ مفرد (ويُشكّل ذلك دليلاً سياقيّاً حاليّاً نصيّاً أكثر غموضاً)

- بعض المعلومات المتوفرة لدينا عن الموضوع الذي يتناوله فعل القول بشكلٍ مباشرٍ (ويكون ذلك دليلاً سياقيّاً) أو غير مباشرٍ (على غرار التوقيع الذي يؤدّي وظيفة الدليل السياقيّ الحاليّ النصيّ الذي يسمح لنا بإعادة بناء السياق التعبيريّ الأدائيّ)؛

2. قد تكون مبطَّنةً تقريباً أو بالعكس قسريّةً، ونتيجةً لها يؤكِّد وجود المحسن البيانيّ أو حتّى أحياناً لا يُبتّ[127]. ويُعتبر الإغراق الذي ينطوي عليه المثل التالي[128]، إغراقاً لابتّياً:

دورانت: هل أنتَ ليبيراليٌّ؟

كليتون: لستُ بخيلاً أبداً،

DORANTE. - Etes-vous libéral?
CLITON.- Je ne suis point avare,

ويُعتبر العديد من حالات التهكُّم لابتِّيَّةً أيضاً. وقد أشرنا بالتنافس إلى أنَّ واسمات المحسن البيانيّ هذا لم تكن مطلقاً سوى دلائل تخمينيّةٍ، وليست دلائل مُرشِدةً معصومةً من الخطأ[129]، ولاسيّما أنَّ التهكُّم كان يفوق فعاليّةً هذه الواسمات التي على الرُّغم من أنَّها تُحافظ على إمكانيّة إدراكها إلاّ أنَّها تتَّصف بقدرٍ أعلى من الدقَّة. وقد تطرَّقنا كذلك إلى مسألة بهلوانيّة الشخص الذي يتهكَّم والذي يتحتَّم عليه أن يتدرَّج في وضع حرج يتراوح من التكتُّم الشديد إلى الإجهار المُباغِت. وإنَّ توازن الإرجاء ومَبدأ الشّكّ، فضلاً عن الإبهام التكوينيّ الذي يكتنف الظاهرة التهكُّميّة، هي كلُّها أمورٌ انتُقدت عن وجه حقٍّ وبإسهابٍ.

يصحُّ كلّ ما تقدَّم على المحسنات البيانيّة الأخرى أيضاً (وبالأخصّ على المحسنات البيانيّة «غير الكلاسيكيّة»)، ويُعزى سبب ذلك من جهةٍ، إلى وجوب عدم انكشاف طبيعة المحسنات البيانيّة بشكلٍ واضح جدّاً، وإلاّ انقلبَ المحسن البيانيّ عبثيّاً (وأَوْلى بنا في الواقع أن نُعبِّر عن هذا الموضوع حرفيّاً)، وخير مثالٍ على ذلك ما تقوله سيلفيا (Silvia) في المشهد الثاني من مسرحية «أرلوكان الذي

---

(127) تكون «الدلائل المُفارِقة» مسؤولةً جزئيّاً عن هذه الإبهامات، حيثُ إنّ حالاً من مثل «حرفيّاً» («littéralement») تُستعمل تارةً للدلالة على حرفيّة متتاليةٍ ما، وتُرافق طوراً المحسن البيانيّ (ويبدو في المقابل أنّ من بين الكلمتَين الذاتيتَين «حقيقةً» («en vérité») و«بالحقيقة» («à la vérité»)، وحدها الأولى تكون قابلةً لتعزيز محسنٍ بياني ما).

(128) مُقتبس عن تعليقٍ وردَ في المشهد الأوّل من الفصل الأوّل من مسرحية **الكاذب** (*Menteur*).

(129) وهكذا، يُلاحظ كلّ من براون وليفنسون (Brown et Levinson, «Universals in Language Usage: Politeness Phenomena,» in: Goody, ed., *Questions and Politeness: Strategies in Social Interaction*, p. 125), إنّنا نقع غالباً على العبارة الألسنية اللّغوية الانعكاسية التالية «لنتكلّم استعاريّاً» («to speak metaphorically») ولا نُصادف البتة عبارةً من مثل «لنتكلّم تهكّمياً، إنّه شخصٌ رائعٌ» («to speak ironically, he is a splendid fellow»).

هذّبه الحبّ» (Arlequin poli par l'amour)، عندما تُحذّر أرلوكان، قائلةً: «إصغ جيّداً لما سأقوله لك، لا تَسَلني عن مدى الحبّ الذي أُكِنُّه لك، لأنّني سأعترف لك دائماً بنصف ما أُحِسّ به تجاهك» («Écoutez, n'allez pas me demander combien je vous aime, car je vous en dirai toujours la moitié qu'il n'y en a»)، فيدور بينهما بالتالي، عندما تحاول هي برعونةٍ (إذ إنّها ترغب في إنتاج إغراقٍ، ولكنّها تنزلق صراحةً إلى قلب المعنى) أن تضعَ هذا المبدأ البلاغيّ الجميل حيِّز التنفيذ، الحديث التالي:

أرلوكان: أتحبّنني كثيراً؟
سيلفيا: ليس كثيراً.

ARLEQUIN. - M'aimez-vous beaucoup?
SILVIA. - Pas beaucoup.

أمّا من جهةٍ أخرى، فحتّى في الحالة التي يكون فيها وجود المحسن البيانيّ واضحاً وضوح الشمس، لا تكون مُطلقاً طبيعة المعنى «الحقيقيّ» الدقيقة على هذا القدر من الوضوح. وحتّى لو كنّا على يقينٍ من وجود تفاوتٍ يتّصف بالإغراق أو بالغلوّ، فقد نتردّد في تقدير أهميّة هذا التفاوت، لأنَّ عبارة «لا أكرهك البتّة» («Je ne te hais point») قد تعني أيضاً «أحبُّك قليلاً» («je t'aime un peu»)/ أو حبّاً جمّاً («beaucoup»)/ أو بشغفٍ («passionnément»)/ أو بجنونٍ» («à la folie»). وقد تُشير كذلك عبارة «بشرتكِ داكنة اللّون حقّاً!» («Mais tu es vraiment noire!»)، بحسب الحالات، إلى اسمرارٍ ناتج عن لفح الشمس» («un léger hâle»)، أو إلى تسميرٍ شديدٍ («un bronzage intense...;»)، وحتّى في الحالات حيث تفرض القراءة الاستعاريّة نفسها، لا يُعاد بناء المعنى المشتقّ إلاّ تخمينيّاً، إذ إنَّ المحسن البيانيّ يترك دائماً هامشاً تأويليّاً مُتغيِّراً كمجالٍ للمناورة، ويكمن هنا تحديداً كُنه فائدته.

وأخيراً، يكون المحسن البيانيّ من الغرابة بمكانٍ، إذ يجب أن يكون قابلاً للكشف من دون أن يكون واضحاً جداً؛ وهو يُدلي بالجُمَيلة الأولى «ج» في حين يُضمر الجُمَيلة الأوّليّة «ج'» من دون أن يجرِّد هذا الأخير المحتوى الأوّل كلّيّاً من أهليته، ومن دون أن يكون المحتوى الثاني هذا قابلاً للتحديد بشكلٍ قاطع. إنّها بالتالي طريقة عملٍ مُفارِقة، ولكنَّ ذلك لم يغب عن نفاذ فكر علماء البلاغة التقليديّين الذين لاتزال تحليلاتهم صالحةً، حتّى لو سوّلت لنا أنفسنا أن نُعبِّر بتعابيرَ «مُبتكرةٍ» عن هذه «الأفكار القديمة».

2.3.3. المحسن البيانيّ و«فصل الأنا»

يقول «فونتانيي» في كتابه بعنوان **صور الخطاب**[130]، ما يلي: «يُسرف الغلوّ في زيادة أو إنقاص الأشياء، ويقدِّمها أعلى أو أدنى ممّا هي عليه حقيقةً، ليس بقصد الغشّ، بل بقصد بلوغ الحقيقة نفسها، وترسيخ ما يجب فعلاً قوله من خلال الإدلاء بقولٍ يتعذَّر تصديقه [...]».

وعليه، يُعتبر المحسن البيانيّ من وجهة نظر الترميز، خطأً في التسمية ذا طابعٍ إراديٍّ ومتعمَّدٍ («بقصد...»)، إذ إنَّه نوعٌ من أنواع الكذب ولكنَّه كذبٌ يحرِص على أن يُعتَرف به باعتباره كذباً («... ليس بقصدِ الغشّ، بل بقصد بلوغ الحقيقة نفسها»)، أي إنَّ الشخص الذي يُنتج المحسن البيانيّ يتدبَّر أمره لكي يوحي بالصواب من خلال الإدلاء بالخطأ، وذلك عبر إدخال بعض الدلائل إلى خطابه التي من شأنها إتاحة المجال أمام المُتلقِّي لإعادة رسم الخطّ الذي يوصله من المعنى الوهميّ إلى حقيقة الخطاب.

وبالموازاة، يُردف على صعيد فكّ الترميز قائلاً:

«[...] لا تقف المسألة عند هذا الحدّ، إذ ينبغي أن يُصدِّق المُستمع الوهم حتى مرحلةٍ معيَّنةٍ، وأن يُضطرّ إلى التفكير قليلاً كي لا يقع ضحيّة الخداع، أي أنَّه يجد نفسه مُلزَماً بإعادة الكلمات إلى قيمتها الصحيحة».

وبالتالي، يترتَّب على متلقِّي المحسن البيانيّ أن يكون قادراً في الوقت نفسه:

- أن يُدركَ المعنى الحرفيّ وأن يفهم مغزاه، وأن يعتبر حتّى النهاية أنَّه يتمتَّع بقدرٍ معيَّنٍ من الصحَّة (أي «أن يعيش في الوهم حتى مرحلةٍ معيَّنةٍ»)
- أن يكشف طبيعته الغشَّاشة، وأن «لا ينخدِعَ به»
- أن يُجري على ضوء بعض الدلائل «حساباً» (إذ يتطلَّبُ فكّ ترميز المحسن البيانيّ تكَبُّد المزيد من العمل التأويليّ) يُفضي به إلى المعنى الحقيقيّ.

ويُعَدُّ المحسن البيانيّ بُنيةً فيها الكثير من الرياء، ويتطلَّب تأويله (تماماً كما إنتاجه) من جانب الشخص الذي يكبُّ على تمحيصه نوعاً من الازدواجيّة، وقد

(130) Fontanier, *Les Figures du discours*, pp. 123-124.

نذهب حتّى إلى حدّ القول، مُستخدمين، بشكلٍ استعاريٍّ نوعاً ما، مفهوماً فرويديّاً يقضي بأنَّ متلقّي المحسن البيانيّ يكون شخصاً يعاني انفصالاً[131].

وإليكم تذكيراً تقريبيّاً بمبدأ هذه النظريّة الأشهر من أن تُعرَّف، ألا وهو: يتوهَّم الولد الصغير (الصبيّ طبعاً) بادئ الأمر بأنَّ والدته لها عضوٌ ذكوريٌّ، إلى أن يأتي اليوم الذي يُضطرّ فيه إلى طرد هذا الاعتقاد من ذهنه. ولكن يتعذَّر عليه محوه بشكلٍ ناجزٍ. إذ تؤثِّر الرغبة (في التصديق، على الرُّغم من كلّ شيءٍ، ورُغم تكذيبِ الوقائع لها) من بُعدٍ على القِوى الواعية للإبقاء على هذه الرغبة عبر تحويلها من دون علم الشخص المعنيّ. وهكذا، يتمّ الفصل بين الشخص الذي يعلم («أنا على يقينٍ ـ بأنَّ والدتي لا تملك عضواً ذكوريّاً» «je sais bien - que ma mère n'en a pas») وبين الشخص الذي يُصدِّق («ولكن مع ذلك ـ لا أقوى على منع نفسي بشكلٍ أو بآخر من الاعتقاد بأنَّها تملك واحداً» «mais quand même - je ne puis m'empêcher, d'une certaine manière, de croire qu'elle en a»).

ولننتقل الآن لمعالجة الفكرة القائلة بأنَّ الاعتقاد بوجود العضو الذكوريّ عند الوالدة هو الذي يؤدِّي دور المحور الاستبداليّ المُطلق لآليّة فصل الأنا، فنستنتج ما يلي: ناهيك عن أنَّنا نستشفُّ فيها بسهولةٍ وجود نوعٍ من التمييز الجنسيّ (أو «المحوريّة الذكوريّة» الأكيدة، بحيثُ إنَّنا: قد نتساءل عمّا يدور في خلدِ الفتاة الصغيرة حين تكتشف أنَّ والدها، هو، يملك واحداً من هذا العضو الذكوريّ)، نجد أنَّها ترتكز كذلك على العقيدة القابلة للنزاع والقائلة بوجود دالٍّ سامٍ يضطلعُ بدور المرجع النهائيّ لكلّ العناصر الدالّة الأخرى ـ وذلك على سبيل حصر بحثنا في إطار المبدأ العام القائِل بوجود نزاعٍ يعتملُ في صدر الشخص المعنيّ بين ما يعرفه وما يعتقده. وعليه، يبدو هذا المبدأ من وجهة نظرنا مُثمراً للغاية وقادراً على حملنا على إدراك ما يلي:

1. طريقة عمل بعض أنواع «التطيُّر» (والمثل على ذلك ما يُحلّله مانوني (Mannoni) عن حالة الاعتقاد بالأقنعة عند هنود أميركا الشماليّة المعروفين

---

(131) بشأن مفهومَيّ «إنكار الحقيقة» (المعروف باسم الفرلوغنانغ (Verleugnung)) و«فصل الأنا»، راجع: Octave Mannoni, «Je sais bien... mais quand même. La Croyance,» *Les Temps modernes*, no. 212 (1964).

بالهوبيّين (les Hopis)، فضلاً عن الاعتقادات بالصُّدَف والمُصادفة الموضوعيّة والتكراريّة والأبراج[132]. . .، إلخ.، السائدة في مجتمعاتنا «العقلانيّة»)؛

2. المواقف المُختلفة إزاء قضيّة «التقليد الإيمائيّ»، وقد بَرهن جونيت ببراعةٍ أنّها موضع نزاعٍ بين الإقرار بالحقيقة (كأن نقول مثلاً: أنا على يقينٍ بأنّ اللّغات هي ذات طابعٍ اعتباطيٍّ («je sais bien que les langues sont arbitraires») وبين ديمومة الرّغبة (ولكن مع ذلك، لا أقوى على منع نفسي من الاعتقاد - وذلك لأنّ خطاب هيرموجين قبيحٌ، في حين أنّ خطاب كراتيل فاتنٌ - بأنّ اللّغات لها مُبرِّراتها بشكلٍ أو بآخر («mais quand même, je ne puis m'empêcher de croire - parce que le discours d'Hermogène est ingrat, et séduisant celui de Cratyle - qu'elles sont d'une certaine manière (motivées»)؛

3. بعض المواقف السياسيّة، على غرار موقف ريجي دوبراي (Régis Debray) مثلاً، ويُعلّق جيل أنكتيل (Gilles Anquetil) على كتاب هذا الأخير الذي يحمل عنوان **نقد المنطق السياسيّ** (*Critique de la raison politique*) قائلاً: «سيُرمى التزام ريجي الاجتماعيّ بوجهه كدليلٍ عكسيٍّ على ما يتقدّمُ به. وعلى

---

(132) «تشكّل الأبراج نقطة ضعف الجامعة في أمريكا، فالزملاء كلّهم مولعون بعلم التنجيم. وما إن يتعرّف المرء بأحدهم، يبادر فوراً إلى سؤاله إن كان من برج الحمل أم من برج الثور. [. . .]. أمّا أنا، فلا أؤمن قطعاً بالأبراج. ولكن مع ذلك، على رأي فرويد في موضوع توارد الأفكار، ثمّة ما يدفعنا إلى الاطّلاع على هذا المجال. [الجملة الأخيرة من تأليفنا]. عندما يتوارى المستقبل في علم الغيب، ويتلاشى الماضي، ويُصبح الحاضر عبثاً لا يُطاق. . . .» (Sigmund Freud, *Le Mot d'esprit et ses rapports avec l'inconscient = Der Witz und seine Beziehung zun Unbewussten*, collection idées, traduit de l'allemand par Marie Bonaparte et le Dr M. [Marcel] Nathan ([Paris]: Gallimard, [1971]), p. 339) («L'université en Amérique a un faible pour l'horoscope. Les collègues sont portés sur l'astrologie. A peine on vous présente à quelqu'un, il vous demande si vous êtes Bélier ou Taureau. [...]. Moi, bien sûr, je n'y crois pas. Mais quand même, comme Freud avec la télépathie, il faut bien y aller voir [souligné par nous]. Quand tout le reste se dérobe, le passé anéanti, le présent insupportable...»).

وكذلك، أعقبَ راوي كتاب **حبّ الذات** (وهي رواية ألّفها سيرج دوبروفسكي (Serge Doubrovsky, *Un Amour de soi: Roman* ([Paris]: Hachette littérature générale, 1982)), الذي يُعاني انفصالاً، القول بالفعل، وزار مُنجّماً تنبّأ له بمستقبلٍ متألّقٍ، قائلاً: «ستُحبُّكَ هذه المرأة إلى الأبد» («She will always love you»). ويُعلّق الحائز على هذا النبأ المُفرح على هذا الحكم القاطع قائلاً (ص 341): «هذا ما كنتُ أتوق لسماعه منذ أشهرٍ، لا بل منذ سنواتٍ. أمّا الآن فقد أصبح نبوءةً. ولكن للأسف عبثاً انتظرتُ الحقيقة» («Voilà, depuis des mois, des ans, ce que je voulais m'entendre dire.[. . .] Maintenant, c'est prédit. Malheureusement, la réalité avait du mal à suivre [...]»).

الرُّغم من أنَّ المؤلِّف قد توخّى الإشارة إلى أنَّ كتابه كان خلواً من المُجازفة التطبيقيّة [...]، فماذا يقول لنا دوبراي؟ وإنْ كنتُ أنا ريجي الذي يُفكِّرُ في هذا الكتاب، فلستُ أنا مَن يتحدّثُ. إنّ ما أُدلي به في كتابي هذا هو ما أعتقد بأنّه حقيقيٌّ. بيد أنَّ ما هو حقيقيّ ليس بالضرورة ما أؤمنُ به أنا شخصيّاً»[133]، فمن خلال تعرية المنطق السياسيّ، يُعرِّض مفهوم دوبراي-الخيميائيّ مركز دوبراي-المُناضل للخطر، فهذا تمرينٌ عجيبٌ على انفصام الشخصيّة الإراديّ حيثُ يُعبِّر المؤلِّف عن عكس ما يقوم به رجلٌ مُفعَمٌ بالنشاط»[134] («Régis va se faire renvoyer son engagement social au visage, comme un contre-preuve. L'auteur a pris pourtant le soin de préciser que son travail était dépourvu d'enjeu pratique [...]. Que nous dit Debray? Si c'est moi, Régis, qui pense dans ce livre, ce n'est pas moi qui y parle. J'énonce, ici, ce que je crois être le vrai. Mais le vrai n'est pas forcément ce à quoi je crois. En déshabillant la raison politique, le Debray-chimiste du concept scie la branche sur laquelle s'est assis le Régis-militant. Extraordinaire exercice de schizophrénie volontaire où le penseur dit le contraire de ce que fait l'homme d'action»)؛ أو موقف بعض المناضلين الشيوعيّين على شاكلة آلان روسكيو (Alain Ruscio) هذا الذي يُحاوِره دارد[135] (J. N. Darde) قائِلاً: «سينبري آلان روسكيو وهو أحد أصدق ضيوفي وأكثرهم حسن نيّةٍ، مباشرةً وبوجهٍ خاصٍّ، إلى شرح كيف يُعقل لشخصٍ كرّس حياته لخدمة الحقيقة أن يرفض وبحسب تعابيره «التخلّي عن ضميره وعن موقفه حيال الحقيقة» وأن يقبل في الوقت عينه التزام الصمت أو كتابة عكس ما هو مقتنعٌ به» («Alain Ruscio, le plus sincère et le plus candide de mes interlocuteurs, est particulièrement à même de nous expliquer comment un fonctionnaire de la vérité peut tout à la fois, selon son expression, refuser 'd'abdiquer sa conscience et son attitude face à la vérité', et accepter de se taire ou d'écrire le contraire de ce dont il est convaincu»).

---

(133) نحن مَن أشار إلى كلّ المتتاليات المذكورة في هذا التوسيع.

(134) «Régis contre Debray,» *Les Nouvelles littéraires* (oct. 1981), p. 82.

(135) Jean-Noël Darde, *Le Ministère de la vérité* (Paris: Editions du Seuil, 1984), p. 163.

وقد تسوّل لنا أنفسنا أن نُشبِّهَ كلّ هذه الحالات التي تُجسِّدُ «انفصاماً بالشخصيّة» إراديّاً كان أم لا، واعياً أم لا، صادقاً أم متصنِّعاً بفظاظةٍ، وأن نماثلها بالحالة المفروضة على أتباع **الإش إنك**(*) (Angsoc) للمؤلّف أورويل (Orwell)، المُدرَّبين على تِقنيّة «التفكير المزدوج»، حيثُ يقول ما يلي:

«يجب أن نعلم وألاّ نعلم. ويترتَّب علينا، ونحن نتمتَّع بكامل إدراكنا وبحسن النيَّة المُطلقة [...]، أن نحفظ في آنٍ وجهتَي نظرٍ تنقضُ إحداهما الأخرى، وأن نُصدِّقهما مع أنَّنا على يقينٍ بأنَّهما متناقضتَين [...]. وأن نقول أكاذيب مُتعمَّدةً وأن نقتنع بها بصدقٍ [...]، وأن ننكر وجود حقيقةٍ موضوعيّةٍ ونحن ندرك تمام الإدراك الحقيقةَ التي ننكرها، وتُعَدُّ هذه الأمور برمَّتها ضرورةً لا غنى لنا عنها [...]. إنَّ التفكير المزدوج هو القدرة على إبقاء مُعتَقَدَين متناقضَين حاضِرَين في ذهننا في الوقت عينه والتَّسليم بكليهما»[136] («Connaître et ne pas connaître. En pleine conscience et avec une absolue bonne foi, [...] retenir simultanément deux opinions qui s'annulent alors qu'on les sait contradictoires, et croire à toutes deux [...]. Dire des mensonges délibérés tout en y croyant sincèrement [...], nier l'existence d'une réalité objective alors qu'on tient compte de la réalité que l'on nie, tout cela est d'une indispensable nécessité [...]. La double pensée est le pouvoir de garder à l'esprit simultanément deux croyances contradictoires, et de les accepter toutes deux»).

(ويستندُ دارد أيضاً، بغية إيضاح حالات الفصل الأيديولوجيّ التي تُثير اهتمامه، على تحليلات بعض علماء الإناسة والمؤرِّخين، قائلاً: «يشرحُ لنا بول فاين (Paul Veyne) في أحد مؤلَّفاته الحديثة قدرة الأولاد على الاعتقاد في الوقت عينه بأنَّ بابا نويل يدخلُ من المدفأة ليجلب لهم الهدايا، وبأنّ أهلهم هُم يضعون لهم هذه الهدايا، [...] فكيف يُعقل أن نعتقد، أو أن نعتقد من دون أن نُصدِّق،

(*) وهي اختصار لمفهوم «الاشتراكيّة الإنجليزية» (Socialisme Anglais) الذي وردَ في أحد مؤلّفات الكاتب جورج أورويل (George Orwell, *1984 [Nineteen Eighty-Four]*, With a Critical Introduction and Annotations by Bernard Crick (Oxford: Clarendon Press; New York: Oxford University Press, [1984])).

(136) المصدر نفسه، والترجمة الفرنسية: George Orwell, *1984 [Mille neuf cent quatre-vingt-quatre]* ([Paris]: Gallimard, 1983), pp. 55 et 303-304.

بحقائقَ متناقضةٍ. ويعزو بول فاين سبب ذلك إلى مفهوم «برنامج الحقيقة»، إذ إنّنا لا نُصدِّق أنَّ القول حقيقيٌّ ولا نعترف به باعتباره كذلك ما لم يوصلنا إليه ويُقنعنا به «برنامج الحقيقة» الخاصّ بنا، ونحن قادرون أن نُصدِّق أموراً متناقضةً تناقضاً تامّاً ما دامت هذه المُعتقدات تتلاءم ومختلف برامج الحقيقة التي تتعايش في ذهننا من دون أن تُنشئ في ما بينها علاقاتٍ من النمط المنطقيّ. وكذلك، يؤكِّد بول فاين، ما يلي: «يكون صدقنا ناجزاً عندما نعمدُ إلى نسيان ضرورات الحقيقة التي مضى عليها خمسُ دقائق وأعرافها، وذلك بغية اعتماد ضرورات الحقيقة الجديدة وأعرافها. وتكون كلّ هذه الحقائق المُختلفة حقيقيّةً بنظرنا، إلاّ أنَّ عمليَّة التفكير فيها لا تتمّ في القسم نفسه من دماغنا»[137]. ويُضيفُ دارد[138] قائلاً بأنَّ مؤلِّف كتاب **الإنسانية** (*L'Humanité*) يعتبرُ «خلافاً للحالات التي يكترثُ بها بول فاين والتي تتعايشُ فيها اعتقاداتٌ صادقةٌ بحقائقَ متناقضةٍ على المستوى عينه»، «بأنَّ الصدق والاستخفاف قد يتعايشان ولكن على مستويَين متباينَين». «ففي مرحلةٍ أولى، يُدرك مؤلِّف كتاب **الإنسانية** ويعي أنَّه يُنتج «حقائقَ» انطلاقاً من برنامجِ حقائق معيَّنٍ، ومن هذا المُنطلق بالذات تكون الحقيقة مُعرَّضةً لخطر الانتهاك. وعلى مستوى أخر، قد يتبادرُ إلى ذهن مؤلِّف كتاب **الإنسانية** أنَّ هذه الحقائق تكتسبُ قيمة الحقيقة الفعليّة ما دامت، نظراً إلى طبيعة صيغة إنتاجها، مُكرَّسةً لمساعدة عالم الحقيقة لإحراز نصرٍ على عالم الكذب، ومساعدة الاشتراكيّة للتغلُّب على الرأسمالية والامبرياليّة. وعلى هذا المستوى، يُمكن للصدق أن يجد مكاناً له». وفي الواقع، إنَّ وضع «الاعتقادات» المختلفة التي تتعايش كيفما اتَّفقَ لدى الشخص نفسه هو وضعٌ جدّ متغيِّرٍ).

4. وأخيراً، تُطبِّقُ نظرية الفصل تطبيقاً ممتازاً على حالة المحسن البيانيّ، فمثلاً:

● على حالة الاستعارة (على غرار المثل التالي: «... منجلاً ذهبيّاً في مرج من نجوم شديدة اللّمعان» («... cette faucille d'or dans le champ des étoiles»)) حيثُ أُدرِكُ جيِّداً أنَّ القمر ليس بالحقيقة منجلاً، وأنَّ الشِّعر ليس ضرباً من ضروب السحر، وأنَّ الاستعارات ليست عِصِيّاً سحريّةً تُحوِّل الأقمار إلى مناجل ولا اليقطين إلى عرباتٍ ـ ولكن مع ذلك...

---

(137) Darde, *Le Ministère de la vérité*, p. 56.

(138) المصدر نفسه، ص 57-58.

● وعلى حالة الغلوّ: حيثُ أكون على يقينٍ بأنَّها تُغالي ولا أُخدَعُ بها ولكن مع ذلك أعيشُ في الوهمِ حتّى مرحلةٍ معيَّنةٍ...

● على حالة التهكُّم: لقد دافعنا في السابق عن الفرضيّة القائلة بأنّه من المناسب أن نُميِّز بين نمطين من التهكُّم، ألا وهما: التهكُّم الاقتباسيّ والتهكُّم غير الاقتباسيّ. ونحن مازلنا عند رأينا. ولكن علينا أن نوضِّح أنَّ التهكُّم الاقتباسيّ يتَّصفُ بوجود مُرسَلين متباينَين يقوم أحدهما بإعادة أقوال الآخر بشكلٍ تهكُّميٍّ، في حين أنَّ التهكُّم غير الاقتباسيّ يقوم على وجود مُرسلٍ واحدٍ، ولكنَّه يزدوجُ أو بالأحرى ينفصل[139].

● والأمر نفسه ينطبقُ أخيراً على المحسن البيانيّ التخيُّليّ: وهذه بعض الأمثلة:

المثل الأوَّل: لا أحد هنا وثمّة شخصٌ ما هنا[140] («Il n'y a personne ici et il y a quelqu'un ici (Rimbaud)»).

المثل الثاني: أمّا بالنسبة إلى الحدث الذي سيبدأ، فهو يدور في بولندا، أي ليس في أيّ مكانٍ[141] («Quant à l'action qui va commencer, elle se passe en Pologne, c'est-à-dire nulle part»).

المثل الثالث: هذا كان وهذا لم يكن، («Cela était et cela n'était pas»)، حيثُ:

نرى في هذا المثل الأخير أنَّ رابطة «كان» في الاستعارة الظاهرة للعيان تضمُّ ظاهريّاً معنى «الكينونة» و«عدم الكينونة»، وهذا شأن الخطاب الأدبيّ أيضاً الذي يتمحور كاملاً وفي الوقت عينه حول صيغة «الكينونة» و«عدمها».

ويُثيرُ المحسن البيانيّ بصورةٍ دائمةٍ مسألة المقام الذي يتمّ تعيينه حرفيّاً[142]،

---

(139) يتّصف التهكّم من زاوية هذا المعنى الخاصّ جداً (ازدواج شخصٍ منفرد إجمالاً) بشيءٍ من الحواريّة. وهذا شأن المحسنات البيانية كافّةً، إذ تكون لدى إصدارها مستمدّةً باتّجاهٍ واحد (تعدّدية شخص واحد بشكلٍ جوهريّ) من تعدّد الأصوات؛ أمّا بالنسبة إلى تلقّيها، نستطيع أن نعتبر، من زاوية هذا المعنى الخاصّ جداً دائماً، أنّ كلّ المحسنات البيانية تزدوج بالضرورة بنوعٍ من أنواع المحسن البياني التواصليّ.

(140) مثلٌ مُقتبسٌ عن ريمبو (Rimbaud).

(141) ألفريد جاري (Alfred Jarry)، خلال العرض الأوّل لمسرحية **أوبو الملك** (Ubu Roi).

(142) راجع التحاليل بشأن التهكّم التي اقترحها ولسون وسبيربر (Dan Sperber et Deirde Wilson, «Les Ironies comme mentions,» *Poétique*, no. 36 (1978)).

فضلاً عن ملاحظة بيرلمان وأولبركت-تيتيكا (Chaïm Perelman et L. Olbrechts-Tyteca, *Traité de l'argumentation: La Nouvelle rhétorique*, 3ème éd. (Bruxelles: Ed. de l'université de Bruxelles, =

بقصد فضح طبيعته الوهميّة. ويفرضُ فكّ ترميزه نوعاً من أنواع «الالتزام المزدوج»[143] كأن نقول مثلاً:

أعرف تمام المعرفة أنَّ المعنى المُشتقّ هو المعنى الأنسب الذي يجب الأخذُ به، ولكنَّني أُصرُّ مع ذلك، حتّى إثر طرح هذا الاعتقاد جانباً، على تصديق المعنى الحرفيّ.

وهكذا تُحاكي عمليّة قراءة المحسن البيانيّ بعض تجارب الهلوسة من جهةٍ، وذلك إذا ما اعتقدنا بصدق ما يقوله سارتر[144] (Sartre) عن تجاربه في تعاطي المَسْكَالين(*): «كنتُ أعرف حقّ المعرفة أنَّ الشيء الذي كنتُ أنظرُ إليه كان مظلَّةً، ولكنَّني لم أقوَ على منع نفسي وأنا أحدِّق به من اعتباره عُقاباً» («Je savais que c'était un parapluie, sans pouvoir m'empêcher de le voir comme un vautour»)، كما أنَّها تحاكي بالتأكيد انفصام الشخصيّة من جهةٍ أخرى. ولكن في حال وُجدَ انفصام الشخصيّة هذا، فهو كما يقول عنه جيل أنكوتيل في حالة

1976), p. 393),

بشأن الإغراق والغلق، ومفادها: «نقترح أنّه كان ليُسلّم عادةً بهذا المصطلح باعتباره مُلائماً [. . .]. وتؤكّد شيمين بأنّها كانت قادرةً على الكُره، وأنّه كان من الطبيعيّ أن تشعر بالكره، وأنّ الجمهور كان ليُصدّقها».

(143) استعمل وارنينغ (Rainer Warning, «Pour une pragmatique du discours fictionnel,» *Poétique*, no. 39 (1979), p. 328),
هذا المصطلح في إطار التحدّث عن الخطاب المسرحيّ، ويرى فيه «محوراً استبداليّاً [. . .] للخطاب التخيُّليّ بشكلٍ عامٍّ».

وبشأن حالة الخيال و«الوهم» المسرحيّ الخاصّة والنموذجية، راجع أيضاً بونجوفاك (Milan Bunjevac, «La Marque de la théâtralité,» *Degrés*, no. 32 (automne 1982)) وغواريـنـو (Raimondo Guarino, «Le Théâtre du sens: Quelques remarques sur «fiction» et «perception» in Actes du colloque AISS-IASPA Sémiologie du spectacle III: Réception,» *Degrés*, vol. 10, no. 31 (1982)),
الذي طرح عقب هوسرل (Husserl) إشكاليّة معرفة ما إذا كان هذان الإدراكان المتعارضان في «الارتباط المزدوج هذا» هما متزامنَين أم لا؛ بالإضافة طبعاً إلى مانّوني (Mannoni: «Je sais bien... mais quand même. La Croyance,» p. 1262, et *Clefs pour l'imaginaire; ou, l'autre scène*, le champ freudien (Paris: Editions du Seuil, [1969]), pp. 302-305,
الذي بيّن كيف أنّ المشاهد الذي يتظاهر بسرعة التصديق من دون أن يكون مخدوعاً أبداً، يُطالب بأن لا تشوب الوهم شائبةً، ولكن في الوقت عينه أن يُفضحَ بوضوحٍ على أنّه وهمٌ (1969، ص 304)، حيثُ يقول: «[. . .] يؤدّي المسرح، بصفته مؤسّسة، دور الرمز الأصليّ للنفيّ (المعرف بالـ «فرنينانغ» (Verneinung)) وبواسطته يُقدَّم كذلك وفي الوقت عينه ما يُعرَضُ وكأنّه حقيقيٌّ بأكبر قدرٍ ممكنٍ، وكأنّه الأكثر كذباً، مع عدم القبول بوجود أيّ نوعٍ من أنواع الشكّ».

(144) خلال مقابلة مصوّرة أعدّها ألكسندر أستروك (Alexandre Astruc).

(*) شبه قلويّ مُستخرج من مُسكّر مكسيكيّ يُحدث هلوسات نظريّة كثيفة.

ريجي دوبراي، «انفصامٌ إراديٌّ في الشخصيّة». إذ يزدوج في إطار المحسن البيانيّ، كلّ من الشخص الذي يُرمِّزُ وذلك الذي يفكّ الترميز، ولكنَّهما يُدركان تمام الإدراك ما يطرأُ عليهما، ويكون بمستطاعهما تمييز الحقيقة من الوهم والمعرفة من الاعتقاد والتعيين من التضمين.

4.3. الخلاصات

(1) وعليه، مع بلوغ هذا البحث الذي يتناول وضع المحتويات المُضمَرة نهايته، إليكم هذا التوضيح عن كيفيّة ظهور نظام القِيَم الدلاليّة التداوليّة التواصليّة القابل للتفعيل في القول، على الشَّكل المُبيَّن أدناه:

القِيَم

حرفيّة غير حرفيّة

بيِّنة مُضمرة (أي مُضمَرة)

محتويات مُقرَّرة افتراضات مُضمَّنات

حقيقيّة غير حقيقيّة

وحدها القِيَم الحرفيّة تكون مُدرجةً في اللّغة.

وقد تكون هذه القِيَم ذات طبيعةٍ دلاليّةٍ (بالمعنى الضيّق للكلمة، أي إنَّها قد تكون أحد عناصر المحتوى الجُمَيليّ) أو ذات طبيعةٍ تداوليّةٍ تواصليّةٍ (كأن تكون قِيماً كلاميّةً منطوقةً). مع الإشارة إلى أنَّ هذا التفريق يُطبَّق كذلك على القِيَم غير الحرفيّة بمجملها.

وفي طور عمليّة التفعيل الخطابيّ، نُلاحظ ما يلي:

● يقتصر عادةً دور السياق أو السياق الحاليّ للنصّ على انتقاء القِيَم التي ستُفعَّل من جملة القِيَم البيِّنة (رفع التعدُّدية الدلاليّة والمُجانَسة مثلاً). وتكون هذه القِيَم المُرشَّحة الوحيدة مبدئيّاً لتشكيل موضوع الرسالة الكلاميّة الحقيقيّ الذي ينبغي نقله، وتكتسبُ كذلك وضع المحتويات التعيينيّة. إذا كانت المسألة تتعلَّق

بمعانٍ حرفيّةٍ، ينعدمُ عندئذٍ وجود المحسن البيانيّ. أمّا إذا كانت المسألة مسألة اشتقاقاتٍ لغويّةٍ، فينشأُ حينئذٍ محسنٌ بيانيٌّ مُمَعجَمٌ، على الشَّكل التالي:

استعارة
مجاز مرسل
إغراق
محسن بيانيّ كلاميّ منطوق
إبدال
محسن بيانيّ تخيُّليّ

} مُمَعجَمة

يُصار بالإضافة إلى ذلك إلى تفعيل: أوّلاً، الافتراضات التي تُحافظ على وضعها كمحتوياتٍ مُضمَرةٍ (إذ إنَّها لا تُشكِّل موضوع الرسالة الكلاميّة)؛ وثانياً، بعض المُضمَّنات القابلة أن تدور في فلك المحتويات الحرفيّة (أكانت تضميناتٍ مُعجميّةً، أم قِيماً كلاميّةً منطوقةً تلميحيّةً، أم استدلالاتٍ مُضمَّنةً تكون مُستمدَّةً من هذا المزيج المُعقَّد الواسع المؤلَّف من القِيَم التي من الممكن أن تُضاف، وفقاً لآليّات متنوِّعةٍ، إلى نواة القول السيميّة، ولا يصطفي منها السياق أو السياق الحاليّ للنصّ سوى جزءٍ صغيرٍ جداً)، والتي تكتسبُ وضع المحتويات الثانويّة، والإضافيّة والهامشيّة والاشتقاقيّة (التخاطبيّة) وتكون ذات طابعٍ تعيينيٍّ.

● زد على أنّه بمستطاع السياق أو السياق الحاليّ للنصّ أن يتدخَّل استثنائيّاً بغية قلب تراتيبّة وحدات المحتوى السويّة وتحويل هذا المحتوى المُضمَر أو ذاك إلى محتوى تعيينيٍّ. وينشأُ عندئذٍ محسنٌ بيانيٌّ ابتكاريٌّ، سواء كان أحد المحسنات البيانيّة الابتكاريّة «الكلاسيكيّة» (على غرار الاستعارة والمجاز المُرسل والكناية والإغراق والغلوّ والتهكُّم)، أو محسنٌ بيانيٌّ افتراضيٌّ (وما يُميِّزه أنَّه على الرُّغم من كونه مُضمَراً إلاّ أنَّه يُفيد من المحتوى الحرفيّ)، أو محسنٌ بيانيٌّ إضماريٌّ يتمحور حول مُضمَّنٍ، أو أخيراً محسنٌ بيانيٌّ كلاميٌّ منطوقٌ ابتكاريٌّ[145].

(145) يجب وضع المحسن البيانيّ جانباً لأنّه لا يتمحور حول وحدات المحتوى، بل حول فاعلي القول.

(2) المحسنات البيانيّة «الكلاسيكيّة» و«غير الكلاسيكيّة»

يُبدي ويلسون وسبيربر[146] الملاحظة التالية: «ما الذي يحول دون إنشاء محسنٍ بيانيٍّ يقوم مثلاً، إلى جانب التناقض والتشبيه...، إلخ.، على قلبِ دورَي الفاعل والمفعول في الجملة، وعندها يُمكن، في حالة الخطأ الجليّ، فهمُ جملةٍ كالجملة التالية: «يُحبُّ بيار ماري» («Pierre aime Marie») وكأنّها تُضمِرُ المعنى التالي: «تُحبُّ ماري بيار» («Marie aime Pierre»)؟ علماً بأنَّ العديد من أنماط العلاقات الجدّ بديهيّةٍ لم يتمّ بعد استثمارها في المحسنات البيانيّة». هذا صحيحٌ، وبدورنا نجد أنفسنا عاجزين عن تبرير واقع أنَّ «بعض أنماط الروابط فقط» قابلةٌ أن تُرسي أسس المحسن البيانيّ.

إلاّ أنّنا نُلاحظ مع ذلك أنّنا لو سلّمنا جدلاً أنَّ كلّ الاعتبارات الآنفة الذكر هي صحيحةٌ، فإنَّ اللائحة التي تقترحها البلاغة الكلاسيكيّة بشأن المحسنات البيانيّة لا تستوفي مجمل الظواهر المُثبتة والتي يُمكن مماثلتها بتلك المُدرَجة على اللائحة؛ كما أنّنا نستطيع أن نصف رؤيتها بشأن هذه الإشكاليّة بالمحدودة وذلك لسبَبين، ألا وهما: أوّلاً، إنّها تُغفِلُ طريقة عمل الوحدات التي تكون أسمى رتبةً من الكلمة ومن التركيب التعبيريّ (وهكذا يعتبرُ فونتانيي بأنَّ «المحسنات البيانيّة المُركَّبة من عدّة كلماتٍ» تُستعملُ «خلافاً للأصول»، لأنَّ وجهة نظر البلاغة الكلاسيكيّة، ترتبط أساسيّاً بالمُعجَم)؛ وثانياً، إنّها تتمسَّك ببعض العلاقات الدلاليّة التي يُمكن إستنباطها بيُسرٍ نسبيٍّ (والأجدر بنا أن نُظهر تدرُّجات هذا التأكيد على نحوٍ أدقّ، وذلك لأنَّ ما سجّله التاريخ عن الأبحاث البلاغيّة التي قام بها دو مارسيه أو فونتانيي هو غيضٌ من فيض ما أنجزاه، فمثلاً، تُشبهُ «الاستعارة العكسيّة» والتي لا تُضاهي علانيّتها مُطلقاً علانيّة الاستعارة أو المجاز المُرسل، ما نسمّيه نحن في كتابنا هذا بالمحسن البيانيّ الإضماريّ»). وعلى أيّ حال، إذا ما عمدنا إلى توسيع وجهة النظر هذه، نجدُ أنَّ عدد «أنماط الروابط الموظّفة في المحسن البيانيّ» يفوق بأشواطٍ العدد الذي نتصوّره، وقد آن الأوان لنحاول، على ضوء التطوُّرات الألسنيّة اللُّغويّة الأخيرة، إيجاد لائحةٍ بها وتصنيفها تصنيفاً منهجيّاً. هذا هو المشروع الذي أردنا أن نُمَهِّدَ الطريق له في كتابنا هذا، ونحن لا

(146) Deirdre Wilson et Dan Sperber, «Remarques sur l'interprétation des énoncés selon Paul Grice,» *Communications*, no. 30 (1979), p. 83.

ندّعي مطلقاً أنّنا توصّلنا أخيراً إلى وضع لائحةٍ كافيةٍ وافيةٍ بالمحسنات البيانيّة، أو أنّنا أوجدنا تصنيفيّةً متناسقةً معها، فعلى الأكثر، أمسَيْنا من الآن فصاعداً، مؤهّلين أن نشير إلى:

1. أنّنا نُدرك بالحدسِ وجود بعض التماثلات القائمة بين بعض المحسنات البيانيّة الكلاسيكيّة وبعض المحسنات البيانيّة غير الكلاسيكيّة. وتقوم هذه الأخيرة أحياناً، على صعيد الجُمَيلة، بتبديل مكان علاقةٍ دلاليّةٍ ما تُميّز الأولى. وهكذا، يُمكننا إقامة علاقة تعالقٍ بين:

- الإغراق وبعض المحسنات البيانيّة الكلاميّة المنطوقة (على غرار الالتماس غير المباشر)؛

- الاستعارة والمحسن البيانيّ الإضماريّ حين يقوم في الواقع على مبدأ التحدُّث عن أمرٍ معيَّنٍ (أ) مُتظاهراً بأنّه يقصدُ بكلامه أمراً آخر (ب)، علماً بأنّ الأمرين يتشاطران نقاط تشابهٍ جليّةٍ (والمثل على ذلك ما أورده هيلير في كتابه **بولندا: تحت مراقبة موسكو (1980-1982)**[147] ألا وهو: «أعادت صحيفة *Pravda*، نهار 11 أيلول/ سبتمبر، في أحد مقالاتها نشر «عقيدة بريجنيف» التي تمّت صياغتها في الأصل عشيّة دخول أفواج من الجيش السوفياتيّ إلى تشيكوسلوفاكيا، ومفادها: من واجب دول الغرب أن تقفَ صفّاً واحداً للدفاع عن الاشتراكيّة في أيّ بلدٍ إذا ما عرّضتها الامبرياليّة فيه للخطر. ولم يُلمّح ولا لمرّةٍ واحدةٍ إلى بولندا، فالمسألة «برمّتها» تتعلّق بكتابة تحليلٍ يتناول أزمة تشيكوسلوفاكيا عام 1968. ولكنّ مغزاها واضحٌ وضوح الشمس ولا يُخفى على أحـــــــــدٍ» («Le 11 décembre, la Pravda réédite dans un article la doctrine ‘Brejnev’, initialement formulée à la veille de l’intervention des troupes soviétiques en Tchécoslovaquie: les pays occidentaux ont le devoir de défendre collectivement le socialisme dans chaque pays, au cas où l’impérialisme le menacerait. A aucun moment, il n’est fait allusion à la Pologne: il ne s’agit «en tout et pour tout que d’une analyse de la crise tchécoslovaque de 1968. Mais son sens est évident pour tous»»)؛

(147) Heller, *Sous le regard de Moscou: Pologne (1980-1982)*, p. 59.

• «التخصُّص والاختصاص» (على غرار كناية النوع) والمحسن البيانيّ الإضماريّ الذي بموجبه «يُطبَّق» القول العامّ تلقائيّاً، بمقتضى قاعدة الملاءمة، على الموضوع الذي يُثيره السياق أو السياق الحاليّ للنصّ (والمثل على ذلك عبارة: «ما من مهنةٍ حقيرةٍ»، والمقصود: «/ليست المهنة التي نحن بصدد التحدُّث عنها هنا حقيرةً/ » («Il n'y a pas de sot métier» /le métier dont il est ici question n'est pas sot/).

• ونستطيع كذلك أن نُماثل حالاتٍ جمّة من المحسنات البيانيّة الكلاميّة المنطوقة بالمجاز المُرسَل الذي يستعمل العلَّة للدلالة على المعلول، إذ في حين نودُّ أن نُعبِّر بشكلٍ غير مباشر عن التماسٍ ما، نكتفي بتوضيح مسوِّغاته، عل غرار الأمثلة التالية:

المثل الأوّل: ما أشدّ هذه الحرارة، وتعني ضمناً / قدِّم لي كوباً من ماء/ (Quelle chaleur /offre-moi à boire/)

المثل الثاني: سيهطل المطر، وتعني ضمناً / خذ مظلَّتك/ (Il va pleuvoir / / prends ton parapluie/)

المثل الثالث: هذه الشورباء لا طعم لها، وتعني ضمناً / مرّر لي الملح/ (Cette soupe est fade /passe-moi le sel/)،

ونستطيع كذلك أن نُشبِّهَ مَثَل المحسن البيانيّ الإضماريّ هذا (المُمَعجَم، ولكن المُستمدّ من اللّغة المحكيّة أو على الأقلّ الذي يكون استعماله حكراً على مجتمعاتٍ صغيرةٍ حيثُ يندرجُ في استعمالها الداخليّ) الذي يضربُه ألبير هنري[(148)] (Albert Henry)، بالمجاز المرسل الذي يستعمل المعلول (للدلالة على العلَّة)، ألا وهو: «في الحيّ الذي كنّا نقطنُ فيه، كانت حبال نشر الغسيل المُزوَّدة ببكرتَين منصوبةً في كلّ الحدائق تقريباً. وكانت هذه البكرات صدِئَةً وتُصدِرُ صريراً عند نشر الغسيل. وبما أنَّ الغسيل لم يكن يُنشرُ إلاّ في الأيّام المُشمسة، أصبحت الجملة التالية تُصدر البكرات صريراً تعني في المحيط العائليّ أنَّ «الطقس جميلٌ» («Dans un quartier où nous avons habité, dans presque

---

(148) Albert Henry, *Métonymie et métaphore*, bibliothèque française et romane. Série A, Manuels et études linguistiques (Paris: Klincksieck, 1971), p. 21.

chaque jardin était installée une corde à sécher le linge,montée sur deux poulies. Celles-ci étaient rouillées, naturellement, et grinçaient pendant la manœuvre. Comme on pendait le linge surtout par ciel ensoleillé, la phrase Les poulies grincent avait fini par signifier, dans le cercle familial «il fait . beau»»)

2. وأنّه مسموحٌ أيضاً إقامة التواليف بشتّى أنواعها بين مختلف المحسنات البيانيّة، أكانت كلاسيكيّةً أم لا، على غرار التواليف التالية:

- استعارة + غلوّ: والمثل على ذلك:

أنا ميّتٌ من التعب! («Je suis mort de fatigue!»)

(ويقول سيرل[149] ما يلي: «في الواقع، إنَّ العديد من الاستعارات هي مبالغاتٌ [...] وتتّخِذ أحياناً صورٌ أخرى، كالغلوّ مثلاً، بالاستعارة»)؛

- استعارة + تهكُّم: والمثل على ذلك:

أنتِ ملح حياتي («Tu es le sel de ma vie»)

قد ينطوي هذا المثل[150] بشكلٍ استعاريٍّ على المعنى التالي: /أنتِ مصدر فخري وسعادتي/ (/tu es ma fierté et ma joie/) + فضلاً عن أنّه قد يعني على طريقة قلب المعنى ما يلي: /أنتِ تُضجِرينني/ (/tu m'empoisonnes l'existence/)

- استعارة + محسن بيانيّ تخيُّليّ: وتجدر الإشارة إلى أنّنا تطرّقنا، في الفصل الذي خصّصناه للحديث عن المحسن البيانيّ التخيُّليّ، إلى مختلف طرق التوليف المحتملة بين هذَين المحسنَين البيانيين؛

- إغراق + تهكُّم: يمكننا أن نتحدّث عن «إغراقٍ مبنيٍّ على قلب المعنى» عندما تُرجعنا عبارةٌ ضعيفةٌ وذات توجُّهٍ سلبيٍّ، ليس إلى وضعٍ أكثر ضعفاً فحسب، بل حتّى إلى وضعٍ منعدم الوجود (état zéro). والمثل على ذلك:

---

(149) Searle, *Sens et expression: Etudes de théorie des actes de langage = Expression and Meaning*, p. 144.

(150) Herbert Paul Grice, «Logique et conversation,» *Communications*, no. 30 (1979), pp. 67-68.

امرأةٌ قليلة الفضيلة [= أي فضيلتها معدومةٌ] («Une femme de petite vertu [= de vertu nulle]»)

ينطوي هذا المثل على الإغراق ما دام المعنى الحرفيّ مُلطَّفاً على السلَّم البرهانيّ السلبيّ مقارنةً بالمعنى الحقيقيّ. ولكنّه ينطوي على قلب معنى أيضاً لأنَّ العبارة تفترِضُ كذِباً / أنَّ الفضيلة موجودة/ (/il y a vertu/) (مع أنَّها تُثير مسألة أنَّ نسبة الفضيلة قليلةٌ). ويُعدُّ مثل هذا القول إغراقيّاً من حيثُ محتواه المُقرَّر، وتهكُّميّاً على صعيد محتواه المُفترَض.

على ما يبدو إنَّ هذه الطريقة هي عملةٌ رائجةٌ (وهذه بعض الأمثلة الإضافيّة عليها: «لا نشهدُ حدوث أمرٍ مماثلٍ كلّ يوم» = أي / أبداً/ («ça n'arrive pas tous les jours» = /jamais/)، و«لا يوجد جمعٌ غفيرٌ» = أي / لا يوجد أحد/ («y a pas tellement de monde» = /y a personne/)، و«لم يتفاقم عدد المنتسبين، إذ سجَّل عام 1977 رقم 125 منتسباً، وبلغ عام 1978 الـ 85 منتسباً، أمّا عام 1979 فقد وصل العدد إلى 35 منتسباً» («le nombre d'adhésion ne progresse guère: 125 en 1977, 85 en 1978, 35 en 1979»)، وتُمَيّز هذه الطريقة بشكلٍ خاصّ التهكُّم الفولتيريّ (وإليكم هذين المثلَين المُقتبسَين عن **المعجم الفلسفيّ** (*Dictionnaire philosophique*)، ألا وهما: «يُدركُ الفكر البشريّ بصعوبةٍ مسوّغات مثل هذا السفر» («L'esprit humain comprend avec peine les raisons d'un tel voyage»)، و«يبدو لي أمراً نادر الحصول حقّاً أن يتمتَّع ساحرٌ بهذا القدر من المهارة لينفخَ الروح في تمثالٍ» («Il me semble qu'il arrivait bien rarement qu'un magicien fût assez habile pour donner une âme à une statue»)، ... إلخ)؛

- إغراق + غلوّ: والمثل على ذلك ما يلي:

يمكنك أن تنعته بما شئت من نعوتٍ ما خلا الغباء («C'est tout sauf un imbécile»).

- إغراق + محسن بيانيّ كلاميّ منطوق: والمثل على ذلك ما يلي:

أوَلم تستغرقوا وقتاً طويلاً في إرسال الإشارة لي؟[151]

---

(151) نقلاً عن بروست (Proust).

= أي / أرسلوا لي الإشارة بأسرع وقتٍ ممكنٍ/ ؛

(«Ce n'est pas dans trop longtemps que vous me ferez signe?
= /faites-moi signe le plus vite possible/)

● تهكّم + محسن بيانيّ كلاميّ منطوق:

والمثل على ذلك ما حدث معي في أحد المتاجر الإيطاليّة عندما سدَّدتُ مبلغاً كبيراً بواسطة قطعٍ نقديّةٍ من فئةٍ صغيرةٍ، فاستحققت عن جدارةٍ الطرفة التالية:

هل أجدُ معك قطعاً نقديّةً من فئة 100 ليرٍ؟ = أي / أعطِني، إن كنتَ تملك، قطعاً نقديّةً من فئة 100 ليرٍ/ ، هذا هو الالتماس المباشر، ويعني ذلك ضمناً / لا تُعطِني خاصّةً .../ : وهو قلب معنى؛

(«Vous n'auriez pas des pièces de 100 lires? = /donnez-moi, si vous en avez, des pièces de 100 lires/ : requête indirecte /ne me donnez surtout pas.../ : antiphrase»)

● المحسن البيانيّ الإضماريّ + المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق: والمثل على ذلك:

لقد أقلعَ بيار عن التدخين = أي / اقتدِ به/ / («Pierre a cessé de fumer = / fais-en autant/»)

(فما إنْ تُضاف القيمة الكلاميّة المنطوقة إلى المحتوى الجُمَيليّ المختلف عن ذلك الذي توظِّفه القيمة الكلاميّة الحرفيّة، كما هو الحال في السواد الأعظم من حالات المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق، حتّى يزدوجُ هذا الأخير مع محسنٍ بيانيٍّ إضماريٍّ. وثمّة حالةٌ مُثبَتةٌ ألا وهي الحالة التي تقوم فيها جملةٌ ما ذات بنيةٍ مؤلَّفةٍ من جملةٍ أصليّةٍ نواتها أحد أفعال الظنّ واليقين + عبارة متمِّمةٍ للفائدة مُدخَلة، حرفيّاً بطرح سؤالٍ حول الجملة الأصليّة، بيد أنّها في الواقع، تؤكِّد محتوى العبارة المُتمِّمَة للفائدة، كما في المثل التالي:

المتكلِّم: ألم يخطر لك أنّني قد أكون مرتبطةً برجلٍ آخر؟

المخاطب: كلّا.

المتكلِّم: ألا تصدِّقني؟

(«L_1. - L'idée ne t'est pas venue que je pouvais être liée à un autre homme?
L_2. - Non.
L_1. - Tu ne me crois pas?»)

يُقرُّ المتكلِّم بردِّه هذا أنَّه يجب تأويل القول السابق، على الرُّغم من جواب المُخاطب، باعتباره محسناً بيانيّاً).

● المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق المزدوج: والمثل على ذلك:

أمِنَ المُجدي أن نُعيد توضيح هذه الفكرة؟ = أي / لا يُجدي نفعاً أن . . ./ [هذا تساؤلٌ بلاغيٌّ] ويعني أيضاً / فلنتجاوز هذه النقطة/ [هذا هو الالتماس غير المباشر]؛

(«Est-ce bien utile de revenir là-dessus? = /c'est inutile.../ [interrogation rhétorique] /ne revenons pas là-dessus/ [requête indirecte])

● توليف المحسنات البيانيّة المُركَّب: والمثل على ذلك:

هل وقعتِ اليوم أيضاً من السرير؟[152]

= أي، / لقد استيقظتِ باكراً اليوم أيضاً/ : وهي استعارة

/ لقد تأخَّرتِ اليوم أيضاً في النهوض من السرير/ : وهذا تهكُّم

/ غالباً ما تستيقظين في وقتٍ متأخِّرٍ/ : وهذا محسن بيانيّ افتراضيّ [يقوم على عبارة «أيضاً»]

/ ويعود سبب ذلك إلى أنَّكِ من التنابل

تخلدين إلى النوم في وقتٍ متأخِّرٍ

تعيشين حياة فسقٍ وفجور/ : وهذا محسن بيانيّ إضماريّ

[فيه علاقة من نوع المجاز المُرسل]

(«T'es encore tombée du lit ce matin?
= /tu t'es encore levée tôt/: métaphore
/tu t'es encore levée tard/: ironie
/tu te lèves souvent tard/: trope présuppositionnel [sur «encore»]
/c'est parce que tu es feignante
tu te couches trop tard
tu mènes une vie dissolue/: trope implicitatif
[relation de type métonymique]»).

3. وأنَّ لائحة المحسنات البيانيّة الموسَّعة التي أوجدناها في كتابنا هذا يُمكن تنظيمها، من جملةٍ أمورٍ أخرى، على قاعدة رسمٍ بيانيّ كالتالي يتمّ فيه تحديد

(152) Jean-Claude Grumberg, *L'Atelier*, théâtre ouvert (Paris: Stock, 1979), p. 14.

موضع التفاوت الذي يُميِّز الظاهرة موضوع البحث:

- تفاوت يتناول
  - فاعلي القول: المحسن البيانيّ التواصليّ[(153)]
  - محتوى القول
    - مرجعيّ: محسن بيانيّ تخيُّليّ
    - افتراضيّ: يشتمل على غالبيّة المحسنات البيانيّة الكلاسيكيّة والمحسنات البيانيّة الإضماريّة
    - قيمة كلاميّة منطوقة: محسن بيانيّ كلاميّ منطوق

وكذلك، قد يتبادر إلى ذهننا أن نُنشئ هذه التصنيفيّة على ركيزة المحور التالي: محسنات بيانيّة ذات طبيعةٍ دلاليّةٍ في مقابل محسناتٍ بيانيّةٍ تداوليّةٍ تواصليّةٍ.

وهكذا، نستنتج ما يلي:

● إنَّ كلّ المحسنات البيانيّة «الكلاسيكيّة» (باستثناء الإبدال الذي يكون مُستمدّاً من التداوليّة التعبيريّة الأدائيّة) هي ذات طبيعةٍ دلاليّةٍ في الأصل. وصحيحٌ أنَّ بعض القِيَم التداوليّة التواصليّة الخاصَّة تُرافقُ طرق العمل البيانيّة كافَّةً (ويظهر هذا الأمر جليّاً في حالة التهكُّم بوجهٍ خاصٍّ، ولكنَّه يصحّ أيضاً على حالات الإغراق والغلوّ والاستعارة التي تصلح طوعاً لعددٍ كبيرٍ من الاستثمارات البرهانيّة)؛ بيد أنَّ ذلك لا يمنع من أن يُصار بادئ الأمر إلى تصوُّر المحسنات

---

(153) نُشدّد على أنّنا لم نتحدّث إلاّ عن مظاهر المحسن البيانيّ المُرتبطة بوضع المتلقي.

بيد أنّه في وسعنا أيضاً أن نتصوَّر محسناً بيانيّاً يتمحور حول المُرسِل: في «الاقتباس المُضمَر» مثلاً، أو حين يتحدّث المتكلّم بالعكس باسمه الحقيقيّ على شكل اقتباسٍ. كما ينتجُ عن هذا المحسن البيانيّ بعض أساليب «الوسم» و«الصُّوَريّة» و«التواطؤ» التي يتحدَّث عنها مينغونو في: Dominique Maingueneau, *Initiation aux méthodes de l'analyse du discours: Problèmes et perspectives*, langue, linguistique, communication (Paris: Hachette, 1976), p. 140.

البيانيّة على اختلافها وتحديدها على ضوء العلاقة الدلاليّة التي تربط بين المحتوى الحرفيّ والمحتوى المُشتقّ اللّذَين يكونان ذات طبيعةٍ دلاليّةٍ؛

● وفي المقابل تُستمدُّ بعض المحسنات البيانيّة الكلاسيكيّة بشكلٍ جليّ من التداوليّة التواصليّة التي تكون ذات طابعٍ تعبيريٍّ أدائيٍّ في حالة المحسن البيانيّ التواصليّ، وذات طابعٍ كلاميٍّ منطوقٍ في حالة المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق. ويبقى أن نُحدِّدَ وضعَ كلّ من المحسن البيانيّ التخيُّليّ والمحسنات البيانيّة الإضماريّة، فنقول ما يلي: عندما تتمحور هذه الأخيرة حول عناصر المحتوى الجُمَيليّ، أكانت هذه العناصر مُفترضةً أم مُضمَّنةً، فمن المناسب بلا ريب أن نعتبرها عندئذٍ محسناتٍ بيانيّةً دلاليةً ـ وهي تكتسب ثانويّاً، أسوةً بالمحسنات البيانيّة كافَّةً، بعض القِيَم الكلاميّة المنطوقة التي تسمح لها بتأدية دور أفعال الكلام الخاصَّة ـ، وأن نحتفظ بتسمية «محسن بيانيّ تداوليّ تواصليّ» للمحسن البيانيّ الافتراضيّ الذي ينطوي على «افتراضٍ تداوليٍّ تواصليٍّ».

مع إبداء التحفُّظات كافَّةً على ما تقدَّم.. ونظراً إلى وضع الأبحاث الألسنيّة اللُّغويّة الراهن ـ وهو وضع يجده البعض غامضاً، في حين يعتبره البعض الآخر في حالةٍ من الفوران الخلّاق. وبشتّى الأحوال، لقد نَجَمَ هذا الغموض وهذا الفوران كلاهما من غزوة التداوليّة الحديثة التي اجتاحت الحقل النظريّ بشكلٍ صاخبٍ ـ فمن التهوُّر بمكانٍ أن ندّعي أنّنا حدَّدنا بشكلٍ نهائيٍّ الحدود التي تفصل المناطق الخاصّة بكلٍّ من علم الدلالة والتداوليّة التواصليّة.

القسم الثاني

تكوُّن المحتويات المُضمَرة وفكّ ترميزها

الفصل الرابع
كفاءات المتكلِّمين

أن يؤوِّل المرء قولاً ما يعني ببساطةٍ، أكانت المسألة تتعلَّق بتأويل محتواه البيِّن أم المُضمَر، أن يُطبِّقَ «كفاءاته» المتنوّعة على مختلف العناصر الدالَّة المُدرجة في المتتالية، حتّى يتمكَّن من استخراج مدلولاتٍ منها. إنَّه أمرٌ بسيطٌ من حيث المبدأ. . . ولكن ما إن نتجاوز الشقّ النظريّ في محاولةٍ لتحديد طبيعة العمليّات التأويليّة المُنجزة على الصعيد الحسيّ، حتّى تتلاشى بالتأكيد هذه البساطة، فنخوض في أغمار آليّةٍ هي بمنتهى التعقيد حيثُ تتدخَّل فيها مجتمعةً في آنٍ واحدٍ، كفاءاتٌ غير متجانسةٍ تتَّصف مسألة تحديد مجالاتها وكيفيّة تدخُّلها بالدقَّة البالغة.

سنكتفي حاليّاً، مع إبداء التحفُّظات كافَّةً، بالتمييز بين أربعٍ من هذه الكفاءات التي سنُطلق عليها التسميات التالية: «الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة» / و«الموسوعيّة» / و«المنطقيّة» / و«البلاغيّة التداوليّة التواصليّة»[1].

1.4. الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة

تُعنى هذه الكفاءة بالعناصر الدالَّة النصيّة والسياقيّة الحاليّة النصيّة، فضلاً عن

(1) ينطبق هذا التمييز إجمالاً على تلك التي يقترحها كلّ من سيرل (John R. Searle, «Indirect Speech Acts,» in: Peter Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics*, Edited by. John P. Kimball; Edited by Peter Cole (New York; San Francisco; London: Academic Press, Harcourt Brace Jovanovich, 1978), pp. 60-61), et (Michel Charolles, «L'Ordre de la signification,» *Pratiques*, no. spécial (1980), p. 60),

بشأن العوامل المختلفة التي تدخل في عمليات فكّ الترميز (ولاسيّما فكّ ترميز ما يكون مُضمَراً).

الهامشيّة النصيّة (أو على الأقلّ النطقيّة[2]، وتنسبَ إليها، بمقتضى قواعد «اللّغة» التكوينيّة، بعض المدلولات).

تملك كلّ وحدةٍ، سواء بشكلٍ مباشرٍ أم غير مباشرٍ، ركيزةً دالّةً أيّاً تكن. و«تُطعَّم» المحتويات البيِّنة بالمحتويات المُضمَرة إن جاز التعبير، حتّى تلك التي يتعذَّر ترسيخها إلاّ على نحوٍ غير مباشرٍ، بحيث يستلزم التعرُّف على الثانية أن يُصار إلى تحديد الأولى. وبالتالي، فمن رابع المستحيلات أن نقع على وحدة محتوى لا يستوجب فكّ ترميزها تدخُّل الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة.

لا تكون هذه الكفاءة متجانسةً حتّى لدى «الجماعة» الألسنيّة اللُّغويّة نفسها، فمثلاً، إنَّ ما نُطلق عليه اسم «اللّغة الفرنسيّة» ليس سوى «نموذجٍ مزدوجٍ» مجرَّدٍ يدمجُ عدداً لا يُحصى ولا يُعدّ من البدائل اللُّغويّة المحليّة واللُّغويّة الاجتماعيّة واللُّغويّة المحكيّة. وهي تُعدّ فضلاً عن ذلك غرضاً على جانبٍ كبيرٍ من التعقيد (أي إنَّها «نظامٌ مفرط التعقيد» (Hypercode) كما يصفها أومبيرتو إيكو (Umberto Eco)، تترابط فيه شتّى أنواع المكوِّنات ـ المُعجميّة أو النحويّة أو النطقيّة أو الأسلوبيّة (أي معرفة مختلف سجلاّت اللّغة) أو التصنيفيّة (أو «الخطابيّة»، أي معرفة القواعد الخاصّة بهذا الخطاب أو ذاك)، إلى آخره.

2.4. الكفاءة الموسوعيّة[3]

إذا كانت الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة تسمح باستخراج المعلومات الضِمْتعبيريّة أدائيّة

(2) ويطرح وضع الوحدات «الصوتيّة» إشكاليّةً من نوعٍ آخر. . .

أمّا بالنسبة إلى الوقائع الإيمائيّة الحركيّة، فهي تنتمي إلى نظام سيميائيٍّ قائم بذاته. كما تُدمج بالكفاءة الموسوعيّة، كلّ المعلومات ذات الصّلة التي تزوّدنا بها العناصر الدالّة ذات الطبيعة غير الألسنيّة اللّغوية (أي الحسيّة الحركيّة والمكانيّة والأيقونيّة احتمالياً. . .، إلخ.). ولكن ينبغي بلا ريب أن نعيد النظر بهذا القرار على نحوٍ يسمحُ لنا بدمج بعض هذه المعلومات غير الألسنيّة اللّغوية ذات الصلّة بالسياق الحاليّ للنصّ (وألاّ ندمجها بعد الآن بالسياق).

(3) لقد أطلقنا في كتابنا بعنوان **فعل القول** (*Enonciation*) على هذا الغرض نفسه اسم «الكفاءة الثقافية والأيديولوجيّة». وسنمتثلُ في هذا الصدد للاستعمال المصطلحيّ الذي تمّ تعميمه في السنوات الأخيرة الماضية ـ على الرّغم من الإبهامات التي يحملها مصطلح «الموسوعة» («encyclopédie») في حناياه، فمثلاً: أثناء محاضرةٍ ألقيتُها مؤخّراً في اللّوكسمبورغ (Luxembourg) أمام جمهورٍ من المترجمين والمترجمين الفوريّين في المجموعة الأوروبية الاقتصادية (.C.E.E)، وبما أنّني كنت قد تطرّقت في الحديث إلى الأهميّة التي تكتسبها هذه الكفاءة (والتي تشتمل من وجهة نظرنا على مجمل المعلومات مهما كانت بدائيّةً ومبتذلةً، التي يمتلكها الأشخاص بشأن عالم التجربة («ع»)، قيل لي على سبيل الاعتراض عمّا تقدّمت به أنّه من غير الصائب أن نعتبر أنّ على المُترجم أن يكون «موسوعةً حيّةً» («encyclopédie vivante»)، وحتّى أنّ فائضاً من المعارف قد يكون مؤذياً. وإنّ سوء التفاهم هذا هو بوضوحٍ ذو طبيعةٍ مصطلحيّةٍ، إلاّ أنّه من العسير تبديده.

(التي يشتمل عليها النصّ والسياق الحاليّ للنصّ)، فإنَّ الكفاءة الموسوعيّة تمثُل باعتبارها خزّاناً رحباً يضمّ معلوماتٍ خارجيّةً تعبيريّةً أدائيّةً تتناول السياق، أو باعتبارها مجموعة معارف ومعتقدات، ونظام تمثيلات العالم المرجعيّ وتأويلاته وتقويماته، ونطلق عليها، تبعاً للظروف، اسم «بديهيّات الاعتقاد» («axiomes de croyances») و«المعارف الإدراكيّة» («bagage cognitif») و«المعلومات المُسبقة» («informations préalables») و«المعلومة المُسترقة» («information en coulisse») (بحسب زولكوفسكيج (Zolkovskij))، و«المسلَّمات الصامتة» («postulats silencieux») (بحسب كورزيبسكي (Korzybski))، و«تجمُّع الافتراضات» («complexe de présupposés») (بحسب شميدت (Schmidt))، و«النظام الإدراكيّ الأساسيّ» («système cognitif de base») (بحسب فلاهولت (Flahault))، و«المعلومة الخلفيَّة» («background information») (بحسب سيرل ونوردمن (Noordman))، و«الفرضيّات السياقيّة المُسبقة» («assomptions contextuelles préalables») (بحسب سيرل)، و«عالم الفرضيّة» («univers d'assomption») (بحسب مارتن وراستيه (Rastier))، أو أيضاً «الآراء المألوفة» («topoi») (بحسب دوكرو وسواه). علماً بأنّه يتمّ تحفيز جزءٍ بسيطٍ منها فقط في طور عمليّات فكّ الترميز.

وتبعاً للحالات، تكون هذه المعلومات الموسوعيّة ذات الصّلة على الشّكل الآتي:

- عامّةً أو خاصّةً (بدرجاتٍ متفاوتةٍ)؛

- متعلِّقةً بالعالم (بشكلٍ عامٍّ أم خاصٍّ، فنتحدَّث بالتالي عن معلوماتٍ مقاميّة) أم بفاعلي فعل القول (بشكلٍ عامٍّ أم خاصٍّ، وهكذا تتدخَّل في عمليّة الترميز بعض «الصور» التي يختلقُها المتكلِّم عن نفسه وعن المُحاوِر، وتلك التي يُخال إليه أنَّ المُحاوِر يختلقُها عن المُحاوِر وعن المتكلِّم، ناهيك عن الصّور التي يختلقها المُحاوِر عن الصّور التي يختلقها المتكلِّم عن المُحاوِر أو عن نفسه...؛ وتقابلها على صعيد فكّ الترميز، الصور التي يختلقها المُحاوِر عن نفسه أو عن المتكلِّم، إلى آخره).

- حياديّةً أو تقويميّة، أي مجموعة المعلومات التقويميّة بشأن عالم التجربة «ع» (على غرار الأحكام التقويميّة التي تنقلها العبارات القِيَميّة أو «الأفكار العامّة» الجامدة في الأمثال السائرة والأقوال المأثورة، إلى آخره)،

والتي يتراوح الاعتراف بها من «الاعتراف الباطنيّ» إلى «الاعتراف الهامشيّ» تقريباً، وهي تؤلِّف ما نُطلق عليه اسم «كفاءة المتكلِّم الأيديوليوجيّة» التي تتَّصف، شأنها شأن كلّ مكوِّنات الكفاءة الموسوعيّة، بطبيعتها الخارجيّة الألسنيّة اللُّغويّة، وهي تتمتَّع بالقدرة على تحديد شتّى أنواع التصرُّفات الكلاميّة أو غير الكلاميّة؛ بيد أنَّها تندرج في الوقت عينه ضمن كفاءة الشخص الألسنيّة اللُّغويّة بغية «وسمها» بعددٍ من «العناصر الأيديولوجيّة» ذات الطبيعة المعجميّة، بل حتّى النحويّة أو الأسلوبيّة والتي تُشكِّل بمجملها «لغةً محكيّةً» خاصّةً (فعلى سبيل المثال، قد نتحدَّث عن «لغة الحزب الاشتراكيّ الفرنسيّ المحكيّة» أو عن أيّ إعدادٍ خطابيٍّ آخر).

● «يُجمِع عليها» المتكلِّمون المتفاعلون الذين تتقاطع كفاءاتهم الموسوعيّة بدرجاتٍ متفاوتةٍ من حيث قوَّتها، أو يختلفون بشأنها، فتبعاً لنمط الخطاب، يتمّ التشديد على اختلاف كفاءاتهم الموسوعيّة هذه (كما يحصل في «الحرب الكلاميّة» التي يُشكِّلها الخطاب الجدليّ) أو بالعكس على تماثُلها (كما في التبادلات المتواطئة التي تصلح خاصّةً لتأكيد توافقٍ مُقرَّرٍ سلفاً[4]. وبأيّ حالٍ، لا يتحقَّق التبادل الكلاميّ خارج إطار جدليّة التطابق والتباين، بحيثُ إنَّه ينشأ دائماً، ولا يشذُّ الخطاب الجدليّ نفسه عن هذه القاعدة، انطلاقاً من ما يُطلِقُ عليه لابوف اسم «المعرفة المُجمَع عليها» («savoir partagé»)، في حين يُسمِّيه بيرلمان (Perelman) بالـ «قاعدة» («base») (أي مجموعة الوقائع والحقائق والقرائن والقِيَم التي يَفترِضُ المتكلِّم أنَّ المستمعين إليه يعرفونها حقّ المعرفة أو أنَّهم يُسلِّمون بها)، ويُعدِّل في الوقت نفسه بطريقةٍ أو بأخرى المعارف والمواقف الخطابيّة التي يتَّخذها الأشخاص المتواجهون. ويُميِّز لابوف بين الوقائع التالية، تبعاً لمدى

(4) يُعطي إيزير (Wolfgang Iser, «La Fiction en effet: Eléments pour un modèle historico-fictionnel des textes littéraires,» *Poétique*, no. 39 (1979)) مَثَل المسرح الكرنفاليّ القَروسطيّ ومَثَل واقعيّة الاشتراكيّة اللّذَين تقوم «نيّتهما التواصليّة على مبدأ تكرار صحّة ما يعرفه الجمهور حقّ المعرفة على مسامعه» (ص 297؛ وكذلك يقول غومبريخت (Hans Ulrich Gumbrecht, «Persuader ceux qui pensent comme vous: Les Fonctions du discours épidéictique sur la mort de Marat,» *Poétique*, no. 39 (1979)), بشأن الخطاب الإشاريّ ولاسيّما خطاب الخطباء الثوريّين، ما يلي: «كان تطابق المعارف [. . .] بين الخطباء والُمستمعين، يُعدّ شرطاً شاملاً رسميّاً للتواصل السياسيّ. ويغدو التوافق الشرط التمهيديّ لتحقُّق الخطاب، بدلاً من أن يُشكّل الغرض الذي يرمي إليه هذا الخطاب» (ص 366).

اطّلاع المُرسِل (أ) و/أو المتلقّي (ب) عليها، ألا وهي: «الوقائع التي يعرفها أ» («A-events») و«الوقائع التي يعرفها ب» («B-events»)، فضلاً عن «الوقائع التي يعرفها أ وب كلاهما» («AB-events»). كما يعتبرُ أنَّ عدد هذا النوع الأخير من الوقائع يتزايد شيئاً فشيئاً وبتلازم في طور عمليّة التفاعل. ومع أنّنا نعتبر أنَّ هذا الجهر بالاعتقاد الإجماعيّ هو متفائلٌ إلى درجة المبالغة، ولا يُقيم وزناً لجمود الكفاءة الموسوعيّة (ولاسيّما الأيديولوجيّة) الجليّ، إلاّ أنّنا لا نستطيع أن ننكر طابع الممارسة الخطابيّة الديناميكيّ والتحويليّ، وبناءً عليه، واقع أنَّ «الموسوعات» الخاصّة بكلِّ شخصٍ تُشكّل مساحات قابلة للتطوُّر باستمرارٍ. مع أنّها تتغيَّر من شخصٍ إلى آخر بنسبٍ تفوق بشكلٍ ملموسٍ تلك التي تتناول الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة. وتتحمَّل بلا ريب هذه التفاوتات الموسوعيّة مسؤوليّة القسم الأكبر من الإخفاقات التواصليّة.

وللكفاءة الموسوعيّة تأثيرها على مختلف الصّعد، فهي تدخل أصلاً في عملية فكّ ترميز المحتويات البيّنة (على غرار رفع المُجانسة والتعدُّدية الدلاليّة وإنشاء علاقاتٍ مرجعيّةٍ رديفةٍ)؛ ولكنّها تتدخَّل على نحوٍ جليٍّ ومُكثَّفٍ أكثر بكثيرٍ في عمليّة فكّ ترميز المحتويات المُضمَرة، فغالباً ما يتعيَّن اللّجوء، بغية فكّ شيفرة المُضمَّن أو التلميح، إلى معرفةٍ خارجيّةٍ قوليّةٍ خاصّةٍ - ولا حاجة لضرب مثلٍ على ذلك نظراً إلى أنَّ الأمثلة لا تُحصى ولا تُعدّ في هذا الصدد، وإنَّ كفاءة القارئ الموسوعيّة كفيلةٌ بتولّي هذا الأمر. وكما رأينا سابقاً، يتعيَّن كذلك اللّجوء إلى هذه المعرفة الخارجيّة القوليّة الخاصّة بغية التحقُّق من وجود بعض المحسنات البيانيّة. وسنكتفي بالتذكير بمَثَل المحسن البيانيّ التخيُّليّ الذي غالباً ما يتمّ كشف النقاب عنه، كما سبق وذكرنا، على ضوء ما نعلمه عن العالم «الحقيقيّ» أو بالأحرى ما نخال أنَّ المتكلّم يعتقده عن هذا العالم، فمثلاً: حين يروي لنا كريستوف كولون (Christophe Colon) حكاياتٍ عن حوريّات البحر، يجب علينا ألاّ نعتبر أنّها تنطوي على محسنٍ بيانيٍّ، لأنَّ تودوروف يُحيطنا علماً بأنَّ كولون يعتقد فعلاً بوجود حوريّات البحر - وكذلك يؤكّد لوكا (Louca) في كتاب **أعماق البحار** (*Bas-Fonds*) للمؤلّف غوركي (Gorki)، ما يلي: «يوجَد الشيء إذا اعتقدنا أنّه موجود» («une chose existe si on croit qu'elle existe, voilà tout»).

يُبنى أيّ خطابٍ مهما يكن على قاعدة «مسلّماتٍ صامتةٍ» تكون مُخزَّنةً في

الكفاءة الموسوعيّة، ويتعيَّن على مَن يرغب في «فهم» القول أن يعيد بناءها لدى فكّ الترميز. ويُمكن تمثيل هذه المُسلَّمات على الصعيد الألسنيّ اللُّغويّ الانعكاسيّ باعتبارها جُمَيلاتٍ مُشابهةٍ من حيثُ الشَّكل لتلك التي تُمثِّل المحتويات القوليّة - ولكن شرط ألاّ يغيب عن ذهننا أنَّها غير متجانسةٍ من حيثُ وضعها، فبدلاً من أن تُشكِّل المتتالية الدالَّة ركيزةً لمثل هذه المعلومات، يُصار إلى جلبها من الخارج لكي تُمكّننا من تأويلها. ويقتضي بالتالي اللّجوء، في إطار وصف هذه «السلسلة التأويليّة» التي يتعيَّن إنتاجها، إلى نظام ترميزٍ من شأنه أن يُفرِّقَ بوضوح هذَين النمطَين من المعلومات الداخليّة (البيِّنة والمضمَرة) والخارجيّة (أي المُضمَرة بصورةٍ دائمةٍ[5])، على الشَّكل المُبيَّن أدناه:

المتتالية الدالَّة — جُمَيلاتٌ مُستخرجةٌ من الكفاءة الموسوعيّة

محتويات جُمَيليّة (والكلاميّة المنطوقة) المُدرجة، بشكلٍ بيِّنٍ أو مُضمَرٍ، في المتتالية — المحتوى الحرفيّ (حصفر) — الجُمَيلة الأولى (ج$_1$)

المحتوى الأوّل (ح$_1$) — الجُمَيلة الثانية (ج$_2$)

---

(5) وانطلاقاً من هذا الواقع، يكون مصطلح المعلومة «المُضمَرة» (أو «المُفترضة») مبهم المعالم، فهو يطبع تارةً وحدات موجودةً قبل القول («مبنيّة سلفاً»)، ويُميِّز طوراً وحدات يُنشئها بنفسه. ومن حيث المبدأ، سنستخدمه في هذا الصدد بمعناه الثاني. إلاّ أنّ الإشكاليّة تتعقّد نظراً إلى أنّه ابتداءً من اللحظة التي يتمّ فيها تجنيد المعلومة المُسبقة من أجل استخراج المعنى الذي ينطوي عليه القول، تغدو بدورها نوعاً من أنواع مكوّنات معنى هذا القول (الذي يكون قادراً في بعض الحالات على أن يُجدّد نشاطها، بل وحتّى على أن يحوِّلها، في حالة المحسن البيانيّ الإضماريّ، إلى محتوى أساسيّ).

أمّا بالنسبة إلى المعنى الأوّل لكلمة «عملية الافتراض» («présupposition»)، فهو ذلك الذي يُحدّده غوفمان (Erving Goffman, «Felicity's Condition,» *American Journal of Sociology*, no. 89 (Jul. 1983), p. 1),

على الشكل التالي: «يُمكن تحديد عملية الافتراض (أو الفرضيّة أو العلاقة التضمينيّة أو الخلفيّة الترقُّبية) بشكلٍ عامٍّ باعتبارها وضع الأمور الذي نُسلّم به جدلاً في مواصلة سير الفعل» - كأن تشرق الشمس غداً وأن أكونَ حيّاً أرزق، مثلاً، حين أقول إنّني «سأذهب غداً» («je partirai demain»).

أمّا بشأن الدور الجوهريّ الذي تضطلع به «الآراء المألوفة» و«الأفكار العامّة الشائعة» (وهي جُمَيلاتٌ «مُعترفٌ بها باطنيّاً» بدرجاتٍ متفاوتةٍ وذات طبيعةٍ أيديولوجيّة)، على الرّغم من أنّها غالباً ما تبقى مُضمَرةً، راجع: Oswald Ducrot, «Opérateurs argumentatifs et visée argumentative,» *Cahiers de linguistique française*, no. 5 (1983), et Jean-Claude Anscombre et Oswald Ducrot, *L'Argumentation dans la langue*, philosophie et langage (Bruxelles; Liège: P. Mardaga, 1983).

الجُمَيلة التي لا تُحصى (ج لا تحصى)		المحتوى الثاني (ح2)

المحتوى الذي لا يُحصى (ح لا يحصى)

وإليكم هذا المثل: تأمّل ويلسون وسبيربر[6]، في الأجوبة الثلاثة التالية التي يُمكن الإدلاء بها في معرض الردّ على السؤال التالي: «أترغب في شرب القهوة؟» («Prendrez-vous un café?»)، ألا وهي:

(1) «كلا، لا أريد أن أشرب القهوة» («Non, je n'en prendrai pas»): وهذا جوابٌ مباشرٌ وحرفيٌّ.

(2) «أنا لا أشرب مطلقاً المُنبِّهات» («Je ne prends jamais d'excitants»): حيثُ يُضاف إلى المحتوى الحرفيّ (ح صفر) استدلالٌ مُضمَّنٌ هو المحتوى الأوّل (ح1)، ومفاده: / لا أريد أن أشرب القهوة/ (/je ne prendrai pas de café/)، وهو ناتجٌ عن حسابٍ من النمط القياسيّ الذي تتولاّه «الكفاءة المنطقيّة»، وقوامه أن ندمج المحتوى الحرفيّ (ح صفر) مع المعلومة المُسبقة (م1)، ومفادها: / تندرِجُ القهوة في عداد المُنبِّهات/ (/le café est un excitant/). أو أيضاً الجواب الثالث والأخير التالي:

(3) «أنوي أن أخلد إلى النوم بعد حوالي الساعتَين» («Je veux dormir dans deux heures»): ولا يؤدِّي هذا الجواب دور الجواب المتكافئ إلاّ بشرط الإشارة هذه المرّة إلى جُمَيلةٍ بديلةٍ أولى (ج'1) من مثل: / تُسبِّب القهوة الأرق على مدى أكثر من ساعتَين كاملتَين إبّان شربها/ (/le café empêche de dormir pendant plus de deux heures consécutives de son absorption»).

وفي خضمّ عمليّات فكّ الترميز، تتآزر الكفاءتَان الألسنيّة اللُّغويّة والموسوعيّة بالتبادُل، ونشهد مدّاً وجزراً دائمَين بين المعلومات الداخليّة والخارجيّة، فمثلاً، يزَوِّد أحد المصطلحات «القِيَميّ من حيث الأصل» (والذي يتمّ تحديده باعتباره كذا بفضل معرفةٍ محض ألسنيّةٍ لغويّةٍ) المُحاوِر بمعلومةٍ عن كفاءة المتكلِّم الأيديولوجيّة، وتُخزَّن هذه المعلومة بدورها في كفاءة المُحاوِر

(6) Deirdre Wilson et Dan Sperber, «Remarques sur l'interprétation des énoncés selon Paul Grice,» *Communications*, no. 30 (1979), p. 86.

الموسوعيّة، فيتمكّن في مرحلةٍ تاليةٍ من إعادة استعمالها بغية تأويل إنتاجاتٍ أخرى تصدر على لسان المتكلِّم... ونستنتج بالتالي أنَّ الخطاب هو ممارسةٌ تستثمرُ المعارف المُسبقة، وتُشكِّل في الوقت نفسه معارفَ جديدةً لا تنضب.

3.4. الكفاءة المنطقيّة

هبْ مثلاً هذا القول الذي جاء دوكرو[7] على ذكره، ألا وهو:

جاء فلانٌ لزيارتي، إنّه إذاً في مأزقٍ («Un tel est venu me voir, il a donc des ennuis»).

قد نعتبر أنَّ هذا المثل يُنجِز ظاهرياً وبشكلٍ غير ناجزٍ البُنية القياسية الآتية:

1. الحدّ الأكبر: لا يزورني فلانٌ إلاّ حين يكون في مأزقٍ (أي عن مصلحةٍ) (Un tel ne vient me voir que lorsqu'il a des ennuis (donc par intérêt)).

2. المقدِّمة الصّغرى: والحال أنَّه قد أتى لزيارتي (Or un tel est venu me voir).

3. الخلاصة: إنّه إذاً في مأزقٍ (Donc, il a des ennuis).

من وجهة نظر الترميز، يكون الحدّ الأكبر الضمنيّ الذي يُرسي أسس التدليل المنطقيّ، مدوَّناً في كفاءة المتكلِّم الموسوعيّة مُتَّخِذاً شكل «المعلومة المُسبقة».

أمّا من وجهة نظر فكّ الترميز، فسيُعيد المُحاوِر بناء هذه الجُمَيلة (ودمجها في كفاءته الموسوعيّة الخاصّة في حال لم تكن واردةً فيها بعد، أي بكلام آخر، في حال لم يكن لها وضع المعلومة المُسبقة) بمساعدة ما سنسمِّيه «كفاءته المنطقيّة» (والتي يلجأ إليها المتكلِّم أيضاً بالطبع حين يبني تدليله المنطقيّ).

تضطلع هذه الكفاءة في إطار طرق العمل الكلاميّة بدورٍ جوهريٍّ (فمثلاً، يؤكِّد لاكوف[8] ما يلي: «إن شئنا أم أبينا، يجري السواد الأعظم من التدليلات

---

(7) Oswald Ducrot, *Dire et ne pas dire: Principes de sémantique linguistique*, collection savoir (Paris: Hermann, 1972), p. 7.

(8) George Lakoff, *Linguistique et logique naturelle = Linguistics and Natural Logic*, sémiosis; 2, traduit de l'anglais par Judith Milner et Joelle Sampy; présenté par Judith Milner (Paris: Klincksieck, 1976).

المنطقيّة المُنجزة حول العالم في إطار اللّغة الطبيعيّة. وبموازاة ذلك، تستخدم غالبيّة استعمالات الكلام الطبيعيّ تدليلاً منطقياً ما»). فضلاً عن أنّها تسمح بإنجاز عددٍ معيَّنٍ من العمليّات المتنوِّعة التي أوزِّعها بشكلٍ اعتباطيٍّ نوعاً ما على ثلاث فئاتٍ هي:

1.3.4. العمليّات التي تُحاكي عمليّات المنطق الصُّوري (أي بشكلٍ أساسيٍّ التدليل المنطقيّ ذي النمط القياسيّ):

1 ـ إنَّ القياسات المُطابقة للأصول هي عملةٌ نادرةٌ للغاية في الأقوال التي يتمّ إنتاجها في اللّغة «الطبيعيّة»، وينبثقُ عنها تحديداً أثرٌ «غير طبيعيّ». وإليكم المثلَين التاليَين:

المثل الأوَّل:

الشابّ: «لنتبادل القُبل، فأمامنا متّسعٌ من الوقت بعد، فلو كانوا هنا، كنّا سمعناهم. والحال أنّنا لا نسمع شيئاً البتّة. ممّا يعني بالتالي أنّهم ليسوا هنا»[9].

(LE JEUNE HOMME. - Embrassons-nous, il nous reste encore un peu de temps. S'ils étaient là, on les entendrait. Or, nous n'entendons rien. Donc ils ne sont pas là.)

المثل الثاني:

يسهل عليك تقبُّل الأمور، إن لم تعد تكنّ لي مشاعر الحبّ... ـ هذا صحيحٌ. ـ والحال أنَّ الأمور ليست بيسيرةٍ... ـ كلّا، ليست كذلك. ـ إذاً فأنت لا زلت تحبّني![10]

(Tout devient plus facile pour toi, si tu ne m'aimes plus... - C'est vrai. - Or les choses ne sont pas faciles... - Non, elles ne le sont pas. - C'est donc que tu m'aimes!)

وهما مثلان عن قياسَين بيِّنَين، حيثُ يُمكننا أن نفسِّر الأوَّل بمقتضى نيّةٍ هزليّةٍ ما، والثاني (الذي يُحدِثُ من جهةٍ أخرى، وعلى نحوٍ مخالفٍ للأصول

---

(9) Roland Dubillard, *Si Camille me voyait... Suivi de les crabes; ou, les hôtes chez les hôtes*, le manteau d'Arlequin ([Paris]: Gallimard, [1971]), p. 68.

(10) Serge Doubrovsky, *Un Amour de soi: Roman* ([Paris]: Hachette littérature générale, 1982), pp. 338-339.

بعض الشيء، قلباً للمصطلحات وانزلاقاً من الشرط الكافي إلى الشرط الضروريّ) بمقتضى فداحة الرهان البرهانيّ.

وفي المقابل، تُطالعنا القياسات الناقصة (أو «القياسات بمقدِّمةٍ واحدةٍ»[11] بشكلٍ ثابتٍ في الأقوال التي يتمُّ إنتاجها في اللُّغة «الطبيعيّة».

- قد يكون الحدّ الأكبر مُضمَراً فيها، على غرار:

لقد قُرِع جرس الباب مرَّتَين، لا بدّ أنَّه ساعي البريد («On a sonné deux fois, çà doit être le facteur»)، ونجد فيه ما يلي:

1. الحدّ الأكبر: يقرع ساعي البريد جرس الباب مرَّتَين، وهو مبدئيّاً الشخص الوحيد الذي يقوم بهذا الأمر (تتجلَّى خاصيّة البراهين «الطبيعيّة» التي تنمو في مجال الاحتماليّة، بواقع تشكيل الجُمَيلات المتلاعب بها المُثبَت في هذا الصدد).

2. المقدِّمة الصّغرى: (والحال أنَّ) جرس الباب قُرِع مرَّتَين.

3. الخلاصة: (إذاً) لا بدّ أنّه ساعي البريد.

- أو قد تكون المقدِّمة الصّغرى مُضمَرةً[12]، وهذا مثلٌ على ذلك:

بما أنَّني أحبُّك، فأنتَ تحبُّني على الرُّغم من كلّ شيءٍ

فأنتَ تحبّني إكراماً للحبّ الذي أكنُّه لك، إذاً ستحبّني إلى الأبد (من أغنيةٍ فرنسيّةٍ).

(C'est parce que je t'aime, que tu m'aimes quand même
Tu m'aimes pour mon amour, donc tu m'aimeras toujours).

حيثُ نجد ما يلي:

1. أنتَ تحبُّني إكراماً للحبّ الذي أكنُّه لك.

---

(11) وبالتالي، يتعينّ علينا في هذا الصدد أن نأخذ هذا المصطلح بالمعنى الذي يُطالعنا أصلاً في فلسفة أرسطو (Aristote) والذي أصبح ثابتاً بشكلٍ خاصّ وتمّ تعميمه على يد بوويس (Boèce) أوّلاً وبعده التقليد القروسطيّ.

(12) يُلاحظ بورسييه (Danièle Bourcier, «Information et signification en droit; Expérience d'une explicitation automatique de concepts,» *Langages*, no. 53 (mars 1979), p. 15), أنّ النصوص القانونيّة تنطوي على العديد من القياسات بمقدّمةٍ واحدةٍ من هذا النمط.

2. والحال أنّني سأحبّك ما حييت.
3. إذاً، فأنت ستحبّني إلى الأبد.
ـ أو أيضاً قد تكون الخلاصة مُضمَرةً، على غرار:
1. «تتجلّى أولى المسؤوليّات التي تُحمَّل للستالينيّة في الإمبرياليّة التي أثمرتها»[13] («La responsabilité principale du stalinisme, c'est l'impérialisme qui la porte»).

2. «والحال أنَّ التعدّيات على الحريّات في البلدان الاشتراكيّة هي من عواقب الستالينيّة»[14] («Or les atteintes aux libertés dans les pays socialistes sont des séquelles du stalinisme»).

3. وبالتالي، فمن وجهة نظر القائِل الوحيد الأوحد المُتمثِّل بالحزب الاشتراكيّ الفرنسيّ (إذ يترتَّب أيضاً على القياس لكي «يفعل فعله» أن يأخذ القائِل شخصيّاً مختلف مكوِّناته على عاتقه)، تحمَّل «الإمبرياليّة» (أي الولايات المتَّحدة الأمريكيّة وحلفاؤها) مسؤوليّة التعدّيات على الحريّات في البلدان الاشتراكيّة[15].

المتكلِّم: هل أنت غيورٌ؟
المخاطب: عندما أكون مغرماً فقط.
المتكلِّم: والآن، هل أنت غيور؟
المخاطب: كلّا![16]

(L_1. - Es-tu jaloux?
L_2. - Seulement quand je suis amoureux.
L_1. - Et maintenant, es-tu jaloux?
L_2. - Non!).

ـ قد يتألَّف القياس من الحدّ الأكبر + الخلاصة، على الشَّكل التالي:

---

(13) نقلاً عن جان إيلينشتاين (Jean Ellenstein).

(14) بحسب جان كانابا (Jean Kanapa).

(15) بحسب: Jean-Noël Darde, *Le Ministère de la vérité* (Paris: Editions du Seuil, 1984), p. 62.

(16) وإليكم مثلاً مماثلاً (مع أنّ المقدّمة الكبرى والصغرى تتسلسلان فيه تسلسلاً مباشراً ضمن المداخلة عينها)، ألا وهو: «[...] أثناء غيابك تبيّنَ لي أمرٌ ما. وهو أنّني أحبّ من الرجال مَن هم بمثل سنّي. أمّا أنتَ، فستبلغ الخمسين من عمرك عمّا قريب» (نقلاً عن: Doubrovsky, *Un Amour de soi: Roman*, p. 265: «En ton absence je ne suis aperçue d'une chose. J'aime les hommes de mon âge. Toi, tu auras bientôt cinquante ans».

المتكلِّم: أتودّ احتساء كوبٍ من المارتيني؟

المخاطب: أنا مُسلمٌ.

المتكلِّم: هل سبق لك أن جئتَ إلى هنا؟

المخاطب: أنا من أوربينو!

(L_1. - Vous voulez un verre de Martini?
L_2. - Je suis musulman.
L_1. - Tu es déjà venu ici?
L_2. - Je suis d'Urbino!).

1. عندما يكون المرء مُسلماً / ومن أوربينو، فهو يُحجِمُ عن شرب الكحول / وهو يعرف حكماً هذا المكان

2. والحال أنَّني مسلمٌ / وأنا من أوربينو.

3. إذاً. . .

وإليكم مثلاً إضافياً:

من دون زبدة تصبح الحياة رتيبةً بلا نكهةٍ. («Sans beurre, la vie manque de sel»)

1. يجب أن يكون للحياة نكهةٌ (أن يكون فيها إثارة أو نزوة).

2. والحال أنّه من دون زبدةٍ تصبح الحياة رتيبةً بلا نكهةٍ.

3. إذاً، كلوا الزبدة.

يُبنى عددٌ لا يُستهان به من الشعارات الإعلانيّة تبعاً لنموذج القياس بمقدِّمةٍ واحدةٍ هذا أو تبعاً للنموذج الذي يليه (أي إنَّها بكلام آخر تتألَّف من جُمَيلةٍ واحدةٍ فقط، في حين تكون الخلاصة على أيّ حالٍ ضمنيّةٍ[17].

- أو أيضاً قد يتألَّف القياس من المقدِّمة الصّغرى + الخلاصة، كما يلي:

(17) كثيرةٌ هي الأمثلة على ذلك، ونذكر منها مثلاً: «الكحول مُميتٌ» («l'alcool tue»)، و«يجعل مسحوق الغسيل «برسيل» الثياب أنصع بياضاً» («Persil lave plus blanc»)، و«إنّ المشروب الغازي كوكا كولا هو الأفضل لإرواء العطش» («Coca-Cola désaltère mieux») (ويمكننا مقارنة هذه العبارة بعبارة «اشربوا المشروب الغازي كوكا كولا» («Buvez Coca-Cola») التي تندرج في خانة الشعارات الإعلانيّة المباشرة أكثر والتي تُعلن الخلاصة بشكلٍ مباغتٍ من دون مقدّماتٍ، كما أنَّها ذات طبيعةٍ تقادميّةٍ).

تمضي الحياة برمشة عينٍ، وهي أقصر من أن نضيِّعها متَّشحين بأثواب الكآبة («La vie est trop courte pour s'habiller triste») .

1. تمضي الحياة برمشة عينٍ، وهي أقصر من أن...

2. والحال أنَّنا إن ارتدينا أزياءً من تصاميم نيومين (Newman)، فيعني ذلك أنَّنا نرتدي أثواباً «لا تمتّ للتعاسة بصلةٍ».

3. إذاً ارتدوا أزياءً من تصاميم نيومن.

ـ وأخيراً، نستطيع أن نعتبر أنَّ التأكيدات والإخبارات التي تنقصها البراهين (على الأقلّ تلك التي تفترِضُ طبيعيّاً أن يُصار إلى برهنتها) هي خلاصاتٌ تفتقرُ إلى المُقدِّمات المنطقيّة.

2 ـ من جملة حالات القياسات الناقصة التي أتينا على ذكرها للتوّ، سنمحِّص القياس التالي: يتَّخذ القول شكل «الجُمَيلة الأولى «ج» إذاً الجُمَيلة الثانية «د»» («p donc q»)، ولكنَّه يعجز «منطقيّاً» عن العمل ما لم نُعيد الجُمَيلة المُضمَرة «ض» إلى أصلها لأنَّها تخوِّلنا وحدها استنتاج الجُمَيلة الثانية «د».

يمكننا تعميم هذه الترسيمة على أنماطٍ أخرى من أدوات الرَّبط. وبما أنَّه من السابق لأوانه أن نتحدَّث عن القياس بكلّ ما للكلمة من معنى، تنتمي برأينا إلى التدليل المنطقيّ «الصُّوريّ الهامشيّ» جميع الحالات التي يتمّ فيها في الواقع إنجاز بُنية من النمط التالي: الجُمَيلة الأولى «ج» التي يربطها العنصر «ر» بالجُمَيلة الثانية «د» (p x q) (ويكون العنصر «ر» أحد الروابط المنطقيّة) بنيةً عُمقيّةً على الشَّكل التالي:

تستتبع الجُميلة الأولى ضمناً وذلك بفضل الجُمَيلة المُضمَرة «ض» وبمساعدة الرابط «ر»، الجُمَيلة الثانية «د» (p r x q)، بحيثُ لا تُعقِّب الجُمَيلة الثانية «د» تعقيباً مباشراً على الجُمَيلة الأولى «ج»، بل إنَّها تُعقِّب على الجُمَيلة المُضمَرة «ض» التي نستطيع بل ويتعيَّن علينا أن نستدلّ عليها انطلاقاً من الجُمَيلة الأولى «ج» بغية جعل تسلسل الكلام مُرضِياً.

قد تكون العلاقة التي يُعبِّر عنها العنصر الرابط «ر» من النمط المعطوف منطقيّاً أو السببيّ أو التفسيريّ أو الاستدراكيّ (وهذا مثلٌ على ذلك: «بيار لطيفٌ [والحال أنَّ الأشخاص اللُّطفاء هم عادةً محبوبون]، ومع ذلك فالجميع يكرهه» («Pierre est gentil [or les gens gentils sont en général aimés], pourtant tout le monde le déteste») ـ وتجدر الإشارة إلى أنَّ الحالة المُمثَّلة أفضل تمثيلٍ على ما

يبدو هي تلك التي يتساوى فيها العنصر الرابط «ر» مع الرابط «لكن» («mais»)، أو مع أيّ رابطٍ معادلٍ، وهذه بعض الأمثلة:

المثل الأوّل:

ليس من حبٍّ سعيد. ولكنَّ المسألة تتعلّق بالحبّ الذي يجمعنا نحن الاثنين

إذاً فلن تُكتب السعادة لحبِّنا.

(Il n'y a pas d'amour heureux. Mais c'est notre amour à tous deux donc le nôtre ne saurait l'être).

المثل الثاني:

لقد تعرَّفَ «فرو غلاتيرنيك». ولكنَّه ما زال مُصرّاً على الزواج بها

والحال أنّها كانت امرأةً يستحيل الاقتران بها

(Il avait vu Frau Glanternek, mais persistait néanmoins à l'épouser or elle n'était guère épousable).

المثل الثالث:

دنت جان من النافذة، لكنَّ المطر كان لا يزال ينهمر

لأنّها كانت تأمل أن يكون المطر قد توقَّف عن الهطول.

(Jeanne s'approcha de la fenêtre, mais la pluie ne cessait pas car elle espérait que la pluie avait cessé).

لقد اقتبسنا هذا المثل الأخير (المأخوذ من موباسان (Maupassant)) عن دوكرو[18]. وفي الواقع، جُلّ ما يسعنا فعله بشأن هذه النقطة أن ندعوكم لمراجعة مقالة دوكرو الآنفة الذكر التي تُحلّل بمنتهى الدقّة عدّة بنى من هذا النمط، كما أنّها تُبرهن بشكلٍ مُقنع للغاية أنّه غالباً ما يتعذّر تأويل صيغة «الجُمَيلة الأولى «ج» لكن الجُمَيلة الثانية «د»» (p mais q) ما لم يُعاد بناء الجُمَيلة «ض» المُضمَرة[19].

---

(18) سنذكر بشكلٍ عابرٍ أنّه يكون من العسير أحياناً، عندما تتعلّق المسألة بأقوالٍ تمّ إنتاجها في اللّغة الطبيعيّة، أن نُحدّد ما إذا كان يتعيّن من باب الأولويّة اعتبار المقدّمة المنطقيّة المُحققة بمثابة المقدّمة الكبرى أم المقدّمة الصّغرى.

(19) Oswald Ducrot, «Analyses pragmatiques,» *Communications*, no. 32 (1980).

راجع أيضاً: René Rivara, «Mais, le but anglais et les subordonnées de concesión,» *Sigma*, =no. 6 (1981);

ـ فضلاً عن الحالات التي نظرنا فيها سابقاً، قد نعتبر أنّ الاستدلالات التي يتمّ استخراجها بفضل تدليلٍ منطقيٍّ من النمط الحسابيّ تكون مُدرجةً أيضاً تحت هذا الباب، على غرار الأمثلة التالية:

المثل الأوّل: ـ كم تبلغ من العمر؟

ـ أنا من مواليد سنة 1936.

(« - Quel âge avez-vous?
- Je suis né en 1936»).

المثل الثاني: ـ كم بقي من الوقت؟

ـ إنّها الساعة الخامسة والثلث.

(« - Il reste combien de temps?
- Il est 5h 20»).

المثل الثالث: ما هي التَمَسرحيّة؟ إنّها المسرح محذوفٌ منه النصّ[20].

(/ المسرح، هو النصّ مُضافاً إليه التَمَسرحيّة/

= وبشأن طريقة عمل «الروابط التداوليّة التواصليّة» و«واسمات التفاعليّة» غير «لكن» («mais») (على غرار: «مع ذلـك» («quand même») و«إذاً» («donc») و«بـالمقـابـل» («par contre»)... إلـخ)، راجـع: Nina de Spengler, «Première approche des marqueurs d'interactivité,» *Cahiers de linguistique française*, no. 1 (1980),

(الذي يعتبر مثلاً أنّ «العناصر التفارقيّة» تسِم «وجود التعارض أو التضاد القائمَين على نحوٍ غير مباشرٍ بين العناصر المربوطة واحدها بالآخر، بل إنّها تسِم التعارض القائم إمّا بين الخلاصات التي يمكننا استنتاجها من هذه العناصر، أو بين عنصرٍ من هذه العناصر وخلاصة العنصر الآخر»)، فضلاً عن مقالاتٍ متنوّعة من مجـلـة *Cahiers de linguistique française* انـظـر: Jacques Moeschler et Nina de Spengler, «Quand même: De la concession à la réfutation,» *Cahiers de linguistique française*, no. 2 (1981); Anna Zénone, «Marqueurs de consécution: Le Cas de DONC,» *Cahiers de linguistique française*, no. 2 (1981); Anna Zénone, «La Consécution sans contradiction: Donc, par conséquent, alors, ainsi, aussi (I); Concession et consécution dans le discours,» *Cahiers de linguistique française*, no. 4 (1982), p. 115; Oswald Ducrot, *Cahiers de linguistique française*, no. 4 (1982), p. 114-115, et Jacques Moeschler, Nina de Spengler et Anna Zénone, *Cahiers de linguistique française*, no. 4 (1982), p. 176),

حيث نقرأ ما يلي: «سننطلق من المبدأ القائِل إنّ كلّ رابطٍ تداوليٍّ تواصليٍّ يُقحِم شكلاً من أشكال المُضمَر...، إلخ»).

(20) «Le Théâtre de Baudelaire,» dans: Roland Barthes, *Essais critiques*, collection «tel quel» (Paris: Editions du Seuil, [1964]), p. 41.

/ النصّ، هو المسرح محذوفاً منه التَمَسرحيّة/).

(«Qu'est-ce que la théâtralité? C'est le théâtre moins le texte.
/le théâtre, c'est le texte plus la théâtralité/
/le texte, c'est le théâtre moins la théâtralité/).

- لا بدّ لنا من التنويه بالمرونة القصوى التي تكتسبها غالبيّة التدليلات المنطقيّة ما إن تتحقَّق في اللّغة الطبيعيّة، مع أنَّ بيرلمان يصفها بِ «شبه المنطقيّة». وتزداد من بابٍ أولى هذه المرونة مرونةً حين تتعلَّق المسألة بالعمليّات التي سنلقي الضوء عليها في المقطعَين 2.3.4. و3.3.4.

كما سبق وذكرنا، لا تسلم دائماً التدليلات المنطقيّة «الطبيعيّة» من الحذف، ويتعذَّر علينا إرجاع التماسك النصيّ (مونولوجيّاً كان أو حواريّاً) إلى أصله، إلاّ من خلال إعادة بناء عددٍ معيَّنٍ من الجُمَيلات الضمنيّة. وتكون هذه الجُمَيلات:

- إمّا ملائمةً ومحتوى ما يعرفه المحاوِر أصلاً، ويقوم بتجنيده في سبيل تأويل تسلسل الكلام. وعليه، يكمن الأثر الذي يتأتّى عن القول في هذه الحالة في تجديد نشاط المحتوى الراكد في الكفاءة الموسوعيّة التي يتحلّى بها الشخص الذي يفكّ الترميز،

- أو أنَّها تتماشى ومحتوى يكون جديداً عليه. وبالتالي، يزيد هذا المحتوى الذي ينبثق بفضل بناء القول الداخليّ، عديد مخزون الوحدات التي تتألَّف منها كفاءة المُحاوِر الموسوعيّة.

- لقد تطرَّقنا في مرحلةٍ سابقةٍ بالحديث إلى ما يُسمَّى «بالخلاصة». بيد أنَّ هذا المُصطلح مُبهمٌ على نحوٍ خطير. ويجدر بنا في الواقع أن نُمَيِّز ثلاثة أنماط فئاتٍ من الجُمَيلات المُدوَّنة تدويناً بيِّناً أو مُضمَراً في القول، ألا وهي:

(1) ترتيب التتابع الخطّي على مستوى الظاهر النصيّ

(2) ترتيب «منطقيّ» مجرّد (المقدِّمة الكبرى - المقدِّمة الصّغرى - الخلاصة)

(3) ترتيبٌ من وجهة نظر تسلسل أحداث فكّ الترميز. ويتحقَّق هذا التسلسل إجمالاً بمقتضى الترتيب الأوَّل (1)، ولكنَّه يُتمَّم بإعادة بناء الجُمَيلة المُضمَرة التي ستؤدِّي من هذا المُنطلق (سواء كانت منطقيّاً مقدِّمةً كبرى أم صُغرى أم خلاصة) دور خلاصة التدليل المنطقيّ التأويليّ، وأحياناً دور خلاصة القول البرهانيّة الحقيقيّة (أي إنّها تضطلع بدور الجُمَيلة التي يتعيَّن بشكلٍ أساسيٍّ حمل المُحاوِر

على التسليم بها. ونستنتج بالتالي وجود المحسن البيانيّ الإضماريّ[21]. ومثلما يُشير كلّ من دوكرو[22] وفلاهولت[23]، إنَّ انعدام وجود التأكيد والإخبار المُضمَر بحدّ ذاته «يمنحه حضوراً من نمطٍ خاصّ»، فضلاً عن أنّه «يُبرزه بقوَّةٍ». ويُعزى سبب ذلك بلا ريب إلى أنّه يتطلَّب عملاً تأويليّاً أكبر من جانب المُحاوِر الذي يتعيَّن عليه أن يسبر أغوار النصّ بهدف نبشه، إذ غالباً ما تبأر الأقوال على محتويات النصّ المُضمَرة.

2.3.4. عمليّات «المنطق الطبيعيّ» المُحدَّدة أكثر

بات من غير الضروريّ في أيّامنا هذه ـ بفضل أعمال بيرلمان ودوكرو وغريس ومركز الأبحاث السيميائيّة في نوشاتيل (Centre de recherches sémiologiques de Neuchâtel)، وغيرهم العديد ـ أن نتمسَّك بفكرة أنَّ العلاقة التي تربط العمليّات «المنطقيّة» التي تنكبُّ اللّغات الطبيعيّة على دراستها بتلك التي يُنظِّمها المنطق الصُّوريّ ليست وثيقةً. ولسنا هنا بصدد وصف مجموعة الآليّات التي تُميِّز المنطق الطبيعيّ[24] وإيضاحها ولا حتّى طرحها. وأكثر ما نستطيع فعله هو التشديد، انطلاقاً من النموذج الذي تمدُّنا به بعض العمليّات المُثبتة على النحو الأمثل، على أهميّة الدور الذي تضطلع به مثل هذه العمليّات في عمليّة تكوُّن الاستدلالات.

1. استدلالات منبثقة بفضل إنشاء علاقات الفصل والوصل

تطالعنا في أساس تركيبة كلّ «تمثيلٍ خطابيٍّ مبسَّطٍ»، الأمور التالية: تشكيل فئةٍ أولى (ف$_1$) تضمُّ أغراضاً على قاعدة عددٍ معيَّنٍ من الخصائص المُشتركة، وتفصلها في الوقت عينه عن مجموعةٍ أخرى من الأغراض التي تُشكِّل بدورها الفئة الثانية (ف$_2$). وتنشأ بين الفئتَين الأولى والثانية علاقة تضادٍ حاسم تقريباً. وبالإضافة إلى ذلك، نقع عادةً على أحكامٍ قِيَميّة تسِمُ بعلامة زائد (+) أو ناقصٍ (−) هاتَين الفئتَين الموضوعتَين في كفتَي المِيزان.

---

(21) هذا هو على سبيل المثال وضع الشعارات الإعلانيّة التي أتينا على ذكرها سابقاً.

(22) Ducrot, *Dire et ne pas dire: Principes de sémantique linguistique*, p. 8.

(23) François Flahault, *La Parole intermédiaire*, psychologie, préf. de Roland Barthes (Paris: Editions du Seuil, 1978), p. 45.

(24) لا بدّ لنا من التذكير بأنّ هذه العبارة تدلّ إيجازاً على مجموعة الآليّات التي تطبع التدليلات المنطقية أو البرهنات المُنجزَة في إطار «اللّغة الطبيعيّة».

وقد ينتابنا شعورٌ بالسخط والقنوط إثر اكتشافنا أنّه يتعذّر على أيّ خطابٍ، مهما بذل من جهدٍ للتحايل على هذا النموذج المانويّ نوعاً ما، أن ينشأ خارج إطار قاعدةٍ مُبسَّطةٍ تبسيطاً شائناً، وقوامها أن نفصِلَ ونَصِلَ؛ أن نماثِلَ ونعارضَ؛ وأن نضعَ محور السينات والعيْنات والصّادات (x-y-z) في مقابل محور السينات والعيْنات والصّادات الأوّليّ (x'-y'-z')؛ أي أن نضع المحور الاستبداليّ الجيِّد في مقابل السيِّئ. وممّا لا شكّ فيه أنّ مجرّد التحدُّث عن ذلك يفي بالغرض.

لقد محّصنا في موضع آخر[25] الإشكاليّات التي يطرحها استعمال تقنيّات الفصل والوصل هذه، والاستفادات التي يضعها في متناولنا. وما يسترعي اهتمامنا في هذا الصدد، هو أنّها منبع عددٍ كبيرٍ من الاستدلالات، أبرزها:

1. تقنيات الوصل، طالما أنّنا نميل إلى توسيع التماثل القائم بين الأغراض التي يتمّ تشبيهها جزئيّاً ليطال خصائص أخرى غير تلك المنسوبة إليها بشكلٍ بيِّن. ويتحدَّث فرويد بهذا الشأن عن «التوحيد»[26] («unification») ويعمد إلى إبانة طريقة عمله مستعيناً بمثلَين مُقتبسَين عن هاين (Heine)، ألا وهما: «يُقسَّمُ عموماً سكّان مدينة غوتينجين إلى طلّابٍ وأساتذةٍ وغير مثقَّفين وماشية» («En général les habitants de Göttingen se divisent en étudiants, professeurs, philistins et bétail»)، ويُردف قائلاً أنّه عندما كان على مقاعد الدراسة «كان يُقاسي بالتساوي من حصص اللّغة اللاتينيّة وتصحيح الفروض والجغرافيا» («subi également le latin, les corrections et la géographie»). ونفهم في هذا المعرض ماهيّة التأثيرات الدلاليّة التي تنجمُ من البنية العطفيّة والتي تتجلّى على الشّكل الآتي: تُعلن هذه البنية بشكلٍ بيِّنٍ أنّ الأغراض الفلانيّة «أ» و«ب» و«ج» تتشاطرُ خاصيّةً أو أكثر يتمّ تحديدها في السياق الحاليّ للنصّ (وهي خاصيّة أنّها مصدر معاناةٍ لِهاين كما يبدو في المثل السابق، أو خاصيّة أنّها جاءت كما في عبارة «جاءت الأغراض الفلانيّة» («x, y et z sont venus»)، أو أنّها صفاتٌ تُطلق على المادّة نفسها، كأن نقول «هذا الغرض هو كذا وكذا وكيت» («cet objet est x, y et z»)

(25) Catherine Kerbrat-Orecchioni, «Argumentation et mauvaise foi,» *Linguistique et sémiologie*, no. 10 (1981).

(26) Sigmund Freud, *Le Mot d'esprit et ses rapports avec l'inconscient* = *Der Witz und seine Beziehung zun Unbewussten*, collection idées, traduit de l'allemand par Marie Bonaparte et le Dr M. [Marcel] Nathan ([Paris]: Gallimard, [1971]), pp. 99-100.

. . .، إلخ). أمّا ما تقوله عن صيغة المُضمَر، فحدِّث ولا حرَج، إذ إنَّها تقترح أنَّ هذه الكيانات المعطوفة تتشاطرُ خصائص أخرى غير تلك المذكورة بشكلٍ بيِّنٍ، وأنَّها تُعدّ في صفوف «الفئة» نفسها، وينبغي أن نساوي بينها بلا تمييزٍ[27].

- وإليكم بعض الأمثلة التي تتناول استدلالاتٍ مُضمَّنةً منوطةً بإقامة علاقة عطفٍ وبتأثيرات التقليد العفويّ الذي تؤمِّن له أرضاً خصبةً، على غرار:

● التأثير الأحادي الجانب، كما في الأمثلة التالية:

المثل الأوَّل: [. . .] كانت لاتزال راقدةً وهي في حالةٍ متقلِّبةٍ من الكآبة والوهن الجسديّ والمرض واستحواذ الفكرة المُتسلِّطة على أفكارها والتفاني[28].

(«[...] toujours couchée dans un état incertain de chagrin, de débilité physique, de maladie, d'idée fixe et de dévotion»).

المثل الثاني: أمسيةٌ يونانيةٌ أو أمسيةٌ أرجنتينيّةٌ أو أمسيةٌ مغربيّةٌ أو أمسيةٌ أرمنيّةٌ أو أمسيةٌ نسائيّةٌ.

(«Soirée grecque, soirée argentine, soirée maghrébine ou arménienne, soirée femme (*Lyon-poche*)).

المثل الثالث: أنتِ جميلةٌ ومُشرقةٌ ومثيرةٌ
وسحر عينَيكِ يسلب الألباب
وصدرك كاملٌ لا يشوبه عيب
وثغرك بمنتهى العذوبة
وضفائرك كستنائيّة فاتحة[29].

(«Tu es joli, lumineuse, excitante
Tes yeux sont émouvants
Tes nichons sont parfaits
Ta bouche est douce
Tes cheveux sont châtain clair).

يُحدِثُ أحد عناصر المتتالية التعداديّة لجهة محتواه التعيينيّ تأثير انقطاع

(27) يعكس واقع فكّ الترميز هذا بتماثلِ مبدأ الترميز الذي يقول بوجوب عدم حصر العطف بين أغراضٍ تنتمي إلى «الفئة الدلاليّة» عينها - مع أنّنا لا نفهم بوضوحٍ ما المقصود من هذا القول (مجموعة مُصطلَحاتٍ متجانسةٍ نسبيّاً على الصعيد التعيينيّ، ولاسيّما على الصعيد التضمينيّ).

(28) نقلاً عن بروست (Proust).

(29) مُقتبس عن جان لوك غودار (Jean-Luc Godard).

التشاكل الدلاليّ؛ وهكذا يُصار إلى استعادته على المستوى التضمينيّ حيثُ تغدو صفة «كستنائيّ فاتح» («châtain clair») نوعاً من أنواع عناصر التقويم، ويُمسي التفاني إحدى حالات الكآبة الاستحواذيّة والمرضيّة، وتُصبح مجموعة النساء إثنيّةً من نوعٍ خاصّ. ويؤدّي العطف دور المِحدَلة المُجنِّسَة التي تعادلُ بين التفاوتات الدلاليّةَ، وتُحِدُّ الدَّخيل وتسترعيه إلى نظام التشاكل الدلاليّ المُهَيمن.

ملاحظة: قد نقع على التأثير الأحاديّ الجانب داخل مجموعة العناصر المعطوفة حتّى لو لم يتجاوز عددها الاثنَين، وهذا مثلٌ على ذلك:

ممنوعٌ أن نبصق على الأرض وأن نتحدَّث باللّغة الخاصّة بمقاطعة البروتون الفرنسيّة («Il est interdit de cracher par terre et de parler Breton»).

وعليه، يُصار تبعاً لترتيب العناصر ولاسيّما تبعاً لطبيعة المحتويات الالتزاميّة - ففي ذهن المسؤولين عن هذه العبارة، تُشبَّه «اللّهجة الخاصّة» بمقاطعة البروتون الفرنسيّة لاشعوريّاً بالإفراز المُثير للاشمئزاز، وهذا التحليل أقرب إلى الواقع من التحليل المُعاكِس -، إلى تحديد المنحى الذي ينحوه التقليد العفويّ الدلاليّ).

- التأثير المُتبادَل، كما في المثل الآتي:

الشهوات الجسديّة نهايتها حزينةٌ، وللأسف، لم أترك واحدة إلاّ واختبرتها («La chair est triste, hélas, et j'ai lu tous les livres»).

يحثّنا عطف هاتَين الجُمَيلتَين الذي يُبرِزُه التناغم الموزون على استخلاص استدلالٍ مزدوجٍ، على الشكل المُبيّن أدناه:

/ لقد انغمستُ في الملذّات والشهوات الجسديّة/ (/je me suis livré à tous les plaisirs de la chair»)

/ وروحي حزينةٌ ومنهكةٌ/ (/mon esprit est triste et las/).

- ولا تنفردُ البنية العطفيّة في التعبير على مستوى الظاهر القوليّ عن وجود علاقةٍ منطقيّةٍ من النمط العطفيّ. ويُمكننا أن نمحِّص في هذا المعرض إشكاليّة التماثل (التشبيه والاستعارة) التي برهنّا في موضعٍ آخر[30]، أنّها تُنشئ عدداً مُعيّناً من طرق العمل الاستدلاليّة المنوطة بما نُطلق عليه اسم مبدأ التجاوز (principe

(30) Catherine Kerbrat-Orecchioni, «Des usages comiques de l'analogie. Comparaison et métaphore: Fonctionnement sémantique et pragmatique,» *Folia linguistica*, vol. 15, nos. 1-2 (1981).

(de débordement - أي بواقع أنَّ أيّ تماثلٍ مهما يكن يقترحُ أن تمتدَّ المُشابهة القائمة بين الغرض الأوّل (ع) والغرض الثاني (غ) إلى ما وراء الخصائص المذكورة بشكلٍ بيِّنٍ أو المُضمَّنة بوضوحٍ. ويُمكننا أن نُشير مجدَّداً (لأنَّنا سبق وتطرَّقنا إلى هذا الموضوع وعمدنا إلى فهرسته[31] في إطار لائحة «الأخطاء البرهانيّة المُنبثقة من تقنيّات الوصل») إلى الطريقة التي تقضي بضمّ غرَضين اثنين: (ع) و (غ)، على قاعدة علاقة تجاور مرجعيّ، وأن ننسبَ إلى الغرض الثاني مُسنداً إليه ما يكون شائناً، على أمل أن يرتدَّ على الغرض الأوّل الذي اتَّخذنا منه فريسةً للانقضاض عليها، وهذه بعض الأمثلة على ذلك:

المثل الأوّل: لقد التقيتَ نهار كذا بالسيِّد نويل فيلد.
واتَّضح أنَّ نويل فيلد هو عميلٌ أمريكيّ.
(لقد التقيتَ بعميلٍ أمريكيّ
أنتَ عميلٌ أمريكيّ).

(«Vous avez rencontré tel jour Noël Field.
Noël Field s'est révélé être un agent américain.
(Vous avez rencontré un agent américain.
Vous êtes un agent américain)»).

المثل الثاني: كان ميتران صديق فابر.
وقد ارتكب فابر خيانةً إنَّه خائنٌ (هذا هو جوهر الإسناد)
ميتران خائنٌ).

(«Mitterrand était l'ami de Fabre.
Fabre a trahi est un traître (essentialisation de la prédication)
(Mitterrand est un traître)»).

المثل الثالث: ثمّة العديد من الأسئلة المُقلِقَة التي لاتزال تفتقر إلى الأجوبة. وينطبق ذلك على موقف الحزب الاشتراكيّ الإيطاليّ وعن مآربه المُبيَّتة. وتُطرح، في روما بوجه الخصوص، التساؤلات بشأن الدور الذي يؤدِّيه المحامي جيانينو غيزو الذي يترافع عن الزعماء «الذائعي الصيت» الذين تعاقبوا على رئاسة «الألوية الحمراء»، وتجري الدعوى بحقّهم في إحدى محاكم تورين. وغالباً ما شاهدناه خلال الأيّام الأخيرة الماضية ناطقاً بنيات الإرهابيّين حتّى قبل أن يُفصِحَ هؤلاء عنها على الملأ. ويتَّضح أنّ هذا المحامي ينضوي في الحزب الاشتراكيّ

(31) Kerbrat-Orecchioni, «Argumentation et mauvaise foi,» p. 53.

الإيطاليّ، وهو مُقرَّبٌ من غراكسي، أمينُ عام هذا الحزب[32].

(Bien des questions troublantes restent posées. Ainsi de l'attitude du P.S.I. et de ses intentions. On s'interroge notamment, à Rome, sur le rôle exact que joue l'avocat Giannino Guiso, défenseur des chefs «historiques» des «Brigades rouges» dont le procès est en cours à Turin et qui s'est fait souvent ces temps-ci le porte-parole des intentions des terroristes avant même que ceux-ci n'aient fait connaître ces intentions. Il se trouve que cet avocat est au P.S.I., et proche de Graxi, le secrétaire général de ce parti),

زِد على أنّه يتمّ أحياناً استنتاج خلاصة «التدليل المنطقيّ» على نحوٍ بيِّنٍ، كما في حالة أندريه مارتي (André Marty) مثلاً، الذي بات يُعرف بحسب لغة الحزب الاشتراكيّ الفرنسيّ المحكيّة، منذ العام 1953، «الشرطيّ مارتي» («le policier Marty»)، ويُعزى سبب ذلك إلى «العلاقات التي لم تكن تنقطع بينه وبين شقيقه جان (Jean) الذي كان بدوره على علاقةٍ وثيقةٍ بمدير الشرطة».

2. نميلُ في المقابل، في حالة البُنية التقابليّة، إلى جعل التحديدات المُعاكِسة لتلك التي تُمَيِّز فئةً ما، ترتدُّ من فئةٍ إلى أخرى:

● الفِعْلُ الأحاديّ الجانب الذي يمارسه الغرض الثاني (غ) على الغرض الأوّل (ع)، كما يلي:

المثل الأوّل: تؤثِر على زوجها الهادئ، حبّ عشيقها المُعَذِّب[33] (Elle préfère à son mari paisible l'amour cruel de son amant)، حيث نجد:

الزوج	في مقابل	العشيق
الهادئ	في مقابل	المُعَذِّب
	في مقابل	الحبّ

/ لا يُحبِّها زوجها حقّاً/.

المثل الثاني: كم من الأشخاص قد ألّفوا المجلّد تلوَ الآخر من دون أن يذيع صيتهم بما يتناسب وموهبتهم؛ في حين كان كتابٌ واحدٌ كفيلاً بمنح السيِّد بودلير شهرةً هي، على الرُّغم من كونها قابلةً للأخذ والردّ، إلاّ أنّها حقيقيّةٌ بما لا يقبل الجدل[34] («Combien ont écrit de volumes sans parvenir à une

---

(32) مثلٌ مُقتبس عن: «Qui est derrière les Brigades rouges?,» *L'Humanité* (24 avril 1978).

(33) *Quid? Police* (1 nov. 1980).

(34) article «Baudelaire,» dans: Pierre Larousse, *Grand dictionnaire universel du XIXe siècle* ([s. l.: s. n., s. d.]).

renommée égale même à leur talent; un seul livre a suffi à M. Baudelaire pour lui faire acquérir une notoriété qui, bien qu'elle puisse être discutée, n'en est pas moins réelle).

ويتألَّف هذا الحُكم من جملتَين تُشكِّلان مصنَّفاً من قسمَين، ألا وهما:

(i) لقد ألَّف العديد من الأشخاص المجلَّد تلوَ الآخر، وكان بنتيجة ذلك أن حصلوا على شهرةٍ تقلّ شأناً عن موهبتهم («Beaucoup ont écrit des volumes avec pour conséquence que leur renommée est inférieure à leur talent»)

(ii) أمّا بودلير فقد كتبَ كتاباً واحداً فقط وقد اكتسب جرّاءه شهرةً هي قابلة للجدل ولكنَّها حقيقيّةً («Baudelaire a écrit un seul livre avec pour conséquence que sa renommée est discutable mais réelle»).

إنَّ هاتَين الجملتَين متوازيتان وفي حالة تضادٍ. بيد أنَّ التوازي والتعارض الدلاليّ هما غير ناجزَين. ونميل لدى إجراء «الحساب التأويليّ» إلى إتمام التناظر من خلال إعادة بناء الاستدلال الآتي:

/ تفوق شهرة بودلير موهبته، وبالتالي إنَّها شهرةٌ مُغتصبةٌ/ (/la renommée de Baudelaire est supérieure à son talent: elle est usurpée/)

وعليه تبرز الجُمَيلة الاعتراضيّة التالية:

على الرُّغم من كونها قابلةً للأخذ والردّ (bien qu'elle puisse être discutée)،

والتي من شأنها أن تُعزِّزَ بروز هذا الاستدلال بمظهر الإغراق، فليست هذه الشهرة قابلةً للجدل فحسب لا بل لا مُبرِّر لها إطلاقاً.

(ملاحظة: قد تكون المجموعة الإسناديّة البيِّنة التي تُمَيِّز أحد هذَين الغرَضَين - لا بل كليهما - بلا قيمةٍ، كما في إعلان المبادئ هذا الذي أُدلي به أثناء إحدى الندوات عن الألسنيّة، ألا وهو: «أنا لا أضع إطلاقاً شومسكي في الخانة نفسها التي ينتمي إليها بارت، لأنَّه عالمٌ ذو شأنٍ ورجلٌ وقورٌ للغاية. ولكن...» («Je ne mets pas du tout Chomsky dans la même catégorie que Barthes, c'est un grand savant et un homme extrêmement sérieux. Mais...»)

• الفِعْل المُتبادَل الذي يمارسه العنصر الأوَّل (ع) على العنصر الثاني (غ)، والعنصر الثاني (غ) على العنصر الأوَّل (ع)، وهذا مثلٌ على ذلك:

التقى توتو بأحد أصدقاء العائلة الذي تنبَّأ له بما يلي: «عندما تكبر ستصبح جميلاً كوالدتك وذكيّاً كوالدك». ولدى إيابه إلى المنزل، روى توتو لوالدَيه تلك الحادثة، قائلاً: «لقد التقيتُ بفلانٍ الذي قال لي بأنَّني سأغدو غبيّاً مثل والدتي وبشعاً كوالدي»[35] (Toto rencontre X, ami de la famille, qui lui prophétise: «Tu seras beau comme ta maman et intelligent comme ton papa». De retour chez lui, il rapporte l'épisode à ses parents: «J'ai rencontré X, qui m'a dit que je serais idiot comme ma maman et laid comme mon papa»).

وما هو أطرف بعد هو الحكاية التالية التي تَنسِبُ التصريح التالي إلى تايلران (Talleyrand)، وما من أحدٍ أدهى منه أو لسانه معسولٌ أكثر منه، ومفاده: «ها أنذا بين الجمال والذكاء» («Me voici entre la beauté et l'intelligence»)؛ وقد ردَّت إحدى السيِّدتَين المعنيَّتَين بهذا الإطراء المزدوج على ما تقدّم به قائلةً: «إنَّها المرَّة التي يُقال لي فيها إنَّني ذكيّةٌ!» («C'est bien la première fois qu'on me dit que je suis intelligente!»).

وأسوةً بالحالة السابقة وللأسباب عينها التي علَّلنا بها آنفاً والتي تزدوج بآليّةٍ سنتأمَّل فيها عمّا قريبٍ، غالباً ما تُضمِّن البُنية التالية:

يتَّصف الغرض الأوَّل (ع) بالصفة المعيّنة (ص) ويتَّصف الغرض الثاني (غ) بالصفة الأوَّليّة (ض) (x est p et y est p')،

وذلك حين تُجسِّد الصفتان الأولى (ص) والأوَّليّة (ض) ميزتَين متعارضتَين وأن يتطابق العطف المتعدِّد المعاني «الواو» («et») جرّاء ذلك مع علاقةٍ من النوع التفكيكيّ، ما يلي:

/ يتَّصف الغرض الأوَّل (ع) بعكس الصفة الأوَّليّة (عكس ض) ويتَّصف الغرض الثاني (غ) بعكس الصفة الأولى (عكس ص)/ (/x est non-p' et y est non-p).

---

(35) Violette Morin, «L'Histoire drôle,» *Communications*, no. 8 (1966), p. 104.

هذا هو الاستدلال الذي يستوقِفُ توتو عنده عندما يفسِّر بأسلوبه الشخصيّ لوالدَيه قول «الصديق»، وهو أيضاً ما تُعلِّق عليه إحدى الشخصيَّتَين الأنثويَّتين المعنيَّتَين في الجملة المنسوبة إلى تاليران ـ ولكن أيّهما؟ لا جَرَمَ بأنَّ الشخصيّة المقصودة هي تلك المخوَّلة أن تُشير إليها كلمة «جمال» («beauté»)، بمقتضى كناية التجريد. ممّا يُبرِّر عبارة «هذه المرّة الأولى التي. . .» («c'est bien la première fois que...»)، والذي يُرسي أُسس طرافة الحكاية والردّ. وهو ردٌّ ينمّ عن عقلٍ مُرهفٍ، لأنَّ الخطأ المُتصنَّع يفضح إبهام هذه العبارة التعيينيّ، فضلاً عن نذالة المُضمَّن المتوارية خلف ستار حرفيّة الحديث التقريظيّ؛ ولأنَّ هذا الردّ يُشكِّل بوجهٍ خاصٍّ مثلاً على «التناقض التداوليّ التواصليّ» القائم بين المحتوى المُضمَر في هذا المثل، ألا وهو: /يعتبرني الناس عادةً معدومة الذكاء/ (/on me considère d'ordinaire comme dénuée d'intelligence/)، وبين ما يُثبته فعل قوله ـ إذ على العكس تماماً تُبرهن نباهة هذا الردّ وملاءمته ذكاء الشخص الذي يُدلي به، فوحده الحكم المُسبق الذكوريّ يزعم أنَّ المرأة الجميلة هي حكماً غير ذكيّةٍ (فلنتخيَّل مثلاً أن يردّ الوحش (la bête)، بدلاً من الجميلة (la belle)، قائلاً: «إنَّها المرّة الأولى التي يُقال لي فيها إنَّني جميل» («C'est bien la première fois qu'on me dit que je suis belle»)، وهنا أيضاً نكون بصدد خطأٍ، متصنَّعاً كان أم لا؛ إلاَّ أنَّ هذا الردّ يكون خلواً من أيّ مفارقةٍ تداوليّةٍ تواصليّةٍ لأنَّ الوحش لم يُقِم الدليل على جماله؛ وبالتالي فإنَّه لا يُحدِث أيّ تأثيرٍ هزليٍّ مُشابهٍ).

2. «السلف علّة الخلف» («post hoc, ergo propter hoc»)

غالباً ما نميل، عندما نصوِّر واقعَين معطوفَين بموجب علاقة تعاقبٍ زمنيٍّ (أو حتّى علاقة وجودٍ مُشتركٍ)، إلى إنشاء علاقة علّة بالتبعة أو تبعة بالعلّة ذات طابع منطقيٍّ بينهما- وإنَّ هذا المبدأ الذي يُشير إليه ريكور[36]، على أثر فريجهة، مسؤولٌ عن عددٍ لا يُحصى من الاستدلالات. ويضربُ ريكور مثلاً على ذلك، ألا وهو: «بعد أن تنبّه نابوليون للخطر الداهم الذي يتهدّد جناحه الأيمن، تولّى شخصيّاً حراسته تصدِّياً لهجومات العدوّ» («Napoléon, qui s'aperçut du danger sur son flanc droit, disposa lui-même sa garde contre la position ennemie»).

(36) Paul Ricœur, *La Métaphore vive*, l'ordre philosophique (Paris: Seuil, [1975]), p. 117.

وتطرح الجملة «المركَّبة» كمقرَّرٍ أنَّ نابوليون تنبَّه... وتولّى[37]...؛ بيد أنّها «تقترح» أنَّ المناورة حصلت على أثر معرفة الخطر الداهم وبنتيجة هذه المعرفة. وباختصار، فقد شكّلت هذه المعرفة السبب الذي دفع نابليون لاتِّخاذ القرار بتنفيذ هذه المناورة. ولكن قد يكون هذا الاقتراح خاطئاً [...]»، لأنّه في الواقع ليس سوى مضمَّنٍ قريبٍ من الواقع، ولا يُخطئ ريكور في معاملته معاملة «التضمين».

نلاحظ دوماً وجود آليّة الانزلاق التأويليّ هذه في اللّغات الأمّ، كما أنّها:

1. تُميِّز كذلك كلّ البُنى النحويّة التي تُشير حرفيّاً إلى وجود علاقة مُماسّةٍ بين الواقعَين الأوّل (أ) والثاني (ب)، وتكون هذه العلاقة:

● إمّا علاقة تجاورٍ أو عطفٍ بواسطة حرف العطف «الواو» («et»)، كما في المثل التالي:

لن أصعد ما حييت مع ألفريد في السيّارة، فلا رغبة لي في مفارقة الحياة[38].

(«Jamais je ne monterai en voiture avec Alfred, je tiens à la vie, moi!»).

● أو توسُّعاً يتَّخذ شكل صلة الموصول التي تُعتبرُ عندئذٍ «جملةً تفسيريّة»، كما في المثل التي يضربه ريكور؛ أو أيضاً شكل التركيب التعبيريّ النعتيّ أو المصدر أو اسم الفاعل أو اسم المفعول، وإليكم هذا المثل:

فيغارو: [...] مُدركاً أنَّ أهل الأدب ليسوا في مدريد سوى زمرةٍ من الذئاب [...]؛ وإذ أنا ضَجِرٌ من الكتابة، ومنزعجٌ من نفسي، ومُشمئزٌّ من الآخرين، وغارقٌ في الديون وخالي الوفاض من المال؛ اقتنعتُ في نهاية المطاف بأنَّ مردود آلة الحلاقة النافع هو أفضل من أمجاد الريشة غير المُجدية؛ فرحلتُ عن مدريد[39].

(«FIGARO. - [...] Voyant à Madrid que la république des lettres était

---

(37) من وجهة نظر ريكور، يكون بالتالي محتوى صلة الموصول البَدَليّ مُقرَّراً - في حين أنّنا نعتبر أنّ المسألة هي بالأحرى مسألة محتوى مُفترَض (مع أنّنا أشرنا في وقتٍ سابقٍ إلى أنّ وضعها كان من وجهة النظر هذه إشكاليّاً).

(38) مثلٌ مُقتبس عن: Flahault, *La Parole intermédiaire*, p. 45.

(39) مُقتبسٌ عن المشهد الثاني من الفصل الأوّل من مسرحيّة **حلّاق مدينة سيفيّ** (*Le Barbier de Séville*) للكاتب المسرحيّ بومارشيه (Beaumarchais).

celle des loups [...]; fatigué d'écrire, ennuyé de moi, dégoûté des autres, abîmé de dettes et léger d'argent; à la fin convaincu que l'utile revenu du rasoir est préférable aux vains honneurs de la plume, j'ai quitté Madrid»).

2. وليس هذا الأسلوب حكراً على العلاقة السببيّة. وهكذا، إنَّ العلاقات المنطقيّة كافَّةً قابلةٌ لأن تُصاغ على طريقة المُضمَر، وإليكم هذَين المثلَين:

المثل الأوَّل: أندروماك: كنتُ أحبُّك [على الرُّغم من أنَّك كنتَ] مُبدِّلاً في حبِّك، فما بالك [لو كنتَ] مخلصاً؟[40].

(«ANDROMAQUE. - Je t'aimais [bien que tu fusses] inconstant, qu'aurais-je fait [si tu avais été] fidèle?»).

المثل الثاني: جيرونت: هل أنت رجلٌ نبيلٌ؟

دورانت: آه، إنَّها مُصادفةٌ مؤسفةٌ

كون السؤال صادرٌ عنك فهو يدعو للريبة.

[. . .]

جيرونت: وفي النقيصة التي أراك متمرِّغاً فيها

لم تعد بنظري نبيلاً، وهذه العبارة صادرةٌ عنِّي وأعنيها.

(«GÉRONTE. - Êtes-vous gentilhomme?
DORANTE. - Ah! Rencontre fâcheuse!
Étant sorti de vous, la chose est peu douteuse.
[...]
GÉRONTE. - [...] Et dans la lâcheté du vice où je te vois,
Tu n'es plus gentilhomme, étant sorti de moi»).

3. ويُثبت المثل الآنف الذكر[41] بوضوح ما يلي: لا شيء إطلاقاً يُشير ظاهريّاً إلى أنَّ اسمَي الفاعل (صادِر وصادرة «sorti») هذَين يكتسبان على التوالي وعكسيّاً، قيمةً سببيّةً وإضرابيّةً. وإليكم أيضاً على سبيل المثال هذه الفقرة من الكتاب الذي يحمل عنوان **حياة هنري برولار** (*La Vie d'Henri Brulard*)، ألا وهو: «قبِّلني يا هنري، قالت لي. ولكنّني لم أكن أرغب في فعل ذلك. غضبَت،

(40) نقلاً عن راسين (Racine).

(41) المُقتبس عن المشهد الثالث من الفصل الخامس من مسرحيّة **الكاذب** (*Menteur*).

فعضضتها عضّةً عنيفةً». Je ne voulais pas. «Embrasse-moi Henri, me dit-elle) (Elle se fâcha. Je mordis ferme». وبالتالي، في حال عمدنا لدى قراءة هذا المثل إلى إنشاء علاقة العلّة بالمعلول بين المحتويات الإسناديّة التي تُشير إليها الجُملتَين الثانية (2) والثالثة (3) وأخرى بين الجُملتَين الثالثة (3) والرابعة (4)، وليس مُطلقاً بين الجملتَين الأولى (1) والثانية (2)، نستنتج أنَّ الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة تكون غير ذات جدوى، فوحدها درايتنا بالحقائق «الاجتماعيّة» ووحدها معرفةٌ من النمط السيكولوجيّ (حيث إنَّ رفض «علاّن» من شأنه أن يُثير غضب «فلان»، ممّا قد يدفع علاّن إلى الأخذ بالثأر الذي قد يتَّخذ شكل عضَّةٍ عنيفةٍ)، وبكلامٍ آخر، تخوِّلنا كفاءتنا الموسوعيّة وحدها استخراج استدلالاتٍ من هذا القبيلَ ـ وتُساندها أحياناً الكفاءة «البلاغيّة التداوليّة التواصليّة»، كما في المثل التالي:

المدَّعي العام: أتعرف والتر غراينغر؟

أوسكار وايلد: نعم [. . .].

المدَّعي العام: هل سبق لك أن قبَّلته؟

أوسكار وايلد: يا إلهي، طبعاً لا. لقد كان فتى مُنفراً على نحوٍ غريبٍ. وكان مع الأسف قبيحاً للغاية. وكنتُ أرثي لحاله جرّاء ذلك.

المدَّعي العام: ألهذا السبب أحجمتَ عن تقبيله؟

أوسكار وايلد: آه، سيِّد كارسن، حضرتك تهينني باستمرارٍ.

المدَّعي العام: أتقول ذلك في معرض التأكيد على زعمك بأنَّك لم تُقدِم على تقبيله؟

أوسكار وايلد: هذا سؤالٌ سخيفٌ.

المدَّعي العام: هل تحجَّجت بذلك كعذرٍ لعدم تقبيلك الفتى؟

أوسكار وايلد: كلاّ على الإطلاق.

المدَّعي العام: ولمَ إذاً، يا سيِّدي، ذكرت أنَّ الفتى قبيحٌ للغاية؟

(«LE PROCUREUR. - Do you know Walter Grainger?
OSCAR WILDE. - Yes [...].

P. - Did you ever kiss him?

W. - Oh, dear no. He was a peculiarly plain boy. He was, unfortunately, extremely ugly. I pitted him for this.

P. - Was that the reason why you did not kiss him?

W. - Oh, Mr. Carson, you are pertinently insolent.

P. - Did you say that in support of your statement that you never kissed him?

W. - No. It is a childish question.

P. - Did you ever put that forward as a reason why you never kissed the boy?

W. - No at all.

P. - Why, sir, did you mention that this boy was extremely ugly?»)

وهلمّ جراً.. يتشبَّث المدَّعي العام برأيه مُعتبراً أنَّ ثمّة علاقةَ علّةٍ بالمعلول مُضمرةً تربط بين القولَين المتجاورَين اللذَين يُدلي بهما وايلد «اللّوطيّ»، ألا وهما: «لم أقبِّله يوماً» («je ne l'ai jamais embrassé»)، و«كان مُنفراً على نحوٍ غريبٍ» («il était particulièrement laid»)، في حين يبدو الارتباك جليّاً في إنكار وايلد المُثير للريبة. إذ، فضلاً عن إمكانيّة وجود هذه العلاقة السببيّة المرجعيّة، تتدخَّل «قاعدة الملاءمة» لتعزِّزَ بروزها، فما هو الدافع، كما يُعيد المدَّعي العام مراراً وتكراراً بصوابٍ، الذي يجعله يأتي على ذكر خاصيّة الفتى الجسديّة هذه، إن لم يكن بهدف تأييد تأكيده السابق (برعونةٍ، ويتنبَّه وايلد لذلك ولكن بعد فترةٍ قصيرةٍ) ومحاولة جعله قابلاً للتصديق؟

4. لا بدّ من الإشارة في هذا الصدد إلى أنَّ الاحتماليّة التأويليّة هي في مصلحة المدَّعي العام، في حين أنَّ سوء النيَّة يصبُّ ضدّ مصلحة المتَّهم. ولكن لا تكون الدلائل ـ الموسوعيّة، وعند الاقتضاء البلاغيّة ـ التي تسمح باستخراج استدلالٍ من هذا النمط، واضحةً ومُشارِكةً إلى هذا الحدّ دوماً. وبالموازاة، تبقى من هذا المنظور عدَّة متتاليات مُبهمةً، على غرار:

- المثل الأوَّل: بما أنَّكم تبدِّلون ملابسكم، بدِّلوا ساعتكم من مجموعة ساعات كيلتون! (Vous vous changez, changez de Kelton!)

فهل يعني هذا الشعار الإعلانيّ:

/كلّ مرّةٍ تبدِّلون فيها ملابسكم، بدِّلوا أيضاً ساعتكم/ (/chaque fois que vous vous changez, changez aussi de montre/)،

و/أو يعني ما يلي:

/بما أنّكم تبدّلون ملابسكم، لمَ لا تبدّلون أيضاً ساعتكم/ - وهذه الساعة هي بطبيعة الحال من مجموعة ساعات كيلتون؟ (/puisque vous changez de vêtement, pourquoi ne pas changer aussi de montre/ - cette montre étant bien entendu une Kelon?).

● المثل الثاني: المنطقة نابضةٌ بالحياة. إنَّ مصرف فرنسا موجودٌ هنا («La région vit. La B.N.P. est là»)، وعليه:

إنَّ العلاقة التي تربط بين هاتَين الجُمَيلتَين المتجاورتَين والتي يجدر بنا في هذا الصدد أن نُعيدها إلى أصلها، هي علاقةٌ سببيّةٌ حتماً. ولكن بأيّ اتّجاهٍ يترتّب توجيهها؟ أعلينا إضافة كلمة «إذاً» («donc») أم «حيثُ إنَّ» («parce que»)؟

5. تسمح نبرة الصوت على الصعيد الشفهيّ بتفريق هاتَين البُنيتَين إحداهما عن الأخرى. إلاّ أنّنا نصطدم عندئذٍ بإشكاليّةٍ أخرى، ألا وهي: في حال كانت نبرة الصوت مُمَيِّزةً بوضوح، ينتفي بالتالي التعبير المُضمَر عن العلاقة المنطقيّة، ولا يبقى وضعها هو هو تبعاً للتأمُّل في الخطاب الكلاميّ المُزمع نقله عبر تحقُّقها الشفهيّ أم الخطّي.

وتُطالعنا هنا بشكلٍ عابرٍ الإشكاليّة النظريّة الدقيقة ولكن المحوريّة التي أتينا على ذكرها في مستهلّ هذه الدراسة، ألا وهي: إلى متى يتعيَّن علينا اعتبار أنَّ المحتوى مصوغٌ على طريقة المُضمَر، ومتى نستطيع منحه وضع المحتوى البيِّن؟ وأين تمرّ بالضبط الحدود الفاصلة بين الصياغتَين المُضمَرة والبيِّنة؟ ولا تطال هذه الإشكاليّة حالة الخطابات الكلاميّة الشفهيّة وحدها (حيثُ تساورنا بوجهٍ خاصٍّ شكوكٌ حول قدرة الوحدات النغميّة على التفريق، فنتساءل مثلاً: هل ثمّة نبرةٌ خاصّةٌ «التبعيّة المُضمَرة» بشكلٍ عامٍّ، أم بهذا النمط من التبعية المُضمَرة أو ذاك بشكلٍ خاصٍّ؟). وهكذا، فقد يُصار على الصعيد الخطيّ إلى نقل علاقة العلَّة بالمعلول القائمة بين الجُمَيلة الأولى «ج» والجُمَيلة الأوّليّة «ج'» بواسطة العناصر الدالَّة التالية، من جملة أمورٍ أخرى، ألا وهي:

(1) الجُمَيلة الأولى «ج». الجُميلة الأوّليّة «ج'» (p. p')

(2) الجُمَيلة الأولى «ج» والجُمَيلة الأوّليّة «ج'» (p et p')

(3) الجُمَيلة الأولى «ج»، إذاً الجُمَيلة الأوّليّة «ج'» (p, alors p')

(4) الجُمَيلة الأولى «ج»: الجُمَيلة الأوَّليّة «ج'» (p : p')

(5) الجُمَيلة الأولى «ج» إذاً الجُمَيلة الأوَّليّة «ج'» .(p donc p')

تتمحور العلاقة في الصيغتَين الأولى (1) والثانية (2) حول صيغة المُضمَر بلا أدنى ريب (ولكن تَمثُل بادئ الأمر إشكاليّة معرفة ما إذا كانت هاتان البنيتان تُعبِّران حرفيّاً عن علاقة تزامنٍ أم تعاقبٍ، على غرار المثل التالي:

نام في هذا السرير كلّ من هنري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر - كم حُشِروا!،

(«Dans ce lit ont couché Henri IV, Louis XIII, Louis XIV et Louis XV - Qu'est-ce qu'ils ont dû être serrés!)

بالإضافة إلى معرفة ما إذا كانت هاتان القيمتان تراتبيَّتَين في اللّغة، وكيف يُصار في إطار الخطاب إلى انتقاء القيمة المناسبة).

أمّا في الصيغة الثالثة (3)، فتتصلّب العلاقة السببيّة نوعاً ما. ولكن باعتبار أنّه يُصار أحياناً إلى استعمال الظرف «حينئذٍ» (alors) للتعبير عن مجرّد علاقةٍ تزامنٍ، فبوسعنا أن نطرح طريقتَين مختلفتَين لمعالجته، ألا وهما: أوّلاً، إذا ما سلّمنا بتعدُّديته الدلاليّة في اللّغة، أي باعتباره يُعبّر في إطار الخطاب عن قيمةٍ زمنيّةٍ و/ أو سببيّةٍ، يتعيَّن بالتالي أن نعتبر القيمتَين كلتَيهما بيِّنتَين؛ وثانياً، في حال لم ننسب إليه في اللُّغة سوى القيمة الزمنيّة، تكتسب بالمقابل القيمة السببيّة التي غالباً ما ترتبط به بمقتضى مبدأ «السلف علّة الخلف»، وضع المحتوى المُضمَر؛

أمّا في الصيغة (4)، فيوضِّح الدالّ الطباعيّ العلاقة السببيّة التي يتعذَّر تحديد توجُّهها خارج إطار السياق، هبْ مثلاً هذَين المثلَين:

المثل الأوّل: أكعاب عاليّة: أعقاب ملويّة، في مقابل

أعقاب ملويّة: أكعاب عاليّة؛

(Talons hauts: chevilles tordues, vs
Chevilles tordues: talons hauts);

المثل الثاني: كانت ترتعد فرائصه من الخوف: أصبح لونه شاحباً، في مقابل

كانت ترتعد فرائصه من الخوف: كان رجال الشرطة قد شرعوا باللّكم

(Il avait peur: il était devenu tout pâle, vs
Il avait peur: les flics commençaient à cogner)

الأمر الذي نستطيع إبانته في هذا الصدد أيضاً بموجب طريقتَين (ولكنَّهما تختلفان اختلافاً طفيفاً، الثانية على الأقلّ، عن ما استوقفنا عنده في الصيغة الثالثة (3)، نظراً إلى أنَّ الحالة ليست مُطابقةً تماماً)، ألا وهما: إمّا أن نُسلِّم بأنَّ «النقطتَين» متعدِّدتا المعاني، أو أن نعتبر أنَّ هذا الدالّ يُشير بشكلٍ بيِّنٍ إلى علاقةٍ سببيّةٍ حياديّةٍ من حيث توجُّهه، ولا يُصار إلى تحديد هذه العلاقة إلاّ في إطار السياق حيث يتعذَّر تحقُّقها بالتالي إلاّ على نحوٍ مُضمَرٍ.

وفي المقابل، يُمكننا أن نقول من دون تردُّدٍ إنَّ العلاقة السببيّة تُبصر النور في الصيغة الخامسة (5) وفق صيغة البيِّن.

وبناءً عليه، فعبر مختلف أنواع المراحل المتوسِّطة التي يكون وضعها إشكاليّاً بدرجاتٍ مُتفاوتةٍ، نمرُّ من الصياغة المُضمَرة قطعاً إلى الصياغة البيِّنة بالتأكيد.

6. وأيّاً يكن تحديداً وضع الاستدلالات السببيّة، فمن المؤكَّد على أيّ حالٍ أنَّها كليّة الوجود في الخطاب بمُختلف أنواعه؛ وأنَّ عددها ناتجٌ أوَّلاً عن واقع أنَّ الشخص الذي يفكّ الترميز يسعى، كونه يلتمس التوصُّل إلى تماسك النصّ الذي ينتجه المُرسِل، إلى إعادة بناء هذا التماسك من خلال «إضافة» المزيد من هذه الاستدلالات السببيّة كلَّما دعت الحاجة؛ وثانياً عن واقع أنَّنا نفهم بشكلٍ أساسيٍّ التماسك الخطابيّ، في ثقافتنا على الأقلّ، بمقتضى إنشاء سلاسلَ سببيّةٍ بين الوقائع التعيينيّة. ويسود في ثقافتنا، كما يُنوِّه كلود ريشار[42] (Claude Richard)، عقب رينيه توم (René Thom)، ما يُسمَّى باللّغة الفرنسيّة بالباناتيسم (panaïtisme) التأويليّ، ويُعتبر الرابط السببيّ بمثابة وسيلة المعقوليّة بامتيازٍ؛ وثالثاً، عن واقع أنَّ المُرسِل قادرٌ أن يُفيد من ردَّة فعل فك الترميز هذه على النحو التالي: يُلاحظ المُرسِل عَرَضاً أنَّ علاقةَ مماسّةٍ (أي وجودٍ مُشتركٍ في المكان أو الزمان، وتعاقبٍ زمنيٍّ) تربط واقعاً ما بواقعٍ آخر؛ ويحرص تماماً ألاّ يُقيم بينهما بشكلٍ بيِّنٍ علاقةً منطقيّةً أيّاً تكن؛ بيد أنَّهُ يأمل أن يتولّى متلقّي الخطاب الكلاميّ الذي يكون شغله الشاغل (بحسب سبيربر) «توخّي الملاءمة القصوى» للقول الذي يُلقى على مسمعه، إعادتها إلى أصلها. وبالتالي، يُصيب

(42) Claude Richard, «Le Graal du référent,» *Fabula*, no. 2 (1983), pp. 15-16.

المُرسِل هدفَين برميةٍ واحدةٍ كونه يوحي سرّاً بتأويلٍ ما مع احتفاظه بإمكانيّة جحد مسؤوليّته عنه، إذا لَزِمَ الأمر، فمثلاً: أبلغ طبيب النساء السيّدة الحامل التي جاءته للمعاينة، بما يلي: «بعد الإجهاض قد لا تُرزقين بأولادٍ في المُستقبل» («Après votre avortement, peut-être que vous ne pourrez plus avoir d'enfant»). وإنَّ هذا القول لا يقبل النقاش على الصعيد الحرفيّ؛ ولكن ما هو قابلٌ أكثر للنقاش هو الواقع الذي تقترحه هذه الجملة بحيلةٍ، ومفاده أنَّ من مخاطر الإجهاض أن تغدو المرأة عاقراً...

تلك هي الطريقة التي يُشير جيرار ديليشيل (Gérard Delechelle) إلى تواترها في المقالات الصحفيّة، قائلاً: «يميل الصحافيّ - في تقرير الوقائع بالحدّ الأدنى - إلى تفضيل التقرير الزمنيّ الذي يتّسم بالحياديّة وأن يعهد إلى القارئ أو المُستمع أن يُضيفَ، إذا ارتأى ذلك مناسباً، تأويلاً سببيّاً ما إليه، فهل يعمد إلى فعل ذلك على سبيل احترام المُخاطب أم توخيّاً جانب الحيطة والحذر؟ ليست المسألة في هذا الصدد أيضاً سوى مسألة استراتيجيّةٍ خطابيّةٍ [...]»[43]. ويتحدَّث كارول[44] أيضاً عن هذه الطريقة من خلال تحليل المثل التالي المُقتبس عن حولِيَّة فيليب بوفار (Philippe Bouvard)، ألا وهو: «عندما وصلَتْ دلفين سيريغ إلى منزل ماكسيم، لم أعرفها، فالذكرى التي رسخت في مخيِّلتي عنها كانت صورة المرأة الشقراء الطويلة القامة ذات الشَّعر الأشقر الرماديّ، والمتكلِّفة بما فيه الكفاية. أمّا اليوم فلم تكن تسريحة شعرها متقنةً، وتراجعت أناقتها المعهودة إلى النصف، وبدت بالأحرى وكأنّها خارجةٌ من مشغل تطريق المعادن وليس من استوديو المُمثِّلين. أعليَّ أن أقرّ بأنَّها بعثت في قلبي الذعر؟ ليس فقط لأنَّني كنتُ أشتَبِهُ بأنَّها تنقل في سيَّارتها بعض الآلات الحادَّة التي ستستخدمها سيِّدات حركة تحرير النساء ذات يوم لفرض المساواة الجنسيّة الحقيقيّة علينا، ألا وهي: انعدام الفوارق الجسديّة [...]»[45] («Quand elle est arrivée chez Maxim's je ne l'ai pas reconnue. J'avais gardé de

(43) Gérard Deléchelle, «Antériorité, simultanéité, concomitance et causalité en Anglais,» *Tréma*, no. 8 (1983), p. 48.

(44) Michel Charolles, «Les Formes directes et indirectes de l'argumentation,» *Pratiques*, no. 28 (1980).

(45) المصدر نفسه، ص 28.

Delphine Seyrig le souvenir d'une grande blonde à la crinière platinée, assez sophistiquée. Aujourd'hui, coiffée à la diable et tirée à deux épingles seulement, elle a plutôt l'air de sortir d'un atelier d'emboutissage que de l'Actor's studio. Avouerai-je qu'elle m'a fait peur? Et pas seulement parce que je la soupçonne de transporter dans son véhicule quelques-uns de ces instruments tranchants avec lesquels les dames du M.L.F. nous imposeront un jour la véritable égalité sexuelle: celle de l'anatimie [...]») ، ويتجلّى تحليله للمثل الآنف الذكر على الشكل الآتي: «لا يقول الكاتب طبعاً أنّ سيريغ مناضلةٌ منذ عهدٍ حديثٍ في حركة تحرير النساء، وأنّها تغيَّرت منذ انضوائها إلى الحركة النسويّة وأنّ هذا الانضمام هو علّة التطوُّر المشؤوم الذي طرأ عليها [...]، فالبرهنة التي يوردها تقول ذلك وأكثر. ويرتكز التعرُّف عليها [...] على فكرة أنّ النصّ متماسكٌ، وكون مؤلِّفه منطقيّاً مع ذاته، فهو يُثير (بشكلٍ غير مباشرٍ كما سبق ورأينا) موضوع الانتساب إلى حركة تحرير النساء في الوقت عينه الذي يُحدِّثنا فيه عن تبدُّل مظهرها، وهو يقوم بذلك بدرايةٍ. وبالتالي، إنَّ الصِّلة التي تربط هذَين الواقعَين هي علاقة العلَّة بالمعلول».

هذه هي كذلك الطريقة التي تستثمرها وكالة الصحافة الأمريكيّة مُشيرةً إلى أنّه «قد تمّ إلقاء القبض على العميد سكالزون في حيّ دو مارسي الذي كان خلال الأشهر المنصرمة مسرحاً للعديد من الاعتداءات» («le brigadiste Scalzone a été arêté dans le quartier du Marsais, qui a été le théâtre de nombreux attentats ces derniers mois») ، ممّا دفع بيرتران لو جاندر (Bertrand Le Gendre) إلى التعليق على هذه الحادثة[46]، قائلاً: «فعلاً، يقع شارع شارل الخامس حيث كان يقطن السيِّد سكالزون على رمية حجرٍ من شارع لي روزيه. اقتفوا الأثر... وقد تدفعنا هذه المقاربة إلى التبسُّم في حال لم تكن تَعكِسُ الجوّ المحيط هذه الأيّام الأخيرة بمسألة النضال لمناهضة الإرهاب» («Effectivement, la rue Charles V, où M. Scalzone habitait, est à deux pas de la rue des Rosiers. Suivez la piste... Ce rapprochement ferait sourire s'il ne reflétait le climat entretenu ces derniers jours autour de la lutte anti-

---

(46) في: *Le Monde* (1 Sep. 1972), p. 7.

terroriste»). كما تلجأ إدارة جريدة *Libération* إلى هذا الأسلوب أيضاً مُعلِنةً ما يلي: لن تصدر المنشورات التي يعود تاريخها إلى نهار الثلاثاء الواقع فيه 2 حزيران/ يونيو. في الواقع، إنّ الجريدة اليوميّة هي ضحيّة إضراب أطلقه لدى ساعة الإقفال من دون أيّ إشعارٍ مُسبقٍ التجمُّع العمّالي العامّ (C.G.T.) في الفبركة [...]. وذلك أثناء انتشار العنوان على نطاقٍ واسعٍ، ولاسيّما في اليوم نفسه الذي فضحت فيه جريدة *Libération* قضيّة مدفن العِظام في خانشيلا (Khenchela) في الجزائر» («Les éditions datées du mercredi 2 juin ne paraîtront pas. Le quotidien est en effet victime d'une grève déclenchée sans préavis par la section C.G.T. de la fabrication, à l'heure du bouclage [...]. Et cela en pleine expansion du titre, et surtout le jour même où Libération revelait l'affaire du charnier de Khenchela en Algérie»)، وبالتالي اقتفوا الأثر... وقد أشرنا في مرحلةٍ سابقةٍ إلى وجود طريقة الإلماح هذه بشكلٍ مُكثَّفٍ، في الخطاب الستالينيّ والستالينيّ الجديد، وقوامها أن نوحي بأنّه «ليس من قبيل الصدفة المحض بلا ريب إنْ...» («ce n'est sans doute pas un hasard si...»). وقد حلَّلنا مثلاً يتناول طريقة عملٍ مُشابهةٍ ندين به هذه المرّة لريشة ميشال دروا. وبالتالي، أنّى جانبٍ اتَّخذنا في المضمار السياسيّ، تُطالعنا على ما يبدو الاستراتيجيّات البرهانيّة نفسها والحذق الخطابيّ هو هو.

3. الانزلاق من الشرط الكافي إلى الشرط الضروريّ

من وجهة نظر المنطق الصُوريّ، تُعلن البنية التالية «إذا تحقَّقت الجُمَيلة الأولى «ج»، إذاً تتحقَّق الجُمَيلة الثانية «د»» (Si p, alors q)، أنَّ الجُمَيلة الأولى «ج» هي الشرط الكافي لتحقُّق الجُمَيلة الثانية «د»، ويتمُّ التعبير عن هذا الشرط الكافي بواسطة البنية التالية «إذا تحقَّقت الجُمَيلة الأولى «ج»، إذاً تتحقَّق الجُمَيلة الثانية «د»» (Si p, alors q). ولكن تتَّسم اللّغات الطبيعيّة بأنّها أكثر تحرُّراً، كما أنَّ العلاقات القائمة بين العناصر الدالّة والمدلولات تكون فيها مُشارِكةً بقدرٍ أقلّ. إذ من الممكن مثلاً أن يتجلّى الشرط الكافي في اللّغة الفرنسيّة بواسطة أساليبَ غير أداة الشرط «إذا» (si) التي تستطيع أن تكتسب عدَّة قِيَم أخرى في اللّغة الفرنسيّة. وقد بيَّن دوكرو ذلك على أفضل وجهٍ[47] - ولاسيّما وأنَّ «قانون التكافؤ

---

(47) Oswald Ducrot: «L'Expression en français de la notion de condition suffisante,»

العكسيّ» القائِل بأنَّ البُنية التالية القاضية بأنَّ الجُمَيلة الأولى «ج» تستتبع ضمناً الجُمَيلة الثانية «د» (p = > q)، تؤدِّي بدورها إلى العبارة القائِلة بأنَّ عكس الجُمَيلة الثانية (عكس «د») تستتبع ضمناً عكس الجُمَيلة الأولى (عكس «ج») (non-q = > non-p)، يصعبُ تطبيقه على الأقوال الطبيعيّة، حيثُ يتطلَّب هذا القانون مهاراتٍ تحويليّةً فائقةً وخطِرةً فضلاً عن أنَّها «ناشزةٌ نوعاً ما» (ثمَّ يضربُ دوكرو[48] المثل الآتي: «إذا لم تتقن عملك، ستُلازم المنزل»، ويعني ذلك ضمناً «إذا لم تلازم المنزل، لن يكون عملك سيِّئاً» («Si tu travailles mal, tu restes à la maison» «Si tu restes à la maison, tu ne travailles pas mal»). وبالعكس، تصلح طوعاً أداة الشرط «إذا» (si) «الطبيعيّة» لعمليّةٍ لا يسمح بها المنطق الصُّوريّ، ألا وهي: الانزلاق من الشرط الكافي إلى الشرط الضروريّ، على غرار المثل التالي: «لنفترض مثلاً أنَّنا قلنا لولدٍ صغيرٍ ما يلي: إن لم تتقن عملك، ستلازم المنزل، وقد أتقن هذا الولد عمله بالفعل، وعلى الرُّغم من ذلك اعتزمنا على إبقائه في المنزل. سيشعر هذا الولد بأنَّه قد تمّ خداعه نوعاً ما. ويُعزى سبب ذلك إلى أنَّه أَوَّل الجملة باعتبارها تنطوي كذلك على المعنى القائِل بأنَّ أيّ عملٍ رديءٍ من جانبه كان ضروريّاً لإرغامه على مُلازمة المنزل».

وهذا ما سنوضِّحه على الشَّكل التالي: تُبيّن البنية التالية «إذا تحقَّقت الجُمَيلة الأولى «ج»، (إذاً) تتحقَّق الجُمَيلة الثانية «د»» («Si p, (alors) q»)

● بشكلٍ بيِّنٍ ما يلي: إنَّ الجُمَيلة الأولى «ج» هي الشرط الكافي لتحقُّق الجُمَيلة الثانية «د» (ومن المحال أن تكون الجُمَيلة الأولى «ج» صحيحةً والجُمَيلة الثانية «د» صحيحةً أيضاً في الوقت عينه)؛

● وبشكلٍ مُضمَرٍ، ما يلي: إنَّ الجُمَيلة الأولى «ج» هي أيضاً الشرط الضروريّ لتحقُّق الجُمَيلة الثانية «د» (فضلاً عن أنَّه من المحال أن تكون الجُمَيلة الأولى «ج» خاطئةً في حين تكون الجُمَيلة الثانية «د» صحيحةً) ـ وبكلامٍ آخر تنزعُ أداة الشرط «إذا» (si) إلى أن يتمّ تأويلها باعتبارها تعني «إذا وفقط إذا» («si et seulement si»).

Langue française, no. 12 (décembre 1971), et *Dire et ne pas dire: Principes de sémantique = linguistique*.

(48) Ducrot, «L'Expression en français de la notion de condition suffisante,» p. 62.

يُشير دوكرو بدقّةٍ إلى أنّ بعض العبارات تسمح بتجنُّب فهم أداة الشرط «إذا» (si) باعتبارها تدلُّ على الشرط الضروريّ والكافي، قائلاً: «إذا لم تتقن عملك، ستُلازم المنزل على أيّ حالٍ»[49] («Si tu travailles mal, en tout cas, tu resteras à la maison»). إلاّ أنَّ السياق التعبيريّ الأدائيّ قادرٌ أن يؤدّي الدور نفسه وأن يحول دون آليّة الانزلاق التأويليّ هذه، فمثلاً، لن يخطر ببال أحدٍ لدى قراءة التنبيه التالي في إحدى الحانات الصغيرة ومفاده «إذا كنت تودُّ إجراء مكالمةٍ هاتفيّةٍ، احتسِ كأساً من المشروب أوّلاً» («Si vous voulez téléphoner, consommez d'abord»)، أن يرى فيها إذناً لعدم احتساء المشروب إذا لم يكن يرغب في إجراء مكالمةٍ هاتفيّةٍ... ويجب على المرء أن يكون كولوش (Coluche) ليقع في الفخّ الذي ينمّ عن الكسل.والذي ينصبه استدلالٌ بعيدٌ كلّ البعد وبوضوح عن الواقع كالاستدلال الذي استخرجه، كما تروي الحكاية، من هذا تحذير والدته، ألا وهو: «خافت والدته أن يُصبح ولد سوءٍ. ورغبت في أن يتابع تحصيله العلميّ، وأن يُصبحَ إنساناً ذا شأنٍ، أي أن يحوز على الشهادة المتوسّطة. بيد أنّ أملها سيخيب، ففي عام 1957، حذّرته يوم الامتحان قائلةً: «إذا اقترفتَ ما يتجاوز الخمسة أخطاء في الإملاء، سترسبُ في الامتحان. ولشدّة خوفه، راقب نفسه جيّداً، وتيقّنَ أنّه لم يرتكب أكثر من خطأ واحدٍ. ومُغترّاً بنفسه مزهوّاً، أدركَ أنّه حاز على الشهادة واعتزمَ بالتالي عدم العودة بعد الظهر لمتابعة الامتحان»[50] («Sa mère a peur qu'il tourne mal. Elle veut qu'il poursuive ses études, qu'il devienne quelqu'un de bien, c'est-à-dire qu'il ait le certificat. Mais elle va être déçue. En 1957, le jour de l'examen, elle lui prévient: 'Si tu fais plus de cinq fautes à ta dictée, tu le rates'. Il a tellement peur qu'il se surveille parfaitement et sait ne pas avoir fait plus d'une faute. Fier et sure de lui, il sait qu'il a virtuellement le certif et décide donc de ne pas se rendre, l'après-midi, à la suite de l'examen».

الأمر الذي يُثبتُ أنَّ المسألة تتعلّق هنا (/إذ لم تقترف أكثر من خمسة أخطاء في الإملاء، ستنجح في الامتحان/ /si tu ne fais pas plus de cinq)

(49) المصدر نفسه، ص 63.

(50) Eric Bhat et Jean-Quentin Gérard, *Le Programme politique d'un mec nomme Coluche - Sa Vie son oeuvre* (Paris: Sire, 1981), p. 6.

fautes à ta dictée, tu réussis le certificat») باستدلالٍ مُضمَّنٍ قابلٍ للإبطال في السياق أو السياق الحاليّ للنصّ، وإنّنا نستخرجه على مسؤوليّتنا.

ولكن ما إن ينتفي وجود ما يُعاكِسه سرعان ما يكون جاهزاً للبروز، حسب ما يشتهي المتكلِّم، كما في الأمثلة التالية:

المثل الأوّل: إذا لم ترضَ تمام الرضا عن السائق، لا تترك له بقشيشاً («Si vous n'êtes pas totalement satisfait du chauffeur, ne lui donnez pas de pourboire»)

(الذي يؤوِّله المُحاوِر عندئذٍ باعتباره التماساً غير مباشرٍ، فيقول في سريرته: آه حسناً، ينبغي ترك البقشيش للسائق...)،

المثل الثاني: إذا دفعت ثمن الغرض الفلاني، تحصل معه مجّاناً على الغرض العلاّني («Si vous achetez x, vous obtenez y»)

(ويتمّ، بحسب بلوم وبريسون[51] (Blum et Brisson)، تأويل عددٍ كبيرٍ من الشعارات الإعلانيّة تبعاً لهذه الترسيمة التي «تُظهر بين السطور» المعنى التالي: «للحصول على الغرض العلاّني، ينبغي شراء الغرض الفلاني» («Pour avoir y, il faut x»)،

أو أيضاً حسب أهواء المُحاوِر، كما في المثل التالي:

لا ننوي نشر ما كتبته إلاّ إذا لخَّصتَه («Nous ne pensons pas vous publier si vous ne réduisez pas votre texte»)،

(وهي عبارةٌ غالباً ما يؤوِّلها السواد الأعظم من المؤلِّفين من باب الخطأ باعتبارها تعني بشكلٍ مُضمَرٍ أنَّ سرعان ما يختصرون المخطوطات التي ألَّفوها، حتّى يتمّ بلا أدنى شكٍّ قبولها...).

ونقع كذلك على آليّة الانزلاق من الشرط الكافي إلى الشرط الضروريّ هذه في تراكيب أخرى تتماهى من وجهة النظر هذه والبُنية الشرطيّة، وهذه بعض الأمثلة:

---

(51) Y. Blum et J. Brisson, «Implication et publicité,» *Langue française*, no. 12 (1971), p. 86.

المثل الأوّل: طازجةً، لا تلمع القهوة.

(ويعني ذلك ضمناً /إذا لم تكن طازجةً، فهي تلمع/).

(«Frais, le café ne brille pas
(/s'il n'est pas frais, il brille/»)).

المثل الثاني: من دون زبدةٍ، تصبح الحياة رتيبةً بلا نكهةٍ

(ويعني ذلك ضمناً /تُضفي الزبدة، مالحةً كانت أم لا، نكهةً على الحياة/).

(«Sans beurre, la vie n'a pas de sel
/sans beurre, salé ou non, elle en a/»).

المثل الثالث: ما دمتُ أربح، سأواصل لعب القمار («Tant que je gagne, je joue»)

(وهذا قولٌ مأثورٌ يتفوّه به المُقامر وينزع إلى تضمين المعنى التالي: /ما إنْ أبدأ بالخسارة، سأتوقّف عن المقامرة/ (/dès que je commence à perdre, je cesse de jouer/)، حتّى وإنْ لم يُصار على الدوام إلى العمل بهذا الاستدلال).

المثل الرابع: نظراً إلى أنَّ هذا الاجتماع غير رسميٍّ، سأسمح لنفسي ببعض فلتات اللِّسان ـ زد على أنّني أسوّغها لنفسي في مواضع أخرى أيضاً («Comme ce n'est pas une réunion officielle, je me permets des écarts de langage - que je me permets ailleurs aussi du reste»).

(وقد تلقَّف الحضور هذا التصريح الألسنيّ اللُّغويّ الانعكاسيّ بموجاتٍ من الضحك من شأنها التصديق على التناقض القائم بين الاستدلال المُضمَّن في مطلع الجملة والمحتوى الحرفيّ التصويبيّ الذي يتبعه).

يعزو دوكرو تكوُّن هذا الاستدلال إلى تدخُّل «قانون الشموليّة». وقد نرى فيه كذلك تأثيراً لقانون الإخباريّة، ففي حال كانت عبارة «إذا كان الطقس جميلاً، سأذهب للتنزُّه» («S'il fait beau, j'irai me promener») لا تعني أنّه في حال كان الطقس رديئاً لن أذهب للتنزُّه، فإنَّ القول يتبصَّر في إمكانية أنّني سأذهب للتنزّه مهما يكن من أمرٍ، وتكاد الجملة المُتبَعة أن تكون حشويّةً ـ كما في المثل السابق، حيثُ يُجرِّدُ إبطال المُضمَّن البند التبريريّ السابق من أيّ صحّةٍ، فضلاً عن هذا القول «البلجيكيّ» المأثور والجدّ معروفٍ، ألا وهو:

يتساقط الثلج في شهر تشرين الثاني/نوفمبر، ويحلّ عيد الميلاد في شهر

كانون الأوّل/ ديسمبر[52] («Neige en novembre, Noël en décembre»).

4. استدلالات منوطة ببُنيةٍ إسناديّةٍ ما من النمط التالي «يتَّصف العنصر الأوّل (ع) بصفةٍ معيَّنةٍ (ص)» («x est p») والتي يُمكن لها في بعض الظروف أن تُضمِّن ما يلي:

إمّا أنَّ العنصر الثاني (غ) يتَّصف بعكس الصفة المعيَّنة (عكس ص (y est non-p) (أي يتَّصف (ع) وحده الصفة (ص))

أم أنَّ (ع) يتَّصفِ (عكس ض) (x est non-p') (إي يتَّصف (ع) الصفة (ص) فقط)

(علماً بأنَّ (ع) و(غ) من جهةٍ، و(ص) و(ض) من جهةٍ أخرى، هما ثنائيّتَان من العناصر التي تُشكِّل جزءاً لا يتجزَّأ من المحور الاستبداليّ نفسه الذي يتمُّ تحديده في السياق أو السياق الحاليّ للنصّ، كما أنَّ عبارة «أن نتَّصف بالصفة (ص)» («être p») تُمثِّل في البُنية العُمقيَّة نوعاً من أنواع المُسند إليه الكلاميّ).

1. «يتَّصف (ع) بالصفة (ص)»، ويعني ذلك ضمناً يتَّصف (غ) (عكس ص) («x est p» y est non-p»)، وهذه بعض الأمثلة:

● المثل الأوَّل: ـ ما رأيك بفيلم «شانيل الوحيد»؟

- أعتقد أنَّ ماري فرانس بيزيه فائقةُ الجمال، وأنَّ الأثواب الرجاليّة كانت جيِّدةً جدّاً [ويعني ذلك ضمناً / أمّا بالنسبة إلى الأثواب النسائيّة، فهذه مسألة أخرى مختلفةٌ...][53]

(- Que pensez-vous du film Chanel Solitaire?

- Je pense que Marie-France Pizier est très jolie, et que les costumes masculins sont très bien [/mais quant à ceux des femmes, c'est une autre affaire.../])

● المثل الثاني: لقد أعلن أرباب العمل للتوّ إدانتهم لبرنامج اليسار

---

(52) إنّه قولٌ مأثورٌ مُضاعف الغباء، ففي حال تشبّثنا بتأويله بمقتضى الشرط الكافي، يُصبح من البديهيّات؛ أمّا في حال سعينا إلى تأويله من زاوية الشرط الضروريّ، يغدو حقيقةً مُعاكِسةً، إذ إنّ الجُمَيلة الأولى «ج» ليست مُطلقاً في هذا الصدد شرطاً لتحقُّق الجُمَيلة الثانية «د» الحقيقيّة حُكماً ـ مع أنّ نبرة الجملة (التبعيّة المُضمرة)، مُضافاً إليها ذكرى الأقوال المأثورة التي يكزُّها هذا المثل بطريقةٍ ميكانيكيّةٍ (مثلاً: «نُمضي عيد الميلاد على الشُّرفة، وعيد الفصح قرب الموقدة» (Noël au balcon, Pâques au tisons)...، إلخ) تجعلنا نترقَّب ذلك.

(53) نقلاً عن إدموند شارل رو، من مؤتمرٍ عُقد في الـ Maison française في جامعة كولومبيا، نهار الحادي عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1981.

الاقتصاديّ ـ ممّا يعني بشكلٍ مُضمرٍ أنّهم يُحابون ترشيح السيّد جيسكار ديستان [إذ تعني عبارة «أنا أدين برنامج اليسار» ضمناً ما يلي: / أنا لا أدين برنامج اليمين/].

(«Le patronat vient de déclarer qu'il condamnait le programme de la gauche - ce qui signifie implicitement qu'il est favorable à la candidature de M. Giscard d'Estaing [«le programme de la gauche est condamné par moi» /le programme de la droite ne l'est pas/]»).

● وإليكم هذه المقابلة التي جمعت بين أحد المتقدِّمين لامتحان الدخول في المدرسة الوطنيّة للإدارة (.E.N.A) ومُمتحنيه(54)، كما يلي:

ـ ما هي المواضيع التي تهوى مطالعتها؟

ـ أطالع من الرسوم الهزليّة إلى الروايات البوليسيّة، مروراً بالأبحاث... وقد قرأتُ مؤخَّراً كتاباً لجاك أتّالي...

ـ ماذا تنشد من الرسوم الهزليّة؟

ـ التسلية والترفيه...

ـ إذاً فمن وجهة نظرك، إنَّ الروايات البوليسيّة والأبحاث تتنافى والتسلية والترفيه...

(- Que lisez-vous?

- De la bande dessinée au roman policier, en passant par les essais... Je viens de lire un livre de Jacques Attali...

- Qu'attendez-vous de la bande dessinée?

- Le divertissement...

- Donc vous excluez que les romans policiers et les essais puissent vous divertir...)

وقد علَّق ج. حسّون على ذلك قائلاً: «هذا هو فخّ المنطق الذي ينصبه المُمتَحِن بلا ريب بقصد قياس مهارة المتقدِّم للامتحان الجدليّة». ولكن في حال وُجِدَ المنطق هنا، فهو منطقٌ «طبيعيّ» من الطراز الأوّل، إذ لا يسمح لنا أيّ مبدأ من مبادئ المنطق الصُّوريّ بأن نستخرج من عبارة «يتَّصف (ع) بالصِّفة (ص)» («x est p») (أي إنَّ الرسوم الهزليّة مُسلِّيةٌ وترفيهيّةٌ («la B. D. c'est

---

(54) وهو مثلٌ مُقتبسٌ عن: J. - P. Hassoun, *Le Monde dimanche* (23 mars 1980), p. IV.

(«divertissant»)، الاستدلال التالي «يتَّصف (غ) بِ (عكس ص)» («y est non-p») (أي إنَّ الروايات البوليسيّة والأبحاث تتنافى والتسلية والترفيه «les romans policiers et les essais ne le sont pas»)، ونستنتج ما يلي: يترتَّب علينا أن نعزو سبب ظهور الاستدلالات السابقة بل حتّى اللاّحقة أيضاً، إلى تدخُّل قانون الشموليّة على نحوٍ «بلاغيٍّ» تماماً.

2. يتَّصف (ع) بالصِّفة (ص)، ويعني ذلك ضمناً /يتَّصف (ع) بِ (عكس ض)/ (/x est p /x est non-p'/)، إذ:

● كما يقول موسّيه، يكون الباب إمّا مُقفلاً أم مفتوحاً («Il faut qu'une porte soit ouverte ou fermée)، وإليكم هذا المثل:

المركيزة: [. . .] عندما يقول المرء أنَّه يكون في المنزل يوم الثلاثاء، فمن الواضح أنَّه يرمي من وراء ذلك أن يقول: دعوني بسلام باقي أيّام الأسبوع

(LA MARQUISE. - [...] quand on dit: Je suis chez moi le mardi, il est clair que c'est comme si on disait: Le reste du temps, laissez-moi tranquille)

(وفي الواقع، تُضمِّن عبارة «أكون في منزلي يوم الثلاثاء» («Je suis chez moi le mardi») بمقتضى قانون الملاءمة، ما يلي: /يُمكنكم المجيء لزيارتي يوم الثلاثاء/ (/vous pouvez venir me voir le mardi/) التي تُضمِّن بدورها بمقتضى قانون الشموليّة ما يلي: /لا يسعكم المجيء لزيارتي إلاّ يوم الثلاثاء، ولا يسعكم المجيء لزيارتي باقي أيّام الأسبوع/ (/vous ne pouvez venir me voir que le mardi, vous ne pouvez pas venir me voir les autres jours/).

ولاحقاً، تقترفُ المركيزة مُجدَّداً الخطأ نفسه، ولكنَّها تلجأ هذه المرّة إلى تعابير دَمِثةٍ أكثر، فتقول ما يلي:

إذا قلتُ لك إنَّك تُضجرني هذا الصباح، فهذا يعني أنَّني لم أتعوَّد منك على ذلك («Si je vous ai dit que vous m'ennuyer ce matin, c'est que ce n'est pas une habitude»).

وبعد أن وضَّحت للكونت طوراً بعد طور وبشكلٍ جليٍّ قاعدة اللّعبة الدلاليّة التي تُرسي أسس طريقة عمل المُضمَّنات، وضعتها حيِّز التنفيذ على حساب السيِّد كامو (Camus) الذي تقدَّم منها طالباً يدها للزواج، قائلةً:

أنا أرملةٌ، وهو صبيٌّ؛ أجده ممتازاً عندما يتصرَّف بتأنٍّ («Je suis veuve, et il est garçon; il est très bien quand il a des gants»).

● ولكن لا يكون دائماً تطبيق هذه القاعدة بهذا القدر من «الوضوح» الذي

تدّعيه المركيزة، ويظهر ذلك في المثل التالي:

هو (شخصيّةٌ يُجسّدها فيرنانديل، العاشق المُتيَّم «بامرأةٍ متحجِّرة القلب» والذي ترتعد فرائصه أمامها): كم أنتِ جميلةٌ اليوم!

هي: أشكرك على باقي الأيّام![55]

(LUI (personnage incarné par Fernandel, amoureux transi d'une «cruelle»). - Comme vous êtes jolie aujourd'hui!

ELLE. - Merci pour les autres jours!).

فهل تُضمّن فعلاً عبارة «أنتِ جميلةٌ-اليوم» («Vous êtes jolie-aujourd'hui») المعنى التالي «أنتِ غير(جميلةٍ-في-الأيّام-الباقية)» («Vous êtes non(jolie-les-autres-jours»)؟ صحيحٌ أنّه بمقتضى قانون الشموليّة، تنزع التوسُّعات الإسناديّة إلى اكتساب قيمةٍ تقليصيّةٍ[56]؛ وإلى اقتراح أنَّ المُسند إليه المطروح لا يُطبَّق على الأغراض الأخرى التي تنتمي إلى المحور الاستبداليّ نفسه، لا بل حتّى إنَّ المُسند إليه المُعاكِس قادرٌ، في المقابل، أن يُطبَّق عليها؛ وأنَّ الغرض المطروح كونه يملك الصِّفة (ص)، فهو بالتالي لا يتمتَّع بالخصائص التي تربطها علاقةٌ تباينيّةٌ[57] بالصِّفة (ص). وتكون هذه «النزعة» كفيلةٌ باستخراج عددٍ لا يُستهان به من الاستدلالات، على غرار:

---

(55) مثل مأخوذ عن كريستيان جاك (Christian-Jacque)، **السيد لامبيون** (*Monsieur Lampion*).

(56) راجع المثل التالي الشبيه إلى أبعد حدّ بالمثل السابق، ألا وهو:

«ابتلعَ الشابّ اليافع كأسه الثانية وقال لطوماس:

- تبدو زوجتك غايةً في الجمال اليوم!

- يا لك من أحمق، أجابه الرئيس، إنّ السيدة تيريزا جميلةٌ دائماً.

- أعرف أنّها جميلةٌ على الدوام، أجاب الشاب اليافع، بيد أنّ الفستان الذي ترتديه اليوم يزيد جمالها جمالاً» (مثلٌ مأخوذٌ عن: Milan Kundera, *L'Insoutenable légèreté de l'être: Roman = Nesnesitelnà lehkost byti*, du monde entier, traduit du tchèque par François Kérel ([Paris]: Gallimard, 1984), p. 391).

(«Le jeune homme avala un deuxième verre et dit à Thomas:

Ta femme est fichtrement belle aujourd'hui!

Imbécile, dit le président, Madame Tereza est toujours belle.

-Je le sais qu'elle est toujours belle, dit le jeune homme, mais en plus aujourd'hui, elle a mis une jolie robe»).

(57) ولكنّها ليست في حالة تضادٍ.

عندما نقول « يتَّصف العنصر الأوّل «ع» بالصفة المعيّنة «ص» («x est p»)، يعني ذلك ضمناً / لا يتّصف العنصر «ع» بالصفة الأوّليّة «ض»/ (/x est non p'/)، وأنّ هذا الانزلاق خاصٌّ بالمنطق الطبيعي، =

أنت تُضجرني هذا الصباح

ويعني ذلك ضمناً /ليس كما جرت العادة/

كم أنتِ جميلةٌ اليوم

الحرّ الشديد هنا، ويعني ذلك ضمناً /الوضع ليس كذلك في الخارج/

عيناه جميلتان، ويعني ذلك ضمناً /ليس الباقي مُلفتاً/ . . .، إلخ.

(Vous m'ennuyez ce matin
/pas comme d'habitude/

Vous êtes jolies aujourd'hui
Il fait chaud ici /ce n'est pas comme ailleurs/
Il a de beaux yeux /le reste n'est vraiment pas terrible/, etc.).

ولكن لا يتعدّى كونها مجرّد نزعةٍ، وثمّة حالاتٌ عديدةٌ يتّصف فيها تأويلٌ من هذا القبيل «بالتعسّفي» بشكلٍ جليٍّ. مثلما هو الحال مثلاً في المثل السابق ـ بحيثُ إنَّ «لامبيون» (Lampion) يواظبُ على الإدلاء بهذا «التصريح» مع إشراقة كلّ صباح. . . وإن كانت هذه الردود مناسبةً أحياناً بذكاءٍ، إلاّ أنَّ تعميمها لا يُمكن أن يكون إلاّ تعسفيّاً، وهذه بعض الأمثلة:

المثل الأوّل: عيناك جميلتان ـ شكراً على رأيك بثغري! («Tu as de beaux yeux - Merci pour ma bouche»)

المثل الثاني: حذاؤكِ جميلٌ ـ شكراً على رأيك بفستاني! («Tu as de belles chaussures - Merci pour ma robe!»)

المثل الثالث: كم أنتِ جميلة هذا المساء ـ شكراً على رأيك فيَّ هذا الصباح!

ـ شكراً على رأيك فيَّ خلال الأمسيات الأخرى!

= يتعيّنَ علينا بطبيعة الحال أن نستثني الحالة التي تكون فيها الصفتان «ص» و«ض» في حالة تضادٍ، والتي تنتمي إلى المنطق الصُوري، على غرار:

«أنتِ جميلةٌ» صوريّاً (على الدوام) /لستِ قبيحةً/ / ((«Vous êtes jolie» *formellement (toujours)* Vous n'êtes pas laide/)

«أنتِ جميلةٌ» طبيعيّاً (أحياناً) /لستِ ذكيّةً/ ((«Vous êtes jolie» *«naturellement» (parfois)* /Vous n'êtes pas intelligente/)

«أنتِ جميلةٌ اليوم» طبيعيّاً (أحياناً) /لست جميلةً عادةً/ («Vous êtes jolie» *«naturellement (parfois)* /Vous n'êtes pas jolie d'habitude/)

(«Comme tu es belle ce soir - Merci pour ce matin!
- Merci pour les autres soirs!»)

المثل الرابع: فخذ الخروف هذا لذيذٌ ـ شكراً على رأيك بطبق البريشة! (Ce gigot est délicieux - Merci pour le gratin!»)

المثل الخامس: نصُّك مسبوكٌ على نحوٍ جيّدٍ حقّاً ـ شكراً على رأيك بمضمونه! («C'est vraiment bien écrit - Merci pour le contenu!)، إلى آخره.

فمن جهةٍ، نستنتج أنَّ القاعدة التي نسعى في هذا الصدد إلى إبرازها تعمل، وهذا أمرٌ مؤكَّدٌ، وهي تتَّخِذ أشكالاً جدّ متنوّعةٍ. وإليكم المزيد من الإثباتات:

المثل الأوّل: المتكلِّم: أتظنُّ أنَّ الطقس سيكون جميلاً في عطلة نهاية الأسبوع؟

المخاطب: أستبعد ذلك، إذ ذُكر في فقرة الأحوال الجويّة أنَّ الصحو سيدوم لفترة يومَين [كان المُخاطب يجهل على ما يبدو أنَّ ما من عالم أرصادٍ جويّةٍ يُجازف في تنبُّؤ حالة الطقس لفترةٍ تتجاوز الثماني والأربعين ساعةً].

(«L_1. - Vous croyez qu'il va faire beau pour le week-end?

L_2. - ça m'étonnerait: à la météo ils ont dit qu'il continuerait à faire beau pendant deux jours [L_2 ignorait apparemment qu'aucun météorologue sérieux ne s'aventure à prédire le temps pour une période excédant les quarante-huit heures]»).

المثل الثاني: عاماً سعيداً لقرّائنا (أمّا بالنسبة إلى الآخرين، فلا نعبأ بهم) («Bonne année à nos lecteurs (quant aux autres, ils peuvent crever»))

المثل الثالث: أحبُّ مدينة باريس في شهر أيّار/ مايو (وكذلك في شهر حزيران/ يونيو، وهذا لا يعني أنَّني لا أحبُّ مدينتَي ليون أو مارساي) («J'aime Paris au mois de mai (en juin aussi d'ailleurs; et ce qui ne veut pas dire que je n'aime pas Lyon ou Marseille)»)

يوضِّحُ هذان القولان الأخيران[58] بسخريّةٍ الاستدلالات القابلة أن تُضاف إلى الصياغات المشروحة على هذا المنوال ـ الأوّل من خلال تأكيد هذه القاعدة بهزْءٍ، والثاني من خلال إبطالها.

---

(58) الأوّل، وهو عنوانٌ مأخوذٌ من مجلّة *Charlie-Hebdo* (2 janv. 1978)، والثاني، وهو تأويلٌ تقليديٌّ ساخرٌ تناول فيه شارل أزنافور (Charles Aznavour) أغنيةً من أغنياته الخاصّة.

ومن جهةٍ أخرى، يقتصر عمل هذه القاعدة على بعض الحالات فقط، كما يخضعُ تطبيقها إلى عددٍ معيَّنٍ من الشروط التي إنْ لم تتوفَّر، تُعمَّم هذه القاعدة إلى ما لا نهايةٍ، لأنَّ الإدلاء بالقول (ق)، يعني على الدوام عدم الإدلاء بالقول (ك) أو (ل)، وكذلك إنَّ تفعيل مصطلح ما، يعني إلغاء كلّ المصطلحات الأخرى. وبتعبيرٍ أكثر تبسيطاً، تقترح بالتالي كلّ جملةٍ يتمُّ الإدلاء بها زَيف كلّ الجُمل الأخرى. وبالطَّبع، لا تجري الأمور هكذا.

والحال أنَّه ليس بالأمر اليسير مُطلقاً أن نُحدِّد ماهية شروط تطبيق مثل هذه القاعدة. وجلّ ما نستطيع فعله هو عزل بعض العناصر التي تُيسِّر آليّة الانزلاق من عبارة:

«يتَّصف الغرض الأوَّل (ع) بالصفة الأولى (ص)» («x est p») إلى

/ يتَّصف (ع) وحده بالصفة (ص)/ (/seulement x est p/)

و / يتَّصف (ع) بالصفة (ص) فقط/ (/x est seulement p/).

- لا بدّ أن تقوم بادئ ذي بدءٍ علاقةٌ محوريّةٌ استبداليّةٌ وثيقةٌ بدرجاتٍ متفاوتةٍ بين (غ) والصفة الأوَّليّة (ض) اللَّذَين تُشير إليهما بشكلٍ مُضمَرٍ البُنية التالية «يتَّصف (ع) بالصفة (ص)» («x est p») وبين (ع) والصفة (ص) على التوالي، فيلوح طيفهما بهذه الطريقة بين حنايا الوحدات المذكورة بشكلٍ بيِّنٍ؛ فيتكوَّن المحور الاستبداليّ المُلائم إمّا:

1. في اللُّغة، حين يُشكِّل (ع) أو الصفة (ص) مع (غ) أو الصفة الأوَّليّة (ض) نظاماً تبايُنيّاً وثيقاً، كأن نضع مثلاً:

«اليوم» («aujourd'hui») مع «الأمس» («hier») و«الغد» («demain»)...

«الثلاثاء» («mardi») مع سواه من أيَّام الأسبوع الأخرى

«اليسار» («la gauche») مع «اليمين» («la droite»)...، إلخ.

2. أو بواسطة السياق الحاليّ للنصّ، كما في مثل الرسوم الهزليّة المُسلِّية والترفيهيّة (في مقابل الأبحاث والروايات البوليسيّة)، أو أيضاً كما في المثلَين التاليَين:

المثل الأوَّل: المتكلِّم: إنَّ مارتا ميتشيل ناقدةٌ شجاعةٌ وحسَّاسةٌ وصريحةٌ

لسياسة البيت الأبيض في عهد نيكسون. أتشاطرني الرأي؟

المخاطب: حسناً، أوافقك الرأي بأنّها صريحة[59].

(L1. - Martha Mitchell is a courageous, sensitive, outspoken critic of the Nixon Whitehouse. Don't you agree?

L2. - Well, I agree that she's outspoken)

المثل الثاني: المتكلّم: أتعلم أنّ مارشيه قد أعلن للتوّ أنّ الاتّحاد السوفياتي هو قوّةٌ اقتصاديّة واجتماعيّة وثقافيّة وديمقراطيّة وعسكريّة عُظمى؟

المخاطب: هو على صوابٍ في ما يتعلّق بالنقطة الأخيرة...

(L1. - Tu sais que Marchais vient de déclarer que l'U.R.S.S. était une grande puissance économique, sociale, culturelle, démocratique, et militaire?

L2. - Il a raison sur le dernier point....)

إنّ الاستدلالات واضحةٌ في هذين المثلَين. أمّا بالنسبة إلى جملةٍ من مثل:

كان رئيس الجمهورية واضحاً بشكلٍ خاصٍّ حول هذه النقطة خلال حملته الانتخابيّة،

(Le Président de la République a été sur ce point particulièrement net pendant sa campagne électorale),

فإنّ قدرتها على خلق مُضمَنٍ أو عجزها هي رهن إثارة السياق السابق لنقطةٍ واحدةٍ أم عدّة «نقاطٍ».

أمّا في الأمثلة ذات النمط الشبيه بالمثلَين التاليَين:

المثل الأوّل: ها أنذا بين الجمال والذكاء («Me voici entre la beauté et l'intelligence»)

المثل الثاني: ستصبح عندما تكبر جميلاً كوالدتك وذكيّاً كوالدك («Tu seras beau comme ta maman et intelligent comme ton papa»)،

فيحثّنا العاملان المذكوران أعلاه في الفقرتَين الأولى (1.) والثانية (2.) متَّحدَين على استخراج الاستدلال المزدوج التالي: تنزع اللّغة (أي الأيديولوجيا التي ترتكز عليها) بلا ريبٍ إلى وضع هاتَين الصفتَين إحداهما في مواجهة

---

(59) Martin Huntley, «Presupposition and Implicature,» *Semantikos*, vol. 1, no. 2 (1976), p. 68.

الأخرى، واعتبار أنَّهما، ليستا في حالة تضادٍ، بل إنَّهما غير متجانستَين تقريباً (وذلك بمقتضى «المكان»، إذ «يستحيل أن نحصل على كلّ شيء»)؛ وبنتيجة ذلك من الممكن بلا شكّ أن تقترح جملتَين من مثل:

الجملة الأولى: ها أنذا إلى جانب الجمال. . («Me voici à côté de la beauté...»).

الجملة الثانية: ستغدو جميلاً. . («Tu seras beau...»)،

الاقتراحان التاليان: أنا أجانبُ الغباء، وستغدو أبله. ولكن ما إن توضع على المحور الاستبداليّ مصطلحاتٌ تربطها علاقةٌ تعارضٍ محوريّةٌ استبداليّةٌ بالقوّة، يُصبح هذا المُضمَّن مُلحّاً أكثر بشكلٍ واضحٍ، كما يُبيِّنه هذان المثلان المُقارنان.

3. أو بواسطة السياق الانتخابيّ على سبيل المثال أو المقاميّ، فمثلاً، يطول أمد المناقشة أثناء إحدى الندوات، ويزيد التأخير تأخيراً؛ علماً بأنَّ البرنامج يلحظ أنَّه سيتمُّ عرض فيلمٍ قصيرٍ عقب المحادثات، ثمَّ سيليه حفل كوكتيل يُقام عند مدير الدّروس.

رئيس الجلسة: أُعذروني ولكن تأخَّر الوقت وأنا قلق على مدير الدّروس. . .

أحد المُشاركين (وهو مؤلِّف الفيلم القصير): ولستَ قلقاً على الفيلم؟

(LE PRESIDENT DE SEANCE. - Excusez-moi mais il est tard et je suis inquiet pour le préfet...

UN PARTICIPANT (auteur du court métrage). - Et pas pour le film?).

وإليكم مثلاً أخر يتناول دور المعلومات السياقيّة:

تُلاحظ آن لوكلير[60] في ما يختصُّ بجملة «لقد أكلنا كثيراً هذا المساء» («Nous avons bien mangé ce soir»)، أنَّ المُضمَّن / ليس كما درجت العادة/ (/ c'est pas comme d'habitude/) يحظى بوضوحٍ بفرصةٍ أقلّ للبروز في حال كانت هذه المرّة الأولى التي يتناول فيها المتكلِّم والمُحاوِر طعام العشاء معاً، منه لو كانا معتادَين على فعل ذلك.

---

(60) Anne Leclaire, ««La Cantatrice chauve»: Scène d'exposition et presupposition,» *Pratiques*, no. 24 (août 1979), p. 8.

وبالتالي، إنَّ بروز الاستدلالات خاضعٌ لخصائص «عالم الخطاب» الذي يضمُّ هذا الغرض أو ذاك أو يستبعده، فيُصار نتيجةً لذلك إثارته بشكلٍ مُضمَرٍ أم لا.

وأيّاً تكن طريقة إنشاء المحور الاستبداليّ المُلائم، يُمكننا بشتّى الأحوال أن نعتبر أنَّه كلّما كانت أنماط هذا المحور الاستبداليّ النغميّة مُحدَّدةً بشكلٍ أوضح، تصلَّب المُضمَّن التقليصيّ أكثر وأكثر.

بيد أنَّ عوامل أخرى تتدخَّل كذلك في هذه الآليّة المرجعيّة، ونذكر منها:

ـ العامل الألسنيّ اللُّغويّ

هبْ مثلاً هذَين المثلَين:

المثل الأوَّل: الطقس جميلٌ اليوم، في مقابل حاليّاً، في مقابل الآن («Il fait beau aujourd'hui, vs en ce moment, vs pour le moment»).

المثل الثاني: إنَّه أحمقٌ.

ـ هذا رأيك، في مقابل

ـ أنتَ مَن يقول ذلك،

(«C'est un crétin.
- Que tu dis, vs
- C'est toi qui le dis»)

تفوق بعض العبارات سواها من حيث القدرة على اقتراح هذه القيمة التقليصيّة. إذ إنَّ عبارة «الآن» («pour le moment») تحثُّ أكثر من عبارة «حاليّاً» («en ce moment»)، ومن بابٍ أوْلى من عبارة «اليوم» («aujourd'hui»)، على استخراج الاستدلال التالي / لن يدوم الأمر طويلاً/ (/ça ne va pas durer/). ومن شأن العبارة التفخيميّة «أنتَ مَن. . .» (C'est... qui) أن تُعزِّز بروز الاستدلال التالي / أمّا أنا فما كنتُ لأقول أمراً مماثلاً، ولا أشاطرك الرأي/ (/moi je ne dirais pas une chose pareille, je ne suis pas d'accord avec toi/) التي يقترحها أصلاً، بمقتضى قانون الشموليّة، الردّ التالي «هذا رأيك!» (« !que tu dis»).

ـ فضلاً عن ذلك، تضطلع بعض الوقائع النطقيّة ذات الطبيعة النبريّة بشكلٍ أساسيٍّ بدورٍ حاسمٍ في عمليّة تكوُّن استدلالاتٍ من هذا القبيل:

إنَّ الأزياء الرجاليّة ممتازةٌ (Les costumes masculins sont très bien)

أنتِ جميلةٌ اليوم (Vous êtes jolie aujourd'hui)

أنا غير منشغلٍ غداً (في مقابل «أنا غير منشغل غداً») (Je suis libre demain (vs «Je suis libre demain)(sic) »)

حين يتمّ «التبئير» على متتاليةٍ ذات قيمةٍ حرفيّةٍ دقيقةٍ بواسطة المدّ، تنزع هذه المتتالية بوضوح إلى اكتساب قيمةٍ تقليصيّة.

(ونلاحظ وجود الظاهرة نفسها في حالة البُنى التي حلّلناها في الفقرة السابقة، بيد أنّها تتميّز كذلك بآليّة تقليصٍ دلاليٍّ - من الشرط الكافي إلى الشرط الضروريّ، كما في المثلَين التاليَين:

(i) «لن أنهض من السرير قبل أن أراك واقفاً خارجه» («Je me lèverai quand tu seras debout»): ونجد فيه شرطاً كافياً - ومؤدّاه ما يلي: ما إن تخرج من السرير، أعدك بأنّني سأحذو حذوك، في مقابل

(ii) «لن أنهض من السرير قبل أن أراك واقفاً خارجه» («Je me lèverai quand tu seras debout») - أي فقط عندما يحصل ذلك، ومحال أن أنهض من السرير قبلك...).

- هذا ويعتمد الاستدلال التقليصيّ أيضاً على نمط الخطاب موضوع البحث. وهكذا، يُدلي الخطاب القانونيّ بقوانين تكون بغالبيّتها «زجريّةً» إذ إنّها تُصوّي بشكلٍ بيّنٍ حقل الممنوع، ولا تُنشئ إلاّ على نحوٍ مُضمَرٍ، عبر التقابل بالتضاد، مضمار المسموح[61]. وعليه، تكون الأقوال القانونيّة أو الهامشيّة القانونيّة مصدر عددٍ لا يُحصى من الاستدلالات من النمط التالي:

«الأمر الفلاني ممنوعٌ» («x est interdit»)، ويعني ذلك ضمناً / عكس الأمر الفلاني مسموحٌ/ («non-x est permis») (كما يظهر ذلك في المثلَين التاليَين:

المثل الأوّل: انظر إلى اللاّفتة التي كُتب عليها: «يُمنع اللّعب بالطابة على العشب الأخضر»، أي إنّه يحقّ لنا المشي عليه («Regarde: «Interdit de jouer au).

---

(61) راجع بهذا الشأن المقالة التي كتبها بورسييه: (Danièle Bourcier, «Information et signification en droit; Expérience d'une explicitation automatique de concepts,» *Langages*, no. 53 (mars 1979)),

والتي تحمل إحدى فقراتها عنوان «الخطاب القانوني هو خطابٌ مُضمَرٌ» («Le discours juridique est un discours implicite»).

ballon sur les pelouses», c'est donc qu'on a le droit d'y marcher!»)

المثل الثاني: «لم يُذكر أنّه يُمنع احتساء الكحول أثناء تناول هذا الدواء، أي أنّني أستطيع أن أشرب الكحول معه» («Ce n'est pas mentionné qu'avec ce médicament il ne faut pas boire d'alcool, c'est que je peux en boire!»).

ـ تتدخّل كذلك بالتأكيد طبيعة مقام التفاعل والعلاقة التي تربط المتكلّمين المتفاعلين، فمثلاً: سيّان إن جرى التبادل الكلاميّ في إطار سياقٍ جدليٍّ أم متوتّر، وسيّان إن كان المتلقّي سيّئ المزاج أم أعوج العقل، فإنّه سيميل بانتظامٍ إلى «إساءة الظنّ» بمآرب هذا القول (ألا وهو: «أنتَ موهوبٌ في هذا المجال ـ آه، حسناً، لأنّني في سواه من المجالات...» («Tu es douée dans ce domaine - Ah bon, parce que pour le reste...») وسيقرأ بين سطوره استدلالاتٍ ضاغنةً.

ثمّة عوامل أخرى تجدر الإشارة إليها أيضاً، على غرار طبيعة ترقُّبات المُحاوِر في ما يتعلّق بفحوى خطاب المتكلّم، مثلاً: واقع أن يترقّب الجمهور عندما يُشاهد أحد الأفلام الخاصّة بكوكو شانيل (Coco Chanel)، أن تتحدّث المُحاضِرة بشكلٍ خاصٍّ عن الأزياء النسائيّة؛ وواقع، مردّدين مَثَلاً مُقتبساً عن غريس[62]، أنّ الشخص الذي يتلقّى كتاب توصيةٍ تمّت صياغته لصالح أحد المُرشّحين لشغل أحد المناصب الشاغرة في قسم الفلسفة يترقّب أن تُفيده بأكثر مما يلي: «السيّد فلان متمرّسٌ باللّغة الإنجليزيّة تمرُّساً جديراً بالملاحظة، وكان مُثابراً في حصصي» («M. X a une maîtrise remarquable de l'anglais, et il a été assidu à mes cours»).

وعلى أيّ حالٍ، ما يُمكننا استخلاصه من الاعتبارات الآنفة الذكر كافّةً هو أنّ شروط تطبيق القاعدة التي تشغلنا هنا هي بالغة الدقّة؛ وأنّ وجود مثل هذه الاستدلالات التعالقيّ يتراوح من اليقين إلى الظنّ، وأنّ استخراجها يترك هامشاً لا يُستهان به من الذاتيّة التأويليّة، ومن شأنه أن يولّد جدالاتٍ لامتناهيةً؛ وأنّه يترتّب على المتكلّم باستمرارٍ أن يُقاوم الغزوة الصّارخة للاستدلالات غير المرغوب بها، من خلال إمّا إضافة تصويبٍ حصيفٍ على سبيل الاحتراس، كما في الأمثلة التالية:

(62) Herbert Paul Grice, «Logique et conversation,» *Communications*, no. 30 (1979), p. 66.

كم أنتِ جميلةٌ اليوم - كما دائماً أصلاً (Comme vous êtes jolie aujourd'hui - comme toujours du reste)

أنتَ ظريفٌ وأنت نائمٌ - ليس عندما تكون نائماً وحسب.. (Tu es mignon quand tu dors - pas seulement quand tu dors...).

الثورة هنا - كما في أماكن أخرى - تُلقِّننا الفضيلة علاوةً على ذلك (La révolution, ici - comme ailleurs... -, enseigne de surcroît la vertu)

في مطلع الأسبوع القادم - ولا تطال التكهُّنات أبعد من ذلك -، سيندر ظهور الشمس [وليس هذا التحفُّظ غير مُجدٍ، إذا ما تذكَّرنا المثل الذي أشرنا إليه قبل عدَّة صفحاتٍ] (Au début de la semaine prochaine - les prévisions ne portent pas plus loin -, le soleil sera rare [la précaution n'est pas inutile, si l'on se souvient de l'exemple mentionné quelques pages plus haut])،

أو من خلال الاعتراض بعد حينٍ على تأويلٍ تعسّفيٍّ بدَرَ عن المُحاوِر[63]، كما في هذَين المثلَين:

المثل الأوَّل: - ما يُثير اهتمامي هو الأمر الفلاني...

- إذاً ما أفعله لا يُثير اهتمامك؟

- ولكن بلى، لم أبغِ مُطلقاً قول أمرٍ مماثلٍ!

(- Ce qui m'intéresse c'est x...

- Donc ce que je fais ne vous intéresse pas?

- Mais si, je n'ai absolument pas voulu dire une chose pareille!)

المثل الثاني: - إنَّ الرسوم الهزلية مُسلِّيةٌ وترفيهيّة.

- إذاً تُضجرك الأبحاث

- ولكن كلاّ، إنَّ عبارة «يتَّصف الغرض الأوَّل (ع) بالصفة (ص)» لا

---

(63) وبالعكس، يتحمَّل المتكلّم في المثل التالي الاستدلال الذي يستخرجه المُخاطب على نحوٍ جدليٍّ ويَستفيد منه، كالآتي:

جيزال: سترين أنّ الأمور ستجري على خير ما يُرام، فالعمل هنا لا ينقطع على مدار السّنة.

ماري (وقد تفاقم شعورها بالانزعاج): العمل متوفرٌ أنّى مكانٍ في هذه الأيّام.

جيزال: بالضبط، هذا سببٌ إضافيٌّ، فهو متوفرٌ هنا أيضاً!... (مثلٌ مُقتبسٌ عن: Jean-Claude Grumberg, *L'Atelier*, théâtre ouvert (Paris: Stock, 1979), p. 28),

(GISÈLE. - Vous verrez tout ira bien y a du travail toute l'année ici.

MARIE (de plus en plus agacée). - Partout y a du travail ces temps-ci.

GISÈLE. - Justement, raison de plus: ici aussi!...).

تستلزمُ بالضرورة أنَّ الغرض الثاني (غ) يتَّصف بِ (عكس ص)!!

(- La B.D. c'est divertissant.

- Donc les essais vous ennuient?

- Mais non, «x est p» n'implique pas forcément que y soit non-p!!)

ويُشكِّل هذا النمط من الآليّات، من خلال الإبهام الذي يكتنفه والتسويفات التأويليّة التي يُفسح مجالاً لها، فُرصةً غير متوقَّعةٍ يقتنصها سيِّئو النيَّة المُحترفون.

3.3.4. استدلالات «تطبيقيّة عمليّة»[64]

«يملك كلّ فردٍ مُتكيِّف في حياة الجماعة معارفَ مُستبطنةً عن العالم، يُصار إلى تمثيلها إدراكيّاً بواسطة سيناريواتٍ (scénarios) (أو «مخطوطاتٍ» («scripts») كما تُسمِّيها أعمال علم النفس الإدراكيّ)، والتي من شأنها إنشاء بعض الترقُّبات بشأن اطِّراد (أي «منطق») الأفعال البشريّة»[65]. وقد برهنَ فقهاء اللّغة المنهجيّون أنَّ المعطيات المرجعيّة تكون منظَّمةً على شكل «أُطر ذهنيّة» («frames») يعمدُ المتكلِّمون المتفاعلون إلى استبطانها، فترتكز عليها تصرُّفاتهم الكلاميّة وغير الكلاميّة، كما أنَّها توجِّه العمليّات التأويليّة التي يقومون بها (فمثلاً، إنَّ معرفتنا بما يحدث عادةً على مأدبة الطعام هي التي تُفسِّر كيف يُصار عادةً إلى تأويل قولٍ من مثل «اسكب لي الماء» («Verse-moi de l'eau») باعتباره يعني / في كأسي/ (/dans mon verre/) وليس / على رأسي/ (/sur la tête/).

وبالتالي، نظراً إلى أنَّ تحقيق فعلٍ أيّاً يكن يكون منوطاً إن جاز التعبير بعددٍ من الشروط والتبعات، نستطيع انطلاقاً من إرشاد هذا الفعل الكلاميّ أن نستنتج لدى فكّ الترميز بعض المعلومات في ما يتعلَّق بالشروط والتبعات الآنفة الذكر. ويؤكِّد جايز[66] (J. Jayez) ما يلي: «قد تُشكِّل حقيقة بعض الظروف الراهنة شرطاً ضروريّاً لحقيقة ظروفٍ راهنةٍ أخرى، بحيث إنَّنا نستطيع أن نربو بالاستدلال انطلاقاً من الاستدلالات الأوّليّة وصولاً إلى الثانويّة. وسنطلق تسمية «استدلالاتٍ

(64) سنقتبس هذا المُصطلح عن باريه وليو أبوستيل - بيد أنّنا سنُضفي عليه في هذا الصدد معنى متخصّصاً أكثر، وسنلجأ إليه تلافياً للإبهامات، ولاسيّما تلك التي تُحدثها عبارة «المُضمَر التداولي التواصليّ» التي تُطالعنا في الكتاب الذي يحمل عنوان **المستوى الأوّل** (*Seuil-Niveau*).

(65) André Petitjean, «Les Histoires drôles: «Je n'aime pas les raconter parce que»,» *Pratiques*, no. 30 (juin 1981), p. 21.

(66) Jacques Jayez, «How to Do Games with Words,» *Sigma*, no. 6 (1981), p. 20.

تطبيقيّةٍ عمليّةٍ» على المعلومات المُفترضة أو المُضمَّنة عبر القول عن هذا الواقع اللامحاكاتيّ أو ذاك، والتي تستتبع ضمناً سواء بالضرورة أو عند الاقتضاء، باسم إحدى أنواع «منطق الأفعال» (التي تنتظم في «مخطوطاتٍ»، و«أُطر ذهنيّة»، و«بُنى كبرى»، وغيرها من «رسوم تطبيقيّةٍ عمليّةٍ»[67] تحقُّق غيرها من الأفعال المُتعالِقة بالضرورة أو عند الاقتضاء[68].

وهكذا، ينظر مركز الأبحاث والدراسات لنشر اللّغة الفرنسيّة (Credif) في الكتاب الذي أصدره تحت عنوان **المستوى الأوّل** (*Niveau-Seuil*) في ما يلي:

ـ الشروط الماديّة الضروريّة، كما في المثل التالي: «صعدتُ إلى برج إيفيل» («Je suis monté à la tour Eiffel»)، ويعني ذلك ضمناً / لقد زرتُ باريس/ (/je suis allé à Paris/) (وهي معلومةٌ مُفترضةٌ لأنَّها تتناول شرطاً ضروريّاً).

وإليكم مثلَين آخرَين عن الاستدلالات المُرتبطة بوجود تعالقٍ من هذا القبيل:

المثل الأوّل: يا أبنائي، ما الذي يترتَّب علينا فعله حتّى يغفر لنا الله ذنوبنا؟

فرَفع غلامٌ يده، وأجاب:

- يجب أن نُذنِبَ أوّلاً[69]

(Mes enfants que faut-il faire pour que Dieu nous pardonne nos péchés?
Un gosse lève le doigt:
- D'abord il faut pêcher).

متظاهراً بالاعتقاد بأنَّ السؤال يتناول شرطاً من شروط الغفران، في حين أنَّه يتعلّق بوضوحٍ في سبُل نيله، يُبيِّن «الغلام» (الشبيه بِ «توتو» (Toto) طبعاً) هذا الشرط الذي يستلزمه فعلاً قول أستاذ التعليم الدينيّ.

---

(67) إنّ غرونيغ هو مَن أشار إلى هذا المُصطلح الأخير في: Blanche-Noëlle Grunig, «Pièges et illusions de la pragmatique linguistique,» *Modèles linguistiques*, tome 1, fascicule 2 (1979), p. 16.

(68) يُمكن مقارنة هذه الاستدلالاتِ «العلاقات التضمينيّة المرجعيّة الصالحة» التي يتحدَّث عنها بيريندوني (Alain Berrendonner, *Eléments de pragmatique linguistique*, propositions (Paris: Editions de Minuit, [1981]), p. 144), و«افتراضات الشيء المُمكن» و«السِيامة الدلاليّة» التي يأتي مارتن على ذكرها (Robert Martin, *Inférence, antonymie et paraphrase: Eléments pour une théorie sémantique*, bibliothèque française et romane. Série A, Manuels et études linguistiques; 39 ([Paris]: C. Klincksieck, 1976)).

(69) قصةٌ طريفةٌ نقلاً عن: Lucie Olbrechts-Tyteca, *Le Comique du discours*, sociologie générale et philosophie sociale (Bruxelles: Editions de l'université de Bruxelles, 1974), p. 244.

المثل الثاني: (1) أيروقك ما ارتديه؟

(2) تماماً، فما إنْ يقع نظري على فتاةٍ ترتدي حلّةً شبيهةً حتّى أبدي إعجابي بها.

(3) مهما يكن من أمرٍ، أنتَ عاجزٌ عن إبداء إعجابك بأيّ فتاةٍ[70]

((1) Tu trouves ça bien, ce que j'ai mis?

(2) Tout à fait; je verrais une fille habillée comme ça, je lui ferais aussitôt du gringue.

(3) De toute façon, tu es incapable de faire du gringue à une fille)

تُعقِّب العبارة الثالثة (3) في هذا الصدد على العبارة الثانية (2) من خلال الاعتراض على الشرط الماديّ (ألا وهو: /أنا قادرٌ على إبداء إعجابي بفتاةٍ ما/ (/je suis capable de faire du gringue à une fille/) المُستَتبع بالضرورة من خلال العبارة الكلاميّة التالية «أبدي إعجابي بها» («je lui ferais du gringue»)، أي بكلام آخر من خلال دحض الافتراض التطبيقيّ العمليّ؛

- التبعات الماديّة الضروريّة، فمثلاً: «لقد فاتني للتوّ القطار الأخير»، ويعني ذلك ضمناً /لم يعد بمستطاعي أن أستقلّ القطار لأعود إلى المنزل هذا المساء/ (/je ne peux pas rentrer en métro ce soir/)؛

- الشروط المادّية الممكنة، حيثُ إنَّ كلّ فعلٍ مُنجَزٍ (على غرار: كَسْر صحنٍ ما (casser une assiette)، وإصلاح جهاز التلفاز.. (réparer la télé...)). قد يستتبع ضمناً عند الاقتضاء (أي أنَّه قد يُضمِّن هذه المرّة) معرفة فعل أمرٍ ما أم الرغبة في فعله؛

- التبعات الماديّة الممكنة، فمثلاً: قد يستتبع ضمناً واقع أن يقصد المرء دار السينما قدرته على أن يروي قصّة الفيلم الذي شاهده؛

- حالات متفرّقة نُضيف إليها حالة التساوقات الماديّة الضروريّة أو المُحتملة التي تتمتّع بمجملها بالقدرة على إيلاد استدلالاتٍ (مُفترضةٍ أو مُضمَّنةٍ)، كما في الأمثلة التالية:

● «اتّخِذ مقعداً» (Prends siège) ويعني ذلك ضمناً /اجلسْ عليه/ -assieds/)

(70) إنّه تفاعلٌ مُصغَّر حلّله فلاهولت في: Flahault, *La Parole intermédiaire*, pp. 188 et sqq.

(toi dessus/)، وهي التَبِعة الماديّة المُرتقبة جدّاً (فالمحسن البيانيّ هو شبه مُمَعجَم، ومن هنا ينشأ التأثير الهزليّ الذي تُحدِثه العبارة التقليديّة الساخرة التالية العزيزةً جداً على قلوب تلامذة المدارس، ألا وهي: «اتّخذي مقعداً يا سينا، واجلسي على الأرض» («Prends un siège, Cinna, et assieds-toi par terre»).

● كان الربّان إيبيفان يتألّق مجداً وانتصاراً؛ وكان يردّد بلا انقطاع ما يلي: «قالت لي إيرما لتوّها ـ كانت إيرما تقول لي هذه اللّيلة ـ البارحة وأنا أشارك إيرما العشاء...»[71] («Le capitaine Épivent rayonnait de gloire; et à tout instant, il répétait: Irma vient de me dire - Irma me disait cette nuit - hier, en dînant avec Irma... »)، وعليه، من الواضح أنّ الربّان يتعمّد قول كلّ هذه التصريحات بقصد الدلالة (بشكلٍ بيانيٍّ) على ما يلي: / أنا أسكن مع إيرما/ (je/ vis avec Irma/).

الكفاءة المنطقيّة : خلاصات

ـ قد تتَّخذ الاستدلالات التي تسمح لنا الكفاءة المنطقيّة باستخراجها وضع إمّا الافتراض في حال كانت مُرتبطةً بالضرورة بمحتوى القول (ونذكر على سبيل الذكر لا الحصر الأمثلة التي أوردناها في الفقرة 1.3.4. بالإجمال، وبعض تلك التي تأمّلنا فيها في الفقرة 3.3.4.)، أو المُضمَّن في حال تعذّر تفعيلها خارج إطار بعض الظروف السياقيّة أو السياقيّة الحاليّة للنصّ (على غرار أمثلة الفقرة 2.3.4.، بالإضافة إلى بعض الأمثلة التي رأيناها في الفقرة 3.3.4.).

ـ من المُحتمل أن نقع على كلّ أنواع التواليف بين مُختلف العمليّات التي نظرنا فيها في هذه الفئات الثلاث. هبْ مثلاً:

● المثل الأوّل: القهوة، طازجةً لا تلمع (Frais, le café ne brille pas)

(1) يستلزم هذا المثل منطقيّاً، بمقتضى قانون التكافؤ العكسيّ، ما يلي:

/ إذا لمعت القهوة، فهذا يعني أنّها غير طازجةٍ/ (s'il brille, c'est qu'il/ n'est pas frais/)

---

(71) مثلٌ مُقتبسٌ عن: Guy de Maupassant, «Le lit 29,» dans: Guy de Maupassant, *Boule de suif* (Paris: Grands écrivains, 1984), p. 94.

كما أنّه يُضمِّن، بمقتضى مبدأ الانزلاق من الشرط الكافي إلى الشرط الضروريّ (ويختصُّ هذا المبدأ بالمنطق الطبيعيّ هذه المرَّة)، ما يلي:

/ إنْ لم تكن القهوة طازجةً، تلمَعُ/ (/s'il n'est pas frais, il brille/)

(2) ويُضمِّن أخيراً، من خلال تطبيق قانون التكافؤ العكسيّ على العمليّة المنطقيّة الثانية (2) أو من خلال تطبيق مبدأ الانزلاق من الشرط الكافي إلى الشرط الضروريّ على العملية المنطقيّة الأولى (1)، ما يلي:

/ إنْ لم تلمع القهوة، فلأنَّها طازجةٌ/ (/s'il ne brille pas, c'est qu'il est frais/)،

ونستنتج أنَّ تطبيق هاتَين العمليَّتَين المنطقيَّتَين الأوَّليَّتين إحداهما بمعزلٍ عن الأخرى أو بشكلٍ مُشتركٍ[72]، يسمح بالتالي بإيلاد ثلاثة استدلالاتٍ، تكون تبعاً للظروف جدليّةً أم تبريريّةً.

● المثل الثاني: يحبُّ الرجال النساء ذوات الأيادي الناعمة[73]

(= النساء ذوات الأيادي الناعمة محبوبات من قِبَل الرجال)

(Les hommes aiment les femmes qui ont les mains douces

(= les femmes qui ont les mains douces sont aimées des hommes))

ويُضمِّن هذا المثل، بمقتضى القاعدة التي أشرنا إليها في الفقرة 4,2,3,4، الاستدلال الآتي:

/ لا يحبُّ الرجال النساء اللّواتي لا يتمتَّعنَ بأيادٍ ناعمةٍ/[74] (/les hommes n'aiment pas les femmes qui n'ont pas les mains douces/)

ويُضمِّن هذا الاستدلال بدوره في إطار السياق (الذي هو إعلانٌ لتسويق آلةٍ

---

(72) وبرأينا، أيّاً يكن الترتيب الذي نعتمده لتطبيقها، فإنّ فعلها المُشترك يسمح لنا بالانتقال من بُنية «إذا تحقّقت الجُميلة الأولى «ج»، تتحقق إذاً الجُمَيلة الثانية «د»» («Si p, alors q») إلى البُنية التالية «إذا تحقّقت الجُمَيلة الثانية «د»، تتحقّق إذاً الجُميلة الأولى «ج»» («Si q, alors p»).

(73) شعار إعلانيّ حلّله آدم في: Jean-Michel Adam, «Votez Mir Rose, achetez Giscard: Analyses pragmatiques,» *Pratiques*, no. 30 (juin 1981), pp. 91 et sqq.

(74) يُمكننا كذلك أن نُعالج هذا الاستدلال بمُقتضى الانزلاق من الشرط الكافي إلى الشرط الضروريّ.

زد على أنّنا قد نستطيع تجميع القواعد المذكورة في الفقرتَين 3.2.3.4 و 4.2.3.4 في فئةٍ عامّةٍ تشمل مجمل الظواهر المُرتبطة بفعل قانون الشموليّة التي تولّد استدلالاتٍ ذات قيمةٍ تقليصيّةٍ.

لجلي آنية المائدة)، بمقتضى عمليّة تدليلٍ منطقيٍّ مزدوجٍ من النمط القياسيّ، ما يلي:

(/ والحال أنَّ النساء اللَّواتي يجلينَ بأنفسهنَّ الآنية لا يتمتَّعنَ بأيادٍ ناعمةٍ/ /or les femmes qui font la vaisselle n'ont pas les mains douces/)، وإنَّ هــــذه المقدِّمة الصغرى مُستخرجةٌ من الكفاءة الموسوعيّة)

ممّا يعني ضمناً / لا يحبُّ الرجال النساء اللَّواتي يجلينَ بأنفسهنَّ/ (/les hommes n'aiment pas les femmes qui font la vaisselle/)

(/ والحال أنَّكِ ترغبين في أن تكوني محطَّ إعجاب الرجال/ /or vous voulez être aimée des hommes/)

ويعني ذلك بدوره / لا تجلي بنفسكِ/ (/ne faites pas la vaisselle/)،

ممّا يُفضي إلى الاستدلال «التطبيقيّ العمليّ» التالي (وهو تساوقٌ ماديٌّ ضروريٌّ):

/ ابتاعي جلّايةً، وبشكلٍ خاصٍّ جلّايةً من نوع.../ (/achetez un lave-vaisselle, et plus particulièrement.../).

- إنَّ درجة تقنين القواعد المولِّفة لهذه الكفاءة هي جدّ متغيِّرةٍ؛ كما أنَّ المنطق الطبيعيّ هو في جملته وفي خصوصيّته «منطقاً مُبهماً» (ويتحدَّث أنسكومبر ودوكرو[75]، عن طريقة العمل «شبه المنطقيّة» الخاصّة باللّغات) ويعمل بالتلمُّس والانزلاقات، إذ يعني التحليل المنطقيّ في اللّغة الطبيعيّة وتأويل تدليلٍ منطقيٍّ طبيعيٍّ ما، من أيّ زاويةٍ نظرنا إليه، أن نَشتقَّ - ويكمن قوام بعض البرهنات مثلاً في إنشاء سلسلة تعادلاتٍ مفهوميّةٍ تقريبيّةٍ من شأنها أن تنقُلَ نوعاً ما أسلوب «الخيوط المُتشابكة» الصُّوريّ إلى البُعد الدلاليّ. وهكذا مثلاً تتظاهر لوس إيريغاري (Luce Irigaray) ببرهنة حقيقة الجُمَيلة التالية:

الرجل (المذكَّر)، هو الموت (L'homme (le mâle), c'est la mort)

من خلال طرح التعادلات المتعاقبة على الشَّكل الآتي:

(75) Jean-Claude Anscombre et Oswald Ducrot, «Lois logiques et lois argumentatives.» *Le Français moderne*, vol. 46, no. 4 (1978).

رجولـيّ = صُلـب = جُثّي = مـوت[76] (viril = rigide = cadavérique = mort)،

في حين يسعنا بشكلٍ لا يقلّ شرعيّةً أن نطرح السلسلة التجميعيّة التالية:

مـؤنّـث = رخـو = انـحـلال = مـوت (féminin = mou = putréfaction = mort)

- ولكن ممّا لا ريب فيه أنّ كلّ الدروب تؤدّي إلى الموت.

وكـذلـك، كـتـبَ كـلـود سـاروت[77] (Claude Sarraute) بـشـأن أحـد الـبـرامـج المُخصَّصة لطرح إشكاليّة الدفاع الذاتيّ، ما يلي: «العنف سيّئٌ، والدفاع الذاتيّ هـو سوءٌ يُقـابـل سوءاً، فـهـو إذاً سوءٌ مُضـاعـفٌ. ونُـجـمـع كـلّـنـا تـقـريـبـاً عـلـى عـلـم الـحـسـاب هـذا» («La violence, c'est mal. L'auto-défense, un mal pour un mal, c'est deux fois plus mal. On est à peu près tous d'accord avec cette arithmétique-là»). ولـكـن مـع الأسـف لا تـجـري الأمـور عـلـى هـذا الـمـنـوال، إذ يعتمد مناصرو شريعة الأخذ بالثأر ترقّياً منطقيّاً مختلفاً تماماً، فيعتبرون أنّ السوء في معرض الردّ على السوء، لا يكون سوءاً. ولكن أعلينا أن نقوم بعمليّة جمع أم طرح؟ فعلى أيّ حالٍ، لا يمتّ المنطق الطبيعيّ بصلةٍ إلى علم الحساب. وهكذا نُصادِفُ فيه بشكلٍ مُكثَّفٍ ما يلي:

- حالات القلب البرهانيّ بشتّى أنواعه، كما في المثل التالي:

إذا كان العمل هو مصدر الصحّة، فليحيا المرض إذاً! (Si le travail, c'est la santé, alors vive la maladie!)

وفي الـواقـع، يـدلّ ذلـك بـكـلامٍ آخـر عـلـى الـتـعـطّـل، لأنّ عـبـارة «الـعـمـل هـو مـصـدر الـصـحّـة» («le travail c'est la santé») تـسـتـتـبـع ضـمـنـاً أنّ «الـصـحّـة هـي فـي الـعـمـل» («la santé c'est le travail»)، أي بـالـتـالـي أنّ «الـمـرض هـو فـي الـتـعـطّـل» («la maladie c'est l'oisiveté»)... وهـو تـدلـيـلٌ مـنـطـقـيٌّ خـادعٌ بـشـكـلٍ مُـضـاعـفٍ، ويُعزى سبب ذلك، من جملة أسبابٍ أخرى، إلى أنّه يعتبر العلاقة التي يُعبّر عنها

---

(76) أثناء مقابلةٍ أُجريَت مع جيل لابوج في: Giles Lapouge, *Qunizaine littéraire*, no. 262 (1 sep. 1962), pp. 17-18.

(77) Claude Sarraute, *Le Monde* (30 sep. 1982), p. 21.

ضمير الفصل والعماد «هو» («être») قابلةً للانعكاس، في حين أنّها ليست كذلك عادةً، فعلى سبيل المثال، لا تنطوي عبارة «الجحيم هو الآخرون» («L'enfer c'est les autres») على المعنى نفسه الذي تحمله عبارة «الآخرون هم الجحيم» («les autres c'est l'enfer»)، مهما يكن ما قاله سارتر (في أثناء خضوعه لجلسة المعالجة بالتنظير الشعاعيّ التي كان يُجريها له جاك شانسيل (Jacques Chancel)، ومفاده: «لم أكن أرمي من وراء هذه العبارة إلى القول إنّ الجحيم هو الآخرون وحسب، وإنّه ليس ثمّة أنواعٌ أخرى من الجحيم غير الآخرين، بل كنتُ أقصد أنّه في حال كانت العلاقات التي تربطنا بالآخرين غير سليمةٍ ومَعيبةٍ، عندئذٍ لا يُمكن للآخر أن يكون إلاّ الجحيم»؛

● حقائقَ مُعاكِسة جليّة، وهذا مثلٌ على ذلك:

يقلّ ثمن حاسوبٍ صغيرٍ عن ثمن سيّارةٍ.. ويكاد يوازي ثمن سيّارة تبلغ قوّة محرِّكها حصانَين بخاريَّين (Un petit ordinateur, ça coûte moins cher qu'une voiture... à peine le prix d'une 2 CV)

ممّا يُضمِّن من حيث المبدأ، وتقع الحقيقة المُعاكِسة على مستوى هذا الاستدلال، أنّ السيّارة التي تبلغ قوّة محرِّكها حصانَين بخاريَّين ليست بسيّارةٍ.. (ففي الواقع يتعيَّن علينا هنا فهم كلمة «سيّارة» («une voiture») باعتبارها تعني «سيّارة «عاديّة» متوسِّطة السعر» («une voiture «normale», de prix moyen»)[78]؛

● وحتّى تناقضاتٍ واضحةٍ للعيان، وهذه بعض الأمثلة:

عموماً إنّه يصل متأخِّراً دائماً (En général il arrive toujours en retard)

بشكلٍ عامٍّ، يوضع النبر في اللّغة الإيطاليّة على المقطع اللّفظيّ ما قبل الأخير (Généralement en italien l'accent est toujours sur l'avant-dernière syllabe)

(78) يُمكننا مُلاحظة الآليّة نفسها تماماً (ولكنّها مُستمرةٌ بطريقةٍ عكسيّةٍ) في الشعار الإعلانيّ التالي: «بمبلغٍ قدره 55900 فرنك فرنسيّ، يمكنك الحصول على فولفو لقاء ثمن سيّارةٍ..» («55900 F: On peut avoir une Volvo pour le prix d'une voiture...»).

بشأن إشكاليّة العوامل التي تتدخّل في مقبوليّة التعارض، راجع: Catherine Kerbrat-Orecchioni, «De l'antonymie à l'argumentation: La Contradiction,» *Pratiques*, no. 43 (oct. 1984).

عموماً لا تتمّ أبداً الإجابة عن الأسئلة المطروحة أثناء المحاضرات (En général dans les colloques on ne répond jamais aux questions posées)

بشكلٍ عامٍّ، لا يكون الطقس جميلاً إطلاقاً نهار الخامس عشر من شهر آب/ أغسطس (Le 15 août généralement, il ne fait jamais beau).

ولكن، هل المقصود قول «عموماً» («en général») أم «دائماً» («toujours»)؟ يلجأ المتكلّم إلى عبارة «عموماً» انطلاقاً من مفهوم النزاهة والاحتراس، ولكنّه يستعمل عبارة «دائماً» انطلاقاً من مفهوم الفعاليّة الخطابيّة. ومجذوباً بين منحيَين متعارضَين، يعمد المتكلّم المتفاعل إلى التوفيق بينهما مُعرِّضاً نفسه لخطر ارتكاب تناقض، إذ إنَّه يضع بلا احترازٍ المُصطلح الصائب إلى جانب المُصطلح الذي يتّصفُ بالغلوّ - واللاّفت أكثر ليس مُطلقاً اللّجوء إلى مثل هذه الطريقة في التعبير، بل واقع أنّه لا يتمّ الاعتراض على مثل هذه الشواذات المنطقيّة فهي «تمرّ» من دون أن تطرح إشكاليّات (فمثلاً، لقد سمعنا مؤخَّراً أثناء انعقاد أحد المؤتمرات حول البرهنة، هذا التصريح الرائع الذي ينطوي على تناقضٍ داخليٍّ لم يلحظه ظاهريّاً أيّ من الحضور، وقد ازدوج بتناقضٍ تداوليٍّ تواصليٍّ قائم بين القول وما يُبرهنه فعل قوله، ألا وهو: «عموماً، عندما تسمعون تناقضاً في خطابٍ ما، يطرح ذلك دائماً إشكاليّةً» (Généralement quand vous entendez une contradiction dans un discours ça fait toujours problème»)، لدرجة أنّه عموماً لا يُصار مُطلقاً إلى الكشف[79] عن مثل حالات الشذوذ هذه.

وعليه، فقد آن الأوان كي تبذل الألسنيّة قصارى جهودها في محاولةٍ لإيجاد لائحةٍ منهجيّةٍ بكلّ الآليّات التي ينفرد بها المنطق الطبيعيّ ولإيضاحها. ولقد انكبَّ البعض (من مثل دوكرو وغريس، وغيرهما) على هذه المهمَّة منذ فترة زمنيةٍ وجيزةٍ. ولقد استعرضنا في هذا الصدد بعضاً من العمليّات التي تبدو لنا، من وجهة نظر تكوُّن الاستدلالات التي نوليها اهتماماً في هذا المعرض، مُثمرةً بوجهٍ خاصٍّ. وثمّة العديد من العمليات الأخرى بعد، ونذكر منها على سبيل الذكر لا

(79) في حين تتعلّق المسألة برأينا بتناقضاتٍ «قويّة»، من زاوية التحديدات التي صبغناها عليها في نهاية الفصل الثاني (وبالعكس إنّ ليفنسون، كونه يعتبر أنّ عبارة «بشكلٍ عامٍّ» («généralement») تكتفي بتضمين معنى /ليس دائماً/ (/pas toujours/)، فهو يجد فيها بلا ريب تناقضاً ضعيفاً).

الحصر، ما يلي: النفي مثلاً الذي ينبثقُ عنه عدد من الافتراضات والمُضمَّنات، كما أنَّه يشهدُ في اللّغة الطبيعيّة طريقة عملٍ مختلفةٍ اختلافاً ملموساً عن تلك التي يمنحه إيّاها المنطق الصُّوريّ، مع أنَّها منذ أن سلَّمت «بالعلاقات المُشوَّشة» و«قِيَم الحقيقة المُشوَّشة» و«التدليلات المنطقيّة التقريبيّة»[80]، فقد وضعت هذه اللّغة الطبيعيّة بين أيدينا أدوات وصفٍ مُكيَّفةٍ بصورةٍ أفضل لوصف التدليل المنطقيّ الطبيعيّ الذي يتَّصف مرّةً أخرى بعد بمرونته القصوى، والذي يتباين عن التدليلات المنطقيّة الصُّوريّة نظراً إلى سببَين: يتجلّى الأوّل في أنَّ الأقوال الطبيعيّة تحفل بالمُضمَّنات التي تستطيع أن تعيق طريقة عمل القواعد المنطقيّة السائدة؛ ويُعزى الثاني إلى أنَّ مفعول القواعد المنطقيّة بكلّ ما للكلمة من معنى يدخل في تكوين مفعول «قوانين الخطاب» وغيرها من «القواعد التحادثيّة» التي تُشكِّل بمجملها الكفاءة «البلاغيّة التداوليّة التواصليّة» التي يتمتَّع بها المتكلّمون المتفاعلون.

4.4. الكفاءة البلاغيّة التداوليّة التواصليّة

تتعدَّد الصفات «بلاغيّة» أم «تداوليّة تواصليّة» أم «بلاغيّة تداوليّة تواصليّة» أم «تداوليّة تواصليّة بلاغيّة»، والسؤال واحدٌ: ما هي الصفة الأنسب التي يجب أن نُطلقها على هذه الكفاءة التي تُشكِّل مجموعة المعارف التي يملكها المتكلِّم المتفاعل بشأن طريقة عمل هذه «المبادئ» الخطابيّة التي وإنْ لم تكن مُلزِمةً بقدر قواعد التشكُّل النحويّ الدلاليّ الجيِّد، إلاّ أنّه لا مفرّ للراغب في لَعِب لعبة التبادل الكلاميّ بنزاهةٍ من مراعاتها، ونُسمِّيها تبعاً للظروف «قواعد» أو «مبادئ» تحادثيّة (بحسب غريس) و«قوانين الخطاب» (بحسب دوكرو) و«مسلَّمات التحادث» (بحسب غوردون ولاكوف) وأخيراً «مُسلَّمات التواصل السويّ» (بحسب ريفزين (Revzine))؟ أمّا في كتابنا الذي يحمل عنوان **فعل القول**[81] (*Enonciation*)، فننسب إليها بكلّ بساطةٍ صفة «البلاغيّة» ـ استناداً إلى «المكوّن البلاغيّ» الذي يتحدَّث عنه دوكرو -، إلاّ أنَّ خطر الوقوع في الغموض كان

---

(80) راجع المقالة التي كتبها سيناكور: Hourya Sinacoeur, «Logique et mathématique du flor,» *Critique*, no. 372 (mai 1978).

(81) والذي نُعيد منه في هذا الصدد، إنَّما بشكلٍ موسَّع، بعض الاعتبارات التي أشرنا إليها في الصفحة 210 وما يليها من: Catherine Kerbrat-Orecchioni, *L'Enonciation de la subjectivité dans le langage*, linguistique (Paris: A. Colin, 1980).

كبيراً، أي خطر أن يتمّ تأويل العبارة باعتبارها تدلّ على قدرة المتكلّمين المتفاعلين لإنتاج الصور البلاغيّة وفكّ ترميزها، فضلاً عن الطرائق والأساليب البرهانيّة... وكذلك كان مصطلح «التداوليّة التواصليّة» الذي يُرجعنا تارةً إلى الآليّات التعبيريّة الأدائيّة وطوراً إلى طرق العمل الكلاميّة المنطوقة ذات التأثير غير المباشر، وكذلك إلى العديد من الأمور الأخرى، ليكون مُعرِّضاً لخطر أن يكتنفه الإبهام، ممّا دفعنا أخيراً (وبشكلٍ مؤقّتٍ طبعاً) إلى أن نؤثر الصفة المؤلَّفة من الكلمة المُركَّبة، على أمل أن تعمد كلّ وحدةٍ من الوحدتَين اللّتَين تتألّف منهما هذه الصفة المُركَّبة إلى عرقلة تعدُّدية معاني الوحدة الثانية.

أمّا وقد طرحنا هذه الإشكاليّة المصطلحيّة، ووجدنا لها حلاً بطريقةٍ ما، فسنتطرَّق الآن في الحديث إلى مقوّمات هذه الكفاءة، وسنستهلُّها «بالقواعد التحادثيّة» الغريسيّة الشهيرة التي تظهر في هذا الشأن بمظهر المرجع الذي لا يُمكن التغاضي عنه[82].

وكما نعلم، يبلغ عدد هذه القواعد التي أمست شموليّةً بفضل مبدأ «التعاون» العام، ومفاده: «فلتتناسب مساهمتك التحادثيّة مع ما هو مطلوبٌ منك، عند المستوى الذي تبلغه هذه الأخيرة، وعبر الغاية أو المنحى المقبول من التبادل الكلاميّ المحكيّ الذي تكون مُلتزِماً فيه»، الأربع قواعد، وتتمثَّل في:

1. قاعدة الكمّ، وتنصّ على ما يلي:

لتشتمل مساهمتك على قدرٍ من المعلومات يساوي ما هو مطلوب (مراعاةً لأهداف التبادل الظرفيّة).

تجنَّب أن تشتمل مساهمتك على عددٍ من المعلومات يفوق ما هو مطلوبٌ.

2. قاعدة النوع، وتنصّ على ما يلي:

فلتكن مساهمتك صادقةً، أي:

- لا تؤكِّد ما تعتقد أنَّه خاطئٌ.
- لا تؤكِّد ما تفتقر إلى الأدلة عليه.

(82) ولكن، كون هذه القواعد ترعى الإنتاجات الخطابيّة المونولوجيّة والحواريّة على حدٍّ سواءٍ، فما كان ليكون حكيماً البتّة لو أطلقنا على هذه الكفاءة صفة «التحادثيّة».

3. قاعدة العلاقة، وتنصّ على ما يلي:

ليكن كلامك مناسباً للغرض [ليكن كلامك وثيق الصلة بالموضوع]

4. قاعدة الصيغة (الكيف)، وتنصّ على ما يلي:

كُن واضحاً [توخّى الوضوح]، أي:

- تجنَّب التعبير بغموضٍ.
- تجنُّب الإبهام في كلامك.
- تحدَّث باقتضابٍ (ولا تكن مُطنِباً أكثر ممّا ينبغي).
- كُن منهجيّاً في حديثك[83].

ونظراً إلى مستوى الشهرة الذي بلغته هذه القواعد، فهي لم تكن طبعاً بمنأى عن الانتقادات العديدة، فقد أُخِذَ عليها أوّلاً أنَّها تتقاطع إحداها مع الأخرى (والواقع أنَّنا لا نفهم جيّداً ما الذي يُميِّز مثلاً الإرشاد القائِل «تحدَّث باقتضابٍ» والمُستمدّ مبدئيّاً من قاعدة الصيغة عن ثاني قاعدة من قاعدتَي الكمّ). ويعزو سادوك سبب هذا الإطناب إلى «نفوذ» هذه القواعد المُفرط، فيقول ما يلي: «تتَّصف كلّ قاعدةٍ من القواعد التي تتنافس بين الفينة والفينة على امتياز إيضاح الوقائع نفسها بالقوَّة والبَأس»[84]؛ وثانياً، أنَّها تتَّصف بطابعٍ عامٍّ جدّاً - ولكن ليس بما فيه الكفاية، بحيثُ يرى لاكوف مثلاً أنَّ هذه القواعدَ تصلح في الواقع لأن تكون تابعةً لمبادئ تفاعليّةٍ عامَّةٍ أكثر من مثل «لا تفرض نفسك على المخاطب»، و«دعْ له حريّة الخيار»، إلى آخره. أمّا نحن، فنقول بشأن مجمل هذه القواعد الأمر نفسه الذي توصَّل إليه غريس شخصيّاً عند بلوغه خاتمة اللائحة التي اقترحها بشأن مختلف قواعد الصيغة، ومفاده: «نستطيع إضافة المزيد منها».

في الواقع، ثمّة مبادئ أخرى قابلة أن تؤدِّي في التفاعل دوراً شبيهاً بذلك

---

(83) Herbert Paul Grice: «Logic and Conversation,» in: Peter Cole and Jerry L. Morgan, eds., *Syntax and Semantics. 3, Speech Acts*, Edited by John P. Kimball; Edited by Peter Cole and Jerry L. Morgan (New York; San Francisco; London: Academic Press, Harcourt Brace Jovanovich, 1975), and «Logique et conversation,» pp. 61-62.

(84) Jerrold M. Sadock, «On Testing for Conversational Implicature,» in: Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics*, p. 285.

الذي تضطلع به القواعد الغريسيّة، وبالتالي لا بدّ من اعتبارها، أسوةً بهذه الأخيرة، جزءاً لا يتجزَّأ من الكفاءة البلاغيّة التداوليّة التواصليّة. وهي مبادئ عديدةٌ ومتنوِّعةٌ، وتُضاف إلى لائحتها مبادئ جديدة يوماً بعد يوم، وسنقترح بشأنها مؤقَّتاً اللائحة التالية التي تتجلّى على الشَّكل الآتي:

1.4.4. بعض القواعد البلاغيّة التداوليّة التواصليّة

1. مبادئ خطابيّة عامّة

(1) مبدأ التعاون

إذا ما بدا كلامُنا متماسكاً بشكلٍ عامٍّ، فمردّ ذلك، بحسب غريس، إلى «أنَّه يكون، حتّى مرحلةٍ معيَّنةٍ على الأقلّ، حصيلة جهود تعاونٍ»[85]، كما يعزو سبب ذلك إلى أنّنا قد نفترض «أنَّ الغاية المنشودة منه تكمن في أن نضع نصب أعيننا هدف التوصُّل إلى فعاليّة قصوى في تبادل المعلومات»[86]. وعليه، ترتكز الفرضيّة القائِلة بوجود مبدأ من مثل مبدأ التعاون على اعتباراتٍ تجريبيّةٍ (حيثُ نقرأ[87] ما يلي: «والواقع أنَّ الناس يتصرَّفون على هذا المنوال، فقد انطبعوا على هذا التصرُّف منذ نعومة أظافرهم، ولا يزالون يدأبون عليه»)؛ ولكن أيضاً على اعتباراتٍ منطقيّةٍ (حيثُ يُردف قائلاً: «حبّذا لو أستطيع اعتبار قواعد التحادث العاديّة هذه ليس فقط بمثابة المبادئ التي نحترمها جميعنا أو معظمنا في الواقع، بل أيضاً باعتبارها مبادئ ننتهجها عن إدراكٍ، ونأبى إلاّ التمسُّك بها»)، فليست مثلاً القواعد التحادثيّة التي ترعى التصرُّفات الخطابيّة التي ينتهجها الأشخاص الذين يدلون بخطابٍ أيّاً يكن سوى تبِعة مميِّزاتهم النفسيّة الجوهريّة، فينتج مبدأ التعاون عن واقع أنَّهم أشخاص يتمتَّعون بالإدراك، وينبغي تصوُّره باعتباره تطبيقاً لمبدأ عقلانيّة السلوكيّات البشريّة وصوابيّة الكائنات البشريّة ذات الطابع العام أكثر على التصرُّفات التفاعليّة. وقد عبَّر العديد من منظِّري التواصل عن هذه الفكرة، ومن جملتهم فريزر[88] (Fraser) الذي يتأمَّل في «قاعدةٍ تحويليّة» «للسلوك العاقل»

---

(85) Grice, «Logique et conversation,» p. 60.

(86) المصدر نفسه، ص 62.

(87) المصدر نفسه، ص 63.

(88) Bruce Fraser, «Hedged Performatives,» in: Cole and Morgan, eds., *Syntax and Semantics. 3, Speech Acts.*

(«rational behavior»)، فضلاً عن غوردون ولاكوف[89] اللّذَين يتحدَّثان عن «شروط صوابيّة التفكير» («Reasonableness Conditions»)، أو أيضاً غوفمان الذي يؤكّد أنَّ «الفرد يتصرَّف باستمرارٍ على نحوٍ من شأنه أن يُعلم أنَّ طبعه سليم وكفاءته عاقلة»[90].

ولكن أين تظهر المعقوليّة إذا ما أبدينا أثناء التفاعل أنَّنا «متعاونون»؟ إنَّها تتجلّى بكلّ بساطةٍ في واقع أنَّنا إذا امتنعنا بإصرارٍ عن التعاون، يُعلّق التبادل التواصليّ لا مناص، على حساب المخاطب ولكن أيضاً على حساب المتكلّم، إذ حين يعمد هذا الأخير إلى انتهاك القواعد التحادثيّة، فإنَّ الضرر الذي يطال مصالحه الخاصّة يفوق ذلك الذي يطال مصالح مَن يُشاركه[91]. وبالتالي، علينا التسليم بأنَّه سرعان ما يدخل المتكلّم بملء إرادته طرفاً في التواصل، فهو لا يألو جهداً «كي تسير الأمور على خير ما يُرام»، إلاّ إذا افترضنا وجود شخصٍ مازوشيّ مطبوع بشدّةٍ على انتهاج التصرُّفات المحكومة بالإخفاق. ونستنتج بناءً عليه أنَّ المسألة لا تتعلّق هنا بمبدأ أخلاقيٍّ مُستمدٍّ من أيديولوجيّةٍ غيريّةٍ، بل إنَّ المسألة مسألة «شرطٍ ناظمٍ» تتوقّف عليه بشكلٍ جوهريٍّ قابليّة التبادل الكلاميّ للحياة.

أمّا من وجهة نظر غرونيغ[92]، فلا يتعدّى هذا «النموذج التعاوني»، أي تصوُّر الكلام هذا باعتباره «وسيلةً» لتكاتفٍ متناغمٍ وضروريٍّ وعاقلٍ في قلب المُجتمع»، كونه خيالاً مثاليّاً ومُسكّناً يجود بالنزاعات والمواجهات والمحبطات التي تطبع كذلك التبادلات الكلاميّة. طبعاً، ولا يختلف اثنان على ذلك. ولكن حتّى وإن فاق إحصائيّاً عدد التبادلات ذات الطبيعة النزاعيّة عدد التبادلات التعاونيّة - مع أنَّ هذا التناقض لا يرتكز على أسسٍ متينةٍ، إذ يصعب تصوُّر تبادلاتٍ تتوطّد بموجب صيغةٍ غير تعاونيّةٍ كليّاً، فعلى سبيل الذكر لا الحصر إنَّ التجادل يعني أيضاً تبادل الآراء، وأن نتشارك مع الغير عدداً معيَّناً من القِيَم وقواعد اللّعبة الألسنيّة اللُّغويّة والتحادثيّة (أو أن نسلّم بها) -، ومحال أن نفترضَ طرق العمل

---

(89) David Gordon and Georges Lakoff, «Conversational Postulates,» in: Cole and Morgan, eds., Ibid.

(90) Erving Goffman, *Gender Advertisements*, Harper Colophon Books (New York: Harper & Row, 1979), p. 159.

(91) Grice, «Logique et conversation,» p. 63.

(92) Grunig, «Pièges et illusions de la pragmatique linguistique,» pp. 12-13.

التواصليّة التي ترتكز على وجود عقدٍ مُشابهٍ لذلك الذي يرعى مجموعة التصرُّفات الاجتماعيّة، باعتبارها معياراً، كما يُبيِّنه بروعةٍ فينسان ديكومب[93] (Vincent Descombes)، قائِلاً: «نُطلق اسم مجتمع على مجموعة الموجبات التي تترتَّب على عدَّة أشخاصٍ بعضهم حيال البعض الآخر عندما «يعيشون بألفةٍ»، أي بكلامٍ آخر، عندما «يتشاركون مع الغير الربح والخسارة» على شاكلة الحكايات على لسان الحيوانات، كما في المثل الآتي:

اتَّخذت العِجْلة والعنزة وشقيقتهما النعجة القرار
بالعيش مع الأسد الأنوف ملك الجوار
وزُعِمَ أنَّهم عاشوا بألفةٍ في سالف العصر والزمان
وتقاسموا مناصفةً الربح والخسارة في آنٍ[94]

(La Génisse, la Chèvre, et leur sœur la Brebis,
Avec un fier Lion, seigneur du voisinage,
Firent société, dit-on, au temps jadis,
Et mirent en commun le gain et le dommage).

والحال أنَّ التحديد التالي[95] ينطبق تماماً على التبادل الكلاميّ، ألا وهو: «إذا كان من مصلحة شخصَين أن يتجاذبا أطراف الحديث، فسيعود ذلك على كليهما بالمنفعة إن هما نجحا في إنجازه، إلاّ أنّهما سيخسران إن أخفقا في التوصُّل إلى بلوغ مرادهما. وبالتالي، لا مناص من مُشاركة الآخَر في الربح والخسارة، ولنا كامل الحقّ في القول بأنَّ تبادل الكلام الفرديّ بينهما هو نشاطٌ يُنجَز في المجتمع». أمّا في ما يتعلَّق بمبدأ التعاون، «فيكتفي فينسان ديكومب بتذكيرنا بأنَّ المخاطبين يؤلِّفون مجتمعاً، فإذا استدلّ على سبيل المثال شخصٌ (أ) من شخصٍ آخر (ب) عن طريق المحطَّة، نعتبرُ، بموجب هذا المبدأ، أنَّ

---

(93) Vincent Descombes, «La Révélation de l'abîme,» *Degrés*, vol. 9, nos. 26-27 (1981).
وقد دافع جاك (Francis Jacques, *Dialogiques: Recherches logiques sur le dialogue*, philosophie d'aujourd'hui (Paris: Presses universitaires de France, 1979), pp. 163, 225-226, 304 et sqq.), بمنتهى الفصاحة عن فكرة التعاون هذه نفسها باعتبارها معياراً، كما أنّه يشدِّد بشكلٍ خاصٍّ على أنّ حتّى مخالفات عقد التعاون هذا و«الملاءمة التواصليّة» تقتصر على تحريف المبادئ التي ترعى طريقة عمل الحوار «الاعتياديّ» أو «تحويل مجراها» ولا تستطيع بالتالي «شاء الصَّلِفون أم أبوا»، أن تُبطل هذه القاعدة.

(94) نقلاً عن: La Fontaine, *fable 6*, Livre II.

(95) المصدر نفسه، ص 4، و: La Rage de lire, émission de G. Suffert, T.F. 1, le 29 avril 1981.

الشخصَين (أ) و(ب) متضامنان بقصد القيام بنشاطٍ مُشترك يتجلّى في «الإرشاد إلى طريق المحطَّة». وينجم من هذا التضامن ما يلي: يكمن الموجِب الذي يتعيَّن على الشخص (أ) أن يلتزِمَ به في الاستدلال عن طريقه بتعابير مفهومةٍ من قِبَل الشخص (ب)، في حين يترتَّب على الشخص (ب) أن يُفيده بجوابٍ يستعمل فيه تعابير يُمكن للشخص (أ) أن يفهمها. وفي حال لم يلتَزِم أحد الطرفَين بذلك، فإنَّه يُعارض أهداف المجتمع الذي أرسى شخصيّاً أسسه بمؤازرة شريكه، وبالتالي، فهو يُعارض غَرَضه الخاصّ، فإنّ الموجِب الذي ينصّ عليه مبدأ التعاون ليس سوى الرابط الاجتماعيّ للكلام الفرديّ»[96].

وصحيحٌ أنَّ بعض الأشخاص هم أقلّ تعاوناً من سواهم، ففي بلاد العجائب مثلاً، لا تنفكّ إرادة أليس التواصليّة الحسنة النيَّة (فهي دائماً على أهبة الاستعداد لإفادة الآخرين) تصطدم بسوء نيَّة شركائها الخطابيّين الذين كان يطيبُ لهم أن ينصبوا لها الأشراك الأكثر مكراً، وكانوا يُدقِّقون في نوافل أقوالها الأكثر براءةً، ويُعوِّجون بلا حياءٍ القواعد الألسنيّة اللُّغويّة والتحادثيّة، ويُمارسون منهجيّاً الدحض وسوء النيَّة ويلجأون إلى مناوراتٍ هدفها العرقلة والإلهاء. وصحيحٌ كذلك أنَّ بعض أنواع التبادلات ـ على غرار المناظرة، والجدل والخطاب الإرهابيّ، إلى آخره ـ تكون من حيث مبدأها تعاونيّةً بدرجةٍ أقلّ من التبادلات الهادئة، بل وحتّى الاندماجيّة. ومن حقّنا طبعاً أن نعتبر أنَّ المواجهات وحالات سوء التفاهم وتجليّات الانشقاق وإجراءات «التواصل السابق»[97] هي مُثيرةٌ للاهتمام أكثر بأشواطٍ بعيدةٍ من التفاعلات «السعيدة»، وحتّى إنَّها تفوقها تميُّزاً، إذ يصار، تبعاً لتبئير تفكير مُنظِّري التواصل واهتمامهم على التبادلات الموفقَّة أو المُخفِقة، وتبعاً للصورة الاغتباطيّة أم غير الاغتباطيّة التي يُركِّبونها لها، إلى توزيعهم على فئتَين، ألا وهما: فئة المتفائلين من مثل غريس، وفئة المتشائمين على شاكلة غرونيغ، ولكن قد تُنسب إليهم أيضاً صفاتٌ مُتنوِّعةٌ، على غرار هنري وفيرون (E. Verón) أو شوفاليه (J.-Cl. Chevalier) وديليسال[98] (S. Delesalle) الذين يصِفون النشاط الحواريّ باعتباره سلسلة ضرباتٍ

(96) Descombes, «La Révélation de l'abîme,» p. 5.

(97) راجع بهذا الصدد «Langage et ex-communication,» *Degrés*, nos. 26-27 (printemps-été 1981).

(98) Anne Cadiot [et al.], «Oui mais, non mais ou: Il y a dialogue et dialogue,» *Langue française*, no. 42 (mai 1979).

(يُسدّدها الأوّل بقصد إبطال خطاب الشخص الآخر وتأمين هيمنته على التفاعل). في حين يحتلُّ ويلسون وسبيربر[99] مكاناً متوسّطاً نوعاً ما، ويُصرّحان بما يلي: «يقترح بالأحرى الوصف الذي اقترحناه أنَّ المتكلّم يسعى إلى اكتساب أكبر قدرٍ ممكنٍ من قوّة التأثير على المُستمع؛ ويُعدُّ حيِّزٌ معيَّنٌ من التعاون بمثابة الكلفة التي يترتَّب على المتكلّم تسديدها لقاء حصد النجاح في مشروع «أنانيٍّ» بشكلٍ أساسيٍّ»[100]. ونستنتج بالتالي أنَّ المتكلّم يكون نوعاً ما غير متعاونٍ بالفطرة، بل متعاوناً للحاجة.

ومهما كانت التبادلات التي تنتهك جهاراً مبدأ التعاون مثبتةً، يبدو من العسير إنكار طابعها الموسوم (ولذلك يعتبرها جاك (F. Jacques) «عارِضةً» و«منحرفةً»)، فلا وجود مثلاً لسوء التفاهم وعدم الاتّفاق إلاّ قياساً لمعيار تفاهم حسنٍ قد نعتبره غرّاراً بصورةٍ دائمةٍ، ولكن تلك مسألةٌ أخرى. وعليه، أن يكونَ المرء متعاوناً يعني أن يتصرَّف كما ـ لو ـ كان التواصل مُستحبّاً وممكناً.

(2) قانون الملاءمة («قاعدة العلاقة»)

وبالتالي، يُشكِّل مبدأ التعاون بنظر غريس نوعاً من «المبدأ المثاليّ» الذي من شأنه أن يجعل عدداً معيَّناً من القواعد التحادثيّة المُحدَّدة أكثر شموليّةً. ولكن يُنافسه على هذه الخاصيّة مبدأ تحادثيٌّ آخر يتمتَّع من وجهة نظر ويلسون وسبيربر منفرداً بالقدرة على تأدية الخدمات عينها التي تُقدِّمها القواعد الغريسيّة مُجتمعةً، ألا وهو: «بديهيّة الملاءمة»[101]، حيثُ ينوِّهان بما يلي: «لقد أكَّدنا أنَّ مآل القواعد الأخرى برمَّتها إلى بديهيّة الملاءمة التي كانت منفردةً أكثر دقَّةً وسداداً من مُجمل القواعد»). ونلاحظ بالتالي، فضلاً عن الرغبة التي يُعرب عنها بعض الأشخاص والرّامية إلى إعادة القواعد المتنوِّعة التي ترعى طريقة عمل الخطاب البلاغيّة التداوليّة التواصليّة إلى مبدأ فريدٍ وجوهريٍّ، بعض الشكوك في ما يتعلَّق بتنظيمها التراتبيّ، لأنَّ المبدأ نفسه الذي يُخضعه غريس (مُصنِّفاً إيّاه تحت عنوان «قاعدة العلاقة» أو «المناسبة للغرض») لمبدأ التعاون، يضعه ويلسون وسبيربر في أعلى هرم القواعد التحادثيّة.

---

(99) Wilson et Sperber, «Remarques sur l'interprétation des énoncés selon Paul Grice».

(100) المصدر نفسه، ص 93.

(101) المصدر نفسه.

ونستنتج من القاعدة التالية «ليكن كلامك مناسباً للغرض» أنَّ المسألة هنا على أيّ حالٍ هي مسألةُ ضرورةٍ تدليليّةٍ جوهريّةٍ يُشبِّهها كارول[102] صراحةً بِ «نظام الدلالة»، ويُماثلها كذلك بمبدأ التماسك. . . والتعاون. ونستنتج أنَّ العبارات التالية: أن يكون المرء متعاوناً، وأن يتوخّى التماسك في كلامه، وأن يكون «عاقلاً»، وأن يسعى إلى التواصل وأن يُنتِجَ معنى، ليست سوى طرقٍ مُختلفةٍ تُعبِّر عن وجهات نظرٍ متنوِّعةٍ، ولكنّها في النهاية ترمي إلى قول الشيء نفسه.

ولكن ما الذي يشتمل عليه بالضبط مبدأ الملاءمة هذا؟ يقول غريس[103] ما يلي: «من حيثُ اقتضابها، تخفي هذه القاعدة عدداً لا يُستهان به من القضايا المُقلِقة، من مثل: ما هي مُختلف أنواع الملاءمة ومراكزها الممكنة، وكيف يتمّ تعديلها في خضمّ تبادلٍ محكيٍّ ما، وما هي الإجراءات السويّة التي تصلح لتبديل موضوع المحادثة بمشروعيّةٍ إلى حدٍّ ما، إلى آخره؟ وبرأيي، من الشاقّ الإجابة عن هذه الأسئلة». إلاّ أنَّ ويلسون وسبيربر يُجيبان عنها على الشَّكل الآتي: «بشكلٍ بديهيّ جدّاً، يصبح القول أكثر ملاءمةً كلَّما حمل المُستمع، من خلال تزويده بأقلّ قدرٍ من المعلومات، إلى تنمية أكبر عددٍ ممكنٍ من معارفه أو تصوُّراته أو تعديلها. وبتعبيرٍ آخر، تتناسب ملاءمة القول مباشرةً مع عدد التبعات التداوليّة التواصليّة التي يمدّ المستمع بها، ولكنَّها تتناسب عكسيّاً مع غنى المعلومات التي ينطوي عليها [. . .]. وبشكلٍ أكثر تجريداً، قد نعتبر بالأحرى أنَّ الجُمَيلة الأولى «ج» تكون ملاءمةً أكثر مقارنةً بمجموعة الجُميلات «م»، كلَّما أتاح لنا اتِّحاد الجُمَيلة الأولى «ج» مع المجموعة «م» من احتساب عددٍ أكبر من التبِعات الجديدة»[104]. وعليه، يتمحور مفهوم الملاءمة حول مفهوم التبعات التي يُنتجها القول، والذي يشتمل على سبيل الذكر لا الحصر على الوقائع التالية:

- إليكم على سبيل المثال هذا التبادل المُقتضَب حيثُ يفضح الردّ الأخير الذي يُدلي به المخاطب بسخريّةٍ عدم ملاءمة القول ذي الطابع الإخباريّ مع ذلك الذي يُدلي به المتكلِّم، ألا وهو:

---

(102) Charolles, «L'Ordre de la signification,» p. 61.

(103) Grice, «Logique et conversation,» p. 61.

(104) Wilson et Sperber, «Remarques sur l'interprétation des énoncés selon Paul Grice,» p. 88.

المتكلِّم: أتعلم أنَّ ثمّة ملعباً لكرة المضرب مُتَّصلاً بالمدرسة؟

المخاطب: لمَ أنتَ مُهتمٌّ بذلك، أتمارس لعبة كرة المضرب؟

المتكلِّم: كلا.

المخاطب: إذاً فحديثك لا طائل تحته

[أي إنّه حديثٌ يقول ما «لا يُمكن استخلاص التبعات منه].

(L_1. - Vous savez qu'il y a un tennis attenant au Collège?
L_2. - Pourquoi, tu sais jouer au tennis?
L_1. - Non.
L_2. - Alors ça c'est vraiment parler pour rien dire
[i.e. pour dire quelque chose qui ne «tire pas à conséquence»]).

فمن وجهة النظر هذه، يُعتبر القول ملائماً إذا ما استطعنا أن نستخلص منه بعض التبعات العمليّة المباشرة. وهكذا، تكون جملة من مثل «الجوّ ضبابيٌّ هذا الصباح» («il y a du brouillard ce matin»)، مع احتفاظها بدرجة الإخباريّة نفسها، ملاءمةً أكثر كلَّما كان تأثير الضباب المطروح أكبر على سلوك المُحاوِر. وبهذه الطريقة، يُمسي حتّى القول ذو الطابع غير الإخباريّ مُلائماً، فمثلاً: «يهطل المطر» («Il pleut»)، أنتَ تراه جيِّداً وأنا أعي أنَّك تراه تماماً، بيد أنَّني أقول ذلك لك كي أحملك على استخلاص التبعات التي تفرض نفسها في هذا الظرف. ويُمكِّننا تطبيق مبدأ «المُلاءمة العمليّة» من استخراج عددٍ من الاستدلالات، كما يظهر في التبادل الوارد في المثل التالي: «فلنسلك هذا الدّرب، فهو أقصر وعلى الأقلّ نتجنَّب البلل... ـ أسيهطل المطر؟» («Passons par là, c'est plus court et au moins on ne se mouille pas... - Pleuvrait-il?»).

ولكن من مضارّ ذلك أن يغدو المخاطب الذي رأيناه منذ قليل عنيفاً أكثر، وأن يُمسي مثل هذا التصوُّر عن الملاءمة، من حيث منفعيّته، ضيِّقاً أكثر(105).

---

(105) ويأتي هذا التصوّر في أوانه ليُرسي أُسس هذا الردّ الذي جاء على لسان «الزبون» في «القصة الطريفة» التي ينقلها فرويد (Freud, *Le Mot d'esprit et ses rapports avec l'inconscient* = *Der Witz und seine Beziehung zun Unbewussten*, p. 78)، ومفادها: «عرَضَ النخّاس على الزبون حصان ركوبٍ، قائلاً: «إذا ما امتطيتَ هذا الحصان، وانطلقت عند الساعة الرابعة صباحاً، ستصل عند الساعة السادسة والنصف إلى مدينة بريسبورغ»، فأجابه الزبون قائلاً: «وما حاجتي أن أصل إلى مدينة بريسبورغ عند الساعة السادسة=

- في الواقع، علينا أن نسلّم، إلى جانب هذه الملاءمة «العمليّة»، بوجود ملاءمةٍ برهانيّةٍ من شأنها أن تُمَيِّز أيّ قولٍ قادرٍ أن يُشكّل ركيزةً لاستخراج استدلالٍ قابلٍ لإجراء تعديلٍ في مخزون معارف المُحاوِر وقناعاته، أو تسلسل كلام برهانيٍّ بيِّنٍ، وسيّان إنْ كان هذا القول إخبارياً أم لا، وهذا مثلٌ على ذلك: «إنَّ البابا كاثوليكيٌّ، أليس كذلك؟ لِمَ عليه إذاً إحياء عيد الفصح اليهوديّ؟»[106] («Le Pape est catholique, pas vrai? Alors pourquoi devrait-il célébrer la .«Pâque juive?»)

وإليكم مثلاً آخر: عندما حان وقت تسديد الفاتورة في أحد المطاعم، قطَّب المتكلِّم حاجبَيه واحتجَّ قائلاً: «لديّ ثلاثة أولادٍ!» («J'ai trois enfants!») - إنَّ القول غير إخباريٍّ، لأنَّ الجميع يعرف، عن علم، أنَّ المتكلِّم يُعيلُ أولاداً، ولكنَّه قول ملائمٌ على الصعيد البرهانيّ، فيردُّ عليّه المخاطب قائلاً: «حسناً، ولكن أنا لديّ ثلاثة عشّاقٍ!» («Oui, mais moi j'ai trois amants!»)، وهو ردٌّ على سبيل الدعابة، لا تلحظه بالتالي قاعدة الإخباريّة، ولكن لا تغفل عنه أبداً قاعدة الملاءمة إذا ما استخرجنا منه بتماثلٍ الاستدلال التالي / عشّاقي يُكلّفونني أموالاً طائلةً/ (/mes amants me coûtent cher/).

- يُمكننا كذلك أن نصفَ بالـ «ملاءمة» المعلومات التي يُمكن أن يعتبرها المُحاوِر مُثيرةً للاهتمام. ويؤكِّد كارول[107] ما يلي: «يكمن قوام التحادث (حقّاً) في (محاولة) إرغام الشخص الآخر على تصوُّر أنَّ ما يُشكِّل موضوع البحث سيعود بالنفع عليه». ونقول بتعبيرٍ آخر ما يلي: يعني التحدُّث مع المُحاوِر أن نلقي على مسمعه، ونحن نخصُّه بتثبيت نظرنا عليه، أمراً «يخصُّه». ونستنتج بالتالي ما يلي: أوّلاً، لا تتراكب إخباريّة القول مع ملاءمته، إذ يُمكن لقولٍ غير إخباريٍّ أن يوصف على الصعيد البرهانيّ بالمُلائم، وأن يُعتبر في المقابل قولٌ

= والنصف صباحاً؟»» («Un maquignon offre à son client un cheval de selle: «Si vous prenez ce cheval à quatre heures du matin, vous serez à six heures et demie à Presbourg - Et que ferai-je à Presbourg à six heures et demie du matin?»»).

(106) David Gordon et George Lakoff, «Postulats de conversation,» *Langages*, no. 30 (juin 1973), p. 41.

(107) Michel Charolles, «La Natation: Propos et usages de pensée que l'on rencontre couramment sur ce sujet,» texte ronéoté, p. 13.

إخباريٌّ بمثابة غير المُلائم في حال ارتأى المُحاوِر أنّه خلوٌ من أيّ منفعةٍ؛ وثانياً، إنَّ قاعدة الملاءمة مُهيمنةٌ أكثر من قاعدة الإخباريّة، إذ تُقاس بشكلٍ أساسيٍّ الشرعيّة الخطابيّة التي تتحلّى بها المتتالية بالنظر إلى ملاءمتها وليس إلى درجة إخباريّتها.

ـ وأخيراً، على كلّ قولٍ أيّاً يكن أن يكون مزوّداً بملاءمة «موضوعاتيّةٍ» معيّنةٍ، أي أن يكون مُكيّفاً مع السياق التحادثيّ. ويؤكّد كارول(108) ما يلي: «حين أخوض في محادثةٍ مع شخصٍ ما حول موضوعٍ أيّاً يكن، فبادئ ذي بدءٍ أعتبرُ بمثابة الأمر المُكتسب، ومهما قال لي، إنَّ حديثَه ذو صلةٍ بموضوع المُحادثة»، فلنفترض أنَّ حديث المتكلِّم «مناسباً للغرض» (ولا «يقع بمحاذاة الموضوع»)، يعمد المُحاوِر إذاً، عندما يُلقى على مسمعه قولٌ «خارج الموضوع» ظاهريّاً، إلى إنشاء استدلالٍ يتكيَّف على نحوٍ أمثلٍ مع الموضوعة الخطابيّة، ممّا يُفسِّر سبب تطبيق أيّ تأكيدٍ وإخبارٍ ذي صحّةٍ عامّةٍ ـ كالمثل السائر والقول المأثور والمثل والحكمة ـ فوراً على الغرض التحادثيّ الخاصّ الذي يُشكِّل مثار البحث، في إطار السياق (أو سّياق النصّ الحاليّ)، كما في المثل الآتي:

المتكلِّم (بفخرٍ): لقد التحق ابني في صفوف الدّرك.

المُخاطب: ما من مهنةٍ حقيرةٍ.

/ليست مهنة الدركيّ مهنةً حقيرةً/

(L_1 (fièrement). - Mon fils vient d'entrer dans la gendarmerie.
L_2. - Il n'y a pas de sot métier
/le métier de gendarme n'est pas un métier «sot»/)

(ولكن قد يبدو هذا الاستدلال بمثابة الإنكار الماكر، في نطاق أنَّ ثمّة استدلالاً آخر أكثر فظاظةً يولّده هذه المرّة قانون الإخباريّة، ويُضاف إليه طوعاً، ألا وهو:

/قد يتبادر إلى ذهننا أنّ مهنة الدّركي هي مهنةٌ حقيرةٌ/ (/on pourrait considérer que le métier de gendarme est un sot métier/).

ويُمكننا ضرب الأمثلة بالحالات التي يبرز فيها استدلالٌ ما بفضل قاعدةٍ

(108) Charolles, «L'Ordre de la signification,» p. 61.

تأويليّةٍ من مثل: «حين يظهر في المتتالية الخطابيّة قولٌ ذو صحّةٍ عامّةٍ، زِدْ من ملاءمته عبر تطبيقه على المقام الخاصّ الذي يُشكّل موضوع البحث في السياق (أو سياق النصّ الحاليّ)، أي قُمْ بإنشاء استدلالٍ يكون محتواه «مختصّاً» (وتوسّعه بالتالي محصوراً أكثر) مقارنةً بالمحتوى الحرفيّ».

وليس هذا سوى شكلٍ من الأشكال التي يُمكن أن تتّخذها قاعدة «توخّي ملاءمة القول القصوى» ذات الطابع الأكثر عموميّةً، فحين نعتبر أنَّ محتوى القول الحرفيّ غير ملائم على نحوٍ مرضٍ، نبذل ما بوسعنا لكي نزيد في نطاق المُمكن هذه المُلاءمة عبر تقدير دلالةٍ مُضمرةٍ من شأنها أن «تُثير الاهتمام» أكثر، أو أن «تنسَحِبَ» أكثر «على التبِعة». وقد صادفنا هذه القاعدة مرّاتٍ جمّةٍ، وأبرزها: في عبارة «أقلع بيار عن التدخين» («Pierre a cessé de fumer») (ولكن لمَ بحقّ السماء يُحدِّثني المتكلّم فجأةً عن بيار الذي لا يهمُّني ما يحلّ به، إن لم يكن يرمي من وراء ذلك أن يقترح عليّ أمراً ما يعنيني أكثر)، وفي تنويه أوسكار وايلد بمسألة قبح أحد الفتيان اليافعين (فإن لم يضطلع هذا التنويه بدورٍ برهانيٍّ مُحدَّدٍ، فهو سيبدو في هذا الصدد بمثابة «الشَّعرة التي تطفو في صحن الشورباء» («un cheveu sur la soupe»)، أو أيضاً في هذا المحسن البيانيّ الافتراضيّ الخاصّ الذي يقوم على مبدأ محادثة المُحاوِر عن الأمر الفلاني بقصد إفهامه بأنّنا ندرك أنَّ هذا الأمر الفلاني يجول في خواطره الدفينة. وبناءً عليه، نستنتج أنَّ هذه الآلية مسؤولةٌ عن عددٍ لا يُستهان به من الاستدلالات.

وإذا ما أبدى القول الإشكاليّ بعزم مقاومةً حيال إنشاء مثل هذا الاستدلال، فسيكون عرضةً لهزْؤ المُحاوِر (كأن يقول هذا الأخير مثلاً: «وماذا بعد؟» («et alors?») أو «إلامَ ترمي بالضبط؟» («où veux-tu en venir au juste?»))، أو لحنقه (على غرار هذا الحديث الذي دار في القطار الباريسي، ومفاده:

الولد، وهو فخورٌ بلا ريب بقدرته على القراءة: «لقد وصلنا إلى ريشوليو يا أمّي! لقد وصلنا إلى ريشوليو يا أمّي! يا أمّي...

الأمّ: ماذا تنتظر منّي أن أفعل؟ فنحن لا نقصد محطّة ريشوليو...»)

(L'enfant, tout fier sans doute de savoir lire: - «Maman, on est à Richelieu! Maman on est à Richelieu! Maman...

La mère - Mais qu'est-ce que tu veux que ça me fasse? On ne descend pas à Richelieu...»)

أم أيضاً لذهوله، كما في المثل التالي:

الشرطيّ المدعو جوليان سوريل، والمعروف باسم «جوجو»: - «هل لي بإلقاء نظرةٍ على مكتب البروفسور بريسّي [الذي لقِيَ مصرعه مساء أمس]؟ يقع مكتبه في الطابق الأوّل، أليس كذلك؟

- ولكن، أجل! تسألني عن طابقه! أجابت أوريان [وهي زوجة البروفسور بريسّي وأرملته حاليّاً]. ولكنّني لا أدري ما الذي عليّ فعله به؟ أكنتَ تؤجّره لو كنتَ مكاني؟

- يا للعجب، قال سوريل، وهو في حالةٍ من الذهول، ولكن حقّاً أنا لا...»[109]

(Le flic Julien Sorel, dit «Juju»: - «Pourrais-je visiter le cabinet du professeur Brisset [assassiné la veille]? C'est au premier étage, non?

- Mais oui! Son étage! Dit Oriane [épouse maintenant veuve du professeur Brisset]. J'ignore quoi en faire maintenant. Vous prendriez un locataire à ma place?

- Euh, dit Sorel interloqué, vraiment je ne...»)

وقد يصدرُ حتّى بحقّ الشخص الذي ينتهج تصرُّفاً خطابيّاً يتّصف بعدم-الملاءمة المُبطِلة حكماً يقضي بأنّه قد أصيب بمسٍّ من الجنون، فمثلاً: «إن توجَّهتُ بالحديث - بلا مقدّماتٍ - إلى الرّجل الجالس أمامي في الباص قائلاً إنّ بيار هو حاليّاً في مدينة شيكاغو، فسيخالني، وله الحقّ في ذلك، مجنوناً»[110] («Si dans l'autobus je dis - sans crier gare - au monsieur d'en face que Pierre est à Chicago en ce moment, il me tiendra pour fou et non sans raison»).

ونستنتج بالتالي أنّ قاعدة الملاءمة موجودةٌ إذ إنّها تعمل وتُطبَّق على أفعال الكلام بمختلف أنواعها على حدٍّ سواءٍ، ونذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر: النصيحة والالتماس والسؤال «المُلائم» و«الأحمق» (راجع المثل الآنف الذكر المُقتبس عن طوني دوفير أو أيضاً المثل التالي المُستمدّ من أرض الواقع، ألا وهو:

(109) Tony Duvert, *Un Anneau d'argent à l'oreille* (Paris: Editions de Minuit, 1982), p. 26.

(110) Martin, *Inférence, antonymie et paraphrase: Eléments pour une théorie sémantique*, p. 19.

المتكلِّم موجِّهاً حديثه إلى المُخاطب البولندي الأصل: أغالباً ما تزور بولندا؟

المُخاطب: وأنتَ؟. . .»).

(L_1 à L_2, d'origine polonaise. - «Tu vas souvent en Pologne?
L_2 - Et toi?...»).

ونحن نضمُّ صوتنا إلى صوت غريس الذي يعتبر أنَّ ثمّة العديد من الأسئلة «الصعبة للغاية» تُطرح بشأن قاعدة الملاءمة هذه ـ في ما يتعلَّق بوضعها وبطريقة ترابطها مع قانون الإخباريّة، ومع القواعد الألسنيّة اللُّغويّة بحصر المعنى التي تضبط التماسك الخطابيّ، فعلى سبيل المثال، إنَّ الجواب المُلائم هو الجواب الذي يُزوِّدنا بالمعلومة المطلوبة (فمثلاً، تُصرِّح إحدى الشخصيّات في مسرحيّةٍ من مسرحيّات جان تارديو، على غير ما كان متوقَّعاً، إلى شريكها الذي يُقرقر ويلجأ إلى المُصاداة فيُردِّد كالحبيس ما تقوله له من دون أن يفهم معناه، بما يلي: «أنا مَن يُخاطبك، وأنتَ تُجيبني بهذا القدر من الملاءمة[111] («Moi qui te parle et à qui tu réponds avec tant de pertinence»)، أي إنَّ الجواب المُلائم يكون بالتالي جواباً متماسكاً في إطار الثنائيّة المتجاوِرة التي تتألَّف من السؤال/ والجواب. وعليه، أينبغي أن ننظر إلى المبدأ العام القائِل بضرورة أن يكون كلّ خطابٍ، مونولوجيّاً كان أو حواريّاً، متماسكاً باعتباره مُستمدّاً من الكفاءة البلاغيّة التداوليّة التواصليّة، وإلى القواعد الخاصّة التي تؤمِّن هذا التماسك باعتبارها مُستمدّةً من الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة؟ وتتعلَّق هذه الأسئلة أيضاً بإمكانيّة تقعيد شروط تطبيق مبدأ من هذا القبيل، والتي تكون منوطةً بالكامل بالسياق التعبيريّ الأدائيّ وبالمُميِّزات الخاصّة بالمتكلِّمين المتفاعلين (على غرار وضعهم المعرفيّ والمواضيع التي تجذب اهتمامهم).

(3) قانون النزاهة

«إذا تركتموني أشاهد الفيلم بسلام، فبوسعكم أن تنزعوا أقنعتكم، وأعدكم بأنّني سأشهدُ بأنّكم أبقيتم عليها طوال الوقت ولن أخبر الشرطة ولا أيّ أحدٍ آخر بأنّني رأيتُ ملامح وجوهكم أو أنّ لديّ أدنى فكرةٍ عن سحنتكم. وأنا أُقسم لكم

(111) «Monsieur Moi. Dialogue avec un brilliant partenaire,» dans: Jean Tardieu, *Théâtre de chambre*, nouv. éd. rev. et augm. ([Paris]: Gallimard, [1966-]), p. 96.

علناً ورسمياً بالالتزام بما تعهَّدتُ به».

ثمّ رفع ثلاثاً من أصابع يده اليُمنى على طريقة الكشَّافة. وهو لم يسبق له مُطلقاً أن كان كشَّافاً، ولكن، إنّما الأعمال بالنيات»[112].

(«Si vous me laissez regarder le film, vous pouvez enlever vos masques et je vous promets de dire que vous les avez portés tout le temps, et je ne dirai jamais à la police ni à personne que j'ai vu vos visages, ni que j'ai la moindre idée de votre tête. J'en fais le serment solennel».

Il leva trois doigts de la main droite, à la manière des Scouts. Il n'avait jamais été Scout, mais il n'y a que l'intention qui compte).

تقضي «قاعدة النوع» التالية «فلتكن مساهمتك صادقةً» بوجوب الإدلاء بما نعتبره صادقاً وحسب، وهي تنطبِقُ على التأكيدات والإخبارات، ولكن أيضاً على التساؤلات (حيثُ يرغب المتكلّم بصدقٍ في معرفة الجواب)، والالتماسات (إذ يرغب المتكلِّم بصدقٍ في أن يمتثِلَ المُحاوِر) والوعود والأقسام (بما أنَّ المتكلِّم ينوي صدقاً الوفاء والالتزام بها)، هي قاعدةٌ «جوهريّةٌ» من وجهة نظر غريس، الأمر الذي قد يبدو مُفارِقاً نوعاً ما، إذا ما خطرت ببالنا فكرة أنَّ الكلام البشريّ يشتهر غالباً، بفضل إحدى ميزاته الخاصّة، بإمكانيّة استعماله «بقصد خداع الآخر أو نقل معلوماتٍ خاطئةٍ» أي بكلام آخر بإمكانيّة «الإخلال بأمانة الوظيفة» («prévarication») نقلاً عن ليونز[113] (Lyons) ـ وكذلك يشتهرُ الكائن البشريّ بأنّه «كذّابٌ»[114] («animal mendax») قبل كلّ شيءٍ. ونعلم على سبيل المثال أنّه يستحيل أن تؤدّي النحلة رقصتها لتُرشد نحلةً أخرى إلى موضع زهرةٍ لا وجود لها؛ وأنّه في حال تمّ قطع الزهرة المُشار إليها في غضون ذلك، توافي المنيّة النحلة الثانية كونها مُبرمجةً لإيجاد ما لم يعد موجوداً هنا، أي ما تلاشى، فتُفارق الحياة جرّاء ذلك. ولكن لا يُعزى سبب موتها إلى الخداع الذي وقعت ضحيّته. أمّا البشر،

---

(112) Donald E. Westlake, *V'là aut' chose! = Jimmy the Kid*, collection super noire; 34 ([Paris]: Gallimard, 1976), p. 165.

(113) John Lyons, *Eléments de sémantique = Semantics*, langue et langage, traduit par Jacques Durand; avec la collaboration d'Éliane Koskas (Paris: Larousse, 1978), p. 73.

(114) إنّ هذه العبارة مُقتبسة عن: Guido Almansi, «L'Affaire mystérieuse de l'abominable tongue-in-cheek,» *Poétique*, no. 36 (novembre 1978), p. 96.

ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أنّ الكلب يلجأ إلى استعمال الخداع، في حين يبدو أنّ الغوريلا المدعوّة «كوكو» (Koko) تعرِفُ كيف السّبيل إلى الكذب.

فقد يقعون في المقابل ضحيّة خداعٍ ـ وقد يُلاقون حتفهم جرّاء ذلك[115].

ولهذا السبب، من المهمّ أن نعمد على الفور إلى تذييل ما ينصّ عليه «قانون النزاهة» هذا بالبند التالي: لا يدَّعي هذا القانون إطلاقاً أنَّنا نُصدِّق بالضرورة ما نزعمه، وأنَّنا لا نملك دائماً نيَّة الوفاء بالوعود التي نقطعها ولا حتّى إنَّنا نتوقَّع الإستجابة لالتماساتنا. وجُلُّ ما يُعلنه أنَّ التحدُّث يعني ادِّعاء الصدق في القول الذي نُدلي به؛ وأنَّ كلّ قولٍ يفترضُ، بعيداً عن التدابير المُضادّة من النمط التالي: «أقول هذا على سبيل المزاح» («c'est pour de rire»)، و«لستُ جادّاً في ما أقوله» («je plaisante»)...، إلخ، وفي حال لم تكن المسألة مسألة اقتباس بيِّنٍ أم مُضمَرٍ، أنَّ المتكلِّم يلتَزِم بالمحتويات التي يؤكِّدها؛ وبموازاةِ ذلك، أنَّ هذا الأخير يحظى، في غياب أيّ تدبيرٍ مُضادٍّ دائماً، على حيِّزٍ من ثقة المتلقِّي بنزاهته[116]. وأخيراً، لا طائل من معرفة ما إذا كان غريس ومور على صواب حين أعلنا أنَّ «قول الحقيقة أسهل بكثيرٍ من اختلاق الأكاذيب»[117] أو «إنَّ الكذبة، مع أنَّها عملةٌ رائجةٌ، إلاّ أنّها تبقى شذوذاً إلى أبعد حدٍّ»[118]. حتّى وإنْ

---

(115) وقد تتبادر إلى ذهننا حالة منكودي الحظّ اللوقانيّين (Lucayens) الذين أعياهم (بحسب تودوروف: Tzvetan Todorov, *La Conquête de l'Amérique: La Question de l'autre* (Paris: Editions du Seuil, 1982), p. 122),

الشعور باليأس إثر خداعهم على نحوٍ مُنكرٍ من قبل الإسبانيّين؛ ناهيك بحالة جان سيبيرغ (Jean Seberg) الذي وقع ضحيّة افتراء مكتب التحقيقات الفيديراليّ عليه.

(116) راجــع: Jacques Moeschler, *Dire et contredire: Pragmatique de la négation et acte de réfutation dans la conversation*, sciences pour la communication; vol. 2 (Bern; Frankfurt: Peter Lang, 1982), p. 66,

القائل: «المُهمّ لحسن سير فعل التأكيد والإخبار، أن يقتنع الشخص الذي يتوجّه إليه فعل القول بأنّ الشخص الذي يُدلي بفعل القول يؤمن بصدق الجُمَيلة الأولى "ج". وينبغي إعادة صياغة قاعدة النزاهة تبعاً «لشرط النزاهة الانعكاسيّة» ـ ينبغي أن نُطبّق على هذه الإشكاليّة الخاصّة المبدأ العامّ الذي سنُدلي به في مرحلةٍ لاحقةٍ، ألا وهو: تتألّف خصائص القول، من تلك التي يمنحه إيّاها الشخص الذي يتلقّاه (أو الأشخاص الذين يتلقّونه) فقط لا غير.

(117) Grice, «Logique et conversation,» p. 63.

في معرض إثبات هذا التأكيد، نقول ما يلي: في حصّة تعلّم لغةٍ أجنبيّةٍ ما حيثُ تتعلّق المسألة بالتلاعب بتراكيب الجُمَل من دون الاكتراث بمطابقتها، غالباً ما نُلاحظ وجود مقاومةٍ جليّةٍ حيال الكذب، إذ يشقّ على الأشخاص الإدلاء بما يُصنّفوه تحت باب الحقائق المُعاكِسة، حتّى وإن كانت غير مؤذيةٍ.

(118) راجع مور (G. E. Moore) الذي استشهد به ريكاناتي في: François Récanati, *La Transparence et l'énonciation: Pour introduire à la pragmatique*, l'ordre philosophique (Paris: Editions du Seuil, 1979), p. 183.

كانت الكذبة مُثبتةً إلى أقصى حدٍّ، فهي لا تتعدّى كونها تصرُّفاً خطابيّاً موسوماً بالنسبة إلى معيار النزاهة، ونعجز عن تصوُّر أيّ لغةٍ تعمل في اتّجاهٍ مُخالفٍ.

وإليكم بعض الأدلّة التي من شأنها أن تُدعّم هذا التأكيد في ما يتعلّق بالطابع اللاّمتماثل الذي يتّصف به التعارض القائم بين النزاهة/ والكذب، ألا وهي:

1. اعتبارٌ ذو طابع مُعجميٍّ: لا يوجد نقيضٌ للاسم «كذّاب» («Menteur»)؛ فمن البديهيّ جدّاً أن يكون المرء «شخصاً يتفوّه غالباً (أو بشكلٍ عامٍّ) بالحقيقة» لدرجة أنَّ اللّغة لم تشعر بالحاجة إلى إنشاء كلمةٍ من شأنها أن تدلّ على هذا الأمر.

2. وإليكم هذَين المثلَين:

المثل الأوّل: لقد ذهبتُ إلى السينما يوم الثلاثاء المُنصرم، ولكنّني لا أصدّق ذلك (Je suis allé au cinéma mardi dernier, mais je ne le crois pas)،

المثل الثاني:

في الحقيقة، أنا أكبر سنّاً ولكنّني كنتُ أجهلُ ذلك[119] («En vérité je suis plus âgé mais je l'ignore)،

وإنَّ هاتَين الجملتَين متناقضتان أشدّ التناقض، ففي الواقع، تعني الجُمَيلة الأولى «ج» ما يلي: «أنا أعتقد/ أو على يقينٍ من الجُمَيلة الأولى «ج»»

(«je crois/ sais que p» (أي إنَّ الجُمَيلة الأولى «ج» صحيحةٌ بنظري (p est vrai pour moi))؛

(وبتعبيرٍ آخر:

كلّ إنسانٍ فانٍ = صحيحٌ أنَّ كلّ إنسانٍ فانٍ، وصحيحٌ أنّه صحيحٌ أنَّ. . .

(Les hommes sont mortels = il est vrai que les hommes sont mortels, il est vrai qu'il est vrai que...)

من الممكن أن يكون كلّ إنسانٍ فانٍ = صحيحٌ أنَّه ممكنٌ. . (Il est possible que les hommes soient mortels = il est vrai qu'il est possible...).

من الخطأ أن نقول إنَّ كلّ إنسانٍ فانٍ = صحيحٌ أنّه من الخطأ أنَّ. . (Il est .

(119) نقلاً عن ميلير (H. Miller).

faux que les hommes soient mortels = il est vrai qu'il est faux que...)

ليس كلّ إنسانٍ فانٍ = من الخطأ أن نقول إنَّ كلّ إنسانٍ فانٍ، وصحيحٌ أنّه من الخطأ. .(Les hommes ne sont pas mortels = il est faux que les hommes ne sont pas mortels, il est vrai qu'il est faux...)، ونستنتج من هذه الأمثلة ما يلي:

وحدها الأقوال الموسومة بالنفي تتوصَّل إلى تأكيد خطأ أحد المحتويات الجُمَيليّة).

ولا بدّ أيضاً من التذكير بأنَّه في حال جرت العادة أن نصوغ الالتماس غير المباشر من خلال طرح التساؤل بشأن شروط نجاحه (على غرار المثل التالي: «هل لك أن، أم هل تستطيع أن تُمرِّر لي الملح؟» («Voudrais-tu, pourrais-tu) me passer le sel?»)، فوحده شرط النزاهة يشذّ عن هذه القاعدة (مثلاً: «أودُّ لو تُمرِّر لي الملح؟» («Voudrais-je que tu me passes le sel?»))، إذ لا يُمكن طرح هذا الشرط للمناقشة (في حين أنَّه يُمكن تأكيده كما يلي: «أودُّ أن تُمرِّر لي الملح» («je voudrais que tu me passes le sel»)) لأنَّ المسألة تتعلَّق في هذا الصدد، كما يستنتج باريه[120] بـ «مبدأ نظرياتيّ مركزيّ».

3. وبتماثلٍ، يُحدث عموماً تفسير مبدأ «مُسلَّم به جدلاً» («taken for granted») بصلابةٍ مفعول تحصيل الحاصل الغريب العجيب، كما في المثلَين التاليَين:

المثل الأوّل: لا أستطيع المجيء، فعليَّ أن أقُلّ أحدهم من المحطة ـ فضلاً عن أنَّ ذلك صحيحٌ (Je ne peux pas venir, j'ai quelqu'un à aller chercher à la gare - et en plus c'est vrai).

المثل الثاني: ذات يوم وأنا أُعيد قراءة أحد مؤلّفات أرسطو ـ وهذا صحيحٌ فضلاً عن ذلك. . (L'autre jour en relisant Aristote - c'est vrai en plus...)، ونستنتج ما يلي:

---

(120) Herman Parret, «Eléments d'une analyse philosophique de la manipulation et du mensonge,» *Documents de travail et prépublications. Centro Internazionale di Semiotica e di Linguistica. Universita di Urbino*, no. 70 (1978), p. 15.

يعني توضيح مبدأ النزاهة الذي من المُفترَض أن يرتكز عليه أيّ تصرُّفٍ خطابيٍّ، انتهاك قانون الإخباريّة بشكلٍ أو بآخر، ولا يتمُّ ذلك، إلاّ في بعض الظروف الخاصّة، وأبرزها:

● بغية «المصادقة على محتوى معيَّنٍ أو التصديق عليه أو التسليم به أو إعادة تأكيده» («endorse, confirm, concede ou reassert»)، ويسعنا على سبيل المثال أن نقول «صحيحٌ أنَّها تُمطر» («It is true that it is raining») في حين تكون الصياغة الطبيعيّة بكلّ بساطةٍ كالآتي «إنَّها تُمطر»[121] («It is raining»).

● في بعض أنواع الخطاب، على غرار الجَهْر علناً بالآراء الانتخابيّة حيثُ تتَّسم المُطالبة بالنزاهة بنوعٍ من الإخباريّة، إذاً الشرعيّة، إذاً التواتر، بحيث يترتَّب عليها مكافحة «الفكرة العامّة المألوفة» التي يَحفَلُ بها هذا «النمط اللُّغويّ»، كأن نقول مثلاً: رجال السياسة كلُّهم كذَّابون ويحنثون بالوعد، لأنَّهم يُصرِّحون بأمورٍ من مثل:

أقول لكم ذلك بصراحةٍ. (Je vous le dis bien franchement...).

برنامجي الانتخابيّ هذا، سأبى إلاّ إنجازه (Mon programme électoral, je l'accomplirai).

ما أقترحه عليكم سأضعه حيِّز التنفيذ، إنْ أنتم رغبتم في ذلك (Ce que je vous propose, je le ferai. Si vous voulez).

● وأخيراً تمتاز، بحسب دارد[122]، بعض الخطابات الأيديولوجيّة بمجملها وبالأخصّ خطابَي الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ وجريدة *L'Humanité*، بنزوعها الطبيعيّ إلى تنصيب نفسها بشكلٍ بيِّنٍ باعتبارها «تنطق بالحقيقة» («véridicteur») المُطلقة والحصريّة. وعلى أثر تصريحه[123] بما يلي: «تقضي القاعدة العامّة بأنّه يتعيَّن علينا عندما نتكلَّم أن نبدو بشكلٍ مُضمَرٍ وكأنّنا نقول الحقيقة، أو على

(121) Herbert Paul Grice, «Further Notes on Logic and Conversation,» in: Peter Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics*, Edited by John P. Kimball; Edited by Peter Cole (New York; San Francisco; London: Academic Press, Harcourt Brace Jovanovich, 1978), p. 125.

(122) Darde, *Le Ministère de la vérité.*

(123) المصدر نفسه، ص 15.

الأقلّ وكأنّنا نعتقد بصدقٍ بأنّنا نتفوّه بها. ويُشكّل هذا الالتزام المُضمَر باحترام مبدأ الحقيقة أولى شروط التواصل. علماً بأنّ إمكانيّة الكذب ببراعةٍ ترتكز على هذا المبدأ بشكلٍ أساسيّ [. . .]. ويُعزى سبب ذلك إلى أنّ الالتزام باحترام مبدأ الحقيقة، أي عقد الحقيقة، هو التزامٌ مُضمَرٌ، وغالباً ما يكون من النافل صياغته بشكلٍ بيِّنٍ»، يُردف دارد قائلاً[124]، ما يلي: «إنّ ما يُميِّز جريدة *L'Humanité* عن سواها من صحف المعلومات الكبرى، يكمن في الموقع الذي يحتلّه فيها التأكيد البيِّن لجهة احترام عقد الحقيقة، ولاسيّما الشكل التفخيميّ المُفرط الذي تتّخذه، فغالباً ما ترمي عبارة «أنا أقول الحقيقة بشأن. . .» («Je dis la vérité sur...») داخل جهاز الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ إلى قول «أنا أمثِّل الحقيقة» («Je suis la vérité»).

4. وتقضي بالتالي قاعدة النزاهة بأن نُحجم عن الإدلاء إلا بما نعتقده صحيحاً؛ ولكن أيضاً، وتتعلّق هنا المسألة ضمن هذا النطاق بمبدأ تفاعليّ، بأن نكون قادرين على أن نكفل هذه الحقيقة، وبأن نُثبِتَ أنّنا نتكلّم عن معرفةٍ (فلا يُقال لنا مثلاً: «وما أدراك بهذا الموضوع؟» («Qu'est-ce que tu en sais?»)، و«تحدَّثْ عن ما تعرفه!» («Parle de ce que tu connais!»)، و«عندما لا يكون المرء خبيراً بموضوعٍ ما، فحريٌّ به التزام الصمت» («Quand on n'y connaît rien on a le bon goût de se taire!»)، وبأن نُبرِّر أخيراً، بغضّ النظر عن اعتقادنا الشخصيّ الرّاسخ، كلامنا الموجّه إلى الشخص الآخر. وجديرٌ بنا التذكير بأنّ غريس قد فنَّدَ قاعدة النوع على المنوال التالي:

لا تؤكِّد ما تعتقد أنّه خاطئٌ
/ لا تؤكِّد إلاّ ما تعتقد أنّه صحيحٌ/

(«N'affirmez pas ce que vous croyez être faux
/n'affirmez que ce que vous croyez être vrai/»)

(وهذا لا يعني أبداً، وسنتطرّق لاحقاً إلى هذا الموضوع، أنّ على المرء أن يؤكِّد كلّ الأمور التي يعتقد أنّها صحيحةٌ).

لا تؤكِّد ما تفتقر إلى الأدلّة على صحّته («N'affirmez pas ce pour quoi vous manquez de preuves»).

(124) المصدر نفسه، ص 16.

ولا نُفشي سرّاً إذا قلنا إنّنا لا نرصد دائماً وجود هذَين المبدأين المثاليّين، فالأمر عكس ذلك، فنحن غالباً ما ننطق بمحتوياتٍ لسنا واثقين تمام الثّقة بأنّنا نُذعن لها ـ ناهيك بالإشكاليّة السيكولوجيّة، التي لن نخوض في النقاش فيها بل سندعها جانباً بحذرٍ، والتي يثيرها مفهوم الإذعان نفسه في ما يتعلّق بالأشخاص الذين يعانون انفصالاً وبالمحتويات المُشوَّشة[125]... وعليه، يقتصر بحثنا على مستوى «التصرُّف ـ كما ـ لو» (faire-comme-si) الذي يُثير اهتمامنا في هذا الصدد، ولكن لا بدّ لنا من التنويه بتواتر تسجيل علامات الوقف المُزعجة في عبارة «أنَ لا رف[*]» («j'sé pas») التي تطالعنا على الصعيد الشَّفهيّ، والتي لا تمنع مع ذلك الضمير «أنا» («je») من تأدية دور التأكيد -، فيقطع علينا بالأوْلى باب الجدل، وكأنَّ الشّخص الذي يُدلي بهذه العبارة يقول ما يلي: لقد قلتُ ما قلته بلا وثوقٍ، هكذا، ولكن أتعلم بِمَ أفكِّر، لستَ مُرغماً على تصديقي. (j'ai dit ça en l'air, comme ça, mais tu sais ce que j'en dis, d'ailleurs tu n'es pas forcé de me croire...). و«يُشكِّل» الخطاب الكاذِب من وجهة نظر باريه[126] «انقطاع الثقة الذي يُعرِّض مبدأ التخاطبيّة لخطر التقويض». وتجدر الإشارة إلى أنّنا سنتأمَّل لاحقاً في هذه الإشكاليّة بغية تصوُّر[127] مُختلف حالات الإخلال بِـ«عقد» النزاهة التي تنشأ ضمناً، على الصعيد العامّ والمبدئيّ، بين الشركاء في التبادل الكلاميّ.

---

(125) لقد أدان بافيل (Thomas G. Pavel, «Ontological Issues in Poetics: Speech Acts and Fictional Worlds,» *Journal of Aesthetics and Art Criticism*, vol. 40, no. 2 (Winter 1981)), باسم اعتباراتٍ من هذا القبيل قاعدة النزاهة وشجَبَها؛ وهذا بلا ريب ما حدا أيضاً بِـ إيبوستيغي (Ipoustéguy) إلى استنباط هاتين الكلمتَين الواسعتَيّ المدلول، ألا وهما: «خصأ» («vraux») (أي ما هو صحيحٌ ولكن تشوبه بعض الأخطاء) و«خصيح» («farai») (أي ما هو خاطئٌ على الرّغم من أنّه لا يخلو تماماً من بعض الأمور الصحيحة) (وقد أوردَ هذَين المُصطلحَين في كتابه: Jean Ipoustéguy, *Sauve qui peut, Robin: ou le Don hérétique: Essai sur la sophoscatophagie* (Paris: Grasset, 1978), p. 30).

(*) إنَّ هذه العبارة هي اختزال نُصادفه على الصعيد الشّفهيّ لعبارة «أنا لا أعرف» («Je ne sais pas») وسببه سرعة النطق بهذه العبارة.

(126) Parret, «Eléments d'une analyse philosophique de la manipulation et du mensonge,» p. 1.

(127) إثـر John Langshaw Austin, *Quand dire, c'est faire = How to Do Things with Words*, l'ordre philosophique, introduction, traduction et commentaire par Gilles Lane (Paris: Editions du Seuil, 1970)، في المؤتمر الرابع، و John R. Searle, *Sens et expression: Etudes de théorie des actes de langage = Expression and Meaning*, le sens commun, traduction et préface de Joëlle Proust (Paris: Editions de Minuit, 1982), chap. 3.

2. قوانين خطابيّة أكثر خصوصيّة

أ) ذات طابعٍ ألسنيٍّ لغويّ.

تُعنى بشكلٍ أساسيٍّ القواعد التي سننظر فيها في هذا الصدد، مع احتفاظها بطبيعتها التداوليّة التواصليّة البلاغيّة، بطبيعة المحتويات الدلاليّة التي يجدر «طبيعيّاً» أن يتمّ التعبير عنها شفهيّاً، بخلاف تلك التي سنتطرّق إليها في الفقرة التالية ب)، والتي ترعى مجمل التصرُّفات الاجتماعيّة.

(1) قانون الإخباريّة.

«في مقام محادثةٍ ما حيثُ لا تكون الثرثرة سيّدة الموقف» (أي حيثُ لا تتعلّق المسألة بِ «محادثات حول شؤونٍ تافهةٍ» («small talks»))، «لا ننطق عادةً بأمر من المُحتمل أن يكون الشخص الذي نحدِّثه مُطّلعاً أصلاً عليه أو أنَّه يعتبره أمراً مُكتسباً. هذا إجمالاً ما نفقهه من امتلاك نيَّة التزويد بالمعلومات»[128].

ولا يسعنا إنكار أنَّ «قانون خطابٍ» من هذا القبيل يعكس بعض مظاهر الكفاءة التي يتحلّى بها المتكلّمون، لأنَّه يُعوّل عليه لإبراز التأثير العجيب أو الغريب أو الفاضح الذي يُحدِثه أحياناً انتهاكه، على غرار:

1. التعبير الشَّفهيّ عن وقائعَ «بديهيّةٍ» والذي غالباً ما يستوجب ردّاً ساخراً على غرار عبارتَيّ «بلا مزاح!» («sans blague!»)، و«لقد أذهلتني!» («tu m'étonnes!») (وهما عبارتان تهكُّميّتان)، أو أيضاً ردوداً من مثل «أنا مُلمٌّ بهذا الأمر!» («je suis au courant!»)، و«ولكن لا أحد يقول عكس ذلك!» («mais personne ne dit le contraire!») . . .، إلخ، كما يظهر في المثلَين التاليَين:

المثل الأوّل: هذا أنا. ـ أرى ذلك جليّاً! («C'est moi. - Je le vois bien!»)

المثل الثاني: أليس هذا الفستان بخس الثمن وكأنّه مجّاني؟ ـ كلا إنّه للبيع![129]

---

(128) Gordon et Lakoff, «Postulats de conversation,» p. 41.

(129) راجع أيضاً هذه الخربشة التحاوريّة المأخوذة عن جدار أحد دور المياه في جامعة كولومبيا (Université Columbia)، ألا وهي:

«لا شيء يُضاهي، من حيثُ المبالغة في تقديره، العضو الذكوري لدى الذكور»

«وهل ثمّة صنفٍ آخر من الأعضاء الذكوريّة لدى غير الذكور؟».

(«There has never been a more over-rated object than the *male* phallus»

«Is there any other kind?»).

. («Cette robe elle n'est pas donnée. - Non elle est vendue!»)

2. البديهيّات والتحصيلات الحاصلة والبداهات، وهذه بعض الأمثلة:

المثل الأوّل: عندما يتمّ تخطّي المألوف، ينتفي وجود الضوابط(130)

(«Quand la borne est franchie, il n'y a plus de limites»).

المثل الثاني: خيرٌ أن يكون المرء ثريّاً وبصحّةٍ جيّدةٍ من أن يكون فقيراً وعليلاً.

(«Mieux vaut être riche et en bonne santé que pauvre et malade»).

المثل الثالث: إنَّ الأطفال أصغر سنّاً من العديد من الطاعنين في السنّ(131).

(«Les enfants sont plus jeunes que bien des vieillards»).

المثل الرابع: منذ أن ذهبتِ أدركتُ أنَّك لم تعودي هنا(132).

(«Depuis que tu es partie je m'aperçois que tu n'es plus là»).

المثل الخامس: تكمن الطريقة المثلى للمشي في وضع قدمٍ أمام الأخرى وإعادة الكرّة.

(«La meilleure façon de marcher, c'est de mettre un pied devant l'autre, et de recommencer»).

3. إضافات لا طائل تحتها، كما في الأمثلة التالية:

المثل الأوّل: الكلّ مدعوٌّ [إلى هذه المباراة]، وأهل اللاّعبين ضمناً.

(«Tout le monde est invité [à ce match], les parents des joueurs y compris»).

المثل الثاني: الحياة في القاهرة لا تُطاق - بالنسبة إلى مَن يقطنها طبعاً.

(«Le Caire est invivable - pour ceux qui y vivent évidemment»).

المثل الثالث: فاتحاً عينه الثانية والأخيرة...(133)

(«Ouvrant son second et son dernier œil...»).

المثل الرابع: لم يكن الشعر يكسو فروة رأسه، شأنه شأن العديد من الأشخاص الذين يُعانون الصّلع(134).

---

(130) مثل مأخوذ عن فرانسوا بونسار (François Ponsard).

(131) مثل مأخوذ عن إيريك ساتي (Éric Satie).

(132) مثل مأخوذ عن إيماغو (Imago).

(133) مثلٌ مُقتبسٌ عن كونو (Queneau).

(134) [مثلٌ مأخوذٌ عن أجار] (E. Ajar).

=

(«Il n'avait pas de cheveux comme beaucoup de chauves»).

4. مُلطِّفات لا طائل تحتها، على غرار المثل التالي:

. . . لا أريد أن أقول بأنَّ والي المقاطعة هو مَن أسرف في تبديد الأموال. . .[135]

(«... Je ne veux pas dire que c'est le préfet qui a mis la bombe...»).

5. نصائح لا طائل تحتها، وهذا مثلٌ على ذلك:

حذارِ أن تُعادي ولد المرأة التي تعشقها (هذا هو المغزى الذي خُتِمَت به إحدى القصائد بقلم فيكتور هوغو والتي تحمل عنوان «نصيحةٌ سديدةٌ للعشّاق»).

(«Ne mangez pas l'enfant dont vous aimez la mère» (sic) (moralité qui clot le poème de Victor Hugo «Bon conseil aux amants»)).

6. أوامر غير مُجديةٍ، كما يظهر في المثل التالي:

سيلفيا: . . . أمّا أنا، فأودُّ لو يبادلني بورغينيي مشاعر الحبّ.

دورانت: تُخطئين يا ليزيت الجميلة بقول كلمة أودُّ فلا داعي لأن تُصدري هذا الأمر لأنَّ طلبَكِ مُستجابٌ[136].

(«SILVIA. -... Et moi, je veux que Bourgogne m'aime.

DORANTE. - Tu te fais tort de dire je veux, belle Lisette; tu n'as pas besoin d'ordonner pour être servie»).

7. أجوبة غامضةٌ، كما في المثلَين التاليَين:

= ينتج التأثير الهزليّ في هذَين المثلَين من واقع أنّهما يوحيان، بمقتضى قانون الشمولية، أنّ الشَّعر يكسو رأس بعض الصلع، وأنّ ثمّة طرقاً أخرى للمشي. والحال أنّ «ليست هذه الطريقة الفضلى للمشي بل إنّها الطريقة الوحيدة الواحدة» («ce n'est pas la meilleure façon, c'est la seule») كما يقول ميشال أرّيفي (Michel Arrivé) بشأن الحكمة الآنفة الذكر، وكذلك بشأن الحكمة التالية التي سبكها في قالبٍ مُشابهٍ، ألا وهي: تكمن الطريقة الفُضلى للتحدُّث في النُّطق بكلمةٍ تلو الأخرى، وإعادة الكرّة» («La meilleure façon de parler, c'est de mettre un mot devant un autre et de recommencer») (مثلٌ مأخوذٌ من كتاب: Michel Arrivé, *Les Remembrances du vieillard idiot: d'Alfred Hellequin, avec des fragments de la biographie d'Adolphe Ripotois et de ses œuvres inédites: Roman* ([Paris]: Flammarion, 1977), p. 75).

(135) مثلٌ مأخوذٌ عن لويس براديل (Louis Pradel)، وهو رئيس بلديّة ليون السابق.

(136) مثلٌ مُقتبسٌ من المشهد السّادس من الفصل الأوّل من مسرحيّة **لعبة الحبّ والقدر** (*Le Jeu de l'amour et du hasard*).

المثل الأوّل: ربّما نعم، وربّما لا («Peut-être bien qu'oui, peut-être bien qu'non»).

المثل الثاني: بمَن تُفكِّر؟ ـ بشخصٍ ما («A qui penses-tu? - A quelqu'un).

8. أسئلة محض شكليّة، على غرار هذَين المثلَين:

المثل الأوّل: مرحباً يا بيار. أهذا أنتَ؟ هل استيقظت؟ («Salut Pierre. C'est toi? Tu es levé?»)

المثل الثاني: خاض يهوديّان مُحادثةً شائقةً؛ وبينما كانا يمشيان سقط أحدهما في حفرةٍ، فتابع الآخر بادئ الأمر طريقه، ولكنّه سرعان ما تنبّه إلى ما جرى، فعاد أدراجه، وقال:

ـ هل سقطتَ؟

ـ ولكن كلاّ، أنا أسكن هنا، طبعاً!

(«Deux juifs sont plongés dans une discussion passionnée; l'un d'eux tombe dans un trou. L'autre continue d'abord, puis s'en aperçoit, et revient sur ses pas:

- Tu es tombé?

- Mais non, c'est là que j'habite, bien sûr!»),

يؤشّر هذا الردّ ـ الدعابة بسخريةٍ إلى عبثيّة السؤال السابق المنوطة بانعدام إخباريّته. «وفي حال ضحكنا، فمردّ ذلك أيضاً إلى العُرف الذي يحول «طبيعيّاً» دون إدلائنا بما يكون بديهيّاً في مقام معيّنٍ (إذ تُعدُّ مخالفةُ هذا العُرف أسلوباً كلاسيكيّاً من شأنه أن يُثير الضحك)»، وهذا ما يُميِّز بحسب ميلنر[137] مجمل النّكات اليهوديّة التي تُسمّى «دعابات أيّام زمان»[138] («en No-Na»).

تُظهر كلّ هذه الأمثلة، ما يلي:

● يُطبَّق قانون الإخباريّة على أفعال الكلام بكافّة أنواعها، أي على التأكيد

---

(137) Judith Milner, «Langage et langue - ou: «De quoi rient les locuteurs?»,» *Change*, no. 29 (1976), p. 190.

(138) بشأن الهزل الذي ينتج جرّاء انتهاك قانون الإخبارية، راجع أيضاً: Olbrechts-Tyteca, *Le Comique du discours*, pp. 191-194,

فضلاً عن أعمال غرافينكيل (Grafinkel) التي تتناول واقع أنّ أيّ انتهاكٍ منهجيٍّ يطال هذا القانون قد يتسبّب «بأزمةٍ تفاعليةٍ» حادّةٍ.

والإخبار، ولكن أيضاً على التساؤل (الذي لا يكون جوابه بديهيّاً تماماً) وعلى الأمر والنصيحة (شرط ألاّ يكون محتوماً تنفيذ الفعل الذي صدر أمرٌ بتنفيذه أو نصيحةٌ بشأنه في جميع الأحوال بمعزلٍ عن فعل قول الأمر أو النصيحة) ـ وكذلك على بعض التصرُّفات غير الكلاميّة، فمثلاً: حين أودُّ وأنا أقود السيّارة أن أنعطف، أقوم بتشغيل الطارف، ولكن إذا ما تنبّهتُ أنّه ما من احتمالاتٍ أخرى للسير، أُطفئه على الفور[139] («au volant par exemple, voulant tourner, je mets mon clignotant; mais si je constate qu'il n'y a pas d'autre possibilité circulatoire, je le retire aussitôt»).

● قد يرتكز الطابع غير الإخباريّ الذي تتّصف به المتتالية على واقع أن تكون المعلومة المطروحة إمّا مُعبَّراً عنها أصلاً شفهيّاً في السياق الحاليّ للنصّ السابق، أم أنّها تتطابق مع إحدى خاصيّات السياق الخاصّ الواضحة (كما في هذَين المثلَين: «يهطل المطر» («Il pleut»)، و«هذا أنا» («C'est moi»)) أو مع أحد الآراء «المُعترف بها باطنيّاً» في ما يتعلّق بالسياق العامّ (على غرار: «خيرٌ أنْ يكون المرء ثريّاً وبصحّةٍ جيّدةٍ من أن يكون فقيراً وعليلاً» («Mieux vaut être riche et en bonne santé que pauvre et malade»). وهكذا، يتعارضُ تحصيل الحاصل مع البديهيّة، حيث إنَّ شذوذه يرتكز على بُنية القول الدلاليّة الداخليّة ويتمُّ بالتالي تحديده بفضل الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة وحدها، في حين تضع البديهيّة التي تُعلن حقائق لا يخطر ببال أحدٍ أن يعترض عليها، كفاءة المتكلِّمين الموسوعيّة في دائرة الشكّ.

وعليه، يُحظِّر قانون الإخباريّة استعمال ما سبق قوله أو ما هو بديهيٌّ، أو يقضي على الأقلّ بوجوب معالجتهما بحذرٍ. وإنَّ العبارات التالية «كما سبق وأشرتُ لكم مرّاتٍ عديدةٍ» («Comme je vous l'ai déjà signalé à plusieurs reprises»)، و«مثلما سبق وذكرنا» («ainsi que nous l'avons déjà mentionné»)، و«من المُبتذل لا بل من البديهيّ أن نقول...» («C'est une banalité, une vérité d'évidence que de dire)...»، ... و«بما أنَّ باخ كان، كما يعلم الجميع، عازف أرغن لسنواتٍ عديدةٍ» («puisque comme chacun sait Bach fut un certain

(139) أمّا بالنسبة إلى واقع أن أشغّلَ الطارِف أم لا، فهذا يتوقّف على تقديري بأنّه سيُثير اهتمام السائقين الآخرين أم لا، فهذا الأمر يتعلّق بقانون الملاءمة.

و«أمِنَ الضروريّ التذكير بأنَّ فيتغنشتاين كان ،nombre d'années organiste»)
نمساويّ الأصل ومُتأثِّراً بكَنْت؟»[140] («Wittgenstein était, faut-il le rappeler?
فضلاً عن المثل التالي الذي يضربه ،un Autrichien imprégné de Kant»)
أوستن[141]، ألا وهو: «سأستهلُّ كلامي بإبداء بعض الملاحظات بشأن «معنى كلمةٍ ما». وأعتقد أنَّ بعض الأشخاص قد أدركوا منذ الآن ما الذي سأقوله أو جزءاً منه. ولكن باعتبار أنَّ البعض الآخر ليس ملمّاً بمعنى هذه الكلمة، وبما أنّه ثمّة ميلاً لنسيانه أو لفهمه على نحوٍ خاطئ، فسأتوقّف عنده في مُستهلّ حديثي. وقد أخدشُ شعور بعض المُطّلعين، لذا أقدّم لهم اعتذاري المُسبق» («I begin, then, with some remarks about 'the meaning of a word'. I think many persons now see all or part of what I shall say; but not all do, and there is a tendency to forget it, or to get is slightly wrong. In so far as I am merely ،flogging the converted, I apologize for them») تُشكّل كلُّها تحفُّظاتٍ خطابيّةٍ تضطلع بدور محاولة «التكفير» عن هذه «الإهانة» التي تنشأ جرّاء انتهاك أيٍّ من قوانين الخطاب، فعلى سبيل المثال، يقول بازوليني[142] ما يلي: يلجأ فيرارا إلى استعمال براهين صائبة تماماً [. . .] ولكنّها نافلةٌ بما فيه الكفاية [. . .]. وكنتُ أجدها صائبةً لدرجة أنّني كنتُ عاجزاً عن إثباتها من دون أن أُهين القارئ» («Ferrara use d'arguments parfaitement justes [...] mais assez inutiles [...]: je les tenais pour tellement justes que je ne pouvais pas les confirmer sans .offenser le lecteur»)

ولكن لماذا إذاً يُصار إلى اقتراف هذه الإهانة عمْداً؟ لأنّنا لا نكون واثقين تمام الثقة بأنّنا نحاول إقناع مُقتنعين. هل ما نُدلي به أمرٌ ظاهرٌ للعيان؟ وإن يكن، فقد لا تسترعي البداهات انتباه المُرسَل إليه. وهل ذكّرناه بهذا الأمر مراراً وتكراراً؟ ولكنّه قد يكون أساء سماعه (ويقول باتريك بيسّون (Patrick Besson)

---

(140) Michel Meyer, *Logique, langage et argumentation*, Hachette université. Langue, linguistique, communication (Paris: Hachette, 1982), p. 53.

(141) John Langshaw Austin, *Philosophical Papers*, Edited by J. O. Urmson and G. J. Warnock, 3rd ed. (Oxford [Eng.]; New York: Oxford University Press, 1979), p. 56.

(142) Pier Paolo Pasolini, *Ecrits corsaires = Scritti corsari*, traduit de l'italien par Philippe Guilhon (Paris: Flammarion, 1976), p. 110.

في كتابه **آلام الحبّ الخفيفة**[143]، ما يلي: «لقد سبق لي وقلتُ ذلك، وأسفاه! سأكرِّر. لم يبقَ شيءٌ لقوله فكلّ الأمور قد قيلت أصلاً، ولكن يتعيَّن تكرارها، فعلى مَن تقرأ مزاميرك يا داوود!» («Je l'ai déjà dit, tant pis. Je répète. Toutes choses sont dites déjà, mais il faut répéter, personne n'écoute»)، ويجوز أيضاً أن تخونه الذاكرة (إذ «إنَّ الإنسان مجبولٌ على النسيان» («there is a tendency to forget it»). وعليه، يعمل قانون الإخباريّة قياساً إلى ما يفترضه المتكلِّم، ليس مُطلقاً عن الكفاءة الموسوعيّة الشّاملة التي يتمتَّع بها المُحاوِر، بل عن معارفه المُجنَّدة. وبحسب سبيربر[144]، «تُقسم ذاكرة الفرد في وقتٍ معيّنٍ إلى قسمَين على الأقلّ، ألا وهما: الذاكرة الهامِدة من جهةٍ، وتتألَّف من المعلومات المُكدَّسة والمُخزَّنة طوال مدَّة الحياة، والذاكرة الناشِطة من جهةٍ أخرى والتي تتكوَّن من المعلومات المُكتسَبة أو من تلك التي تستلُّها من الذاكرة الهامدة خلال أوقاتٍ سابقةٍ. وحتّى إنَّه لا يُصار داخل الذاكرة الناشطة نفسها إلى تجنيد المعلومات كافَّةً في الوقت عينه بالتساوي»، وتكمن الوسيلة الأمثل لتجنيد هذه المعلومات لدى المُحاوِر في أن يعمدَ المتكلِّم إلى إعادة صياغتها... وباختصارٍ، نستنتج ما يلي: إنَّ ما يُفهَمُ من دون الحاجة إلى قوله، تتحسَّن أحياناً عمليّة فهمه على أثر التفوُّه به ـ والعكس بالعكس، قد تتحسَّن أحياناً عمليّة فهم أمرٍ ما يستوجبُ القول إنْ سكَتنا عن قوله. وعليه، إنَّ موقفنا بشأن هذه المسألة بات معروفاً، ولا حاجة إلى إعادة توضيحه...». وعليه، من الممكن كذلك أن يتعلَّل المرء كذباً بقانون الإخباريّة، بغية تجنُّب توضيح بعض النقاط الغامضة من عقيدته.

وبالتالي، يكون تطبيق هذا القانون منوطاً بما يفترضه المتكلِّم عن حالة الموسوعة التي يتحلَّى بها المُحاوِر لحظة وقوع الفعل المتعلِّق بفعل القول، عن طريق الفرضيّات ـ ونحاول أحياناً أن نتحقَّق مُقدَّماً من هذه الفرضيّات من خلال اللّجوء إلى قولٍ تأكيديٍّ إخباريٍّ مُسبقٍ من النمط التالي: «أتدري (ما الذي حصل، بمَن التقيتُ، إلى آخره؟) («Tu sais (ce qui est arrive, qui j'ai rencontré, etc.)?»)». حين نكون بصدد مُرسَل إليه جماعيٍّ وغير متجانسٍ،

---

(143) Patrick Besson, *Les Petits maux d'amour: Roman* (Paris: Editions du Seuil, 1974), p. 76.

(144) Dan Sperber, «Rudiments de rhétorique cognitive,» *Poétique*, no. 23 (1975), p. 393.

تغدو عمليّة التكهُّن بالموسوعة التي يتحلّى بها المُحاوِر أكثر تعقيداً. وبالتالي، يُبنى الخطاب عموماً على موسوعة الأشخاص «غير المطّلعين» - شرط أن نُقدّم الاعتذارات إلى الأشخاص المُطّلعين للإهانة التي نقترفها بحقّهم، كأن نقول مثلاً: «نعتذر لأنّنا سنتناول ثانيةً بإيجازٍ مفاهيم جدّ معروفةٍ، ولكن قد يجعل إغفال ذكرها ما سنتقدّم به غامضاً بالنسبة إلى بعض الأشخاص»[145] («Nous nous excusons de reprendre sommairement des notions bien connues, mais dont l'omission risquerait d'obscurir pour certains notre propos»).

وعليه، أيّاً تكن العقبات التي يتعثّر بها المتكلّم لدى تطبيق قانون الإخباريّة هذا، فمن المؤكّد أنّ المُحاوِر يفترضُ عموماً أنّ المتكلّم قد بذل ما بوسعه لاحترامه، ممّا يسمح له بتحديد عددٍ معيّنٍ من الاستدلالات، على الشّكل التالي:

● إمّا أنّ المُحاوِر يسعى إلى «جعل» قولٍ مجرّدٍ من أيّ إسهام بالمعلومات بكلّ ما للكلمة من معنى قولاً «إخباريّاً» من خلال إنشاء معنى مُشتّق إخباريّ، فغالباً ما نُلاحظ على سبيل المثال أنّ بعض التحصيلات الحاصلة من النمط التالي: «المرأة هي المرأة» («une femme est une femme»)، و«الفلس هو الفلس» («un sou est un sou»)، إلى آخره، لا تُصنَّف باعتبارها كذا إلاّ ظاهريّاً. وتكون كذلك بعض حالات البديهيّات الزائفة قابلةً للاختزال، من خلال اعتبارها تعملُ بمثابة حالات الإغراق أو المحسنات البيانيّة الإضماريّة، وهذه بعض الأمثلة:

المثل الأوّل: أليس هذا الفستان بخس الثمن وكأنّه مجّاني؟

(«Cette robe, elle n'est pas donnée!»)

(يُعلّق الردّ التالي: «كلا إنّه للبيع» («non elle est vendue») على الصعيد الحرفيّ، مع شيءٍ من سوء النيّة، على قولٍ تمّ بوضوحٍ توظيفه على الصعيد البيانيّ)

المثل الثاني: لم نذهب بعد برأيي [= يلزمنا بعد الكثير من الوقت قبل أن نذهب]

---

(145) مثلٌ مأخوذٌ من: Anne Ubersfeld, *Lire le théâtre* (Paris: Editions sociales, 1979), n. 16, p. 29.

(«On n'est pas encore parti à mon avis [= on n'est pas près de l'être]»)

المثل الثالث: هذا الضوء الأحمر هناك، يجب حقّاً رؤيته [هو غير مرئيّ إطلاقاً!]

(Ce feu rouge-là, il faut vraiment le voir! [= il n'est guère visible])

المثل الرابع: آه، أنتَ حقّاً ابن أبيك («Ah! Tu es le fils de ton père»)

المثل الخامس: غداً يومٌ آخرٌ ("Demain est un autre jour")

المثل السادس: فرنسا بحاجةٍ إلى رئيسٍ[146].

(«Il faut un Président pour la France»).

ولا بدّ أيضاً من الإتيان على ذكر هذه الصياغة المُبتكرة ذات القصد الخاصّ، ألا وهي:

كلّ عامٍ وأنتم («Je vous souhaite une année»)،

والتي تبدو بادئ الأمر وكأنّها غير إخباريّةٍ، جرّاء إسقاط الصفة «سهواً» (ومن الأفضل أن تكون هذه الصفة إيجابيّةً)؛ ولكنّنا نُدرك بعد التفكير بها مليّاً قيمتها الإخباريّة ـ ألا وهي: الفكاهة والدعابة السوداء؛

● أو أنّنا، كما هي الحالة أصلاً نوعاً ما في المثل السابق (ولكن ابتداءً من أيّ مقدار إخباريّةٍ نستطيع أن نعتبرَ المحتوى إخباريّاً؟ ففي حال كان المُرسَل إليه الذي يتوجّه إليه القول الآنف الذكر على شفير الموت، فستكون هذه الأمنية إخباريّةً على نحوٍ مُحزنٍ بالنسبة إليه؛ ولكن ماذا لو كان يضجُّ بدمّ الشباب؟)، نكون بصدد قولٍ إخباريٍّ بكلّ ما للكلمة من معنى، بيد أنّه يُحمَّل بالإضافة إلى ذلك استدلالاً يكون حصيلة تدليلٍ منطقيٍّ على غرار التدليل المنطقيّ التالي: لا تقول لنا هذه المتتالية سوى الجُمَيلة الأولى «ج»، بيد أنّها تستتبع ضمناً الجُمَيلة الثانية «د»، بحيثُ إنّه لو كان المتكلّم يُفكِّرُ بعكس معنى الجُمَيلة الثانية (عكس «د»)، لكانت الجُمَيلة الأولى «ج» غير إخباريّةٍ. ولهذا السبب بالذات تقترح أحياناً عبارة «ما من مهنةٍ حقيرةٍ» («Il n'y a pas de sot métier») الاستدلال التالي: / قد نُسلِّم بأنَّ ثمّة مهنٍ حقيرةٍ/ (/on pourrait admettre qu'il en existe/) (ولو كان

---

(146) وهو شعارٌ حلّله كارول في: Michel Charolles, «Il fallait un président à la France,» *Pratiques*, no. 30 (juin 1981).

الأمر بخلاف ذلك لكان التأكيد والإخبار محضُ بديهيّةٍ)، وتقترحُ أيضاً عبارة «من دون ضغينةٍ» («Sans rancune») الاستدلال التالي: / كان من الممكن أن يُخالجني شعورٌ مماثلٌ/ (/serais pourtant susceptible d'en éprouver)؛ ويوشك للسّبب عينه، كما يقول غوردون ولاكوف[147]، أحد الأصدقاء حين نباغته في الشارع قائلين له: أتدري، إنَّ زوجتك مخلصةٌ» («Tu sais, ta femme est fidèle»)، أن تنتابه فورةٌ من الغضب، إذ بمقتضى قانون الإخباريّة، يُضمّن بالقوّة كلّ تأكيدٍ وإخبارٍ يتناول الجُمَيلة الأولى «ج» إمكانيّة تأكيد عكسها، لأنَّ الإدلاء بالجُمَيلة الأولى «ج» يفترضُ أنّها ليست أمراً «مُسلَّماً به جدلاً»[148].

وبالتالي تُشبِهُ هذه الآليّة تلك التي صادفناها في ما يتعلّق بقانون الملاءمة. وقوامها أن نُدخل إلى نظام قوانين الخطاب قولاً ينتهك هذه القوانين بكلّ ما للكلمة من معنى، أو أن نعمد إلى زيادة درجة ملاءمته أو إخباريّته عبر احتساب استدلالٍ مناسبٍ.

لا تختلف طريقة عمل قانون الإخباريّة عن طريقة عمل قانون الملاءمة، إلاّ أنَّ شروط تطبيقه هي، أسوةً بهذا الأخير، على جانبٍ كبيرٍ من الدقّة.

لا نفهم بادئ ذي بدءٍ طريقة ترابط قانونَي الخطاب هذَين بشكلٍ واضحٍ.

فمن وجهة نظر كارول[149]، يكون التأكيد والإخبار مُلائماً ما إن يُلبّي «المعلومات المُرتقَبَة». في حين يوضِّح سبيربر[150] ما يلي: «قد يتبادر إلى ذهننا

---

(147) Gordon and Lakoff, «Conversational Postulates,» in: Cole and Morgan, eds., *Syntax and Semantics. 3, Speech Acts*, p. 92.

(148) «يكمن قوام الأسلوب اللّطيف في القدح والذمّ في أن ننشر في الصحف يوماً بعد يوم، سلسلةً من المعلومات من هذا القبيل: «ننفي بشكل رسميّ جدّاً ضلوع الوزير تارتامبيون في قضيّة الآداب في الشارع «ج» - من وجهة النظر الأخلاقية، لا مأخذ يُمكن أخذه علينا جوراً إن نحن أوردنا اسم الوزير تارتامبيون في صدد الحديث عن القضية التي تعرفونها»، إلى آخره». مثلٌ مُقتبسٌ عن: Jacques Pohl, *Symboles et langages*, 2 vols., style et langage (Paris: Sodi, [1968]), p. 159; («Un procédé de diffamation extrêmement subtil consisterait à publier dans la presse, jour après jour, une série d'informations de ce genre: «Nous démentons de la façon la plus formelle que le ministre Tartempion soit impliqué dans l'affaire de mœurs de la rue C. - Au point de vue moral, on n'a rien à reprocher injustement qu'on évoquerait le nom de Tartempion à propos de l'affaire que vous savez», etc.»).

(149) Charolles, «L'Ordre de la signification,» p. 50.

(150) Sperber, «Rudiments de rhétorique cognitive,» p. 394.

للوهلة الأولى أنَّ جُمَيلةً ما تزداد مُلاءمةً كلَّما ازدادت إخباريّةً، ولكن سرعان ما نكتشف إثر القليل من الانتباه أنَّ هذا الأمر خاطئٌ». وفي الواقع، «يكون القول أكثر ملاءمةً إذا ما حمل المُستمع، من خلال تزويده بقدرٍ ضئيلٍ من المعلومات، إلى تنمية معارفه وتصوُّراته أو تعديلها بأكبر قدرٍ ممكنٍ»[151] ـ ولكن ألا يُصار بالضبط إلى تحديد المعلومة التي تنطوي عليها الرسالة الكلاميّة ما بمقتضى درجة قدرتها على تنمية معارف المُحاوِر؟

يسعنا أيضاً اعتبار الإخباريّة بمثابة الشرط الضروريّ ولكن غير الكافي لتحقُّق المُلاءمة. وفي الواقع، قد يصدف أن تَنعَت اللّغة العامّة سؤالاً ما غير إخباريٍّ بِ «غير المُلائم» (كما هو الحال على سبيل المثال في القسم الأخير من هذا التهجُّم الذي صدَرَ على لسان بوستر كيتون (Buster Keaton)، ألا وهو: «هل لديكم المزيد بعد من الرهبان والآباء؟» (Avez-vous encore d'autres frères et pères?)). وهبْ أيضاً المقام التالي: ألتقي بشخصٍ لستُ أدري أين تعرَّفتُ به وأعجز عن «تحديد هويّته» على وجه الدقّة، فأشرع بإخباره عن مؤتمر الألسنيّة الذي حضرته بأدقّ تفاصيله، وهكذا، فإنْ كان هذا الشخص شخصاً تعرَّفتُ به بمناسبة هذا المؤتمر، سيكون كلامي جديراً بإثارة اهتمامه، على الرُّغم من كونه في الواقع غير مُلائم ـ لأنَّه غير إخباريٍّ، وفي المقابل إن كان هذا الشخص أحد جيراني وليس أحدَ زملاء المهنة، فإنَّ خطابي سيكون غير ملائم تماماً على الرُّغم من كونه إخباريّاً. وبالتالي، يبدو أنَّ ثمّة علاقة تربط بين الملاءمة والإخباريّة، وتتجلّى على الشَّكل الآتي:

إخباريّة ← ملاءمة (يُمكن أن يكون المرء إخباريّاً من دون أن يكون مُلائماً)

عدم إخباريّة ← عدم ملاءمة (لكي يكون المرء مُلائماً عليه أوّلاً أن يكون إخباريّاً، إذ تُشكِّل الإخباريّة شرطاً ضروريّاً ولكن غير كافٍ لتحقُّق المُلاءمة).

ومع ذلك، ثمّة استثناءٌ لقاعدة العلاقة التضمينيّة الآنفة الذكر، ألا وهو: قد تغدو المتتالية ذات الطابع غير الإخباريّ ملاءمةً ما إن يتمُّ توظيفها على الصعيد البرهانيّ، وهذه بعض الأمثلة:

---

(151) Wilson et Sperber, «Remarques sur l'interprétation des énoncés selon Paul Grice,» p. 88.

المثل الأوَّل: أنا لستُ رئيس الجمهورية ولا رئيس الحكومة. إذاً. . (Je ne suis pas Président de la République ni Premier Ministre. Donc...)

المثل الثاني: إن لم تذهبْ فقد بَقِيَتْ. وماذا بعد. . (Si elle n'est pas partie elle serait restée. Et alors...)

المثل الثالث: تولّى الاشتراكيّون زمام السلطة، فلم يعد بوسعهم كما في الأيّام الخوالي [. . .][152] (Les socialistes sont au pouvoir. Ils ne peuvent plus comme naguère [...])،

ممّا يرغمنا على إعادة صياغة القاعدة المذكورة على الشَّكل التالي: لا تُشكِّل الملاءمة شرطاً ضروريّاً لتحقُّق الإخباريّة؛ ولكن في المقابل، تُشكِّل الإخباريّة شرطاً ضروريّاً لتحقُّق المُلاءمة، باستثناء الحالة التي يُصار فيها إلى «جعل» أحد الأقوال «مُلائماً» عبر تسلسله الكلاميّ البرهانيّ.

وبالتالي، يُمكن أن نُصادف أقوالاً إخباريّةً غير ملائمةٍ، وأقوالاً مُلائمةً غير إخباريّةٍ. والحال أنَّ النوع الأوَّل منها يُعتبر غير سويٍّ، في حين يُعدّ النوع الثاني سويّاً. ممّا يُثبِتُ أنَّ قانون الإخباريّة هو، لا مناص من تكرار ذلك، مُهَيمنٌ مقارنةً بقانون الإخباريّة؛ وأنَّ بعض أنماط المحتويات لا تخضع لمفعول قانون الإخباريّة.

- ينطبقُ ذلك أيضاً على بعض المحتويات المُفترَضَة التي سبق وأشرنا إلى عدم ضرورة أن تكون إخباريّةً (في حين يُفترض بها أن تكون صادقةً).

- ولكن ثمّة العديد من الحالات الأخرى التي يُصار فيها إلى انتهاك قانون الإخباريّة، من دون أن يُحدث ذلك أدنى تأثيرٍ من شأنه أن يُثير الغرابة.

ويطرح السؤال التالي نفسه: هل إنَّنا نُعبِّر شفهيّاً عن ما يكون غير مُسلَّم به فقط؟ ولكن على المرء أن يكون سيِّئ النيّة حقّاً ليؤكِّد بعبارة «أرى ذلك جيّداً!» («Je le vois bien!») على قولٍ أُدليَ به في مقام لا إجماعَ عليه، من مثل: «الطقس جميلٌ!» («Il fait beau!»)، فيؤوِّله باعتبار أنَّ قائِله لا يودُّ إعلامنا عن حالة الطقس بقدر ما يرغب في لفت انتباهنا إلى واقع أنَّه مُرهف الحسّ على الجمال. وكذلك، تعني عموماً عبارة «لقد وصلتُ متأخِّراً!» («Je suis en retard»)

(152) مثلٌ مأخوذٌ عن ريمون بار (Raymond Barre)، نهار الـ 31 من آب/ أغسطس عام 1984.

بأنّني أقرُّ بالذنب الذي اقترفته وأعتذر عنه بشكلٍ مُضمَرٍ.

هل ينبغي أن تكون المعلومة المطروحة «جديدةً» دائماً؟ كلاّ، فلا تنفكُّ بعض أنماط الخطاب ـ ولاسيّما فنّ الأدب التعليميّ والخطاب المُعترف به باطنيّاً، فضلاً عن الدفق الغنائيّ ـ تُعيد مراراً وتكراراً وتجترُّ الكلام وتُثرثر بلا فائدةٍ، وهذا مثلٌ على ذلك:

ماريو: ما بيدي حيلةٍ لمنعه من حبِّك، يا ليزيت الجميلة، ولكن لا أريده أن يبوح لك بحبِّه.

سيلفيا: لم يعد يبوح لي بحبِّه، بل إنَّه لا يكلّ ولا يملّ من البوح به[153]،

(MARIO. - Je ne saurais empêcher qu'il ne t'aime, belle Lisette, mais je ne veux pas qu'il te le dise.

SILVIA. - Il ne me le dit plus; il ne fait plus que me le répéter)

وإنْ صَدَفَ وأجبنا في معرض الردّ على عبارة «أحبُّك» («Je t'aime») بعبارة «لقد سبق لك وقلت لي ذلك» («tu l'as déjà dit!»)، فنادراً ما يكون ذلك من باب توخّي الدقَّة إزاء قانون الإخباريّة...

ثمّة أنماطٌ من الأقوال لا تخضعُ، من حيثُ طبيعتها تحديداً، إلى مفعول هذا القانون، على غرار: أوّلاً، الأقوال التي ترمي إلى إفهام الآخر ما مفاده: «أعلم، وأؤمن شخصيّاً بمؤدّى الجُمَيلة الأولى «ج»» («je sais, je pense moi-même p») (وأنا على يقينٍ أنَّك تعرف مفادها وتعتقد به أنتَ شخصيّاً)؛ وثانياً، «اللَّغو» أي التواصل الفارغ الفحوى[154] (أي بحسب

(153) مثلٌ مُقتبسٌ عن المشهد الثالث من الفصل الثالث من مسرحيّة *Le Jeu de l'amour et du hasard*..

على غرار جوني هاليداي (Johny Hallyday)، حيث تقتصر أغنية «أحبُّك» («Je t'aime») على تنغيم هذه الجملة نفسها حتّى بلوغ الذروة ـ وأحياناً حتّى إثارة غيظ المُستمعين كما لاحظنا ذلك في إحدى المتاجر الكبرى حيث كان بعض المستمعين يقولون: «وبعد؟ لقد حفظنا ذلك عن ظهر قلبٍ» («Enocre? On le saurait!»).

(154) وحتّى إنّه قد لا يخضع لقانون النزاهة، كما يظهر في المثل الآتي:

مُتصفِّح الأوراق القديمة: ألم يسبق لك أن سافرتَ يوماً إلى الشمال؟

المُطرق: كلا.

مُتصفِّح الأوراق القديمة: أترى، وصلت المحادثة إلى الطريق المسدود. كان حريّاً بك طبعاً أن ترد عليّ بالإيجاب. =

بينفينيست[155]، الشَّكل الاتِّفاقيّ الذي يتَّخذه فعل القول الذي يدور في حلقةٍ مُفرغةٍ، شافياً غليله بمجرّد تحقُّقه، والذي يكون خلواً من أيّ غرضٍ أو أيّ قصدٍ أو أيّ رسالةٍ كلاميّةٍ، فهو محض فعل قول كلام مُتَّفق عليه، يعمد كلّ قائلٍ إلى تكراره)، فضلاً عن بعض المتتاليات «الافتتاحيّة» (فعلى حدّ قول مورغن[156]، يبدأ الإسكيمو أدبيّاً حديثهم بتصريحاتٍ من النمط التالي «من الواضح أنَّك نسيت / أو تُـخـالـف الاتِّـفـاق» («You are obviously eating/skinning a deal»))...، إلخ؛ وثالثاً، قوام التعليقات الرياضيّة على الشاشة الصّغيرة والتي غالباً ما تقتصر على التشديد شفهيّاً على الرسالة البصريّة؛ ورابعاً وأخيراً، بعض الإيضاحات ذات الأهميّة الحاسمة فوق الحدّ، كما في المثل الآتي: منحته والدتي بركتها النهائيّة في رسالةٍ حرَّرتها لي في شهر تشرين الأوّل/ أكتوبر، حيثُ كتبت: يُحبُّه الناس حبّاً جمّاً لأنَّه نزيهٌ وطيّب القلب، ثمّ إنَّه تناول القربان المُقدَّس يوم الأحد الماضي وهو جاثياً على ركبتَيه، كما خدَمَ القدَّاس باللّغة اللاتينيّة». مع العلم بأنَّه كان ممنوعاً خلال تلك الحقبة من الزمن أن يتناول المرء القربان المُقدَّس وهو واقفٌ، ولم يكن يُحتفل بالقدَّاس إلاّ باللّغة اللاتينية، إلاّ أنَّ والدتي تعطي بشكلٍ عامٍّ هذا النوع من الإيضاحات التي لا طائل تحتها حين ترغب في الغوص إلى عمق أعماق الأمور»[157] «Ma mère lui donna la bénédiction finale dans une lettre qu'elle m'écrivit en octobre: 'Les gens l'aiment beaucoup car il est

= المُطرق: أبمقدوري أن أكذب إذاً؟

مُتصفّح الأوراق القديمة: طالما أنّ ذلك يطيل أمد المحادثة (مثلٌ مُقتبسٌ عن **غرانيت** *(Granite)*، إنتاج شركة «الكلب المكسيكيّ، نصٌّ مُروَّن).

(LE PAPERASSIER. - «Tu y as jamais été, toi, dans le nord?

LE MATRAQUEUR. - Non.

LE PAPERASSIER. - Tu vois, la conversation est dans l'impasse. Il vaut mieux dire oui, bien entendu.

LE MATRAQUEUR. - Je peux donc mentir?

LE PAPERASSIER. - Pourvu que ça prolonge la conversation»).

(155) Emile Benveniste, *Problèmes de linguistique générale...*, bibliothèque des sciences humaines, 2 vols. ([Paris]: Gallimard, 1966-1974), p. 88.

(156) J. L. Morgan, «Two Types of Convention in Indirect Speech Acts,» in: Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics*, p. 268.

(157) مثلٌ مأخوذٌ من: Gabriel García Márquez, *Chronique d'une mort annoncée: Roman* = *Crónica de una muerte anunciada*, traduit de l'espagnol par Claude Couffon (Paris: B. Grasset, 1981), p. 48.

honnête et a bon cœur et puis dimanche dernier il a communié à genoux et a répondu la messe en latin'. En ce temps-là il n'était pas permis de communier debout et l'on officiait qu'en latin, mais ma mère donne généralement ce genre de précisions superflues quand elle veut aller au fond .(des choses»

ثمّة حالاتٌ تتقبَّل فيها اللّغة الإطناب، لا بل تفرِضه، وحالاتٌ أخرى تُحظَّر استعماله فيها؛ وحالاتٌ يُصار فيها إلى إدانة انتهاك قانون الإخباريّة، وحالاتٌ أخرى «يمرّ» فيها الانتهاك على خير ما يُرام من دون تسجيل أيّ اعتراض. ومُكرهاً على المراوغة بين الضرورة الخطابيّة المزدوجة التي تتجلّى تارةً بالتكرار وطوراً بالسير قدماً، وإقامة وزنٍ أحياناً (في الخطاب المسرحيّ مثلاً، ولكن أيضاً ما إن يتوجّه إلى مجموعة مُحاورين) إلى وجود عدّة متلقّين يتمتّعون بكفاءاتٍ موسوعيّةٍ غير متجانسةٍ، يجد المتكلّم نفسه مُرغماً على الاستعانة بقاعدةٍ تكون طريقة عملها، أسوةً بطريقة عمل قوانين الخطاب الأخرى، كيفيّةً بقدر ما هي غير قابلةٍ للنقاش.

- أمّا بالنسبة إلى اللُّغويّ الألسنيّ المُخوَّل توضيح طريقة عمل مثل هذه القاعدة، فيصطدم بالإضافة إلى الصعوبات التي يتعثَّر بها المتكلّم، بواقع أنَّ معلومة القول تكون منوطةً بالكامل بحالة «المعارف الإدراكيّة» لدى المتفاعلين لحظة وقوع التفاعل (وهذا ما يُضفي أحياناً طابعاً فاضحاً على بعض المتتاليات التي قد يعتقد المرء عن خطأ، بمقتضى معاييره الخاصّة، أنّها غير إخباريّةٍ، على غرار عبارة «لا تتجاوز الشريط الأبيض» («Respectez la bande blance») التي نقرأها على الطرقات الإيطاليّة؛ وعبارة «نتكلّم اللّغة الإسبانيّة» («Se habla español») المدوَّنة على بعض المتاجر في برشلونة (Barcelone)؛ فضلاً عن عبارة «هنا تُباع التذاكر بحسب التعريفة الرسميّة» («Vente de billets au tarif officiel») التي نجدها في مرفأ طنجه (Tanger)).

والحال أنّه لمن البديهيّ أنَّ لا أمل لأيّ نموذجٍ تأويليٍّ في توضيح الكفاءة الموسوعيّة التي يرتكز عليها ترابط قوانين الخطاب هذه لدى المتكلّمين كافّةً في كلّ لحظةٍ من لحظات وجودهم الخطابيّ... وجلّ ما نستطيع فعله هو أن نقوم بذلك في كلّ مرحلةٍ على حِدة، أي بكلام آخر، أن نُحدّد لكلّ قولٍ معيَّنٍ الوضع الذي يتّخذه بالنظر إلى هذا القانون، وبالنّسبة إلى توفُّر هذه الوحدة الإعلاميّة أو تلك لدى المُحاوِر أو انعدام وجودها.

(2) قانون الشموليّة.

«لتشتمل مساهمتك على قدرٍ من المعلومات يساوي ما هو مطلوب»، ونستنتج من هذه القاعدة ما يلي: تُغطّي قاعدة الكمّ قانون الإخباريّة، كونها تُعلن أنَّ المساهمة تتطلّب بصورةٍ دائمةٍ حدّاً أدنى من المعلومات. ولكنَّها تذهب إلى أبعد من ذلك حيثُ إنَّها تقضي بوجوب أن يزوّدنا القول بالمعلومة المُلاءمة القصوى. وبناءً عليه، نعتبر أنَّ هذه القاعدة الغريسيّة تُضفي طابعاً شموليّاً على قانونَي الخطاب التاليَين، ألا وهما:

- الأوّل، وهو قانون الإخباريّة: ويقضي بتحاشي أن يكون القول فارغاً على الصعيد الإخباريّ،

- والثاني، وهو قانون الشموليّة: «ويقضي هذا القانون بأن يُدلي المتكلّم حول الموضوعة التي يتحدّث عنها بالمعلومات الأقوى وطأةً التي تكون بحوزته...»[158]، فمثلاً، «حين يقوم المسؤول عن إدارة أموال المركيزة بإعلامها عن الحوادث التي لحِقت بأملاكها، فلا يحقّ له أن يكتفي بإعلامها بنبأ نفوق فرسها الرماديّة اللّون، إذا كان حريقٌ قد اندلع أيضاً في قصرها والتهمت نيرانه قسماً لا بأس به منه. إلاّ طبعاً، في حال وجود قانونٍ خاصٍّ يرعى التواصل القائم بين المركيزة ومدير أموالها ويُحظّر هذا الأخير من التحدُّث عن القصر والحريق الذي نشب فيه»[159] («Quand l'intendant de la marquise entreprend de l'informer des accidents survenus dans ses biens, il n'a pas le droit de se borner à lui announcer la mort de sa jument grise si, en plus, toute une partie du château a brûlé - à moins, bien sûr, qu'une loi spéciale réglant la communication entre la marquise et son intendant interdise à celui-ci de parler du château et du feu»).

وتُطالعنا مجدّداً في إطار هذا القانون المُبتكَر («الأقلّ عرضةً للتنازع» مع ذلك بحسب دوكرو) القضية المُكدِّرة نفسها التي تطرحها كلّ هذه المبادئ التحادثيّة.

---

(158) Ducrot, *Dire et ne pas dire: Principes de sémantique linguistique*, p. 134.

(159) Oswald Ducrot, «Les Lois de discours,» *Langue française*, no. 42 (mai 1979), p. 26.

1. فلهذا القانون، من جهةٍ، تطبيقاتٌ تجريبيّةٌ لا يُمكن المُكابرة فيها. وهو يسمح على سبيل المثال بما يلي:

● تفسير ندرة الوحدات المعجميّة الصغرى المثاليّة نسبيّاً والتي يخضع استعمالها لضغوطاتٍ صارمةٍ بما فيه الكفاية، في نطاق أنّها إخباريّةٌ بدرجةٍ أقلّ من أسمائها المُندرجة؛

● تبيين طابع بعض الممارسات الخطابيّة المُنحرف، ونذكر منها مثلاً: الكذب بالامتناع والإغراق وكناية النّوع (أمّا بالنسبة إلى الغلوّ وكناية الصّنف، فهما ينتميان إلى ثاني قاعدةٍ من قواعد الكمّ، في حين يُعالَج الكذب «بالارتكاب» بموجب قانون النزاهة)؛

● إبراز واقع أنَّ صيغة الضرورة لا تستتبع ضمناً، من وجهة نظر المنطق الطبيعيّ، صيغة الممكن[160]؛ وواقع أنّه «ثمّة ميلٌ عند سائق سيّارةٍ أيّاً يكن، إثر رؤيته لافتةً مرفوعةً عند نقطةٍ معيّنةٍ (أ) من قارعة الرَّصيف وقد كُتب عليها «ممنوع الوقوف» («Interdit de stationner»)، إلى استنتاج أنَّ الوقوف ممنوعٌ ابتداءً من النقطة (أ) فقط»[161]؛ فضلاً عن واقع أنَّ «أيّ شخصٍ يستعمل جملةً من مثل سيلتقي فلانٌ بامرأةٍ هذا المساء» («X rencontre une femme ce soir»)، فهو يُضمر عموماً أنَّ المرأة التي سيتمّ اللّقاء بها ليست زوجة فلان ولا والدته ولا شقيقته ولا حتّى على الأرجح صديقةً مُقرَّبةً منه تربطهما أواصر علاقة أفلاطونيّة. وقِس على ذلك العبارة التالية «البارحة، دخل فلان منزلٍ وعَثَرَ على سلحفاةٍ خلف باب المدخل» («X est entré dans une maison hier et il a trouvé une tortue derrière la porte d'entrée»)، فلا عجب أن يُصاب المخاطب الذي أوجّه إليه حديثي بالذهول، إذا ما كشفتُ له لاحقاً أنَّ هذا المنزل هو منزل فلان نفسه»[162]؛ فضلاً عن أنَّ البُنية التالية «إذا تحقَّقت الجُمَيلة الأولى «ج»» («si p») تُضمِّن بشكلٍ عام معنى «إذا وفقط إذا» («si et seulement si»)، وأنَّ عدداً لا يُستهان به من التوسُّعات الإسناديّة يكتسب قيمةً تقليصيّةً. وبالتالي، يُمكننا في هذا

---

(160) Herman Parret, «La Pragmatique des modalités,» *Documents de Travail et prépublications. Centro Internazionale di Semiotica e di Linguistica. Universita di Urbino*, no. 49 (1975), pp. 11 et sqq.

(161) Ducrot, *Dire et ne pas dire: Principes de sémantique linguistique*, p. 234.

(162) Grice, «Logique et conversation,» p. 70.

الصدد إعادة كلّ الأمثلة التي أشرنا إليها سابقاً بشأن هذا الموضوع، من أجل إبانة طريقة عمل قانون الإخباريّة بالأمثال، وكيفيّة توليده بعض الاستدلالات. وإليكم بعض هذه الأمثلة:

المثل الأوّل: الرّجاء عدم اللّمس إلاّ بالعيون، ويعني ذلك ضمناً / فقط بالعيون/ (Prière de toucher avec les yeux /seulement avec les yeux/)

المثل الثاني: إنَّ بعض فصول هذا الكتاب مُثيرةٌ للاهتمام، ويعني ذلك ضمناً / ليس كلّها/ (Certains chapitres sont intéressants dans ce livre /pas tous/)

(فلو كان المتكلِّم يعتبرُ أنَّ الكتاب بمجمله مُثيرٌ للاهتمام، لكانت صياغته غير شموليّةٍ. وعليه، فإنَّه يعتبره بلا أدنى شكّ. . .)

المثل الثالث: سيُسافر 13 مليون شخص فرنسيّ في مطلع شهر آب/ أغسطس لتمضية العطلة، ويعني ذلك ضمناً / 13 مليون شخص فقط لا غير/ (13 millions de Français partiront en vacances début août /13 millions seulement/)

(مع أنّنا لا نستبق الحكم على قيمة هذا القول البرهانيّة التي كانت لتكون مُحدَّدةً أكثر لو قيل بشكلٍ بيِّنٍ أنّ «13 مليون شخص فرنسيّ فقط لا غير. . .» («13 millions de Français seulement...»)).

المثل الرابع: [إيمّا بوفاري] هي امرأةٌ تتمتَّع بإمكانيّاتٍ كبيرةٍ ولا يليق بها أن تنتقل للعيش في مقاطعةٍ فرعيّةٍ [بل في مُقاطعةٍ. . .] ([Emma Bovary] est une femme de grands moyens et qui ne serait pas déplacée dans une sous-préfecture [mais dans une préfecture...]).

المثل الخامس: / لديّ أصدقاءٌ آخرون في أماكن أخرى/
أنتَ صديقي المُفضَّل في مدينة ليون
/ لستَ سوى صديقٍ بالنسبة إليّ/
(Tu es mon meilleur ami à Lyon /j'en ai d'autres ailleurs/
/tu n'es pour moi qu'un ami/)

المثل السادس: ما أُطلق عليه التسمية الفلانيّة، ويعني ذلك ضمناً

/ لا يُطلق عليه الجميع هذه التسميّة/ (Ce que j'appelle x /tout le monde ne l'appelle pas ainsi/)

(ممّا يُؤدّي إلى التأثير المُثير للسخريّة نوعاً ما الذي تُحدِثه أحياناً رعونة بعض العبارات من مثل «ما أسمّيه دالاً» («ce que j'appelle signifiant»)، و«ما أُطلق عليه اسم الكلام المنطوق» («ce que j'appelle illocutoire»)، حين تكون هذه المُصطلحات مُستعملةً على النحو الأكثر استقامةً).

المثل السابع: ما رأيك بالتلميذ الفلاني؟ ـ إنّه لا يقترفُ أخطاءً إملائيّةً [وهذا كلّ ما لديّ لأقوله بشأن هذه المسألة] - ?«Que penses-tu de tel étudiant) Il a une bonne orthographe [mais c'est tout ce que j'ai à dire sur la question]»).

المثل الثامن: ما رأيك بكتاب فلانة؟ ـ لقد حازت على درجةٍ مُشرِّفةٍ على أطـــروحـــتـــهـــا. . («Que pensez-vous du livre d'une telle? - Elle a obtenu mention honorable à sa thèse...)،

ويُنتج هذا الردّ (المُثبَت. . .)، إذا ما افترضناه شموليّاً، سلسلةً من الاستدلالات على الشّكل التالي:

/ لقد حازت على درجةٍ مُشرِّفةٍ ليس إلاّ على أطروحتها/ (/elle a obtenu seulement mention honorable à sa thèse/)

/ لا بدّ أنّ أطروحتها هي بالأحرى عديمة الجدوى/ (/elle doit être plutôt nulle/)

/ ليس كتابها هذا على المستوى المطلوب/ (/cet autre ouvrage d'elle ne doit pas être fameux/)

ونذكر بشكلٍ عابرٍ بشأن الاستدلال الأوّل من سلسلة الاستدلالات الآنفة الذكر، أنّه في سياق النصّ الحاليّ هذا، وداخل محور «الدرجات» («mentions») الاستبداليّ الذي تتعيّن معرفته بالضرورة بغية إدراك معنى المُضمَّن، تخضع الصفة «مُشرِّفة» («honorable») لقلبٍ، يتكرّر حدوثه، يطال قيمتها البرهانيّة الأصليّة. وقد يؤثّر هذا القلب حتّى على عبارة «درجةٍ جدّ مُشرِّفةٍ» («mention très honorable») في سياقات النصّ الحاليّة التاليّة:

< أقلّ من الغالبيّة(< - à la majorité >) <

< أقلّ من لا شيء(< - Ø >) <

وعليه، يجدر بنا التمييز بين نمطَين من مفعول قانون الشموليّة، ألا وهما:

• لقد قيل الأمر الفلاني (أ)، في حين كان من الممكن إحلال القول العلاّني (ب) الأكثر قوّةً («بالإجماع») محلَّه، فإن لم يقل المتكلِّم، المخوَّل مراعاة قانون الشموليّة، الأمر (ب)، فمردّ ذلك إلى كونه عاجزاً عن فعل ذلك. ونستنتج بالتالي أنَّ الأمر (ب) خاطئٌ.

• لا يأتي المتكلِّم في قوله على ذكر الأمر الفلاني (أ) ولا الأمر العلاّني (ب)، مع أنَّ المُخاطب يرتقب سماع أحدهما، فلو كان بإمكان المتكلِّم أن يُدلي بالأمر الأقوى، لما كان استغنى بلا أدنى شكّ عن قوله. وبما أنَّه قد أحجمَ عن التفوُّه به، فيُعزى سبب ذلك إلى أنَّ الأمر (ب) كان ليكون كاذباً. ونستنتج بالتالي أنَّ الحقيقة هي في صالح الأمر (أ).

وهكذا، يُعنى قانون الشموليّة بشكلٍ عام بالعناصر الدالَّة الغائبة، ما إن يكون هذا الغياب «موسوماً» بالنسبة إلى الحضور المُرتقب، إذ تكون أحياناً «الثغرات» الخطابيّة فصيحةً للغاية، مثلما يُؤكِّده بيريلوفيتش[163] بشأن سِيَر الحياة المليئة بالثغرات التي تقترحها الكتب الموجزة والموسوعات السوفياتيّة عن كلّ هؤلاء المؤلِّفين «الذين وافتهم المنيَّة قبل أوانهم» («morts prématurément») في «بعض المناطق غير القريبة» («des régions peu proches»). وقد أردف بيريلوفيتش، بعد أن ضرب بعض الأمثلة على ذلك، قائلاً: «ومن المُرجَّح، بعد كلّ حساب، أن تكون هذه الاستيهامات من نسج خيالي وحسب، وأن يكون المقال خلواً تماماً منها. وما من شيءٍ موثوقٍ أقلّ من معلومةٍ يتمُّ التعرُّف عليها من خلال واقع أنَّها لا تمدُّنا بالمعلومات التي نترقَّبها». وفي الواقع، تكون الاستدلالات من هذا النمط اعتباطيّةً (إذ يُمكن على أيّ حالٍ أن تكون المسألة مجرّد إغفالٍ، ولكن متى يمكننا اعتبار غياب الدالّ بمثابة الغياب الموسوم؟) أكثر بكثير من الاستدلالات التي تُضاف إلى متتاليةٍ مُحقَّقةٍ.

(163) Alexis Berelovitch, «Autrement dit,» dans: *Essais sur le discours soviétique: Sémiologie linguistique, analyse discursive* (Grenoble: Université de Grenoble III, 1981).

وعلى أيّ حالٍ، نستنتج أنَّ ثمّة طريقتَين لانتهاك قانون الشموليّة، ألا وهما: عدم الإتيان مُطلقاً على ذكر الأمر الفلانيّ «أ»، أو عدم قول كلّ ما نعرفه في ما يختصّ بهذا الأمر «أ». وهما صيغتان تُقابلهما درجتَا خطورةٍ، على الأقلّ في المثل الذي تحلِّله ليلي ماركو (Lilly Marcou) التي تعتبر أنَّ الموقف الجديد الذي اعتمده الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ حيال الواقع الستاليني، ويُشكِّل على النحو الذي ينعِكسُ فيه من وجهة نظرها في التمهيد الذي كتبه فرانسيس كوهين (Francis Cohen) في كتابه بعنوان **جوزيف ستالين. نصوص**[164] (*Joseph Staline. Textes*)، تقدُّماً مقارنةً بموقفه السابق، كما ينمُّ عن إسقاط المحظور نوعاً ما، ويتجلَّى على الشَّكل الآتي: «في الواقع، لم تعُد تحاليل فرانسيس كوهين تنحصرُ في إطار «ما لم يُقَلْ» («non-dit») بل في «ما لم يُقَلْ بشكلٍ كافٍ وافٍ» («pas assez dit»)، فما يصوغه فرانسيس كوهين بتعابير تعريضيّةٍ - قائلاً: «غالباً ما تتحوَّل تصفية الغولاك، بصفتهم طبقةً اجتماعيّةً، إلى تصفيةٍ جسديّةٍ، ومردّ ذلك، من جملة أسبابٍ أخرى، إلى المقاومة الشرسة التي يتصدّون بها» - قد أمسى في الواقع حرباً أهليّةً حقيقيّةً اندلعت في الريف وحصدت ملايين القتلى (كان الأجدر بستالين نفسه أن يبوح بذلك إلى تشرشل)»[165] («En fait, les analyses de Francis Cohen ne se cantonnent plus dans le «non-dit», mais dans le «pas assez dit». Ce que Francis Cohen formule en termes euphémiques - «La liquidation des koulaks, en tant que classe, tourne souvent, à cause, pour une part, de leur résistance violente, à la liquidation physique» - fut, en fait, une réelle guerre civile à la campagne, qui se solda par des millions de morts (Staline même devait le confier à Churchill)»).

2. وبعد هذه اللاّزمة عن حسنات قانون الشموليّة، لا بدّ لنا من تكرار الردّة الثابتة نفسها، ومفادها: يطرح هذا القانون بدوره إشكاليّاتٍ تطبيقيّةً لا يُستهان بها.

- ويُعزى سبب ذلك بادئ ذي بدءٍ إلى أنَّ طريقة عمله كيفيّةٌ للغاية، فمثلاً:

---

(164) Joseph Staline, *Textes*, 2 vols., Essentiel, ISSN 0753-7662; 17-18, introduction de Francis Cohen; choix des textes et traductions de Françoise Sève (Paris: Editions sociales: [diffusion] Messidor, 1983).

(165) مثلٌ مأخوذٌ من مقالةٍ بعنوان: «Une Nouvelle lecture de Staline. Un tabou exorcisé,» *Le Monde* (20-21 mars 1983), p. 9.

في حال أعلنتُ بأنَّ ثمّة مليون شخص عاطل من العمل في فرنسا، في حين أنّ عدد العاطلين من العمل يبلغ فيها المليونَي شخص؛ أو إذا قلتُ إنّني أبلغ من العمر الثلاثين عاماً، ولديّ ثلاثة أولادٍ، بينما أنا في الأربعين من عمري ولديّ أربعة أولادٍ، فلن يتردّد أحدٌ في اعتباري شخصاً كاذباً ـ ونلمس هنا بوضوحٍ واقع أنَّ المنطق الطبيعيّ يتعارض مع المنطق الصُوريّ، باعتبار أنَّ القواعد التي ترعى طريقة عمله تأخذ بالحسبان، من جملة أمورٍ أخرى، مفعول قوانين الخطاب، فمن وجهة نظر المنطق الصُوريّ، تستتبع الحقيقة القائلة بِ «أنَّ لديّ أربعة أولادٍ» («j'ai quatre enfants») حقيقة أنَّ «لديّ ثلاثة أولادٍ»[166] («j'ai trois enfants») (وأنَّ الإجماع يستتبع الغالبيّة). أمّا بالنسبة إلى المنطق الطبيعيّ، فتكون عبارة «لديّ ثلاثة أولادٍ» خاطئةً ـ لأنّها غير شموليةٍ ـ في حال كان لديّ أربعة أولادٍ.

ولكن يتّخذ الكذب طبيعةً مغايرةً في حال أجبتُ في معرض الردّ على السؤال التالي: «كم ولداً لديكِ؟» («Combien avez-vous d'enfants?»)، قائلةً:

ـ «لديّ ثلاثة صبيانٍ» (في حين أنَّ لديّ أيضاً ابنةً واحدةً)، عوضاً عن قول

ـ «ثلاثة أولادٍ» (في حين أنَّ لديّ أربعة أولادٍ)، حيثُ نستنتج ما يلي:

تتعلّق المسألة بالأحرى بمجرّد «كذبةٍ بالامتناع» هذه المرّة.

وتصبحُ هذه الإشكاليّة حسّاسةً أكثر في حال أعلنتُ أنَّ «أحدهم حاول قتل هاري» («quelqu'un a essayé de tuer Harry») في حين أنَّ هذا الشخص قد أرداه قتيلاً بالفعل، أو أنَّ «بيار حاول الانتحار» («Pierre a fait une tentative de suicide») في حين أنَّ هذا الانتحار قد «حصل فعلاً». وعليه، يعتبر كلّ من سادوك[167] وغوردون ولاكوف[168]، بأنّه، في مثل هذه الحالات، لا يكون القول «خاطئاً بحصر المعنى» ـ في حين أنَّ غريس لا يُشاطرهم هذا الرأي. وعلى

---

(166) سنترك إلى العلماء بالمنطق مسألة معرفة ما إذا كانت عبارة «أنا في الأربعين من عمري» («J'ai quarante ans») تستتبع بالطريقة نفسها (مع أنّ عبارة «أنا في» («j'ai») لا تصفُ تماماً علاقة الانتماء عينها) معنى «أنّني في الثلاثين. . .» («j'ai trente ans...»).

(167) Jerrold M. Sadock, «On Testing for Conversational Implicature,» in: Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics*, p. 296.

(168) Gordon and Lakoff, «Conversational Postulates,» in: Cole and Morgan, eds., *Syntax and Semantics. 3, Speech Acts*, p. 95.

الصعيد الألسنيّ اللُّغويّ، يبدو أنَّ رأي غريس هو بالأحرى الرأي الصائب، إذ كونه غير شموليٍّ، يظهر هذا القول على أيّ حالٍ بمثابة المُضلِّل.

وفي الجهة المُقابلة، لا يكذب السيّد لامبيون (Lampion) حين يقول للمرأة التي يهواها والتي يراها جميلةً على الدوام، ما يلي: «كم أنتِ جميلةٌ اليوم» («Comme vous êtes jolie aujourd'hui) ، لأنَّه ما من تناقضٍ بين محتوى مثل هذا التصريح الحرفيّ ومحتوى الجُمَيلة التي تنفيه أحياناً بشكلٍ مُضمَرٍ، وهو: / أنتِ جميلةٌ أيضاً في الأيّام الأخرى/ (/vous êtes aussi jolie les autres jours/). وتكون الاستدلالات المنسوبة إلى مفعول قانون الشموليّة هذا على درجةٍ جدّ مُتغيِّرةٍ من الوضوح تتراوح من اكتسابها وضع شبه الافتراض وصولاً إلى المُضمَّن الأكثر ارتجالاً (ويحضرني في هذا الصدد حديثٌ دارَ ذات يوم بيني وبين بائعةٍ في متجرٍ يُلصق إعلاناً كُتِبَ عليه «بيع بالجملة» (Vente en gros»)، حيثُ زَعَمَتْ البائعة أنّه كان حريّاً بي أن أُدرك أنَّه لا يُمكن لهذه العبارة أن تعني ـ وهذا ما كنتُ أعترضُ عليه ـ إلاّ أنّهم «لا يبيعون بالمُفرّق» («Nous ne vendons pas au detail»).

وإليكم أخيراً هذا المثل الذي يُشير إليه مارتن(169)، ألا وهو: «إذا أضعتُ حزمة مفاتيحي، وقلتُ بأنّني أضعتُ مفتاح القبو (الذي كانت الحزمة تحويه)، يكون الكلام الذي ورد على لساني صحيحاً من وجهة نظر العالم بالمنطق، باعتبار أنَّ مفتاح القبو خاصّتي «ضائعٌ» فعلاً. ولكن، نظراً إلى أنَّ المعلومة التي أُدلي بها ناقصةٌ، فقد تظهر بمظهر الخادعة. ويتحدَّث دوكرو في هذا الشأن عن قانون شموليّة المعلومة». ولكن في الحقيقة، يكون الأمر برمّته رهن السياق الذي يندرج فيه القول. وهكذا، فإن كان من الممكن فعلاً وصف هذا القول، في بعض الظروف، بالناقص للغاية لدرجةٍ تحول دون اعتباره نزيهاً، فهو على العكس قد يُعتبر في بعض الظروف الأخرى (في حال كانت مثلاً الإشكاليّة التي يواجهها المتفاعلين تتمحور حول مسألة فتح باب القبو)، مُلائِماً تماماً، أي بالتالي مناسباً وكافياً على الرُّغم من كونه غير شموليٍّ.

ـ ولأنّه من المُسلَّم به أنَّ تطبيق مثل هذا القانون بحذافيره هو أمرٌ محالٌ وغير

---

(169) Martin, *Inférence, antonymie et paraphrase: Eléments pour une théorie sémantique,* p. 19.

معقولٍ، إذ يستحيل أن نقول الحقيقة كلّ الحقيقة (وأسوةً بقانون النزاهة، لا يدّعي كذلك قانون الشموليّة بوجوب قول كلّ ما نعتبره حقيقيّاً، بل إنّه يقضي ببساطةٍ بوجوب التزويد بأكبر قدرٍ ممكنٍ من المعلومات بشأن موضوعٍ خطابيٍّ معيّنٍ).

وقد أشرنا في موضعٍ آخر[170]، بشأن نصٍّ بقلم جورج بيريك (Georges Perec) يكمن غرضه البيّن في «استيفاء وصف مكانٍ باريسيٍّ» (وهو ساحة سان سولبيس (place Saint-Sulpice))، أي بكلام آخر وصفه وصفاً شاملاً، إلى أنَّ هذا المشروع كان محكوماً عليه بالإخفاق، لأنّه ما من حدودٍ لكلام الوصف، ولا بدّ أن يعيل صبر الواصف قبل أن يستوفي موضوعه من كامل جوانبه... وكذلك يبدو هذا النصّ استثنائيّاً من حيث هدفه (وقوامه أن نُطبّقَ بدقّةٍ قانون الشموليّة). إذ تتمتّع الممارسات الخطابيّة بشكلٍ عامٍّ بأهدافٍ تداوليّةٍ تواصليّةٍ أكثر دقّةً، ويتعيّن علينا التأمّل في قانون الشموليّة نسبةً إلى هذه الأهداف، فمثلاً:

يقول غريس ما معناه: «لتشتمل مساهمتك على قدرٍ من المعلومات يساوي ما هو مطلوبٌ (مراعاةً لأغراض التبادل الظرفيّة)».

في حين يرى دوكرو ما يلي: «يقضي هذا القانون بأن يُدلي المتكلّم حول الموضوعة التي يتحدّث عنها، بالمعلومات الأقوى وطأةً التي تكون بحوزته والتي تكون قابلةً لإثارة اهتمام المُرسَل إليه».

وبتعبيرٍ آخر إنَّ قانون الشموليّة هو، أسوةً بقانون الإخباريّة، تابعٌ كليّاً لقانون الملاءمة. وتترابط هذه القوانين الثلاثة على الشّكل الآتي: ينبغي التزويد بالمعلومات، بل وحتّى بالقدر الأكبر من المعلومات، إنّما ضمن حدود الملاءمة[171] - تحت طائلة الوقوع في ما يُطلق عليه النحويّين تسمية «الحشو»،

---

(170) Kerbrat-Orecchioni, *L'Enonciation de la subjectivité dans le langage*, pp. 131-146.

(171) هنا تكمن صعوبات تطبيق مثل هذا القانون، فمثلاً: يقول غرونيك (Grunig, «Pièges et illusions de la pragmatique linguistique,» p. 27) ما يلي: «مَن يستطيع أن يرسمَ حدوداً لما هو مُرتبطٌ بالمقام (كمكتب الاستعلامات في محطّة القطار على سبيل الذكر لا الحصر)، إذ يتألّف مبدئيّاً هذا الحدّ بالنسبة إلى الشخص الذي يعمل في المقسّم الهاتفيّ من ساعة انطلاق القطار بالدقائق والثواني، في حين يتألّف بالنسبة إلى الشخص الآخر، من الأسباب التي دفعته إلى التفكير بأن يستقلّ القطار، ومن كلّ ما يترقّبه من هذا الانطلاق، وكذلك من القلق الذي يُسبّبه له تنظيم هذا الأمر».

ومن البديهيّ على أيّ حالٍ أنّ المحاوِر لا يرغب عموماً في معرفة كلّ ما يتحدّث عنه المتكلّم. وإليكم هذا المثل: «هذه الممارسة ممنوعةٌ بموجب قانون العمل – راجع المادّة 312 إن كنتَ ترغب في الإحاطة بهذه المسألة من كلّ جوانبها» (مثلٌ مأخوذٌ عن فرانس إينتر (France Inter)، في 22 آذار/ مارس عام 1984 (Cette pratique»)=

أي «حين يفوق ما نُدلي به القدر المطلوب، فيزخر الخطاب بالكلام الذي لا طائل تحته، ونُطلق على هذا «العيب» اسم الحشو[172].

ـ وبالتالي، لا يسعنا قول كلّ شيءٍ، لا بل حتّى لا يجدر بنا قول كلّ شيءٍ، فثمّة العديد من الأمور التي ينبغي أن تبقى «طيّ الكتمان» (على أن يتمّ كشف النقاب عنها في «السرّ»). ولقانون الشموليّة نقيضه، ألا وهو: قانون «الشموليّة المُضادّة» نوعاً ما الذي يتطابق مع القاعدة الثانية من قاعدة الكمّ الغريسيّة[173]، ألا وهي: «تحاشى أن تشتمل مساهمتك على قدرٍ من المعلومات يفوق ما هو مطلوبٌ».

ويؤكّد لافوريل[174] (Lavorel)، ما يلي: «في الواقع، إنَّ الإفراط في التزويد بالمعلومات مؤذٍ تماماً كما الإنقاص منها».

أمّا أولبريكت تيتيكا[175]، فتعتبر ما يلي: «نُضفي طابعاً هزليّاً على قول يتحدَّث عن طول إحدى الطّرقات حين نُعبِّر عن طولها بالمِلّيمترات، وكذلك على قولٍ يُحصي ثروةٍ ضخمةٍ ما حين نحسبُها بالسنتيمات».

---

est interdite par le code du travail - article 312, si vous voulez tout savoir»). =

وبالتالي، إنّ التحفّظ الخَطابيّ الذي يُصوِّب في هذا الصدد فائضاً محتملاً من الشموليّة، هو في الواقع جدّ مُبرّرٍ.

ومن البديهيّ أيضاً أنّ الناس لا يتشاطرون بالضرورة التصوّر نفسه عن «الشمولية الملائمة» في مقامٍ معيّنٍ، كما في المثل الآتي:

المتكلّم: كم الساعة؟
المخاطب: الوقت متأخر.
المتكلّم: مازال متأخِّراً؟

(L_1. - «Quelle heure est-il?
L_2. - Il est tard.
L_1. - Mais encore?).

(تكمن الإشكاليّة هنا في أنّه لا يمكن معالجة هذه المسألة بتعابير تدلّ حصريّاً على الكميّة، لأنّ التعيين الرقميّ والمصطلح التقويميّ هما إخباريّين بتنوّع . . .).

(172) نقلاً عن برنارد لامي (Bernard Lamy) الذي استشهد به شارل في: Michel Charles, *Rhétorique de la lecture*, collection poétique (Paris: Editions du Seuil, 1977), p. 163, n 1.

(173) يتناسب هذا القانون أيضاً مع «مسلّمة التقليص» («postulat de réduction») والتي تحدَّث عنها ريفزين (Revzine)، التي تُبرهن كيف يُصار إلى انتهاكه أحياناً في مسرحية *La Cantatrice chauve*.

(174) Pierre Marie Lavorel, «Pour un calcul du sens, essai de formalisation de théories sémantiques,» (thèse de 3e cycle, Univ. Lyon II, 1973), p. 25.

(175) Olbrechts-Tyteca, *Le Comique du discours*, p. 146.

ويقول بيريك[176] (Perec)، في مقالةٍ بعنوان «الحياة طريقة استعمال» (La» Vie mode d'emploi»)، ما يلي: «أستلهِمُ من ما يُطلَقُ عليه في فنّ الرسم اسم الفَرْطَواقعيّة التي تُعتبر من حيثُ المبدأ وصفاً حياديّاً وموضوعيّاً، إلاّ أنَّ تراكم التفاصيل فيها يجعلها جنونيّةً، ممّا يجذبنا إلى خارج دائرة الحقيقة»[177]، ما يلي: «تُصبح الوقائع التي تطالعنا على الصعيد اليوميّ لامتناهيةً بفضل التهوُّس بتبويبها على شكل لائحةٍ مُستفصلةٍ، فيُمسي ما هو حقيقيّ غير حقيقيٍّ، ذلك لأنَّ تكدُّس التفاصيل الدقيقة [...] يُسبّب الدوار ويُعطي شعوراً بالضلال، فيبرز من خلاله الوهم الذي يستأثر بكلّ شيءٍ. تلك هي الواقعيّة الوهميّة»). وهكذا، تُعدّ الاقتضابيّة الوصفيّة الإيضاحيّة «سويّةً». وللمفارقة، حين يحاول نصّ ما انتهاك قاعدة «الانتقاء التعسفيّة»، يَنتجُ عنه تأثير-عدم- الواقعيّة.

في حين يرى هنري لابوريت[178] (Henri Laborit)، ما يلي: «في المقابل، إنَّ وفرة المعلومات [...] تضع كذلك الفرد في نظام كبحيٍّ»، فأسوةً بنقص المعلومات، يؤدّي الفائض منها إلى كبح الفعل، أي الشعور بالحَصر النفسيّ وحتّى اللامعنى. وعليه، نُدرك مدى الأهميّة التي يجب أن نوليها إلى مثل هذه المبادئ الخطابيّة التي قد يُشكّل سوء استعمالها المنهجيّ عارِضاً، بل حتّى باعثاً على اضطرباتٍ نفسانيّةٍ جمّةٍ...

- وبالتالي، أن يكون المرء شموليّاً، يعني أن يُزوِّد قدر مستطاعه بأكبر قدرٍ من المعلومات حول موضوعٍ معيَّنٍ، مع الحرص على التزام الملاءمة، فهذا القانون يُثير كذلك الإشكاليّاتِ المتعلّقة بطريقة عمل قانون الملاءمة كافّة، مُضافاً إليها الإشكاليّات الخاصّة به.

وبطبيعة الحال إنَّ تطبيقه منوطٌ بخاصيّات عالم الخطاب وبطبيعة معارف المُحاوِر واهتماماته، دون أن ننسى أيضاً مقام فعل القول، ناهيك بنوع الخطاب مثار البحث، فمثلاً: إذا ما ذكرتُ رقم لوحة تسجيل سيّارتي التي تعرَّضت لحادثٍ، فهذا أمرٌ جدُّ مشروعٍ في حال كنتُ أتحدَّثُ إلى الشخص الذي أمّنتُ

---

(176) Georges Perec, «La Vie mode d'emploi,» *Le Monde* (29 sep. 1978).

(177) وبمماثلةٍ، يُدوّن هوبير جوين (Hubert Juin) بشأن هذا المؤلَّف عينه، في: Hubert Juin, *La Quinzaine littéraire*, no. 288 (16-31 oct. 1978), p. 6.

(178) Henri Laborit, *La Colombe assassinée* (Paris: B. Grasset, 1983), p. 66.

لديه سيّارتي ضدّ الحوادث، إلاّ أنّ حديثي سيكون على قدرٍ أقلّ بكثيرٍ من الملاءمة إذا أتيتُ على ذكر رقم لوحة التسجيل هذه وأنا أخبر صديقي عن الحادث، فنسبةً إلى «قواعد النّوع» التي استبطنها المُحاوِر والتي تُحدِّد لديه نظام ترقُّباتٍ خاصّةٍ، يُصار أوّلاً، إلى تقدير معدّل المعلومات التي يجب أن ينطوي عليها عادةً القول، وتنشأ ثانياً، في حالة الانفصال عن نظام الترقُّبات هذا، بعض الاستدلالات. وهكذا، فبشأن تقارير الشرطة القضائيّة (حيثُ يجدر تطبيق قاعدتَي الكمّ الغريسيّتَين بحذافيرهما، أي بكلام آخر، يتعيَّن على المرء أن يكون في الوقت عينه «دقيقاً، أي أن يقول كلّ ما يكُون مُفيداً من دون أن يُغفل منه شيئاً»، و«مُقتضباً، أي ألاّ يُدلي إلاّ بما يكون مُفيداً، وأن يقوله على النحو الأكثر إيجازاً»)، يُحذِّر لويس لامبير، وهو أحد أبرز الاختصاصيّين في «أسلوب المحاكمات»، المُبتدئين في هذا المجال، قائلاً: «يجب ألاّ يغيب عن بالكم أنّكم إذا انغمستم في تدوين كلّ ملاحظاتكم في الدعوى وتفنيد الوقائع والحركات بالتفصيل المُملّ، وأصرَّرتم على عدم حذف أيّ شيءٍ، تنتفي عندئذٍ الحدود المنطقيّة لهذه الضرورة الشموليّة، بحيثُ يتعيَّن عليكم بالتالي أن تعبِّروا شفهيّاً عن الطريقة التي قرعتم بها باب المنزل الذي ستفتّشونه، وأن تعبِّروا شفهيّاً أيضاً عن المقعد الذي جلس عليه الشاهد الذي مَثَل أمامكم، وعن وجبة الطّعام التي سمحتم للشخص الذي كان تحت حراستكم بتناولها، وأصناف الأطعمة التي قُدِّمت أثناء وجبة الطعام هذه...»)[179].

إن في الحياة اليومية، تكون شروط تطبيق قوانين الخطاب متردِّدةً أكثر، وبناءً عليه، تغدو حالات انتهاكها غير مُحقَّقةٍ أكثر ويتنوَّع تقديرها، إذ ليس تصوُّر كمّ المعلومات الذي يكون من الطبيعيّ التزويد به حول موضوعٍ معيَّنٍ وفي مقام مُعيَّنٍ واحداً عن جميع البشر. وهكذا، إنَّ الجوابَين التاليَين همّا، برأيي (أي بحسب قانون الأدبيّات الخاصّ بي)، غير كافيَين على الصّعيد الإخباريّ، ألا وهما:

أذهبتَ إلى البحر هذا الصّيف؟ ـ كلاّ (Tu vas à la mer cet été? - Non).

أتعرف مَن يسكن في المنزل المُجاوِر؟ ـ نعم (Tu sais qui habite à côté? Oui).

---

(179) Louis Lambert, *Formulaire des officiers de police judiciaire, formation, style, droit* (Paris: Editions Police-revue, 1970), p. 53.

وبرأيي كذلك، يُبدي المُخاطب قلّة تعاونٍ حقّاً حين لا يتدخّل على الفور في مقاماتٍ من مثل المقامَين التاليَين:

المقام الأوّل: يسرد المتكلِّم الفيلم الذي شاهده بأدقّ تفاصيله. ويُصغي المخاطب إليه بصمتٍ. وحين يُنهي المتكلّم حديثه، يُعلمه المخاطب بأنّه قد سبق له أن شاهد هذا الفيلم.

المقام الثاني: يتحدّث المتكلّم عن مختلف المعارض التي زارها في مدينة ليون، ولاسيّما عن إنشاء تجهيزاتها، قائلاً: «إنَّ أجمل معرض زرته أُقيمَ منذ خمس سنواتٍ في متحف الأقمشة...»، ويكتفي المخاطب الذي كان مُكلَّفاً بتجهيز المعرض موضوع الحديث (ويجهل المتكلّم ذلك بوضوح)، بهزّ رأسه[180]، فمن وجهة نظري، ينبغي بالتالي التسليم بالقانون التالي ـ وتطبيقه ـ، ألا وهو: في مقام «محادثةٍ» ما تتميّز بتعاقب المتكلّمين ومساواتهم المبدئيّة في التفاعل، يتعيّن على المُخاطب، إذا كان بمستطاعه أن يتدخّل في الحديث متكلّماً عن خبرة، وإن كان «لديه ما يُدلي به» بشأن الموضوع التحادثيّ، ألاّ يمتنع عن الإدلاء بدلوه (خاصّةً إذا أدّى، بإحجامه عن الإدلاء به، إلى جعل المتكلّم بلا علمه غير إخباريٍّ وحتّى سمجٍ).

ولكن، فعلى ما يبدو لا يُقرُّ الجميع بالتساوي بهذه القاعدة، فمثلاً: سيُذهَل المخاطب الآنف الذكر إن اتّهمناه بسوء النيّة الخطابيّة، إذ لم يصدر عنه أدنى استفزازٍ أو مكرٍ أو إخفاء، فمثل هذه الاقتضابيّة هي برأيه أمرٌ طبيعيٌّ، فهو لا يُشاطر المتكلّم تصوُّره لحسن سير قانون الشموليّة، وبشكلٍ أكثر عموميّةً، لمبدأ التعاون الذي هو أحد تجليّات هذا القانون.

وبمعزلٍ عن الحالات المألوفة التي يُصار فيها إلى انتهاك قوانين الخطاب عَمْداً (على غرار انتهاك قانون الإخباريّة مثلاً كما يظهر في المثل التالي[181]:

ميركور: مَن هنا؟

سوزي: أنا.

---

(180) يُفسّر جزئيّاً في هذا الصدد سكوتُ المخاطب بواقع أنّ «قانون تواضعٍ» ما يُعيقُ مفعول قانون الشموليّة.

(181) مُقتبس من المشهد الثاني من الفصل الأوّل من مسرحيّة **أنفيتريون** (*Amphitryon*).

ميركور: مَن، أنا؟

سوزي: أنا. تشجَّع يا سوزي!

ميركور: ما هو مبتغاك، أخبرني؟

سوزي: أنْ أُعامل كإنسانٍ وأن أكون صاحب الأمر والنهيّ.

ميركور: أأنتَ خادمٌ أم مخدومٌ؟

سوزي: كم أشتهي أن أكون كذلك!)،

(MERCURE. - Qui va là?
SOSIE. - Moi.
MERCURE. - Qui, moi?
SOSIE. - Moi. Courage, Sosie!
MERCURE. - Quel est ton sort, dis-moi?
SOSIE. - D'être homme, et de parler.
MERCURE. - Es-tu maître ou valet?
SOSIE. - Comme il me prend envie),

وتُشكِّل تفاوتات الكفاءة البلاغيّة التداوليّة التواصليّة مصدر عددٍ لا بأس به من الخلافات التي تبدأ بالمعاتبات التي يُبديها الطرف الأوّل (مثلاً: «ولكن لمَ لم تقل لي هذا الأمر؟ إلامَ ترمي من وراء التكتُّم عن هذا السرّ التافه؟» («Mais pourquoi ne me l'as-tu pas dit? Pourquoi ces cachotteries?») ـ وتجدر الإشارة إلى أنَّه ينتفي وجود التكتُّم والإخفاء والستر والكذب بالامتناع خارج إطار معيار الواجب-قوله)، وتنتهي بالإنكارات الصادقة حيناً وغير الصادقة أحياناً التي يتذرَّع بها الطرف الثاني (على غرار: «ولكنّني لم أخفِ ذلك عنك! بل لم آتِ ببساطةٍ على ذكره» («Mais je ne te l'ais pas caché! Je ne te l'ai pas dit c'est tout»)، وإليكم المثل التالي:

دون جوان (بعد أن لمحَ دونا إلفير): عجباً! يا للّقاء المُكدِّر! أيَّها الخائن، لم تقل لي بأنَّها موجودةٌ هنا بشحمها ولحمها.

سغناريل: ولكنَّك يا سيِّدي لم تسلني عن هذا الأمر(182)،

(DON JUAN (il aperçoit Dona Elvire). - Ah! Rencontre fâcheuse! Traître, tu ne m'avais pas dit qu'elle était ici elle-même.

SGNARELLE. - Monsieur, vous ne me l'avez pas demandé),

---

(182) مثلٌ مُقتبس عن المشهد الثالث من الفصل الأوَّل من مسرحيّة **دون جوان** (*Don Juan*).

تُثبتُ حدَّة هذه الخلافات مدى اليقين الرّاسخ بثباتٍ لدى المتكلّمين بوجود مثل هذه القواعد التي ترعى اللّعبة التحادثيّة أيّاً تكن الشكوك التي تحوم حول شروط تطبيقها.

لا زالت الألسنيّة غير موفَّقةٍ في الجهود التي تبذلها، من خلال نبش قوانين الملاءمة والإخباريّة والشموليّة، بقصد محاولة الإجابة على السؤال الذي يقضُّ مضجع المتكلّم في كلّ لحظةٍ من وجوده الاجتماعيّ، ألا وهو: ما الذي ينبغي قوله، وما الذي ينبغي الإحجام عن قوله؟[183] وإنَّ هذا السؤال على الرُّغم من تعقيده، كما يظهر ذلك في المثل الآتي:

أعرف تمام المعرفة أنَّ هذه التفاصيل مُضجرةٌ وتبعثُ على السأَم. ولكن إذا ما حاولنا أن نتتبَّع خطوةً خطوةً سيرة شخصٍ ما محفوفة بالمخاطر، أي إذا سعينا إلى معرفة النقطة التي تبدأ منها وصولاً إلى النقطة التي تنتهي بها، فكيف السبيل إلى تمييز ما هو غير ضروريٍّ عمّا هو جوهريّ؟[184]،

(Ces details sont barbants, je le sais bien. Mais si l'on veut essayer de suivre, pas à pas, le chemin hasardeux d'une vie, voir d'où elle vient et où elle va, comment choisir entre le superflu et l'indispensable?),

إلاّ أنّه جوهريٌّ، كما يظهر في المثل الآتي:

كانت غلاديس تقول دائماً كلّ ما يجول في خاطرها. ولهذا السبب بالذات كان الناس لا يتفاهمون معها، ففي السواد الأعظم من الحالات، يُحدِّد الناس هويّتنا بالنظر إلى الكلمات التي ننتقيها وإلى اللّحظات التي نُقرِّر فيها التزام الصمت[185]،

(Gladys disait toujours ce qui lui passait par la tête. C'est pourqoui les gens ne le comprenaient pas. Dans la majorité des cas, les gens determinant ce que nous sommes au choix que nous faisons de nos paroles et de nos silences),

كما ينطوي هذا السؤال على جوانب عديدةٍ، أبرزها:

---

(183) يحاول غوفمان (Goffman, «Felicity's Condition») إعطاء بعض عناصر الإجابة على هذا السؤال من خلال إبراز بعض المبادئ التفاعلية التي ترعى ما ينبغي قوله (وما ينبغي الإحجام عن قوله)، في هذا المقام أو ذاك، وإلى هذا الشريك الخطابيّ أو ذاك - بيد أنّه يُقرّ في الوقت عينه أنّه ينبغي في هذا المجال «أن تُفسح كلّ من الألسنيّة والفلسفة مجالاً لعلم الاجتماع» (المصدر نفسه، ص 32).

(184) نقلاً عن: Luis Buñuel, *Mon dernier soupir*, collection Vécu, [avec la collaboration de Jean-Claude Carrière] (Paris: R. Laffont, 1982), p. 64.

(185) Patrick Besson, *Lettre à un ami perdu: Roman* (Paris: Editions du Seuil, 1980), p. 104.

1. ما هي المواضيع المسموح/ أو الممنوع إثارتها في مقامٍ معيَّنٍ، وهذا مثلٌ على ذلك:

كان الأمر بالغ الصعوبة في الماضي - بالمناسبة، أيحقُّ لنا التحدُّث عن الإجهاض؟

- يمكنك التحدُّث عن كلّ ما تشاء...

- إذاً، كان من الصعب أن يُسمح لأحدٍ بالإجهاض(186).

(C'était très difficile à l'époque - on a le droit de parler de l'avortement?

- De tout ce que vous voulez...

- Donc c'était très difficile de se faire avorter).

في الواقع، يُمنَعُ منعاً باتّاً أن يتحدَّث المرء «عن كلّ ما يشاء»، ويفوق في معظم الأحيان محور المواضيع الممنوع إثارتها الاستبداليّ ذلك الذي يتضمَّن المواضيع الفرضيّة المصطفاة، وذلك بأشواطٍ لامتناهية، مثلما يُبيِّنه سيغمان(187) (S. -J. Sigman)، ضارباً مثل المحادثات التي يتبادلها نزلاء مأوى العجزة، حيث لا يُسمح للمرء، تحت طائلة إنزال العقوبة(188)، إلاّ التحدُّث عن المواضيع الآتية(189):

---

(186) Guy Bedos, *A 2*, 12 août 1982.

(187) Stuart J. Sigman, «Qui a donné l'ordre de larguer la bombe atomique? Une relation ethnographique des règles de conversation dans un établissement gériatrique,» dans: Yves Winkin, *La Nouvelle Communication* (Paris: Editions du Seuil, 1981).

(188) إليكم أيضاً المثل التالي (المصدر نفسه، ص 264): «ذات يوم، جلست مجموعة من المسنّين ومعهم بعض الأشخاص الذين كانوا يعملون في مأوى العجزة في أحد الصالونات أمام شاشة التلفاز، عقب حفلةٍ صغيرةٍ جرت في فترة العصر، وإذ بإحدى النزيلات تنظر إليّ وتقول لي: «إذاً، مَن يتربّع على عرش قلبك؟ مَن هي حبيبتك؟» وعلى الرَغم من ارتباكي بعض الشيء إلاّ أنّني كنتُ على وشك أن أزوّدها ببعض التفاصيل عن حياتي الخاصّة [...]. بيد أنّ مسؤولة النشاطات الاستجماميّة استدارت بسرعةٍ نحو السيدة العجوز، قائلةً: «ولكن يا غلوريا، لا يجدر بك أن تطرحي هذا النوع من الأسئلة على الناس»، ثمّ استدارت نحوي وقالت: «لست مرغماً على الإجابة كما تعلم». وبعد أن تفرّقت المجموعة، دنت منّي عجوزٌ أخرى لتُبرّر ما فعلته رفيقتها في السكن وقالت لي إنّ هذه الأخيرة «لم تكن تعي حقّاً ما قالته»» («Un jour, plusieurs pensionnaires et membres du personnel étaient assis autour d'un poste de télévision dans un des salons, après une petite fête d'après-midi. Une des pensionnaires se tourna vers moi et me demanda: «Ainsi, à qui appartiens-tu? Qui est ta petite amie?». Un peu embarrassé, je m'apprêtais à lui donner quelques détails sur ma vie privée [...]. Mais la directrice des activités récréatives se tourna rapidement vers la vieille dame et lui dit: «Gloria, vous savez pourtant que vous ne pouvez pas poser ce genre de questions», et à moi: «Vous ne devez pas vous sentir obligé de lui répondre, vous savez». Lorsque le groupe se dispersa, une autre pensionnaire vint vers moi pour excuser sa compagne de pavillon en déclarant qu'elle «ne savait vraiment pas ce qu'elle disait»»).

(189) المصدر نفسه، ص 260-261.

(i) «الأحداث المُنبثقة من السياق المباشر، على غرار ترقُّب تلقّي الخدمة وهو على مائدة الطعام [...]»،

(ii) «الإشارة إلى الحالات التي تخرج عن المألوف المتحدِّرة من السياق المباشر، أي الأحداث التي لا تتناسب وتوقُّعاته»،

(iii) فضلاً عن الإشارة إلى النشاطات التي يقوم بها أحد الموظّفين العاملين في المأوى في معرض التحدُّث إلى المُستخدَم المعنيّ، «أي مثلاً، التحدُّث عن الطعام مع الطاهي وإثارة موضوع البستنة مع أحد عمّال طاقم الصيانة».

وتجدر الإشارة إلى أنَّ المسألة المُثارة في النقطة الثانية (ii) تتعلّق بمبدأ خطابيٍّ عامٍّ جدّاً يتحدَّر من قانون الإخباريّة. إذ إنَّ الأحداث «الموسومة» مرجعيّاً تتمتَّع بأفضليّة التعبير عنها شفهيّاً (ويرتدُّ إرشاد الترميز هذا على عمليّة فكّ الترميز، فيتجلّى على شكل ردّة فعلٍ تأويليّةٍ يُبيِّنها هذا القول السائر «انقطاع الأخبار علامة دوام حسن الحال» («Pas de nouvelles, bonnes nouvelles») - وإن كان صحيحاً أنَّ «السعادة لا تحتاج إلى ديباجة» («le bonheur est sans histoire»)، فذلك بلا ريب لأنَّ السعادة تُشكِّل، من وجهة نظر أحد الآراء المُعترف بها المتفائلة بطبيعة الحال، حالةً طبيعيّةً أكثر من حالة الحزن، فعلى سبيل المثال: في الواقع، إذا أجاب أحدهم على السؤال التالي: «كيف حالك؟» («Comment ça va?»)، قائلاً: «بخير» («bien»)، يُعتبر هذا الجواب جواباً كافياً، في حين يستدعي مبدئيّاً الجواب المُعاكِس تذييله بتعليقٍ توضيحيٍّ). وهكذا، نتحدَّث عن تأخُّر القطار، على الأقلّ في البلدان التي يصل فيها القطار عادةً في الوقت المُحدَّد، أكثر ممّا نتحدَّث عن دقَّة مواعيده. وكذلك نُعلِّق على تسريحة شعر فلان (ة)، ولكن في المقابل قلّ ما نتحدَّث عن استقرار حالة أوعيته (ها) الشعريّة. وبتماثلٍ، قد نعتبر الاحتجاجات التي يُبديها المخاطب الثاني (L_3) في التبادل الآتي باعتبارها غير مُبرَّرةٍ نوعاً ما، وتظهر على الشَّكل المُبيَّن أدناه:

المتكلِّم (موجّهاً حديثه إلى المُخاطب الأوّل): عجباً، لقد قصصتَ شعركَ، أجد أنَّ هذه التسريحة تليق بك جدّاً.

المخاطب الأوَّل: حقّاً؟

المخاطب الثاني: أمّا أنا فما سمعتك يوماً تُطري على تسريحة شعري...

المتكلِّم: ولكنَّك لا تُغيِّرها مُطلقاً!

(L_1 (à L_2). - Tiens, tu t'es fait couper les cheveux, ça te va bien je trouve.
L_2. - Ah bon?
L_3. - Moi tu ne me fais jamais de compliments sur ma coiffure...
L_1. - Mais tu n'en changes jamais!)

وكذلك، قد نجد الاعتراض الذي يُبديه السيِّد سميث (M. Smith) في المشهد الافتتاحيّ من مسرحيّة «المغنيّة الصلعاء» غير مُبرَّرٍ أكثر بعد، ألا وهو:

ثمّة أمرٌ يحيّرني، ألا وهو: لماذا تُذكر في صفحة الأحوال الشخصيّة في الصُّحف أعمار الأشخاص المنتقلين إلى رحمته تعالى، ولا تُذكَر مُطلقاً أعمار الأطفال الحديثي الولادة؟ هذا هراءٌ.

(Il y a une chose que je ne comprends pas. Pourquoi à la rubrique de l'état civil, dans le journal, donne-t-on toujours l'âge des personnes décédées et jamais celui des nouveau-nés? C'est un non-sens).

2. ما هي الحالات التي «يفرض» فيها فعل كلامٍ معيَّنٍ نفسه، أكانت المسألة تتعلّق مثلاً:

● تأكيدٍ وإخبارٍ ذي طابع إخباريٍّ، فعلى سبيل المثال: يضرب غوفمان، المثل الآتي: «[...] نشعر أنَّنا مُرغمون بعض الشيء على إعلام الشخص الذي يكون برفقتنا عن طبيعة العلاقة التي تربطنا بالشَّخص الآخر الذي ألقينا عليه التحيَّة أثناء مرورنا»[190] («[...] on se sent légèrement obligé d'informer la personne avec qui l'on est de la nature de la relation avec une troisième personne que l'on a saluée en passant»).

● تأكيدٍ تبريريٍّ، وهذا مثلٌ على ذلك: «لم أطرح عليها أيّ سؤالٍ؛ ولكنها شعرت، كونها علمت أنّني لمحتها أمس في الفناء، أنّها مُرغمةٌ على أن تُبرِّر لي وجودها في ذلك المكان»[191] («Je ne lui avais posé aucune question; mais elle, s'étant aperçue que je l'avais vue hier sur l'esplanade, s'était crue oblige de justifier sa présence en ce lieu»). نستنتج ممّا تقدَّم أنَّ التأكيد والإخبار يأتي

(190) Goffman, *Gender Advertisements*, p. 190.
(191) مثلٌ مأخوذٌ عن: Italo Calvino, *Si par une nuit d'hiver un voyageur: Roman = Se una notte d'inverno un viaggiatore*, traduit de l'italien par Danièle Sallenave et François Wahl (Paris: Editions du Seuil, 1981), p. 69.

هنا في معرض الردّ على نوع من سؤالٍ مُضمَرٍ يطرحه المقام. وفي مواضع أخرى، قد يتّخذ ما نُطلق عليه تسمية تعليقٍ تبريريٍّ شكل الرّفض أو الدحض أو بشكلٍ عامٍّ أكثر، قد يتجلّى على شكل تصرُّفٍ جارحٍ سواء كان ذا طبيعةٍ كلاميّةٍ أم غير كلاميّةٍ (على غرار التأخُّر والتطفُّل، إلى آخره)،

• الإدلاء ببيّنةٍ ضروريّةٍ من شأنها أن تؤيّد بعض أنماط التأكيد والإخبار، ولاسيّما في بعض السياقات المؤسّساتيّة (على غرار معرضٍ علميٍّ أو دعوى، إلى آخره)،

• «فضح الأمور»، مثلاً: عندما لم تُفصح جريدة *L'Autre* لحظة وقوع الأحداث عمّا كان ينبغي أن تكون عليه الأمور، فقدت مصداقيّتها ونفوذها المعنويّ لجهة إصدار أحكامٍ بشأن احترام حقوق الإنسان» («quand l'Autre n'a pas dénoncé au moment des faits ce qui devait l'être, il n'a plus ni crédibilité ni autorité morale pour porter des jugements sur le respect des Droits de l'homme»)، [. . .] وكذلك «حين تلزَم جريدة *L'Autre* الصمت بشأن الأحداث التي تدور في إيران أو الشيلي على سبيل الذكر لا الحصر، فلا بدّ أنّ هذا الصمت هو «صمتٌ متواطئٌ»» («quand l'Autre fait silence, sur l'Iran ou sur le Chili par exemple, il ne peut s'agir que d'un «silence complice») - على الأقلّ من وجهة نظر الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ وجريدة *L'Humanité* اللّذَين لا يُطبّقان باستمرارٍ هذا المبدأ المثاليّ على خطابهما الخاصّ كما يُبيِّنه دارد[192]؛

• صياغة تساؤلٍ ما، فعلى سبيل المثال:

حين نُعلم المُخاطب بأنّنا وجدنا حلاًّ للإشكاليّة المطروحة أو أنّنا بصدد كتابة كُتيِّبٍ جديدٍ أو أنّنا خضعنا لامتحانٍ للتوّ، نتوقّع عموماً أن يتحرّى المُخاطب الاستعلام من خلال طرح أسئلةٍ من مثل: «ما هو الحلّ؟» («laquelle?»)، و«عمّ يتحدّث الكتيّب؟» («sur quoi?») و«هل سارت الأمور على خير ما يُرام؟» («ça a marché?»).

وكذلك، حين نستوقف سائق سيّارةٍ على الطريق العامّ ليُقلّنا معه مجّاناً،

---

(192) Darde, *Le Ministère de la vérité*, pp. 122 et 187.

نتوقَّع بشكلٍ عامٍّ أن يطرح علينا أسئلةً للاستفسار عن جذورنا الجغرافيّة أو الهدف من رحلتنا، إلى ما هنالك (ممّا يولّد الشعور بالاستغراب الذي يُخالجنا في بعض البلدان، حيث نستطيع أن نصول وأن نجول لأيّام طويلةٍ في سيارات يُقلُّنا أصحابها الذين نلتقيهم بالصدفة بالمجان من دون أنّ يطرحوا علينا مُطلقاً أدنى سؤالٍ عن أصلنا وفصلنا).

وبالتالي، يُشكِّل سياق النصّ الحاليّ أو سياقه، تبعاً للظروف، الحافز لصياغة جوابٍ كلاميٍّ مُرتقبٍ (يتَّخذ في هذا الصدد شكل السؤال).

وإليكم مثلاً آخرَ عن الحافز السياقيّ، ألا وهو:

«إلاّ أنَّه في حال تنبَّه أحدهم إلى الأمر [أي واقع أنَّكم زيَّتم مثلاً قفل باب غرفة نومكم ومفصَّلاته] لا تتردَّدوا بإخباره بأنَّ ماسح القصر قام بذلك. ويترتَّب، في هذه الحالة، أن تُحدِّدوا الوقت الذي حصل فيه ذلك وحتّى الخطابات التي أدلى بها إليكم، كأن يكون قد قال مثلاً إنَّه يتوخَّى تزييت الأقفال التي لا يستعملها أحد، لمكافحة الصدأ، إذ إنَّكم تشعرون أنَّه من غير المحتمل أن تكونوا شاهدين على هذا الارتباك من دون أن تسألوا عن سببه. وتُعطي هذه التفاصيل الصغيرة انطباعاً بالاحتماليّة التي تجعل الأكاذيب بلا تبعاتٍ، وذلك من خلال نزع الرغبة في تبريرها»، هكذا يُعطي فالمون (Valmont) بمهارةٍ درساً إلى سيسيل فولانج[193] (Cécile Volanges)، قائِلاً إنَّ بعض الأسئلة تكون «قريبةً من الواقع» في بعض الظروف، وغيابها بعيداً كلّ البعد من الواقع.

وباختصارٍ، يُمكننا أن نقول ما يلي: ثمّة أمورٌ يكون من المناسب الإدلاء بها في إطار السياق أو السياق الحاليّ للنصّ - ولكن ما هي هذه الأمور؟ وأيّاً تكن الصعوبات التي تواجه الألسنيّة في الإجابة على هذا السؤال، فإنَّ الإجابة عليه ضروريةٌ بغية التمكُّن من الإجابة على السؤالَين الآتيَين: «كيف ينبغي قول تلك الأمور التي يكون من المناسب قولها؟ وما هي العناصر الدالَّة التي يتعيَّن أن ننسبها إلى تلك المحتويات التي ينبغي طبيعيّاً التعبير عنها شفهيّاً؟».

---

(193) Choderlos de Laclos, *Les Liaisons dangereuses*, le livre de poche classique, 354, édition de Jean Mistler (Paris: Le Livre de poche, 1972), pp. 251-252, lettre LXXXIV.

(3) تبذل «قاعدة الصيغة» الغريسيّة (المعروفة أيضاً باسم قاعدة «الكيف») قصارى جهودها لمحاولة الإجابة عن هذا السؤال الذي يطرحُ التساؤلات حول الكيفيّة.

وتنظر هذه القاعدة بشكلٍ خاصّ في خاصيَّة وضوح الأقوال المُنتجة؛ ويتطلّب هذا الوضوح على سبيل الذكر لا الحصر ما يلي:

- أن يسمح السياق الحاليّ للنصّ أو السياق «بتوحيد مَفهَم» المتتاليات المتعدِّدة الدلالات في اللّغة،
- وأن يُرمَّز المعنى الأقرب من الواقع على الصعيد السياقيّ أو السياقيّ الحاليّ للنصّ، وأن يُفكَّ ترميزه - ويلوح طيف مثل هذه القاعدة باستمرارٍ عبر انتهاكاتها، وهذا مثلٌ على ذلك:

تؤدِّي الكحول إلى الموت البطيء («L'alcool tue lentement»)

تصلح هذه العبارة، كونها تبأر على المُسند إليه الفعليّ «تؤدِّي إلى الموت» («tue»)، لتوليد تسلسل كلام من النمط التالي:

لا بأس، فأنا لا أهابُ الموت («ça ne fait rien, je n'ai pas peur de la mort»)

ولكن قد يتمّ تأويلها على سبيل الدعابة باعتبارها تبأر على «البطء» (lentement) (وهو تأويلٌ مسموحٌ به ولكنَّه أقلّ احتمالاً، في ظلّ غياب أي دليلٍ نطقيّ يتدخَّل لتعزيزه. ويولِّد هذا التأويل الردّ التالي غير المُرتقب ولكن المعروف جدّاً، ألا وهو:

لا بأس، فأنا لستُ على عجلةٍ من أمري[194] («ça ne fait rien, je ne suis pas pressé»).

---

(194) تستثمر «المزحات» الحوارية مبدأ «تبديل مكان البؤرة» هذا على نطاقٍ واسعٍ، كما يظهر ذلك في الأمثلة التالية:

المثل الأوّل: - «لِمَ تضع دائماً الغليون في فمك؟
- أين تريدني أن أضعه؟».

(- «Pourquoi avez-vous toujours la pipe à la bouche?
- Où voulez-vous que je la mette?»).

المثل الثاني: - «لِمَ تتسمّر دائماً أمام شاشة التلفاز؟
- ما من شيءٍ يستحقّ المشاهدة وراءه...»

(- «Pourquoi es-tu toujours devant la télé?
- Il n'y a pas grand-chose à voir derrière...»).

وإلى جانب ضرورة الوضوح هذه، يجدر بنا أن نلحظ أيضاً، من جملة أمورٍ عديدةٍ، وبلا اتّباع ترتيبٍ مُعيَّنٍ، ما يلي:

1. قاعدة اقتصادٍ لغويٍّ تقضي بأنّه من المُفضَّل أن ننتقي للتعبير عن محتوى معيَّنٍ الصياغة الأكثر بساطةً ومباشرةً. وتُظهر هذه القاعدة مثلاً أنَّه حين تكون الكلمة المُلائمة موجودةً، نتحاشى استعمال شرحاً نصيّاً لها يُكبِّدنا «كلفةً» أكبر، إلاّ في حال كنّا نُبيِّتُ نيّةً برهانيّةً خاصّةً[195] تكون مسؤولةً عن التأثير الذي يوصف بالغريب على أقلّ تعديلٍ الذي تُحدِثه مثلاً الجُمَل التالية:

أنا شغوفٌ بالأولاد، ما خلا الصبيان الصّغار منهم[196] («Je raffole des enfants, les petits garcons excepté»)،

يستهويني صنفان من الرجال، ألا وهما: مَن لديهم شوارب، ومَن ليس لديهم شوارب[197] («J'aime deux sortes d'hommes: ceux qui ont de la moustache, et ceux qui n'en ont pas»)،

بعد مُضيّ أسبوعَين، كانت بوناديا عشيقته منذ خمسة عشر يوماً[198] («Deux semaines plus tard, Bonadea était depuis quinze jours sa maîtresse).

2. ضرورة النزاهة التي تقضي على سبيل المثال بأن نذكر المصادر التي استقينا منها معلوماتنا في الأعمال العلميّة طبعاً، ولكن أيضاً في الكلام اليوميّ. مع أنّنا نستطيع أن نقول بصدقٍ ما يلي:

المثل الثالث: - «لِمَ يرتدي الفرنسيّون حمّالات بنطالٍ ثلاثية الألوان؟

- ليُثبّتوا سراويلهم...»

(- «Pourquoi les Français portent-ils des bretelles tricolores?

- Pour soutenir leur pantalon...»).

(ونستنتج بناءً على هذه الأمثلة وجوب معالجة قضية «البؤرة» بمقتضى طريقة عمل قوانين الملاءمة والإخبارية والشمولية).

(195) راجع: James D. Mc Cawley, «Conversational Implicature and the lexicon,» in: Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics*, p. 257;

وباسكال الذي يؤكّد في مكانٍ ما وباختصارٍ ما يلي: «ثمّة حالاتٌ تستوجب أن نُسمّي باريس «باريس»، وحالاتٌ أخرى تُحتّم علينا أن نُطلق عليها اسم «عاصمة فرنسا»» («Il y a des cas où il faut appeler Paris «Paris», et d'autres où il faut dire «capitale de la France»»).

(196) نقلاً عن لويس كارول (Lewis Carrol).

(197) مثل مأخوذ عن ماي ويست (Mae West).

(198) مثل مُقتبسٌ عن موزيل (Musil).

إنَّ نيويورك مدينةٌ أسطوريةٌ («New York est une ville fabuleuse»)،

من دون أن نكون قد وطئناها مُطلقاً في السابق. ومن المُتَّبع في مثل هذه الحالة أن نُضيف البند الآتي: «كما يبدو/ حسب ما قيل لي» («paraît-il / à ce qu'on m'a dit») إلى هذه العبارة؛ أي بكلام آخر، تستتبع هذه العبارة عموماً في حال أدلينا بها «من دون إضافاتٍ» (وحتّى إنَّها ترمي صراحةً إلى قول هذا الأمر، في حالة المحسن البيانيّ الإضماريّ)، ما يلي:

/لقد زرتُ نيويورك، وأعرف هذه المدينة/ (/"je suis allée à New York, je connais cette ville/)

3. ضرورة الحياد التي تقضي بوجوب تلافي استعمال العبارات الموجَّهة «برهانيّاً» بشكلٍ واضح، في عددٍ لا يُستهان به من المقامات الخطابيّة، وأن نستعيض عنها بطرقٍ وأساليب أكثر تكتُّماً، بغية التأثير في رأي الآخر، كما هو مُبيَّنٌ أدناه:

● كأن يُقال في اجتماع نقابيٍّ ما يلي: «أبلِّغكم بوجوب عدم التطرُّق إلى الشؤون الوطنيّة في المداخلات» («Je vous informe qu'il n'y a pas de mot d'ordre national»)، ويعني ذلك بتعبيرٍ آخر /أذكِّركم بأنَّ ذلك يُعرِّضكم من الآن فصاعداً إلى عقوبة الحجز على الرواتب/ (/"je vous rappelle qu'il y aura désormais des retenues sur salaire"/) (ممّا يدفعنا إلى استخراج الاستدلال الآتي: /عجباً، إنَّه ضدّ الإضراب/ (/tiens il est contre la grève/))؛

● أو أن نقول أثناء التداول في نتائج الامتحان ما يلي: «هذه المرّة الثالثة التي تمثُل فيها للامتحان» («c'est la troisième fois qu'elle se présente»)، «إنَّها حقّاً جميلةٌ» («elle est vraiment jolie»)، و«المسكينة إنَّها جاحدةٌ قليلاً» («la pauvre elle est un peu ingrate»)، و«عجباً، إنَّها من مواليد عام 1940» («tiens elle est née en 1940»)، و«لا زالت يافعةً حقّاً» («elle est vraiment toute jeune»). علماً بأنَّه من الممكن في بعض الحالات أن يتمّ توظيف الأقوال الأكثر تعارُضاً لخدمة النيَّة البرهانيّة نفسها؛

● أو كأن نقول أثناء انتقاء المطعم الذي سنقصده، ما يلي: «إنَّه بعيدٌ بعض الشيء» («c'est un peu loin»)، و«لقد قصدناه قبلاً أتذكر ذلك؟» («on y est déjà allé tu te souviens?»)، و«يقع ذاك المطعم في الريف» («celui-là il est à la

campagne»)» (وقد تُفضي العبارة الأخيرة، إذا كان توجُّه القول البرهانيّ مؤكّداً إنّما مُبهماً، إلى تهديدٍ من النمط الآتي: «وإن يكن؟» («et alors?»))؛

4. فضلاً عن قاعدةٍ أكثر خصوصيّةٍ تقضي بأنّه في حال كان المرء شخصيّاً مؤهَّلاً، جرّاء تجربته المباشرة في المجال، إصدار حكم على غرضٍ أيّاً يكن، يكون بمقدوره أن يتحرّى رأي الشخص الآخر، من خلال طرح سؤالٍ ما عليه، كما يلي:

ما رأيك بهذا الفيلم؟ («Comment as-tu trouvé ce film?»)،

ولا ينبغي عليه أن يطرح هذا السؤال على الشّكل الآتي:

أجيِّدٌ هذا الفيلم؟ («Il est bien ce film?»)

لأنّ سؤالاً من هذا القبيل يُضمِّن تلقائيّاً الاستدلال الآتي:

/ لم أشاهد شخصيّاً هذا الفيلم/ (/je ne l'ai personnellement pas vu/).

(وإليكم أيضاً هذا المثل المُقتبس عن موسيّه من كتابه بعنوان **نزوة**[199]، ألا وهو:

السيِّدة دو ليري: أكانت مُسلِّيةً تلك الحفلة الراقصة؟

شافينيه: كما هذه. أوَلم تُشاركي فيها؟)؛

(MADAME DE LERY. - Était-il amusant, ce bal?
CHAVIGNY. - Comme cela. N'y étiez-vous pas?);

5. قاعدة عامّة أكثر تقضي باحترام كلّ القواعد التي ترعى التفاعلات التحادثيّة والتي تُحدِّد طرق عمل أدوار الكلام والثنائيّات المتجاوِرة وسواها من «التبادلات» والمتتاليات الافتتاحيّة والختاميّة، إلى ما هنالك. وتُشكِّل هذه القواعد، حين نعتبرها مُنتهكةً، موضوع تعليقٍ تواصليّ تحويليّ - فعلى سبيل المثال، يعمد جيسكار ديستان إلى تذكير ميتران أثناء مناظرةٍ مُتلفزةٍ جمعتهما[200]، بما يلي:

---

(199) Alfred de Musset, *Théâtre. 1-2*, 2 vols., chronologie, préfaces et notices par Maurice Rat (Paris: Garnier-Flammarion, 1964), vol. 2: *La Quenouille de Barberine. Le Chandelier. Il ne faut jurer de rien. Un Caprice. Il faut qu'une porte soit ouverte ou fermée. Louison. On ne saurait penser à tout. Carmosine. Bettine. L'Ane et le ruisseau*, p. 144.

(200) Paolo Baldi, «La Structure de l'interaction dans le débat télévisé Giscard/ Mitterrand (1974),» *Travaux du centre de recherches sémiologiques de l'université de Neuchâtel*, no. 35 (juillet 1979).

ليس لديّ فكرة عن تصوُّركم للحياة العامّة، ولكن حين أتَّهمُ شخصاً ما، أمنحه الوقت للردّ عليّ («Je ne sais pas quelle idée vous avez de la vie publique, mais lorsque je mets en cause quelqu'un, je lui laisse le temps de me répondre»).

أنا متأخِّرٌ لأنَّ السيِّد ميتران يتكلَّم أكثر منّي، وأنا أبذل جهداً للحصول على حقّ الكلام («Je suis en retard parce que Monsieur Mitterrand parle plus que moi, et je m'efforce d'avoir accès au droit de parole»).

فلنتكلَّم بجديّةٍ يا سيِّد ميتران.. («Monsieur Mitterrand, parlons sérieusement...»).

كما يقوم ديستان بتذكير ميتران بضرورة العودة إلى نظام المبادئ البرهانيّة، قائلاً:

لا ينبغي أن نبدأ بالأشياء المؤكَّدة («Il ne faut pas procéder par affirmations»).

ينبغي على المرء أن يورد الخلاصات في آخر برهنته وليس في مُستهلِّها («Il faut mettre ses conclusions à la fin de sa demonstration et pas au début»).

لا يكفي أن نضع جداول للإشكاليّات، بل ينبغي وضع جداول بالحلول («Il ne suffit pas de faire le catalogue des problèmes, il faut faire le catalogue des solutions»).

يجب ألاّ نتكلَّم عن أمورٍ مُحدَّدةٍ («Il faut parler de choses précises»).

إن أردنا التحدُّث بالأرقام، ينبغي أن نملك الأرقام الدقيقة[201] («A partir du moment où nous discutons de chiffres, il faut discuter de chiffres exacts).

إنَّ التكرار المُستمرّ لصيغة الأمر «ينبغي» («il faut») هو مُعبِّرٌ بما فيه الكفاية، فالمسألة مسألة قواعد مُستمدَّةً من نظام أصول أدبيّات حسن القول. ولكن، وبعد كلّ حسابٍ، لا تُبدي القواعد الألسنيّة اللُّغويّة بكلّ ما للكلمة من

(201) بحسب بالدي في: المصدر نفسه، ص XIII-X.

معنى أيّ مقاومةٍ للحؤول دون صياغتها بمقتضى عبارة «ينبغي» («il faut») («أن نُطابق الفعل مع الفاعل» مثلاً، إلى آخره). وممّا لا ريب فيه أنَّه يجدر بنا فضلاً عن ذلك أن نُسلِّم باحتواء الكفاءة البلاغيّة التداوليّة التواصليّة على مبدأ عام أكثر ينصّ على ضرورة أن نلعب لعبة النظام الألسنيّ اللُّغويّ وأن نحترمَ قدر المُستطاع القواعد النحويّة والمعجميّة، فعلى كلّ دالٍّ أن يكتسب في إطار الخطاب إحدى القِيَم التي يمتلكها في اللّغة، ويُمكننا على الأكثر أن نسدَّ استثنائيّاً بعض نواقص المُعجم عبر فبركة تعبيرٍ مبتكَرٍ يؤدّي دور الدالّ أو المدلول، شرط أن يكون مفهوماً على الفور، أي أن يكون مُبرَّراً بوضوحٍ. وأبرز دعاة استعمال الكلام اللُّغويّ الفرديّ بحصر المعنى والذي يُجسِّد صورته الرمزيّة، هو كما نعلم جميعاً، شخصيّة «الرّجل البيضة» المدعوّ هامبتي دامبتي (Humpty Dumpty). وهذه بعض الأمثلة:

- حين أستخدم كلمةً، قال هامبتي دامبتي، مُبدياً بعض الاشمئزاز، فهي تعني ما أرمي أنا إلى قوله من ورائها، لا أكثر ولا أقلّ.

(«Quand j'emploi un mot, dit Humpty Dumpty avec un certain mépris, il signifie ce que je veux qu'il signifie, ni plus ni moins»).

- تكمن المسألة في معرفة ما إذا كان بوسعكم أن تجعلوا الكلمات نفسها تحمل في طيّاتها معاني أمورٍ مختلفةٍ، قالت أليس.

(«La question est de savoir, dit Alice, si vous pouvez faire que les mêmes mots signifient tant de choses différentes»).

- تكمن المسألة، كما يقول هامبتي دامبتي، في معرفة مَن هو الآمر الناهي - هذا كلّ ما في[202].

(«La question est de savoir, dit Humpty Dumpty, qui est le maître - c'est tout).

تجد أليس المسكينة نفسها مرّةً أخرى في حالةٍ من الذهول إثر مواجهة هذه المُطالبة غير المُتّسقة بقدر ما هي صارخة. ولكن يجب ألاّ يغيب عن بالنا أنّنا في بلاد الأعاجيب. ومع ذلك، إنَّ القصّة التي تعرض لنا نظريّةً مؤثّرةً عن الملوك

---

(202) Lewis Carroll, *Lewis Carroll. Alice au pays des merveilles et De l'autre côté du miroir* = *[Alice in Wonderland et Through the Looking-Glass]*, traduction de André Bay..., illustré par John Tenniel, [Lewis Carroll, par André Maurois] (Verviers: Gérard et Cie, 1963), p. 246.

والمهرّجين، لا تأتي مُطلقاً على ذكر شخصيّة هامبتي دامبتي، ذلك لأنّه من المُحال أن يُقرّر المرء انتهاك قانون التقيُّد بالاستعمالات اللُّغويّة بشكلٍ منهجيٍّ وعن سابق تصوُّرٍ وتصميم (وهذا الأمر يصبّ في صالح مبدأ التعاون)، من دون أن يلتزم نفسه فوراً الصمتَ، فكلّ كلمةٍ ترمي إلى ما ترمي إليه، هذا صحيحٌ، ولكن في الوقت عينه، إنَّ كلّ كلمةٍ تعني ما تعنيه (إذ إنَّ لديها معنى في اللّغة). ونستنتج ما يلي: أن يتحدَّث المرء يعني أن يُحاول التوفيق بين إرادتَي القول هاتَين. ومرّةً أخرى يجد المرء نفسه مرغماً على التعاون.

وبالعودة إلى القواعد التي تطرَّقنا إليها في الحديث آنفاً، لا بدّ من أن نُقرَّ أوّلاً، بأنَّ المسألة تتعلّق في هذا الصدد بمجموعةٍ من القواعد جدّ متنافرةٍ إلى حدٍّ يُمكننا أن نتساءل ما إذا كانت تنتمي بالطريقة نفسها إلى هذه الكفاءة البلاغيّة التداوليّة التواصليّة؛ وثانياً، بأنّنا لا نفهم بعد بوضوح كيف تتجزَّأ هذه الكفاءة وتنتظم، وأنَّ كلّ ما نقوله في هذا الصدد بشأنها مُستمَدٌّ من فكٍّ بدائيٍّ للشيفرة. وعلى أيّ حالٍ، يُصار مراراً وتكراراً إلى انتهاك هذه القوانين - ويقول براون وليفنسون[(203)] عن القواعد التحادثيّة بأنّها «قابلةٌ للغاية للانتهاك» -، وإلى تعليق العمل بها منهجيّاً في بعض أنماط الخطاب، فعلى سبيل المثال، وبحسب لويس لامبير، وهو المُنظِّر حول «أسلوب المحاكمات»، يترتَّب على ضبّاط الشّرطة القضائيّة ولكن أيضاً على أيّ كاتبٍ أو حاجبٍ جديٍّ أن يحترموا بدقَّةٍ مبدأ التعاون، قائلاً: «يجب أن تكون الدّعوى الموكلة إليكم خلواً من أيّ إبهام أو لبسٍ [. . .]. مع أنَّ الوضوح المُطلق هو ضرورةٌ لا غنى عنها في الأساليب كافَّةً بما فيها الأسلوب الفلسفيّ، فما من شيءٍ أجمل من فكرةٍ عميقةٍ مُعبَّر عنها باقتضابٍ وتناغم بواسطة تعابير واضحةٍ، فهذا هو ما برهنه برغسون (Bergson). وفي المقابل، ما من شيءٍ أكثر إثارةً للسخريّة والغيظ من السفسفة المُتكلّفة وغير المُعبِّرة التي تُكبِّد القارئ جهداً لترجمتها، ويا لخيبة أمله حين يكتشف في نهاية المطاف أنّها لا تحوي إلاّ على سلسلة أفكارٍ مُبتذلةٍ أو على الأصحّ طفوليّةٍ». ويقول بول موران (Paul Morand) ما يلي: «أن يكتب المرء باللّغة الفرنسيّة يعني

(203) Penelope Brown et Stephen Levinson, «Universals in Language Usage: Politeness Phenomena,» in: Esther N. Goody, ed., *Questions and Politeness: Strategies in Social Interaction*, Cambridge Papers in Social Anthropology; 8 (Cambridge, MA; New York: Cambridge University Press, 1978), p. 234.

أن يُقدِّم شهادةً على انسياب هذه اللّغة وكأنَّها ماء عذب، فتكون كلّ اللّغات الأخرى مقارنةً بها كأنَّها سواقٍ مياهها عكرةٌ، ويعني أيضاً أن يجعلنا نشعر ونحن نقرأها وكأنّنا نقطن في قصرٍ من بلّورٍ» («Écrire en français, c'est voir couler une eau de roche, à côté de laquelle toutes les autres langues sont de troubles rivières, c'est vivre dans un palais de crystal»). إلاّ أنَّ الخطابات العابثة والشِّعريّة التي توظِّف اجتماع الضدَّين وتُكرِّسه، تنتهكُ هذا المبدأ انتهاكاً منهجيّاً. وكذلك فإنَّ الممارسات الخطابيّة التي تُثير اهتمامنا تحديداً في هذا الصدد، ألا وهي: الخطاب المُضمَر/ والمحسن البيانيّ الابتكاريّ اللّذان يولِّدان نوعاً من تعدُّدية المعاني المُبتكرة، تنتهك من حيثُ تعريفها قاعدتَي الوضوح والاقتصاد اللُّغويّ.

ب) قوانين الخطاب المتعلِّقة بمجموعة التصرُّفات الاجتماعيّة والمُستمدَّة من نظام لياقةٍ ذي تجليّاتٍ كلاميّةٍ وغير كلاميّةٍ على حدٍّ سواء.

يؤكِّد غريس ما يلي[204]: «وبلا ريب، ثمّة قواعد أخرى متنوِّعة (جماليّة أو اجتماعيّة أو أخلاقيّة) من نمط القاعدة القائلة «كُن مؤدَّباً» («Soyez poli»)، يراعيها عادةً المشاركون بالتبادلات الكلاميّة المحكيّة»، فتماماً كما يُمكننا ربط مبدأَي التعاون والملاءمة بخاصيَّة «الصوابيّة» لدى المتكلِّمين، كذلك قد نعتبر أنَّ قواعد التهذيب هذه ترتكز على نظريّة «الوجوه» («Faces»)، «فعلى خُطى غوفمان، ينطلق براون وليفنسون من فرضيّة أنَّ كلّ فردٍ يحرص قبل كلّ شيءٍ، في إطار التفاعل الاجتماعيّ، على الحفاظ على ماء الوجه. وهما يُميِّزان كذلك بين «الوجه السلبيّ» الذي يتمثَّل بالحاجة [...] إلى الدفاع عن منطقة الأنا، و«الوجه الإيجابيّ»، أي الحاجة إلى أن يعترف الشخص الآخر بنا وأن نحوز استحسانه. ومن حيثُ المبدأ، إنَّه لمن مصلحة كلّ مخاطبٍ أن يُحافظ على ماء وجه الشخص الآخَر كي لا يُعرِّض ماء وجهه الخاصّ للخطر» (وتُطالعنا في هذا الصدد الفكرة التي نادى بها سبيربر والتي تتناول الشخص الذي يكون أنانيّاً بالفطرة وغيريّاً عن مصلحةٍ). «ولكن، ثمّة أفعالٌ تُشكِّل من حيثُ الأصل خطراً على وجه المُخاطب الإيجابيّ [...] أو السلبيّ؛ وأخرى على وجه المتكلِّم

(204) Grice, «Logique et conversation,» p. 62.

الإيجابيّ [. . .] أو السَّلبيّ [. . .]. ومن هنا ضرورة تطوير استراتيجيّات تفاعل من شأنها أن تُقلّص من حدَّة خطر هذا التهديد المُحدِق»[205].

سنتعرَّف في مرحلةٍ لاحقةٍ على ماهيّة هذه الاستراتيجيّات المُستمدَّة بغالبيّتها من أسلوب المواربة. أمّا الآن، فسنكتفي بذكر ما يلي:

1. تُقسَم «الأفعال المُهدِّدة للوجوه» («Faces Threatening Acts»)، تبعاً لتشكيلها خطراً على الوجه الإيجابيّ أم السَّلبيّ لدى المُحاوِر أو المخاطب، إلى أربعة فئاتٍ، هي:

(1) الأفعال التي تُشكِّل خطراً على وجه المُحاوِر السَّلبيّ (أي على «خصوصيَّته»)، ونذكر منها: الأمر والالتماس والعرض والاقتراح والنصيحة والوعيد، إلى آخره.

(2) الأفعال التي تُشكِّل خطراً على وجه المُحاوِر الإيجابيّ (أي على نرجسيّته)، وأبرزها: النقد والإهانة والصدّ والتأنيب والدحض، وغيرها من التصرُّفات الكيديّة.

(3) الأفعال التي تُشكِّل خطراً على الوجه السَّلبيّ للمتكلِّم نفسه، على غرار: الوعد والاقتراح، وغيرها من «الأفعال الواعِدة» الأوستنيّة السيرليّة.

(4) الأفعال التي تُشكِّل خطراً على وجه المتكلِّم الإيجابي، وأبرزها: الإقرار والاعتذار والنقد الذاتيّ والتحقير الذاتي والتصرُّفات «الإذلاليّة الذاتيّة» (على غرار فقدان التحكُّم بالكلام أو عدم السيطرة الجسديّة. . .، إلخ[206]. ويُنصح الأشخاص الذين يتبوَّأون مراكز «رفيعةً» (ويرغبون في الحفاظ عليها)، كالآلهة مثلاً، بالانصراف بوجهٍ خاصٍّ عن مثل هذه الأفعال، كما يظهر ذلك في المثل الآتي:

اللَّيل: إنْ سئمتَ يا مركور، فاحتفظ لنفسك بهذه السُّخريّة

---

(205) Eddy Roulet, «Modalité et illocution: Pouvoir et devoir dans les actes de permission et de requête,» *Communications*, no. 32 (1980), p. 217.

(206) بشأن «الانتهاك الذاتيّ» - على غرار الهوان والتباهي («هذا هو مثلاً وضع شخص ما [. . .] يكون في حالة سُكرٍ، فيبكي أمام الغرباء ويسرد لهم قصّة حياته»)، إلى آخره، راجع: Goffman, *Gender Advertisements*, pp. 65 et sqq.

إنَّ الإفصاح عنها يُفقد الإله بعضاً من الألوهيّة

مركور: هل الإله مجبولٌ من الصُّلب؟

اللَّيل: كلاّ، ولكن تذكَّر أنَّك مولجٌ بالحفاظ

على هالتك من بعض الألفاظ

التي يُشكِّل استعمالها إهانةً رهيبة

تنتقص من رفعة الميزة الألوهيّة المهيبة

لذا حريٌّ بك الامتناع عن الكلام المُهين

وجعل استعماله حكراً على الآدميّين(207).

(LA NUIT. - Vous vous moquez, Mercure, et vous n'y songez pas:
Sied-il bien à des dieux de dire qu'ils sont las?
MERCURE. - Les dieux sont-ils de fer?
LA NUIT. - Non; mais il faut sans cesse
Garder le decorum de la divinité.
Il est de certains mots dont l'usage rabaisse
Cette sublime qualité
Et que, pour leur indignité
Il est bon qu'aux hommes on laisse).

2. تُشكِّل بعض التصرُّفات الخطابيّة (أو غير الخطابيّة) تهديداً وتهديداً مُضادّاً في آنٍ ـ أي صفعةً ومداعبةً، جرحاً وترياقه.. وقد يُشكِّل الفعل ذاته في الوقت نفسه خطراً على أكثر من وجهٍ من الوجوه التي استعرضناها آنفاً.. وهكذا مثلاً، إنَّ «اعتراف» المتكلِّم «بحبِّه» أو من بابٍ أوْلى بولعه بالمُحاوِر، قد:

(1) يُشكِّل خطراً على وجه المُحاوِر السَّلبيّ: إذ يُعدّ الحبّ، أكثر بكثير من الصداقة، اقتحاماً نوعاً ما لخصوصيَّة الشخص الآخر، وهذا مثلٌ على ذلك:

زيربينيت: أنا موافقةٌ على عرضك، فليس من شيمي أن أحجِم حين يعرض عليّ شخصٌ ما صداقته.

سكابين: وحين يعرض شخصٌ ما عليك حبّه؟

(207) نقلاً عن مسرحيّة **أنفيتريون** (*Amphitryon*)، الفاتحة.

زيربينيت: أمّا بالنسبة إلى الحبّ، فالمسألة مختلفةٌ تماماً؛ ففي هذا الأمر مجازفةٌ أكبر، ولا أملك من الشجاعة ما يُخوِّلني الخوض في مثل هذه المغامرة[208].

(ZERBINETTE. - J'accepte la proposition, et ne suis point personne à reculer, lorsqu'on m'attaque d'amitié.

SCAPIN. - Et lorsque c'est d'amour qu'on vous attaque?

ZERBINETTE. - Pour l'amour, c'est une autre chose; on y court plus de risque et je n'y suis pas si hardie).

وحتّى قد يُجابَه هذا الاقتحام بعنفٍ لا يُحتمل، كما في المثل الآتي:

إيزابيل: تختلف نظرتنا للأمور نفسها غالباً:

فأشواكي تراها وروداً

وحبُّك أسمِّيه عذاباً

وليس حنانك بنظري إلاّ إزعاجاً[209].

(ISABELLE. - Nous donnons bien souvent de divers noms aux choses:
Des épines pour moi, vous les nommez des roses;
Ce que vous appelez service, affection,
Je l'appelle supplice et persécution).

(2) أو قد يُشكِّل تهديداً مُضادّاً لوجه المُحاوِر الإيجابيّ، فمثلاً: يشعر المرء بالإطراء والامتنان إن أُغرِم شخصٌ ما به - ولاسيما إن كان هذا الشخص محطّ تقدير (وبموازاة ذلك، يُشكِّل في المُقابل إعلان المُحاوِر عن «عدم حبِّه» للمتكلِّم إهانةً فظيعةً، ولاسيما إن كان هذا الأخير يكنّ له مشاعر الحبّ. وانظر مثلاً، في الفيلم القصير الذي يحمل عنوان «كيف لي أن أحبَّ رجلاً لا رغبة له فيَّ» (How can I love a man who don't want me) للمُخرجة آن ماري مييفيل (Anne-Marie Miéville)، إلى الاستراتيجيّات التي يلجأ إليها بشكلٍ مُخزٍ وأرعن كلّ عشّاق البطلة المتعاقبين بغية «تلطيف» صياغة القول الآتي: لم أعد أحبُّكِ» (je ne«

---

(208) مثلٌ مأخوذٌ عن المشهد الأوّل من الفصل الأوّل من مسرحيّة **مكر سكابين** (*Les Fourberies de Scapin*).

(209) مثلٌ مُقتبس عن المشهد الثالث من الفصل الثاني من مسرحية **الوهم الهزليّ** (*L'Illusion comique*).

t'aime plus») الذي يُشكِّل حجر الأساس لمشاهد الانفصال كافَّةً. وإليكم على سبيل المثال أيضاً هذا الحوار المُقتضب المأخوذ عن المشهد الثاني من الفصل الثاني من مسرحية «سينيرنتولا» (Cenerentola) للمؤلِّف المسرحي روسيني، ألا وهو:

ساندريّون: كُفَّ عن الحديث في هذا الموضوع وإلاّ سأنصرف.

دانديني: ولكن كيف ذلك؟ أأجرح شعوركِ حين أكلِّمكِ عن الحبّ؟

ساندريّون: ولكن ماذا لو كنتُ أحبُّ شخصاً آخرَ؟

دانديني: أوَتقولين لي ذلك وجهاً لوجه!

(CENDRILLON. - Changez de langage ou je vous quitte.

DANDINI. - Mais comment donc? Est-ce vous blesser que vous parler d'amour?

CENDRILLON. - Mais si j'en aime un autre?

DANDINI. - Et vous me le dites en face! [e me lo dicie in faccia!]).

(3) ويُشكِّل بالأحرى خطراً على وجه المتكلِّم السَّلبيّ، فيُمسي هذا الأخير تحت رحمة ما كان يُعرف في السابق باسم «واجب الحبّ» («service d'amour»).

(4) ويُشكِّل خطراً على وجه المتكلِّم الإيجابيّ الذي يُعرِّضُ نفسه لخطر الإذلال في حال رفضه الشخص الذي يعترف له بحبّه؛

3. يتعيَّن التسليم بمبدأ عامٍّ يقضي بأنَّنا نسعى عموماً إلى عدم افتضاح أمرنا وعدم افتضاح أمر شريكنا في التفاعل. ويولِّد هذا المبدأ عدداً معيَّناً من قوانين الخطاب التي نُطلق عليها اسم «قوانين اللِّياقة» (على غرار التهذيب والمجاملة والكياسة والتمدُّن...)، ألا وهي:

(1) القواعد المتعلِّقة بتصرُّفات المتكلِّم حيال المُحاوِر.

1. تنبثقُ في غالبيّتها من المبدأ القائِل: احرص قدر المُستطاع على مداراة وجهَي المُحاوِر الإيجابيّ والسَّلبيّ.

● فعلى صعيد الوجه السَّلبيّ: «تجنَّب إصدار أوامر فظَّةٍ إلى المُحاوِر أو فرض شروط مستعصيةٍ عليه أو «التعدّي عل اختصاصه»، إلى آخره».

● أمّا على صعيد الوجه الإيجابيّ: «تحاشَ قول أمورٍ مُجافيةٍ للمُحاوِر أو التعرُّض إليه بالسخريّة» (ويقول فيرنان راينو (Fernand Reynaud)) في كتابه بعنوان **سعيد** (*Heureux*)، ما يلي: «من سوء النيّة أن نمزحَ وأن نضحكَ بينما شخصٌ آخر يتحدَّث»).

وإن كان من السوء أن نتكلَّم بالسّوء عن الآخرين[210] - فمن الأسوأ بعد أن نتحدَّث بالسوء عن شريكنا الخطابيّ، وهذا تحديداً ما يُضفي على قواعد اللّياقة هذه طبيعتها التفاعليّة، بحيثُ إنّها تقضي باعتماد تصرُّفٍ خطابيٍّ معيَّنٍ إن كان الحديث الموجَّه إلى المُحاوِر يتناوله شخصيّاً. والدليل على ذلك أنّنا لا نتوانى، بقصد وصف شخصٍ ما إلى المُخاطب، من استعمال صفاتٍ قِيَميّةٍ حتّى وإن كانت سلبيّةً. ولكن في حال صدفَ وفرضَ علينا مقامٌ معيَّن أن نصف المُحاوِر لنفسه (لكي نتأكّد مثلاً، أثناء مكالمةٍ هاتفيّةٍ أنّنا نُكلِّم المُخاطب الصّحيح)، فقد نقول للمرأة التي نُحاورها ومن دون أدنى إشكاليّةٍ، لأنَّ المسألة هنا تتعلّق بصفةٍ «موضوعيّةٍ»، ما يلي: «أنتِ شقراء» («vous êtes blonde»)؛ ولكنّنا نقول لها مع بعض التردُّد والحذَر، ما يلي: «أنتِ قصيرة القامة (إن جاز التعبير)» («Vous êtes (plutôt) petite»)؛ في حين يصعب علينا أكثر بكثير، وسنأتي على ذكر سبب ذلك لاحقاً، أن نقول لها: «أنتِ جميلةٌ» («vous êtes jolie»)؛ وأخيراً، لا نقول لها البتّة، إلاّ إذا تعمَّدنا إثارة غيظها مثلاً، ما يلي: «أنتِ قبيحةٌ» («vous êtes moche»). ونستنتج بالتالي أنَّ الصفات القِيَميّة هي بمثابة القنابل الكلاميّة المنطوقة التي ينبغي معالجتها بتأنٍّ.

وإليكم المزيد من إثباتات هذه القاعدة وبراهينها:

المثل الأوّل: من بين الشبّان الفرنسيّين كافّةً، يؤثّر بيرتران بليبه فيَّ كثيراً، وأنا من أشدّ المُعجبين بأفلامه. وإلاّ، فأنا أحبُّ أشخاصاً من مثل روهمر، ولكنّنا نُسمّي دائماً الأشخاص الذين نحبُّهم...

---

(210) والغريب أنّ هذه الجنحة تتفاقم حين يكون الشخص الذي نتناوله بالسوء شخصاً ميتاً، فما من شيءٍ يُدنّس القُدسيّات أكثر من إهانة جثّةٍ ما بالكلام؛ وما من شيءٍ أفظع من رسالة هجاءٍ مختصّةٍ بتراجم الموتى - وفي جعبتنا بعض الأمثلة من هذا «النوع» والتي تتَّصف بفرادتها، ونذكر منها: رسالة الهجاء التي أدلى بها أراغون في مأتم أناتول فرانس (Anatole France)، ورسالة هجاء بول موريل في كتابه (Paul Morelle, *Un Nouveau cadavre: Aragon* (Paris: Table ronde, 1984)),

لدى وفاة... أراغون.

- من هم الأشخاص الذين لا تحبُّهم؟

- ليس من اللّياقة أن أقول أسماءهم [ولاسيّما إن كان من المحتمل أن يكون هؤلاء الذين لا أحبُّهم كثيراً في عداد المتلقِّين غير المباشرين لحديثي غير التقريظيّ هذا]، ولكن كُن على ثقةٍ بأنّهم كثُر»[211].

(Parmi les jeunes Français, Bertrand Blier m'impressionne beaucoup, j'admire ses films. Sinon, il y a bien sûr des gens comme Rohmer. Mais on dit toujours qui on aime...

- Qui n'aimez-vous pas?

- Ce ne serait pas gentil de le dire [dans la mesure surtout où ces mal aimés peuvent être les récepteurs indirects d'un propos aussi peu fatteur], mais soyez certain qu'il y en a beaucoup).

المثل الثاني: سيلفيا: ثمّة المزيد من الأمور التي قد أفترِضُها؛ ولكنَّني لستُ مجنونةً لكي أتوقَّف عندها، وأخجل كذلك من مجرَّد ذكرها.

دورانت: بل لا تملكين الشجاعة للتحدُّث عنها، إذ ليس في جعبتك ما يُرغمني على البقاء. الوداع يا ليزيت[212].

(SILVIA. - Il y a bien encore certaines choses que je pourrais supposer; mais je ne suis pas folle, et je n'ai pas la vanité de m'y arrêter.

DORANTE. - Ni le courage d'en parler; car vous n'auriez rien d'obligeant à me dire. Adieu, Lisette).

ملاحظات

• يتَّضح من المثلَين الآنفَي الذكر كيف أنَّ قانون اللّياقة هذا يُحرِّم الإدلاء ببعض الأقوال. أمّا المثل الأخير، فيُثبتُ كيف يمكن أن تتحدَّر بعض الاستدلالات منه، فإنْ قلنا مثلاً: لم تُحدِّثني سيلفيا عن الأمر الفلاني، فيعني ذلك أن ما في جعبتها «لن يُرغمني على البقاء» («rien d'obligeant»).

• نُطلق اسم «زلّة» على الإهانة التي تصدر عفواً ولا إراديّاً على لسان المتكلِّم، ممّا يُعرِّضه للسخريّة التي يستحقُّها كعقابٍ على ما ارتكبه، ولكنَّ ذلك لا يحول دون إعطائه بعض الأسباب التخفيفيّة.

---

(211) مثلٌ مُقتبسٌ عن Arthur Penn, «Un petit grand homme,» وهي مُقتطفات من أحاديث جمعها أوليفييه سيغوري (Olivier Seguret)، ونُشرت في جريدة: *Libération* (22 déc. 1982), p. 22.

(212) من المشهد السابع من الفصل الثالث من مسرحيّة *Le Jeu de l'amour et du hasard*.

● يكون هذا الخطأ الذي يُرتكب جرّاء انتهاك قواعد التهذيب الخطابيّ عَرَضيّاً أكثر إن كان المتكلّم يُعدّ شخصيّاً بين الأشخاص الذين يُهاجمهم[213]؛ كما في المثل الآتي:

وإنْ قسوتُ في حديثي على هؤلاء [الفنّانين]، فذلك لأنّني أتكلّم عن نفسي بعض الشيء، عن ذلك الشخص الذي كان من الممكن أن أكونه[214].

(Et si je parle d'eux [les artistes] avec sévérité, c'est que je parle un peu de moi-même, de celui que j'aurais pu devenir).

● وفي المقابل، يُصبح هذا الخطأ أكثر فداحةً، في حال كان المتكلّم، من دون أن يُسلّم بذلك بشكلٍ بيّن هذه المرّة، يستحقُّ النقد الذي يوجّهه إلى المُحاوِر (فإنْ كان المتكلّم يستحقُّ هذا النقد أكثر بكثير من المُحاوِر، نُطلق عندئذٍ على هذه الجنحة اللُّغويّة[215] اسم «القشّة والحطبة» («la paille et la poutre»)). لكي يحقّ للمتكلّم انتقاد المُحاوِر لقيامه بالفعل الفلانيّ، يجدر به ألاّ يأتي بمثل هذا الفعل، تحت طائلة توجيه النقد اللاّذع والجارح التالي إليه: «أنتَ مؤهَّلٌ أن تتكلّم عن ذلك! فأنتَ لستَ معنيّاً به!» («Tu peux parler! Tu ne t'es pas regardé!»)، وهذا مثلٌ على ذلك:

السيّدة مارتن: رأيتُ في الشارع إلى جانب أحد المقاهي رجلاً ما يرتدي ثياباً لائقةً، وكان في العقد الخامس من عمره أو يناهزه، وكان...

السيّد سميث: وكان ماذا؟

السيّدة سميث: وكان ماذا؟

السيّد سميث (موجّهاً كلامه إلى زوجته): لا يجدر بك يا عزيزتي مُقاطعتها، فأنتِ تُثيرين الاشمئزاز.

---

(213) بموازاة ذلك، إليكم هذا المثل: «أقول لكم ذلك بطيبة خاطرٍ، ولاسيّما إنّني كنتُ أنادي بهذه الفرضية طوال عدّة سنواتٍ، وعليه فلا أتردّد بنقضها» («Je vous dis ça d'autant plus volontiers que j'ai été tenant de cette hypothèse un certain nombre d'années, donc je n'ai aucun scrupule à la dénoncer») (وقد أدلى أحدهم بهذه العبارة في إحدى الندوات). وعليه، يكون الانتقاد مقبولاً أكثر حين يصحبه انتقادٌ ذاتيّ – مع أنّ هذا الأخير لا يكون مقبولاً إلاّ ضمن حدودٍ معيّنةٍ، لأنّه لا ينبغي أن يُغالي المرء في إنقاص قيمة وجهه الإيجابيّ الخاصّ. راجع الفقرات التالية.

(214) «Lettre de Kaerner,» dans: Danièle Sallenave, *Les Portes de Gubbio*, le livre de poche; 5605 (Paris: Le Livre de poche, 1982), p. 150.

(215) ونضرب بعض الأمثلة على ذلك في مقالتنا: Kerbrat-Orecchioni, «Argumentation et mauvaise foi,» pp. 46-47.

السيِّدة سميث: تذكَّر يا عزيزي أنّك أنتَ مَن قاطعها أوّلاً، أيُّها الفظّ [بشكلٍ مُضاعفٍ، في الواقع][216].

(M^me MARTIN. - J'ai vu, dans la rue, à côté d'un café, un Monsieur, convenablement vêtu, âgé d'une cinquantaine d'années, même pas, qui...

M. SMITH. - Qui quoi?

M^me SMITH. - Qui quoi?

M. SMITH (à sa femme). - Faut pas interrompre, chérie, tu es dégoûtante.

M^me SMITH. - Chéri, c'est toi, qui as interrompu le premier, muffle [doublement, en effet]).

● وبناءً على ما تقدَّم، إنَّ الانتقادات والكلام اللاذع والسِّباب والنذالات والهزؤ والشتائم، وغيرها من أشكال الإهانة الكلاميّة، هي عملةٌ رائجةٌ. ولكنَّنا لا نلجأ إليها عموماً إلاّ بحذرٍ واعتدالٍ. حتّى إنَّ خطاب «الانتقاد» نفسه يستعمل طوعاً الإغراق والكلمات الذاتيّة التي من شأنها أن تُلطِّف فظاظة الحكم السَّلبيّ، فضلاً عن أسلوب التوازن القِيَميّ، فنقول مثلاً: «ثمّة مآخذُ عديدةٌ تؤخذ على الطريقة التي تمَّت بها معالجة هذا الموضوع الدقيق نوعاً ما» («Il y aurait beaucoup à dire sur la façon dont est traité ce thème quelque peu scabreux»)، و«لا تدعو هذه النتيجة إلى الدهشة» («Ce résultat ne laisse pas de surprendre»)، و«إنَّه فيلمٌ مُتقنٌ، ولكنَّه مُستجملٌ ربَّما بعض الشيء» («C'est un film très soigné, un peu esthétisant peut-être»)، و«لا بدّ من الإقرار هذه المرَّة بأنَّ هذا المشروع لا يُقنعنا» ("Cette fois, (il faut l'avouer, l'entreprise nous semble peu convaincante»)، و«إنَّ هذا المؤلَّف جديرٌ ...، حتّى وإن...» («Cet ouvrage a le mérite de..., même si...»)، و«يُثير بمهارةٍ موضوع...، ولكنَّنا نأسف ... / ناهيك عن أنَّه...» («Il évoque fort bien..., on peut cependant regretter que... / il n'en reste pas moins que...»)، إلى آخره. وإن كان لدينا النيَّة في تلافي نبش سلاح الحرب وشهره، وإن كنَّا نرغب في الحفاظ على حدٍّ أدنى من التعايش السِّلميّ الضروريّ لمواصلة التفاعل، يتعيَّن علينا أن نتجنَّب توجيه إهانةٍ نرجسيّةٍ جارحةٍ وفظَّةٍ إلى الشخص الآخر (حتّى وإنْ كان، كما رأينا في الأمثلة السابقة، مُرسَلاً إليه غير مباشرٍ، فما بالك إن كان مُرسَلاً إليه

(216) مثلٌ مُقتبسٌ عن المشهد السابع من مسرحية *La Cantatrice chauve*.

مباشراً). هذا هو المبدأ. أمّا بالنسبة إلى تطبيقاته، فلا يُمكن تصوُّرها إلاّ في إطارٍ مؤسَّساتيّ خاصٍّ بكلّ نمطٍ من أنماط التفاعل. وإليكم المثل الآتي: نهار 16 شباط/ فبراير عام 1983، وأثناء نقلٍ مُباشرٍ على الإذاعة، أبدى جان دورميسون (Jean d'Ormesson) استهجانه حيال رولان لوروي (Roland Leroy) وبحضور هذا الأخير، قائِلاً عنه: «المُغفَّل!» («L'imbécile!»). وقد أثارت هذه الإهانة (مع أنّها لم توجَّه بشكلٍ مباشرٍ، بل إنَّنا قد نجد فيها نوعاً من أنواع المُناجاة المُزيَّفة، أي المحسن البيانيّ التواصليّ) فضيحةً، ممّا اضطرَّ جان دورميسون «الرجوع عنها» علناً (أي في الواقع، إضافة عبارة إنشائيّة إليها ذات مهمَّةٍ «تصويبيّةٍ»). ونقيس نسبةً إلى هذا المثل المسافة الفاصلة بين المعايير التي ترعى التصرُّفات اليوميّة والتفاعلات «الرسميّة»...

● إذاً، من السوء أن نتحدَّث بالسوء عن شخصٍ ما أو أمرٍ ما. وبالتالي، قد يتبادر إلى ذهننا أنَّه من المُحبَّذ أن نتحدَّث بالحُسن عن هذا الشخص أو عن هذا الأمر، فحين يصدفُ أن نتحدَّث مع المُحاوِر عنه شخصيّاً، نلاحظ أمراً خارجاً عن المألوف، ألا وهو: يُنصح في نطاقٍ معيَّنٍ أن نتحدَّث عن المُحاوِر بحرارةٍ عندما نوجِّه حديثنا عنه إليه شخصيّاً، بل ينبغي أن نلجأ، بمقتضى قاعدة الانجذاب، إلى استعمال الغلوّ. ويقول غوفمان ما يلي: «على ما يبدو، إنَّ هذا المبدأ هو أحد مبادئ العلاقات الاجتماعيّة، فهو يسمح للشخصَين المعنيَّين اللَّذَين يتجاذبان أطراف الحديث (وجهاً لوجه أو عبر الهاتف) أن يُعبِّرا بشكلٍ أو بآخر عن درجة حميميّتهما، وعن المتعة التي يشعران بها حين تسنح لهما الفرصة بالاتِّصال. وهكذا، ينبغي تطبيق «قاعدة انجذابٍ» ما. ولكن نميل في الواقع إلى إظهار قدرٍ من الاهتمام والالتزام يفوق القدر الذي نشعر به ربَّما، وينحو الخطأ عادةً منحى الإكثار من استعمال مثل هذه القواعد»[217]. ولا بدّ من التذكير بوجوب اللّجوء إليها ضمن نطاقٍ مُعيَّنٍ فقط.

2. وتتدخَّل في الواقع قاعدةٌ مُكمِّلةٌ وعكسيّةٌ لتلك التي استعرضناها آنفاً لتُحرِّم ليس تصرُّفات اللّوم بل الثناء، وتقضي بما يلي: لا تُغالي في تعظيم شأن وجه المُحاوِر الإيجابيّ.

ولكن كيف السبيل إلى تفسير سبب مثل هذه الرقابة على المُجاملة (أي على

(217) Goffman, *Gender Advertisements*, p. 210.

الكلام المدحيّ الذي يتناول المُحاوِر أو أمراً ما يكون هذا الأخير مسؤولاً عنه بشكلٍ مباشرٍ ـ على غرار ذريّته ومنزله وطهيه وأعماله بشتّى أنواعها)؟ يُعزى سبب ذلك أوّلاً إلى أنّ كلام المُجاملة يكون عرضةً للتأويل باعتباره مُنافقاً، أي «مُتملّقاً»، كما في المثل الآتي:

المتكلّم [وهو لويس دو فونيس، أو على الأصحّ الشخصيّة التي يُجسدّها في فيلم «جنون العظمة»، للمُخرج أوري]، موجّهاً حديثه إلى مُمالقِه [وهو إيف مونتان] الذي كان يُخاطبه: امدَحني.

المُخاطب: جلالتك تحكم أكبر بلدٍ على الإطلاق...

المتكلّم: ولكن هذه ليست بمجاملةٍ، بل إنّها الحقيقة!

المُخاطب: جلالتك وسيمٌ.

المتكلّم (وهو يُحملق في المرآة): هل أنتَ جادٌّ في ما تقوله؟

المخاطب: مولاي، أنا أمدحك!

(L_1 [Louis de Funès, ou plutôt le personnage qu'il incarne dans La folie des grandeurs, de G. Oury], à son courtisan L_2 [Yves Montard]. - Flatte-moi.

L_2. - Vous régnez sur le plus grand état...

L_1. - Mais c'est pas de la flatterie ça, c'est vrai!

L_2. - Vous êtes beau.

L_1 (se regardant dans la glace). - Tu en es sûr?

L_2. - Monseigneur, je flattte!).

إنّ التملّق هو مجاملةٌ غير صادقةٍ. وغالباً ما تُضمّن كلمة «مجاملة» («compliment») بحدّ ذاتها فكرة النِفاق، وهذا مثلٌ على ذلك:

المتكلّم: أحسبك من أعزّ الأصدقاء، وأثق بك ثقةً عمياء.

المخاطب: لندع المجاملات جانباً.

المتكلّم: ليست هذه بمجاملاتٍ، بل أنا أكلّمك من صميم قلبي[218].

(L_1. - Je vous considère comme l'un de mes plus chers amis, et j'ai en vous une confiance illimitée.

L_2. - Laissons de côté les compliments.

---

(218) نقلاً عن: Charles de Bernard, *Une Consultation.*

L1. - Ce ne sont pas des compliments. Je vous parle du fond du cœur).

ولكن علامَ يرتكز هذا التقارب بين المجاملة والنِفاق؟ يرتكز على واقع أنّه يكون من مصلحتنا غالباً أن نُجامل كي يُنظر إلينا بعين الكِبَر، وكي نحصل نظير ذلك على فائدةٍ أو امتنانٍ يتّخذ شكل مجاملةٍ مُقابِلةٍ (إذ يُشبه نظام المُجاملة نظام البوتلاتش[*] (Potlach)). ويعتَبِر براون وليفنسون أنّ كلّ شخصٍ مُجامِلٍ «يُشير إلى أنّه معجبٌ بميزةٍ ما» لدى المُحاوِر، ولهذا تُشكِّل كلّ مجاملةٍ تهديداً لوجه المُحاوِر السلبيّ. وعليه، لا تُبرّأ المجاملات من النفاق لأنّه يُشتَبَهُ بأنّها استنفاعيّةٌ - كما يحدث مثلاً حين تندمجُ المُجاملات في فعل «المغازلة» أو «التودُّد» الأكبر (إذ يُعدُّ المُغازلون والمتودِّدون إلى النساء مجاملين نوعاً ما، لا بل مُنمِّقي كلامٍ مُحترفين).

وعلى أيّ حالٍ، يردُّ المرء على المُجاملة بصيغة الاعتراض على صدقيّة المُجامِل أو على حقيقة التأكيد والإخبار المُجامِل، فعلى سبيل المثال، يلقى جوابٌ من نمط «شكراً» («merci»)، المألوف في الولايات المتَّحدة في معرض الردّ على المُجاملة، استحساناً أقلّ في فرنسا حيثُ يُفضَّل عليه عموماً مُختلف أشكال النَّفي والدَّحض. ومردّ ذلك إلى أنَّ المجاملة تُحرِجُ المُرسَل إليه، إذ إنَّها تُخالف «قانون التواضع» الذي يقضي بضرورة عدم استسلام المرء لتعظيم وجهه الإيجابيّ الخاصّ - ومن باب الأولويّة بالإحجام شخصيّاً عن تعظيمه.

وفي الواقع، ثمّة قواعد تُملي كذلك على المتكلِّم التصرُّفات الخطابيّة التي يترتَّب عليه اعتمادها حيال نفسه. وقبل أن نتطرّق إليها في الحديث، لا بدّ لنا من الإشارة إلى أنَّ قواعد اللِّياقة تضطلع ليس بمهمَّة توجيه التصرُّفات التي تُهدِّد وجهَي المُحاوِر السَّلبيّ والإيجابيّ فحسب، بل أيضاً بتوجيه التصرُّفات «المُهدِّدة المُضادّة» سواء :

● وجه المُحاوِر السَّلبيّ: وتقضي «بضرورة المساس بخصوصيَّة المُحاوِر»، أي إنَّ حدّاً أدنى من التدخُّل يفرض نفسه كي لا نُلام على قلَّة اهتمامنا إزاء المُحاوِر؛

● أم لوجه المُحاوِر الإيجابيّ: ولا تتَّخذ القاعدة عندئذٍ شكل «وجوب تهشيم صورة المُحاوِر» بل «وجوب عدم المبالغة في الإشادة به».

(*) وهو مهرجانٌ دينيٌّ عند هنود أمريكا الحُمر، تُتبادل فيه الهدايا.

لكلّ قانون خطابٍ مساوئه. ونستنتج بالتالي أنّه من العسير حتماً أن يتكلَّمَ المرء على نحوٍ صائبٍ.

(2) القواعد المتعلّقة بتصرّف المتكلّم حيال نفسه، وتتمثّل بما يلي:

1. على المرء أن يتدبَّر أمره لتلافي افتضاح أمر وجهه السَّلبيّ، حيثُ تقضي هذه القاعدة بما يلي: «صُن خصوصيَّتك ضمن نطاق الممكن، واحمِ نفسك من التدخُّلات المُمعِنة في التعدّي على خصوصيَّتك هذه»؛ أم وجهه الإيجَابيّ، حيثُ تنصّ على ما يلي: «لا تغضّ الطرف عن تهشيم «صورتك» (أي ردّ على الانتقادات والكلام اللاذع والإهانات)، ولا تُساهم شخصيّاً في هذا التهشيم».

وينضوي على سبيل المثال تحت راية هذا المبدأ، ما يُمكننا تسميته بما يلي:

● «قانون الحصافة»، وهذه بعض الأمثلة عليه:

لا تطرح سؤالاً لا رغبة لك في سماع الإجابة عنه («Ne pose pas de question dont tu n'aimerais pas la réponse»)،

مَن لا ينبس ببنت شفةٍ، يتفادى التعقيدات («Ne dis rien ça évite les complications»).

كلَّما قلَّ الكلام، قلَّ خطر التناقض[219] («Le moins on dit le moins on a à se dédire»).

● «قانون الحشمة»، ويقضي بما يلي: تجنَّب إطلاق العنان للتجليّات الخطابيّة الجامِحة التي من شأنها أن تُسبِّب صدمةً إن من حيثُ فحواها أو صياغتها (ويُمكن الاستعانة ببعض التحفُّظات الخَطابيّة من مثل «إن عذرتموني على هذه العبارة» («si vous me passez l'expression»)، و«مع احترامي لشخصكم الكريم» («sauf votre respect»)، و«بالاعتذار منكم» («révérence parler»)، بهدف «تمرير» المتتالية غير المُحتشمة من دون أن يُصار إلى الاعتراض عليها)؛

● «قانون الكرامة»، ومفاده: لا «تُبيِّن عوراتك» ولا «تُذِلُّ نفسك» جهاراً (حين يكون المرء مُرغماً مثلاً، تحت وطأة الأحداث، أن يَعدُلَ عن آراءٍ وأن

---

(219) هذه أقوالٌ سائرةٌ مستوحاةٌ من: Doubrovsky, *Un Amour de soi: Roman*, pp. 162-163.

يتراجعَ عن مواقف دافع عنها علانيّةً حتّى اللّحظة الراهنة، فيُستحسن به أن يُحاول، حاذياً حذو عرفات (Arafat) الذي رضخ في تمّوز/ يوليو من العام 1982 «لقرارات مُنظَّمة الأمم المتَّحدة ذات الصلة بالقضيّة الفلسطينيّة»، إخفاء مثل هذا الإنكار للذات خلف قناع التشويش الفنّي)؛ وكذلك لا «تتهتّك» على نفسك، كما في المثل التالي:

اختر بنفسك يا بيتر الكونياك الذي تُريده من هذه المجموعة الاستثنائيّة. ولا تعوِّل عليَّ فأنا لا أفقه الشيء الكثير عن الكونياك، إذ إنَّني أحتسي كلّ أنواعه من دون أن أعبأ بالغلاف والماركات. وكما تُلاحظين يا أوريان، لا يسعني حتّى أن أحتجَّ وأتعلَّل بأنَّني ذوَّاقةٌ ومتأنِّقةٌ بالطعام، فهذا عذرٌ واهٍ. إذ إنَّني جبلٌ ضخمٌ مُدمنٌ على الكحول بلا تمييزٍ، وساقاي غليظتان وكأنَّهما عمودان. عسى أصدقاؤك الآخرون لا يُشبهونني.

- مهلاً يا جيلبيرت، أنتِ تشنِّعين بنفسكِ(220).

(Peter, choisissez le cognac vous-même, cette collection est extraordinaire, moi je n'y connais rigoureusement rien. J'avale tout sans regarder l'etiquette. Vous constatez, Oriane, que je n'ai même pas l'excuse d'être une fine gueule. Non. Un gros tas vaguement alcoolique, avec des jambes commes des poteaux. Vos autres amies ne me ressemblent pas, j'espère.

- Gilberte, vous vous diffamez).

2. ولكن من غير المناسب أيضاً أن يُبجِّل المرء نفسه، فللقاعدة الآنفة الذكر نقيضُها الذي يُمكننا أن نُطلق عليه اسم قاعدة التواضع، أو أيضاً «القاعدة التي تُحظِّر على المرء رشقَ نفسه بالأزهار جهاراً» (وسنسمّيها بقصد الاختصار قاعدة

---

(220) نقلاً عن: Duvert, *Un Anneau d'argent à l'oreille*, p. 86.

إليكم أيضاً هذا المثل:

المتكلّم: إذاً، برأيك يفقدُ السائقون مهارتهم في القيادة بعد مضيّ عشرين عاماً على استحصالهم على رخصة السوق؟

المخاطب: ليس تماماً... لا أعتقد ذلك... [يضحك ضحكةً خافتةً] فأنا شخصيّاً أنتمي إلى هذه الفئة من الأشخاص... (نقلاً عن قناة France-Inter، نهار 22 آذار/ مارس عام 1984).

(L_1. - «Donc vous pensez que vingt ans après avoir passé leur permis, les automobilistes ne savent plus conduire?

L_2. - Pas exactement... Je ne le pense pas car... [petit rire] j'entre moi-même dans cette catégorie...»).

الأزهار) ـ أمّا بومرانتز (Pomerantz)، فتتحدَّث بدورها عن مبدأ «تجنُّب الثناء على الذات» («Self-Praise Avoidance»)، في حين يتحدَّث كين إيشي ساساكي (Ken-Ichi Sasaki) عن «موانع اللِّياقة التي تحول دون التفاخر بالنفس جهاراً»[221].

ولهذه القاعدة جذورٌ متينةٌ ضاربةٌ في ثقافتنا على الأقلّ[222]، بدليل أنَّ انتهاكها يُحدِثُ دائماً ومن دون استثناءٍ تأثيراتٍ جمّةً، وأبرزها: الاتِّهام بجنون العظمة، لا بل بالجنون (والمثل على ذلك أنَّ جان إيدرن هاليه (Jean-Edern Hallier) قد اعتُبِر، إثر وصفه مؤلَّفاته الخاصَّة «بالباهرة»، «مُحرِّضاً على الأنويّة العتهيّة»؛ ولقد أُلصِقت كذلك تهمة الجنون بالمدعو شوفاليه (Chevalier) الذي دوَّن على مدخل قصره المثاليّ عبارة «هذا العمل المُعجزة يُشكِّل مفخرةً لصانعه. . .» («Cette merveille, dont l'auteur peut être fier...»)، ولم يسلَم من هذه التهمة كذلك هذا الرسَّام النيويوركي الذي كان يُخربِشُ على الجدران عبارة «أنـا أفضل رسَّام، الإمضاء رينيه» («I AM THE BEST ARTIST, signé RENÉ»)؛ وحتّى إنَّ انتهاكها يُسبِّب حالةً من الذهول والريبة لدى المخاطب الذي يحاول «إنقاذ ماء وجه» المتكلِّم (وقانون الخطاب) عبر الامتناع عن اتِّخاذ نيَّته على محمل الجدّ، كما في المثل التالي:

مارغريت دوراس: لقد أعدتُ مؤخَّراً في لشبونة مشاهدة الفيلم الذي أعددته والذي يحمل عنوان «مُلقَّبة باسم فينيس في كالكوتا الخاوية»، وقد وجدته مُذهلاً. وكذلك شاهدتُ مجدَّداً فيلم «قارب اللَّيل» الذي أعتبره بمنتهى الجمال. أيصدمك أن أتحدَّث على هذا النحو؟ أنا أتكلَّم بجديّةٍ، فأنا مُعجبةٌ جدّاً بالأفلام التي أنجزها، ليس كلّها، فبعضها لا يُعجبني على غرار فيلم «فيرا باكستر»، فهذا الفيلم لا يروق لي.

الصحافيّ الذي يطرح السؤال: أتساءل إن كنتِ تمزحين أم تتكلَّمين بجديّةٍ؟

---

(221) Ken-Ichi Sasaki, «Poétique du léger ou lutte contre l'esprit de gravite,» dans: *Rhétoriques, sémiotiques*, 10-18; 1324, [no. spécial de la «revue d'esthétique», 1-2, 1979] (Paris: Union générale d'éditions, 1979), p. 336.

(222) من وجهة نظر برنارد لامي، تُشكّل شيمة التواضع التي تُضاف إلى ثالوث أرسطو (المؤلَّف من الفضيلة/ والكفاءة/ وحسن الالتفات) إحدى المقوّمات التي لا يمكن الإستعاضة عنها في «الإيتوس» (أي «روح الشعب») عند الخطيب - الذي يتعيّن عليه طبعاً، أسوةً بالآخرين وحتى أكثر منهم بعد، (فإن قال المرء «أنا متواضعٌ» («je suis modeste»)، فهو يرتكبُ نوعاً من المخالفة التداولية التواصلية)، أن يتحدّث بشكلٍ مُضمَرٍ.

مارغريت دوراس: كلا، إطلاقاً. لو كنتُ أمزح لكان الجميع في مختلف بقاع الأرض قد عرف ذلك[223].

(Marguerite Duras. - J'ai revu à Lisbonne récemment Son nom de Venise dans Calcutta désert, j'ai trouvé ça complètement génial. J'ai revu le Navire Night, je trouve ça très beau. Ca vous choque que je dise des choses pareilles? Je suis très sérieuse: j'aime beaucoup ce que je fais. Pas tout: il y a des films que je n'aime pas: Véra Baxter, je ne l'aime pas.

Q. - Je me demande si vous cabotinez ou si vous êtes sérieuse?

M.D. - Non non. Si je cabotinais, ça commencerait à se savoir dans le monde).

وما هو شائعٌ أكثر بعد إنَّما هو المبدأ القائِل بأنَّ مَن يُخالف بطيشٍ «قانون الأزهار» يُعرِّض نفسه للسخريّة.

ويقول بيرلمان وأولبرايكت تيتيكا ما يلي: «مع أنَّه من المُستحسن أن يُحفِّز الخطاب على تكوين رأيٍ حسنٍ عن الخطيب لدى المُستمعين، إلاّ أنَّه نادراً ما يحقُّ لهذا الأخير أن يمتدح نفسه [...] لبلوغ هذا الهدف، إذ يُخلِّف مدح الذات تأثيراً غير حميدٍ لدى المُستمعين [...]. أمّا اليوم، فإنَّ مدحَ الخطيب لشخصه الكريم يُعدّ في غير موضعه لا بل مثار سخريّةٍ»[224].

وباعتبار أنَّ مثل هذا المدح يكون مثيراً للسخريّة، فهو يبعثُ في الواقع على الضحك، كما في الأمثلة التالية:

المثل الأوَّل: يكمن سبب نجاح كتابي في...[225] [ممّا سبَّب موجةً من الضحك بين الحاضرين]

.Mon livre est justement réussi à cause de ça... [rires du plateau])

المثل الثاني: مَن يكون ودوداً وله شيمٌ كشِيَمي، يكون صديقاً ينبغي برأيي التمسُّك به وعدم التفريط فيه مُطلقاً[226] [يرسم الجمهور / أو القارئ ابتسامةً على شفتيه]

---

(223) *Marguerite Duras à Montréal*, textes réunis et présentés par Suzanne Lamy et André Roy (Montréal, Québec: Editions Spirale, [1981]), p. 25.

(224) Olbrects-Tyteca, *Traité de l'argumentation: La Nouvelle rhétorique*, 3ème éd. (Bruxelles: Ed. de l'université de Bruxelles, 1976), pp. 429-430.

(225) نقلاً عن جاك برينير (Jacques Brenner)، في برنامج «المناجاة» (Apostrophes).

(226) مثلٌ مُقتبسٌ عن المشهد الثاني من الفصل الأوَّل من مسرحية **كارهُ المجتمع** (*Le Misanthrope*) للكاتب المسرحيّ أورونت (Oronte).

(Je crois qu'un ami chaud, et de ma qualité
N'est pas assurément pour être rejeté [sourire du public/lecteur]).

المثل الثالث: هل سبق لك أن تُيِّمتَ بشابٍ يافعٍ حتّى الجنون؟

- كلا، ليس لدرجة الجنون؛ فأنا أُؤثِرُ علاقة حبٍّ تكون أسمى شأناً.

- لا يهمّ. دعنا من ذلك، ولنُكمِلْ من حيثُ وصلنا.

- لم أعشق يوماً أحداً سواي [«قهقهاتٍ» - تصدر عن هيئة المُحلَّفين والحضور وقارئ محاضر محاكمة أوسكار وايلد].

(Have you ever adored a young man madly?
- No, not madly; I prefer love, that is a higher form.
- Never mind about that. Let us keep down to the level we are at now.
- I have never given adoration to anybody except myself [«loud laughter» - du jury, du public, et du lecteur de ces minutes du procès d'Oscar Wilde]).

إنَّ هذا التأثير مضمونٌ - وقد يتجلَّى كذلك على شكل ردٍّ هازئٍ من مثل:
ليس التواضع ما يخنقك!
أرى أنَّ عرقوبَيك منتفخان / أو أزرقا اللَّون! ألا يؤلمك عرقوباك؟ [إذ يكمن الغرور على ما يبدو في هذا القسم من الجسم]،

(C'est pas la modestie qui t'étouffe!
T'as les chevilles enflées / bleues! Ca va tes chevilles? [car c'est apparemment dans cette partie du corps que se localise la vanité]),

ولكنَّنا قد نُحاول مع ذلك إبطال مفعوله بواسطة طرقٍ وأساليب من مثل:

- عبارة اعتذارٍ ترمي إلى «التكفير» عن هذه «الإهانة» التي تتمثَّل بانتهاك قانون الخطاب، كما في المثل التالي:

أعتذر عن هذه المُرافعة التي تُدافع عن قضيّةٍ خاصّةٍ بي...

ولكن اعذروني، فقد استسغتُ الشعور بأنَّني كنتُ أمثِّل رمزاً، ألا وهو رمز الأنوثة(227)؛

(Pardon pour ce plaidoyer pro domo...
Je m'y suis sentie bien parce que, pardonnez-moi, j'avais le sentiment de représenter un symbole, celui de la féminité);

---

(227) مثلٌ مُقتبسٌ عن جان مورو (Jeanne Moreau) في حديثٍ لها مع جريدة *Antenne 2* الصادرة في 7 أيلول/ سبتمبر عام 1982، بشأن تجربتها في تصوير فيلم «شجار فاسبايندر» (Fassbinder Querelle).

• أو ضحكة خافتة من شأنها أن تنزع استباقياً فتيل ضحكة المتلقّي، وإليكم هذَين المثلَين:

المثل الأوّل: أتعلم أنا شخصٌ بمنتهى الذكاء... [ضحكةٌ خافتةٌ]. وأتمتّع بثقافةٍ واسعةٍ جدّاً [ثمّ ضحكةٌ خافتةٌ][228]؛

(Vous savez je suis très intelligent... [petit rire]. J'ai une culture très vaste [petit rire]);

المثل الثاني: بما أنّني لم أجد أنّ هذه الترسيمة جيّدةٌ بما فيه الكفاية، فقد أعددتُ بنفسي واحدةً أخرى، أعتبرها... بالأحرى جيّدةً [ويضحك المتكلّم ضحكةً خافتةً تصحبُها أصداء ضحكات الحضور]؛

(Comme je trouvais ce schéma assez mauvais j'en ai un moi-même que je trouve... plutôt bon [petit rire de L, auquel vient faire écho celui de l'auditoire]);

• أو جملة اعتراضيّة تعترف بالجنوح المُرتكَب أو على العكس تنفيه - من دون أن يختلف مع ذلك التأثير المُخلَّف في كلتا الحالتَين اختلافاً جوهريّاً (إذ يتلقّف الحضور هذَين المقالَين كليهما بالضحك المتواطِئ)، كما في المثلَين التاليَين:

المثل الأوّل: أنا أطرح سؤالاً سخيفاً... بيد أنّني أعتقد... (فأنا لا أزال مُصاباً بجنون العظمة) بأنّ العباقرة يطرحون دائماً أسئلةً سخيفةً[229]؛

(Je pose une question stupide... Mais je crois que... (je suis toujours mégalomane) les génies posent toujours des questions stupides);

المثل الثاني: أقول بتواضع نابع من قلبي ما يلي: لقد حقّقتُ نجاحاً باهراً... ومن ثمّ بقيتُ عاطلاً من العملِ لمدّة سنةٍ[230]؛

(Je le dis avec une modestie profonde: j'ai obtenu un triomphe... et puis je suis resté un an sans travail);

• أو تعليق انعكاسيّ ألسنيّ لغويّ من شأنه أن يُشير إلى أنّنا نعرفُ القاعدة

---

(228) مثلٌ مُقتبسٌ عن فيتّوريو غاسمان (Vittorio Gassman)، «الشخصيّات العُظمى» (Les Grands portraits)، على قناة T.F.1، في الخامس من آذار/ مارس عام 1979.

(229) نقلاً عن كانتور (T. Kantor)، قناة T.N.P. في 9 في تشرين الأوّل/ أكتوبر عام 1982.

(230) نقلاً عن دانيال إيميلفورك (Daniel Emilfork)، «حقّ الردّ» («Droit de réponse»)، عن قناة T.F.1 في 5 شباط/ فبراير عام 1983.

ونودُّ لو نستطيع احترامها، إلاّ أنَّ بعض الضرورات تُرغمنا على انتهاكها، كما يظهر ذلك في المثل الآتي:

ليزيت: سيِّدي، ليس مُحبَّذاً أن يُثني المرء على نفسه؛ ولكن مع احترامي لقواعد التواضع كافَّةً، لا بدّ لي من أن أقول لكم بأنَّكم في حال لم تضعوا الأمور في نصابها، فإنّ الشاب الذي طلب القرب منكم لن يستطيع أن يُقدِّم قلبه للآنسة كريمتكم [لأنَّه يُقدِّمه لي الآن][231].

(LISETTE. - Monsieur, on a de la peine à se louer soi-même; mais malgré toutes les règles de la modestie, il faut pourtant que je vous dise que, si vous ne mettez ordre à ce qui arrive, votre prétendu n'aura plus de cœur à donner à Mademoiselle votre fille [- car il est en train de me le donner...]).

ليس تمجيد الذات أمراً جائزاً، ومن غير المُستحسن أن يُشيدَ المرءُ بوجهه الإيجابيّ الخاصّ[232]. ويُعزى سبب ذلك في جانبٍ منه بلا ريبٍ إلى أنَّ مثل هذا التصرُّف يطال بشكلٍ غير مباشرٍ، كونه حركة تهشيم مُضمرةٍ عكسيّةٍ، وجه الشخص الآخر الإيجابيّ. وفي كتابه بعنوان **المآثر الأدبيّة** (المجلَّد الثاني) (*Oeuvres morales* (t. II))، يُبوِّب بلوتارك (Plutarque) مختلف الوسائل التي تسمح للمرء «بأن يمدح ذاته من دون تعريض نفسه للحسد». ونستنتج بالتالي أنَّ المرء يكون في سواها من الحالات الأخرى عرضةً للحسد إنْ هو أَثْنى على نفسه... وعليه، إنَّ القواعد التي محَّصناها في الفقرتَين (1) و (2) تُردِّد الأمور نفسها - ولكنَّها تقول بالإضافة إلى ذلك أنَّ القواعد التي تأمَّلنا فيها في الفقرة الثانية خاضعةٌ لتلك التي نظرنا فيها في الفقرة الأولى.

في الواقع، لا تتماثل القواعد التي ترعى تصرُّفات المتكلِّم حيال المُحاوِر وتلك التي ترعى تصرُّفات المتكلِّم حيال نفسه تماثلاً كاملاً، فمثلاً:

● يتوجَّب على المتكلِّم قبل كلّ شيءٍ أن يتحاشى انتهاج تصرُّفٍ يُهدِّد

(231) مثل مأخوذ من المشهد الأوّل من الفصل الثاني من مسرحية *Le Jeu de l'amour et du hasard.*

(232) إلاّ إذا تمّ ذلك بواسطة تنكّرٍ ما (فمثلاً، ما إن بدّل العريف في فيلم «أكون أو لا أكون» (To be or not to be) للمخرج لوبيتش (Lubitch)، هويّته، حتّى سارع إلى التحرّي والاستعلام قائلاً: هل تعرفون جوزيف تورا؟ إنّه ممثلٌ مشهور!) («Vous connaissez Joseph Tura, c'est un très grand acteur!»)، أو ازدواج تعبيريّ أدائيّ، فعلى سبيل المثال: تسمح غُفليّة بعض المقالات الموسوعيّة أو نصوص التعريف بالكتب الأدبيّة لبعض المؤلّفين بانتهاك قانون الأزهار من دون مجازفاتٍ تُذكر...

المُحاوِر ـ وأن يُراعي في الحدّ الأدنى القواعد العَكسِيّة، ولاسيما تلك التي تقضي بوجوب عدم الإفراط في مدح المُحاوِر، إذ إنَّ مبالغة المتكلِّم في معاملة مُحاوِره بتهذيبٍ، تُرغم هذا الأخير على أن يكون غير متواضعٍ؛

● أمّا حيال نفسه، فيترتَّب على المتكلِّم قبل كلّ شيءٍ أن يتجنَّب انتهاج تصرُّفٍ مُهدِّدٍ مُضادٍّ صارخٍ بشدَّةٍ، لأنَّه قد يُشكِّل بنظر المُحاوِر تهديداً مباشراً، إذ: أن يكون المتكلِّم غير متواضعٍ، يعني ذلك أن يُعامِل المُحاوِر بقلّة أدبٍ. وبتعبيرٍ آخر، يمكننا أن نقول ما يلي: تكون الإشادة بالآخر أقلّ سوءاً من الإشادة بالذات. وبموازاة ذلك، نخلص إلى الاستنتاج الآتي: يكون انتقاص المرء من قيمته الذاتيّة أقلّ خطورة من انتقاصه من قيمة الشخص الآخر. وتقضي قوانين اللِّياقة بشكلٍ عامٍّ بأن نُبَدِّي مصالح الشخص الآخر على مصالحنا الخاصّة، فحتّى مستوى معيَّنٍ من السطح على الأقلّ (مع أنَّ طرق العمل الاجتماعيّة السطحيّة هي التي تُقنِّن قوانين الخطاب هذه)، يظهر الاهتمام بالشخص الآخر بمثابة الضرورة التدليليّة الجوهريّة للتواصل. ويتجلّى كذلك هذا الاهتمام بالآخر من خلال القواعد التحادثيّة الآتية:

● «عدم احتكار الكلام»: «ثمّة خاصيّةٌ مُمَيِّزةٌ ترتبط باحتكار التبادل التحادثيّ»، ممّا يُفسِّر، بحسب دونالدسون[233]، كيفيّة نقل الشخص «ب» للحديثِ الذي دار بينه وبين الشخص «أ»، وحيثُ «تكلّم أثناءه هذا الأخير بلا انقطاعٍ»، قائلاً: «لقد تحدَّث «أ» عن مدينة مونتاغ طوال ساعتَين» («Il a parlé de Montague pendant deux heures»)؛ أمّا الشخص «أ»، فيميل بدوره إلى قول ما يلي: «لقد تحدَّثنا عن مدينة مونتاغ...» («Nous avons parlé de Montague...»)، لأنّه من الأنسب له قول ذلك الأمر الذي يُمكن الاعتراف به.

● «تجنُّب إجراء خطابٍ محوريّ ذاتيّ مُبالغ فيه»، وهذا مثلٌ على ذلك:

الأستاذ (باذلاً قصارى جهده للابتسام): اعذرني إن كنتُ أتكلّم كثيراً عن نفسي! إنّه موضوعٌ غير ذي أهميّةٍ! الكلمة لك لتخبرني عن انطباعاتك، إن كنتَ تمضي أوقاتاً طيّبةً في هذه المدينة، وما الذي تنوي فعله... تكلّم، فمن دواعي

(233) Susan Kay Donaldson, «One Kind of Speech Act: How Do We Know When We're Conversing?,» *Semiotica*, vol. 28, nos. 3-4 (1979), p. 276.

سروري أن أصغي إليك... (فصفر الزائر صفيراً خفيفاً وهو ينظر إلى السّماء). ولن تُصدّق إلى أيّ درجةٍ أهتمّ بكلّ ما يعنيك. ولكنَّ التواضع يمنعك ربّما من التكلُّم. نعم، إنَّه خفر النفوس الأبيّة... ولكن رجاءً، اعتبرني صديقاً لك، وأفصح لي عن مكنونات صدرك، فهذا يُشرّفني.

الزائر (بفظاظةٍ): أنت - لا - تكترثُ - البتَّة[234].

(LE PROFESSEUR (s'efforçant de sourire). - D'ailleurs, pardonnez-moi si je parle tant de ma personne! Un sujet bien mince. C'est à vous de me dire quelles sont vos impressions, si vous vous plaisez dans cette ville, ce que vous comptez faire... Parlez, je serais enchanté de vous entendre... (Le Visiteur regarde en l'air en sifflotant). Vous ne sauriez croire à quel point je m'intéresse à tout ce qui vous touche. Mais peut-être la modestie vous retient-elle de parler? Oui, la pudeur des âmes fières... Mais je vous en prie, condidérez-moi comme un ami et faites-moi l'honneur de vous confier entièrement à moi.

LE VISITEUR (brutal). - Au-cu in-té-rêt).

وتقضي قواعد الكياسة أن يدَّعي المرء على الأقلّ بأنَّه يهتمُّ «بكلّ ما يمَسّ» شريكه المُخاطب - حتّى لو كان يرمي من وراء ذلك إلى استعادة الكلام ما إن يرتأي بأنَّه قد أدّى واجبه الغيريّ بما فيه الكفاية (إلاّ أنَّ الحيلة التي تقضي بصياغة «متتالياتٍ افتتاحيّةٍ» على شاكلة: «هل أمضيتَ عطلةً جيِّدةً؟ لأنَّني أنا...» («Tu as passé de bonnes vacances? Parce que moi...» تتَّصف حقّاً بالفظاظة، وكلُّنا يعرف أشخاصاً يُتقنونها).

وختاماً للحديث بهذا الشأن، سنورد هذا التصريح[235] العذب الذي ورد على لسان ساشا غيتري (Sacha Guitry)، ومفاده:

ولكن حسبُنا حديثاً عنّي، فلنتكلَّم عنك. ما رأيك بكتابي الأخير؟ («Mais assez parlé de moi, parlons de vous: Comment avez-vous trouvé ma dernière œuvre?»).

ج) شروط نجاح أفعال الكلام

تنضوي كذلك تحت راية قوانين الخطاب قاعدةٌ عامّةٌ تعتبر أنَّه كي يعمل القول بشكلٍ سويٍّ، ينبغي أن تتحقَّق:

---

(234) مثلٌ مأخوذٌ عن: Tardieu, *Théâtre de chambre*, p. 26.

(235) زد على أنّه يُثير قضيّة «موضوعة» القول، وهي إشكاليّة تتطلّب دقّةً في المعالجة...

- كلّ الافتراضات التي ينطوي عليها هذا القول، ولاسيما افتراضاته التداوليّة التواصليّة، أي بكلامٍ آخر،

- كلّ «شروط نجاح» فعل الكلام المُطابِق.

وكما نعلم، يُقسّم سيرل شروط النجاح هذه إلى أربع أنماطٍ، ألا وهي:

(1) شروط «المحتوى الجُمَليّ»

(2) شروط «تحضيريّة» (أو «تمهيديّة»)

(3) شرط النزاهة

(4) شرط «أساسيّ» (ينبغي برأينا حذفه من لائحة الشروط لأنَّه يتناسب و«الغرض الكلاميّ المنطوق» الذي يرمي إليه القول، أي ومحتواه المُقرَّر التداوليّ التواصليّ)[236].

ويُذكِّرنا شرط النزاهة بِ «قانون النزاهة» الذي تحدَّثنا عنه آنفاً، ممّا يُثبِتُ أنَّ شروط النجاح هذه تتكامل مع قوانين الخطاب، وفي المقابل يطرح ذلك في الوقت عينه قضيّة ترابط هذَين التصوُّرَين.

- وفي ما يتعلَّق بشروط التأكيد والإخبار التمهيديّة، نسمع مثلاً (على لسان بافيل[237] (Pavel)) أنَّه يتعيَّن ألاّ يكون المُحاوِر مُطَّلعاً على المحتوى التأكيديّ الإخباريّ، بينما يجدر بالمتكلِّم أن يتمتَّع بالقدرة على الدفاع عن حقيقة هذا التأكيد والإخبار. ونستنتج أنَّ المسألة هنا تتعلَّق ببساطةٍ بقانون الإخباريّة وقاعدة النَّوع.

- وكي «ينجح» الأمر أو التساؤل، يجب أن يكون المُحاوِر مؤهَّلاً للانصياع إلى الأمر الذي أُصدِرَ، أو قادراً على الإجابة عن السؤال المطروح. وعليه، قد تندرج هذه الشروط بسهولةٍ في إطار مبدأ الملاءمة.

---

(236) بغية الاطّلاع على كيفيّة تطبيق هذا الشرط على حالة فِعلَي الالتماس والتساؤل، راجع: Herman Parret, «Ce qu'il faut croire et désirer, pour poser une question,» *Langue française*, no. 42 (1979).

(237) Thomas G. Pavel, «Ontological Issues in Poetics: Speech Acts and Fictional Worlds,» *Journal of Aesthetics and Art Criticism*, vol. 40, no. 2 (Winter [1981]).

● ولكي توصف الأمنية «بالموفَّقة»، ينبغي ألاّ يكون ظرف الأمور الرَّاهن الذي تُعبِّر عنه هذه الأمنية ذا طبيعةٍ قابلةٍ للتحقُّق بشتّى الأحوال، سواء أُدلِيَ بعبارة التمنّي هذه أم لا (وإليكم المثل الآتي: ذات يوم، تمنَّت لنا صاحبة نزلٍ إيطاليٍّ «سَفراً ميموناً» («Bon voyage»)، وقد بيَّنت لنا بهذه التعابير المُقلِقة إخباريّة العبارة التالية:

أتمنَّى لكم سفراً ميموناً، بما أنَّه لا بل. . («je vous souhaite un bon voyage, parce que non si sa mai...)،

تتعلَّق المسألة هنا بقانون الإخباريّة لا أكثر ولا أقلّ. من دون أن ننسى ضرورة أن يكون وضع الأمور الرَّاهن هذا قابلاً للتحقُّق، كما في المثل التالي:

المتكلِّم: عطلةً سعيدةً!

المُخاطب: وفِّر على نفسك مشقَّة أن تتمنَّى لي عطلةً سعيدةً، لأنَّ العطلة هي بحدّ ذاتها حزينةٌ!

(L₁. - Bonnes vacances!

L₂. - C'est pas la peine de me souhaiter de bonnes vacances, les vacances c'est par définition mauvais!),

ولكن يُمكن أن ينصَّ قانون المُلاءمة احتمالياً عن مِثل هذا الشرط.

● يعتبر البعض، على غرار سيرانو دو بيرجوراك (Cyrano de Bergerac)، أنَّ فعل السخريّة من شخصٍ ما هو امتيازٌ حصريٌّ لهذا الشخص نفسه، كما في المثل الآتي:

[. . .] أنّى لك حسّ الابتكار

لتقول عنّي أمام المُتفرّجين الشرفاء

كلّ هذه الدعابات وأنتَ لا تفقه الألفباء

وتتلعثم في تلفُّظ الحروف والكلمات

من البدايات وصولاً إلى القفلات

أنا فقط مَن يُطلق النكات عنّي، والقريحة لا تنقصني

ولا أسمح لأحدٍ سواي بإطلاق طُرفةٍ تتناولني[238].

([...] Eussiez-vous eu, d'ailleurs, l'invention qu'il faut
Pour pouvoir là, devant ces nobles galeries,
Me server toutes ces folles plainsanteries,
Que vous n'en eussiez pas articulé le quart
De la moitié du commencement d'un, car
Je me les sers moi-même, avec assez de verve
Mais je ne permets pas qu'un autre me les serve).

ولكن لا مانع البتّة أن ندمجَ شرط مقبوليّة فعل السخريّة الخاصّ جدّاً هذا مع قوانين اللّياقة المُرتبطة، كما رأينا سابقاً، بنظام الوجوه.

وعليه يبدو أنَّ تصوُّر «شروط النجاح» هو نوعاً ما إيضاحُ ما لا يلزَم إيضاحه مقارنةً بتصوُّر «قوانين الخطاب» (مع أنَّ غوفمان[239] يُسلِّم، بمبدإ شرط نجاحٍ (Felicity's Condition) عامٍّ جدّاً يُضفي في آنٍ طابعاً شموليّاً على شروط النجاح التي قال بها سيرل، وكذلك على قواعد غريس التحادثية، ناهيك عن مبادئ التحادُثيّين). ومع ذلك، فقد محصّنا في هذا الصدد تصوُّر «شروط النجاح» هذا، في نطاق أنَّ هذَين التصوُّرَين قد تطوَّرا كلٌّ على حدة وبشكلٍ مُستقلٍّ نسبيّاً. إذ تعكِسُ لائحة قوانين الخطاب هذه الحالة الرّاهنة لتكوُّن البحث التداوليّ التواصليّ، ومن النافل التذكير مُجدَّداً بأنَّها مؤقّتةٌ. وهي تتطلّب بالطّبع أن يُصار في مرحلةٍ لاحقةٍ إلى إعادة هيكليّةٍ يكون فيها هذان التصوُّران في حالة اتّحاد بلا أدنى شكّ، وحينها فإمّا أن نُقرِّر دمج قوانين الخطاب مع قضيّة شروط نجاح أفعال الكلام، أم أن نؤثِرَ دمجها مع القواعد التداوليّة التواصليّة البلاغيّة، شرط أن نُطيل هذه اللائحة أكثر بعد، وأن نُحدِّد الشكل الخاصّ الذي تتّخذه قوانين الخطاب هذه حين تُطبّق على فعل الكلام هذا أو ذاك.

وتكون في الواقع درجة عموميّة هذه الشروط التي بوسعنا أيضاً أن نقول إنّها شروط «مطابقةٍ سياقيّةٍ»، جدّ متغيّرةٍ، فبعضها يصلح لأفعال الكلام كافّةً، على غرار تلك التي تقضي بوجوب توجيه أيّ فعل قولٍ إلى مُرسَلٍ إليه قادرٍ أن يتلقّى الخطاب الكلاميّ وأن يفكّ ترميزه (كأن يكون مثلاً غير أصمٍّ وملمّاً باللّغة المطروحة وأن يبلغَ الخطاب الكلاميّ إلى مسامعه لأنَّ قناة سمعه لا تشكو من

(238) نقلاً عن المشهد الرابع من الفصل الأوّل.

(239) Goffman, «Felicity's Condition».

شيءٍ، من دون أن يعترضه «ضجيجٌ» مُصمٌّ للآذان، إلى ما هنالك). ويُبيِّن هذا الشرط «واقع أنَّه في حال تكلَّم المرء أو قام بحركاتٍ وحده، فسيُعدّ «مُختلاً»[240]. والأكيد أنَّ الكلام الفعليّ، بخلاف الغناء مثلاً، لا يسمح مُطلقاً بمناجاة الذات، إذ لا نُلقي عظةً في الصحراء، ولا نكلِّم الجدران...[241]. وهذا ما يُفسِّر أنَّه في حال ضُبط الشخص الذي يُناجي ذاته بالجُرم المشهود وهو ينتهك هذه القاعدة، فهو سيُحاول، بقصد الهرب من إنزال عقوبة السَّخافة به، أن يموِّه الكلام غير الموجَّه إمّا بجعله كلاماً موجَّهاً (كأن يجد لنفسه بعد حين مُرسَلاً إليه يفي بالمطلوب)، أم أن يصطنع بأنَّه غناءٌ غير موجَّهٍ (فإن بوغِت مثلاً وهو يُناجي ذاته أثناء قيادة سيَّارته، فسيؤرجح رأسه حينها بطريقةٍ منتظمةٍ ليبدو وكأنَّه يُغنِّي). وهكذا، يغدو كلّ شيءٍ خاضعاً لنظام القواعد التي ترعى التصرُّفات السيميائيّة.

وفي المقابل، ثمَّة شروط نجاح أخرى مُحدَّدة لهذا الفعل الخاصّ أو ذاك. وهكذا مثلاً «يفشل» الأمر، على سبيل المثال، في حال كان المقام الذي أُصدِرَ بشأنه مُحقَّقاً أصلاً[242]، أو في حال كان الفعلُ المطروح يقعُ خارجَ دائرة ما يُمكننا إصدار الأوامر بشأنه (إذ لا تُصرَّف الأفعال كلّها بالتساوي بصيغة الأمر، ففي مقابل فعلَي «غنِّ» («Chante!») و«انظر» («Regarde!») مثلاً، نجد «أُسقُطْ» («Tombe!») و«الآن يُمكنك أن ترى» («Vois!») و«استطِعْ» («Peux!») التي تتَّخذ شكل «الأوامر الخَطابيّة» التي نعجز عن تصوُّر استعمالها خارج إطار بعض ممارسات السحر والخيال).

فضلاً عن ذلك، قد تُعنى أغراضٌ مُختلفةٌ تمام الاختلاف بهذه الشروط، ونذكر منها:

---

(240) Berrendonner, *Eléments de pragmatique linguistique*, p. 229.

(241) هذا ما يُفسّر غرابة العبارة الشهيرة التالية: «فليرفع الغائبون أيديهم» («Les absents levez la main»)، وكذلك هذه العبارة المدوّنة على باب مكتب السكريتاريا، ألا وهي: «توجّهوا إلى الباب رقم 225» («S'adresser à la porte 225»)، فوحدها التقاليد الخاصّة بالخطاب المسرحيّ تسمحُ استثنائيّاً للشخصيات بالتوجُّه بالحديث إلى شخصٍ غائبٍ، أو غرضٍ غير ناطقٍ. إلاّ أنّنا نتحدّث بهذا الشأن عن «رخصةٍ مسرحية» («licence théâtrale») (منوطة طبعاً بوجود مُرسَلٍ إليه غير مباشرٍ يُجسّده الجمهور).

(242) قرأتُ في عيادة أحد أطباء الأسنان في مونتريال، العبارة الآتية: «رجاءً، اخلعوا أغطية أحذيتكم» («Please remove your over-shoes / S.V.P. enlevez vos couvre-chaussures»). إلاّ أنّ هذا التنبيه لم يجد أيّ صدىً عندي لأنّني لم أكن أنتعل مثل هذا الشيء، بل لم أكن أعلم ما هو هذا الشيء.

ـ خصائص الحيّز التواصليّ

(فمثلاً، تفترض عبارة «أقفل الباب» («Ferme la porte») أن يكون ثمّة بابٌ موجودٌ، وأن يكون مفتوحاً لحظة وقوع فعل الكلام الفرديّ)

ـ خاصيّات المُرسَل إليه

(فمثلاً، تفترض عبارة «أقفل الباب» («Ferme la porte») أن يكون المُحاوِر موجوداً، وأن يتمتّع بالقدرة على فكّ ترميز الخطاب الكلاميّ، وأن يكون مؤهّلاً إنجاز هذا الفعل. . .)

ـ من دون أن ننسى خصائص المُرسِل (أي أن يكون في موقع يخوّله إصدار الأوامر)، إذ ليس مُباحاً للجميع إصدار الأوامر والاستغناء عن الخدمات وطرح الأسئلة والردّ والصّفح، إلى آخره. ويتعيّن كذلك على الناطِق بالكلام المنطوق أن يتمتّع، عندما يحين دوره بالكلام، بحقّ الردّ، أو أن يكون متبوّئاً منصباً يسمح له بالتسلّطيّة بإصدار الأوامر أو المَنّ بالصفح[243].

ومن ضمن مجموعة شروط النجاح هذه المتنافرة، نستطيع أن نعزل بعضها وأن نُطلق عليها اسم شروط المشروعيّة التي تُعنى بوضع المتكلّمين المتفاعلين المؤسّساتيّ (أو حتّى بوضع أيّ طرفٍ ثالثٍ، فمثلاً: بغية «هتك عِرض» فلان، لا بدّ أن يكون لفلان «عِرض» أي، بمقتضى موقعه في التركيبة الاجتماعية، أن يكون له صيتٌ مولجٌ الدِّفاع عنه). وقد سلّطنا الضوء على شروط المشروعيّة هذه الخاصّة بشأن العبارات الإنشائيّة. ويقول بينفينيست ما يلي: «على أيّ حالٍ، لا يكتسبُ القول الإنشائيّ واقعيته إلاّ بعد توثيقه باعتباره فعلاً. ويصبح مثل هذا القول، خارج إطار الظروف التي تُكسبه طابعه الإنشائيّ، مجرّد كلامٍ في الهواء، فإنّ إنساناً أيّاً يكن قادرٌ على أن يصرخ في الساحة العامّة قائلاً: «أُعلن التعبئة العامّة» («Je déclare la mobilisation générale»). بيد أنَّ كلامه لا يُعدّ سوى كلام ولا يُعتبر فعلاً لأنّه يفتقر إلى السّلطة اللازمة، ولا يتعدّى كونه مجرّد جلبةٍ جوفاء، أو تصرُّفٍ صبيانيٍّ أو حتّى اختلالٍ عقليّ»[244]. ويقول بيريندوني كذلك،

---

(243) حين يقول ولدٌ صغيرٌ ما يلي: «لقد سامحتُ والدَيّ» («J'ai pardonné à mes parents»)، فإنّه بقوله هذا يتجاوز حدود وضعه كطفلٍ ليُنصّب نفسه نِدّاً للأشخاص الذين يسامحهم.

(244) Emile Benveniste, *Problèmes de linguistique générale...*, bibliothèque des sciences humaines, 2 vols. ([Paris]: Gallimard, 1966-1974), p. 273.

ما مفاده: «وإنْ كان مجرّد قول القاضي: «أنا أحكم عليك...» («Je vous condamne...») كافياً لإصدار حكمٍ بالإدانة، فمردّ ذلك إلى وجود مؤسّسةٍ بأسرها، ألا وهي العدالة، مؤلّفةٍ من أنظمةٍ مفروضةٍ وخاضعةٍ بالتبادل، تضمَنُ له بأنَّ حكمه سيُنفَّذ من قِبل مجوعةٍ من رجال الشرطة وحرّاس السجن والجلاّدين الذين سيشعرون أنّهم مرغمون جرّاءه على تطبيق بعض الأصول القانونيّة»[245]. وتعمل قواعد المشروعيّة هذه بشكلٍ مماثلٍ على التأكيدات والإخبارات التقريريّة، فعلى سبيل المثال، يؤكّد ريكاناتي ما يلي: «لا يستطيع أيٌّ كان أن يؤكّد ما يطيب له تأكيده، فإن أدلى المرء بتأكيدٍ حول موضوعٍ يجهله جهلاً مُطبقاً، فيكون تصرُّفه أشبه بتصرُّف مَن يُعلن أنَّ الجلسة مفتوحةٌ مع أنَّه يقوم بوظيفته فقط»[246]. وقِس على ذلك أيضاً أفعال الكلام كافّةً.

نستطيع على سبيل المثال أن نُدلي بقاعدةٍ من مثل القاعدة الآتية: يستتبع ضمناً نجاح الفعل الذي يُهدِّد المُحاوِر أن يكون المتكلِّم متبوّءاً منصباً أعلى شأناً من منصب هذا الأخير، أو أن يكون ندّاً له على الأقلّ، ونذكر من هذه الأفعال:

1. النصيحة والأمر والرّجاء (التي تُهدِّد بشكلٍ أساسيٍّ وجه المُحاوِر السَّلبيّ)، وإليكم هذه الأمثلة:

المثل الأوّل: سيّد جاك شيراك، أنتَ تقول أنّه يجدر برئيس الجمهوريّة أن يُبعِدَ الوزراء الشيوعيّين عن الحكومة بعد هذه النتيجة السيّئة التي حصدوها في انتخابات البلديّة.

- كلاّ، أنا لا أقول ذلك، لأنّني سأبدو وكأنّني أُسدي رئيس الجمهوريّة نصيحةً، وهذا الأمر ليس من صلاحيّاتي[247].

(«Jacques Chirac, vous dites que le Président de la République devrait écarter du gouvernement les ministres communistes après leur mauvais score électoral aux élections municipales.

- Non, je ne dis pas cela car j'aurais l'air de donner un conseil au chef de l'état, ce qui n'est pas mon rôle»).

---

(245) Berrendonner, Ibid., p. 96.

(246) François Récanati, *Les Enoncés performatifs: Contribution à la pragmatique*, propositions (Paris: Editions de Minuit, 1981), p. 193.

(247) مثلٌ مُقتبسٌ عن قناة France-Inter، نهار 16 آذار/ مارس عام 1983.

المثل الثاني: وفي النهاية، أصدرت الفأرة، التي كانت على ما يبدو تمارس نوعاً من أنواع السّلطة على الجمعيّة، الأمر [. . .][248].

(«A la fin, la Souris, qui semblait exercer une certaine autorité sur l'assemblée, ordonna [...]»).

المثل الثالث: سيليفيا: لقد أعجبني أنَّكِ لم تطرديه على حين غرَّة، وتكبِّديني تبعات فظاظة هذا المخلوق.

ليزيت: بالتأكيد، يا سيِّدتي! فلا أستطيع أن أؤدِّي دورَين في آنٍ، فعليّ إمّا أن أبدو وكأنَّني السيِّدة أم الخادمة، أي أن أُطيع الأوامر أو أن أُصدرها[249].

(«SILVIA. - Je vous trouve admirable de ne pas le renvoyer tout d'un coup et de me faire essuyer les brutalités de cet animal-là.

LISETTE. - Pardi! Madame, je ne puis pas jouer deux rôles à la fois; il faut que je paraisse ou la maîtresse, ou de la suivante, que j'obéisse ou que j'ordonne»).

ومحالٌ أن يكون المرء أكثر وضوحاً، فكونها تؤدِّي دورها الخاصّ كخادمةٍ، ليس بيد ليزيت حيلةٌ سوى الانصياع للأوامر؛ ولكن حين تتنكَّر لضرورات الحبكة المسرحيّة لتأدية دور السيِّدة، فيترتَّب عليها أن تُصدر الأوامر، ففي عالم ماريفو (Marivaux)، يُسمح بالتصنُّع (ولكن ليس لفترةٍ طويلةٍ)، ولكن لا محلّ للصدفة فيه، إذ لكلّ وظيفةٍ اجتماعيّةٍ فعل كلامٍ يُلائمها.

وإليكم أيضاً أسلوب العَبَث هذا الذي نقله جان بولهان[250] (Jean Paulhan)، والذي يُشكِّل فضلاً عن ذلك مثلاً مناسباً عن «الالتزام المزدوج»، ألا وهو:

يا له من مسرح عرائس جميلٍ. إن كنتَ ترغب في أن أُعطيك إيّاه، فلا مانع لديّ.

ـ حقّاً! نعم، أريده يا جدِّي.

---

(248) مثلٌ مأخوذٌ من: Carroll, *Lewis Carroll. Alice au pays des merveilles et de l'autre côté du miroir = [Alice in Wonderland et Through the Looking-Glass]*, p. 38.

(249) مثلٌ مُقتبسٌ عن المشهد السابع من الفصل الثاني من مسرحية *Le Jeu de l'amour et du hasard.*

(250) Jean Paulhan, *Les Incertitudes du langage*, collection idées; no. 226, Entretiens à la Radio avec Robert Mallet ([Paris]: Gallimard, 1970), p. 51.

ـ اسمع، لا تتعلّق المسألة بما تريده أنتَ. زد على أنَّ ولداً مثلك لا يقول مُطلقاً «أنا أريد»، ولاسيما إن كان ولداً مؤدَّباً.

ـ أتوسَّل إليك يا جدّي.

ـ مهلاً، مهلاً، المسألة لا تمتُّ للتوسّل بصلةٍ، فأنا لستُ الله[251] تعالى. وإن كنتَ ترغب في العرائس فسأعطيك إيّاها.

ـ إذاً، أعطِني إيّاها!

ـ ماذا! ها أنتَ الآن تُصدر الأوامر، وإلى مَن؟ إليّ أنا، جدّك! ما خطبك؟ إن كنتَ ترغب في أن أُعطيك العرائس سأعطيك إيّاها.

كان يُطلَقُ على هذه اللُّعبة اسم العَبَث، وحتّى إنَّها كانت تُسمَّى، ولا أعرف لماذا، عَبَث الحمل الأبيض. وكنتُ أقول له في نهاية المطاف، بعد أن يكون قد عيل صبري وأدركني الكلل، ما يلي: «ولكن، ماذا تريدني أن أقول لك؟»، وبطبيعة الحال كان يجيبني قائلاً:

«ولكن ليست المسألة مسألة ما أريد منك أن تقوله، فإن كنتَ ترغب في أن أعطيك العرائس، فلا مانع لديّ».

(«Voilà un beau theater guignol. Si tu avais envie que je te le donne, je te le donnerais.

- Ah! Mais je le veux, grand-père.

- Écoute, il ne s'agit pas de ce que tu veux. D'ailleurs un enfant ne dit jamais «je veux» quand il est bien élevé.

- Je t'en prie, grand-père.

- Voyons, voyons, il ne s'agit pas de prière. Je ne suis pas le bon Dieu. Si tu veux que je le donne, je te le donnerai.

———— Eh bien, donne-le-moi!

———— Comment! Des ordres à présent, à moi, ton grand-père! A quoi songes-tu? Si tu veux que je te le donne, je te le donnerai».

Ce genre de jeu s'appelait une sornette et même cette sornette-ci s'appelait, je ne sais pourquoi, la sornette de l'agneau blanc. A la fin, excédé, je finissais par dire:

«Mais enfin, qu'est-ce que tu veux que je te dise?» A quoi l'on répliquait évidemment:

---

(251) نرى في هذا الصدد أنّ مطابقة القول التداوليّة التواصليّة تتوقّف تارةً على وضع المتكلّم، وطوراً على وضع المُحاوِر.

«Mais il ne s'agit pas de ce que je veux que te faire dire. Si tu désires que je te le donne, je te le donnerai».»).

2. الاعتراض والنقد والتأنيب والعتاب (التي تُهدِّد وجه المُحاوِر الإيجابيّ)، وإليكم هذه الأمثلة:

المثل الأوّل: كليتون: وإنْ كنتُ أنحني احتراماً وإجلالاً لرأيكَ
ولكن الأجمل برأيي هي الأخرى التي لم يقع عليها اختيارُكَ[252].

(CLITON. - Quoique mon sentiment doive respect au vôtre,
La plus belle des deux, je crois que ce soit l'autre).

المثل الثاني: سيلفيا: أؤكّد لك أنّها لو كانت تجرؤ لكانت وصفتني بغريبة الأطوار

ليزيت: لو كنتُ نظيرتك، لكنتُ راهنتُكِ[253].

(SILVIA. - Je vous dis que, si elle osait, elle m'appellerait une originale.
LISETTE. - Si j'étais votre égale, nous verrions).

المثل الثالث: سغاناريل: ولكن فلنكفّ عن الحديث بشأن الطبّ الذي لا إيمان لكَ به، ولنتحدَّث عن الأمور الأخرى؛ لأنَّ هذا الثوب ينفخُ فيَّ العقل ويفتح شهيّتي للجدال معك، فكما تعلم يا سيّدي، أنتَ تسمح لي بالجدالات ولا تُحظِّر عليّ إلاّ التنبيهات التي تُشير إلى مساوئ قرارٍ أو مرسومٍ اتَّخذته[254].

(SGANARELLE. - Mais laissons là la medicine, où vous ne croyez point, et parlons des autres choses; car cet habit me donne de l'esprit, et je me sens en humeur de disputer contre vous. Vous savez bien que vous me permettez les disputes, et que vous ne me défendez que les remontrances).

المثل الرابع: لِمَ تأخَّرتم إلى هذا الحدّ؟ ينمّ تصرُّفكم هذا عن قلّة تهذيبٍ، فعلى المرء أن يحترم مواعيده. أتفهمون؟ ومع ذلك اجلسوا هنا، وانتظروا الآن[255].

---

(252) مثلٌ مأخوذٌ من المشهد الأوّل من الفصل الرابع من مسرحيّة **الكاذب** (*Le Menteur*).
ويمكننا أن نعتبر في هذا الصدد صيغة الشرط (التي كان يُسمح باستعمالها في الحقبة الكلاسيكيّة بعد فعل «اعتقدَ» («croire»)) بمثابة «الملطِّف» الذي من شأنه أن يُخفّف حدّة فعل الاعتراض - على - حكم - السيّد الانتهاكيّ الذي يسعى إلى «تصويبه» استباقيّاً بواسطة التعليق التواصليّ الذي يسبق فعل الاعتراض هذا.

(253) مثلٌ مُقتبسٌ عن المشهد الأوّل من الفصل الأوّل من مسرحية: *Le Jeu de l'amour et du hasard*.

(254) مثلٌ مأخوذٌ من المشهد الثالث من الفصل الأوّل من مسرحية **دون جوان** (*Don Juan*).

(255) مثلٌ مُقتبسٌ من المشهدَين الثالث والرابع من مسرحيّة *La Cantatrice chauve*.

السيِّد سميث (حانقاً): لم نأكل شيئاً طوال النهار. ونحن ننتظركم منذ أربع ساعاتٍ. ما الذي أخَّركم إلى هذا الحدّ؟

(MARY. - Pourquoi êtes-vous venus ici tard! Vous n'êtes pas polis. Il faut venir à l'heure. Compris? Asseyez-vous quand même là, et attendez, maintenant)

M. SMITH (furieux). - Nous n'avons rien mange de toute la journée. Il y a quatre heures que nous attendons. Pourquoi êtes-vous venus en retard?)

نجد في هذا المثل أنَّ ماري الخادمة والسيِّد سميث المُضيف يُقرِّعان آل مارتن (les Martin)، وهم الضيوف، بسبب تأخُّرهم. وقد نتوقَّع أن تُعدّ قلَّة المراعاة هذه بمثابة انتهاك للأعراف من قِبل ماري، أكثر بكثيرٍ ممّا هي من قِبل السيِّد سميث. والحال أنَّ هذا التوقُّع خاطئٌ، ذلك لأنَّه يترتَّب على المُضيف-الذي-يستقبِل أن يؤدِّي، في إطار علاقة الضيافة المؤسَّساتيّ، دور الشَّخص الثانويّ مقارنةً بالضيف-الذي-يُستَقبَل (أو أيضاً، لأنَّ قواعد التهذيب تُبدي مقاومةً إزاء معالجتها بمقتضى علاقةٍ اجتماعيّةٍ تراتبيّةٍ. . .).

ولا تخضع الأفعال المُهدِّدة جهاراً وحدها لقواعدَ إجباريّةٍ من هذا القبيل، إذ كما يُبرهنه إيبيل[256] (M. Ebel)، لا يستطيع أيّ شخصٍ أن يُفسِّر (ولا حتّى أن يكون مُلزَماً بتبرير نفسه من) أيّ أمرٍ مهما يكن أمام أيّ شخصٍ كائناً مَن يكون وأيّاً تكن الظروف (مع العلم بأنَّ فعلَي «التفسير» و«التبرير» لا يخضعان للشروط التمهيديّة نفسها). وبالإضافة إلى ذلك، حتّى إنَّ فعلاً «مُهدِّداً مضادّاً»، من مثل التعبير عن الرّضا في بعض الظروف، قد يبدو أحياناً غير لائقٍ، وإليكم هذَين المثلَين:

• في صفّ اللّغة الإنجليزيّة: يشرح الأستاذ الإنجليزيّ الأصل مسألةً معيَّنةً تتعلَّق بقواعد اللّغة الإنجليزيّة، فيقول له أحد التلامذة: «أنتَ على حقّ» («You're right»).

• في الفيلم الهزليّ بعنوان «مونتي بيتوم كأس دمّ المسيح المقدّسة» (Monty Python Sacré Graal)، يظهر فجأةً من بين السّحب وجه الله الذي يكشف لأرثور (Arthur) الحجاب عن المشاريع التي تتعلَّق بمستقبله، فيُعلِّق الملك قائلاً: «يا لها من فكرةٍ سديدةٍ!» («C'est une bonne idée»).

---

(256) Marianne Ebel, «L'Explication comme fait de discours,» *Travaux du centre de recherches sémiologiques de l'université de Neuchâtel*, vol. 36 (1980).

نفهم عدم اللّياقة هذه من دون مشقّةٍ. ويُعزى سببها إلى واقع أنّ التعبير عن الموافقة يُضمِّن إمكانيّة الخِلاف. ولهذا السبب يُمكن اعتبار الموافقة مُهينةً وقليلة الاحترام حين تحكم على خطابٍ صدر عن شخصٍ من المُفترَض أنّه معصومٌ من الخطأ.

(ملاحظة: من الخطأ أن نعتقد كذلك أنّ المتفاعلين الذين يتبوّأون مراكزَ «رفيعةً» يتمتّعون بالحقوق فقط ولا يترتّب عليهم واجبات، في حين أنّ هؤلاء الذين يشغلون مراكز «أدنى شأناً» لا يعرفون إلاّ الواجبات وليس لهم أيّ حقوقٍ، فمثلاً: يُشير فيلمور[257] إلى أنّه ليس مُباحاً لحارس السّجن أن يطلب الإذن من السجين (كأن يقول مثلاً: «هل لي أن أدخل؟» («May I come in?»)) أكثر ممّا هو مباحٌ لهذا السجين إصدار أمرٍ لحارسه).

ولكي ينجح الفعل الكلاميّ المنطوق، ينبغي بالتالي أن يكون مُباحاً للناطق به تحقيقه؛ وأن يتحلّى هذا الأخير بكفاءةٍ مشروعةٍ، تؤمّنها له المؤسّسة، وأن يكون كلامه «موضع ثقةٍ وجديراً بالتصديق»، فبهذه الصفة فقط يُمكنه «أن يستتبع فعلاً». وإليكم ما يُكرّره بورديو[258]، على أثر أوستن، ومفاده: «لا يعمل التبريك الرّمزي، هذا النوع من الفعاليّة السحريّة التي يدّعي ممارستها كلّ من الأمر أو كلمة السرّ، وكذلك خطاب الآداب أو الإيعاز المجرّد أو حتّى التوعُّد أو الشتيمة، ما لم يتمّ استيفاء شروطٍ اجتماعيّةٍ تكون خارجةً تماماً عن إطار المنطق الألسنيّ اللُّغويّ بحصر المعنى للخطاب [...]. ومثلما تُبيّنه الأمثلة التي حلّلها أوستن، ليست «شروط النجاح» هذه سوى شروطٍ اجتماعيّةٍ، ومَن يرغب في تدشين سفنه أو تعميد شخص ما، عليه أن يتمتّع بالقدرة على فعل ذلك، تماماً كما ينبغي لإصدار الأوامر، أن يتمتّع المرء بسلطةٍ مُعترفٍ بها على المُرسَل إليه».

هذا أمرٌ لا يختلف اثنان على صحّته. وقد بذل بورديو جهداً ضائعاً في إثارة مواضيع سبقه إليها منذ زمنٍ بعيدٍ فلسفة الكلام وعِلم خصائص التواصل. وكذلك، فهو يُعيد بالأصالة عن نفسه أفكاراً أصبحت ملكاً للألسنيّة منذ سنوات عديدة (حتّى وإنْ ذُهلنا من واقع أنّها ماطلت في تقبُّلها حينها). وطبعاً، لم نكن

(257) Charles Fillmore, «May We Come In?,» (papier ronéoté, Berkeley Univ., 1973).

(258) Pierre Bourdieu, *Ce que parler veut dire: L'Economie des échanges linguistiques* (Paris: A. Fayard, 1982), pp. 68-69.

ننوي محاسبته على ذلك، لولا النبرة الجدليّة التي يورد فيها هذه الأفكار الراسخة، قائِلاً: «في الواقع تَقرَّر مصير الألسنيّة المعاصرة بأسره تبعاً للدراسة التي قام بها سوسّور (Saussure) والتي تكمن قوّتها في طابعها الافتتاحيّ والتي فصل بموجبها «الألسنيّة الخارجيّة» عن «الألسنيّة الداخليّة»، وقد خصّ هذه الأخيرة باسم ألسنيّة، في حين استبعد كلّ الأبحاث التي تضع اللّغة في مقابل علم السِلالة [...]»[259]، وما هو أخطر بعد هو أنَّ الألسنيّة، على غرار حصان طروادة، قد استغلّتْ بمداجاةِ العلوم الاجتماعيّة الأخرى ونقلت إليها العدوى. وبالتالي، فقد آن الأوان «لاستخلاص كلّ التبعات التي تَنتجُ عن الواقع الذي كظمه بشدَّةٍ الألسنيّون اللُّغويّون ومقلِّدوهم، ومفاده أنَّ «الطبيعة الاجتماعيّة التي تتحلَّى بها اللّغة تُشكِّل إحدى هذه الخصائص الداخليّة»، كما كانت تؤكِّده **الدروس في الألسنيّة العامّة**[260] (*Cours de linguistique générale*)»، تلك هي المهمّة المولجة إليّ، أنا بيار بورديو، بحيث يترتَّب عليّ أن أُلقِّن الألسنيّين اللُّغويّين الضالِّين «ماذا يعني أن نتكلّم».

ولكن، بما أنَّ الألسنيّة قد انصرفت أصلاً ومنذ زمنٍ طويلٍ عن القول بِ «المثوليّة[*]» التي لم يعد لها سوى بعض المناصرين المصرِّين على موقفهم، وقد كفَّت أيضاً عن اعتبار الكلام كموضوع للتأمُّل الفكريّ المجرَّد وليس كأداة للفعل والسلطة»[261]، فليست هذه الأقوال الجدليّة التي تختلقُ، عن جهلٍ بلا أدنى شكّ[262]، غَرَضاً وهميّاً لتُهاجمه بشكلٍ أفضل، سوى جهدٍ ضائعٍ.

ومع ذلك فقد سعينا جاهدين إلى معرفة ما تتميَّز به هذه الأقوال التي تكون غالباً متشابهةً حتّى ليلتبس الأمر مع بيانٍ «تداوليّ تواصليّ ألسنيّ لغويّ» مُستقيم جدّاً في الرأي، عن خطاب الألسنيّين اللُّغويّين. وإن وضعنا جانباً بعض التوسُّعات التي هي على جانبٍ من الغموض ـ بشأن مسألة التمييز مثلاً[263] بين ما هو

(259) المصدر نفسه، ص 8.

(260) المصدر نفسه، ص 9.

(*) وهي حالة كائنٍ ماثلٍ في كائنٍ آخرٍ.

(261) المصدر نفسه، ص 13.

(262) يظهر دوكرو ظهوراً خاطفاً في هذا النصّ؛ في حين يغيب عنه سيرل وغريس وغوفمان غياباً تامّاً...

(263) المصدر نفسه، ص 70-71.

إنشائيّ بيِّنٌ وما هو إنشائيّ «بالمعنى الواسع المدلول» والتي ترمي بحسب بورديو إلى «دحض تحليل الشروط الاجتماعيّة لطريقة عمل الأقوال الإنشائيّة»، وهو أمرٌ غير دقيقٍ طبعاً ـ فإنَّ فرادة هذه الفرضيّة تكمن على ما يبدو، في واقع أنَّها:

1. تُدين «الممارسة المنطقيّة التي تقضي بفصل فعل الكلام الفرديّ عن شروط تحقُّقه»[264]،

2. وتعتبر أنَّ الفعالية التداوليّة التواصليّة التي تتَّسم بها الأقوال تكمن حصريّاً في «شروط إنتاجها وتلقّيها المؤسَّساتيّة»[265].

وعليه، سنوجز هاتَين المسألتَين المذكورتين آنفاً على الشَّكل الآتي:

1. لا يسعنا أن نفصل فعل الكلام الفرديّ عن شروط تحقُّقه. ويرى بورديو في ذلك عمليّة تجريد عبثيّةٍ تُفضي إلى التسليم بقدرة فعل الكلام على العمل حتّى لو لم يستوفِ شروط النجاح المؤسَّساتيّة، والحال أنَّ هذا خطأٌ، فوحده جنديٌّ غير اعتياديّ (أو ألسنيٌّ لغويٌّ «قحٌّ») قادرٌ على تصوُّر أنّه من الممكن له إصدار «أمرٍ إلى قائده»[266] ـ ويلوح في هذا الصدد طيف شومسكي (Chomsky)، وهو الألسنيّ اللُّغويّ القحّ» والجنديّ غير الاعتياديّ، حين يروي، بقصد توضيح فرضيَّته التي تتعارض تماماً وفرضيّة بورديو (بحيثُ إنَّها تقول بوجود دلالة القول بمعزلٍ عن هذه الظاهرة العَرَضيَّة التي تتمثَّل في نجاح القول أو إخفاقه التداوليّ التواصليّ)، ما حدث معه ذات يوم حين «أدلى بخطابٍ مناهضٍ لحرب فيتنام أمام حشدٍ من الجنود الذين كانوا يزحفون إلى ساحة المعركة هناك ببزَّة القتال حاملين بنادقهم على أكتافهم»[267]. وهذا الخطاب ميئوسٌ منه بلا ريب ومجرّدٌ من أي ترقُّبٍ غرّارٍ بتحقيق «نجاحٍ» أيّاً يكن، إلاّ أنَّه ليس «مُجرَّداً من معناه»[268] بالقدر الذي يُصوِّره بورديو.

---

(264) المصدر نفسه، ص 71.

(265) المصدر نفسه، ص 111.

(266) المصدر نفسه، ص 72.

(267) Noam Chomsky, *Réflexions sur le langage = Reflections on Language*, textes à l'appui, traduit de l'anglais par Judith Milner, Béatrice Vautherin et Pierre Fiala (Paris: F. Maspero, 1977), p. 78.

(268) في الواقع، يتحدّث بورديو عن الأقوال «المجرّدة على الصعيد الاجتماعيّ من أيّ معنى». ومردّ ذلك إلى أنّه يعتبر، مُحاكياً في هذا الشأن بغرابةٍ نظرية السلوكية التي نادى بها بلومفيلد في الثلاثينيات، أنّ معنى القول يكمن في تأثيره غير المباشر.

ولكنَّ هذا التدليل المنطقيّ مُلتبسٌ، لأنَّ فصل العنصر الأوّل (ع) عن العنصر الثاني (غ) بواسطة عمليّة تجريد تحليليّة، لا يستتبع ضمناً على الإطلاق أنّنا نُقرُّ بقدرة العنصر (ع) على العمل بمعزلٍ عن العنصر (غ). وترتكز الألسنيّة برمّتها على تفكُّكاتٍ «منافيةٍ أكثر للعقل»، فمثلاً: عندما تطرح الألسنيّة كمسلَّمةٍ أنّه، على مستوى طريقة عمل الكلام، لا وجود للدالّ في ظلّ غياب المدلول، والعكس بالعكس، فإنَّها تبذل ما استطاعت إليه سبيلاً لتُحلِّلهما كلاًّ على حِدة، وتجتهد لتُبرهن أنّه من الممكن لا بل من الضروريّ، أن نفصل، على المستوى الوصفيّ الإيضاحيّ، وجه الورقة نفسها عن ظهرها، فقد يوصف جنديٌّ بسيطٌ بالمجنون إن توجّه إلى قائده قائلاً: «اكنس المراحيض» («Balayez les latrines») (فسيوصف كلامه «بالأجوف» و«الجنونيّ»)؛ وسيكون فعله الإيعازيّ غير موفَّق حتماً، لأنَّه لن يبلغ خواتمه السَّعيدة، وهو لن يتحقَّق قطعاً (أي سيكون باطلاً ولكنَّه غير لاغٍ).

يكمن قوام الحلّ الوصفيّ الإيضاحيّ الصائب والوحيد برأينا، في فصل فعل الكلام عن شروط نجاحه الخارجيّة بمقتضى التقليد التداوليّ التواصليّ؛ أي بموازاة ذلك، في فصل الشرط الكلاميّ المنطوق للقول عن نتيجته ذات التأثير غير المباشر. وسواء أثارت اهتمامنا النزعة الأولى أم الثانية، تبعاً لشعورنا بأنّنا ننضوي في معسكر الألسنيّين اللُّغويّين أو بأنّنا نُعدُّ في صفوف علماء الاجتماع، فالمسألة مسألة أهواءٍ شخصيّةٍ. ولكن ما من أحدٍ يستطيع إنكار وجود هاتَين النزعتَين كلتَيهما.

وإليكم السؤال الرديف الآتي: ما هو وضع هذه النزعة الخارجيّة الألسنيّة اللُّغويّة التي يعتمد عليها نجاح فعل الكلام أم إخفاقه؟ إنَّها «مؤسّسةٌ»، كما يؤكِّده بورديو مراراً وتكراراً. وبحسب بيريندوني، يتمُّ تحديدها عبر «سلطةٍ معياريّة تُخضع الأفراد بالتوالي إلى بعض الممارسات تحت طائلة العقوبة، لا بل باعتبارها كذلك. وقد تكون «المؤسَّسة» إمّا جهازاً إداريّاً أيّاً يكن (القضاء مثلاً)، أو أمراً أكثر انتشاراً (على غرار مجموعة قواعد التهذيب) أو حتّى معياراً محصور النطاق على غرار قاعدة لعبة الشطرنج مثلاً»[269]. ونستنتج أنَّها تارةً تكون «جهازاً» يسنُّ عدداً معيَّناً من القواعد، وطوراً تكون «مجموعة قواعد» (وبهذه بالطريقة، يُعَدُّ كلّ نظامٍ سيميائيٍّ، وبشكلٍ خاصٍّ كلّ لغةٍ، مؤسَّسةً). ثمّ يؤكّد بيريندوني لاحقاً[270]

(269) Berrendonner, *Eléments de pragmatique linguistique*, p. 95.

(270) المصدر نفسه، ص 222.

أنّه من الجائز أيضاً أن تتألّف هذه المؤسّسة من مجموعة خطاباتٍ، فيقول ما يلي: «تتماهى المؤسّسة [. . .] وإنتاجاتها الخطابيّة». وباعتبار أنَّ مُصطلح مؤسّسة المُتعدِّد الاستعمالات يُشير في الوقت نفسه إلى الهيئة الاجتماعيّة النظاميّة التي تُنتج القواعد وإلى مجموعة القواعد المُنتجَة بواسطة هذه الهيئة الاجتماعيّة، فضلاً عن مجموعة الخطابات المُنتجَة تبعاً لهذه القواعد، فيُخشى أن تَضعُفَ جرَّاء ذلك قدرته الوصفيّة الإيضاحيّة.

ويكون هذا المُصطلح مناسباً قطعاً في بعض المقامات الخطابيّة التي يُحدِّدُ فيها وضع الفرد الاجتماعيّ تلقائيّاً حقَّه في الكلام (وهو وضعٌ يرمز إليه «الصولجان» («skeptron») الهوميريّ الشهير)، أو حقَّه في استعمال بعض أنماط الكلام، فمثلاً: يحتكر الله في **سفر التكوين** حقّ تسمية مخلوقات الكون كافّةً، ولكنَّه يُعطي الإنسان امتياز تسمية الحيوانات التي خلقها الله وأخضعها لسلطان ابن الإنسان؛ وكذلك ينفرد أبناء قبيلة التارا («taras») (وهم أصحاب مقاماتٍ ومُعلِّمون في شتّى الميادين) لدى قبية البيتي («Beti») في الكاميرون في حقّ إطلاق الشتائم ومُمارسة التأبين وقول الكلام الإباحيّ. ويأخذ هذا المفهوم بالحُسبان التبادلات الكلاميّة الشكليّة التي يتمّ رصدها في إطار طريقة عمل بعض الأجهزة من مثل الجيش والقضاء، والتي تُطالعنا أيضاً، وإن ضمن نطاقٍ متغيِّرٍ، في «المؤسّسة» المدرسيّة وفي العلاقات بين المخدوم/ الخادم[271] وربّ العمل/ الموظَّف والوالدَين/ الأولاد. . . وكلَّما كانت بُنية السياق أكثر صلابةً، كان توزيع الأدوار الكلاميّة المنطوقة أكثر وضوحاً، وكان مشروعاً أكثر أن نتحدَّث عن «الشروط المؤسّساتيّة» للاستعمال وللكلام الفرديّ.

وفي المقابل، يكون استعمال هذا المُصطلح أكثر إثارةً للنزاع حين تتعلّق المسألة بطريقة عمل «المحادثة»، أي بكلام آخر بالتبادل الكلاميّ غير الرَّسميّ الذي يتميَّز بحسب دونالدسون[272] بواقع أنَّه في طور هذا التبادل، «يتصرَّف المُشاركون فيه باعتبارهم نُظراء» ويخفون قدر المُستطاع التجليّات الخارجيّة الصارخة بشكلٍ واضحٍ والتي تنشأ عن تباينات وضعهم الاجتماعيّ المُحتملة.

---

(271) راجع الأمثلة المذكورة آنفاً، المُقتبسة عن ماريفو (Marivaux).

(272) Donaldson, «One Kind of Speech Act: How Do We Know When We're Conversing?».

وتعني معالجة التبادلات التحادثيّة الأكثر «بربريّةً» ظاهريّاً بمقتضى المؤسّسة، بحجّة أنّها تخضع على الرُّغم من كلّ شيءٍ لبعض القواعد التوافقيّة، أنّنا نستعمل هذا التصوُّر استعمالاً استعاريّاً نوعاً ما. ولسنا من مناهضي الاستعارات، ولكن لا بدّ من الاحتراس من التضمينات التي تنقلها، فمن مخاطر هذه الأخيرة، أنّها قد تُعطي صورةً متصلّبةً وثباتيّةً عن مثل هذه التفاعلات، حيثُ لا تتشكّل علاقات المكان بشكلٍ ناجزٍ أوّليّاً بفضل وضع المتكلّمين المتفاعلين الخارجيّ الكلاميّ، بل إنّها تتشكّل جزئيّاً في طور استعمال الكلام الفرديّ نفسه أو من خلاله.

2. ها قد بلغنا بالتالي عتبة القضيّة الثانية التي يُثيرها المؤلّف الذي وضعه بورديو، ألا وهي: أين تقع تحديداً «قدرة» الأقوال الكلاميّة «على التصرُّف»؟ فهل تكمن في الكلمات بحدّ ذاتها أم في السياق حيثُ يتمّ إنتاجها وتلقّيها؟

يُشكّل الصولجان، بالنّسبة إلى بورديو، بيت القصيد، فيقول عنه ما يلي: «أن يسعى المرء على الصعيد الألسنيّ اللُّغويّ إلى فهم نفوذ التجليّات الألسنيّة اللُّغويّة، وأن يُنقِّبَ في الكلام عن مبدأ المنطق وفعاليّة الكلام المؤسّساتيّ، يعني ذلك أن يغيب عن باله أنَّ السلطة تقع في كلام المحيط الخارجيّ، كما يُذكّرنا بشكلٍ حسيٍّ الصولجان الذي يُعطى، لدى هومير، إلى الخطيب الذي سيُلقي خطابه». ولكن يأبى الألسنيّون اللُّغويّون، بسبب مُكابرتهم العمياء (كما يؤكّده، قائلاً[273]: «هذا هو أصل الخطأ الذي يُعبِّر عنه أوستن على أفضل وجهٍ [...] حين يُخيَّل إليه أنّه اكتشف في الخطاب نفسه، أي في المادّة الألسنيّة اللُّغويّة بكلّ ما للكلمة من معنى - إن جاز التعبير[274] - مبدأ فعاليّة الكلام الفرديّ»؛ فضلاً عمّا مفاده[275]: «هذا ما يغفَلُ عنه الألسنيّون اللُّغويّون الذين يُنقِّبون، على خُطى أوستن، في الكلمات نفسها عن «القوّة المُتضمَّنة في القول» [...]»)، ورفضهم الإقرار بأنَّ الأقوال الكلاميّة ليست سوى ارتدادٍ لعلاقات نفوذٍ خارجيّةٍ عنها، وأنّها من حيثُ الأصل مُجرَّدةٌ من

(273) Bourdieu, *Ce que parler veut dire: L'Economie des échanges linguistiques*, p. 105.

(274) إنّ الاحتياط جائزٌ في الواقع، لأنّ استعمال المُصطلح «جوهَر» («substance») غير مُستحبٍّ في هذا المعرض.

سنُشير بشكلٍ عابرٍ إلى أنّ بورديو يُشدّد، بغرابةٍ وبالضدّ، مراراً وتكراراً (على سبيل المثال في الصفحات 140 و158 و159 من المصدر نفسه) على طريقة عمل بعض الخطابات السحرية التي بمجرّد تسمية غرضٍ ما توجِده.

(275) المصدر نفسه، ص 132.

أيّ دورٍ فاعِلٍ، بل من أيّ معنى، لأنَّ بورديو يُماثل معنى القول بتأثيراته غير المباشرة. ويتشبَّثون بعنادٍ رافضين فكرة أنّه لا يعود إليهم، بصفتهم ألسنيّين لغويّين، أن يتحدَّثوا بمعرفةٍ عن الكلام، بل إلى علماء الاجتماع.

وبالعكس، يندرج برأينا النشاط الكلاميّ في عداد الوسائل المتنوّعة التي تخوِّل كلّ شخصٍ أيّاً يكن، ولكن بتفاوتٍ تبعاً لوضعه الاجتماعيّ، من ممارسة سلطته. «وتحوي» الإنتاجات الخطابيّة فعلاً «وفي ذاتها على مبدأ سلطةٍ ما»، ولكنّها سلطةٌ بالقوّة ولا تصبح فعّالةً ما لم يسمح لها السياق المؤسّساتيّ بذلك، وإلاّ يفشل فعل الكلام على صعيد التأثير غير المباشر، حتّى وإن أُنجز على الصعيد الكلاميّ المنطوق. وعليه، تظهر المؤسّسة بمثابة البُنية السياقيّة التي تكبح إنتاج أفعال الكلام، وتفرض شروطاً على نجاحها ـ وليس بمثابة المرجع المُختصّ حيثُ يتمركز في الواقع «نفوذ الكلمات».

فضلاً عن ذلك، من الجائز أن ينجح أحياناً فعلُ الكلام، حتّى وإن خُيِّل إلينا أوّليّاً أنّ شروط نجاحه لم تتحقّق. ونقرأ في نصٍّ خياليٍّ مُقتضبٍ يُثير فيه جان شوستر (Jean Schuster)، على منوال كونو، محادثةً رفيعة المستوى مع أنّها تجري في حانةٍ صغيرةٍ، ما يلي: «كان يُخيَّل للخادمة المدعوّة براسيلو أنّ ثمّة نوعَين من الأدب وترتيبَين محتملَين مُتاحَين أمام الفنّ التلفزيونيّ. وبلغ الجدال أشدَّه أمام المَشرب المصنوع من الرُّخام المُزيَّف، فتدخَّل شابٌ غريبٌ وصغير السنّ بالأحرى ليرتاد مثل هذه الأماكن، ودخل طرفاً في الخصومة بلا حياءٍ. مع أنّه كان من الأوْلى أن يخالجه شعورٌ مماثلٌ بالحياء نظراً لقلّة نضجه النسبيّة وانعدام معرفة مرجعيّته السلفيّة في هذا الحيّ»[276] («Brasilou, la servante, estima qu'il y avait deux littératures et deux accomodements possibles au télévisuel art. Devant le zinc en faux marbre, la polémique galopait de plus belle. Un quidam, plutôt jeunet pour les lieux, s'y était mêlé sans la vergogne qu'eussent exigée sa relative immaturité et son abscence de référence patronymique en ce quartier»). وبالتالي، ليس مُباحاً من حيثُ المبدأ لمَن يشاء أن يدخل على هواه طرفاً في الحلبة الجدليّة، ولا تكون كذلك الوسائل التي يوظِّفها المُشاركون في المُعترك الجدليّ على قدم المساواة. ولكن،

(276) مثلٌ مُقتبسٌ من مجلة: *La Quinzaine littéraire*, no. 297 (1 mars 1979), p. 29.

حتّى وإن كان صحيحاً أنَّه «لم يكن مُباحاً» للشاب الغريب في البداية أن يُشارك في التفاعل، إلاّ أنَّ ذلك لا يمنع أنَّه قد غدا مؤهَّلاً الانخراط فيه بفضل انقلابٍ كلاميٍّ. وإليكم هذا المثل عن انقلابٍ كلاميٍّ أكثر إثارة للذهول، ألا وهو: الانقلاب الذي قام به بطل رواية **الماضي المُجرَّد**(277) (*Le Passé simple*) للكاتب إدريس شرايبيّ (Driss Chraïbi) الذي عزَمَ ذات يوم على التمرُّد ضدّ الرُّعب الكلاميّ الذي كان يُمارسه عليه والده «الملك»، فعَقَدَ النيَّة أن يُصبح «طريد المُجتمع»، وأن يقلب قواعد اللُّعبة التفاعليّة، وكذلك «علاقة الرُّتب» التي كانت مفروضةً عليه بمباركة المؤسّسة (أي المُجتمع المغربيّ في تلك الآونة) رأساً على عقب؛ وقد بلغ ما أراده وخلصَ إلى الاستنتاج الآتي: «المسألة برمَّتها هي مسألة جرأةٍ» («Le tout était d'oser»).

وبالطبع، لا يكفي أن «نجرؤ» («oser») دائماً أو أن نكون «بلا حياءٍ» («être sans vergogne») كي ننجح في قلب النظام الاجتماعيّ رأساً على عقب. ولا يستطيع المرء، إلاّ في ظلّ بعض الشروط والضوابط (تحت طائلة تعريض نفسه لخطر «التوبيخ» عن طريق ردٍّ من النوع الآتي: «ولكن بأيّ حقٍّ تتكلَّم، ومَن سمح لك أصلاً بأن تتدخَّل على هذا النحو؟» («Mais enfin de quel droit, qu'est-ce qui te permet de parler de la sorte») أو أيضاً بواسطة أنواعٍ أخرى من العقوبات الأكثر فداحةً بشكلٍ أو بآخر)، أن يتغلَّب من دون خسائرَ على وضعه المؤسَّساتيّ وأن يتجرَّأ على خوض فعل كلام ممنوع عليه مبدئيّاً. ولكن لا نيّة لنا بالترويج لنوعٍ من التداوليّة التواصليّة اليساريّةً التي تُناقض تماماً ما يقول به بورديو، بل هدفنا التذكير بأنَّه في حال رغب المرء في ممارسة نوعٍ من أنواع السُّلطة بواسطة الكلام، فلا يكون الصولجان ضروريّاً دائماً، بل حتّى إنَّه يكون غير كافٍ. والدليل على ذلك أنَّنا نستطيع أحياناً أن نتصرَّف على الصعيد الكلاميّ من دون أن يُسمح لنا بذلك. وبالعكس، لا يكفي بصورةٍ دائمةٍ أن يكون المرء صاحب الحلّ والربط لتنجح أفعال الكلام التي يُنجزها، فوحدها شخصية «الرجل البيضة» المدعو هامبتي دامبتي الخياليّة تزعم بأنَّها قادرةٌ على فرض لغتها الفرديّة الخاصّة بالقوَّة. وكذلك وحدها شخصيّة بارتولو (Bartholo) الكوميديّة تستطيع أن تدَّعي القدرة على فرض حقائق مُعاكِسةٍ جليّةٍ، كما في المثل الآتي:

---

(277) Driss Chraïbi, *Le Passé simple: Roman* (Paris: Denoël, 1954).

الصبيّة (وهي تعطس): ولكن، يا سيّدي، هل... هل العدالة موجودةٌ؟...

بارتولو: العدالة! هي صالحةٌ لكم يا معشر البؤساء، هذه العدالة التي تتحدَّثين عنها! أمّا أنا، فأنا سيّدكم، أي إنّني دائماً على حقّ.

الصبيّة (وهي تعطس): ولكن، بالتأكيد، فحين يكون الأمر صحيحاً...

بارتولو: أتقولين عندما يكون الأمر صحيحاً! حين لا أرغب في أن يكون الأمر صحيحاً، فأنا أدّعي بأنّه ليس كذلك(278).

(LA JEUNESSE (éternuant). - Eh mais, Monsieur, y a-t-il... Y a-t-il de la justice?...

BARTHOLO. - De la justice! C'est bon entre vous autres misérables, la justice! Je suis votre maître, moi, pour avoir toujours raison.

LA JEUNESSE (éternuant). - Mais, pardi, quand une chose est vraie...

BARTHOLO. - Quand une chose est vraie! Si je ne veux pas qu'elle soit vraie, je prétends qu'elle ne soit pas vraie).

- إلاّ أنّ بارتولو هذا، الذي يدّعي مثلما رأينا آنفاً أنّه يُخضِعُ الحقيقة إلى «السيطرة»، يجعل من نفسه مثار سخريةٍ.

كما ندحض التصوُّر الجبريّ الثباتيّ الذي ينادي به بورديو مُعتبراً أنّ الكلام ليس سوى ارتدادٍ لنظامٍ اجتماعيٍّ مُعَدّ سلفاً، فضلاً عن التصوُّر الذي يقوم على مبدأ الاعتقاد بأنّ علاقاتِ الرُّتب والنفوذ لا تتشكّل إلاّ في استعمال الكلام الفرديّ أو عبره. أمّا نحن، فنصفُ بِـ الجدليّة العلاقة القائمة بين الممارسات الخطابيّة وشروط تحقُّقها الاجتماعيّة المؤسّساتيّة(279). وهكذا، قد تعكسُ التصرُّفات

---

(278) مثلٌ مُقتبسٌ عن المشهد الثاني من الفصل السابع من مسرحية **حلّاق سيفيل** (*Le Barbier de Séville*) للكاتب المسرحي بومارشيه (Beaumarchais).

(279) وبشأن الطابع الجدليّ الذي تتّصف به العلاقة القائمة بين الخطاب والسياق، فضلاً عن كيفيّة تحديد هاتَين النزعتَين بالتوالي، راجع: Olivier Reboul, *Langage et idéologie* (Paris: Presses universitaires de France, 1980), pp. 103-105.

تُثار بشكلٍ مماثلٍ قضيّة ظاهرة «التنوّع الألسنيّ اللّغوي» التي لا يعتبرها لابوف «ظاهرةً» متحدّرةً من المفاضلة الاجتماعية فحسب، بل يعتبرها عاملاً فاعِلاً في هذه المفاضلة» (بحسب: Christian Bachmann, Jacqueline Lindenfeld et Jacky Simonin, *Langage et communications sociales*, langues et apprentissage des langues, préface de Jean-Claude Chevalier (Paris: Hatier: CREDIF, 1981), p. 115),

فضلاً عن العلاقة القائمة بين الهيكليات الألسنيّة اللّغوية وتنظيم المرجع (انظر الجِدالات التي تُثيرها «فرضية سابير - ورف» («Hypothèse Sapir-Whorf»)).

راجع أيضاً في التوجّه الفكري نفسه، مبدأ السببيّة الدائرية الذي ينشده «المتفاعلون المتبادلون».

الكلاميّة بعض علاقات السلطة القائمة بين المتكلِّمين المتفاعلين، بل إنَّها قادرةٌ على تأكيد هذه العلاقات أو الاعتراض عليها أو حتّى إنشائها. ويتمّ تحديد هذه التصرُّفات الكلاميّة المذكورة آنفاً على ضوء علاقات الرُّتب التي توجدها في الوقت عينه، فالخطاب هو نشاطٌ مَشروطٌ وتحويليّ في آنٍ، لأنَّ «المؤسَّسة» السياديّة لا توزِّع الأدوار الاجتماعيّة مرّةً لكلّ مرّة، بل على العكس، لا ينقطع التفاوض بشأنها وتصحيحها وإعادة توزيعها أثناء المواجهات والتفاعلات التي تتَّصف كذلك بطبيعتها الكلاميّة الفعليّة، فبغية إصدار أمرٍ نافذٍ مثلاً، ينبغي بلا ريب أن يكون مُباحاً للمرء إصداره؛ ولكن، وبمجرَّد إصداره، يدَّعي الناطِقُ به بأنَّه يُمارس سلطةً معيَّنةً على الشخص المنطوق إليه هذا الأمر، ويضع نفسه بذلك في موقع «أرفع» من ذلك الذي كان يتمتَّع به بالضرورة قبل إصداره ـ وهو غالباً ما يُوفَّق في ذلك.

وفي المقابل، ثمّة طرقٌ تهديديّةٌ جمّةٌ لصياغة أمرٍ و«تمريره» من دون أن يُصار إلى الاعتراض عليه.

والحال أنَّ طبيعة المقام التواصليّ لا تفرض شروطاً على واقع أن يكون فعل كلامٍ ما ممكناً أم محظوراً فحسب، بل إنَّها تضع شروطاً أيضاً على واقع أن يُصاغَ بهذه الطريقة أو تلك التي تكون فظَّةً أو مُلطَّفةً بدرجاتٍ متفاوتةٍ. ومثلما يُبرهن براون وليفنسون، ثمّة قواعد تُنشئ علاقة منهجيّة تشدّ أواصرها بين بعض معطيات المقام التخاطبيّ من جهةٍ ونمط الصياغة الذي يختاره المتكلِّم من جهةٍ أخرى (فعلى سبيل المثال، يقول براون وليفنسون(280) ما يلي: يُمكن أن يُصدر بعض الأشخاص ممّن لا يملكون نفوذاً أوامرَ مباشرة [. . .]، شرط أن تُثير (ظاهريّاً) اهتمام المُستمع. وراجع أيضاً ما يقوله غودي(281) (Goody)، ومفاده: «بتعبيرٍ آخر، ثمّة فصلٌ على ما يبدو بين الأمر (مثلاً: «اذهب وهنِّئ الرئيس» («Go and greet the chief»)) والتصريح (مثلاً: «سنذهب لنُهنِّئ الرئيس» («We will go and greet the chief»)) وصولاً إلى السؤال (مثلاً: «أسنذهب لنُهنِّئ الرئيس؟» («Will we go and greet the chief?»))، ويكون هذا الفصل منوطاً

(280) Brown et Levinson, «Universals in Language Usage: Politeness Phenomena,» in: Goody, ed., *Questions and Politeness: Strategies in Social Interaction*, p. 234.

(281) Goody, ed., Ibid., p. 33.

بوضع كلٍّ من السائِل والمُجيب، فما هو مُباحٌ بصفته أمراً يصدر عن الرئيس أو بصفته تصريحاً يُدلَى به بين النظراء، لا يُسمح بصياغته إلاّ على شكل سؤال إذعانٍ حين يكون الشخص الذي يفتتح المُحادثة مرؤوساً»). وبالتالي، قد نتصوَّر نموذجاً إنتاجيّاً يضع أوَّلاً بمثابة «المعلومات المُدخَلة» خصائص إطار التفاعل، ويُنشئ ثانياً بين هذه الخاصيّات ونوايا المُتكلِّم الكلاميّةَ المنطوقة علاقةً ما؛ ناهيك بأنَّه قد يولِّد ثالثاً محوراً استبداليّاً بالأقوال القابلة أن تُعبِّر عن هذه النيات، وذلك على شكلٍ استراتيجيٍّ ملائم «للمعطيات». ذلك هو اقتراح براون وليفنسون (القائلَين ما يلي[282]: «من أجلِ تحديد النظريّات الدقيقة التي ستتَّخذ من المعلومات الاجتماعيّة المؤسّساتيّة مُدخَلاً لها والتي ستولِّد بمثابة المُخرَج أساليب تفاعلٍ مُرتقبةٍ ومقبولةٍ بين المُشاركين كلٌّ على حِدة»)، وذلك هو أيضاً غرض نموذج التداوليّة التواصليّة التوليديّة الذي نادى به هاليداي (Halliday)[283] والذي يتأمَّل على سبيل المثال من زاوية وجهة النظر هذه[284] في مختلف الإنجازات المُمكنة «للخيارات الدلاليّة»، على غرار التوعُّد والتنبيه. بيد أنَّ هذا النموذج لا يدَّعي بأنَّ معالجةً من هذا القبيل تتكيَّف بالتساوي مع كافَّة أنواع الخطاب. ويخلص من ذلك إلى استنتاج ما يلي: «لا يزال علم الدلالة الاجتماعيّ هذا في طوره التمهيديّ إن جاز التعبير»[285]...

بالإضافة إلى ذلك، يعمل مثل هذا النموذج في اتِّجاهٍ واحدٍ، فهو لا يأخذ في الاعتبار التأثيرات المُرتدَّة للإنتاجات الكلاميّة في معرض الردّ على المعطيات السياقيّة، ولا يُجزِّئ قضية معرفة كيفيّة إظهار الفعل المُتبادَل والمتواصل الذي تُمارسه هاتان النزعتان إحداهما على الأخرى، كون السياق يُحدِّد ضمن نطاقٍ مُعيَّنٍ التصرُّفات الخطابيّة التي تُحدِثُ تعديلاً على السياق الذي يُحدِّد مجدَّداً.. وهكذا دواليك.

(282) Brown et Levinson, p. 246.

(283) M. A. K. Halliday, «La Sémantique et la syntaxe dans une grammaire fonctionnelle (vers une sémantique sociologique),» dans: *Sémantique et logique: [Symposiums de sémantique, Urbino, 1971 et 1972]: Etudes sémantiques*, univers sémiotiques, recueillies et présentées par Bernard Pottier (Paris: J.-P. Delarge, [1976]).

(284) المصدر نفسه، ص 154-159.

(285) المصدر نفسه، ص 165.

ولا بدّ أخيراً من التذكير بأنَّ ما يُثير اهتمامنا في هذا الصدد إنَّما هي آليّات تأويل الأقوال وليس مُطلقاً آليّات إنتاجها.

د) ومن هذا المنظور، لا مناص أخيراً، بغية طيّ صفحة لائحة قوانين الخطاب هذه التي أوردناها بحسب التسلسل التناقصيّ لدرجة عموميّتها، من التذكير بوجوب أن نُضيف إليها بعض «القواعد البسيطة» التي تسمح كذلك بإيلاد الكلام المنطوق، وأبرزها:

● «في حال تحرّى الشخص الأوّل «أ» من الشخص الثاني «ب» عن إمكانيّة أن يستفيد الشخص الثالث «ج» من عملٍ مُعيَّنٍ «ع» يقوم به فاعلٌ ما «ف»، عندها يُحقِّق «أ» نيابةً عن «ب» التماس أن يقومَ «ف» بالعمل المُعيَّن «ع»».

● «أمّا في حال استفسر «أ» من «ب» عن نيات «ج» في أن يؤدِّي دور الفاعل الذي سيقوم بالعمل «ع» لحساب الشخص المُستفيد «أ»، عندها يوجِّه «أ» إلى «ب» التماساً يقضي بأن يُحقِّق «ج» العمل «ع»»[286].

ينبغي أن نُضيفَ إليها أيضاً، بحسب سينكلير (Sinclair) وكولتهارد[287] (Coulthard) هذه المرَّة[288]، القواعد الآتية:

القاعدة 1: يجب تأويل جملةٍ استفهاميّةٍ ما على أنَّها التماسٌ في حال استوفت الشروط التالية:

● في حال كان المخاطب نفسه فاعل الجملة الاستفهاميّة؛

● في حال كان المُسنَد عملاً ممكناً حدوثه ماديّاً لحظة إنتاج القول، وهذا مثلٌ على ذلك:

«أتعزف لنا على البيانو؟» («Tu nous joues du piano?»).

القاعدة 2: «يتعيَّن تأويل الجملة الخبريّة أو الجملة الاستفهاميّة على أنَّهما

(286) Jean-Claude Anscombre, «Voulez-vous dériver avec moi?,» *Communications*, no. 32 (1980), pp. 99 et 102.

(287) John McHardy Sinclair and R. M. Coulthard, *Towards an Analysis of Discourse: The English Used by Teachers and Pupils* (London: Oxford University Press, 1975).

(288) لقد استشهد بها في: Bachmann, Lindenfeld et Simonin, *Langage et communications sociales*, p. 168.

التماسان لوضع حدٍّ لنشاطٍ ما، في حال أشارتا إلى نشاطٍ مُحظَّرٍ القيام به لحظة إنتاج القول»، كما في المثلَين التاليَين:

شخصٌ ما يضحك الآن («Quelqu'un est en train de rire»)

هل من أحد يضحك؟ («Quelqu'un rit?»)

القاعدة 3: «تؤوَّل الجملة الخبريّة أو الجملة الاستفهاميّة على أنَّهما التماسان في حال تناولتا نشاطاً يكون كلٌّ من الشخص الذي يُعلِم به والشخص الذي يُعلَم به على يقينٍ من وجوب أن يكون مُحقَّقاً، وأنَّه لم يُنجز بعد»، على غرار:

الباب مفتوحٌ («La porte est ouverte»)

أتستطيع أن تُقفل الباب؟ («Pouvez-vous fermer la porte?»)

(نقترح أيضاً ما يلي: يتعيَّن تأويل الجملة الخبريّة والجملة الاستفهاميّة «الشاملة» على أنَّهما سؤالان يبدآن بِـ «لماذا» («pourquoi»)، أي بمثابة طلب التبرير، حين تتطرَّقان إلى تصرُّفٍ «مُستهجنٍ» بَدَر عن المُحاوِر، كما في المثلَين التاليَين:

أنتِ مُبكرةٌ هذا الصّباح («Tu es bien matinale aujourd'hui»)

أنتَ لا تأكل؟ («Tu ne manges pas?»)

وليس هذان المثلان سوى غيضٍ من فيض آلاف الأمثلة، فمبدئيّاً، إنَّ لكلّ حالة اشتقاقٍ كلاميٍّ منطوقٍ قاعدة ملائمة لها من هذا القبيل).

ولا تنفكّ لائحة قوانين الخطاب هذه في ازديادٍ مُستمرّ، كلَّما سار البحث التداوليّ التواصليّ[289] قدماً ـ علماً بأنَّ توالد مثل هذه القواعد التي تتراوح من

(289) نضمّ هذه «القوانين البرهانيّة» التي يتحدّث عنها دوكرو في: Oswald Ducrot, *Les Echelles argumentatives*, propositions (Paris: Editions de Minuit, 1980),
إلى قافلة قوانين الخطاب (أمّا بالنسبة إلى قوانين «النفي» و«الركاكة» و«الإغراق»، مع أنّ الإشكالية التي يطرحها هذا الأخير تكمن في معرفة كيفيّة ترابطه مع قانون الشمولية، لأنّ هذَين القانونَين يُفرزان تأثيراتٍ عكسيّةً، راجع أيضاً: Jean-Claude Anscombre et Oswald Ducrot, *L'Argumentation dans la langue*, philosophie et langage (Bruxelles; Liège: P. Mardaga, 1983)),
فضلاً عن مبادئ «تنفيذ الالتزام» و«الوقت غير المُحدّد» و«الفاعليّة» التي يتحدّث عنها روليه (Roulet, «Modalité et illocution: Pouvoir et devoir dans les actes de permission et de requête,» p. 232).

العامّة إلى «المُخصَّصة لغَرضٍ ما» يغدو أسهل، إلى حدّ فقدان السيطرة عليه، كان وضعها غير مؤكَّدٍ.

2.4.4. قضايا تتعلّق بوضع قوانين الخطاب هذه وشروط تطبيقها

1. وضعها

تتَّخذُ المبادئ التي تأمَّلنا فيها آنفاً، القواعد» منها و«القوانين»، وضعاً بمنتهى الغرابة سببُه أنَّها تنتمي في الوقت عينه وبنسبٍ متفاوتةٍ، إلى:

1. الألسنيّة: ويتمحور السؤال المطروح حول معرفة ما إذا كان يتعيَّن اعتبار بعضها بمثابة المركَّبات المؤلِّفة لمقوِّم خاصٍّ من مقوِّمات الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة[290]، بدلاً من اعتبارها بمثابة المكوِّنات المؤلِّفة لكفاءةٍ بلاغيّةٍ تداوليّةٍ تواصليّةٍ مُستقلَّةٍ. وعلى الرُّغم من كلّ شيءٍ، فنحن نؤثِر الحلّ الثاني، نظراً إلى أنَّنا قد نقع على متكلِّم يتمتَّعُ بالكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة السويّة إلاّ أنَّه يكون عاجزاً عن التحكُّم بشكلٍ سويٍّ بمجموعة هذه القواعد الخاصّة، كما في المثل الآتي:

لم أكن مُعتاداً التكلُّم، لدرجة أنَّ بعض الجُمل السليمة من وجهة نظر قواعد اللّغة كانت تفلتُ من فمي، بيد أنَّها كانت تفتقر تماماً، لن أقول إلى الدلالة، لأنَّ مَن يمحِّصها عن كثبٍ يجد أنَّ لها دلالةً، وحتّى عدَّة دلالاتٍ أحياناً، بل إلى الأساس[291].

(«J'avais si peu l'habitude de parler qu'il m'arrivait de temps en temps de laisser échapper, par la bouche, des phrases impeccables au point de vue grammatical mais entièrement dénuées, je ne dirai pas de signification, car à les bien examiner elles en avaient une, et quelquefois plusieurs, mais de fondement).

2. علم النفس: قد يكون المرء «بطبعِه» متعاوناً أو صادقاً أو مهذَّباً أو متواضعاً أو ثرثاراً أو مُقتضباً، إلى آخره، بدرجاتٍ متفاوتةٍ.

3. علم الأخلاق: «يُشكِّل تلافي الكذب إحدى القواعد المعياريّة، وحتّى

---

(290) يقول أندريه بوتيجان (André Petitjean) بوجوب دمج «قوانين اللّياقة» (التي يُسمّيها «قوانين المُقاصفة») مع «الكفاءة الموسّعة» التي يتحلّى بها المتكلّمون (في مقالته: André Petitjean, «Conserver au théâtre,» *Pratiques*, no. 42 (1984)).

(291) مثلٌ مُقتبسٌ عن: Samuel Beckett, *Premier amour* (Paris: Editions de Minuit, 1970), p. 46.

الأخلاقيّة»[292]. ونستنتج بالتالي أنّ «الكذب هو خداعٌ» («Turpe est mentiri»).
وإليكم هذا المثل:

أدرك طوماس أخيراً أنّه كان يخضع للاستجواب، فقال في نفسه إنّ أيّ كلمةٍ سينطق بها قد تُعرِّض أحداً ما للخطر، فهو كان يعرف اسم الصحافيّ حقّ المعرفة، ولكنّه أنكر معرفته به، قائلاً: «لا أعرف» [. . .].

فمن المُضحك المُبكي أن تغدو تربيتنا الحسنة تحديداً حليفة رجال الشرطة وفي صفّهم، فنحن لا نقوى على الكذب. وإنّ ضرورة «قول الحقيقة» التي يطبعنا والدانا عليها، تجعلنا نخجلُ تلقائيّاً من الكذب، حتّى أمام رجل الشرطة الذي يستجوبنا [. . .].

شعر طوماس، وهو يسمعُ أحد أعضاء النيابة العامّة يتّهمه بقلّة الصدق، أنّه مُذنبٌ تقريباً؛ وقد تكبّد عناءً ليتغلّب على نوعٍ من أنواع الحَصْر المعنوي بغية الثبات على كذبته وعدم تغيير أقواله[293].

(Tomas comprit enfin, que c'était un interrogatoire. Il se dit que chacune de ses paroles pouvait mettre quelqu'un en danger. Il connaissait évidemment le nom du journaliste, mais il nia: «Je ne sais pas» [...].

Il est tragi-comique que ce soit précisément notre bonne éducation qui soit devenue l'alliée de la police. Nous ne savons pas mentir. L'impératif «Dis la vérité!» que nous ont inculqué papa et maman, fait que nous avons automatiquement honte de mentir, même devant le flic qui nous interroge [...].

En entendant l'homme du ministère lui reprocher son manque de sincérité, Tomas se sentit presque coupable; il dut surmonter une sorte de blocage moral pour persévérer, dans son mensonge).

وليس هذا شأن قانون النزاهة وحده، بل إنّ غريس يصوغ قواعده برمّتها باعتبارها نوعاً من الوصايا. وكما أشرنا سابقاً، ترتبط قوانين الخطاب بنوع من أنواع نظام أدبيّات حسن استعمال اللّغة (فبحسب الطبيب غرنيون[294] (Grignon) من المُخالف لقواعد الواجبات الطبيّة أن يُحجِمَ الطبيب عن إبلاغ المريض بواقع

---

(292) François Flahault, «Le Fonctionnement de la parole: Remarques à partir des maximes de Grice,» *Communications*, no. 30 (1979), p. 77.

(293) نقلاً عن: Kundera, *L'Insoutenable légèreté de l'être: Roman = Nesnesitelnà lehkost byti*, p. 235.

(294) وهذا المثلُ مُقتبسٌ عن جريدة: *Le Monde* (20 juin 1979), p. 18.

أنّ 15 في المئة من حالات عمليّات التجميل لا تخلو من بعض المضاعفات. كما يُشكّل ذلك أيضاً، انتهاكاً لإحدى قواعد الأدبيّات اللُّغويّة، ألا وهي: قانون الشموليّة). وفي الواقع، يصحُّ ما يؤكِّده غوفمان عن حالة «الآداب التصويبيّة» الخاصّة على غالبيّة قوانين الخطاب، ومفاده: «تُعيدنا هذه القوانين مباشرةً إلى العادات الأخلاقيّة التي هي في صلب الثقافة الشرقيّة»[295]. ثمّ يُردف قائلاً عن القواعد التحادثيّة بأنّها مسألةُ «وعي» («conscience»)، وهذا مثلٌ على ذلك:

ربُّ العمل: دعنا من ذلك. أأنتَ في صحّةٍ جيِّدةٍ، أنت تعرف مغامراتي العاطفيّة، فضميريّاً، وبكلّ صراحةٍ، لا تستطيع أن تعفي نفسك من استعادة مغامراتك أنتَ[296].

(LE MAITRE. - Laissons cela. Tu te portes bien, tu sais mes amours; en conscience tu ne peux te dispenser de reprendre l'histoire des tiennes).

4. كما تُعيدنا إلى بعض المبادئ القانونيّة التي تُرسي أُسس المجتمع حيثُ تكون مرعيّة الإجراء. وهكذا، يقع انتهاك بعض قوانين الخطاب[297] تحت طائلة القانون، ونذكر منها مثلاً:

● القانون الذي ينصّ على عدم تعرُّض المرء علناً لوجه الفرد الإيجابيّ (ولاسيما إن كان شخصيةً بارزةً) تحت طائلة التقدُّم بدعوى «قدحٍ وذمٍّ» بحقِّه. ويُحدِّد معجم *Le Petit Robert*[298] كلمة «قدح وذمّ» («diffamation»)، على الشّكل الآتي: «إنّها فعل ارتكاب القدح والذمّ» («Action de diffamer»)، أي محاولة التعرُّض لسمعة فلانٍ وأخذ أمورٍ شائنةٍ عليه [...] من خلال اتّهامه بالقيام بفعلٍ ما سواء كان صحيحاً أم خاطئاً. ويجدر تمييز القدح والذمّ عن الافتراء (وهو اتِّهامٌ كاذبٌ بدافع التشهير بسمعة فلان والانتقاص من شرفه) الذي ينتهك فضلاً عن ذلك قانون النزاهة؛

---

(295) Goffman, *Gender Advertisements*, p. 178.

(296) مثلٌ مأخوذٌ عن: Denis Diderot, *Jacques le fataliste* ([s. l.]: Hachette: Le Livre de poche, 1972), p. 274.

(297) لا تقع كلّها تحت طائلة القانون، فحتّى إشعارٍ آخر، لا يندرج في عداد الجنح القانونية واقع أن «يرشقَ المرء نفسه بالأزهار».

(298) *Le Petit Robert 2: Dictionnaire universel des noms propres alphabétique et analogique...*, sous la direction de Paul Robert, rédaction générale, Alain Rey, 5ème éd. revue, corrigée et mise à jour (Paris: S. N. L. - Le Robert, 1981).

• قانون النزاهة الذي لا يخلو بدوره من العلاقات التضمينيّة القانونيّة، وخير دليلٍ على ذلك هو قانون عام 1963 الذي يتناول الدعاية الكاذبة. ونذكر على سبيلٍ المثال أنَّه في 28 كانون الثاني/ يناير عام 1983، «أُعفيت السيِّدة بريجيت باردو (Madame Brigitte Bardo) التي نعتت بائعة الأزهار التي قتلت جروها بِ «الساقطة» و«المُجرمة» من التُّهمة، فقد منحتها المحكمة عذر النزاهة» (ويأتي احترام قانون النزاهة هنا في إطار «التخفيف» من جنحة عدم التقيُّد بالقانون المُشار إليه آنفاً). ويُعدُّ الكذب جنائيّاً كذلك في كلّ الاستجوابات أيّاً كانت؛

• الكذب بالارتكاب بالحدّ الأدنى والذي يُعدُّ من وجهة النظر القانونيّة (وكذلك الاجتماعيّة) أكثر فداحةً من الكذب بالامتناع. وعلى سبيل الذكر لا الحصر، يُذكِّرنا دونيس لانغلوا (Denis Langlois) في كتابه **دليل المواطن أمام رجال الشرطة**(299) (*Guide du citoyen face à la police*) بأنَّه يحقّ لنا دائماً أن نُعلن أنَّنا لا نعرف شيئاً لنُصرِّح به، وأن نلتَزِمَ «الصمت الحذِر الذي لا ينبغي مزجه أبداً مع الكذب» ـ باستثناء حالة الاستجواب مع الإنابة القضائيّة حيثُ يكون المرء مُلزَماً على العكس بقول «الحقيقة كلّ الحقيقة». ونستنتج بالتالي أنَّ قانون الشموليّة يكتسب أحياناً وضعاً قانونيّاً؛

• والأمر نفسه ينطبق أحياناً على قانون الملاءمة أيضاً، وخير دليلٍ على ذلك الدعوى التي تقدَّم بها مدير الشرطة بحقّ جان بروييل (Jean Bruel) بتهمة أنَّه وزَّع كتيِّباتٍ سياحيّةً تتَّهم ديغول (de Gaulle) وفرنسا الحرّة (France libre)، ومؤسّساتٍ أخرى متنوِّعةٍ، ممّا يجعلها تقع تحت طائلة المرسوم البلديّ الصادر في 6 آب/ أغسطس عام 1979 والذي يُحظِّر على أصحاب امتيازات النقل النهريّ «بتوزيع كراريس مطويّة [...] تنطوي على تعليقاتٍ لا تتعلَّق بموضوع الامتياز». وقد ردّ بروييل على هذا الاتِّهام قائلاً: «إنَّ الموضوع «الفعليّ» الذي يتناوله هذا الكتيِّب هو وثيق الصلة بالنُصُبِ التذكاريّة التي تُطلُّ عليها مراكبي. ولهذا، فقد أشرتُ بالتلميح إلى فرنسا الحرّة، في معرض الحديث عن تمثال بورديل الذي أُهدِيَ له في متحف الفنّ الحديث»(300) «Le contenu «effectif» de

---

(299) Denis Langlois, *Guide du citoyen face à la police*, l'histoire immédiate (Paris: Editions du Seuil, 1980), p. 157.

(300) نقلاً عن جريدة: *Le Monde* (15 sept. 1980).

cette brochure est en rapport étroit avec les monuments que font voir mes bateaux. Ainsi je fais allusion à la France libre en parlant de la statue de Bourdelle qui lui est dédiée, au Musée d'art moderne). وعليه، تقع الخصومة القانونيّة بين الطرفَين المتنازعَين على مستوى ملاءمة التفسيرات المُجرَّمة على الصعيد الرّسميّ بالحدّ الأدنى.

5. وأخيراً، تنتمي قوانين الخطاب إلى حقل علم الاجتماع، إذ، مثلما يُبرهنه غوفمان بمنتهى الوضوح، إنَّ عدداً مُعيَّناً منها ليس سوى تطبيقٍ للمبادئ التي ترعى مجمل التصرُّفات الخطابيّة المبدئيّة على حالة التفاعلات الاجتماعيّة الخاصّة. وإليكم المثل الآتي:

ـ أترغبين في القليل من الخمر، قال أرنب آذار بلطفٍ.

فحانت من أليس نظرةٌ متفحِّصةٌ إلى المائدة لكي تتبيَّن ما وُضِعَ عليها، ولكنَّها لم تجد سوى الشاي:

ـ لا أرى خمراً على المائدة، قالت أليس.

ـ هذا صحيحٌ، لا يوجد خمرٌ على المائدة، أجاب أرنب آذار.

ـ يتنافى إذاً وأصول اللّياقة أن تعرضه عليَّ، قالت أليس مُغتاظةً.

ـ ولم يكن كذلك لائقاً كثيراً من قبلك أن تجلسي إلى مائدتنا ونحن ما دعوناكِ لمجالستنا، ردّ عليها أرنب آذار[301].

(- Un peu de vin? demanda le Lièvre de Mars d'un ton aimable.
Alice examina ce qu'il y avait sur la table, mais elle ne vit que du thé :
- Je ne vois pas de vin, fit-elle observer.
- Il n'y en a pas, dit le Lièvre de Mars.
- Alors ce n'est pas très poli de m'en offrir, dit Alice avec indignation.
- Ce n'était pas très poli non plus de vous asseoir à notre table sans y avoir été invitée, dit le Lièvre de Mars).

يُشبِّه الأرنب بصوابِ وقاحةَ سلوكٍ معيَّنٍ بوقاحة انتهاك قانون النزاهة. وتتمثَّل هذه الوقاحة هنا في فعل العَرْض الكلاميّ المنطوق. وفي الواقع، يُحاكي

(301) مثلٌ مأخوذٌ عن: Carroll, *Lewis Carroll. Alice au pays des merveilles et De l'autre côté du miroir = [Alice in Wonderland et Through the Looking-Glass]*, p. 86.

النظام البلاغيّ التداوليّ التواصليّ قانونَي آداب التصرُّف والتهذيب، وتتماهى كذلك أصول حسن القول مع أصول حسن التصرُّف.

«ولكن كيف يتعيَّن تأويل [...] التبادلَين التاليَين؟ ألا وهما:

- تحيَّاتي واحترامي لامبير - مرحباً سيِّدي المدير .Mes respects, Lambert») - Salut, Monsieur le Directeur»).

- تفضَّل بالوقوف أيُّها المتَّهم - أمهلني دقيقةً يا حضرة القاضي Accusé, je») .vous prie de vous lever. - Une minute, juge»)

ولكن ما هو التعليق الذي يجدر بنا اللّجوء إليه لتفسيرهما؟ هل يتمُّ باسم القواعد الألسنيّة اللُّغويّة إعلان أنَّ هذَين الحوارَين غير متَّسقَين؟ أشكُّ بذلك، فالمسألة تتعلَّق بقواعدَ اجتماعيّةٍ وحدها تجلّياتُها كلاميّة. بيد أنَّ تأويل الخطاب ووصفه وصفاً كليّاً يفرضان علينا إيلاءها الاهتمام. وهكذا، نتوجّه على ما يبدو نحو ألسنيّةٍ تضخُّميّةٍ في ظلّ مغالاةٍ موسوعيّةٍ. وثمّة العديد من أنماط التبادلات الكلاميّة التي نعتبرها غير مقبولةٍ وفقَ ما تُمليه علينا كفاءتنا، أو على الأصحّ إحدى كفاءاتنا. وإن كنّا نرغب في مواصلة استعمال هذا التصوُّر، سيتعيَّن علينا ذات يوم ترسيم حدود الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة»، فالقضيّة التي يُثيرها في هذا الصدد روجيرو[302] (Roggero) هي على جانبٍ من الأهميّة، ولقد فضَّلنا بالنّظر إليها ابتكار كفاءةٍ تتألَّف من مجموعة قوانين الخطاب وتتمايز عن الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة. ولكن في الحقيقة، لا تقلّ هذه القوانين عنها مُلاءمةً على الصعيد الألسنيّ اللُّغويّ، لأنّها تتدخَّل تدخُّلاً حاسماً في تأويل الأقوال. وعليه، لا يسعنا سوى مشاطرة روجيرو «حيرته»، وهو يخلصُ[303] إلى الاستنتاج الآتي: «ما تقدَّمنا به آنفاً يُترجم الحيرة التي تُخالج الألسنيّ اللُّغويّ المتخصِّص في هذا المجال أمام تطوُّرات الأبحاث الحديثة التي تنضوي تحت جناح الألسنيّة. ويبدو أنَّ هذا الموضوع لا يزال بحاجةٍ إلى تحديدٍ، ولا ينفكّ العلم متردِّداً حياله، فالمسألة لا تتعلَّق فقط بتوسيع المضمار، أي إنَّ المسألة ليست مسألة كمٍّ، ولو كان الأمر كذلك لكانت أقلّ أهميّةً، بل تتجلّى الإشكاليّة على الشّكل الآتي: كلّما عدّلنا الموضوع، أي بكلامٍ آخر، كلّما أضفنا إليه من دون أن نختزلَ منه،

---

(302) Jacques Roggero, «La Méthode du discours ou le fantôme de la philologie,» *Explorations linguistiques et stylistiques*, travaux XXII (1978), p. 138.

(303) المصدر نفسه، ص 143.

تُصبح فجأةً المنهجيّة المُطبَّقة، عند بلوغها مرحلة معيَّنة، غير مُجديةٍ وحتّى ركيكةً، فنحتاج عندئذٍ لمنهجيّةٍ أخرى تعمل على مضمارٍ جديدٍ، ولكنَّها تكون في المقابل غير قابلةٍ للتطبيق بمفعولٍ رجعيٍّ على المضمار الآخر، لدرجة أنَّنا نقع على تجاورٍ منهجويٍّ يُعيد البحث في الوحدة البحثيّة العلوميّة لما نُطلق عليه اسم الألسنيّة». ولكنَّنا نُجيبه أنَّه بانفتاح الألسنيّة بعزمٍ على المُعطيات السياقيّة، من خلال الشروط المؤسَّساتيّة لأفعال الكلام بوجه الخصوص، فهي تخسر بلا ريبٍ على صعيد «الوحدة البحثيّة العلوميّة» والمنهجويّة، إلاّ أنَّها تربح بوفرةٍ على صعيد إثارة الاهتمام والملاءمة. ومن وجهة نظرنا، تكون المحصِّلة النهائيّة إيجابيّةً للغاية بوجه الإجمال.

2. شروط تطبيقها

ثمّة إشكاليّةٌ مُحيِّرةٌ أيضاً، ألا وهي: لقد سبق لنا وذكرنا في مرحلةٍ سابقةٍ في معرض الحديث عن كلِّ قانونٍ من قوانين الخطاب هذه، أنَّ التسليم بمثل هذه المبادئ التي يستبطنها المتكلِّمون على شكل كفاءةٍ ويلجأون إليها بانتظام - ولكن ليس بمنهجيّةٍ - هو أمرٌ لا مناص منه بغية إظهار عددٍ معيَّنٍ من الظواهر اللُّغويّة؛ وبناءً على ذلك، نستنتج تالياً ما يلي: إنَّ صحَّة هذه القاعدة هي نسبيّةٌ تماماً، وهي خاضعةٌ لشروط تطبيقٍ من العسير عموماً تفسيرها...

نخلصُ ممّا تقدَّم أنَّ المسألة تتعلَّق، إن جاز التعبير، بـِ «تأمُّلاتٍ تطبيقيّةٍ» تشكِّل بالنسبة إلى التواصل شروطَ الممكن وأسباباً وقتيّةً في آنٍ.

وإليكم بعض جوانب هذه الإشكاليّة التي من شأنها أن تُبيِّن مدى تعقيد طريقة عمل هذه القواعد البلاغيّة التداوليّة التواصليّة، وأبرزها:

1. لكلٍّ منها نقيضها: يجب أن يكون المرء شموليّاً من دون أن يُغالي في ذلك. وينبغي عليه الإشادة بوجه الشخص الآخر الإيجابيّ وعدم تمجيد وجهه الخاصّ بشكلٍ فاضح. ولكن حذارِ لأنَّ الإجزال بالمدح والمبالغة بالتواضع يُفرزان تأثيراً سيِّئاً. وبموازاة ذلك، تُشكِّل «الملاءمة المُفرَطة» من وجهة نظر فرانسوا أرمنغو (François Armengaud) إهانةً تواصليّةً (وهو يقول بشأنها ما يلي[304]: «تُقصي ملاءمة الأشخاص الحريصين الخطِرة المُحاوِر وتضعه بين سندان الخضوع

(304) François Armengaud, «L'Impertinence x-communicative ou comment annuler la parole d'autrui,» *Degrés*, vol. 9, nos. 26-27 (printemps-été 1981), p. 20.

إلى ملاءمة الشخص الآخر أي الانقياد إلى تفاهته ومطرقة عدم الملاءمة المُنقِذَة ولكن التهميشيّة، فأسوةً بعدم الملاءمة، قد تكون كذلك الملاءمة المُفرَطة ذات طابع تواصليٍّ سابقٍ). أمّا من وجهة نظر فيلينت (Philinte)، فيندرج فائض النزاهة في خانة الإهانة التواصليّة أيضاً (كما في المثل التالي المستوحى من المشهد الأوَّل من الفصل الأوَّل من مسرحية «كارهِ المُجتمع» (Misanthrope)، ألا وهو:

ثمّة حالاتٌ تكون فيها الصراحة

غير مرحَّبٍ بها وعلى جانبٍ من السخافة).

(«Il est bien des endroits où la pleine franchise
Deviendrait ridicule et serait peu permise»).

2. ولكن ما الدافع من وراء ذلك؟ يُعزى سبب ذلك، كما يؤكِّد فيلينت في أثناء المناظرة الكبرى بينه وبين ألسيست (Alceste) حول هذا الموضوع، إلى أنَّه من واجبات مبدأ النزاهة أن يُقدِّم من باب الأولويّة ضرورات التهذيب والتمدُّن، وهذا مثلٌ على ذلك:

إن عانقكَ رجلٌ بحرارة

عليك الردّ على مبادرته بمبادرة

وتلقُّف، قدر المستطاع، حماسه بالحماسِ

فلقاء عرضه يلقى عرضاً، ولقاء تعهُّده عهداً بالإخلاصِ

[. . .]

ولكن في حال التزمنا بأصول مجتمعٍ ما ومتطلّباته

فعلينا احترام الظواهر المدنيّة التي تُمليها أعرافه وعاداته.

(Lorsqu'un homme vous vient embrasser avec joie,
Il faut bien le payer de la même monnoie,
Répondre, comme on peut, à ses empressements,
Et rendre offre pour offre, et serments pour serments.
[...]
Mais quand on est du monde, il faut bien que l'on rende
Quelque dehors civils que l'usage demande).

وعليه، تتضارب أحياناً قوانين الخطاب. وأكثر هذه التضاربات ثباتاً هو ذلك

الذي يضع قاعدة النزاهة في مواجهة قوانين اللِّياقة بمختلف أنواعها. وبالتالي، غالباً ما نكون ممزَّقين بين الرَّغبة التي تتملَّكنا تارةً في التزام جانب الصراحة، والقلق الذي يغمرنا طوراً والنابع من الرغبة في تجنيب الشخص الآخر الإهانات النرجسيّة التي تُسبِّبها، لا محال، هذه الصراحة، فلا ندِّخرُ وسعاً للتوفيق بين هاتَين الضرورتَين المتناقضتَين، مع أنَّنا عموماً نميل إلى اعتماد الثانية، فنمشي على خطى فيلينت ونقول: «ما أجمل منزلك!» («Comme c'est joli chez vous») و«تليق بك حقّاً تسريحة الشعر هذه» («Ça te va bien cette nouvelle coiffure»)، حين يكون طبعاً القول المعاكِس هو الأقرب إلى اقتناعنا الشخصيّ، فبغية صون وجه الشخص الآخر الإيجابيّ، سواء بدافع «اللِّياقة» أم «التعاطف»، نُغدق عليه بلا حياءٍ وابلاً من «أكاذيب اللِّياقة» أو «الكلمات اللَّطيفة» غير الصادقة التي يتحدَّث عنها غوفمان. وإليكم هذَين المثلَين:

المثل الأوَّل: إنَّ السؤال الجوهريّ الذي وددتُ طرحه في كتابي بعنوان **أعماق البحار**، هو التالي: ما الأجدى نفعاً؟ أينبغي علينا باسم التعاطف أن نلجأ إلى الكذب على غرار لوكا؟[305].

(«La question fondamentale que j'ai voulu poser dans les Bas-Fonds est la suivante: Qu'est-ce qui est le plus utile? Faut-il au nom de la compassion utiliser le mensonge comme Louka?»).

المثل الثاني: «هذه المرَّة المئة التي أسألك فيها أن ترافقني إلى إسبانيا... وأنتَ لا تنفكّ ترفض... وتتحجَّجُ بألف عذرٍ وعذرٍ...». هذا صحيحٌ..، فلم أتمتَّع يوماً بقدرٍ كافٍ من النذالة لإعلامها بأنَّ السفر معها يبعث في قلبي الملل... هذا ببساطةٍ كلّ ما في الأمر... ولكن مَن سيعترف يوماً بلطافة الرِّجال التي لا تخطر في بالٍ؟... ومَن سيقرُّ بلباقتهم في التظاهر وابتكاراتهم الهادفة إلى تفادي إهانة المرأة بشكلٍ لا يمكن الرجوع عنه؟... وحين اعترفتُ لها أخيراً بالحقيقة وأعربتُ عن عدم رغبتي في...[306]

(«Cela fait cent fois que je te demande qu'on aille ensemble en Espagne... Tu as toujours refusé... Inventé mille prétextes...» C'est vrai... Je n'ai jamais réussi à être assez goujat pour lui dire qu'un voyage avec elle m'ennuyait... Tout simplement... Qui rendra jamais justice à l'incroyable délicatesse des

---

(305) نقلاً عن غوركي (Gorki).

(306) مثلٌ مُقتبسٌ عن: Philippe Sollers, *Femmes: Roman* ([Paris]: Gallimard, 1983), p. 365.

hommes?... A leur ingéniosité dans la feinte et l'invention plutôt que de blesser définitivement une femme?... En lui avouant enfin la vérité: qu'on n'a pas envie...).

وهكذا، نرى أنَّ الرجال يُبدّون عموماً (باستثناء بعض الرجال الذين لا يُقهرون على شاكلة ألسيست)، عبر لطافتهم التي لا تخطر في بالٍ، دواعي المجاملة على النزاهة - حين يحقُّ لهم الاختيار على الأقلّ. أمّا سوزي الخادم، فيترك لسيِّده حسن الاختيار بالنيابة عنه حين يُفرَض عليه التخيير بموضوعٍ حسَّاسٍ، كما يلي:

سوزي: حاشا وكلاّ، فأنا مجرَّد خادمٍ، وأنتَ مولاي

ولن يكون الأمر، يا سيِّدي، إلاّ كما ترتأونه مناسباً

(SOSIE. - Non: je suis le valet, et vous êtes le maître;

Il n'en sera, Monsieur, que ce que vous voudrez),

ويوكله كذلك بتّ هذا النزاع البلاغيّ التداوليّ التواصليّ الذي يوضّحه بمكرٍ ووضوحٍ لا لبس فيهما، قائلاً:

ولكن خوفاً من أن أبدو فظّاً

أرجوك سيِّدي أن تعلمني مُسبقاً

كيف تريدني أن أجد لهذه المشكلة حلاًّ

هل أستطيع سيِّدي أن أتكلَّم ضميريّاً

أم أنَّ كبار القوم يجدون الضمير شيئاً بالياً؟

أيجدر بي قول الحقيقة، أم بعد التفكير مليّاً

هل أكتفي بالمسايرة وأصرف النظر عنها كليّاً؟[307].

(Mais, de peur d'incongruité,
Dites-moi, de grâce, à l'avance,
De quel air il vous plaît que ceci soit traité.
Parlerai-je, Monsieur, selon ma conscience,

(307) مثلٌ مأخوذٌ من المشهد الثاني من الفصل الأوّل من مسرحيّة **أنفيتريون** (*Amphitryon*).

Ou comme auprès des grands on le voit usité?
Faut-il dire la vérité,
Ou bien user de complaisances?).

ولكن، وإن كان هذا التضارب القائم بين قاعدة النزاهة وقوانين اللّياقة هو الأكثر ثباتاً، إلاّ أنّنا قد نُصادف حالاتٍ أخرى من التضاربات بين قوانين الخطاب بمختلف أنواعها، ونذكر منها:

• النزاع بين النزاهة/ والتواضع: نكبتُ عفويّاً أيَّ ثناءٍ على الذات مهما يكن، حتّى عندما نعتبر في سرّنا أنّ له مسوّغاته، لأنّه يُعدُّ تصرُّفاً خطابيّاً سمجاً. وعليه، نؤثِر على عدم التواضع الصادق اعتماد «التواضع الزائف»؛

• النزاع بين النزاهة/ والملاءمة: «يُعتبر الجواب الآتي: «بخيرٍ شكراً» («Bien merci») جواباً لاشخصيّاً، كما أنّه خير وقاءٍ من أيّ تعليقاتٍ أو تفسيراتٍ إضافيّةٍ. وفي الواقع، لا ينفكّ هذا الجواب يُشكّل الردّ الأنسب والأكثر طبيعيّةً على السؤال التالي: «كيف حالك؟» («Comment allez-vous?»)، إلاّ طبعاً في حال وجود أسبابٍ تدفعنا إلى الاعتقاد بأنَّ الشخص الذي يطرح علينا هذا السؤال يهتمّ فعلاً لمعرفة حالتنا الصحيّة»[308].

• النزاع بين الشموليّة / واللّياقة:

هب مثلاً هذه العبارة، ألا وهي: «إنَّ الطاعون، لأنَّه ينبغي تسمية الأشياء بأسمائها...» («La peste, puisqu'il faut l'appeler par son nom...»)، حيثُ يستعملُ المؤلِّف المصطلح الحقيقيّ عقب استعمال عباراتٍ للتورية (من مثل: «مرضٌ يزرع الهلع» («Un mal qui répand la terreur»)، إلى آخره). وهكذا، يتغلّب مبدأ الشموليّة والوضوح لدى مؤلّف الحكايات المذكور آنفاً على القلق الذي ينتابه بادئ الأمر والرامي إلى تجنيب المُرسَل إليه قسوة الكلمة المُحرَّمة؛

• النزاع بين الشموليّة / والإخباريّة:

إليكم على سبيل المثال العبارة التالية: «ممنوعٌ التدخين والأكل والشرب» («Défense de fumer, de manger et de boire») (وهي عبارةٌ مدوَّنةٌ في أحد

---

(308) نقلاً عن: Harvey Sacks, «Tout le monde doit mentir,» *Communications*, no. 20 (1973), p. 196.

مختبرات دراسة اللّغات)، ويُحسَمُ النزاع في هذا الصدد لصالح قانون الإخباريّة، إذ لا تُشير هذه العبارة إلى مُجمل الأفعال الممنوع القيام بها في ذلك المكان، لأنَّ حظرها أمرٌ مُسلَّمٌ به. وبالتالي، فمن غير الإخباريّ، وبناءً عليه، من غير الملائم الإدلاء بمثل هذه العبارة؛

● النزاع بين الشموليّة/ والملاءمة: وإليكم المثل الآتي:

شرع بيلي الصغير، الذي كان يستحمُّ، بالصياح.

فسارعت والدته إليه قائلةً: ماذا جرى باللّه عليك؟

بيلي الصغير: لقد دخل الصابون في عينَيّ.

والدته: لِمَ يدخل الصابون دائماً في عينَيك وليس في أيّ مكانٍ آخر...؟[309].

(Le petit Billy, qui se lave, se met à pousser des hurlements.
Sa maman se précipite - Qu'est-ce qui se passe, mon Dieu?
Le petit Billy. - J'ai du savon dans les yeux.
La maman. - Comment se fait-il que tu aies toujours du savon dans les yeux et jamais ailleurs...?).

تتظاهر الوالدة هنا بالاعتقاد بأنَّ بيلي يلتزِمُ الشموليّة، في حين أنّه ليس كذلك في الواقع، مع أنّه يراعي الملاءمة والإخباريّة، فهو لم ينوِّه إلاّ بالصابون-في-عينيه، لأنَّه المكان الوحيد الذي لا يعنيه ضمناً المقام الخطابيّ، وهو الوحيد الذي يطرح إشكاليّةً ويُفسِّر الصياح الذي استوجب على بيلي تبريره.

والحال أنَّ بيلي على حقٍّ في هذا الصدد، إذ إنَّ تأويل والدته سيِّئ النيَّة بوضوح. وفي الواقع، يُهيمِنُ مبدأ الملاءمة عموماً على قاعدتَي الشموليّة والإخباريّة. وبدورها كذلك، تُهيمن قاعدة النزاهة، في مجتمعنا على الأقلّ، على قاعدة الشموليّة. الأمر الذي يظهر على سبيل المثال أوّلاً، في واقع أنَّ الكذب بالامتناع يُعدُّ جنحةً تحادثيّةً، وحتّى قانونيّةً، أقلّ فداحةً من الكذب بالارتكاب؛ وثانياً، في واقع أنّنا نؤثِر، في إطار مجتمعنا أيضاً، الإدلاء بالأقوال التملُّصيَّة (على غرار «سيأتي بيار في فترة الظهيرة» («Pierre viendra dans l'après-midi»)) بدلاً من

---

(309) مثلٌ مأخوذٌ عن: Lucie Olbrechts-Tyteca, *Le Comique du discours*, sociologie générale et philosophie sociale (Bruxelles: Editions de l'université de Bruxelles, 1974), p. 119.

التزويد بمعلوماتٍ محدَّدةٍ أكثر إنَّما أقلّ جَزماً، فمن وجهة نظر غريس، يكون لقاعدة النزاهة الغلبة أيضاً، في بعض الحالات بالحدّ الأدنى، على قانون الملاءمة (كما يؤكِّد[310] ما يلي: «لا نُفشي سرّاً إنْ قلنا إنَّه من الضروريّ أن نراعي بعض القواعد أكثر من غيرها، فعلى سبيل المثال: يُنتقَدُ عموماً مَن يتكلَّم مطوَّلاً من دون إدراكٍ أقلّ بكثير ممّا يُنتقَد مَن يؤكِّد أمراً يعلم أنَّه خاطئٌ[311]. إلاّ أنَّه ليس من اليسير أن نضع قوانين الخطاب كافَّةً بتراتبيّةٍ، إذ إنَّ تراتبيّتها تتغيَّر تبعاً لمقام التواصل، فمثلاً: تُصاغ الأوامر بشكلٍ عامٍّ صياغةً غير مباشرةٍ ومُلطَّفةً (على غرار عبارة: «ما رأيكم لو خرجنا من هنا؟» («Que pensez-vous de l'idée que nous sortirons de là?»)، أي بكلامٍ آخر، يعمد المرء إلى تمويه نيَّته التداوليّة التواصليّة تمويهاً جزئيّاً في حالة الالتماس، ويُضحّي جزئيّاً بقانون النزاهة لصالح قانون اللّياقة (أي إنَّه يحرصُ على عدم تهديد خصوصيَّة المُحاوِر بفظاظةٍ). ولكن تُقلَبُ هذه التراتبيّة رأساً على عقب حين تقضي بعض «الاعتبارات الأعلى شأناً» بأنَّ التلاطف الرَّهيف لم يعد جائزاً، فمثلاً: إذا ما شبَّ حريقٌ، فإنَّ الصياغة الفظَّة (ألا وهي: «فلنخرج من هنا!» («Sortons d'ici!»)) تستعيد شرعيّاً حقوقها كافَّةً.

وكذلك، تكون تراتبيّة قوانين الخطاب منوطةً طبعاً بطبيعة العلاقة التخاطبيّة وبالمتكلِّمين المتفاعلين.

3. الأمر الذي يثير مسألة شموليّة هذه القواعد البلاغيّة التداوليّة التواصليّة والتي يُجيبُ عليها غوفمان وبراون وليفنسون على الشَّكل الآتي: تنتمي إجمالاً قوانين الخطاب هذه إلى «نموذجٍ مزدوجٍ» شموليٍّ.

ويؤكِّد غوفمان[312] ما يلي: «إنَّ مؤدَّى كلامي هو الآتي: الناس مُتشابهون في مختلف بقاع الأرض مهما بلغت اختلافاتهم الثقافيّة [...]. والجدير بالذكر أنَّ على المجتمعات قاطبةً أن تُهيِّئ أفرادها ليُشاركوا في اللّقاءات المراقبة ذاتيّاً، بغية الحفاظ على وضعها بصفتها كذا. وليست الآداب سوى وسيلةٍ لتدريب الفرد لبلوغ هذا الغرض».

---

(310) Grice, «Logique et conversation,» p. 62.

(311) نرى في هذا الصدد أنّ القاعدة الغريسيّة الثانية (قانون «الشمولية المُضادّة») تُفضي إلى مبدأ الملاءمة في أغلب الأحيان.

(312) Erving Goffman, *Replies and Responses*, Working Papers and Prepublications - Centro internazionale di semiotica e di linguistica; ser. C, n. 46-47 (Urbino, Italia: Università di Urbino, 1975), p. 41.

في حين يُشير براون وليفنسون[313] إلى ما يلي: «تركن التصنيفات التفاعليّة إلى المبادئ الشموليّة على نطاقٍ واسعٍ».

ولكنّهما يؤكِّدان في الوقت نفسه ما يلي: «يختلف تطبيق المبادئ اختلافاً منهجيّاً من ثقافةٍ إلى أخرى، وحتّى ضمن الثقافة عينها، باختلاف الثقافات الفرعيّة والفئات والمجموعات». وعليه، ينبغي أن نُميِّزَ في قلب الكفاءة البلاغيّة التداوليّة التواصليّة العامّة شتّى أنواع «اللّغات المحكيّة» التي لا تتطابق بالضرورة مع التفاوتات الألسنيّة اللُّغويّة، ونذكر منها:

- اختلافات لجهويّة (أي جغرافيّة)، فمثلاً:

«كان المُسافرون الوافدون من الغرب يتذمَّرون من أنَّ الصينيِّين لا يقولون أبداً ما كان يجول في خاطرهم، بل كانوا يُدلون بما يخالون أنَّ الأجانب يودُّون سماعه. أمّا بالنسبة إلى الصينيِّين، فكانوا يتذمَّرون من جهتهم من خشونة الغربيِّين وفظاظتهم»[314] «Les voyageurs occidentaux se plaignaient de ce que les Chinois ne disaient jamais ce qu'ils pensaient, mais ce qu'ils estimaient que leurs auditeurs étrangers voulaient entendre. Les Chinois, eux, se plaignaient de la rudesse et de la grossièreté des Occidentaux»). ونستنتج من هذا المثل أنَّ ما يُعدُّ تهذيباً ضمن إطار حدودٍ جغرافيّةٍ معيَّنةٍ، يُرى بعين الفظاظة ما وراءها... وكثيرةٌ هي الأمثلة عن تفاوتات الأنظمة التفاعليّة الجغرافيّة هذه، ويتنافس باتسون (Bateson) وبراون وليفنسون على إلقاء الضوء عليها (إذ إنَّهم يُميِّزون الثقافات «ذات التهذيب الإيجابيّ» في مقابل «السَّلبيّ»، وكذلك تلك ذات التهذيب «المَدين الحسيّ» («debt-sensitive») في مقابل «غير المَدين الحسيّ» («non debt-sensitive»)، إلى آخره)، فضلاً عن دوي تاكييو (Doï Takeo) الذي يروي لنا عدداً معيَّناً من المغامرات المُزعجة التي مرَّ بها والتي سبَّبها «صراع حضارتَين» لَمَسَه لمس اليد عام 1950 حين أبحر من اليابان إلى الولايات المتَّحدة، قائلاً:

---

(313) Brown et Levinson, «Universals in Language Usage: Politeness Phenomena,» in: Goody, ed., *Questions and Politeness: Strategies in Social Interaction*, p. 289.

(314) Goffman, Ibid., p. 19, n. 11.

«سأضرب مثلاً على ذلك: وقعت هذه الحادثة بعد مرور فترةٍ وجيزةٍ على وصولي. كنتُ أزور شخصاً أمريكيّاً عرّفني به صديقٌ يابانيٌّ. وبعد مضيّ بضع دقائق على محادثتنا، بادرني بالسؤال التالي: «هل أنتَ جائعٌ، أترغب في تناول بعض المثلّجات؟»، فأجبته بالنّفي مؤكّداً بأنّني لم أكن أشعر بالجوع، ظنّاً منّي أنّه من غير اللائق أن أُجيب بعكس ذلك كونها المرّة الأولى التي ألتقيه بها - وذلك على الرُّغم من أنّني كنتُ في الواقع أرحّب بتناول شيءٍ ما. وكنتُ أتوقّع أن يكرّر دعوته - مرّةً واحدةً بعد على الأقلّ. ولكنّه، لم يُصرّ عليّ لأتناول شيئاً، بل اكتفى بأن يقول لي: «كما تشاء...»، وأتذكّر أنّني ندمتُ في ذلك الوقت وكم تمنّيتُ لو أنّني أجبتُ على دعوته بالإيجاب. وفكّرتُ في قرارة نفسي بأنّه لو كان مخاطبي يابانيّاً فما كان، بدافع تهذيبه، ليكتفي بسؤال الشخص الذي يلتقّيه للمرّة الأولى ما إذا كان جائعاً، بل كان ليُحضر له بكلّ بساطةٍ شيئاً ما ليتناوله»[315] («Je donne un exemple: c'était peu de temps après mon arrivée. Je rendis visite à un Américain, à qui j'avais été présenté par un ami japonais. Après quelques minutes de conversation, il me demanda: «Avez-vous faim, prendrez-vous une glace?» Je répondis que non, je n'avais pas faim, croyant qu'il serait malséant de dire le contraire, étant donné que c'était la première fois que je le rencontrais - et cela malgré le fait que j'étais effectivement plus ou moins disposé à prendre quelque chose. Je m'attendais vaguement à ce qu'il renouvelât sa proposition - au moins une fois. Mais, sans plus insister, il se contenta de me dire: «Comme vous voudrez...», et je me souviens d'avoir regretté à ce moment-là de ne pas lui avoir répondu oui. Je me pris à penser que si mon interlocuteur avait été japonais il n'eût jamais manqué de politesse au point de demander à quelqu'un qu'il rencontrait pour la première fois s'il avait faim; il lui eût tout simplement offert quelque chose»). وبعد أن ضرب مثلاً إضافيّاً عن خيبةٍ مماثلةٍ، خلُص دوي تاكييو إلى الاستنتاج الآتي[316]: «برأيي، يُعزى سبب ذلك

---

(315) Takeo Doi, *Le Jeu de l'indulgence: Etude de psychologie fondée sur le concept japonais d'amae = Amae no Kôzô*, trad. par E. Dale Saunders (Paris: Le Sycomore: L'Asiathéque, 1982), p. 13.

(316) المصدر نفسه، ص 14.

بالتأكيد إلى قلّة إلمامي باللّغة الإنجليزيّة في تلك الحقبة. مع أنّه قد انتابني شعورٌ مُبهمٌ بأنّ المسألة لم تكن تتعلّق بمجرّد حاجزٍ لغويٍّ».

في الواقع، إنّ المسألة أكبر من ذلك، فنحن لا نواجه صعوبةً في التسليم بأنّ شعوب العالم لا تنطق باللّغة نفسها[317]، وذلك لأنّنا تعلّمنا هذا الأمر منذ نعومة أظافرنا؛ إلاّ أنّنا في المقابل نُبدي بعض المقاومة في التسليم بوجود تفاوتٍ بين المبادئ التي ترعى التصرُّفات التفاعليّة الكلاميّة منها وغير الكلاميّة، ومردّ ذلك إلى أنّ أحداً لم يلفت انتباهنا إلى هذا الأمر، وإلى أنّنا بقدر ما نتمسّك بالقواعد التي انطبعنا عليها، بقدر ما تغدو الكفاءة المُرتبطة بهذه القواعد مُضمرةً أكثر (فعلى سبيل المثال، يشقُّ علينا التسليم بهذا الواقع المُضلِّل بكلّ ما للكلمة من معنى، ألا وهو: من رابع المستحيلات، أن يقرَّ الشخص الذي تستدلّون منه على الطريق في بعض مناطق أفريقيا الشماليّة، بأنّه يجهله؛ فهو سيُرشدكم دائماً وسيزوّدكم بتفاصيل قويّةٍ - مع احتمال أن يُرسلكم إلى مكانٍ أبعد ما يكون عن المكان المنشود). وتوقِعنا مثل هذه التفاوتات في الحيرة بادئ ذي بدءٍ، لأنّه يخالجنا شعورٌ غامضٌ بأنّ المسألة تتعلّق بظواهر جوهريّةٍ غير قابلةٍ للوصف وغامضة ومُقلقة، ناهيك بأنّها مصدر حالاتٍ جمّةٍ من سوء التفاهم وردود الفعل التي تُظهر كرهاً للأجانب (ويؤكّد براون وليفنسون، ما يلي[318]: «يضعنا هذا النظام في صورة السُّبل التي تتباين بموجبها المجتمعات على الصعيد التفاعليّ، فضلاً عن أنّه يُظهر إمكانيّات حدوث حالات سوء تفاهمٍ لا تُعدّ ولا تُحصى أثناء تقاطع الثقافات»).

وإليكم لائحةً تضمّ بعض الكليشهات الإثنيّة المتعلّقة بطريقة عمل «تقاطع» قوانين الخطاب «الثقافيّ»، وأبرزها:

سينتهك الفرنسيّون قانون الشموليّة بطيبةٍ خاطرٍ لأنّهم يُكنّون للإغراق معزّةً خاصّةً (فمثلاً: هم مُعتادون، كما لفت انتباهنا أكثر من شخصٍ أجنبيٍّ، عندما يجدون أنّ شيئاً ما هو في منتهى الجمال أو في غاية القبح أن يقولوا عنه ما يلي:

---

(317) حدث ذات مرّة أن استوقفنا مُسافرٌ في عمق أعماق أفغانستان ليستقلّ السيارة معنا، وهو لكثرة ما كان ثرثاراً، أمضى اليوم كلّه برفقتنا من دون أن يتنبّه بوضوحٍ إلى أنّنا لم نكن نفهم اللّغة التي كان يتكلّم بها.

(318) Brown et Levinson, «Universals in Language Usage: Politeness Phenomena,» in: Goody, ed., *Questions and Politeness: Strategies in Social Interaction*, p. 258.

«ليس الأمر رديئاً» («C'est pas vilain»)، و«ليس الأمر مَهولاً» («C'est pas terrible»). وكذلك، فمن وجهة نظر الأب لامي[319] (Lamy)، سينتهك «الشرقيّون» كذلك قانون الشموليّة هذا لأنّهم اعتادوا الحذف، وهو يؤكِّد ما يلي: «هذه الصورة البيانيّة هي جدّ مألوفةٍ في اللّغات الشرقيّة، فشعوب الشرق شعوبٌ متحمِّسةٌ ونزِقةٌ، وبالتالي، فإنَّ الحماسة التي يتكلَّم بها الشرقيّون لا تتيح لهم المجال لقول ما يكون مُضمَّناً بين السطور».

(وإليكم أيضاً هذا المثل الذي ينقل حادثةً وقعت منذ زمنٍ ليس ببعيدٍ، فها هو جاك روسكيو (Jacques Ruscio)، وهو مراسل جريدة *L'Humanité* في هانوا (Hanoï) أثناء وقوع الحوادث المُشار إليها، يُبرِّر أمام جان نويل دارد[320] (Jean-Noël Darde)، «صمته المتواطئ» بشأن سقوط «فنوم بين» (Phnom Penh)، قائلاً: «[...] كان من المُستبعد أن تسقط **فنوم بين** بغير سلاح الجيش الفييتناميّ. ولكنّني طبعاً لم أورد ذلك في مقالتي لأنَّ أصدقاءنا الفييتناميِّين كانوا إمّا يُحجمون عن الإدلاء بأيّ تصريحٍ أو ينكرونه بشراسةٍ وبكثيرٍ من رباطة الجأش. ويُعزى سلوك الفييتناميِّين هذا إلى أمورٍ جمّةٍ، من جملتها إحدى العادات الفييتناميّة التي تقضي بعدم قول الأمور بشكلٍ مباشرٍ تماماً، خلافاً لما يقوم به سكّان الغرب، وكذلك إلى إحدى ممارسات الإعلام الرسميّ التي تقضي بأنَّ واقعاً ما لا يُصبح حقيقيّاً إلاّ اعتباراً من اللّحظة التي يتمّ فيها إعلانه رسميّاً»).

واللاّفت أنَّ هؤلاء «الشرقيِّين» أنفسهم يُمارسون، بحسب دو مارسيه هذه المرّة، الغلوّ على نطاقٍ واسعٍ. ويروق لهم بالتالي أن ينتهكوا أيضاً قانون «الشموليّة المضادّة»... ويُكثِرُ الإيطاليّون كذلك من استعمال الغلوّ، فيقولون مثلاً: «أنا أتضوَّر جوعاً/ ظمأً، القيظ شديدٌ، سأحبُّك حتّى الرمق الأخير» («ho una fame/sete, fa un caldo, te amo da morire»). بيد أنَّ هؤلاء الإيطاليِّين يحترمون قانون الإخباريّة أكثر من الفرنسيِّين، على حدّ قول ستاندال (Stendhal)، كما يظهر ذلك في المثل التالي: «ما الدافع، تساءل فابريس، لتكرار ما نعرفه نحن الثلاثة حقّ المعرفة؟ فهو لم يكن يعلم بعد أنَّ عامَّة الشعب في فرنسا

(319) الذي استشهد به لو غويرن في: Michel Le Guern, «L'Ellipse dans la rhétorique française de 1675 à 1765,» *Histoire, épistémologie, langage*, vol. 5, no. 1 (1983).

(320) في كتابه: Darde, *Le Ministère de la vérité*, p. 172.

يتوسّلون هذه الطريقة بحثاً عن الأفكار»[321] («Pourquoi répéter si souvent, se disait Fabrice, ce que nous connaissons tous trois parfaitement bien?» Il ne savait pas encore que c'était ainsi que les gens du peuple vont à la recherche des idées»).

وهم يُضحّون كذلك بطيبة خاطرٍ بقانون النزاهة لضروراتٍ عليا، بحسب هذا المثل المذكور في الصفحات الزهريّة اللّون المُخصّصة للعبارات اللاتينيّة والأجنبيّة في معجم *Le Petit Larousse*، ألا وهو: «إن لم يكن هذا الأمر صحيحاً، فهو [على الأقلّ] موفّقٌ» («Se non è vero, è bene trovato»). والأكيد على أيّ حالٍ أنّ الثقافات المُختلفة لا تتشاطر بالتساوي الحرص على احترام قانون النزاهة هذا، فمثلاً: من المعروف أنّ الهنود الأمريكيّين يجهلون الكذب، أو على الأصحّ، إنّهم يدينونه شرّ إدانةٍ، كما ينوّه تودوروف (إذ «يصعُبُ تصوُّر كلام يخلو من إمكانيّة الكذب»)، وهو يضربُ على ذلك المثل الآتي: «بحسب ألفارادو تيزوزوموك، «أصدر موكتيزوما قانوناً يقضي بأن يجرّ فتيان معهد تيبوتشكالكو مَن يصدر على لسانه كذبةٌ مهما كانت بيضاء، في الشوارع إلى أن يلفظ نفسه الأخير»»[322] («Selon Alvarado Tezozomoc, «Moctezuma fit promulguer une loi d'après laquelle quiconque dirait un mensonge, quelque léger qu'il fût, devait être traîné dans les rues par les jeunes garçons du collège de Tepochcalco jusqu'à ce qu'il eût rendu le dernier soupir»). أمّا في المجتمع البوروندي (Burundi)، فكان الأمر بعكس ذلك تماماً، إذ «لا تكتسب الحقيقة قيمةً إلاّ تبعاً للظروف، فلا وجود للحقيقة الموضوعيّة. وإنْ كانت الحقيقة تُسبِّب الإزعاج أو لا تفضي بنا إلى المُبتغى، فينبغي رَذلُها بلا تردُّدٍ، لأنّه عندئذٍ ينتفي كونها خير سلاحٍ للبقاء. أمّا بالنسبة إلى الكذب، سواء اتّخذ شكل الافتراءات أم المجاملات، فلا يسعنا في المقابل إنكار قيمته الإيجابيّة في التفاعل الاجتماعيّ. ومن هنا ينشأ المفهوم الجوهريّ الذي يُرسي أسس الممارسات التي ينتهجها البورونديّون، ألا وهو: «مهارةٌ مكتوبٌ لها النجاح» («une habileté qui réussit»)، وهم يُطلقون عليه اسم «أوبغانج» («ubgenge»)»[323].

---

(321) Stendhal, *La Chartreuse de Parme*, le livre de poche classique; 851, introduction et commentaires de Victor Del Litto (Paris: Le Livre de Poche, 1972), p. 67.

(322) Todorov, *La Conquête de l'Amérique: La Question de l'autre*, pp. 95-96.

(323) Bachmann, Lindenfeld et Simonin, *Langage et communications sociales*, pp. 68-69.

وينبغي بالطّبع التعامل مع هذه الاعتبارات كافّةً بتأنٍّ وحذرٍ. ولكن، ما هو مؤكّد أنّها تطال أسئلةً جوهريّةً نعيشها أحياناً على شكل تجاربَ حسيّةٍ مؤلمةٍ حين نُسلَخُ بقسوةٍ عن ثقافةٍ ما لنُغرَس في ثقافةٍ أخرى.

● اختلافات لغويّة اجتماعيّة.

«هكذا تجِدُ عامّة الشعب في فرنسا بحثاً عن الحقيقة» («C'est ainsi qu'en France, les gens du peuple vont à la recherche de la vérité»)، ونستنتج على ضوء هذا المثل أنّ محور الاختلافات الجغرافيّة يتقاطع في الواقع مع محور الاختلافات الثقافيّة الاجتماعيّة. ويُشكِّل مسرح ماريفو على سبيل المثال مُدوَّنةً كاملةً وممتازةً لرصد كيفيّة اختلاف تعامل المخدومين والخدَّام مع قوانين الخطاب. ونخلص منه إلى الاستنتاج الآتي: إنَّ شغل المخدومين الشاغل هو أن يجعلوا الصِيَغ الهجوميّة إغراقيّةً والصِيَغ التصويبيّة بصيغة الغلوّ، في حين يؤثِرُ الخدَّام على العكس الكلام «المباشر» وينفرون نوعاً ما من المحسن البيانيّ، وهذا مثلٌ على ذلك:

سيِّد أورغون: سيِّدي العزيز، أعتذر منك ألف عذرٍ لأنَّني جعلتك تنتظر، ولكنَّني علمتُ للتوّ أنَّك هنا.

أرلوكين: سيِّدي، ألا تجد أنَّ ألف اعتذارٍ هي أكثر ممّا ينبغي، إذ، حين يرتكب المرء خطأً واحداً، فإنَّ اعتذاراً واحداً يفي بالمطلوب(324).

(MONSIEUR ORGON. - Mon cher monsieur, je vous demande mille pardons de vous avoir fait attendre; mais ce n'est que de cet instant que j'apprends que vous êtes ici.

ARLEQUIN. - Monsieur, milles pardons! C'est beaucoup trop; et il n'en faut qu'un, quand on n'a fait qu'une faute).

فضمن نطاقٍ معيَّنٍ، يكون التهكُّم والمزحة والإغراق والتورية(325) وفقاً على «سكان المدن» وعلى لطفاء المعشر، وهذه بعض الأمثلة:

---

(324) مثلٌ مُقتبسٌ عن المشهد العاشر من الفصل الأوّل من مسرحيّة ماريفو: *Le Jeu de l'amour et du hasard*.

(325) وكذلك، تُميِّز التورية اللّغة الاجتماعية المهنيّة الخاصّة التي تتألّف منها لغة الدبلوماسيّين، فعلى سبيل المثال: عندما نتكلّم بلغة القنصلية الخاصّة عن «محادثةٍ صريحةٍ بوجهٍ خاصٍّ»، كما يلفت أحد الصحافيّين نظرنا إلى ذلك، تكون في الواقع المسألة مسألة شبه تشاتم.

المثل الأوّل: يُبعدني هذا الأسلوب في التعرُّض للآخرين بالسخريّة عن أجواء بيئتي.. ففي منزل والدَيّ، لا مكان للمزاح، فهما يأخذان الأمور دائماً على محمل الجدّ، ولا يحقّ لأحدٍ بأن يتفوّه بالحماقات حتّى لو كان ذلك بقصد التسليّة، فهم لا يعرفون التهكُّم...[326]

(«Et cette façon de se foutre des gens, qui me libère de mon milieu... Chez mes parents, on ne plaisante jamais, ils prennent tout au sérieux, pas le droit de dire des bêtises pour le plaisir, l'ironie, ils connaissent pas...»).

المثل الثاني: طُرِحَ راسي أرضاً، وهو لقلّة خبرته في الصحبة اللّطيفة، لم يحزر ما إذا كان الكونت جديّاً في كلامه أم لا، فاحمرَّ خجلاً، وتعتَعَ بعض الكلمات غير المفهومة. وكان الكونت يُراقبه، مبتهجاً برؤيته مُرتبكاً[327].

(«Le Rasi fut atterré; il avait trop peu l'habitude de la bonne compagnie pour deviner si le comte parlait sérieusement: il rougit beaucoup, ânonna quelques mots peu intelligibles; le comte le regardait et jouissait de son embarras).

المثل الثالث: هطل المطر طوال النّهار على المقاطعة بأكملها. ويعني ذلك بلغة أهل المدن أنَّ الطقس لم يصحُ مُطلقاً[328].

(«Il a plu toute la journée sur tout le territoire. En langage des villes, on pourrait dire qu'il n'a guère fait beau).

المثل الرابع: دورانت: كلّا! ولكن أيّ ضررٍ يُسبّب لك ذلك؟ وافرِض مثلاً أنَّ ليزيت تميل إليّ...

ماريو: يقول إنّها تميل إليه! من أين تعلّمت قول هذه التعابير؟ يُعدُّ كلامك متحذلقاً نسبةً إلى صبيٍّ مثلك.

دورانت: سيِّدي، لا أستطيع أن أتكلّم على نحوٍ مُختلفٍ[329].

(DORANTE. - Non; mais qu'est-ce que cela vous fait? Supposé que Lisette eût du goût pour moi...

MARIO. - Du goût pour lui! où prenez-vous vos termes? Vous avez le langage bien précieux pour un garçon de votre espèce.

DORANTE. - Monsieur, je ne saurais parler autrement).

---

(326) Annie Ernaux, *Les Armoires vides* ([Paris]: Gallimard, [1974]), p. 145.

(327) مثلٌ مُقتبسٌ عن: Stendhal, *La Chartreuse de Parme*, p. 308.

(328) من: *A 2* (12 sept. 1976).

(329) مثلٌ مُقتبسٌ عن المشهد الثاني من الفصل الثالث من مسرحيّة ماريفو *Le Jeu de l'amour et du hasard*.

ففي مسرحية «لعبة العشق والقدر» هذه للكاتب المسرحيّ ماريفو، يؤدّي الأسياد دور الخدّام والخدّام دور الأسياد. ولكن على الرُّغم من أنَّهم يؤدّون هذه الأدوار إلاّ أنَّهم يؤدُّونها بشكلٍ سيّئٍ بالأحرى، بحيثُ إنَّ طبيعتهم الاجتماعيّة تنضَحُ على الرُّغم من الجهودِ الحثيثة التي يبذلونها لإخفائها. وهكذا، تطرح سيلفيا على دورانت المتنكّر بلباس بورغينيون (Bourguignon) السؤال التالي: «ولكن ما هي هويّتك الحقيقيّة أنتَ الذي يكلّمني على هذا النحو؟» (Qui es-tu» donc toi qui me parles ainsi?»)، فأنتَ لستَ مَن تدّعيه، لأنَّ أقوالك لا تتماشى مع الهويّة التي تدَّعيها رسميّاً. لا يقوى كريمو النَّسَب إلاّ على التكلُّم بلباقةٍ، في حين لا يتحدَّث مغمورو النسب إلاّ على نحوٍ حقيرٍ وتافهٍ (وإليكم ما يقوله أورغون عن مغموري النَّسَب هؤلاء في المشهد الحادي عشر من الفصل الثاني من مسرحيّة «لعبة العشق والقدر»، ومفاده: «لا يعي هؤلاء الأشخاص تبِعة الكلمة» («Ces gens-là ne savent pas la conséquence d'un mot»)، فهم لا ينفكّون ينتهكون القاعدة الغريسيّة الرابعة)، فَحين نقتبس عن شخصٍ آخر لغته الخاصَّة، لا نكون سوى «مُتصنِّعين»، ومن هنا نستنتج ما يلي: قُلْ لي كيف تتكلَّم أقل لك مَن أنتَ.

(ملاحظة: نتحدَّثُ عموماً عن «اللّغة الاجتماعيّة» بشأن المميِّزات الخاصّة بمحيطٍ اجتماعيٍّ ثقافيٍّ مهنيٍّ مُعيَّنٍ؛ بيد أنّنا قد نُضيف إليها أيضاً - ما لم نخصِّص فقرةً خاصةً للحديث عن مختلف «اللّهجات الخاصّة بأحد الجنسَين» - الاختلافات المنوطة بجنس المتكلِّم، فمثلاً: تتَّصف النساء عموماً، بحسب ما يرد على لسان روبين لاكوف (Robin Lakoff) في كتابه بعنوان **الكلام ودور المرأة**[330]، بأنّهنَّ يفقن الرجال بأشواطٍ بعيدةٍ لجهة «تهذيبهنَّ» في انتقاء تعابيرهنَّ الكلاميّة).

● اختلافات لغويّة أيديولوجيّة، وإليكم هذَين التصوُّرَين للحقيقة:

التصوُّر الأوَّل: الحقيقية هي كلّ ما يخدمُ مصالح الثورة[331]. إن كان لا بدّ من الاختيار بين الحقيقة والثورة، فسيقع اختيارنا على الثورة[332].

(330) Robin Tolmach Lakoff, *Language and Woman's Place*, Harper Colophon Books; CN 389 (New York: Harper & Row, 1975).

(331) بحسب بريخت (Brecht).

(332) نقلاً عن مسؤولٍ شيوعيٍّ، استشهد به سياسياً (L. Sciascia).

(«La vérité, c'est ce qui sert la revolution; S'il faut choisir entre la vérité et la révolution, nous choisirons la révolution»).

التصوُّر الثاني: وحدها الحقيقة تكون ثوريّةً[333]. مهما تكن الحقيقة، فهي لا تكون بذيئةً[334].

(«Seule la vérité est révolutionnaire; La vérité, quelle qu'elle soit, n'est jamais obscène»).

فبين تصوُّرَيّ الحقيقة هذَين الواقعَين على حدَيّ نقيضٍ، أي بين طريقتَي عمل قانون النزاهة (الذي يكون له الغلبة المُطلقة في حالة مثلَي التصوّر الثاني، في حين أنَّه يخضع في حالة مثلَي التصوُّر الأوَّل إلى المصالح العليا)، يكون الخيار رهن على كفاءة المتكلِّم الأيديولوجيّة (أي على «لغته الأيديولوجيّة») وحدها.

ولكن، حتّى وإنْ كانت المصالح العليا المطروحة ذات طابعٍ مغايرٍ، إلاّ أنَّ المسألة تتعلَّق في الواقع بالجدل نفسه الذي دار بين ألسيست، وهو المُدافع الشرس عن النزاهة مهما كان الثمن، وفيلينت الذي يقول بوجوب الاستسلام أحياناً لضرورات المجاملة الاجتماعيّة والتواصل التماثليّ[335]، كما في المثل الآتي:

ألسيست: حبَّذا لو يكون المرء صادقاً، وباعتباره رجل شرفٍ وعزَّة

ألاّ ينطق إلاّ بالكلمة التي تكون من القلب نابعة

فيلينت: إن عانقك رجلٌ بحرارة

---

(333) بحسب غرامشي (Gramsci).

(334) نقلاً عن سيرج جولي (Serge July).

(335) تنحاز الماركيزة دو مورتوي إلى حزب فيلينت، عندما توصي سيسيل فولانج بما يلي: «تعلمين جيّداً أنّه حين تراسلين أحداً ما فأنتِ تكتبين له وليس لك، وبالتالي عليك كبح نفسك عن قول ما يجول في خاطرك وأن تقولي له ما يودّ سماعه» (مثلٌ مأخوذٌ من كتاب: (Laclos, *Les Liaisons dangereuses*, p. 334. «Vous voyez bien que, quand vous écrivez à quelqu'un, c'est pour lui et non pas pour vous: vous devez donc moins chercher à lui dire ce que vous pensez, que ce qui lui plaît davantage»).

أمّا بالنسبة إلى روسو الذي يُجاهر بحميّةٍ بأنّه من مناصري قاعدة النزاهة، ويتساءل مطوّلاً (أثناء نزهته الرابعة في كتابه **هواجس متنزِّهٍ وحيدٍ** (*Rêveries du promeneur solitaire*)) ما إذا كان انتهاك هذه القاعدة مشروعاً في بعض الأحيان، وينتهي أخيراً بأن يُسلّم استثنائيّاً بإمكانيّة وجود «الأكاذيب التي يُمكن المُسامحة عليها».

عليك الردّ على مبادرته بمبادرة
وتلقُّف، قدر المستطاع، حماسه بالحماسِ
فلقاء عرضه يلقى عرضاً، ولقاء تعهُّده عهداً بالإخلاصِ
[. . .]
ألسيست: بل على العكس، لا ينبغي التهاون على الإطلاق
في عقاب هذا النوع من الصداقة المبنيَّة على النِّفاق
فإن كان الرجل رجلاً، عليه عند كلّ لقاء
أن يكون قلبه وراء لسانه، فيتكلَّم بلا رياء
ولا بدّ أن يكون المرء صادقاً مع نفسه، فإن حكى
طرح جانباً المجاملة الزائفة التي لا فائدة منها ترتجى(336)

(ALCESTE. - Je veux qu'on soit sincère, et qu'en homme d'honneur,
On ne lâche aucun mot qui ne parte du cœur.
PHILINTE. -
Lorsqu'un homme vous vient embrasser avec joie,
Il faut bien le payer de la même monnoie,
Répondre, comme on peut, à ses empressements,
Et rendre offre pour offre, et serments pour serments.
[...]
ALCESTE. -
Non, vous dis-je, on devrait chattier, sans pitié,
Ce commerce honteux de semblants d'amitié.
Je veux que l'on soit homme, et qu'en toute rencontre
Le fond de notre cœur dans nos discours se montre,
Que ce soit lui qui parle, et que nos sentiments
Ne se masquent jamais sous de vains compliments).

● اختلافات لغويّة محكيّة: تقع اللّغة المحكيّة عند نقطة تلاقي اللّغات الآنفة الذكر كافَّةً، بيد أنَّه يتمّ تحديدها بالإضافة إلى ذلك (كما هو الحال كذلك في ما يتعلّق بالتصرُّفات الخطابيّة المتعارِضَة التي ينتهجها كلّ من ألسيست وفيلينت) على ضوء خصائص المتكلّم «السيكولوجيّة».

(336) الجدير بالذكر أنّ ألسيست يُماثل في هذا الصدد، كما هو شائعٌ، المُجاملة بالإطراء.

والحال أنَّ المرء قد يكون، كما سبق وأشرنا، ذا طبع متعاونٍ أو محوريٍّ ذاتيٍّ، مهذَّبٍ أم بذيءٍ، مُقتضبٍ أم مِهذارٍ، متواضعٍ أم مدَّعٍ، وذلك بدرجاتٍ متفاوتةٍ. هذا وقد يكون أيضاً سريع التأثُّر وغيُوراً على خصوصيَّته بدرجاتٍ متفاوتةٍ كذلك (أي إنَّه قد يكون سريع الانفعال إزاء ما يمسُّ وجهَيه الإيجابيّ والسَّلبيّ على حدٍّ سواءٍ). وأخيراً، قد يقبَل المرء قانون الخطاب هذا أو ذاك المرعيّ الإجراء في محيطه الاجتماعيّ أم قد يرفضه، فيستطيع مثلاً:

إمّا رفض قانون «اللّياقة» لحساب قانون الصّراحة وحده، كما في المثل الآتي: «لم تكن توارب مع أحدٍ في الكلام، فعندما كانت تلتقي برجلٍ قبيحٍ [...] لم تكن تتوانى عن أن تقول له على الفور: «أنتَ قبيحٌ»»[337] («Elle ne cachait jamais rien à personne. Quand elle trouvait un homme laid [...], elle lui disait aussitôt: Monsieur, vous êtes laid»)، أو لحساب مصالحَ جدليّةٍ متنوّعةٍ. وهكذا، تتميَّز مثلاً رسالة الهجاء والخطابات التطرُّفيّة باستعمالها المُفرط للتعابير المُهينة بقسوةٍ (كأن يستعمل المتكلِّم تعابير من مثل: «قمل» («poux») و«أوباش» («racaille») و«أفعى» («vipère») و«ضبع» («hyène») و«جرذٌ دبقٌ» («rat visqueux») و«ابن آوى نَتِنٌ» («chacal puant»))، من دون أن تتكبَّد مشقّة احترام مبدأ مراعاة وجهَي الشخص الآخر...

أو رفض قانون «الأزهار»، وإليكم هذَين المثلَين:

المثل الأوّل: سوزي: [...] أنا وهو جُبلنا من الرأس حتّى أخمص القدمَين في القالب نفسه

فجماله أخَّاذٌ وقدُّه ميّاسٌ وعلى محيّاه سيماء النبل وطيِّبٌ معشره[338]

(«SOSIE. - [...] Des pieds jusqu'à la tête, il est comme moi fait,
Beau, l'air noble, bien pris, les manières charmantes»).

المثل الثاني: [...] إنَّ وقع اسمي وحده كفيلٌ بتقويض الأسوار وهدمها

ودحر الأساطيل، وتحقيق النصر في المعارك وحسمها

(337) Besson, *Lettre à un ami perdu*, p. 76.

(338) من المشهد الثاني من الفصل الأول من مسرحية **أنفيتريون**.

فشجاعتي التي لم يقوَ الزمن عليها ولا نجح الأباطرة في قهرها
لا تُجنِّد في المعركة سوى أقلّ من نصف غضبها
فبأمرٍ واحدٍ منّي للغزّالة الثلاثة ربّات نسج خيوط الحياة البشريّة
أُخلي بلاد أكثر الملوك المحظيّين وأهزّ عروشهم العليّة
فالصاعقة السريعة الخاطفة مدفعي والأقدار جنودي
وأطرح ألف عدوٍّ أرضاً بضربةٍ واحدةٍ من ظاهر يدي(339)

(«MATAMORE. - [...] Le seul bruit de mon nom renverse les murailles,
Défait les escadrons, et gagne les batailles.
Mon courage invaincu contre les empereurs
N'arme que la moitié de ses moindres fureurs;
D'un seul commandement que je fais aux trois Parques,
Je dépeuple l'État des plus heureux monarques;
La foudre est mon canon, les Destins mes soldats:
Je couche d'un revers mille ennemis à bas, [...]).

- ثمّ تنتقل عدوى الهذيان المُصاب بجنون العظمة من موضوع الغزو العسكريّ لتُصيب موضوع غزو قلوب النساء.

ويُشكِّل ذلك، كما نعلم، مقوِّماً أساسيّاً من مقوِّمات «مجموعة الخصائص البلاغيّة التداوليّة التواصليّة العامّة» التي يتّصف بها «المُتبجِّح» في مسرحية «مُحِبّ التبجُّح» (Miles gloriosus) الذي يتمثّل بهذا النزوع الطبيعيّ لانتهاك قانون الأزهار انتهاكاً جديراً بالمُراقبة. وكذلك، يطبع هذا المقوِّم تصرُّفات بعض «الشخصيّات الشهيرة»، على شاكلة سيرج ليفار(340) (Serge Lifar) حيثُ يقول: «يكمن عيبي في أنّ الشخص الذي أنا من أشدّ المعجبين به والذي أنظر إليه بعين الاحترام، هو أنا نفسي! فأنا كأنطونين أرتو الذي كان يقول: «أنا أشاهد أنطونين أرتو!» حسناً، فأنا، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، أشاهد سيرج ليفار - وصدِّقوني، إنّه عرضٌ يخطفُ الأنفاس!» («Mais mon défaut, c'est que sans doute l'homme que j'admire et considère le plus, c'est moi! Je suis comme Antonin Artaud

(339) مقتبس من المشهد الثاني من الفصل الثاني من مسرحية **الوهم الهزلي** (*L'Illusion comique*).
(340) Serge Lifar, *Les Saisons de danse*, no. 162 (10 mars 1984), p. 34.

qui disait: 'J'assiste à Antonin Artaud!» Eh bien, plus que jamais, j'assiste à (Serge Lifar - et croyez-moi, c'est un sacré spectacle!»)، أو حتّى أرنولد شوارتزنيغر (Arnold Schwarzenneger) «المُذهل» (Le Magnifique)، وهو نجم التربية البدنية التحليلية الأوّل الذي حاشا وكلاّ أن يعتذِرَ عن وصف نفسه بالمُذهل كما لو كان هذا اللّقب «عيباً»، بل إنّه يُجاهِرُ بعدم تواضعه ويعتبر قانون الأزهار بمثابة الدّجل حين يُخالف قاعدة النّوع، لأنّه يُكرِهُنا على اعتماد خُبث التواضع الزائف، كما في المثل الآتي:

مجلّة *Muscles and Fitness*: ألستَ موهوباً في الترويج لذاتك؟

أرنولد: أنا أعلم ببساطةٍ أنّني مُذهلٌ [«عظيمٌ»]، وأنّني بطلٌ. يمدّني ذلك بالثقة بالنفس، ممّا يُسهّل عليَّ الترويج لنفسي.

مجلّة *M. F.*: ألا تخاف أن يُفهم كلامك باعتباره متبجّحاً [«كثير الادّعاء»] بشدّةٍ؟

أرنولد: بل على العكس. إنّ قوام التبجُّح أن يمتدح المرء نفسه بما لا يستحقُّه. أمّا إذا كان الإنسان جيّد المعدن، فمن الطبيعيّ أن يُخبِرَ العالم أجمع بذلك، فثمّة العديد من الأشخاص الجيّدي المعدن حقّاً، ولكنّهم لا يجرأون على قول ذلك لأنّهم يعتقدون أنّ الآخرين سيخالونهم يتبجّحون. أمّا أنا، فأعتقد أنّ على المرء، حين يكون مُذهلاً حقّاً، أن يُظهر ذلك، فأنا ضدّ التواضع الزائف[341].

(M.F. - N'avez-vous pas un talent formidable pour l'auto-promotion?

ARNOLD. - C'est simplement que je sais que je suis formidable [«great»], que je suis vrai champion. Cela me donne confiance, si bien qu'il me devient facile de faire ma propre publicité.

M.F. - N'avez-vous pas peur que de tels propos passent pour horriblement suffisants [«egoistical»]?

ARNOLD. - C'est juste le contraire. La suffisance, c'est quand vous vous faites mousser sans le mériter. Si vous êtes vraiment bon, c'est naturel de le faire savoir. Bien des gens qui sont vraiment bons n'osent pas le dire, parce qu'ils pensent qu'on va croire qu'ils ne font que se vanter. Moi je pense que quand on est formidable, on doit le montrer. Je suis contre la fausse modestie).

وبنوعٍ خاصٍّ أكثر بعد، يكون استعمال قوانين الخطاب وَقفاً على مزاج

(341) مثلٌ مُقتبسٌ عن مجلّة: *Muscles and Fitness* (mars 1982), p. 39.

المتكلِّم وحالته العاطفيّة حين يحين دوره في الكلام، كما في المثلَين التاليَين:

المثل الأوَّل: عجباً! لا يتعب العشَّاق مطلقاً من الثرثرة(342).

(«Ah! Jamais les amants ne sont las de jaser»).

المثل الثاني: كم من الثرثرة تعتمل في صدرك يا شقيقتي! يا لفصاحتك!(343).

(«Ah! Ah! Ah! Que ton Coeur a de caquet, ma soeur! Quelle éloquence!).

وبالطبع، يكون أيضاً استعمال هذه القوانين رهن مقام التفاعل ووضع المتكلِّمين المتفاعلين المؤسَّساتيّ، ناهيك عن الصورة التي رسمها المتكلِّم في مخيِّلته عن شريكه الخطابيّ، فإن كان يحسبه متباهياً بنفسه، ويرغب في إبقاء علاقته به طيِّبةً، فهو سيميل إلى الإكثار من مراعاة وجهه الإيجابيّ، لا بل الإشادة به بلا حياءٍ. أمّا إذا كان يعرفُ أنَّ شريكه الخطابيّ بليد الذِّهن بشكلٍ خاصٍّ، فهو لن يتردَّد في أن يُضمِّن خطابه نسبةً من الإطناب تفوق الحدَّ الطبيعيّ، كما يظهر في المثل الآتي:

لقد رأيتُه، أجزم بأنَّني رأيتُه بأمّ العين

رأيته بكلّ ما للكلمة من معنى. أعليَّ أن أكرِّر ما قلته

مئة مرَّةٍ على مسمعك وأشرحه لك بالتفصيل لكي تفهمه(344).

(«Je l'ai vu, dis-je, vu, de mes propres yeux vu,
Ce qu'on appelle vu. Faut-il vous le rabattre
Aux oreilles cent fois et crier comme quatre?).

وعليه، تخضع طريقة عمل قوانين الخطاب إلى متاهةٍ من العوامل التي لا يَسهُل دائماً حلَّها(345). وباعتبار أنَّ ترميز هذه المبادئ التفاعليّة هو مشوَّش

(342) مثل مأخوذ عن المشهد الأول من الفصل الثالث من مسرحية *Le Tartuffe*.

(343) مثلٌ مُقتبسٌ عن المشهد الرابع من الفصل الثالث من مسرحيّة ماريفو: *Le Jeu de l'amour et du hasard*.

(344) مثلٌ مأخوذٌ من المشهد الثالث من الفصل الخامس من مسرحية *Le Tartuffe*.

(345) إليكم أيضاً عاملاً إضافيّاً، ألا وهو: موقع فعل الكلام في التفاعل الإجماليّ، فمثلاً:

ـ «عليكِ أن تقصّي شعركِ»، قال القبّعاتيّ. وكان يُحدِّق بأليس بفضولٍ شديدٍ منذ بعض الوقت، وكانت هذه العبارات الأولى التي يوجِّهها إليها.

ـ لا يجدر بك أن تُبدي ملاحظاتٍ شخصيّةً للأشخاص، ردّت أليس بصرامةٍ، فهذا أمرٌ غير لائقٍ (ص 86-87) =

ومُلزِمٌ، نلاحظ أنَّها تُنتَهَكُ بتلازم وبمنتهى السهولة تقريباً في التواصل الفعليّ، من دون أن يتَّضح دائماً وبصورةٍ جليّةٍ إلى أيّ عاملٍ من هذه العوامل ينبغي أن نعزو الوقائع التي تمّ رصدها[346].

3. انتهاك قوانين الخطاب

ـ يؤكِّد غريس[347] ما يلي: «يُراعي المتكلِّمون المتفاعلون بشكلٍ نموذجيٍّ (أي بالتالي بشكلٍ غير ثابتٍ) لدى التبادل الكلاميّ»، القواعد التحادثيّة. وتعني عبارة «بشكلٍ غير ثابتٍ» («pas invariablement») أنَّ هذه القواعد هي في الواقع قابلةٌ للانتهاك أكثر من القواعد المُستمدَّة من الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة على أيّ حالٍ، وذلك من حسن الحظّ. وكونها تتضارب غالباً إحداها مع الأخرى[348]، ففي حال كان إلزاميّاً على المتكلِّمين احترامها كلّها، فسيجدون أنفسهم في وضع الالتزام المزدوج الدائم، وكلُّنا يعرف التبعات السيِّئة التي يجرُّها على الأشخاص الذين يخضعون له... ولكن في حال وُجِدَ الالتزام المزدوج، فهو التزامٌ مزدوجٌ «هشٌّ» نوعاً ما، لأنَّ هذه القواعد لا تطغى إلى درجةٍ نكون فيها عاجزين عن التحايل والتذبذب واعتماد مختلف أنواع استراتيجيّات التسويّة ـ بحيثُ يُمكن للمرء مثلاً أن يبدو صريحاً من دون أن يوصف بالأخرق، ومتواضعاً من دون أن يظهر بمظهر «المتصنِّع»، و«مؤدَّباً» من دون أن يبدو عديم الاستقامة ـ فيخرج بكرامةٍ من ورطة هذا العمل البهلوانيّ الذي تفرضه عليه الاستعمالات اللُّغويّة.

= (- «Il faut vous faire couper les cheveux, dit le Chapelier. Il fixait Alice depuis quelque temps avec une intense curiosité et c'étaient là ses premières paroles.

- On ne doit pas faire des remarques personnelles, dit Alice sévèrement, c'est très impoli»).

كما ويغدو غير لائقٍ أكثر بعد حين يُشكّل موضوع «المتتاليات الافتتاحية».

(346) يؤكّد براون وليفنسون (Brown et Levinson, «Universals in Language Usage: Politeness Phenomena,» in: Goody, ed., *Questions and Politeness: Strategies in Social Interaction*, p. 237), ما يلي: «في حال مزحَ جو، فهل هو مزّاحٌ بالسليقة، أم أنّه بمزاجٍ يسمح له بالمزاح، أم أنّ علاقة مزح تربطه بالمخاطب؟» («If Joe jokes, is he jokey by nature, or is he in a jokey mood, or does he stand in a joking relationship with his interlocutor?»).

(347) Grice, «Further Notes on Logic and Conversation,» in: Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics*, p. 113.

(348) مثلما ينوّه به أيضاً غريس في هذه الفقرة (Grice, «Logique et conversation,» p. 64) حيثُ ينظر في مختلف «طرق عدم استيفاء الشّروط المطلوبة لقاعدةٍ ما».

ـ وبغية التخلُّص من العار الذي يُسبِّبه انتهاك إحدى قوانين الخطاب (لأنَّه عارٌ على الإنسان أن يكذبَ، ولكن عارٌ عليه أيضاً أن يُخالف قانون التواضع أو الإخبارية، كما يظهر في المثلَين التاليَين:

المثل الأوَّل: يقول بيفو (B. Pivot) في برنامج «المناجاة» (Apostrophes) الذي كان يتناول يومها في حلقته موضوع «تقلّبات السلطة» ما يلي:

إذاً يا مارك بايّي، سيكون أمامك شخصٌ نموذجيٌّ لنجاح هذه «المؤسّسة» بما أنَّك تتحدَّث بكثرةٍ عن المدارس العريقة. والحال أنَّه لا بدّ من أن تعرف، وسأتولَّى هذه المهمَّة بالنيابة عنه، لأنَّه يخجل من قول ذلك بنفسه: إنَّه إيف كاناك الذي فاز بعمر العاشرة بالجائزة الأولى عن فئة اللّغة الفرنسيّة في المسابقة العامّة، ثمّ درس الرياضيات العليا، وبعدها التحق بجامعة نورمال سوب حيثُ درس الآداب. وتصدَّر لائحة الشرف في شهادة التاريخ الأستاذيّة، ومن ثمّ دخل متفوِّقاً إلى المدرسة الوطنيّة للإدارة، وتخرَّج منها أوَّلاً على دفعته...

(«Alors Marc Paillet, vous avez en face de vous quelqu'un qui est tout à fait représentatif de la réussite de cet «establishment» puisque vous parlez abondamment des grandes écoles. Or, il faut que vous sachiez, parce que je vais le dire à sa place, autrement il rougirait, si c'était lui: Yves Canac, vous avez à dix ans eu le premier prix de français au concours général. Il a fait ensuite des études de mathématiques supérieures, il est rentré à Normale Sup où il a fait des études de lettres. Puis il a été premier à l'agrégation d'histoire, et ensuite il est rentré premier à l'E.N.A. et en est sorti Major...»).

المثل الثاني: يقول مايكل أنجلو زورليتّي (Michelangelo Zurletti) في «الأوبرا البورجوازيّة المُفسِدة» («La Traviata opera borghese») في معرض تقديم أسطوانة أر. سي. آي. (R.C.A.)، ما يلي:

إنَّ قصَّة العرض الأوَّل بِ «الترافياتا» معروفة وذائعة الصيت، فالرسائل الثلاث التي أعلن بها فيردي الفشل دخلت في الطرفة المألوفة والمُستهلَكة، لدرجةٍ يخجل المرء فيها من نقلها مجدَّداً»)،

(«La storia della «prima» della Traviata è nota e arcinota. Le tre lettere con cui Verdi annunciava il fiasco sono entrate nell'aneddotica spicciola, si ché quasi ci si vergogna di citarle ancora»),

فبهدف التخلُّص من هذا العار، بوسعنا أن نتعلَّل بضرورة احترام قانونٍ مُنافسٍ. ونستطيع كذلك أن نلجأ إلى إحدى الصِيَغ «التصويبيّة» (على رأي

غوفمان) التي من شأنها أن تجعلنا نتقبَّل «إهانةً» تواصليّةً من هذا القبيل، وأبرزها:

● الاعتذار المُذيَّل عند الاقتضاء بتبريرٍ ما، كأن نقول مثلاً: «اعذروني لو أصررتُ ولكن...» («Excusez-moi d'insister, mais...») و«عذراً على استطرادي ولكن...» («Pardonnez-moi cette digression mais...»)، وإليكم أيضاً هذَين المثلَين:

المثل الأوَّل: سيعتبر الأشخاص الذين قرأوا مؤلَّفاتي السابقة بأنَّني أكرِّر نفسي [...]. ولكنَّني سأقول في معرض الدفاع عن نفسي أنَّ [...][349].

(«Ceux qui ont lu mes précédents ouvrages trouveront sans doute que je me répète [...]. Mais je veux dire pour ma défense que [...]»).

المثل الثاني: أنا إنسانٌ مُجتهدٌ. وأعرف جيّداً أنَّه من غير المُستحبّ أن أثني على نفسي أمامكم. ولكن مَن غيري سيتولّى هذه المهمّة؟ وبما أنَّكم تقدِّرون فيَّ مزايا العمل والمثابرة، فربَّما لم يعد من السيِّئ جدّاً أن أتباهى بها [...][350]؛

(«Je suis très travailleur. Je sais bien que je suis mal venu à faire moi-même mon apologie auprès de vous. Mais à qui laisser ce soin? Et les vertus de travail et d'application que je revendique, parce que vous les estimez, il n'est peut-être pas très mal de se vanter de les avoir [...]);

● التحفُّظ الخطابيّ: وهذه بعض الأمثلة:

عن إذنك («Si vous le permettez»)،

وإن كنتُ انحني احتراماً وإجلالاً لرأيك [...] («Quoique mon sentiment doive respect au vôtre [...])،

لولا خوفي من أن أبدو سخيفاً، لكنتُ قلتُ إنَّ طرقات نيويورك تصبح بمنتهى الخطورة في ساعات المساء («Si je n'avais pas peur d'être franchement ridicule, je dirais que les rues de New York sont dangereuses le soir»)؛

● أو مجرّد تعليقٍ تواصليٍّ تحويليّ (والذي قد يتَّخذُ حتّى شكل ضحكةٍ

---

(349) مثلٌ مُقتبسٌ عن: Henri Laborit, *La Colombe assassinée* (Paris: B. Grasset, 1983), p. 9.

(350) مثلٌ مأخوذٌ عن: Marcel Proust, *Correspondance avec Madame Straus*, le livre de poche; 3615, préface par Susy Mante-Proust (Paris: le Livre de poche, 1974), lettre VI, pp. 17-18.

خافتةٍ خجولةٍ من شأنها أن تنزع مُسبقاً فتيل الضحكة التي سيُطلقها الشخص الآخر)، كأن نقول مثلاً: «كما سبق وذكرتُ» («Comme je l'ai déjà mentionné»، و«أينبغي التذكير بذلك؟» («faut-il le rappeler?»)، و«هذه بداهةٌ» («c'est une lapalissade»)، و«بكلّ تواضع» («en toute modestie»)، و«لا أودُّ أن أبدو مغروراً» («sans vouloir être prétentieux»)، و«بلا تفاخرٍ» («sans vanité»)، و«لا نيّة لديّ بجرح شعورك» («sans vouloir vous blesser»)، إلى آخره.

هذه كلّها أساليبُ وطرق تُمكّننا عموماً، من خلال الإقرار بذنبنا والاعتذار عنه جهاراً، من التملُّص من العقاب الذي تُعرّضنا له جنحة مخالفة إحدى القواعد التحادثيّة.

ملاحظة: في حال سهونا عن اتّخاذ التدابير المُسبقة، يسعنا، وإن كان ذلك أقلُّ لباقةً، أن نحاول بعد حينٍ تصويب الخطأ الأرعن الذي ارتكبناه بطيشٍ، فمثلاً: يقول أحد أعضاء اللّجنة الحكم، ما يلي: «اقرأوا النصّ قبل ترجمته إلى اللّغة الفرنسيّة...» (ويُطلق الأعضاء الآخرون الذين يشاركون في هذا الاختبار لنيل شهادة التبريز في اللّغة اللاتينيّة ضحكاتٍ خافتةً)، فيُردف قائلاً: «... بداهةً» («Vous lisez le texte et puis vous le traduisez en français...» (petits rires du reste du jury assistant à cette épreuve agrégative de latin) «... évidemment»).

- وفي ظلّ غياب أيّ «مُلطّفٍ» من هذا القبيل، قد تتنوّع التأثيرات التي يُخلِّفها انتهاك قوانين الخطاب على المُستمعين، ونذكر منها:

● في حال اعتُبر هذا الانتهاك مقصوداً، فيُعزى سببه أحياناً إلى نيّةٍ لَعبيّةٍ وهزليّةٍ، شرط ألاّ يؤوَّل باعتباره يعكس صفاقة استفزازٍ ما. ويقول غوفمان[351] ما يلي: «إنَّ الصفيق هو مَن يمتدح نفسه؛ أو أيضاً مَن يتحدَّث عن نفسه وعن نشاطاته بطريقةٍ توحي بأنَّ الآخرين يولون هذا الموضوع اهتماماً، في حين أنّهم في الواقع لا يكترثون لا به ولا بأعماله؛ أو حتّى مَن يحتكر في أغلب الأحيان الكلام ويتحدَّث لأوقاتٍ أطول ممّا ينبغي[352]». وسنُضيف إلى لائحة الأشخاص

(351) Goffman, *Replies and Responses*, p. 108.

(352) يتمّ في هذا الصدد انتهاك قوانين «الأزهار» والملاءمة والشمولية المضادّة على التوالي.

الصفيقين هذه، إنّما في اتّجاهٍ مُعاكِسٍ، «مَن يلتزِمُ الصمت بوقاحةٍ جليّةٍ» على غرار شخصيّة الزائر («le Visiteur») في المسرحيّة المُصغَّرة بعنوان «التهذيب النافل» للكاتب المسرحيّ تارديو، والذي يُجيب بازدراءٍ لا مثيل له على مبادرات الأستاذ المؤدَّبة بلا جدوى.

● أمّا في حال اعتُبر هذا الانتهاك لاإرادياً، فيتمّ تأويله باعتباره هفوةً أو خطأً خطابيّاً أرعنَ، تُدينه ضحكةٌ أو هزءٌ «تواصليٌّ سابقٌ» (كأن نقول مثلاً: «وماذا بعد؟» («Et alors?») و«بلا مزاح!» («Sans blague!») و«أيعنيك ذلك؟» («Ca te regarde?») و«ما بالي أتدخّل بما لا يعنيني!» («De quoi je me mêle!»)، إلى آخره).

وقد نذهبُ حتّى إلى حدّ اعتبار مَن ينتهك القواعد التحادثيّة(353) انتهاكاً فاضحاً أو متواصلاً وكأنّه شخصٌ مُصابٌ بمسٍّ من الجنون، كما في المثل الآتي:

السيِّد مارتن: أعتقد أنَّ خادمة أصدقائنا قد جُنَّت..، فهي تريد أن تُخبِر نكتةً أيضاً.

---

(353) وإليكم ما هو أسوأ بعد، فإنّ مثل هذا الانتهاك قد يُكلّف الإنسان حياته، على حدّ قول هذا الخبر المكسيكيّ المتفرّق الذي نقله بونوييل (في كتابه: Buñuel, *Mon dernier soupir*, p. 255)، ألا وهو: «دخل رجلٌ إلى البناية رقم 39 في أحد الشوارع، وسأل عن السيّد سانشيز، فبادره البوّاب قائلاً بأنّه لا يعرف أحداً يُدعى السيّد سانشيز؛ ولا بدّ أنّ هذا المدعو سانشيز يسكن في البناية رقم 41، فتوجّه الرجل إلى البناية رقم 41 حيثُ سأل عن السيّد سانشيز، فأجابه بوّاب هذه البناية بأنّ السيّد سانشيز يسكن حتماً في البناية رقم 39، وأنّ الأمر قد اختلط بلا ريب على بوّاب البناية الأولى، فعاد الرجل أدراجه إلى البناية رقم 39، حيثُ رأى بوّابها وشرح له ما حدث معه، فطلب منه البوّاب أن ينتظر قليلاً، فدخل إلى غرفةٍ أخرى، ثمّ عاد وفي يده مسدّس صوّبه نحو الزائر فأرداه قتيلاً».

وما أثار دهشتي كثيراً في هذه القصّة هو النبرة التي رواها بها الصّحافيّ، بحيثُ بدا وكأنّه يعتبر أنّ البواب على صواب. وتحملُ المقالة عنوان «Lo mata por pergunton» (أي «قُتِلَ لأنّه كان يطرح العديد من الأسئلة، ولأنّه يرغب في معرفة أكثر ممّا ينبغي»)».

(Un homme entre au numéro 39 d'une rue et demande M. Sanchez. Le concierge lui répond qu'il ne connaît pas de M. Sanchez, que celui-ci habite certainement au 41. L'homme se rend au 41 et demande M. Sanchez. Le concierge du 41 lui répond que Sanchez habite bel et bien au 39 et que le concierge du premier immeuble s'est trompé. L'homme revient au 39, revoit le premier concierge, lui explique ce qui se passe. Le concierge le prie d'attendre un instant, passe dans une autre pièce, revient avec un revolver et abat le visiteur.

Ce qui m'a le plus étonné dans cette histoire, c'est le ton sur lequel le journaliste la racontait, comme s'il donnait raison au concierge. Le titre disait: Lo mata por pregunton («On le tue parce qu'il en demandait trop, parce qu'il voulait trop en savoir»).

رجل الإطفاء: مَن تحسب نفسها؟ (ورمقها بنظراته) يا للفظاظة!

السيِّدة سميث: لِمَ تتدخَّلين بما لا يعنيكِ؟

السيِّد سميث: تصرُّفكِ نابٍ حقّاً يا ماري...(354)

(«M. MARTIN. - Je crois que la bonne de nos amis devient folle... Elle veut dire elle aussi une anecdote.

LE POMPIER. - Pour qui se prend-elle? (il la regarde) Oh!

M[me] SMITH. - De quoi vous mêlez-vous?

M. SMITH. - Vous êtes vraiment déplacée Mary...»).

إذ لا يسعنا أن نسِمَ الاختلاف في الوضع القائِم بين القواعد البلاغيّة التداوليّة التواصليّة والقواعد الألسنيّة اللُّغويّة بحصر المعنى، إلاّ إذا أخذنا في الاعتبار الأشكال التي يتَّخِذُها انتهاكها المطلق، أي الانتهاك الذي لا يكون عَرَضِيّاً ولا متعمّداً. ويوصَفُ الشخص الذي يفشل في السيطرة على قواعد النظام الألسنيّ اللُّغويّ بالحبيس، في حين يُعَدُّ الشخص الذي لا يُسيطر على قواعد النظام البلاغيّ التداوليّ التواصليّ بمثابة الشخص غير المتكيِّف بل المجنون ـ فغالباً ما يوصف الجنون بفقدان القدرة على استبطان هذه القواعد البالغة الدقَّة التي ترعى طريقة عمل الآداب التحادثيّة أو حتّى رفض التقيُّد بها.

ـ ولا تبرز مثل هذه التأثيرات إلاّ في حالة مخالفة أحد قوانين الخطاب مخالفةً «غير قابلةٍ للاختزال». وفي الواقع، تكون غالبيّة هذه المخالفات ظاهرةً للعيان وتتسرَّب عبر إنشاء استدلالٍ يسمح بإعادة إدخال القول الإشكاليّ إلى نظام قوانين الخطاب. وضمن هذا النطاق، تتكامل القواعد البلاغيّة التداوليّة التواصليّة تكامُلاً وثيقاً مع إشكاليّة المُضمَر الخطابيّ.

3.4.4. قوانين الخطاب والمُضمَر

إليكم هذه الملاحظة التمهيديّة، ألا وهي: حتّى وإن كان يتمّ عموماً تقديم هذه القوانين باعتبارها إرشادات ترميزٍ، إلاّ أنّها ترتدّ بتماثلٍ على استراتيجيّات فكّ الترميز، فلأنَّني أعرف أنّ المُرسِل هو صادقٌ من حيثُ المبدأ، أكون أنا، بصفتي متلقِّياً، سريع التصديق؛ ولأنَّني أعتبر كذلك أنَّه يزوِّدني بأكبر قدرٍ ممكنٍ من المعلومات، أميل أحياناً عن خطأ إلى تأويل أداة الشرط «إذا» («si») باعتبارها

(354) مثلٌ مُقتبسٌ عن المشهد التاسع من مسرحية *La Cantatrice chauve*.

تعني «إذا وفقط إذا» («si et seulement si»)؛ ولأنّني أعلم أيضاً أنّه ينزع إلى تلطيف صياغة الالتماسات، لذلك أؤوّل تمنيّاً باعتباره أمراً غير مباشرٍ. وأستطيع كذلك بموجب أسبابٍ مماثلةٍ أن أخلص من صمت مخاطبي وعدم تعليقه على تسريحة شعري الجديدة، وكذلك من خلال اللّجوء في الوقت نفسه إلى قانون الشموليّة (بما أنّه كان حريّاً به، بشكلٍ طبيعيٍّ، أن يقول شيئاً ما عن تسريحة شعري) وقانون اللّياقة (بحيثُ يتجنَّبُ المرء عموماً، ما لم يكن يرمي عمداً إلى مهاجمة شريكه الخطابيّ، توجيهَ كلامٍ مُجافٍ إليه)، إلى استدلالٍ من مثل: «لا بدّ أنّه يجد تسريحة شعري قبيحةً» («C'est donc qu'il la trouve moche»).

وهكذا تتدخَّل قوانين الخطاب في طور عمليّة التأويل لتحثَّ بشكلٍ أساسيٍّ على بروز عددٍ معيَّنٍ من الاستدلالات. ونذين أيضاً وأيضاً لغريس بأنَّه فسَّر في مقاله «المنطق والمحادثة» («Logic and Conversation») آليّة تكوُّن «العلاقات التضمينيّة التحادثيّة» بتعابير عمَدَ أرمانغو إلى تلخيصها على الشّكل الآتي: أدلى المتكلِّم بجملةٍ «ج». ومن المُفترَض أنَّ المتكلِّم يُراعي القواعد التحادثيّة. والحال أنَّ الجملة «ج» تُعدُّ انتهاكاً لإحدى القواعد. ولكن في حال كان الاستدلال / س/ يجول في خلد المتكلِّم، إذاً فقد استطاع أن يُدلي بالجملة «ج» وأن يُراعي في الوقت عينه القواعد. ويُدرك المتكلِّم أنَّ مُحاوِره قادرٌ على إجراء هذا التدليل المنطقيّ. وبناءً عليه، فقد رمى إلى نقل الاستدلال / س/ بشكلٍ غير مباشرٍ. وباختصارٍ، لقد أضمَرَ المتكلِّم الاستدلال / س/ »[355]. وبالتالي، تظهر العلاقة التضمينيّة (التي نُطلق عليها بحسب مصطلحيَّتنا اسم «استدلالٍ») بمظهر الفرضيّة التي نُنشئها بهدف «ضبط» قولٍ انتهاكيٍّ ظاهرياً لجهة طريقة عمله البلاغيّة التداوليّة التواصليّة.

ملاحظة: لا تعمل هذه الآليّة ما لم يتمّ استيفاء شرطَين، ألا وهما: أوّلاً، أن يكون المُحاوِر متعاوناً، وإلاّ خُدعَ بالمظاهر وحَكَمَ على القول بأنّه أحمقٌ؛ وثانياً، أن يكون إنشاء الاستدلال أمراً ممكناً، وإلاّ سيكتفي المُحاوِر مهما كان متعاوناً، باعتبار تصرُّف المتكلِّم الخطابيّ بمثابة التصرُّف المَرَضيّ.

ولنفترض بالتالي أنَّ هذَين الشرطَين متوفِّران، فمن خلال وضع قانون الخطاب هذا أو ذاك موضع التنفيذ، وعلى ضوء الجملة «ج»، يُنشئ المُحاوِر إذاً

---

(355) Armengaud, «L'Impertinence x-communicative ou comment annuler la parole d'autrui,» a 12.

الاستدلال /س/. ولكن قد يتَّخذ هذا الاستدلال أوضاعاً متنوِّعةً، ونودُّ تحديداً التشديد نوعاً ما على هذه النقطة، من دون أن نُشكِّكُ البتَّة باقتراحات غريس الوصفيّة الإيضاحيّة والتي هي صائبةٌ بشكلٍ جوهريٍّ بما لا يحمل إلى الشكّ سبيلاً.

ويقتضي التذكير بأنَّ المحتوى المُضمَّن قادرٌ إمّا أن يُضاف على شكل تضمينٍ (إضافيٍّ أو هامشيٍّ) إلى المحتوى الحرفيّ، أو أن يَحُلَّ محلَّه ويسلبه دوره التعيينيّ، فينشأ بالتالي المحسن البيانيّ.

والحال أنَّه يتمّ أيضاً إيلاد حالتَي الصور هاتَين (اللَّتين تتطابقان إجمالاً مع الفئتَين أ و ج عند غريس)، بفعل مفعول قوانين الخطاب، ولكن تبعاً لعمليةٍ «حسابيةٍ» مختلفةٍ اختلافاً ملموساً، كما هو مبيَّنٌ أدناه:

(1) استدلالاتٌ تبقى تضمينيّةً وتُضاف ببساطةٍ إلى الدلالة الحرفيّة

وإليكم بعض الأمثلة:

إنَّ بعض فصول هذا الكتاب مثيرةٌ للاهتمام («Certains chapitres sont intéressants dans ce livre»)

سيأتي بيار بعد الظهر (Pierre viendra dans l'après-midi)

أتريد جبنةً أم فواكه؟ (Fromage ou fruit?)

وتُضمِّن هذه الأقوال على التوالي ما يلي:

/ليست كلّ فصول هذا الكتاب مثيرةً للاهتمام/ (/tous les chapitres ne le sont pas/)

/لا أعرف في أيِّ ساعةٍ بالضبط سيأتي بيار/ (/je ne sais pas exactement à quelle heure il viendra/)

/الخيار مفتوحٌ بين أنواعٍ مُختلفةٍ من الجبنة أو الفواكه/[356] (/il y a le choix entre diverses sortes de fromages, ou de fruits/)،

(356) «أتريد الجبنة أم الفواكه؟

ـ الجبنة.

ـ حسناً، أتودّ جبنة كامنبير....»

(«Fromage ou fruit?

- Fromage.

- Bon alors camembert...»)

نشهد حدوث هذا الأمر في بعض المطاعم التي تفتقر بعض الشيء إلى الذِواقة. وعليه، يُحدث استعمال الوحدة المعجميّة الصغرى المثاليّة التي تنتهك بتشدّقٍ قانون الشموليّة، مفعول الدَّجل.

ويتمُّ ذلك بمقتضى التدليل المنطقيّ الآتي: لو كان المتكلِّم يعتبر أنَّ المؤلَّف بمجمله مُثيرٌ للاهتمام، لكان قال لي ذلك، لأنَّه حريٌّ به أن يكون شموليّاً بكلامه، وبما أنَّه لم يأتِ على ذكر هذا الأمر، فهو بالتالي لا يجده كذلك، بل على العكس فهو يعتبر أنَّ بعض فصوله لا تُثير الاهتمام. وبشكلٍ عامٍّ أكثر، لا يُدلي المتكلِّم بالجملة «ج» التي لا يتطابق معناها مع قوانين الخطاب ما لم يتمّ التسليم بالاستدلال /س/ على حدٍّ سواءٍ. وبالتالي، تُضمِّن الجملة «ج» الاستدلال /س/؛ لأنَّه لو لم يكن الأمر كذلك، لكان انتهك معناها الحرفيّ أحد قوانين الخطاب.

وللسبب نفسه، إنَّما بمقتضى قانون الإخباريّة هذه المرَّة، تُضمِّن الجملة التالية:

ما من مهنةٍ حقيرةٍ («Il n'y a pas de sot métier»)

الاستدلال الآتي: /قد نعتبر أنَّ ثمّة مهنةً حقيرةً/ (/on pourrait estimer qu'il y en a/).

ولكن تختلف الآليّة في الجملة الآتية:

أليس هذا الفستان بخس الثمن، وكأنَّه مجّاني؟ («Cette robe, elle n'est pas donnée?»)،

فعلى الصعيد الحرفيّ، إنَّ هذا القول هو تحصيل حاصلٍ لا أكثر ولا أقلّ (لأنَّه يتعذَّر الحصول على أيٍّ من الأغراض المعروضة في متجرٍ ما إلاّ مقابل مبلغٍ نقديٍّ). وبما أنَّه من المُحال أن نُخضع المعنى الحرفيّ لقانون الإخباريّة، لذلكَ يتعيَّن علينا أن ننقِّب في حنايا هذا المعنى الحرفيّ عن المعنى المُشتقّ الذي يكون «مطابقاً» (ألا وهو: «هذا الفستان باهظ الثمن» («Cette robe est chère»))، والذي نعتبره بمثابة المعنى الحقيقيّ لهذا القول، فيظهر بالتالي بمظهر المحسن البيانيّ (ويكون بالنظر إلى هذه الحالة محسناً بيانيّاً إغراقيّاً).

(2) استدلالاتٌ تحلّ محلّ محتوى القول الحرفيّ، فتُشكِّل بالتالي محسناً بيانيّاً[357].

(357) تتطابق هذه الحالة إجمالاً مع «المجموعة ج» عند غريس (Grice, «Logique et conversation,» p. 66)، القائل ما يلي: «تستغلّ هذه الأمثلة القاعدة المعنيّة، التي تُهزَأ في سبيل دسّ بعض العلاقات التضمينيّة التحادثيّة، بواسطة نوعٍ من الصور البلاغية».

وإليكم المثل الآتي: أقلع بيار عن التدخين («Pierre a cessé de fumer»)

فلو كان القول إخبارياً على الصعيد الحرفيّ، وملائماً جزئيّاً بالحدّ الأدنى، نستطيع أن نُنشئ له استدلالاً من شأنه أن «يجعله أكثر ملاءمةً» (على غرار الاستدلال التالي: /يُستحسن بك أن تحذو حذوه/ /Tu ferais bien d'en faire autant/)، ولكنَّ هذا الاستدلال يبقى تضمينيّاً.

ولكن في حال بدا القول على العكس غير إخباريٍّ و/أو غير ملائم كليّاً (في نطاق أنّني لا آبه مثلاً بما يحلُّ ببيار)، فيكتسب الاستدلال السابقُ وضع المحتوى التعيينيّ، في حين يظهر القول بمظهر «المحسن البيانيّ الإضماريّ».

(ملاحظة: يُعنى المحتوى المُقرَّر مُنفرداً بالإعلام والملاءمة المُشار إليهما في هذا الصدد. أمّا بالنسبة إلى الافتراض، فينبغي على العكس أن يكون غير إخباريٍّ. وإن لم يكن الوضع كذلك، قد يعمل القول باعتباره «محسناً بيانيّاً افتراضيّاً» ينطوي على الدلالة التالية: /كان بيار يُدخِّن في السّابق/ /Pierre fumait auparavant/).

يُصار في الفقرة الأولى (1) كما في الفقرة الثانية (2) إلى إنشاء استدلالٍ من شأنه أن يُعيدَ القول إلى نظام قوانين الخطاب. إلاّ أنَّه في الفقرة الأولى (1)، يُشكِّل المعنى الحرفيّ معنى القول الأساسيّ، حتّى لو أُضيف إليه محتوى مُشتقٌّ لا مناص من إضافته بغية التوفيق بين المعنى الحرفيّ واحترام قوانين الخطاب المُفتَرَض؛ أمّا في الفقرة الثانية (2)، فيُطيح على العكس المحتوى المُشتقّ الذي ينسجمُ وحده وقوانين الخطاب بالمعنى الحرفيّ «غير القابل للضبط».

ملاحظة: غالباً ما يصلحُ القول نفسه بالقوّة لعدَّة تأويلاتٍ متنافسةٍ.

وسنكرِّر مرّةً أخرى بعد المثل نفسه، ألا وهو: «لا أكرهُكَ البتّة» («Je ne te hais point»)، ويُمكننا أن ننسب إلى هذا القول ثلاث طرق عملٍ دلاليّةٍ، ألا وهي:

(1) ينبغي أخذ القول بمعناه الحرفيّ، شرط أن يُضاف إليه استدلالٌ تضمينيٌّ، يكون هذا القول في ظلّ انعدام وجوده غير شموليٍّ، ومفاده: /وأنا لا أحبُّكَ كذلك/ (/je ne t'aime pas non plus/).

(2) 1. ثمّ اللّجوء إلى هذا القول بغية نقل المعلومة المذكورة أعلاه بشكلٍ

أساسيٍّ. وعليه، تتعلّق المسألة هنا بمحسنٍ بيانيٍّ إضماريٍّ.

2. ينتهك هذا القول حرفيّاً قانون الشموليّة. وينبغي في سبيل ضبطه أن يُصار إلى تأويله باعتباره ينطوي في الواقع وبشكلٍ أكثر شموليّة، على الاستدلال التالي / أحبُّكَ/ (/je t'aime/). وعليه، تكون المسألة مسألة إغراقٍ.

وكما نرى، يتدخّل قانون الشموليّة في القراءات الثلاث التي نظرنا فيها أعلاه؛ ولكن لا يعود له أن يُرشدنا إلى القراءة الأنسب في المقام، فوحدها المعلومات ذات الطبيعة السياقيّة أو السياقيّة الحاليّة النصيّة تخوّلنا حسم الخيار بين (1) و (2) .1 و (2) .2

وبكلام آخر، لا تواجهُ قوانين الخطاب جميع المواقف في ما يتعلّق بتأويل الأقوال، وهي ليست مسؤولةً عن كلّ شيءٍ.

وبالعودة إلى حالات المحسنات البيانيّة، نقول ما يلي: يتمّ فكّ ترميزها على ثلاث مراحل، أي بكلام آخر، يستتبع ضمناً فكّ ترميزها إجراء ثلاث عمليّاتٍ منطقيّةٍ متعاقبةٍ (حتّى وإنْ كان تنفيذها يستوجب في الواقع حركة ذهابٍ وإيابٍ مُستمرّةٍ من واحدةٍ إلى الأخرى)، ألا وهي:

1. وقف القراءة الحرفيّة وإعطاء الضوء الأخضر لانطلاق آليّة الاشتقاق.

2. التوجيه صوب هذا النمط من المحسنات البيانيّة أو ذاك.

3. البحث عن المعنى المُشتقّ المناسب سياقيّاً وكشف النقاب عنه.

ولكن قد لا ننجح أحياناً في بلوغ المرحلة أو المرحلتين الأخيرتين من هذه العمليّة التأويليّة، فعلى الرُّغم من إحساسنا بوجود المحسن البيانيّ، إلاّ أنّنا قد نعجز عن إنجاز هذه العمليّة التي تُفضي بنا من المعنى الحرفيّ إلى المعنى المُشتقّ[358] من ألفها إلى يائها، فتتوقّف بالتالي عمليّة فكّ الترميز في منتصف

---

(358) ناهيك بالحالة التي يعاني المُرسِل نفسه هذه المرّة الأمرّين بغية تحديد طبيعة المحتوى الذي يزعم مع ذلك بأنّه يضمره، فمثلاً: «كان لها [أي للمركيزة بالبي] الأسنان الأجمل في العالم بأسره، ومهما حدث، ومن دون أيّ معنى، كانت توحي، من خلال رسم ابتسامةٍ ماكرةٍ، بأنّها تقصد أمراً غير المعنى الذي كانت تنطوي عليه عباراتها. وقال الكونت موسكا إنّ تلك الابتسامات الدائمة التي كانت توزّعها المركيزة، بينما كانت تتثاءب في قرارة نفسها، كانت تُسبّب لها كلّ هذه التجاعيد» (مثلٌ مُقتبسٌ من: Stendhal, *La Chartreuse* =*de Parme*, p. 120: («[La marquise Balbi] avait les plus belles dents du monde, et à tout hasard,

الطريق، عند بلوغها المرحلة الأولى 1. أو حتّى المرحلة الثانية 2.، حين نشتمّ مثلاً وجود استعارةٍ[359] أو محسنٍ بيانيٍّ إضماريٍّ (على غرار: «إنّه يوم الأحد - وإنْ يكن؟»[360] («C'est dimanche. - Et alors?»))، ولكنّنا نتعثّر في تحديد طبيعة المحتوى التعيينيّ الدقيقة.

ولكنّنا غالباً ما ننجح في تحديدها من خلال تطبيق بعض القواعد الاشتقاقيّة، من مثل:

• الاستعارة: وقوامها البحث عن معنى ثانٍ يتقاطع مع المعنى الأوّل على قاعدة عددٍ معيّنٍ من «الميتاسيمات» التي تعكس الخصائص المُشتركة بين الغرَضين اللّذَين نُدرك بينهما وجود علاقة تماثلٍ أو ننشئها؛

• قلب المعنى: ويقضي بالبحث عن معنى ثانٍ يكون نقيض المعنى الأوّل (أو تربطه به على الأقلّ علاقة تضادٍ دلاليٍّ)؛

= n'ayant guère de sens, *elle voulait, par un sourire malin, faire entendre autre chose que ce que disaient ses paroles.* Le compte Mosca disait que c'étaient ces sourires continuels, tandis qu'elle bâillait intérieurement, qui lui donnaient tant de rides»).

(359) هب مثلاً: «قرأتُ في دليلٍ عن السودان عن هذه «الثآليل التي تُشوّه جمال منازل الطبقة الاجتماعيّة الميسورة» («verrures qui enlaidissent les maisons des classes sociales favorisées»)؛ ولكن لم يلبث هذا اللغز أن تبدّد بعد عدّة صفحاتٍ حين اتّضح في الواقع أنّ المسألة تتعلّق بـ «مكيّفات الهواء» (airs-coolers).

(360) وإليكم مثلاً إضافيّاً (مأخوذٌ من المشهد الثاني من الفصل الثاني من مسرحية *Les Fourberies de Scapin*)، ألا وهو:

جيرونت: لعمري، مولاي أرغانت، إن أردت رأيي، إنّ تربية الأولاد أمرٌ يستحقّ التوقُّف عنده مليّاً.
أرغانت: طبعاً. ولكن لَمِ تقولين ذلك؟
جيرونت: أقول ذلك لأنّ سبب سوء إدارات المؤسّسات التي تُعنى بالأولاد بعمر الحداثة يعود إلى التربية السيّئة التي ربّاهم آباؤهم عليها.
أرغانت: نعم، يحصل ذلك في بعض الأحيان. ولكن إلامَ ترمين من وراء ذلك؟

(GÉRONTE. - Ma foi, seigneur Argante, voulez-vous que je vous dise? L'éducation des enfants est une chose à quoi il faut s'attarder fortement.
ARGANTE. - Sans doute. A quel propos cela?
GÉRONTE. - A propos de ce que les mauvais départements des jeunes gens viennent le plus souvent de la mauvaise éducation que leurs pères leur donnent.
ARGANTE. - Cela arrive parfois. Mais que voulez-vous dire par là?).

● الإغراق/ الغلوّ: وقوامهما البحث عن معنى ثانٍ أقوى/ أو أضعف يكون موجوداً على البعد الدلاليّ نفسه الموجود عليه المعنى الأوَّل؛

● المحسن البيانيّ الافتراضيّ: ويقضي بتحويل الافتراض إلى محتوى مُقرَّر؛

● المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق: وقوامه تشغيل إحدى القواعد الاشتقاقيّة من مثل «أن نسأل فلاناً عن قدراته لإنجاز فعلٍ «ف»، يعني - في بعض الظروف - أن نطلب منه إنجاز «ف»»، إلى آخره.

وعليه، ينبغي الإجابة عن ثلاثة أسئلةٍ، ألا وهي: هل يوجد محسنٌ بيانيٌّ؟ ما هو؟ وما هو بالضبط المعنى المُشتقّ؟ والحال أنَّ دور القواعد التحادثيّة يقتصر على المساهمة، وبشكلٍ خفيفٍ أحياناً (كما في حالة الاستعارات)، في إعطاء الإجابات التي تتطلَّبها هذه الأسئلة.

في ما يتعلَّق بالسؤال الأوَّل، ينبغي فهم القول بشكلٍ بيانيٍّ، في حال كان يظهرُ وكأنَّه مشوبٌ بعيبٍ إذا ما أُخِذَ بمعناه الحرفيّ. وقد يتَّخذ هذا العيب أشكالاً مختلفةً، وهي غالباً ما تكون تراكميّةً، وأبرزها: طريقة عملٍ بلاغيّةٍ تداوليّةٍ تواصليّةٍ غير متَّسقةٍ أو حتّى شكل العبثيّة الدلاليّة الداخليّة، و/ أو الاستبعاديّة المرجعيّة...

أمّا بالنسبة إلى طبيعة المحسن البيانيّ، فتتدخَّلُ بوجهٍ خاصٍّ في تحديدها طبيعة الوحدة الألسنيّة اللُّغويّة حيثُ يتموضع المحسن البيانيّ[361] وطبيعة دلائل أو واسمات الاشتقاق (التي يكون بعضها مُتخصِّصاً بدرجاتٍ متفاوتةٍ)، فضلاً عن بعض العوامل التي تُمهِّد الطريق من مثل نمط الخطاب المطروح و«مجموعة الخصائص البيانيّة العامّة» التي يتحلَّى بها المتكلِّمون، إلى ما هنالك.

أمّا بشأن تحديد الفِطرة «السّليمة»، فهي تعتمد على مجموعة عناصر ذات طابعٍ سياقيٍّ حاليٍّ نصيّ أو سياقيٍّ، كما أنَّها تُجنِّد في الوقت نفسه الكفاءات الألسنيّة اللُّغويّة والموسوعيّة والبلاغيّة التداوليّة التواصليّة التي يتمتَّع بها الشخص الذي يفكّ الترميز.

وسرعان ما تُنجَز هذه المهمَّة على أكمل وجهٍ، حتّى تندثرُ الشواذات كلّها

---

(361) على سبيل الذكر لا الحصر، لا يستغلّ التهكّم من حيثُ المبدأ إلاّ الوحدات التقويميّة؛ ويتمحور المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق عموماً حول الأوزان النحوية.

وتتلاشى في آنٍ، فيستعيد القول تماسكه السياقيّ الحاليّ النصيّ وملاءمته السياقيّة ومطابقته البلاغيّة التداوليّة التواصليّة - فعلى مستوى المحتوى المُشتقّ، يكون القول التهكُّميّ صادقاً والإغراق شموليّاً، وكذلك تُصبح المحسنات البيانيّة الإضماريّة والكلاميّة المنطوقة ملائمةً وإخباريّةً وشموليّةً مجدَّداً (في حين تكون عبارة «هل لك أن تفتح النافذة؟» («Peux-tu ouvrir la fenêtre?») غير إخباريّةٍ على الصعيد الحرفيّ في أغلب الأحيان، وكذلك غالباً ما تكون عبارة «أودُّ لو تفتح النافذة» («J'aimerais bien que tu ouvres la fenêtre») غير شموليّةٍ على الصعيد الحرفيّ).

وختاماً، إليكم هذه العبارة المُعمَّية التي أدلى بها جان دو سبوند (Jean de Sponde)، ألا وهي: «يهوي الذهبُ تحت الحديد» («L'or tombe sous le fer»)، فخارج إطار السياق أو السياق الحاليّ للنصّ، نستطيع أن نؤوِّل هذه العبارة بطرقٍ عديدةٍ متنوِّعةٍ تراعي كلّها أصول القواعد الاشتقاقيّة وضرورات التماسك الدلاليّ وقواعد الاحتماليّة المرجعيّة[362]. أمّا في إطار السياق، فلا يتناسبُ هذان المحسنان البيانيّان المُرشَّحان على التوالي إلاّ مع الاستعارة (التي تتجلّى في كلمة «القمح» («le blé»)) وكناية استعمال المادَّة للدلالة على الآلة التي تُصنع منها (التي تتجلّى في كلمة «الحاصِدة» («la faux»))، فالمسألة تتعلّق هنا، بما لا يحمل إلى الشكّ سبيلاً، بمشهد حصادٍ. وإنْ كان من النادر أن تَمثُلَ بالتنافُس في الخطاب عدّة إمكانيات اشتقاقٍ صوريٍّ لدالٍّ واحدٍ، فمردّ ذلك إلى أنَّ طبيعة الدالّ نفسها، مُضافةً إليها الضغوطات السياقيّة الحاليّة للنصّ والسياقيّة، لا تسمح عموماً بإعطاء أكثر من حلٍّ تأويليٍّ مرضٍ واحدٍ فقط لا غير.

ومع ذلك، فمن العويص أن نوضِّح عمليّة اكتشاف هذا الحلّ، أي حلّ لغز المحسن البيانيّ[363]، التي تتمّ خبط عشواء وعن طريق المحاولة والخطأ. ولكن

---

(362) قد يُحيل إلينا أيضاً أن بيت الشعر هذا يتحدّث عن عصرَيّ الذهب والحديد؛ أو أنّه يصف لنا نفوذ مدينةٍ مزدهرةٍ أو حتّى ذبح فتاةٍ شقراء...

(363) وبشأن تعقُّد هذه العملية، راجع ويلسون وسبيربر (Wilson et Sperber, «Remarques sur l'interprétation des énoncés selon Paul Grice,» pp. 83-84)، أمّا بشأن «مبادئ التأويل الاستعاري»، راجع سيرل (Searle, *Sens et expression: Etudes de théorie des actes de langage = Expression and Meaning*, pp. 151 et sqq)، فضلاً عن ليفنسون (Stephen C. Levinson, *Pragmatics*, Cambridge Textbooks in Linguistics (Cambridge [Cambridgeshire]; New York: Cambridge University Press, 1983))، الذي يُشاطرنا الرأي (ص 161) القائل بأنّه يتعذّر معالجة هذه الإشكاليّة على نحوٍ وافٍ من وجهة نظر النموذج الغريسيّ وحده.

ما هو مؤكّدٌ أنّه من غير المُبرَّر أن يتمسّك بهذه المبادئ التحادثيّة، مهما بلغت أهميّة الدور الذي تضطلع به في هذه العمليّة، باعتبارها المؤتمنة الحصريّة على مفتاح المعنى، وباعتبارها أيضاً الترياق العجائبيّ للقضايا التأويليّة كافّةً.

4.4.4. المُضمَر، ما الجدوى منه؟

قبل التطرُّق إلى المبادئ العامّة التي ترتكز عليها طريقة عمل الآلة التأويليّة، وبغية الانتهاء إلى حلٍّ لهذه الاعتبارات المُتعلّقة بالكفاءة البلاغيّة التداوليّة التواصليّة، ثمّة سؤالٌ جديرٌ بأن يوضع على بساط البحث، وقد صادفناه عَرَضاً مرّاتٍ عديدةٍ، ألا وهو: المُضمَر، ما الجدوى منه؟

ما الذي يحول دون أن نتكلّم بشكلٍ مباشرٍ، فيكون ذلك أسهلَ على الجميع؟ فإن كنّا نرمي إلى قول الجُمَيلة الأولى «ج»، لمَ ننطق بالجُمَيلة الثانية «د»؟ وبموازاة ذلك، في حال كان القول يتحدّث عن الجُمَيلة الأولى «ج»، لمَ نقرأ فيه معنى الجُمَيلة الثانية «د»[364]؟

لا يخلو الأمر من بعض المُفارقة هنا، لأنَّ الصِيَغ غير المباشرة التي تتطلّب فائضاً من العمل الإنتاجيّ والتأويليّ تتعارض مع مبدأ بذل أقلّ جهدٍ ممكنٍ[365]؛ ولأنّها تنتهك أيضاً وبصورةٍ دائمةٍ قاعدة الصيغة. ويقول ريكاناتي[366] ما يلي: «من اليسير أن نشتقَّ من هذه القاعدة قاعدةً دونيّةً تقضي بوجوب أن يتحدّث المرء قدر المُستطاع «بلا مواربةٍ»، أي أن يتجنّب إعطاء المعلومة المطلوبة على نحوٍ مُضمَرٍ [...] في حال عدم توفُّر أيّ سببٍ وجيهٍ يحول دون إعطائها على نحوٍ بيّنٍ».

وإنْ توخّينا الدقّة أكثر، يُمكننا أن نقول ما يلي:

- ينتهكُ كلّ محسنٍ بيانيٍّ، إلى جانب قاعدة الوضوح هذه، قاعدة النّوع

---

(364) يطرح سيرل إشكاليّة الترميز وفكّ الترميز المزدوجة هذه، إنّما بتعابير مُشابهةٍ تتعلّق بحالة الاستعارة الخاصّة، قائلاً: «كيف يُعقل أن يقصد المتكلّم قول إنّ «الأمر الفلاني (أ) يتّصف بالصفة الأولى (ص)»، قائلاً استعاريّاً أنّ «الأمر الفلاني (أ) يتّصف بالصفة الثانية (ض)، في حين أنّ الصفة الأولى (ص) لا تتطابق بوضوح والصفة الثانية (ض)؟ وفي المقابل، كيف يُعقل أن يُدرك المُستمع، وهو يستمع إلى فعل القول التالي: «يتّصفُ الأمر الفلاني (أ) بالصفة الثانية (ض)»، أنّ المتكلّم يرمي إلى قول إنّ «الأمر الفلاني (أ) يتّصف بالصفة الأولى (ص)»؟» (Searle, Ibid., pp. 151-152).

(365) مثلما تُعلنه بمهارةٍ ليزيت في **العهود غير المتحفّظة** (*Serments indiscrets*)، قائلةً: «إنّه فتى نبيهٌ، ممّا يجعله يُدقّق ويُفكّر مليّاً..» («C'est un garçon qui a de l'esprit, cela fait qu'il subtilise, que son cerveau travaille...»).

(366) Récanati, *Les Enoncés performatifs: Contribution à la pragmatique*, p. 217.

(فهو حالةٌ خاصّةٌ من الكذب)، وذلك على مستوى معنى العبارة الحرفيّ بالحدّ الأدنى والذي يكون في الواقع طُعماً للوقوع في الفخّ ـ ولهذا السبب تُدينه أحياناً بعض الثقافات باعتباره جريمةً حتّى، فمثلاً: «يبلغ في بولينيزيا (Polynésie) عدد الأفعال التي يُطلق عليها اسم دجيادجيا (djeadjea) ـ أي الأفعال التي تُفضي إلى الإعدام بضربة الصاعقة ـ الثلاثة أفعالٍ، ألا وهي: سفاح القربى والجنسيّة المثليّة وإعطاء الإنسان أو الحيوان اسماً لا يُناسبه، أو حتّى أن يُقال عنه شيءٌ ينتافىٰ وطبيعته. كأن يُقال مثلاً عن القملة إنّها ترقص وعن الفأر إنّه يُنشد [. . .]؛ أو أن يُقال إثر وأد الحيوانات حيّةً، ما يلي: «إنّني أدفنُ إنساناً» («J'enterre un homme»)؛ أو الإدلاء عقب سلخ جلد ضفدعةٍ حيّةٍ، بما يلي: «لقد خلعَتْ معطفها الآن» («Maintenant, elle a ôté son manteau»). [. . .] وذلك لأنّ استعمال الكلام لا يُعطي الكائنات البشريّة امتيازاً فحسب، بل يُلقي على كاهلها مسؤوليّةً أيضاً (فحرفيّاً يجدرُ بهم أن يتمكّنوا من الإجابة على كلّ ما يؤكّدونه)»[367]. وبالإضافة إلى ذلك، ينتهكُ كلّ محسنٍ بيانيٍّ خاصٍّ (علماً بأنّ المسألة التي استعرضناها في الحالة الآنفة الذكر لم تكن مسألة استعارةٍ)، قانون الخطاب هذا أو ذاك، فينتهك الإغراق وكناية النوع قاعدة الكمّ الأولى، في حين ينتهك الغلوّ وكناية الصّنف قاعدة الكمّ الثانية، ناهيك بأنّ عدداً لا بأس به من المحسنات البيانيّة الكلاميّة المنطوقة ينتهك قانون الملاءمة، إلى آخره.

ـ وحتّى عندما لا يطيحُ المعنى المُشتقّ بالمعنى الحرفيّ، فإنّ مجرّدَ إنتاج قولٍ ما تُضاف إليه بعض المحتويات المُضمَّنة يُشكِّلُ على مستوى محتوياته المُشتقَّة:

- مخالفةً لإحدى قواعد الصيغة، لأنّ الصياغة المُضمَرة هي ضربٌ من ضروب الكلام المرموز الذي يذهب جيرونت في مسرحيّة «الكذّاب» إلى حدّ تشبيهه باللّغة الأجنبيّة، كما في المثل الآتي:

دورانت: [. . .] إذاً، بعد أن رآتني مأخوذاً، كان عليّ أن أتفاهم معها

جيرونت: أيعني ذلك، في اللّغة الفرنسيّة، أنّه كان عليك أن تتزوّج بها؟[368].

(DORANTE. - [...] Alors, me voyant pris, il fallut composer.

---

(367) Nancy Huston, *Dire et interdire: Eléments de jurologie*, collection langages et sociétés (Paris: Payot, 1980), p. 90.

(368) من المشهد الثاني من الفصل الخامس من مسرحية *Menteur*.

GÉRONTE. - C'est-à-dire, en français, qu'il fallut l'épouser?).

• وكذلك مخالفةً لقانون الشموليّة، بحيث يُعدُّ القول المُضمَر نوعاً ما «قولاً مُبطَّناً» (يتمّ الإدلاء به من «طَرْفٍ خفيٍّ» و«تلميحاً»). وبهذا المعنى، يُمكن تشبيهُه بالإغراق.

وبناءً على ما تقدَّم، يولَدُ من رحم القواعد التحادثيّة مبدأٌ من مثل: مبدئيّاً، علينا قول ما علينا قوله بشكلٍ بيّنٍ (فمثلاً: قال مسؤولٌ نقابيّ أثناء إضرابٍ طلّابيٍّ، ما يلي: «تؤيِّدُ النقابة حرّيّةَ التجوُّل، ولم أقصد أن أقول بأنَّها تُعارض ما تقوم به فِرَق المُضربين. لأنَّني لو كنتُ أرمي إلى قول ذلك، لكنتُ قلته» (Le Syndicat se déclare pour la liberté de circulation dans les locaux universitaires... Je n'ai pas voulu dire qu'il était contre les piquets de grève. (Si j'avais voulu dire ça je l'aurais dit» - ويُصبح هذا الواجب مُلحّاً أكثر في بعض الظروف، حين تتعلّق المسألة مثلاً بمحتوى إخباريٍّ و/أو قابلٍ للنقاش بوجهٍ خاصٍّ (وهكذا يُبرهن سبيربر[369] أنَّ درجة تبيين محتوى ما يجب أن تكون متناسبةً مع درجة إخباريّته و«قابليّته للجدل»)، أو أيضاً حين يكون هذا المحتوى على جانبٍ من الأهميّة، فمثلاً: ثمّة حالاتٌ، كما يُنوِّه مانوني، يُستحسَن أن يكون المرء فيها واضحاً. ويضرب على ذلك المثل الآتي: «لا يُمكن أن نُجيبَ على شخصٍ يسألنا عن حركة المدّ والجزر قائلين: راقب حركة القمر. لأنَّنا بذلك قد نتسبَّبُ بالعديد من حالات الغرق»[370] («à quelqu'un qui vous interrogerait sur la marée on ne pourrait pas répondre: voyez la lune. On serait .responsable de trop de noyades»)

وأيّاً يكن تواتر الصِيَغ المُضمَرة، سواء أكانت بيانيّةً أم لا، فالمسألة تتعلّق بممارساتٍ موسومةٍ تستوجِبُ، بمقتضى قاعدة الكمّ، توضيحاً وتبريراً.

أمّا بالنسبة إلى حالات المحسنات البيانيّة، فنَدينُ إلى البلاغة الكلاسيكيّة بعددٍ معيَّنٍ من الاقتراحات بشأن إشكاليّة «الأسباب التوليديّة» للمحسنات البيانيّة والتي ينبغي بحسب فونتانيي، إقامة علاقاتٍ متبادَلةٍ بينها وبين تصنيفيّة «الملَكات»

---

(369) Dan Sperber, *Le Symbolisme en général*, collection savoir (Paris: Hermann, [1974]), pp. 135 et sqq.

(370) Octave Mannoni, «Je sais bien... mais quand même. La Croyance,» *Les Temps modernes*, no. 212 (1964), p. 1266.

(ويقول[371] ما يلي: «نعم، تركن الأسباب التوليديّة للمحسنات البيانيّة إلى ملكَاتنا وإلى قوانا الأخلاقيّة والعقليّة؛ أو بتعبيرٍ آخر، تُشكِّل هذه الملَكَات بحدّ ذاتها هذه الأسباب التوليديّة). وبناءً عليه، تتّصف هذه الأسباب بطابعها السيكولوجيّ بشكلٍ أساسيّ (فتكون مثلاً خيالاً أو فكراً أو شغفاً أو قد تكون أيضاً، في ما يتعلّق بحالة الاستعارة الخاصّة، شيطان التماثل. ويلخِّصُ تودوروف بهذه التعابير[372] فكر دو مارسي بهذا الشأن، قائلاً: «إنَّ الإنسان مفطورٌ على ربط الأمور في ما بينها؛ وبناءً عليه إنّه من صلب طبيعة الإنسان أن يُنتِجَ المحسنات البيانيّة» ـ ويخطر ببالنا أيضاً هذا الإقرار الذي أدلى به فلوبير، ومفاده: «تنهشني التشابيه كما تنهشُ الحشرات الإنسان، وأمضي وقتي بسحقها، فجُمَلي تَعِجُّ بها»[373] («Je suis dévoré de comparaisons comme on l'est de poux, et je ne passe mon temps qu'à les écraser; mes phrases en grouillent»). وتتّصف كذلك هذه الأسباب بطابعها الألسنيّ اللُّغويّ، فمثلاً: «لِمَ يحتوي كلام الأطفال والأشخاص المتوحّدين والجاهلين، كما سبق وذكرنا، بكامله على المحسنات البيانيّة التي تُدهِشنا؟ يُعزى سبب ذلك بلا ريبٍ إلى واقع أنّهم يجدون أنفسهم، كونهم لا يعرفون إلاّ عدداً محدوداً من الكلمات، مُلزَمين باستمرارٍ باستعمالها لسدّ مسدّ تلك التي لا زالت تنقصهم. وبناءً عليه، نُدرك ما الذي حدا بادئ ذي بدءٍ إلى إيجاد المحسنات البيانيّة. إنَّ ركاكة اللّغة كانت ببساطةٍ الدافع وراء ذلك[374]. ومن المؤكّد أنَّ اللّجوء إلى هذا المحسن البيانيّ أو ذاك قد يتوقّفُ على وجود ثغرةٍ ما في النظام المُعجميّ، فعلى سبيل المثال، إنّ افتقار اللّغة الفرنسيّة إلى نقيضٍ لكلمة «مُتأخِّر» («tardif») أو «سهِّل» («faciliter») يُفسِّر بلا أدنى شكّ تواتر الاستعمال الإغراقيّ لعباراتٍ من مثل «في ساعةٍ ليست بمتأخِّرةٍ» («à une heure aussi peu tardive») أو «ليس من شأن ذلك أن يُسهِّل الأمور» («ça ne

---

(371) Pierre Fontanier, *Les Figures du discours* ([Paris]: Flammarion, [1968]), p. 161.

(372) Tzvetan Todorov, *Théories du symbole*, collection poétique (Paris: Editions du Seuil, 1977), p. 102.

(373) مثلٌ مأخوذٌ من كتاب: (Gustave Flaubert, *Correspondance*, 9 vols., nouvelle édition augmentée (Paris: [Conard], 1926-1930), vol. III, p. 79).

ونُلاحظ في هذا الصدد وجود ظاهرة مُعاكِسة «للتناقض التداولي التواصلي» (ويسعنا أن نُطلق عليها اسم «تحصيل الحاصل التداولي التواصلي»)، حيثُ يتمّ تعزيز محتوى القول بواسطة الشّكل نفسه الذي يتّخذه فعل قوله.

(374) Fontanier, *Les Figures du discours*, p. 158.

(«facilite pas les choses». ومن المؤكَّد أيضاً أنَّ الصياغة البيانيّة لا تُختزَل البتَّة بترجمتها بتعابير حرفيّةٍ، لأنَّ المعنى الحرفيّ لا يلبَثُ موجوداً فيها بين السطور، ولا يُعاد في أغلب الأحيان تشكيل المعنى المُشتقّ إلاّ تخميناً، فمثلاً: أيّاً يكن ما يقوله ألكمين (Alcmène) في مسرحيّة **أنفيتريون**[375]، فأن نقول «إنّنا لا نقوى على الكره» («dire qu'on ne saurait hair») لا يعني بالضبط «أنّنا نُسامح» («dire qu'on pardonne»). وإنَّ توالد التضمينات وفائض المعنى وتشوُّش الوضوح التأويليّ هي كلُّها تأثيراتٌ أشرنا إليها مراراً وتكراراً، ومن النافل التشديد عليها في هذا الصّدد.

وتبدو برأينا التفسيرات ذات الطبيعة التداولية التواصليّة التي يمحّصها كانتيليان في معرض تساؤله عن شروط استعمال «الإلماح» («insinuation») أكثر إثارةً للاهتمام لأنَّها تُعنى بمجمل الصِيَغ المُضمَرة، وهو يقول عنها ما يلي: «إنّنا نستعملها لهدفٍ ثلاثيٍّ: أوّلاً، حين تساوِرُنا الشكوك حول وجوب التعبير بصراحةٍ أم لا؛ ثمّ ثانياً، حين تحول أصول اللّياقة دون الكلام المباشر؛ وأخيراً، بقصد بلوغ هدف الأناقة فحسب، ولأنَّ للحداثة والتنوُّع سحراً يفوق سحر علاقة الوقائع المباشرة»[376].

سنتطرّق مباشرةً إلى الهدف الأخير. يسندُ فونتانيي هذه المتعة وهذا السحر النابعَين من الصِيَغ غير المباشرة إلى المحسنات البيانيّة كذلك، لأنَّها «تُضفي على الكلام [...] المزيد من الفائدة واللّذة» في نطاق أنّها تُكسِب المحتويات «شكلاً غريباً يُقنِّعُها من دون أن يُخفيها»[377]. ويُمكننا مقارنة هذه الصياغة لفونتانيي مع تلك التي يُدلي بها بنيامين (Benjamin) بشأن لعبة الغميضة، ومفادها: «من المُمتع أن يختبئ المرء، ولكن إن لم يعثُر عليه أحدٌ، فهنا الكارثة». وتكمن متعة الشخص الذي يُرمِّز في حجب نيّته التواصليّة التداوليّة الحقيقيّة، وأن يراها تُفتضح بعد حين، حسبَ رغبته (لأنَّ المحسن البيانيّ هو كذبةٌ تتوخّى أن يُعترف بها باعتبارها كذا). بينما تكمن متعة الشخص الذي يفكّ الترميز في التوصُّل إلى حلّ

---

(375) في المشهد الثاني من الفصل السادس، بيتَي الشعر 1418-1419 من مسرحية *Amphitryon*.

(376) مثلٌ مأخوذٌ من: Quintilian, *Institution oratoire*, collection des universités de France, texte établi et traduit par Jean Cousin (Paris: Société d'édition les belles lettres, 1975-1980), livre IX, 2, p. 189.

(377) Fontanier, *Les Figures du discours*, p. 167.

هذا اللُّغز الذي تُشكِّله الصياغة غير المباشرة. ويشعرُ كلاهما في نهاية المطاف بمتعة تواطؤٍ مماثلةٍ لتلك التي تنتابُ الشخص حين يلعب لعبة الأحاجي. وكلَّما كان التبادل التواصليّ محفوفاً بالمخاطر، تفاقمت مخاطر أن يفشَلَ المُحاوِر، ويا للمصيبة، في التوصُّل إلى اكتشاف المعنى المُستتر الذي يُخفيه المتكلِّم في القول، وازداد في المقابل الإعجاب بالذات الذي يشعر به الشريكَان في هذا التبادل، إذا ما بلغَ خواتمه السعيدة.

أمّا بالنسبة إلى الحافزَين الآخرَين اللَّذَين ينسبهما كانتيليان إلى استعمال الإلماحات، حيثُ نعتبرُ الثاني «نبيلاً»، في حين يُشكِّل الأوَّل حيلةً خطابيّةً مشكوكاً فيها أكثر (وبمماثلةٍ، يقول فونتانيي[378] بشأن الإغراق، إنَّنا «نستعمل هذه الصورة بدافع التواضع أو المراعاة أو حتّى المكر»)، فهما يتطابقان تمام المُطابقة مع فئتَي المقامات الكبيرتَين حيثُ نُلاحظُ من جانبِ المتكلِّم ميلاً مُعلَناً لاستعمال مُختلف الإمكانيّات التي تُتيحها أمامه اللّغة بغية «حجب» رأيه الحقيقيّ.

1. يعجز المتكلِّم، لأسبابٍ تتعلّق باللِّياقة، عن استعمال العبارة المباشرة

(1) فيلجأ إذاً إلى الصيغة المُضمَرة لتذليل عقبة وجود بعض المُحرَّمات في مجتمعٍ معيَّنٍ، وذلك بغية إحباط بعض الرقابات ذات الطابع الأخلاقيّ أو السياسيّ أو القانونيّ والاحتيال على قانون الصمت الذي يُحظِّر التحدُّث عن بعض الأغراض الخطابيّة، ففي سياقٍ اجتماعيٍّ معيَّنٍ، ثمّة العديد من الأمور التي ينبغي «عدم الإتيان على ذكرها» - بشكلٍ مباشرٍ على الأقلّ.

فمثلاً، لا يكون لائقاً بصورةٍ دائمةٍ أن «نعترفَ» بحبِّنا، وذلك لأنَّ حشمة الجنس تأباه، أو لأنَّ المسألة تتعلَّق بانحرافٍ مُذنِبٍ، فنستعمل عندئذٍ الإغراق (كما في عبارة «لا أكرهك البتَّة» («Je ne te hais point») التي تقولها شيمين، ولكن أيضاً في العبارة التي توجِّهها سيلفيا إلى دورانت المُتنكِّر بشخصيّة بورغينيون، قائلةً: «قُمْ باللّه عليك، أتوسَّل إليك أن تنهض، قد يأتي أحدهم. سأقول لك كلّ ما يسرُّكَ، ماذا تريد منِّي؟ لا أكرهك البتَّة، هيَّا انهض؛ سأحبُّك إذا ما استطعت، أنتَ لا تُنفِّرني أبداً، وحسبُك سماع ذلك»[379] («Lève-toi donc, je t'en conjure; il peut venire quelqu'un. Je dirai ce qu'il te plaira; que

---

(378) المصدر نفسه، ص 133.

(379) مثلٌ مُقتبسٌ من المشهد الثاني من الفصل العاشر من مسرحية ماريفو *Le Jeu de l'amour et du hasard*.

me veux-tu? Je ne te hais point, lève-toi; je t'aimerais si je pouvais, tu ne me déplais point, cela doit te suffire»)، أو قد نلجأ إلى مُختلفِ أشكال المواربة، كما يظهر ذلك في المثلَين التاليَين:

المثل الأوّل: فيدر: سيهولُك ما ستسمعينه

أنا مُتيَّمةٌ... بمجرّد ذكر اسمه المحتوم أُصاب برعشةٍ وترتعد فرائصي

فأنا أحبُّ...

أوينيون: مَن؟

فيدر: أتعرِفين ابن الأمازونيّة؟

هذا الأمير الذي طالما ظلمتُه أنا شخصيّاً

أوينيون: أتقصدين هيبوليت؟ يا إله السموات!

فيدر: أنتِ ذكرتِ اسمه[380]،

(PHÈDRE. - Tu vas ouïr le comble des horreurs.
J'aime... A ce nom fatal, je tremble, je frissonne,
J'aime...
OENONE. - Qui?
PHÈDRE. - Tu connais ce fils de l'Amazone,
Ce prince si longtemps par moi-même opprimé?
OENONE. - Hippolyte? Grands Dieux!
PHÈDRE. - C'est toi qui l'as nommé),

المثل الثاني: فيدر: أجل إنّني متيَّمةٌ بتيزيه وأذوب حبّاً به يا سموّ الأمير

ولن أخفي على سموّك أنّني أهيم به وبئسَ المصير

ولكنّني لا أراه قلوباً متقلّباً وصاحب قلبٍ فرفار

ولا عاشقاً في اللّيل وخائناً حتّى إله الموت في النهار

بل أهواه مُخلصاً أنوفاً وحتّى أحياناً جفول

جذّاباً فتيّاً وما من قلبٍ إلاّ وبه متبول

(380) مثلٌ مأخوذٌ من المشهد الأوّل من الفصل الثالث من المصدر نفسه.

وبصفته يتحلّى بالشيم التي نصبغها على الآلهة، مثلك تماماً

كانت لديه صراحتك وعيناك وكلامه مع كلامك كان متناغماً[381]

(PHÈDRE. - Oui, Prince, je languis, je brûle pour Thésée.
Je l'aime, non point tel que l'ont vu les enfers,
Volage adorateur de mille objets divers,
Qui va du Dieu des morts déshonorer la couche;
Mais fidèle, mais fier, et même un peu farouche,
Charmant, jeune, traînant tous les cœurs après soi,
Tel qu'on dépeint nos Dieux, ou tel que je vous vois.
Il avait votre port, vos yeux, votre langage [...]).

كما أنّه من الوقاحة أن نتحدَّث عن الأمور الجنسيّة، لذلك نستعمل التورية واللُّغز والتلميح والكلام المرموز.

ومن المُجازفة أن نتطرّق في بعض البلدان ذات النظام «التوتاليتاريّ» إلى أحد المواضيع المُعرِّضة للشُبهة، فنلجأ إذاً إلى الاستعارة والمَثَل والاستعارة المرموزة والمحسن البيانيّ التخيُّليّ[382]، كما في المثل التالي:

لقد حاولتُ أكثر من مرّةٍ أن أحلِّلَ السَّبب الذي كان يدفعني إلى كتابة مؤلَّفاتي بطريقةٍ مُعيَّنةٍ، فحدَّثتُ نفسي قائلاً: «في إسبانيا، كان السواد الأعظم من الكتّاب مُرغمين على وصف الأمور بطريقةٍ غير مباشرةٍ. لماذا؟ لأنَّهم حين كانوا

(381) مثلٌ مأخوذٌ من المشهد الثاني من الفصل الخامس من المصدر نفسه.

(382) يسمح اللّجوء إلى الخيال بإحباط بعض الرقابات، وهو أمرٌ جدّ معروفٍ ـ يعرفه على أيّ حالٍ برنارد بيفو الذي يتساءل بشأن كتاب **المتعة اللذيذة** (*Bon plaisir*)، أي بكلام آخر فهو يطرح على مؤلّفته فرانسواز جيرو (Françoise Giroud) أسئلةً من مثل «لقد تساءلت ما إذا اخترتِ أسلوب الخيال لأنّك كنت عاجزةً عن... لأنّه يُعدّ بالأحرى وسيلةً جيّدةً لقول أمورٍ... هأ... ولاسيّما بشأن السلطة، أعني بعض الأمور التي ربّما لا يسعك قولها بوجهٍ آخر؟» («Alors je me suis demandé si vous aviez choisi la fiction parce que vous ne pouviez pas..., parce que c'était un bon moyen de dire des choses... heu... notamment sur le pouvoir, que vous ne pouviez peut-être pas dire autrement?»). إلاّ أنّ جيرو أنكرت ذلك قائلةً: «لم أمتنع عن قول الكثير من الأمور بشأن السلطة» («Il n'y a pas beaucoup de choses que je me suis privée de dire sur le pouvoir autrement»). وقد أصرّ بيفو قائلاً: «لربّما كان ثمّة أمور أكثر... فظاعةً؟» («Peut-être y a-t-il quelque chose de... encore plus terrible?»). وأنكرت جيرو مجدّداً قائلةً: «كلا [وضحِكَتْ] حقاً كلا! أعتقد أنّني لستُ بحاجةٍ إلى الاختباء خلف ستار الخيال» («Non [rire] vraiment pas! Je crois que je n'ai pas besoin de me réfugier derrière la fiction»). (مثلٌ مأخوذٌ عن برنامج «المناجاة» (Apostrophes)، «تقلّبات السلطة»).

يتكلّمون بطريقةٍ مباشرةٍ كان ينتهي بهم المطاف في السجن، فكانوا مرغمين على اللّجوء إلى الرموز وإلى وجهات النظر الموارِبَة. نعم، لربّما كنّا موهوبين لهذا النّوع من الكتابة لأنّنا وَرِثنا قروناً من الرقابة[383]،

(«Plus d'une fois j'ai essayé d'analyser pourquoi je faisais mes oeuvres d'une certaine manière. Je me disais: en Espagne, la plupart des écrivains ont été obligés de raconter les choses indirectement. Pourquoi? Parce que quand ils le faisaient de façon directe, ils se retrouvaient en prison. Ils étaient contraints de recourir à des paraboles, à des vues de biais. Oui, peut-être sommes-nous très doués pour ce genre d'écriture parce que nous avons derrière nous des siècles de censure),

نلجأ كذلك إلى مُختلف هذه التقنيّات التي يُنقِّب عنها بيريلوفيتش في مؤلّفات النقّاد السوفياتيّين والتي تُستمَدُّ من «لسان إيزوب» (أو «ممّا يُقال بكلام آخر»، على غرار كيفيّة قول ما لا يُمكن وصفه وصياغة ما لا يُمكن التعبير عنه)، ففي فرنسا مثلاً، يُحظَّر قول كلام عنصريٍّ بشكلٍ واضحٍ، ولاسيما إن كان مناهضاً للساميّة (فقد ولّى الزمن السّعيد الذكر حيثُ لم يكُن ثمّة ما يردعنا عن قول عبارةٍ كتلك التي أدلى بها باريز (Barrès)، ألا وهي: «إنَّ درايفوس مطبوعٌ على الخيانة، ويُمكنني أن أستشفَّ ذلك انطلاقاً من أصوله العرقيّة» («Que Dreyfus est capable de trahir, je le conclus de sa race»). ولكنّنا نستطيع دائماً أن نحتال على هذا القانون، حاذين حذو ميشال دروا، عبر استعمال التلميح والمحسن البيانيّ الإضماريّ . . .[384].

يقول فرويد[385] ما يلي: «كلُّنا يعلمُ أنَّ النقل العاطفيّ يسِمُ، أثناء المنام، التأثير الذي يُخلِّفه كبت التفكير الواعي [. . .]. ولا يندرجُ تحت خانة النقل

---

(383) Carlos Saura, *La Quinzaine littéraire*, no. 282 (15 juill. 1978), p. 22.

(384) راجع أيضاً في كتاب **المشغل** للمؤلّف غرومبورغ (Grumberg, *L'Atelier*)، مختلف الطرق والأساليب الكلامية والحركية التي تستعملها الشخصيات للدلالة على أنّ «فلان يهوديّ» («Un tel est juif»).

وإليكم مثلاً آخر يُظهر واقع أنّنا نستطيع أحياناً، بفضل مُضمَّنٍ ما، الحصول على معلومةٍ نودّ الحصول عليها من دون أن نقع تحت طائلة القانون، ففي إيرلندا مثلاً حيثُ يُمنع أيّ تمييز دينيّ لدى تشغيل العمّال، يطرحُ أرباب العمل على المتقدّم للوظيفة السؤال التالي: «أين تسكن؟» («Où habitez-vous?»)، ولا يختلف في الواقع هذا السؤال، بمقتضى آليةٍ تنتمي إلى المُضمَر «التطبيقيّ العملي» (أي التساوق المادي شبه الضروري)، عن السؤال المحظور بتعابيرَ قانونيةٍ، ألا وهو «هل أنتَ كاثوليكي أم بروتستانتي؟» («Êtes-vous catholique ou protestant?»).

(385) Freud, *Le Mot d'esprit et ses rapports avec l'inconscient* = *Der Witz und seine Beziehung zun Unbewussten*, pp. 262-263.

العاطفيّ زَيْغ تسلسل الأفكار فحسب، بل أيضاً مُختلف أنواع التمثيل غير المباشر، ولاسيّما استبدال عنصرٍ مُعبّرٍ وإنّما مُهينٍ، بعنصرٍ آخر لااكتراثيّ، ولكنّه لا يتعارض ظاهريّاً مع الرقابة، أي بعنصرٍ يُمثّل تلميحاً أبعد ما يكون عن العنصر الأوّل أو عِوَضاً رمزيّاً عنه أو استعارةً أو حتّى تفصيلاً ما من تفاصيله». والحال أنّ هذه الأساليب والطرق هي كذلك من مقوّمات «لسان إيزوب»، ويُشبهُ الخطاب المُضمَر إلى حدٍّ بعيدٍ، مع فارق أنّ عمل «الشَّطب» يُنجز فيه عموماً بشكلٍ واعٍ تقريباً، ما يقوله فرويد عن الكلام الحُلميّ، ومفاده: يُصار في طور الترميز إلى محْو محتويات الظاهر النصيّ المكبوتة؛ في حين يُصار لدى فكّ الترميز إلى إعادة تشكيل النصّ الكامن المُضاف إلى المحتويات الظاهرة. ومرّةً أخرى بعد، نفهم كيفيّة تكييف سلوك فكّ الترميز مع ما نفترِضُه عن السلوك الترميزيّ. وعليه، نميل إلى توجيه العمل التأويليّ، إن لم يقف بوجه هذه القراءة أيّ عائقٍ، نحو المواضيع التي تكون من المحرَّمات والتي تكون بالتالي ميَّالةً بطبيعتها إلى الصياغة غير المباشرة، كأن نرى مثلاً خلف قولٍ بريءٍ ظاهريّاً تلميحاً جنسيّاً أو مُضمَّناً فاحشاً، أو أن نستشفّ في كلّ مكانٍ تلميحاتٍ سياسيّةً مستترةً - ويتمّ ذلك أحياناً من خلال «تضخيم» نوايا المُرسِل المُعلَنة، فمثلاً: أبدت إحدى المُمثّلات البولونيّات الملاحظة التالية: «يترقَّبُ الجمهور رصد التطابقات مع زمننا الحاضر، فهو يترصَّدُ أقلّ تلميح إلى وضع البلد الراهن، ويذهب حتّى أحياناً إلى حدّ اختراعه، فكم من مرّةٍ، يُخيَّلُ فيها إلى المُمثِّلين أنّهم يلعبون نصّاً بسيطاً مجرّداً من أيّ تضمينٍ سياسيٍّ، وإذا بهم يُفاجأون على خشبة المسرح بسماع موجةٍ من التصفيق إثر الردّ السّريع الذي يُجيب به أحدهم على الآخر أو عقب تفصيلٍ إخراجيٍّ! إنّها ردّة فعلٍ متواطئةٍ إزاء ما يعتقده الجمهور طرفة عينٍ مقصودة من الممثّلين. ويجِدُّ الشعبُ بأسره في البحث عن هذا التواطؤ»(386) («Le public est à l'affût des correspondences avec notre époque. Il guette la moindre allusion à la situation du pays, et va parfois jusqu'à l'inventer. Que de fois, croyant jouer un texte simple, dénué de toute connotation politique, les acteurs de théâtre n'ont-ils pas été surpris d'entendre crépiter les applaudissements, après la répartie de l'un d'eux, ou sur un détail de mise en scène! Une réaction de complicité à ce que le public

(386) مثلٌ مأخوذٌ عن كريستينا جاندا، أقوال جمعها كوجان في: Annick Cojean, *Le Monde* (26-27 déc. 1982), p. 9.

croit être un clin d'œil entendu des artistes. Le peuple tout entier cherche cette complicité»).

(2) المُضمَر و«التصوير»

إليكم المثل الآتي:

طرح المُسِنُّ نازير لاروش على حين غفلةٍ السؤال الآتي: «هل خَبَزتِ؟» فنظرت إليه زوجة أخيه لبعض الوقت مذهولةً، ولكنّها ما لبثت أن فهمَت أنّه كان يسألها أن تُحضر له الخبز. إلاّ أنّه وبعد مضيّ وقتٍ قليلٍ، بادرها مُجدّداً قائلاً: «أتعمل مضخّتكِ على خير ما يُرام؟»

وكان يرمي من وراء هذا السؤال أن يلفتَ نظرها إلى أنّه ما من ماءٍ على الطاولة، فنهضت أزالما لتجلب له الماء، وما إن إدارت ظهرها حتّى حانت منه طرفة عينٍ مازِحة نحو ماريا شابدولين، وهمسَ قائلاً لها: «أُطلعها على ما أريده بالأمثال، فهذه الطريقة أكثر تهذيباً».

[...] وواصلَ نازير لاروش استعمال الأمثال لكي يحصل على طلباته، قائلاً:

«هل كان خنزيرك ضامراً؟»، أو قائلاً أيضاً: «هل تُحبّين سكّر بلادنا؟ فأنا أحبُّه بلا سببٍ معيّنٍ»(387).

(Le vieux Nazaire Larouche [...] demanda brusquement: «Avez-vous cuit?»

Sa belle-sœur, étonnée, le regarda quelques instants et finit par comprendre qu'il demandait ainsi du pain. Quelques instants plus tard, il interrogea de nouveau:

«Votre pompe, elle marche-t-y bien?»

Cela voulait dire qu'il n'y avait pas d'eau sur la table. Azalma se leva pour aller en chercher, et derrière son dos il adressa à Maria Chapedelaine un clin d'œil facétieux.

«Je lui conte ça par paraboles, chuchota-t-il, c'est plus poli»

[...] Nazaire Larouche continuait à se faire servir par paraboles.

---

(387) مثلٌ مأخوذٌ من كتاب: Louis Hémon, *Louis Hémon. Maria Chapdelaine: Récit du Canada français*, illustrations de Henri Faivre ([Paris]: Hachette, 1951), p. 17.

«Votre cochon était-il bien maigre?» demandait-il; ou bien: «Vous aimez ça, vous, le sucre du pays? Moi, j'aime ça sans raison»).

يُعتبر التحدُّث بالأمثال أكثر تهذيباً. ويعبِّرُ المُسنّ نازير لاروش بأسلوبه الخاصّ عن فكرةٍ تحدَّث عنها منظِّرو التفاعل مرّاتٍ لا تُعدّ ولا تُحصى[388]، ومفادها: يكمن أحد أهمّ حوافز المواربة ومهامّها الأساسيّة في تخفيف وطأة التهديد الذي تُشكِّله الأفعال المُهدِّدة لوجهَي المُرسَل إليه الذي تتوجَّه إليه الرسالة الكلاميّة سواء الوجه الإيجابيّ أم السَّلبيّ (وتقول لوسيل (Lucile) مثلاً في المشهد الثالث من الفصل الثامن من مسرحيّة **العهود مُفشية الأسرار**، ما يلي: «أضع نفسي مكانك؛ لا يطيب للمرء سماع بعض الأمور عنه وجهاً لوجه» («je me mets à votre place; ce n'est pas agréable de s'entendre dire de certaines choses en face»). وينطوي هذا التفسير فضلاً عن ذلك على التفسير المذكور آنفاً، في حال سلَّمنا جدلاً بأنَّ انتهاك كلّ مُحرَّم يُشكِّل نوعاً من أنواع «الإهانة»، وهو يصلحُ على سبيل المثال في الحالات التالية، ألا وهي:

- الإغراق، وقوامه بحسب دوكرو أن نستبدل قولاً حقيقيّاً يصعبُ الإدلاء به لأسبابٍ تتعلَّق باللِّياقة بالقول المُباح والأقرب طبيعيّاً إلى القول المُرتقَب[389]؛
- التهكُّم، الذي يُعبِّر بطريقةٍ غير مباشرةٍ عن محتوى انتقاصيٍّ أي محتوى يُهدِّد وجه المُحاوِر الإيجابيّ، حين يتَّخذ التهكُّم من المُحاوِر هدفاً للتصويب عليه - وإنْ وقعنا أيضاً في بعض الأحيان، ولو كانت نادرةً، على الصورة المُعاكِسة

(388) ونذكر منهم على سبيل المثال: Goffman, *Replies and Responses*, and Searle, «Indirect Speech Acts,» in: Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics*; Lakoff, *Linguistique et logique naturelle = Linguistics and Natural Logic*; Goody, ed., *Questions and Politeness: Strategies in Social Interaction*; Brown et Levinson, «Universals in Language Usage: Politeness Phenomena,» in: Goody, ed., *Questions and Politeness: Strategies in Social Interaction*; Eddy Roulet: «Stratégies d'interaction, modes d'implicitation et marqueurs illocutoires,» *Cahiers de linguistique française*, no. 1 (1980), et «Echanges, interventions et actes de langage dans la structure de la conversation,» *Etudes de linguistique appliquée*, no. 44 (1981),

وغيرهم العديد.

(389) وإليكم مثلاً تطبيقيّاً مُطابقاً لهذا المبدأ، ألا وهو: يستعيضُ فريتز لانغ (Fritz Lang) في فيلم «الغضب الشديد» (Fury) عن التلنيش «الحقيقيّ» الذي لحق بأسودٍ لأنّه ضاجع فتاةً بيضاء البشرة، باعتبار أنّه من المحال تبيين ذلك كما كان ليوذ أن يفعل، بتمثيل تلنيشٍ آخر... وقع ضحيّته شخصٌ أبيضُ اتُّهِم ظُلماً بالخطف، فيقول ما يلي: «لقد قلتُ عن التلنيش أقصى ما كان ممكناً قوله في تلك الحقبة» («J'ai dit du lynchage le maximum qu'il était possible à l'époque»).

التي نُسمِّيها بِ «المعاتبة»، فمردّ ذلك بكلِ بساطةٍ إلى أنَّه، إلى جانب القانون الذي يقضي بضرورة عدم التهجُّم بشراسةٍ على وجه المحاور الإيجابيّ، ثمّة قانونٌ معاكِسٌ يقضي بوجوب عدم المغالاة في الإشادة بوجه المُحاوِر الإيجابيّ هذا نفسه؛

● المحسن البيانيّ التواصليّ، وقوامه التظاهر بعدم مجابهة الشخص الذي نُهاجمه كلاميّاً مجابهةً مباشرةً، وذلك بغية تلافي أن «يأخُذَ على خاطره»، فنتكلّم عليه «من وراء ظهره»، لأنَّ ذلك يكون أكثر تهذيباً، وإليكم المثل الآتي:

السيِّدة لورانس: طالما يوجد أشخاصٌ يتكلَّمون عليّ من وراء ظهري! [...]

ميمي (موجِّهةً حديثها إلى لورانس): أإليَّ أنا تقولين ذلك؟ [أي، أتلومينني من وراء ظهري لأنَّني تكلَّمتُ عليك من وراء ظهرك...]

سيمون: رويدكِ، فهي لم تقصدكِ بكلامها!

ميمي: أإليّ أنا تقولين ذلك؟

السيِّدة لورانس: مَن بها مسلَّةٌ توخزها...

ميمي: تصوَّري أنَّني أتكلَّم عليك من وراء ظهرك بدافع التهذيب(390).

(MADAME LAURENCE. - Tant qu'il y en aura qui parlent dans mon dos! [...]

MIMI (à Laurence). - C'est pour moi que vous dites ça? [=vous me reprochez dans mon dos de vous parler dans votre dos...]

SIMONE. - Elle a pas parlé de toi, voyons!

MIMI. - C'est pour moi que vous dites ça?

MADAME LAURENCE. - Qui se sent morveuse...

MIMI. - C'est par politesse que je parle dans ton dos, figure-toi),

● وبالطبع، تُضاف عندئذٍ، في حالة المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق، نظريّة الأفعال المُشتقَّة إلى نظريّة «التصوير» (وهي عبارةٌ مُبهمةٌ بعض الشيء وتُترجِمُ كما هو شائعٌ ما يُسمِّيه غوفمان بِ «العمل على صون الوجه» («face-work»)، إنْ كان صحيحاً أنَّ كلّ صياغةٍ غير مباشرةٍ لفعل الكلام مصدرها قلق المتكلِّم لجهة تخفيف التهديد المحتمل الذي سيُشكِّله على المُحاوِر(391) -

(390) Grumberg, *L'Atelier*, p. 55.

(391) والجدير بالذكر أنّ ثمّة أنواعاً أخرى من «المُلطِّفات» و«الكلام المطّاط» («Hedges») غير المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق. راجع بهذا الشأن: غوفمان ولاكوف وبراون وليفنسون ورولبه...، إلخ.

وتختلف درجة التخفيف باختلاف نمط الصياغة المُختارة. وهكذا، فمن خلال تعداد بعض الإمكانيّات التي تقدّمها اللّغة الإنجليزيّة للدلالة على معنى عبارة «أعِرني سيّارتك» («Prête-moi ta voiture») والوارِدة بحسب تسلسل التهذيب التنازليّ، كما هو مُبيَّنٌ أدناه:

ما من احتمالٍ على ما أعتقد أن تُعيرني سيّارتك لبضع دقائق، أم أنا مُخطئ؟ («There wouldn't I suppose be any chance of your being able to lend me your car for just a few minutes, would there?»)

هل من أملٍ مُصادفةً أن تُعيرني سيّارتك لبضع دقائق؟ («Could you possibly by any chance lend me your car for just a few minutes?»)

أتمانع لو استعرتُ سيّارتك لبعض الوقت؟ («Would you have any objections to me borrowing your car for a while?»)

أودّ أن أستعير سيّارتك، إن كان لا مانع لديك («I'd like to borrow your car, if you wouldn't mind»).

هل لك أن تُعيرني سيّارتك من فضلك؟ («May I borrow your car please?»)

أعِرني سيّارتك («Lend me your car»)،

يخلص براون وليفنسون إلى استنتاج أنّ تهذيب صياغةٍ ما يكون نسبيّاً مع المجهود الذي يبذله المتكلِّم لصون وجه المُحاوِر. وهما يؤكّدان أيضاً ما يلي: كلّما بذل المتكلِّم جهداً أكبر في العمل على صون الوجه، بدا وكأنّه يسعى إلى إرضاء متطلّبات وجه المُستمع»[(392)].

وفي الواقع، إنّ حالة الالتماسات غير المباشرة هي الحالة التي تتجلّى فيها عمليّة «التصوير» بأبهى حللها، إلاّ أنّ حالة الأفعال المُهدِّدة لوجه المُحاوِر الإيجابيّ (على غرار الانتقادات والأحكام المُكَدِّرة والكلام الجارح، إلى آخره) تُثير اهتمامنا أكثر، لأنّ مراقبة طريقة عمل مثل هذه الأفعال تسمح بإبراز واقع أنّ

---

(392) Brown et Levinson, «Universals in Language Usage: Politeness Phenomena,» in: Goody, ed., *Questions and Politeness: Strategies in Social Interaction*, pp. 147-148.

ثمّة تقارباً وثيقاً بين صياغة المُضمَر والتعبير عن نيّة الإيذاء، وهو أمرٌ يصدُم بلا ريب. وهكذا:

● ما من نقيضٍ لفعل «ألمَحَ» («insinuer»)، بمعنى أنّه ينعدم وجود أي فعلٍ يعني أن «يُضمِر المرء شيئاً بشكلٍ خيِّرٍ أو تقريظيٍّ أو يرمي إلى إضفاء قيمةً» («dire implicitement de façon bienveillante, valorisante ou laudative...») ويُعزى سبب ذلك إلى أنّنا حين نرغب في قول أمرٍ ما ينحو في هذا المنحى الإيجابيّ، فإنّنا نقوله صراحةً؛

● وقد تُعتبر الصيغة التالية «أُلمِّح أنَّ الجُمَيلة الأولى "ج"» («j'insinue que p») بمثابة اللانحوية، ويُعزى سبب ذلك بادئ ذي بدءٍ إلى واقع أنّها ستُعدُّ متناقضةً[393]، أسوةً بعبارة «إنّني أُضمِرُ أنَّ الجُمَيلة الأولى "ج"» («je sous-entends que p»)؛ ونُحجِمُ كذلك عن قول عبارةٍ من مثل «لقد ألمَحتُ أنَّ الجُمَيلة الأولى "ج"» («j'ai insinué que p»)، في حين أنَّ الصيغة المنفيَّة المُطابقة لها هي جدّ مُثبتةٍ، لأنَّ المتكلِّم غالباً ما ينكرُ الإلماح ولا يتحمَّل مُطلقاً مسؤوليّته. زد على أنّنا لا نُصادف على الإطلاق متتاليةً من مثل «لقد أضمرتُ أنَّ الجُمَيلة الأولى "ج"» («j'ai sous-entendu que p»). ومردّ ذلك إلى أنَّ الصياغة المُضمَرة لا توحي بالثقة (إذ علينا من حيثُ المبدأ أن نقول ما في جعبتنا، والأوْلى بنا أن نقوله بشكلٍ بيِّنٍ)، شأنها شأن العبارات التي تُبيِّتُ نيّة الإيذاء.

وبناءً عليه، من السوء أن نتحدَّث بالسوء

وليس جيِّداً أن نتحدَّث بشكلٍ مُضمرٍ

ويعني ذلك ضمناً

تنطوي النميمة بالتلميح على سوءٍ مُضاعفٍ (وتفضح بالتالي نقص «شجاعة الفرد في تحمُّل مسؤوليّة آرائه»)، فعلى المرء أن يكون صادقاً وشموليّاً (ممّا يستبعدُ المَخرج القاضي بالمدح بصورةٍ دائمةٍ)، ولكن ينبغي عليه في الوقت نفسه تلطيف تعبير الأفعال المُهدِّدة للوجوه...

---

(393) يتحدّث فيندلير (Z. Vendler) بهذا الشأن عن «الانتحار الكلاميّ المنطوق»، في حين تعتبرُ كونت (Conte) في هذا الصدد فعل «ألمَحَ» («insinuer») فعلاً «إنشائيّاً مضادّاً»: (Maria-Elizabeth Conte, «La Pragmatica linguistica,» dans: G. Nencioni [et al.], *Intorno alla linguistica*, SC/10. Readings; 24, introduzione e cura di Cesare Segre (Milano: G. Feltrinelli, 1983), p. 105.

وكوننا غالباً ما نُفكّر بالسوء عن الشخص الآخر، فكيف السبيل إلى قول ما يجول في خاطرنا؟ فها هو المتكلّم يخضع من جديدٍ لنوع من أنواع «الالتزام المزدوج»، إذ يُفترَضُ به أن يُراعي إرشادَين متناقضَين، ألا وهما: أن يكون واضحاً، أي بيّناً/ وأن يُداري الآخر، أي أن يبقى مُضمَراً. وهو غالباً ما يحسم هذا الالتزام المزدوج لصالح قانون اللّياقة - ممّا يُفسّر أنَّ شريحةً كبرى من المُضمَّنات التي حدَّدناها في مُختلف المدوَّنات التي ارتكزت عليها دراستنا هذه تنتمي إلى فئة «الإلماح» (ويعني هذا المُصطلح من وجهة نظرنا «مُضمَّناً يُبيِّتُ نيّة الإيذاء»)، وتتعلَّق المسألة بوجهٍ أدقّ بالإلماحاتِ التي تتناول المُحاوِر.

2. المُضمَر والتلاعب

وبالتالي، قد يُعلَّل أحياناً اختيار صياغةٍ مُضمَرةٍ ما عبر واقع أنَّ بعض الاعتبارات ذات الطابع البلاغيّ التداوليّ التواصليّ تجعل من العبارة المباشرة أمراً صعب التحقيق. ولكن قد يحدثُ أيضاً في ظلّ انعدام أيّ تدبيرٍ مُضادٍّ، أن تُستبعَد الصياغة البيِّنة لصالح الصياغة المُضمَرة التي تصلحُ على نحوٍ أفضلٍ لبعض التلاعبات الحاذِقة، والتي يُمكن توظيفها لخدمة النيات الاستراتيجيّة التي تتفاوت درجات نزاهتها - وقد سبق لأرسطو أن نوّه، كما يُذكّرنا ماير في مقدّمته عن كتاب **البلاغة**[394] (*Rhétorique*)، بأنَّ استعمال القياس بمقدّمة واحدة لا ينبعُ ببساطةٍ «من الرغبة في قول ما قلَّ ودلَّ أو في الامتناع عن الإدلاء بما يُجمع عليه كلّ الناس» فحسب، بل أيضاً من نيات غير حميدةٍ إلى حدٍّ ما.

ويكمنُ بالأحرى قوام المثل الأعلى الجدليّ في تمرير [تأكيدٍ ما] باعتباره مُسلَّماً به، أي في إزالة كلّ طابعٍ إشكاليٍّ من فِكر المُخاطب من شأنه أن يوقظ أيّ اعتراضٍ عليه أو أن يُعزِّزَه.

كما تختلف منافع أسلوب الإضماريّة باختلاف المحتوى المُضمَر المطروح، أي تبعاً لاتّخاذه وضع الافتراض أم المُضمَّن، على الشّكل المُبيَّن أدناه:

(1) باعتبار أنَّ الافتراضات تكون مُدرجةً في المتتالية الكلاميّة أسوةً

(394) Aristote, *Rhétorique*, le livre de poche; 4607. Classiques de la philosophie, introd. de Michel Meyer; trad. de Charles-Émile Ruelle; rev. par Patricia Vanhemelryck; commentaires de Benoît Timmermans (Paris: Librairie générale française, 1991), pp. 26-27.

بالمحتويات البيِّنة، يعجز كلا المتكلِّم والمُحاوِر عن إنكار وجودها، إلاّ أنَّ استعمالها يخضع للشروط التالية: لا يجدر بالمتكلِّم أن يُعبِّر عن وحدة محتوى على شكل افتراضٍ إلاّ إذا:

1. كانت لديه أسبابٌ وجيهةٌ تدفعه إلى اعتبار أنَّ المعلومة المطروحة هي أمينةٌ للواقع بما لا يقبل النقاش؛

2. أم كانت لديه أسبابٌ وجيهةٌ لافتراض أنَّ المُحاوِر يملك هذه المعلومة أصلاً لحظة وقوع فعل الكلام الفرديّ ـ وفي الواقع، لا تُطبَّق هذه القاعدة، كما سبق ورأينا في مُستهلّ هذه الدراسة، إلاّ على المحتويات التي تكون «مُهمَّةً» بالنّسبة إلى المُحاوِر بوجهٍ خاصٍّ؛

3. أم في حال لم تُشكِّل هذه المعلومة من وجهة نظره موضوع الرسالة الكلاميّة الأساسيّ الواجب نقله.

وبموازاة ذلك، قد تُساوِرنا شكوكٌ بأنَّ الافتراض «منقولٌ بشكلٍ غير شرعيٍّ» لخدمة بعض المصالح البرهانيّة غير الحميدة في المقامات التالية:

1. حين تتَّصف المعلومة المُفتَرَضة بحقيقتها المشكوك فيها بالحدّ الأدنى.

وتقضي الحيلة في هذا الصدد بمحاولة «تمرير» هذه المعلومة المُريبة من دون أن يُصار إلى الاعتراض عليها عبر افتراضها ـ أي بكلامٍ آخر، عبر تقديمها باعتبارها حقيقيّةً من تلقاء ذاتها، فلا يُمكن دحضها ولا جِدال فيها. ولكن إنْ أصرَّ المُحاوِر على الرُغم من كلّ شيءٍ على الاعتراض عليها ومقاومة مفعول- بداهةٍ من هذا القبيل، فلا يسعه فعل ذلك إلاّ وفق صيغةٍ جدليّةٍ (إذ لا يوضع هنا في دائرة الشكّ محتوى القول فحسب، كما هو الحال في الاعتراض على المحتوى المُقرَّر، بل يُثار الشكّ أيضاً حول تصرُّف المتكلِّم التعبيريّ الأدائيّ)، وهي صيغةٌ لا يكون المُحاوِر مُستعدّاً للّجوء إليها بصورةٍ دائمةٍ. ويُعوِّل المتكلِّم تحديداً على ذلك، أي على واقع أنَّ المُحاوِر سيؤثِر في أغلب الأحيان «تمرير» الافتراض من دون الاعتراض عليه على الرُّغم من أنَّه لا يوافق عليه، حين يُعلن على سبيل المثال وبحسم ما يلي: «إنَّ مدينتنا التي توالى على إدارتها طوال ثماني سنواتٍ أشخاصٌ غير أكفّاء ترجو اليوم أن يتولّى زمام السلطة فيها رئيس بلديّةٍ جديدٍ» («Notre ville qui a été gérée huit ans par des incapables, souhaite un nouveau maire»). ويكمن دهاء تقديم المعلومة على هذا المنوال في أنَّ

المُخاطب، وبمجرّد مواصلة الحديث، يجد نفسه أمام خيارٍ بين شرّين، فإمّا أن يدع الأمر «يمرّ» من دون أن يُسجّل اعتراضاً عليه، وسيبدو حينئذٍ وكأنّه يقبَلُ الافتراض، فيُعزّز بتصرُّفه هذا، أي بمجرّد امتناعه عن الاعتراض عليه، بداهته الظاهريّة؛ أم أن يعترض عليه، تحت طائلة أن يُتّهم بأنّه يُقاطع المُحادثة، وبأنّه يخرج عن الموضوع، وحتّى بأنّه يسعى إلى تسميم النقاش[395].

2. حين يتمّ خرق القاعدة الثانية من قواعد الاستعمال، وذلك حين يكون للمتكلِّم أسبابٌ وجيهةٌ تدفعه إلى افتراض أنّ المُحاوِر لا يزال يجهل المعلومة المُفتَرَضة (التي تكون حقيقتها هذه المرّة مُريبةً بدرجةٍ أقلّ وأهميّتها لا نقاش فيها).

وعليه، تتلوّن الحيلة فتتّخذ أشكالاً مُختلفةً. وتقضي بأن ندسّ المعلومة الجديدة مواربةً (بواسطة المحتويات المُقرَّرة) متظاهرين بأنّنا نُخبِر المُحاوِر أمراً مغايراً، مُتحرِّزين هكذا خلف متراس الفضيلة، فنقول مثلاً: «ماذا، أيُعقل أنّك لم تكن تعرف ذلك؟ ولكنّني كنتُ مُقتنعاً أنّك كنتَ على علمٍ . . .» («Comment, tu ne le savais pas? Mais, j'étais persuadé que tu étais déjà au courant...»).

3. في حال كانت هذه المعلومة المُفترضة تُشكِّلُ فضلاً عن ذلك موضوع تصرُّف المتكلِّم الخطابيّ الحقيقيّ (ويقول جاك[396] (F. Jacques)، ما يلي: «وللمفارقة، يخدِمُ التواصل مصالح المحتوى المُفتَرَض لأنّ المتكلِّم يُفيدُ به، مع العِلم بأنّه يكون مُفترضاً، ويتظاهر بأنّ المُستمع يعرفه أصلاً»)، فإنّ المتكلِّم يرتكبُ إذاً ما يُسمّى بـِ «المحسن البيانيّ الافتراضيّ»، وقد وصفنا في مرحلةٍ سابقةٍ طريقة عمله.

(2) ولكن إذا كان المُتكلِّم يتبنّى بالضرورة الافتراضات، في حين يفكّ المُحاوِر ترميزها، فالمسألة برمّتها مُختلفةٌ بالنسبة إلى المُضمَّنات التي لا يُمكن على الإطلاق نسبتها بشكلٍ مؤكّدٍ إلى قائلها، كما يكون فكّ ترميزها غير مُلزمٍ قطعاً. ولهذا السبب فهي قادرةٌ أن تُشكّل موضوع تلاعباتٍ جمّةٍ سواء من جانبِ المتكلِّم أم من جانب المُحاوِر.

---

(395) Ducrot, *Dire et ne pas dire: Principes de sémantique linguistique*, p. 96.

(396) Francis Jacques, *Dialogiques: Recherches logiques sur le dialogue*, philosophie d'aujourd'hui (Paris: Presses universitaires de France, 1979), p. 172.

ـ تسمح المُضمَّنات للمتكلّم بما يلي:

1. إمّا أن يدَّعي أنّه أدلى بلا شكّ بمحتوى ما في حين أنّه اكتفى ببساطةٍ باقتراحه، كما في المثل الآتي:

المتكلِّم: أتعرف ما الذي سيسرُّني؟

المخاطب: كلا، ماذا؟

المتكلِّم: أن تناديني روبير.

(L$_1$. - Vous savez ce qui me ferait plaisir?
L$_2$. - Non?
L$_1$. - Que vous m'appeliez Robert).

وتتواصل المحادثة بعد مضيّ وقتٍ قليلٍ على الشّكل الآتي:

المتكلِّم: لقد طلبتُ إليكِ أن ترفعي الكلفة بيننا.

المخاطب: كلا لم تفعل، لقد طلبتَ فقط أن أناديك روبير.

المتكلِّم: ولكنَّني قلتُ ذلك على شكل مُضمَّنٍ[397].

(L$_1$. - Je vous avais demandé de me tutoyer.
L$_2$. - Mais non, vous m'avez juste demandé de vous appeler Robert.
L$_1$. - C'était sous-entendu).

2. أو أن يقترح، كما هو شائعٌ أكثر، الجُمَيلة الثانية «د» على ظواهر الجُمَيلة الأولى «ج»، مع إفساح المجال أمامه لإمكانيّة إنكار أنّه قال الجُميلة الثانية «د». وبكلام آخر، تسمح المُضمَّنات للمتكلِّم بتوجيه المتلقّي بمكرٍ نحو هذا التأويل أو ذاكَ، من دون أن يترتَّب عليه تحمُّل مسؤوليّة هذا التأويل، فمثلاً: أنتَ تزعمُ أنَّني قلتُ الجُميلة الثانية «د»، ولكن في الواقع أنتَ مَن يقول الجُميلة الثانية «د» في فعلك هذا (هبْ مثلاً: «أنتَ مَن ذكرَ اسمه» («C'est toi qui l'as nommé!»)، أمّا أنا فلم أقل أكثر ممّا قلته أي إنَّني لم أقل سوى الجُمَيلة الأولى «ج». وعليه، يُستخدَم المحتوى البيِّن بمثابة الستار الذي يُمكن للمتكلِّم أن يتلطَّى خلفه بسهولةٍ في حال بيَّنَ المُحاوِر الجُمَيلة الثانية «د»، وإليكم هذا المثل:

أتعلم، يُشارك فيها السكّان بوجهٍ خاصٍّ [أي في اللّقاءات الموسيقيّة

(397) نبذة من «الانتباه للعمل» (Attentionau travail)، عملٌ مُشترك لمسرح السلاماندر.

المعاصرة التي تُنظِّمها مدينة ميس] لأنَّهم يخافون أن يُفوِّتوا عليهم حدثاً ما، مع أنَّهم لا يتحمَّسون إلى هذا الحدّ للموسيقى المُعاصرة...

- أتقصد بقولك أنَّ أهالي مدينة ميسّ هم نفّاجون؟

- أنتَ مَن قال ذلك![398].

(Vous savez les habitants y vont surtout [aux rencontres de musique contemporaine de Metz] parce qu'ils ont peur de manquer un événement, mais ils ne sont pas tellement motivés par la musique contemporaine...

- Vous voulez dire que les Messins sont snobs?

- C'est vous qui l'avez dit!).

يكون اللّجوء إلى المُضمَّن في أوانه حين يكون من العسير الإدلاء بالمحتوى المُطابق له بشكلٍ بيِّن، لأنّه إمّا يُخالف قوانين اللّياقة (فإنْ كانت المسألة تتعلّق بحكم مُجافٍ مثلاً، نعمَدُ بالتّالي إلى الإلماح إليه)، أم أنَّ حقيقته قابلةٌ إلى حدٍّ بعيدٍ للنزاع (وكما رأينا آنفاً، يقول كانتيليان ما يلي: «إنَّنا نستعمل الإلماحات لأهدافٍ ثلاثة: أوّلاً، حين تساورنا الشكوك حول وجوب التعبير بصراحةٍ أم لا»، ...»)، فأسوةً بالافتراضات، وإنْ كان ذلك بدافعٍ آخر، يكون من العسير في الواقع دحض المُضمَّنات، وذلك لأنَّه من التهوُّر بعض الشّيء أن نجتهد في دحض كلام نعجزُ حقّاً عن إثبات أنّه قيل..، ففي حال بيَّنتُ مُضمَّناً وأعلنتُ أنَّه خاطئٌ، فلاً يسعني أن أتّهمَ قائِله بالكذب أو بارتكاب خطأ، من دون أن أعرِّضَ نفسي شخصيّاً لتُهمة سوء النيّة. ويُمكنني على الأكثر أن آخذَ على قائله أنّه «أوحى» عن خطأ بالجُمَيلة الثانية «د»، وأن أتّهِمَهُ بسوء النيّة إن هو أنكر أنَّه قام بذلك. وكلّما كان المُضمَّن المطروح أكثر بداهةً، استتبَع إنكاره اتِّهاماً أكبر بسوء النيّة.

وإليكم هذَين المثلَين اللّذَين يُظهران إنكار المتكلِّم المُريب نوعاً ما لمُضمَّنٍ تُسوِّل لنا نفسنا مع ذلك استخراجه من كلام المتكلِّم، ألا وهما:

● المثل الأوَّل: وهو مثلٌ مأخوذٌ من إذاعة France-Musique[399]، ومفاده:

---

(398) مثل مأخوذ من قناة France-Culture، نهار 18 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1982.

(399) من برنامج «منبر انتقادات الأسطوانات الموسيقيّة» («La tribune des critiques de disques»)، في 27 شباط/ فبراير عام 1983.

- إنَّه يراعي الألفاظ. . .

- ماذا! أتقول أنَّه لا يُراعي المقاصد؟

- كلّا، يستطيع المرء أن يُراعي الألفاظ والمقاصد في آنٍ. . .

(- Il respecte la lettre...

- Comment! Vous voulez dire qu'il ne respecte pas l'esprit?

- Mais non, on peut très bien respecter la lettre et l'esprit à la fois...)

طبعاً، هذا أمرٌ مفروغٌ منه. ولكن كان الأجدر به في هذه الحالة أن يقول، بمقتضى قانون الشموليّة، ما يلي: «إنَّه يراعي كلا الألفاظ والمقاصد/ أو لا يراعي المقاصد فحسب بل أيضاً الألفاظ» («il respecte et la lettre, et l'esprit/ non seulement il respecte l'esprit mais aussi la lettre») . . .

● المثل الثاني: وهو مُقتبسٌ عن رسالة كتبها بوريس دو فيان[400] (Boris de Vian)، ومفادها:

وبالعودة إلى الإصدارات الفرنسيّة، سنقرأ بعض ما ورد في نشرة الـ hot jazz التي أحضرها بودلي إليّ للتوّ. ولكن مهلاً، أنا مُستاءٌ جدّاً، فها هو هوغ [باناسيه] الفظّ يتّهمني في الصفحة الأخيرة؛ وها هو يستشهد بإحدى ردودي السريعة المُرهفة العقل بهدف مقارنتها بردّ سريع آخر أدليتُ به من فترةٍ ليست ببعيدةٍ، فعلى ما يبدو، لقد قلتُ في نيسان/ أبريل عام 1948 أنَّ «ميزّ [ميزورو] يعزف أفضل من فترة ما قبل الحرب» وأنَّ «باستطاعة المرء أن يتقدَّم مهما بلغ من العمر»، في حين أكّدتُ مؤخَّراً أنَّه «يعزف كالمعتوه وأنَّ عزفه يخدش الآذان، إلى ما هنالك».

هذا صحيحٌ. أنا لا أُنكر ذلك البتَّة. ولكن قُل لي أيُّها المُهرِّج، أين التناقض في ذلك؟ إنَّ رأيي في هذا الصدد ثابتٌ بصرامةٍ، وكلّ الفرق أنّني عبَّرتُ عن رأيي:

أ) في الحالة الأولى بلطف

ب) وفي الحالة الثانية بصراحةٍ.

---

(400) صدرت في نشرة الـ **جاز هوت** (*Jazz Hot*) في شباط/ فبراير عام 1952.

وإذا رَكَنّا إلى حرفيّة النصّ نستخلص ما يلي:

(1) يعزف ميزّ أفضل من فترة ما قبل الحرب.

(2) يعزف ميزّ كالمعتوه.

ويرشدنا المنطق المُطلق إلى أنّه ثمّة خلاصةً واحدةً فقط لا غير يُمكننا استنتاجها ممّا تقدَّم، ألا وهي:

(3) في فترة ما قبل الحرب، كان ميز يعزف أفضل من معتوهٍ.

فبالله عليك يا هوغ، لا أحسبُكَ جادّاً في ما تقوله؟ أوَلم تتعلَّم المنطق بعد؟

(Revenons en France avec le Bulletin du Hot Club que Baudelet m'apporte tout juste. Ah mais je suis très fâché. Voilà que cette grande brute d'Hugues [Panassié] me met en cause en dernière page; voilà qu'il cite une de mes réparties spirituelles pour l'opposer à une de maintenant. Il paraît qu'en avril 1948 j'ai dit que «Mezz [Mezzrow] joue mieux qu'avant-guerre» et «qu'on peut s'améliorer à tout âge» et que maintenant j'affirme qu'il joue «comme un cochon et que c'est une insulte à l'oreille, etc.".

C'est vrai. Je ne le renie point. Mais dites-moi, mon Gugusse, quoi de contradictoire? C'est là une opinion d'une constance inflexible, exprimée

a) dans le premier cas avec gentillesse

b) dans le deuxième cas avec franchise.

Si l'on s'en tient au texte, on a ceci:

1) Mezz joue mieux qu'avant-guerre.

2) Mezz joue comme un cochon.

La logique la plus absolue nous enseigne qu'il n'y a qu'une conclusion possible, et c'est:

3) Avant-guerre, Mezz jouait mieux qu'un cochon.

Allons, Hugues, vous n'êtes pas sérieux? Vous n'avez pas appris la logique, depuis le temps?).

يتلخَّص الرّهان في هذا الجدل البرهانيّ على الشَّكل الآتي: هل من تعارضٍ أم لا بين الجُمَيلتَين التاليتَين:

(i) يعزف ميزّ أفضل من فترة ما قبل (الحرب (Mezz joue mieux qu'avant-guerre))، في مقابل

(ii) يعزف ميزّ بشكلٍ سيِّئٍ (Mezz joue mal)؟

إنَّ القضية النظريّة الباطنيّة هي قضيّة البُنى المُقارَنة حيثُ يتمّ إدخال مصطلحاتٍ تقويميّةٍ على الشّكل الآتي: «يتَّصف فلان بالصفة «أ» أكثر من علاّن» («x est + A que y»).

والحال أنَّنا نستطيع أن نُبرهِنَ[401] ما يلي:

في حال شكَّلت الصفة «أ» المُصطلح الموسوم (أي السلبيّ) في التعارض (على غرار المثل التالي: «بيار أقصر قامةً من ماري» («Pierre est plus petit que Marie»)، فتستَلزِمُ هذه البُنية أنَّ «فلاناً يتَّصفُ بالصفة «أ»» («x est A»)، في حين أنَّها تُضمِّن أنَّ «علاّناً يتَّصفُ بالصفة «أ»» («y est A»)؛

أمّا في حال شكَّلت الصّفة «أ» مُصطلحاً غير موسوم (أي إيجابيّ، على غرار: «بيار أطول قامةً من ماري» («Pierre est plus grand que Marie»)، فإنَّ هذه البُنية لا تستلزمُ أيّ شيءٍ عن علاّنٍ في حين أنَّها تُضمِّن أنَّ «فلاناً يتَّصف بالصفة «أ»» («x est A»).

وهكذا، فإنَّ الجُمَيلة الأولى «ج»، وهي «يعزف ميزّ أفضل من قبل» («Mezz joue mieux qu'avant»)، تُضمِّن الجُمَيلة الثانية «د»، ومفادها: /إنَّ عزف ميزّ جيِّدٌ بالأحرى/ (/Mezz joue plutôt bien/)، من دون أن تستلزِمَها حقّاً. وفي حال وجود تعارضٍ بين الجملة الأولى (i) والثانية (ii)، فإنَّه تعارضٌ بين المحتوى المُقرَّر والمُضمَّن. وعليه، يكون هذا التعارض ضعيفاً وقابلاً للنقاش، فمَن على حقٍّ، ومَن على خطأ بين دو فيان وباناسيه؟ والجواب أنَّ كليهما مُصيبٌ في بعض النقاط ومُخطئٌ في نقاطٍ أخرى. ويتجلّى الخطأ الذي اقترَفاه في عدم التعرُّف إلى الطابع المُتأرجِح الذي يتميَّز به المُضمَّن، وفي إغفالهما أنَّ الجُمَيلة الأولى «ج» تقترحُ تقريباً الجُمَيلة الثانية «د»[402] - ويستغلُّ بوريس دو فيان تحديداً هامش الحرية هذا الذي تتركه له عبارة «تقريباً» («plus ou moins») ليُنكر بصرامةٍ أنَّه أدلى بالجُمَيلة الثانية «د».

---

(401) راجع بشأن ذلك كتابي: Kerbrat-Orecchioni, *L'Enonciation de la subjectivité dans le langage*, pp. 96-100,

(حيثُ سبق وأوردنا هذا المثل وكذلك المثل التالي المُقتبس عن طوني دوفير).

(402) كما يُقرّ بذلك فيان (Vian)، على نحوٍ مُضمَرٍ، حين يعتبر الصياغة ذات النمط الشبيه بالجملة الأولى (i) بمثابة التورية (رأي [...] مُعبّر عنه [...] بلطافةٍ). ويعني ذلك الإقرار بوجود مقدارٍ معيّنٍ من معنى «يعزف جيّداً» («jouer bien») خلف عبارة «يعزف على نحوٍ أفضل» («jouer mieux»).

ـ أمّا بالنسبة إلى المتلقّي، فيسمح له واقع عدم تأكيد وحدة المحتوى إلاّ على شكلٍ مُضمَّنٍ، بما يلي:

1. إمّا أن يتجاهلها، كما في المثل الآتي:

وسرعان ما هيمَنَ [لوسيان] على المُحادثة؛ وتجرّأ سريعاً، بينما كان يُسلّي السيِّدات الجالسات إلى جانب السيِّدة شاستوليه، على إسماعها من بعيدٍ بعض الأمور العذبة والكلام الرّقيق، وهو أمرٌ لم يخطر بباله قطّ أنّه سيُحاول فعله عمّا قريبٍ. وكان على يقينٍ بأنّ السيِّدة شاستوليه كانت قادرةً تماماً أن تدّعي بأنّها لم تفهم مقاصد هذه الكلمات غير المباشرة[403].

([Lucien] domina bientôt la conversation; bientôt, tout en amusant fort les dames assises auprès de M^{me} de Chasteller, il osa faire entendre de loin des choses qui pouvaient avoir une application fort tendre, ce qu'il n'aurait jamais pensé pouvoir tenter de sitôt. Il est sûr que Mme Chasteller pouvait fort bien feindre de ne pas comprendre ces mots indirects).

2. أم أن ينسبَ بثباتٍ إلى المتكلِّم، رغماً عن إرادة هذا الأخير، المحتوى الذي تُضمِّنه البُنية أحياناً ولكن ليس بالضرورة. ويرتكبُ المُحاوِر إذاً جنحة «سوء النيَّة التأويليّة»، وتكون فداحتها تناسبيّةٍ معاكِسةٍ مع درجة بداهة المُضمَّن.

وإليكم هذه الأمثلة الثلاثة، مُرتَّبةً تبعاً لمحور بداهة المحتوى الإشكاليّ التنازليّة (أي محور سوء نيَّة الشخص الذي يفكّ الترميز التصاعديّة)، ألا وهي:

● هبْ على سبيل المثال هذه الجملة المُستخرجة من **موسوعة الحياة الجنسيّة**[404]، ومفادها:

«إذا أحبَّ الولد الاستمناء، قال الأبُ، سيكون من الأصعب عليه أن يُحبَّ أحداً آخر في المُستقبل» («Si l'enfant prend goût à la masturbation, dit papa, il lui sera plus difficile plus tard d'aimer quelqu'un d'autre»)، ويُعلِّقُ طوني دوفير على هذه الجملة في كتابه **الجنس السليم بالأمثال**[405]، قائلاً: «تدعو عبارة

(403) مثلٌ مأخوذٌ عن: Stendhal, *Lucien Leuwen*, 2 vols., Garnier-Flammarion; 350-351, texte établi et annoté par Henry Debray; introduction et notes historiques de Michel Crouzet (Paris: Garnier-Flammarion, 1982), vol. I, pp. 270-271.

(404) Christiane Verdoux [et al.], *Encyclopédie de la vie sexuelle: De la physiologie à la psychologie*, 5 vols. ([Paris]: Hachette, [1973]).

(405) Tony Duvert, *Le Bon sexe illustré* (Paris: Editions de Minuit, 1974), p. 86.

«من الأصعب» («plus difficile») إلى الاستغراب، إذ يعتبرُ هذا الأب أنَّ «مبادلة الشخص الآخر شعور الحبّ» هو أمرٌ صعبٌ دائماً؛ ولكن إذا ما استمنى المرء فهو «سيزيد الأمر صعوبةً»».

ولكن هل من المُحقّق فعلاً أنَّ الجملة المطروحة تؤكّد أنّه من الصَّعب دائماً أن نُحِبَّ؟ إنَّ الإشكاليّة الألسنيّة اللُّغويّة هنا هي نفسها تلك التي صادفناها في التصريح السابق لبوريس فيان، مع الفارق البسيط أنَّ المُصطلح المُدخَل في البنية المقارَنة هو من النمط «الموسوم». وانطلاقاً من أنَّه قد يُصار إلى تفسير هذه الجملة بأسلوبٍ شخصيٍّ، على الشَّكل الآتي: «أن ـ يُحبَّ ـ المرء ـ إذا ـ كان ـ يستمني أصعب عليه من أن ـ يُحبَّ ـ وهو ـ لا ـ يستمني»، وإذا كان التحليل العامّ المُقترح أعلاه صحيحاً، فإنَّ هذه العبارة تستلزِمُ أنّه من الأصعب أن يُحِبَّ المرء إذا كان ميّالاً إلى الاستمناء. ولكنَّها تكتفي بتضمين أنَّه من الصعب بجميع الأحوال أن يُحبَّ[406] المرء. وهكذا يُحوِّل دوفير مُضمَّناً إلى «أمرٍ مُقرَّرٍ (مفروغ منه)». وإنَّ تَكتيكَي «الهجوم المركَّز التأويليّ» المُستعمَلَين من قِبَل بوريس فيانَ وطوني دوفير، حيثُ يدحض الأوّل بصرامةٍ مُضمَّناً يُنسب إليه بشيءٍ من الصواب، في حين يدحض الثاني بصرامةٍ مُضمَّناً قابلاً جزئيّاً للدحض، هما متماثلان تماماً. وهاتان الحالتان هما خير مثالٍ على الحرب الكلاميّة ـ وتقتضيان كذلك قدراً معيَّناً من سوء النيَّة.

● يتفاقم سوء النيّة في المثل الآتي الذي سبق وفسَّرنا طريقة عمله في مرحلةٍ سابقةٍ، ألا وهو:

المتكلِّم: كم تبدين جميلةً اليوم!

المخاطب: شكراً على رأيك فيَّ في باقي الأيّام!

(L_1. - Comme vous êtes jolie aujourd'hui!
L_2. - Merci pour les autres jours!).

● أمّا بالنسبة إلى التأويل الذي يستند إليه في هذا الصدد الردّ الهازئ الذي يصدر عن المخاطب (/لستِ جميلةً عادةً/ (/vous n'êtes pas jolie d'habitude/) فهو يتَّصف بالتأكيد بالمُغرِض لا بل حتّى بالتعسفيّ. ولكنَّه على الأقلّ لا يكون

(406) لن يستلزِمَ هذا التحليل ذلك ما لم يحتوِ على كلمة «بعد» («encore») التي يُقحمها دوكرو بلا تحذيرٍ مُسبقٍ في تعليقه.

غير متَّسقٍ بالكامل، كما هو الحال في هذا المثل الأخير حيثُ يكون سوء نيَّة المُخاطب الذي يُخوِّله التفسير الخاطئ المُصطَنع من التخلُّص من هذا «التعدِّي الذي يُشكِّله أيّ فعل التماس على خصوصيَّته»، جليّاً لدرجةٍ تغدو فيها الجُمَيلات المُضمَرة التي يتظاهرُ بأنَّه يستخرجها من قول المتكلِّم بعيدةً جدّاً عن الواقع. كما يظهر ذلك في المثل الآتي:

المتكلِّم: هلاّ أقفلت النافذة، فالجوّ باردٌ في الخارج.

المخاطب: آه حقّاً، لأنَّني إذا أقفلتُ النافذة ستخفُّ حدَّة البرد في الخارج؟

(L_1. - Tu pourrais fermer la fenêtre. Il fait froid dehors.

L_2. - Ah bon, parce que si je fermais la fenêtre, il ferait moins froid dehors?)

يتَّخذ التدليل المنطقيّ الذي يرعى مُداخلة المتكلِّم (المؤلَّفة من الالتماس المباشر + تبرير هذا الالتماس) الشكل المُبيَّن أدناه:

(1) الجوّ باردٌ في الخارج («Il fait froid dehors»).

(2) والحال أنَّ النافذة مفتوحةٌ («Or la fenêtre est ouverte»).

(3) وعليه، سينتقل البرد من الخارج إلى الداخل، ممّا سيُبرِّد جوّ الغرفة («Donc le froid extérieur passé à l'intérieur, ce qui refroidit la pièce»).

(4) والحال أنَّه من الأفضل لو كان جوّ الغرفة أكثر دِفئاً («Or ça serait mieux s'il faisait moins froid dans la pièce»).

(5) إذاً فمن الأفضل أن تُقفِلَ النافذة («Donc ça serait mieux si tu fermais la fenêtre»)

أمّا المُخاطب، فيتظاهرُ بأنَّه يؤوِّل هذا التدليل المنطقيّ على الشَّكل الآتي:

(1) الجوّ باردٌ في الخارج («Il fait froid dehors»).

(2) والحال أنَّ النافذة مفتوحةٌ («Or la fenêtre est ouverte»).

(3) وبما أنَّ الجوّ بارد في الداخل، فمن شأن ذلك أن يُخفِّض الحرارة الخارجيّة («Comme il fait froid dedans, cela abaisse encore la température extérieure»).

(4) والحال أنَّ ذلك سيِّئ («Or c'est un mal»).

(5) إذاً ينبغي إقفالُ النافذة («Donc il faut fermer la fenêtre»)

وبناءً عليه، يُبطِلُ المُخاطب هذا التدليل المنطقيّ بشكلٍ تهكُّميٍّ على أنَّه

يتَّصفُ بشيءٍ من البلاهة، وهو كذلك في الواقع، لأنَّ الجُمَيلة الثالثة (3) غير مقبولةٍ، بحيثُ إنَّه في سياق برودة الجوّ، تكون عموماً حرارة المساكن أكثر ارتفاعاً من حرارة الخارج، وبسبب تفاوت حجم الكتل الهوائيّة، فإنَّ حرارة الخارج هي التي تُعدِّل حرارة الداخل عندما نفتح النافذة، والعكس ليس صحيحاً. أمّا بالنسبة إلى الجُمَيلة الرابعة (4)، فهي غير ملائمةٍ، إذ إنَّ المسألة لا تمتُّ بصلةٍ للحرارة الخارجيّة التي لا يُمكننا فعل شيءٍ إزاءها، بل إنَّها تتعلَّق بالحرارة الداخليّة.

وبتعبيرٍ آخر، حين يقول المتكلِّم ما يلي: «أقفل النافذة لأنَّ الجوّ باردٌ في الخارج، وينتقلُ البرد بالتالي إلى الداخل، وإنْ أقفلتها فستخِفُّ حدَّة البرد في الداخل» («Ferme la fenêtre, parce qu'il fait froid dehors, donc dedans, et que si tu la fermais il ferait moins froid dedans»)، يتظاهر المُخاطب بأنَّ المتكلِّم قد قال ما يلي: «أقفل النافذة لأنَّ الجوّ باردٌ في الخارج، وإنْ أقفلتَها فستخفُّ حدَّة البرد في الخارج» («Ferme la fenêtre, parce qu'il fait froid dehors, et que si tu la fermais il ferait moins froid dehors»).

وعليه، يختلقُ المُخاطب تدليلاً منطقيّاً خياليّاً من شأنه أن يتلاعب بطريقةٍ مَعيبةٍ وحتّى عبثيّةٍ بالعلاقة السببيّة، ولديه الجرأة ليتظاهر بأنَّه ينسب هذا التدليل المنطقيّ المُختلَق إلى المتكلِّم (فيقول له: «آه حقّاً لأنَّني...» («Ah bon parce que...») = أي أنتَ تقول لي ذلك لأنَّك تحسبُ بلا أدنى شكّ أنَّ...)، فيُقوِّض هكذا وبلا حياءٍ فعل الالتماس من خلال تجريد تبريره بمكرٍ من أهليته.

وتُطالعنا الاستراتيجيات المتنوِّعة التي أوردناها آنفاً في الخطابات بشتّى أنواعها. ولكن لا عجبَ أنَّ ميدانها المُفضَّل الذي تجدُ فيه أرضاً خصبةً هو، إلى جانب التبادل اليوميّ، الخطاب السياسيّ. وسنستشهدُ مرَّةً أخرى بعد بالمؤلَّف الذي وضعه جان نويل دارد والذي يوضِّح في مواضعَ متنوِّعةٍ منه الطريقة التي تستغلُّ فيها جريدة *L'Humanité*، وهي «صحيفة الحقيقة»، الافتراضات والمُضمَّنات على حدٍّ سواء، على الشَّكل الآتي:

- الافتراضات[407]، على غرار:

(407) وتجدر الإشارة إلى أنَّ المتتاليات المكتوبة بالخطّ المائل مأخوذةٌ من جريدة *L'Humanité*، أمّا التعليق عليها فهو مُقتبسٌ عن لسان دارد؛ وتتناول هذه المتتاليات الأحداث التي جرت في الكمبودج (Cambodge) في الفترة الممتدَّة من عام 1975 وحتّى عام 1979.

• «[. . .] إنَّ الحوادث الخطِيرة التي ما زالت مُستمرَّةً، قد تسبَّب بها بعض العناصر المسلَّحة من أتباع الخميريِّين على الحدود الجنوبيّة الغربيّة [. . .]» [...]» *les incidents graves, et qui continueraient, provoqués aux frontières du sud-ouest par des éléments armés Khmers [...]»*). لقد تمَّ، في العنوان كما في المقالة، افتراض وجود نزاعٍ ما [. . .]، في حين أنَّه لم يتمَّ سابقاً طرحه كمُقرَّرٍ بشكلٍ واضحٍ»(408)؛

• «لا بدّ من التذكير بأنَّ **فنوم بينه**، وهي مدينةٌ يبلغ عدد سكَّانها في الأيّام العاديّة الـ 800000 نسمة ـ ووصل هذا العدد في نيسان/ أبريل عام 1975 بسبب تدفُّق اللاجئين إلى المليون والنصف ـ قد أُخليت تماماً من سكَّانها خلال 24 ساعة، شأنها شأن كلّ مُدن الكمبودج. [. . .] ومن النافل التذكير بأنَّ مسؤوليّة ذلك تقع على كاهل زمرةٍ من المُجرمين [. . .]» (*«Rappelons que Phnom Penh, une cité d'environ 800 000 habitants en temps normal - plus d'un million et demi en avril 1975, avec l'afflux des réfugiés - a été totalement vidé de sa population en 24 heures, comme toutes les villes du Cambodge.* [...] *Faut-il rappeler les responsabilités d'un groupe de criminels* [...]»)، إلى آخره. «لا تنفكُّ جريدة *L'Humanité* «تُذكِّر» بالحقيقة وتفضح إغفالات جريدة *L'Autre*. و«تُذكِّر» بإصرارٍ شديد اللَّهجة بحقيقة اليوم وبأنَّ هذه الحقيقة تتناقضُ وحقيقة الأمس، وبأنَّ هذه «التذكيرات» تُساهم في إخفاء التراجع عن المواقف السابقة»(409)؛

ـ أمّا في ما يتعلَّق بالمُضمَّنات، فنذكر الأمثلة التالية:

• يقول دارد بشأن «معلومةٍ مُختصرةٍ» يعود تاريخ نشرها في صحيفة *L'Humanité* إلى التاسع من آب/ أغسطس عام 1977، ما يلي: «إن أخذنا نصّ هذا الخبر بحرفيّته، فإنَّ جريدة *L'Humanité* لم تستخدم البتَّة ما من شأنه أن يُشير إلى وجود نزاعٍ حدوديٍّ بين البلدَين «الشقيقَين»، ولا حتّى إلى احتمال وقوعه [. . .]». إلاّ أنَّها في الواقع تقترح وجوده بشتّى الطرق. وبهذه الطريقة، «حتّى وإنْ حملت جريدة *L'Humanité* قرَّاءها إلى استنتاج وجود إشكاليّةٍ حدوديّةٍ بين الكمبودج

---

(408) Darde, *Le Ministère de la vérité*, p. 114.

(409) المصدر نفسه، ص 131.

والفيتنام، إلاّ أنّها لا تتحمّل مسؤوليّة هذا الاستنتاج. وهكذا فتبعاً لتطوُّر العلاقات بين البلدَين، تحتفظ جريدة *L'Humanité* لنفسها بإمكانيّة التأكيد اللاحق بأنّها أبلغت قرّاءها بشأن النزاع، أو بأنّها لم تُعِر أبداً آذاناً صاغيةً للإشاعات المُغرِضة في إطار البروبغندا العدوانيّة التي تُحاوِل النَيل من الفييتنام والكومبودج»[410]؛

● ورَدَ في مقالةٍ بقلم جان إميل فيدال صدرت في 14 شباط/ فبراير عام 1979، ما يلي: «كان نظام بول بوت قد شرع في بتّ حبال الروابط العائليّة وتشتيت السكّان وإبعاد الناس عن منازلهم. وهل من المُجدي التنويه بأنَّ كلّ ذلك قد تمّ بالإكراه والعنف؟» («*Le régime de Pol Pot avait entrepris de briser les liens familiaux, d'éparpiller la population, d'éloigner les gens de chez eux. Est-il utile de dire que tout cela se fit sous la contrainte et la violence?*») ويتجلّى المُضمَّن الذي ينطوي عليه السؤال الوارد في المثل الآنف الذكر كالآتي: إنَّه من غير المُجدي طبعاً أن نقول ذلك لأنّه أمرٌ لطالما قُلنا أو اعتبرنا أنّه مُسلَّمٌ به. والحال أنّه)، ولكن «يبدو «من المُجدي» بالأحرى التنويه «بأنَّ كلّ ذلك قد تمّ بالإكراه والعنف»، لأنَّ جريدة *L'Humanité* كانت حينها تُدافع بضراوةٍ عن وجهة النظر المُعاكِسة. وهكذا، كان جاك كوبار (Jacques Coubart) يشتمُّ في تأكيد هذا العنف «رائحة مؤامرةٍ مناهضةٍ للشيوعيّة» («l'air de la calomnie anticommuniste»)، في حين كان رينيه أندريو (René Andrieu) يشعر بوجود «حملةِ تسميم أفكارٍ تُحقّق الآن أرقاماً قياسيّةً قلَّ نظيرها» («une campagne d'intoxication qui est en train d'atteindre des records rarement égalés») - لأنَّ المسألة كانت تتعلَّق بالنسبة إليهما بمجرَّد إخلاءٍ بكلّ بساطةٍ»... ويستنتج دارد ممّا تقدَّم ما يلي: «يتصرَّف جان إميل فيدال «كما لو كانت» جريدة *L'Humanité* قد فضحت منذ عام 1975 الاعتداءات التي كان يُمارسها الخميريّون الحُمر أثناء إخلاء **فنوم بينه**، ويُعطي استشهادات في معرض الإثبات. وكانت جريدة *L'Humanité* تتصرَّف «كما لو كانت» قد فضَحَت هذه الإعتداءات أو إذا توخَّينا الدقّة، كانت «توحي» بذلك. كانت توحي بما هو خاطئٌ من خلال طرح ما هو حقيقيّ كمقرَّرٍ وافتراضه»[411] - في هذا المثل على الأقلّ، لأنّه من الممكن

---

(410) المصدر نفسه، ص 105-106.

(411) المصدر نفسه، ص 124-126.

أن تكون افتراضات هذا الخطاب، كما سبق ورأينا، ومحتوياته المُقرَّرة مغلوطةً بحدّ ذاتها (وليس هذا الأمر حكراً على جريدة *L'Humanité* طبعاً). وعلى أيّ حالٍ، كلّما كان محتوى ما مُضمَراً، تضاءل «خطر»[412] زَيفه المُحتمل، بالنسبة إلى المسؤول عن المحتوى المطروح.

وبالعودة إلى الخطاب «العادي»، نقول ما يلي: يُمكننا بفضل المُضمَّنات أن نقول أمراً ما، وأن نتظاهر بأنّنا لم نقله. ولكنّنا قد نُتَّهم جرّاءها كذلك بأنّنا قلنا ما قلناه من دون أن نتعمَّد قوله في الواقع. ومن هنا ضرورة تحاشي المُضمَّنات غير المرغوب فيها أحياناً وإبطالها، تحت طائلة تعريض أنفسنا للخيبة التي مُنِيَ بها على مضضٍ لامبيون فيرنندیل (Lampion Fernandel)، كما في الأمثلة الآتية:

المثل الأوَّل: كلامك موفَّقٌ هذا المساء.. كما دائماً.

(«Vous avez la formule heureuse ce soir... - comme toujours du reste»).

المثل الثاني: فخذ الخروف هذا شهيٌّ.. وطبق البريشة لذيذٌ أيضاً!

(«Ce gigot est délicieux... Le gratin aussi est fameux!»).

المثل الثالث: إقرأوا الكثير من الشِّعر غداً [بهذه التوصية انتهى برنامج **المناجاة** نهار 22 نيسان/ أبريل عام 1983، عشيّة يوم الشعر الوطنيّ. وبعد أن بُثَّ

---

(412) ولهذا السَّبب، يؤثر هذا النمط من الخطاب بوجهٍ خاصٍّ جدّاً المُضمّنات - ويُشكّل هذا المثل دليلاً إضافياً على ذلك، وهو عنوانٌ عريضٌ نُشر منذ فترةٍ ليست ببعيدةٍ في جريدة *L'Humanité* (الصادرة في 4 كانون الثاني/ يناير عام 1986)، حيثُ غدا ميتران رغم إرادته مصدر إلهام بـ هيرسان (Hersant)، بواسطة مقارنةٍ مُصطنعةٍ وغريبةٍ، ولكن تكمنُ فائدتها الأساسيّة في أنّها تسمح للشَّين المُرتبط باسم هيرسان (بالنسبة لقارئ هذه الجريدة) بأن يُلطّخ اسم الرئيس، كما يلي:

لقد سمع قطب الصحافة ما قاله فرانسوا ميتران.

هيرسان

يقظة ونشاط

(LE MAGNAT DE LA PRESSE A ENTENDU FRANCOIS MITTERRAND.

HERSANT

BON PIED BON OEIL)

«أتمنّى أن تتصدّى الحكومة للانتخابات بيقظةٍ ونشاطٍ» («Je souhaite au gouvernement d'aborder les élections avec bon pied bon oeil»)، قال رئيس الجمهورية. وقد حفظ روبير هيرسان هذه العبارة، فاستأثر وحده نهار الجمعة بعشر صحفٍ من ضمنها جريدة *Union* في ريمز (Reims) وجريدة *Le Pogrès* في ليون (Lyon).

الجينيريك، ظهر بيفو بشكلٍ غير متوقَّع ليُصحِّح ما قاله]. لقد أوصيتكم بقراءة الكثير من الشِّعر غداً. ولكنْ طبعاً، لاً تكتفوا بقراءة الشعر غداً وحسب، بل واظبوا على قراءة الشِّعر في كلّ الأيّام!

(«Et lisez beaucoup de poésie demain [c'est sur cette recommandation que se clôt Apostrophes, le 22 avril 1983, veille de la Journée nationale de la poésie. Générique. Puis réapparition imprévue de Pivot, pour cause de repentir]. Je vous ai dit de lire beaucoup de poésie demain. Mais bien sûr, n'en lisez pas seulement demain. Lisez de la poésie tous les jours!»).

المثل الرابع: إنَّ الزيت الذي نجده لدى البقَّال في آخر الشارع أجود نوعيّةً من الزيت الذي يبيعه البقَّال قبالتنا، وحتّى إنّه أجود من زيت البقّال الذي يقع دكانه في أسفل المُنحدر. ولكنَّني لا أقصد أن أقول إنَّ زيتهما هو من نوعيّةٍ رديئةٍ[413].

(«L'huile de l'épicier du coin est de bien meilleure qualité que l'huile de l'épicier d'en face, elle est même meilleure que l'huile de l'épicier du bas de côte. Mais je ne veux pas dire que leur huile à eux soit mauvaise»).

المثل الخامس: لم أكن حينها مُلمّاً بالنساء. وما زلتُ كذلك حتّى الآن. وأجهل كذلك الرّجال. ولا أفقه شيئاً عن الحيوانات أيضاً[414].

(«Je connaissais mal les femmes, à cette époque. Je les connais toujours mal d'ailleurs. Les hommes aussi. Les animaux aussi»).

باعتبار أنَّ المُضمَّنات تكون دائماً على أُهبة الاستعداد للتدخُّل خلسةً في أصغر المتتاليات، فإنَّها مُريحةٌ ومُزعجة في آنٍ، وتُشكِّل كذلك بالنسبة إلى المتكلِّم نعمةً ونقمةً. وهي تسمح له بنصب أشراكٍ للمُحاوِر، كما يظهر في المثلَين الآتيين:

المثل الأوّل: تظاهرتْ بأنّها لا زالت مُنهمكةً بقراءة بعض السطور، ثمّ رفعت نظرها صوبي وسألتني:

- هل أنتَ موافقٌ؟

- الأمر أمركِ. ولكن مَن سيقلُّنا؟

- صديق ساندرا [وكانت ساندرا حبيبةُ الراوي السابقة، وكان لا يزال يشعر سرّاً بألم لفراقها].

فانتفضتُ.

---

(413) نقلاً عن مدام سميث من المشهد الأوّل من مسرحية *La Cantatrice chauve*.

(414) مثلٌ مُقتبسٌ عن: Beckett, *Premier amour*, p. 24.

- هل لديه سيّارة؟ (ولم يكن هذا السؤال الذي كنتُ أرغب في طرحه).

فهزّتْ أود رأسها بالإيجاب. وكانت تنتظر مني أن أمطرها بوابلٍ من الأسئلة، وقد أصابتْ الهدف، كان قلبُها دليلها، العاهرة. طبعاً كنتُ أتوق شوقاً لمعرفة المزيد، إلاّ أنَّ الفخّ [الذي ينصبه المحسن البيانيّ الافتراضيّ] كان مع ذلك بمنتهى الوضوح لكي أقع في شباكه من المحاولة الأولى[415].

(«Elle a feint de lire encore quelques lignes, puis elle a relevé les yeux et m'a demandé:

- C'est d'accord?

- Si tu veux. Qui nous y mène?

- Le type de Sandra [Sandra: ex-petite amie du narrateur, dont il est sercrètement inconsolable].

Je sursautai.

- Il a une voiture? (Ce n'était pas la question que je voulais poser).

Aude a fait oui de la tête. Elle attendait mes questions, elle avait frappé juste, elle le sentait, la pute. Bien sûr, je mourais d'envie d'en savoir plus, mais le piège [du trope présuppositionnel] était quand même trop visible pour que j'y tombe du premier coup»).

المثل الثاني: بيبرمنت باتي: هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالاً؟ قل لي، هل تتكافأ من وجهة نظرك حظوظ الفتاة القبيحة والفتاة الجميلة في بلوغ السعادة؟

شارلي براون: ولكن طبعاً! أوّلاً أنتِ فتاةٌ صاحبة شخصيّةٍ مثيرة جدّاً للاهتمام، ثمّ. . .

بيبرمنت باتي: ولكن ما الذي أوحى لك بأنّني أتكلّم عن نفسي يا شارلي؟ لقد وقعت في الفخّ الذي نصبته لك، أليس كذلك؟

(«PIPPERMINT PATTY. - Je peux te demander quelque chose? Dis-moi, à ton avis, est-ce qu'une fille moche a les mêmes chances d'être heureuse qu'une fille qui est belle?

CHARLIE BROWN. - Mais bien sûr! D'abord tu as une personnalité intéressante et puis...

PIPPERMINT PATTY. - Mais qu'est-ce qui t'a fait penser que je parlais de moi, Charlie Brown? Je t'ai pris au piège, hein?»).

- ولكن أحياناً، مَن يحفر حفرةً لأخيه يقع فيها. . .

---

(415) مثلٌ مُقتبسٌ عن: Besson, *Les Petits maux d'amour: Roman*, pp. 58-59.

وفي ما يتعلّق أخيراً بالوحدات التي يكون وضعها الألسنيّ اللُّغويَ عَارِضاً في الوقت عينه، يكون كلّ شيءٍ رهن ميزان القوى الذي يندرجُ فيه التفاعل الكلاميّ الفعليّ، والإطار الذي يتمّ فيه «التفاوض» بشأن المحتويات المُتبادَلة كلامياً؛ فضلاً عمّا إذا كان الشريك الخطابيّ في أحسن أحواله أم في أسوئها، ناهيك بكفاءته التي لا يُستهان بها تقريباً في تداول المُضمَّنات بيُسرٍ، فليس الجميع سواسيةً في مواجهة المُضمَر. وبصفتنا مُنتجي خطابٍ، لا نملك جميعاً المهارة التي يتحلّى بها أبطال روايات ستاندال (ويظهر ذلك في المثل الآتي المأخوذ من كتاب **لوسيان لوين**[416]:

كان يصوغ بمهارةٍ استثنائيّةٍ أسئلةً غير مباشرةٍ حول السيّد دو بوزان وحول الاستقبال الذي تلقّاه؛

(«Il mettait une adresse prodigieuse à faire des questions indirectes au sujet de M. de Busant et de l'acceuil dont il avait été l'objet»);

ويظهر ذلك أيضاً في المثل التالي المُقتبس عن كتاب **راهبة بارم الشارترية**[417]:

جرت محادثةٌ خاطفةٌ في هذا الصدد نمّت عن مهارةٍ عالية من جانب الحبر الأعظم، فمن دون أن يتطرّق ولا بشكلٍ من الأشكال في حديثه إلى السجين الجديد، إلاّ أنّه تدبّر أمره ليتّخذ الخطاب منحى يسمح له بلياقةٍ بقول بعض الحِكَم الأخلاقيّة والسياسيّة؛ فعلى سبيل المثال [. . .]).

(«Il y eut là un petit moment de conversation qui ne fut pas dépourvu d'adresse de la part du prélat. Sans parler en aucune façon du nouveau prisonnier, il s'arrangea de façon à ce que le courant du discours pût amener convenablement dans sa bouche certaines maximes morales et politiques; par exemple [...]).

وبصفتنا متلقّين، فلسنا كذلك مُدرَّبين على قدم المساواة لرصد المُضمَّنات (كما يظهر ذلك في المثل المُقتبس عن أوبولسكيج[418] (A. Opulskij)، ألا وهو:

لا يكتسبُ الكاتب السوفياتيّ شيئاً فشيئاً مهارة التعبير عن أفكاره فحسب

---

(416) Stendhal, *Lucien Leuwen*,, p. 243.

(417) Stendhal, *La Chartreuse de Parme*, p. 288.

(418) الذي استشهد به بيريلوفيتز في: Berelovitch, «Autrement dit,» dans: *Essais sur le discours soviétique: Sémiologie linguistique, analyse discursive*, pp. 140-141.

[...] بل أيضاً التعبير عنها على نحوٍ يُخوِّلها أن تتجاوزَ الرقابة، وأن تفهمها شريحةٌ كبرى من القرّاء الذين يُفسّرونها بدورهم إلى قرّاء آخرين. وأحياناً يفهم القرّاء عدداً كبيراً من هذه الأفكار المُبيَّتة بين السطور في الكُتب، ولكن لا يُكشف في أغلب الأحيان النقاب إلاّ عن قلّةٍ قليلةٍ منها، إلاّ أنَّ القارئ المُدرَّب يكون قد لُقِّنَ تماماً كيفيّة فهم التلميحات الأكثر دقّةً، وكيف ينبغي عليه أن يستعين بالتفاصيل لإعادة بناء القصّة كاملةً. ويكون ممتنّاً من المؤلِّف ليس على مهارته في الكتابة فحسب، بل وأيضاً على مهارته في حبك خيوط الحيلة. وأتذكَّر مدى السرور الذي شعرتُ به حين تنبّه أحد قرّاء أحد مؤلّفاتي الأخيرة إلى أنّه لم يكن من باب الصدفة أنّني ذكرتُ بشكلٍ عابرٍ أنَّ «إسبة التعذيب» التي شيَّدها بافيل الأوّل كانت تقع عند زاوية لجوبانكا، أي بكلامٍ آخر، في المكان الذي يوجد فيه حاليّاً الكاي جي بي)،

(«L'écrivain soviétique acquiert peu à peu non seulement l'art d'exprimer ses idées [...] mais aussi de les exprimer de telle sorte qu'elles puissent passer la censure et être comprises d'une partie des lecteurs qui les expliqueront à leur tour à d'autres lecteurs. Parfois on obtient beaucoup, le plus souvent fort peu. Mais le lecteur entraîné a parfaitement appris à comprendre les allusions les plus infimes et à reconstituer le tout à partir des détails; il est reconnaissant à l'auteur non seulement pour son art d'écrire mais aussi pour son art de la ruse. Je me souviens comme je fus content du lecteur d'un de mes derniers livres qui avait compris que ce n'était pas par hasard que je signalais au passage que «l'isba aux tortures» de Pavel I^{er} se trouvait à l'angle de la Ljubanka, c'est-à-dire à l'endroit où se trouve actuellement le K.G.B.»),

يقول كارول ذلك ويُبيِّنه على ضوء مَثَل اختلاف الطريقة التي يؤوِّل بموجبها عدَّة أشخاصٍ أُخضِعوا للاختبار الشعار الآتي: «لا بدّ من رئيسٍ للجمهوريّة في فرنسا» («Il faut un président pour la France»)، حيثُ يؤكِّد ما يلي: «لا يفهم كلّ الأشخاص بشكلٍ متساوٍ الرسالات الكلاميّة التي يتلقّونها [...] فهم يُعانون عدم تكافؤٍ أمام الدلالة، فما الذي يدفع فلان إلى «رؤية» المُضمَّنات بسهولةٍ، بينما لا يستطيع الآخر إلاّ إعادة قول ما سَبَقَ قوله؟»[419]. ولكنّه يخلص[420] إلى الاستنتاج الآتي: «لا يُشكِّل المعنى موضوع إجماعٍ» ـ فما بالك إن كان هذا المعنى مُضمَراً.

---

(419) Charolles, «Il fallait un président à la France,» p. 100.

(420) المصدر نفسه، ص 118.

وإليكم سؤالاً أخيراً، ألا وهو: إنْ خُيِّرنا بين الصياغة البيِّنة والصياغة المُضمَرة، أيّهما نعتبرها أعنف وأكثر فعاليّة؟

من حيثُ المبدأ، إنَّ الجواب على هذا السؤال هو: الصياغة البيِّنة، إذ تكون التأكيدات والإخبارات حاسمةً أكثر والالتماسات تهديديّةً أكثر والانتقادات لاذعةً أكثر، إلى آخره، كونه يُصار إلى التعبير عنها بلا مواربةٍ. ومع ذلك لا يسعنا إلاّ موافقة رولان بارت وجوزيف روفان (Joseph Rovan) الرأي حين يُعلنان إيثارهما صياغة الأمر أو الرأي العنصريّ صياغةً مُلطَّفةً عوضاً عن اللّجوء لصياغتهما إلى الصياغة الفظّة. وإليكم هذَين المثلَين:

المثل الأوّل: شاءت الظروف أن أتلقّى على سبيل المزاح الودود (والسليم القصد) ثلاثة أو أربعة أوامر الواحد تلو الآخر، ألا وهي: «كفَّ عن التدخين» و«لا تحزَنْ» و«حذارِ أن تنسى نظّاراتك»، إلى آخره، فخطرت على بالي الفكرة التالية: ماذا لو أُلغيت صيغة الأمر؟ [...]

- إذا ألغت حكومة بارّ بموجب مرسوم ما صيغة الأمر، فستعلو بادئ ذي بدءٍ الأصوات المُستنكرة. ومن ثمّ سيُستعاضُ في الاستعمال وللحال عن هذه الصيغة بألف شكل وشكلٍ تهديديٍّ. وهذا في الواقع ما يحصل في اثنين من خطاباتنا على الأقلّ، ألا وهما: أوّلاً، خطاب القانون (مثلاً: «يُمنع...» و«لا يُسمح لأحدٍ...»)؛ وثانياً، خطاب التهذيب الذي يستخدم المواربات (على غرار: «هل تتكرَّم و...»). وباختصار، كلُّنا شكلانيون. ولا يزعجنا سوى صيغة الأمر.

- ليس الشكل سوى أثرٍ، إذ تغدو صيغة الأمر أعنف بوضوح حين يوجَّه إليكم الأمر لما فيه «خيركم». ومهما فكّرنا، فإنَّ صيغة الأمر هي دليلٌ على وضع اليد، إذ إنَّها نزعةٌ للسلطة(421).

(«Le hasard fait que j'ai reçu coup sur coup à titre de plaisanterie affectueuse (et bien intentionnée) trois ou quatre comminations: «Ne fumez plus», «Ne soyez pas triste», «N'oubliez pas vos lunettes», etc. Je pense alors: et si l'on supprimait l'impératif? [...]

- Si quelque décret du gouvernement Barre supprimait l'impératif,

---

(421) مثلٌ مُقتبسٌ عن: «La Chronique de Roland Barthes,» *Le Nouvel observateur*, no. 741 (22 janv. 1979), p. 70.

d'abord: quel tollé! Et puis surtout, ce mode serait immédiatement remplacé dans l'usage par mille autres formes de commination. C'est d'ailleurs ce qui se passe, dans au moins deux de nos discours : celui de la Loi («il est interdit...», «Nul ne pourra...») et celui de la Politesse, qui use de circonlocutions («Auriez-vous l'obligeance de...»). En somme, vous êtes formaliste. C'est la forme impérative qui vous gêne.

- La forme est une trace. Il y a dans l'impératif une violence qui est encore plus manifeste lorsqu'il vous est adressé «pour votre bien». Quoi qu'on pense, l'impératif est l'indice d'une mainmise, il est un désir de pouvoir»).

المثل الثاني: من المؤكَّد أنَّ احتياطات كره الأجانب والعنصريّة «الصامتة» التي لا يُستهان بها ما زالت قائمةً في فرنسا، بالمعنى الذي نتحدَّث فيه عن «الأغلبيّة الصامتة». وتُشكّل عدّة تصرُّفاتٍ على الصعيد اليوميّ خير دليلٍ على وجودها، مع أنَّ التظاهرات العامّة والرسميّة هي محظورةٌ بهذا الشأن. ولم تكن فرنسا تشهدُ مثل هذا المُحرَّم في فترة ما قبل عهد أوشويتز. إذ استحالت العنصريّة وكره الأجانب بعد عام 1983 أكثر خُبثاً. والحريّ بنا أن نهنّئ أنفسنا على هذا الإنجاز[422].

(«Il subsiste certainement en France d'importantes réserves de xénophobie et de racisme «silencieux», au sens où l'on parle de «majorité silencieuse». Maints comportements quotidiens en fournissent des démonstrations éloquentes, cependant que s'en trouvent interdites les manifestations publiques et officielles. La France d'avant Auschwitz n'avait pas l'idée de ce tabou. Le racisme et la xénophobie de 1983 sont devenus plus hypocrites. Je pense qu'on peut s'en féliciter»).

ولنفترِض مثلاً أنَّنا نستعيض عن العبارة المألوفة «أشكر فلان وعلاّن وعلتان» («Je remercie x, y, z») التي تخلقُ تشوّش وضوحٍ فنيٍّ يُلقي بظلاله على محور الأشخاص المُستبعدين الاستبداليّ، كما نقرأ على سبيل المثال في صفحة الوقاية البيضاء الأولى في إحدى أطروحات الحلقة الثالثة (وهذا حادثٌ مُثبَتٌ)، ما يلي:

أشكر فلان وفلان وعلاّن [. . .] («Je remercie x, y, z [...]).

ولستُ شاكراً لعمر وزيد لأنَّهما لم يفعلا شيئاً لمساعدتي («Je ne remercie pas x' et y', qui n'ont rien fait pour m'aider»).

وعليه، إنَّ وقع مثل هذه الصياغة هو أمضى بما لا يُقاس.

---

(422) مثلٌ مأخوذٌ من مقالةٍ كتبها روفان بعنوان: Joseph Rovan, «Des Français contre les immigrés,» *L'Histoire*, no. 57 (juin 1983), p. 17.

(ملاحظة: ففي مثل هذه الحالات، تزداد المسافة التي تفصل بين نوعَي الصياغة هذَين اتّساعاً كلّما كانت لائحة الأشخاص المُستبعدين مفتوحةً على كلّ الاحتمالات ومُشوّشةً، والعكس بالعكس، فلنقارِن مثلاً هذَين المثلَين:

(i) - هل أنتَ من عشّاق الموسيقى المُعاصرة؟

- نعم، فأنا أحبُّ ستوكهاوسن وليجيتي وبيريو تاكيميتسو...

((i) - Tu aimes la musique contemporaine?
- Oui: Stockhausen, Ligeti, Berio, Takemitsu...)

(ii) - هل تحبّ أفراد عائلتك؟

- أحبُّ والدتي وشقيقي الأكبر كثيراً).

((ii) - Tu aimes ta famille?
- J'aime bien ma mère, et mon frère aîné).

إلاّ أنّ الأمور ليست طبعاً بهذه البساطة، فعلى سبيل المثال[423]:

- إنَّ الأمر الذي يتمّ التعبير عنه بصيغة الأمر المباشر يكون من حيثُ المبدأ آمِراً أكثر من ذلك الذي يتنكَّر في شكل تأكيدٍ وإخبارٍ أو سؤالٍ.

ومع ذلك، تكون في بعض الظروف، عبارات من مثل «هل لك ألاّ تغضب من فضلك؟» («Tu voudrais bien ne pas te mettre en colère s'il te plaît?»)، و«هل تتكرَّم رجاءً وتكفَّ عن البكاء هكذا؟» («Aurais-tu je te prie la gentillesse de ne pas pleurer comme ça?»)، جارحةً أكثر بأشواطٍ بعيدةٍ من العبارات التالية: «لا تغضب!» («Te fâche pas!»)، و«لا تبكِ!» («Ne pleure pas!») (وتضرب دافيدسون[424] بمماثلةٍ بعض الأمثلة في معرض تعزيز وجهة النظر هذه، فتقول: «يُمكن استعمال أفعال الكلام غير المباشر للتعبير عن الغضب وعن الوقاحة القصوى»). وإنَّ هذه الواقعة ثابتةٌ. وهكذا مثلاً، حين يتَّخذ الأمر شكل

---

(423) والجدير بالذكر في هذا الصدد واقع أنّ العبارات الإنشائية (على غرار «آمرك أن...» («Je t'ordonne de...») و«أرجو منك أن...» («je te demande si»...)... إلخ) لا تُستعمل عموماً إلاّ في الملاذ الأخير، حين تُمنى سائر الطرق والأساليب بالفشل. وقد أشار إلى هذه المُفارقة شارادو في: Patrick Charaudeau, «Une théorie des sujets du langage,» *Langage et société*, no. 28 (juin 1984), p. 48.

(424) Alice Davidson, «Indirect Speech Acts and What to Do with Them,» in: Cole and Morgan, eds., *Syntax and Semantics. 3, Speech Acts*, p. 150.

تأكيدٍ وإخبارٍ بصيغة المُستقبل، تُطرح مسألة تنفيذه بمثابة الأمر المُحقَّق، فيظهر بالتالي الالتماس بمظهر الأمر المفروض، على غرار المثلَين التاليَين:

المثل الأوَّل: سكابين: لن تفسخَه مُطلقاً [هذا الزواج].

أرجينت: لن أفسخه مُطلقاً؟ [...].

سكابين: ولن تحرمَه مُطلقاً من الإرث [نجلك].

أرجينت: لن أحرمه من الإرث مُطلقاً؟

سكابين: كلا.

أرجينت: كلا؟[425].

(SCAPIN. - Vous ne le romprez point [ce marriage].
ARGANTE. - Je ne le romprai point? [...].
SCAPIN. - Vous ne le déshériterez point [votre fils].
ARGANTE. - Je ne le déshériterai point?
SCAPIN. - Non.
ARGANTE. - Non?).

المثل الثاني: «بعد أن تُخرِجَ أغراضك من المكتب يا بارتلبي، ستُقفلُ الباب بالمُفتاح بطبيعة الحال، وستدسُّ رجاءً المفتاح تحت ممسحة الأرجل، لكي أجدَهُ عند الصباح. أنا لن أراك مُجدَّداً. وداعاً إذاً. وإنْ احتجتَ لاحقاً في فترة تقاعدك إلى أيّ خدمةٍ منّي فلا تتردَّد بتوجيه رسالةٍ إليَّ لتُعلمني بذلك، واهتمّ بصحَّتك».

لم ينبس بارتلبي ببنت شفةٍ.

فعدتُ إلى منزلي وأنا شارد الذهن ويتملَّكني شعورٌ بالزَهو أقوى من الشفقة. ولم أتمالك نفسي من التباهي جهاراً بمهارتي في التخلُّص من بارتلبي. وإنّني أصفها بتواضع بالجديرة بأستاذٍ، ولن يتوانى أيّ إنسانٍ رزينٍ ومنصفٍ عن الاعتراف بذلكَ. وعلى ما يبدو، كان جمال أسلوبي يكمن في رصانته المُطلقة، فلم ألجأ إلى المشاحنة السوقيّة ولا إلى التبجُّح ولا إلى المعاملة العنيفة الغضوب أو إلى التشوير الغوغائيّ ذهاباً وإياباً في الغرفة، ولا إلى إصدار أوامرَ مُلزِمةٍ إلى

(425) مثلٌ مأخوذٌ من المشهد الأوَّل من الفصل الرابع مسرحية *Les Fourberies de Scapin*.

بارتلبي طالباً منه إزالة أطماره الرثّة البالية عن الأرضيّة. لم ألجأ إلى شيءٍ من هذا القبيل، فمن دون أن أثير جلبةً وأنا أطلب من بارتلبي إخلاء المكان - الأمر الذي كان ليقوم به شخصٌ ضيّق الأفق - انطلقتُ من واقع أنّ رحيله مُسلَّمةٌ عليه تنفيذها، وبنيتُ كلّ ما قلته على مُقتضى هذه المُسلَّمة. وكلّما كنتُ أمعنُ التفكير في أسلوبي، كان يغمرني شعورٌ بالراحة [. . .]،

(«Après avoir retiré vos affaires du bureau, Bartelby, vous fermerez la porte à clé, naturellement, et vous glisserez la clé sous le paillasson, je vous en prie, afin que je la trouve au matin. Je ne vous reverrai plus. Adieu donc. Si, par la suite, dans votre nouvelle retraite, je puis vous être de quelque utilité, n'hésitez pas à m'en aviser par lettre, et portez-vous bien».

Il ne répondit pas un mot.

Je regagnai, l'humeur pensive, mon domicile, la vanité l'emportant sur la pitié. Je ne pouvais que me glorifier hautement de mon habileté à me débarrasser de Bartelby. Je la qualifierais volontiers de magistrale, et tout homme réfléchi et impartial en conviendra. La beauté de mon procédé résidait, me semblait-il, dans sa parfaite sobriété. Point de scène vulgaire, point de bravade, de rudoiement coléreux, de gesticulation désordonnée à travers la pièce, point d'ordre enjoignant à Barlelby de débarrasser le plancher de ses nippes. Rien de la sorte. Sans commander bruyamment à Bartelby de quitter les lieux - comme un esprit inférieur n'eût pas manqué de le faire - j'étais parti du postulat qu'il devait le faire et c'est sur ce postulat que je fondais tout ce que j'avais à dire. Plus je songeais à ma méthode, plus elle me remplissait d'aise [...]),

وهكذا، يتفاخرُ راوي كتاب **بارتلبي** (Bartelby)، حين يُخيَّل إليه أنّه نجحَ أخيراً، بمقتضى قوّة المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق السحريّة، في التخلّص من بارتلبي الذي يُجسِّد صورةً رمزيةً للمقاومة المُستسلمة. إلاّ أنّه سرعان ما يُخفِّف من غلوائه، مُدركاً أنّه مهما بلغت قوّة القول الكلاميّة المنطوقة، فإنّها لا تصل دائماً إلى مآربها على صعيد تأثيرها غير المباشر، إذ إنّ القول ليس سوى ادّعاء الفعل. ويظهر ذلك في المثل الآتي:

إلاّ أنّ الشكوك ساورتني في صباح اليوم التالي. . كنتُ لا أزال أجد أسلوبي أريباً أكثر من أيّ وقتٍ مضى. . . ولكنّه لم يكن كذلك إلاّ على الصعيد النظريّ. لأنّ نقطة ضعفه كانت تكمن في ما كان يُثمِرُه على صعيد الممارسة العمليّة، ففي الواقع، كانت فكرة الانطلاق من المسلَّمة القائلة بأنّ بارتلبي كان يرغب في الرحيل فكرةً واعِدةً. ولكن، وبعد كلّ حسابٍ، كانت هذه المُسلَّمة من صنعي أنا، ولم تكن مُطلقاً من صنع بارتلبي، فلم تكن المسألة مسألة معرفة إذا

كنتُ أنا طلبتُ رحيله، بل إن كان، هو، يؤثِر الخضوع. كان بارتلي رجلاً يُعطي أفضليّةً للأولويّات أكثر منه رجلاً يُذعِنُ للمسلَّمات(426).

(«Néanmoins, le lendemain matin, j'eus des doutes... Mon procédé me semblait toujours aussi sagace que jamais... mais seulement en théorie. Ce qu'il donnait dans la pratique, voilà le bât blessait. C'était en effet une riche idée que d'être parti du postulat que Bartleby voulait déguerpir, mais après tout, ce postulat était mon fait et non celui de Bartleby. La question n'était pas de savoir si, moi, j'avais postulé son départ mais si Bartelby, lui, préférait s'incliner. C'était un homme de préférences plutôt de postulats).

- وبما أنَّ عمليّة نبش الاستدلال تتطلَّب من ناحيةٍ أخرى المزيد من العمل والمشارَكة من جانب المتلقّي، فقد يُخيَّل إلينا أوّلاً، أنّه يتمّ أحياناً نتيجةً لذلك التشديد عليها؛ وثانياً، أنَّ المحتوى المُضمَر، كونه يُنذَر للاكتشاف أكثر منه للرؤية، فهو ينطبع بقوَّةٍ أكبر في ذهن الشخص الذي يكتشفه - لأنَّ الكتمان يولِّه كما نعلم جيِّداً الغرض المكتوم جنسيّاً، فمثلاً: أن نتكلَّم مثل النساء المُتحذلقات عن «الأشياء البذيئة» («fiture») يعني أن نولي «المغفلين» اهتماماً مُبالغاً فيه. وكذلك، أن نستفيضَ باستحواذٍ في النَّهي عن ممارسة الجنس، هو أمرٌ يُثير في الواقع، مثلما يُبيِّنه فوكو (Foucault) (الذي يعتبر أنَّ هذا الخطاب يتمحور بكامله نوعاً ما حول صيغة المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق) «الرغبة في المعرفة» ويُغذِّيها.

وتُشكِّل حالة الإغراق المُفارِقة ظاهريّاً خير مثالٍ على ذلك، فبينما يحلو للغلوّ أن يُبالغَ على طريقته الساذجة نوعاً ما، لكي يُعطي انطباعاً أكبر بالإقناع، يؤثِر الإغراق التخفيف من الوطأة ظاهريّاً، لأنّه يُدرك تمام الإدراك أنَّ العبارة ستكتسبُ، على مستوى آخر، المزيد من الوضوح والقوّة(427).

- ولاسيما إنَّنا نَمَلُّ سريعاً من العبارات القويّة. ويقول جورج باتاي (Georges Bataille) إنَّ «الإسراف في القول ليس معبِّراً» («L'excessif est

---

(426) مثلٌ مُقتبسٌ عن: Herman Melville, *Bartleby = Bartleby, The Scrivener*, traduction de Michèle Causse (Paris: «Le Nouveau commerce», 1976), p. 37.

(427) ولهذا السبب بلا ريب يوصي ساد (Sade) (الذي يتحدّث عن نفسه بصيغة الجمع في حواشي مؤلّفاته) نفسه بشأن كتاب **120 يوماً في مدينة صودوم** (*120 journées de Sodome*)، قائلاً: «لطِّفوا كثيراً القسم الأوّل، فكلّ شيءٍ موسّع بإفراطٍ؛ إذ يستحيل أن يكون هذا القسم ركيكاً للغاية ومحجوباً (مثلٌ مُقتبسٌ عن Marquis de Sade, *Oeuvres complètes du marquis de Sade*, 16 vols., édition définitive (Paris: Cercle du livre précieux, 1966-67), vol. 13, p. 345:

«Adoucissez beaucoup la première partie: tout s'y développe trop; *elle ne saurait être trop faible et trop* gazée»).

(«insignificant»)، ففي بعض أنواع الخطاب حيثُ يُصبح الزائد معياراً، قد تغدو العبارة المُلطَّفة فعّالةً بخِلاف العبارة الناريّة.

تتدخَّل أيضاً عدَّة آليّات سيكولوجيّة يكتنفها الغموض بدرجاتٍ متفاوتةٍ، لتجعلَ أحياناً الأثرَ الذي تُخلِّفه العبارة المُضمَرة («الألطف» («soft»)) من حيثُ المبدأ) أكبر وقعاً من ذلك الذي تُخلِّفه العبارة البيِّنة («الجَلِفة» («hard»)) المُطابقة لها. وهكذا قد تلاقي مثلاً العبارة المُضمَرة قبولاً أفضل لأنَّها تُجنِّبنا ردّات فعل الرفض الذي قد تُثيره عبارةٌ فظّة[428] للغاية؛ وقد تكون كذلك فعّالةً بمكرٍ أكبر، خصوصاً وأنَّ يكون قابلاً للانجراح من المحتويات المُضمَرة لدرجة أنَّه في أغلب الأحيان يُدركها بشكلِ «نصف واعٍ» نوعاً ما؛ وحتّى إنَّها قد تكون جارحةً وخبيثةً أكثر لأنَّها تعملُ أحياناً بواسطة نُكتةٍ لاذعةٍ تُقال في نهاية حديثٍ عند الانصراف[429]؛ أو قد تكون أيضاً ذات طابعٍ ساديٍّ أكثر، كما في المثل الآتي:

فيرناندو: ودورابيلا؟ كيف مالت؟ [...] كيف؟ هل استسلمت ربّما

(428) تصِفُ بياتريس ديرسوفيل (Béatrice d'Erceville) بهذه التعابير التصرّف المُقارَن الذي ينتهجه الأمريكيّون وذلك الذي ينتهجه الفرنسيّون إزاء المصطلحات المُستعملة لتصنيف بعض المنتجات الغذائية ذات السعرات الحرارية القليلة، قائلةً: «يُعاني أصحاب المصانع كذلك صعوباتٍ في إقناع المُستهلكين. وقد وجد الأمريكيون حلاً لهذه الإشكالية من خلال تسمية الأمور بأسمائها، فجعلوا من مصطلح «سعرات حرارية قليلة» علامةً تجاريةً مرغوبةً. بيد أنّ المصطلحات المعادِلة في اللّغة الفرنسية لمصطلحات «حمية» أو «نظام غذائيّ بديل» تعني في عالم الذِواقة أمراً كريهاً وهميّاً، مُرادفاً لتقليص النفقات أو الحرمان [...]. ولن يُمحى من ذاكرة المحترفين كلّهم الفشل المدوي الذي مُنيت به أنواع الجِعة الثلاثة «ذات السعرات الحرارية القليلة» التي أطلقت في الأسواق اعتباراً من عام 1978 [...]. ويبدو الجمهور قابلاً للتأثّر أكثر بالكلام التلميحيّ الذي يُقوّي عبارة «خالية من...»، بل وحتّى الاستعارة المرموزة. وتكمن حَسَنَة بعض الماركات التجارية المُسجّلة من مثل «تايفين» [= القدّ الرشيق] و«سيلفيد» [= امرأة خفيفةٌ رشيقةٌ] في أنّها تقترح كلّ شيءٍ من دون أن تؤكّد أيّ شيءٍ». (مثلٌ مقتبسٌ عن مقالة بعنوان: «Les Produits «sans»,» *Le Monde dimanche* (9 janv. 1983), p. v («Les fabricants d'«allégés» éprouvent aussi des difficultés à convaincre les consommateurs. Les Américains ont résolu le problème en appelant un chat un chat, et en faisant du terme «basses calories» un label très recherché. Mais les équivalents français de «diet» ou «substitute» renvoient, au pays de la gastronomie, à un imaginaire rébarbatif, synonyme de restrictions ou de privations [...]. Tous les professionnels ont en mémoire l'échec retentissant des trois bières «basses calories» lancées à partir de 1978 [...]. *Le public se montre plus réceptif à un langage allusif* qui cultive l'expression «sans trop de», voire l'allégorie. Des noms de marque comme Taillefine ou Sylphide présentent *l'immense avantage de tout suggérer sans rien affirmer*»»),

(429) في أثناء الفاصل في المسرح، أزعجتْ مراهقةٌ صغيرةٌ صفّاً من المشاهدين. =

لإطراءاتك؟ آه، لو استطعتُ أن أشكّ بالأمر فحسب!

غوغلييَلمو: يحسن دائماً الشكّ قليلاً في هذا العالم.

فيرناندو: أيَّتها الآلهة الأزليّة، يقول: لا تجعليني أموت هنا على نارٍ هادئة...(430)

(FERNANDO. - E la mia Dorabella? Come s'è diportata? [...] Come? Cesse ella forse alle lusinghe tue? Ah s'io potessi sospettarlo!

GUGLIELMO. - È sempre bene il sospettare un poco in questo mondo.

FERNANDO. - Eterni Dei, favella: a foco lento non mi far qui morire...).

إلاّ أنَّ فعاليّة الخطاب المُضمَر تخضع بالكامل لخصائص الإطار التفاعليّ، ولاسيما لكفاءة المتلقّي التأويليّة. وهذا ما دفع بوتييه (Bautier) إلى الإجابة بتعابير قابلةٍ للتأويل على السؤال التالي: «ما هي المنافع التي يختصُّ بها على التوالي نمطا الممارسات التواصليّة هذان حيثُ يقتضي في الحالة الأولى أن نصوغَ خلاصة الرسالة الكلاميّة الإقناعيّ، وفي الحالة الثانية أن نتركَ للمُتلقّي حُسن استخلاصها بنفسه؟». ويتجلّى جوابه على الشَّكل الآتي:

«قد نخال أوّليّاً أنَّ الممارسة الأولى توضّح الرسالة الكلاميّة بشكلٍ أكبر، فتُسهّل بالتالي على المُتلقّي فهمها على نحوٍ أفضل، في حين ينبغي ترجمة الممارسة الثانية باعتبار أنَّ وقع الرسالة الكلاميّة فيها يكون أكبر في نطاق أنَّ مشاركة المتلقّي المطلوبة عندئذٍ تستتبع ألاّ يعتبر هذا الأخير أنَّ الخلاصة المطروحة مفروضةً عليه من الخارج بل على العكس باعتبارها خلاصته الخاصّة.

عموماً، تُظهِرُ الأبحاث التي تتناول هذه الإشكاليّة أنَّ الخلاصة البيّنة تكون فعَّالةً أكثر من الخلاصة المتروكة بحالة المُضمَر، فمن المُلاحَظ بوجهٍ خاصٍّ أنَّ الأشخاص غالباً ما يعجزون عن استنتاج الخلاصات من الرسالة الكلاميّة بأنفسهم عندما لا تُزوِّدهم بها هذه الأخيرة على نحوٍ بيِّنٍ. وهكذا، يتعذَّر تحقُّق المقبوليّة

= فقالت لها والدتها: «لم أسمع كلمة «عُذراً» لا بدّ أنّني أُصبتُ بالطرش...» («Je n'ai pas entendu de «pardon», je dois être sourde...»).

والحال أنّنا نستطيع أن نعتبر أنّ أسلوب الـ غمز» الذي يُكثِرُ خطاب السّلطة من استعماله، هو كيديٌّ ومُغيظٌ أكثر من التوبيخ الصريح.

(430) مثلٌ مأخوذٌ من الفصل الثاني من مسرحية **هذا ما يفعله الجميع** (*Così fan tuttè*).

المُحتملة «الأعمق» للخلاصة. ولكن يبدو مع ذلك أنّه حين يكون الأشخاص قادرين على استنتاج الخلاصة بأنفسهم، يُخلِّفُ تركها بحالة المُضمَر وقعاً أكبر في نفوس المتلقّين[431]».

تكون الصياغة المُضمَرة أكثر فعاليّةً أحياناً من الصياغة البيّنة، إلاّ أنّها تكون دائماً أكثر مُجازفةً منها. وتكمن المُجازفة في أنّنا ما إن نتلافى خطر الشّفافيّة المُفرِطة حتّى نقع في خطر اللامقروئيّة الأعظم منها. ويعود للمتكلِّم أن يحسب هذه المخاطر، تبعاً لنمط الخطاب والمقام التعبيريّ الادائيّ وخصائص المُخاطَب وأغراضه التداوليّة التواصليّة الخاصّة - وأن يوازنَ بناءً عليه البيِّن والمُضمَر. وهكذا، يُشبِهُ النشاط الكلاميّ ما يقوم به البهلوان الذي يمشي على الحِبال.

5.4. الخلاصات

من الضروري برأينا، إنْ أردنا عرض الطريقة التي ينتهجها المتكلِّمون لإنتاج الرسائل الكلاميّة وتأويلها، أن نفترضَ أنّهم يتحلّون بأربع كفاءاتٍ، تُشكِّل مُجتمعةً نوعاً من «الكفاءة المُفرطة التعقيد»، وتترابط إحداها مع الأخرى، فمثلاً: تؤثِّر المُعطيات السياقيّة تأثيراً مباشراً في فعل الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة لأنَّ على الأقوال الواقعة ضمن نطاق مسؤوليّاتها أن تنتمي إلى مستوى لغويّ، أي «لهجة عاميّة مقاميّة»، مناسب (ةٍ) للغرض؛ والدليل على ترابطها أيضاً أنّنا لا نحدِّد مؤدّى قوانين الإخباريّة والملاءمة والشموليّة وبشكلٍ عامٍّ أكثر شروط تطبيق مختلف قوانين الخطاب - وكان ذلك محطّ كلامٍ لم ننفكّ نردِّده في الصفحات السابقة - إلاّ على ضوء خصائص «الإطار» الذي يندرج فيه التفاعل الكلاميّ.

كما تعمل هذه الكفاءات بالتأثير المُتبادَل، لدرجةٍ يتعذَّر فيها تحديد القسم المعنيّ بكلٍّ منها بدقّةٍ. وقد أشرنا سابقاً وبشكلٍ عابرٍ إلى مسألة إبهام معالم الحدود الفاصلة بين الكفاءتَين الألسنيّة اللُّغويّة والموسوعيّة (على غرار الإلمام بالكلمات في مقابل الأشياء، ومعرفة السياق الحالي للنصّ في مقابل السياق، والدراية بالمعلومات التناصيّة والهامشيّة النصيّة)، وبين الكفاءتَين الألسنيّة اللُّغويّة

(431) Roger Bautier, «Recherches expérimentales américaines sur la «communication persuasive»,» dans: *L'Argumentation*, linguistique et sémiologie; ISSN 0246-6341 (Lyon: Presses universitaires de Lyon, 1981), pp. 220-221.

والبلاغيّة (فمثلاً، تُشبِهُ بعض «قوانين الخطاب» الخاصّة بنا القواعد الألسنيّة اللُّغويّة). وهكذا، تظهر مجموعة الجدارات الإنتاجيّة والتأويليّة التي يتمتَّع بها المتكلِّمون بمظهر النظام المعقَّدِ ذي التنظيم الداخليّ المُكتنَف بالغموض.

ولكن، أيّاً تكن إشكاليّات إسناد الصلاحيّات التي يُثيرها هذا التقسيم إلى كفاءاتٍ (والتي تتشاطر من جهةٍ أخرى خاصيَّة أنَّها قاطبةً، أي الأربعة بلا استثناءٍ، مشوَّشة الوضوح)، فإنَّ ما يحثُّ على ما يبدو على إنشاء مثل هذا التقسيم إنَّما هي بعض الاعتبارات المُتعلِّقة بِالتوسُّع الجغرافيّ للكفاءات الآنفة الذكر. ذلك لأنَّها حتّى لو تتشعَّب كلُّها إلى «لغاتٍ» (سواء «محليّة» أو «اجتماعيّة» أو «محكيّة» أو حتّى «أيديولوجيّة» و«نمطيّة»[432]، فلا تتراكب إطلاقاً محتويات اللّغات الألسنيّة اللُّغويّة والموسوعيّة والمنطقيّة والبلاغيّة التداوليّة التواصليّة. وهكذا مثلاً، من الممكن أن يتكلَّم شخصان اللّغة نفسها إجمالاً من دون أن يكونا مزوَّدَين بمخزون قوانين الخطاب نفسه، والعكس بالعكس.

ومن جهةٍ أخرى، لا تتقاسم هذه الكفاءات المُختلفة صِيَغ التدخُّل نفسها بالضبط، فمثلاً:

إنَّ أوَّل ما يستتبعه بالضرورة وبصورةٍ دائمةٍ تأويل القول إنَّما هو الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة، فعندما أقرأ في محطّات الوقود الإيطاليّة العبارة التالية (الموجَّهة إلى أصحاب «القسائم المدفوعة» والتي تُعلمهم بأنَّ سعر البنزين قد ارتفع)، ألا وهي: «عليكم دفع الفروقات» («Dovete pagare la differenza»)، لا أفهم القول إلاّ جزئيّاً في حال لم أكن مزوَّدةً بالمعلومة الموسوعيّة الملائمة؛ إلاّ أنَّ هذا القول يبقى عصيّاً على الفهم كليّاً في حال كنتُ لا أفقه أيّ كلمةٍ إيطاليّةٍ.

ومع ذلك لا يجدر بنا أن نعتقد أنَّ دور الكفاءة الموسوعيّة يقتصر على إتمام المعلومات التي تستخرجها الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة من القول، فالأمور ليست أبداً بهذه البساطة، إذ تؤثِّر أحياناً الكفاءتان الثقافيّة والأيديولوجيّة تأثيراً حاسماً في العمل التأويليّ، وذلك في نطاق أنَّ بعض الأشخاص يميلون إلى نسب ما

(432) نُطلق اسم «اللّغة الأيديولوجيّة» على الكفاءة الخاصّة بمجموعة أفرادٍ ينتمون إلى «التنشئة الخطابيّة» نفسها، أي المنتمون إلى النظام الأيديولوجيّ نفسه؛ في حين نطلق اسم «اللّغة النمطية» على أيّ مجموعةٍ من القواعد المُستنبطة على شكل كفاءةٍ، تكون خاصّةً بـ «نوعٍ» خطابيٍّ معيّنٍ.

يتصوَّرونه أوّليّاً عن المرجع النصيّ إلى ما يقوله لهم النصّ. وعلى أيّ حالٍ، هذا هو أيضاً ما يُنوِّه به بالب (J.-P. Balpe) بشأن التفسيرات التي أنتجها بعض الطلّاب بأسلوبٍ شخصيّ انطلاقاً من قصّةٍ خياليّةٍ اقُترحَت عليهم، قائلاً: «ما يسترعي الانتباه لدى قراءة هذه النصوص قراءةً أولى إنّما هي الصعوبة التي واجهها هؤلاء الطلّاب للخروج من نظام الأفكار المتوارثة (ويُمكننا أن نُسمّي نظام الأفكار هذا بعالم مرجع نصّ التلميذ (ع. م. ت.) في مقابل عالم مرجع النصّ المُعطى (ع. م. ن.)، أي بكلام آخر المعلومات التي يحتويها فعليّاً هذا النصّ والتي كان «مشروعاً» العملَ على ضوئها)»[433]. ويُبدي بوتييه الملاحظة عينها، فيقول ما يلي: «إذا كان بعض القرّاء يقبلون بانقيادٍ الفحوى البرهانيّة للنصّ الذي يُفرَض عليهم، فإنّ البعض الآخر يُخضِعُ في المقابل فهمه للنصّ لأحكام تقويميّةٍ تتناول محتوى الجُمَيلات المُدلى بها، أي إنّهم بكلام آخر «يرفضون المَهمَّة «المنطقيّة» لحساب المهمّة «التجريبيّة»»[434]. وباختصارٍ، إنّها نزعة الامتناع عن تعلُّم أمورٍ غير تلك التي سبق لنا وتعلّمناها، والإحجام عن فهم أمورٍ غير تلك التي نُسلِّم بها أصلاً.

وبناءً عليه، نستنتج ما يلي:

- تحتلُّ الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة منطقيّاً مركز الصدارة؛

- تضطلع الكفاءة الموسوعيّة بدورٍ تكميليّ ولكن جوهريّ في تحديد معنى القول الشّامل ـ وحتّى إنّه يكون عند الحاجة دوراً مُهيمناً مقارنةً بدور الكفاءتَين الألسنيّة اللُّغويّة والمنطقيّة؛

- تتدخّل الكفاءة البلاغيّة التداوليّة التواصليّة تدخُّلاً حاسماً، وقد أظهرنا ذلك بشكلٍ كافٍ وافٍ، في استخراج المحتويات المُضمَرة، وذلك من خلال إناطة فعلها بفعل الكفاءتَين الألسنيّة اللُّغويّة والموسوعيّة، فلنقارِن على سبيل المثال بين هذَين المثلَين:

المثل الأوّل (i): «لقد حاولتُ أن أُبيِّن الإخراج النظريّ لهذا التمثيل في

(433) Jean-Pierre Balpe, «Tous les enfants studieux ont les cheveux roux,» *Pratiques*, no. 28 (octobre 1980), p. 49.

(434) Bautier, Ibid., p. 214.

النصّ الهائل والمُجزّأ والمُبتكر والهامس الذي يتألّف منه كتاب **موسى والتوحيد**[435] («J'ai tenté d'indiquer la mise en scène théorique de ce jeu dans ce texte énorme, fragmenté, génial et murmurant qu'est Moïse et le monothéisme»)، فحتّى وإنْ لم نكن على علم مُسبقٍ بأنّ هذا الكتاب هو من تأليف فرويد، نستطيع على أيّ حالٍ أن نتكهّنَ، بفضل القانون القاضي بأنّ أيّ إنسانٍ عاقلٍ يُحجم عن رمي نفسه بالأزهار جهاراً، أنّ هذا النصّ ليس من تأليف دو سيرتو. وكذلك، فمن شأن القاعدة البلاغيّة التداوليّة التواصليّة أن ترفعَ إبهام الجملة البُنيويّ المنوط بإشكاليّة ركيزة المحور الاستبداليّ الذي يُمَهِّدُ له حرف الجرّ «في» («dans»)، وبتّ المسألة لصالح التأويل الأقلّ «انتهاكاً».

المثل الثاني (ii): «لا يحبُّ الرجال أحياناً النساء الذكيّات؛ أمّا أنا فكنتُ أحبُّ الرجال وكنتُ أرغب في أن يحبُّوني»[436] («Les hommes parfois n'aiment pas les femmes intelligentes; et moi, j'aimais les hommes et je voulais qu'ils m'aiment»). وفي المقابل، لا نجد هنا سوى إمكانيةٍ تأويليّةٍ واحدةٍ فقط لا غير وهي تلك التي تُسلّم بالاستدلال الآتي: /أنا امرأةٌ ذكيّةٌ/ (/je suis une femme intelligente/). ولا بدّ لنا من أن نُذعِن هنا قائلين: ينتهِكُ القائِل في هذا الصدد «قانون الأزهار».

● أمّا بالنسبة إلى الكفاءة المنطقيّة، فهي تتمتّع بوضعٍ خاصٍّ لأنّها تسمح، انطلاقاً من المعلومات التي تزوّدنا بها سائر الكفاءات، بتحقيق عمليّات حسابٍ تُفضي إلى إنشاء تأويلاتٍ (فعلى سبيل المثال، إنّ الاستدلالات «العمليّة التطبيقيّة» هي مبنيّةٌ على قاعدة المعلومات التي تكون بحوزة المُحاوِر بشأن تنظيم عالم التجربة «ع» على شكل «إطاراتٍ ذهنيّةٍ» ومخطوطاتٍ» تتكفّل بها الكفاءة المنطقيّة فتجمَعُها وتعالجُها بحيثُ تولّد الاستدلالات المطروحة). وسنردّد المثل الذي ضربه سيرل، ألا وهو: «على ممسحة الأرجل هرٌّ» («Le chat est sur le paillasson») حيثُ يُبيّن كارول بمماثلةٍ كيفيّة عمل بعض «قواعد الحساب» على المعطيات الألسنيّة اللُّغويّة (أي «معنى القول الحرفيّ») والبلاغيّة التداوليّة

---

(435) «Débat: Le Discours historique et le réel: M. de Certeau et Régine Robin,» *Dialectiques*, no. 14 (1976), p. 62.

(436) مثلٌ مُقتبسٌ عن: Françoise P. Lévy, *Karl Marx: Histoire d'un bourgeois allemand*, figures (Paris: B. Grasset, 1976), p. 11.

التواصليّة (أي «قواعد المُطابقة التحادثيّة وبوجهٍ خاصٍّ قاعدة المُلاءمة المُلزِمة») والموسوعية (أي معطيات الوقائع الخاصّة بالمقام المادّي)، وذلك بغية إيلاد الاستدلال الآتي: / افتح الباب/ [437] (/ouvre la porte/).

ويختتم كارول حديثه قائِلاً: «تلك هي برأيي بعض العناصر التي ينبغي أخذها بالحسبان بغية توضيح قدرة شخص ما في مقام معيَّنٍ على تحقيق بعض الحسابات التأويليّة». وبرأينا تُشكِّل أيضاً تلك العناصر المكوِّنات التي تتغذّى منها الآلة التأويليّة بشكلٍ أساسيٍّ.

أمّا بالنسبة إلى معرفة كيفيّة جمعها لهذه العناصر وفهمها وتركيبها، فهذه للأسف مسألةٌ أخرى. . .

(437) Charolles, «L'Ordre de la signification,» p. 60.

الفصل الخامس

الحساب التأويليّ

يكمن قوام العمل التأويليّ عموماً في إنشاء تمثيلٍ للقول يتّسمُ بطابعه الدلاليّ التداوليّ التواصليّ ويكون متماسكاً وقريباً من الواقع، وذلك من خلال جمع المعلومات المُستخرَجة من القول (بفضل الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة) فضلاً عن بعض المعلومات التي نملكها «مُسبقاً» (بفضل الكفاءة الموسوعيّة)، بحيثُ أن تتطابق المُحصِّلة النهائيّة مع قوانين الخطاب (بفضل الكفاءة البلاغيّة التداوليّة التواصليّة) ومع مبادئ المنطق الطبيعيّ (بفضل الكفاءة المنطقيّة). وهكذا، فخارج أيّ تدبيرٍ مُضادٍّ أو استحالةٍ جليّةٍ، يطرح المُحاوِر كمُسلَّمةٍ أنَّ المتكلّم يُنتجُ قولاً يكون مُراعياً للأصول[1] على كلّ المستويات.

تتعلَّق المسألة هنا بلا ريبٍ بنوعٍ من «قانون خطابٍ مثاليٍّ» يقضي بالنسبة إلى الشخص الذي يُرمِّز بإنتاج قولٍ يكون مُراعياً للأصول على كلّ المستويات؛ أمّا بالنسبة إلى الشخص الذي يفكّ الترميز، فهو يستوجبُ القضاء على الشواذات بمُختلف أنواعها وحلّ التناقضات المُحتملة وإزالة كلّ ما يوصف بـِ «المُريب»[2]. . .،

---

(1) بشأن حيّز التماسك الذي يمنحه كلّ متلقٍّ للإنتاجات الخطابيّة التي تُعرَض عليه، فضلاً عن مختلف أشكال السلوك التي يعتمدها المتلقي، تبعاً للتمثيل الذي يتصوّره عن وضع المُرسِل وعن نمط النصّ المطروح، عندما يجد نفسه أمام قولٍ «غير مقروءٍ» ظاهريّاً، راجع: Michel Charolles: «Introduction au problème de la cohérence des textes,» *Langue française*, no. 38 (mai 1978), et «L'Ordre de la signification,» *Pratiques*, no. spécial (1980).

(2) أحياناً، يحثّنا طابع الصياغة الغريب نوعاً ما على اعتبار القول بمثابة محسنٍ بيانيٍّ أو جِناسٍ (على غرار الشعار الإعلانيّ التالي: «تاكي رجل الشرطة» («Taky, l'agent de peau lisse»)).

[إنّ الجِناس ظاهرٌ في اللّغة الفرنسيّة حيثُ يُمكن تقسيم كلمة «Police» (= شُرطة) إلى جزأين يبدوان عند اللّفظ وكأنّهما يُشكّلان كلمتَين، ألا وهما: Peau = بشرة و lisse = ناعمة الملمَس، إلاّ أنّه يتلاشى عندما نقل هذه الكلمة إلى اللّغة العربية (المُترجمة)].

فقوام تأويل أيّ قولٍ مهما يكن أن ننتقي من محور الدلالات الاستبداليّ القابلة أن تستثمره تلك التي تبدو مُهيَّأةً على أفضل نحوٍ ممكنٍ للتماسك والملاءمة ـ وحتّى أحياناً، لا يخلو الأمر من «إضافة» المزيد من هذه الدلالات إليه مقارنةً بتلك التي يلحظُها أصلاً مخطَّط الترميز(3).

ويتَّضحُ من الأفكار الآنفة الذكر أنَّ الآلة التأويليّة التي نكتشفُ يوميّاً دواليب جديدةٍ فيها، هي على جانبٍ من التعقيد لدرجة أنَّه يبدو من السابق لأوانه أن نحاول إنشاء «نموذج شاملٍ» أو «متكاملٍ» أيّاً يكن يدَّعي أنَّه يُقلِّد، ولو بشكلٍ تقريبيٍّ، الجدارات والتصرُّفات التأويليّة التي يتحلَّى بها المتكلِّمون. وخيرٌ من أن ندع ذهننا مُلبَّداً باعتباراتٍ شكليّةٍ (كأن نتساءل عن عدد «الكفاءات» التي ينبغي التمييز بينها، وكم يبلغ عدد «مقوِّمات» كلٍّ منها، وما هو الشَّكل الذي ينبغي أن نمنحه للقواعد التي تُشكِّلُها، وتبعاً لأيّ تسلسلٍ يجب إدخالها...، إلخ)، فالأجدر بنا أن نسعى إلى عزل كلّ الثوابت التي تدخل في النزاع في عمليّات فكّ الترميز وتحديد تأثيرها وإلقاء الضوء شيئاً فشيئاً على القواعد المؤلِّفة للكفاءات على اختلافها، فضلاً عن استنتاج بعض الخلاصات العامّة بشأن طريقة عمل الآليّات التأويليّة.

وسنورد في ما سيَلي الآليّات التأويليّة الخاصَّة بنا والتي تتجلَّى على الشَّكل الآتي:

1.5. تعدُّد العوامل التي تتدخَّل في فكّ ترميز وحدات المحتوى وتفاعل مختلف الكفاءات

ممّا لا يرقى إليه الشكّ أنَّ «المعنى لا يندرج في عداد الأمور التي تلقى الإجماع الأوسع بشأنها». إلاّ أنَّ كارول يوضِحُ ما يلي: «إنَّ المهارة غير المتساوية في الفهم التي نرصدها لدى الأشخاص منوطةٌ بقدرتهم غير المتساوية في حشد المعارف الألسنيّة اللُّغويّة والمقاميّة وفي التفكُّر على ضوء هذه

(3) يتحدّث فرانسوا راستيه كثيراً عن «الهلوسات المُشاكِلة دلاليّاً» بشأن تصرّف بعض التلامذة الذين طُلبَ إليهم إنشاء لائحة بالكلمات المُستمدّة من التشاكل الدلاليّ الغذائيّ من إحدى فقرات كتاب **الخمّارة المُربية** (*L'Assommoir*)، فأوردوا فيها كلماتٍ كيفما اتّفق – فعلى سبيل المثال لقد أدرجوا في اللائحة كلمة «امرأة لَيِّنة العريكة» («bougresse») لأنهم شبّهوها بعبارة «شحمة (من) الشحم» («bout (de) graisse»).

[الكلمتان تتشابهان لفظيّاً في اللّغة الفرنسيّة، لذلك اختلط الأمر على هؤلاء التلامذة (المُترجمة)].

المعلومات»[4]. وبتعبيرٍ آخر، يُمكننا أن نقول ما يلي: لا تُعزى هذه التفاوتات في الجدارات التأويليّة إلى كفاءة المتكلّمين الألسنيّة اللُّغويّة فحسب، بل أيضاً ينبغي نسبتها إلى كفاءاتهم الموسوعيّة والمنطقيّة والبلاغيّة التداوليّة التواصليّة التي تتدخَّل بالشراكة لفكّ ترميز حتّى المحتويات البيّنة، مع أنَّ تدخُّلها يظهر بشكلٍ أكثر جلاءً أثناء فكّ شيفرة المحتويات المُضمَرة. وهكذا، يرتكز تحديد المحسن البيانيّ عموماً على مجموعة دلائل متنافرةٍ، وهو يستوجب أيضاً اللّجوء المُتزامن إلى الملاحظات السياقيّة الحاليّة النصيّة والسياقيّة، وإلى ما نعرفه عن طريقة عمل القواعد التحادثيّة، فضلاً عن مُختلف التدليلات المنطقيّة والهامشيّة المنطقيّة.

هذا ويتجلّى تفاعل الكفاءات على اختلافها في الوقائع الآتية:

- التفاعل بين الكفاءتَين الألسنيّة اللُّغويّة والموسوعيّة: وقد أشرنا مراراً وتكراراً إلى وجود حركةٍ مُستمرَّةٍ بين المعلومات «المُسبقة» (المُخزَّنة في الكفاءة الموسوعيّة) و«غير المُسبقة» (المُستخرجة مباشرةً من القول بواسطة الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة)، وقوامها على سبيل الذكر لا الحصر أن تُنمّي المعلومات ذات النمط الثاني كفاءة المُحاوِر الموسوعيّة، فتكتسب حينئذٍ وضع المعلومات المُسبَقة التي يتمّ توظيفها لاحقاً لإلقاء الضوء على تأويل قولٍ جديدٍ، حيثُ تُستخرج منه بعض المعلومات التي بدورها...

- التفاعل بين الكفاءتَين الموسوعيّة والمنطقيّة: وهما تتساعدان بالتبادُل في إعادة إنشاء القياسات الكاملة على ضوء قياسات بمقدِّمةٍ واحدةٍ لا تُعدّ ولا تُحصى والتي تُطالعنا في النصوص المُنتجَة في اللُّغة الطبيعيّة؛ أو أيضاً، في الطريقة التي قد تنتهجها المعارف السياقيّة لتفعيل بعض العمليّات المنطقيّة وبعض الاستدلالات المتعالقة، أو على العكس لكبحها (على غرار: إن كنتَ تودُّ إجراء مكالمةٍ هاتفيّةٍ، احتسِ المشروب أوّلاً» «Si vous voulez téléphoner, consommez d'abord»)؛

- التفاعل بين الكفاءتَين الموسوعيّة والبلاغيّة التداوليّة التواصليّة، وقد تؤدّي إحداهما إزاء الأخرى أدواراً تكون:

● إمّا إطنابيّةً: كما في المثل الآتي:

«في ساحة سان سولبيس بلديةٌ وسينما...» («Sur la place Saint-Sulpice,)

(4) Michel Charolles, «Il fallait un président à la France,» *Pratiques*, no. 30 (juin 1981), pp. 118-119.

il y a une mairie, un cinéma...») . ونستنتج بمقتضى قانون الشموليّة وجود سينما واحدة فقط؛ ونستنتج كذلك وجود بلديّة واحدة فقط وذلك للسبب عينه، ولكن أيضاً بموجب ما نعرفه عن التنظيم الإداريّ الفرنسيّ؛

- أو مُتَمِّمةً، هب مثلاً عبارة:

«يُقفِل (المطعم) يوم الأحد» («(restaurant) fermé le dimanche»)

وتعني ضمناً /فقط يوم الأحد/ (/seulement le dimanche/)، وذلك بمقتضى قانون الشموليّة،

في مقابل عبارة «يفتح (المطعم) يوم الأحد» («(restaurant) ouvert le dimanche»)

وتعني ضمناً /حتّى نهار الأحد/ (/même le dimanche/). وهنا يُجمَّد المُضمَّن السابق بواسطة التأثير الكبحيّ الذي تُمارسه الكفاءة الموسوعيّة عليه، فيأخذ قانون الإخباريّة هذه العبارة على عاتقه.

وإليكم هذَين المثلَين الإضافيَّين اللّذَين يُبرهنان أن تدخُّل قوانين الخطاب لا يكفي عموماً لتحديد طبيعة الاستدلال، الأمر الذي يتطلَّب بالإضافة إلى ذلك اللّجوء إلى معرفةٍ موسوعيّةٍ ما، ألا وهما:

المثل الأوّل: «أتعرف بعض الصلوات؟ ـ لا تُهينني من فضلك»[5] («Tu connais des prières? - Ne m'insulte pas s'il te plaît»). يُفهَمُ الردّ الثاني تلقائيّاً باعتباره جواباً مُضمَراً عن السؤال السابق؛ بل وأكثر، فهو يُعتبَر بمثابة الجواب الذي يُعبِّر عن رأي شخصيّ بواسطة عبارة «طبعاً (نعم/لا)» («bien sûr (que oui/ non)»). ولكن بغية أن نعرف إن كان الجواب إيجابيّاً أم سلبيّاً، وهو أمرٌ غايةٌ في الأهميّة على أيّ حالٍ، فعلينا أن نطَّلِعَ على السياق.

وتكون الآليّة مماثلةً في حالة تسلسل كلام على شاكلة ذلك الذي نجده في المثل الثاني، ألا وهو: «كم الساعة؟ ـ لقد مرَّ ساعي البريد للتوّ» («Quelle heure est-il? - Le facteur vient de passer»).

2.5. طابع الحساب التأويليّ الحسابيّ والصدفويّ

نظراً إلى تعدُّدية العوامل المُشوّشة والمتداخِلة في هذه المتاهة المُعقَّدة التي تُشكِّلها الكفاءة التأويليّة الشّاملة، فلا عجب أن يتَّصفَ دائماً البحث عن معنى

(5) مثلٌ مُقتبسٌ عن فيلم ألفرد هيتشكوك (Hitchcock) «العميل السري» (The Secret Agent).

قولٍ أيّاً يكن بالمُتلمِّس تقريباً، وأن تكون نتيجته اعتباطيّةً بدرجاتٍ متفاوتةٍ. وبالطبع ينطبق ذلك بوجهٍ خاصٍ على إنشاء الاستدلالات التي لا يتعدّى كونها فرضيّاتٍ عشوائيّةٍ ترمي إلى ضبط القول (ويقول ريكور(6)، ما يلي: «تكمن ميزة الإيحاء في القدرة على التضليل»).

يتغذّى الحساب التأويليّ من التخمينات: بدءاً بتلك التي تتناول الأسباب التي تكون لدى المتكلِّم مثلاً والتي تدفعه إلى قول ما يقوله، مروراً بالتخمينات حول المعلومات التي يحقّ لنا ترقّبها في نمط خطابٍ معيّنٍ، بل حتّى في نصٍّ خاصٍّ(7)، وصولاً إلى التخمينات بشأن احتماليّة القول المرجعيّة واحتماليّة مستوى اللّغة المُعتمَد(8) واختيار الصياغة المُضمَرة ـ باعتبار أنَّ بعض أنماط المحتويات هي، كما سبق وأشرنا، ميّالةٌ من تلقاء نفسها أكثر من غيرها لأنّه يتمُّ التعبير عنها تعبيراً غير مباشرٍ في نطاق أنَّ التعبير المباشر عنها يكون ممنوعاً بدرجاتٍ تختلف حدَّتها، فينحو من باب أَوْلى البحث عن المعنى المُستتر(9) باتّجاه هذه الحقول الخاضعة للرقابة. وهكذا، يُغطّي حقل المُضمَر قسماً كبيراً من حقل المُحرَّم.

والخلاصة التي نستنتجها هي الآتية: ثمَّة تأويلاتٌ قريبةٌ من الواقع، ولكن لا وجود البتَّة للحقائق الدلاليّة المُطلقة. ويُمكننا إضافة الخلاصة التالية إلى لائحة البداهات المُزيَّفة، ألا وهي: لا يتعدَّى التأويل كونه تأويلاً (إذ تستتبع بصورةٍ دائمةٍ عمليّة استخراج المعنى عدداً معيّناً من القرارات الذاتيّة إلى حدٍّ ما). ونستطيع كذلك أن نقول عن المحتويات الألسنيّة اللُّغويّة ما تشكو منه بعض

---

(6) Paul Ricœur, *La Métaphore vive*, l'ordre philosophique (Paris: Seuil, [1975]), p. 30.

(7) وإليكم هذا العبارة التي تبادرت إلى المسامع أثناء اجتماع لجنة الأخصّائيين، ألا وهي: «لم يُحدِّد رتبة انتسابه إلى التجمّع. وتبعاً لسجلٍ مُتقن الإعداد، إنْ لم يُحدِّد الشخص رتبته فذلك لأنّه غير ذائع الصيت. ولكن طبعاً لا يتعدّى ذلك في نهاية المطاف كونه مجرّد تأويل...» («Il ne précise pas son rang d'admission à l'agrégation. Alors, dans un dossier aussi bien préparé, s'il ne le dit pas, c'est qu'il ne doit pas être fameux. Enfin, c'est bien sûr de l'interprétation...»).

(8) وإليكم المثل الآتي: سمعتُ وأنا أُشغِّل جهاز الراديو الجملة التالية: «إنّ تصريحاتٍ من هذا القبيل...» («Les déclarations de ce type...»)، ففكّرتُ بما يلي: «عجباً، لقد باتوا مرنين إلى حدٍّ بعيدٍ على قناة France-Culture. ولكن سرعان ما استدركتُ ردّة الفعل التأويليّة الأولى هذه، وحدّثتُ نفسي قائلةً: لا بدّ أنّ المسألة تتعلّق بنمطٍ آخر من الأنماط...» («c'est d'un autre type de type qu'il doit s'agir...»).

(9) كما هو مثلاً شأن هذه العبارة العرّافية التي صدرت على لسان إحدى الشخصيّات في فيلم للمُخرج لويس مال (Louis Malle) والذي يحمل عنوان «الصغيرة» (La Petite)، ألا وهي: «حين يهطل المطر هكذا، لا نستطيع القيام إلاّ بواحدٍ من أمرين – وأنا أكره لعب الورق» («Il n'y a que deux choses à faire quand il pleut comme ça - et je déteste les cartes»).

الشخصيّات في إحدى مسرحيات الكاتب المسرحيّ رينار ليتّو (Reinhard Lettau) بشأن المحتويات الرَّمزيّة التي يُترك أمر تحديدها إلى حسن تقدير كلّ شخص، ومفاده: لا نملك دائماً بشأنها إرشاداتٍ تأويليّةً واضحةً ومُلزِمةً، كما يظهر ذلك في المثل الآتي:

روزا: الرمز هو أمرٌ يُقصَد به أمرٌ مغايرٌ عن ذلك الذي يعنيه بشكلٍ رئيسيٍّ، وبالتالي فهو يعني عموماً أمراً أسمى يرقى بالنفوس.

رئيس المجلس: أي إنَّكِ تُميِّزين بين الدلالة الرئيسيّة والدلالة الرمزيّة؟ فكيف السبيل إلى التعرُّف على هذه الأخيرة؟

الأستاذ: [...] هب مثلاً أنَّ قصر الحكومة يملك أعمدةً يونانيّةً، فهذا يعني أوّلاً أنّه قصرٌ مُزدانٌ بالأعمدة اليونانيّة، وثانياً أنَّ للبلد تاريخاً عريقاً.

الرئيس: هائل، العمود يعني تاريخاً. وماذا يعني كوب؟

(«ROSA. - Un symbole, c'est quand quelque chose signifie quelque chose d'autre que ce qu'il signifie principalement, et donc, en général, quelque chose de plus noble, qui vous élève l'âme.

LE PRÉSIDENT DE SÉANCE. - Vous distinguez entre signification principale et signification symbolique? Comment reconnaît-on cette dernière?

LE PROFESSEUR. - [...] Par exemple, si le Palais du gouvernement a des colonnes grecques, cela signifie premièrement que c'est un palais avec des colonnes grecques, deuxièmement que le pays a un grand passé.

LE PRÉSIDENT. - Parfait, colonne signifie passé. Que signifie tasse?»).

وهكذا، يجد الأستاذ نفسه مُرغماً على الإقرار بأنَّ الأمور ليست دائماً بهذه البساطة. ويتواصل الحديث على الشَّكل المُبيَّن أدناه:

الرئيس: أتقصدين بقولك أنَّ الإرشادات منعدمة الوجود؟

روزا (وهي تتكلّم وكأنّها لا تُخاطب شخصاً مُعيَّناً): يا حضرة الأستاذ! من فضلك يا حضرة الأستاذ! لدينا سؤال نودُّ طرحه عليك. هل بحسب معرفتك، قد تمّ في مكانٍ ما نشر إرشاداتٍ عن دلالة الرموز على غرار العَلَم والدمّ، إلى آخره؟[10].

(«LE PRÉSIDENT. - Vous voulez dire qu'il n'y a pas de directives?

---

(10) مثلٌ مأخوذٌ عن: Reinhard Lettau, *Propos de petit déjeuner à Miami (suivi de) Les Ennemis = Frühstücksgespräche in Miami*, traduit de l'allemand par Julien Hervier (Paris: Editions du Seuil, 1981), pp. 30-31.

ROSA (à la cantonade). - M. le Professeur! S'il vous plaît, Monsieur le Professeur! Nous avons une question à vous poser. A-t-on, à votre connaissance, publié quelque part des directives sur la signification des symboles, le drapeau, le sang, etc.?»).

3.5. وجود درجات إضماريّة

إليكم السؤال الآتي: على فرض أنّنا نملك قولاً مُفعَّلاً (ق)، فهل تكون الدلالة (د) مُدرجةً أم لا في (ق)؟

ويتجلّى الجواب عليه كما يلي: تكون (د) مُدرجةً في (ق) بدرجاتٍ متفاوتةٍ تبعاً لطبيعتها ووضعها.

في الواقع، لا تكون وحدات المحتوى الصّارِخة أم المتكتِّمة، الخجولة أم المحقَّقة بدرجات متفاوتةٍ، مزوّدةً كلّها بدرجة الجلاء نفسها ولا بقوّة التفعيل ذاتها، فالبُنى الدلاليّة هي مجموعات مشوَّشة الوضوح[11]. وليست الألسنيّة التي تكمن مهمَّتها في وصف تصرُّفات المتكلِّمين الكلاميّة من دون زيادةٍ، مولجةً حذف الأجزاء النافلة من تشوّش الوضوح هذا، ولا محاولة الإجابة بتعابير ذات وجهَين على سؤالٍ تقتضي متطلّبات الملاءمة التجريبيّة بعدم الإجابة عنه إلاّ بتعابير تدرُّجيّةٍ.

في المقابل، إنَّ الألسنيّة قادرةٌ بل ينبغي عليها أن تسعى إلى إنشاء سلَّم إضماريّةٍ يسمح بتقدير درجة جلاء مُضمَّنٍ ما، مع أخذ عددٍ من العوامل بالحسبان، من مثل:

(1) عدد ركائز المحتوى المُتصَوَّر الدالَّة (والذي يكون عددها معدوماً في حالة الوسم غير المباشر)؛

(2) «درجة مواراة» هذا المحتوى، أي بكلام آخر المسافة التي تفصله عن المحتوى البيِّن. ويكون العامل (2) منوطاً بالعامل (1) ما دام أنّه كلَّما ابتعد استدلالٌ ما عن المستوى صفر، قلَّت حظوظه في امتلاك ركيزةٍ دالَّة خاصَّة على السطح القوليّ.

بيد أنَّ هذه الاعتبارات الكميّة المتعلِّقة بعدد العناصر الدالَّة المَعنيَّة والحلقات

(11) وهو أمرٌ يُسلَّم به المنطق الصُّوري نفسه حين يتمحّص في وجود «العلاقات التضمينيّة الرجحانيّة».

المكوِّنة للسلسلة التأويليّة ليست كافيةً قطعاً، وعلى الأرجح فهي ليست حتّى الأكثر ملاءمةً، إذ يتمّ فكّ ترميز بعض المحتويات المُضمَرة بشكلٍ فوريٍّ، فتبدو إن جاز التعبير وكأنَّها تطفو على سطح القول، ومع ذلك فبغية إبرازها يتعيَّن إدخال عددٍ معيَّنٍ من المراحل المتوسِّطة. وعكسيّاً، تبقى بعض الاستدلالات المُتَّصلة مباشرةً بالمحتوى الحرفيّ على شكل مُضمَّناتٍ مثيرةٍ أكثر للريبة، باعتبار أنَّ الاستدلالات ومهما كانت غير مباشرةٍ، فهي لا تكون أقلّ جلاءً بالضرورة، والعكس بالعكس. وبالتالي، لا بدّ من تذييل هذه الاعتبارات بملاحظاتٍ نوعيّةٍ تتعلّق بـِ

(3) وضع الواسم أو الواسمات المسؤولة احتماليّاً عن الاستدلال والتي يُمكن أن تحثَّ على استخراجه بإصرارٍ تتراوح حدَّته؛ أو أيضاً، حين لا يملك الاستدلال ترسيخاً مباشراً، وضع المحتويات المُفرَطة التنظيم (التي يُمكن أن تكون بنفسها جليّةً بدرجاتٍ متفاوتةٍ)، فضلاً عن طبيعة التدليل المنطقيّ الذي يُخوِّلنا الانتقال من المستوى الأدنى بدرجةٍ (n -1) إلى المستوى الأعلى منه مباشرةً (n).

ينبغي أيضاً أن نأخذ بالحسبان

(4) بعض العوامل السياقيّة الحاليّة النصيّة أو السياقيّة، فعلى سبيل الذكر لا الحصر:

• قد يُعزَّز محتوى مُضمَر ما بواسطة محتوياتٍ أخرى أقلّ أو أكثر بُعداً مُضمرةً كانت أم بيِّنةً، ذات طبيعةٍ مماثلةٍ أم متنافرةٍ، شرط أن «تنحو في الاتِّجاه نفسه»، كما في الأمثلة التالية:

كنتُ ساذجةً للغاية في تلك الحقبة («J'étais très naïve à l'époque»).

هذا الشيء يُشبِهُ الماس («Ça ressemble au diamant»).

هذا الشيء مشحوذٌ مثل الماس («C'est taillé comme un diamant»).

هذا الشيء يلمع كالماس («Ça brille tel un diamant»).

هذا الشيء يتفاعل كما لو كان ماساً [ولكنَّه ليس ماساً] («Ça se porte comme un diamant [mais ce n'est pas un diamant]):

ففي إعلان الماس الاصطناعيّ (Blue River de Diemlite) هذا، يُعزِّزُ كذلك المُضمَّن القويّ أصلاً (إنّما القابل للتعطيل، كما في المثل التالي: كانوا وسيمين كالإيطاليّين... بما أنّهم كانوا كذلك!» («Ils étaient beaux comme des Italiens... qu'ils étaient!») الذي تُنتِجُه البُنية المُقارِنة بواسطة التلميح الجليّ إلى إعلان «مشروبات كندا دراي» («Canada dry») الشهير.

● قد يكون المحتوى المُضمَر ضروريّاً لتماسك القول أو غير ضروريٍّ له، ولكن من البديهيّ أنَّ القول يكتسبُ وضوحاً أكبر في الحالة الثانية، بحيثُ تكون الجُمَيلات التي لا غنى عنها لحسن عمل قياسٍ ما أو رابطٍ برهانيٍّ ما، على الرُّغم من كونها مُضمَرةً، مزوَّدةً بدرجة جلاءٍ قصوى. وتعمَدُ في مواضع أخرى ضرورة إرجاع التماسك التشاكليّ الدلاليّ الذي يُخِلُّ به المعنى الحرفيّ إلى أصله إلى فرضِ قراءة بيانيّة، أي إنَّها بكلامٍ آخر تفرِضُ صعود المحتوى المُشتقّ إلى السطح صعوداً مُذهلاً.

● والأمر سيّان بالنسبة إلى المحتويات المُضمَرة الضروريّة لمُطابقة القول البلاغيّة التداوليّة التواصليّة، فكلّما انتهك القول، على مستوى محتواه البيِّن، إحدى قوانين الخطاب انتهاكاً فاضحاً، تفعَّل الاستدلال الضابِط له بشكلٍ أقوى. علماً بأنَّ الحالة القصوى هي مرّةً أخرى بعد حالة المحسن البيانيّ حيثُ يكون ترفيعُ المحتوى المُضمَر إلى محتوى أساسيٍّ متلازِماً مع واقع رفض المحتوى البيِّن رفضاً باتّاً في السياق.

● وأخيراً، تكون قوّة تفعيل محتوى مُضمَر ما منوطةً إلى حدٍّ معيَّنٍ بدرجة إخباريّته وحداثته وأهميّته وإثارته للاهتمام بالنسبة إلى المُحاوِر.

من وجهة نظر سبيربر[(12)]، يكون التبئير على المُضمَّن نسبيّاً مع درجة إخباريّته، فكلَّما كان المحتوى المُضمَر مُفارِقاً بالنسبة إلى المُحاوِر، جذَبَ انتباه هذا الأخير الذي يمرّ في المقابل على المُضمَّنات البديهيّة بنظره مرور الكرام من دون أن يُركِّزَ عليها. وإجمالاً، كلَّما كان المحتوى المُضمَر جليّاً، صعُبَ إدراكه. إلاّ أنّنا نلمس لمس اليد مدى إبهام مفهوم «درجة جلاء المحتوى» هذا الذي نبذل قصارى جهدنا لتحديده في هذا الصدد. حيثُ إنَّ المسألة كانت حتّى الآن مسألة

(12) Dan Sperber, *Le Symbolisme en général*, collection savoir (Paris: Hermann, [1974]), pp. 136-140.

جلاء ألسنيّ لغويّ، أي درجة اليقين التي كان مسموحاً بموجبها أنْ نؤكِّدَ إن كان المحتوى المطروح موجوداً أم لا في القول؛ في حين أنَّ الإشكاليّة التي يُثيرها سبيربر هي بالأحرى ذات طابع سيكولوجيّ ألسنيّ لغويّ، في ما يتعلّق بدرجة الانتباه والاهتمام التي يوليها المُحاوِر للمعلومات التي ينقلها القول بالقياس إلى المعارف والآراء التي يملكها هو مُسبَقاً ـ وليس الأمر سيّان لأنّه على الصعيد الألسنيّ اللُّغويّ يتعاظم وجود المحتوى كلّما كان «جليّاً» أكثر، بالمعنى الذي تمّ تحديده آنفاً. أمّا على الصعيد السيكولوجيّ الألسنيّ اللُّغويّ، فيتناقص وجود المحتوى بنظر المُحاوِر كلَّما كان بالنسبة إليه «جليّاً» أكثر، أي بكلام آخر، كلَّما كان مُطابقاً هذه المرَّة مع بعض المُعطيات المُستلَّة من كفاءته الموسوعيّة.

ويقول بوتييه[13] كذلك بوجهة النظر السيكولوجيّة الألسنيّة اللُّغويّة حين يؤكِّدُ في معرض التساؤل عمّا إذا كان من المُلائم أم لا أن نترك خلاصة الرسالة الكلاميّة ذات الغاية الإقناعيّة في أخيلة التعبير المُضمَر، ما يلي: «بالإضافة إلى ذلك، يترتَّب علينا بلا ريب أن نأخذ في الاعتبار درجة تحفيز الأشخاص الذين يتلقّون هذه الرسالة الكلاميّة، بحيثُ قد يتطلَّب استعمال خلاصةٍ مُضمَرةٍ ما كي تُصبحَ فعَّالةً، أن يكون المتلقّون مُهتَّمين بشكلٍ جوهريٍّ بمحتوى الرسالة الكلاميّة».

يميل المُحاوِر في الواقع إلى إهمال المعلومات المُفترَضة أو المُضمَّنة أو على العكس إلى تبيانها، تبعاً لكونها نافلةً أو على العكس أساسيّةً بنظره. وسنضرب مثلاً على ذلك، يتجلّى في الصدمة التي يُخلِّفُها لدى قارئ كتاب **أغاتا**[14] للمؤلِّفة مارغريت دوراس، بروز لضمير المتكلِّم «نا» («notre») الدالّ على الملكيّة بشكلٍ غير متوقَّعٍ، على الشَّكل المُبيَّن أدناه:

هي: لقد اصطحبَتك امرأةٌ ذات مرّةٍ إلى هناك، كنتَ لاتزال فتيّاً، وقد حصل ذلك في فصل الربيع. (وبعد فترة صمتٍ وجيزةٍ). كانت إحدى صديقات والدتنا [...].

(13) Roger Bautier, «Recherches expérimentales américaines sur la «communication persuasive»,» dans: *L'Argumentation*, linguistique et sémiologie; ISSN 0246-6341 (Lyon: Presses universitaires de Lyon, 1981), p. 211.

(14) Marguerite Duras, *Agatha* (Editions de Minuit, 1981), p. 13.

(«ELLE. - Une femme vous y avait emmené une fois, vous étiez très jeune, c'était au printemps. (Temps.) Une amie de notre mère [...]).

في الواقع، إنَّ هذا البوح المُميت بين «هي» («Elle») و«هو» («Lui») اللّذَين وقعا في الغرام ثمّ انفصلا، يرتكزُ على الافتراض الوحيد الذي تنطوي عليه هذه البُنية، والذي لا يُمكن أن يتلاءم هنا إلاّ مع ضمير الجمع للمتكلِّم «نا» («notre») - فتكون المعلومة جليّةً أكثر على الصعيد الألسنيّ اللّغويّ منها على الصعيد الموسوعيّ. ونستنتج بالتالي أنَّ المسألة بينهما هي مسألة حبّ مُحرَّم.

وختاماً للنقاش حول هذه القضيّة، إليكم هاتَين الملاحظتَين، ألا وهما:

1. من جُملة هذه العوامل المُختلفة التي تدخُل في تحديد درجة تفعيل المحتوى المُضمَر، تكون معالجة بعضها حسَّاسةً أكثر من غيرها، فمثلاً: إنَّ معالجة العوامل النوعيّة حسَّاسةٌ أكثر من معالجة العوامل الكميّة. وحتّى العاملان (1) و(2) المذكوران آنفاً ليسا قابلَين للتحديد بالسهولة التي نتصوَّرها، ويُعزى سبب ذلك أوّلاً إلى أنَّ واسمات المواربة ليست قابلةً دائماً لأن يُصار إلى تحديد موضعها بوضوح، وهي غالباً ما تشغل عدَّة أدوار دالَّةٍ معاً؛ وثانياً، إلى أنَّ إعادة إنشاء «السلسلة التأويليّة» التي تُعَدُّ نموذجاً وصفيّاً إيضاحيّاً مُصطنعاً تتطلَّبُ عدداً معيَّناً من القرارات الاعتباطيّة تقريباً - وقد لاحظنا ذلك أثناء عملنا على بعض المدوَّنات حيث عثرنا على العديد من الواصفات والعديد من الجُمَيلات الوصفيّة الإيضاحيّة المُختلفة؛ ولاسيما أنَّ ما يعتبره شخصٌ ما بمثابة المُكوِّن لاستدلالٍ وحيدٍ أوحدٍ، قد يفصِلُه شخصٌ آخرٌ إلى مستويَي محتوى. وبالتالي، لا يسعنا أن ننسب إلى العدد الذي نحصل عليه أثناء إحصاء الحلقات المُكوِّنة لهذه السلسلة التأويليّة إلاّ صحّةً نسبيّةً. وتُطرَح أيضاً التساؤلات حول معرفة كيف ينبغي أن نوازن أهميّة مُختلف العوامل المُلائمة المُتأمَّل فيها النسبيّة. . . وباختصارٍ، نقول ما يلي: لا يجدر بنا أن ننخدع كثيراً بشأن إمكانيات إنشاء «سلَّم الإضماريّة» هذا الذي يُتيح لنا بتلازم المجال لأن نُقدِّرَ موضوعيّاً درجة سوء نيَّة الشخص الذي يتلاعب بالمحتوى المُضمَر، فلم يأفَلْ بعد نجم الخِلافات التأويليّة. وتتمحور هذه الخِلافات حول وجود هذا المحسن البيانيّ أو ذاك هنا أو هناك (فمثلاً هل يتعيَّن أن نقرأ نصّاً ما قراءةً استعاريّةً/ أو تهكُّميّة، أم هل ينبغي على العكس أخذه «بحرفيّته»؟)، فضلاً عن الخِلافات بشأن تأويل هذه «الجملة الصغيرة» أو تلك

(على غرار المثل[15] التالي: «أثارت «جملةٌ صغيرةٌ» قالها ياسر عرفات موجةً من التأويلات، ففي ملفٍ وُقِّعَ يوم الأحد، أكَّد رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أنّه يوافقُ على «كلّ قرارات منظَّمة الأمم المتَّحدة ذات الصِّلة بالقضيّة الفلسطينيّة»، فهل هو يوافق كذلك على القرارَين رقم 242 و 338 اللّذَين يحثّان على الاعتراف بدولة إسرائيل؟» («Una 'piccola frase' di Yasser Arafat ha scatenato una tempesta di interpretazioni. In un documento firmato domenica, il presidente dell'O.L.P. afferma di accettare 'tutte le rizoluzioni dell'O.N.U. relative alla questione palestinese'. Egli ha dunque accolto le rezoluzioni 242 e 338 che sollecitano il reconosciemento di Israele?»)... أمّا بشأن إحدى التصريحات التي أدلى بها فاليري جيسكار ديستان في جريدة *Le Monde* الصادرة في 30 كانون الثاني/ يناير عام 1978 والتي يُنهيها بعبارة «ستختارون الأفضل لفرنسا» («Vous ferez le bon choix pour la France»)، فيُبيِّن نيف[16] (F. Nef) أنَّ من الممكن إعادة إنشاء فعلٍ كلاميّ منطوقٍ أكبر ذي نمطٍ توجيهيٍّ (ومفاده: «صوِّتوا للأكثرية» («Votez pour la majorité»)) من شأنه أن يجعل كلّ جُمَيلات النصّ شموليّةً، وقد يُشتقُّ منها. ويُجمِعُ مفسّرو تلك الحقبة على اعتبار أنَّ هذا التشجيع المُضمَر هو مُدرجٌ في التصريح موضوع البحث، إلاّ أنَّ تأويلهم له يختلفُ اختلافاً ملموساً لجهة تقدير «درجة مواربة» هذا التصريح، فمُناصرو جيسكار يعتبرون هذا الإيحاء الانتخابيّ جدّ متكتّم، في حين يجده أخصامه في المقابل «بالكاد محجوباً» حتّى إنّهم يذهبون إلىً حدّ استشفاف محسنٍ بيانيٍّ كلاميٍّ منطوقٍ فيه، بما أنَّ بعضهم يُلخِّص ما ورد على لسان جيسكار على الشّكل الآتي: «لقد طلبَ (أمرَ، نصحَ...) بالتصويت لليمين» («il a demandé - ordonné, conseillé...»)، وفي فعله هذا، يكون قد تجاوز واجبات التحفُّظ والحياد التي يكون رئيس الجمهوريّة مُلزماً بها من حيثُ المبدأ.

ولكن مَن على صواب ومَن على خطأ في هذه الجدليّة التي لا تتعلّق بوجود الدلالة (د) في القول المُفعَّل (ق)، بل بوضعها وبدرجة تفعيلها؟ ما من بشائرَ

(15) مثل مُقتبس عن جريدة: *La Reppublica*, no. 153 (27 juillet 1982), p. 1.

(16) Frédéric Nef, «Les Verbes aspectuels du français: Remarques sémantiques et esquisse d'un traitement formel,» *Semantikos*, vol. 4, no. 1 (1980).

تُشير في هذا الصدد إلى أنَّ حُكم الألسنيّ اللُّغويّ(17) أيّاً يكن سيكون موضوعيّاً.

2. ومن وجهةٍ أخرى، يستحيل علينا، حين نشرَعُ بإعادة بناء السلسلة التأويليّة المُفترَض أنَّها تُمثِّل معنى قولٍ مُعيَّن، أن نُبيِّن كلّ الافتراضات (الوجوديّة والتداوليّة التواصليّة، إلى آخره) التي ينقلها(18) هذا القول، فما بالك أن نوضِّح كلّ المُضمَّنات القابلة احتماليّاً أن تُضاف إلى معناه البيِّن والتي يكون بعضها في حالة تضادٍ. وينبغي في المقابل أن نُميِّز داخل مجموعة المحتويات المُضمَرة الفرضيّة الخاصّة بالقول، تلك التي تكون موجودةً ومُستثمرةً في مقابل تلك التي تكون موجودةً وغير مُستثمرةٍ في مقابل أيضاً تلك التي تكون مُجمَّدةً في السياق أو السياق الحالي للنصّ.

وإليكم هذا المثل: «إن كنتَ لا تُميِّز بين كونياك وآخر، فاشترِ نوعاً آخر من الكونياك»(19) («Si vous ne faites pas la différence avec un autre cognac, achetez un autre cognac»)، ونجد فيه ما يلي:

- استدلالات ترتبط بالجُملة التابعة، ألا وهي:

(1) / لعلَّك لا تُميِّز بين كونياك ريمي مارتن وكونياك آخر

/ Possible que vous ne fassiez pas la différence entre R.M. et un autre cognac/)، وهذا الاستدلال هو استدلالٌ مُفترضٌ يُضمِّن بدوره ما يلي:

(2) / بعض الأشخاص لا يُميِّزون بين كونياكٍ وآخر/ certaines/)

---

(17) فمَن يتخلّ عن كونه إنساناً أي مُتحيّزاً ليُصبح لغويّاً ألسنيّاً. وهكذا، نصِفُ بالمُغرِضة قليلاً التحاليل التي يقترحها كارول (Michel Charolles, «Les Formes directes et indirectes de l'argumentation,» *Pratiques*, no. 28 (1980)) بشأن مقالةٍ «مُغرِضةٍ» صدرت في جريدة *Le Monde*، وكذلك تلك التي تتناول تعليقٍ جاء على لسان أمين عام اتّحاد نقابات المعلّمين (F.E.N.) فضلاً عن التصريح الذي أدلى به ممثّل فئة «الوحدة والعمل» («Unité et Action») المُنظَّمة.

(18) وهي في الواقع افتراضاتٌ لا تُعدّ ولا تُحصى. وهكذا، مُكرّراً المثل الذي يضربه مارتن، وهو «ابتاع ابني لنفسه سيّارةً من طراز جاغوار» («Mon fils s'est acheté une jaguar»)، يستطيع راستيه (François Rastier, «Objet et moyens de l'interprétation,» *Documents de travail et prépublications. Centro Internazionale di Semiotica e di Linguistica. Universita di Urbino*, nos. 143-144 (1985), p. 9), أن يؤكّد ما يلي: بيد أنّ وجودي وكذلك وجود ابني يفرضان بدورهما وجود أجدادنا، وها نحن ذا نُعاد فجأةً إلى نظريّة الخلق العنيف أو نظريّة جنّة عدن...».

(19) هذا إعلانٌ لكونياك ريمي مارتن (Rémy Martin).

(personnes ne font pas la différence/. كما تُضمّن العبارة الشرطيّة التي تؤلّف القسم الأوّل من الجُملة ما يلي:

(3) / لا بدّ من التمييز بين كونياك ريمي مارتن وسائر أنواع الكونياك/ (il/ y a une différence à faire entre R.M. et les autres cognacs/)، وقد يُضمّن هذا الاستدلال بدوره واحداً من استدلالَين، ألا وهما:

(4) / إنَّ كونياك ريمي مارتن أجود من غيره/ (R.M. c'est mieux/)، أو

(4') / إنَّ كونياك ريمي مارتن أقلّ جودةً من سواه/ (R. M. c'est moins bien/). إلاّ أنّه من البديهيّ أن تُستبعد تلقائيّاً هذه الإمكانية التأويليّة الأخيرة في إطار السياق التعبيريّ الأدائيّ.

ملاحظة: في المقابل، إنَّ للاستدلالَين (3) و (4) مفعولاً رجعيّاً على الاستدلالَين (1) و (2) من شأنه أن يُضيفَ المُضمَّن الآتي:

(5) / هؤلاء الأشخاص ينقصهم حسّ التمييز والذوق، فهم مجرَّد أشخاص غير مُرهفي الحسّ/ (ces gens-là manquent de discrimination et de goût, ce ne sont que des béotiens/).

● أمّا بالنسبة إلى جواب الشرط، فإنَّ مجرّد الإدلاء به سيحثُّ على البحث عن استدلالٍ تبريريٍّ من مثل:

(6) / (اشترِ نوعاً آخر من الكونياك) لأنّه من التبذير أن تشتريَ كونياكاً من ماركة ريمي مارتن وأنتَ عاجزٌ عن التمييز بينه وبين سواه/ ((achetez un autre cognac) parce que ce serait du gâchis que d'acheter R.M. sans être en mesure de faire la différence/)، باسم «الفكرة» العامّة القائلة بأنّنا نستطيع تسميته «هديّةً لِمَن لا يستطيع تقديرها» («la confiture aux cochons»).

ولكن يسعنا نظريّاً أن نتصوَّر كذلك وجود تأويلاتٍ أخرى، نذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر:

(6') / (اشترِ نوعاً آخر من الكونياك) لأنَّ كونياك ريمي مارتن، كونه ذا نوعيّة أجود من مُضاربيه، فسعره أيضاً باهظ أكثر منها/ ((achetez un autre cognac) parce qu'étant de meilleure qualité que ses concurrents, R.M. est aussi plus cher/)، وهو تأويلٌ يُشجّعنا الاستدلال (4) على التفكير فيه، في حين

يُثنينا السياق التعبيريّ الأدائيّ عنه. ومع أنَّ هذا الاستدلال لا يُجمَّد مُطلقاً إلاّ أنّه يُترك على أيّ حالٍ في ظلّ أخيلةٍ مُحترسةٍ.

● وأخيراً، يُضمِّن القول الشَّامل، بمقتضى آليّة الانزلاق من الشرط الكافي إلى الشرط الضروريّ، ما يلي:

(7) / إن كنتَ ممَّن يُميِّزون بين كونياكٍ وآخر، فاشترِ إذاً كونياك ريمي مارتن/ (/si vous faites la différence, alors achetez R.M./)، وهو استدلالٌ يفترضُ ويُضمِّن بدوره ما يلي:

/ لعلَّك تُميِّز بين كونياكٍ وآخر/ (/il est possible que vous fassiez la différence/)، ويعني ذلك:

(أنَّ بعض الأشخاص قادرون على التمييز)، و/ هؤلاء الأشخاص هم من الذوَّاقة/ (/ces gens-là sont des gens de goût/)،

وهو يُعزِّز الاستدلال (4) ويؤكِّدُه.

والحال أنَّ القول يبأر بطريقةٍ غير متساويةٍ على مختلف هذه الاستدلالات، فمثلاً: يكبح السياق التعبيريّ الأدائيّ صراحةَ الاستدلال (4') طبعاً والاستدلال (6') بوجه الاحتمال؛ في حين تبدو الاستدلالات الجدليّة (1) و (2) و (5) و(6)، على الرُّغم من كونها وثيقة الصِّلة بمحتوى المتتالية البيِّن، وكأنَّها هامشيّةٌ بالنسبة إلى ما نفترضه عن نيَّة مثل هذا القول البرهانيّة (فقوام الشعار الإعلاني أن يُعظِّمَ ميزات المُنتج وأن يُملِّقَ الشخص «المُستهدف» بالإعلان، أكثر منه أن يُنقِص قيمة السلع المُضارِبة ومستهلكيها)، لذلك نعتبر هذه الاستدلالات مُحفَّزةً ومستثمرةً بضعفٍ؛ أمّا الاستدلالات التقريظيّة (3) و (4) ولاسيّما (7) وكلّ مُشتقَّاتها، فهي تُشكِّل في المقابل الاستدلالات التي يبأر عليها هذا القول بشكلٍ أساسيٍّ، لدرجة أنَّنا قد نعتبر أنَّ الاستدلال (7) يُشكِّل الغرض الأساسيّ للرسالة الكلاميّة الواجب نقله، وأنَّ هذه الرسالة الكلاميّة تتمحور حول صيغة المحسن البيانيّ الإضماريّ.

4.5. ما هي، أخيراً، ماهيّة معنى القول؟

في معرض الردّ على هذا السؤال العويص بقدر ما هو جوهريّ، سأُورِدُ جوابي على شكل سلسلةٍ من الجُمَيلات المُتسلسلة (تسلسلاً تصاعديّاً) كما يلي:

1. لا يكون للقول معنى في ذاته

ينتفي وجود المعنى في حال لم يكن منسوباً إلى شيءٍ ما، وكذلك في حال عدم توفُّر شخص يملك مجموعة الكفاءات هذه أو تلك التي تخوِّله استخراجه من القول. وبتعبيرٍ آخر، ليس المعنى مُعطًى بل إنّه دالَّةٌ مؤلَّفةٌ من قياسَين، ألا وهما: الدالّ من جهةٍ، والكفاءات التي يتحلَّى بها المُحاوِر من جهةٍ أخرى. وعليه، إنَّ النتيجة المنهجَويّة التي نستخلصها ممّا تقدَّم هي التالية: عِوَضاً أن تكون القواعد التأويليّة «حياديّةً»، فإنَّها تتَّخذُ الشَّكل الآتي: «إذا... (كان الشخص يملك هذه المعرفة الألسنيّة اللُّغويّة أو الموسوعيّة أو تلك، أو كان موجوداً في مقامٍ معيَّنٍ...، إلخ.)، إذاً... (سيؤوِّل القول على هذا النحو). وبالعكس فإذا...» («Si... alors. Si au contraire...»).

وبناءً عليه، لا معنى لعبارة «معنى القول المُفعَّل (ق)» إلاّ إذا اعتبرناها بمثابة العبارة المترادفة المُختزَلة لعبارة «معنى (ق) بالنسبة إلى فلان» ـ ولكن مَن هو فلان؟

2. يعني القول ما يُخيَّل للأشخاص الذين يتلقّونه أنّه يرمي إلى قوله

أي بكلام آخر، إنَّنا نضع أنفسنا عمداً في موضع فكّ الترميز، ونعتبر أنَّ قوام العمل الألسنيّ اللُّغويّ يكمن بشكلٍ أساسيٍّ في فهم كيفيّة فهم النصوص[20].

لا يُفضي القول إلى المعنى إلاّ اعتباراً من اللَّحظة التي يُصار فيها إلى تلقِّيه وإدراكه وفكّ شيفرته. وكثُرٌ هم الأشخاص الذين يفكّون الشيفرة، وكثيرةٌ هي المعاني المُستخرَجة (ويتفاوت عددها تبعاً لاختلافات الكفاءات التي يتمتَّع بها مختلف المؤوِّلون، وتبعاً لدرجة «انفتاح» النصّ المُدرجة فيه هذه المعاني «على كلّ الاحتمالات»)، فإن ندَّعي أنَّ كلَّ قولٍ يملك دلالةً وحيدةً أوحدةً، يعني ذلك أنّنا نُقرُّ إمّا بأنَّ هذه الدلالة موجودةٌ في ذاتها، نسبةً إلى الدالّ الوحيد الذي تكون

---

(20) وبناءً عليه، فنحن نوافق موافقةً مضاعفةً على مجاهرة لاكوف وجونسون (George Lakoff and Mark Johnson, *Metaphors We Live by* (Chicago, IL; London: University of Chicago Press, 1980), p. 9), برأيهما الذي يتجلّى على الشكل الآتي: «من وجهة نظرنا، يكون المعنى وقفاً على الفهم، إذ يستحيل أن تعني جملةٌ شيئاً ما بالنسبة إليك إن لم تفهمها. وعلاوةً على ذلك، إنّ المعنى يتّخذ وضعه بصفته معنى نسبةً إلى شخصٍ ما. وما من مثيلٍ لمعنى الجملة بحدّ ذاته الذي يكون مستقلاً عن أيّ إنسانٍ، فعندما نتحدّث عن معنى جملةٍ، نقصد دائماً معنى الجملة بالنسبة إلى شخصٍ ما، سواء كان شخصاً حقيقيّاً أم فرداً فرضيّاً نموذجيّاً ينتمي إلى الجماعة المتكلّمة».

مُحاطةً به، كما لو كانت موجودةً في قمقم من مادّة الفرمول؛ أم بأنَّها تتحدَّدُ بالنسبة إلى شخصٍ وحيدٍ أوحدٍ يملك منفرِداً الفِطرة السليمة - كأن يكون على سبيل المثال المُرسِل أو مُتلقِّي الرسالة الكلاميّة الفعليّ، حين يوجد متلقٍّ ما أيّاً يكن، أو «المتلقِّي المثاليّ»[21] الفرضيّ، أو حتّى أيضاً، أنا شخصيّاً بصفتي متلقٍّ كفؤٍ[22] بوجهٍ خاصٍّ. . .

ولكن، يتعذَّر القبول بأيٍّ من هذه المواقف النظريّة من دون إبداء بعض التحفُّظات. ولن نُعيد الموقف الأوَّل على طاولة البحث، لأنَّه مُستمدٌّ من الموقف المثاليّ الذي نرفضه جملةً وتفصيلاً. وماذا عن الموقف القائِل بوجود المتلقِّي المثاليّ؟ ولكنَّنا لا نفهم جيِّداً على أيّ قاعدةٍ نستطيع أن نُنشئ شرعيّاً هذا الغرض الوهميّ. وماذا أيضاً عن المتلقِّي الفعليّ؟ في الواقع، يأسفُ التحادثيّون أسفاً شديداً لاعتبار أنَّ معنى قولٍ يُنتجه المتكلِّم ليس سوى المعنى الذي يستخرجه المخاطب منه، كما يشهد بذلك تسلسل الكلام الحواريّ، فميزة هذا الموقف الوصفيّ الإيضاحيّ الذي لا يقبل بمثابة الوحدات الدلاليّة الملائمة إلاّ تلك التي يُعاد إدخالها إلى الحلقة التواصلية، أنَّه يُجنِّبُ الواصف مهمَّة القيام بنفسه بإعطاء بعض الفرضيّات التأويليّة. بيد أنَّ هذا الموقف هو جدّ تقليصيٍّ، ويُعزى سبب ذلك، أوّلاً إلى أنَّ الدلالات التي يستخرجها المخاطب ليست كلّها، فالأمر بعكس ذلك، قابلةً لأن تُفهم انطلاقاً من تصرُّفه الجوابيّ؛ وثانياً، إلى أنَّ أشخاصاً آخرين هم أيضاً مُعنيّون بالعمليّة التأويليّة، ولا نقصد المتكلِّم فحسب، بل أيضاً شهوداً آخرين محتملين على التبادل الكلاميّ، فضلاً طبعاً عن واصف القول الذي لا يمكننا التغاضي عن رأيه حول المسألة المطروحة... وإنَّ اختصار معنى القول المُفعَّل بالمعنى الذي يستخرجه مؤوِّلٌ واحدٌ، يعني أن نصرف النظر عن وصف إحدى أكثر مظاهر طرق العمل الكلاميّة إثارةً للاهتمام، ألا وهي: حالات سوء التفاهم والاختلافات التأويليّة. ولكن ماذا أخيراً عن مرسِل الرسالة الكلاميّة؟ ما أكثر المؤلِّفين الذين يقبلون بأن يُجرَّدوا من حقّ الاستئثار بامتلاك الحقيقة في ما يتعلَّق بتأويل النصوص التي تكون من تأليفهم، وإليكم بعض الأمثلة على ذلك:

(21) إنّه مفهومٌ نُسِخَ بالتأكيد عن مفهوم «القارئ المثاليّ» عند ريفاتير (Riffaterre)، وكلّنا يعرف القضايا المنهجيّة التي يُثيرها والخدمات الوصفيّة الإيضاحيّة التي قدَّمها يوماً إلى رجال الشّعر.

(22) قد نعتبر إذا التزمنا جانب الديمقراطية أنّ معنى القول هو المعنى الذي يستخرجه السواد الأعظم من المتلقّين - إلاّ أنّ مثل هذا التوافق يتبدّل تبعاً للعصر الذي يُصار فيه إلى تأويل النصّ. . .

يقول مونتاين (Montaigne) مثلاً ما يلي: «غالباً ما يكتشف أحد القرّاء الفطنين في مؤلّفات أشخاصٍ آخرين إتقاناتٍ غير تلك التي يتعمّد الكاتب إبرازها، وينسبُ إليها أيضاً معانيَ ومظاهر أكثر غنًى»[23]، كما يُضيف قائلاً: «للمتكلّم نصف الكلام الفرديّ الذي يُدلي به، وللمُستمع نصفه الآخر».

أمّا كارول فيُنوّه بما يلي: «في ما يتعلّق بدلالة كلمة «سنارك»[*] (Snark)، أخشى أنّني لم أتفوّه إلاّ بالبلاهات! ومع ذلك، تصوّروا أنّ الكلمات لا تعني فقط ما نرمي إلى التعبير عنه عندما نستعملها، بحيثُ إنّ دلالة كتابٍ ما ستفوق بأشواطٍ طبعاً نيات مؤلّفه. وهكذا، فكلّ دلالةٍ مُرضيةٍ قد ينسبها أحدهم لكتابي سأرحّب بها بسرورٍ باعتبارها دلالةً له»[24].

في حين يرى فاليري (Valéry) ما يلي: «ما من معنى حقيقيّ لنصٍّ ما. ولا وجود لسلطة المؤلِّف، لأنّه مهما شاء أن يقول، فإنّه قد كتبَ ما كتبه. وما إن يُنشَر النصّ حتّى يُعامل معاملة جهازٍ ما بحيثُ يستطيع كلّ شخصٍ أن يستخدمه على هواه وحسب طاقاته الخاصّة؛ وليس مؤكّداً أنّ صانعه يستعمله أفضل من سواه»[25].

وكذلك، يؤكّد بارت[26] ما يلي: «لا نكفّ عن إدخال إضافاتٍ إلى «البحث» («Recherche») (مثلما كان يفعل بروست في مخطوطاته)، أي إنّنا لا نكفّ عن تنقيحه وكتابته، فقوام القراءة هو بلا شكّ أن نُعيد كتابة نصّ المؤلّف من وحي نصّ حياتنا».

وأخيراً وليس آخراً، يقول بوب ويلسون (الذي أُجريت معه مقابلة حول

---

(23) استشهد به شارل في كتابه: Michel Charles, *Rhétorique de la lecture*, collection poétique (Paris: Editions du Seuil, 1977), p. 289.

(*) إنّ كلمة Snark هي كلمة من تأليف لويس كارول نفسه، ابتدعها لأوّل مرّة في قصيدةٍ تحمل عنوان «صيد السنارك». وقد استنبطها كارول للدلالة على حيوانٍ خرافيٍّ، حلّل البعض أنّ هذه الكلمة مؤلّفة من كلمتَي بزّاقة («Snail») وقرش («Shark»)، في حين قال البعض الآخر أنّ هذه الكلمة تتألّف من كلمَتي أفعى («Snake») وقرش («Shark»). ولكنّ كارول لا يورد أيّ تحليل يُعزّز أحد التحليلَين على الآخر.

(24) مثلٌ مُقتبسٌ عن مقتطفٍ من رسالةٍ إلى صديقٍ أمريكيّ، مُدوَّن على ظهر نسخة من كتاب: Lewis Carroll, *La Chasse au Snark: Une Agonie en huit crises = The Hunting of the Snark*, autour du monde, traduit en français par Aragon (Paris: Seghers, 1980).

(25) استشهد به بارت في مجلّة: *Le Nouvel observateur*, no. 737 (23 déc. 1978), p. 61.

(26) المصدر نفسه.

المسرحية الموسيقيّة التي تحمل عنوان «إينشتاين على الشاطئ» (Einstein on the beach) ما معناه: «أنا أعالج الصُّور على طريقة المؤلِّف الموسيقيّ، فنحن أحرار في تأويلها كما يحلو لنا». ولكن ها هو لاحقاً يعترضُ مُستنكراً في معرض الردّ على السؤال الآتي: إلامَ يرمز هذا المبنى؟ هل هو مدرسةٌ؟»، فيُجيب قائلاً: «ولكن كلا، على الإطلاق».

وما من أحدٍ منَّا معصومٌ من أن يرزح يوماً ما تحت وطأة هذا التناقض، فبصفتنا علماء دلالات، نكون على أهبة الاستعداد للتسليم لا بل حتّى للمطالبة بحقّ قراءة النصّ نفسه قراءةً متعدِّدة، وأن نُذكِّر بلا كللٍ أو مللٍ (بما أنَّ هذه الحقيقة لم تلقَ بعد إقراراً بالأغلبية في الوسط النقديّ ولا في دائرة مدرِّسي الأدب) بوجوب الاعتراف بوجود مبدأ الشكّ والتنوُّع في صميم النشاط التأويليّ. ولكن ما إنْ نخلع عباءة عالم الدلالات عنَّا، ونعود من جديد مستهلكين عاديِّين للنصوص الأدبيّة وغير الأدبيّة، حتّى نسقط فوراً في هذه الجزميّة التأويليّة التي كنَّا نهاجمها منذ بعض الوقت، مُنادين بإصرارٍ بميزات الفطرة السليمة، ومعلنين الحرب على التفسير المعكوس من مثل: أنا على يقينٍ، ولكن مع ذلك.. («je sais bien, mais quand même...»).

علماً بأنَّه ما من عالم دلالاتٍ، مهما كان متساهلاً تجاه النزعات، مُستعدٌّ للتسليم بأنَّ جميع القراءات هي صالحةٌ، فحتّى بارت، وهو الداعي إلى القراءات المتعدِّدة الأكثر حماسةً بلا ريب، يحرصُ على التمييز[27] بين «المدلوليّة» (حيثُ «يبقى المعنى قائماً ولكنَّه يكون جمعيّاً») و«الدلالة الانفعاليّة» (حيثُ «ينعكس اختلال الدالّ تَيهاناً هستيريّاً يتجلَّى في انعتاق القراءة من كلّ معنى، ففي نهاية المطاف سأفرضُ قراءتي الخاصّة»). أمّا مونتاين ولويس كارول، فيمحِّصان بحذرٍ حالة القرّاء «الفطنين» والدلالات «المُرضِية». ممّا يعني بشكلٍ مُضمَرٍ أنَّهما يُقرّان بأنَّ القرَّاء ليسوا كلّهم سواسيةً بالفطنة، وكذلك بأنَّ القراءات ليستْ كلّها مُرضيةً بالتساوي.

تبدأ الصعوبات ما إن نسعى إلى توضيح المبادئ التي قد نسعى على ضوئها إلى محاولة تقويم مُختلف القراءات المفروضة على نصٍّ مُعيَّنٍ تقويماً مُقارَناً؛ ونذكر من جملة هذه المبادئ ما يلي:

---

(27) Roland Barthes, «Ecrivains, intellectuels, professeurs,» *Tel Quel*, no. 47 (automne 1971), p. 13.

1. تُصبح القراءة أفضل كلَّما أخذت بالحسبان عدداً أكبر من العناصر الدالَّة[28]، فالقراءة التي لا تغفَل أيّاً من العناصر الدالَّة تكون بلا نزاعٍ أعلى شأناً من تلك التي «تُشذِّب» النصّ أو تمرّ عليه بلا تمعُّنٍ.

وإليكم مثلاً آخرَ، ألا وهو:

«وأخيراً، في ما يتعلّق بالسؤال الذي طرحته عليّ بشأن القيمة الماديّة التي حصلتُ عليها فرضيّاً، فأنا أنفي ذلك نفياً قاطعاً...» («Enfin, à la question que vous m'avez posée sur la valeur de ce que j'aurais reçu, j'oppose un démenti catégorique...»). وقد عمد السواد الأكبر من المُفسِّرين إلى تأويل هذا التصريح الذي أدلى به جيسكار ديستان والمتعلّق بِ «قضيّة ماسات بوكاسّا» («l'affaire des diamants de Bokassa») تأويلاً فيه شيءٌ من المجاملة، فاعتبروه تكذيباً وردَ على لسان الرئيس. والحال أنّه يتعذَّر التسليم بمثل هذا التأويل إلاّ إذا «تناسَينا» الدالّ «قيمة ماديّة» («valeur»)، ففي الواقع، تُضمِّن فعليّاً جُملة «أنا أنفي نفياً قاطعاً في ما يتعلّق بالقيمة الماديّة لما حصلتُ عليه فرضيّاً» («j'oppose un démenti catégorique en ce qui concerne la valeur de ce que j'aurais reçu») على مستوى صيغة الشرط ما معناه: /أنا لم أحصل على شيءٍ/ (/je n'ai rien reçu/)، ولكنّها تفترض بالضدّ ما يلي: /لقد حصلتُ على شيءٍ ما/ (/j'ai reçu quelque chose/)، إذ يفترضُ «نفي القيمة الماديّة الفلانيّة» («démentir la valeur de x») أنَّ /ثمّة قيمةٍ ماديّةٍ فلانيّةٍ/ (/il y a valeur de x/) وبالتالي/ثمّة مبلغ مادّي فلانيّ/ (/il y a x/)، علماً بأنَّ جيسكار (الذي ينطق على عجلٍ بكلمة «قيمة ماديّة» («valeur») التي تُعدّ بمثابة الإقرار) يُخفي جزئيّاً هذا الدالّ، ويُسهِّل هذا الإخفاء الجزئيّ بلا ريبٍ عملية محو المدلول المناسب له. ومع ذلك، فعندما «يُحوِّل المتزلّفون السياسيّون إقرار جيسكار المُضمَر إلى دحضٍ شاملٍ بشأن المضمون»[29]، فهم يرتكبون خطأً في التأويل، إراديّاً كان أم لاإراديّاً.

---

(28) أن تتمّ معالجة هذه العناصر الدالّة وفقاً للترتيب السليم - وذلك بهدف استبعاد بعض القراءات التداولية التواصلية غير المضبوطة (راجع في هذا الشأن كتابنا: Catherine Kerbrat-Orecchioni, *La Connotation* ([Lyon]: Presses universitaires de Lyon, [1977]), p. 196).

(29) هذا التعليق جاء على لسان أندريه ريبو (André Ribaud) في مجلّة *Le Canard enchaîné* (5 déc. 1979).

2. تتحسَّن القراءة أكثر وأكثر كلَّما كانت عملية إعادة البناء التي تُفضي إليها أكثر تماسكاً.

يضطلع مبدأ التماسك هذا طبعاً بدورٍ يكون على جانب كبيرٍ من الأهميّة في إنشاء التأويلات، ويتعيَّن عليه كذلك أن يتدخَّل تدخُّلاً حاسماً في تقويمها، فعلى سبيل الذكر لا الحصر، يزداد تحديد وحدة تضمينٍ ما إقناعاً كلَّما تقارب محتواها مع مدلولاتٍ أخرى مُدرجةٍ في السياق (سواء كانت تعيينيّةً أم تضمينيّةً)، أو اندمج في إحدى الشبكات التشاكليّة الدلاليّة التي تُهيكل النصّ. ولكن قد نأخذ على هذا التحديد أمرين، ألا وهما: أوّلاً، في حالة الأمور الراهنة، لا نكون مزوَّدين بوسائل تسمح لنا بأن نقيسَ بدقَّةٍ معدّل تماسك تأويلٍ ما؛ وثانياً، لا يكون من المشروع دائماً أن نحدِّد درجة تماسك قراءةٍ ما ودرجة صحّتها، إذ تتَّصف بعض التأويلات، على الرُّغم من كونها متماسكةً تمام التماسك، بالهذيان؛ زد على ذلك، أنَّ مختلف أنماط النصوص لا تنشدُ التماسك بالتساوي...

3. تصبح القراءة أفضل بكثيرٍ كلَّما احتوت على المزيد من المعلومات الصحيحة أكانت خارجيّةً نصيّةً أم بَيْنصيّةً (أي كلَّما كان القارئ «مُطَّلعاً» على نحوٍ أفضل)، فإذا كانت هذه القراءة ترتكز مثلاً على معرفةٍ موسوعيّةٍ خاطئةٍ بشكلٍ جليٍّ (كأن أقرأ الفيلم الخياليّ «متنزّه العقاب» باعتباره وثائقيّاً)، نستطيع وصفها حينئذٍ بأنَّها «معنى معكوسٌ». ولكن ماذا لو كانت هذه القراءة ناقصةً بكلّ بساطةٍ؟ فابتداءً من أيّ درجة نقصٍ موسوعيٍّ يسعنا أن نعتبرها رديئةً؟ وكيف نحكم على تأكيداتٍ قاطعةٍ (وتتّسم طبعاً بالغلوّ أيضاً) على غرار قولنا ما يلي: «لا نفقه شيئاً من لوحات فان غوغ إذا كنَّا نجهل إلى أيّ مدى كان متأثّراً بالرّشمات اليابانيّة» («On ne peut rien comprendre à Van Gogh si l'on ignore combien il a été influencé par les estampes japonaises»)، وكذلك «لا يفهم المرء شيئاً من كتاب **رقصة التانغو الأخيرة في باريس**، إن لم يطَّلع على كلّ الإحالات إلى مؤلّفات جورج باتاي» («On n'a rien compris au Dernier tango à Paris si on n'y a pas vu toutes les références à l'oeuvre de Georges Bataille»)، إلى آخره؟

وبناءً عليه، إنَّ الموقف الصائب بشأن إشكاليّة تقويم القراءات هذه يقع حتماً في نقطةٍ متوسِّطةٍ بين الموقفَين المتطرِّفَين اللّذَين يتعذَّر الدفاع عن كليهما، واللّذَين يتجلّيان كالآتي: الأوّل ومفاده، «ثمّة قراءةٌ واحدةٌ صحيحةٌ لكلّ نصٍّ»؛

والثاني، ومفاده، «إنّ كلّ القراءات المُثبَتة تكون صحيحةً على حدٍّ سواء».

وبالتالي، فقوام الموقف الوسطيّ الصائب أن نُسلِّم بما يلي:

- ثمّة قراءاتٌ جمّةٌ معقولةٌ وممكنةٌ للنصّ الواحد،
- إنّ بعض القراءات هي أفضل من سواها،
- ثمّة قراءاتٌ رديئةٌ إلى أبعد حدودٍ، وأبرزها: المعاني المعكوسة وحالات الهذيان والأخطاء الحسابيّة التأويليّة، فهذه كلُّها قراءاتٌ موجودةٌ، ويُصنَّف إنكار وجودها تحت خانة سوء النيَّة.

ولكن بغية تدريج مختلف تأويلات القول تدريجاً نوعيّاً، وتحديد أين يبدأ المعنى المعكوس بكلّ ما للكلمة من معنى، فليس بحوزتنا إلاّ بعض المبادئ العامّة، ولاتزال تنقصنا معايير الصحّة/ أو الخطأ الدقيقة.

بتعبيرٍ آخر، إنّني أتّفق مع السيميائيّين الذين يعتبرون النصّ بمثابة المرجع المُنغلق والمُنفتح في آنٍ على الاحتمالات كافّةً، والذين يُشبِّهون كذلك القراءة بالنشاط الحرّ والمُلزِم في الوقت نفسه. هذا وأشاطر ميشال شارل[30] إعلانه البروتوكوليّ الآتي: «لكي نرسي أسس قراءةٍ ما، علينا عدم البحث بسذاجةٍ عن القراءة «الجيِّدة»، وعدم إعطاء قيمة لما لا يُمكن بتُّهُ بشكلٍ منهجيّ؛ بل يتعيَّن أن نتفَحَّص الأماكن حيث يسمح النصّ بالحيدان والأماكن التي يُلزِمنا فيها بقراءةٍ معيَّنةٍ وأن نحلِّلها ونصفها، وأن نتأمَّل في القراءات التي يقترحها وتلك التي يرفضها أو تلك التي يتوخَّى تركها مُبهمةً أو غامضةً، وأن «نقيسَ» حينئذٍ هذا الإبهام أو ذاك الغموض». وأؤيِّدُ من جهتي هذا المشروع كاملاً، ولكن تُساورني بعض الشكوك حول إمكانية تحقيقه وإعداد وسائل كفيلةً بإنجاز مثل هذا الأمر.

بشتّى الأحوال، فقد أشرنا آنفاً إلى أنَّ القول يعني ما يُخيَّل إلى الأشخاص الذين يتلقّونه (إذا كانوا على أيّ حالٍ عاقلين ومطّلعين...) أنَّه يرمي إلى قوله. وقد يبدو هذا التبئير على مرحلة فكّ الترميز مُبالغاً فيه، إلاّ أنَّه سيبدو أقلّ إفراطاً إذا ما خطر في بالنا بادئ ذي بدءٍ بأنَّ المُرسِل هو في الوقت عينه المُرسَل إليه الأوّل لرسالته الكلاميّة، وبأنّه يتعيَّن أخذ الفكرة التي يكوِّنها شخصيّاً عن معنى قوله، بقدر ما نقترب من معرفتها، في الاعتبار أسوةً بالفكرة التي يكوِّنُها المتلقّون الآخرون عن هذا القول نفسه. بل أكثر بعد، تحتلّ نيَّة المُرسِل الدالَّة مكاناً مركزيّاً في النموذج التأويليّ كما نتصوَّره، ما دام أنَّها تُشكِّلُ موضوع محاولة إعادة بنائه

(30) لقد ورد هذا التصريح على غلاف كتاب: Charles, *Rhétorique de la lecture.*

التي يضطلع بها المُحاوِر الذي لا يضع نفسه مكان المتكلّم فحسب عندما يؤوّل قولاً ما (كلّ قولٍ يرمي إلى قول ما كان يُمكن أن يرمي إليه لو كنتُ أنا قائِله)، بل أيضاً إنَّه يحاول ضمن نطاق الممكن أن يتقمَّص نفسيّة المتكلِّم (فكلّ قولٍ يرمي إلى قول ما كان يُمكن أن يرمي إليه، لو كنتُ أنا، وقد وضعتُ نفسي مكان المُرسِل وتلبّستُ شخصيَّته، نطقتُ به).

الأمر الذي يُفضي إلى جُميلتنا الثالثة والأخيرة، ألا وهي:

3. يرمي القول إلى قول ما يُخيَّل للأشخاص الذين يتلقّونه أنَّ مُرسِله يقصد قوله في القول أو من خلاله

تدمجُ عموماً الآليّات التأويليّة بعض الفرضيّات المتعلِّقة بمشروع المُرسِل الدلاليّ التداوليّ التواصليّ، فتأويل نصٍّ ما يعني أن نُعيد بالتخمين بناء مشروع الترميز. وبتعبيرٍ آخر، يمكننا أن نقول ما يلي: يرمي القول إلى قول ما يُخيَّل إلى الأشخاص الذين يتلقّونه أنَّ المُرسِل قصد قوله في القول أو من خلاله، مرتكزين على كفاءاتهم الخاصّة وعلى تلك التي يكون لديهم أسبابٌ وجيهةٌ (أو غير وجيهةٍ) لنسبتها إلى المتكلِّم والتقدير بأنَّ المتكلِّم ينسبها إليهم.

وبالتالي ها نحن ذا نُصادف مواربةً إشكاليّة نيَّة المُرسِل الدالَّة (التي «لا مناص منها» بلا ريب).

1. حتّى وإنْ لم تنجح الألسنيّة البُنيويّة في التخلُّص تماماً من مثل هذا المفهوم[31]، فهو لم يكن يلقى أصداءً إيجابيّةً[32] حتّى فترةٍ قريبةٍ.

---

(31) وهكذا، يتحدَّث بينفنيست عن «المَقصَد» («intenté») (Emile Benveniste: «La Forme et le sens dans la langue,» dans: *Recherches sur les systèmes signifiants: Symposium de Varsovie 1968*, Approaches to Semiotics; 18, présent par J. [Josette] Rey-Debove; assistée de K. Fenton (The Hague; Paris: Mouton, 1973), p. 97, et *Problèmes de linguistique générale...*, bibliothèque des sciences humaines, 2 vols. ([Paris]: Gallimard, 1966-1974), p. 225),
للدلالة على «ما يرمي المتكلّم إلى قوله»، أي محتوى «فِكره» الذي يُفعَّل في الخطاب على شكل مدلولٍ؛ في حين يتحدّث غرايميس (Algirdas Julien Greimas, *Du Sens: Essais sémiotiques* (Paris: Editions du Seuil, 1970), p. 16),
عن «المشروع الفرضيّ للفعل» («projet virtuel du faire»)، وهو يعتبر أنّ ما يُميّز غرضاً كلاميّاً أصيلاً (له معنى) إنّما هو التفعيل الواعي لنموذج يتصوّره مُسبقاً شخصٌ فرديٌّ.

(32) وهذا ما أدّى بلا ريبٍ إلى التحفّظات والاحتياطات الخطابيّة التي يتمّ بموجبها معالجة التصريحَين الآتيينَ:
ورد التصريح الأوّل على لسان غريز (Jean-Blaise Grize, «Argumentation, schématisation et =

ولكن إنْ طردنا «القَصدِيّة» من باب خطاب علماء دلالات الألفاظ، فهي ستعود من شبَّاك خطاب البراغمانتيين، فمن وجهة نظر شميدت، يُمكننا تشبيه البُنية العُمقيّة لكلّ نصٍّ بنيّة قائِله التواصليّة، في حين يرى أنسكومبر أنَّ معنى القول يرجع إلى «النيات التي يعرِضُها باعتبارها الحافز على فعل قوله». وأنَّ مآل التداوليّة التواصليّة إلى «دراسة القِيَم القصديّة المُرتبطة بفعل القول»(33). أمّا بالنسبة إلى سيرل، فكلُّنا يعلم أنَّ القِيَم الكلاميّة المنطوقة تتلاءم من وجهة نظره مع النيات التداوليّة التواصليّة التي يسبق وجودها وجود القول، وأنَّ وصفه للاستعارات وغيرها من المحسنات البيانيّة يرتكز على التمييز الآتي:

«المعنى الذي يقصده المتكلِّم» في مقابل «معنى الكلمة أو الجملة»
(= المعنى المُشتقّ) (= المعنى الحرفيّ)

(وهو يؤكِّدُ(34)، ما يلي: «يُشكِّلُ توضيح طريقة عمل الاستعارة حالةً خاصّةً من الإشكاليّة العامّة وقوامها أن نشرحَ كيفيّة تباعد المعنى الذي يقصده المتكلّم عن معنى الجُملة أو الكلمة»).

ولا نُخفي أنَّنا نرفضُ هذا التعارض، أو بالأحرى تلك الصياغة التي يقترحها سيرل بشأنه، فمن وجهة نظرنا يتعيَّن نسب مستويَي الدلالة اللَّذَين يتمّ رصدهما في المحسن البيانيّ إلى المتكلِّم وإلى القول على حدٍّ سواءٍ، وعليه:

---

logique naturelle,» dans: *Recherches sur le discours et l'argumentation*, cahiers Vilfredo Pareto. = tom. 12. 1974; no. 32, publiées sous la direction de Jean-Blaise Grize (Genève: Librairie Droz, 1974), p. 186),

ألا وهو: لا يتمايز نشاطٌ ما عن مجرّد التحرُّك، كما أنّه لا يكتسبُ تماسكه إلاّ بفضل النيّة التي تُديره وتوجُّهه. وسأقول أيضاً إنّ طبيعة النصّ تتحدّر من مشروع الشخص الذي يُدلي بالخطاب وهي تدلّ عليه. وأقرّ بأنّ استعمال المُصطلح نيّةٌ من شأنه أن يطرحَ إشكاليّةً [. . .]».

أمّا التصريح الثاني، فقد أدلى به لوني (Jean-François Le Ny, «Sémantique et psychologie,» *Langages*, no. 40 (1975), p. 9) ومفاده: «لا بدّ من التسليم بفكرة أنّ ثمّة حقيقةً إدراكيّةً ما ينبغي تحليلها في مقام فعلِ القول، ويسبقُ وجودها ليس فقط وجود الرسالة الكلامية، بل وأيضاً وجود النشاط التحضيريّ الذي يولِّدها [. . .]».

(33) Jean-Claude Anscombre, «Voulez-vous dériver avec moi?,» *Communications*, no. 32 (1980), p. 65.

(34) John R. Searle, *Sens et expression: Etudes de théorie des actes de langage* = *Expression and Meaning*, le sens commun, traduction et préface de Joëlle Proust (Paris: Editions de Minuit, 1982), p. 122.

● لكي يكون المعنى الثاني (الذي يتناسب و«النيَّة الأوَّليّة» عند سيرل) مُشتقّاً، يجب أن يكون مُدرجاً بشكلٍ أو بآخر في المتتالية الدالَّة، وإلاّ يتعذَّر علينا فهم كيفيّة استخراجه من قِبل المُحاوِر.

بشكلٍ أكثر عموميّةً، تكون كلّ القِيَم القابلة للتحديد من قِبَل المُحاوِر في قولٍ معيَّن «مُعبَّراً عنها» فيه بشكلٍ أو بآخر، أي بكلام آخر تدعمُها بعض العناصر الدالَّة القوليّة دعماً مباشراً أم غير مباشر، وتُحفِّزها كذلك احتماليّاً بعض الدلائل الألسنيّة اللُّغويّة أو الخارجيّة الألسنيّة اللُّغويّة، والتي يُمكن تأويلها على قاعدة بعض القواعد والآليّات المُستبطنة على شكل كفاءةٍ.

والحال أنَّ البراغماتيّين يميلون أحياناً إلى التصرُّف كما لو كان من الممكن إيصال نيات المتكلِّم إلى المُحاوِر بواسطة الروح القدس. وعلى أيّ حالٍ، يأخذ كورنولييه (Cornulier) على غريس هذا «المذهب الروحي»، قائِلاً: «أن نقول إنَّ شخصاً ما يقوم بأمرٍ ما وهو يُبيِّت نيَّةً ما، يعني ذلك أنَّنا نُميِّز الفعل عن النيَّة من خلال عرضهما وكأنَّهما مُشارِكان. وهذا ما يحدثُ في تحديدات غريس حيثُ يتمّ تقديم الشخص الذي يُعبِّر على أنَّه يقوم بفعلٍ ما (ف)، لا يخبرنا غريس شيئاً عنه، فيبقى بالتالي هذا الفعل فعلاً أيّاً يكن مُرفَقاً ببعض النيات التي يكون قسماً منها ذات صلةٍ بهذا الفعل ولكن على نحوٍ يبقى فيه هذا الفعل فعلاً أيّاً يكن. كأن يقول لي أحدهم مثلاً: قُل أمسترامغرام(*) (Amstramgram)، أو إرفع يدك أو حرِّك أصابع قدمَيك، مع نيَّة حملي على الاعتقاد بأنَّ عدد الأفعال الإنشائيّة يصل إلى الـ 777 فعلاً، ونيَّة جعلي أعلم نيَّته الرامية إلى حملي على الاعتقاد بذلك، فضلاً عن نيَّة حملي على التسليم بأنَّ واقع التعرُّف على هذه النيَّة المُبيَّتة يُساهم في حملي على الاعتقاد بأنَّ عدد الأفعال الإنشائيّة يبلغ الـ 777 فعلاً، فمثلاً: أنتَ «تدلُّني (؟) بشكلٍ غير طبيعيٍّ»، من منظار غريس، على أنَّ عدد الأفعال الإنشائيّة يصل إلى الـ 777 فعلاً، ولكنَّك تكون شخصاً يعاني انفصاماً بالشخصيّة أيضاً إنْ لم تبذل جهداً إضافيّاً في سبيل تحقُّق بعض الشروط الضروريّة لتمرير الرسالة الكلاميّة من دون أن يُصار إلى الاعتراض عليها أو إنْ لم تحرَص على فعل ذلك [...]. أم أنَّك ملاكٌ وتتواصل عبر تخاطر الأفكار»(35)، على منوال الرسّامين

(*) وهي لعبة تُشبه لعبة «أتجرؤ أم تقول الحقيقة».

(35) Benoît de Cornulier, «Signification réflexive et non natural meaning,» *Cahiers de linguistique française*, no. 2 (1981), p. 7.

الذين يُنادون بتقنيّة «الرسم السرّي»[36] («Secret Painting») ويُمارسونها. وصحيحٌ أنَّ غريس يُشدِّدُ مراراً وتكراراً[37] على واقع أنَّ العبارة التالية «يرمي المتكلِّم إلى قول شيءٍ ما من وراء أيّ فعلٍ (ف) يقوم به» تعني في الحقيقة أنَّ «المتكلِّم ينوي من خلال إدلائه بالفعل (ف) أن يؤثِّرَ في المُحاوِر من خلال تعرُّف هذا الأخير على نيّته هذه»؛ إلاّ أنَّ شتراوسن يُحدِّد بالطريقة نفسها أنَّ على المُحاوِر أن «يضمَنَ الفَهْم» (أي بكلام آخر أن «يلتقط» نيَّة المتكلِّم الدالَّة). أمّا بشأن الالتماسات غير المباشرة، فيُنوِّهُ سيرل بأنَّ المتكلِّم «يُبيِّت نيّة حمل المُستمع إلى التعرُّف على أنَّ طلباً ما قد وُجِّه إليه؛ ولديه النيَّة بترك هذا الانطباع من خلال جعل المُستمع يُدرك نيَّته هذه»[38]. وعليه، لا يكمن الخطأ الذي اقترفه هؤلاء المؤلِّفين[39] على اختلافهم في إهمال مرحلة فكّ الترميز وتناسي أنّه ينتفي وجود أيّ نيَّةٍ إن لم يتمّ الإقرار بها فحسب، بل بإغفال المرحلة الوسطيّة التي من دونها يعجز المُحاوِر عن التعرُّف على نيّة المتكلِّم الدالَّة هذه الشهيرة، أي بكلامٍ آخر أن يعجز عن التعرُّف على المتتالية الكلاميّة التي تسمح وحدها للتيّار الدلاليّ التداوليّ التواصليّ بأن ينتقل، وذلك لأنّها تكون مرموزةً أي إنَّها تُرمَّز ويُفكّ ترميزها على قاعدة بعض الأعراف التي يعترف بها بشكلٍ أساسيٍّ على أيّ حالٍ كلّ من المتكلِّم والمُحاوِر معاً. وبتعبيرٍ آخر، يتجلّى الخطأ الذي ارتكبه هؤلاء في أنّهم لم يسعوا إلى وصف طريقة عمل هذه المرحلة السيميائيّة بكلّ ما للكلمة من معنى والتي تُشكِّلُ المكان الوحيد المُلائم للبحث الألسنيّ اللُّغويّ، وصفاً دقيقاً.

(36) ونذكر من هؤلاء الرسّامين رامسدين (M. Ramsden) الذي يُعلّق على «اللّوحات» التي رسمها بريشته بين عامَيّ 1967 و1968، والتي تبرز كلّها على شكل لوحاتٍ مربّعةٍ بيضاء على نمطٍ واحدٍ، قائلاً: «يكون محتوى اللّوحة لامنظوراً؛ إذ ينبغي باستمرارٍ الإبقاء على طابع اللّوحة وبُعدِها سرّاً لا يعلمهما إلاّ الرسّام».

(37) ولاسيّما في المقالات التي كتبها عامَيّ 1957 و1969.

(38) Searle, *Sens et expression: Etudes de théorie des actes de langage = Expression and Meaning*, p. 72.

(39) بما فيهم سيرل، عندما يضع «المعنى الذي يقصده المتكلّم» في مقابل «معنى الجملة» ـ مع أنّه يأخذ هو نفسه على غريس عدم الإتيان على ذكر «مدى توقُّف الدلالة على القواعد أو التوافقات»، وكذلك عدم عرض «العلاقة القائمة بين ما نعنيه حين نقول أمراً ما وما يعنيه فعلاً هذا الأمر في اللّغة» (Grize, «Argumentation, schématisation et logique naturelle,» dans: *Recherches sur le discours et l'argumentation*, p. 84).

• وبالعودة إلى سيرل ووصفه للمحسنات البيانيّة، نقول بناءً على ما تقدّم أنَّه من الخطأ أن نعتبر أنَّ المعنى المُشتقّ لا ينتمي إلى القول. والقول بأنَّ المعنى الحرفيّ ينتمي حصريّاً إلى القول هو برأينا أمرٌ قابلٌ للنزاع، إذ قد يخطرُ لنا في المقابل أنَّ المتكلِّم يتوقَّعه ويقصده ـ ولكن باعتباره معنى «خاطئاً». وبكلام آخر، يكون للمتكلِّم، من خلال إنتاج المعنى الحرفيّ، النيَّة بعدم منحه، متعمَّداً عدم إخفاء نيَّته هذه، سوى وضع المحتوى المُكرَّس للاستبدال عبر إحلال المعنى «الحقيقيّ» محلَّه، ما إن يُصار إلى كشف النقاب عن هذا الأخير.

أمّا نحن، فيتجلَّى رأينا باختصارٍ شديدٍ على الشَّكل الآتي: في حالة المحسن البيانيّ، يكون المحتويان الحرفيّ والمُشتقّ كليهما منقولَين عبر القول، فضلاً عن أنَّهما يُشكِّلان حصيلة نيَّةٍ معيَّنةٍ من نيات المتكلِّم الدالَّة.

• وبغية الإشارة إلى هذَين الكيانَين، يستعمل سيرل بطريقةٍ مماثلةٍ عبارتَي «نيَّة ثانويّة» و«نيَّة أوَّليّة»، ممّا يعني أنَّه يُقرّ بأنَّ حتّى المعنى الحرفيّ يكون قصديّاً. فضلاً عن أنَّه يُشبِّهُ بذلك أيضاً المعنى بالنيَّة التواصليّة ـ والمؤكَّد أنَّ سيرل ليس الشخص الوحيد الذي يقوم بهذا التشبيه الذي نرفضه رفضاً باتّاً. وهكذا فإنَّ تاريخ الألسنيّة حافلٌ بسلسلةٍ من المحاولات الهادفة إلى «حدِّ» المعنى المُشتقّ» بظواهرَ متعالقةٍ متنوّعةٍ وإنَّما متنافرةٍ. وهكذا مثلاً، يرى السلوكيّون أنَّ معنى الفعل الفلاني (ف) يتألَّف من مجموعة «الأحداث العمليّة» المُحيطة بإصدار الفعل (ف) وتلقّيه؛ في حين يعتبره أتباع التوزيعيّة بمثابة مجموعة السياقات الحاليّة النصيّة التي يمكن أن يبرز فيها الفعل (ف). أمّا بالنسبة إلى بعض علماء الصرف الدلاليّ، فهو يتألَّف من بنية الدالّ... ولكن حتّى وإنْ تبيَّن، وهو أمرٌ مشكوكٌ فيه، أنَّ ثمّة مقابلةً نظيريّةً بين معنى الفعل (ف) ومختلف الكيانات التي يُشبَّه بها، إلاّ أنَّ ذلك لا يُشكِّل سبباً كافياً لإقامة تشبيهٍ من هذا القبيل. وبمماثلةٍ، حتّى وإنْ كان ثمّة تعالقٌ ثابتٌ قائمٌ بين معنى الفعل (ف) والنيّة التي يُبيِّتُها المتكلِّم الذي يُنتج هذا الفعل (ف) ـ وليست الحالة كذلك من وجهة نظرنا بحيثُ إنَّنا نرفض أن نحدَّ معنى-الفعل-(ف) بمعنى-الفعل-(ف)-بالنسبة-إلى-المتكلِّم -، فلا يُعدُّ ذلك سبباً كافياً لمُماثلة الأوَّل بالثانية، فالمعنى هو كيانٌ سيميائيٌّ يقع في القول ويستخرجه المرء منه بفضل الكفاءات التي يتحلَّى بها؛ في حين تنتمي النيَّة إلى علم النفس وتُرجعنا إلى رغبة الشخص في نقل (أو عدم نقل) محتوى دلاليّ تداوليّ تواصليّ مُعيَّن.

2. ولكن، لمَ نتحيَّر، حين نؤدِّي دور الألسنيّ اللُّغويّ، بشأن مفهوم القصديّة هذا؟ يُعزى سبب ذلك إلى وجود بعض العلاقات التضمينيّة الألسنيّة اللُّغويّة (ناهيك بوضع «النيَّة» و«سَبْق التصميم» القانونيّ) لجهة أنَّه مثلاً:

● يتعذَّر وصف عددٍ معيَّنٍ من الظواهر التي اعتدنا على اعتبارها ملائمةً على الصعيد الألسنيّ اللُّغويّ إن لم نأخذ بالحسبان ما يُفتَرَضُ أنَّه يُشكِّلُ نيَّة المُرسِل التواصليّة، فعلى سبيل المثال، نُصنِّفُ الأسلوب الشَّكلي نفسه في التعبير، تبعاً لاعتبارنا أنَّه متعمَّدٌ أم لا، باعتباره:

تعلُّقاً معنويّاً أو إبهاماً لاإراديّاً

تلاعباً بالألفاظ أو مجرَّد هفوةٍ

إبداعاً كلاميّاً أو زلَّة لسانٍ

تقعيداً خطيّاً أو خطأً إملائيّاً[40]

فعلَ «اختلاقٍ» شعريٍّ أو تشويهاً لغويّاً مَرَضِيّاً

صورةً نحويّةً (على غرار الفصل أو التبديل المُفاجئ في بناء العبارة) أو مجرَّد خطأ في التركيب

إهانةً متعمَّدةً أم غلطةً طائشةً

«رفضاً جافّاً»[41] أو محض غياب جوابٍ

استعارةً أم خطأً في التسمية[42].

---

(40) وممّا لا ريب فيه أنّ المسألة تتعلّق بأخطاءٍ إملائيّةٍ في التعابير الخطيّة التالية التي عثرنا عليها في مذكّرات بعض التلامذة، من مثل: «العنصرية» («rascisme») و«هذا مشروعٌ جريءٌ» («c'est une entreprise hardue...»)، ولا تتعلَّق المسألة هنا مُطلقاً بكلماتٍ واسعة المدلول.

(41) وهي، من جهة نظر بلوم وفوس (Foss) وماك هيو (Mc Hugh) ورافيل (Raffel) غياب جوابٍ «له مسوِّغاته» وموسومٍ، انظر: (A. V. Blum [et al.], «La Rebuffade,» *Communications*, no. 30 (1973)),

(42) ومن هنا تنشأ الإشكاليّة التي يطرحها وصف «الاستعارات» الطفليّة (على غرار المثل التالي: «جلد المصّاصة» («la peau de la sucette»)) حيثُ يطرح السؤال التالي نفسه: هل المُرسِل قادرٌ أم عاجزٌ عن توليد التسمية الصائبة، وهل هو مُدركٌ للانحراف الذي تُنشئه العبارة المُختارة؟

سنُحدِّد عمّا قريبٍ وضع المحسن البيانيّ نسبةً إلى وضع الخطأ والكذبة. ولكن لا بدّ لنا من الإشارة من الآن إلى أنَّ تحديد المحسن البيانيّ يستتبع ضمناً أنّنا نفترِضُ أنَّ الانحراف الذي يُشكِّله متعمَّدٌ. وهكذا، ففي المثلَين الآتيَين:

المثل الأوّل: ليس لديّ صفٌّ اليوم ـ آه، لأنَّكَ أستاذ؟ («Je n'ai pas de cours aujourd'hui - Ah parce que vous êtes professeur?»)

المثل الثاني: كان يعيش وحيداً منذ وفاة زوجته ـ لم أكن أعلم أنّه كان متزوِّجاً / أنَّ زوجته قد توفِّيت («Il vivait seul depuis la mort de sa femme - Je ne savais pas qu'il avait été marié / que sa femme était morte»)،

ومع أنَّ تسلسل كلام المخاطب يرتكز على مُضمَّنٍ أو افتراضٍ ينطوي عليه قول المتكلِّم، إلاّ أنَّه لن يتبادر إلى ذهن هذا المخاطب نفسه أنَّ المتكلِّم قد أتى بمحسنٍ بيانيٍّ إضماريٍّ، ما لم يكن لديه أيّ سببٍ يدفعه إلى الاعتقاد بأنَّ هذا الأخير قد أنتجَ قوله هذا وهو يُبيِّتُ نيَّةً أساسيّةً تهدف إلى دلِّه على المعلومة المُضمَّنة أو المُفترَضة.

● وإليكم ملاحظةً أخرى، ألا وهي: نعتبر عموماً التأكيدات الآتية بمثابة التأكيدات المترادفِة نوعاً ما، ألا وهي:

«إنَّ هذا القول تهكُّميٌّ» / «يتهكَّمُ المتكلِّم في هذا القول»

«يُضمِّن هذا القول (أو يُلمِّح إلى) الجُمَيلة «د»» / «يُضمِّن المتكلِّم (أو يُلمِّح إلى) الجُمَيلة «د»»

«يرمي هذا القول إلى قول الجُمَيلة «ج»» / «يرمي المتكلِّم إلى قول الجُمَيلة «ج» في هذا القول»(43).

وبناءً عليه، يعني ذلك بالنسبة إلى الحسّ المُشترك، أنَّ معنى القول هو قبل كلّ شيءٍ المعنى الذي قصد المتكلِّم إعطاءَه لهذا القول.

---

(43) لقد رأينا في مُستهلّ هذا المؤلَّف كيف يتلاعب دوكرو على تعدّدية معاني فعل «قصدَ قول» («vouloir dire») الفاضحة جدّاً ـ وتطبعُ كذلك هذه التعدّدية نفسها فعل «يعني» («to mean»)، بحسب سيرل (Searle, *Sens et expression: Etudes de théorie des actes de langage* = *Expression and Meaning*, p. 7).

وبشكلٍ عامٍّ، يكون الأشخاص الذين يتلقّون القول أنفسهم مستعدّين للتسليم بهذا الأمر، فيقولون مثلاً: «إلامَ ترمي تحديداً من وراء قولك؟» («Que voulez-vous dire exactement») و«ماذا يجول في خاطرك عندما تزعم أنّ...» («Qu'avez-vous dans l'esprit quand vous affirmez que..») و«سأقول لك ما الذي فهمته لكي تقول لي إن كنتُ أجدتُ الفهم» («Je vais vous dire ce que j'ai compris pour que vous me disiez si j'ai bien compris»). وإنَّ تواتر مثل هذه العبارات التواصليّة التحويليّة في المحادثة اليوميّة يُثبتُ بالدليل الدامغ أنَّنا نسعى بثباتٍ وقلقٍ إلى التأكُّد من أنّنا التقطنا المعنى «السليم»، أي المعنى الذي قصد المتكلِّم إيصاله[44] إلينا. وإنْ كان الأمر بخلاف ذلك، أي إنْ كان المعنى الذي فهمناه مغايراً عن المعنى الذي قصده المتكلِّم، فإنَّنا لن نتوانى عن الاعتراف بأنَّنا «أسأنا الفهم» (وعلى الأكثر قد نأخذ على المتكلِّم أنّه «أساء التعبير عن نفسه») وبأنّنا ارتكبنا تالياً جنحة المعنى المعكوس، كما هو الحال في المثل الآتي:

عفوَكِ سيِّدتي، إنَّني أقرُّ وأعترفُ، وأنا منك خجل

فقد اتَّهمتُ خطابك البريء زوراً، وافتريتُ عليك بلا وجل

وكلّما وقع نظري عليك، شعرتُ أنَّ فضيحتي تزداد ثقلاً على ثقل

وسوف...[45]

(«Madame, pardonnez... J'avoue, en rougissant,
Que j'accusais à tort un discours innocent.
Ma honte ne peut plus soutenir votre vue;
Et je vais...»)

فمن خلال إساءة الظنّ (أو الاعتقاد بأنّه يُسيء الظنّ) بمعاني كلام فيدر (Phèdre)، يقترفُ هيبوليت (Hippolyte) (أو يُخيَّل إليه أنّه يقترفُ) خطأً (تفوقُ فداحته فداحة التُّهمة نفسها التي يستتبعها ضمناً هذا التأويل «المغلوط»)، وهو يشعر أنّه مُلزَمٌ بالاعتذار عنه بخزيٍ. ويعني ذلك الاعتراف بأنَّ المتكلِّم هو في

(44) راجع بهذا الشأن: Keith S. Donnellan, «Speaker's Reference, Descriptions and Anaphora,» in: Peter Cole, ed., *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics*, Edited by John P. Kimball; Edited by Peter Cole (New York; San Francisco; London: Academic Press, Harcourt Brace Jovanovich, 1978).

(45) مثلٌ مُقتبسٌ عن المشهد الثاني من الفصل الخامس من مسرحية **فيدر** (*Phèdre*).

الموضع الأفضل لتقرير القيمة الأنسب التي يرغب في منحها إلى القول الذي يكون مسؤولاً عنه، وأنّه يُشكّل شخصيّاً المرجع التقويميّ الأعلى - وهذا هو تحديداً ما يجعل المُضمَّنات نعمةً للمتكلِّم، بحيثُ إنَّه قادرٌ باستمرارٍ أن يُلقي مسؤوليّتها على عاتق المُحاوِر وأن يتّهمه بالتأويل «التعسّفيّ».

وليس تصرُّف المُحاوِر الذي يقبل بالتبعيّةِ للمتكلِّم من شِيَم المتلقّي «العاديّ» فقط، إذ يُخيَّل إلينا أنَّ التصوُّر الذي يقول به الألسنيّون اللُّغويّون والسيميائيّون المعاصرون بشأن النشاط التأويليّ بات مُختلفاً تماماً عن ذلك الذي تحدَّث عنه فقهاء اللّغة القدامى. إذ لم تعد المسألة تتعلَّق حصريّاً بإعادة بناء مشروع الترميز بأكبر قدرٍ ممكنٍ من الأمانة وبتطهير النصّ من كلّ الحثالات التأويليّة التي استطاعت أن تُحرِّف دلالته الأصليّة فحسب أثناء المسار التعاقبيّ التطوُّريّ، بل وأيضاً في تسهيل عمل «المدلوليّة». ومن حيثُ المبدأ، لم يَعُدْ بعد الآن الخضوع المطلق إلى مجموعة قوانين المُرسِل المُفترضة بمثابة الأمر المُطلق أو المعيار الحصريّ للقراءة الجيِّدة. ومع ذلك، فحين يتحدَّث بعض منظِّري خطاب الخيال عن «عملية التلقّي المنقوصة» أو حين يكتبُ دوكرو، بشأن تأويلٍ من هذا القبيل تناولَ جملةً وردت على لسان لا برويير (La Bruyère)، قائِلاً: «نرتكبُ معنى معكوساً تامّاً حول النصّ إذا عمدنا في هذا الصدد إلى اعتبار أنَّه يتعذّر على الأداة لكن (mais) أن تتّسم بطابعٍ تداوليٍّ تواصليٍّ أو برهانيٍّ [...]، فإنّنا، بوصفنا هذا، نقوِّل لابرويير أموراً لَم يقلها [...]. وباختصارٍ، ثمّة نوعٌ من التناقض بين الفوز المُجتمعيّ والنجاح الاجتماعيّ، وهي فرضيّةٌ تُثير الدهشة ولا تتلاءم وعقليّة القرن السابع عشر، ولا تُطالعنا في أيّ موضع آخر»[46]. ممّا يدفعُنا إلى التفكير بأنَّ التاريخ يُعيد نفسه[47]، فبدلاً من أن تُعامِلَ السيميائيّة ردّةَ فعلٍ تأويليّةٍ ثابتةً للغاية من مثل نيّة المُرسِل أو كيفيّة تمسُّكه بها معاملةً فيها شيءٌ من الازدراء،

---

(46) Oswald Ducrot, «Analyses pragmatiques,» *Communications*, no. 32 (1980), p. 13.

(47) لقد شاركتُ مؤخّراً بصفتي عضواً في لجنة تحكيم لمناقشة أطروحةٍ تتناول أعمال رولان دوبيار (Roland Dubillard) المسرحية، وكان هذا الأخير حاضراً معناً في القاعة. وقد كنّا جميعاً مُستعدّين للاعتراف بحقّه المُطلق في اتّهامنا بِـ «الهذيان التأويليّ»، وكنّا نخشى أنّ نفكّ في هذه الأعمال شيفرة مختلف الدلالات التي لربّما قد فاتت المؤلّف نفسه. ولقد شعرنا في سرّنا، ونحن نتداول التلميحات التناصيّة التي لا تُعدّ ولا تُحصى والتضمينات بمختلف أنواعها، بقلقٍ شديدٍ. ويا للانفراج الذي خالجنا حين أعلن دوبيّار ختاماً أنّ كلّ ما سمعه أثناء هذه المناقشة قد بدا له «صائباً» تماماً...

يتعيّن عليها على العكس أن تعترف بمشروعيّة وجودها.

3. وبرأينا، تكمن الطريقة الأمثل للتوصُّل إلى ذلك في نقل الإشكاليّة وتمحيصها من وجهة نظر فكّ الترميز، أي أن نستعيدَ مفهوم نيَّة المُرسِل الدالَّة هذه ضمن إطار دراسة طريقة عمل الآليّات التأويليّة، وذلك على شكل فرضيّاتٍ يصوغها المُحاوِر صياغةً مُضمَرةً بشأن مشروع المتكلِّم الدلاليّ التداوليّ التواصليّ.

تتدخَّل هذه الفرضيّات على مستويَين، ألا وهما:

● إنَّها تُعنى بادئ ذي بدءٍ بطابع الوقائع المُدرَكة القصديّ أم غير القصديّ. وكما سبق وأشرنا، يرتكز تحديد الجِناس أو المحسن البيانيّ على هذه القاعدة، في مقابل تحديد الإبهام أو الخطأ في التسمية ـ علماً بأنَّ التأثير المُخلَّف يتبدَّل تبعاً لاعتبار الواقع المطروح إراديّاً أم لا. ونعلم على سبيل المثال أنَّ هذا هو تحديداً ما يُميِّز بشكلٍ أساسيٍّ، من وجهة نظر فرويد، «النكتة» عن «الهزل الساذج».

● يحاول المُحاوِر في نطاق الممكن أن يُعيد بناء ما رمى المتكلِّم إلى قوله ليس بعد الآن في ما يتعلَّق بوضع المتتاليات التي تُعرَضُ عليه بل بمضمونها، فالمعنى الذي يستخرجه المرء من القول هو من حيث المبدأ وبشكلٍ عامٍّ ذلك الذي يفترضُ أنَّ المتكلِّم يُرمِّزه. وكذلك، لا أحد يتَّهم نفسه، مبدئيّاً وبشكلٍ عامٍّ، بارتكاب «معنى معكوساً» عن سابق تصوُّرٍ وتصميم ـ وبكلام آخر، يتجلَّى بحسب ليفنسون[48] الجواب الأعقل على السؤال التالي: «ماذا يعنيً أن نفهمَ قولاً ما؟»، كالآتي: «أن نفهم قولاً ما يعني أن نفكّ ترميز كلّ ما يقصده بصوابٍ قائِلُ هذا القول أو أن نحسِبَه».

ملاحظات

ـ تكون مهمَّة إعادة بناء نيَّة المتكلِّم الدالَّة يسيرةً تقريباً، تبعاً لتقارب كفاءات المتكلِّم من كفاءات المُحاوِر أو بُعدِها عنها، وتبعاً أيضاً لتكوين المُحاوِر فكرةً واضحةً تقريباً عن كفاءات المتكلِّم. ولكن أهمّ ما في الأمر أن ينجحَ المُحاوِر في

(48) Stephen C. Levinson, *Pragmatics*, Cambridge Textbooks in Linguistics (Cambridge [Cambridgeshire]; New York: Cambridge University Press, 1983), p. 24.

تغذية الوهم القاضي بأنّ تأويله يتطابق إجمالاً ومشروع المتكلّم الدلاليّ التداوليّ التواصليّ[49].

ومع ذلك، يفشل أحياناً المُحاوِر، على الرُّغم من كونه على علم بهذا المشروع، في تكييف قراءته الخاصّة للنصّ المُقترَح عليه معه، فمثلاً، مهمّا قيل لي أنّ كتاب **الدعوى** (*Le Procès*) كان يُعدُّ بالنسبة إلى كافكا (Kafka) ومحيطه نصّاً هزليّاً[50] بالدرجة الأولى، وحتّى إنْ أثّرت هذه المعلومة الخارجيّة النصّية بشكلٍ أو بآخر على إدراكي للنصّ، إلاّ أنّني مرغمةٌ على الاعتراف بأنّها لا تكفي لأن تجعله يبدو بنظري مُضحكاً بكلّ ما للكلمة من معنى. وبالتالي، يتحتّم علينا في حالاتٍ مماثلةٍ أن نتّخذ موقف الحلّ الوسط.

- عندما نقول إنّ المحاوِر يسعى بالتخمين إلى إعادة بناء نيّة المتكلّم الدالّة، فنحن لا ندّعي البتّة أنّ المتكلّم نفسه يملك تصوُّراً واضحاً وضوح الشمس عنها، فكما نعلم، ليس المؤلِّف شخصاً «يفيضُ معرفةً» وحرّاً ومتجانساً مع نفسه ويعرف بوضوح ما عليه قوله، بل إنّه شخصٌ يعاني انفصالاً ويخضعُ للضغوط ويتشارك مع مراجعَ أخرى في السيطرة على الديناميكيّة النصيّة (فإنّ مَن يتكلّمُ في النصّ ما هو المؤلِّف، ولكن يتكلَّمُ عبره كذلك الوحي والطبيعة[51] والآخر واللاوعي والأيديولوجيا واللّغة والبَيْنصّ. . .)، وكونه يتلقّى إنتاجاته الخطابيّة الخاصّة، فهو

(49) راجع بانج في: Pierre Bange, «Points de vue sur l'analyse conversationnelle,» *DRLAV*, no. 29 (1983), p. 6,

الذي يقول ما يلي: «لا يُعوَّل في إطار فعل كلامٍ ما على ماهيّة النيّة التي يُبيّتها المتكلّم، بل على النيّة التي ينسبها إليه المتلقّي».

(50) وهذا شأن مسرحيّة **المكرزة** (*La Cerisaie*) التي اعتبرها تشيكوف (Tchekhov) بمثابة المسرحيّة «الهزليّة» بل وحتّى «الهرجة»، إلاّ أنّها ما إن أبصرت النّور حتّى صُنّفت (من قِبَل ستانيسلافسكي (Stanislavski) ومجموعة قرّائه) باعتبارها دراما.

(51) «لقد أدرك الجميع أنّني عشقتُ ساره وأنّني مقتُّها وكرهتها وازدريتها. أمّا الآن، فيُخالجني شعورٌ بالحنان حيالها ويعتصرني الألم..، فأنّى للمرء أن يجد قلباً بشريّاً مصوَّراً على نحوٍ أفضل وأكثر واقعيّةً منه في هذه القصّة؟ ها! لقد كان القسّ ديليله على صوابٍ! إنّ هذه القصّة لتحفةٍ فنيّةٍ! ولكنّها من صنع الطبيعة وليست من صنع المؤلِّف» (مثلٌ مُقتبسٌ عن: Nicolas-Edme Rétif de La Bretonne, *Restif de la Bretonne. Sara, ou l'amour à quarante-cinq ans* (Paris: A. Lemerre, 1929), p. 245 («On a vu que j'ai adoré SARA, que l'ai haïe, détestée, méprisée. A présent, je n'éprouve que le sentiment de la tendresse et de la douleur... Où trouvera-t-on le coeur humain aussi bien, aussi véritablement peint que dans cette Histoire? Ha! L'abbé Delille avait raison! C'est un chef-d'œuvre! *Mais c'est la Nature, et non l'Auteur, qui l'a fait*»).

يتحيَّر كذلك في تأويلها[52]. وما نقصد قوله هو أنَّ المُحاوِر لا يقبل عموماً أن يقرأ في النصّ سوى ما يعتبر أنَّ مؤلِّفه مُستعدٌّ شخصياً أن يقرأه فيه.

- ولكن لهذه القاعدة استثناءاتها، فعندما أسمع مثلاً هذا التصريح الذي يُدلي به وزير العدل، ألا وهو: «كان رئيس الجمهوريّة واضحاً بوجهٍ خاصٍّ حول هذه النقطة خلال حملته الانتخابيّة» («Le président de la République a été sur ce point particulièrement net pendant sa campagne électorale»)، أبتسمُ لفكرة أنّنا قد نرى فيه في سياقاتٍ أخرى مُضمَّنٍ قلَّ ما يكون دمِثاً؛ إلاّ أنّني أعترف في الوقت نفسه أنَّه يتعذَّر في هذا الصدد أن يرمي هذا القول إلى القول إنَّ الرئيس كان بالأحرى غير واضح حول المسائل الأخرى، لأنَّ وضع المتكلِّم يمنعه من أن يقصد قول أمرٍ مماثلٍ. والأمر نفسه ينطبق على الشعار الآتي: «فرنسا بحاجةٍ لرئيسٍ للجمهوريّة» («Il faut un président à la France») الذي ورد على لسان فاليري جيسكار ديستان، والذي لا يسعه في هذا الصدد، كونه كان يشغل حينها منصب رئيس جمهوريّة فرنسا، أن يرمي من ورائه إلى القول إنَّ فرنسا كانت حينئذٍ تفتقر (حقّاً) إلى رئيسٍ للجمهوريّة، ومع ذلك، يبرزُ هذا الاستدلال على نحو ساخرٍ. وأتبسَّم كذلك حين أقرأ التصريح الذي جاء على لسان وزيرٍ سويسريٍّ، ألا وهو: «لا ينبغي استغلال جسد المرأة لغاياتٍ محض تجاريّةٍ» («Le corps de la femme n'a pas à être exploité à des fins purement mercantiles»)، فلا أمنحه سوى وضع زلَّة اللِّسان (الفاضحة جدّاً...) لجهة الاستدلال الغريب العجيب الذي يحثُّنا هذا التصريح على استخراجه. وحين أعلم أنَّ فيلم «جورجيا» (Georgia) للمخرج أرثور بين (Arthur Penn) «مُنيَ بفشلٍ ذريعٍ في الولايات المتَّحدة» («a été un four aux États-Unis»)، أقول لنفسي إنَّ هذا الفيلم مرصودٌ للفشل (prédestiné au four») بسبب عنوانه الأصليّ، ألا وهو: «أربعة أصدقاء»[*] («Four Friends»)؛

(52) لقد لفت جان بليز غريز (Jean-Blaise Grize) انتباهنا إلى الأمر الآتي، وهو أمرٌ صائبٌ تماماً، ألا وهو: «أعتقد أنّ المتكلّم غالباً ما يُفاجئ نفسه، ليس لجهة ما أدلى به فحسب، بل وأيضاً لجهة ما جال في خاطره في أثناء إدلائه به. والواقع أنّ شيئاً من تصرّف المتكلّم إزاء ما يقوله يُحاكي ما يقوم به المُحاوِر».

(*) وقوام الجِناس أنّ كلمة Four تعني في اللّغة الفرنسيّة، وتحديداً في مضمار الأدب والمسرح، «فشل»، وتُشبه هذه الكلمة على الصعيد الإملائي كلمة Four الإنجليزية التي تعني «أربعة». وهكذا، حين يقرأ المتلقّي الفرنسيّ عنوان هذا الفيلم الأصليّ (وهو «Four Friends»)، فسيتبادر إلى ذهنه عند قراءة كلمة «Four» (التي تعني أربعة) معنى كلمة «Four» (التي تعني الفشل). وهذا ما يجعل هذا الجِناس جِناس تلقٍّ محض.

إلاّ أنّني أقرّ في الوقت نفسه أنّه في حال وُجِد جِناسٌ ما هنا، فلا يتعدّى كونه محض جِناس تلقٍّ. وعندما أسعى، على خُطى راستيه، إلى تحديد التشاكلات الدلاليّة التي تُهَيكل إحدى فقرات كتاب **الخمّارة المُريبة** («*L'Assommoir*»)، (وتتجلّى هذه الفقرة على الشّكل الآتي: آه! تبّاً! يا لهذا الثقب في صلصة البقريّة! [. . .] كان صحن السَّلطة مجوَّفاً وقد غُرست المِغرفة في الصلصة الخَثِرة التي كانت صفراء اللَّون شهيَّةً وتهتزُّ كالمرق المُختَّر. وكان باستطاعتنا أن نصطاد في داخلها قطع لحم العجل [. . .]. وكانت الصلصة مُملَّحةً أكثر من اللازم، ولا بدّ أنّ صلصة البقريّة الليِّنة هذه قد استوجبت أربع ليتراتٍ من الماء لتُغرَقَ فيها» («Ah! Tonnerre! Quel trou dans la blanquette! [...] Le saladier se creusait, une cuiller plantée dans la sauce épaisse, une bonne sauce jaune qui tremblait comme une gelée. Là-dedans, on pêchait les morceaux de veau [...]. La sauce était un peu trop salée, il fallut quatre litres pour noyer cette bougresse de blanquette»)، فأنا أقترحُ «على سبيل المُزاح» طبعاً أن نستخرج منه تشاكلاً دلاليّاً (تضمينيّاً) عن / صيد السمك/ حيثُ يمكننا أن نُدرج فعل «اصطاد» («pêcher») بالتأكيد، فضلاً عن النعت «مُملَّحة» («salée»)، ولِمَ لا نُدرج كذلك مصطلح «المِغرَفة» («cuiller»). وأخيراً، عندما أقع على هذه الجملة لماك أورلان (Mac Orlan)، ألا وهي: «كانت تُحرِّكُ الجمر بواسطة المِسعار» («elle tisonnait avec un ringard»)، لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير بالمعنى المُعاصر لمُصطلح «مِسعار[*]» («ringard») هذا، مع أنّني على يقينٍ أنّه لا يصلحُ في هذا الصدد، فثمّة العديد من الدلالات أو القِيَم المُرتجلة تأتي لتُضاف أثناء المسار التأويليّ إلى تلك التي نعتبرها مقبولةً من قِبَل المتكلِّم. ولا ننجح دائماً في طردها، وحتّى قد يحلو لنا أحياناً أن نقوّيَها ونعزّزها. إلاّ أنّنا نمنحها وضعاً مُختلفاً، وهو وضع القِيَم المُضافة التي من شأنها أن تُرفرف على نحوٍ لَعبيٍّ حول القول. ولكن لا يسعنا أن نعتبرها جديّاً بمثابة القِيَم المكوِّنة لدلاليّته، بما أنّنا لا نأخذ على محمل الجدّ سوى وحدات المحتوى التي يسعنا أن نفترض أنّ المتكلِّم يقصدها أو يقبل بها.

وبناءً عليه، نستنتج ما يلي:

- ليس معنى القول شيئاً موجوداً في القول من حيثُ الأصل، ولا حتّى إنّه

(*) وهو آلة لقياس كميّة الحرارة التي تتولّد من جسمٍ ما أو تلك التي يتلقّاها.

معنى أودعه المتكلِّم فيه فعلاً، بل إنَّه ما يُخيَّل إلى المُحاوِر أنَّ المتكلِّم رمى إليه في هذا القول أو من خلاله.

- لا تُشكِّلُ نيّة المتكلّم الدالّة معنى القول، وحتّى إنّها لا تندرجُ أصلاً في عداد مقوِّمات هذا المعنى، بل إنَّ المعنى هو كلُّ ما يستخرجه المُحاوِر من القول انطلاقاً من الدالّ وبفضلِ مجموعة كفاءاته الخاصّة، وذلك على قاعدة ما يَفترِضُ أنّه يُشكِّل كفاءات المتكلِّم ونيّته الدالّة.

ولكن لا تتعدّى المسألة في هذا الصدد كونها مسألة حسابٍ وحسبانٍ، ومن الجائز طبعاً أن تكون مغلوطةً، فعلى سبيل المثال، لا يكون من اليسير دائماً أن نُحدِّدَ ما إذا كانت إحدى القِيَم المُدركَة مقصودةً أم لا من قِبَل المُتكلِّم(53)، وما إذا كان ينبغي أن نعتبرَ ممارسةً لغويّةً منحرفةً ما بمثابة الابتكار الواعي أم الرعونة اللاّإراديّة(54). وغالباً ما يختلف المعنى المُستخرَج لدى فكّ الترميز اختلافاً ملموساً عن المعنى المقصود لدى الترميز. وسنختمُ الحديث عن عمليّات فكّ الترميز بظواهر اللاّتساوق التواصليّ هذه. ولكنّنا نودُّ أن نُشدِّد مُسبقاً على واقع أنّه ينبغي أن نخصِّصَ في النموذج التأويليّ مكاناً معيَّناً بِـ «نيّة المؤلِّف الدالّة» التي لسنا واثقين تماماً إن كانت «تعنيه وحده»(55). وسنؤكِّدُ مجدَّداً أنَّ ما «نفهمه» من

---

(53) فمثلاً، هل يتعمَّد الشعار الذي يدعو إلى الالتحاق بصفوف تجمّع طلّاب كاثوليكيّين ما، ومفاده: «أمَلُكَ مبتغانا» («Votre espérance nous intéresse») أن يُعيد إلى ذاكرتنا العبارة الصَلِفة جهراً ومفادها: «مالُكَ مبتغاي»؟ («Votre argent m'intéresse»?).

(54) خصوصاً وأنّ الاختيار بين هاتَين الإمكانيتَين التأويليتَين غالباً ما يرتكز على «سلطة» («auctoritas») المتكلّم وحدها. ويؤكّد كانتيليان ذلك بوضوح إذ إنّ كاتباً جديراً بهذا اللّقب لا يرتكبُ «خطأً» لغويّاً إلاّ بمعرفةٍ، ويُردف قائلاً ما يلي: «ولكن، فبغية استعراض تبحُّرهم، ثمّة أساتذةٌ معتادون على اقتباس أمثلتهم عن الشّعراء وعلى إساءة الظنّ بالمؤلّفين الذين يوردون قراءةً مشروحة لها. والحال أنّه يتعيّن على الولد أن يعلم أنّ هذه الأخطاء التي نقع عليها لدى كُتّاب الشعر، هي أخطاءٌ غير مميتةٍ بل وحتّى إنّها حميدةٌ»، مثلٌ مأخوذٌ من: Quintilian, *Institution oratoire*, collection des universités de France, texte établi et traduit par Jean Cousin (Paris: Société d'édition les belles lettres, 1975-1980), I, 5, pp. 89-90.

بيد أنّ ما كتبه كريستيان غيوديسيلّي (Christian Giudicelli) عن كتاب **الزوبعة الجامدة** (*Un Orage immobile*) للمؤلّفة فرانسواز ساغان (Françoise Sagan) (وهي بالفعل كاتبة «نثر») يبدو أكثر إبهاماً، حيثُ يقول ما يلي: «هذا الكتاب هو روايةٌ أدبيّةٌ تُزهر فيها صِيَغ نصب الفعل الاستمراريّة بمعيّة الجُمَل الأخلاقية والأخطاء اللّغوية الفرنسية البديعة» (مثلٌ مأخوذٌ من مجلّة (*Lire*, no. 92 (avril 1983), p. 32.

(55) يقول ميشال ليريس (Michel Leiris) في جدول معرض فرانسيس بيكون (Francis Bacon) (في *Francis Bacon: Paris, Galeries nationales du Grand Palais, 26 octobre 1971-10 janvier 1972, =Düsseldorf, Kunsthalle, 7 mars-7 mai 1972*, exposition organisée par le Centre national d'art

قولٍ معيَّنٍ هو ما يُخيَّل إلينا عموماً، خطأً أو صواباً، أنَّ المتكلِّم قصد إفهامه، كما يظهر ذلك في المثل الآتي: «إنَّ شعري كثيفٌ وسلسٌ وموجعٌ، إنَّه كتلةٌ نحاسيّةٌ تصل إلى مستوى خصري. وغالباً ما يُقال لي إنَّ شعري هو أجمل ما فيَّ، وأنا أفهمُ ذلك باعتباره يعني أنَّني لستُ جميلةً»[56] («Mes cheveux sont lourds, souples, douloureux, une masse cuivrée qui m'arrive aux reins. On dit souvent que c'est ce que j'ai de plus beau et moi j'entends que ça signifie que je ne suis pas belle») - في هذا المثل تأويل مازوشيّ مبالغٌ فيه طبعاً، إلاّ أنَّ المحاوِر يعيشه باعتباره صحيحاً و«مُطابقاً» (لمشروع المتكلِّم الدلاليّ).

وفي الختام، إنْ كان المُحاوِر يكوِّن استعادِيّاً، أثناء فكّ الترميز، بعض الفرضيّات حول عمل المتكلِّم الترميزيّ، فإنَّ هذا الأخير يكوِّن استباقيّاً، لدى الترميز، بعض الفرضيّات حول عمل فكّ الترميز الذي يقوم به المُحاوِر (ويؤكِّدُ فلاهولت[57] ما يلي: «أن نتكلَّم يعني أن نستبقَ الحساب التأويليّ الذي سيقوم به المُحاوِر»). ممّا يُبيِّنُ كم هي جدليةٌ العلاقات القائمة بين عمليّات الإنتاج والتأويل؛ وإلى أيّ مدى يُعدُّ المعنى غَرَضاً يتفاوض عليه معاً مختلف الشركاء في التبادل الذين يؤلِّفون سويةً أثناء سير التفاعل نوعاً من «كفاءةٍ مثاليّةٍ» من شأنها أن تُبطل جزئيّاً مفعول الاختلافات التي تطبع بادئ الأمر لغاتهم الفرديّة الخاصّة[58].

= contemporain... en collaboration avec la Kunsthalle de Düsseldorf...:[préface par Michel Leiris] (Paris: Centre national d'art contemporain, 1971))، ما يلي: «لا يهمّ من أيّ جانب عالج بيكون الموضوع ومهما كانت النيّة التي يُبيّتها (الأمر الذي يخصّه وحده) فالنتيجة واحدة، ومفادها: إنّه يُصوِّرُ، على نحوٍ مُهلِس، كائناً بشريّاً ينتمي إلى الغرب المعاصر في عزلته التامّة.

(56) مثلٌ مُقتبسٌ عن: Marguerite Duras, *L'Amant* (Paris: Editions de Minuit, 1984), p. 24.

(57) François Flahault, «Le Fonctionnement de la parole: Remarques à partir des maximes de Grice,» *Communications*, no. 30 (1979), p. 77.

(58) أمّاووندرليش، فيتحدّث عن «الكفاءة التحويليّة» قائلاً: «ثمّة نوعٌ من كفاءة تحويليّة تُشكّل جزءاً لا يتجزّأ من الكفاءة الألسنية اللّغوية، وهي تتجلّى في القدرة على إعادة تنظيم قواعد لغوية مُستبطنة أصلاً، وفي تعديل قواعد موجودةٍ تُعنى بإنتاج الجُمَل وبالإدراك الألسنيّ اللّغويّ، فضلاً عن التسليم بعناصر جديدةٍ في المعجم، إلى آخره. ويحصل ذلك في كلّ مرّةٍ يتقبّل فيها المُستمع الكفاءة الألسنيّة اللّغوية المُختلفة التي يتحلّى بها أحد شركائه في التواصل، ويحاول استيعابها» (Dieter Wunderlich, «Pragmatique, situation d'énonciation et deixis,» *Langages*, no. 26 (1972)).

وراجع في هذا الصدد كذلك كوليولي (Culioli) الذي يؤكّد ما يلي: «يرتكز التواصل على الضبط الناجح والمرغوب فيه بدرجاتٍ متفاوتةٍ لأنظمة الكشف التي يعتمدها كلا القائلَين» (Antoine Culioli, «Sur quelques contradictions en linguistique,» *Communications*, no. 20 (1973), p. 87). =

4. حالات اللاتساوق بين الترميز/ وفكّ الترميز

يبطلُ مفعول هذه الاختلافات جزئيّاً ليس إلاّ.

فسرعان ما نُسلِّم بتعدُّديّةِ كفاءات المتكلِّمين وبتنوُّع هذه الكفاءات من شخصٍ إلى آخر، حتّى نفهم أنَّ مختلف الحسابات التأويليّة التي يقوم بها المُحاوِرون على اختلافهم قد تتضارب تضارباً ملموساً في ما بينهم من جهةٍ، ومقارنةً بنيَّة المتكلِّم الدالَّة من جهةٍ أخرى. وعليه، نتحدَّث في حالة تضارب المعنى الأوَّل (م) الذي يقصده المتكلِّم والمعنى الأوّليّ (م') الذي يستخرجه المُحاوِر عن لاتساوقٍ بين الترميز و/ أو فكّ الترميز تكون مسؤولةً عنه بادئ ذي بدءٍ الاختلافات في الكفاءات بين المتكلِّم والمُحاوِر(59).

الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة: يؤكِّد فلاهولت أنّه غالباً ما يتنبَّهُ شخصان يتكلّمان اللّغة نفسها إلى أنَّهما لا يُسندان إلى الدالّ نفسه مدلولاً واحداً أحداً»، فيُقال على سبيل المثال: «بالنسبة إليّ، لا تقتصر العنصرية على هذا المعنى، بل إنَّها تعني

= وراجـــع أيـــضـــاً كـــارول (Michel Charolles, «En réalité et en fin de compte et la résolution des oppositions.» *Travaux du centre de recherches sémiologiques de l'université de Neuchâtel*, no. 47 (1984)).

الذي يضرب بعض الأمثلة عن الطريقة التي ينشأ بموجبها بين المخاطبين عقد ثقةٍ ما وطريقة عمله (حتّى إنّ كارول يستعمل مُصطلح «تطابق مع الآخر» («empathie»)). ناهيك بجاك (Francis Jacques, *Dialogiques: Recherches logiques sur le dialogue*, philosophie d'aujourd'hui (Paris: Presses universitaires de France, 1979)),

الذي يُنوّه بما يلي: «من ضمن كفاءة المتكلّم (أ) أن يكون هذا الأخير قادراً على إصدار بعض الفرضيات والتخمينات بشأن المعنى الذي ترمي إليه الكلمات بالنسبة إلى شريكه. وكذلك، فمن ضمن كفاءة المخاطب (ب) أن يُصدر مثل هذه التخمينات في ما يتعلّق بدلالة الكلمات بالنسبة إلى المتكلّم».

(59) وبالتأكيد، تشكو التطوّرات التعاقبية التطوّرية بدورها من هذه الاختلافات. وهكذا، يروي ليفي ستراوس (في مجلة: (*Lire*, no. 93 (mai 1983), p. 108)، ما يلي: «ذات يومٍ، وقعتُ صدفةً أثناء مطالعتي على جملةٍ مُقتبسةٍ عن ماسييون (Massillon)، ومفادها: «إنْ تأمّلنا في العالمَ عن كثبٍ، نجد أنّه لا يتكاتف لمواجهة نفسه. ولكنّه على المدى البعيد يدفع ثمن تخاذله عن القيام بذلك» («Le monde vu de près ne se soutient pas contre lui-même. Mais en éloignement, il en impose»). لقد صدمتني هذه الجملة كثيراً، وقلتُ لنفسي بأنّها تصلح كشعارٍ لفقهاء اللّغة. وبما أنّني رجلٌ مدقّقٌ، فقد بذلتُ قصارى جهدي [. . .] لمعرفة المرجع الدّقيق الذي ورد في سياقه هذا الكلام المنسوب إلى ماسييون. والحال أنّني أدركتُ فور وقوعي على النصّ، أنّ ماسييون كان يقصد تماماً عكس ما كنتُ أنسبه إليه من أقوالٍ، ففي القرن السابع عشر، كان فعل «دفعَ ثمن» («en imposer») يعني أوهمَ وخدعَ وكذبَ، فكدتُ أن أُسيءِ إلى ذكرى ماسييون لو قمتُ باستعمال جملته باعتبارها فكرة كتابي. ولكنّني مع ذلك لم أقوَ على نزع فكرة «التطلّع إلى المدى البعيد» («regard éloigné») من خيالي».

أيضاً أمراً آخر» («Pour moi, le racisme, c'est non seulement ceci, mais aussi cela»)، و«يؤسفني أن أقول لك أنّه لا يمكنك أن تتحدّث عن العنصرية في الحالة التي نحن بصددها، بمستطاعك أن تُسمّي هذا الأمر ما شِئتَ ما عدا عنصريّة!» إلى آخره»[60] («Je regrette, on ne peut pas parler de racisme dans ce cas-là, appelez ça comme vous voudrez, mais pas racisme!»). وبالتالي، يُشكِّلُ معنى الكلمات رأس الحربة في النزاع الكلاميّ، وتتضارب آراء المخاطبين في ما يتعلّق بالمفهوم الذي ينبغي إسناده إلى الدالّ «عنصرية» («racisme») أو «يهوديّ» («juif»)، كما يظهر ذلك في المثل الآتي:

كان يُجيبُ بحميّةٍ على كلّ ما كنتُ أقوله له أو أسأله إيّاه، قائلاً:

«كلّا، أنا لا أقوم أبداً بأمرٍ مماثلٍ، فهذا 'يهوديّ'».

أنا: «ماذا تعني بقولك إنَّ هذا 'يهوديّ'؟»

هو: «أعني أنَّه ليس أمراً جيّداً، وبالتالي لا يجدر بنا القيام به».

أنا: ولكن كلّا، إنَّ كلمة «يهوديّ» تعني شعباً وديانةً.

هو: قطعاً لا، فإنَّ كلمة «يهوديّ» تدلّ على ما يكون عكس التيّار، إذ عندما نقول كلمة «يهوديّ» نرمي من ورائها إلى قول إنَّ الأمر هو بخلاف ما ينبغي أن يكون عليه».

أنا: «ولكن، هناك لغةٌ يهوديّةٌ».

هو: «أتقول لغة يهوديّة؟ كلّا! كلّا!»

أنا: «بلى، ويُطلق عليها اسم اللّغة العبريّة».

هو: «كلا، أن نكتب اللّغة العبريّة يعني أن نكتب اللّغة العربيّة بالمقلوب؛ أي بكلامٍ آخر، أن نكتبَ الكتابة نفسها ولكن في الاتّجاه المُعاكس».

فتوقّفتُ عن الكلام.

«اسمع يا علي، أنا أحدِّثك بمعرفةٍ، فأنا نفسي يهوديٌّ».

---

(60) François Flahault, *La Parole intermédiaire*, psychologie, préf. de Roland Barthes (Paris: Editions du Seuil, 1978), p. 72.

وأجابني من دون أن يضطربَ، وهو يُحرِّك رأسه متساهلاً، ويرسم شبه ابتسامةٍ على وجهه، قائلاً:

«ولكن لا يمكنك أن تكون يهوديّاً، فأنتَ إنسانٌ جيِّدٌ! أمّا كلمة يهوديّ فتُستعمل للدلالة على ما لا يكون جيِّداً!»

كان من الممكن أن يطول أمد هذه المحادثة لساعاتٍ وساعاتٍ، فقد اصطدمَتْ بحائطٍ مسدودٍ جديدٍ...(61).

(«A quelque chose sur que je lui dis ou lui demande, il répond vivement: «Non, je ne fais jamais ça, c'est 'juif'».

Moi: «Comment ça c'est 'juif'?»

Lui: «Ca veut dire: c'est pas bien, il faut pas le faire».

Moi: «Mais non, 'juif', c'est un peuple, une religion».

Lui: «Non, non. 'Juif', c'est l'envers des autres. On dit 'juif' pour dire que c'est pas comme il le faut».

Moi: «Mais il y a une langue juive».

Lui: «Une langue juive? Non! Non!»

Moi: «Si, elle s'appelle l'hébreu».

Lui: «Non, écrire 'juif', c'est écrire l'arabe à l'envers. C'est écrire pareil, mais dans l'autre sens».

Je m'arrête.

«Écoute, Ali, je sais ce que je dis, je suis juif moi-même».

Et lui sans se démonter, avec un hochement de tête indulgent et presque une ébauche de sourire:

«Mais tu peux pas être juif. Toi tu es bien. Juif, ça veut dire quand c'est pas bien».

«Ca aurait pu durer des heures. Nouvelle impasse...»).

ولكن، يُعزى سبب النزاع في أغلب الأحيان إلى الاختلاف في تحليل المرجع الخطابيّ؛ ويُسنَد بالتالي إلى الكفاءة الموسوعيّة. وثمّة توافقٌ إجمالاً حول دلالة «العنصريّة» («racisme»)، وشقاقٌ حول خصائص الغرض التعيينيّ التي بموجبها تُعتبر هذه الكلمة مناسبةً أم لا، فقوام أيّ فعلٍ مُستعملٍ للتسمية أن نربطَ كلمةً ما بشيءٍ معيَّنٍ؛ أي بكلام آخر، أن نُسنِد دالاً، على قاعدة السيمات التي تؤلِّف مدلوله، إلى غرضٍ تعيينيّ، مرتكزين على الخصائص التي تميِّزه والتي من

(61) مثلٌ مُقتبسٌ عن: Robert Linhart, *L'Etabli*, documents (Paris: Editions de Minuit, 1978), pp. 149-150.

شأنها أن تجعل هذا الغرض[62] «يقع تحت مظلّة المعنى» أم لا؛ أي أخيراً، وبتعبيرٍ آخر، أن نُطابقَ مجموعةً سيميّة مع مجموعة خصائصَ شيئيّةٍ. وبالتالي، فمن المهمّ، في حالة النزاع حول التسمية، أن نسعى إلى تعيين موضع هذا النزاع وتحديد إلى أيّ مستوى من المستويَن الدلاليّ والمرجعيّ اللَّذَين يكمن قوام النشاط الكلاميّ في مطابقتهما، ينتمي هذا النزاع، وذلك لمعرفة إنْ كان ينتمي إلى الأوَّل أو الثاني أو إلى كليهما.

وقد تعود التفاوتات التأويليّة في نهاية المطاف إلى الاختلافات في الكفاءة البلاغيّة التداوليّة التواصليّة وحتّى المنطقيّة. وتطال هذه التفاوتات وحدات المحتوى بمختلف أنواعها، ولكنَّ تأثيرها يكون بلا ريبٍ أشدّ وأمضى في المحتويات المُضمَرة وفي عمليّة إنشاء الاستدلالات، كما يظهر ذلك في المثلَين الآتيين:

المثل الأوَّل: المتكلِّم (وهي نادلةٌ في أحد المطاعم النيويوركيّة): أترغبين في شرب المزيد من القهوة؟

المخاطب الأوَّل (وهي سيِّدةٌ عابرةُ سبيلٍ من الجنسيّة الفرنسيّة): إنَّها خفيفةٌ!

المخاطب الثاني (وهي سيِّدةٌ تُنادِمُ المخاطب الأوَّل وتُترجِمُ لأجل المتكلِّم): كلا، لا ترغب في شرب المزيد منها، فهي تجدها خفيفةً.

(«L_1 (serveuse dans un restaurant new-yorkais). - Vous voulez encore du café?

L_2 (Française de passage). - Il est léger!

L_3 (commensale de L_2, traduisant à l'intention de L_1). - Elle n'en veut plus car elle le trouve trop léger»).

والحال أنَّ المخاطب الأوَّل كان يقصد اقتراح الاستدلال المعاكِس تماماً، ألا وهو: «أرغب في المزيد من القهوة لأنَّها خفيفةٌ في هذا المطعم ولا خطر أن تُسبِّب لي الأرق» («J'en re-veux bien car ici le café est si léger qu'il ne risque pas d'empêcher de dormir»).

(62) قد يكون هذا «الشيء» موجوداً أم لا في العالم المرجعيّ «ع»، فبرأينا، تملك كلّ الكلمات مرجعاً، ولكن يكون وضعه متغيّراً بالنسبة إلى العالم المرجعيّ «ع».

المثل الثاني: المتكلّم (لدى الخروج من حفلة كوكتيل): هل لديكِ وسيلة نقلٍ؟

المخاطب: نعم، شكراً!

(«L_1 (à la sortie d'un cocktail). - Vous êtes motorisée?

L_2. - Oui merci!»)

- يتوارى في الواقع التماسٌ، وليس عَرضٌ، خلف السؤال الذي يطرحه المتكلّم في هذا المثل..، فكما سبق ورأينا، تفتحُ المضمّنات باباً لسوء التفاهم.

إليكم أيضاً الفقرتَين التاليتَين المُقتبستَين على التوالي عن ماريفو وبروست، ويكمن القاسم المُشترك بينهما في أنّهما تُنشئان سوء تفاهم خطابيٍّ يطرحُ تساؤلاتٍ حول طريقة عمل قانون خطابٍ ما يقضي بوجوبٍ أن نُكافِئَ قدر المستطاع الاعتذار مع الإهانة التي يُفترِضُ أن «يمسحها»، وأن نُناسِب الشكر مع الهدية التي تُقدَّم إلينا. ويُطلق براون وليفنسون على هذا القانون اسم «مبدأ التوازن» («balance principle»)، وهما يؤكّدان ما يلي: «في حال وقوع مخالفةٍ تنتهكُ وجه الآخر، فهي تُشكِّلُ نوعاً من دَيْنٍ ينبغي التعويض عنه بواسطة التدارك الإيجابيّ، هذا إذا كنّا نحرص على المحافظة على القدر الأصليّ من احترام ماء الوجه، فعلى التكفير أن يكون متكافِئاً مع المخالفة وأن يُسَدَّدَ بدرجةٍ تتناسب وإيّاها»[63]، ألا وهما:

إليكم أوّلاً الفقرة الأولى المأخوذة عن ماريفو، ألا وهي:

سيّد أورغون: سيّدي العزيز، أعتذر منك ألف عذرٍ، لأنّني جعلتك تنتظر، ولكنّني علمتُ للتوّ بأنّك هنا.

أرلوكين: سيّدي، ألا تجد أنَّ ألف اعتذارٍ هي أكثر ممّا ينبغي؛ فحين يرتكبُ المرء خطأً واحداً، يفي اعتذارٌ واحدٌ بالمطلوب. ثمَّ إنَّ كلّ اعتذاراتي هي رهن بَنانِك[64].

---

(63) Penelope Brown et Stephen Levinson, «Universals in Language Usage: Politeness Phenomena,» in: Esther N. Goody, ed., *Questions and Politeness: Strategies in Social Interaction*, Cambridge Papers in Social Anthropology; 8 (Cambridge, MA; New York: Cambridge University Press, 1978), p. 241.

(64) مثلٌ مُقتبسٌ عن المشهد العاشر من الفصل الأوّل من مسرحيّة ماريفو: *Le Jeu de l'amour et du hasard*.

(MONSIEUR ORGON. - Mon cher monsieur, je vous demande mille pardons de vous avoir fait attendre; mais ce n'est que de cet instant que j'apprends que vous êtes ici.

ARLEQUIN. - Monsieur, milles pardons! C'est beaucoup trop; et il n'en faut qu'un, quand on n'a fait qu'une faute. Au surplus, tous mes pardons sont à votre service).

ثمَّ، إليكم الفقرة الثانية المُقتبسة عن بروست، ألا وهي:

«آه سيِّدي» قلتُ للسيِّد نوربوا، حين أعلن لي أنّه سيُبلغ جيلبيرت ووالدته عن مدى إعجابي بهما، فإن فعلتَ ذلك، وحدَّثتَ السيِّدة سوان عنِّي، فلن يكفيني العمر لأعبِّر لك عن امتناني، وسأدين لك بحياتي! ولكنَّني حريصٌ على لفت انتباهك إلى أنّني لا أعرف السيِّدة سوان، ولم يسبق لأحد أن عرَّفني بها.

كنتُ قد أضفتُ كلماتي الأخيرة هذه توخياً للدقَّة، وحرصاً منِّي ألاّ أبدو وكأنَّني أتباهى بعلاقةٍ لا أملكها، إلاّ أنَّني شعرتُ وأنا أنطق بهذه الكلمات بأنّها باتت أصلاً نافلةً، إذ منذ بداية شكري الذي كنتُ أُعرِبُ عنه بحماسةٍ، رأيتُ تعابير التردُّد والاستياء ترتسم على معالم وجه السفير [...]. وسرعان ما أدركتُ أنَّ هذه الجُمل التي تلفظّتُ بها والتي بدت لي، على الرُّغم من أنّها لم تكن تُعبِّر بما فيه الكفاية عن دفق عرفان الجميل الذي كان جيَّاشاً في صدري، وكأنَّها أثَّرت في السيِّد نوربوا ودفعته إلى حسم قراره في عدم التوسُّط، مع أنَّ ذلك كان سيُكبِّده القليل من المشقَّة، وكان ليمدّني بفيضٍ من الغبطة. وما من شيءٍ كان على الأرجح (من بين كلّ الجُمَل الجُهنَّميّة التي كان ليُنقِّبَ عنها بخبثٍ الأشخاص الذين يُضمرون لي الأذى) ليجعله يصرفُ النظر عن التوسُّط لي أكثر من هذه العبارة الأخيرة التي تلفَّظتُ بها. وفي الواقع، لقد تبادر بلا أدنى ريبٍ إلى ذهن السيِّد نوربوا الذي كان يعرف أنَّ ما من شيءٍ كان أبخسَ أو أيسرَ من التزكية بأحدٍ أمام السيِّدة سوان وإدخاله إلى حضرتها، وهو يسمع هذه الجُملة، وبعد أن لمسَ أهميّة هذه المسألة بالنسبة إليّ، أي صعوبتها القسوى بنظري، أنَّ هذه الرغبة الطبيعيّة ظاهريّاً التي أعربتُ عنها، تُخفي وراءها نيَّةً مختلفةً ذات منحى مريبٍ نوعاً ما، على غرار أن أكون قد اقترفتُ خطأً ما في السابق، وأنَّني بسببه واثقٌ تمام الثقة بأنَّني لن أروق للسيِّدة سوان، وبالتالي أنَّ أحداً لم يشأ أن يتكفَّل بمهمَّة نقل تحيّاتي إليها. وقد أيقنتُ أنّه لن يقوم بهذه المهمَّة مُطلقاً، فعلى الرُّغم من قدرته على رؤية السيِّدة سوان يوميّاً ولسنوات

طويلة، إلاّ أنّه لم يأتِ على ذكري أمامها ولو لمرةٍ واحدةٍ[65].

(««Oh! Monsieur», dis-je à M. de Norpois, quand il m'annonça qu'il ferait part à Gilberte et à sa mère de l'admiration que j'avais pour elles, si vous faisiez cela, si vous parliez de moi à M^me^ Swann, ce ne serait pas assez de toute ma vie pour vous faire témoigner ma gratitude, et cette vie vous appartiendrait! Mais je tiens à vous faire remarquer que je ne connais pas M^me^ Swann et que je ne lui ai jamais été présenté.

J'avais ajouté ces derniers mots par scrupule et pour ne pas avoir l'air de m'être vanté d'une relation que je n'avais pas. Mais en les prononçant, je sentais qu'ils étaient déjà devenus inutiles, car dès le début de mon remerciement, d'une ardeur réfrigérante, j'avais vu passer sur le visage de l'Ambassadeur, une expression d'hésitation et de mécontentement [...]. Je me rendis compte aussitôt que ces phrases que j'avais prononcées et qui, faibles encore auprès de l'effusion reconnaissante dont j'étais envahi, m'avaient paru devoir toucher M. de Norpois et achever de le décider à une intervention qui lui eût donné si peu de peine, et à moi tant de joie, étaient peut-être (entre toutes celles qu'eussent pu chercher diaboliquement des personnes qui m'eussent voulu du mal) les seules qui puissent avoir pour résultat de l'y faire renoncer. En les entendant en effet [...], M. de Norpois, qui savait que rien n'était moins précieux ni plus aisé que d'être recommandé à M^me^ Swann et introduit chez elle, et qui vit que pour moi, au contraire, cela présentait un tel prix, par conséquent, sans doute, une grande difficulté, pensa que le désir, normal en apparence, que j'avais exprimé, devait dissimuler quelque pensée différente, quelque visée suspecte, quelque faute antérieure, à cause de quoi, dans la certitude de déplaire à M^me^ Swann, personne n'avait jusqu'ici voulu se charger de lui transmettre une commission de ma part. Et je compris que cette commission, il ne la ferait jamais, qu'il pourrait voir M^me^ Swann quotidiennement pendant des années, sans pour cela lui parler une fois de moi»).

«سيِّدي، ألا تجد أنَّ ألف اعتذارٍ هي أكثر ممّا ينبغي؛ فحين يرتكبُ المرء خطأً واحداً، يفي اعتذارٌ واحدٌ بالمطلوب» («Monsieur, mille pardons, c'est beaucoup trop; et il n'en faut qu'un, quand on n'a fait qu'une faute»)، ونجد أنَّ هذا الردّ الذي وردَ على لسان أرلوكان ينطوي، من جملة أمورٍ عديدةٍ، على نوع من تعليقٍ ألسنيٍّ لغويٍّ انعكاسيٍّ إنكاريٍّ في معرض الردّ على الصيغة التي يُدلّي بها أورغون، بحيثُ إنَّ تقديم «ألف اعتذارٍ» يعني المبالغة بتقديم

(65) مُقتطفٌ من رواية **في كنف الشّابات في ريعان الشباب** (*A l'ombre des jeunes filles en fleurs*)، الذي استشهد به ديكومب وشرحه في: Vincent Descombes, «La Révélation de l'abîme,» *Degrés*, vol. 9, nos. 26-27 (1981).

الاعتذارات، أي مخالفة العبارة الصائبة واقتراف خطيئة ارتكاب الغلوّ (وهكذا، آخذاً المحسن البيانيّ بمعناه الحرفيّ، في حين أنّه مُمَعجماً بالنسبة إلى أورغون، يفضح أرلوكين الدجل الذي يُنشئه هذا المحسن البيانيّ من وجهة نظره). ويعني ذلك أيضاً في الوقت نفسه انتهاك «مبدأ التوازن» الذي يخضع له أرلوكان بلا تحفُّظٍ، حتّى إنّه لا يتهاون مُطلقاً في تطبيقه وكأنّه عمليّةٍ حسابيّةٌ، بينما يؤثِر أورغون إلحاقه بمبادئ أخرى تحتلّ تراتبيّاً مرتبةً أعلى شأناً منه. وعليه، لا يتعلّق النزاع التواصليّ في هذا الصدد بخلافٍ أيّاً يكن بشأن فداحة الإهانة المُرتكَبة، إنَّما يتعلَّق بتصوُّرَين مختلفَين لقوانين الخطاب وتراتبيّتها - أي بكلام آخر، بواقع أنَّ بطلَي الرواية لا يشتركان بالكفاءة البلاغيّة التداوليّة التواصليّةً نفسها، إذ، باعتبار أنَّ أورغون هو رجلُ مجتمع، فيستتبع ضمناً النظام التحادثيّ الذي يعتمدُه جعلَ الصيغ التصويبيّة تتَّسِم بالغلوّ (وبالعكس، فإنّه يعمدُ إلى جعل الصِيغ ذات الوظيفة الهجوميّة إغراقيّةً). في حين أنَّ أرلوكان مولعٌ، لأنّه رجلٌ من عامّة الشعب، بالكلام «المباشر» وهو عدوّ المحسن البيانيّ، كما أنّه من أنصار تطبيق قاعدتَي الكمّ والكيف بحذافيرهما. وبما أنّهما لا يشتركان بالكفاءة البلاغيّة التداوليّة التواصليّة نفسها، فلا عجب أن يتضاربَ تأويلهما للتصرُّفات الخطابيّة الخاصّة بكلٍّ منهما. وهكذا، فبينما يجد أورغون نفسه مؤدَّباً للغاية، يعتبره أرلوكان مؤدَّباً على نحوٍ مبالغٍ فيه، علماً بأنَّ هذا الأخير يخالُ أنّه يؤدّي الدور المُسند إليه على أكمل وجهٍ (فهو يمنح الصفح، ويُقلِّص بالتالي الخطأ)، في حين أنّه يظهر بمظهر الوغد بنظر أورغون (بحيثُ إنّه يُسجِّل عليه الخطأ ويعترضُ على تصرُّفه التعبيريّ الأدائيّ). وبالتالي، حتّى ولو تمّ الحفاظ على مظاهر النشاط الاجتماعيّ بشكلٍ منظَّمٍ كليّاً، إلاّ أنَّ سوء التفاهم يستقرُّ في صميم طريقة عمل الآلة التحادثيّة.

ولكن في المقابل، إنَّ راوي كتاب **البحث** (*Recherche*) في وادٍ والسيِّد نوربوا في وادٍ آخر، والهوَّة التي تفصِلُ بينهما هي «هوّةٌ مرضيّةٌ» تُحفَر فجأةً أمام ناظرَي مارسيل بروست المذهول. ويكتسبُ سوء التفاهم بينهما طبيعةً مختلفةً تماماً، ولا يُعزى سببه إلى الكفاءة البلاغيّة التداوليّة التواصليّة الخاصَّة بكلٍّ منهما (إذ كلاهما يراعي «مبدأ التوازن»، وهنا أصل البلاء) بل إلى كفاءتيهما الموسوعيَّتَين، أي بكلام آخر، إلى الفكرة المتناقضة التي يكوِّنها كلٌّ منهما عن الخِدمة المُقدَّمة، فبالنسبة إلى الراوي، إنَّه معروفٌ وأيُّ معروفٍ أن يُزكّى المرء

ببساطةٍ أمام هاتَين الإلهتَين أوديت وجيلبيرت اللّتَين تصعب مقابلتهما. وبالتالي، فإنَّه لا يلجأ البتَّة إلى الغلوّ عندما يقول «إنْ فعلتَ ذلك، وحدَّثتَ السيِّدة سوان عنّي فلن يكفيني العمر لأعبِّر لك عن امتناني، وسأدين لك بحياتي!» («Si vous faisiez cela, si vous parliez de moi à M^me Swann, ce ne serait pas assez de toute ma vie pour vous faire témoigner ma gratitude, et cette vie vous appartiendrait!»)، إذ إنَّ مارسيل بروست يُطبِّقُ هنا «مبدأ التوازن» بصدقٍ، وحتّى إنَّ العبارة التي يُدلي بها لا تكفي بنظره (والدليل ما قاله: «وسرعان ما أدركتُ أنَّ هذه الجُمل التي تلفَّظتُ بها [. . .] على الرُّغم من أنَّها لم تكن تُعبِّر بما فيه الكفاية عن دفق عرفان الجميل الذي كان جيَّاشاً في صدري» («ces phrases que j'avais prononcées [...], faibles encore auprès de l'effusion reconnaissante dont j'étais envahi»)، لتُعبِّر عن ما كان يختلج في صدره من مشاعرَ حقيقيّةٍ. ولكن في المقابل، يظهر خطاب بروست بنظر نوربوا الذي كان يعلم أنَّ «ما من شيءٍ كان أبخسَ أو أيسرَ من التزكية بشخصٍ ما أمام السيِّدة ســــوان» («moins précieux ni plus aisé que d'être recommandé à M^me Swann»)، وكأنَّه يُشكِّلُ، جرّاء شططه الهيستيريّ، انتهاكاً فظيعاً لمبدأ التوازن. وعليه، فبغية استيعاب هذا الشذوذ الخطابيّ الفاضح، يُنجزُ نوربوا المسار التأويليّ المُخصَّص، بحسب غريس، لمثل هذه الظروف والذي يتجلّى على الشَّكل الآتي: يأبى المُحاوِر الاعتقاد أنَّ المتكلِّم مُصابٌ بمسٍّ من الجنون، لذا فهو يُنشئ على ضوء المعنى الحرفيّ الذي ينطوي عليه القول الذي يُدلي به هذا الأخير، استدلالاً، أي بكلام أخر فرضيّةً تسمح له بإعادة القول إلى نظام القواعد التحادثيّة ومبدأ التوازن. وبالتّالي فهو يُحدِّثُ نفسه قائلاً: إنْ كان المتكلِّم يُفرطُ في شكري مقابل أن أؤدّي له احتماليّاً خدمةً بخسة الثمن ظاهريّاً، فالمسألة تتعلَّق بلا أدنى شكٍّ بمعروفٍ أكبر بكثيرٍ ممّا قد يُخال إليَّ، فلربَّما أنَّه قد اقترف بحقّ السيِّدة سوان «خطأً ما في السابق» ـ وبالتالي، فمن رابع المستحيلات أن أؤدّي له هذه «الخدمة». إنَّه سوء تفاهم مُثيرٌ للشفقة بوجهٍ خاصٍّ، لأنَّ ما كان من شأنه بالأَوْلى أن يجعل قول المتكلِّم فعَّالاً بوجهٍ خاصٍّ، هو تحديداً ما يحكمُ عليه بالإخفاق. وهكذا، فإنَّ درجة صدق القول القصوى تجعله يبدو «مشبوهاً» بنظر المُحاوِر.

وأيّاً يكن على أيّ حالٍ مصدر مثل هذه الإخفاقات التواصليّة، فعديدةٌ هي

الأمثلة المُثبَتة عنها في النصوص الأدبيّة وكذلك في «الحياة العاديّة»، سواء في ما يتعلّق بالمحتويات البيّنة نفسها أو من بابٍ أوْلى بالاستدلالات وبطرق العمل البيانيّة التي تتّصفُ، في حال وُجِدت، بِـ«العويصة» (فمن وجهة نظر البلاغة القَروسطيّة، يُعدُّ المحسن البيانيّ «صعوبةً تجميليّةً» («difficultas ornata»))، ذلك أنّ تحديدها يفرضُ تحديد المعنى الحرفيّ، ثمّ تحديد المعنى المشتقّ، ناهيك بإمكانيّة ترتيبها بعكس ما يكون متوقّعاً طبيعيّاً. وتستتبع ضمناً هذه العمليّات على كثرتها اتّخاذ عددٍ معيّنٍ من القرارات التأويليّة التي لا تكون بديهيّةً دائماً. وعليه، فلا عجب أن تُشكِّل المحسنات البيانيّة أرضاً خصبةً لحالات اللُّبس وسوء التفاهم، فإمّا أن يأخذ المُحاوِر ببراءةٍ عبارةً ينبغي فهمها على الدرجة الثانية بمعناها الحرفيّ، أو على العكس، أن يؤوِّلَ بواسطة ردّة فعلٍ تنمُّ عن ريبةٍ في غير مكانها المناسب هذه المرّة قولاً على الدرجة الثانية في حين أنّه ينبغي فهمه على الدرجة الأولى. وهكذا مثلاً، فقد خلتُ لوقتٍ طويلٍ أنّ «الستار الحديديّ» («rideau de fer») موجودٌ «وجوداً فعليّاً»، قبل أن أكتشف أنّه لم يكن سوى استعارةٍ؛ وكوني تعلّمتُ من هذه التجربة المُذِلّة، فقد اعتبرتُ لاحقاً، حين سمعتُ عن «جدار برلين» («le mur de Berlin»)، أنّ هذه العبارة هي استعارةٌ ليس إلاّ. ولكنّني لن أُلدع من الجُحر مرّتَين! ويروي لنا غي بيدوس (Guy Bedos) إخفاقاً مُشابهاً في حادثٍ تهكُّميٍّ وقع هو شخصيّاً ضحيّته بصفته مُرسِلاً وليس متلقّياً للرسالة الكلاميّة، ألا وهو: «حدث ذلك منذ ثلاث سنواتٍ على مسرح بوبينو، في مشهدٍ مسرحيٍّ قصيرٍ بعنوان «مراكش» حيثُ كنتُ أتحدّث عن المغرب وكان عليّ أن أقول «حتّى الملك عربيّاً». وكان ذلك مجرّد تعبيرٍ ساخرٍ عن العنصريّة. ولكن سقطت منّي هذه العبارة سهواً على ما يبدو، فحين دنت منّي أوّل مرةٍ إحدى السيّدات لتهنّئني بحرارةٍ، وقالت لي: «ولكن علامَ يعتاش الجرذان الجبناء؟»، بقيتُ مُسمَّراً من شدّة الذهول، ولكن حين تكرّر هذا الأمر عشرين مرّةً فهمتُ المقصود، فحذارِ من الفكاهة على الدرجة الثانية!»[66] («Il y

---

(66) مثلٌ مُقتبسٌ عن مجلّة: Le Nouvel observateur (17 déc. 1973), p. 46.

وعلى نحوٍ مماثلٍ تماماً، يروي بيتر فليشمان (Peter Fleishmann) ما يلي: «عندما مثّلت في فيلم **مشاهد صيدٍ في بافيير** (*Scènes de chasse en Bavière*) المناهض للفاشيّة التي نُصادفها على الصعيد اليومي، التقيتُ بشخصٍ أثنى عليّ قائلاً: «أحسنتَ! لا فُضّ فوك، يجب سحق كلّ هؤلاء اللّواطيّين!» («Bravo, vous avez raison, il faut les écraser tous ces pédés!») هل فهمتم إذاً إلامَ أرمي...»، مثلٌ مُقتبسٌ عن مجلّة *Le Progrès Spectacles* (9 avril 1980), p. 1.

a trois ans à Bobino, dans un sketch intitulé 'Marrakech' je parlais du Maroc où 'même le roi est arabe'. Un truc de dérision sur le racisme, quoi. Et bien, j'ai dû le supprimer. Parce que lorsqu'une première fois une bonne dame vient vous féliciter chaudement 'Qu'est-ce que vous leur avez mis aux ratons!' Vous restez pétrifié; mais la vingtième fois, vous avez compris: attention à l'humour au second degré!»). وبخلاف الحالة السابقة تماماً، لقد سمعنا شخصاً (من أصلٍ أجنبيٍّ) يُعظِّمُ إحدى أغنيات ميشال ساردو (Michel Sardou) التي عمد إلى تأويلها على الدرجة الثانية باعتبارها مناهضةً للعنصريّة...

وإليكم المزيد من الأمثلة عن هذَين النمطَين المتناقضَين من المعنى المعكوس اللّذَين قد تُخلِّفهما المتتالية واللّذَين يتجلّيان على الشَّكل المُبيَّن أدناه:

1. تأويل المحسن البيانيّ تأويلاً غير بيانيٍّ (أي جعل معنى المحسن البيانيّ حرفيّاً، إذ قد «يُصدِّقُ المُحاوِر» ما لا يتعدّى كونه «طريقةً في التعبير»)[67]، كما في المثل الآتي:

المتكلِّم: هل ثمّة أناسٌ يعيشون على القمر؟

المخاطب: خمسون مليوناً.

المتكلِّم: وماذا يحلّ بهم في المُحاق؟[68].

(L_1. - Y a-t-il des habitants dans la lune?
L_2. - Cinquante millions.
L_1. - Et que deviennent-ils quand la lune décroît?).

وفي حالة الاستعارة: إليكم المثل الآتي:

«غرق شخصٌ بلجيكيٌّ. لماذا؟ لأنَّه كان يجلسُ على مقعدٍ رُسِمت عليه أسماكٌ» («Un belge s'est noyé. Il s'était assis sur un banc de poisson») - ففي

---

(67) يُطلق فريديريك بيرهيت (في مقالةٍ بعنوان: «Frédéric Berthet, «Eléments de conversation,» *Communications*, no. 30 (1979), p. 122) على هذا الموقف التأويليّ اسم «تناذُر مرض كوتار» («Syndrome Cottard»)، تيمّناً بإحدى شخصيات بروست والتي كانت تأخذ كلّ الأمور «بمعناها الحرفيّ»، أو بشكلٍ أدقّ «لم يكن الدكتور كوتار يعلم بشكلٍ حاسم النبرة التي ينبغي أن يردّ بها على شخصٍ ما، أي إنّه لم يكن يعلَم إن كان مخاطبه يمزح أو يتكلّم بجديّةٍ. ومهمّا حدثَ، كان يرسمُ علاوةً على كلّ تعابير سحنته ابتسامةً مشروطةً ومؤقتةً من شأن رقّتها أن تُبرّأه من تهمة السذاجة إذا اتّضح لاحقاً أنّ الحديث الموجَّه إليه كان فكِهاً».

(68) مثلٌ مُقتبسٌ عن لوبيتش (E. Lubitch) نينوتشكا (Ninochka).

النهاية صدقَ مَن قال «ليست الأمور بالألفاظ» (ويقول فونتانيي[69] ما يلي: «فالمعنى الروحاني، أكان ملتوياً أم مجازيّاً، إنّما هو المعنى الذي يولّده المعنى الحرفيّ في الذهن عبر ظروف الخطاب ونبرة الصوت أو عبر إيجاد تسلسلٍ ما يربط بين الأفكار المُعبَّر عنها وتلك غير المُعبَّر عنها [. . .]. ولا وجود له بالنسبة إلى الشخص الذي يأخذ الأمور بالألفاظ، أي بالنسبة إلى الشخص الذي يجهلُ «أنّ الأمور بالمقاصد وليست بالألفاظ»»).

في حالة المجاز المُرسَل[70]: وهذا مثل على ذلك:

(هذه المُناقشة خاصّة بالأدلاّء الذِواقيِّين)

المتكلِّم: وتحت النجوم، نجد الشُّوَك.

المخاطب الأوّل: ولكن كلاّ، ففي دليل ميشلان لا يتطابق عدد الشُّوَك مع نوعيّة الأطعمة بل مع عدد الأغطية.

المخاطب الثاني (مذهولاً): أتعني أنّ الشُّوَك ترمز إلى عدد الأغطية الموجودة على المائدة حول الصحن؟!؟

(«L_1. - Et en dessous des étoiles, il y a les fourchettes.

L_2. - Mais non, dans le Michelin les fourchettes ça ne correspond à la qualité de la cuisine, mais au nombre de couverts.

L_3 (avec stupeur). - Tu veux dire que ça indique le nombre de couverts qu'il y a sur la table, autour de l'assiette?!?»).

في حالة الغلوّ: إليكم المثل الآتي:

دورانت: أودُّ أن أقول لكِ كلمةً واحدةً ليس إلاّ.

أرلوكان: سيِّدتي، إنْ قال كلمتَين فلتكن ثالثتهما إذناً له بالانصراف[71].

(«DORANTE. - Je n'ai qu'un mot à vous dire.

ARLEQUIN. - Madame, s'il en dit deux, son congé sera le troisième»).

---

(69) Pierre Fontanier, *Les Figures du discours* ([Paris]: Flammarion, [1968]), pp. 58-59.

(70) يُمكننا استثمار عملية جعل المحسن البياني حرفياً على شكل «كِعام» [أي ما يُقحَم في الفمّ لإبقائه مفتوحاً ولمنع الشخص من الكلام أو الصُّراخ (المُترجمة)] في شريطٍ هزليّ مرئيٍّ كان أم مسموع، كما في المسرحية الغنائية بعنوان **هيلزابوبين** (*Hellzapoppin*) حيثُ تُكتب العبارة التالية: «إنّه يأكل ثلاثة صحونٍ في اليوم» («Il mange trios assiettes par jour») – ومن ثمّ يضربُ الشخص النَّهِمُ الذي نتحدّث عنه على كرشه فيصدر ضجيجاً يُشبه صوت جلاية الصحون.

(71) مثلٌ مُقتبسٌ عن المشهد الثاني من الفصل الرابع من مسرحية ماريفو *Le Jeu de l'amour et du hasard*.

في حالة الإغراق: وهذه أمثلةٌ على ذلك:

المثل الأوّل: أليس هذا الفستان بخس الثمن وكأنّه مجّاني. ـ كلا إنّه للبيع! .(«Cette robe elle n'est pas donnée. - Non elle est vendue!»)

المثل الثاني: نحن لا نسير قُدُماً ـ إنّنا لا نتراجع على الأقلّ («Nous .n'avançons pas - Du moment qu'on recule pas»)

المثل الثالث: المتكلّم (وهو عضوٌ في لجنة تحكيمٍ لنيل شهادة الأستاذيّة): لا أرى جيّداً أين هي صلة الموصول في هذا المثل.

المخاطبة (وهي متقدِّمةٌ للامتحان): يحار عقلي في هذا المثل أنا أيضاً!

(«L_1 (membre d'un jury d'agrégation). - Je ne vois pas très bien où il y a une relative ici.

L_2 (candidate). - Moi aussi je m'y perds!»).

في حالة المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق: إليكم المثل الآتي:

المتكلّم (وهو مُرشدٌ سياحيٌّ أثناء جولةٍ في أحد القصور البرغونيّة): أيُعقل أن نتصوَّر أنَّ هيكليّة البناء هذه لا تنوء تحت ثقلٍ يفوق الأربعة أطنانٍ من الرصاص.

المخاطب (وهو سائحٌ يلعب دور «الماكر المُتحاذق»، فيُجيبُ بعزم): كلا!

(«L_1 (guide faisant visiter un château bourguignon). - Peut-on s'imaginer que cette charpente supporte plus de quatre tonnes de plomb?

L_2 (visiteur jouant le rôle du «petit malin» de service, énergiquement). - Non!»).

في حالة المحسن البيانيّ التخيُّليّ:

تنضوي تحت راية جعل معنى المحسن البيانيّ حرفيّاً الحالات التالية: أوّلاً، الحالات حيثُ تؤخذ اللامحاكاة الخياليّة على أنّها حقيقةٌ وثائقيّةٌ (والمثل الأشهر على ذلك هو المعنى المعكوس الذي شكَّل موضوعه عام 1973 الاقتباس اللاسلكيّ الاتِّصال عبر الأثير الذي استشهَدَ به ويلز (O. Welles) لكتاب **حرب العوالم** (*La Guerre des mondes*) بقلم ويلز (H. G. Wells)، ممّا تسبَّب بذعرٍ جماعيٍّ في الولايات المتَّحدة سقط ضحيّته عدَّة قتلى[72]. ونستنتج ممّا تقدَّم أنَّ

(72) وقد تكرّرت التجربة في فنلندا في كانون الأوّل/ ديسمبر عام 1985، ولكن لم يسقط ضحايا هذه المرّة، فقد اقتصر الضرر على إثارة حالة ذعرٍ مروّعٍ ليس إلاّ... (راجع مقالة: «La Finlande se rejoue la .(guerre des mondes,» *Libération* (13 déc. 1985)

«الحرف» له حرفيّاً تأثيراً قاتلاً...)؛ وثانياً، الحالات التي يعمل فيها «الوهم» المسرحيّ أو الوهم المتعلّق بصناعة السينما على أكمل وجهٍ، والمثل على ذلك حالة المُشاهِد الذي صَرَخَ ليوليوس قيصر في مستهلّ مشهد الجريمة قائلاً: «حذارِ إنّهم مدجّجون بالسلاح!» («Attention, ils sont armés!»)، ويصفُ مانوني هذه الحالة بالخرافيّة إلاّ أنّها حادثةٌ مُثبتَةٌ؛ وثالثاً حالة شخصٍ من معارفي اختلط عليه الأمر فلم يُميِّز بين المُمثِّلين والشخصيّات عندما كان يُشاهدُ جينيريك فيلم يُعادُ بثُّه على شاشة التلفاز، فقال مذهولاً ما يلي: «عجباً، يُمثِّل فيرنانديل في هذا الفيلم، لقد كنتُ إخاله ميتاً!» («Tiens, Fernandel! Je croyais qu'il était mort!»)؛ ورابعاً، حالة هؤلاء الأشخاص الذين كانوا ينهالون على المُترجم الفوريّ لجي آر (J. R.) في فيلم «دالاس» (Dallas)، عندما كانوا يلتقون به ويتعرّفون عليه، بوابلٍ من الشتائم والسُّباب، لدرجة أنّه لم يكن بوسعه على ما يبدو أن يتجوّل من دون حرّاسٍ شخصيّين ليؤمّنوا له الحماية...[73]. إلاّ أنَّ الحالة الأغرب هي الحالة التي يقع فيها الشخص المسؤول عن المحسن البيانيّ (الذي يكون والحالة هذه «مزحةً») بسوء مُصادفةٍ في الشّرك الذي ينصبه، كما في المثل الآتي: «روى خروتشتيف الرحلة التي قام بها عام 1965 إلى يوغوسلافيا، فشرع بسرد القصّة القديمة عن الملاّ الذي رغب في ممازحة مواطنيه، فأخبرهم بأنّه في الطرف الآخر من قريتهم من حيثُ أتى، كانوا يوزِّعون مجّاناً طبق الأرزّ المعروف بال «بلوف» [وهو طبقٌ من الأرزّ مطبوخٌ على الطريقة الشرقيّة]. ولكنَّه عندما رآهم يهرولون للذهاب إلى هناك، فما كان منه إلاّ أن فعل مثلهم وسارع ليلحق بهم. ويُعقِبُ خروتشتيف قائلاً: كان هذا شأن العلاقات التي كانت تربطُنا بيوغوسلافيا، «إذ إنّنا صدّقنا القصّة التي نسجناها عنها من بنات أفكارنا». لقد أعلنَ الزعماء

---

(73) وإليكم هذا المثل الحاذق أكثر، ألا وهو: بغية شرح مفهوم «المزحة» بالأمثلة فقد استشهدنا آنفاً بالدعابة التي أدلى بها أحد الأصدقاء لدى الخروج من تمثيليةٍ/ أو بالأحرى قراءة (مُصطنعة طبعاً) لجيرار غييوما في مسرحية «الرجل الذي يضحك»، ومفادها: «لا بأس به، ولكن كان حريّاً به مع ذلك أن يحفظ نصّه» («C'était pas mal mais il aurait tout de même pu apprendre son texte»). والحال أنّنا سمعنا ذات يومٍ على حين غرّة إحدى المشاهدات التي وقعت في شرك الوهم المسرحي، تقول إثر انتهاء أداء غييوما نفسه في **موباسان** (*Maupassant*)، ما يلي: «لقد أحببته أكثر في هذا الدور منه في دور فيكتور هوغو، فقد حفظ هذه المرّة نصّه، ولم يقرأه مثلما كان يفعل في مسرحية «الرجل الذي يضحك»» («J'ai préféré à Victor Hugo. Cette fois il a appris son texte, il le lisait pas, alors que pour L'Homme qui rit il le lisait»).

السوفياتيون أنَّ يوغوسلافيا هي بلدٌ رأسماليٌّ. وقد صدَّقوا كذبتهم»[74] («Relatant son voyage de 1965 en Yougoslavie, Khrouchtchev commence à raconteur la vieille histoire du mollah qui veut faire une blague à ses concitoyens: il leur raconte qu'à l'autre bout du village d'où il revient, on distribue du «plov» [plat du riz à l'orientale] gratuitement; quand il voit les villageois qui s'y précipitant, il en fait autant. Khrouchtchev enchaîne: il en était ainsi de nos relations avec la Yougoslavie, «nous nous sommes laissés prendre à l'histoire que nous avions nous-mêmes racontée». Les dirigeants soviétiques avaient dit que la Yougoslavie était un pays capitaliste. Et eux-mêmes y ont cru»).

2. تأويل المتتالية غير البيانيّة في الواقع تأويلاً بيانيّاً:

يُثير المعنى المعكوس هذا المعاكِس للحالات التي أوردناها آنفاً والأقلّ تواتراً منها، الاهتمام أكثر منها بكثير، لأنّه يُبيِّن أنَّ المحاور قد «يزيد» تعقيد عملية تأويل مشروع المتكلِّم الدالّ تعقيداً.

في حالة الاستعارة ـ المزحة: إليكم المثل الآتي:

التقيتُ لدى خروجي من حفلة «أورباني ساكس» («Urban Sax») الموسيقيّة بصديقٍ قال لي: «هل رأيتِ، كان كليمنتي نفسه يعزفُ!» («T'as vu, y avait même Clementi qui jouait!»).

فأجبته (ظنّاً منّي بأنّه يمازحني، وكوني لاحظتُ بين العازفين وجود شخص يُشبه من بعيدٍ ممثلاً آخر) قائلةً: «أجل! وكان وودي آلن يعزف معهم أيضاً!» («Oui! Et y avait aussi Woody Allen!»).

كنتُ فخورةً جدّاً لأنّني كشفتُ المحسن البيانيّ وأبطلتُ مفعوله.

ولكن يا لحظّي العاثر! فقد علمتُ في اليوم التالي أنَّ بيار كليمنتي (Pierre Clementi) كان يعزف فعلاً مع الفرقة الموسيقيّة.

في حالة الغلوّ: هذا مثلٌ على ذلك:

أتذكّر اجتماعاً صرّح خلاله ممثّل الدولة الكمبودجيّة [...] بأنَّ حكومته

---

(74) Michel Heller, *Sous le regard de Moscou: Pologne (1980-1982)*, traduit du russe par Olga Svintsova et Louis Lauract (Paris: Calmann-Lévy, 1982), p. 95.

ستقود كلَّ مَن يخون الوطن إلى حبل المشنقة. وقد أثار قوله شعوراً بالاستغراب في نفوسنا، وقلنا لأنفسنا بأنَّه يُبالِغُ... إلاّ أنّنا عزَينا قوله هذا إلى تأثير المنبر أو إلى سوء السيطرة على مفردات اللّغة، ولم يبدُ لنا ذلك أمراً من شأنه أن يُثير القلق بالضرورة(75).

(«Je me souviens d'un meeting où le représentant cambodgien [...] avait dit qu'ils pendraient tous les traîtres à la Patrie. On avait eu certain étonnement, on se disait quand même... mais on avait mis ça sur le compte d'un effet de tribune ou d'un mauvais contrôle du vocabulaire, ça ne nous avait pas paru quelque chose de forcément inquiétant»).

في حالة المحسن البيانيّ الكلاميّ المنطوق: هذه بعض الأمثلة:

المثل الأوَّل: المتكلِّم: إذا ما اتَّحدَتْ المنظمات النقابيّة كافَّةً، ألا تسير الأمور إلى الأفضل؟

المخاطب: أنتَ مَن يزعم ذلك.

المتكلِّم: ولكنَّني أطرح هذا التساؤل وحسب!(76).

(«L_1. - Si toutes les organisations syndicales se concertaient, est-ce que ça n'irait pas mieux?

L_2. - C'est vous qui le dites!

L_1. - Mais je pose la question!»).

المثل الثاني: المتكلِّم: انظر إلى هذه السيَّارة، إنَّها جميلةٌ، أليس كذلك؟

المخاطب: أجُننتِ؟ أيُعقل أن تبتاعي سيَّارةً يبلغ ثمنها المئة ألف فرنك فرنسيّ!

المتكلِّم: ولكنَّني لم أقل ذلك إطلاقاً بقصد شرائها!

(L_1. - Regarde cette voiture elle est chouette non?

L_2. - T'es pas folle? Tu vas pas t'acheter une bagnole de dix briques!

L_1. - Mais je disais pas ça du tout pour ça!).

المثل الثالث: دُعيتُ إلى تناول وجبة العشاء [...]، فقد بدت ساره نفسها

---

(75) مثلٌ مأخوذٌ عن آلان روسكيو الذي استشهد به دارد في: Jean-Noël Darde, *Le Ministère de la vérité* (Paris: Editions du Seuil, 1984), p. 164.

(76) وهذا مُقتطفٌ من مقابلة أُذيعت على قناة France-Inter، نهار 19 أيّار/ مايو عام 1981.

وكأنّها تدعوني للعشاء، بحيثُ إنّها قالت لي في الصباح: «أستتعشّى معنا؟» فخلتُ على أيّ حالٍ بأنّها توجّه لي دعوةً، إلاّ أنّني أيقنتُ على مائدة العشاء بأنّ ما قالته لي كان مجرد سؤالٍ، وكانت تؤثِر بالأحرى عدم تواجدي بحضور الشاب الجديد الذي اختاره قلبها(77).

(«Je fus invité à dîner [...]. Sara elle-même eut l'air de m'inviter; elle me dit le matin: «Vous dînerez avec nous?» Je crus au moins que c'était une invitation; mais j'ai, depuis, eu lieu de croire que c'était une simple question, et qu'elle aurait désiré que je ne me trouvasse pas en présence de son nouveau choix»).

في حالة المحسن البيانيّ غير(*) التخيُّليّ:

تماماً كما نعتبر أحياناً روايةً خياليّةً بمثابة الرواية التاريخيّة، كذلك قد يحدثُ، ولا يُخفى ذلك على أخصائيّي وسائل الإعلام، أن يُنظَرَ إلى بعض الشهادات أو الوثائق باعتبارها تركيباتٍ خياليّةً(78) ـ ولاسيّما عندما تكون الوقائع المعروضة فظيعةً جدّاً لدرجة يصعب فيها تقبُّل فكرة أنّها تتعلّق بوقائعَ حقيقيّةٍ، سواء أكانت راهنةً أم ماضيةً. وبالتالي، تؤدّي القراءة البيانيّة دور آليّة المُباعَدة التي من شأنها أن تسمح بتقبُّل ما لا يُحتمل(79).

وبناءً عليه، فمن الشائع ألاّ تتطابق الدلالات الأوّليّة (د') التي يستخرجها المُحاوِر من القول مع الدلالات (د) التي يزعم المتكلّم أنّه أنزلها فيه. ولا بدّ أن يكون النموذج التأويليّ مزوّداً بوسائل من شأنها أن تُبرِزَ حالات اللاتساوق وسوء التفاهم التواصليّة هذه ـ ومرّةً أخرى بعد، يكمن الحلّ في اعتبار معنى القول

---

(77) Rétif de La Bretonne, *Restif de la Bretonne. Sara, ou l'amour à quarante-cinq ans*, p. 137.

(*) وردَ هذا العنوان في الكتاب الفرنسيّ الأصليّ كالآتي: محسن بيانيّ تخيُّليّ («Trope fictionnel»). ولكنّني ارتأيتُ أن أعدِّله لأنّني وبعد اطّلاعي على مضمون هذه الفقرة وعلى مضمون تلك التي تسبقها والتي تحمِل بدورها عنوان «محسن بيانيّ تخيُّليّ» («Trope fictionnel»)، فوجدتُ أنّه من الأنسب أن يكون هذا العنوان كالآتي: «محسن بيانيّ **غير** تخيُّليّ» («Trope non fictionnel»)، فلربّما سقطَ ذلك سهواً في الكتاب الفرنسيّ.

(78) علاوةً على ذلك، قد يبطل ضمن نطاقٍ معيّنٍ بالنسبة إلى بعض مستهلكي التلفاز مفعول التعارض القائم بين ما هو «تخيُّليّ»/ وما هو «غير تخيُّليّ».

(79) يُعدّ أحياناً التأويل البيانيّ ملاذاً يساعدنا على مواجهة طابع المحتوى الحرفيّ الذي لا يُطاق إطلاقاً أو المنافي للعقل، فمثلاً، هل بات مستحيلاً أن نأخذ رواية **سفر التكوين** «بمعناه الحرفيّ»؟ لا بأس، نؤوّلها باعتبارها تنطوي على استعارةٍ واسعة المدلول...

بمثابة المُحصِّلة التركيبيّة بين الدالّ ومختلف الكفاءات التي يتحلّى بها مؤوِّلو هذا القول، ومن ضمنهم قائِله.

وكذلك، تُظهِر الأمثلة التي أوردناها سابقاً واقع أنَّ التفاوتات في الكفاءات لا تتحمَّل منفردةً مسؤوليّة حالات سوء التفاهم هذه التي لا تتشاطر كلّها الطبيعة نفسها، بحيثُ إنَّها تنتمي تارةً إلى اختلافٍ حقيقيٍّ في الحساب التأويليّ، وطوراً إلى «الظنّ» أو «سوء الظنّ».

- فمن جهة الشخص الذي يفكّ الترميز، ينبغي أن نُميِّزَ بين ما يلي:

1) المعنى المعكوس الصادق:

لا يكون المُحاوِر متيقِّظاً أنَّ الدلالة الأوَّليّة التي استخرجها تتساوى والدلالة التي يزعمُ المتكلِّم أنَّه قصدها في قوله (د'=د). وبالتالي،

يقصد المُحاوِر إفهام المتكلِّم أنَّه استخرج الدلالة الأوَّليّة (د').

يولِّد التفاوت في الكفاءة أو الخطأ في الحساب التأويليّ سوءَ تفاهمٍ أو غلطةً «ساذجةً» أو لَبساً لاإراديّاً.

2) المعنى المعكوس السيِّئ النيَّة:

يكون المُحاوِر مُتيقِّظاً أنَّ الدلالة الأوَّليّة التي استخرجها تتساوى والدلالة التي يزعمُ المتكلِّم أنَّه يقصدها في قوله (د'=د). ولكن،

يقصد المُحاوِر إفهام المتكلِّم أنَّه استخرج حقّاً الدلالة الأوَّليّة (د')

(وذلك لأغراضٍ استراتيجيّةٍ أو لمصالحَ برهانيّةٍ متنوِّعةٍ)[80].

وتزداد سوء نيَّة المُحاوِر جلاءً كلَّما كانت الدلالة الأوَّليّة (د') التي يدَّعي استخراجها من القول بعيدةً عن الواقع، بينما يكون لدينا أسبابٌ وجيهةٌ تدفعنا إلى

---

(80) وإليكم أيضاً هذا الحلّ البديل المُلطّف، ومفاده: قد نتحدّث عن سوء النيّة التأويليّة عندما يتظاهر المُحاوِر، من دون أن يذهب إلى حدّ استخراج دلالة أوّلية «د'» تختلف عن الدلالة الأولى «د» (د' د) (أي أن يُسيء «الفهم») بأنّه لم يدرك الدلالة المُضمَرة على الرّغم من كونها واضحةً تمامَ الوضوح (فهو يفهم جزئيّاً و«يدّعي الغباء» ويتظاهر بالصمَّم إزاء مُضمَّنٍ معيّنٍ من شأنه أن يُسبّب الإزعاج)، كما في المثل الآتي:

المتكلّم: «على أحدٍ ما أن يُحضر الخبز من الفرن... إنّه يقع على رمية حجرٍ من هنا...
فأنا عليّ أن أنجز قالب الحلوى وأن أُعِدَّ المائدة...»
ولكنّ المخاطب لا يأتي بأيّ ردّة فعلٍ.

(L_1. - «Faudrait aller chercher du pain... La boulangerie est à deux pas...
Moi faut que je finisse le gâteau, et que je mette le couvert...».
Aucune réaction de L_2.).

الاعتقاد بأنَّ المُحاوِر يتحلّى فعلاً بالكفاءات التي تخوّله تحديد الدلالة (د) بدقَّةٍ. راجع ما أوردناه سابقاً في هذا الشأن في ما يتعلّق بتسلسل كلام المُخاطب في المثل الآتي:

المتكلِّم: هلاّ أقفلتَ النافذة؟ فالجوّ باردٌ في الخارج.

المخاطب: لأنّني إن أقفلتُ النافذة ستخفُّ حدّة البرد في الخارج؟

(L_1. - Tu pourrais fermer la fenêtre. Il fait froid dehors.

L_2. - Parce que si je fermais la fenêtre, il ferait moins froid dehors?).

أمّا في حال تمحور هذا الردّ حول صيغة المزاح، فيغدو المثل المذكور آنفاً مُستمدّاً من:

3) المعنى المعكوس المُزيَّف ذي الوظيفة اللَّعبيّة:

يكون المُحاوِر متيقّظاً أنَّ الدلالة الأوّليّة التي استخرجها تساوي الدلالة التي يزعمُ المتكلِّم أنّه يقصدها في قوله (د'=د).

يقصد المُحاوِر إفهام المُتكلِّم أنّه استخرج الدلالة (د)، لكنَّه مع ذلك يُعقِبُ الكلام على الدلالة الأوّليّة (د')،

(وذلك بغية توليد بعض التأثيرات الهزليّة، على غرار ما وردَ على لسان فرانسيس بلانش أثناء مقابلةٍ أجراها معه فرانسوا شاليه، كما هو مُبيَّنٌ في المُقتطف الآتي:

فرانسيس بلانش: أنتَ تضعُ دائماً الغليون في فمك.

فرانسوا شاليه: طبعاً، أين تريدني أن أضعه(81)؟

[. . .]

فرانسيس بلانش: وماذا عن الآخِرة، ألا تحسبُ لها حساباً؟

فرانسوا شاليه: أمّا الآخِرة، فأنا لا أعبأ بها، فأنا أهتمُّ بنبيذ الدنيا أكثر ممّا أبالي بهذه [أ-ل-آ-خ-ر-ة]).

---

(81) إنّ الأسلوب هنا سهلٌ للغاية، وقوامه أن نلعبَ (كما في مثل «تؤدّي الكحول إلى الموت البطيء» («L'alcool tue lentement»)) على إبهام الجملة المنوط ببُنيتها «البؤرية» (وتتألّف «البؤرة» الأقرب إلى الواقع من مجمل المُسنَد الكلاميّ؛ في حين تتكوّن «البؤرة» المُحتملة استثنائيّاً من التركيب التعبيري المؤلّف من الجار والمجرور).

(F.C. - Vous avez toujours la pipe à la bouche.

F.B. - Ben oui, où vous voulez que je la mette?

[...]

F.C. - Et l'au-delà, vous n'y pensez jamais à l'au-delà?

F.B. - L'au-delà je vous dirai que je m'en tape le coquillard. Je suis plus intéressé par le vin d'ici que par [lodela]).

ملاحظات

● قد تُثير الحالة (1) الضحك أيضاً، إلاّ أنَّ المسألة تكون حينها مسألة هزلٍ «ساذج».

● وإليكم مثلاً آخر مُقتبساً عن فرانسيس بلانش، ألا وهو:

آهٍ من حقبةِ العنف تلك! حتّى البابا الذي يُقدِّس(*) كان («Ah cette époque de violence! Même le pape qui canonise...»).

يتظاهر المتكلِّم بأنَّه يُسيء تأويل فعل «قدَّس» («canoniser»)، ولكنَّه في الواقع يعلم، ويعلمُ المُحاوِر كذلك أنَّه يعلمُ، ويعلمُ هذا الأخير أيضاً أنَّ المُحاوِر يعلم أنَّه يعلمُ أنَّ فعل «قدَّس» («canoniser») لا يعني أن «نقصفَ بالمدفع» («tirer au canon»). وهكذا، يختبئ الفاعل الحقيقيّ (أي فرانسيس بلانش) الذي لا تنقصه الكفاءة على نحوٍ لَعبيٍّ خلف الفاعل الوهميّ الذي يكون مسؤولاً عن الخطأ التأويليّ.

هذه هي عموماً الترسيمة التي تُميِّزُ «القصص الطريفة» التي تُخرج شخصيّاتٍ تقترفُ بسذاجةٍ أو عن سوء نيّةٍ معنى معكوساً ما، يقصُّه علينا قائِلٌ تكون نيَّته التداوليّة التواصليّة هزليّةً بشكلٍ أساسيّ. وبناءً عليه، تنتمي القصص الطريفة، تبعاً لمستوى فعل القول الذي نعتمده لنتأمَّل فيها، إلى عدَّة فئاتٍ في آنٍ.

(كما يظهر ذلك في المثلَين الآتيين، ألا وهما:

المثل الأوَّل: وصل نائبٌ إلى الحدود، فقال له موظَّف الجُمرك: «ألديك ما تُصرِّح به؟» - بسرورٍ. هل لديك مكبِّرٌ للصوت؟»

(*) إنّ الفعل الفرنسيّ canoniser يوحي بصورة «المدفع» («canon») ولكنه حين يُترجَم إلى اللغة العربية (أي «يُقدِّس»، ومعناه أن يجعل الأشخاص في عداد القديسين) فهو يفقدُ هذا المعنى ويُبعد القارئ العربيّ عن هذه الصورة.

(«Un député à la frontière: Le douanier: «Vous avez quelque chose à déclarer? - Volontiers. Vous avez un micro?"»).

المثل الثاني: التقى مستأجران على الدرج، فقال الأوَّل: «قُل لي بربِّك، ألم تسمعني أضرب بشدَّةٍ على جدار شقَّتك ليلة أمس؟ - آه! لا عليك، لم تُزعجني على الإطلاق، فأنا نفسي كنتُ قد دعوتُ بعض الأصدقاء إلى حفلةٍ صغيرةٍ في منزلي»).

(«Deux locataires dans l'escalier: «Dites donc, vous, vous n'avez pas entendu cogner contre votre mur la nuit dernière? - Oh rassurez-vous, vous ne m'avez pas dérangé du tout. J'avais moi-même invité quelques amis pour une petite sauterie»»).

● من البديهيّ أن يتعذَّر علينا أحياناً أن نُحدِّدَ الفئة التي ينتمي إليها معنى معكوس ما بعد أن نرصده، أي بكلامٍ آخر، يصعبُ علينا أحياناً أن نُحدِّد ما إذا كان المُحاوِر قد أدرك أم فاته إدراك المعنى الصحيح (أي، 2 أو 3 في مقابل 1)؛ وأن نُحدِّدَ في الحالة الأولى إنْ كان المُحاوِر يودُّ أم لا أن يُفهِمَ المُتكلِّم أنَّه أدرك هذا المعنى تمام الإدراك (أي، 3) في مقابل (2).

- أمّا إنْ بدَّلتُ موضعي، وتقمَّصتُ نفسيّة الشخص الذي يُرمِّز، فسأميِّز بين المستويات التالية:

0 - القول الظاهر أو البيِّن

1 - الادِّعاء الدالّ: وهو ما يدفعنا المتكلِّم إلى الاعتقاد بأنَّه قد قاله فعلاً أو إلى التسليم به (أي ما يكون المتكلِّم على أهبة الاستعداد للتسليم به على أنَّه يُشكِّل محتوى قوله).

2 - النيَّة الدالَّة: وهي ما يوحي به المتكلِّم أو يزعم أنَّه يقصده.

3 - فِكر المتكلِّم الحقيقيّ.

وإليكم هذه الملاحظة: لا وجود سيميائيّ لمُختلف هذه المعطيات التي تُميِّز تصرُّفات المتكلِّم الخطابيّة أو تُرسي أسسها ما لم يتعمَّد المُحاوِر محاولة التعرُّف عليها، فعلى سبيل الذكر لا الحصر، نعني بِ «ادِّعاء المتكلِّم الدالّ» ما يعتبره المُحاوِر عن حسن نيَّةٍ بمثابة المعنى الذي يكون المتكلِّم على أهبة الاستعداد لأن يتبنَّاه باعتباره محتوى قوله الخاصّ، وذلك على قاعدة بعض الدلائل (وتندرجُ أحياناً في عداد هذه الدلائل، ونُشدِّد على كلمة أحياناً، التفسيرات التي يُمدّنا بها المتكلِّم نفسه، عن حسن أو سوء نيَّةٍ، بشأن خطابه الخاصّ).

وهكذا، فمن خلال حالات الصور التالية التي تُشكّل أحكاماً جمّةً يُصدرها المُحاوِر بشأن وضع قول المتكلّم(82)، تظهر ضرورة فصلِ هذه الأغراض النظريّة الأربعة واحدها عن الآخر، وذلك على الشّكل الآتي:

0) التواصل العاديّ: عندما تتساوى الأغراض النظريّة الأربعة (0=1=2=3).

إنَّ المتكلِّم يُدلي بشكلٍ بيِّنٍ بالمحتوى البيّن «ح».
«يزعمُ» المحتوى البيِّن «ح».
يقصدُ إفهام المحتوى البيِّن «ح».
يُفكِّر فعلاً بالمحتوى البيِّن «ح».

ملاحظة

قد تُضاف طبقاتٌ مختلفةٌ من المحتويات المُضمَرة إلى المحتوى البيِّن «ح». ولا ننفكُّ نعتبرُ أنَّ المسألة تتعلَّق بتواصلٍ «عاديٍّ» ما دامت تحملنا أسبابٌ وجيهةٌ على الاعتقاد بما يلي:

أوَّلاً، لا تُشكِّل المحتويات المُضمَرة الغرض الحقيقيّ الواجب نقله في الرسالة الكلاميّة؛

ثانياً، يكون المتكلِّم مُستعدّاً لأن يتبنَّى هذه المحتويات إنْ كانت درجة جلائها غير قابلةٍ للنزاع نسبيّاً؛ وثالثاً، لا تُناقِضُ هذه المحتويات فِكر المتكلِّم الحقيقيّ (وسنرى عمّا قريبٍ أنَّه في حال كان الوضع بخلاف ذلك، فنكون حينها بصدد محسنٍ بيانيٍّ في الحالة الأولى وسوء نيَّةٍ في الحالتَين الأخيرتَين).

1) الكذبة:

إنَّ المتكلِّم يُدلي بشكلٍ بيِّنٍ بالمحتوى البيِّن «ح».
«يزعمُ» المحتوى البيِّن «ح».
يقصد إفهام المعنى البيِّن «ح».
يعتقد فعلاً أنَّ المحتوى الأوَّليّ «ح'» يُساوي المحتوى البيِّن «ح» (ح'=ح).

---

(82) تتماهى هذه الأفكار مع أفكار ريكاناتي: (François Récanati, *Les Enoncés performatifs: contribution à la pragmatique*, propositions (Paris: Editions de Minuit, 1981), pp. 146 et sqq.).

مع أنّ التمييزات التي يُدخلها (بين «أفهَمَ» «laisser entendre») و«أوحى» («donner à entendre») و«ضمَّن» («sous-entendre»)) لا تتقاطع بدقةٍ مع تمييزاتنا الخاصّة.

وبالتالي، ترتكز الكذبة على التفاوت بين الغرض النظريّ 3 والأغراض النظريّة 0 ـ 1 ـ 2.

ملاحظات

• لا تتساوى الكذبة مع الخطأ أو الحقيقة المُعاكِسة.

ففي الحُكم الخاطِئ، يكتفي المُحاوِر بمقابلة محتوى قول المتكلّم مع ما يعرفه أو يُخال أنّه يعرفه عن المرجع الخطابيّ.

أمّا في الحُكم الكاذِب، فتتدخَّلُ بالإضافة إلى ذلك عدَّة فرضيّاتٍ تتعلّق برأي المتكلّم الحقيقيّ على قاعدة بعض الدلائل الخارجيّة الألسنيّة اللُّغويّة أو الكلاميّة احتماليّاً (وجود تعارضٍ داخل القول مثلاً) أو حتّى بعض الدلائل الهامشيّة الكلاميّة (على غرار التغيير مثلاً في مقام الصوت تغييراً يخدشُ السمع - في مقابل «اللَّحِن» أو «نبرات الصدق» -، فضلاً عن «الأنف المتحرِّك» أو ذلك الذي يطول على منوال أنف بينوكيو (Pinocchio)، أو مجرَّد رفَّة عينٍ أو نظرةٍ تُكذِّب الكلام الذي تمَّ الإدلاء به، كما يظهر في المثل الآتي:

جوني: أنا وإنْ قسوتُ عليه بأحكامي المُرَّة

فشفتَاي تُكذِّبانني ألف مرَّةٍ ومرَّة

ولو حتّى في ذلك خنتُ نفسي

فعينَاي، يا سيِّدي، ستمنعانه من إطاعتي(83)

(JUNIE. - Moi! Que je lui prononce un arrêt si sévère!
Ma bouche mille fois lui jura le contraire.

Quand même jusque-là je pourrais me trahir,
Mes yeux lui défendront, Seigneur, de m'obéir)

لا تختلف دلائل الكذبة من حيثُ طبيعتها اختلافاً جوهريّاً عن دلائل المحسن البيانيّ، باستثناء أنّها لا تخضع مبدئيّاً لإرادة المتكلِّم (ما خلا حالة الكذبة المُغتصَبة،

(83) مثلٌ مُقتبسٌ عن المشهد الثاني من الفصل الرابع من مسرحية **بريتانيكوس** (*Britannicus*).

كما في مثل جوني (Junie) التي يُرغِمُها نيرون (Néron) على الكذب على بريتانيكوس(84) (Britannicus))، ذلك أنَّ الكذبة تنتمي بنظر غريس إلى الحالة التي يكون فيها ما يجول حقّاً في فِكر المتكلِّم «سريّاً وطيّ الكتمان بالضرورة». ولكن لا يُكتَبُ للكذبة النجاح إلاّ في الحالة التي «لا يتمّ فيها افتضاح أمرها».

● سنذكر بشكلٍ عابرٍ أنَّ للأكاذيب أنواعاً وأشكالاً جمّة، ومن دون أن نسعى إلى إجراء تصنيفيّةٍ بها قاطبةً إلاّ أنّنا سنكتفي بتعداد الأبرز بينها، ألا وهي: التظاهر والخدعة والافتراء والحيلة والشائعة والاختلاق ناهيك بـ «السرّ» والكذب بالامتناع...

● لا نتحدَّث عموماً عن الكذب إلاّ إذا تمحورَ التفاوت القائِم بين ما يتصوَّره العقل وما يُدلي به اللّسان (ويقول ستيفنسون مثلاً في كتابه بعنوان **سيّد بالانترا**(85) (*Le Maître de Ballantrae*)، ما يلي: «... أمّا بالنسبة إلى التخلّي عن خدمة العائلة، فقد نطقَ لساني فقط بذلك، ولم ينبع ما قلته من قلبي اطمئنّوا» («... Quant à quitter le service de la famille, ma langue seule a parlé, rassurez-vous»)) حول محتوى

(84) يُعدُّ «الإقرار» أو الكذب بالإكراه من الممارسات المُعذِّبة المُثبتة، وإليكم المثلَين الآتيين:
«ثمّ أُرغِمَ المعتقلون على إنشاد النشيد الوطني [...]. وبعده أُجبِروا على شتم عائلاتهم الخاصّة» (مثلٌ مُقتبسٌ عن مقالةٍ بقلم كلير بريسّي حول التعذيب في الأرجنتين، نُشرت في جريدة *Le Monde* (17 mars 1978) («Puis on les a forcés à chanter l'hymne national [...]. Ensuite, les prisonniers durent prononcer des injures à l'égard de leur propre famille»).
والحق إنّها ممارسةٌ على جانبٍ من الغرابة، إذ ما الجدوى من إرغام شخصٍ على قول كلام نحن على يقينٍ بأنّه لا يعنيه بصدقٍ؟ أمّا بشأن الدعاوى الستالينيّة، يشرح ريمون جان (Raymond Jean) ما يليّ: «لم يكن النقد الذاتي الذي كان يُطلَبُ إلى المتّهمين فعله سوى الإقرار بالإفتراءات التي تمّ تحميلهم إيّاها، إذ ينبغي التوصّل إلى جعلهم يتحمّلون مسؤولية كلّ التشنيعات التي اتُّهموا بها، وكانت تُعدّ هذه الوسيلة الأسرع ولكن أيضاً الأكثر فعاليّةً، كي تُصبح هذه التُهم قابلةً للتصديق. وهكذا، كان النقد الذاتي يتحوّل إلى تدميرٍ ذاتيّ، ولم يكن من قبيل الصدفة إنْ كان يقود إلى حافّة الانتحار». مثلٌ مُقتبسٌ عن: «L'Interrogation,» introduction à: Charles Tillon, *Un «Procès de Moscou» à Paris*, l'histoire immédiate, précédé de l'interrogation, par Raymond Jean (Paris: Editions du Seuil, [1971]), p. 25 («L'autocritique demandée aux accusés n'était rien d'autre que la prise en charge par eux-mêmes des calomnies dont on les accablait. Il fallait arriver à ce qu'ils assument toutes les diffamations qu'on faisait peser sur eux, ce qui était le moyen le plus sommaire mais, pensait-on, le plus efficace de les rendre croyables. L'autocritique devenait autodestruction, et ce n'est pas un hasard si elle conduisait sur la pente du suicide»).

(85) Stevenson, *Le Maître de Ballantrae, 10/18* ([s. l.: s. n., s. d.]), p. 159.

القول البيِّن المعنيّ وحده بحكم من هذا القبيل (إذ عندما يُحكَم على المحتوى المُضمَر بأنَّه خادعٌ، نتحدَّث بالأحرى عن «سوء نيَّةٍ»).

وفي المُقابل، تتحدَّر «الشواذات» التي سنمحِّصها الآن من إدراك التفاوت بين القول البيِّن والقول المُضمَر، على غرار:

أن يُشكِّلَ في الواقع المحتوى المُضمَر موضوع الرسالة الكلاميّة الحقيقيّ الواجب نقله، و/ أو أن يبدو وكأنَّ المتكلِّم غير مستعدٍّ لتحمُّل مسؤوليّة هذا المحتوى الذي يُحفِّزنا مع ذلك تصرُّفه الخطابيّ على استخراجه، و/ أو ألاّ يتطابق هذا المحتوى مع ما يجول في فِكر المتكلِّم ـ أي بكلامٍ آخر، أن تنتمي هذه الشواذات إلى المحسن البيانيّ و/ أو إلى سوء النيَّة.

2) سوء النيَّة[86]

نتحدَّث عن سوء النيَّة (ولقد سبق لنا أن محَّصنا حالة «سوء النيَّة التأويليّة» لدى الإنتاج) حين نجد

أنَّ المتكلِّم
يُدلي بشكلٍ بيِّنٍ بالمحتوى البيِّن «ح».

يقصدُ الإيحاء بأنَّه أدلى بالمحتوى البيِّن «ح» دون سواه.

يقصد إفهام المُحاوِر بالإضافة ذلك (بل وحتّى بشكلٍ جوهريٍّ في حال كانت المسألة مسألة «محسنٍ بيانيٍّ سيِّئ النيَّة») أنَّ المحتوى الأوَّليّ «ح'» يُساوي المحتوى البيِّن «ح» (ح'=ح).

وبالتالي، يكمن سوء النيَّة في التفاوت القائم بين الغرض النظريّ 2 من جهةٍ

(86) إنّ التحديد الذي نقترحه في هذا الصدد عن سوء النيّة هو تحديدٌ تقليصيٌّ، وتُستعمل هذه العبارة بالتأكيد في مقاماتٍ أخرى أيضاً، فمثلاً عندما يُكابر المتكلّم بوقاحةٍ ما هو بديهيّ، أو حين يؤكّد صراحةً بعض الحقائق المُعاكِسة، يغدو حينها «سوء النيّة» و«الكذبة» شبه مترادفان، مع تضمينٍ أكثر على ما يبدو لفكرة أنّ الخِداع يوظَّف لخدمة بعض الأغراض البرهانيّة ـ مثلما يحدث مثلاً عندما تخترع السيّدة سميث بوقاحةٍ في مسرحية *La Cantatrice chauve*، هذا البند «الموائِم» جدّاً بقصد التغلّب على زوجها، ومفاده: «المرّة الرابعة لا أهميّة لها» («La quatrième fois ne compte pas») (وبشأن العلاقات التي تربط بين سوء النيّة والبرهنة، راجع مقالتنا: Catherine Kerbrat-Orecchioni, «Argumentation et mauvaise foi,» *Linguistique et sémiologie*, no. 10 (1981)).

والغرضَين النظريَّين 0 و 1 من جهةٍ أخرى، أي بكلام آخر، بين المعنيَّين «المُبيَّت» و«المزعوم»، إذ يقترح المتكلّم محتوى شديد الالتباس، ولكنَّه يُلائِمه لعدَّة أسباب، آملاً أن يستخرجه المُحاوِر من القول، إلاّ أنَّه يتدبَّر أمره في الوقت عينه ليترك لنفسه إمكانيّة إنكار أنَّه اقترحه أصلاً (فمثلاً: بعد عمليّة الإجهاض قد تعجزين عن إنجاب الأطفال» («Peut-être qu'après votre avortement vous ne pourrez plus avoir d'enfant»)، ونستنتج أنَّ هذا القول هو بمنأى عن الانتقاد على مستوى محتواه الحرفيّ الذي لا يتبنَّى المتكلّم سواه؛ بيد أنَّه يكون قابلاً جدّاً للنزاع في ما يتعلّق بالاستدلال الذي يحثُّ مع ذلك المُحاوِر على استخراجه، ومفاده /من مخاطر هذا الإجهاض أن يجعلك عاقراً/ (/cet avortement risquerait de vous rendre stérile/). ونستطيع كذلك أن نتَّهِمَ المتكلّم بسوء النيَّة حين ينكر أنَّه يسعى إلى تضليل المخاطب أثناء تسلسل الكلام الحواريّ الآتي:

المتكلّم: إنَّها ليست الساعة الثانية!

المخاطب: ليس بعد! ولكن كم الساعة الآن؟

المتكلّم: إنَّها الثانية وعشر دقائق!

المخاطب: لا تتلاعب بالكلام!

المتكلّم: ولكنَّني لا أتلاعب بالكلام، أنا أقول الحقيقة!).

(«L_1. - Il n'est pas deux heures!
L_2. - Pas encore? Mais quelle heure est-il donc?
L_1. - Deux heures dix!
L_2. - Tu ne veux pas jouer avec les mots!
L_1. - Mais je ne joue pas avec les mots, c'est la vérité!»).

ملاحظة

وإنْ كان المتكلّم يدحضُ فرضيّاً أو فعليّاً المحتوى الأوَّليّ «ح'»، إلاّ أنَّه قد يتطابقُ أحياناً مع رأيه الحقيقيّ الذي «لا يُعتَرفُ به». زد على أنَّ هذا المحتوى الأوَّليّ «ح'» يكون، في السواد الأعظم من حالات سوء النيَّة، خادعاً، فتظهر سوء النيَّة حينها بمظهر الكذبة بشأن مُضمَّنٍ، وتتَّصف هذه الكذبة بأنَّها تفوق الكذبة «الحقيقيّة»، أي الكذبة «الصريحة» إنْ جاز التعبير التي يُعنى بها محتوى

القول المُنتَج البيّن، مكراً. كما أنَّها تكون كذبةً مريحةً أكثر بأشواطٍ بعيدةٍ (لأنَّها في حال كُشِفَتْ، فإنَّ المتكلِّم قادرٌ بصورةٍ دائمةٍ أن يحلّ نفسه من مسؤوليّتها وأن ينسبها إلى الشخص الذي يفكّ الترميز وحده)، بيد أنَّها تكون صدفويّةً أكثر بطبيعة الحال (إذ باعتبار أنَّ المحتوى الأوّليّ «ح'» لا يتعدّى كونه مُضمَّناً، فهو يوشك دائماً أن يُفلِتَ من تيَقُّظ المُحاوِر التأويليّ).

3) المحسن البيانيّ

تبعاً للتحديد الذي اقترحناه سابقاً بشأن المحسن البيانيّ، فإنَّ المُحاوِر يتحقَّقُ من وجوده ما إن يعتبرُ أنَّ لديه أسبابٌ وجيهةٌ تدفعه للافتراض أنَّ المحتوى المُضمَر ظاهريّاً يُشكِّل في الواقع موضوع الرسالة الكلاميّة الحقيقيّ الواجب نقله.

● المحسن البيانيّ «الحسن النيَّة» (وهو المحسن البيانيّ بكلّ ما للكلمة من معنى الذي يُمكننا أن نُرجِع إليه كلّ الأمثلة عن المحسنات البيانيّة «الكلاسيكيّة»، من مثل عبارة «يا له من طقسٍ جميلٍ» («Quel joli temps!») عندما نُدلي بها على سبيل التهكُّم)، وهو يتميَّزُ بالترسيمة التالية:

إنَّ المتكلِّم
يُدلي بشكلٍ بيِّنٍ بالمحتوى البيِّن «ح».

«يزعم» أنَّ المحتوى الأوّليّ «ح'» لا يتساوى والمحتوى البيِّن «ح» (ح'ح) (لا بل إنَّه يزعم أنَّهما في حالة تضادٍ تامٍّ في حالة قلب المعنى).

يقصد إفهام المُحاوِر المحتوى الأوّليّ «ح'».

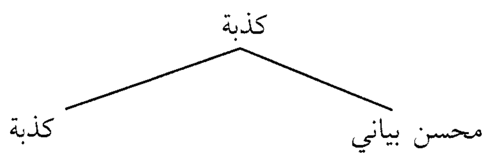
يُفكِّر بالمحتوى الأوّليّ «ح'»،

وبالتالي يتميَّزُ المحسن البيانيّ هذا بالتفاوت القائم بين الغرض النظريّ 0 والأغراض النظريّة 1-2-3.

هذا ويُشبِهُ المحسن البيانيّ الكذبة في نطاق أنَّه في كلتا الحالتَين لا يتطابق القول الظاهر الذي يأتي على لسان المتكلِّم مع ما يجول حقيقةً في خلده من أفكارٍ؛ إلاّ أنَّ ما يُفرِّقه عنها هو أنَّ فِكر المتكلِّم الحقيقيّ يميل كليّاً

إلى الاستتار في حالة الكذبة، في حين أنَّه يكون «مُنفتحاً على الاحتمالات كافَّةً»، كما يقول غريس، في حالة المحسن البيانيّ[87]. ويتجلّى كُنه الاختلاف الجوهريّ بينهما في أنَّ إنتاج المحسن البيانيّ يعني «أن نتظاهر من دون أن نقصد الغشّ»[88]، أي أن نُدلي بالمحتوى البيِّن «ح» مع أنَّنا نُفكِّر بالمحتوى الأوَّليّ «ح'»، قاصدين وناشدين أن يتعرَّفَ المُحاوِر فعلاً على المحتوى الأوَّليّ «ح»، الذي يتطابق بالنسبة إلى المتكلِّم مع معنى القول الحقيقيّ، باعتباره كذا.

ومع ذلك، يُصار أحياناً إلى تشبيه المحسن البيانيّ بالكذبة. ويُعزى سبب ذلك إلى جملةٍ من الأسباب التي تجعلُ الحدود الفاصلة بين هذَين التصرُّفَين الخطابيّين مُبهمة المعالم، وأبرزها: أوَّلاً، تشوُّش الوضوح الاصطلاحيّ الذي يكتنفُ المصطلح «كذبة» («mensonge») ـ فتبعاً لقولنا بالتحديد الموسَّع (ومفاده: تكون الكذبة أمراً واقعاً ما إن يحيدَ القول الظاهر عن فِكر المتكلِّم الحقيقيّ) أو بالتحديد التقليصيّ (الذي نقول به نحن شخصيّاً، ومفاده: على المتكلِّم أن يسعى فضلاً عن ذلك إلى إخفاء فِكره الحقيقيّ)، تكون العلاقة التي تربط «المحسن البيانيّ» بالكذبة إمّا علاقة الاسم المُندرج أو علاقة تضادٍ. علماً بأنَّ المُصطلح «كذبة» («mensonge») هو مُصطلحٌ متعدِّد الدلالات ويُسيطر بنفسه على نفسه، كما يظهر ذلك في الترسيمة المُبيَّنة أدناه:



(فعلى سبيل المثال، ينبغي فهمُ كلمة «كذبة» هذه من زاوية المفهوم الأوسع مدلولاً عندما تردُ في الصيغة الخِتاميّة التي يستعملها بعض القصّاصين الأفريقيّين استعمالاً تفخيميّاً على الشَّكل الآتي: «كانت هذه كذبتنا لهذا المساء» («Tel est

(87) راجع كذلك الوصف الإيضاحيّ الذي يقترحه سبيربر (Dan Sperber, «Rudiments de rhétorique cognitive,» *Poétique*, no. 23 (1975), p. 393), بشأن «التأويل التهكّمي».

(88) Searle, *Sens et expression: Etudes de théorie des actes de langage = Expression and Meaning*, p. 108.

(«notre mensonge du soir»، لأنَّ المسألة تتعلّق في الواقع بِ «محسن بيانيٍّ تخيُّليّ» في هذا المعرض). ومن جهةٍ أخرى، لا يكون ادِّعاء المتكلِّم ونيَّته الدالأّن قابلَين بصورةٍ دائمةٍ، كما سبَقَ وأشرنا، للتحديد تحديداً واضحاً، إذ قد يكون المحسن البيانيّ والكذبة (بالمعنى الضيّق هذه المرّة) مُتشابهَين حتّى ليلتبسَ الأمر.

وبالتالي، يتقاسم المحسن البيانيّ بعض أوجه الشبه المُعرِّضة للشُبهة مع الكذبة[89]، ولا عجب بالتالي أن ترتدَّ أحياناً الحِطّة التي تنسَبُ إلى الكذبة على المحسن البيانيّ، فتتبدَّل بالنظر إلى ذلك طريقة تقويمه.

للمحسن البيانيّ مناصروه كما مناهضوه. وإنَّ اللائحة بأسماء الأشخاص الذين ينتقصون من مزاياه تطول وتطول، ونذكر منهم على سبيل المثال، غوته (Goethe) وستاندال (Stendhal) وأيضاً بروست في ما يتعلّق بالتهكُّم؛ والبريسيدان دو بروس (le Président de Brosses) بالنسبة إلى الاستعارة؛ وهوبز (Hobbes) ولوك (Locke) في ما يختصُّ بمجمل الصور البلاغيّة، فيصِفُها الأوّل بِ «العبثيّة» إجماليّاً، في حين يؤكِّد الثاني بلا لفٍّ ودورانٍ ما يلي: «لا بدّ من الإقرار بأنَّ فنّ البلاغة برمَّته [...] وكذلك التطبيق المُتكلِّف والمجازيّ للكلمات الذي ابتدعته الفصاحة، لم يُخلَقا إلاّ لبثِّ الأفكار الخاطئة والتلاعب بالعواطف، أي بالتالي لتضليل الحُكم. وبالتالي، إنَّهما محض ترَّهاتٍ [...]. ولا يُخفى على أحدٍ كم أصبح الناس توّاقين إلى الخداع والانخداع منذ أن غدا للبلاغة، وهي وسيلة الخطأ والغشّ القويّة القادرة، أساتذتُها المكينون، وبعد أن باتت تُعلَّمُ على رؤوس الأشهاد، وإثر محافظتها على مرّ الأيّام على سمعةٍ طيّبةٍ»[90]، وإنْ رجعنا بالذاكرة إلى الزمن الغابر، نذكر أيضاً مارغريت دو نافار (Marguerite de Navarre) التي أعلنت أنَّها أزالت من كتابها بعنوان **هيبتاميرون** (*L'Heptaméron*) محسِّنات

---

(89) نجد في التصريح التالي الذي يأتي على لسان تودوروف (Tzvetan Todorov, *La Conquête de l'Amérique: La Question de l'autre* (Paris: Editions du Seuil, 1982), p. 95),

ومفاده: «يصعبُ علينا تصوّر كلام من دون إمكانيّة الكذب، مثلما ينتفي وجود الكلمة التي تتجاهل الاستعارة»، أنّ البُنية التماثليّة تُعلنُ بشكلٍ بيّنٍ أنّ الاستعارة والمحسن البيانيّ يتشاطران ميزة أنّهما جزءٌ لا يتجزّأ من مفاهيم الكلام الشموليّة؛ ولكنّه لا يتبرّأ من اقتراح أنّهما يتقاسمان فضلاً عن ذلك ميّزاتٍ أخرى...

(90) مُقتطف من كتاب *Essay Concerning Human Understanding* الذي استشهدَ به لاكوف وجونسون في: Lakoff and Johnson, *Metaphors We Live by* pp. 190-191.

الأسلوب الجماليّة النافِلة بمختلف أنواعها، وذلك «خوفاً من أن يُضرَّا جمالو البلاغة في بعض النواحي بحقيقة التاريخ» («de paour que la beaulté de la rhétorique fict tort en quelque partye à la vérité de l'histoire»). ونستنتج ممّا تقدَّم أنَّ البلاغة هي سيِّدة الزَيف وهي أيضاً فنّ التملُّق وتقنية الدَّجل وثقافة الكذب والكسل المكّار[91]؛ وإنْ كانت الصورة «ترسِمُ صورةً» إلاّ أنَّها في الوقت نفسه تُشوِّهُ صورة» الحقيقة القدُّوسة[92]. ونستطيع وضع تصنيفيّةٍ بهؤلاء المُشنِّعين بالمحسن البيانيّ لمعرفة إلى أيّ شريحةٍ من الأفراد ينتمي هؤلاء الذين يُبدون إزاء المحسن البيانيّ بعض المقاومة أو التعصُّب، وتضمُّ هذه الشريحة: مختلف أجناس الأشخاص المُتبدِّلي الآراء[93]، وأصحاب العقول «البسيطة غير المُتكلِّفة» أو «الواقعيّة» الذين يأخذون، بحسب جان لويس بوري[94] (Jean-Louis Bory)،

(91) راجع أيضاً، بشأن مسألة أكاذيب البلاغة هذه: Charles, *Rhétorique de la lecture*, pp. 180-185.

(92) وهي تُشوِّه أحياناً صورة المحادثة الآتية:

أرلوكان: آه، تبّاً! كيف السبيل لكي لا نكون حنونين عندما نتواجد وجهاً لوجه مع نعمكم؟ (وقفز قلبه فرحاً عند سماعه هذه الكلمة) أوه! أوه! أوه!

كليانتيس: ماذا دهاك؟ أنتَ تُحرِّف محادثتنا!

أرلوكان: أوه! لا عليك، فأنا أتفاخر بنفسي» (مثلٌ مُقتبسٌ من المشهد السادس من مسرحية **جزيرة العبيد لماريفو** (*Marivaux, L'Isle des Esclaves*)).

(ARLEQUIN. - «Eh, palsembleu? Le moyen de n'être pas tendre quand on se trouve tête à tête avec vos grâces? (A ce mot il saute de joie) Oh! Oh! Oh!

CLEANTHIS. - Qu'avez-vous donc? Vous défigurez notre conversation?

ARLEQUIN. - Oh! Ce n'est rien, c'est que je m'applaudis»).

هذا لأنّ المحسن البيانيّ – المُشار إليه في هذا الصدد بفظاظةٍ على الصعيد الألسنيّ الانعكاسيّ والسيميائيّ التحويليّ – يكون أحياناً «نابياً» في التبادلات العاطفية والوجدانية بوجهٍ خاصٍّ حيثُ يكون من المُفضَّل أن نحلّ محلّه صياغةً صادقةً بشكلٍ مباشرٍ، مثلما تعتبره سيلفيا في المشهد الثاني من الفصل الثاني عشر من مسرحية ماريفو *Le Jeu de l'amour et du hasard*، كما هو مُبيِّنٌ أدناه:

دورانت: آه يا ليزيت! أهنا ستُحاكمين الآلام التي قاساها فؤادي.

سيلفيا: أنا لا أتوجَّه بحديثي إلى فؤادك بل إليكَ أنتَ».

(DORANTE. - «Ah! Lisette! C'est ici que tu vas juger des peines qu'a dû ressentir mon cœur.

SILVIA. - Ce n'est pas à ton Coeur que je parle, c'est à toi»).

(93) وقد رأينا كيف أنّ أرلوكان المُتبدّل الرأي في مسرحية *Le Jeu de l'amour et du hasard* لا يُفوّت الفرصة أبداً كي «يُبيِّن» الغلوّ، إلاّ أنّ شخصيات ماريفو المتبدّلة الآراء تتدرّب أحياناً، عندما «تُقلّد الأشخاص الكريمي النسب»، على المحسن البيانيّ – تقليداً لا يُكتب له النجاح غالباً، كما يشهد على ذلك المثل المذكور آنفاً.

(94) انظر: Jean-Louis Bory, *Ma Moitié d'orange*, collection idée fixe (Paris: Julliard, [1973]), p. 15.

على «الجماليّين» أنّهم «يهدرون وقتهم في ممارسة اللُّعبة الشهيرة التي تفضي إلى أخطاءٍ جسيمةٍ، 'فيحسبون الحباحب كواكب' («tu es vessie je te fais lanterne»)، وهذا خير مثالٍ على الخدعة الفظّة، فالحباحب هي الحباحب والكواكب هي الكواكب[95]»، فضلاً عن المنطقيّين الذين تُسبّب لهم الاستعارة الارتباك والحيرة (فمن وجهة نظر بوريدان (Buridan) يُعدُّ القول التالي: «الإنسانُ حمارٌ» («L'homme est un âne») قولاً خاطئاً[96]، ناهيك بهؤلاء الذين يتبجّحون دائماً بأنّهم «يُسمّون الأشياء بأسمائها» («appeler un chat un chat»).

وبالتالي، يُحكَم على المحسن البيانيّ باسم الحقيقة واستقامة التسمية. واللاّفت أنّ المدافعين عن المحسن البيانيّ غالباً ما يتكلّمون باسم هذه الحقيقة نفسها[97]؛ ونذكر منهم: فوسيوس (Vossius) الذي لا يألو جهداً ليُبرهنَ أنّ التهكّم والاستعارة ليسا كاذبَين حقّاً لأنّه يتمّ الإقرار والاعتراف بالكذب فيهما باعتباره كذِباً[98]؛ وكذلك فونتانيي الذي يؤكّد انطلاقاً من مَثَل الغلوّ، أنّ شغل المحسن البيانيّ الشاغل هو «الإيصال إلى الحقيقة نفسها»، والحال أنّه يفوق على الأرجح الخطاب الحرفيّ براعةً في بلوغ هذه الغاية المنشودة، ذلك أنّه يُكشَفُ النقاب فيه عن هذه الحقيقة بمقتضى «تفكيرٍ عميقٍ» يُسهّل بشكلٍ أكثر فعاليّةً عملية حفر المعنى الحقيقيّ في ذهن الشخص الذي ينكَبُّ عليه. أمّا نحن، فتتقارب وجهات نظرنا من وجهات نظر ريكور (Ricoeur) ولاكوف (اللّذَين يتحدّثان بالتوالي عن الاستعارة و«الخيال الاستكشافيّ» و«المعقوليّة الخياليّة»)، أو أيضاً من وجهات نظر هذا الناقد السينمائيّ الذي يُعلّقُ على فيلم «سالفاتور غييوليانو» (Salvatore Giuliano) للمُخرج فرانشيسكو روسي، قائلاً: «حتّى وإنْ كانت

---

(95) يعلّق هيرودياد (Hérodiade)، وهو صاحب العقل «الواقعيّ»، في مسرحية **سالوميه** (*Salomé*) على هيرود «صاحب الأهواء» والذي تُغيظه استعارات هذا الأخير وتشابيهه التي لا تنضبُ، قائلاً: «يُشبه القمرُ القمرَ، هذا كلّ ما في الأمر» («La lune ressemble à la lune, voilà tout»).

(96) بحسب ريكاناتي في: François Récanati, *La Transparence et l'énonciation: Pour introduire à la pragmatique*, l'ordre philosophique (Paris: Editions du Seuil, 1979), pp. 136-137.

(97) أو باسم الصدق إذ «لا يقف التهكّم عائقاً أمام الصدق»، كما يقول روبير براسياك في كتابه: Robert Brasillach, *Oeuvres complètes. 6, [Chroniques. Notre avant-guerre. Journal d'un homme occupé]*, édition annotée par Maurice Bardèche ([Paris]: Club de l'honnête homme, 1964), p. 59.

(98) راجع مقالة: Gerardus Joannes Vossius, «Rhétorique de l'ironie,» *Poétique*, no. 36 (nov. 1978), pp. 503-504.

الصور السينمائية تتضارب تضارباً شاذّاً مع صور أحداث الساعة، وحتّى وإنْ كان يطيب لروسي أن يدسّ بمكرٍ ومن دون سابق إنذارٍ وثائق حقيقيّةً من المحفوظات، فلا مكان للشكّ، لأنَّ كلّ ذلك لا يتعدّى كونه تمثيليّةً. ومهما كنّا من عشّاق القصص الخياليّة، فقلّما نُسلِّمُ مثلاً بأنَّ الممثّلة غرايس كيلي التي تمثِّلُ أحد الأدوار في فيلم لهيتشكوك تُثقِّفنا عن برجوازيّة الخمسينيّات السامية أكثر من أيّ وثيقةٍ حاليّةٍ عنّ الموضوع نفسه. وينضمُّ فيلم «سالفاتور غييوليانو» إذاً إلى بعض المحاولات النادرة لإنقاذ الوهم المتعلّق بالصناعة السينمائيّة من العقبة النفسيّة المُخيفة التي يرزح تحت وطأتها (ألا وهي: كلّ هذا هو مجرّد أكـــــاذيــــــب)»[99] («Même si les images du cinéma entrent en concurrence perverse avec celles des actualités, même si Rosi glisse à malin plaisir et sans crier gare de véritables documents d'archives, le doute n'est pas permis: tout ça c'est du cinéma. Mais pour autant qu'on soit un amoureux de la fiction, pour peu qu'on admette par exemple que Grace Kelly, marchant dans un film d'Hitchcock est tout aussi édifiante sur la haute bourgeoisie des années cinquante que n'importe quel document d'actualité sur le même sujet, et Salvatore Giuliano rejoint alors quelques rares tentatives de sauver l'illusion cinématographique de l'épouvantable hypothèque morale qui n'en finit pas de l'accabler (tout ça c'est des menteries)»). وإنَّ الهمَّ الذي يشغل بال كلّ

---

(99) مثلٌ مُقتبسٌ عن: Gérard Lefort, *Libération* (1 fév. 1982), p. 34.
الواقع أنّ الخيال لا ينفكّ يعطي ضماناتٍ لتعزيز جانب الحقيقة. ونقرأ في العدد نفسه من مجلة: *Lyon-Poche*, no. 583 (11 mai 1983)، ما يلي:

● إعلان لفيلم «الحائط» (Le Mur) للمخرج يلماز غوني (Yilmaz Guney)، ومفاده: «كلّ الأحداث التي تجري في هذا الفيلم قد حدثت بالفعل...» («Tout ce qui arrive dans ce film est réellement arrivé...»),

● ملخّص عن فيلم «أقتلْ أماتيسيما» (Mater Amatissima) للمخرج أنطونيو سالغو (Antonio Salgot)، ومفاده: «عزمت امرأةٌ عزباء على الاحتفاظ بالمولود الذي كانت تنتظره. وقد وُلِدَ هذا الأخير انطوائيّاً [...]. وإنّ الطفل الذي يلعب هذا الدور في الفيلم هو انطوائيٌّ في الواقع» («Une jeune femme célibataire décide de garder l'enfant qu'elle attend. Celui-ci naît autistique [...]. L'enfant-acteur est réellement autistique»),

● عرضٌ لمسرحيةٍ تتحدّث عن اضطرابات المراهقة، ومفاده: «إنّ المثلّين الذين يؤدّون هذا الدور هم فعلاً بعمر المراهقة...» («Les acteurs ont vraiment l'âge du rôle...»)، إذ إنّ للمحاكاة أحكامها دائماً.

هؤلاء المنطقيّين هو همٌّ فاضحٌ هدفه ردّ اعتبار المحسن البيانيّ وتبرئته من اتّهامات الكذب الذي قد يجعلنا عُرضَةً له. وثمّة ميلٌ مُثبَتٌ لدى مستخدمي المحسن البيانيّ أنفسهم يُردِّد صدى هذا القلق نفسه، حيثُ إنَّهم يدعمونه بكلمات ذاتيّةٍ تكون بدورها كاذبةً (أو بالأحرى بيانيّةً) من مثل «صحيح» _(«vrai») و«حقيقيّ» («véritable») و«حقّاً» («vraiment») و«حرفيّاً» («littéralement»). ونستنتج بالتالي أنَّ المحسن البيانيّ غالباً ما يتمحور حول صيغة الإنكار («ليس هذا محسناً بيانيّاً»).

وبناءً عليه، تتضارب الآراء بشأن المحسن البيانيّ، فالبعض يُدينه والبعض يردّ له اعتباره، وآخرون يوازنون أخيراً بين هذَين الموقفَين قائِلين بأنَّ المحسنات البيانيّة لا تُشكِّل أكاذيب حقيقيّةً بكلّ ما للكلمة من معنى لأنَّها تدَّعي، على صعيد معناها الحرفيّ على الأقلّ، أنَّها تقول الحقيقة، وفي حال وُجِد الكذب، فهو كذبٌ نزيهٌ و«شرعيٌّ» - حتّى بالمعنى القانونيّ الضيّق لهذا المُصطلح، لأنَّ قراراً قد صدَرَ مؤخَّراً عن محكمة الاستئناف في باريس وينصُّ على أنَّ الإعلانات التي تستثمرُ بعض المحسنات البيانيّة المُصرَّح بوضوح بأنَّها كذلك، لا تقع تحت طائلة القانون الذي يُحظِّر الدعاية الكاذبة، فعلى سبيل المثال، ادَّعت الشركة المنافسة ديلسي (Delsy) على إعلانٍ لحقيبة سامسونايت (Samsonite) صوَّرته وكالة .T.B.W.A متَّهمةً إيّاها بالدعاية الكاذبة لأنَّها اصطنعت مباراة كرة قدم أدَّت فيها الحقيبة المذكورة دور الطابة في حين جسَّدت الجرَّافات صورة اللاعبين. وقد صمدت حقيبة السامسونايت أمام الضربات العنيفة... ويكمن الكذب، بحسب الادِّعاء الذي تقدَّمت به شركة ديلسي، في أنَّ عدَّة حقائب قد كُسِرت أثناء تصوير هذا الإعلان، ففي حكم البداية، فصلت محكمة الجنح في باريس لصالح الفريق المُدَّعي حيثُ حكمَتْ بما يلي: «باعتبار أنَّ مثل هذا التمثيل الموجَّه إلى جمهورٍ واسعٍ ليس مُذيَّلاً بأيّ مُلطِّفٍ، كأيّ ملاحظةٍ تهكُّميّةٍ أو تخيُّليّةٍ، فهو يفتقرُ والحالة هذه إلى الطابع الخياليّ أو الوهميّ الكافي لإزالة أيّ لَبس من ذهن المُشاهد». بيد أنَّ رأي محكمة الاستئناف كان مُغايراً إذ لم يفتها أن تتنبَّه إلى أنَّ مشهد الجرَّافات وهي تتقاذفُ حقيبةً على ملعب كرة القدم ليس بالمشهد المألوف. وقد علَّلت المحكمة في قرارٍ جديرٍ بالملاحظة دائرة اختصاص الدعاية وثقافتها [...]. هذا وقد نوَّهت بدرايةٍ بأنَّ «من تبعات هذا التطوُّر أن يجعل حدود جنحة الدعاية الكاذبة تتقهقر بالضرورة، في نطاق أنَّ الغلوّ الدعائيّ الذي تزوِّدنا الملاحظة

اليوميّة بأمثلةٍ لا تُحصى عنه، عاجزٌ في نهاية المطاف عن خداع أيّ شخصٍ عبر مبالغته ومغالاته»»[100]. ولكن، وبعد كلّ حسابٍ، إنَّ المحسن البيانيّ هو ضربٌ من ضروب الكذب، ولذلك فمن الشائِن أن نُنتِجَ المحسنات البيانيّة ـ فكلّ هذه التسويفات التقويميّة التي تركن إلى الطابع الهجين الذي يتّصف به المحسن البيانيّ الذي يكذبُ على صعيد محتواه الحرفيّ، في حين أنَّه يكون صادقاً على مستوى محتواه المُشتقّ، وهو تحديداً المعنى الذي يتحمّل المتكلّم مسؤوليّته ويودُّ أن يُقيمه مقام المعنى الحرفيّ، حين تتعلّق المسألة على أيّ حالٍ بِـ «محسنٍ بيانيٍّ حسن النيّة» (ولا تكون هذه الحاله حكماً حالة المحسنات البيانيّة الإعلانيّة التي لا نكون واثقين تمام الثقة إذا كانت ترمي دائماً إلى «الإيصال إلى الحقيقة نفسها»).

● أمّا المحسن البيانيّ السيِّئ النيَّة، فيُشبه الكذبة بلا منازعٍ لأنَّ غرضه الخِداع.

وهو يُشكِّلُ في الوقت نفسه حالةً خاصّةً من حالات سوء النيَّة، إذ إنَّ ترسيمته هي نفسها تلك التي محّصناها في الفقرة 2)، ولكن شرط أن نُحدِّدَ أنَّه يُفترَض بنا في هذا الصدد أن ننظر إلى المُحتوى الأوّليّ «ح'» باعتباره يُشكِّل محتوى الرسالة الكلاميّة الأساسيّ الواجب نقله. كما أنّه حالةٌ خاصّةٌ من حالات المحسن البيانيّ، إذ باعتبار أنَّ المتكلِّم يكون غير مستعدٍّ لتحمُّل مسؤوليّة المحتوى الأوّليّ «ح'»، فهو يوحي بأنَّه قد أدلى بالمحتوى البيِّن «ح» دون سواه[101].

لا نقع على هذا النوع من طرق العمل إلاّ في المحسنات البيانيّة التي يُضاف فيها المحتوى المُشتقّ، على الرُّغم من كونه مُهَيمناً مقارنةً بالمعنى البيِّن، إلى هذا الأخير من دون أن يحلَّ محلَّه (إذ لا يُقصي المحتوى الأوّليّ «ح'» المحتوى البيِّن «ح» كليّاً)، ممَّا يُفسحُ للمتكلِّم إمكانيّة «التراجع» عن المحتوى الأوّليّ «ح'»، فعلى سبيل الذكر لا الحصر، أعتبرُ في السواد الأعظم من «المحسنات البيانيّة الإضماريّة»، قولاً من مثل:

«أقلع بيار عن تعاطي المخدَّرات» («Pierre a cessé de droguer») باعتباره يُشكِّلُ «محسناً بيانيّاً سيِّئ النيَّة»، وذلك في حال كانت لديّ أسبابٌ وجيهةٌ تدفعني للاعتقاد بأنَّ وظيفته الأساسيّة تكمن في إعلامي بأنَّ بيار كان يتعاطى المخدرات

---

(100) مثلٌ مأخوذٌ عن فيليب غافي في مجلة: *Libération* (28 avril 1983), p. 8.

(101) وبتعبيرٍ آخر، إنّ العلاقة التي تشدّ أواصرها مجموعة المَحاوِر التي تضع سوء النية في مقابل حسن النيّة، والمحسن البيانيّ في مقابل اللاّمحسن بيانيّ، هي علاقةُ تصنيفٍ متقاطعٍ.

في السابق (وبالتالي يكون المحتوى الأوَّليّ «ح'» «مُبيَّناً» بشكلٍ أساسيّ)، مع أنَّ المتكلِّم يدَّعي أنَّه قصَدَ إيصال المحتوى البيِّن «ح» إليَّ دون سواه. وهذا كذلك هو شأن بعض حالات المحسنات البيانيّة الكلاميّة المنطوقة، باعتبار أنَّها حين تكون اتِّفاقيةً بقوَّةٍ فهي تُشبِهُ تماماً طرق العمل الاستعاريّة أو التهكُّميّة، أمّا حين تكون «ابتكاريّةً» (كما هو الحال في عبارة «الجوّ حارّ هنا!» «Il fait chaud ici!»)، فيستطيع المتكلِّم أن يلجأ إلى الإنكار للهروب وأن يدَّعي بأنَّه لم يرمِ مُطلقاً إلى قول المحتوى الأوَّليّ «ح'».

تلخيص

- من وجهة نظر «قانون النزاهة»، إنَّ وضع مختلف حالات الصور التي تأمَّلنا فيها آنفاً هو كالآتي (من دون العودة إلى حالة «المحسن البيانيّ الحسن النيَّة» الذي سبق وأشرنا إلى ازدواجيّته): يتمّ احترام هذا القانون احتراماً تامّاً وناجِزاً في الفقرة 1) ممّا يسمح لنا بالتحدُّث في هذا الصدد عن تواصلٍ «عاديٍّ»، في حين أنَّه يُنتهك في المقابل في الفقرة 2)، باعتبار أنَّ الكذبة هي قولٌ ذو محتوى خادع بيِّنٍ. وهذا هو كذلك شأن الفقرة 3)، لأنَّ المتكلِّم ذا النيَّة السيِّئة يسعى إلى تأكيد محتوى مضمرٍ لا يتحمَّل مسؤوليَّته، وغالباً ما يكون هذا المحتوى كاذباً[102] فضلاً عن ذلك.

- قد يقع سوء النيَّة في مرحلة الترميز كما في مرحلة فكّ الترميز، وقد ننسبُه إلى المتكلِّم أو إلى المُحاوِر، وإليكم المثل الآتي:

المتكلِّم (مارّاً برفقة المخاطب أمام محلّ الحلويات): انظر إلى قوالب الحلوى هذه إنَّها المُفضَّلة لديّ.

---

(102) نظريّاً، بوسعنا أن نُميّز بين المقامات الأربعة التالية:

(1) يتحمّل المتكلّم مسؤولية المحتوى الأوّلي (م') الذي لا يكون كاذباً.

(2) يتحمّل المتكلّم مسؤولية المحتوى الأوّلي (م') الذي يكون كاذباً.

(3) لا يتحمّل المتكلّم مسؤولية المحتوى الأوّلي (م') الذي لا يكون كاذباً.

(4) لا يتحمّل المتكلّم مسؤولية المحتوى الأوّلي (م') الذي يكون كاذباً.

في المقام الأوّل (1) يكون التواصل عاديّاً؛ ولقد سبق لنا أن تأمّلنا في المقامَين الثالث (3) والرابع (4) تحت خانة «سوء النيّة»؛ وقد نوّهنا بأنّ المقام الرابع (4) كان بلا ريب مألوفاً أكثر من المقام الثالث (3). ولكن ثمّة إشكاليةٌ، ألا وهي: هل إنّ المقام الثاني (2) (الذي قد يُشكّل أيضاً حالة من حالات سوء النيّة التي نُحدّدها من وجهة نظرنا عبر واقع أنّ المتكلّم لا يتحمّل مسؤولية المحتوى الأوّليّ (م') الذي يكون إمّا كاذباً أو (لا) مُثبتٌ؟

المخاطب: ولكن لا تقل لي إنَّك ستتناول الحلوى الآن!

المتكلِّم: ولكنَّني لم أعنِ قول ذلك! هل بات ممنوعاً أن أدلَّك حتّى على قوالب الحلوى المُفضَّلة لديّ...

(L$_1$ (passant en compagnie de L$_2$ devant une pâtisserie). - Regarde, j'adore ces gâteaux-là.

L$_2$. - Tu ne vas tout de même pas manger des gâteaux à cette heure-ci!

L$_1$. - Mais je ne voulais pas dire ça! Si je ne peux même plus te montrer les gâteaux que j'aime...)

يؤوِّلُ المخاطب قول المتكلِّم باعتباره محسناً بيانيّاً كلاميّاً منطوقاً، إلاّ أنَّ هذا الأخير يتمسَّك بحسن نيَّته في حرفيّة ما أدلى به، فيقع سوء التفاهم لأنَّ المخاطب يستخرجُ من القول استدلالاً لم يُرمِّزه المتكلِّم فيه - إن صدَّقنا مزاعمه على أيّ حالٍ. ولكن قد يكون المتكلِّم، كما المخاطب، سيِّئ النيَّة، إذ قد يتظاهر هذا الأخير، بقصد الشجار مع المتكلِّم، بأنَّه خال أنَّ المسألة تتعلَّق بمحسنٍ بيانيٍّ في حين أنَّ قلبه قد حدَّثه بأنَّ الوضع ليس كذلك. أو حتّى قد ينكر المُتكلِّم بعد حينٍ وجود المحسن البيانيّ أو قد ينفيه، مع أنَّه كان يودُّ في البداية أن يُصار إلى تحديده.

وإليكم أيضاً هذا الوصف الإيضاحيّ الأكثر تبسيطاً بعد، ألا وهو:

إذا ما تأمَّلنا في جميع الإمكانيات التركيبيّة بين مختلف طرق الترميز وفكّ الترميز، مع الأخذ بالحسبان واقع أنَّ مثل هذه الأحكام غالباً ما تكون مُشوَّشة الوضوح بل وحتّى «لابتيّة» صراحةً، نجد أنَّ عدد حالات الصور المتعلِّقة بتبادلٍ بريءٍ ظاهريّاً كالتبادل الذي رأيناه في المثل المذكور آنفاً، له وقعٌ جدّ مؤثِّرٍ.

- يبقى أن نحدِّد وضع «فِكر المتكلِّم الحقيقيّ» نسبةً إلى قضية (اللا)تساوق بين الترميز / وفكّ الترميز التي طرحناها في الأساس.

ويبدو في الواقع، من زاوية وجهة النظر هذه، أنَّ المستويَين 1 و2 وحدهما، إلى جانب المستوى صفر طبعاً، يتَّصفان بالملاءمة بحيث يُنظر إلى الشَّخص الذي يُحدِّد ادِّعاء المتكلِّم ونيَّته الدالَّين في القول باعتبار أنَّه قد «فهِمَ القول» على أكمل وجهٍ، في حين أنَّ مَن يفوته إدراكهما يكون قد فاته فهم القول. هذا ونستطيع أن نتحدَّث عن «لا تساوقٍ جزئيّ» حين يُدرك المُحاوِر وجود عنصرٍ واحدٍ فقط من هذَين العنصرَين. وبتعبيرٍ آخر، نجد لاتساوقاً بين الترميز /

وفكّ الترميز (سواء كان جزئيّاً: على غرار «أو» («ou»)، أم تامّاً: أي «و» («et»)) ما إن يُحدِّد المُحاوِر بطريقةٍ خاطئةٍ ادِّعاء المتكلِّم و/أو نيَّته الدالَّة ـ اللَّذين غالباً ما يتطابقان لحسن الحظّ.

وبناءً عليه، يتجلَّى تحديدنا الأخير لمعنى القول على الشَّكل الآتي: يعني القول ما يعتبر الأشخاص الذين يتلقّونه (بخطأ أو بصواب، بطريقةٍ حقيقيّةٍ أم مُصطنعة، عن حسن أو سوء نيَّةٍ) أنَّه يُشكِّل ادِّعاء المتكلِّم أو نيَّته الدلاليَّيَن التداوليَّيَن التواصليَّيَن في هذا القول.

أمّا بالنسبة إلى المستوى الثالث (3)، فإنَّ وضعه يختلف عن وضع المستويَين المذكورين آنفاً، إذ من البديهيّ أنَّ عدم التعرُّف على ما يجول فعلاً في خُلد الكذَّاب لا يُعدُّ تأويلاً خاطئاً لقوله. وعلى سبيل المثال، إذا أبلغني بيار أنَّه نجح في الامتحان، فإذا كان هذا القول خاطئاً أو في حال كان بيار يعلمُ أنَّه خاطئٌ، أم في حال كان يرمي إلى حملي على الاعتقاد بأنَّ قوله صحيحٌ (فإنَّ بيار لا يتهكَّم)، وحتّى إنْ ظننتُ حقّاً أنَّ قوله صحيحٌ، فأنا لا أرتكب «معنى معكوساً» بشأن قوله. وعليه، يكون المستوى الثالث من وجهة النظر هذه غير ملائم.

ولكن، تبعاً لما يجول في خاطر المُحاوِر عمّا إذا كان المتكلِّم يُفكِّر فعلاً بما قاله أم لا، فهو لن يصدر الحكم نفسه على القول، بحيث إنَّه سيجده قولاً كاذباً (وبالتالي يكون قائِله كذَّاباً) وتُلصَق به وصمةٌ خاصّةٌ (وشائنةٌ) في حال اتَّضح أنَّ المستوى الثالث لا يتطابق مع المستويات الأخرى.

وختاماً، إليكم المبدأ الآتي: تَدمُجُ أحياناً الآليّات التأويليّة، إلى جانب تعرُّف المُحاوِر على ادِّعاء المتكلِّم ونيَّته في قوله، بعض تقويمات هذا القول الإضافيّة، بحيثُ يتمّ تأويله كذلك بمقتضى الصدق /أو الكذب مثلاً، أو أيضاً الحقيقة /أو الخطأ ـ ولكن هذا بحثٌ آخر[103].

(103) وقد تطرّقنا إلى هذا الموضوع في مقالة كتبناها تحمل عنوان «التجوال في ميدان الحقيقة» («Déambulation en territoire aléthique»). هذا وقد نعطي طبعاً أنماطاً عديدة أخرى من الأحكام – عن الملاءمة والأناقة، إلى آخره. . . – بشأن الإنتاجات الخطابية التي يولِّدها شخصٌ ما.

الخاتمة

«لا يسعنا أن نحكمَ من دون أن نوجِزَ في الكلام» («On ne saurait gouverner sans laconisme»)، وتصلح هذه العبارة التي جاءت على لسان سان جوست (Saint-Just) للحكّام وحدهم. ذلك أنّنا لا نستطيع أن نعبّر عن كلّ شيء تعبيراً صريحاً، ولو كان صحيحاً معايرة الافتراضات والمُضمَّنات معايرةً دقيقةً (ويؤكّد جاك[1] ما يلي: «هناك حدّ أمثل لتوزيع الافتراضات: المبالغة في الإقلال منها تجعل المحادثة غير قابلةٍ للحياة، والإكثار الزائد منها يجعل المحادثة غير خصبة»)، فالافتراضات والمضمَّنات ضرورة تعبيريّة تتحدَّر من مبدأ الاقتصاد اللُّغويّ من جملة أمورٍ عديدةٍ، مثلما ينوّه به أرسطو[2] بشأن القياس بمقدِّمةٍ واحدةٍ، قائلاً: «يجب أن يرتكز القياس بمقدِّمةٍ واحدةٍ على عددٍ ضئيلٍ من الجُمَيلات أي على عددٍ من الجُمَيلات أقلّ من عدد تلك التي تؤلِّف القياس العاديّ، فإنْ كانت إحدى الجُمَيلات ترتبط بأمرٍ مألوفٍ، يكون من النافل الإتيان على ذكرها لأنَّ المُستمع سيُتمِّمُها من تلقاء نفسه مُتلافياً بذلك النقص [...]. وهكذا، لا ينبغي علينا أن نربو عالياً في تدليلنا المنطقيّ - وإلاّ تسبَّبَ طولُ البرهان بالغموض - ولا أن نُشيرَ كذلك إلى كلّ المراحل التي تُفضي إلى خلاصتنا - لأنَّ ذلك يُعدُّ إسرافاً في استعمال الكلمات لقول ما يكون غنيّاً عن القول». وإن كانت المحتويات المُضمَرة تتوالد إيثاراً في الأقوال السياسيّة أو الإعلانيّة أو حتّى اليوميّة بمقتضى استثماراتٍ استراتيجيّةٍ تُفسِحُ بتواطؤ المجال لها، فهذا لا يمنع أن

(1) Francis Jacques, *Dialogiques: Recherches logiques sur le dialogue*, philosophie d'aujourd'hui (Paris: Presses universitaires de France, 1979), p. 170.

(2) والذي استشهد به بلانشيه في: Robert Blanché, *Le Raisonnement*, bibliothèque de philosophie contemporaine (Paris: Presses universitaires de France, 1973), pp. 260-261.

نُصادفها أيضاً في بعض أنماط الخطابات التي لا تندرج بنوع خاصٍّ في خانة الخطابات التلاعبيّة، وأبرزها: الخطاب القانونيّ[3]، وخطاب العلماء بالرياضيّات (فمثلاً، يؤكِّد لوسيرف[4] (Lecerf) ما يلي: «إنَّ العلماء بالرياضيّات مُلمّون بالتمييز بين المُضمَر والبيِّن»)، أو العلماء بالمنطق الذين يتداولون بدورهم أيضاً بعض أشكال المُضمَر حتّى وإن اختلفت هذه الأشكال عن الحسابات التي يُنجِزُها «الشَكلانيّون» (على غرار القبّعاتيّ مثلاً في الفقرة التالية المُقتبسة من كتاب **أليس في بلاد العجائب**)، فضلاً عن «علماء الطبيعيّات» (الذين يأخذون بالحسبان وجود الافتراضات ومفعول قوانين الخطاب، على غرار أليس)، كما في المثل الآتي:

- أترغبين في المزيد من الشاي، قال أرنب آذار برصانةٍ لأليس.

- لم أشرب الشاي أصلاً، أجابته أليس مُهانةً. ولا أفهم كيف يُمكنني أن أشرب المزيد منه.

- تقصدين القول إنّك لا تستطيعين شرب كميّةٍ أقلّ من الشاي، قال القبّعاتيّ. ثمّ أردف قائلاً: إنّه لمن اليسير أن نشرب المزيد من لا شيء[5].

(- Reprenez donc un peu plus de thé, dit gravement le Lièvre de Mars à Alice.

- Je n'en ai pas encore pris, répondit Alice d'un ton offensé. Je ne vois pas comment je pourrais en prendre plus.

- Vous voulez dire que vous ne pouvez pas en prendre moins, dit le Chapelier: car il est très facile de prendre plus de rien).

وعليه، تكون المحتويات المُضمَرة موجودة في كلّ مكان[6]، وليس ثمّة ما يدعو بالضرورة إلى القلق من ذلك، فالبرُّغم ممّا تنصُّ عليه قاعدة الصيغة، لا بدّ

---

(3) راجـــــع: Danièle Bourcier, «Information et signification en droit: Expérience d'une explicitation automatique de concepts,» *Langages*, no. 53 (mars 1979), et Ejan Mackaay, «Les Notions floues en droit ou l'économie de l'imprécision,» *Langages*, no. 53 (mai 1979).

(4) Yves Lecerf, «Des sous-univers du discours qui seraient dégagés à la fois du sens et de la forme. Application en syntaxe,» *Langages*, no. 55 (sep. 1979), p. 90.

(5) Lewis Carroll, *Lewis Carroll. Alice au pays des merveilles et de l'autre côté du miroir* = *[Alice in Wonderland et Through the Looking-Glass]*, traduction de André Bay..., illustré par John Tenniel, [Lewis Carroll, par André Maurois] (Verviers: Gérard et Cie, 1963), p. 92.

(6) ومن المُثير للاهتمام أن نلقي نظرةً على طريقة عمل المُضمَر في أنظمةٍ سيميائيّةٍ أخرى، من مثل: كلام الإشارات والتصرّفات، وكلام الصّور، إلى آخره. وإليكم بعض الأمثلة التي تُبيّن وجود المُضمّنات في الرسائل الكلامية الأيقونيّة، فمثلاً:

● نميل على نحوٍ مجازيٍّ مُرسلٍ إلى اعتبار المواد الغذائيّة المصوّرة على مُغلّف الشورباء أو على غلاف طبقٍ=

من الإقرار بحقّ المُتكلّم في إنجاز فعل القول المُضمَر، لأنّه يُخفّف من حدّة

= مطبوخ جاهز بمثابة المكوّنات التي يتألّف منها هذا الطبق - ويحضرنا عددٌ من الأمثلة عن دعاوى قضائيّة ذات صلة بهذه الإشكاليّة.

● تعني حرفيّاً شارة التنبيه التي كُتب عليها «تقاطع سان أندريه» («croix de Saint-André») المرفوع على إحدى لافتات المرور على الطريق، ما يلي: / تقاطع طريقين ذواتي أهميّة متكافئة/ (de deux voies d'égale importance)، بيد أنّه يُشير فضلاً عن ذلك بوجوب احترام أفضلية المرور إلى اليمين، إذ قد تُعتبر وحدة المعنى هذه بمثابة الاستدلال المتحدّر من المعنى الحرفيّ.

● وأخيراً، إليكم هذا المثل عن رسالةٍ كلاميّةٍ أيقونيّةٍ مَرموزة، ألا وهي: «خرقت صرخةٌ صامتةٌ مُذهلةٌ [في تشيكوسلوفاكيا] جدار السنين بواسطة القيد الأغرب، ألا وهو: العملة، إذ صُوِّرَ على الوجه الأوّل من الورقة النقدية من فئة العشرين كورون المصكوكة في خريف عام 1968، النصف الأعلى من جسم جان زيزكا، وهو زعيم هوسيٌّ يحجب عينه اليسرى على نحوٍ مُريب. أمّا على الوجه الثاني منها، فقد صُوِّر الشعب الهوسيّ، الرائد للاشتراكيين الطوباويين، يقوده إلى العاصمة تابور قسٌّ له يدَين يُسريَين. وتعني عبارة «أن يكون للمرء يدَين يُسريينَ» في اللّغة التشيكيّة أن «يكون أبله». ونستنتج بالتالي ما يلي: إنّ الشعوب الاشتراكية يسوسها الأغبياء. أمّا إذا حنيناها بطريقةٍ معينةٍ، يكشف القسم الأعلى من جسم زيزكا عن وجه جان بالاش المُحترق. كما نقرأ الأحرف الأجنبيّة .S.O.S التي ترمز إلى نداء الاستغاثة، مُكرّرةً إلى ما لا نهاية له في الأشكال الحلزونية الدقيقة المُحيطة بالرقم 20» (مثلٌ مُقتبسٌ عن: Marie Muller, *Le Nouvel observateur* (10 nov. 1980), p. 60) («[En Tchécoslovaquie], un hallucinant cri silencieux a pourtant traversé les années. Par la plus étrange des chaînes: l'argent. Le billet de vingt couronnes, émis à l'automne de 1968, représente, d'un coté, le buste de Jan Zizka, un chef hussite à l'œil gauche étrangement voilé. De l'autre, le peuple des hussites, précurseur des socialistes utopiques, conduit à Tabor, sa capitale, par un moine aux deux mains gauches. «Avoir deux mains gauches», en tchèque, signifie «être un crétin»: les peuples socialistes sont conduits par des crétins. Si l'on plie le billet d'une certaine façon, le buste de Zizka révèle le visage brûlé de Jan Palach. Dans les volutes minuscules entourant le chiffre 20 sont répétées à l'infini les lettres: S.O.S.... S.O.S.... S.O.S....»),
(وقد لجأ البولونيّين إلى استعمال أسلوبٍ مماثلٍ في خريف عام 1982، حيثُ تُظهر العلامة المائيّة في الورقة النقدية في فئة الألفين زلوتي وجه واليزا ((Walesa)).

أمّا بالنسبة إلى الرموز الهامشية الكلامية ـ كالنظرات مثلاً ـ فلها على ما يبدو وضعٌ لا يخلو من الغرابة، لأنّ دلالتها تكون في آنٍ:

● مُضمَرةً (إنْ كان صحيحاً أنّ المُضمَن يتميَّز بإمكانياته الإنكارية) بحيثُ «قد يُعبّر النظر عن كلّ ما يجول في الخاطر، كما تكون إمكانية إنكار ما قاله النظر متاحةً دائماً أمامنا» (نقلاً عن الفصل الثالث والعشرين من كتاب: Stendhal, *De l'amour* («*On peut tout dire avec un* regard, et cependant on peut toujours nier un regard»)؛ وكذلك يؤكّد جان روسّي أنّ تبادُل النظرات يُشكّل نوعاً من «حوارٍ مُنمّقٍ ذي طابع غير مباشرٍ دائماً» - مثلٌ مأخوذٌ من كتاب: Jean Rousset, *Leurs yeux se rencontrèrent: La Scène de première vue dans le roman* (Paris: Librairie José Corti, 1981), p. 121.

● وجليّةً بدرجةٍ أكبر من درجة جلاء دلالة الرموز الكلامية نفسها (ويقول ماريفو في كتابه **حياة ماريان** (*La Vie de Marianne*) ما يلي: «قال لي «أحبُّكِ» ألف مرّةٍ ولكنّه بدا وهو يقولها أقلّ وضوحاً من الأيّام الخـوالي» («en me disant mille fois: Je vous aime, il me l'aurait dit moins intelligiblement qu'il ne le fit alors»)).

«الأفعال المُهدِّدة للوجوه»، لا بل أيضاً لأنّه يتمحور حول صيغة تشوُّش الوضوح، كون الاستدلال لا يتساوى مُطلقاً وترجمته بتعابير بيِّنةٍ (ولا يجدر برأينا اعتبار تشوُّش الوضوح بمثابة «التشوُّش» الصرف، أي بصفته حصرياً خاصيّةً سلبيّةً من خصائص المعنى)، وكذلك لأنّه يفرضُ أخيراً نوعاً من التشويق التأويليّ الجزئيّ، كما في المثل الآتي:

فرانشيز: اقترح عليَّ د. الذي أكنُّ له كلّ مودَّةٍ، أن نخرجَ معاً ذلك المساء، ولكن بما أنّني كنتُ أراه بشكلٍ مُكثَّفٍ في الأيّام الفائتة، ونظراً إلى أنّه كان يُضجِرُني أحياناً، فقد رفضتُ اقتراحه، وتحجَّجتُ بأنَّ المطعم الذي ذكره لا يُغريني وبأنَّه لا رغبة لي كذلك بالذهاب إلى الحانة اللَّيليّة التي اقترحها لاحقاً. بيد أنّني التقيته بعد بضع ساعاتٍ في حانةٍ ليليّةٍ أخرى، فأثار جلبةً واتَّهمني بأنّني «لستُ صريحاً»، إذ كان الأجدر بي أن أقول له ببساطةٍ إنَّني لا أرغب في الخروج معه. ولكن كيف لي أن أشرح له أنّه كان مُصيباً تماماً، إلاّ أنَّ مجرّد التفكير بقول ذلك كان يتخطّى حدود تفكيري؟

أن نطلبَ من الآخر أن يكون صادقاً وصريحاً، غالباً ما يعني أن نُرغِمَه على التخلّي عن طريقته في التعبير واعتماد طريقة تعبيرنا، فمثلاً، تعني جملة «لا أودُّ أن أطارحَكِ الفراش، لأنّني أجدكِ قبيحةً وغبيّةً»، بحسب طريقة تعبيري الخاصّة (التي لا تخصُّني وحدي لحسن الحظّ)، ما يلي: «كلا فأنا حقّاً منهوك القوى هذا المساء». وتُعدُّ المُطالبة بترجمتها أو مجرّد ادّعاء عدم فهمها، ممارسةً للضغط عليّ بشكلٍ تعسُّفيّ. كلا، فأنا لم أقصد أن أقول «إنّك قبيحةٌ وغبيّةٌ» فهذا تحديداً ما لا أودُّ قوله، فجلّ ما في الأمر «أنّني حقّاً منهوك القوى هذا المساء» فقط، ولا يعني ذلك أنّني أكون هكذا دائماً (الأمر الذي سيكون فظّاً)، ولا يعني ذلك «أنّك لا تعجبينني» دائماً. وكذلك، فإنَّ عبارة «كلا، لسوء الحظّ إنّني مُرتبطٌ اليوم، وغداً أيضاً» لا تعني بالضرورة «أنّني لا أرغب في رؤيتك». أن نفكَّ شيفرة مثل هذه الرسائل الكلاميّة والرموز التابعة لها، يعني أن نُظهِرَ تُجاه الآخر احتراماً أكثر نُبلاً مُقارنةً بمُقتضى «نزاهته» البوجاديّة(*). ويُعدّ إصدارها بمثابة الإجلال لقدر المُناظِر أكثر بكثير من «الصراحة» المزعومة، لأنّنا نفترض أنّه لبيب وسيفهمُ من

(*) هي صفةٌ تُطلقُ نسبةً إلى الحزب البوجادي وهو تيّارٌ سياسيٌّ ونقابيٌّ أرسى أسسه بيار بوجاد (Pierre Poujade)، ويتولّى الدفاع عن التجّار وأصحاب الحِرف اليدوية.

تلقاء نفسه المعنى المقصود»[7]،

(FRANCHISE. - D., que j'aime bien, mais que j'ai beaucoup vu les jours précédents, et qui parfois m'ennuie un peu, me propose de sortir avec lui ce soir-là, à quoi je réponds que non, le restaurant qu'il a mentionné ne me tente pas tellement, ni d'aller ensuite dans telle boite. Mais quelques heures après, je le rencontre dans une autre. Il me fait une scène et me dit que je ne suis «pas franc»: j'aurais dû lui dire simplement que je n'avais pas envie de sortir avec lui. Comment lui expliquer que c'était parfaitement exact, mais que de le lui dire, cependant, aurait dépassé ma pensée?

Exiger de l'autre sa sincérité, sa franchise, c'est trop souvent vouloir le forcer à sortir de sa langue et à entrer dans la vôtre. Si «je n'ai pas envie de coucher avec toi parce que je te trouve moche et con» se dit dans ma langue (qui heureusement n'est pas qu'à moi) «non, ce soir, je suis vraiment crevé», exiger que je traduise, ou simplement s'obstiner à ne pas me comprendre, c'est faire abusivement pression sur moi. Non, ce que je veux dire, ce n'est pas «tu es moche et con», c'est même exactement ce que je ne veux pas dire. Seulement «ce soir je suis vraiment crevé» ne signifie pas toujours (c'est ça qui serait grossier), ne signifie pas toujours «tu ne me plais pas», de même que «non, aujourd'hui je suis pris, malheureusement, et demain aussi» ne signifie pas forcément «je n'ai pas envie de te voir». Décrypter de tels messages, et leurs signes annexes, c'est consentir à l'autre une attention autrement généreuse que l'exigence poujadiste de sa «sincérité». Les émettre, c'est montrer beaucoup plus d'estime pour le correspondant que ne fait la prétendue «franchise», puisque c'est le supposer intelligent, et qu'il va comprendre»),

وبما أنَّ الشيء بالشيء يُذكَر، فإنَّ هذه الفقرة تُذكِّرُنا بفقرةٍ أقدم منها بكثيرٍ كتبها كامو (Camus) آخر، ألا وهي:

لا تُصدِّقوا خاصَّةً أصدقاءكم حين يطلبون منكم أن تُصدِقوهم القول. [...] فكيف يُعقَلُ أن تكون النزاهة شرطاً من شروط الصداقة؟ إذ يُعدُّ الميل إلى معرفة الحقيقة مهما كان الثمن بمثابة الشغف الجارف الذي يدوسُ على كلّ شيءٍ لبلوغ مبتغاه وما من شيءٍ يقفُ بوجهه. إنَّه عيبٌ أو رفاهيةٌ أحياناً أو حتّى أنانيّةٌ[8].

(Surtout, ne croyez pas vos amis, quand ils vous demanderont d'être sincères avec eux. [...] Comment la sincérité serait-elle une condition de l'amitié? Le goût de la vérité à tout prix est une passion qui n'épargne rien et à

---

(7) مثلٌ مُقتبسٌ عن رينو كامو، من كتابه: Renaud Camus, *Notes achriennes*, P.O.L.; 0181-6071 ([Paris]: Hachette, 1982), pp. 161-162.

(8) مثلٌ مُقتبسٌ عن: Albert Camus, *La Chute*, collection folio; 10 (Paris: Gallimard, [1974]), p. 88.

quoi rien ne résiste. C'est un vice, un confort parfois, ou un égoïsme).

وبتلازم، علينا أن نُقرَّ بحقّ المتلقّي بقراءة أفكار المُرسِل المُبطّنة وبالكشف عن المُضمَّنات المزروعة في حنايا أقواله - ويتمّ ذلك ضمن نطاق حدودٍ معيَّنةٍ، قد يُتَّهم المتلقّي إنْ تجاوزها بأنّه يُمعن في الذهان التأويليّ الذي يكون إمّا «فادحاً» أو «عَرَضِيّاً». وبحسب آلان فينكيلكرو، يُميِّزُ الذُهان التأويليّ «الفادِح» بشكله الجماعيّ تصرُّفَ المناضلين الثوريّين الذين ينكبُّون على التنقيب في أقوال غريمهم اللّدود عن الآثار الشائنة التي يتّصف بها فعل قول هذه الأقوال، وصولاً إلى حدّ إغفال بداهات الحرفيّة القوليّة (وإنْ جاز التعبير، إنّهم يُعرِّضون أنفسهم لتُهمة تحديد «المحسنات البيانيّة الإضماريّة التي تتناولُ افتراضاً تداوليّاً تواصليّاً» تحديداً تعسُّفيّاً ومنهجيّاً). وهكذا، يؤكِّد فينكيلكرو ما يلي: «إنَّهم يفشون الأسرار ويكشفونها ويعكفون على عربدةٍ تأويليّةٍ حقيقيّةٍ. مَن يتكلَّم؟ ولِمَ؟ وما هو مأربُه؟ وأيّ استراتيجيّةٍ يعتمدها كرافشينكو من خلال تنظيم هذه الدعوى التي تُثير جلبةً؟ مَن يقف وراءه؟ ومَن يُحرِّكه من خلف الستار؟ ومصلحة مَن تخدم هذه الجلبة؟ وما هي الدوافع الخفيّة لهذه العمليّة؟ [...] فهم يكتشفون ويستكشفون الرابط الأساسيّ الذي يجمع في الخطاب الشخص الذي يتكلَّمُ بالموضوع الذي يتكلَّمُ عليه [...] من خلال تحويل التقرير إلى إقرارٍ، أي من خلال تنفيذ انقلابٍ سيميائيٍّ غير مرئيٍّ يُجرِّد الرسالة الكلاميّة من وظيفتها الواقعيّة لصالح وظيفتها التعبيريّة فقط [...]، فهارباً من الحقيقيّ ليلوذ إلى حِمى التفسيريّ، ينظر كرافشينكو إلى زَيغه وكأنّه فيضٌ من نفاذ البصيرة (فالمسألة تتعلّق بكشف النقاب عمّا يكمنُ وراء المظاهر)، كما يعتبرُ صممه إصغاءً مرهفاً أكثر للتضمينات والمضمَّنات التي تُشكِّل حقيقة الآخر المُدلهِمَّة و«خامَة كلامه»[9] («Ils divulguent, ils démasquent: ils s'adonnent à une véritable orgie interprétative. Qui parle? Pourquoi? Dans quel dessein? Quelle est la stratégie de Kravchenko en organisant ce procès à grand tapage? Qui est derrière lui? Qui tire la ficelle? A qui profite tout ce tapage? Quels sont les mobiles secrets de l'opération? [...] Ils découvrent et explorent le lien essentiel, dans le discours, entre celui qui parle et ce dont il parle [...], par la

(9) Alain Finkielkraut, *L'Avenir d'une négation: Réflexion sur la question du génocide*, Fiction & Cie; 50 (Paris: Editions du Seuil, 1982), pp. 63-66.

transformation du rapport en aveu, invisible coup d'état sémiologique qui destitue la fonction réaliste du message au seul bénéfice de sa fontion expressive [...]. Fuyant le réel dans l'herméneutique, il vit son aveuglement comme un surcroît de lucidité (il s'agit de voir au-delà des apparences), et sa surdité comme une écoute plus fine des connotations et des sous-entendues qui sont à la vérité ténébreuse de l'Autre, la texture de sa parole). أمّـــــا بالنسبة إلى الذُهان التأويليّ «العرَضيّ»[10]، فيقول كامو عنه ما يلي: «كون الشخص الذي يعاني مرض الذهان التأويليّ «العرَضيّ» معتاداً دائماً أن يُنقّبَ في خطاب الآخر عن أمرٍ يجرحُه، فقد يصلُ به الأمر إلى حدّ التشكيك بكلّ الخطابات قاطبةً بما في ذلك خطاباته الخاصّة، أو القول بأنّها تنقلُ، لا بل تخفي، غير ما تُجاهِرُ به، على غرار المصالح الدنيئة والخبث المُغْرِض [...]. ويُعَدُّ الشخص المُصاب بالذهان التأويليّ «العَرَضيّ»، كونه مُستقصياً عن الطبقات ومُستكشفاً الفئات ومستغوراً بامتيازٍ، شخصاً مُباعِداً بالسَّليقة»[11]. ونستنتج أنّنا نستمدّ في الواقع هذه المُباعدة[12] من آليّة التعشيق ذات المستويات الدلاليّة التداوليّة التواصليّة اللامتناهية نظريّاً التي تُشكّل دلالة القول الشّاملة والتي يتسلسلُ واحدها من الآخر، ممّا يُعطيها، كما سبق وذكرنا، هيئة «البُنية الرقائقيّة» ومظهرها.

لقد سبق وشدَّدنا بشكلٍ كافٍ وافٍ على فرادة وضع المحتويات المُضمَرة،

---

(10) وإليكم المثل الآتي عن شخص مُصابٍ بذهانٍ نسائيّ (أو نسوانيّ)، ألا وهو: «لقد عانى هؤلاء الذين تزوّجوا بالأختَين الكبيرتَين الأمرّين لفكّ الرباط بينهما، لأنّهما كانتا لا تتفارقان، وتُنظّمان معاً سهراتٍ راقصةً للسيّدات، كما كانتا تبحثان دائماً عن محتويَين مزدوجَين في كلام الرجال» (Gabriel García Márquez, *Chronique d'une mort annoncée: Roman = Crónica de una muerte anunciada*, traduit de l'espagnol par Claude Couffon (Paris: B. Grasset, 1981), pp. 55-56) («Ceux qui épousèrent les deux aînées eurent un mal fou à rompre l'étau: elles étaient toujours ensemble, organisaient des soirées dansantes entre femmes, et cherchaient toujours un double fond dans les propos des hommes»).

(11) مثلٌ مُقتبسٌ عن: Camus, *Notes achriennes*, p. 163.

(12) يقول بارت في كتابه: Roland Barthes, *Roland Barthes*, écrivains de toujours; 96 (Paris: Editions du Seuil, 1975), p. 71,

ما يلي: «يسقط كلّ خطابٍ في شرك لعبة الدرجات التي يُمكننا أن نُطلق عليها اسم المُباعدَة. ولا يكون التعبير المُبتكَر تعبيراً زائداً، إذا ما لجأنا إلى فكرة علم جديدٍ، ألا وهو: علم تدرّجات الكلام».

ولا داعي لإعادة هذا الموضوع إلى بساط البحث، كما أنّه من غير الضروريّ أن نمحّص مجدّداً في الشكوك التي تُفضي إليها والصعوبات التي نتكبّدها أحياناً، ما إنْ تتعلّق المسألة بمضمَّنٍ، للإجابة عن أسئلةٍ جوهريّةٍ من مثل: هل نحن في هذا الشأن أمام تعارضٍ أم إطنابٍ أم خطأ أم كذبةٍ - وبالتالي هل من المُجدي نفعاً أو من الممكن (إلى أيّ مدى يُمكننا كشف الأفكار المُبطّنة؟) إخضاع المُضمَّنات للرقابة (فعلى سبيل المثال، يؤكِّدُ بيريلوفيتش[13] ما يلي: «غدا 'ما يُقال بطريقةٍ مُختلفةٍ' بنظر سالتيكوف سكودرين شكلاً من أشكال التعبير الفطريّ الذي كان يفهمه القرّاء، فوحدها الرقابة كانت عاجزةً عن فهمه بل لم يكن لها الحق بفهمه [...]. أمّا في الحقبة الحاليّة، فلمّا كان ثمّة رقابةٌ على المُضمَّن، لم تعُد هذه الطرق والأساليب [أي طرق وأساليب التعمية بفضل تقنيات «لسان إيزوب» الكلاسيكيّة] تفي بالمطلوب» («Pour Saltykov Scedrin l' «autrement dit» était devenu une forme d'expression naturelle, les lecteurs le comprenaient, seule la censure ne le comprenait pas et n'avait pas le droit de le comprendre [...]. A l'époque actuelle, alors qu'existe une censure pour sous-entendu, ces procédés [de camouflage grace aux techniques classiques de «la langue d'Ésope»] sont devenus insuffisants»)؟ ولقد وددنا في المقابل أن نُشدِّدَ على أنّه من الواجب برأينا أن نمنحَ المحتويات المُضمَرة مركزاً مساوياً في النموذج الوصفيّ الإيضاحيّ للمركز المُخصَّص للمحتويات البيّنة - حتّى وإنْ كان تسجيلها في القول حيثُ تتّخذُ نوعاً ما وضع «المحتويات عابرة السبيل المُستَتِرة»، يُعَدُّ في أغلب الأحيان خجولاً وعارِضاً، إذ لا يجوز أن ننسب إلى المحتوى دوراً ثانويّاً في طرق العمل الخطابيّة لمجرّد أنّه يكون أقلّ تأكيداً من سواه، ففي الواقع، يمكننا أن نؤكّد ما يلي:

1. يشتمل فهم القول فهماً شاملاً على فهم افتراضاته ومضمّناته[14] (وهكذا

(13) Alexis Berelovitch, «Autrement dit,» dans: *Essais sur le discours soviétique: Sémiologie linguistique, analyse discursive* (Grenoble: Université de Grenoble III, 1981), pp. 154 et 156.

(14) راجع: Michel Charolles, «Coherence as a Principle in the Interpretation of Discourse,» *Text*, vol. 3, no. 1 (1983),

والتمييز الذي يُنشئه بين الفهم «الجزئيّ» في مقابل «التامّ» (الذي يشتمل على استدلالات القول).

يُبرهن غي دينهيار[15] (Guy Denhière)، مُستنداً إلى مجموعةٍ من الاختبارات، أنَّه حين يُضطَر الأشخاص إلى تفسير نصّ سرديّ بأسلوبهم الشخصيّ أو تلخيصه أو حفظه غيباً، فإنَّهم يُعالجون الجُمَل المصوغة فيه صياغةً بيِّنةً أسوةً بتلك المصوغة فيه صياغةً مُضمَرةً). وبتلازم، يكمن قوام المشروع الألسنيّ اللُّغويّ من وجهة نظرنا في محاولة فهم كيفيّة استيعاب القول، ولا ننظر بعين الرضا إلى نموذجٍ أيّاً يكن ما لم يسعَ إلى توضيح كيفيّة تنفيذ عمليّة فكّ ترميز المحتويات المُضمَرة والبيِّنة على حدٍّ سواء؛ أي، إلى عَرْضِ الأجزاء المغمورة والبارزة في الأقوال بالطريقة نفسها وبالتساوي.

وسنورد بشكلٍ عابرٍ الإيضاح الآتي: إنَّ مقاربتنا للآليّات التأويليّة هي ذات طبيعةٍ ألسنيّةٍ لغويّةٍ وليست مقاربةً سيكولوجيّةً ألسنيّةً لغويّةً[16]، أي بكلامٍ آخر، إنَّني لا أدَّعي البتَّة أنَّ هذه «السلسلة التأويليّة» التي أحاول إعادة بنائها تعكسُ بأمانةٍ العمليّات التي يُنجزها فعليّاً متلقّو القول الفعليّون، فالمسألة تتعلَّق هنا بنموذجٍ وصفيٍّ إيضاحيٍّ مُصطنع يتدخَّلُ في تركيبه عددٌ لا يُستهان به من القرارات الاعتباطيّة (بشأن عدد حلقاتٍ هذه السلسلة مثلاً وترتيبها) أو القرارات التي لا تركن على أيّ حالٍ إلى أيّ ملاحظةٍ اختباريّةٍ، إلاّ أنَّني في الوقت نفسه لا أقوى على منع نفسي من طرح بعض التساؤلات حول ملاءمة هذا النمط من الوصف الإيضاحيّ السيكولوجيّة الألسنيّة، ومن تمنّي أن «تجري الأمور حقّاً على هذا المنوال...» ربَّما - مع إنكار إمكانيّة أن تكون اعتباراتٌ من هذا القبيل ملاءمةً لتثبيت هذه الملاءمة أو إبطالها، أي أنَّني بكلامٍ آخر، أجد نفسي بطريقةٍ ما إزاء إشكاليّة تأويل هذه الأقوال، في الموقف نفسه، غير المعصوم من قدرٍ معيَّنٍ من سوء النيَّة، الذي يتَّخذه التوليديّون إزاء إشكاليّة إنتاجاتهم.

2. و بنوعٍ أكثر تخصيصاً، تؤدّي المحتويات المُضمَرة دوراً حاسماً في إنشاء

(15) Guy Denhière, «Mémoire sémantique, conceptuelle ou lexicale,» *Langages*, no. 40 (1975).

(16) فمثلاً، من المؤكّد أنّ بعض الاستدلالات، على الرّغم من أنها عصيّةٌ عن الوصف إلاّ من خلال إعادة بناء عددٍ لا يُستهان به من الحلقات المتوسّطة، تُشكّل موضوع فهم شبه فوريٍّ من جانب الأشخاص الذين يفكّون الترميز ضمن نطاق أنّهم يكونون بلا ريب معتادين على «الأوزان المتعلّقة بالعلاقات التضمينيّة» التي يرتكز عليها استخراجها (وهكذا نواجه أحياناً صعوبات كبرى في الإيحاء بأنّ تصريحاً من مثل «أخجل حين أكون بجانب امرأةٍ جميلةٍ» («Quand je suis à côté d'une jolie femme, ça m'intimide») باعتباره يُشكّل مجاملةً على نحوٍ مُضمَرٍ وحسب.

التماسك النصّي، سواء كانت المسألة مسألة إنتاجاتٍ مونولوجيّة[17] لأنّ «أفعال الكلام الكبرى»[18] تتشكَّلُ أساسيّاً على مستوى القِيَم الكلاميّة المُشتقَّة، أم مسألةُ تبادلاتٍ حواريةٍ لأنَّه غالباً ما يتحقَّقُ المحتوى المُضمَر على قاعدة تسلسل كلام يتألَّف من ردٍّ يعقبُه ردٌّ آخر، بحيثُ يأتي ردّ المُخاطب ليدحض[19] افتراضاً أوْ مُضمَّناً يحتويه القول السابق الذي أدلى به المتكلِّم أو ليعترضَ أو ليُعلِّق عليه ببساطةٍ (وحتّى إنَّ بعض المحادثات وبعض التبادلات الاجتماعيّة تجري بشكلٍ أساسيّ، في بعض الأماكن التي يختلطُ فيها الفِكر بإتقان فنّ اللّعب بخفّةٍ بالمُضمَّنات، حول هذه الصيغة).

إليكم أيضاً هذا التبادل المأخوذ من نصٍّ مسرحيٍّ يحمل اسم «الانتباه للعمل»[20] (Attention au travail)، ألا وهو:

(1) المتكلِّم: أتعرف ما الذي سيسرُّني؟

(2) المخاطب: كلا، ماذا؟

(3) المتكلِّم: أن تناديني روبير.

[...]

(4) المتكلِّم: فأنا أرتبك عندما أكون بجانب امرأةٍ جميلةٍ.

---

(17) نستعمل عمداً في هذا الصدد الصفة «مونولوجيّ» («monologal») (بقصد نعت ما يُنتجه متكلّمٌ واحدٌ أوحد)، ونؤثِرها على صفة «مُسارّي ذاتيّ» («monologique») (ويُرجعنا التعارض القائم بين «مسارّي ذاتيّ»/ و«حواري» إلى إشكالية من نوعٍ آخر وإلى وجود، إن استعرنا مصطلحية دوكرو، قائلٍ واحدٍ أو أكثر).

(18) راجع على سبيل الذكر لا الحصر: Domenico Parisi and Cristiano Castelfranchi, «The Discourse as a Hierarchy of Goals,» *Documents de travail et prépublications. Centro Internazionale di Semiotica e di Linguistica. Universita di Urbino*, nos. 54-55 (1976), et Frédéric Nef, «Les Verbes aspectuels du français: Remarques sémantiques et esquisse d'un traitement formel,» *Semantikos*, vol. 4, no. 1 (1980).

(19) وحول إشكالية دحض مختلف أنماط المحتويات المُضمَرة، راجع: Jacques Moeschler, «Approche d'un acte de discours: La Réfutation dans le débat télévisé Giscard-Mitterrand (1974),» *Travaux du centre de recherches sémiologiques de l'université de Neuchâtel*, no. 35 (juillet 1979).

(20) عملٌ مُشترك لمسرح السلاماندر، عام 1979.

(5) المُخاطب: تقول ذلك لإرضائي [نحن أبرزنا العبارة باستخدام الخطّ المائل].

(6) المتكلِّم: لقد طلبتُ إليكِ أن ترفعي الكلفة بيننا.

(7) المخاطب: ولكن كلا لم تفعل، لقد طلبتَ منِّي أن أناديك روبير ليس إلاّ.

(8) المتكلِّم: ولكنَّني قلتُ ذلك على شكل مُضمَّنٍ.

(1) L_1. - Vous savez ce qui me ferait plaisir?
(2) L_2. - Non?
(3) L_1. - Que vous m'appeliez Robert.
[...]
(4) L_1. - Quand je suis à côté d'une jolie femme ça m'intimide.
(5) L_2. - Vous dites ça pour me faire plaisir [souligné par nous].
(6) L_1. - Je vous avais demandé de me tutoyer.
(7) L_2. - Mais non, vous m'avez juste demandé de vous appeler Robert.
(8) L_1. - C'était sous-entendu).

سنتوقَّفُ قليلاً للنظر في اسم الإشارة «هذا» («ça») الذي يظهر مرَّتين أثناء هذا التفاعل المُصغَّر حيثُ يقوم المتكلِّم أثناءه بوضوحٍ «بمغازلة» المخاطب (ونستطيع أن نُحلِّل بالتفصيل، ولكن هذه ليست غايتنا، مختلف مراحل حملة المتكلِّم المُغوية التي يردُّ عليها المخاطب بالتهرُّب تارةً وبالقبول طوراً)، فيُنشئ الأوَّل علاقةً مرجعيّةً رديفةً داخليّة بالنسبة إلى الردّ الرابع (4)، في حين يُنشئ الثاني علاقةً مرجعيّةً رديفةً تضمَنُ الصلة بين الردّ الرابع (4) والردّ الخامس (5). وخِلافاً في الواقع لعناصر الإشارة الشخصيّة التي تتحرَّف من ردٍّ إلى آخر والتي تشهدُ بالتالي طريقة عمل مُغايرةٍ، إذ تبعاً لتأمُّلنا فيها في إطار الخطاب المونولوجيّ أم الحواريّ، تضمن عناصر التكرار على حدٍّ سواء وبالطريقة نفسها التماسك «الضِمْرديّ» و«البَيْردوديّ».

وبعد فراغنا من قول ما تقدَّم، لا بدّ من التساؤل عما هو تحديداً عائِد اسم الإشارة الوارد في القول الخامس (5)؟ لا بدّ أنَّه محتوى مُقرَّرٌ شاملٌ ـ ولكنَّه ليس إطلاقاً محتوى القول الرابع (4) الحرفيّ الذي لا نفهم البتَّة كيف له أن «يُرضي» («faire plaisir») المُخاطب... ويُمثِّل في الواقع هذا العنصر المُكرَّر جُمَيلةً من مثل:

(4’) / أنا بجانب امرأةٍ جميلةٍ/ (/je suis à côté d’une jolie femme/)

(ويعني ذلك ضمناً (4’’) / أنتِ امرأةٌ جميلةٌ/ (/vous êtes une jolie femme/)، وذلك بمقتضى اعتباراتٍ مقاميّةٍ)،

وتُعدّ هذه الجُمَيلة بمثابة المُقدِّمة الصّغرى المحذوفة من القياس الذي يُشكِّل القول الرابع (4) مقدِّمته الكبرى، وهي تسمح بجعل هذا القول العامّ جدّاً قولاً مُلائماً بما فيه الكفاية. وبالتالي، يُخوّل تطبيق قانون الملاءمة هنا المُخاطب من استخراج الاستدلال الرابع الأوّليّ (4’)، وذلك تبعاً لآليّةٍ تتكفَّل بكلّ قولٍ عامٍّ يبرز فجأةً في سياقٍ مُحدَّدٍ، علماً بأنّنا استعرضنا آنفاً هذه الآليّة قائلين: «حين يظهر في متتاليةٍ تحادثيّةٍ ما قولٌ ذو صحّةٍ عامّةٍ، إرفعوا من ملاءمته عبر «مُطابقته» والمقام الخاصّ المقصود في السياق، أي بكلامٍ آخر، أنشئوا استدلالاً يكون محتواه «متخصِّصاً» نسبةً إلى المحتوى الحرفيّ». ولقد تحدَّثنا آنفاً عن «المجاملة» وقلنا إنَّ في مجتمعنا نبرةً جيِّدةً للردّ عليها ما دامت تُشكِّل تهديداً لوجه المُحاوِر السَّلبيّ (ولاسيما حين يجعل من نفسه شريكاً في فعل مغازلةٍ أكبر، على غرار الحالة التي نحن بصددها)، ويتجلّى ذلك من خلال الاعتراض على حقيقة المجاملة أو نزاهة المُجامِل. والحال أنَّ المخاطب الذي نتحدَّث عنه في المثل الآنف الذكر قد اختار بقوله «إنَّك تقول ذلك لإرضائي» («Vous dites ça pour me faire plaisir») التاكتيك الثاني (إلاّ أنَّ هذا القول يُضمِّن بمقتضى قانون الشموليّة الاستدلال الآتي: / إنَّك تقول ذلك لمجرَّد إرضائي/ (/vous ne dites ça que pour me faire plaisir/) أي / لستَ سوى مُجامِلٍ نذلٍ/ (/vous n’êtes qu’un vil flatteur/)، ولكنَّه يُضمِّن أيضاً بموجب قانون المُلاءمة الإقرار اللاإراديّ الآتي: / قد يُرضيني مثل هذا القول. . .، إلخ./ (/ce propos peut être considéré comme susceptible de me faire plaisir/...) ـ وبالتالي، قد نتوقَّع أن يعترضَ المتكلِّم بدوره على مثل هذا الاعتراض وأن يتمسَّك بنزاهته. ولكنَّه لا يأتي بشيءٍ من هذا القبيل، بل يؤثِر إنتاج قولٍ تواصليٍّ تحويليٍّ (إذ بقوله «لقد طلبتُ إليكِ أن ترفعي الكلفة بيننا» («Je vous avais demandé de me tutoyer»)، لا يُبالي المتكلِّم هنا بمحتوى القول الذي يُدلي به المخاطب سابقاً، وجُلَّ ما يعنيه هو التمسُّك حصريّاً بالصيغة التي يتَّخذها فعل قوله الخاصّ). ويُحدِثُ الانتقال إلى التواصل التحويليّ نوعاً من الانفصال عن التشاكل الدلاليّ التعبيريّ الأداتيّ على مستوى معيَّنٍ من السطح على أيّ حالٍ (إذ في الواقع، يُواصل هكذا المتكلِّم بناء «فعله الأكبر»، ويبقى أميناً لاستراتيجيّته في المغازلة).

وعلى أيّ حالٍ، يستوقفنا في هذا التحليل الخاطف الذي يتناول طريقة عمل هذه المتتالية الأمران الآتيان: «أوّلاً، لا يتّخذ تصريح المتكلّم هذا شكلَ المجاملة ما لم يؤوّله المخاطب عفويّاً باعتباره «محسناً بيانيّاً إضماريّاً» من وجهة نظره (على مستوى الردّ الرابع الثانويّ (4''))؛ وثانياً، فمن هذا المنظور، قد يُعيد العنصر المُكرَّر جزءاً من المتتالية مجرَّداً من أيّ تحقيقٍ دالٍّ في السياق السابق أو قد يُمثّله، ولكنّه لا يوجَد إلاّ على شكل محتوى مُضمَرٍ من شأنه أن يُشوّش على هذا العنصر المُفعَّل في السياق أو ذاك.

وهذا الواقع ثابتٌ[21]. وبشكلٍ أكثر عموميّةً، لا ينشأ التماسك البَيْردوديّ في أغلب الأحيان على مستوى ما يُقال بشكلٍ بيّنٍ، بل على مستوى ما يكون مُفترضاً أو مُضمَّناً (ويحصل هذا في «المحادثة العاديّة» كما في الحوار المسرحيّ)، كأن يُجيبَ المُخاطب، كما هو الحال في المثل المذكور آنفاً، بشكلٍ بيّنٍ على المحتوى المُضمَر الذي ينطوي عليه القول السابق، أو على العكس، أن يُجيبَ على نحوٍ مُضمَرٍ على محتوى المُداخلة السابقة البيّن، وإليكم المثل الآتي:

دورانت: أتعدينني بكتمان السرّ؟

سيلفيا: لم أَخُنْ يوماً ثقة أحدٍ[22].

(DORANTE. - Me promets-tu le secret?

SILVIA. - Je n'ai jamais trahi personne).

(يُمكنكم كذلك المقارنة بين طريقتَي عمل التساؤل البلاغيّ في الفقرة الأولى (i) والفقرة الثانية (ii)، في هذا المقتطف المُقتبس عن بنجه (R. Pinget) من كتابه

---

(21) وإليكم مثلاً آخر، هو أكثر جرأةً من جهةٍ أخرى، ويتناول عنصراً تكراريّاً من شأنه أن يُرجعنا إلى جُميلةٍ مُضمَرةٍ، ألا وهو:

المتكلّم: كنتَ، على ما أظنّ، ترتاد المدرسة العادية؟

المخاطب: أجل، ولكن كان ذلك منذ زمنٍ بعيدٍ.

المتكلّم: وما عدتَ تفعلُ ذلك؟

(L_1. - «Vous étiez, je crois, à l'École normale?

L_2. - Oui, mais c'était il y a bien longtemps.

L_1. - Vous ne les faites pas»).

(22) مثلٌ مُقتبسٌ عن المشهد الثاني من الفصل الثاني عشر من مسرحية ماريفو: *Le Jeu de l'amour et du hazard*.

رسالة ميتة[23] (Lettre morte)، ألا وهما:

(i) لوفير: هل من مكانٍ أكثر كآبةً من المَشرَب؟

الفتى: بالضبط [وهو جوابٌ بيِّنٌ في معرض الردّ على تأكيدٍ مُضمَرٍ]

(LEVERT. - «Est-ce qu'il existe un endroit plus cafardeux qu'un bar?
LE GARCON. - Justement!» [réponse explicite à l'assertion implicite])

(ii) لوفير: (. . .) ألا تُمضي أوقاتاً طيّبةً؟ لمَ لا تذهب إذاً؟

الفتى: إلى أين تريدني أن أذهب؟ [وهو جوابٌ مُضمَرٌ على محتوى السؤال السابق «الحقيقيّ» البيِّن]).

(LEVERT. - (...) Tu ne t'amuses pas? Pourquoi rester?

LE GARCON. - Aller où? [réponse implicite au contenu explicite de la «vraie» question précédente]).

واستناداً إلى القاعدة القائِلة بأنَّنا نستطيع أن نُجيبَ بشكلٍ مُضمَرٍ على محتوى مُضمَرٍ، وأن نُجيبَ بطبيعة الحال بشكلٍ بيِّنٍ على محتوى بيِّنٍ، يُمكننا أن نُميِّزَ بين أربعة أنماط من تسلسل الكلام البَيْردوديّ (هذا وينبغي أن نضيفَ إليها بعض الطبقات الفرعيّة، تبعاً لطبيعة المداخلة التي تأتي كردَّة فعلٍ، دحضيّةً كانت أم لا، انعكاسيّةً ألسنيّةً لغويّةً أم لا، إلى آخره).

ولطيّ صفحة الحوار الموجَز المذكور آنفاً، لا بدّ من الإشارة إلى أنَّه ينطوي على آليّاتٍ استدلاليّةٍ أخرى، وهكذا:

● يُشكِّل القولان (1) و(3)، أي «يسرُّني أن تناديني روبير» («Ca me ferait plaisir que vous m'appeliez Robert») ويعني ذلك ضمناً

/ ناديني روبير/ (/Appelez-moi Robert/)، التماساً غير مباشرٍ مُصاغاً بواسطة تأكيدٍ وإخبارٍ، وهو يتجلّى على شكل شرط نزاهة الالتماس.

● يعني ضمناً الاستدلال الآتي / ناديني روبير/ (Appelez-moi Robert/) بنظر المُتكلِّم على أيّ حالٍ ما يلي: / ارفعي حضرتك الكلفة بيننا/ -tutoyez/) moi) (أو بالأحرى / ارفعي الكلفة بيننا/ (/tutoie-moi/)؟)، ويشهدُ بذلك الردّ

---

(23) Robert Pinget, *Lettre morte* (Paris: Editions de Minuit, 1959).

الثامن (8) ـ وذلك طبعاً في نطاق أنَّ التصرُّفات الكلاميّة التي يُشير إليها هذان القولان، والتي يقول عنها غوفمان بأنَّها تُشكِّل تقريباً «إشاراتٍ تدلّ على الصِّلة نفسها»، غالباً ما تجتمع في ممارستنا الاجتماعيّة. وبالتالي، تتعلَّق المسألة في هذا الصدد باستدلالٍ «تطبيقيّ عمليّ» بواسطة «التساوق المادّي الممكن»[24].

وبناءً عليه، يُحدِثُ هذا الاستدلال الذي لا يسعنا أن نقول بأنَّه يفرض نفسه فعليّاً، مثلما يحصل في أغلب الأحيان مع الاستدلالات المُضمَّنة، نقاشاً متناقضاً يتجلَّى على الشَّكل الآتي:

يُدلي المتكلِّم بالقول السادس (6)، فيقول: «لقد طلبتُ إليكِ أن ترفعي الكلفة بيننا» («Je vous avais demandé de me tutoyer»)،

/ والحال أنَّكِ لا زلتِ تخاطبينني بصيغة الجمع،

إذاً فأنتِ لستِ مُطيعةً، ولا لطيفةً لأنَّك ترفضين أن تقدِّمي لي هدية إظهار علامة الثقة والحميميّة هذه تجاهي/ (/or vous continuez à me vouvoyer, donc vous n'êtes pas obéissante, ni gentille, puisque vous refusez de me faire le cadeau de cette marque de confiance et d'intimité/).

أمّا في القول السابع (7) (وهو «ولكن كلا لم تفعل، لقد طلبتَ منِّي أن أناديك روبير» ليس إلاّ («Mais non, vous m'avez juste demandé de vous appeler Robert»)، فيعترضُ المخاطب قائِلاً: إنَّ قولك السابق خاطئٌ لجهة محتواه الحرفيّ، وبالتالي فهو غير مُبرَّر لجهة قيمته العتابيّة غير المباشرة لأنَّكَ لم تطلب منِّي فعل أمرٍ مماثلٍ (ولكنَّك لم تطلب منِّي «ليس إلاّ» («juste»)، أي إنَّك طلبت منِّي «فقط» («seulement»)، أن أناديك باسمك الأوَّل، ممّا يعني الإقرار نوعاً ما بأنَّ الالتماس المزعوم والالتماس المُنجَز «ينحوان في الاتِّجاه نفسه»، مع

---

(24) ومُثبتٌ هو التبادل التالي الذي يرتكز على استدلالٍ من نفس النمط بالضبط، ألا وهو:
المتكلّم: «إذاً أرى أن الكلفة قد رُفعت بيننا الآن؟
المخاطب: كيف ذلك؟
المتكلّم: بلى، فقد قلت لي الآن «مرحباً!»».
(L_1. - «Alors maintenant on se tutoie je crois?
L_2. - Comment ça?
L_1. - Ben oui, tout à l'heure vous m'avez dit «Salut»»).

التنويه بأنَّ الالتماس الثاني هو ببساطةٍ أضعف من الأوّل. وبناءً عليه، إنَّ الدحض الذي يصدرُ عن المخاطب هو جزئيٌّ ليس إلاّ).

وأخيراً، يعمَدُ المتكلِّم بدوره في القول الثامن (8) (ألا وهو: «ولكنَّني قلتُ ذلك على شكل مُضمَّنٍ» («C'était sous-entendu»)) إلى دحض مثل هذا الدحض باسم التدليل المنطقيّ الآتي: لقد قلتُ فعلاً، عبر إدلائي بالقول الثالث (3)، الجُمَيلة الأولى «ج» (أي الجُمَيلة التي تزعمين أنَّني أدليتُ بها) والتي تختلفُ عن الجُمَيلة الأوَّليّة «ج'» (أي الجُمَيلة التي أزعمُ للتوّ أنَّني قصدتها). ولكنَّني من خلال الجزم في القول السادس (6) بأنَّني عنيتُ الجُمَيلة الأوَّليّة «ج'»، في حين أنَّني أدليتُ فعليّاً بالجُمَيلة الأولى «ج»، برَّأتُ نفسي إلى حدٍّ ما من الكذب، لأنَّ الجُمَيلة الأولى «ج» تُضمِّن الجُمَيلة الثانية «د».

وبتعبيرٍ آخر، يمكننا أن نقول ما يلي: أنتِ على صواب في حال لم نأخذ من قولي إلاّ محتواه البيِّن، ولكنّنا إن تأمَّلنا في محتواه المُضمَر (علماً بأنَّ معنى القول يتألَّفُ من مجمل محتويَيه البيِّن والمُضمَر)، يعجز أيّ شخصٍ عن القول بأنَّني على خطأ.

وخُلاصة القول، إنَّ المثل الآنف الذكر هو خير مثالٍ على ما يُطلق عليه التحادثيّون اسم التفاوض ـ والحالة هذه، يدور التفاوض حول معنى القول وتأويله، ويفتحُ في الواقع باباً للمجادلة نظراً إلى طابع الاستدلال الذي ينشده المتكلِّم، والذي وإنْ لم يكن مُنحرِفاً إلاّ أنَّه بالحدّ الأدنى قابلٌ للنزاع. وبطبيعة الحال، تكون المحتويات المُضمَرة أكثر عُرضةً للتفاوض من المحتويات البيِّنة.

ولكنَّنا لن نستفيض أكثر في الحديث عن هذه الاعتبارات التي ستُبعِدنا كثيراً عن الموضوع، والتي ننوي أن نوسِّعها في معرضٍ آخر، بشأن إشكاليّة تسلسلات الكلام الحواريّة هذه، فضلاً عن الترتيبات التي ينبغي فرضها على المفاهيم الألسنيّة اللُّغويّة (المُعدَّة قبل كلّ شيءٍ، وعلينا الاعتراف بذلك، من وجهة نظر الخطاب المونولوجيّ، ولا يشذُّ مفهوم فعل الكلام عن هذه القاعدة) فنتمكَّن بذلك من وصف طرق عمل التفاعلات وصفاً أكثر فعاليّةً. وبالنظر أوَّلاً إلى اتِّساع حقل المُضمَر الذي يُعنى بظواهرَ متنوِّعةٍ من جهةٍ، وقد حاولنا آنفاً إبانة ترابطها النظري، كما أنَّه قلَّ ما يُستهان بها من جهةٍ ثانيةٍ، على غرار الافتراضات والمضمَّنات، فضلاً عن الكلام المنطوق المُشتقّ، ناهيك بالمحسنات البيانيّة

برمّتها، وبالنظر ثانياً إلى أهميّته الحاسمة في مجال التفكُّر الألسنيّ، نقول ختاماً ما يلي: إنَّ المحتويات المُضمَرة موجودةٌ بلا مجالٍ للمنازعة، وحتّى إنّها نموذجيّةٌ بطريقةٍ ما - ومردّ ذلك أوّلاً إلى أنَّ فكّ ترميزها يتطلّب بشكلٍ جوهريٍّ اتّخاذ أنماط الإجراءات نفسها التي يتطلّبها فكّ ترميز المحتويات البيِّنة، ولكن باعتبار أنّه شاقٌّ ومحفوفٌ بالمخاطِر أكثر منه، فهو يسمح بفهمٍ أدقّ لتعقُّد الآليّات التأويليّة؛ وثانياً، إلى أنّها تُشير بمنتهى الجلاء إلى طابع المحتويات الدلاليّة التداوليّة التواصليّة المُشوَّش الوضوح وطابع تفعيل هذه المحتويات التدرُّجيّ، فضلاً عن طابع استخراجها المتغيِّر والصدفويّ؛ وثالثاً، إلى ضرورة اللّجوء إلى كفاءاتٍ أخرى علاوةً على الكفاءة الألسنيّة اللُّغويّة بحصر المعنى، ومحاولة بناء جسرٍ يصل بين هذَين المرجعَين التاليَين اللَّذين قلنا بوجوب تمحيصهما من زاوية العلاقة الجدليّة التي تربط بينهما، ألا وهما: المرجع السيميائيّ والسياق المؤسَّساتيّ ذي الصلة بعلم الاجتماع.

وليس القولُ مُعطى سكونيّاً جامداً بلا تغييرٍ في غِلافه الدالّ، بل إنّه غرضٌ يتعاضدُ الشركاء في التفاعل على اختلافهم في إنشائه والتفاوض بشأنه على نحوٍ تعاونيٍّ بدرجاتٍ متفاوتةٍ. وفي ما يتعلّق بالمحتويات المُضمَرة، ثمّة أوجه تشابهٍ بين عمل التفاوض هذا والعمل الذي يُميِّز الأحجية أيضاً أو لعبة الغميضة، بحيثُ «يحثُّ» المتكلِّم على استخراج التأويلات التي يُخفيها جزئيّاً، في حين يسعى المُحاوِر بدوره إلى كشف النقاب عنها «مُلتمساً» القول[25]، من دون أن يكون أكيداً أبداً أنَّ ما يفعله ليس اعتباطيّاً، فالسيطرة على المحتويات المُضمَرة، وبالتالي وصف طريقة عملها التي لا يُمكن معالجتها بشكلٍ ملائمٍ خارج إطار

---

(25) «"إنّ انتشار الصواريخ الأمريكيّة المتوسّطة المدى في أوروبا بات أمراً محتوماً. ولا تساورنا الشكوك بشأنه، فهو سيحصل لا محال». وقد أطلقت الصين الشيوعية هذا الإنذار الذي لم يلقَ صدى [. . .]، فهل ينبغي أن نفهم أنّ الجمهورية الشعبيّة تؤيّد إنشاء صواريخ البيرشينغ (Pershing) وصواريخ الكروز (Cruise)؟ ولكن يعني ذلك أن نلتمس كلام الزعيم الصينيّ كما ورد على لسانه. ولكن يبدو مع ذلك أنّ. . . [. . .]» (مثلٌ مُقتبسٌ عن: A. Campiotti, *Tribune de Genève* (7 nov. 1983), p. 2 («««Le déploiement des missiles américains à moyenne portée en Europe est inévitable. Nous n'en doutons pas: il se fera». Ce pronostic sans appel [...] vient de Chine communiste [...]. Faut-il comprendre que la République populaire approuve l'implantation des «Pershing» et des «Cruise»? Ce serait solliciter les paroles du dirigeant chinois, telles qu'elles ont été rapportées. Il semble bien cependant que [...]»).

تداوليّة القول التواصليّة (أي خارج إطار الجملة المُفعَّلة والمُقوْلبة في السياق)، هي تمرينٌ «محفوفٌ بالمخاطِر». ويؤكّد روبير مارتن[26] ما يلي: «يُمكننا أن نتصوَّر صعوبة تداوليّة القول التواصليّة القصوى - وهي التداوليّة التواصليّة الوحيدة التي تستحقُّ عن جدارةٍ هذا الاسم. ويعتبرها العديد من اللُّغويّين الألسنيّين خَطيرةً لدرجة أنّهم يدينونها سلفاً. ولكن يتحتَّم علينا الإقرار بأنَّ الجملة ليست سوى فكرةٍ تجريديّةٍ، وأنَّ القول وحده موجودٌ في حقيقة النصّ. وهكذا، يفرضُ المقوِّم التداوليّ التواصليّ نفسه، فيستحوذ من الآن وصاعداً حقل التداوليّة التواصليّة، وإنْ كان غير مِضيافٍ، استحواذاً لا يعرف الرحمة على أفكار المُنظِّر»، فهل إنَّ صندوق القمامة التداوليّة التواصليّة هو حقّاً غير مِضيافٍ؟ ربَّما - ولكنَّه برأينا جذّابٌ أكثر بكثير من رَغَدِ المثاليّة الخانِق، فهل نقول أم نحجمُ عن القول؟ هنا يكمن جزئيّاً السؤال بالنسبة إلى كلِّ متكلِّم.

ولكن جزئيّاً ليس إلاّ، لأنّنا نستطيع في آنٍ أن نقول وألاّ نقول («dire ET ne pas dire»). تلك هي على أيِّ حالٍ الفكرة التي حاولنا إبانتها بالأمثلة طوال هذه الدراسة والتي تُشكِل العبارة الآنفة الذكر، في حال شاب استعمالها آنفاً شائبة، المُسمَّى به الأصحّ.

وسنوضِّحها كذلك بمثلٍ مقارنٍ أخيرٍ، ألا وهو:

المثل الأوّل (i): المتكلِّم: كم تغيَّر!

المخاطب: أتقصد أنّه قد شاخ بقسوةٍ؟

المتكلِّم: لقد قلتُ «كم تغيَّر»!.

(i) L_1. - Comme il a changé!

L_2. - Tu veux dire qu'il a pris un coup de vieux?

L_1. - J'ai dit : Comme il a changé!

المثل الثاني (ii): المتكلِّم: انظر إلى تسريحة الشَّعر هذه، أجدها جميلةً عموماً لشابٍّ.

---

(26) Robert Martin, «De la sémantique à la pragmatique: Théorie et illustrations,» dans: *Actes: XVIe Congrés internacional de lingüística e filologia romaniques, Palma de Mallorca, 7-12 d'abril de 1980* (Palma de Mallorca: Moll; Càtedra Ramon Llull, 1982), p. 105.

المخاطب: ولكنَّها تسريحة شعري!

المتكلِّم: لقد قلتُ عموماً!

(ii) L_1. - Regarde cette coupe de cheveux, je trouve ça chouette en général pour un mec.

L_2. - Mais c'est la mienne!

L_1. - J'ai dit: en général!

ولكن ما الذي قاله المتكلِّم إذاً؟ فإنَّ عبارة «لقد قلتُ» («j'ai dit») نفسها تُستعمل في المثل الأوَّل (i) للدحض، وفي المثل الثاني (ii) للإشارة والمطالبة. ويكون الاستدلال قريباً من الواقع في الحالتَين[27] على حدٍّ سواء.

هذا ويكون الاستدلال في الحالتَين، أسوةً بالاستدلالات كافَّةً، مذكوراً ومكتوماً في آنٍ.

وهكذا باستطاعتنا أن نقول من دون أن نقول ونحن نقول...

تماماً كما يُمكننا أن نكون من أسوأ الطغاة من دون أن نُصدرَ مُطلقاً أوامرَ بيِّنةً، فعلى سبيل المثال، ألم يكن ستالين، بحسب إنفير هودجا[28] (Enver Hodja)، وهو الأمين العام السابق في الحزب الشيوعيّ الألبانيّ، «رجلاً متواضعاً ولطيفاً، لا يفرِضُ إطلاقاً رأيه على الآخرين، ولا يُصدر الأوامر أبداً»؟ («un homme modeste, très aimable, qui n'imposait jamais son opinion, et ne donnait jamais d'ordre»).

---

(27) يُعزى سبب الاختلاف إلى أنّه يُصار إلى تكرار القول بمجمله في المثل الأوّل (i)، في حين أنّ ما يُعاد في المثل الثاني (ii)، إنّما هو فقط الجزء المسؤول عن المُضمَّن الذي «يتصلّب» حينئذٍ (ويُمكن للمتكلّم نفسه أن يُنجِزَ التكرار الجُزئيّ، كما في المثل الآتي: «يُساوي الدولار في هذه الساعة، وأشدّد على قول في هذا الساعة لأنّه من الممكن أن يكون الوضع قد تبدَّل 14,8 فرنك» («A l'heure actuelle - je dis bien à l'heure actuelle, cela peut changer - le dollar est 14,8 francs»)، إلاّ أنّه غالباً ما يُنسب إلى المخاطب، وهذا مثلٌ على ذلك:

المتكلّم: ولكنّنا نكون على وفاقٍ بعض المرّات!

المخاطب: بعض المرّات!).

(L_1. - «On est bien ensemble quand même des fois!

L_2. - Des fois!»).

(28) استشهد به برنارد غيتا (Bernard Guetta) في جريدة: *Le Monde* (30 sep. 1982), p. 6.

ثبت المصطلحات

آداب تصويبيّة	Rituels réparateurs
إبدالات	Enallage (s)
إثبات حالة	Constat
أجوبة غامضة	Réponses de Normand
احتماليّة مرجعيّة	Vraisemblance référentielle
ادّعاء دالّ	Prétention signifiante
استبعاديّة مرجعيّة	Invraisemblance référentielle
استتبع ضمناً	Impliquer
استدراكيّ	Adversatif
استدلال	Inférence
استعارة عكسيّة	Métalepse
استعارة مرموزة	Parabole
استعارة مُقولبة	Métaphore saponifiée
استعارة مُعجَمة «عاميّة»	Métaphore «vulgaire» lexicalisée
استعارة نموذجيّة	Métaphore corrigée
استلزامات خطابيّة	Implicature (s)

Présupposer	استلزم
Déduction	استنتاج
Conditionnel	أسلوب الشرط
Forme en -rais	أسلوب مشروط وشرطي
Hyponymes	اسم مُندرج
Nominalisation	اسمانيّة
Dérivés-de-discours	اشتقاقات خطابيّة
Derivés-de-langue	اشتقاقات لغويّة
Inclusion	اشتمال
Implicitation	إضمارية
Impliciter	أضمَرَ
Frames	إطارات ذهنيّة
Redondance	إطناب
Litote	إغراق
Présupposé	افتراض
Supposer	افترضَ
Verbes transformatifs	أفعال تحويليّة
Acte (-s de langage)	أفعال الكلام
Actes illocutoires	أفعال كلامية منطوقة
Verbes réfléchis	أفعال المُطاوعة
Actes locutoires	أفعال منطوقة
Insinuation	إلماح
Diktat	أمر مفروض

Entendu (Bien)	أمر مُقرَّر (مفروغ منه)
Jussif	إيعازيّ
Lapalissades	بداهات
Truisme	بديهيّات
Macro-structures	بُنى كبرى
Structure profonde	بنية عُمقيّة
Structure syllogistique	بنية قياسيّة
Focus	بؤرة
Inter-répliques	بَيْردوديّ
Intertexte	بَينصّ
Effet perlocutoire	تأثير غير مباشر
Hypo-assertion	تأكيد مُخَفَّف
Assertion	تأكيد وإخبار
Commutation	تبديل
Anacoluthe	تبديل مُفاجئ في بناء العبارة
Explicitation	تبيين
Conversationnalistes	تحادُثيّون
Dialoguées	تحاوريّة
Hypocorisme	تحبُّب
Tautologie	تحصيل الحاصل
Précaution oratoire	تحفُّظ خطابيّ
Discursivité	تخاطبيّة
Télescopage	تداخل محتويَين متجاورَين

Pragmatique	تداولية تواصلية
Raisonnement	تدليل منطقي
Structures emphatiques	تراكيب تفخيميّة
Ancrage direct	ترسيخ مباشر
Syntagme	تركيب تعبيري
Codage	ترميز
Cooccurrences	تساوقات
Enchaînement	تسلسل الكلام
Isotopie	تشاكل دلاليّ
Flou terminologique	تشوُّش الوضوح الاصطلاحيّ
Connotation	تضمين
Super-connotations	تضمينات ممتازة
Illocutions	تعابير كلامية منطوقة
Syllepse	تعلُّق معنويّ
Interaction	تفاعل
Interactivité	تفاعليّة
Emphatique	تفخيميّ
Paraphrases	تفسيرات بأسلوب شخصيّ
Actualisation	تفعيل
Constatif	تقريريّ
Articulation	تقطيع
Contagion	تقليد عفوي
Traditionaliste (s)	تقليدَويّون

Restriction sémantique	تقليص دلاليّ
Genèse	تكوُّن
Jeu de mots	تلاعب بالألفاظ
Homologies	تماثلات
Cohérence	تماسك
Théâtralité	تمسرحيّة
Faux aparté	تناجٍ مُزيَّف
Intertextualité	تناص
Ironie	تهكّم
Ironie citationnelle	تهكّم اقتباسيّ
Ironie non citationnelle	تهكّم غير اقتباسيّ
Occurrence	تواتر
Balancement axiologique	توازن قِيَميّ
Parallélisme	توازي
Communication	تواصل
Ex-communication	تواصل سابق
Méta-communicatif	تواصليّ تحويليّ
Connivence	تواطؤ
Monosémémiser	توحيد السيمة
Pertinentisation maximale	توخّي الملاءمة القصوى
Euphémisme	تورية
Distributionnalistes	توزيعيّون
Expansion	توسُّع

Générativiste (s)	توليديّون
Dogmatisme	جزميّة
Litotisation	جعل الصيغة صيغة إغراقيّةً
Hyperbolisation	جعل الصيغة صيغةً تتّصف بالغلوّ
Informativiser	جعل القول قولاً إخباريّاً
Littéralisation	جعل معنى المحسن البيانيّ حرفيّاً
Proposition	جُميلة
Calembour	جِناس
Apodose	جواب الشرط
Accident de discours	حادثة الخطاب
Motivation	حافز
Quiproquos	حالات اللَّبس
Majeure	حدّ أكبر
Supputation	حساب وحسبان
Périssologie	حشو
Circuit communicationnel	حلقة تواصلية
Dialogue	حوار
Dialogual	حواريّ
Texture de sa parole	خامة الكلام
Discours	خطاب
Discours rituel	خطاب الآداب
Discours épidictique	خطاب إشاريّ
Discours fictionnel	خطاب تخيُّليّ

Discours onirique	خطاب حُلميّ
Discours de fiction	خطاب الخيال
Discours endoxal	خطاب مُعترف به باطنيّاً
Discours de situation	خطاب المقام
Discours extrémistes	خطابات تطرُّفيّة
Discours manipulatoires	خطابات تلاعبيّة
Discours ludique et poétique	خطابات لعبيّة وشعريّة
Conclusions sans prémisses	خلاصات تفتقرُ إلى المُقدِّمات المنطقيّة
Conclusion	خلاصة
Fiction heuristique	خيال استكشافيّ
Signifiant (ou Sa)	دالّ
Onomasilogique	دراسة كيفيّة تسمية المفاهيم أو الأشياء
Sémasiologie	دراسة معاني الكلمات
Plaisanterie	دعابة
Noirceur	دعابة سوداء
Signification	دلالة
Signifiose	دلالة انفعاليّة
Sémantisme	دلاليّة
Marques de primitifs	دمغات العناصر الأوّليّة
Connecteur adversatif	رابط استدراكي
Message	رسالة كلاميّة
Pamphlet	رسالة هجاء
Praxéogrammes	رسوم تطبيقيّة عمليّة

Support signifiant	ركيزة دالّة
Connecteurs de rattrapage	روابط الاستدراك
Lapsus	زلّة اللِّسان
Galimatias	سفسفة مُتكلِّفة
Chaîne interprétative	سلسلة تأويلية
Behavioristes	سلوكيّون
Malentendu	سوء تفاهم
Microcontexte	سياق أصغر
Macrocontexte	سياق أكبر
Psycholinguistique	سيكولوجيّ ألسنيّ لغويّ
Connotème	سيمات تضمينيّة
Sème (s)	سيمة (ج. سيمات)
Sémioticien	سيميائيّون
Conditions de félicité	شروط نجاح
Transparence	شفافيّة
Labio-vélaires en latin	شفويّات لهويّات في اللّغة اللاتينيّة
Forme de phrase sui generis	شكل جملةٍ من نوعٍ خاصٍّ
Universalité	شموليّة
Relative appositive	صلة الموصل المعطوفة بيانياً
Taxinomie	صِنافةٌ
Image euphorique	صورة اغتباطيّة
Image dysphorique	صورة غير اغتباطيّة
Formule votive originale	صياغة مُبتكرة ذات القصد الخاصّ

Formules réparatrices	صيغ تصويبيّة
Formules incursives	صيغ هجوميّة
Formules liminaires	صيغة استهلاليّة
Formule injonctive	صيغة أمر
Optatif	صيغة التمنّي
Normaliser	ضَبَط
Réquisit	ضرورة تدليليّة
Intra-réplique	ضَمْردّي
Sous-entendre	ضمَّن
Inclusif	ضمير الجمع للمتكلّم
Boutade	طرفة
Filage (procédé de)	طريقة الاتباع
Adverbes modalisateurs et intensifs	ظروف وأحوال ذاتيّة توكيديّة
Univers de discours	عالم الخطاب
Formule parodique	عبارة تقليديّة ساخرة
Protase	عبارة شرطيّة تؤلّف القسم الأوّل من الجُملة
Formule énigmatique	عبارة مُعمَّية
Sornette	عَبَث
Badinage délicat	عَبَث ناعم
Verbaliser	عبَّر شفهيّاً
Coordination	عطف
Implicitation (s)	علاقات تضمينيّة
Relation d'hyponymie	علاقة الاسم المُندرج

Relation d'hyperonymie	علاقة الأسماء النوعيّة
Relation contrastive	علاقة تباينيّة
Contiguïté (relation de)	علاقة تجاور
Relation d'allocution	علاقة التحاور
Relation interlocutive	علاقة تخاطبيّة
Relation de classification croisée	علاقة تصنيف متقاطعة
Relation d'opposition	علاقة تضادٍ
Relation d'identité	علاقة تطابقٍ
Corrélation	علاقة تعالق
Relation d'équivalence	علاقة تكافؤ
Relation d'analogie	علاقة تماثل
Relation tautologique	علاقة حشويّة
Relation de restriction sélective	علاقة الحصر الانتقائي
Relation causale neutre	علاقةٍ سببيّة حياديّة
Relation coordinative	علاقة عطف
Relation de cause à effet	علاقة العلّة بالمعلول
Relation paradigmatique	علاقة محوريّة استبداليّة
Relation de contiguïté	علاقة مُماسَّةٍ
Ethnographie de la communication	عِلم خصائص التواصل
Sémanticiens	علماء دلالات الألفاظ
Perlocutoirement	على صعيد التأثير الكلاميّ المنطوق
Métaphorisation	عملية التحويل إلى استعارةٍ
Métonymisation	عملية التحويل إلى مجازٍ مرسل

Conventionnalisation	عملية جعل المحسن البياني اتّفاقياً
Idéologèmes	عناصر أيديولوجيّة
Anaphorique	عنصر تكراريّ
Finalité	غاية
Hyperbole	غلوّ
Ascriptiviste	غير إيضاحية
Actants	فاعلين
Asyndète	فصل
Macro-acte	فعل أكبر
Verbe factif	فعل انتقاليّ
Verbe contrefactif	فعل انتقاليّ مضاد
Ersatz d'acte	فعل بديل
Enonciation	فعل القول
Acte de parole	فعل كلام فرديّ
Illocutionnaire (acte -)	فعل كلامي متضمَّن في القول
Verbe aspectuel	فعل مظهريّ
Humour	فكاهة
Lieu commun	فكرة عامّة مألوفة
Archi-lecteur	قارئ مثاليّ
Enonciateur	قائل
Règle d'économie	قاعدة اقتصاد لغويّ
Méta-règle	قاعدة تحويليّة
Maxime de relation ou de «relevance»	قاعدة العلاقة أو «المناسبة للغرض»

Maxime de qualité	قاعدة النوع
Loi d'informativité	قانون الإخباريّة
Code déontologique	قانون الأدبيّات
Loi de contraposition	قانون التكافؤ العكسيّ
Loi de modestie	قانون التواضع
Loi de décence	قانون الحشمة
Loi de prudence	قانون الحصافة
Archi-loi de discours	قانون خطاب مثاليٍّ
Loi d'exhaustivité	قانون الشموليّة
Loi de franchise	قانون الصراحة
Loi de dignité	قانون الكرامة
Loi de délicatesse	قانون اللِّياقة
Loi de pertinence	قانون الملاءمة
Loi de la sincérité	قانون النزاهة
Intentionnalité	قصديّة
Antiphrase	قلب المعنى
Inversion sémantique	قلب دلاليّ
Lois de discours	قوانين الخطاب
Lois de convenance	قوانين اللِّياقة
Force générique	قوّة شاملة
Force illocutoire	قوّة كلاميّة منطوقة
Force illocutionnaire	قوّة متضمَّنة في القول
Enoncé	قول

Adage	قول سائر
Aphorisme	قولٌ مأثورٌ
Enthymème	قياس بمقدّمة واحدة
Syllogisme normal	قياس عاديّ
Syllogismes canoniques	قياسات مُطابقة للأصول
Epaisseur sémantico-pragmatique de l'énoncé	كثافة دلاليّة تداوليّة تواصليّة
Compétence linguistique	كفاءة ألسنيّة لغويّة
Compétence idéologique	كفاءة أيديولوجيّة
Compétence kinésique	كفاءة حسيّة حركيّة
Compétence lexicale	كفاءة معجميّة
Compétence proxémique	كفاءة مكانيّة
Compétence encyclopédique	كفاءة موسوعيّة
Langage du dehors	كلام المحيط الخارجيّ
Illocutoire	كلامي منطوق
Modalisateur(s)	كلمات ذاتية
Paronyme	كلمة مُجانسة
Mot-valise	كلمة واسعة المدلول
Synecdoque en matière	كناية استعمال المادّة للدلالة على الآلة
Anti-filage	لاإتباع
Inadaptation référentielle	لاتكيُّف مرجعيّ
Dissymétrique	لامتماثل
Non trope	لامحسن بيانيّ
Langue d'Ésope	لسان إيزوب

Lectes	لغات محكيّة
Typo-lectes	لغات نمطيّة
Argot	لغة اصطلاحيّة
Jargon	لغة خاصّة
Langue commune	لغة عامّة
Sexolectes	لهجات خاصّة بأحد الجنسَين
Dialecte situationnel	لهجة عاميّة مقاميّة
Bathmologie	مُباعدَة
Principe de généralité	مبدأ التعميم
Archi-principe	مبدأ مثاليّ
Argumentateur	مُبرهِن
Argumentaire	مُبرهَن له
Séquences d'ouverture et de clôture	متتاليات افتتاحيّة وختاميّة
Embrayeurs	متحوِّلات في الدّلالة
Interactionnistes	متفاعلين متبادلين
Locuteur	متكلِّم
Interactants	متكلِّمين متفاعلين
Archi-récepteur	متلقّ مثاليّ
Allégorie	مَثَل
Immanence	مثوليّة
Hypallage	مجاز عقليّ
Métonymie	مجاز مُرسل
Métonymie de la cause	مجاز مُرسَل الذي يستعمل العلّة للدلالة على المعلول

Catachrèse (s)	مجازات
Allégorique	مجازيّ
Homonymie	مُجانَسة
Continuum	مجموعة اتّصاليّة
Mimesis	محاكاة
Allocutaire	مُحاور
Contenu lointain	محتوى أبعد
Contenu dérivé-de-discours	محتوى اشتقاقيّ خطابيّ
Contenu proche	محتوى أقرب
Contenu propositionnel	محتوى جُمَليّ
Contenus engagés	محتويات التزاميّة
Trope filé	محسن بيانيّ مُرشَّح
Demi-trope	محسن بياني نصفيّ
Tropes en plusieurs mots	محسنات بيانيّة مُركَّبة من عدَّة كلماتٍ
Paradigme	محور استبداليّ
Environnement verbal	محيط كلاميّ
Interlocuteur	مُخاطب
Vouvoiement	مخاطبة بصيغة الجمع
Tutoiement	مخاطبة بصيغة المفرد
Accent tonique	مدّ
Signifié (Sé)	مدلول
Signifiance	مدلوليّة
Angélisme	مذهب روحيّ

Co-référence	مرجعيّة رديفة
Emetteur	مُرسِل
Destinataire	مُرسَل إليه
Galéjade	مزحة
Extra-scénique	مستوى خارجيّ مشهديّ
Intra-scénique	مستوى ضِمْمَشهديّ
Eponyme	مُسمًّى به
Prédicat	مُسنِد
Terme générique	مصطلح شامل
Terme enchâssé	مُصطلح مُدخَل
Métatermes	مصطلحات تحويليّة
Sous-entendu	مضمَّن
Appropriation	مطابقة
Astéisme	مُعاتبة
Lexicalisation	مَعجَمَة
Informations extra-énonciatives	معلومات خارجيّة تعبيريّة أدائيّة
Information intra-énoncive	معلومة ضِمقوليّة
Sens «intendu»	معنى «مُبيَّت»
Sens «prétendu»	معنى «مزعوم»
Sémème	مفهَم (ج. مفاهم)
Acception	مفهوم
Universel	مفهوم شمولي
Situation	مقام

Acceptabilité	مقبوليّة
Mineure	مقدِّمة صغرى
Intenté	مَقصَد
Syllabe	مقطع لفظيّ
Contextualisée	مُقوْلبة في السياق
Pertinence	ملاءمة
Didascalie	مُسرحية
Enonciataire	مَن يتوجَّه إليه فعل القول
Apostrophe	مناجاة
Soliloque	مناجاة الذات
Logique floue	منطق مُبهم
Illocutaire	منطوق إليه
Indirection	مواربة
Morphème (s)	مورفيم (ج. مورفيمات)
Lieu énoncif	موضع القول
Monologal	مونولوجيّ
Interprétants	مؤوِّلون
Métasème (s)	ميتاسيمات
Illocuteur	ناطق بالكلام
Accent	نبر
Ton polémique	نبرة جدليّة
Intonatif	نبري
Texte-étalon	نص مرجعيّ

Positivisme	نظرية الوضعيّة
Anecdote ou mot d'esprit	نكتة
Contour accentuel	نمط تنغيم نبريّ
Contour prosodique	نمط تنغيم نطقيّ
Diasystème	نموذج مزدوج
Artefact	نموذج مصطنَع
Noyau sémique	نواة سيميّة
Intention signifiante	نيَّة دالَّة
Farce par endroits	هَرجَة
Marqueur	واسم
Fait diégétique	واقع لامحاكاتيّ
Face positive	وجه إيجابيّ
Face négative	وجه سلبيّ
Intonèmes	وحدات نغميّة
Unité informationnelle	وحدة إعلاميّة
Unité épistémologique	وحدة بحثية علوميّة
Lexème	وحدة معجميّة صغرى
Archilexème	وحدة معجميّة صغرى مثاليّة
Marquage	وسم
Descriptiviste	وصفيّة إيضاحيّة

الثبت التعريفي

آراء عامّة مألوفة (Lieux communs): في البلاغة، إنَّ الآراء العامَّة المألوفة هي المصادر التي يستقي منها الخطيب البراهين والإثباتات والتوسُّعات التي تنطبقُ على كلّ الأشخاص. إنَّها جزءٌ لا يتجزّأ من فنّ الخطابة.

إدخال (Enchâssement): في القواعد التوليديّة، إنَّ الإدخال هو العمليّة التي تقتضي إدخال جملةٍ في جُملةٍ أخرى إدخالاً تامّاً من خلال إدخالها مكان أحد مكوِّنات هذه الأخيرة. وتُسمَّى الجُملة التي تُدخَل إليها جملة أخرى بالجُملة الأمّ (أو الجُملة الحاضِنة)، أمّا الجُملة التي نُدخِلها إليها، فتُسمَّى بالجُملة المُدخَلة. وإليكم على سبيل المثال هاتَين الجُملتَين:

(1) لم أقرأ هذا الكتاب

(2) لقد أعطيتني هذا الكتاب

فإذا ما أُدخِلَت الجُملة الثانية، أثناء إجراء عمليّة التحويل المتعلِّقة بصلة الموصول، إلى الجُملة الأولى وتوضَع مكان اسم الإشارة «هذا» في الجُملة الأولى الأمّ، فنحصل عندئذٍ على الجملة المركَّبة التالية: لم أقرأ الكتاب الذي أعطيتني إيّاه.

أنا (Ego): تُشير «الأنا» في الألسنيّة إلى المُتكلِّم باعتباره فاعل فعل القول، أي بكلام آخرٍ فاعل الجُملة الخبريّة الكامنة وراء كلّ قولٍ، ومفادها: «أقول لك أنَّ...». وهكذا، يختلفُ جنس الضمير المتكلِّم «أنا» (فاعل القول) باختلاف جنس الأنا (فاعل فعل القول)، فنقول مثلاً: أنا فرحانٌ في مقابل أنا فرحانةٌ.

بُنية عُمقيّة (Structure profonde): في القواعد التوليديّة، تحتمل كلّ جملة مُحقَّقة بُنيتَين على الأقلّ: الأولى، البُنية السطحيّة التي تتكوّن من الترتيب النحويّ كما هو، في حين يُطلق على الثانية اسم البُنية العُمقيّة وهي ترتيب هذه الجُملة على مستوى أكثر تجرُّداً.

تبادل كلاميّ (Echange verbal): نُطلق اسم التبادل الكلاميّ على التواصل حين ننظر إليه من زاوية الحوار، أي حين يُنتجُ المتكلِّم قولاً ما «يُدلي به» إلى المُخاطب الذي «يردُّ» عليه بدوره بقولٍ آخرٍ في معرض الجواب على القول الأوَّل. وهكذا دواليك.

تبئير (Mise en focus): نستخدم أحياناً عبارة «التبئير» للدلالة على أساليب التوكيد على أحد المكوِّنات.

تحليل تحادثيّ (Analyse conversationnelle): يدرسُ التحليل التحادثيّ القواعد التي ترتكز عليها طريقة عمل المحادثات والتبادلات التواصليّة، وتختلف هذه القواعد الاجتماعيّة الثقافيّة من مجتمعٍ إلى آخرٍ. ويدخل التحليل التحادثيّ في حقل ألسنيّة التفاعل الأوسع والذي يدرُسُ، من وجهة نظرٍ حواريّةٍ جوهريّاً، وحداتٍ متفوِّقةً على الجُملة. ويؤدّي تجاوُز وحدات الألسنيّة التقليديّة إلى نهجٍ يتجاوز العلوم.

وفي الواقع، يهتمُّ كذلك بالتحليل التحادثيّ المُنبثق أساسيّاً من الإتنية المنهجيّة (أعمال هيرفي ساكس (Hervé Sacks)) ومن التداوليّة التواصليّة (مدرسة جنيف (Ecole de Genève))، كلّ من تحليل الخطاب وعلم النَّفس وعلم الاجتماع التفاعليّ علم خصائص التواصل. ويمكننا تحديد ثلاثة محاوِر للبحث، ألا وهي: دراسة التكلُّم في إطار إنتاج الأقوال، ودراسة الكفاءات الفرديّة والسياق الاجتماعيّ في إدارة التبادلات الكلامية اللُّغويّة، وإبراز مختلف مستويات معالجة هذه المُعطيات في التبادُل الكلاميّ.

تركيب داخليّ المركز (Endocentrique): يُعدُّ التركيب التعبيريّ ذا تركيبٍ داخليّ المركز في الجُملة التي يتمّ تحليلها وفق الجُمَل بموجب مكوِّناتها المباشرة مقارنةً بأحد مركَّباتها حين يكون توزيعها مماثلاً لتركيب أحد مكوِّناتها، على غرار الجُملة التالية: «جاء الطّفل المسكين» حيثُ يوصف التركيب التعبيريّ الاسميّ «الطفل المسكين» بالتركيب الداخليّ المركز مقارنةً بمكوِّنه «الطفل» لأنَّ له التوزيع

نفسه (الوظيفة نفسها) الذي يملكه التركيب التعبيريّ «الطفل» (كأن نقول مثلاً: جاء الطّفل). إنَّ التركيب التعبيريّ «الطّفل المسكين» هو توسُّع أو امتداد للتركيب التعبيريّ الاسميّ (طفل) والذي يُعدُّ تركيباً داخليّ المركز مقارنةً به.

وفي المقابل، ففي الجُملة التالية: «جاء إلى المنزل»، لا تُعدُّ شبه جملة الجار والمجرور «إلى المنزل» ذات تركيبٍ داخليّ المركز مقارنةً بمحتواها «المنزل» أو مقارنةً بحرف الجرّ «إلى» الذي هو أحد مكوِّناتها، ولكنَّها تملك التوزيع نفسه الذي يملكه اسم الإشارة «هنا»، كأن نقول مثلاً: «جاء إلى هنا».

يكون كلّ تركيبٍ تعبيريٍّ إمّا تركيباً داخليّ المركز أم خارجيّ المركز بالضرورة. وبالإجمال، تكون شبه الجُملة المؤلَّفة من جارٍ ومجرور ذات تركيبٍ خارجيّ المحور مقارنةً بالتراكيب التعبيريّة الاسميّة التي تُشكِّل مكوِّناتها.

إنَّ التركيبَين الداخلَي المركز الأساسيَّين هما: التراكيب المؤلَّفة بواسطة العطف (مثلاً: جاء الطفل ووالدته)، وتلك التي تتألَّف من صلة الموصول أو الجُمَل التابعة (مثلاً: الطفل الذي تعرفه، أو الطفل المسكين...، إلخ).

تساوق (Cooccurence): إذا كنَّا نُطلق على واقع أن يرد عنصرٌ ألسنيٌّ لغويٌّ ما «ع» في جملةٍ معيَّنةٍ اسم «التواتر»، فإنَّنا نُسمِّي العناصر التي ترِد معه في الجملة نفسها بتساوقاته. وهكذا، ففي جملة «يلعبُ الولد»، نعتبر أنَّ تساوقات كلمة «ولد» هي أل التعريف وفعل «لعِبَ».

ونُطلق اسم «توزيع» العنصر «ع» على مجموعة التساوقات التي ترِد أو قد ترِد جنباً إلى جنب مع العنصر «ع»، ففي المثل الذي ضربناه آنفاً، يتجلّى توزيع كلمة «ولد» على الشّكل الآتي: يعلبُ أل ـ وترمز القاطعة (–) إلى تواتر العنصر «ع» (أي «ولد» والحالة هذه) الذي ينبغي تحديده.

تسمح دراسة الاطِّرادات في التساوقات بوصف بنية اللّغة ولاسيما بتحديد بعض أنماط العلاقات القائمة بين العناصر الألسنيّة اللُّغويّة، ألا وهي: مجرّد ممَّاسة أو تبعيّة متبادَلة أو استبعاد متبادَل.

تصرُّف كلاميّ (Comportement-verbal): نعني بعبارة تصرُّف كلاميّ نشاط المُتكلِّم القاضي بإصدار أقوالٍ ألسنيَّةٍ لغويّةٍ وفهمها.

تفعيل (Actualisation): التفعيل هو العمليّة التي تنتقل بموجبها الوحدة

اللُّغويّة إلى الكلام الفرديّ. ويعني تفعيل مفهوم ما أن نماثله بتمثيلٍ حقيقيٍّ لدى المُتكلّم، فبالتفعيل، يتمّ تحديد موضع كلّ مفهوم (أي إنَّه يُحدَّد في الزمان والمكان)، ويتمّ كذلك تحديد كميَّته (أي إنَّه يكتسبُ مُكمِّمٍ ما).

قد يؤمّن مقام التفاعل وحده هذا التفعيل، كأن نقول مثلاً: اذهبْ! رحمه الله! وصباح الخير! ولكن في أغلب الأحيان، يؤمّن المقام الألسنيّ اللُّغويّ هذا التفعيل في حالة الأقوال المؤلَّفة من كلمة واحدة، فمثلاً، إنَّ الجواب «نعم» يردُّ على حدثٍ ألسنيٍّ لغويٍّ سابقٍ (أي على سؤال المُخاطب). وأحياناً، يكون التفعيل باطنيّاً في القول، فمثلاً: يُعيد قارئ لافتةٍ كُتِبَ عليها «ممنوعٌ»، القول الألسنيّ اللُّغويّ الباطنيّ بمقتضى المقام التواصليّ، فيُفهَم على سبيل المثال أنَّه يعني «ممنوع المرور».

يكون التفعيل إمّا مُضمَراً أم بيِّناً. وهكذا مثلاً، تكون عمليّة تحديد الكميَّة بيِّنةً في اللّغة الفرنسيّة في الاسم كما في الفعل (كلب/ كلاب ـ أركضُ / نركضُ). ولا يصلحُ التعارض بين التفعيل البيِّن والمُضمَر في هذه اللّغة، إلاّ في حالة الموضعة، فعلى الصعيد البيِّن، يتمّ تفعيل كلمة رجال من وجهة نظر الكمّ (إذ تسِمُ علامة الجمع كميّةً معيَّنةً من الرجال، أي أكثر من رجلٍ واحدٍ)، ولكن على الصعيد المُضمَر (بعض الرجال، أي الكثير منهم).

تختلف ضرورات التفعيل من لغةٍ إلى أخرى. وهكذا، يأخذ الفعل الهندي الأوروبيّ هيئة الفعل وحدها في الاعتبار، ويتغاضى عن تحديد موضع العمل الفعليّ في الزمان. ولا يكون بالتالي تفعيل الفعل الزمنيّ إلاّ مُضمَراً (ومنوطاً بالسياق).

في السواد الأعظم من اللّغات، يكون نوعاً معيَّناً من التفعيل ضروريّاً لإضفاء صفة التامّة على الرسالة الكلاميّة، فمثلاً، ينبغي مبدئيّاً أن يتضمَّن القول بالحدّ الأدنى طرفَين، ألا وهما: المُفعِّل والمُفعَّل. وبهذه الطريقة، إنَّ المورفيم الأوَّل المذكور أعلاه (اذهبْ!)، قد يُعتبر مُفعَّلاً بمقتضى فئة العدد (اذهبْ! / اذهبوا!).

تواطؤ (Connivence): إنَّه مفهومٌ نستعمله لتحليل ظواهر فعل القول، وهو يتعارض مع التظاهُر والتستُّر. ونتحدَّث عن التواطؤ حين يستعمل المُتكلِّم عمْداً عن سابق تصوُّرٍ وتصميمٍ شكلاً من أشكال اللّغة يجعله يبدو وكأنَّه ينتمي إلى

مجموعةٍ غير مجموعته، ولاسيما إنْ كان المُتكلِّم نفسه أو المُرسَل إليهم يجهلون أنّه لا ينتمي أصلاً إلى هذه المجموعة. وهكذا مثلاً، استُعمِلت كلمة «الانشقاقيّون» ((«séparatistes»)) التي كان الجنرال ديغول يعني بها الشيوعيّين من قِبَل هؤلاء أنفسهم استعمالاً تهكُّميّاً أمام متكلّمين كانوا يعرفون حقّ المعرفة أنَّ هذه الكلمة لم تكن في عداد مفرداتهم اللُّغويّة، وأنَّهم كانوا يرفضون اقتراح ديغول الضمنيّ ومفاده أنَّ «الشيوعيّين مُنشقّون عن الأمّة».

حشو (Battologie): نُطلق على عمليّة تكرار الكلمة نفسها أو الجُملة نفسها اسم «الحشو»، في حين أنّنا نُطلق على عمليّة تكرار الفِكرة نفسها بأشكالٍ مُختلفةٍ اسم «تحصيل الحاصل».

ذاتيّ المركز (Egocentrique): عندما نصف صيغة فعل القول، نتحدَّث عن نظام ذاتيّ المركز لأنَّ المتكلِّم يُشير مبدئيّاً إلى ذاته بواسطة الضمير المتكلِّم «أنا». وهكذا، يتناوب المتحدِّثين على دور المتكلِّم بالتعاقُب، ويدلُّ هذا الضمير دائماً على المُتكلِّم في اللَّحظة التي يتحدَّث فيها. وهكذا، يكون المتكلِّم في صُلب مركز مقام فعل القول. ويُمثَّل المُخاطب بالضمير المُخاطب (أنتَ / أنتما / أنتم).

ذو تأثيرٍ غير مباشرٍ (Perlocutoire): نُطلق صفة «ذات تأثير غير مباشرٍ» على وظائف الكلام غير المدوَّنة مباشرةً في القول والتي يكون لها تأثيراً غير مباشرٍ على المُخاطب (على غرار المدح والترهيب. . .، إلخ). أمّا بالنِّسبة إلى تأثير القول غير المباشر («effet perlocutoire»)، فهو النتيجة غير المباشرة التي يبغي تحقيقها، فمثلاً، إنَّ التأثير غير المُباشر الذي يرمي إليه الأمر التالي: «أقفلْ الباب!» هو أن يكون الباب مُقفلاً.

فعل القول (Enonciation): إنّه فعل الإنتاج الفرديّ في سياقٍ مُحدَّدٍ والذي يُثمِر عن قولٍ ما، ويتعارض المُصطلحان (أي القول وفعل القول) تعارُض الصناعة مع الغرض المُصنَّع. إنَّ فعل القول هو فعل استعمال اللّغة على الصعيد الفرديّ، في حين أنَّ القول هو نتيجة فعل القول هذا، إنَّه الفعل الذي يخلقه المُتكلِّم الذي يغدو عندئذٍ الأنا أو فاعل فعل القول. وبحسب جاكوبسون وبينفينيست وأوستن وسيرل، تتعلَّق المسألة بشكلٍ أساسيٍّ بالنسبة إلى محرِّكي هذا المفهوم باستخراج العناصر التي يُمكن اعتبارها في الأقوال بمثابة آثار أو دمغات جُمَل فعل القول التي أنتجَها، ثمّ كشف النِّقاب عن طريقة عملها وتنظيمها وتفاعلها.

ينطبقُ ذلك بشكلٍ أساسيٍّ على عددٍ كبيرٍ من الوحدات التي، وإنْ كانت تنتمي إلى اللّغة، إلاّ أنّها لا تكتسب معناها إلاّ في إطار فعل قولٍ معيَّنٍ، وقد أطلقنا على هذه الوحدات اسم المُتحوِّلات في الدلالة (على غرار أنا وهنا والآن) والتي تتمحور حول زمان فعل القول ومكانه. وهكذا، يتألَّف فعل القول من مجموعة العوامل والأفعال التي تؤدِّي إلى إنتاج القول. ونستطيع كذلك أن ندرسَ فيه المواقف التي يتَّخذها على التوالي المُتكلِّم والمُحاوِر (بغية النظر في اختلاف الطَّلب عن الأمر) أو درجة الالتزام المُتَّخذة (أي الاختلاف بين التعبير عن النيّة وقطع الوعد)، فضلاً عن الاختلاف في المحتوى الجُمَيليّ (أي اختلاف التكهُّن عن إثبات الحالة)، بالإضافة إلى الطريقة التي تترابط بموجبها الجُمَيلة لخدمة مصالح المُتكلِّم أو المُحاوِر (أي الفرق مثلاً بين صَرَخَ وناحَ وبين حذَّرَ وأعلَمَ)، ناهيك بالحالات النفسانيّة المُعبَّر عنها وعن مُختلف الطُّرق التي يترابط من خلالها القول مع باقي المُحادثة (اختلاف الردّ المحض على تعليقٍ سابقٍ عن الاعتراض على ما تمّ الإدلاء به للتوّ).

يتميَّز فعل القول في النصوص الفرنسيّة المكتوبة بواسطة عدَّة مفاهيم، ألا وهي:

أ) يعتمد المُتكلِّم حيال قوله موقفاً مُحدَّداً، فإمّا أن يلتزِمَ به أو على العكس أن يتملَّص كليّاً من مسؤوليّته. وهو يُنشئ مسافةً بينه وبين قوله بواسطة كلماتٍ ذاتيّةٍ (تكون في الأغلب ظروفاً وأحوالاً) تُعبِّر عن رأيه الشَّخصيّ على غرار طبعاً وربَّما وبلا شكّ أو حتّى أفعالٍ تصريفيّةٍ تُعبِّر عن موقفه من مثل أخالُ وأعتقدُ، فالمُتكلِّم يتبنَّى التأكيدات والإخبارات أو يرفض تبنِّيها. وقد يُعَدُّ ظهور الضمير المُتكلِّم «أنا» بوجهٍ خاصّ، طريقةً معيَّنةً للتقليص من هذه المسافة، فالخطاب التعليميّ هو بامتيازٍ الخطاب الذي تتباعد فيه المسافة بين المُتكلِّم وقوله. وينتمي مفهوم الأفعال التصريفيّة الإنشائيّة إلى فعل القول، لأنَّها تُحقِّق الفعل الذي تعنيه. وهكذا، فأنْ نقول أعدك يعني الالتزام بالوعد، وأن نقول أراهنُكَ يعني أيضاً الالتزام في الرِّهان.

ب) امِّحاء المتكلِّم أو حضوره في القول نسبةً إلى العلاقة التي يُنشِئها المتلقِّي مع القول، وقد يتراوح هذا الامِّحاء من الامِّحاء المُطلق إلى الحضور الطاغي الأقصى. وهكذا، إنَّ امِّحاء المُتكلِّم من القول هو ميزةٌ تطبع المؤلَّف على

نحو يُمكن أن يُشكِّل فيه المتلقِّي مصدر فعل القول؛ وإنَّ الأقوال التي يُمَّحى فيها المُتكلِّم على النحو الأمثل هي الحِكَم والأمثال السائرة، وبشكلٍ عامٍّ أكثر الأقوال التي تتحدَّث عن حقائق عامّة.

ج) النزوع الذي يُحدِّد ديناميكيّة العلاقة القائمة بين المُتكلِّم والمُرسَل إليه. وهكذا، يُشكِّل الخطاب محاولةً لموضعة المُخاطب أو العالم الخارجيّ نسبةً إلى القول.

د) يُعَدُّ التظاهُر محاولةً لخِداع المُرسَل إليهم بشأن حقيقتنا، من خلال استعمال نموذج الشَّخص الآخر. وهي محاولةٌ لتقنيع حقيقتنا من خلال عدم استعمال نموذجنا الخاصّ أو محاولة حرف التواطؤ من خلال استعمال مهارات الشخص الآخر من دون نسبتها إليه، مُدركين أنَّ المُرسَل إليه على بيِّنةٍ من هذه المسافة.

لامحاكاة (Diégèse): تعني اللامحاكاة في البلاغة تعاقُب الأحداث حسب التسلسل الزمنيّ الدقيق في القسم البرهانيّ من الخطاب.

مبدأ الاقتصاد اللُّغويّ (Principe d'économie): يرتكز مبدأ الاقتصاد اللُّغويّ على التوليف بين قوَّتَين متعارضتَين (ألا وهما: الحاجة إلى التواصل والخمول) اللَّتين تتنافسان باستمرارٍ في عالم اللّغات. وهو يسمحُ بتفسير عددٍ معيَّنٍ من الوقائع في علم وظائف الأصوات الكلاميّة الألسنيّة التطوُّرية التعاقبيّة.

مُتحوِّلات في الدلالة (Embrayeurs): هي فئة من الكلمات تتبدَّل معانيها بتبدُّل المقام، وباعتبار أنَّ هذه الكلمات لا تملك مرجعاً خاصّاً بها في اللّغة، فهي تكتسبُ مرجعاً حين تندرجُ في إطار الرّسالة الكلاميّة. ونذكر منها على سبيل المثال: عناصر الإشارة (هذا أو هنا. . .، إلخ) والضمائر (أنا وأنتَ وهي. . .، إلخ) والبارحة واليوم، إلى آخره، والتي تفتقر إلى أيّ قيمةٍ ما لم تُنسَب إلى مُتكلِّم مُرسِلٍ أو إلى وقت فعل القول، فإنَّ الضمير «أنا» واسم الإشارة «هنا» تفترضان معرفة المتكلِّم، في حين يتطلَّب ظرف الزمان «البارحة» معرفة وقت القول.

ولكن لا يجوز أن نُحدِّد المتحوِّلات في الدّلالة بواسطة معيار غياب الدلالة العامّة وحده، فمثلاً، إنَّ عوامل الرّبط المنطقيّة بكافَّة أنواعها المُستعملة في

اللّغات الطبيعيّة (على غرار: لكن والحال أنَّ وإذاً. . .، إلخ) لا تكتسبُ أبداً في الخطاب القيمة المفهوميّة الخاصّة التي تملكها في علم المنطق؛ فهي تصلح لوسم علاقةٍ خاصّةٍ تربط كلّ مرَّةٍ بين مفهومَين أو جُملتَين. وهكذا، نستنتج أنَّ المعيار الأساسيّ هو الرّجوع الالزاميّ إلى الخطاب.

محسن بيانيّ (Trope): تضع البلاغة صور المجاز العقليّ (أي الإغراق والتهكُّم والتساؤل البلاغيّ. . .، إلخ) وصور التركيب (الحذف والتعلُّق المعنويّ. . .، إلخ) في مقابل صور المجاز اللّفظيّ (استعمال الكلمات على نحوٍ مجازيٍّ). وانتهى بها المطاف إلى تعميم تسمية محسناتٍ بيانيّةٍ على مُختلف أنواع الصور التي يُمكن أن تنشأ عن أيّ انحرافٍ في معنى الكلمات.

محيط كلاميّ (Environnement): يتألَّف المحيط الكلاميّ أو السياق الخاصّ بوحدةٍ ما أو بسلسلةِ وحداتٍ من وحدةٍ أو مجموعة وحداتٍ تستطيع بطريقةٍ أو بأخرى أن تُمارسَ عليها بعض الضغوطات.

مرجعيّة رديفة (Coréférence): عندما نقع على جملةٍ من مثل «يرى بيار بيار في المرآة»، يدلُّ فيها «بيار» الفاعل و«بيار» المفعول على الشخص نفسه، ويكونان مرجعيَّين مترادفَين «للغَرَض» نفسه، ففي هذه الحالة بالتحديد، تؤدّي المرجعيّة الرَّديفة إلى جعل كلمة «بيار» الثانية انعكاسيّةً، وتتَّخذ الجُملة المُشتقَّة حينها الشَّكل الآتي: يرى بيار نفسه في المرآة. ولكن، قد يختلف «بيار» الثاني عن «بيار» الأوَّل، وفي هذه الحالة ينتفي وجود المرجعيّة الرَّديفة، ولا تنتُج تالياً أيّ عمليّةٍ انعكاسيّةٍ، كما يظهر ذلك من المثلَين التاليَين: الرّجل هو الرّجل/ لم يعد بيار بيار الذي نعرفه.

مُصاداة (Echolalie): نُطلق اسم «المصاداة» على عمليّة ترديد المريض المُصاب بفقدان الذاكرة كلماتٍ وجُمَل ينطقُ بها الآخرون على مسمع منه، فيُكرِّرها ببغائيّاً من دون أن يفقه دلالتها. وتُشكِّل غالباً هذه الترادادات المَرضيّة التامّة والسّريعة الأجوبة الوحيدة التي يردّ بها الحبيس المُصاب بهذا المرض على الأسئلة التي تُطرَح عليه.

مقبوليّة القول (Acceptabilité de l'énoncé): يكون قولٌ ما مقبولاً عندما يكون في آنٍ نحويّاً، أي عندما يُراعي أصول قواعد اللّغة، وسهل الفهم أو صادراً بشكلٍ عفويٍّ عن المتكلِّمين، فالمقبوليّة هي مفهومٌ مُرتبطٌ بنموذج الارتجال. وبالتالي، فليست المقبوليّة رهن مراعاة قواعد اللّغة فحسب (باعتبار أنَّ كلّ جملة

تشذُّ عن أصول القواعد اللُّغويّة تُعدُّ غير مقبولةٍ حُكماً)، بل إنَّها أيضاً وقفٌ على مراعاة القواعد التي يُحدِّدها المقام (سرعة الكلام والضوضاء. . .، إلخ) وخاصيّات الفرد السيكولوجيّة (التيقُّظ والذاكرة. . .، إلخ). وثمّة درجاتٌ متنوِّعةٌ من المقبوليّة. وهكذا، فاعتباراً من بلوغ الجُملة عدداً معيَّناً من الأسطر، تُمسي غير مقبولةٍ، إلاّ أنَّ عدم المقبوليّة هذه تختلف تبعاً للإدلاء بهذه الجُملة على الصعيد الخطّي أو الشَّفهيّ، وتبعاً لكون المسألة تتعلَّق بالمُرسِل أو المتلقّي.

نمط التنغيم (Contour): وهو يتألَّف من مجموعة الخصائص النغميّة التي تُشكِّل وحدة الجُملة. وتتميَّز كلّ جملةٍ بمنحى نغميّ هو عبارةٌ عن تبدُّلٍ أو عدَّة تبدُّلاتٍ في ارتفاع الصوت وصولاً إلى منحى نهائيٍّ. ويسمح التباين بين منحى نهائيٍّ وآخر إلى استنتاج وجود ثلاثة أنماطٍ من الجُمَل على المستوى الألسنيّ اللُّغويّ، فعلى سبيل المثال، تتميَّز الجُملة الاستفهاميّة بارتفاعٍ في الصوت عند بلوغ المنحى النهائيّ اللَّحنيّ. في حين تتميَّز الجُملة الأمريّة بانخفاضٍ في ارتفاع الصوت عند مستوى المنحى النهائيّ. أمّا الجُملة الخبريّة، فهي موسومةٌ بغياب هاتَين السِمتَين.

واسم (Marqueur): إنَّه صفةٌ للوحدة التي تدلّ على نوع الكلمة أو جنسها، مثل التاء المربوطة علامة التأنيث والتنوين علامة التنكير وأل التعريف علامة التعريف. وتُقسَم الواسمات إلى قسمَين، ألا وهما: أوّلاً، الواسمات النحويّة، وهي فئاتٌ خاصّةٌ بقواعد اللّغة (اسم، مذكَّر. . .، إلخ)؛ وثانياً، الواسمات الدلاليّة، وهي فئاتٌ دلاليّة ([غرض حسيّ] [جامد] [بشريّ]. . .، إلخ).

وحدة معجميّة صغرى مثاليّة (Archilexème): تُمثِّل الوحدة المعجميّة الصغرى المثاليّة إبطال تأثير التعارُض القائم بين السِمات الدلاليّة، أي إنَّها تُجسِّد مجموعة السيمات المُشتركة بين وحداتٍ متنوِّعةٍ تنتمي إلى السلسلة المُعجميّة نفسها.

وبهذه الطريقة، إنَّ [المقعد] هي الوحدة المعجميّة الصغرى المثاليّة لسلسلة الكلمات التالية: كنبة ونُمرُق وطبليّة ومنضدة وكرسيّ ومتَّكَأ، إلى آخره، لأنَّها تُبطل تأثير التعارض المتعدِّد الجوانب القائم بين هذه المُصطلحات، وهي تُمثِّل مجموعة الميزات الملائمة المُشتركة بين كلّ هذه الوحدات (ونذكر من هذه الميزات إجمالاً من دون أن ندخُل في التفاصيل [شيء جامد] + [غرض مُصنَّع] + [نجلس عليه]، إلى آخره).

وكثيرةٌ هي أيضاً الوحدات المعجميّة الصغرى المثاليّة الموضوعة بعلمٍ ودرايةٍ في معاجم مفردات اللّغات العلميّة، على غرار مُصطلح غاز (الذي يعني مجموعة السيمات الدلاليّة ذات الصّلة المُشتركة بين الأوكسجين والهيدروجين والنتروجين...، إلخ).

المراجع

1 ـ العربية

كتب

إدريس، سهيل. **المنهل: قاموس فرنسي عربي**. ط 29. بيروت: دار الآداب، 2001.

البعلبكي، روحي ومنير البعلبكي. **المورد الوسيط مزدوج: قاموس عربي ـ إنجليزي قاموس إنجليزي ـ عربي**. ط 6. بيروت: دار العلم للملايين، 2001.

الترجمة في الوطن العربي: نحو إنشاء مؤسسة عربية للترجمة: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2000.

الجرجاني، عبد القاهر. **أسرار البلاغة في علم البيان**. تحقيق أحمد الرافعي. بيروت: دار المشرق العربي، 2000.

حجار، جوزف نعوم. **المنجد في الأمثال والحِكَم والفرائِد اللغوية: عربي ـ فرنسي، فرنسي ـ عربي**. بيروت: دار المشرق، 1983.

زيتوني، لطيف. **معجم مصطلحات نقد الرواية: عربي ـ إنجليزي ـ فرنسي** = *A Dictionary of Narratology*. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2002.

شريم، جوزيف ميشال. **منهجية الترجمة التطبيقية**. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1982.

عبد النور، جبور. **معجم عبد النور المفصل (فرنسي - عربي)**. بيروت: دار العلم للملايين، 1999.

كورنو، جيرار. **معجم المصطلحات القانونية**. ترجمة منصور القاضي. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1998.

مبارك، مبارك. **معجم المصطلحات الألسنية: فرنسي - إنجليزي - عربي**. بيروت: دار الفكر اللبناني، 1995.

المنجد في اللغة العربية المعاصرة. بيروت: دار المشرق، 2000.

مونان، جورج. **المسائل النظرية في الترجمة** = *Les Problèmes théoriques de la traduction*. ترجمة لطيف زيتوني. بيروت: دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، 1994.

الهاشمي، أحمد. **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**. ط 2. بيروت: المكتبة العصرية، 2000.

2 - الأجنبية

Books

Ajar, Emile. *La Vie devant soi: Roman*. [Paris]: Mercure de France, 1975.

Allen, Donald E. and Rebecca F. Guy. *Conversation Analysis: The Sociology of Talk*. 2nd ed. The Hague; Paris: Mouton, 1978.

Anscombre, Jean-Claude et Oswald Ducrot. *L'Argumentation dans la langue*. Bruxelles; Liège: P. Mardaga, 1983. (Philosophie et langage)

Aragon, Louis. *Traité de style*. Paris: Gallimard, 1928.

Aristote. *Rhétorique*. Introd. de Michel Meyer; trad. de Charles-Émile Ruelle, rev. par Patricia Vanhemelryck; commentaires de Benoît Timmermans. Paris: Librairie générale française, 1991. (Le Livre de poche; 4607. Classiques de la philosophie)

L'Argumentation. Lyon: Presses universitaires de Lyon, 1981. (Linguistique et sémiologie; ISSN 0246-6341)

Arrivé, Michel. *Les Remembrances du vieillard idiot: d'Alfred Hellequin, avec des fragments de la biographie d'Adolphe Ripotois et de ses œuvres inédites: Roman*. [Paris]: Flammarion, 1977

Austin, John Langshaw. *How to Do Things with Words*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1962.

———. *Philosophical Papers*. Edited by J. O. Urmson and G. J. Warnock. 3rd

ed. Oxford [Eng.]; New York: Oxford University Press, 1979.

———. ———. Oxford: Clarendon Press, 1961.

———. *Quand dire, c'est faire = How to Do Things with Words*. Introduction, traduction et commentaire par Gilles Lane. Paris: Editions du Seuil, 1970. (L'Ordre philosophique)

Bachmann, Christian, Jacqueline Lindenfeld et Jacky Simonin. *Langage et communications sociales*. Préface de Jean-Claude Chevalier. Paris: Hatier: CREDIF, 1981. (Langues et apprentissage des langues)

Barthes, Roland. *Le Degré zéro de l'écriture*. Paris: Editions du Seuil, [1953]. (Collection «pierres vives»)

———. *Essais critiques*. Paris: Editions du Seuil, [1964]. (Collection «tel quel»)

———. *Roland Barthes*. Paris: Editions du Seuil, 1975. (Ecrivains de toujours; 96)

Beckett, Samuel. *Premier amour*. Paris: Editions de Minuit, 1970.

Benveniste, Emile. *Problèmes de linguistique générale...* [Paris]: Gallimard, 1966-1974. 2 vols. (Bibliothèque des sciences humaines)

Bernard, Charles de. *Une Consultation*. [s. l.: s., n. s. d].

Bernies, Jean-François. *Pigeon volant: L'Afrique vue d'un vélo*. Paris: R. Laffont, 1977. (Collection vécu)

Berrendonner, Alain. *Eléments de pragmatique linguistique*. Paris: Editions de Minuit, [1981]. (Propositions)

Besson, Patrick. *Lettre à un ami perdu: Roman*. Paris: Editions du Seuil, 1980.

———. *Les Petits maux d'amour: Roman*. Paris: Editions du Seuil, 1974.

Bhat, Eric et Jean-Quentin Gérard. *Le Programme politique d'un mec nomme Coluche - Sa Vie son oeuvre*. Paris: Sire, 1981.

Blanché, Robert. *Le Raisonnement*. Paris: Presses universitaires de France, 1973. (Bibliothèque de philosophie contemporaine)

Borel, Marie-Jeanne. *Schématisation discursive et énonciation: Arguments théoriques et approche descriptive*. Neuchâtel: Université de Neuchâtel, 1975. (Travaux du centre de recherches sémiologiques; no. 23)

Borges, Jorge Luis. *Histoire de l'infamie. Histoire de l'éternité*. Monaco: Editions du Rocher, 1951.

———. *Histoire de l'infamie. Histoire de l'éternité = Historia de la infamia. Historia de la eternidad*. Trad. par Roger Caillois et Laure Guille... Paris: Union générale d'éditions, 1964. (Le Monde en 10/18; 184-185)

Bory, Jean-Louis. *Ma Moitié d'orange*. Paris: Julliard, [1973]. (Collection idée fixe)

Bossuet, Jacques Bénigne. *Sermon sur la mort, et autres sermons*. Chronologie, préf., et bibliographie par Jacques Truchet. [Paris]: Garnier-Flammarion, [1970]. (Garnier-Flammarion Texte intégral, 231)

Bourdieu, Pierre. *Ce que parler veut dire: L'Economie des échanges linguistiques*. Paris: A. Fayard, 1982.

Brasillach, Robert. *Oeuvres complètes. 6, [Chroniques. Notre avant-guerre. Journal d'un homme occupé]*. Edition annotée par Maurice Bardèche. [Paris]: Club de l'honnête homme, 1964.

———. *Les Sept couleurs*. [Paris]: Le Livre de poche, 1965.

Brazil, David, M. Coulthard and C. Johns. *Discourse, Intonation and Language Teaching*. London: Longman, 1980.

Buñuel, Luis. *Mon dernier soupir*. [Avec la collaboration de Jean-Claude Carrière]. Paris: R. Laffont, 1982. (Collection Vécu)

Burton, Deirdre. *Dialogue and Discourse: A Sociolinguistic Approach to Modern Drama Dialogue and Naturally Occurring Conversation*. London; Boston, MA: Routledge & Kegan Paul, 1980.

Calvino, Italo. *Si par une nuit d'hiver un voyageur: Roman = Se una notte d'inverno un viaggiatore*. Ttraduit de l'italien par Danièle Sallenave et François Wahl. Paris: Editions du Seuil, 1981.

Caminade, Pierre. *Image et métaphore: Un problème de poétique contemporaine*. [Paris]: Bordas, [1970]. (Collection études supérieures; 36)

Camus, Albert. *La Chute*. Paris: Gallimard, [1974]. (Collection folio; 10)

Camus, Renaud. *Notes achriennes*. [Paris]: Hachette, 1982. (P.O.L.; 0181-6071)

Caradec, Francois. *Dictionnaire du francais argotique et populaire*. Paris: Larousse, [2003].

Carroll, Lewis. *Alice au pays des merveilles et de l'autre côté du miroir = [Alice in Wonderland et Through the Looking-Glass]*. Traduction de André Bay... Illustré par John Tenniel. [Lewis Carroll, par André Maurois]. Verviers: Gérard et Cie, 1963.

——. *La Chasse au Snark: Une Agonie en huit crises = The Hunting of the Snark. Traduit en français par Aragon. Paris: Seghers, 1980. (Autour du monde)*

———. *Logique sans peine*. Illustrations de Max Ernst; Traduction et présentation de Jean Gattégno et Ernest Coumet. Paris: Hermann, 1966.

Charles, Michel. *Rhétorique de la lecture*. Paris: Editions du Seuil, 1977. (Collection poétique)

Chomsky, Noam. *Réflexions sur le langage = Reflections on Language*. Traduit de l'anglais par Judith Milner, Béatrice Vautherin et Pierre Fiala. Paris: F. Maspero, 1977. (Textes à l'appui)

Chraïbi, Driss. *Le Passé simple: Roman*. Paris: Denoël, 1954.

Cole, Peter (ed.). *Syntax and Semantics. 9, Pragmatics*. Edited by John P. Kimball; Edited by Peter Cole. New York; San Francisco; London: Academic Press, Harcourt Brace Jovanovich, 1978.

——— and Jerry L. Morgan (eds.). *Syntax and Semantics. 3, Speech Acts.* Edited by John P. Kimball; Edited by Peter Cole and Jerry L. Morgan. New York; San Francisco; London: Academic Press, Harcourt Brace Jovanovich, 1975.

Darde, Jean-Noël. *Le Ministère de la vérité.* Paris: Editions du Seuil, 1984.

Di Cristo, Albert. *Soixante et dix ans de recherches en prosodie: Bibliographie alphabétique, thématique et chronologique.* Aix-en-Provence: Editions de l'Université de Provence; Paris: diffusion Ophrys, 1975. (Etudes phonétiques; 1)

Dictionnaire français/ italien et italien/ français. [Bruxelles]: Editions de la connaissance, 1996.

Diderot, Denis. *Jacques le fataliste.* [s. l.]: Hachette: Le Livre de poche, 1972.

Dijk, Teun A. Van (ed.). *Pragmatics of Language and Literature.* Amsterdam: North-Holland Pub. Co.; New York: American Elsevier Pub. Co., 1976. (North-Holland Studies in Theoretical Poetics; 2)

Doi, Takeo. *Le Jeu de l'indulgence: Etude de psychologie fondée sur le concept japonais d'amae = Amae no Kôzô.* Trad. par E. Dale Saunders. Paris: le Sycomore: L'Asiathéque, 1982.

Doubrovsky, Serge. *Un Amour de soi: Roman.* [Paris]: Hachette littérature générale, 1982.

Du Marsais, César Chesneau. *Des tropes.* Edition commentée par Fontanier. Paris: Belin, 1818.

———. *[Traité des tropes] les Tropes, etc.* (Avec un commentaire raisonné par M. Fontanier. Réimpression de l'édition de Paris, 1818). Genève: Slatkine, 1967.

Dubillard, Roland. *Si Camille me voyait... Suivi de les crabes; ou, les hôtes chez les hôtes.* [Paris]: Gallimard, [1971]. (Le Manteau d'Arlequin)

Dubuc, Robert. *Manuel pratique de terminologie.* Publié... par [le] Conseil international de la langue française. Montréal: Linguatech; Paris: Conseil international de la langue française, 1980.

Ducrot, Oswald. *Dire et ne pas dire: Principes de sémantique linguistique.* Paris: Hermann, 1972. (Collection savoir)

———. *Les Echelles argumentatives.* Paris: Editions de Minuit, 1980. (Propositions)

———. *La Preuve et le dire: Langage et logique.* Avec la collaboration de M. C. Barbault et J. Depresle. [Paris]: Mame, [1974]. (Repères. Série bleue. Linguistique; 4)

Duras, Marguerite. *Agatha.* Paris: Editions de Minuit, 1981.

———. *L'Amant.* Paris: Editions de Minuit, 1984.

———. *L'Homme assis dans le couloir.* Paris: Editions de Minuit, 1980.

Duvert, Tony. *Le Bon sexe illustré.* Paris: Editions de Minuit, 1974.

———. *Un Anneau d'argent à l'oreille.* Paris: Editions de Minuit, 1982.

Encyclopaedia Universalis. Supplément. Paris: Encyclopaedia Universalis France, 1980.

Ernaux, Annie. *Les Armoires vides.* [Paris]: Gallimard, [1974].

Essais sur le discours soviétique: Sémiologie linguistique, analyse discursive. Grenoble: Université de Grenoble III, 1981.

Everaert-Desmedt, Nicole. *La Communication publicitaire: Etude sémio-pragmatique.* Louvain-la-Neuve: Cabay, 1984. (Questions de communication, ISSN 0771-5013; 12)

Finkielkraut, Alain. *L'Avenir d'une négation: Réflexion sur la question du génocide.* Paris: Editions du Seuil, 1982. (Fiction & Cie; 50)

Flahault, François. *La Parole intermédiaire.* Préf. de Roland Barthes. Paris: Editions du Seuil, 1978. (Psychologie)

Flaubert, Gustave. *Correspondance.* Nouvelle édition augmentée. Paris: [Conard], 1926-1930. 9 vols.

Vol. III.

Fontanier, Pierre. *Les Figures du discours.* [Paris]: Flammarion, [1968].

Francis Bacon: Paris, Galeries nationales du Grand Palais, 26 octobre 1971-10 janvier 1972, Düsseldorf, Kunsthalle, 7 mars-7 mai 1972. Exposition organisée par le Centre national d'art contemporain... en collaboration avec la Kunsthalle de Düsseldorf...; [préface par Michel Leiris]. Paris: Centre national d'art contemporain, 1971.

Freud, Sigmund. *Der witz und seine beziehung zum Unbewussten.* Leipzig und Wien: [n. pb.], 1905.

———. *Le Mot d'esprit et ses rapports avec l'inconscient = Der Witz und seine Beziehung zun Unbewussten.* Traduit de l'allemand par Marie Bonaparte et le Dr M. [Marcel] Nathan. [Paris]: Gallimard, [1971]. (Collection idées)

García Márquez, Gabriel. *Chronique d'une mort annoncée: Roman = Crónica de una muerte anunciada.* Traduit de l'espagnol par Claude Couffon. Paris: B. Grasset, 1981.

García-Pelayo y Gross, Ramón et Jean Testas. *Dictionnaire français-espagnol, espagnol-français.* Avec la collaboration de Micheline Durand, Fernando Garcia-Pelayo y Gross, Jean-Paul Vidal. [Nouv. éd. mise à jour]. Paris: Larousse, 1993. (Saturne)

Gary-Prieur, Marie-Noëlle. *Les Termes clés de la linguistique.* Paris: Editions du Seuil, 1999. (Mémo: Lettres; 123)

Gazal, Suzette. *Opérations linguistiques et problèmes d'énonciation: Coordination et subordination.* Paris: Dunod; Saint-Sulpice-de-Favières (91910): Association Jean-Favard pour le développement de la linguistique

quantitative, 1975. (Documents de linguistique quantitative, ISSN 0085-4786; 22)

Genette, Gérard. *Mimologiques: Voyage en Cratylie*. Paris: Editions du Seuil, 1976. (Collection poétique)

Goffman, Erving. *Façons de parler = Forms of Talk*. Trad. de l'anglais par Alain Kihm. Paris: Editions de Minuit, 1987. (Le Sens commun)

———. *Gender Advertisements*. New York: Harper & Row, 1979. (Harper Colophon Books)

———. *La Mise en scène de la vie quotidienne... 2, Les Relations en public*. Traduit de l'anglais par Alain Kihm. Paris: Editions de Minuit, 1973. (Le Sens commun)

———. *Replies and Responses*. Urbino, Italia: Università di Urbino, 1975. (Working Papers and Prepublications - Centro internazionale di semiotica e di linguistica; ser. C, n. 46-47)

———. *Les Rites d'interaction*. Trad. de l'anglais par Alain Kihm. Paris: Editions de Minuit, 1974. (Le Sens commun)

Goodwin, Charles. *Conversational Organization: Interaction between Speakers and Hearers*. New York: Academic Press, 1981. (Language, Thought, and Culture)

Goody, Esther N. (ed.). *Questions and Politeness: Strategies in Social Interaction*. Cambridge, MA; New York: Cambridge University Press, 1978. (Cambridge Papers in Social Anthropology; 8)

Greimas, Algirdas Julien. *Du Sens: Essais sémiotiques*. Paris: Editions du Seuil, 1970.

Grumberg, Jean-Claude. *L'Atelier*. Paris: Stock, 1979. (Théâtre ouvert)

Guiraud, Pierre. *Dictionnaire historique, stylistique, rhétorique, étymologique, de la littérature érotique*. Précédé d'une introduction sur les structures étymologiques du vocabulaire érotique. Paris: Payot, 1978. (Langages et sociétés. Le langage de la sexualité; t. 1)

Gumperz, John Joseph and Dell Hymes (eds.). *The Ethnography of Communication*. [Washington], DC: American Anthropological Association, 1964. (American Anthropologist, v. 66, no. 6, pt. 2, Special Publication.)

Haddad, E. W. *Dictionnaire des termes techniques et scientifiques: Français-arabe*. 2ème impression. Beyrouth: Librairie du Liban, 2001.

Harrap. *Harrap's Slang: Dictionnaire anglais-français, français-anglais*. [Rédactrice, Anna Stevenson]; [direction éditoriale, Patrick White]. 2ème éd. Edinburgh; [Paris]: Harrap, 2003.

Heller, Michel. *Sous le regard de Moscou: Pologne (1980-1982)*. Traduit du russe par Olga Svintsova et Louis Lauraet. Paris: Calmann-Lévy, 1982.

Hémon, Louis. *Louis Hémon. Maria Chapdelaine: Récit du Canada français*.

Illustrations de Henri Faivre. [Paris]: Hachette, 1951.

Henry, Albert. *Métonymie et métaphore*. Paris: Klincksieck, 1971. (Bibliothèque française et romane. Série A, Manuels et études linguistiques)

Henry, Paul. *Le Mauvais outil: Langue, sujet et discours*. Avec une postface de Oswald Ducrot. Paris: Klincksieck, 1977. (Horizons du langage: Série recherches)

Huston, Nancy. *Dire et interdire: Eléments de jurologie*. Paris: Payot, 1980. (Collection langages et sociétés)

Ipoustéguy, Jean. *Sauve qui peut, Robin: ou le Don hérétique: Essai sur la sophoscatophagie*. Paris: Grasset, 1978.

L'Ironie. [Publié par le] centre de recherches linguistiques et sémiologiques de Lyon; [rédigé par C. Kerbrat-Orecchioni [et al.]]. Lyon: Presses universitaires de Lyon, 1978. (Linguistique et sémiologie; 2)

Jacques, Francis. *Dialogiques: Recherches logiques sur le dialogue*. Paris: Presses universitaires de France, 1979. (Philosophie d'aujourd'hui)

Jayez, Jacques. *L'Inférence en langue naturelle: Le Problème des connecteurs: Représentation et calcul*. Paris: Hermès, 1988.

Kerbrat-Orecchioni, Catherine. *La Connotation*. [Lyon]: Presses universitaires de Lyon, [1977].

———. *L'Enonciation de la subjectivité dans le langage*. Paris: A. Colin, 1980. (Linguistique)

Kundera, Milan. *L'Insoutenable légèreté de l'être: Roman = Nesnesitelnà lehkost byti*. Traduit du tchèque par François Kérel. [Paris]: Gallimard, 1984. (Du Monde entier)

Laborit, Henri. *La Colombe assassinée*. Paris: B. Grasset, 1983.

Labov, William. *Le Parler ordinaire: La Langue dans les ghettos noirs des États-Unis = Language in the Inner City*. Traduit de l'américain par Alain Kihm. Paris: Editions de Minuit, 1978. 2 vols. (Le Sens commun)

Laclos, Choderlos de. *Les Liaisons dangereuses*. Edition de Jean Mistler. Paris: Le Livre de poche, 1972. (Le Livre de poche classique, 354)

Lakoff, George. *Linguistique et logique naturelle = Linguistics and Natural Logic*. Traduit de l'anglais par Judith Milner et Joelle Sampy; présenté par Judith Milner. Paris: Klincksieck, 1976. (Sémiosis; 2)

——— and Mark Johnson. *Metaphors We Live by*. Chicago, IL; London: University of Chicago Press, 1980.

Lakoff, Robin Tolmach. *Language and Woman's Place*. New York: Harper & Row, 1975. (Harper Colophon Books; CN 389)

Lambert, Louis. *Formulaire des officiers de police judiciaire, formation, style, droit*. Paris: Editions Police-revue, 1970.

Le Langage. Volume publié sous la direction d'André Martinet. Paris:

Gallimard, [1968]. (Encyclopédie de la Pléiade; vol. 25)

Langlois, Denis. *Guide du citoyen face à la police*. Paris: Editions du Seuil, 1980. (L'Histoire immédiate)

Language, Mind, and Knowledge. Edited by Keith Gunderson for the Minnesota Center for Philosophy of Science. Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1975. (Minnesota Studies in the Philosophy of Science; v. 7)

Larousse, Pierre. *Dictionnaire de linguistique*. Paris: Larousse, 2001.

———. *Grand dictionnaire universel du XIX^e siècle*. [s. l.: s. n. s. d.].

———. *Le Petit Larousse grand format 1998*. éd. entièrement nouv. Paris: Larousse, 1997.

Lavorel, Pierre Marie. *Eléments pour un calcul du sens*. Paris: Dunod; Saint-Sulpice-de-Favières (91910): Association Jean-Favard pour le développement de la linguistique quantitative, 1975. (Documents de linguistique quantitative, ISSN 0085-4786; 27)

Léon, Pierre R. [et al.]. *Problèmes de l'analyse textuelle = Problems of Textual Analysis*. Montréal; Paris; Bruxelles: Didier, 1971.

Lettau, Reinhard. *Propos de petit déjeuner à Miami (suivi de) Les Ennemis = Frühstücksgespräche in Miami*. Traduit de l'allemand par Julien Hervier Paris: Editions du Seuil, 1981.

Levinson, Stephen C. *Pragmatics*. Cambridge [Cambridgeshire]; New York: Cambridge University Press, 1983. (Cambridge Textbooks in Linguistics)

Lévy, Françoise P. *Karl Marx: Histoire d'un bourgeois allemand*. Paris: B. Grasset, 1976. (Figures)

Linhart, Robert. *L'Etabli*. Paris: Editions de Minuit, 1978. (Documents)

Lyons, John. *Eléments de sémantique = Semantics*. Traduit par Jacques Durand; avec la collaboration d'Éliane Koskas. Paris: Larousse, 1978. (Langue et langage)

Maingueneau, Dominique. *Approche de l'énonciation en linguistique française: Embrayeurs, temps, discours rapporté*. Paris: Hachette, 1981. (Langue, linguistique, communication)

———. *Initiation aux méthodes de l'analyse du discours: Problèmes et perspectives*. Paris: Hachette, 1976. (Langue, linguistique, communication)

Manceaux, Michèle. *Anonymus: Roman*. Paris: Editions du Seuil, 1982.

Manchette, Jean-Patrick. *Le Petit Bleu de la côte ouest*. Paris: Gallimard, [1976]. (Série noire; 1714)

Mannoni, Octave. *Clefs pour l'imaginaire; ou, l'autre scène*. Paris: Editions du Seuil, [1969]. (Le Champ freudien)

Marguerite Duras à Montréal. Textes réunis et présentés par Suzanne Lamy et

André Roy. Montréal, Québec: Editions Spirale, [1981].

Marivaux, Pierre Carlet de Chamblain de. *Le Jeu de l'amour et du hasard*. [s. l.: s. n., s. d.].

Martin, Robert. *Inférence, antonymie et paraphrase: Eléments pour une théorie sémantique*. [Paris]: C. Klincksieck, 1976. (Bibliothèque française et romane. Série A, Manuels et études linguistiques; 39)

Martinet, André. *Éléments de linguistique générale*. Paris: A. Colin, 1960. (Collection Armand Colin; 349)

Maupassant, Guy de. *Boule de suif*. Paris: Grands écrivains, 1984.

Melville, Herman. *Bartleby = Bartleby, The Scrivener*. traduction de Michèle Causse. Paris: «Le Nouveau commerce», 1976.

Metz, Christian. *Le Signifiant imaginaire: Psychanalyse et cinéma*. Paris: Union générale d'éditions, 1977. (10-18; 1134)

Meyer, Michel. *Logique, langage et argumentation*. Paris: Hachette, 1982. (Hachette université. Langue, linguistique, communication)

Moeschler, Jacques. *Dire et contredire: Pragmatique de la négation et acte de réfutation dans la conversation*. Bern; Frankfurt: Peter Lang, 1982. (Sciences pour la communication; vol. 2)

Molinié, Georges. *Dictionnaire de rhétorique*. Paris: Librairie générale française, 1992. (Le Livre de poche)

Morelle, Paul. *Un Nouveau cadavre: Aragon*. Paris: Table ronde, 1984.

Mounin, Georges (dir.). *Dictionnaire de la linguistique*. Paris: Presses universitaires de France, 1995. (Quadrige, ISSN 0291-0489; 153)

———. *Les Problèmes théoriques de la traduction*. Préface de Dominique Aury. [s. l: s. n., s. d.].

Musil, Robert. *L'Homme sans qualités*. [Paris]: Librairie générale française, [s. d.]. (10/18)

Musset, Alfred de. *Théâtre. 1-2*. Chronologie, préfaces et notices par Maurice Rat. Paris: Garnier-Flammarion, 1964. 2 vols.

Vol. 1: *Les Marrons du feu. La Nuit vénitienne. La Coupe et les lèvres. A Quoi rêvent les jeunes filles. André Del Sarto. Les Caprices de Marianne. Fantasio. On ne badine pas avec l'amour. Lorenzaccio.*

Vol. 2: *La Quenouille de Barberine. Le Chandelier. Il ne faut jurer de rien. Un Caprice. Il faut qu'une porte soit ouverte ou fermée. Louison. On ne saurait penser à tout. Carmosine. Bettine. L'Ane et le ruisseau.*

Nencioni, G. [et al.]. *Intorno alla linguistica*. introduzione e cura di Cesare Segre. Milano: G. Feltrinelli, 1983. (SC/10. Readings; 24)

Noordman, Leonard G. M. *Inferring from Language*. With a Foreword by Herbert H. Clark. Berlin; New York: Springer-Verlag, 1979. (Springer Series in Language and Communication; vol. 4)

Olbrechts-Tyteca, Lucie. *Le Comique du discours*. Bruxelles: Editions de l'université de Bruxelles, 1974. (Sociologie générale et philosophie sociale)

Orwell, George. *1984 [Mille neuf cent quatre-vingt-quatre]*. [Paris]: Gallimard, 1983. (Collection mille soleils)

———. *1984 [Nineteen Eighty-Four]*. With a Critical Introduction and Annotations by Bernard Crick. Oxford: Clarendon Press; New York: Oxford University Press, [1984].

Parret, Herman (ed.). *Pretending to Communicate*. Berlin; New York: W. de Gruyter, 1994. (Grundlagen der Kommunikation und Kognition = Foundations of Communication and Cognition)

Pasolini, Pier Paolo. *Ecrits corsaires = Scritti corsari*. Traduit de l'italien par Philippe Guilhon. Paris: Flammarion, 1976.

———. *Scritti* corsari. Milano: Garzanti, 1975. (Memorie documenti)

Paulhan, Jean. *Les Incertitudes du langage*. Entretiens à la Radio avec Robert Mallet. [Paris]: Gallimard, 1970. (Collection idées; no. 226)

Perelman, Chaïm et L. Olbrects-Tyteca. *Traité de l'argumentation: La Nouvelle rhétorique*. 2ème édition. Bruxelles: Editions de l'institut de sociologie, Université libre de Bruxelles, [1970]. (Collection de sociologie générale et de philosophie sociale)

———. ———. 3ème éd. Bruxelles: Ed. de l'université de Bruxelles, 1976. (Collection de sociologie générale et de philosophie sociale)

Le Petit Robert 2: Dictionnaire universel des noms propres alphabétique et analogique... Sous la direction de Paul Robert, rédaction générale, Alain Rey. 5ème éd. revue, corrigée et mise à jour. Paris: S. N. L. - Le Robert, 1981.

Pinget, Robert. *Lettre morte*. Paris: Editions de Minuit, 1959.

Pohl, Jacques. *Symboles et langages*. Paris: Sodi, [1968]. 2 vols. (Style et langage)

Vol 1: *Le Symbole, clef de l'humain*.

Vol. 2: *La Diversité des langages*.

Pottier, Bernard. *Linguistique générale: Théorie et description*. Paris: Klincksieck, 1974. (Initiation à la linguistique: Série B. Problèmes et méthodes; 3)

Proust, Marcel. *Correspondance avec Madame Straus*. Préface par Susy Mante-Proust. Paris: Le Livre de poche, 1974. (Le Livre de poche; 3615)

Quintilian. *Institution oratoire*. Texte établi et traduit par Jean Cousin. Paris: Société d'édition les belles lettres, 1975-1980. (Collection des universités de France)

Reboul, Olivier. *Langage et idéologie*. Paris: Presses universitaires de France, 1980.

Récanati, François. *Les Enoncés performatifs: Contribution à la pragmatique.* Paris: Editions de Minuit, 1981. (Propositions)

———. *Un Gentil stalinien.* Paris: Mazarine, 1980.

———. *La Transparence et l'énonciation: Pour introduire à la pragmatique.* Paris: Editions du Seuil, 1979. (L'Ordre philosophique)

Recherches sur le discours et l'argumentation. Publiées sous la direction de Jean-Blaise Grize. Genève: Librairie Droz, 1974. (Cahiers Vilfredo Pareto. tom. 12. 1974; no. 32)

Rétif de La Bretonne, Nicolas-Edme. *Restif de la Bretonne. Sara, ou l'amour à quarante-cinq ans.* Paris: A. Lemerre, 1929.

Rey, Alain. *La Terminologie: Noms et notions.* 2ème éd. corr. Paris: Presses universitaires de France, 1992. (Que sais-je?; 1780)

Rhétoriques, sémiotiques. [no. spécial de la «revue d'esthétique», 1-2, 1979]. Paris: Union générale d'éditions, 1979. (10-18; 1324)

Ricœur, Paul. *La Métaphore vive.* Paris: Seuil, [1975]. (L'Ordre philosophique)

Le Robert. *Le Petit Robert 1: Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française.* Réd. dir. par A. Rey et J. Rey-Debove. [Nouv. éd. rev. corr. et mise à jour en 1991]. Paris: Dictionnaires Le Robert, 1991.

———. *Le Petit Robert 2: Dictionnaire universel des noms propres, alphabétique et analogique.* Sous la dir. de Paul Robert; réd. dir. par Alain Rey. [Nouv. éd. rev., corr. et mise à jour en 1990]. Paris: Dictionnaires Le Robert, 1990.

Le Robert & Collins Senior: Dictionnaire français-anglais, anglais-français. [Rédaction, Daphne Day... et al.]. 6ème éd. Paris: Dictionnaires le Robert; Glasgow; Scarborough; New York: HarperCollins, 2002.

Robrieux, Jean-Jacques. *Les Figures de style et de rhétorique.* Paris: Dunod, 1998. (Les Topos)

Roulet, Eddy. *Un Niveau-seuil: Présentation et guide d'emploi.* Strasbourg: Conseil de l'Europe, 1977. (Education & culture)

Sade, Marquis de. *Oeuvres complètes du marquis de Sade.* Edition définitive. Paris: Cercle du livre précieux, 1966-67. 16 vols.

Vol. 13.

Sallenave, Danièle. *Les Portes de Gubbio.* Paris: Le Livre de poche, 1982. (Le Livre de poche; 5605)

Schenkein, Jim (ed.). *Studies in the Organization of Conversational Interaction.* New York: Academic Press, 1978. (Language, Thought, and culture)

Searle, John R. *Les Actes de langage: Essai de philosophie du langage = Speech Acts.* [Traduit par Hélène Pauchard]. Paris: Hermann, 1972. (Collection savoir)

———. *Sens et expression: Etudes de théorie des actes de langage = Expression*

and Meaning. Traduction et préface de Joëlle Proust. Paris: Editions de Minuit, 1982. (Le Sens commun)

———. *Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language*. London: Cambridge University Press, 1969.

Sériot, Patrick. *Analyse du discours politique soviétique*. Préf. de Paul Garde. Paris: Institut d'études slaves, 1985. (Cultures et sociétés de l'Est, ISSN 0765-0213; 2)

Sinclair, John McHardy and R. M. Coulthard. *Towards an Analysis of Discourse: The English Used by Teachers and Pupils*. London: Oxford University Press, 1975.

Sollers, Philippe. *Femmes: Roman*. [Paris]: Gallimard, 1983.

Sperber, Dan. *Le Symbolisme en général*. Paris: Hermann, [1974]. (Collection savoir)

——— et Deirdre Wilson. *La Pertinence: Communication et cognition = Relevance: Communication and Cognition*. Trad. de l'anglais par Abel Gerschenfeld et Dan Sperber. Paris: Editions de Minuit, 1989. (Propositions)

Staline, Joseph. *Textes*. Introduction de Francis Cohen; choix des textes et traductions de Françoise Sève. Paris: Editions sociales: [diffusion] Messidor, 1983. 2 vols. (Essentiel, ISSN 0753-7662; 17-18)

Stati, Sorin. *La Sémantique des adjectifs: Essai d'analyse componentielle appliquée aux langues romanes*. Saint-Sulpice de Favières: Editions Jean-Favard, 1979. (Documents de linguistique quantitative, ISSN 0085-4687; 39)

Steinberg, Danny D. and Leon A. Jakobovits (eds.). *Semantics: An Interdisciplinary Reader in Philosophy, Linguistics and Psychology*. Cambridge [Eng.]: University Press, 1971.

Stendhal. *La Chartreuse de Parme*. Introduction et commentaires de Victor Del Litto. Paris: Le Livre de Poche, 1972. (Le Livre de poche classique; 851)

———. *Lucien Leuwen*. Texte établi et annoté par Henry Debray; introduction et notes historiques de Michel Crouzet. Paris: Garnier-Flammarion, 1982. 2 vols. (Garnier-Flammarion; 350-351).

Stevenson, Robert Louis. *Le Maître de Ballantrae, 10/18*. [s. l.: s. n., s. d.].

Strawson, P. F. *Logico-Linguistic Papers*. London: Methuen, 1971.

Sudnow, David (ed.). *Studies in Social Interaction*. New York: Free Press, 1972.

Tardieu, Jean. *Théâtre de chambre*. Nouv. éd. rev. et augm. [Paris]: Gallimard, [1966-].

Tillon, Charles. *Un «Procès de Moscou» à Paris*. Précédé de l'interrogation, par

Raymond Jean. Paris: Editions du Seuil, [1971]. (L'Histoire immédiate)

Todorov, Tzvetan. *La Conquête de l'Amérique: La Question de l'autre*. Paris: Editions du Seuil, 1982.

———. *Littérature et signification*. Paris: Larousse, 1967. (Langue et langage)

———. *Théories du symbole*. Paris: Editions du Seuil, 1977. (Collection poétique)

Tournier, Michel. *Le Roi des Aulnes*. [Paris]: Gallimard, 1975. (Collection folio; 656)

Ubersfeld, Anne. *Lire le théâtre*. Paris: Editions sociales, 1979.

Ulysse, Georges et Odette. *Vacanze a Roma: Première année d'italien*. Paris: Hachette, 1973. (Classiques Hachette)

Verdoux, Christiane [et al.]. *Encyclopédie de la vie sexuelle: De la physiologie à la psychologie*. [Paris]: Hachette, [1973]. 5 vols.

Westlake, Donald E. *V'là aut' chose ! = Jimmy the Kid*. Traduit de l'américain par Patrick Floersheim. [Paris]: Gallimard, 1976. (Collection super noire; 34)

White, Alain R. *The Philosophy of Action*. [Reprinted with correction]. [n. p.]: Oxford: University Press, 1970. (Oxford Readings in Philosophy)

Winkin, Yves. *La Nouvelle Communication*. Paris: Editions du Seuil, 1981.

Wright G. H. von. *Norm and Action: A Logical Enquiry*. London: Routledge and Keagan Paul; New York, Humanities, [1963]. ([International Library of Philosophy and Scientific Method])

Zuber, Ryszard. *Structure présuppositionnelle du langage*. [Publié par l'association Jean Favard pour le développement de la linguistique quantitative]. Saint-Sulpice-de-Favières (Essonne), Association Jean Favard pour le développement de la linguistique quantitative. [Paris]: Diffusion Dunod, 1972. (Documents de linguistique quantitative; no. 17)

Periodicals

A 2: 12 sep. 1976.

Actua Ciné: no. 7, août-sept. 1980.

Adam, Jean-Michel. «Votez Mir Rose, achetez Giscard: Analyses pragmatiques.» *Pratiques*: no. 30, juin 1981.

Almansi, Guido. «L'Affaire mystérieuse de l'abominable tongue-in-cheek.» *Poétique*: no. 36, novembre 1978.

Anscombre, Jean-Claude. «Il était une fois une princesse aussi belle que bonne.» *Semantikos*: vol. 1, no. 1, 1975.

———. «———.» ———: vol. 1, no. 2, 1976.

———. «Marqueurs et hypermarqueurs de dérivations illocutoires: Notion et problèmes.» *Cahiers de linguistique française*: no. 3, 1981.

———. «La Problématique de l'illocutoire dérivé.» *Langage et société*: no. 2, 1977.

———. «Voulez-vous dériver avec moi?.» *Communications*: no. 32, 1980.

——— et Oswald Ducrot. «Lois logiques et lois argumentatives.» *Le Français moderne*: vol. 46, no. 4, 1978.

———. «———.» ———: vol. 47, no. 1, janvier 1979.

Armengaud, François. «L'Impertinence ex-communicative ou comment annuler la parole d'autrui.» *Degrés*: vol. 9, nos. 26-27, printemps-été 1981.

Attal, Pierre. «L'Acte d'assertion.» *Semantikos*: vol. 1, no. 3, 1976.

Baldi, Paolo. «La Structure de l'interaction dans le débat télévisé Giscard/Mitterrand (1974).» *Travaux du centre de recherches sémiologiques de l'université de Neuchâtel*: no. 35, juillet 1979.

Balpe, Jean-Pierre. «Tous les enfants studieux ont les cheveux roux.» *Pratiques*: no. 28, octobre 1980.

Bange, Pierre. «Points de vue sur l'analyse conversationnelle.» *DRLAV*: no. 29, 1983.

Bar-Hillel, Y. «Out of the Pragmatic Waste-Basket.» *Linguistic Inquiry*: no. 2, 1971.

Barthes, Roland. «Ecrivains, intellectuels, professeurs.» *Tel Quel*: no. 47, automne 1971.

———. *Le Nouvel Observateur*: no. 737, 23 déc. 1978.

Bedos, Guy. *A 2*: 12 août 1982.

Berrendonner, Alain. «Note sur la contre-inférence.» *Cahiers de linguistique française*: no. 7, 1986.

———. «Zéro pour la question. Syntaxe et sémantique des interrogations directes.» *Cahiers de linguistique française*: no. 2, 1981.

Berthet, Frédéric. «Eléments de conversation.» *Communications*: no. 30, 1979.

Blum, A. V. [et al.]. «La Rebuffade.» *Communications*: no. 30, 1973.

Blum, Y. et J. Brisson. «Implication et publicité.» *Langue française*: no. 12, 1971.

Borillo, Andrée. «La Négation et l'orientation de la demande de confirmation.» *Langue française*: no. 44, décembre 1979.

———. «Quelques aspects de la question rhétorique en français.» *DRLAV*: no. 25, 1981.

Boucher, Philippe. *Le Monde*: 12 mai 1979.

Bourcier, Danièle. «Information et signification en droit: Expérience d'une explicitation automatique de concepts.» *Langages*: no. 53, mars 1979.

Bousoglou. *Le Monde*: 2 septembre 1977.

Brisset, Claire. *Le Monde*: 17 mars 1978.

Bunjevac, Milan. «La Marque de la théâtralité.» *Degrés*: no. 32, automne 1982.

Cadiot, Anne [et al.]. «Oui mais, non mais ou: Il y a dialogue et dialogue.» *Langue française*: no. 42, mai 1979.

Campiotti, A. *Tribune de Genève*: 7 nov. 1983.

Le Canard enchaîné: 5 déc. 1979.

Charaudeau, Patrick. «Une Théorie des sujets du langage.» *Langage et société*: no. 28, juin 1984.

Charlie-Hebdo: 2 janv. 1978.

Charolles, Michel. «Coherence as a Principle in the Interpretation of Discourse.» *Text*: vol. 3, no. 1, 1983.

———. «En réalité et en fin de compte et la résolution des oppositions.» *Travaux du centre de recherches sémiologiques de l'université de Neuchâtel*: no. 47, 1984.

———. «Les Formes directes et indirectes de l'argumentation.» *Pratiques*: no. 28, 1980.

———. «Grammaire de texte, théorie du discours, narrativité.» *Pratiques*: nos. 11-12, 1976.

———. «Il fallait un président à la France.» *Pratiques*: no. 30, juin 1981.

———. «Introduction au problème de la cohérence des textes.» *Langue française*: no. 38, mai 1978.

———. «L'Ordre de la signification.» *Pratiques*: no. spécial, 1980.

Chevalier, Jean-Claude, Claudine Garcia et Anne Leclaire. «Quelques éléments pour une étude de la concession.» *Pratiques*: no. 28, octobre 1980.

«La Chronique de Roland Barthes.» *Le Nouvel observateur*: no. 741, 22 janv. 1979.

Cojean, Annick. *Le Monde*: 26-27 déc. 1982.

Cornulier, Benoît de. «Signification réflexive et non natural meaning.» *Cahiers de linguistique française*: no. 2, 1981.

Culioli, Antoine. «Sur quelques contradictions en linguistique.» *Communications*: no. 20, 1973.

Cutler, Anne. «On Saying What You Mean without Meaning What You Say.» *Papers from the Regional Meeting, Chicago Linguistic Society*: vol. 10, 1974.

Danjou-Flaux, Nelly. «Au contraire, connecteur adversative.» *Cahiers de linguistique française*: no. 5, 1983.

Davidson, Alice. «Markers of Derived Illocutionary Force and Paradoxes of Speech Act Modifiers.» *Cahiers de linguistique française*: no. 3, 1981.

«Débat: Le Discours historique et le réel: M. de Certeau et Régine Robin.» *Dialectiques*: no. 14, 1976.

Deléchelle, Gérard. «Antériorité, simultanéité, concomitance et causalité en Anglais.» *Tréma*: no. 8, 1983.

Denhière, Guy. «Mémoire sémantique, conceptuelle ou lexicale.» *Langages*: no. 40, 1975.

Descombes, Vincent. «La Révélation de l'abîme.» *Degrés*: vol. 9, nos. 26-27, 1981.

Dillier, Anne-Marie. «Le Conditionnel, marqueur de dérivation illocutoire.» *Semantikos*: vol. 2, no. 1, 1977.

Donaldson, Susan Kay. «One Kind of Speech Act: How Do We Know When We're Conversing?» *Semiotica*: vol. 28, nos. 3-4, 1979.

Droit, Michel. *Le Figaro-magazine*: 1 juin 1979.

Ducrot, Oswald. «Analyses pragmatiques.» *Communications*: no. 32, 1980.

———. *Cahiers de linguistique française*: no. 4, 1982.

———. «La Description sémantique en linguistique.» *Journal de psychologie normale et pathologique*: nos. 1-2, 1973.

———. «L'Expression en français de la notion de condition suffisante.» *Langue française*: no. 12, décembre 1971.

———. «Les Indéfinis et l'énonciation.» *Langages*: no. 17, mars 1970.

———. «Langage, métalangage et performatifs.» *Cahiers de linguistique française*: no. 3, 1981.

———. «Les Lois de discours.» *Langue française*: no. 42, mai 1979.

———. «Opérateurs argumentatifs et visée argumentative.» *Cahiers de linguistique française*: no. 5, 1983.

———. «Structuralisme, énonciation et sémantique.» *Poétique*: no. 33, 1978.

Ebel, Marianne. «L'Explication comme fait de discourse.» *Travaux du centre de recherches sémiologiques de l'université de Neuchâtel*: vol. 36, 1980.

L'Express: no. 1425, 4 nov. 1978.

Fauconnier, Gilles. «Le Pouvoir des mots.» *Actes de la recherche en sciences sociales*: no. 25, jan. 1979.

Fillmore, Charles. «Les Règles d'inférence dans une théorie sémantique.» *Cahiers de lexicologie*: no. 19, 1971-II.

Finkielkraut, Alain. «Sur la formule «je t'aime».» *Critique*: no. 348, mai 1976.

«La Finlande se rejoue la guerre des mondes.» *Libération*: 13 déc. 1985.

Flahault, François. «Le Fonctionnement de la parole: Remarques à partir des maximes de Grice.» *Communications*: no. 30, 1979.

Galard, Hector de. *Le Nouvel observateur*: no. 713, 10 juill. 1978.

Gavi, Philippe. *Libération*: 28 avril 1983.

Godel, Robert. «La Question des signes zéro.» *Cahiers Ferdinand de Saussure*: no. 11, 1953.

Goffman, Erving. «Felicity's Condition.» *American Journal of Sociology*: no. 89, Jul. 1983.

Gordon, David et George Lakoff. «Postulats de conversation.» *Langages*: no. 30, juin 1973.

Grésillon, Almuth. «Peut-on encore présupposer?» *DRLAV*: no. 21, 1979.

Grice, Herbert Paul. «Logique et conversation.» *Communications*: no. 30, 1979.

———. «Meaning.» *The Philosophical Review*: vol. 66, no. 3, Jul. 1957.

———. «Utterer's Meaning and Intention.» *The Philosophical Review*: vol. 78, no. 2, 1969.

Groupe -1. «Car, parce que, puisque.» *Revue Romane*: vol. 10, no. 2, 1975.

Grunig, Blanche-Noëlle. «Pièges et illusions de la pragmatique linguistique.» *Modèles linguistiques*: tome 1, fascicule 2, 1979.

———. «Plusieurs pragmatiques.» *DRLAV*: no. 25, 1981.

Guarino, Raimondo. «Le Théâtre du sens: Quelques remarques sur «fiction» et «perception» in Actes du colloque AISS-IASPA Sémiologie du spectacle III: Réception.» *Degrés*: vol. 10, no. 31, 1982.

Guetta, Bernard. *Le Monde*: 30 sep. 1982.

Gumbrecht, Hans Ulrich. «Persuader ceux qui pensent comme vous: Les Fonctions du discours épidéictique sur la mort de Marat.» *Poétique*: no. 39, 1979.

Hassoun, J.-P. *Le Monde dimanche*: 23 mars 1980.

Heddesheimer, Christian. «Notes sur l'expression verbale de l'assentiment et de la confirmation en anglais.» *Mélanges pédagogiques du CRAPEL, Univ. de Nancy II*: 1974.

Henry, André. *Lui*: no. 2044, mai 1981.

Heringer, James. «Some Grammatical Correlates of Felicity Conditions and Presuppositions.» *Working Papers in Linguistics*: no. 11, 1972.

L'Humanité: 4 janv. 1986.

Huntley, Martin. «Presupposition and Implicature.» *Semantikos*: vol. 1, no. 2, 1976.

Iser, Wolfgang. «La Fiction en effet: Eléments pour un modèle historico-fictionnel des textes littéraires.» *Poétique*: no. 39, 1979.

Jayez, Jacques. «How to Do Games with Words.» *Sigma*: no. 6, 1981.

Jazz Hot: Feb. 1952.

Juin, Hubert. *La Quinzaine littéraire*: no. 288, 16-31 oct. 1978.

Keenan, Edward L. «Sur l'évaluation des théories sémantiques des langues naturelles.» *Cahiers de lexicologie*: no. 29, 1976.

Kerbrat-Orecchioni, Catherine. «Argumentation et mauvaise foi.» *Linguistique et sémiologie*: no. 10, 1981.

———. «Comprendre l'implicite.» *Documents de travail et prépublications. Centro Internazionale di Semiotica e di Linguistica. Universita di Urbino*: nos. 110-111, 1982.

———. «De l'antonymie à l'argumentation: La Contradiction.» *Pratiques*: no. 43, oct. 1984.

———. «Des usages comiques de l'analogie. Comparaison et métaphore: Fonctionnement sémantique et pragmatique.» *Folia linguistica*: vol. 15, nos. 1-2, 1981.

———. «L'Ironie comme trope.» *Poétique*: no. 41, 1980.

———. «Pour une approche pragmatique du dialogue théâtral.» *Pratiques*: no. 41, 1984.

———. «Problèmes de l'ironie.» *Linguistique et sémiologie*: no. 2, 1976.

———. «Le Texte littéraire: Non-référence, auto-référence, ou référence fictionnelle?» *Texte*: no. 1, 1982.

Kleiber, Georges. «Adjectifs antonymiques: Comparaison implicite et comparaison explicite.» *Travaux de linguistique et de littérature*: vol. 14, no. 1, 1976.

Lacotte, Michel. *Le Nouvel observateur*: no. 721 (4 sep 1978).

Lambert, Edith. «La «Nouvelle communication». Lignes de force.» *DRLAV*: no. 29, 1983.

«Langage et ex-communication.» *Degrés*: nos. 26-27, printemps-été 1981.

Lapouge, Giles. *Qunizaine littéraire*: no. 262, 1 sep. 1962.

Le Guern, Michel. «L'Ellipse dans la rhétorique française de 1675 à 1765.» *Histoire, épistémologie, langage*: vol. 5, no. 1, 1983.

Le Ny, Jean-François. «Sémantique et psychologie.» *Langages*: no. 40, 1975.

Lecerf, Yves. «Des sous-univers du discours qui seraient dégagés à la fois du sens et de la forme. Application en syntaxe.» *Langages*: no. 55, sep. 1979.

Leclaire, Anne. ««La Cantatrice chauve»: Scène d'exposition et presupposition.» *Pratiques*: no. 24, août 1979.

Lefort, Gérard. *Libération*: 1 fév. 1982.

Lévi-Strauss, Claude. *Lire*: no. 93, mai 1983.

Libération: 29 août 1978.

———: 31 juillet 1981.

Lifar, Serge. *Les Saisons de danse*: no. 162, 10 mars 1984.

Lindekens, René. «Sémiotique du discours publicitaire.» *Documents de travail et prépublications. Centro Internazionale di Semiotica e di Linguistica. Universita di Urbino*: no. 45, 1975.

Lire: no. 92, avril 1983.

Lyon-Poche: no. 583, 11 mai 1983.

Mackaay, Ejan. «Les Notions floues en droit ou l'économie de l'imprécision.» *Langages*: no. 53, mai 1979.

Mannoni, Octave. «Je sais bien... mais quand même. La Croyance.» *Les Temps modernes*: no. 212, 1964.

Milner, Judith. «Eléments pour une théorie de l'interrogation.» *Communications*: no. 20, 1973.

———. «Langage et langue - ou: «De quoi rient les locuteurs?».» *Change*: no. 29, 1976.

———. ———. ———. nos. 32-33, 1977.

Moeschler, Jacques. «Approche d'un acte de discours: La Réfutation dans le débat télévisé Giscard-Mitterrand (1974).» *Travaux du centre de recherches sémiologiques de l'université de Neuchâtel*: no. 35, juillet 1979.

———. «Discours polémique, réfutation et résolution des séquences conversationnelles.» *Etudes de linguistique appliquée*: no. 44, 1981.

———. «La Réfutation parmi les fonctions interactives marquant l'accord et le disaccord.» *Cahiers de linguistique française*: no. 1, 1980.

——— et Nina de Spengler. «Quand même: De la concession à la refutation.» *Cahiers* de linguistique française: no. 2, 1981.

———, ——— et Anna Zénone. *Cahiers de linguistique française*: no. 4, 1982.

Le Monde: 1 sep. 1972.

———: 25 mars 1979.

———: 20 juin 1979.

———: 15 sept. 1980.

Moreau, Jeanne. *Antenne 2*: 7 sep. 1982.

Morin, Violette. «L'Histoire drôle.» *Communications*: no. 8, 1966.

Muller, Marie. *Le Nouvel observateur*: 10 nov. 1980.

Muscles and Fitness: mars 1982.

Nef, Frédéric. «Note pour une pragmatique textuelle.» *Communications*: no. 32, 1980.

———. «Les Verbes aspectuels du français: Remarques sémantiques et esquisse d'un traitement formel.» *Semantikos*: vol. 4, no. 1, 1980.

Nølke, Henning. «La Présupposition: Essai d'un traitement formel.» *Semantikos*: vol. 4, 1980.

«Une Nouvelle lecture de Staline. Un Tabou exorcisé.» *Le Monde*: 20-21 mars 1983.

Le Nouvel observateur: 17 déc. 1973.

Parisi, Domenico and Cristiano Castelfranchi. «The Discourse as a Hierarchy

of Goals.» *Documents de travail et prépublications. Centro Internazionale di Semiotica e di Linguistica. Universita di Urbino*: nos. 54-55, 1976.

Parret, Herman. «Ce qu'il faut croire et désirer, pour poser une question.» *Langue française*: no. 42, 1979.

———. «Eléments d'une analyse philosophique de la manipulation et du mensonge.» *Documents de travail et prépublications. Centro Internazionale di Semiotica e di Linguistica. Universita di Urbino*: no. 70, 1978.

———. «La Pragmatique des modalités.» *Documents de Travail et prépublications. Centro Internazionale di Semiotica e di Linguistica. Universita di Urbino*: no. 49, 1975.

Pavel, Thomas G. «Ontological Issues in Poetics: Speech Acts and Fictional Worlds.» *Journal of Aesthetics and Art Criticism*: vol. 40, no. 2, Winter 1981.

Perec, Georges. «La Vie mode d'emploi.» *Le Monde*: 29 sep. 1978.

Perret, Delphine. «Termes d'adresse et injures.» *Cahiers de lexicologie*: vol. 12, 1968.

Petitjean, André. «Conserver au théâtre.» *Pratiques*: no. 42, 1984.

———. «Les Histoires drôles: «Je n'aime pas les raconter parce que».» *Pratiques*: no. 30, juin 1981.

Pommier, René. «Phallus farfelus.» Raison présente: no. 31, 1974.

Posner, Roland. «L'Analyse pragmatique des énoncés dialogués.» *Documents de travail et prépublications. Centro Internazionale di Semiotica e di Linguistica. Universita di Urbino*: no. 113, 1982.

«Les Produits «sans».» *Le Monde dimanche*: 9 janv. 1983.

Le Progrès Spectacles: 9 avril 1980.

«Qui est derrière les Brigades rouges?.» *L'Humanité*: 24 avril 1978.

Quid? Police: 1 nov. 1980.

La Quinzaine littéraire: no. 297, 1 mars 1979.

Rastier, François. «Objet et moyens de l'interprétation.» *Documents de travail et prépublications. Centro Internazionale di Semiotica e di Linguistica. Universita di Urbino*: nos. 143-144, 1985.

Récanati, François. «Le Développement de la pragmatique.» *Langue française*: no. 42, 1979.

———. «Insinuation et sous-entendu.» *Communications*: no. 30, mai 1979.

———. «Le Potentiel illocutionnaire des phrases déclaratives.» *Cahiers de linguistique française*: no. 2, 1981.

«Régis contre Debray.» *Les Nouvelles littéraires*: oct. 1981.

La Reppublica: no. 153, 27 juillet 1982.

Revzine Olga et Isaak Revzine. «Expérimentation sémiotique chez Eugène

Ionesco.» *Semiotica*: vol. IV, no. 3, 1997.

Ribaud, André. *Le Canard enchaîné*: 5 déc. 1979.

Richard, Claude. «Le Graal du référent.» *Fabula*: no. 2, 1983.

Rivara, René. «Mais, le but anglais et les subordonnées de concession.» *Sigma*: no. 6, 1981.

Roggero, Jacques. «La Méthode du discours ou le fantôme de la philologie.» *Explorations linguistiques et stylistiques*: travaux XXII, 1978.

Roos, J. P. *Hebdo-Lyon*: no. 827, mai 1981.

Roubine, Jean-Jacques. «La Stratégie des larmes au XVIIe siècle.» *Littérature*: no. 9, février 1973.

Roulet, Eddy. «Echanges, interventions et actes de langage dans la structure de la conversation.» *Etudes de linguistique appliquée*: no. 44, 1981.

———. «Essai de classement syntaxique et sémantique des verbes potentiellement performatifs en français.» *Cahiers de linguistique*: no. 8, 1978.

———. «Modalité et illocution: Pouvoir et devoir dans les actes de permission et de requête.» *Communications*: no. 32, 1980.

———. «Stratégies d'interaction, modes d'implicitation et marqueurs illocutoires.» *Cahiers de linguistique française*: no. 1, 1980.

Rousset, Jean. *Leurs yeux se rencontrèrent: La Scène de première vue dans le roman*. Paris: Librairie José Corti, 1981.

Rovan, Joseph. «Des Français contre les immigrés.» *L'Histoire*: no. 57, juin 1983.

Sacks, Harvey. «Tout le monde doit mentir.» *Communications*: no. 20, 1973.

Sag, Ivan A. and Mark Liberman. «The Intonational Disambiguation of Indirect Speech Acts.» *Papers from the Regional Meeting, Chicago Linguistic Society*: no. 11, 1975.

Sarraute, Claude. *Le Monde*: 30 sep. 1982.

Saura, Carlos. *La Quinzaine littéraire*: no. 282, juill. 1978.

Searle, John R. «Le Sens littéral.» *Langue française*: no. 42, mai 1979.

Seguret, Olivier. *Libération*: 22 déc. 1982.

Sinacoeur, Hourya. «Logique et mathématique du flou.» *Critique*: no. 372, mai 1978.

Spengler, Nina de. «Première approche des marqueurs d'interactivité.» *Cahiers de linguistique française*: no. 1, 1980.

Sperber, Dan. «Rudiments de rhétorique cognitive.» *Poétique*: no. 23, 1975.

——— et Deirde Wilson. «Les Ironies comme mentions.» *Poétique*: no. 36, 1978.

Texier, Catherine. «Petit Sésame des argots ethniques.» *Autrement*: no. 39, avril 1982.

Todorov Tzvetan. «Les Registres de la parole.» *Journal de psychologie normale et pathologique*: vol. 64, 1967.

Vidal, Guy. *La Quinzaine littéraire*: no. 308, sep. 1979.

Villeneuve, Jeanne. «Deux matheux parient sur les chaises.» *Libération*: 15 janvier 1983.

Vossius, Gerardus Joannes. «Rhétorique de l'ironie.» *Poétique*: no. 36, nov. 1978.

Warning, Rainer. «Pour une pragmatique du discours fictionnel.» *Poétique*: no. 39, 1979.

Welke, Dieter. «Séquentialité et succès des actes de langage.» *DRLAV*: nos. 22-23, 1980.

Wilson, Deirdre et Dan Sperber. «Remarques sur l'interprétation des énoncés selon Paul Grice.» *Communications*: no. 30, 1979.

Wunderlich, Dieter. «Pragmatique, situation d'énonciation et deixis.» *Langages*: no. 26, 1972.

———. «Les Présupposés en linguistique.» *Linguistique et sémiologie*: no. 5, 1978.

Zénone, Anna. «La Consécution sans contradiction: Donc, par conséquent, alors, ainsi, aussi (I); Concession et consécution dans le discours.» *Cahiers de linguistique française*: no. 4, 1982.

———. «Marqueurs de consécution: Le Cas de DONC.» *Cahiers de linguistique française*: no. 2, 1981.

Zuber, Ryszard. «Mood Markers and Explicit Performatives.» *Cahiers de linguistique française*: no. 3, 1981.

———. «Statut sémantique des actes indirects.» *Communications*: no. 32, 1980.

Conferences

IIIe Colloque de linguistique russe. Organisé par le département d'études slaves de l'université de Provence et l'institut national d'études slaves; sous la responsabilité de Paul Garde, Aix-en-Provence, 15, 16 & 17 mai 1981. Paris: Institut d'études slaves, 1983. (Bibliothèque russe de l'institut d'études slaves, 0078-9976: t. 65)

Actes: XVIe Congrés internacional de lingüística e filologia romàniques, Palma de Mallorca, 7-12 d'abril de 1980. Palma de Mallorca: Moll; Càtedra Ramon Llull, 1982.

[Bucharest, 1967]. *Actes du Xe congrès international des linguistes*, etc. (A. Graur-rédacteur en chef.). Bucarest: Editions de l'académie de la république socialiste de Roumanie, 1969, 70. 4 tom.

Pouvoir et dire: Actes du colloque d'Albi langages et signification, CALS, 5-10 juillet 1982, Ecole normale d'Albi. [Organisé par l'] université de Toulouse-Le Mirail, centre pluridisciplinaire de sémio-linguistique textuelle; école

des hautes études en sciences sociales, association pour le développement de la sémiotique; responsable Georges Maurand. [s. l.: s. n.], 1982.

Recherches sur les systèmes signifiants: Symposium de Varsovie 1968. Présent par J. [Josette] Rey-Debove; assistée de K. Fenton. The Hague; Paris: Mouton, 1973. (Approaches to semiotics; 18)

Sémantique et logique: [Symposiums de sémantique, Urbino, 1971 et 1972]: Etudes sémantiques. Recueillies et présentées par Bernard Pottier. Paris: J.-P. Delarge, [1976]. (Univers sémiotiques)

Stratégies discursives: Actes du colloque du centre de recherches linguistiques et sémiologiques de Lyon, 20-22 mai 1977. Lyon: Presses universitaires de Lyon, 1978.

Thesis

Lavorel, Pierre Marie. «Pour un calcul du sens, essai de formalisation de théories sémantiques». (Thèse de 3e cycle, Univ. Lyon II, 1973)

Documents

Charolles, Michel. «La Natation: Propos et usages de pensée que l'on rencontre couramment sur ce sujet.» 1980. Texte ronéoté.

Clark, Herbert H. et Peter Lucy. «Understanding What the Speaker Intended the Listener to Understand: A Study in Conversationally Conveyed Requests.» (Standford univ., 1973). Papier ronéoté.

Fillmore, Charles. «May We Come In?.» (Berkeley Univ., 1973). Papier ronéoté.

الفهرس

ـ ب ـ

ـ ت ـ

- ج -

ـ ش ـ

ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

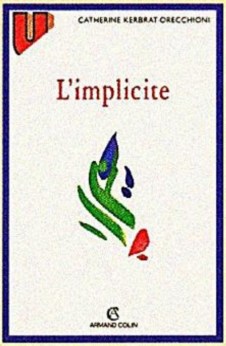
ـ ل ـ

- م -



المنظمة العربية للترجمة
منظمة دولية غير حكومية مقرها لبنان
مرسوم رقم 2803 لعام 2000
صور المعرفة
مقدمة لفلسفة العلم المعاصرة
في الثورة
اختلاق الميثولوجيا
خمسون مفكراً أساسياً معاصراً
من البنيوية إلى ما بعد الحداثة
حرب اللغات والسياسات اللغوية
حديث الطريقة
أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا الترنسندنتالية
تطوّر صورة الشرق في الأدب الإنجليزي
المرئي واللامرئي
الكذبة الرومنسية والحقيقة الروائية
المصطنع والاصطناع
أمريكا بين الحق والباطل
تشريح القومية الأمريكية
عصر رأس المال
(1848-1875)
الشرق في الغرب

المُضمَر



- أصول المعرفة العلمية
- ثقافة علمية معاصرة
- فلسفة
- علوم إنسانية واجتماعية
- تقنيات وعلوم تطبيقية
- آداب وفنون
- لسانيات ومعاجم

لمَ لا نقول دائماً ما نقصده بشكلٍ مباشرٍ، كان ذلك ليكون أسهل على الجميع؟ وبتلازم، لمَ نسعى، تحت طائلة تكبُّد فائضٍ من «العمل التأويليّ»، إلى كشف النقاب عن المعاني المُستترة وراء السّطور في أقوال الآخرين فضلاً عن المُضمَنات والأفكار المُبيّتة والتي تُشكّل، إنْ جاز التعبير، الأجزاء المغمورة من هذه الأقوال؟

يُحاول هذا الكتاب الإجابة عن هذه الأسئلة وإلقاء بعض الضوء على هذا المستنقع المصطلحيّ المؤلَّف من «افتراضاتٍ» و«مُضمَناتٍ» و«علاقاتٍ تضمينيّةٍ» و«استدلالاتٍ» و«إلماحاتٍ» و«تلميحاتٍ»، وغيرها من المحسّنات البيانيّة.

كما يُعالج أيضاً موضوع «**المُضمَر**» ونشأته وما ينتجُ عنه، أي كيف يُبصر النور، وأيّ منحى ينتهجه، فضلاً عن دراسة تكوُّنه ومفاعيله التداوليّة التواصليّة، وكيف يعمد المتكلّمون إلى استخراج المحتويات المُضمرة من القول وكيفيّة ارتداد هذه الأخيرة على المتكلّمين أنفسهم.

وبهذه الصفة، لا يتوجّه الكتاب إلى الاختصاصيّين في مجال الألسنيّة وحسب، بل إلى كلّ مَن يهتمّ بواقع أنَّ للخطابات فعلها المؤثّر (سواء أكانت هذه الخطابات أدبيّةً أم «عاديّةً»، سياسيّةً أم إعلانيّةً)، وأنّها تعملُ بجزئها الأكبر، خفيةً ولكن بشكلٍ فعّالٍ، بفضل «المحتويات عابرة السبيل المُستتِرة»، ونعني بها المحتويات المُضمرة، في الخطاب الكلاميّ.

- **كاترين كيربرات - أوريكيوني**: أستاذة في فرع علوم الكلام في جامعة لوميير - ليون الثانية (Lumière-Lyon II)، تترأس فريق CNRS، وهو «مجموعة عمل تُعنى بالأبحاث حول التفاعلات التواصلية». لها مجموعة من الكتب حول علم الدلالة والتداولية التواصلية. منها: *La Connotation* (1985), *Les Interactions verbales* (1998), et *L'Enonciation* (2002).

- **ريتا خاطر**: كاتبة ومترجمة لبنانية.

المنظمة العربية للترجمة

ISBN 978-9953-0-1293-3
9 789953 012933

الثمن: 24 دولاراً
أو ما يعادلها